



المجمع
الثامن

تراث الإيسانية



بعثة (المتحدة) للكشف العلمى للمحيطات و للسير و قبل طومسون

بمقام
الدكتور أنور عبد العليم

أستاذ ورئيس قسم علوم البحار بكلية العلوم بجامعة الاسكندرية

مقدمة

الاستوائية الخانقة بشجاعة ، ولم تكن الأجهزة والآلات التى فى متناول أيديهم متقدمة بالقدر الذى نعرفه الآن . وعلى الرغم من كل هذا فإن النتائج التى حصلت عليها البعثة ظلت ثابتة لا تنزعزع حتى اليوم ، إلا فى أحوال يسيرة . ومبلغ العظمة فى هذه البعثة أيضاً أنها أخذت على عاتقها مهمة المبادأة والتحرك السريع للكشف عن أعماق المحيطات فى وقت كانت فيه دول أخرى من شمال أوروبا تفكر فى هذا العمل ، فاستأثرت وحدها بالفخر كله .

لقد أبحرت السفينة « المتحدة » من ميناء سوهامبتون الإنجليزى فى السابع من شهر ديسمبر سنة ١٨٧٢ وعادت أدرجها فى ٢٤ مايو سنة ١٨٧٦ ، ثم صدرت مجلداتها الخمسون التى أشرنا إليها فى الفترة فيما بين عامى ١٨٨٠ - ١٨٩٥ حاوية لنتائج فحص العينات التى جمعتها البعثة ووزعت للدراسة على عدد كبير من العلماء المتخصصين كل فى فرع تخصصه ، وروعى فى اختيارهم أن يكونوا من ألمع علماء العصر وأقدرهم بصرف النظر عن جنسياتهم ، ومن ثم فقد ساهم فى كتابة هذه المجلدات علماء ينتمون لجنسيات مختلفة بالإضافة إلى العلماء البريطانيين ، إلا أن مهمة الإشراف

قلما تخلو مكتبة من مكتبات الجامعات الكبرى أو معهد من معاهد علوم البحار المعروفة اليوم من نحو خمسين مجلداً ضخماً تضم بين دفتيها ثلاثين ألفاً من الصفحات كتبها ٧٦ عالماً وسجلت فيها بدقة وأمانة نتائج أول بعثة علمية منظمة خرجت تجوب المحيطات العظمى لمدة ثلاث سنوات ونصف السنة ، قطعت خلالها قرابة ٦٩,٠٠٠ ميل بحرى لتدرس أعماق المحيطات والخواص الطبيعية والكميائية لمياهها ، وأحياءها الغربية التى تعيش بين نور السطح وظلمات أعماق السحيقة ، إلى جانب تركيب قيعان المحيطات وما عليها من جبال وهضاب وأخوار وأخاديد . تلك هى بعثة السفينة « تشالنجر » Challenger Expedition أو « المتحدة » التى ضرب ملاحوها وعلماؤها المثل الأعلى فى الشجاعة والبطولة والمثابرة والإيثار ليحققوا للعلم نصراً مؤكداً . هذه الحفنة من الرجال عملت أغلب الوقت تحت أسوأ الظروف المعروفة فى البحر التى قد تتعرض لها سفينة تسير بالشرع كسفينتهم ، وتحملوا زمهرير البرد فى المناطق القطبية وحجارة القليظ فى الأجواء

على إصدار هذه المجلدات وتنسيقها قد وكلت على التوالى إلى عالين بريطانيين من أعضاء البعثة هما السير ويفيل طومسن C. Wyville Thompson (١٨٨٠ - ١٨٨٢) ثم السير جون مري John Murray (١٨٨٣ - ١٨٩٥) .

ولما كانت الطبعة الأولى لمجلدات هذه البعثة قد نفذت منذ زمن طويل ، فقد فكر الإنجليز مؤخراً في إعادة طبعها مرة أخرى ، وبدأ هذا العمل منذ سنتين : هذه المجلدات الخمسون لم تكتب في الواقع إلا للعلماء المتخصصين ، وفيها وصف دقيق للمحطات الهيدروجرافية وهي مليئة بالأرقام والقراءات والرسوم البيانية والمنحنيات والجداول ، وبها تسجيلات لخواص المياه الطبيعية والكماوية ، ووصف علمي مصور لأنواع الفريدة الجديدة للعلم من عالمي النبات والحيوان ومشاهدات عن مميزاتا وتشريحها وبيئتها ، وذلك إلى جانب دراسات عميقة لجزر المحيطات والجزر ولتيارات والمد والجزر وللرواسب البحرية التي تكسو قاع المحيط وتوزيعها وأنواعها . الخ .

وإلى جانب ما تقدم ذكره فقد أصدر السير ويفيل طومسن مجلدين إضافيين عقب عودة البعثة بزمن قصير (عام ١٨٧٧) دون فيهما ملخصاً ميسراً للبعثة ونتائجها العامة اعتمد فيه إلى حد كبير على يومياته التي كان يسجلها أولاً بأول ، وهو ما نعرضه في هذا المقال : وقبل أن نفعل ذلك نرى لزماً علينا أن نستعرض في لمحات سريعة تاريخ الكشوف الاقياوسية قبل بعثة المتحدة (تشالنجر) حتى يتيسر لنا إدراك الأثر الذي تركته هذه البعثة في علوم البحار .

الكشوف الاقياوسية قبل بعثة المتحدة

إن أغلب الكشوف الاقياوسية التي تمت قبل بعثة «تشالنجر» كانت تهدف في الواقع إلى البحث عن طرق جديدة للملاحة والتجارة أو إلى اكتشاف أراض جديدة

لم تكن معروفة من قبل . وإذا رجعنا إلى الماضي البعيد لوجدنا في حضارة المصريين والفينيقيين القدماء كل المقومات التي تجعل منهم ملاحين مهرة لا يرهبهم ركوب البحر أو التوغل فيه . ولربما كان هؤلاء الناس أول من بنى سفناً كبيرة تستطيع التوغل في البحر ، كما أعانهم علم الفلك الذي نبغوا فيه على الاهتداء بالنجوم في السير في البحر . ويحدثنا التاريخ عن قناة ملاحية شقها المصريون القدماء في عهد الملك سينوستريس كانت تصل البحر الأحمر بالنيل ، كما يحدثنا أيضاً عن أبناء البعثة التي أرسلت في عهد الملكة حتشبسوت إلى جنوب البحر الأحمر وبلاد «بنت» ثم عادت محملة بأشجار الطيب والأفاويه والعاج وريش النعام ودونت أخبارها على جدران المعابد ، هذا إلى جانب أخبار بعثة بحرية أخرى عرفت باسم بعثة «نخاو ابن بسمتيك» أحد ملوك الأسرة السادسة والعشرين وقد دارت هذه البعثة حول سواحل إفريقيا وعادت من الغرب عن طريق جبل طارق .

أما اليونان القدامى فقد توغلوا هم الآخرون بسفنهم في البحر الأبيض المتوسط شرقاً وغرباً ودون هوميروس في الياذته الكثير من هذه المغامرات كما أشرفوا على المحيط الأطلسي الذي راعتهم أمواجه فأطلقوا عليه اسم بحر الظلمات وحسبوه جزءاً من الاقياوس العظيم المحيط لإحاطة دائرية بالأرض ، ولم تجرؤ مراكبهم على السير فيه ، باستثناء ملاح منهم يدعى «بيثياس» في القرن الرابع قبل الميلاد يقال إنه توغل شمالاً في المحيط الأطلسي حتى بلغ سواحل الترويج .

وفي عهد اليونان القدامى ظهرت الجغرافيا الرياضية والفلكية وطغت شخصية بطليموس بمصنفاته الفلكية الجغرافية على ما سواها وامتد أثرها طويلاً في العصور الوسطى : كما تقدم الهنود والفرس القدماء في تلك العلوم أيضاً .

الملاح البرتغالي قد عدد في عام ١٤٩٧ من السفن العربية إلى الشمال من موزمبيق نحو ١٥٠٠ سفينة . وعنها يقول « ويحمل الربابنة (العرب) بوصلات لتوجيه السفن وآلات للرصد وخارطات بحرية » .

ومن قبل ابن ماجد بزمن طويل أيضاً تحدثنا المخطوطات عن رحلة «التاجر سليمان» (٨٥١ م) الذي عاش في القرن الثالث الهجري وفيها وصف ممتع للمناطق بين سيراف وكانتون وللظواهر الجوية كالزوابع والأنواء الحلزونية المعروفة في بحر الصين والفلبين ولغريب حيوانات البحر ووحوشه بما فيها الحيتان . ومن القرن التاسع الميلادي تأتينا من ناحية أخرى أنباء مغامرات الملاحين الترويج المعروفين بقبائل الفيكنج ومحاولتهم الوصول إلى جرنيلاندة وأمريكا وقد تحدثنا عنهم بما فيه الكفاية في مقال نانسن والأصقاع الشمالية الذي نشر من قبل في «تراث الإنسانية»^(١) .

وما إن دالت دولة العرب في الأندلس في أواخر القرن الخامس عشر حتى رجحت كفة البرتغال في السيادة البحرية في الغرب وإن كان العرب لا يزالون حتى ذلك الوقت مسيطرين على زمام الأمور في المشرق . فكتشف كولمبس جزر الهند الغربية في عام ١٤٩٢ ودار ماجلان حول الأرض بين أعوام ١٥١٩ - ١٥٢٢ م ومما يوثق عن هذا الملاح الأخير أنه اعتقد بأن أعمق بقعة في المحيطات تبلغ ٧٠٠ متر ، وتقع بين جزيرتي سان بول وتينوروس في المحيط الهادي وتبين فيما بعد أن العقق الحقيقي لهذا الغور يزيد عشرة أضعاف عن ذلك ولكن محاولة ماجلان كانت الأولى من نوعها على أية حال .

ثم إن علم الخرائط كان متقدماً في إيطاليا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي ثم انتقلت هذه الشهرة إلى إسبانيا في القرن السادس عشر وأصبحت

(١) العدد ٤ مجلد ٣ لسنة ١٩٦٥ .

ثم جاء العرب وامتدت دولتهم من المحيط إلى الخليج وازدهرت العلوم على أيامهم وكانوا قد هضموا علوم الهند وفارس واليونان وزادوا عليها ، ونبغوا في علوم الرياضيات والفلك وفي تأليف الأزياج الكبرى ، واشتهر منهم من علماء القرنين التاسع والعاشر الميلادي الخوارزمي وكان أول من عرف العرب والغرب بمنهج الحساب الهندي ثم الكندي وله رسالة «في البحار والمد والجزر» والبتاني وابن يونس وغيرهم وغيرهم . كما أدخل العرب تعديلات هامة على «الاسطرلاب» وعرفوا «بيت الابرة» وهما من أهم أدوات الملاحة ، وبفضل هذا التقدم تجاوزت معرفة العرب لحدود العالم الذي عرفه اليونان من قبل وتوغلوا في البر والبحر أكثر مما توغلت الأمم التي سبقتهم ، فعرفوا سواحل آسيا حتى كوريا الشمالية والمحيط الهندي بأسره وأرخبيل الملايو ، ويقال إنهم داروا حول إفريقيا من الشرق إلى الغرب .

وصنف منهم في الجغرافيا الطبيعية والوصفية والفلكية الكثيرون من أمثال ابن خرداذبة واليعقوبي والمسعودي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي والبيروني والقزويني والإدرسي وابن بطوطة وغيرهم وغيرهم ممن أثروا الفكر الأوربي فيما بعد لقرون طويلة . كما نبغ من الملاحين العرب ربابنة مهرة من أمثال أحمد بن ماجد النجدي (القرن التاسع وأوائل العاشر الهجري) وهو الذي أرشد أسطول فاسكودي جاما من ساحل إفريقيا الشرقية إلى الهند ومولفاته وأرجيزه في علوم البحار والجغرافيا الملاحية مثل «حاوية الاختصار في أصول علم البحار» و«كتاب الفوائد» تعد بمثابة المرشديات البحرية للملاحة في المحيط الهندي أو «البورتولانات» Portulans كما عرفها الغرب . وكان هذا الملاح العظيم يلقب بالمعلم لمهارته . وليس أدل على سيادة العرب في الملاحة من أن فاسكودي جاما

لهذه الدولة هي الأخرى السيادة البحرية لفترة طويلة من بعد ذلك ، وإن ظلت هولندا تنافسها فيها من آن لآخر . ويعزى ابتكار آلة « السدس » إلى اسحق نيوتن وبفضل هذه الآلة أمكن تحديد المواقع البحرية بدقة ، كما تمكن الفرنسي « بوشيه » من ابتكار فكرة خطوط الأعماق المتساوية وتمثيلها على الخرائط البحرية .

وفي القرن الثامن عشر انتقلت السيادة البحرية إلى الإنجليز فمسح جيمس كوك السواحل حول أستراليا ونيوزيلاندة في الفترة بين ١٧٦٩ - ١٧٧٢ كما اكتشف جزر ساندوتيش في المحيط الهادى . وكان الدافع إلى التوغل في البحار الجنوبية في تلك الفترة هو الاعتقاد في نظرية قديمة تقول بوجود أراض مجهولة ذات مساحات شاسعة لم تعرف بعد في نصف الكرة الجنوبي لتحدث التوازن بين مساحة اليابسة والمساحة المغطاة بالماء وهي الأراضى التي كانت تسمى باسم Terra incognita australis وفي الفترة بين ١٨٣٩ - ١٨٤٣ م اكتشف السير جيمس كلارك روس الإنجليزى مزيداً من المناطق والجزر غير المعروفة في البحار الجنوبية أيضاً وتمكن من قياس عمق المحيط إلى ٢٤٢٥ قامه .

ويعزى إلى البارون بلنجهاوزن الروسى أنه كان أول من رأى شواطئ القارة المتجمدة الجنوبية وذلك في عام ١٨٢٠ .

وفيما يتعلق بدراسة الظواهر الطبيعية والبيولوجية للبحر بالإضافة إلى الملاحظات التي تقدم ذكرها عن قياس الأعماق وعن المد والجزر وعن الأعاصير والزوابع البحرية وعن غرائب حيوان البحر وحيثانه التي وردت في كتب الأقدمين - نجد أن الدراسات العلمية قد اتخذت شكلا آخر منذ أوائل القرن الثامن عشر وإن سارت ببطء شديد هي الأخرى وأول دراسة منظمة من هذا النوع قام بها الكونت لويجي فرناندو مرسيلى في عام

١٧٣٥ م في خليج مرسيليا ، إذ قاس الأعماق ودرجة حرارة الماء وملوحته كما اختبر طبيعة القاع واستعمل أنواعاً من الشباك البدائية والجرافات في استخراج العينات من قاع الخليج الضحل نسبياً . وقد كتب هذا الباحث رسالة بعنوان « التاريخ الطبيعي للبحر » وكان أول من عارض مبدأ « البحر ليس له قرار » .

وفي عام ١٧٧٠ أصدر بنيامين فرانكلين في أمريكا خريطته المشهورة لتيار الخليج لأول مرة . كما قام « مورى » Maury عالم الأرصاد الأمريكى بعد ذلك بنحو قرن من الزمان بدراسة أكثر تفصيلاً لتيار الخليج وللعوامل الطبيعية الأخرى في البحر كالرياح والتيارات ودرجات الحرارة . وألف عن ذلك كتابه المشهور المسمى « بالعوامل الطبيعية للبحر » كما دعا إلى تأسيس الجمعية الدولية للملاحة والأرصاد الجوية ونظم أول مؤتمر لها من نوعه في بروكسل ببلجيكا في عام ١٨٥٣ .

وفي عام ١٨٦٥ تمكن عالم دانمركى يدعى فورشهامر من تحليل عينات من ماء البحار والمحيطات بدقة واكتشف حقائق قيمة عن نسبة الألاح إلى بعضها في ماء البحر ، ساعدت مستقبلاً على ابتكار طريقة لتقدير درجة ملوحة البحر .

ولا يفوتنا أن ننوه في ختام هذه العجالة بفضل صيادى الحيتان الذين جابوا البحار القطبية الشمالية والجنوبية من دول اسكندناوة وإنجلترا وأمريكا مقتفين أثر الحوت ، وما جمعوه من معلومات ومشاهدات قيمة عن الشواطئ والجزر وعن خواص البحار التي جابوها مما كان له أثر أيضاً في تراكم المعلومات عن البحار والمحيطات حتى القرن التاسع عشر الميلادى .

استكشاف الأعماق

وعلى الرغم من كل هذه المشاهدات السطحية للظواهر الطبيعية والبيولوجية في البحر فقد ظلت أعماق

وتبدأ منطقة العدم أو «اللا حياة» على أعماق تزيد على ٣٠٠ قامة» (١).

«ثم جاء عالم يدعى «واليش» Wallich (١٨٦٠ م) كان يعمل على مركب من مراكب مد أسلاك التلغراف على قاع البحر ، وحدث بأن نجوم البحر التي استخرجها من عمق ١٢٠٠ قامة كانت معدتها تحتوي على أنواع من الكائنات الأولية الدقيقة مما زرع الاعتقاد السائد بأن قاع البحر يجذب قاحل . ولم يتقبل الناس بطبيعة الحال هذا الرأي بسهولة على أساس أن الأحوال السائدة في الأغوار البعيدة لا تساعد بحال من الأحوال على قيام الحياة . وعلى الرغم من أن مثل هذه الأحوال كانت في حكم المجهولة إلا أنه كان من الممكن التكهن ببعضها بالحساب : ومن ذلك أن الضغط يزداد بزيادة العمق حتى إن الكائن الحي الذي قد يعيش على عمق ٣٠٠٠ قامة يتعرض جسمه لضغط يعادل ثلاثة أطنان على البوصة المربعة ! وكان مجرد التفكير في مثل هذا الأمر يجعل العلماء يترددون في بحث أمر الحياة على الأغوار البعيدة ! ثم جاءت بعد ذلك بارقة من الأمل أنبأت عنها بحوث العلماء في اسكتلندا ، فقد أدلى هؤلاء العلماء بجرافتهم إلى أعماق تراوح بين ٣٠٠ - ٤٠٠ قامة في البحار الشمالية وتمكنوا من استخراج أنواع مختلفة من الحيوانات البحرية . وكانت هذه التجربة بمثابة ضربة قاضية على المدرسة الإنجليزية التي اعتنق علماءها نظرية «اللا حياة» حتى ذلك الوقت .

وكان ذلك حافزاً لعالم اسكتلندي من علماء الحيوان في أدنبرة يدعى ويفيل طومسن الذي أوردنا كلامه فيما

(١) من العلماء الذين نادوا بهذا الرأي عالم الحيوان الإنجليزي المشهور «ادوارد فوربس» E. Forbes الذي قام بدراسات على أحياء القاع ببحر إيجه باليونان عام ١٨٤٠ - ١٨٤١ م واعتقد بأن الحيوانات البحرية تنقل في العدد والتوزيع بزيادة العمق حتى تنعدم كتابة بعد عمق ٣٠٠ قامة .

البحار سرّاً لا يعرف الناس عنه شيئاً لأجيال طويلة . وما برح العلماء أنفسهم حتى منتصف القرن التاسع عشر يعتقدون بأن قاع البحر في الأغوار السحيقة يجذب قاحل لا أثر للحياة فيه . وكان هذا الأمر في حد ذاته حافزاً من الحوافز التي عجلت تجهيز بعثة علمية كبعثة «المتحدية» لاستكشاف هذه الأعماق .

ويسرد السير ويفيل طومسن في كتابه عن البعثة نتائج الحوادث التي أدت إلى اختار فكرة القيام ببعثة لاستكشاف الأعماق في ذهنه فيقول : «بدأت هذه الحوادث بتنفيذ الشركات لمشروع جليل هو مد «كابلات» التلغراف على قاع المحيط ليصل بين الدنيا الجديدة والدنيا القديمة (في منتصف القرن التاسع عشر) . فقد لفت هذا المشروع نظر العلماء إلى منطقة طالما كانت مبعثاً لكثير من الروايات والأساطير ، ألا وهي قاع البحر العميق . وكانت أول معالم الطريق إلى هذا العالم الغريب المغمور تحت سطح الماء هي بطبيعة الحال القيام بجسات لتجديد الأعماق ، ثم أعقبها نجاح العلماء في الحصول على فئات صغير من رواسب الأعماق لمعرفة تركيب قاع البحر .

وبينما كانت الأمم تسعى لتقريب المسافات بينها وتحقيق الاتصال التلغرافي عبر المحيط ، كان هناك فريق آخر من العلماء يعيش في عالم آخر ، لا يعينهم شيء قدر معرفة أنواع الحياة البسيطة والمعقدة التي تعمر الأرض والمحيطات . وكانت وسائلهم في جمع هذه العينات من المحيطات محدودة للغاية . ومن ثم نشأ الاعتقاد بأن الحياة على قاع البحر لا يعدو توزيعها سوى نطاق ضيق يحيط بالسواحل حتى عمق محدود ، تنعدم بعده الحياة كلية ؛ أما الحياة النباتية في البحر فتندم على أعماق قامة وأما الحيوانات فتندر ندرة عجيبة بعد هذا العمق ولا يمثلها سوى الكائنات الأولية بسيطة التركيب .

وفي هذه الأثناء أدخلت تعديلات هامة على ترمومترات الأعماق وذلك باحاطتها من الخارج بجدار آخر من الزجاج السميك وكان زجاجها من قبل يتأثر بالضغط السائد على الأعماق البعيدة فيعطى قراءات غير دقيقة . وقد استرعت هذه البحوث عن الحياة في الأعماق البعيدة انتباه الرأي العام كما استرعت انتباه الشركات التي كانت تعمل في مد خطوط التلغراف على قاع البحر وكان مهمها معرفة طبيعة هذا القاع وتركيبه ومدى تأثير أسلاك التلغراف بالحرارة وبأنواع الحيوانات التي تنمو عليها من الخارج وذلك إلى جانب تحديد العمق بدقة .

تجهيز البعثة

وتشجع « ويفيل طومسن » و « كاربنتر » على أن يعدا العدة لبعثة طويلة الأمد للكشف العلمي عن أعماق المحيطات وبخاصة بعد أن فشلت محاولات بعض دول أوروبا في تجهيز بعثات ماثلة . وكتب الدكتور كاربنتر خطاباً بهذا المعنى لقائد الأسطول فأعدت البحرية مذكرة بالموضوع عرضت على « لوردات البحرية » الذين أبدوا استعدادهم لتجهيز البعثة إذا جاء الاقتراح من الجمعية الملكية . . وفيما يلي مقتطفات من خطاب الدكتور كاربنتر المؤرخ ١٥ يونيه سنة ١٨٧١ إلى الجمعية الملكية بلندن وقد أرفقه بنسخة من مجلة « نيتشر » العلمية^(١) تعزز رأيه .

« . . إن ما نرى إلى علمنا مؤخراً حول نشاط بعض الدول الأخرى لاقتحام ميدان الكشوف العلمية الطبيعية والبيولوجية لأغوار البحر ليحملنا على تنبيه حكومتنا إلى أن الوقت قد حان لضرورة إعداد برنامج علمي أكثر استكمالاً وتنظيماً مما نفذناه بغية دخول هذا الميدان الجديد . . كما ينبغي أن تدرج الاعتمادات اللازمة (للمثل

(١) مجلة Nature مجلة علمية تسجل فيها ملخصات من نتائج البحوث الهامة قبل نشرها بالتفصيل .

تقدم ولزميل له يدعى كاربنتر على التقدم في عام ١٨٦٨ إلى الجمعية الملكية بلندن بالتماس لتمنحهم الأميرالية التسهيلات اللازمة لبحث موضوع العوامل الطبيعية والبيولوجية على قاع البحر في المناطق العميقة . وأجيب العالمان إلى طلبهما ووضعت البحرية تحت تصرفهما مركباً صغيراً قديماً أجرياً عليه اختبارهما في المنطقة الواقعة بين سواحل اسكتلندا وجزر فارو لمدة شهرين متتابعين تحت ظروف قاسية في البحر . وكان جزاؤهما من هذه التجارب حصيلة من الحيوانات المختلفة جمعها بالجرافات من أعماق تزيد على ٦٠٠ قامة لأول مرة ، وقد خيل للعالمين في ذلك الوقت أن هذه الحيوانات تربطها صلات بأنواع الحيوانات المنقرضة ، كما فوجئنا بحقيقة أخرى توصلنا إليها عن طريق قياس درجات الحرارة على الأعماق البعيدة ، وهي أن درجة حرارة الماء على الأعماق البعيدة ليست كما كان يظن الجميع بأنها درجة ٤ م بل إنها تزيد أو تنقص عن ذلك تبعاً للظروف . وبناء على هذه التجربة قرر العالمان بأن أعماق البحار فيها طبقات مختلفة من المياه تحتفظ كل طبقة منها بخصائص معينة من حيث توزيع الحرارة وتعيش فيها أنواع من الحيوانات تتلاءم مع درجات الحرارة السائدة في كل طبقة ، كما أثبتنا أيضاً بأن ماء البحر بين السطح والقاع يحتوي على مواد عضوية ذائبة أو معلقة فيه .

وقد حفزت هذه النتائج المبدئية ويفيل طومسن وزميله على تكرار هذه التجارب خلال فصل الصيف التالي ووضعت الأميرالية هذه المرة تحت تصرفهما لهذا الغرض مركباً أحسن حالاً من زميلتها الأولى . وساعدهما الحظ أيضاً في هذه المرة فقد كان الطقس ملائماً فتمكنا من استخراج حيوانات حية بالجرافة من عمق لم يتوصل إليه أحد سواهما من قبل وهو عمق ٢٤٣٥ قامة !

الدكتور ويفيل طومسن : رئيساً علمياً للبعثة بمرتب سنوي قدره ١٠٠٠ جنيه
المستر وايلد : سكرتيراً للرئيس ورسام البعثة ومرتبته السنوي ٤٠٠ ج
المستر بوكانان : كيمائياً بمرتب ٢٠٠ جنيه
المستر موسلي : للتاريخ الطبيعي بمرتب ٢٠٠ جنيه
المستر جون مري : للتاريخ الطبيعي بمرتب ٢٠٠ جنيه
الدكتور فون فليوموس سوم : للتاريخ الطبيعي بمرتب ٢٠٠ جنيه

ويلاحظ أن الأخير هو من علماء النمسا ووقع الاختيار عليه في آخر لحظة بعد أن اعتذر عالم بريطاني يدعى سترلينج عن الانضمام للبعثة بعد ترشيحه . هذا وقد أدخلت بعض التعديلات على السفينة لتلائم المهمة الجديدة التي أسندت إليها فأزيل ستة عشر مدفعاً من مدافعها الثمانية عشر وعدلت مقصوراتها وحولت صالاتها لمعامل للبحث والدراسة وركبت عليها أوناش وآلات جديدة وأضيفت إلى حجراتها معامل جديدة كما روعي أن تثبت جميع الأجهزة والآلات العملية بما يضمن عدم قلقها أثناء اضطراب البحر . كما زودت مخازن السفينة بجميع ما يحتاج إليه العمل بالبحر من أدوات ورتب كل صنف منها في صناديق خاصة وذلك إلى جانب آلاف من صناديق الزجاجات والأواني لحفظ العينات وأوعية مملأة بالفورمالين والكحول لحفظها . وحملت السفينة على ظهرها أيضاً أطناناً من الحبال المختلفة السمك والطول لشتى الأغراض ، من بينها نحو ٢٥٠٠٠ قامة من حبال الكتان المتينة لجر الجرافات وحبل طوله ١٠,٠٠٠ قامة لسبر الأعماق وغيرها متعددة الطول والسمك للعمليات الثقيلة والخفيفة هذا فضلاً عما اشترته المركب أثناء وقوفها بالموانئ من

هذه البعثة) في ميزانية العام القادم منذ الآن دون تأخير إذا أريد تنفيذ مثل هذا البرنامج .. ولإني أقترح أن يقوم مجلس الجمعية الملكية بالمبادرة ويتبنى هذا الموضوع - وهو الذي عمل دائماً على تشجيع العلوم وتقديمها في بلادنا - فيعين لجنة لوضع خطة العمل بالاتفاق مع رئيس المجمع العلمي ورؤساء الجمعيات العلمية الكيماوية والجغرافية والجيولوجية والزولوجية وجمعية ليندوس . بحيث تكون الخطة جاهزة للعرض على الحكومة في نهاية شهر نوفمبر القادم .

وقد لقي هذا المطلب استجابة وفي ٢٦ أكتوبر سنة ١٨٧١ شكلت لجنة من رئيس الجمعية الملكية ومن الدكتور كارينتر وفرانكلاند وهوكر وهاكسلي والدكتور ويفيل طومسن وضم إليها أعضاء عن البحرية كما فوضت لتضم من تراه إلى عضويتها .

وفي آخر نوفمبر من نفس العام كانت اللجنة قد انتهت من إعداد تقريرها وأوصت بضرورة تهيئة سفينة تتحمل السير في البحر لمدة أربع سنوات متصلة ، وعليها من المؤن والمعدات والتجهيز المعمل ما يكفي لتحقيق أغراض البعثة . وقد وقع الاختيار بالفعل على سفينة حربية تدعى المتحدية (تشانلنجر) H.M.S. Challenger حمولتها ٢٣٠٦ طناً تسير بالشرع وعليها ماكينة إضافية تعمل بالبخار قوتها ١٢٣٤ حصاناً لتنفيذ هذه المهمة ، وأختير لقيادتها القبطان ناريس G. Nares وهو رجل كفء على جانب كبير من الخبرة بأعمال المسح البحري . ويساعده طاقم من الضباط والمهندسين عددهم ٢٢ رجلاً^(١) . أما مجموعة العلماء فقد رشحتهم الجمعية الملكية وربطت مرتباتهم وذلك على الوجه التالي :

(١) بخلاف بخارة السفينة وعددهم ٢٤٠ رجلاً توفي منهم في الطريق أحد عشر بجراً وغادر منهم السفينة في الموانئ المختلفة ١٥ بجراً نتيجة المرض .

المحيطات العظمى» كما رسمت اللجنة المذكورة خط سير السفينة وحددت برنامج العمل على الوجه الآتي : « تتجه السفينة من ميناء سوهامبتن إلى سواحل البرتغال وأسبانيا ثم تعبر المحيط الأطلنطي من ماديرا إلى جزر الهند الغربية ومن ثم تتجه إلى جزيرة برمودا ومنها إلى جزر الأزور والرأس الخضراء ثم تيمم شطر سواحل البرازيل وأمريكا الجنوبية ثم تعبر الأطلنطي مرة أخرى من الجنوب إلى رأس الرجاء الصالح . ومن هناك تتجه إلى جزر مريون والكروزية وكير جولين ثم إلى أستراليا ونيوزيلاندة وتواصل السير إلى الجنوب من منتصف المحيط الهندي حتى تقرب قدر الإمكان وفي الحدود التي تتطلبها سلامة المركب من حواجز الجليد على شواطئ القارة المتجمدة الجنوبية .

ومن نيوزيلاندة تخترق السفينة بحر المرجان ومضيق توريس وتتجه غرباً حتى تصل إلى ما بين جزيرتي بالي ومليوك ومن هناك إلى جزر السليز وبحار السولو ثم إلى مانايلا . ومن مانايلا تتجه السفينة شرقاً في المحيط الهادى وتزور غينيا الجديدة وجزر السلمون . ثم تواصل رحلتها إلى اليابان حيث تمضى بعض الوقت هناك . ومن اليابان تعبر السفينة المحيط الهادى إلى جزيرة فانكوفر ثم تتجه جنوباً إلى الحوض الشرقى لهذا المحيط وتعود إلى الجزر البريطانية من حول رأس هورن (في جنوب أمريكا الجنوبية) .

ومن ثم يتضح أن خط سير السفينة يكون قد شمل المحيطات العظمى الثلاثة وهى المحيط الهادى والمحيط الأطلنطي والمحيط الهندي إلى جانب المحيط الجنوبي العظيم الذى يتكون من تلاقى المحيطات الثلاثة الكبرى في نصف الكرة الجنوبي وتكون السفينة قد مست أيضاً سواحل القارة الجنوبية المتجمدة .

إن هذا الطريق ليهيئ الفرصة لدراسة العديد من ظواهر المحيطات الكبرى بما فيها تيار الخليج والتيارات

حبال إضافية . ولقد اتبعت السفينة في سبر الأعماق نفس الطريقة التقليدية القديمة التى تعتمد على ربط ثقل بحبل وإدلائه إلى القاع مع تعديلات بسيطة تلائم العمل في الأعماق البعيدة وزود الثقل أيضاً بأنبوبة معدنية تغوص قليلاً في رواسب القاع لتجمع عينة منها . والطريقة المشار إليها متعبة للغاية وتستهلك الكثير من الوقت عند جس الأعماق البعيدة . ويكفى أن نقول إن سبر غور قاع على عمق ٤٠٠٠ قامة كان يقتضى يوماً بأكمله من أيام عمل البعثة ، هذا فضلاً عن عدم دقة العمق المسجل بهذه الطريقة لانحراف الحبل بواسطة التيارات تحت الماء .

هذا وقد زودت السفينة بقوارب مساعدة يعمل بعضها بالمحركات لتيسر الدراسة في المناطق الضحلة وحول الجزر .

وما أن تمت كل هذه الاستعدادات حتى أبحرت السفينة كما أشرنا من ميناء سوهامبتون بين دقات الطبول وعزف الموسيقى وتوديع الأهالى ، وعشية إبحارها تفقدتها « لوردات البحرية » وبعض الوزراء . وجدير بالذكر أن البعثة المذكورة فقدت في رحلتها الدكتور فون فليموس سوم النمساوى وكان قد أصابه المرض في الطريق بين جزر هوأى وتاهيتى ، كما فقدت اثنين من ضباطها أيضاً .

ومن عجب أن هذه الفئة القليلة من العلماء على سطح السفينة تمكنوا من جمع ذخيرة من العينات والمعلومات وسعتها المحلدات الخمسون وكانت في حد ذاتها فتحاً جديداً للعلم .

خط السير وخطة العمل

ورد في تقرير اللجنة الرسمية التى عهد إليها أمر وضع برنامج العمل للبعثة بأن « الغرض الأساسى لها يتضمن بحث العوامل الطبيعية والبيولوجية لأحواض

أولاً - دراسات، الصيغية :

تقوم البعثة خلال عبور أحواض المحيطات العظمى بجمع المعلومات من محطات محددة الموقع بدقة . بين كل محطة وأخرى مسافة معقولة . وفي كل محطة منها « يوقع » الوقت وحالة البحر ودرجات الحرارة على السطح وفي الأعماق المختلفة . كما تقاس كثافة المياه ويرصد العمق وطبيعة القاع . وتؤخذ عينة من القاع بالجرافة كلما سنحت الظروف . وفي مسار التيارات تقاس درجات الحرارة على الأعماق : صفر : ١٠ ، ٥٠ ، ١٠٠ ، ١٠٠٠ . ولتقدير أعماق المحيطات المقام الأول في أعمال البعثة ومن ثم فيجب قياسها في جميع الأحوال الممكنة حتى ولو لم تكن الظروف لتسمح بالقيام بعمليات أخرى سوى ذلك . إن معرفة « كوتنورات الأعماق » في المحيطات لتلقى الضوء على المشاكل المتعددة المتعلقة بالتاريخ القديم لكوكب الأرض وجغرافية المحيط في الأحقاب الجيولوجية المختلفة : كما تلقي الضوء على مشاكل التوزيع الجغرافي المعاصر للحيوانات والنباتات البحرية وعلى طبيعة دورة المياه . وتمثل درجات الحرارة على منحنيات بيانية ليسهل مقارنتها وتجميع معلومات عن شدة الريح واتجاهها وعن التيارات السطحية وسرعتها واتجاهها وعن درجة رطوبة الجو . ودرجات حرارة الماء على الأعماق المختلفة أهمية كبرى في تمييز الطبقات المختلفة من المياه . ويضيف طومسن : « ومن خبراتنا في شمال الأطلنطي وجد أن درجة الحرارة على أعماق تزيد على ألف قائمة لا تزيد عن الصفر (المئوي) كثيراً » .

وثمة مسألة احتمال صعود المياه الثقيلة إلى أعلى (ضد قوى الجاذبية) عندما يصطدم تيار قاعي بحرف أو جبل يعترض مساره وهي مسألة تثار حولها جدل كبير . وجزر « الأزور » من أحسن المواقع التي يمكن اختبار هذه المسألة عندها . ولتقدير درجات الحرارة

الاستوائية وكذلك لدراسة الأحوال البيولوجية لبحر الأنتيل وحيوانات المياه العميقة في جنوب الأطلنطي التي لا تزال مجهولة حتى اليوم . وذلك بالإضافة إلى القيام بدراسات هامة عن الأحياء التي تعيش على حواف البحر الجنوبي » .

ويضيف التقرير بأن أهمية خاصة يجب أن تعطى للدراسات النباتية والحيوانية على جزر مريون والكروزية وكيرجولن أو لأية مجموعات أخرى من الجزر يحتمل العثور عليها في المنطقة الواقعة جنوب شرقي رأس الرجاء الصالح . ومن المحتمل أن يكتنف البحث في تلك المناطق صعوبات جمة إلا أننا يجب ألا نغفل عن أن « الفونة »^(١) البحرية لهذه المناطق تعتبر في حكم المجهولة كما يحتمل أن توجد أوجه شبه بينها وبين « فونة » العروص المتطرفة في نصف الكرة الشمالي . وقد لا تسنح فرصة أحسن من هذه الرحلة لدراستها وكل إضافة جديدة عنها تعتبر إضافة قيمة للعلم .

« ولنفس هذه الأسباب أيضاً يجب أن تعرج البعثة قدر الامكان على جزر « أوكلاند وكامبل » وبصفة خاصة على جزر الماركيز وقيجي وفريندلي إذ من المتحتمل أن توجد حيوانات المنطقة القطبية الجنوبية هناك على أعماق قليلة نسبياً . . . » .

وينوه التقرير أيضاً بضرورة القيام بدراسات عن تركيب الشعاب المرجانية وجمع مزيد من الصخور والمعادن ودراسة التيارات البحرية والاهتمام بالجغرافيا الطبيعية وتوزيع الأحياء في النصف الشمالي للمحيط الهادى ، وكل هذا بالإضافة إلى القيام بدراسات أنثروبولوجية وأثنولوجية لشعوب جزر المحيط .

هذا وقد احتوى برنامج الرحلة على تفصيلات لأقسام الدراسات المختلفة نجلها فيما يلي :

(١) « الفونة Fauna » هي مجموعة الحيوانات التي توجد في منطقة من المناطق مرتبة حسب التوزيع الطبيعي لدلالات علم الحيوان ، ويقابلها لفظ فلورا Flora بالنسبة للنباتات .

كلما اقتضى الأمر ذلك . وعلى الضباط والبحارة أن يعاونوه على أداء مهمته في الحالة الأولى .

وبلاحظ أن دراسة النباتات على الجزر المعزولة في وسط المحيط لها أهمية خاصة بالنسبة للتطور ، فبعض هذه النباتات تمثل الأثر الباقي من « فلورة » منقرضة كما هي الحال على جزيرة سانتا هيلينا في المحيط الأطلنطي وبعضها الآخر يمثل أنواعاً متطورة ، مع الاهتمام بدراسة نباتات كل جزيرة على حدة من مجموعات الجزر المختلفة . كما أن الكثير من الجزر التي ستمر عليها البعثة لا تزال نباتاتها مجهولة . ثم يعدد البرنامج بعد ذلك أسماء الجزر والمناطق التي يجب أن يعتنى بدراستها من الوجهة النباتية في المحيطات الثلاثة الكبرى وعلى سواحل أستراليا وفي أرخبيل الهند ، ومنها في الأطلنطي جزر : الرأس الخضراء وترتسيان دي كونها وترينيداد (والساحل الإفريقي بين مراكش والسنغال) ، وفي المحيط الهندي جزر : سيشيل وأميراني ومدغشقر وسوقطرة بالإضافة إلى الساحل الشرقي لأفريقيا شمال إقليم ناتال . أما في المحيط الهادي فهتم البعثة بشمال اليابان وكوريل وجزر اليوشن فضلاً عن المناطق المدارية مثل جزر فيجي وتاهيتي ومارشال وسلمون وكارولينا وذلك بالإضافة إلى شواطئ المكسيك وأمريكا الجنوبية بين ليم وفالبريزو :

كما يراعى تصوير النباتات بالفوتوغرافيا أو رسمها رسماً دقيقاً وتعطى عناية خاصة لموضوع إنبات البذور بعد تعرضها لماء البحر وعن طرق انتشار النباتات المختلفة :

ثم يدخل البرنامج بعد ذلك في تفاصيل دقيقة كأن ينوه مثلاً بجمع النباتات من أماكن بعينها على الجزر أو الاهتمام بشجرة خاصة مجهولة النوع ويطلب المزيد من العينات منها أو بزيارة تلك الجزر في مواسم غير تلك المواسم التي سبق أن جمع الرحالة منها عينات ، مع العناية بجمع النباتات الطبية والنباتات اللازهريّة

على الأعماق المختلفة وبخاصة في البحار الجنوبية أهمية كبرى أيضاً في تحديد التيارات الباردة أو الدافئة ومساراتها .

ولدراسة حركات المياه السطحية والعميقة أهمية كبرى في فهم الدورة العامة للمياه في المحيطات وعمّا إذا كانت هناك تيارات عميقة من الأحواض القطبية نحو خط الاستواء . ولا يجب أن ندع فرصة تمر دون أن تسجل مشاهدات عن المد والجزر في أية بقعة من العالم . كما تؤخذ قراءات دقيقة لمستوى سطح البحر مرة في كل ساعة قمرية^(١) .

وتقدر كثافة المياه السطحية والعميقة بدقة مع استعمال الميزان الحساس كلما اقتضى الأمر ، كما تقدر درجة شفافية المياه مع تسجيل حالة السماء وارتفاع الشمس في الأفق وقت القياس .

ولما كان الأستاذ « شوف » قد نشر بحثاً قيمياً في عام ١٨٣٢ عن العلاقة بين قراءة البارومتر عند مستوى سطح البحر وبين خط العرض فعلى البعثة أن تحقق هذه العلاقة .

ثانياً - الدراسات الكيميائية :

وتتضمن التعليقات الخاصة بهذا القسم معلومات عن طريقة جمع عينات المياه وحفظها وتحليلها وتقدير درجة ملوحتها وكذلك تقدير الغازات الذائبة في ماء البحر وتلك التي تحتويها المثانات الهوائية للأسمك حال استخراجها بالشباك .

ثالثاً - الدراسات النباتية :

ويجمل البرنامج وظيفة عالم النبات على السفينة في أمرين أولهما أن يجمع مجموعات كاملة من نباتات المناطق التي تزورها البعثة ويحفظها كما يدون ملاحظات عن النبات الحى وتركيبه وبيئته وأطواره

(١) الساعة القمرية تساوي ساعة واحدة شمسية ودقيقتين .

والمعادن والضحور منها ، وكذلك الاهتمام بجمع الأدلة عن الارتفاعات أو الانخفاضات التي اعتورت ساحل البحر في العصور المختلفة .

« وعلى البعثة أن تنهز الفرصة أيضاً لتصوير أنماط من أجناس البشر الذين تقابلهم بمقياس موحد ليسهل مقارنة الصور مع تدوين الملاحظات عن المميزات الطبيعية لكل جنس وعن اللغة والعادات والمخلفات الأثرية والأدوات التي يستعملونها ، كما تجمع عينات من شعر الرأس للسلاسل غير المختلطة من البشر . »

ويعطى لكل محطة من المحطات رقم مسلسل في يوميات السفينة بحيث يدون هذا الرقم مع كل عينة من العينات التي تجمعها البعثة من نفس المحطة . وعلى كل باحث أن يحتفظ بمذكرة يدون فيها مشاهداته يوماً بيوم ويقدم هذه المذكرة من آن لآخر لرئيس البعثة الذي يدون بدوره في يومياته الرسمية كل ما يفيد العلم من ملاحظات .

نتائج البعثة وأثرها في تقدم علوم البحار

ولئن دلت الملاحظات السابق ذكرها على شيء فعلى أن البعثة المذكورة كانت قد أعدت لكل أمر عدته واتخذت كل الاحتياطات الضرورية التي تكفل نجاحها في مهمتها . ومنها حسن اختيار الرجال ، سواء المدنيين منهم أو العسكريين ، وقد نوه الرئيس العلمي للبعثة بالتعاون الممتاز الذي لوحظ بين الفريقين ، وكان له أكبر الأثر فيما أحرزت البعثة من نجاح . وبالإضافة إلى ذلك فقد جهزت السفينة بالعدد والآلات وأجهزة جمع العينات من أحسن ما عرف حتى ذلك الوقت ، كما عهدت البعثة إلى بعض الصانع المهرة بتحويل أو ابتكار الأجهزة الجديدة التي كانت في حاجة إليها ، وتشيد البعثة أيضاً بالمعونة التي تلقتها من بعثة ألمانية صغيرة زارت بريطانيا قبل إبحار « تشالنجر » وأطلعها على بعض الأجهزة الجديدة .

كالسراخس والطحالب والفطريات والدياتومات ، والنباتات العالقة بالأصداف والمرجان وكذلك النباتات الدقيقة التي توجد معلقة في الماء وأثرها في تلون ماء البحر حالات خاصة .

رابعاً - الدراسات الحيوانية :

ولما كان رئيس البعثة من علماء الحيوان ولديه من الخبرة ما يمكنه من إرشاد زملائه أثناء الرحلة فلم ترد نصوص كثيرة مفصلة في هذا الباب سواء عن طرق جمع الحيوانات المختلفة أو حفظها وتثبيتها فيما عدا ملاحظات بسيطة عن الأماكن الهامة من وجهة نظر توزيع « الفونة » مثل منطقة بولينيزيا وماكرونيزيا مع فحص الأعماق وطبيعة أحياء القاع على خط وهمي يصل ما بين اليابان وجزيرة فانكوفر في الشمال وعلى خط آخر يمتد جنوباً إلى جزيرة فالبريزو ، وذلك بالإضافة إلى دراسة التوزيع على جانبي « خط والاس » الهيدروجرافي في أرخبيل الملايو .

كما يؤكد البرنامج ضرورة فحص الضوء المنبعث من أية كائنات بحرية بواسطة المنشور أو بواسطة المطياف لبيان تركيبه وألوانه .

والواقع أن الدراسات الحيوانية قد احتلت الجانب الأكبر من موسوعة مجلدات البعثة فيما بعد وذلك بالإضافة إلى المشاهدات الهامة عن الحيوانات النادرة أو الغريبة التي وصفها ويفيل طومسن في مجلديه الإضافيين عن الرحلة . كما يجب أن ننوه أيضاً بجهود العالم جون مري وملاحظاته عن الأصل العضوي للتكوينات الطباشيرية وغيرها على قيعان المحيطات وعلاقتها بالأحياء التي تعيش على السطح .

خامساً - دراسات تكاملية :

وتشمل التركيب الجينولوجي للمناطق غير المعروفة حتى ذاك الوقت مع جمع عينات من الحفريات

ولقد جمعت البعثة من رواسب قيعان المحيطات نحو ١٢,٠٠٠ عينة عنى بدراستها جون مري والأب رينار الفرنسى وقاما بتقسيمها ودراسة خواصها وثبت أن هذه الرواسب هي هياكل صلبة لحيوانات أو نباتات دقيقة عاشت فى الطبقات السطحية للمياه وعند موتها تساقطت كرهاذا المطر على القاع العميق فكسته ببساط متمد فسيح يتركب أحيانا من هياكل تدخل المادة الجيرية أو الطباشيرية فى تركيبها وهى تنتمى لأنواع من الكائنات تسمى المنخربات تنضوى تحت قبيلة الحيوانات الأولية المعروفة باسم «الأولى» وأحيانا أخرى تنتمى إلى قبيلة الصدفيات المنحثة «البتروبودا» كما قد يكون بساط الرواسب آنف الذكر من مادة طينية أخرى أكثر صلابة هى مادة «السيليكا» ومنها تتكون أغلفة كائنات دقيقة تعرف بالدياتوم وهى تنتمى لعالم النبات وليس لعالم الحيوان . وثمة أنواع من الحيوانات الدقيقة لها هياكل من السيليكا أيضاً وتعرف باسم «الراديلولاريا» وهى تساهم بدورها أيضاً فى تكوين بساط الرواسب على القيعان العميقة للمحيطات . وهذه الهياكل وتلك تقاوم عوامل البلى والذوبان نظراً لصلابتها وترسب ببطء شديد على قيعان المحيطات وتغطى مساحات شاسعة منها .

ولبعثة المنحدية (تشانجر) الفضل فى اكتشاف نوع جديد من الرواسب الطينية على أعماق كبيرة جداً يسمى بالطين الأحمر وتغطى هذه الرواسب مساحات شاسعة هى الأخرى من قاع المحيط ويتركب هذا الطين من مواد مختلفة بعضها معدنى وبعضها من أصل بركانى وتتناثر فوقه عقد المنجنيز وأسنان أسماك القروش المنقرضة .

وثمة رواسب أخرى تكسو القيعان القريبة من شواطئ القارات وهذه تتركب فى جملتها من رواسب الأنهار والحصى والأصداف وحييات الرمل والطينى

ويدل برنامج البعثة على دراسة عميقة وإلمام بكل ما عرف أو كتب عن البحار والجزر وحيواناتها ونباتاتها حتى وقت قيامها ، ويضاف إلى كل ذلك الصفات الإنسانية الممتازة التى يجب أن يتحلى بها مجموعة من الناس كتب على أفرادها أن يعيشوا معاً ليل نهار لمدة ثلاث سنوات ونصف السنة على ظهر سفينة تمخر بهم غياهب المحيطات فى أجواء متقلبة .

ويمكن القول بأن البرنامج الذى وضع للبعثة قبل قيامها قد تحقق على أحسن وجه ممكن . وعرف العالم لأول مرة الكثير من خبايا أعماق المحيطات وأسرارها . فقد وصفت البعثة لأول مرة أعداداً هائلة من أنواع الأسماك التى تعيش فى البيئات السحيقة وألقت الضوء على طرق معيشتها وطباعها ، ومنها الأسماك «الفوسفورية» التى ترصع جسمها بقع تضيئ بضوء خافت جميل وترتب هذه البقع بنظام خاص يتميز به كل نوع منها كما ألقت البعثة الضوء أيضاً على الأحوال السائدة على هذه البيئة السحيقة . ومنها على سبيل المثال أن درجة حرارة الماء على أعماق تزيد على ألف قائمة ثابتة تقريباً فى جميع المحيطات وهى درجة منخفضة تقرب من الصفر المئوى . ثم إن التوزيع الجغرافى لحيوان القاع العميق متجانس تقريباً من القطبين إلى خط الاستواء ، حيث لا يوجد أثر لتقلب الفصول أو لتعاقب الليل والنهار على هذه الأعماق التى يسودها ظلام مطبق .^(١) كما وضحت البعثة لأول مرة أيضاً «كنتورات الأعماق» للمحيطات وإليها يرجع الفضل فى اكتشاف سلسلة جبلية ممتدة من شمال المحيط الأطلنطى إلى جنوبه وهى المعروفة باسم «السلسلة الفقرية» لهذا المحيط وتقسمة إلى قسمين كبيرين أحدهما يعرف باسم الحوض الشرقى والآخر باسم الحوض الغربى .

(١) انظر كتابنا بعنوان «أضواء على قاع البحر» رقم ٤٨

فى سلسلة المكتبة الثقافية .

قد نقلت منطقة «اللاحياء» التي كان «فوربس» قد حددها بنحو ٦٠٠ متر من قبل إلى نحو ٨٥٠٠ متر على الأقل . .

كما دحضت البعثة بعض المعتقدات القديمة التي ظلت كحقائق ثابتة لزمان طويل ، ومنها فكرة وجود قارة مغمورة تحت سطح الماء هي قارة اطلانيس التي ظلت حية في الأذهان منذ عهد اليونان القدامى . وكذلك فكرة وجود أصل الحياة على قيعان المحيطات على شكل «أميبا ضخمة» ، هي «أميبا الأعماق» . وكان أول ما نادى بها العالم الألماني ارنست هيكل ، وقد أثبتت البعثة أنها مادة جيوية لا أثر فيها للبروتوبلازم أو مادة الحياة .

ويرجع الفضل لبعثة المتحدية (تشانجر) أيضاً في عمل أول دراسة مفصلة للحاجز المرجاني الأعظم وحيواناته ، وكذلك في وضع أسس التوزيع الجغرافي للأحياء البحرية على نطاق واسع . ومن وجهة نظر الملاحظة استطاعت البعثة أن تدرس الكثير عن التيارات البحرية والمناخ كما اكتشفت جزراً جديدة وضحتها على الخرائط .

ويرى كثير من العلماء أن موسوعة بعثة المتحدية العلمية التي دونت فيها نتائج الرحلة هي بمثابة «الكتاب المقدس لأعماق البحر» .

ولا غرو والحال كذلك أن جعل هؤلاء العلماء تاريخ هذه البعثة بمثابة بداية لعلم جديد هو علم البحار والمحيطات الذي يطلق عليه اسم «الاقيانوغرافيا» أو «الاقيانولوجيا» .

وإذا كان الأمر كذلك فإن لهذه البعثة الفضل أيضاً فيما وصل إليه هذا العلم في وقتنا الحاضر من تقدم . فقد دفعت عجلة البحث العلمي في هذا المجال خطوات كبيرة إلى الأمام ، وشجعت بعثات أخرى على ارتداد أعماق المحيطات ، مزودة بمراكب حديثة وأجهزة

والرعد ، وتختلف كل الاختلاف في خواصها عن رواسب القيعان العميقة . ومن عجب أن توجد في بعض الأحياء قطع كبيرة من الجلاميد على قاع المحيط العميق ، وهذه صخور أرضية من غير شك حملتها الثلجات وجبال الجليد التي انفصلت من شواطئ القارات وظلت هائمة في المحيطات حتى ذابت فسقطت تلك الحجارة إلى القاع .

وأثبتت البعثة أيضاً أن قاع المحيط ليس مستوياً دائماً ، بل تتوره جبال وهضاب وأخاديد أو أخوار عميقة ، وأقصى عمق سجلته البعثة بالطريقة التقليدية التي اتبعتها في قياس الأعماق هو ٤٤٧٥ قامه^(١) وذلك في بخانق على القاع بجوار جزر ماريانا في المحيط الهادى ، كما رسمت البعثة كثيراً من خطوط الأعماق المتساوية للمحيطات .

وأما عن أنواع الحيوانات الجديدة التي وصفها البعثة من الأعماق المختلفة فقد بلغت ٤٧١٧ نوعاً جديداً وهي بذلك تكون قد ساهمت مساهمة فعالة في الكشف عن أنواع جديدة من الأحياء على كوكب الأرض لم تكن معروفة من قبل . وتنتمي هذه الأنواع التي جمعها البعثة من بين السطح وأعماق وصلت إلى نحو ٤٥٠٠ قامه إلى قبائل وفصائل مختلفة من أقسام عالم الحيوان مثل القشريات ونجوم البحر وقنابد البحر وخيار البحر والأصداف ، ومنها أنواع من القاع العميق لا مثيل لها اليوم على ظهر الأرض بين الكائنات الحية وأقرب أشباهها يوجد في الحفريات التي انقرضت من ملايين السنين . وبذلك تكون البعثة

(١) القامة ١,٨٢ متراً وأقصى عمق سجل في المحيطات إلى اليوم هو ١١,٠٥٠ متراً وسجلته سفينة الأبحاث السوفيتية «فيتياز» صيف عام ١٩٥٩ وحتى عام ١٨٩٥ لم يكن معروفاً في جميع المحيطات سوى ٥٥ بقعة يربو عمقها على ٥٥٠٠ متر . ويرجع الفضل اليوم إلى جهاز سبر الأعماق بصدى الصوت المعروف «بالاكوسوندر» في مسح قيعان المحيطات بدقة .

ضباب خفيف . وما إن توغلنا بالسفينة في الخليج حتى فوجئنا بسراب مخيف لم نعهده من قبل ، اختلطت علينا فيه صور البحر والأرض والسماء بحيث أصبح من المتعذر على الرائي أن يفرق بينها . وتجردت المعالم على الشاطئ من أبعادها الحقيقية ، فبدت الأكواخ البيضاء كالأعمدة أو المنارات العظيمة ، بينما خيل إلينا أن جميع الجزر الصخرية المنخفضة قد توجت بالعمارات والأبراج وظهرت لنا على الأفق جزر جديدة لا محل لها في الواقع على الخرائط ، وبدت كأنما تشكل نهاية الأفق وما لبثت أن تبددت كالأشباح رويداً رويداً كلما أطال المرء النظر إليها . .

أما القوارب الخفيفة التي يعمت شطر الشاطئ فقد بدت هي الأخرى كأنما شدت إلى السماء وارتفعت على قوائم فوق البحر بينما علتها صورها المقلوبة التي بدت في الواقع أوضح من الأصل . وكأن هذه الصور قد طبعت فوق أرضية ناعمة من الضباب الرمادي .

جديدة وآلات إلكترونية تجمع الأرصاد وتحصي النتائج ، بل وتمكن الإنسان نفسه مؤخراً من ارتياد أعماق بقعة في المحيطات وهو بداخل غواصة صغيرة يرى من خلال نافذتها الزجاجية ما لا عين رأت من قبل من أسرار القاع العميق ، بل واكتشف الإنسان مؤخراً أن هذا العالم الصامت الذي طالما أبدع الشعراء في وصفه لم يعد عالماً صامتاً بعد اليوم ، بل يعج بمختلف الأصوات والنغمات من جميع الطبقات . ويكفي أن نعلم أن في وقتنا الحاضر تجوب أكثر من خمسين سفينة علمية بحار العالم ومحيطاته في كل يوم وليلة .

ونختتم هذا المقال بفقرات من كلام السير ويفيل طومسن من كتابه آنف الذكر وفيها وصف ممتع لظاهرة السراب الذي شاهده على سواحل نونفا سكوتيا ونيوفونديلاند وعنه يقول :

« أشرفنا على هاليفاكس صبيحة التاسع من شهر مايو وكان الجو صحواً ساكناً لا يبدد صفوه سوى



الشاهنامه للفردوسى

بمقام
الدكتور مجيب الخشاب

- ١ -

دويلة فارسية داخل دولته ، فقد تبع ذلك قيام دويلات منها القوية والضعيفة ، الصفارية والسامانية والعلوية والزيارية والبويهية ، وكلها فارسية . ثم جاءت دولتان تركيتان ، الغزنوية والسلجوقية . واستتبع قيام الدويلات الفارسية لإحياء الروح الفارسية والحنين إلى إحياء اللغة الفهلوية في صورتها الإسلامية الحديثة لتكون لغة للعلم والأدب والديوان ، ومن هذا الاتجاه الفارسي كان عزم الفردوسى على أن يتفرغ لينظم الشاهنامه . ولم يكن قيام الدويلات التركية ليقف معارضاً لهذا التيار فكثير من وزراء السلاطين الأتراك كانوا فرساً وكانت أمنيتهم تشجيع الأدب الفارسي واستخدام اللغة الفارسية في أعمال الديوان .

* * *

اختلف الكتاب في اسم القرية التي ولد بها الفردوسى ذهب البعض إلى أنها شاداب (دولتشاه) وذهب آخر إلى أنها رزان (مقدمة باينقتر) وذهب العروضى صاحب « جهار مقاله » - وقد زار طوس بعد وفاة الفردوسى بحوالى مائة سنة - إلى أنه ولد في قرية باز من ناحية الطابران . ويأخذ الكتاب المحدثون برأى العروضى في هذا . واختلف الكتاب أيضاً في اسم الفردوسى ،

الفردوسى هو أكبر شعراء القرن الخامس الهجرى وأحد الشعراء الفرس العظام . نظم الشاهنامه فبلغ الأوج في نظمه ، وهى الملحمة الفارسية التى تصور القصص الإيرانية القديم كما تعطى صورة تاريخية صادقة لكثير من جوانب الحياة فى العصر الساسانى الذى سبق الفتح العربى لبلاد الفرس . ثم إنه نظم « يوسف وزليخة » متجهاً فى نظمه القصة نحو الأدب الإسلامى الخالص .

عنى كتاب السير وأدباء الفرس بالفردوسى وحاكوا حول حياته الكثير من القصص حتى أن استخلاص حقيقة حياة الرجل من هذه القصص المختلفة أصبح أمراً لا جدوى منه ، وإنما على الباحث أن يقرأ كتابى الفردوسى ، الشاهنامه وقصة يوسف وزليخة ، للتعرف على حياة الشاعر الذى كرس حياته للنظم والذى حرص أشد الحرص على أن ينظم الكتاب الإيرانى المعروف فى الفهلوية باسم خدای نامه والذى يعد أعظم أثر ادبى باللغة الفارسية .

والفردوسى حين قام بهذا العمل الأدبى الكبير إنما كان يعمل على إحياء القومية الإيرانية التى بعثها المأمون (١٩٨ / ٨١٣) حين أذن بقيام الدولة الطاهرية ، أول

منصور أو حسن أو أحمد . أما كنيته « أبو القاسم »
فيتفقون عليها . وكذلك يتفقون على لقبه الشعري
« الفردوسى » ، وفي طوس بستان يعرف باسم الفردوس
ولعله ينسب إلى هذا البستان .

ويذهب العروضى إلى أن الفردوسى كان من دهاقين
(أصحاب الضياع) طوس . ويؤيد هذا قوله فى الشاهنامه .
ولم يذكر كتاب التذاكر تاريخ ميلاد الفردوسى .
ولكن يتبين من بعض أشعاره فى الشاهنامه ما يرجح
هذا التاريخ . فهو يقول إنه فرغ من آخر فصل فى
كتابه فى اليوم الخامس والعشرين من شهر اسفندرامز ،
وكان قد مضى على الهجرة أربعائة سنة ، وكان عمره
فى ذلك التاريخ قد اقترب من الثمانين .

ومن هذا يتضح أنه فرغ من الشاهنامه فى ٢٥
فبراير عام ١٠١٠ (٤٠٠ هـ) . فاذا ذهبنا إلى أنه كان
فى السادسة والسبعين أو السابعة والسبعين حينذاك فإن
مولده قد يكون بين سنتى ٣٢٠ / ٩٣١ و ٣٢٣ /
٩٣٤ . وفى الشاهنامه نصوص أخرى قد تغير هذا
التاريخ قليلا ، ذلك أن الفردوسى يذكر السنوات
بالتقريب لا بالتحديد . وقد أخذ الإيرانيون ، حين
احتفلوا بالعيد الألفى للفردوسى ، بهذا التاريخ الأخير
وعلى أساسه أقاموا حفلهم الذى مثل مصر فيه الأستاذان
الراحلان عزام والعبادى . فى هذا الاحتفال قال المغفور
له السيد فروغى « إن الخلاف على تاريخ مولد الفردوسى
ليس أمراً هاماً فإن الخلاف فى سنتين من ألف سنة
لا يقدم ولا يؤخر شيئاً فإذا قلنا إن مدى الخلاف خمس
سنوات فليس هذا شيئاً لأن المهم هو إحياء ذكرى
الفردوسى » . وأقيم العيد الألفى للفردوسى فى يناير
سنة ١٩٣٤ .

ويبدو أن الشاعر كان يعيش فى صباه من غلات
ضيعته ، وأنه كان حريصاً على رى ضيعته رياً معتدلاً
بحيث لا يغرقتها الماء إذا فاضت القناة ولا يجرقها الجفاف
إذا امتنع الماء . بهذا يتحدث فى الشاهنامه .

وعرف شاعرنا العربية معرفة جيدة وعرف
الفهلوية معرفة جيدة كذلك . وكانت درايته بتاريخ
إيران دراية عميقة شاملة . أما العربية فهى لغة الثقافة
فى ذلك العصر ، ومهما يكن من ظهور النزعة الفارسية
والانجاء إلى إحياء اللغة الفارسية فإن لغة القرآن لم يهمل
أمرها . وقد كتب العلماء حينذاك باللغتين العربية
والفارسية ومنهم من كان يكتب الكتاب نفسه باللغتين
جميعاً . كتب ابن سينا والغزالي والرازى وغيرهم
باللغتين ومن هنا عرف أن الحضارة العربية الإسلامية
تقوم على العربية والفارسية . والفردوسى نفسه حين
سُم سِير الملوك فى إيران اتجه إلى القرآن الكريم يأخذ
منه سورة يوسف لينظم قصة دنيية فيها الدليل على إتقانه
اللغة العربية . ولا خلاف بين الكتاب على معرفة
الفردوسى للغة العربية إنما الخلاف على معرفته اللغة
الفهلوية . نولدكه يرى أنه لم يكن يعرفها . أما عزام
وماسيه فيذهبان إلى أنه كان يعرف هذه اللغة ، ونحن
معهما فى هذا . فالفردوسى فى قصة « بيزن و منزه »
يقول إن صاحبه حدثه بقوله : « إن كنت لا تنام فاصغ
إلى حتى أقرأ عليك من الكتاب الفهلوى قصة لتنظمها »
و « كان يقرأ وأنا أنظم » . ويقول « فإن كنت تجهل
الفهلوية فاعلم أن أروند هو دجلة عند العرب » . و « أن
ورز رود هو ما وراء النهر عند العرب » . ويفسر كلمة
بيوراسب - وهى لقب الضحاك - بأن بيور فى
الفهلوية هى ده هزار فى الفارسية (عشرة آلاف فى
العربية) . ويقول إن بيت المقدس يسمى بالفهلوية
كنك دز هوخت . وهكذا .

ويذكر عوفى فى « لباب الألباب » شعراً للفردوسى
يقول فيه إنه اجتهد كثيراً وقرأ كثيراً بالعربية والفهلوية .
وإذا كان مصدر الشاهنامه « الخداينامه » قد عرف
عنه الكثير باللغتين العربية والفارسية قبل الفردوسى فإنه
من غير المحتمل أن يتم نظم الكتاب كله مما عرف من

ماخ مرزبان هراة الذى يروى الفردوسى عنه سيرة هرمز بن أنوشروان يمكن أن يكون هو تاج أحد هؤلاء الأربعة . ولاحظ عزام أن الأربعة الذين ترجموا الكتاب كانوا مجوساً « ولم يكن غير المحوس إذ ذاك يعنى بالفهلوية ويجيد قراءتها » ، ولسنا نوافق على هذا الرأى فإن إسلام الرجل لا يحول دون حبه لثقافة أمته ، وأسماء المترجمين الذين ذكرهم حمزة الإصفهاني والبيروني والبلعمي وغيرهم تدل على أنهم كانوا مسلمين . ولكن قد يكون من هؤلاء المترجمين الذين قصدهم أستاذنا عزام مجوس . أما ماسيه فيرى أن هؤلاء الأربعة إيرانيون من الولايات الشرقية ، فهم من هراة وسيستان ونيسابور وطوس .

من هذا يتبين أن آثار الفرس وقصصهم كانت معروفة باللغتين العربية والفارسية وأن الفردوسى كان لديه هذه التراجم ، أو بعضها ، وكان لديه النص الفهلوى أيضاً .

* * *

عهد نوح بن منصور الساماني إلى شاعر شاب ذاع صيته في الشعر الفارسي حينذاك - القرن الرابع الهجري - اسمه الدقيقى (أبو منصور محمد بن أحمد) بأن ينظم الشاهنامه فبدأ بنظم قصة كشتاسب الذى ظهرت رسالة زردشت في عهده والذى خصته الأوستا (الأستاق) بفصل تضمن نصح زردشت له بالإيمان بالدين الجديد ودخول هذا الملك في الزردشتية .

نظم الدقيقى ألف بيت من هذه القصة وحال الموت دون مضيه في نظم الكتاب ، يقول الفردوسى « ولكن سوء الخلق كان خدن شبابه ، فكان يقطع أوقاته بالبطالة وصحبة الأشرار حتى بغته الموت فتوجه بتاجه الأسود . لقد سلط الخلق اللميم على الروح الجميل ، وما نعم يوماً بالحياة . ثم انقلب به جده فقتله أحد عبيده » . ويعبر الفردوسى عن ترحيب الفرس بالدقيقى

أجزائه التي نقلت إلى العربية أو الفارسية . إنما المحتمل أن يكون لدى الفردوسى هذه التراجم الجزئية بالعربية والترجمة الفارسية له ثم النص الفهلوى أيضاً . إلى هذا الرأى الأخير اتجه فون روزن في بحثه الأخير عن التراجم العربية لخداى نامه . وقد انتهى فون روزن إلى أن ترجمة ابن المقفع ، وهي أولى تراجم الخداينامه ، تلتها تراجم منها ما كان نقلاً صادقاً عن النص الفهلوى كالذى عمله محمد بن الجهم البرمكى وزادويه بن شاهويه الإصفهاني ؛ ومنها ما كان تأليفاً عن طريق الترجمة كالذى عمله محمد بن مطيار الإصفهاني وهشام بن قاسم الإصفهاني ، وقد استعان هذان الكاتبان بنصوص فهلوية من كتب أخرى ؛ ومنها ما كان تصنيفاً عن طريق الترجمة كالذى عمله موسى بن عيسى الكسروى والموبذ بهرام بن مردانشاه ، وقد أضافا روايات من نصوص أخرى أو مما سمعاه من الموابذة والدهاقين . ويذكر حمزة الإصفهاني في تاريخه أن الموبذ بهرام راجع نيفاً وعشرين من التراجم العربية لخداى نامه وأن الكسروى لم يجد نصين متفقين من هذه التراجم .

وتتفق المقدمتان المبكرتان للشاهنامه على أن « أبو منصور المعمرى » ترجم إلى الفارسية - عن الفهلوية - كتاب خداينامه الذى كتبه دانشور وذلك بأمر من « أبو منصور بن عبد الرازق » والى طوس في العهد الساماني حوالى سنة ٣٤٧ / ٩٥٧ . وقد ساعد المعمرى في ترجمته أربعة من الفرس هم : تاج الخراساني ، يزدان داد بن شاپور ، ماهويه بن خورشيد ، شادان ابن برزین . ومهما يكن من أمر رواية المقدمتين فإن عزام وماسيه يلاحظان أن الفردوسى ذكر شادان بن برزین في أول قصة كليلة ودمنة كأنه الذى حدثه بهذه القصة . ويقول عزام ، نقلاً عن نولدكه ، أن شاهوى الذى يذكره الفردوسى راوياً في مفتتح قصة وضع الشطرنج قد يكون تحريف ماهويه أحد الأربعة المترجمين ، وأن

في نظم الشاهنامه قائلاً : « قال الدقيقي سأنظم هذا الكتاب
ففرح الناس به أي فرح » .

وعزم الفردوسي على نظم الكتاب فإن ما لقيته
قصص الأبطال من ترحيب الفرس شجعه على المضي
فيما أحقق فيه سلفه الدقيقي . « ورغبت في الحصول على
كتاب خدای نامه كى أنقله إلى لغتي وكم من رجل
سألت عن الكتاب دون جدوى . وكنت أخشى مر
الزمان وقصر الأجل فأتركه لغيري ؛ ثم ما أمل من
ورائه من مجد قد يذهب سدى ؛ وقد لا أجد العظيم
الذي يثيبني بصلة على قد ما بذلت من جهد ، فإن الدنيا
تعج بالخلف والزمن غير موات لمن ينشدون حسن
الثواب . ومضى زمان لم أفض فيه لأحد بمكنون صدرى
فإني لم أجد من هو جدير بأن أحدثه بسرى . . ثم كان
الصديق الأمين الذي هو قطعة من نفسي فكاشفته
بالأمر فقال : إنها فكرة حسنة ولسوف تسعد بها .
سأتيك بالكتاب الفهلوى (الهنلوى) فامض قدماً
ولا تتوان . إن لك موهبة النظم . وإنك على سبك قصص
الأبطال قادر . قص على الناس من جديد حوادث هذا
الكتاب يقدرك أصحاب السلطان وتنال الجزاء الذي
تبغى » . وجاءه صاحبه بالكتاب فاطمأن الفردوسي إلى
أن الطريق بدأ يتفتح لتحقيق رسالته .

كان الفردوسي قد بلغ حوالى الأربعين من العمر
حين بدأ ينظم الشاهنامه ، وكان عليه أن يتفرغ للنظم
والقراءة والاستماع إلى قصص شيوخ الموابذة أو غيرهم
من يعون قصص إيران في صدورهم . كان عليه إذن
أن يترك ضيعته فلا يفلحها بنفسه فإن الفلاحة والأدب
لا يجتمعان . ويتاح له أمر ذكى من ذرية الأبطال ،
له دراية بالشعر وله ولع بأن يرى أمجاد أمته منظومة في
سفر باللغة الحديثة ، هذا الأمير هو والى طوس
« أبو منصور محمد » الذى يتعهد الفردوسي ويهيئ له

من أسباب الحياة ما يجعله فى غنى عن سؤال غيره .
« ورعاني رعاية حسنة ولم يكن شىء يكدر صفو حياتى
حتى لقد رقيت من أرضنا الدنيا إلى السموات العلى
بفضل ما نعمةنى به من المال ، فقد كان يرى الذهب
والفضة لا يساويان أكثر مما يساوى التراب » :

وأخذ الشاعر فى المضى فى النظم ، وأخذ الناس
يتناقلون ما نظم من قصص وأصبح الفردوسي ذائع
الصيت فى كل مكان حتى أنه هدأ نفساً إذ أصبح من
الخالدين .

واغتيل الأمير « أبو منصور » حاميه وراعيه ،
وكاد النور الذى يضى له حياته أن ينطفى لولا أن قيض
الله له حى (حسين) بن قتيبة والى خراج طوس الذى
لم يكن يتلقى شعر الفردوسي دون أن يبعث له بعهاء
جزيل « وهو الذى أعطانى الغذاء والكساء ووهب لى
الذهب والفضة فكنت أدفع ما على من الخراج دون
مشقة وعشة فى رغد وهناء » .

ولم تكن الحياة السياسية مستقرة لآل سامان ،
وبدأت القبائل التركية تتطلع إلى الحكم ، والقصة الأزرية
التي تصورها الشاهنامه للحرب بين توران وإيران بدأت
جليه وقد اقترب الفردوسي من الفراغ من كتابه .
وعلائم الإديار بادية على الدولة السامانية التي احتفى في
ظل حكامها وعلائم الإقبال بدت واضحة للتورانيين
الذين كانوا أمراء للمجند السامانيين . ففي ٣٥١ / ٩٦٢
يظهر الب تكين التركي فى غزنة . وفى ٣٩٠ / ٩٩٩
يستولى الب على غور وخراسان ، وتأخذ الدولة
الإيلخانية ما وراء النهر . وهذه الأحداث تؤثر أشد
التأثير فى حياة الشاعر الذى تخلى عنه الأمراء الذين
ساندوه ، واضطر أن يعتمد على غلات ضيعته مرة
أخرى ، والنظرة السوداء سيطرت على رؤيته للأشياء ،
وجاء ضغثنا على إبالة سقوط الثلج الذى أثلف الزرع
وأحال الحياة إلى موات . « وتجمع السحاب وأظلم

الذي بذل فيها ، فقد قوبل عمله المحيد بالصد ونكران الجميل « بلغت الخامسة والستين وإن روجي قلق كتيب . وأشعر أني كلما مضيت أبحث في سير الملوك يتوقف عن السير نجمي وبأفل . كم من عظيم بلغ الأوج في نسبه وعلمه بفضل كتابي وكم من حاكم اشتهر بكلامي . كلهم يستنسخ شعري بالحن وأنا في مكان قصي أنظر وأرى . إنهم يحسبونني أجيراً مرتزقاً في أسرهم . لست ألقى منهم غير « أحسنت » ولقد خارت قواي مع هذا الثناء الرخيص ، أما خزانهم العامرة فوعدة أمام قلبي الكبير . »

* * *

بعض مخطوطات الشاهنامه تذكر أن الفردوسي أتمها في هذه الظروف الحزينة سنة ٣٨٤ / ٩٩٤ ، والبنداري مترجم الشاهنامه للعربية (٦٢٠ / ١٢٢٣ - ٦٢٤ / ١٢٢٧) من هذا الرأي . ويرى ماسيه أنه يمكن القول بأن الفردوسي أتم في هذا التاريخ كتابته الأولى للشاهنامه ، ثم إنه استكمل ما فاتة في الكتابة الأولى وفرغ من هذا كله سنة ٤٠٠ / ١٠١٠ .

ويذكر الفردوسي في مقدمة « يوسف وزليخة » أنه مل ذكر الملوك .

وضاقت خراسان في وجه الشاعر ولم ير بدأ من التفكير في الهجرة إلى العراق . وكان من الطبيعي أن يفكر الفردوسي في الدولة البويهية ، فأمرأوها فرس يحبون لإحياء التراث الفارسي وهم شيعة وهوى الفردوسي معهم . ثم إن دولتهم تمتد إلى الغرب والجنوب من فارس فهي بعيدة عن خراسان . ومهما يكن من أمر الخصومات بين أمراء البويهيين فإنها أقل خطراً من قن خراسان . وسار الفردوسي إلى مدينة الري (من نواحي طهران) ليتوجه منها إلى إصطهبهان ثم إلى إقليم الأهواز . كان أمير البويهيين حينذاك « بهاء الدولة أبو منصور فيروز » (٣٧٩ - ٤٠٣) ، وكان من رجاله الموفق

القمر وهطل الثلج من السحاب الأسود فلا ترى نهراً ولا سهلاً ولا جبلاً ولست بقادر على رؤية جناح الغراب ولم يبق لي من زاد أطعمه أو وقود أصطلي بناره ، وعلى أن أنتظر الموسم القادم للشعير . في هذه الأيام التي أظلم نهارها ، وفي حالة الفزع الذي ينتابني مما على من الخراج ، وبينما كسا الثلج الأرض فكأنها جبل من العاج ، كسدت بضاعتي والأمل معلق بصدیق يأتي لنجدتي » ؟

كانت هذه حالة الفردوسي وهو في الثامنة والخمسين من عمره ، وتحمل الأديب مشاق الحياة ، حاملاً العسر على اليسر ، ولكنه حين قارب الخامسة والستين أوجعه ريب المنون فقد مات ولده وكان في السابعة والثلاثين . وبكى الشيخ ولده وزهد من بعده في الحد الذي كان يرتقب وأصبحت الدنيا لديه لا تساوي شيئاً ، لقد هذه الحزن وأحس بأنه لاحق مستبج . « لقد كانت نوبتي في الرحيل ولكن ولدي الشاب ارتحل فخلف لي الحزن الذي أحالي جسداً بغير روح . إنني أحت خطاي عساي أن ألتحق به ، ولي معه حين ألقاه عتاب رقيق : لقد كانت النوبة نوبتي في الرحيل فلم ارتحلت يا بني دون إذن مني ورضا وحرمتي راحة البقاء . لقد كنت لي الفرج عند الشدة فما الذي حملك على أن تسلك طريقاً غير طريق صاحبك الشيخ الكبير . ألقيت في الشباب رفاقاً فآثرتهم على ومضيت وخلفتني وحدي » .

« إنه حين بلغ السابعة والثلاثين لم تعجبه هذه الدنيا فغادرها . . غادرها وقد ترك لي الحزن والقهر وأغرق في الدم عيني . إنه الآن في عالم النور وسيختار لأبيه مكاناً يقربه فيه . لقد انقضى زمن طويل ولم يعد أحد من رفاقه في الطريق ، لعله ينتظرنى ويود أن ألتحق به » .

والشاهنامه التي كبرت ونمت وكادت تم والتي كانت رسالة يعمل لها أصبحت شيئاً لا يستحق الجهد

إصفهان ثم إلى موطنه ، طوس ، حيث كانت الدولة
في يد محمود الغزنوي .

لم يكن قد مضى وقت طويل على وفاة الصاحب بن
عباد الذي كان من وزراء البويهيين ، والذي شجع
الشعراء والكتاب . وكانت سيرة الصاحب سنة متبعة
من بعده ، ولعل الفردوسي أراد أن يحظى في خان
لنجان - من ضواحي إصفهان - بعطف الحاكم الذي
قد يحق له بعض الرجاء .

جاء في مخطوطين للشاهنامه أبيات تقول بارتحال
الفردوسي إلى إصفهان وتصوره وقد بلغ خان لنجان
معدماً لا يقدر على شيء فيأخذه الحاكم ويكسوه
ويطممه . ولكن رجل سوء يسعى بالشر ، كالحمار ،
بينه وبين الحاكم ويخاف الفردوسي أن يتغير قلب
الحاكم عليه . ويحدث أن يخرج الشاعر في رحلة
معه في شهر « زرين رود » ويقع الفردوسي من القارب
ويكاد يغرق فيشمر الحاكم ويجذبه من شعره وينقذه
ويرده سالمًا إلى السفينة ويبدى الفرخ بنجاته فيهب
الفقراء ذبيحة فداء له .

ويختلف الكتاب في نسبة هذه الأبيات للفردوسي .
يرى قروغني أنها منتحلة فهي تم عن أسلوب أحد
النساخ المتأخرين . ويرى تقي زاده أنها صحيحة وكان
نولدكه وشيفر يريان صحبها كذلك . ونحن نؤيد نسبة
الأبيات للفردوسي .

ويخرج الفردوسي من إصفهان قاصداً خراسان ،
طوس ، حيث الدولة التركية : الغزنوية ، قد استقر
لسلطانها محمود الأمر في المشرق الإسلامي . ترى هل
يريد الشاعر الذي بلغ من الكبر عتياً والذي يصف
نفسه « بأن دوحة شبابه ذبلت ، وظاهر إهابه تغضن ،
وألف قامته بعد الاعتدال صارت كالدال ، وعقد
لآلئ أسنانه آذن بالانسلال والانحلال » هل يريد أن
يعود لوطنه حينئذٍ إليه ؟ أم أن بلاط السلطان محمود قد

(أبو علي حسن بن محمد بن إسماعيل الإسكافي) الذي
حث الفردوسي على نظم « يوسف وزليخة » وذلك بين
سنتي ٣٨٠ / ٩٩٠ و ٣٨٦ / ٩٩٦ . وأشرفت آمال
الشاعر من جديد . فإنه قد يظفر برضا « ملك الإسلام »
وحسبه أن يظفر بإحدى مراتب حاشية بهاء الدولة إذا
ما تقبل شعره قبولاً حسناً .

هكذا يصف المؤرخون والشاعر نفسه إقامته في
العراق وإلى من كتب يوسف وزليخة . وهناك رواية
أخرى تقول إن الشاعر في أواخر حياته سار إلى بغداد
حيث طلب إليه الخليفة أن يكفر عن نظمه مجد إيران
المزدية بنظم قصة مستمدة من القرآن . وعندنا أن هذه
الرواية وضعت رداً على توهم بعض الكتاب أن الشاهنامه
قامت على أساس من الشعبية ومحاولة رد الشاعر إلى
الطريق المستقيم . والحق أن الشاهنامه عمل فني رائع
قصد به إحياء تراث إنساني عظيم حرص العرب على
إخراجه باللغة العربية قبل أن يحرص الفرس على إخراجه
نثرًا أو نظماً بالفارسية الحديثة . وأمهات الكتب العربية
ملیئة بالكثير من الأخبار الواردة في الشاهنامه . وإحياء
النص العربي للشاهنامه . ترجمة البنداري ، كان أول
رسالة للدكتوراه قدمت إلى الجامعة المصرية (جامعة
القاهرة) . والنظر إلى الشاهنامه على أنها وليدة عصبية
معينة يتجافى مع ما لهذا الأثر الخالد من قيمة فنية لا مراء
فيها . وينفى ماسيه رواية توجيه الخليفة للفردوسي لينظم
قصة من القرآن .

أرضت قصة « يوسف وزليخة » الأوساط الدينية
ولكنها لم تستطع أن تعلق على الشاهنامه وتنال شهرتها
وذيوها . وكان الفردوسي ينشد الأمان والسلام في
العراق ولكنه وجد الأحوال فيه تتبدل . والموفق :
الذي عاونه وهياً له سبيل الاتصال بالأمير البويهى :
يفقد مكانته عند الأمير الذي يأمر بإلقاء القبض عليه .
 ويفقد الشاعر مكانته أيضاً ويفكر في الانتقال إلى

في أعمال الديوان . هو إذن يسير قاصداً « محمود » الملك الشجاع الأصيل ، الذي يغلب على العير برائن الأسد . ملك العالم - محمود - مسعر الهيجاء ، وناثر رؤوس الأبطال على الغبراء ؛ وقاصداً « الفراش المبسوط على الزمان ، الذي لا يطويه الحدثنان . مكان السرير من ذلك البساط الممهّد ، مجلس « الفضل بن أحمد » الذي نشر في المملكة الطمأنينة ، وأوحى إلى الكبراء العقل والسكينة . ما ظفرت الملوك بمثله وزيراً ، حزمًا وجوداً ورأياً منيراً . طاهر اليد ، فصيح اللسان ، مخلص لله وللسلطان . لقد كشف عنى الغم والحزن ذلك الوزير العادل رب الفطن » . وهو في سعيه إلى غزنة يندش « الجواد المفضال الذي لا تضرب دون نواله الأفعال » ؛ وفي يمينة كتابه « تمر عليه السنين ويتلوه كل حكيم فطين » ، « وطلدته قصرًا عظيم الخطر ، يهزأ بعصفت الريح والمطر » .

ولكن القدر الذي حرم الفردوسى من حماته ورعلاته يضمن عايه بالإقبال هذه المرة أيضاً وقد أوشك على الثمانين . من قبل اغتيال الأمير « أبو منصور محمد » والى طوس ، فلما ذهب للبوهميين وحماه « الموفق » لم يلبث هذا أن غضب عليه السلطان فعزله وقتله . وفي هذه الرحلة الأخيرة يظهر الوزير « الميمندى » وهو أفغانى - من غزنة - وينجح فى إقصاء منافسه « الوزير الفضل بن أحمد » ويقتله ، وتعود اللغة العربية لغة الديوان ، ويتوارى إلى حين محبو التراث الفارسى واللغة الفارسية ، وعلى أية حال يتغير الجو بالنسبة للفردوسى ، ويذهب الأمل فى أن يكون الكتاب « عونى فى الكبر وعمدنى بالمال والجد والصيت الأغر » يذهب هذا الأمل أدراج الرياح . محمود تركى صميم لا يستطيع أن يتذوق ما ذكره الفردوسى من غلبة أبطال إيران على توران ، مهما تكن روعة هذا القصص الإيراني . ومحمود بنى سياسته على التشدد فى التمسك بالدين فلا يستطيع أن يجيز الإشادة بالمزدية . والوزير الميمندى يعرف

استهواه وجذبه إليه . يصور العروضى فى جهاز مقاله كيف كان محمود يجمع أهل الأدب والعلم فى بلاطه ورسالته لحوارزمشاه معروفة ومعروف أن ابن سينا رفض التوجه إليه . ويصور العتبى فى تاريخه أن وزير السلطان : « أبو الهباس الفضل بن أحمد » كان يؤثر اللغة الفارسية ويستخدمها فى الدواوين والرسائل وأن العربية فى عهده أهمل شأنها « حتى كسدت سوق البيان وبارت بضاعة الإجابة والإحسان » ، فمن الطبيعى أن يلقى الشاعر الذى نظم الشاهنامه بألفاظ تكاد تكون قاصرة على الفارسية عطف هذا الوزير الذى قد يتيح له فرصة القربى من السلطان محمود . مهما يكن فإن الفردوسى سار إلى طوس وفى نيته تقديم كتابه لسلطان الدولة الجديدة التى أدالت من السامانيين . وما أيسر أن يسطر الشاعر أبيات الشعر فى مقدمة كتابه وفى ثناياه وخاتمته ، يقول « ما عرف الناس مثل هذا الملك من خلق الله العالم . لقد لاح تاجه على العرش فازدانت الأرض كأنها قطعة من العاج وضياء . كلا لا تجعل الشمس المضيئة مثلاً له ، فمحمود قد وضع على تاج الشمس عرشه . . . وقد طلع نجمى به وكان غارباً ، وفاض معين الفكر وكان ناضباً . . . » .

وفى طوس لبث بعض الوقت ، لعله كان يكتب مدائح محمود ويوجه النصائح له فى ثنايا كتابه ، وفيها لقى أخا محمود حاكم خراسان « الأمير نصر » كما لقى الحاجب أرسلان الجاذب ؛ والفردوسى يحفظ لها حسن لقاءه .

ويذكر العروضى فى جهاز مقاله أن رجلين عاونا الفردوسى فى هذه الفترة هما « على الديلمى » الذى كتب الشاهنامه فى سبعة مجلدات و « أبو دلف » الذى كان يندشها . ومع هذين الصديقين توجه الفردوسى إلى غزنة ، إلى حضرة السلطان محمود ، وإلى وزيره « الفضل بن أحمد » الذى يحب اللغة الفارسية ويؤثرها

بهم الفردوسى فى كتابه . وكما فكر ابن سينا فى أن يلجأ إلى الزيارين فكر الفردوسى ، وهو الخير بتاريخ إيران القديم ، فى أن يلجأ إلى أمير لا شك فى صحة نسبه إلى الساسانيين ، وهو أمير تابع فى ذلك الوقت للزياريين (ابن الأثير سنة ٣٨٨) . وشد الشاعر ، وهو ضيق الصدر ، رحاله إلى طبرستان . هناك يحكم رجل من أسرة قارن ، إحدى الأسرات الست القديمة فى تاريخ إيران ، اسمه شهریار . والمعروف أن طبرستان — كما يقول « لوسترانج » فى « بلدان الخلافة الإسلامية » — هى آخر إقليم إيرانى دخل فى الإسلام . وأن حكامه الذين حملوا لقب اصهبند (سپاهبد) ظلوا بعد الفتح العربى لبلادهم يحكمون مستقلين ، لهم نقودهم الفهلوية ولم دينهم الزردشتى ، وكانوا كما يقول « كريستنسن » فرعاً من الأسرة المالكة الإيرانية القديمة . وظلت أسرة قارن تتمتع بامتيازها فى تحديد سلطة الملك ، وفى التتوج بتاج أصغر من تاج الملك ، فى العهد البرقى وكانوا يحملون لقب « پهلو » . وشهریار الذى قصده الفردوسى هو « شهریار بن شروين بن رستم بن سرخاب بن قارن بن شهریار بن شروين بن سرخاب بن مهر مردان بن سهراب » . سار الفردوسى إلى طبرستان التى يظنها جبل ديباوند موطن السيمرغ الذى تبنى زال والده رستم ، وهما البطلان اللذان أشادت بهما الشاهنامه ، لعله يجد عند أميرها ملاذاً بعد أن اقترب من الثمانين وأصبح خالى الوفاض وإن كان بين يديه أعظم كتاب فى الأدب الفارسى . ويلتقى بشهریار ويقول : « سأحول هذا الكتاب من اسم محمود إلى اسمك فإن هذا الكتاب كله أخبار أجدادك ومآثرهم » . ولكن شهریار يهدئ من روع الشيخ الكبير ، فهو عاطف عليه ، يحب للعمل الرائع الذى قام به ، عازم على أن يمنحه بعض المال ليعينه عوناً ما . خفى على الفردوسى أن الزياريين ، والأمير من أتباعهم ، قد أصبح هواهم مع محمود منذ سنة ٤٠٣ / ١٠١٢ ، ولا يستطيع شهریار أن يأتى بعمل

لشاهنامه قدرها ولكنه لم يكن يستسغ استخدام الفارسية فى الأدب وفى الديوان فهو لا يستطيع أن يكافئ الفردوسى المكافأة التى يستحقها صاحب هذا العمل العظيم . ثم إن هذا الوزير جاء على أثر ضائقة مالية هى التى أودت بسلفه وكان السلطان محمود فى حاجة إلى المال الكثير لغزواته فى الهند فلم يكن فى مقدور الميمندى أن يشير بإعطاء الفردوسى صلة تتناسب مع قيمة الشاهنامه وهو الحريص على توفير المال للسلطان . وقد رأينا أن الفردوسى ذهب إلى بلاط البويهيين حين رأى ما سبق القضاء على الدولة السامانية من فتن ، فهو إذاً شيعى من طوس ، وهو يلجأ إلى الدولة الشيعية . فهو إذاً شخص غير مرغوب فيه من الدولة الجديدة الغزنوية . ولو أن الميمندى قدر الشاهنامه كعمل فى لا دخل للمذهب الدينى فيه فإنه قد يعرض نفسه لمنافسيه ولمن يحيطون بالسلطان الذى كان بنفسه حريصاً أشد الحرص على أن يقضى الشيعة من حوله . وقد تعرض رجل من كبار رجال هذا السلطان لسخط خلفه مسعود ولم تكن جريزته تودى إلى شتقه لولا أنه أتهم بصلته بالخليفة الفاطمى بالقاهرة . فالتشيع كان أمراً غير مرضى عنه من الغزنويين ، ومن هنا كان الوزير الميمندى غير حريص على مكافأة الفردوسى المكافأة التى يستحقها . والفردوسى لم يذكر الميمندى فى الشاهنامه ، فقد كان عازماً على تقديمها للسلطان فى عهد وزيره القتيل « الفضل » . تحدثنا العروضى فى جهاز مقالته بأن السلطان سأل من حوله كم يعطى الشاعر فقالوا خمسين ألف درهم واستكثروا هذا المال فأرسل السلطان له عشرين ألف درهم . ولا تعد هذه الصلة شيئاً إذا قيست بما كان يبذله محمود للشعراء الذين مدحونه . وكان « محمود » لم يلتفت إلى الكتاب الذى جمع « تراث الفرس » الذى حرص على إحيائه العرب والفرس جميعاً : إنما عنى بذكر اسمه فى الكتاب فتمثل جوده فى هذا المبلغ الضئيل مكافأة على حشر اسمه بين أسماء الأبطال الذين أشاد

ثم يتجه إلى السماء يسألها : « أيها السماوات العلى لماذا أفقرتني في شيخوختي ، لقد كنت سمحة معي في صباي فلما كبرت تركتني للهوان . . » .

وفي غزوة كان السلطان محمود قد ندم على سره تصرفه مع الفردوسي . هل هي وساطة شهریار « الذي قدم لمحمود بدأ عظيمة وقد عرف له محمود حقه » كما يقول العروضي ؟ أو هل هو « نصر » والى خراسان الذي تدخل عند أخيه السلطان محمود ليرضى عن الفردوسي ويقدر عمله ؟ أو هل هي قصص الشاهنامه وكان يتغنى بها الناس في كل مكان عرفت فيه ؟ كل هذه الفروض جائزة كما يقول « ماسيه » . وبيروى العروضي أنه « سمع سنة ٥١٤ في نيسابور من الأمير معزى أنه سمع من الأمير عبد الرزاق بطوس أن محموداً كان في الهند مرة ، وبينما هو عائد منها إلى غزنة عرض له ثائر في قلعة حصينة وكان منزل محمود في اليوم الثاني عند باب هذه القلعة ، فأرسل إليه رسولا أن ائت غداً و قدم الطاعة . . فلما كان الغد ركب محمود . وبينما الرئيس الكبير (أحمد بن حسن الميمندي) يسير عن يمينه إذ عاد الرسول وأقبل شطر السلطان . فقال السلطان للرئيس الكبير ، ماذا يكون الجواب . فأنشد الرئيس بيت الفردوسي : إن لم يأت الجواب كما أريد فأنا والجزر والميدان وأفراسياب . قال محمود لمن هذا البيت الذي تنبعث الشجاعة منه ؟ قال للمسكين الفردوسي الذي احتمل العناء خمساً وعشرين سنة وأتم هذا الكتاب وما جنى أية ثمرة . قال محمود : أحسنت بما ذكرتني فقد آسفني أن يحرم عطائي هذا الرجل الحر ، ذكرتني في غزنة لأرسل إليه شيئاً . . ثم أمر له بستين ألف دينار ، يعطاها نيلجا وتحمل على الإبل السلطانية إلى طوس ويعتذر إليه . ومضت سنون والرئيس في شغل هذا . . وأخيراً وصل النيلج سالماً إلى الطابران » . (كانت طوس تتألف من المدينتين التوأمن الطابران ونوقان) .

يغضب « محمود » ، والشاهنامه التي لم يقدرها محمود لا يستطيع هو أن يبدي إعجابه بها ولا أن يصل الشاعر بما يتكافأ معها . هون على الفردوسي وأكد له « أن محموداً حمل على هذا وأن الكتاب لم يعرض عليه وأنه سعى بك ، ثم أنت رجل شيعي ، وكل من تولى آل البيت لم تستقم له أمور الدنيا إذ لم تستقم لهم أنفسهم . وكان الفردوسي قد نظم مائة بيت في هجاء السلطان محمود فعرض شهریار أن يشتري هذه الأبيات ، كل بيت بألف درهم ، على أن تبقى الشاهنامه باسم محمود وعلى أن يمحو شهریار أبيات الهجاء . وقبل الفردوسي . وبعد قرابة مائة عام يذكر العروضي ستة أبيات من هذا الهجاء تبين مدى غضب الشاعر على محمود الذي خيب أمله فيه . « لقد قالوا طاعنين : إن هذا المنطوق شاب على حب النبي وعلى ، ولئن حكيت لمم حبي لأحمن مائة مثل محمود . إن ابن الأمة لا يرجي خيره ولو كان أبوه ملكاً . حتام أطيل الكلام في هذا ، وهو كالبحر لا أعرف له قراراً . لم يكن للملك قدرة على الخير وإلا لرفعتني على العرش ، ولم يكن عظيم الأصل فلم يحسن أن يستمع أسماء العطاء » .

والأرجح أن محموداً لم يسمع هذا الهجاء فلو أنه لم يمح وعرف به محمود لما عرف لشهریار حقه فكافأه ولما استطاع الفردوسي أن يعود إلى بلده طوس بعد مراضاة شهریار له . ومن المستبعد أن يعيد الفردوسي سطر هجائه لمحمود بعد أن قبل شراء شهریار لهذا الهجاء ، وبعد أن وعد ببقاء الشاهنامه باسم محمود ، وترك مديحه إياه — وهو في جميع مخطوطاتها — .

وعاد الفردوسي إلى طوس مهد شابيه ، جسداً محطماً وروحاً حزيناً : « قليل من الناس يتجاوزون السبعين وأنا أدري أن ليس لهؤلاء غير الألم والبكاء على حياة أية حياة . لقد مس المرض قديمي فأقعدني وأذني ففهيما وقر . وعدت على السنين وأسلمتني إلى الفقر والعوز » .

دون جدوى ، وكان للفردوسى حديقة عند هذه البوابة - اقتناها من صلة شهریار - فدفنوه بها . وزار العروضى قبره فيها سنة ١١١٦ / ٥١٠ .

أقام أرسلان الجاذب ، حاجب طوس من قبل السلطان محمود ، قبة على قبر الفردوسى . وهدمت القبة وأعيدت فى عهد المغول . وفى القرن العاشر الهجرى كتب دولتشاه أن قبر الفردوسى معروف بزوره المعجبون به . وفى القرن نفسه كتب نور الله الشسترى أن القبر أصبح خراباً كطوس نفسها وأن هدمه كان بأمر من عبيدالله خان الأوزبكي و« أن كثيراً من الناس . وخاصة من الشيعة الإمامية ، يزورون هذا القبر الذى شرفت بزيارته » . (تاريخ بخارى : فامبرى ، ترجمة السادق) .

ورأى سايكس . صاحب تاريخ إيران : القبر وصوره فى كتابه ، ولا يتبين فى الصورة إلا أحجار مثورة فى العراء .

ومن بلغ شهرة الفردوسى ، وخلف أثره كالشاهنامه ، هو أس التراث فى أمة ، لا يعنيه قبر مشيد ، وكان مولانا الرومى يعنيه حين يقول :
« لا تبحث تحت الثرى عن ترابنا
فقلوب أحبائنا خير قبورنا »

فى عام ١٩٢٥ تألفت فى طهران جمعية لإحياء ذكرى الفردوسى وتشيد قبر له . وفى سنة ١٩٣٤ احتفلت إيران بمرور ألف عام على الفردوسى وأقامت له قبراً مهيباً حيث دفن . يراه الزائر على مسافة أربعين كيلو متراً من مشهد . مدينة الرضا عليه السلام .

- ٢ -

والشاهنامه ستون ألف بيت بالتقريب ، والمطبوع والمخطوطات تختلف فى العدد . وإذا استثنيت الأبيات الألف التى نظمها الدقيقى وأدخلها الفردوسى فى

والمعروف أن الوزير الميمندى عزل سنة ٤١٦ / ١٠٢٥ . وسبق عزله هزات عنيفة لمركزه . ورغم أخوته فى الرضاة للسلطان محمود ومع ما بلغه من قوة حين أصبح وزيراً ، فإن خصومه كثر عددهم ، ونجحوا آخر الأمر فى إقصائه وولى مكانه حسنك (أبو على الحسن بن أحمد العباس) .

وبصور سيف الدين حاجى فى كتابه « آثار الوزراء » (منشورات جامعة طهران ١٩٥٨) ما كان من محاولات للإيقاع بالميمندى وقد طالت سنوات قبل عزله . وحسنك هذا شقيق ، كما قلنا ، فى عهد السلطان مسعود بحجة صلته بالخليفة الفاطمى بمصر وكان شقيقه بإيعاز من خليفة بغداد (التائم بأمر الله) . ومن المحتمل إذأ أن الميمندى ، مجارة لميل أقوى خصومه ، رق للفردوسى وعمل على كسب رضاء السلطان عنه .

ومهما يكن فإن الشاعر الشيخ المحطم يتوفى قبل أن ينال صلة السلطان « فبينما الإبل تدخل من باب رودبار كانت جنازة الفردوسى تخرج من باب رزان » .

أما صلة السلطان فهناك روايتان عنها . واحدة تقول إن الفردوسى خلف بنتاً عظيمة النفس أرادوا أن يسلموا إليها هبة السلطان فأبت : حرصاً منها على كرامة أبيها وإجلالاً للشاهنامه التى أصبحت بعد موت ناظمها فوق الصلوات . قالت « لا حاجة نى إلى هذا المال » ، فعمروا به رباط جاده فى حدود طوس . والرواية الثانية تقول إن المالك عرض على أخت الفردوسى فأخذته وأنفقته على إقامة جسر على النهر الذى كان يروى أو يطغى على أرض الفردوسى فحققت لأخيها أملا طالما تمناه فى أشعاره .

وتلاحق تهمة التشيع جنازة الفردوسى ، يقول العروضى إن واعظ الطبران المتعصب لم يجز حمل جنازة الفردوسى إلى قرافة المسلمين بحجة أنه كان رافضياً وأن الناس أطلوا الحديث إلى هذا الواعظ

ثم الأشكانيين (البرت أو ملوك الطوائف) الذى ينهى
عهدهم اردشير مؤسس الأسرة الساسانية .

والساسانيون حكموا ، حسب الشاهنامه ، ٥٠١ سنة
وملوكهم ٢٩ . وفى التاريخ أنهم حكموا ٤٤١ سنة
وملوكهم ٣٦ ملكاً . وتاريخهم ثابت مما كتب عنهم
سواء عند مؤرخى اليونان أو فى الكتب الهلوية ثم
العربية . وفى هذا القسم الأخير تعتبر الشاهنامه مصدراً
تاريخياً للحضارة الإيرانية بوجه عام .

* * *

تصور الفترة الأولى من الشاهنامه التحول الحضارى
لشعب إيران . فالملك قد اختير على أساس القدرة على
فض المنازعات بين القبائل المتخاصمة أو على الحكم فى
الخلاف بين الأفراد . فهو القاضى الذى يرتضى الناس
حكمه ولذا يجب أن يعرف بالعدل . وهو قريب من
الله وفيه من روحه ولذا فإنه يعبد وهو يقضى بالملك إلى
أبنائه من بعده . والدنيا سكنت بالإنس والجن فكان على
هذا الملك أن يحمى الشعب من الشر الذى يذيعه
الشياطين ، وأن يحارب هذه الشياطين التى تتمثل فى
التين وغيره من الحيوانات الخبيثة المفسدة . وفى هذه
الآفة اكتشف الملوك وسائل الحياة من الملابس والنار
والزراعة والكتابة وأكل لحم الحيوان . كما قسموا
الجمتمع إلى طبقات وأقاموا العرائر ونظموا الجيش .

فالملك هوشنك مثلاً يجتاز الجبل ذات يوم مع بعض
رجاله فىرى ثعباناً ضخماً يتطاير الشرر من عينيه وتظلم
الدنيا من حر أنفاسه ، فيأخذ حجراً ويلقيه عليه بكل
قوته فاذا الثعبان يجرى ليختبئ ولكن الحجر يقع على
صخرة فتخرج شرارة من تكسرهما ويحمر موضع
الشرر . وبدأ ظهور النار . وقد دعا الملك الناس إلى
التوجه بالشكر إلى الله لأنه هداهم إلى النار . وفى الليل
أشعل ناراً عظيمة التف حولها مع صحبه وشربوا
الخمر . وسما هذا الاحتفال سده (السدق) .

كتابه ، فإنها تكون كلها نتاج شاعر واحد . ولا يبارى
الشاهنامه فى طولها كملحمة إلا بعض الملاحم الهندية
ولكن الشاهنامه تمتاز بأنها نظم شاعر واحد .

وهى تتناول قصص وتاريخ أربع أسرآت :
البيشداوية (أهل العدل) ، الكيانية (كى ، كاوى
بمعنى الملك) ، الأشكانية ثم الساسانية .
ولم يهتم الشاهنامه إلى الأسرة السلوكية : خلفاء
الإسكندر .

والقصص الذى يروى تاريخ الأسرتين الأولى
والثانية يكاد يكون خرافياً كله . فلوك الأسرة الأولى
عشرة حكموا ٢٤٤١ سنة ؛ وملوك الأسرة الثانية عشرة
أيضاً حكموا ٧٣٢ سنة .

وقصص الأسرتين موصولة ومتصلة بالأساطير
الهندية إلى عهد هراسب الذى كان قد ترك الملك وتفرغ
للعادة ثم جاء الملك التركى ارجاسب وقتله .

بعد هراسب يأتى عهد كشتاسب ، الذى ظهر فى
أيامه دين زردشت ، وبه تبدأ القصة التاريخية وتكون
أقرب إلى التاريخ ، ويمكن إدخال الدور الأكمينى
(المخامنشى) فى هذا العهد . فكوروش الكبير (الثانى)
هو كيخسرو وقمبيز هو كيكائوس وبهمن هو
ارت خشتر (اردشير الأول - ارتجزرسيس) وهكذا .
والشاهنامه ، على خلاف التاريخ ، تنهى هذه الأسرة
بحكم الإسكندر المقدونى وتجعله ضمن الكيانيين ، فهو
ليس أجنبياً عن إيران حتى يعد غازياً لها إنما هو ابن
داراب ، وداراب هو أخو الملك دارا الثالث الذى
تزوج بنت فيليب ملك الإغريق فأنجبت له الإسكندر
الإيرانى .

والأسرة الثالثة ، الأشكانية (دولة البرت) ،
حكمت فى الشاهنامه ٢٠٠ سنة ، ولا تذكر الشاهنامه
أسماء حكامها جميعاً ، وهى تعدم أجنب ولا تعنى
بهم . والتاريخ يذكر ، بعد الإسكندر ، السلوكيين

الحيتين . واتخذ إبليس هيئة الطبيب ودخل على الملك فقال له هذا قدر كتب عليك والعلاج أن نطعم الحيتين حتى لا يضحج منهما الملك وطعامهما لا يكون إلا من أدمغة البشر . فأخذ الملك برأى الطبيب وقتل ما لا يحصى من الخلق لإطعام الحيتين بأدمغتهم . كان كل ليلة يأمر بقتل رجلين .

وكان لجمشيد طفل هربت به أمه إلى الهند وأحسن تربيته حتى إذا شب وعرف ما يجربه الضحك من المظالم في إيران أخذ يستعد لتخليص البلاد من شره . والضحاك في الوقت نفسه يسرف في الدماء ويتبع أخبار هذا الولد - أفريدون - الذي حدثه المنجمون عن أمره ويجمع الضحاك العلماء والزهاد من حوله عسى أن يدفع عن نفسه بعونهم . وذات يوم يثور « جاوه » وهو حداد قتل أحد ولديه وجاءت النوبة في اليوم التالي على الابن الثاني . ورفع « جاوه » قطعة الجلد التي يغطي بها قدميه عند تطريق الحديدية المحاة ونادى من ورائه خلق كثيرين بشعار أفريدون الذي أتجه القوم إلى محبته ليأخذوه ويجلسوه على عرش أبيه . ويقود أفريدون الثوار ويهزم الضحاك وفي اللحظة التي يريد أن يهوى بجزره على رأسه كالصاعقة يمثل ملك أمامه ويقول « إن الله يأمر بحد أجل هذا الثعبان حتى يعذب طوال الزمان ، شد وثاقه وعلقه حبساً فوق جبل دناوند » . وبهذا انتهى عهد الضحاك الذي دام ألف سنة .

وظل علم جاوه « درفش كاويان » علم إيران منذ ذلك الزمان .

وعيد أفريدون يوم ارتقائه عرش إيران أول يوم من ماه مهر ، وعرف هذا العيد باسم المهرجان . وكان له ثلاثة أبناء زوجهم من ثلاث أخوات هن بنات ملك اليمن (سرو) . واستقر له ملك الدنيا فأثر الاعتزال للتعبد وقسم ملكه بين أولاده الثلاثة . فأعطى

والملك جمشيد الذي حكم ٧٠٠ سنة استخدم الحديد وأعد منه السيوف والرماح ونسج منه الدروع وعمل الجواشن والتجايف وسائر أدوات الحرب في زمانه . وعرف الملابس من الكتان والإبريسم وعلم الناس كيف يغزل الغزل وينسج . واستحدث الأبنية وشاد المدن . واستخرج الذهب والفضة والياقوت والفيروز فرضع بها المناطق والأساور والعصائب . ثم استخرج الطيب : المسك والكافور والبنبر . وأظهر علوم الطب وخواص الأدوية . وصنع المراكب وجاس بها البحار . وكان يسخر الجن فعمل نخناً مرصعاً بالجواهر ورتب له حملة منهم فكان يجلس عليه وهم يرفعونه في الهواء ويحملونه إلى حيثما أراد . ووضع عيد النوروز فقد كان حمل الجن لتخته أول يوم في السنة والشمس في برج الحمل فعيد اليوم وسماه النوروز . وقد طفئ وله في الحكم ٣٠٠ سنة ونسى ربه فنهاه رجال الدين عن ذلك فلم يأبه لقولهم فكان أن غلبه الضحاك وحمله على الحرب ٤٠٠ سنة ثم قده في نهاية الأمر نصفين بمنشار .

والضحاك (ازدهاق) وهو بيوراسب (صاحب عشرة آلاف فرس) ، كان أبوه مرداس ملكاً تقياً في الصحراء التي يسكنها الفرسان رماة السهام - العرب - وجاء إبليس إلى الضحاك وزين له قتل أبيه ليرقى عرشه فاستجاب لإبليس وقتل أباه . وكان يحب الأكل فتزيا لإبليس في زى طباط وأخذ يهين له خير أنواع الطعام ، وكانت الأطعمة المعروضة قليلة عندهم ، فأثر ذلك في نفس الضحاك وقرب الطباخ منه حتى صار أقرب الناس إليه . وذات يوم قال الضحاك للطباخ : اقترح حاجة أقضها إليك . فقال الطباخ دعني أقبلك بين كتفيك ، فأذن له ، ثم اختفى الطباخ فلم يعد يره الملك ، وخرج من كل واحد من كتفيه حية سوداء ، وجاء الأطباء فقطعوا الحيتين فعدتا ، كغصن الشجرة ، من جديد . وتكاثر الأطباء ولم يجد طيبهم في اقتلاع

رأسه . ثم سار إلى حيث سلم ، وكان قارن قد قطع عليه سبل الفرار فقتله أيضاً .

ويعود منوجهر منتصراً إلى جده الأكبر أفريدون الذى يقر به عيناً ، فىرى الوقت قد آن لأن يبوئه عرش إيران وليجعله خليفته ، ثم إنه يعهد برعايته إلى سام ، البطل الإيراني ، ويشعر بدنو أجله ، بعد أن حكم ٥٠ سنة . وموت أفريدون يبدأ عهد الأبطال فى الشاهنامه ، وتطفى أخبارهم على أخبار الملوك . ولا تشير الأستاق (الأوستا) إلى الأبطال بينما تذكر الملوك الخرافيين .

وهؤلاء الأبطال هم سام وابنه زال ثم رسم بن زال وأخيراً سهراب بن رسم .

* * *

ولد لسام ولد طالما انتظره ، وتطير حين رأى شعره أبيض فأخذه إلى جبل وتركه فيه . وجاءت السيمرغ (العنقاء) فرأت الطفل فأشفقت عليه وحملته إلى عشها ونشأته مع أفرانها . وكبر الولد ورأته القوافل وهى تسير بجانب الجبل وتحدث الناس عن الإنسى الذى يعيش فى شعبة الجبل بين أفران العنقاء . وسمع سام بقصة ابنه ورأى فى منامه رسولا يخبره بقصته ، وسار إلى الجبل بنفسه بحثاً عن ولده ورأته السيمرغ فأبلغت الولد ، وكانت تسميه داستان ، ونصحته بأن يقبل أن تحمله إلى أبيه . ونزعت ريشة من جناحها وطلبت إليه أن يحتفظ بها حتى إذا ما حزبه أمر أحرق الريشة فتحضر السيمرغ وتقضى حاجته . وعظم شأن زال وتبناه منوجهر وأبلى بلاء عظيماً فى حكم الهند والسند حين ناب عن أبيه سام الذى وجهه الملك للحرب فى مازندران .

وأحب زال روضه بنت ملك كابل ، وهى من نسل الضحاك ، وتزوجها بعد مشاورات طويلة وتردد . فقد كان الملك يخشى مصاهرة بيت الضحاك . ولكن زال ينجح فى إقناعه بعد أن يجتاز امتحاناً عقده

« سلم » بلاد الروم و « ثور » الصين وبلاد الترك و « ليرج » إيران وجعله ولياً للعهد . وتسم كل منهم عرشه . ولكن سلم وتور حقدوا على أخيهما وطعنا فى القسمة التى أجراها أبوهما وقالاً لهنما كانا أحق بولاية العهد من ليرج . وبعثا برسول إلى أفريدون منذرين متوعدين . فلما علم ليرج بهذا عرض على أبيه أن يذهب مسالماً إلى أخويه وأن يعمل على إخذاد ما فى قلوبهما من الحقد عليه وذلك بأن يترك ملكه قسمة بينهما . وسار إلى أخويه فأحسن استقباله ، وكان يعاملهما معاملة كلها ود وإخاء ، وكلما جرى على لسان أحدهما قول جارح قابله بالكلمة الطيبة . والكبراء حول الأخوة يشهدون عتو سلم وتور وهدوء ليرج وسلامة منطقته ورجاحة عقله وإثاره السلام وحقن الدماء ؛ فكانوا يتحدثون عنه فى إكبار وإجلال ويتهامون فيما بينهم بأن رأى أفريدون هو الصواب فهذا الشاب أجلر أخوته بولاية العهد . ويشعر الأخوان بما يتهامس به الناس ويدركان ما كسبه ليرج من تقديرهم . فيشب تور على أخيه ويرميه بكرسى من ذهب فيتوسل إليه ليرج ألا يفلت منه الزمام وأن يهدأ حتى لا تكون فتنة بين التورانيين والإيرانيين ؛ ويقسو قلب تور فيستل تخنجره ويطنن أخاه فيقتله ويحتر رأسه . ويرسل الأخوان رأس ليرج إلى أبيه .

ويحزن أفريدون حزناً شديداً ويبكيه بكاء مرأ حتى يفقد بصره . ثم يعلم أن جارية بالقمصر حامل من واده ليرج ، وتلد الجارية بنتاً ، فلما تكبر يزوجه من ابن أخيه فتلد منه منوجهر الذى يسعد جده به ويجد فيه عوضاً عن ابنه ليرج ويرد الله إليه بصره .

ويعد منوجهر جيشاً ومعه قارن (صاحب الأسرة التى ينتسب إليها شهريار الذى قدم الفردوسى الشاهنامه إليه بعد أن يئس من محمود الغزنوى) ، وسار الجيش إلى توران فهزم جيش تور ثم انقض عليه منوجهر واحتز

عابثاً . ويرسل بشنك جنوده وعلى رأسهم ابنه أفراسياب . ويموت سام في زابلستان فيذهب أفراسياب إلى إيران منتهزاً فرصة تغيب زال لحضور العزاء في أبيه . ويؤسر الملك نوذر ثم يقتل بعد أن يغلب زال جنود الترك ويقتل أعيانهم . ويلجأ أولاد نوذر إلى زال . وينصب هذا الملك زو بن طهما سب ، وهو أحد أحفاد أفريدون . ويلم القحط بالبلاد ويعجز جيشا توران وإيران عن متابعة الحرب ويعقد الصلح بين الطرفين . وتذهب الغمة وتخصر الأرض وتكثر الخيرات ولكن زو يموت ويعود أفراسياب ليحتل إيران . ويموت الملك الجديد كرشاسب وتزحف طلائع الترك على إيران ويلجأ الأشراف إلى زال فيعهد إلى ابنه رسم بالأمر ويطلب إليهم تنصيب ملك على إيران حتى لا يبقى الملك بغير رجل من آل أفريدون . فأشار المؤيد بكيقباد وسار رسم ليخبره بهذا وليكون في دولته بطل الأبطال .

* * *

ويبدأ عهد الكيانيين مع البطل رسم . وحول رسم روايات كثيرة . منها المخاطر التي اجتازها وهو يخلص كيكافوس من « سبيد ديو » - العفريت الأبيض - وقتله ملك مازندران الذي كان يستعين بالشياطين . وتذكر القصص دور « الرخش » فرس رسم .

ولكن القصة التي اشتهرت هي قصة صلة رسم سيدة من توران ومولد ابنه سهراب ثم الحرب بين الأب وابنه دون أن يعرف أحدهما الآخر . وهي القصة التي لخصها سانت بييف Sainte-Beuve بالفرنسية كما نقلها للإنجليزية ماتيو آرنولد Mathew Arnold

قال الفردوسي : خرج رسم ذات يوم للصيد عند حدود توران ، وبعد الصيد نام وترك « الرخش » يرعى فجاء جماعة من أهل مدينة سمنجان وسرقوا « الرخش » فسار رسم إلى هذه المدينة وقابل ملكها وطلب منه أن

الموايذة له وسألوه عن اثنتي عشرة أحجية أجاب عنها . (أوديب له موقف مماثل) .

وحملت روضه ، فلما جاءها الخاض تعمست وأوشكت على الهلاك . وزال واقف ترتعد فرائضه ويبكى . وفجأة يذكر ريشة السيمرغ التي معه فيخرجها من جيبه ويحرقها ، فتحضر السيمرغ ومعها الخير والأمان ، تأمر زال بأن يأتي بحديدة حادة ويعطيها إلى آس حاذق ليشق بها خاصرة روضه ثم يستخرج الولد ؛ ثم وصفت له الدواء الذي يوضع على الجرح قبل أن يخيظ . وأمرت بأن تسقى الوالدة من الشراب ما يفقدها الوعي حتى تم هذه العملية (القيصرية) . ونظرت السيمرغ في حنان إلى زال ونزعت ريشة من جناحها تركها له ثم حلقت . وجاء الآسي وقام بالأمر واستخرج ولدًا لم ير له مثيل ، جمالا وقوة ، كأنه ابن عشر سنين . وليثت روضه مغشياً عليها يوماً وليلة فلما أفاقت ورأت ولدها بجانبها حلقت فيه وحنث عليه وقالت « برسم - أي نجوت » . فسمى الولد « رسم » .

وجيء للطفل الرضيع بمرضعات عشر ، فلما تم فطامه كان يأكل أكثر من نصيب خمسة رجال . وفي شبابه المبكر كان يصرع الفيل الثائر بضربة واحدة .

وامتحنه زال ليرى مدى دهائه بجانب ما أوتي من قوة ، فكلفه بفتح قلعة حصينة ، فتحفى رسم ورجاله في زى التجار وخبأ السلاح في أكيسة الملح ، ودخل القلعة فجعل عاليها سافلها . فاطمأن الوالد إلى قدرة ولده وكتب بذلك إلى جده سام .

* * *

ومات الملك منوجهر وكان قد أوصى بالملك لولده « نوذر » وأوصاه بأن يتبع النبي الجديد إذا ظهر بناحية المغرب ، وحذره من جنود بشنك ملك الترك وابنه افراسياب ونصحه بأن يستظل بحماية الأبطال ، سام وأولاده . ولم يكن نوذر جديراً بالملك ، كان لاهياً

صلة الرحم ثم يتبدد هذا الأمل. وتنتهى المعركة بأن يقتل
رستم ولده سهراب ويراه وهو محتضر ويستمع إليه
يقول : « إن كنت أنت رستم فإنما قتلتني وأنت أعمى
القلب ، فكلم تعرفت إليك وتملقت لك فما تحرك عرقك
ولا لان قلبك . فحل الآن معاهد جرشني . . فإن أمي
حين ودعتني شددت على عضدي خرزة وقالت هذه
من أبيك » . . فلما رأى رستم الخرزة فقد من الحزن
الصواب ، فلما تاب إلى رشده أسرع في لإرسال رسول
يطلب من الملك كيكائوس دواء لإيقاف نزيف ولده . .
ويأتي الملك النذل أن يسعف الولد والوالد جميعاً ، غلبه
طبعه السيئ . . وعاد الرسول ليخبر رستم بمنع الملك
الدواء عن ولده فيسرع بنفسه للملك وفي الطريق يلاحقه
الخبر بأن سهراب مات . .

وقد أبدع « عزام » حين نظم ، على مثال شعر
الشاهنامه ، سماع أم سهراب بقتله :

وأخبرت الأم أن البطل	بسياف أبيه أتاه الأجل
ففرقت الدرع أظفارها	فلاحت تلاً لأبشارها
تئن وتجار جهد الحزين	ويتأبها الغشى في كل حين
تلف أصابعها بالشعر	فتجتز من أصلهن الطرر
وتندري على الخلد دمع الدم	وتكبو وتنفض في الماتم
ومدت لها سنة في العمر	لنوح الليالي وندب النهر
وأسلمت الروح مما بها	فطاررت تجن لسهرابها

وينتقل الفردوسي بعد قصة سهراب ورستم إلى
قصة جديدة لسياوخش بن كيكائوس . تزوج كيكائوس
من سودبه بنت ملك هاموران (حمير) ، كما أنجب
ولداً من فتاة تركية يتصل نسبها بأفريدون وسمى الولد
سياوخش ، وعهد بتربيته إلى رستم . وتتكرر القصة
التي كانت بين امرأة بوتيفار وسيدنا يوسف (امرأة
العزیز وسيدنا يوسف في القرآن) . فتراد سودبه ابن
زوجها سياوخش عن نفسه فلا يجاوب وتخبر الملك

يحضر الرخش بالحسنى . وهذا الملك من روعه واستضافه
في قصره . وفي الليل جاءت تهمينه ابنة الملك ، فعقد
عليها برضاها . فلما أذنت الشمس بالطلوع أعطاها خرزة
كانت مشدودة على عضده ، وقال لها : « إن رزقت
أنثى فاربطها في قرونها ، وإن رزقت ابناً فشدتها على
عضده » . ثم إن ملك سمنجان دخل غرفته وبشره
بالعثور على فرسه . فسر رستم وركب الرخش وانطلق
إلى إيران . ووضعت ابنة الملك ولداً سمته سهراب ،
كان يشب في يوم ما يشب غيره في سنة . فلما كبر سأل
أمه عن أبيه وجدته فقد وجد نفسه أطول أقرانه قداً ،
وأوسعهم صدرأ ، وأشدهم بأساً . فقالت له أنت ابن
رستم من شجرة زال بن سام بن نيرم . وما استعلوك
إلا لأن ذلك البيت أصلك . . فقال سهراب : لأجمعن
جيشاً عظيماً من الترك والأخلعن كيكائوس عن عرشه
وأنقل تاج إيران إلى رستم ، وأعطف إلى بلاد توران
وأنتزعها من يد أفراسياب فأكون مع أبي ملكي هذه
الدنيا . وبلغ أفراسياب أن سهراب جمع جيشاً حوله
وأنه يتصدى لاكتساب المجد . . وبعث أفراسياب
برجلين من ثقافته ليسيرا مع سهراب في مسيرته لإيران
ويبدلاً أقصى المكر حتى لا يعرف أباه رستم عند
الملاقاة . وكان أمه أن يقتل أحدهما الآخر . وفي الطريق
التقى رستم بقائد قلعة واشتبكا في المباراة ، وكتب
رجل فيها إلى الملك كيكائوس ينبئه بهذا الفارس التركي
الذي لم ير مثله والذي يشبه سام بن نيرمان في عراكه
ونبه الكاتب ملك إيران إلى ضرورة الاستعداد لملاقاة
جيش هذا الفارس . فلما بلغ الكتاب الملك تشاور مع
رجاله واتفقوا على استنهاض رستم في زابلستان ليحضر
بنفسه ويدفع شر هذا التركي الشجاع .

واستخدم الشاعر وسائل الإثارة في نفسيته رستم
وسهراب ، وكثيراً من الظروف التي كانت تحول دون
معرفة أحدهما الآخر ، واللقاء بين البطلين تم على مراحل
ويقرب أمل القارئ من أن البطلين سيعرفان ما بينهما من

كيكاوس بخيانة ولده له فيأمر الملك بأن يجرى الابتها على ولده ، ويأمر بإشعال النار ويمرق سياوخش بفرسه هذه النار فتكون برداً وسلاماً عليه ويخرج منها سالماً . ويأمر الملك بقتل سوذبه ولكن سياوخش ، مقدر أحب أبيه لها وما سيكون من نعمته عليه بعد قتلها ، يناشد أباه أن يعفو عنها ، فيعفو .

ويعود افراسياب فيحشد الجيوش لغزو إيران ويتقدم ، وينتهز سياوخش الفرصة لينجو بنفسه من حباتل كيد سوذبه فيعرض على أبيه أن يخرج لدفع العدو مع رسم . ويخرج البطلان ويضطرب افراسياب ويرسل رجلاً من قبله يطلب الصلح . ويتشاور بطلا إيران ويقرر ان القبول . لقد بعث إليهما افراسياب مائة نفس من الأمراء الكبار تأكيداً لصدق ميله وإيثاره السلم . وبعد التشاور أوفد سياوخش رسم ليشرح الأمر لكيكاوس . ويغضب هذا ويهين رسم : « أحسب أن سياوخش شاب غر لم تصبه المكاره ولم تعضه النوايب . ألسنت أنت الجذيل الخنك والعذيق المرجب ومن يتعلم منه الملوك ؟ سأمره أن يهجم غير متلبث على افراسياب في تخيمه ويضع فيهم السيف ويوسعهم القتل والأسر . أما الأمراء الذين أوفدهم افراسياب فيحضرون عندي لأستقيم كأس المنون » .

وتمسك رسم بأهداب السلم وآداب الحرب وقال لكيكاوس : « ليس يحسن في الأحذوثة أن ينتشر عن سياوخش أنه أخضر الذمة وغدر بالرهائن » . ويتهم الملك رسم بأنه يشير بهذا لإثارة للدعة ، وركوناً للرفاهية ويحتد رسم ويخرج غاضباً ويذهب إلى زابلستان .

أما سياوخش فيلقى رسول أبيه الذي يقص عليه ما جرى مع رسم ويحمل إليه أمر الملك بأن يحل «طوس» محل رسم ، ثم يبين له الرسول مدى حقد أبيه عليه والمصير الذي ينتظره إذا هو عاد دون قتال افراسياب . فوجم سياوخش لما حزنه من تنكر أبيه عليه وما يخشى من

عاقبة ذلك ، ويأبى أن يسلم الرهائن إلى أبيه . وكان على سياوخش أن يختار أحلى أمرين كلاهما مر . فهو لا يريد أن يذهب إلى إيران حيث أبوه الملك النزق الشرير الضعيف الذي وقع في هوى امرأة لعوب وهو مجبر على أن يختار اللجوء إلى افراسياب فيتخذ من العدو صديقه . ويشير رجال افراسياب بوجود استقبال سياوخش على الرحب والسعة ، ويقبل ملك الترك هذا الرأي بعد تردد شديد فقد كان المنجمون يخشون هذا اللقاء الوديع ، والناصحون يرون أن ملك إيران صائر إلى سياوخش والخبر أن يكرمه الترك وهو في محنته . ويلقى سياوخش الود الخالص من افراسياب الذي يزوجه ابنته فرنكيس ، ومهب له ولاية في دولته . هناك يعيش سياوخش ويحكم ويشيد مدينة كنتكدر فتكون كالجنة في الأرض . وكان نجم سياوخش إلى النحس أميل ، فإنه يثر حقد كراسيوز أخى الملك فيوقع هذا بينه وبين أخيه وينجح مسعى السوء بين الصديقين « إنه قد تغير عما كان عليه ، وقد تكررت الرسل إليه من أبيه كيكاوس في السر ، وكذلك تأتيه الرسائل من أطراف الروم والصين ، وهو لا يشرب الآن إلا على اسم كيكاوس » ، ويقرر افراسياب إنه سلم لمن ساله وحرب لمن حاربه . ويقتل سياوخش . أما فرنكيس فتحزن لقتل زوجها ويحاول أبوها إسقاط الجنين الذي في بطنها ولكن أميراً تركياً ينقذها وهو بمكيدة كراسيوز من العالمين ، ويسمى المولود كيخسرو كما أراد أبوه .

أما كيكاوس فيدرك أنه تسبب في قتل ولده فيجلس للغزاء ويحجى رسم كالأسد الغاضب فيشبع الملك تعنيفاً ولوماً ويسرع إلى بلاطه فيدخل إلى حيث تقيم زوجته سوذبه فيجذبها من شعرها ويخرجها ويقدها بسيفه نصفين . ثم يأخذ جيشه ويسير إلى بلاد الترك . ويحتل رسم توران ويأسر ابن افراسياب . أما هذا فيهرب إلى الصين ويصحب معه كيخسرو بن

سياوخش ، وينجح جيو ابن أخى رستم فى اختطاف كيخسرو . وكان كيخسرو ينتظر هذا الخلاص الذى حدثته أمه به وكان نبوءة لأبيه قبل مقتله .

ويحضر كيخسرو إلى إيران ويلاقى جده كيكائوس الذى قام ونزل له عن نخته واعتقه وقبل وجهه ، وحضر جميع الأصهبندية والأمراء وسلموا عليه بالسلطنة عدا « طوس » ، « صاحب الكوس والمداس الذهبى وحافظ الدرغش الجاويانى » فكان يتعصب لعم كيخسرو « فرى برز » ويقول « كيف يجوز أن يكون الحفاد وارث التاج والتخت مع وجود الابن . ونحن لا نرضى ملكاً من نسل أفراسياب » . ويختلف الأمراء ويلجأون إلى كيكائوس ليقضى برأيه فيشير بأن من يفتح منهما قلعة بهممن يكون صاحب الحق فى التاج . وينجح كيخسرو فى فتح قلعة الشياطين ويعود إلى إيران فيبايعه الأمراء جميعاً ملكاً عليهم .

وكيخسرو هو كوروش فى (الآثار الباقية) ، للبيرونى ، وهو ثالث الكيانيين والثالث عشر من ملوك الشاهنامه . وهو بقية من المقدسين فى الدين الآرى القديم . وهو آخر الملوك الذين تشترك فيهم أساطير الأبتاق والفيدا . وقصة ولادة كيخسرو فى توران وتربيته بين الرعاة وما كان من إشفاق جده أفراسياب من زوال ملكه على يده ، وقتل الجلد بيد حافده فى النهاية تشبه كل الشبه ما يرويه هردوت عن ولادة كورش وما كان بينه وبين جده لأمه استياجس ملك ميديا . (پيرنيا وعزام) . وتدور الحرب سجالاً مع التورانيين أيام كيخسرو ويلعب دور البطل الأعظم فيها . وتجرى وقائع : كاموس الكشاني ، ورستم مع أكوان الجنى ، وحرب الإثني عشر رخا وغيرها .

وتنتهى حياة كيخسرو فى غموض . فهو يعتزل فى آخر أيامه ويخلو إلى ربه ويطلب إليه أن يأخذه إلى جواره . كان وقد نصره الله ومكنه من أعدائه وأتاح

له النار لأبيه وبلغه ملك المشرق والمغرب ، يخشى أن يملك العجب مقاده فيصير مثل الضحاك وجمشيد وأفراسياب وهراسب الذين كفروا بالله وجعلوا أنفسهم آلهة من دونه . ويجتمع عظماء إيران الذين هالم تصوف الملك وعزلته وانصرافه عن الملك بعد أن استقر له الأمر وهدأت الفتن ، وكما كانوا يلجأون إلى زال ورستم فى الحروب والمعارك استعانوا بهما لإقناع الملك بأن يعود إلى الحكم ويترك مناجاة ربه . ويشند زال فى حديثه مع كيخسرو ويصبر هذا ولا يخاشن زال فى الجواب فليس هذا حسناً عند الله وهو لا يأمن موجودة رستم إن هو تطاول على أبيه الشيخ المهيب ، يقول له : « لى سئمت التاج والتخت والأمر والنهى ووقفت بين يدى ربي فى هذه الأسابيع الخمسة أتضرع إليه وأسأله أن يخلص روحى من هذه الأرض المكدره حتى استجاب دعوتى وحقق أملى . ولقد رأيت فى المنام كأن ملكاً نزل على وهمس فى أذنى : « إنك قد أعطيت ما سألت فتجهز لى جوار الله الكريم ، ولا تقم فى هذه الدنيا الكدره ، وفرق الأموال على المحتاجين والفقراء والمساكين . . » فاعتذر زال عما بدر منه ، وأدرك الحاضرون أن كيخسرو ليس بمجنون إنما هو من الواصلين .

وكما انتهت حياة « يدھشترآ » وأخوته والذين كانوا فى وداعهم تنتهى حياة كيخسرو ومرافقيه .

تقول « المهاهارة » إن يدھشترآ وإخوته يسرون بعد أن اعتزل الملك ويودعهم الرجال والنساء ثم يرجع المودعون ، ويستمر السائحون فى رحلتهم حتى يبلغوا متاهة يهلكون فى رمالها ما عدا يدھشترآ الذى يسير قدماً لا يعبأ بشيء ومن ورائه كلبه حتى يدخل السماء حياً (ورتز) ؟ وتقول « الشاهنامه » إن كيخسرو صعد إلى جبل وفى أثره العطاء والنساء والرجال زهاء مائة ألف نفس يبكون ويضعجون حتى طن بصياحهم السهل

وصمم كشتاسب وأمره مطاع وعصيانه حرام في دين زردشت .

ويبدل رسم الكثير من الود نحو الشاب البطل ويقبل أن يصحبه إلى كشتاسب ولكن دون قيد ، وتلعب الأقدار دورها ويحسب اسفنديار أن رسم يحدده . وينشب القتال بين البطلين ، ومن حولها رجالها ، ودون إذن بقتال يشتبك الرجال ويقتل ولدان من أبناء اسفنديار ، فيفقد هذا صوابه ويمطر رسمه وابلًا من سهام تصيبه وتضطره إلى أن يعتمد بجبل ويطلب استئناف القتال في الصباح . ويجد أفراسياب أن الليل أقبل بظلامه فلا يلاحق خصمه . ويلجأ زال ، الشيخ الكبير الذي لم يفلح مسعاه للسلام ، إلى العنقاء فيحرق جزءًا من ريشها التي سلمتها له عند مولد رسمه ، فتحضر العنقاء وترفرق على رسمه وتغمره بخناها ثم تدخل منقارها في جراحاته وتخرج منها نصالًا أربعة ثم تمسحها بجناحها فتلتئم . وصنعت مثل ذلك بالرخش واستخرجت منه ستة نصال . ثم قالت لرسم « لأى معنى تعرضت لقتال اسفنديار . . وقاتله لا يرى الخير بعده . . وتقصير مدته ويلقى العناء ببقية عمره ، ويذوق العذاب بعد موته ؟ فإن رضيت بهذه الحالة فاركب وأبصر العجب » . فركب رسمه وسار إلى ساحل البحر . فأسفت العنقاء على شجرة من الطرفاء فقالت له : « اقطع من هذه الشجرة قضيباً مستقيماً . . وركب عليه نصالاً عتيقاً ، واجعل له قذذا . ثم إذا جاء اسفنديار يطلب قتالك فتضرع إليه وابلك بين يديه فلعلك تصرفه عن قتالك بلحو لسانك . فإذا لم يفعل فوتر قوسك وسدد نحو عينه هذا السهم . . فإنه يصيب عينه ، ويكون في ذلك حينه » . وأرشدته إلى الطريق ، ثم ودعت « زال » وطارت .

ونزل البطلان إلى الميدان فلما تقاربا يقال اسفنديار : « أيها السجزي ! كأنك قد نسيت صنيعي بك بالأمس ، وكان ظني أنك تكون اليوم محمولاً إلى الرمس . إنك لم

والجبل . ثم إن الملك التفت إليهم ونبههم إلى أنه يجتاز طريقاً صعباً لا ماء فيه ولا عشب ، فانصرف عنه زال ورسمه وجودرز ، وتبعه الباقون . . ولما طلعت الشمس ركب الملك وغاب عن أعينهم فهاموا على وجوههم يطلبونه ويبكون . . ثم تغيمت السماء واشتد الهواء ومطروا ثلجاً هلكوا تحته أجمعين .

وكان كيخسرو قد بايع لهراسب ليخلفه ، ولم يكن زال ورسمه عن هذا الاختيار راضين . ويأتى بعد لهراسب كشتاسب . وفي عهده ظهر زردشت فاعتق ديانتته . واشتهر ابنه اسفنديار (أمه كتيون بنت ملك الروم) بالبطولة .

واسفنديار هو بطل قصة المنازل السبعة (هفتخوان اسفنديار) وقد وضعت هذه القصة محاكاة لقصة رسمه المعروفة بهذا الاسم . فكما اجتاز رسمه : في مازندران ، سبع عقبات : رخش رسمه والأسد ، العطش يضعف رسمه ، رسمه يقتل الثنين ، قتل رسمه امرأة ساحرة ، رسمه يأسر أولاد ، حرب رسمه أوزنك الجنى ، قتل رسمه الجنى الأبيض : يجتاز أفراسياب سبعة خطوب . واسفنديار هو بطل دين زردشت أيضاً . تعاون في نشره بالسيف وعاون الوزير جاماسب في إحيائه . واسفنديار هو الذى خلص والده كشتاسب أكثر من مرة وهو الذى قتل ملك الترك ارجاسب .

ويلقى اسفنديار من أبيه مثل ما لقي سیاوخش : فإن كشتاسب حريص على الملك حرصاً أنساه الشفقة على ولده البطل ، فهو يستمع إلى كرزوم الذى سعى إليه بالوبيعة وصور له أن ابنه يتأمر عليه ، وقر في نفس كشتاسب أن يتخلص من اسفنديار .

وكان رسمه في زابلستان ملكاً لم يبايع ملك الملوك ، فأمر هذا ابنه اسفنديار أن يذهب إلى زابلستان ويأتى برسمه أسيراً في القيد . وعبثاً يحاول الابن أن يثنى أباه عن طلبه ، ذاكرًا رسمه وحروبه وإنقاذه إيران .

لا بد من الانتقال الآن إلى فن الفردوسي في الشاهنامه فالحديث يطول لو تحدثنا عن العهد الساساني كما تصفه الشاهنامه : وإنما يكون هذا موضوع مقال على حدة .

والشاهنامه وهي نقص وقائع البطولة والانتصارات الكثيرة والمزائم القليلة لا تكتفي بالحرب وحدها . وإنما هي تتحدث عن الحرب والمآدب - رزم وبرزم - وتحدث عن الحب حديثاً عذباً كالذي ذكرنا بين زال وروذبه وكالذي كان في العهد الساساني بين خسرو وشيرين . وعنيت الشاهنامه بالحديث عن الخيل فرخش رسم وبهزاد سياتوخش لهما نصيب مرموق في الكتاب . وتحدثت الشاهنامه أيضاً عن الصيد . وكان رياضة الفرس المفضلة . ولعب الكرة والصولجان والأدب وتذوق الموسيقى .

والملاحظ في الشاهنامه أن الكلمات العربية قليلة فيها . لا تتجاوز ٤٣٠ كلمة . وربما عمد بعض النساخ إلى وضع هذه الكلمات . والفردوسي عمد إلى أن يجعل الشاهنامه إيرانية خالصة فهي تروي تراث أمة وعلى الشاعر الفنان أن ينظم هذا التراث بلغة هذه الأمة ما استطاع . فليس عن تعصب أن يعمد الشاعر إلى إحياء لغة الإيرانيين . وإذا نحن رجعنا إلى الترجمة العربية لبعض أجزاء الخدای نامه أو لكتاب تنسر فإننا نجد في هذه الترجمة آيات من القرآن والحكم والأمثال العربية . لأن المترجم إلى العربية يكتب إلى العرب ويحاول التقريب بين العرب والفرس . أما الفردوسي فينظم الشاهنامه بالفارسية للفرس فلم يكن عليه أن يكثر من الألفاظ العربية . وروعة الشاهنامه في أسلوبها هذا . وهي بهذا الأسلوب . الذي يعد أوج الشعر الفارسي الذي يتحدث عن التراث : من أيسر النصوص فهما لطلاب الثقافة الفارسية . فهو السهل الممتنع كما يقولون .

تبراً إلا برقية أبيك وسحره . وأسأد عليك اليوم سبيل حيلته ومكره . فأجعل بدنك كالغربال بصادرات النبال . . . » . فقال رسم : « إني ما جئت اليوم للقتال . وإنما جئت لأتضرع إليك عساك تجنح إلى السلم وتطفئ من قلبك نار الحقد » . ولكن القادر يدفع أفراسياب إلى الشر ويصرب رسم عليه السهم فيصيب عينه فينقلب عن ظهر فرسه ثم يماسك وينزع السهم ويجري إليه ولده بهمن . ويختصر اسفنديار ورسم قائم في مكانه ويلتفت إليه البطل وهو في نزعه الأخير ويقول له : « لم يقتلني غير أبي كشتاسب حيث أكرهني على قتالك والآن فهذا ولدي بهمن تسلمه مني واحمله معك إلى زابلستان ورببه تربية الوالد لولده » . ويضع رسم يده في يد اسفنديار ويعاهده على أن يربي ولده ويسعى له حتى يكون ملكاً . وموت اسفنديار .

أما رسم فيقتله أخ له من أبيه اسمه شغاذ . هياً له حفرة غرز في قاعها نصولاً محددة ثم غطاها . ودعا رسم إلى الصيد فوقع برخشه في الحفرة فزقته الحراب ولكنه يخرج مثنخاً بالجراح القاضية من الحفرة ويطلب إلى أخيه أن يعطيه قوسه ونشابتين ليذود بها السباع عن نفسه حتى يموت . وقدم شغاذ لأخيه قوسه ووترها فتناولها رسم وخاف شغاذ فتدرس بشجرة دلب كانت هناك مجوفة قد أتت عليها السنون . فرمى رسم الشجرة بنشابته فتفطت فيها وخلصت إلى شغاذ فخاطته مع الشجرة وأصمته . ويموت رسم وتنتهي حياة أعظم أبطال الشاهنامه .

* * *

وتمضى الشاهنامه بعد ذلك . فتم تاريخ الأكميين وتجعل الغزو الإغريقي إيرانياً صرفاً فلاسكندر مهم وليس أجنبياً ثم تتحدث عن الأشكانيين ثم الساسانيين فتصور عصورهم الزاهية ثم عصر التحلل الذي جعلهم فريسة سهلة للمنا للفتح العربي .

* * *

حبيب ، وأترج كأنه يفوح عن مسك سحيق وعنبر
فتيق . فقعد بن يدي ينثر الجنك ويترنم ، ويسقيني
المدام ويزمزم ثم قال : إن كنت لا تنام فاصغ إلى حتى
أقرأ عليك من الكتاب الفهلوى قصة لتنظمها .

* * *

منو جهر يختبر ذكاء زال :

فأحضر منو جهر موايدته وعقد مجلساً عظيماً ،
وجاءوا بزوال فأمرهم أن يباحثوه ويسائلوه : فتصدى
موبد وسأله عن اثنتي عشرة شجرة جذب بأضباعها
السموق ، ومد من أعضاها البسوق ، قد تشعب من
كل واحدة ثلاثون غصناً لا يرى الناس فيها زيادة
ولا نقصاً .

وسأله آخر عن فرسين أحدهما كبحر من القار
والآخر كالبلور النضار ، لا يزالان يتراكضان ،
يتعاقبان ولا يتسابقان .

وسأله آخر عن ثلاثين فارساً يعرضون على
السلطان ، إذا عبروا نقص منهم واحد ، وإذا رجعوا
فلا ناقص ولا زائد .

وسأله آخر عن روضة معشبة يرف نباتها في روتق
الغضارة ، وتروق العيون بالبهجة والنضارة ، ثم ينحى
عليها ذو منجل ينزل بساحتها مكروه الخطب ، ويجمع
في حصدها بين اليابس والرطب .

وسأله آخر فقال : شجرتان من بواسق الأشجار ،
نابتان في البحر الزخار ، على كل واحدة منهما وكر
لطائر يصبح على إحدهما ويمسى على الأخرى ، إذا
طار من هذه تساقطت أوراقها ، وإذا وقع على الأخرى
راق العيون لإبراقها ، فتكون أبدأ أحدهما ناضرة
والأخرى ذابلة .

وسأله آخر عن بلدة طيبة حصينة في ذروة جبل ،
تركها الناس وعمدوا إلى أرض تبت القناد فأرسوا بها
الأوتاد ، وبنوا بها الدور وشيدوا فيها القصور وتناسوا

كان للفردوسى مقلدون كثيرون من الفرس ،
على مدى التاريخ ، ولكن أحداً لم يبلغ بنظمه روعة
شعر الفردوسى ، فشتان بين رجلين أحدهما يتخذ من
عمله رسالة يكرس لها حياته والثاني يقلد مجرد تقليد .
وقد ذكر الكتاب أسماء هؤلاء المقلدين (عزام وندا)
وأما الأدب الأوربي فقد تأثر بترجمة مول للشاهنامه ،
فقد تلها ترجمات كثيرة بلغات مختلفة . واتخذ بعض
الكتاب قصة من قصص الشاهنامه وأقام عليها قصة
جديدة وقد ذكرنا بعض هذا في ثنايا البحث .

والشاهنامه بأسلوبها هذا السهل الممتنع ، وبروعة
ما فيها من قصص حافز للهمم ، مهذب للنفوس ،
شاهد بالقيم الإنسانية العالية ، لا تزال جديرة بالقراءة
العميقة التي قد تلهم بأدب ينفع الناس . وقد تأبه
المصريون لهذا الأثر العظيم فنقله البندارى للغة العربية
في القرن السابع الهجرى ، وكان عزام في القرن العشرين
أول من نهنا إلى الشاهنامه حين نشر ترجمة البندارى .

- ٣ -

قال قبل أن يكتب قصة يزن ومنيزه :

« لله ليلة سوداء ذات جناح أحمر كأنه طلي بالمداد
أو لبس ثوب الحداد . لا يرى فيه بهرام ولا كيوان
ولا عطار د : وكان النجوم فيها مثل العيون رواقد .
قد توأرى قمرها بالحقاق ، وقطعت ظلّمها أشواط
الإحداق . وقد ألقيت على الأرض بالجران ، ووقف
الفلك فيها عن الدوران . لا حس فيها ولا همس ، كأن
الأحياء فيها حالقوا الموت . فاستولى على السهاد ، ونبأ
بى الوساد . فصحت بالغلام وقلت : قد طال الظلام ،
وشرد عن عيني المنام . فقم وأشعل الشمعة وهي المجلس
وأحضر الشراب واستنطق الجنك والرباب ، فقام
والنعاس يرتق في عينيه ، والترف يميل بعطفه . وجاء
بشمعة كالذهب على رأسها تاج من الذهب . ثم جاء
برحيق ، وorman كصرر عقيق ، وسفرجل كأنه سرر

ومن قصة مزدك :

واتصل بقباد رجل فصيح اللسان ، غزير العلم ذو رأى وعقل ، اسمه مزدك . وأقبل عليه قباد واتخذة دستوراً (وزيراً) وخازناً . فاتفق أن أصاب الناس في ذلك العهد لزبة شديدة احتبس فيها القطر وهلك الزرع فاجتمع أكابر إيران على باب قباد ، وضجوا مما هم فيه من الضيق والشدة وعدم الأوقات . فقال لهم مزدك : إن الملك سيزيل ظلامتكم ويحقق طلبتكم . ودخل على الملك وقال : ماذا تقول في رجل معه جملة من الترياق المحرب ، وعنده رجل قد لدغته الحية وهو على شرف الموت وصاحب الترياق يمنعه عنه ويضن به عليه ويدعه حتى يموت ؟ قال الملك إن صاحب الترياق مأخوذ بدم هذا اللديع ويجب أن يقتل به . فقام مزدك وخرج وقال للمعتلمين : إني فاوضت الملك في أمركم فانصرفوا الآن وعودوا إلى الدرگاه غداً . قال فانصرفوا وعادوا بكرة ، كما سبق الوعد . فدخل مزدك على الملك ودعا له وأثنى عليه ثم قال : قد أجبتي أمس عن مسألتى ، وأريد اليوم أن تجيبني عن مسألة أخرى أسألك عنها . فقال : سل . فقال مزدك : ماذا تقول فيمن حبس رجلاً وقيده ومنعه الطعام والشراب حتى مات ؟ فقال : هذا المسكين متقلد دم لم يسفكه . فخرج مزدك عند ذلك وقال لمن حضر من المتعلمين : إن الملك قد أباحكم ما في الأهراء من الغلات فابسطوا أيديكم وأينما وجدتم منها شيئاً فاستبيحوه . ففعلوا ذلك وطنت المدينة وماجت العامة الذين أخرجتهم المحاعة وانتهيت غلات السلطان وغيره . فأتهى إلى الملك ذلك وأخبر بأن مزدك هو الذى رخص لهم في ذلك . فاستحضره وسأله عن السبب الذى حمله على ما كان . فقال : إن الجائع هو اللديع والطعام هو الترياق ، وقد أباح الملك دم صاحب الترياق إذا لم يتدارك حشاشة اللديع المشرف على الموت وقد رأيت الناس يموتون جوعاً ولا خبر عند أرباب

تلك البلدة الطيبة ، فبينما هم كذلك إذ خسفت بهم أرضهم ، وقامت عليهم القيامة ، وحالقتهم الحسرة والندامة .

قالوا لزال : إن أوضحت هذه الرموز كنت العالم الحبير ، فأطرق ساعة ثم رفع رأسه وأعاد تلك المسائل ، ثم قال :

أما الشجرات الاثنتا عشرة فهى عدة الشهور مع الأيام ، على تعاقب الأزمنة والأعوام .

وأما الفرسان فهما الملوان يتعاقبان ولا يتسابقان .

وأما أعداد الفرسان وما يظهر فيها من النقصان فذلك إلى نقصان الشهر وأنه تارة يكون تسعة وعشرين وتارة ثلاثين .

وأما الشجرتان اللتان عليهما معشش الطائر فإن العالم من وقت حلول الشمس في برج الحمل إلى أن تبلغ إلى الميزان يتبرج كالتخريدة المعطار ، في حلى الرياحين والأزهار ، ومن حين حلولها العقرب إلى أن تحل الحوت يقبع بين أنجاف الحداد وأطوار السواد . فالشجرتان كنايةتان عن عضدى الفلك الدوار والطائر عبارة عن الشمس الباهرة الأنوار .

وأما البلدة الطيبة فهى دار القرار ومنزل الأبرار ، والأرض التى آثروها عليها فهى الدنيا قرارة الأكدار وموطن الأخطار . . بينا أنت إلى نعيمها راكن ، وفي ظلها وادع ساكن ، إذ تزلزلت من تحتك ، وأمطرت مكارها من فوقك . . إن هذا الإنسان ، وإن طاول الكيوان ، فليس يصحبه منها غير سترة تحت حفرة ، فإن اكتسب فيها الذكر الجميل ، أحرز هنالك الأجر الجزيل ، وإن زرع العدل والإحسان ، حصد الروح والريحان . ثم إن صاحب المنجل كناية عن الأجل يحصدنا كحصد النبات . . .

• • •

والثالث ألا يعرف قدر نفسه فيكفر نعمة ربه . والرابع
ألا يكتم سره ويفشيه . والخامس أن يتكلم بما لا يعنيه
فيقعد ملوماً مهموماً . والسادس أن يأمن غير ثقة
ويصاحب غير ذي مقبة . والسابع أن يكذب ويصر على
الكذب . (البندارى) .

ومن وصف الفردوسى للطقس حين تكثر الثلوج ،
رحلة لكيكاوس :

« كان ذلك في أحد أيام الربيع التي تهبج القلب
وتنضر الأرض . وفي تلك اللحظة هبت ربيع عاصف من
الجلبل هلع من هولها قلب كيكاوس . أظلمت الدنيا
كأنها جناح الغراب . وتعذرت معرفة السهل في الأودية
واحتجبت قمم الجبال تحت الثلوج التي كست الأرض
بردائها الأبيض الكثيف . وأخذت الرياح العنيفة تهب
بقوة وتصب جام غضبها على هذا المكان ثلاثة أيام
بلياليها . وتركز البلل على الخيام وما فيها ، وسرى البرد
القارس في الوجود كله فلم يعد لأحد قدرة على شيء »

الغلات المدخرة من ذلك ، فأحتمهم إياها على مقتضى
حكم الملك وقوله . فسكت قباد . واستعلى أمر مزدك
وطالت باعه وكثرت أشياعه وأتباعه . ونخالف الأنبياء في
في ملتهم وباين العلماء في طرقهم . وكان يقول : ينبغي
أن تكون أمور العالم على السواء . ولا يقع تفاوت في
نعم الله بين الأغنياء والفقراء . ويكون الغنى كالسدى
والفقير كاللحممة . . » (البندارى) .

* * *

ومن حكم بزرجمهر التي يذكرها الفردوسى :
أخلاق العاقل المنجية له خمسة . وأخلاق الجاهل
المردية سبعة . أما الخمسة المنجية فهي ألا يجزع على
ما فات ولا يفرح بما هو آت ، ولا يرجو ما لا يكون ،
ويحذر من عواقب الأمور ، وإذا حزبه حازب كافحه
من غير جن ولا نخور . وأما السبعة المهلكة فأحدها
أن يغضب من غير موجب للغضب ، والثاني أن يعطى
من لا يستحق فيكون غير مأجور ولا مشكور .



اللاؤوكون بجوتزولست لسنج

بمعلم
الدكتور احمد محمدى محمود

فقد اتجهت إلى البحث عن أدب ألماني أصيل يتبع أسلوباً قومياً متميزاً ، ويجعل الألمان إغريق العصر الحديث . فتعمقوا دراسة الحضارة الهلينية ، ولم يقنعوا بالرواسب التي ظلت سائدة في الروايات المتناثرة عن اليونان ، والتي اقتصر عليها الإيطاليون والفرنسيون ، والتي أسموها بالمذهب الكلاسيكي الجديد ، بل درسوا نفائس الحضارة اليونانية ذاتها وأعادوا تقويمها .

وخشوا أن يتحولوا كغيرهم إلى مجرد مقلدين لليونان ، فدرسوا حضارات الشمال والحضارة القوطية ، واكتشفوا أمجادهم في العصور الوسطى وقاموا بدراستها . وأسفرت هذه الدراسات عن غاية شاقة بحق وهي محاولة التوليف بين كل هذه العناصر المتنافرة . وخذعوا أنفسهم أحياناً ، وتجاهلوا كثيراً من النقائص والمتقابلات . فتصوروا شكسبير ، مثلاً ، ماثلاً لسوفوكليس ، وتصوروا فلسفة أرسطو في كتاب فن الشعر صالحة للتطبيق على آداب الأمم كافة في شتى العصور . ثم نسبوا لأنفسهم في النهاية هذا المزاج الغريب من المكونات التي قد تعد متنافرة وأسموه أدباً قومياً ، بعد أن قاموا بتطعيمه بأساطيرهم وحكاياتهم الشعبية وأحلامهم وتطلعاتهم لإنشاء أمة موحدة ، فرسموا

الألمان مصابون بداء المثالية بمعناها الفلسفي ومعناها العام . فهم يعشتمون التأمل لذاته ، ويبغضون كل التصاق بالواقع . وقيل إنهم حرموا نعمة رؤية الأشياء على حالها . فالنظرة المباشرة في ظنهم دليل على السطحية ولذا غاصوا في أعوار بعيدة تعرضوا بسببها للضلال ، وإلى رؤية الحقائق الواضحة في صورة مشوهة محاطة بستاثر كثيفة من الغموض . وهم يسرفون في الإطلاع في كافة جوانب موضوعات دراساتهم ، ولكن كثيراً ما حدث تفاوت بين غرارة اطلاعهم وضآلة ما يستخلصون من موضوع البحث .

فالألمان إذن في نظرهم إلى الحياة وفي أساليبهم الفكرية على حد سواء يتميزون بالمثالية بخيرها وشرها . وبوسعنا أن نلاحظ هذه الظاهرة حتى في تاريخ أدبهم الذي لم يبدأ بمعناه الصحيح إلا في القرن الثامن عشر . وعندما بدأ الوعي الألماني الحديث لم يجند إلا قلة من الألمان ، أغلبهم من الأريستقراطيين ، أتباع الأساليب التي عرفتها البلدان المحاورة لهم ، التي استطاعت الإرتقاء بالفن والأدب بفضل عدم تعرضها لمؤثرات سياسية مماثلة للمؤثرات التي تعرض لها الألمان . أما الأغلبية العظمى (وعلى الأخص أبناء الطبقة المتوسطة المتنورة)

بذلك الطريق أمام كل أمة حاولت فيما بعد إنشاء أدب قومي .

هذا الحلم الكبير ، وهذه المهمة العسيرة ، التي قد يسميها البعض معجزة قد تحققت بفضل جهود عدة أدباء ومفكرين قد نسيت أسماؤهم الآن . ولكن أهم الشخصيات التي ساهمت في خلق هذا الأدب الألماني القومي كانت بغير مرأى شخصية جوتهولت إفرايم لسنج ، الذي تفخر به جميع المراجع الأدبية الألمانية ، بل وجميع المراجع في سائر البلدان ، باعتباره مثلاً أعلى للكفاح والنضال في سبيل تحقيق غاية سامية دون تورط في رذائل أو سخافات .

* * *

ولد جوتهولت إفرايم لسنج في ٢٢ يناير سنة ١٧٢٩ في بلدة كامنتس في إقليم سكسونيا بألمانيا . وهو ينتمي إلى عائلة من القساوسة كانت شديدة الحرص على أداء رسالتها الدينية في الدعوة للمذهب لوثر ، وإن كان بعض أفرادها قد تميزوا أيضاً بحرية العقيدة . ومن بين هؤلاء جد جوتهولت ، الذي حصل على شهادة الدكتوراه لبحث قدمه عن الحرية الدينية . أما والد جوتهولت فكان إلى جانب نشاطه الديني ، من أصحاب الاستعداد الحسن للبحث العلمي ، ومن المتمكنين في اللغتين الفرنسية والإنجليزية وبعض اللغات الشرقية القديمة . وترجم عدة مراجع هامة ، وكان يميل إلى اشتغال ابنه في نفس العمل الذي كرس حياته له .

والتحق جوتهولت بمدرسة كامنتس ، ثم قصد إلى مايسين وهو في الثالثة عشر من عمره حيث تعلم بأحدى مدارسها . وهناك بدأت عنايته بالأدب . فقرأ في نهم بلاوتوس وتيرنس ، كما ألف قصيدة شعرية لاتينية في مدح الجنود الساكسونيين .

وفي السابعة عشرة من عمره ، اتجه إلى لايبزج ، والتحق بجامعة وأتم دراسته في خريف عام ١٧٤٦ .

وحرص أثناء إقامته هناك على تهذيب نفسه وصلقلها . فتعلم الرقص وال مبارزة وركوب الخيل ، وبدأ يشاهد المسرح ، وكتب قصة أسماها الباحث الصغير ، عرضت على مسرح لايبزج وصادفت نجاحاً عند الجماهير . ودفعه الوله بالمسرح إلى تمضية سهراته في رفقة الممثلين من الجنسين . ولم تكن موارده المالية تسمح بأية حياة من هذا النوع فتورط في الدين ، واضطر إلى مغادرة لايبزج والاتجاه إلى برلين ، بحثاً عن عمل . وعرف والداه من رسائله شدة تعلقه بالمسرح ومحاولته تقليد مولير واقتفاء أثره لإنشاء مسرح ألماني على غرار مسرح مولير . كما عرفا بتشككه في التعاليم البروتستانتية ، واعتقاده أن الإيمان مسألة شخصية لا بد أن يقررها كل فرد لنفسه . فغضب أبوه وأرسل إليه ينصحه بالعودة إلى الصراط المستقيم ، ولكن جوتهولت كان قد قرر اتباع نهج يتوافق مع ميوله وتأملاته ، ولهذا لم يحرص بتاتاً على اتباع مثل هذه النصيحة أو غيرها . فلقد تميز منذ حداثة بشدة الحيوية والقدرة على السخرية وبالميل إلى القراءة والقدرة على استيعاب ما يقرأ في أسرع وقت ، كما كان من بين صفاته الثورة على القيود وسهولة التحرر من الصداقات إن أحس بتعارضها مع أهدافه . واشتهر أيضاً بكرهه للعنف والإيمان بضرورة تقبل الأوضاع على علائها ، وعدم افتعال التغيير والإصلاح . هذه الصفات المتعارضة تفسر قلقه الدائم وعدم استقراره في مكان واحد بمجرد شعوره بالاصطدام مع أية عقبات . وفي أحيان أخرى ، على العكس من ذلك ، فإنه كان يرحل من أي مكان بمجرد شعوره بالاستقرار وبأنه قد حقق غايته ، وبأن إقامته في هذا المكان لم تعد مستساغة ! فعندما غادر برونزفيك إلى برسلو مثلاً قال في تبرير مسلكه : « إن هذا لا يرجع إلى نفوري من برونزفيك ، ولكنه يرجع إلى أن البقاء طويلاً في أي مكان يميل إليه المرء لن يعود عليه بالنفع » .

فاذا تبعنا في إيجاز خطواته سرى أنه قد اتجه بعد انتهائه من الدراسة في لايبزج إلى برلين في نوفمبر ١٧٤٨ ، ولكنه غادرها مرة أخرى إلى لايبزج سنة ١٧٥٥ ، ثم عاد ثانية إلى برلين سنة ١٧٥٨ . وبعد سنتين نرح إلى برسلاو ولم يستقر فيها طويلاً ، بل بارحها إلى هامبورج وأخيراً استقر في سنواته الأخيرة في برونزفيك . وكان طبيعياً أن يصحب هذه الهجرة الدائمة ، تقلب في الوظائف المختلفة ، وتعرض للفشل جملة مرات . فقد اشتغل أحياناً في تنظيم المكتبات ، كما حدث في بداية حياته عندما قام بتنظيم إحدى المكتبات العامة التي يملكها أحد الأثرياء ، وفي نهاية حياته كذلك ، عاد إلى أعمال المكتبات عندما عين في وظيفة صغيرة (١٧٧٠) هي أمانة مكتبة ذوق برونزفيك في فولفسبوتل .

وأصدر مجلة الرسائل الأدبية (١٧٥٩) وشاركه في تحريرها مندلسون (الذي أصبح فيلسوفاً فيما بعد) والناشر الألماني نيقولاى . وظلت الرسائل الأدبية تظهر حتى سنة ١٧٦٥ ، وإن كان لسنج قد مل الكتابة فيها بعد سنوات قليلة وترك هذه المهمة لكل من مندلسون ونيقولاى .

وفي برسلاو أصبح سكرتيراً للجنرال تاونتسين الذي تعرف إليه عن طريق الشاعر كلايست . وعاش هناك حياة خصيبة مختلفة غاية الاختلاف عن حياته الأولى . فقد أنجز فيها أهم كتبه كاللاووكون ومينافون بارتهيلم . وتعلم هناك المقامرة ، واستمر يمارسها فترة طويلة .

وأخفق في محاولة شغل عدة وظائف ، كان من بينها إدارة المكتبة الملكية في برلين . وكان اسمه واسم فنكلمان من بين الأسماء المرشحة لشغل هذه الوظيفة . ولكن الملك فردريك - وكان مولعاً بالفرنسيين - عدل عن اختيارهما ، وعين فرنسياً في هذه الوظيفة بعد أن استكثر مرتب هذه الوظيفة على أى ألماني .

ولما قتل فنكلمان في تريستا ، حاول شغل مكانه في روما ، ولكنه عدل عن هذه الفكرة لعدم عثوره على مال يكفيه لدفع نفقات السفر إلى هناك ، فقد عرف لسنج دواماً بأساءة التدبير ، وبشدة ارتباك أحواله المادية ، حتى اضطر قبل مغادرته برسلاو إلى بيع مكتبة زاخرة بالمؤلفات القيمة ، بأرهد الأسعار ، وندم على ذلك أشد ندم .

ومن الأحداث التي تهمننا في تاريخ الأدب صلة لسنج القصيرة بفولتير . فلقد كان مقياً ببرلين عندما وصل فولتير إليها سنة ١٧٥٠ . وهناك تعرف إليه عن طريق سكرتيره ريشتر . وأعجب به فولتير في البداية إعجاباً كبيراً . وكلفه بكل أعمال الترجمة التي كان في حاجة إليها . وكان من المتوقع أن تتوطد هذه الصداقة ، وأن تعود بأعظم فائدة على لسنج بسبب الصداقة المشهورة بين الملك فردريك وفولتير ، ولكن العلاقات ساءت بين فولتير ولسنج بسبب حادثة تختلف المراجع المختلفة في تأويلها وفي رواية أحداثها .

والرواية التي أرجحها هي استعارة لسنج مخطوطة كتاب لويس الرابع عشر قبل نشره من سكرتير فولتير - بغير علمه - وتسرب بعض محتويات المخطوطة مما أدى إلى تشكك فولتير (وكان معروفاً بشدة الحرص والدهاء) ومقاطعته لسنج . ويميل المؤرخون إلى رد كل المصائب التي لحقت بلسنج إلى هذه الواقعة ، لأن مقاطعة فولتير كانت تعني منخط الملك على لسنج ، واضطهاده له ، وحرمانه من أية وظيفة مرموقة ، كما حدث في حالة وظيفة مدير مكتبة برلين .

ولكن يبدو أن النحس الذي صادفه لسنج كان يرجع إلى ما هو أبعد من ذلك ، كما نستطيع أن تبين من حادث أليم حدث له عندما كان في قرابة الخمسين من عمره . فلقد تأخر لسنج في الزواج ، إذ تزوج سنة ١٧٧٦ من أرملة تاجر للحريير في هامبورج تعرف إليها

لم يترك لسنج ناحية من نواحي الأدب إلا طرقها . وتفاوت حظه من النجاح في هذه المجالات المختلفة . وبوجه عام ، استطاع حصر مؤلفاته في نوعين . النوع الأول : هو أعماله الإبداعية من روايات تمثيلية (١) (شعرية ونثرية) ودواوين شعر . والنوع الثاني : هو أعماله النقدية . وسوف نتناول النوع الأول في إيجاز شديد . فان ما حققه لسنج في هذه الناحية قد كان عظيم الأثر في نظر الألمان وحدهم ، لأن لسنج قد عرفهم في رواياته (التي بدا فيها سعة الاطلاع) جوانب لم يعرفوها ، أو عرفوها في صورة ممسوخة . ولكن هذه الروايات لم تترك أثراً يستحق الذكر خارج ألمانيا ، ولم تستطع أن تنافس الروائع الكلاسيكية الفرنسية ، كما ظهرت فيها محاكاة واضحة لبعض القصص والروايات الإنجليزية ، كما حدث مثلاً في رواية «مس سارة سامسون - ١٧٥٥» ، التي صادفت نجاحاً كبيراً في ألمانيا ، وتنبه المفكرون والنقاد إلى شدة تشابهها مع رواية The Merchant of London «تاجر لندن» تأليف ريتشاردسون ، التي اعتمدت حوادثها أيضاً على شخوص من الطبقة المتوسطة . وكانت هذه النزعة سائدة في القرن الثامن عشر ، واعتبرت اتجاهاً ثورياً . إذ جرت العادة في ذلك العهد أن تكون أحداث الروايات إما خاصة بالطبقة الأرستقراطية ، أو متجهة إلى السخرية من العوام للترفيه عن الأرستقراطيين .

وفي كوميديا «مينا فون بارنيلم - ١٧٦٧» استمر في اختيار شخوص روايته من أبناء الطبقة المتوسطة ، وتميزت هذه الرواية بأصالتها . إذ اختار لها شخصية حقيقية عرفها في حياته . هذه الشخصية هي شخصية الماجور المتقاعد فون تلهام . كما كان من بين شخصيات هذه الرواية : شخصية الأرملة التي ذهبت

في هذه البلدة ، وكانت تتميز بثقافتها ورقة شعورها . وكان متوقفاً أن يعود زواجه منها عليه بالخير العميم ، لأنه كان سيحقق له الاستقرار الذي ينشده . ولكن زوجته مرضت مرضاً خطيراً دام أسبوعين قبل أن تضع مولودهما الوحيد الذي لم يعيش أكثر من أربعة وعشرين ساعة . وبعد ساعات من موته ماتت الزوجة كذلك . وكتب لسنج إلى أحد أصدقائه في الفترة القصيرة التي كانت تعيشها زوجته في غيبوبة بعد موت الطفل رسالة حزينة قد تعد من أفضل الرسائل الحزينة الصادقة في الأدب العالمي . فلقد قال في هذه الرسالة : «إنني أنتهز فرصة استغراق زوجتي في غيبوبة لأشكرك على عظيم اهتمامك . . . كانت فرحتي قصيرة إلى أبعد حد . لقد فقدت هذا الابن ، وأنا شديد التعلق به ! لقد بدت عليه ملامح الفطنة ، وكم كان فظناً إلى حد بعيد ! . ألا يدلنا على فطنته أنهم قد اضطروا إلى سحبه إلى العالم الخارجي بوساطة ملقط من الحديد ؟ . وألا يدلنا على ذلك أيضاً أنه سرعان ما اكتشف شقاء هذا العالم ، فانتهز أول فرصة وهرب منه ؟ ونجح المخادع في سحب أمه إليه ، لأن الأمل واهن للغاية في بقائها إلى جوارى . . . كم تمنيت أن أسعد مثل الآخرين . ولكن الأمور قد جاءت على غير ما أشتى » .

وبرغم هذه الكارثة ، استمر لسنج في كفاحه واستفاد من المصائب التي حلت به بدلاً من أن ينحني لها ، بل لقد تميزت سنوات حياته التي عاشها بعد ذلك بوفرة ما فيها من إبداع وأصالة ، حتى مات في ١٥ فبراير سنة ١٧٨١ بعد أن وضع الأساس الأول للأدب الألماني بمعناه الصحيح ، وبعد أن عانى الأمرين من إساءة فهم الكثيرين له . فلم يفهمه على حد قول جوته : «سوى العطاء من أمثاله . أما أوساط الناس فقد رأوه دواماً خطراً يهددهم » .

(١) أول رواياته هي Der Freigeist (المفكر المتحرر) و Der Schatz (الكنز)

فاذا إنتقلنا إلى النوع الثاني ، وهو الكتابة النقدية التي توافقت أعظم توافق مع شخصية لسنج وجرأته وتعلقه بالحقائق ، والتي تركزت فيها عبقرية لسنج في النقد وكفاحه المستميت لإنشاء أدب ألماني متميز يمكن التفرقة بينه وبين الآداب المحيطة به ، ويجمع خلاصة مميزات الفن في عصوره المختلفة (هذه الكتابات التي دفعت ماكولاى إلى اعتبار لسنج أول ناقد عظيم يظهر في أوروبا وتناسى في هذا الرأى مونتاني الفرنسى فى القرن السادس عشر) - فسرى أصالة حقة وألمعية فائقة قد جعلت كتبه فى هذه الناحية جديرة بكل إعجاب وبحث ودراسة واستقصاء . وفى هذه المقالات النقدية التي تناولت أهم قضايا الفن والأدب واللاهوت والتي كتبت فى عبارة مشرقة مركزة خالية من الغموض والإبهام اللذين عرفا عن أكثر أدباء ألمانيا ، كتب لسنج نوعين من المقالات . اتجه النوع الأول إلى وضع أسس للأدب الألماني ، كما اتجه النوع الثانى إلى المشاركة فى حل مشكلات الاستطيقا .

وظهرت مقالات النوع الأول فى مجموعة مقالاته ودراساته التي نشرها فى (١٧٥٨) فى Litterature Briefe « الرسائل الأدبية » كما ظهرت أيضاً فى المقالات التي نشرها فى هامبورج عن الدراما تحت عنوان Hamburgische Dramaturgie ، والتي قصد بها النهوض بحركة التمثيل فى ألمانيا . وكانت هذه المقالات تنشر فى مجلة تصدر مرتين فى الأسبوع وقصد بها نقد الممثلين ، وتعريفهم بأخطائهم ، كما قصد بها أيضاً تثقيف رواد المسرح والارتقاء بذوقهم الفنى .

وكتب لسنج أغلب هذه المقالات . ولكن المشروع توقف بعد سنتين بسبب نفور الممثلين من أية انتقادات توجه إليهم ، وبسبب عدم اقبال الجماهير على المناقشات المجردة التي تناولت الدراما ومهمتها وتاريخها . وإلى جانب ما تضمنته هذه المقالات من انتقادات لجوتشيد

تطلب العون من الماجور ، وشخصية خطيبته التي تزوجها رغم أنه ، وشخصية الوصيعة اللعوب (التي تأثر فيها بالأدب الفرنسى) . ولم ينس لسنج فى هذه الرواية تمجيد القومية الألمانية والجيش البروسى (الذى اشترك فيه زهاء أربع سنوات) وإظهار الولاء للملك فردريك . كما لم ينس السخرية من الفرنسيين . فن بين شخصيات هذه الرواية شخصية مغامر فرنسى يتكلم الألمانية بلكنة غريبة تثير الضحك .

وبلغت رواياته البورجوازية ذروتها فى دراما « إميليا جالوتى » ١٧٧٢ التي عرض فيها الصراع بين البلاط والطبقة البورجوازية . وتمشياً مع الروح الجديدة التي اشهر بها القرن الثامن عشر ، تمثلت فى الشخصيات البورجوازية التي ظهرت فى هذه الرواية كل المثل العليا للفضيلة عند صراعها مع مؤامرات البلاط ودسائسه ، ومجون أبناء الطبقة الأرستقراطية .

وربما اعتبرت آخر رواياته الشعرية « ناثان الحكيم ١٧٧٩ » أفضل الدرامات التي ألفها . فقد بثها خلاصة تجاربه ومعتقداته . وفيها دعوة إلى التسامح ودعاية للمساوية واستنكار للجمود الدينى وضيق أفق بعض رجال الدين . ولعل سخط رجال الدين البروتستانتين على هذه الرواية كان من أسباب شهرتها فى خارج ألمانيا . وحاول لسنج تناول أسطورة الدكتور فاستوس التي تدور حول حب العالم للحقيقة والآلام التي عاناها فى سبيلها ، ولكنه عدل عن مشروعه ، بعد عدم اهتدائه إلى قرار حاسم حول دور الشيطان .

هذه الروايات كلها قد أثبتت حقيقة بالغة الأهمية ، وهى أن الإحاطة بالأصول الدرامية والشكل الفنى وطرافة الموضوع ليست سبباً كافياً لخلود أى عمل فنى . فهناك سر آخر وراء الخلود ، لعلنا ما زلنا بعيدين عن فهمه .

ونبرات صوتهم ، وبعدم التشبه بالبيغاوات ، كما أبدى أكثر من مرة إعجابا بالمثلين اليونانيين القدامى (اعتماداً على ما ترويه المراجع عنهم ، ولو أنه شاهدتهم بنفسه لما اختلفت نظرتهم إليهم عن نظرتهم إلى معاصريه) وأرجع براعتهم في الأداء إلى تعلمهم البلاغة والحطابة اللتين كانتا في عهد لسنج قد بدأتا في الاضمحلال والتدهور .

وأغلب الانتقادات التي ذكرناها كانت موجهة إلى كورنى بالذات ، وإن كان لسنج لم ينس غيره من الأدباء الفرنسيين ، وقد يستثنى من ذلك مولير وديدرو وحدهما . ففى هذه المقالات على سبيل المثال نقد وسخرية لاذعان لرواية سميراميس لفولتير (لا أظن أن فولتير قد أحس بهما) وكيف ظن الكلاسيكيون الفرنسيون أن عظمة الدراما تستند إلى فخامة مناظرها وحشد الجموع على المسرح ، وسخر لسنج من الشبح الذى ظهر فى سميراميس ، وقارنه بشبح هاملت الشهير ووصفه بأنه لا يثير رعب الأطفال أنفسهم . وعندما جعل فولتير الشبح يقتحم البرلمان فى وضوح النهار فانه قد دل بذلك على جهله بطبائع الأشباح ، لأنه قد نسى أن الأشباح لا تتصف بمثل هذه الجراءة . وأية امرأة عجوز تستطيع أن تعرفه مدى خوف الأشباح من ضوء الشمس ومن اقتحام الجموع الكبيرة . وسخر لسنج أيضاً من شدة حرص فولتير على إرضاء السيدات المتأنقات عند تأليفه مسرحياته .

على هذا النحو ، كتب لسنج مقالات كانت بعيدة الأثر فى إثارة اهتمام الألمان بالمسرح ، وكان لها بفضل طرافتها وأصالة نقدها وأسلوبها الساخر أثر عظيم خارج ألمانيا . واليوم هدأت المعركة الحامية الوطيس التي دارت فى القرن الثامن عشر حول أى الفريقين أكثر تمثيلاً للروح الكلاسيكية الهلينية . واتضح لنا أن كليهما قد انحرف بتأثير روح القرن الثامن عشر عن القيود القديمة

بسبب اتجاهه إلى محاكاة الكلاسيكيين الفرنسيين ، وانتقاد للشاعر كلوبشوك بسبب إسرافه العاطفى ؛ تناولت هذه المناقشات عدة مسائل أثارت الإهتمام خارج ألمانيا مثل نقده للأسس التي ابتكرها الأدباء والمفكرون الفرنسيون وقيدوا بها حرية الفن والأدب ، وارتكنوا عند اختراعها إلى بعض ملاحظات عابرة جاءت عند أرسطو كمسألة الوحدات الثلاث التي قدسها الفرنسيون ، ولم ينتهوا إلى أن حالة التمثيل عند اليونان هي التي أرغمتهم على ضرورة التقيد بوحدة الزمن ووحدة المكان ، وإن كان أرسطو ذاته قد اعترف أن وحدة الفكرة هي الوحدة الأساسية فى الدراما وأن الوحدتين الأخريين تابعتان لها .

واندفع لسنج أحياناً فى الدفاع عن وجهة نظره فذكر مثلاً صلاحية تطبيق مذهب أرسطو فى الدراما على درامات شكسبير ! . وكان شكسبير هو مثل لسنج الأعلى فى الدراما . فهو وحده الذى فهم الإنسان ، وقدم أروع نماذج له كالتى نصادفها فى شخصيات الملوك والمتسولين والبخلاء والمهرجين . كما أنه أفضل من أحاطوا بالعواطف الإنسانية كالغيرة والحسد والحقد . . . الخ . ودافع لسنج عن اتهام شكسبير بالخلط بين الكوميديا والمأساة ، وكان الحياة الإنسانية تعرف أى انفصال بينهما . وأشاد لسنج ببراعته فى الربط بين الأحداث ورسم الشخصيات واختيار الشخصوس التي تساعد على توضيح الفكرة التي يسعى لعرضها على عكس ما يحدث فى التراجميات الفرنسية التي لا نعرف فيها سبباً لدخول الممثل المسرح أو خروجه منه ، والتي نفاجاً فيها بأحداث غريبة لا تمت بصلة إلى موضوع الرواية .

وكان لسنج ينصح الممثلين دواماً فى هذه المقالات بالاندماج فى أدوارهم والابتعاد عن كل آلية وتكلف ، وضرورة التحكم فى كلماتهم وتعابيرهم وإيماءاتهم

ثعبانين كبيرين من جزيرة تندوس لقتله وقتل إبنه ،
وإن كان السبب الحقيقي لمقتله هو زواجه بغير إذن من
أبولون .

واشتهرت القصة بعد ذلك عندما ردها فرجيل في
إحدى قصائده ، وعندما صنع تمثال من الرخام يمثل
الأب وإبنه في صراع مرير مع الثعبانين . وهذا التمثال
محفوظ حالياً في الفاتيكان وهو من آيات المدرسة
البرجانية ، وقام بنحته ثلاثة مثاليين من رودس هم :
اجيساندر وبوليدوروس ، و أتيندورس (من مدرسة
النصف الثاني من القرن الأول الميلادي) . وعرض هذا
التمثال في قصر الإمبراطور تيتوس ، وكانت له قيمة
فنية عظيمة في ذلك العهد . وعندما أعيد الكشف عن
الآثار الرومانية كان من أوائل التماثيل التي ذاعت
شهرتها . واختار لسنج لاسم هذا التمثال عنواناً طريفاً
لكتابه الذي يتناول قضية إستايقية هامة هي إثبات
الاختلاف بين التصوير والشعر ، واستحالة تطبيق
قواعد واحدة على هذين الفنون . إذ يلزم مراعاة الفروق
الكامنة في طبيعة كل منها .

وما جعل الناس لا ينتبهون إلى هذه الحقيقة هو
اعتقادهم أن الشعر والتصوير متشابهان ما دام الاثنان
يركان أثراً حسناً مماثلاً في النفس ، أو اعتقاد الفلاسفة
أن قواعد جمال الأجسام التي تراعى في التصوير ، يمكن
تطبيقها على الأفعال والأفكار على نحو مشابه لتطبيقها
على الأجسام . واندفع بعض النقاد وأرغموا الشعر على
طرق مجالات لا يحسن الإفصاح عنها غير التصوير ،
وسمح البعض للتصوير بتناول موضوعات لا تناسب
مع غير الشعر . وظهرت آثار هذا الخلط في الشعر في
صورة افتتاح بالوصف ، وفي التصوير في صورة افتتاح
بالمعاني الرمزية والحجازية . لقد أراد هؤلاء النقاد من
المصورين إبداع لوحات مصورة ناطقة ، فكانت
النتيجة هي ظهور قصائد شعرية خرساء .

ولا اختلاف في هذه الناحية يستحق الذكر بين كورفي
ولسنج . ففي هذا القرن كانت الروح الرومانتيكية قد
بدأت تتسرب إلى الأدب والفنون في صور مختلفة .
وبانت آثارها عند لسنج في شدة تحمسه لشكسبير
واهتمامه بأشعار المايسترزينجر (أساطين الغناء) ،
والمينزنجر ، ومحاوله الربط بينهما وبين القوالب
الكلاسيكية القديمة .

ويبدو أن لسنج قد تأثر بالفرنسيين دون أن يدري ،
ولقد اعترف هو ذاته بشدة تأثره بديدرو . وكل من
يقرأ مقالاته ويعجب ببراعة منطقتها وبما فيها من تدرج
في عرض قضايا الفكر . إذ لا تستخلص فيها النتائج إلا بعد
تريث في عرض خلاصة وجهات النظر ومناقشتها -
يلمح على الفور مدى تأثره بالفرنسيين وبراعتهم في
كتابة المقال .

وإن صح القول بأن اهتمامنا بهذه المقالات قد قل
بعض الشيء عن اهتمام القرن الثامن عشر بها ، فإن الأمر
لم يكن كذلك فيما يتعلق باللاؤوكون . فقد تناول لسنج
في هذا الكتاب عدة مشكلات إستايقية قد أثرت تأثيراً
هاماً على الإستايقا (الألمانية بوجه خاص) وما زلنا
نشعر بآثار هذه المشكلات حتى وقتنا الحاضر . وهذه
ناحية سنرجي الكلام عنها حتى ننهي من عرض الكتاب

اللاؤوكون

لاؤوكون أمير طروادى أسطوري كان أحياناً لأحد
الكهنة الأبولونيين . وفي رواية أخرى أنه كان من
كهنة بوسيدون . ولقد تناول مأساته كثيرون ، في
طليعتهم سوفكليس في رواية لم يبق منها إلا شذرات
قليلة .

والرواية التي يقبلها الثقات إلى حد بعيد هي القول
بأن لآؤوكون قد أصر على مقاومة الحصان الخشبي الذي
أنشئ لغزو طروادة ، فانتقم منه أبولون بأن دفع

ما قاله فنكلمان إذن لم يكن صحيحاً ، فهو قد خلط بين التربية الأوروبية الحديثة التي تدعو الناس إلى ضبط النفس وعدم إظهار أى انفعال ، وبين أحوال اليونانيين الذين كانوا لا ينجلون من انفعالهم أو من أية مظاهر للضعف الإنساني ، بل كانوا يتركون أنفسهم على سجيها . ومع هذا فقد كان اليوناني يبذل قصارى جهده حتى لا يجعل أوجاعه وآلامه تحول دون إقدامه على القيام بأسمى أعمال البطولة التي تتجاوز كل حدود إنسانية . فلا عجب بعد ذلك إذا رأينا أسمى أبطالهم ، وأخلداهم ذكراً يبيكون في مواضع البكاء ، ويولولون ويندبون بغير شعور بأى خجل . وبوسعنا أن نذكر في هذا المقام هرقل الذى قد تبدو صرخاته وعويله مثيراً للسخرية في وقتنا الحالى ، ومتعارضة مع ما عرف عنه من شجاعة وجرأة وقوة .

خصائص التصوير

وبعد أن أثبت لسنج أن علامات الهدوء التي ظهرت على تماثال اللاووكون لا ترجع إلى خصائص يونانية فحسب ، كما بين فنكلمان الذى خلط بين خصائص اليونانيين وخصائص الفنون التشكيلية ، أتجه في سبيل التمهيد لنظريته إلى الكلام عن خصائص الفنون التشكيلية (التصوير والنحت) ، فقال إن التصوير وفقاً لمفهومه في القرن الثامن عشر ينزع إلى محاكاة الأشياء بغير التفات إلى مميزات الجمالية ، ولكنه كان عند اليونانيين مقصوراً على تصوير الأشياء الجميلة وحدها . فلم يتجه الفنانون اليونانيون إلى تصوير أى شيء غير الجميل ، وكانت أعمالهم الفنية تبعث السرور بسبب اكتمال الأشياء التي تمثلها . ونفروا لهذا السبب من رسم الأشياء القبيحة ، وبدلنا على ذلك لإحجام أى مصور عن رسم أى شخصية تتسم بالانحراف أو تدعو إلى النفور ، بعكس ما يصنعه المحدثون (في رأى لسنج) . واشتركت الدولة أيضاً في إرغام الفنانين على ملاحظة الاقتصار على رسم الأشكال

هذه هي القضية التي تذكرها لسنج عندما قرأ وصف فنكلمان (من أوائل مؤرخى الفن التشكيلي في العصر الحديث) تماثال اللاووكون ، وقوله عنه إنه يمثل الصفاء والهدوء الروحي والبساطة ، أى الخصائص التي عرفت عن اليونانيين . فتعاير الأعمال الفنية عند اليونانيين - في نظر فنكلمان - برغم اختلاف انفعالها لا تكشف إلا عن روح صافية وديعة . فلقد تعرض لاووكون وولده لآلام مبرحة يمكننا أن نتمثلها من منظر الشعبانين اللتفين حول بطنه . ولكن الوجه لا يظهر هذا الألم . ولم ينبعث من جوفه أى شيء خلاف بعض الآنات الصامتة . فهو يتألم ، ولكن ألمه قد بدا في صورة اتسمت بالنبل والسمو ، بحيث أننا نتمنى تحمل الكوارث والمحن بروح سمحة مماثلة لروح هؤلاء الأبطال اليونانيين . أما الرومان - في نظر فنكلمان أيضاً - فكانوا مختلفين عن اليونانيين . وبدلنا على ذلك أن الشاعر فرجيل قد تناول موضوع اللاووكون نفسه ، ولكننا نستطيع أن نستمع إلى صراخه في كل نبذة من نبرات قصيدته .

فسر فنكلمان إذن الخلاف بين تماثال لاووكون اليوناني وقصيدة لاووكون الرومانية ، بأنه اختلاف بين اليونانيين والرومان . ويرد لسنج على هذه الدعوى بالرجوع إلى أمثلة أدبية أخرى عند اليونان ، وبين أن هوميروس قد سمح لبعض شخصيات رواياته بالصراخ والعويل (على عكس اعتقاد فنكلمان) . فالإله مارس ذاته عندما تعرض لسهام ديوميدي قد صرخ صرخة هائلة وكان عشرة آلاف من المحاربين قد اشتركوا في الصراخ . وبرغم شدة عناية هوميروس بابرار اختلاف الالهة عن الآدميين ، إلا أنه قد عمد في مسائل الألم والصراخ ، إلى جعلهم يتأوهون ويولولون كالآدميين سواء بسواء . فهم من حيث السلوك وحده آلهة ، أما من حيث مشاعرهم وانفعالهم فانهم يتأوهون ويعبرون مثل سائر البشر .

الجميلة . فقد حثت بعض القوانين اليونانية الفنانين على ضرورة مراعاة الجمال ، ودفعتهم إلى العناية باظهار الأشكال التي يقومون برسمها في صورة مثالية ، ومنعهم من الإساءة إلى كل مقاييس الجمال . وإلى نفس هذه الروح ، يمكن أن يزدى أيضاً تقليد إقامة نصب تذكاري لكل منتصر أولمبي ، وإقامة تماثيل للأبطال الذين ينتصرون في ثلاث مرات متعاقبة .

من هذا يتضح أن الجمال عند القدامى كان أسمى غاية تسعى لتحقيقها الفنون التشكيلية . وأدرك القدامى أن هناك بعض انفعالات ستبدو عند تصويرها على شكل تجعيدات قبيحة تسمى إلى جمال الوجه ، ومن ثم عمدوا إما إلى تجنب إظهار هذه الانفعالات ، أو إظهارها في صورة مخنفة لا تؤدي إلى تشويه الجمال ومسخه .

وفي سبيل تحقيق هذه الغاية ، تحول تعبير مثل التعبير عن الغيظ والحق إلى تعبيرات جادة وقورة ، وتحولت الكتابة والغم إلى أسى وأسف ، واختفت كل مظاهر سورات الغضب من أعمالهم الفنية . وعلينا عندما نشاهد اختلافاً بين الأعمال الفنية والأشياء التي تعبر عنها ألا نرجع ذلك إلى عجز الفنانين أو عدم قدرتهم على محاكاة التعبيرات التي تبدو قبيحة في حالة نقلها إلى التماثيل أو اللوحات ، بل علينا أن نرد ذلك إلى قاعدة أساسية شاعت عند اليونانيين وهي الاكتفاء بالمشاعر التي تجمع بين الجمال والسمو . ولذا كان الفنان يفضل إخفاء أية مشاعر تبدو في صورة غير مستحبة ، تسمى إلى عمله الفني . فكان لا يظهر مثل هذه المشاعر تاركاً للآخرين تأويلها أو استنباطها .

هذه القاعدة نصادفها في تماثيل اللاووكون . فقد حاول مبدعه تحقيق أسمى قدر من الجمال يتوافق مع الآلام التي تعانها شخصيات هذا التمثال . فاضطر إلى تحويل الولولة والصيحات إلى تهديدات ، لا لأن الصيحة تدل على روح تفتقر إلى سمو ، إنما بسبب إساءة

شكل الصيحة إلى الجمال المراد إبرازه في التمثال ، و يمكننا أن ندرك ذلك إذا تخيلنا لاووكون فاغراً فمه ، أو متأوهاً . إن شكله في هذه الحالة ، لن يبدو جميلاً حتى إذا عبر عن الجمال والألم في نفس الوقت . ولكننا سنراه شكلاً مفرعاً يثير الإشمئزاز ، لأن منظر الألم من المناظر الكريمة ، ولن يدعونا إطلاقاً منظر المعاناة إلى الشعور بالشفقة . فشكل الفم وهو مفتوح سيبدو في أية لوحة مصورة كأنه بقعة سوداء . وفي النحت سيبدو مجرد فجوة قائمة ، وكلاهما من الأشياء التي تنفر منها العين .

وتغيرت الأحوال في الفن التشكيلي بعد ذلك في العصور الحديثة . فقبل إن غايتها قد أصبحت الحقيقة والتعبير . وكما تضحى الطبيعة بالجمال في سبيل غايتها ، كذلك ينبغي أن يخضع الفنان الجمال لغايات عمله الفني ، وألا يسمح بغير القدر الكافي من هذا الجمال الذي يتناسب مع الحقيقة والتعبير .

ويعترض لسنج عما يقال عن إمكان تحول غاية التصوير من الجمال إلى التعبير . وأول حجة يسوقها هي القول أن المصور لن يستطيع أن يرسم أكثر من لحظة عابرة للطبيعة الدائمة التغير والتقلب . وكل ما يهم المصور هو اختيار لحظة موفقة تحقق الغاية التي يسعى إليها ، وهي تقديم موضوع يصلح للمشاهدة والتأمل مراراً . فالخيال إذن يلعب دوراً كبيراً في التصوير ، لأنه يحاول أن ينزع من الطبيعة أفضل ما تتضمنه من معان غير عابرة ، كما يحاول أن يصلح من عيوبها حتى يتسم بما ينتقيه منها بالكمال . ومن ثم يستبعد المصور التأوهات والصيحات لأنها مجرد أشياء عابرة لن تستمر طويلاً . ولو ظهرت في أية لوحة ، أو في أي تمثال وعبرت عن معنى ثابت ، لدلت في هذه الحالة على الأثوثة بدلا من دلالتها على الفحولة . وكان هذا المعنى هو الذي جال بخاطر صاحب تمثال اللاووكون .

وإذا رجعنا إلى تيموماخوس (وكان من المصورين المولعين بتصوير المشاهد الشديدة الانفعال ،

فيلجا لهذا السبب إلى إضافة مؤثرات أخرى تحقق هذه الغاية . فأحداث التعذيب مثلا عندما تمثل على المسرح قد تدفعنا إلى الاستخفاف بها لشعورنا بأنها غير حقيقية ، ولذا يلجا الشاعر الدرامي إلى سبل أخرى قد تحقق ما يبتغيه من تأثير ، كأن يعرض البطل للجوع أو العطش ، أو يجعله يشعر بيأس قاتل . ومن الشخصيات الخالدة في الأدب اليوناني ، التي استطاعت تحقيق مثل هذا الأثر شخصية فيلوكتيس الذي ظهر محاطاً بكافة مظاهر الحرمان .

ولم يفهم كتاب الدراما الفرنسيون هذا المعنى ، وكادوا ينجحون في القضاء عليه ، عندما أحاطوا فيلوكتيس بالرفاق . وزارته في مكان عزله في الجزيرة الفقراء أميرة جميلة تصحبها وصيفتها ! وعلى حد تعبير لسنج : « لست أدري هل كان الموقف يتطلب مثل هذه الوصيفة أم أن الشاعر الفرنسي هو الذي كان يشتهي مثل هذه الوصيفة لنفسه . . فلا يمكن لأى شاعر فرنسي أن ينسى إظهار امرأة جميلة ذات عينين ساحرتين » . أما أبطال الدرامات اليونانية فكانوا يعبرون عن كافة المشاعر التي يتعرض لها الإنسان ، فكان من بين هذه المشاعر ما يستدر الشفقة ، كما كان بينها ما يثير الملح والخوف . شيء واحد فقط كان الكاتب الدرامي يحرص عليه وهو عدم إساءة هذه المشاعر إلى بطولة شخص درامته ، أو استحثاثنا على إزدرائها .

تمثال اللاؤوكون وقصيدة اللاؤوكون

وبعد أن تحدثت لسنج عن الاختلافات العامة بين الفنون التشكيلية والشعر أنجه إلى الحديث عن كيف ظهرت آثار هذه الاختلافات في كل من تمثال اللاؤوكون وقصيدة اللاؤوكون .

ففي قصيدة اللاؤوكون وصف الشاعر الحيتين ، وتعهد المبالغة في إظهار طولها وإثارتها للرعب . إذ

ولوحته التي رسمها لأجاس في حالة غضب ، والتي رسمها لميديا وهي تقتل أولادها من أخلد اللوحات في الفن اليوناني) سئرى إذا تأملنا لوحاته أن المصور قد تجنب إظهار اللحظة العارضة التي يرتفع فيها الانفعال إلى ذروته حتى لا تحدث أثراً سيئاً عند من يتأملون الصورة . فاختار لحظة أخرى سابقة لها . فلم يرسم ميديا مثلا وهي تذبح أطفالها ، بل رسم موقفاً آخر . إذ فضل خضوعاً لغاية الجمال التي ينبغي أن تتحقق في التصوير أن يصور تردد ميديا الذي تغلب عليه عاطفة الأمومة ، على تصوير وحشيتها التي تتعارض مع الجمال . كما أن أجاس لم يرسم في حالة هذيانه وغيابه عن الوعي ، بل رسمه تيمو ماخوس جالساً ، يشعر بالضيق بعد أن مرت نوبة الجنون التي تعرض لها . لقد رأى المصور أن الهدوء الذي يعقب العاصفة أكثر تعبيراً عن الجمال من منظر ثورة أجاس وهذيانه .

خصائص الشعر

وبعد أن بين لسنج أن غاية التصوير هي الجمال ، انتقل إلى الكلام عن الشعر وذكر أن الشاعر غير مرغم البته على اختيار لحظة واحدة تمثل موضوعه الفني ، كما هو الحال عند الممثل أو المصور ، لأن ما يعنيه هو عرض فكرة واحدة أو فعل واحد يستغرق لحظات متعددة . ففي قصيدة اللاؤوكون قام الشاعر بعرض قصة هذه الصيحة ، وعرفنا بواعثها . ولم ينس التحدث عن بطولة لاؤوكون ، وماضيه الوطني المجيد وبذلك أمكنه تعريفنا بأن صيحاته لا ترجع إلى نقص فيه ، بل هي ترجع إلى ألم تصعب مقاومته .

هذا يدل على أن الشعر لا يتجه إلى تخفيف التعبير أو إخفائه كما هو الحال في التصوير ، بل يعتمد على إبرازه ، لأنه غايته الأولى . فلا عجب إذن إذا رأينا الشاعر الدرامي في بعض أحيان يخشى ألا تكون الآلام التي يعرضها علينا غير كافية في التأثير على مشاعرنا ،

ويذكر لسنج اختلافاً آخر بين القصيدة والتمثال :
ففى القصيدة ، يرتدى لاوؤوكون ملابس مهيبية :
أما التمثال فقد اتجه إلى تجريد شخصيات تمثاله من الثياب ،
مما أدى إلى توجيه بعض انتقادات إليه بسبب تناسيه
الأصول المرعية ، وعرضه مثل هذه الشخصية المهيبة
فى مثل هذه الصورة غير اللائقة . ولكن هؤلاء النقاد
وأمثالهم قد تناسوا ضرورات فن النحت . فنظروا أى
رداء سميك لن يكون مقبولاً عند نحتته بواسطة
الأحجار . ولهذا فضل المثالون الإبتعاد عن الحقيقة على
عدم مراعاة أصول فهم ، وعلى عدم مراعاة غاية
النحت ، وهى الجمال ، لأن الرداء لن يبدو فى صورته
المنحوتة أجمل منه فى الطبيعة على الإطلاق . ولن
يتساوى شكل الرداء مع شكل الجسم فى الجمال بأية
حال . أما فى القصيدة ، فإن وجود الرداء لن يفسد
البتة من تأثير القصيدة . فهو لن يحول دون شعورنا
بالآلام التى عاناها لاوؤوكون ، بل لعله يزيد من هذا
الأثر :

ويقتضى لسنج الرأى المقابل لرأيه ، والذى لجأ
إليه كثيرون من النقاد والمفكرين (أى القول بأن التمثال
قد أبدع التمثال قبل ظهور قصيدة الشعر ، أى أن
القصيدة مستلهمة من التمثال . وهذه قضية هامة قد
تعمقها كثيرون من المفكرين الألمان كان بينهم جوته
وشوبنهاور ، ولن نخوض فى تفاصيلها هنا) ويقول إنه
لو حدث ذلك ما قنع الشاعر فرجيل إطلاقاً بمثل هذه
الفكرة البسيطة التى ظهرت فى تمثال اللاوؤوكون ،
ولصح قول ريشاردسون بأن الشاعر لم يلجأ إلى قصة
اللاوؤوكون إلا بوصفها مقدمة للوصف المؤثر للتدمير
النهائى للمدينة . ولعل الشاعر قد قصد عندما أبرز
الكارثة التى حلت بأحد المواطنين أن يسترعى انتباهنا
إلى الكارثة الكبرى التى حلت بالمدينة .

استطاعتنا الالتفاف حول الإبتين وحول الأب عندما
هرع لإغاثتهما . وصور الشاعر الآلام التى لحقت
بالجميع فى صراعها مع هاتين الحيتين ، وكيف نفتنا
السم فى وجه الأب عنا . ما حاول تخليص ولديه . وجعل
الشاعر الذراعين حرتين طليقتين حتى يتسنى للأب
وابنيه مقاومة الحيتين فيزداد من جراء ذلك الأثر
الدرامى . فهل ٤٦ المثل إلى محاكاة الشاعر بغير قيد
أو شرط ؟ . الواقع أن المثل قد اشترك مع الشاعر فى
ناحية واحدة فقط وهى عدم تقييد الذراعين . ولكن
ثمة اختلافاً بعد ذلك بين التمثال والقصيدة . ففى القصيدة
إلتفت الحيتان مرتين حول جسم لاوؤوكون ومرتين حول
عنقه ، وكانت رأسهما تحلقان عالياً فوق رأس
لاوؤوكون . ونجح الشاعر بهذه الوسيلة فى تحقيق غايته ،
لأننا نستطيع أن ندرك الأوجاع التى لحقت بلاوؤوكون
بتأثير التفاف الثعبانين حول الجسم ، وتأثير السم
الزعاف الذى نفث فى وجهه . أما المثل ، فكان مضطراً
إلى عدم تغطية سائر أجزاء الجسم ، لأن ما يهيم هو
إبراز شكل عضلات جسم لاوؤوكون ، و . . . تتقلص
بتأثير مقاومتها للحيتين . والتفاف الحيتين حول العنق
كان سيؤدى إلى إفساد الشكل الهرمى للتمثال الذى
ترتاح له العين . وعلو رأس الثعبانين فوق رأس لاوؤوكون
سيؤدى إلى جمال التمثال بغير شك ، كما نستطيع أن
نلاحظ إذا تأملنا الصورة القبيحة التى رسمها أحد
المصورين فيما بعد لهذا المشهد .

وتنبه المثالون القدامى إلى ضرورات فهم ، ولذا
نقلوا التفافات الثعبانين من العنق وجذع الجسم إلى
الأفخاذ والقدمين ، لأن إخفاءهما لن يؤدى إلى إضعاف
التأثير الجمالى للتمثال . ولم يؤثر هذا النصف البتة على
معنى التمثال . فن يتأمله يشعر على الفور بمحنة
لاوؤوكون وعدم قدرته على الحركة أو تحرير أعضاء
جسمه .

اعتراضات على تناسي المفكرين الفروق بين الشعر والتصوير

وانتقل لسنج بعد ذلك إلى مناقشة المفكرين الذين أصروا على تأكيد التشابه بين التصوير والشعر والذين اعتقدوا أن الصلة بين الفنانين والشعراء صلة قائمة منذ الأزل ، فطالما تبادلاً التأثير . وفي مساواة هؤلاء المفكرين الشعر والتصوير تناس للفروق الأساسية بينهما ، وكأنهما فن واحد يخضع لقواعد واحدة . واختار لسنج مفكراً إنجليزيّاً ثانوياً (لم يعد معروفاً الآن) هو جوزيف سبنس ، وصوب سهام نقده إليه . فقد تعرّس سبنس هذا عندما صادف اختلافات بين الشعر والتصوير عجز عن تفسيرها ، إذ تساءل - في دهشة - عن سر تحلى الإله باكوس بالقرون ، في الشعر ، بينما لا توجد قرون مماثلة في التماثيل . ولجأ سبنس إلى حجج مختلفة لتعليل ذلك كالتقول بجهل القدامى ، أو القول بصغر حجم القرون مما جعلها تختفي وراء النيجان أو أغصان الغار التي تحلى رؤوس الآلهة . كل هذه الحجج الباطلة قد أبعدهته عن التفسير الحقيقي . فقد نسي أن قرون باكوس لم تكن قروناً حقيقية مثل قرون « الفون » و « الساتيرات » إنما كانت مجرد حلية توضع فوق الرأس ، ترتدى أو تنزع وفقاً للمشيئة . . والشاعر يستطيع اعتماداً على القرون الإيحاء بأفعال الآلهة ، وصفاتها . أما إظهار القرون في الفن التشكيلي ، فإنه يؤدي إلى إفساد جمال الصورة ، أو جمال التمثال .

ومثل آخر هو وصف الشاعر ستاتيوس والشاعر فاليريوس فلاكوس لنيونوس وهي غاضبة ، بحيث بدت في تشبهاتهما أحياناً شبيهة بعاصفة هوجاء ، بدلا من أن تشبه آلهة الحب . ولم يعثر سبنس في الأعمال الفنية القديمة على صورة لنيونوس في حالة غضب . وفسر ذلك بالظن أن الشاعر يتميز بحرية أعظم من الحرية التي يتميز بها النحات أو المصور . ولكن غاب

عن فطنته أن كثيراً من الأشياء التي تبدو حسنة في الوصف الشعري ، لا تظهر كذلك في حالة التمثال أو الصورة . وبدلاً من أن ينتهي سبنس إلى هذه النتيجة فإنه قد وجه اللوم إلى الشاعرين المشار إليهما ، وذكر أنهما ينتميان إلى عصر اضمحل فيه الشعر الروماني ، فبدا لهذا السبب في وصفهما لنيونوس قدر كبير من سقم الذوق وفساد الحكم ، على عكس العصور الذهبية للشعر التي لا يصادف فيها أي ابتعاد عن قواعد التعبير الفني .

فلم ينتبه سبنس إذن إلى أن الآلهة والكائنات الروحية لا تظهر في الشعر والتصوير على نحو واحد . فالفن يعرض أشكالاً تجمع بين المعاني المجردة والمشخصة ، ويحاول استحثاثنا على الالتفات إلى المعاني المجردة وحدها ، وإلى إقناعنا بأن أي ملامح شخصية تحيط بها إنما جاءت بفعل ضرورات هذا الفن . أما عند الشاعر ، فإن الآلهة كائنات حقيقية فعالة تتصف إلى جانب خصائصها العامة بخصائص ومشاعر شخصية ، قد تتغلب في بعض الأحيان على خصائصها العامة . وفيونوس مثلاً لا تمثل في نظر الفنان أي شيء آخر غير الحب . ولذا فإنه مضطر إلى الاقتصار في تعابره الفنية على ما يوحى لنا بهذا المعنى . وبإمكانه أن يصفى عليه بقصد استهواننا للنظر إليه بعض الملامح الجميلة الرشيقة - باعتبار أن الحب يقترن بالجمال والسحر . وأي انحراف عن هذه التأثيرات يؤدي إلى عدم تدوقنا للصورة أو التمثال . فإذا اتجه المصور إلى جعل الجمال يتصف بالسمو والجلال بدلا من التواضع فستتحول فيونوس على الفور إلى آلهة أخرى هي يونون . ولو أنه جعل سحرها نابغاً من الجبروت لتحولت إلى ميرفا .

من هذا يتضح أن ظهور فيونوس في صورة غاضبة أو اتجاهها إلى الانتقام سيبدو في نظر التمثال دليلاً على التناقض الصارخ :

أما في نظر الشاعر فإن فينوس لا تمثل الحب وحده بل هي آلهة حب . وإلى جانب هذه الصفة فإن لها صفاتها الأخرى المتصلة بشخصيتها . فلا بأس إذن إذا جعلها الشاعر ثور وتغضب .. الخ . والشاعر يستطيع أن يلجأ عند الوصف إلى معان سلبية وإلى الجمع بين أية خصائص مختلفة برغم تناقضها . فلا يهجمه أن تظهر فينوس دائماً في صورتها الرشيق ، أو أن ترتدى ثياباً ذات لون لازوردي . كل هذه الاختلافات بين الشعر والتصوير يدركها كل من يفهم التصوير فهما حقيقياً ، ويعرف أن أحكام أى منها لا تلزم بالضرورة في الفن الآخر .

وعند المقارنة بين المصور والشاعر ينبغي الالتفات إلى مدى الحرية التي تمتع بها الإثنان في إنجازهما لعملهما . فمن الواجب دراسة المؤثرات التي تؤثر بها العمل الفني . وكثيراً ما كان للدين مثل هذا الأثر . ويظهر هذا في التماثيل المخصصة للعبادة ، والتي كثيراً ما اتجه الماثلون إلى إيقاظها بالرموز لكي تحدث الأثر المطلوب : وأدى عدم نقاء العمل الفني أحياناً بتأثير ذلك إلى إساءة تفسيره ، ونسبة أشياء بعيدة عن الفن إليه .

فالقرون التي ظهرت في تماثيل باكوس في معبد لينوس مثلاً ، كان الدافع لإبداعها هو إمساك ابنته بها لإنقاذ أبيها . ولكن الفنانين الذين لم يقصدوا إنشاء تماثيل لكي توضع في المعابد ، قد تمتعوا بحرية جعلتهم لا يلجأون إلى مثل هذا النوع من الرموز أو المسخ . ويستخلص لسنج من ذلك أن العمل الفني هو الشيء الذي أراد الفنان بإبداعه غاية فنية فحسب ، أى كان الجمال هو هدفه الوحيد . أما الأعمال الأخرى التي تشتم منها أية غايات غير فنية فلا يصح نسبتها إلى الفن . والفنون التشكيلية - كما رأينا - لا تستهدف أى شيء آخر غير الجمال ، ولكنها إذا اضطرت إلى التعبير عن أية معان أخرى بعيدة عن رسالتها الأصيلة ، فإنها

تضطر إلى ابتكار رموز ، تصبح بمرور الزمن وبسبب كثرة تكرارها أصولاً مرعية في الفن . وواضح أن الشاعر غير مرغم على اتباع مثل هذه الرموز ، لأن لغته تسمح بالتعبير في وضوح عن أى معنى يقصده بغير لجوء إلى رموز أو إشارات متفق عليها . ولذا تظهر في الفن رموز في كثير من الأحيان مثل شكل الأنثى التي تمسك باللجام في يدها للتعبير عن العفة أو التي تستند إلى عمود للتعبير عن الوفاء . والمصور ربما كان مضطراً إلى الاستعانة بهذه الرموز للتعبير عن مثل هذه المعاني ، ولكن هل هناك ضرورة تتطلب قيام الشاعر بالمثل .

وبعد أن انتهى لسنج من نقد سبنس تابع فكرته الأساسية لبيان الاختلاف بين الشعر والتصوير فانتقد الكونت كايوس (Caylos) من أشرف فرنسا في القرن الثامن عشر ، وكان مولماً بالآثار والدراسات الكلاسيكية) ، لأنه قد خلط هو الآخر بينهما فظن أن من الواجب أن يلجأ الشاعر إلى الرموز وإلى المعاني الرمزية في شعره ، كما رأى أن الشعراء كثيراً ما تأثروا بالأعمال الفنية وقاموا بمحاكاتها في قصائدهم .

ولو صح هذا الكلام ، ولو صح قيام هوميروس بنقل المعاني التي ذكرها من بعض الأعمال الفنية التي اطلع عليها لأدى ذلك إلى انحطاط منزلته في تقديرنا بغير مراء .

ويميل لسنج إلى الاعتقاد بإمكان استبحاء المصور موضوعه من الشاعر ، وإن كان العكس غير صحيح . وتعليل ذلك هو أن التنفيذ في التصوير أعسر من الإبداع بعكس الشعر ففيه الإبداع هو كل شيء ، لأن انتزاع المعنى الشعري من الخيال أعسر بكثير من التعبير عنه في كلمات . والتعبير في الفنون التشكيلية اعتماداً على مادة وسيطة كالرخام مثلاً أشق بكثير من التعبير بوساطة الكلمات . من هذا يتضح أن التنفيذ (أو الناحية التقنية

في الفن كما نقول حالياً) في الفنون التشكيلية أكثر صعوبة من الإبداع والأصالة .

ويجذب لسنج فكرة استلهام الشعر في التصوير ويقول ان المصور الذي اتبع الأوصاف التي ذكرها الشاعر تومسون ، قد صور مشهداً جميلاً يفوق في جماله من اعتمد على الطبيعة اعتماداً مباشراً . فالمصور الثاني لا يصادف أي عناء لأنه يرى الأصل أمامه ، أما الأول فإنه يضطر إلى قلدح زناد فكره حتى يتمكن من تمثيل الشيء الذي أمامه . والأول يبدع عملاً جميلاً اعتماداً على المحسوسات التي يراها ، أما الآخر فإنه لا يعتمد على أكثر من تمثيلات واهنة غامضة .

ولكن لسنج يستدرك ويذكر أن شعور الفنانين بأن الابتكار ثانوي في فهم لم يكن دائماً ذا أثر محمود . فإن معرفة الفنانين اعتماد براعتهم على التنفيذ قد جعلتهم أحياناً لا يباليون بالأصالة . ولهذا لم تتقدم الفنون التشكيلية تقدماً مماثلاً لما حدث في سائر الفنون . ولكن هذا التكرار ليس أمراً سيئاً كما يبدو لأول وهلة ، لأنه يساعد كثيراً على سرعة تأثير الفن التشكيلي وفوريته . ولعل السبب الذي دفع الفنانين إلى الخوف من الابتكار ليس صعوبات الناحية الآلية في التصوير واستغرافها وقتاً طويلاً كما ذهب الكونت كايلوس إنما يرجع بمعنى أصح إلى سبب أعمق من ذلك ، وهو التزام التصوير بحكم طبيعته موضوعات محددة كما سنرى .

وثمة اختلاف آخر بين الشعر والفن لأن الشعر قادر على تناول الموضوعات المرئية وغير المرئية على حد سواء . أما التصوير ، فإن موضوعه أساساً هو المرئيات . والمصور قد يتناسى أحياناً الاختلاف بين المرئيات وغير المرئيات فيرتب على ذلك إبداع أشياء ممسوخة أو تدعو إلى الحيرة . ويضرب لسنج مثلاً لبيان الاختلاف بين الشاعر والمصور في هذا الصدد فيذكر أن الشاعر عندما يتناول الصراع بين الآلهة ، فإنه يتناول

جوانب كثيرة غير مرئية ويتيح للخيال فرصة تأملها وتخييل الآلهة في عظمتهم وفي تساميمهم على الآدميين ، ولكن المصور مقيد بعوائق فنه التي ترغمه على الاقتصار على المرئيات . فهو مرغم في حالة الآلهة على تصويرها في صورة أشخاص . ولو لجأ إلى تضخيمها أو تغيير ملامحها لبدت أقرب إلى الوحوش منها إلى الآلهة . والمبالغات التي قد يطالعنا بها الشر عن قوة الآلهة وقدرتها على زحزحة الأحجار أو تصويبها مهما كان ثقلها - كالحجر الذي ألقاه مينرفا على مارس مثلاً - ستبدو غريبة لا معنى لها إذا أقدم أي مصور على تصويرها . فصور الآلهة قد نستطيع أن نتخيلها لو قرأنا الشعر ، ولكن التصوير يفسدها . ومهما اتصف المصور بالبراعة ، فإنه لن يستطيع تصوير الآلهة في أية صورة أخرى غير صورة البشر .

ويلجأ المصورون عندما يحاولون الإيحاء بالأشياء غير المرئية إلى إحاطة الأشياء العادية بسحب رقيقة . والقصد من هذه الفكرة هو الإيحاء لتأمل الصورة بتناسي ما يرى في الصورة ، وتخييل هذه الأشياء كأنها غير مرئية . وهذه الفكرة مأخوذة عن الشاعر هوميروس الذي كان يحيط أبطاله بسحابة رقيقة ، أو بالظلام ، عندما يريد إخفاءها من رماح الأعداء . هذا التعبير الشعري اللطيف عندما يتم نقله إلى التصوير فإنه يظهر في شكل سحابة حقيقية تختفي وراءها البطل ، وكأنه تختفي وراء ستار . مثل هذه الفكرة لن تبدو مستحبة على الدوام في التصوير ، ولن تعني نفس المعنى المجازي الذي يقصده الشاعر ، لأن ما يقصده الشاعر هو القول : « عليك أن تتخيله وكأنه غير مرئي » .

ويحاول لسنج إثبات عدم صلاحية كل موضوعات الشعر للتصوير بالقول بأننا إذا افترضنا ضياع مؤلفات هوميروس كلها (الإلياذة والأوديسا) ، وأن ما بقي ليذكرنا بها كان مجرد لوحات مصورة تمثل بعض المشاهد التي استشهد بها الكونت كايلوس . فهل نستطيع

بمجرد الاطلاع على مثل هذه اللوحات تذكر ما كتبه هوميروس ؟

فلنتصور مثلاً قيام أى مصور بتصوير مشهد الطاعون ، كل ما يستطيع المصور فى هذه الحالة أن يفعله هو رسم جثث ومراسم جنازية ، وإله قابع فوق إحدى السحب (للإيهام بأنه شىء غير مرئى) . مثل هذا المعنى سيدو هزيلاً للغاية بالنسبة لأشعار هوميروس وناحية أخرى يتميز بها الشعر وهى الموسيقى التى تتردد أصداؤها فى مقاطعه ونبراته ، التى تعجز فرشة المصور عن محاكاتها أو ترديدها . والتصوير لا يتفوق إلا فى رسم المرئيات الثابتة بعكس الشعر الذى يستطيع أن يصور أى حركات متتابعة متلاحقة ، كصورة بانداروس مثلاً فى الكتاب الرابع من الإلياذة . وفيها صور لنا هوميروس بانداروس وكيف أمسك بالقوس فى يده ، كما صور لنا الحركات المتتالية للسهم ، بحيث يستطيع من لا يعرف أى شىء عن هذا الموضوع أن يتعلم فن القوس والسهم بمجرد اطلاعه على هذا الوصف . من هذا يتضح أن الشعر قادر على وصف المرئيات التى تتعرض للتغير . بعكس التصوير ، فإنه لا يستطيع أن يعرفنا بغير المرئيات الثابتة . فالتصوير إذن يعنى بالمكان وحده وبالأشياء المتجاورة ويتناسى وجود الزمان والأحداث التى تتعاقب فيه .

التصوير فن المكان والشعر فن الزمان

وبعد هذه المقارنات التفصيلية بين الشعر والتصوير ، حدد لسنج الموضوعات التى تصلح للتصوير فقال إنها الأجسام التى تتألف من أجزاء مترابطة تقع فى مكان واحد . أما موضوع الشعر فهو الأفعال التى تحدث متعاقبة ومتتالية فى زمان .

ولو حاول التصوير عرض موضوعات الأفعال المتغيرة ما استطاع أن يقدمها إلا فى مجموعة من الصور

المتعاقبة التى لا تظهر فيها غير أجسام ثابتة . أما الحركة ، والأفعال وما تتعرض له من تغير ، فإنها تستخلص من الاختلاف الذى يظهر فى هذه الصور .

والشعر يعنى بالأفعال ، ولكن الأفعال لا تحدث فى فراغ أو خواء ، بل يضطلع بها أشخاص . وقارئ الشعر يستطيع أن يدرك صورة الشخص القائم بهذه الأفعال من خلال وصف الشاعر .

ومن يتأمل هوميروس سيرى أنه لم يصف غير أحداث متعاقبة ولم يرسم صورة لشخصية أو لأجسام إلا عندما تطلبت الأحداث ذلك . فالصور التى رسمها لن تصلح مادة للتصوير - كما توهم النقاد - لأن ما يحتاج إليه المصور لكى يصوره هو كل مكتمل وليس أجزاء متعاقبة . ولو أقدم المصور على محاكاة هوميروس لكان بحاجة إلى عدد لا حصر له من الصور . ويكفى فى هذا الصدد ذكر مشهد إبحار السفينة ورسوها . مثل هذا المشهد لن يحتاج إلى ما هو أقل من خمس صور أو ست لو أريد التعبير بالصور عن كل المعانى التى قصدها هوميروس . وهوميروس لم يتورط إطلاقاً فى رسم الموضوعات التى يتفوق فيها التصوير بحكم طبيعته فهو مثلاً عندما أراد تصوير الصولجان لم يستطع بالطبع أن يظهر ألوانه المتعددة الساحرة فلجأ إلى فكرة أخرى وهى سرد تاريخه وكيف صنعه الإله فولكان ، وكيف اكتسب بريقاً بفضل جوبيتر ، ثم تحلى به بعد ذلك الإله ميركورى ، وأصبح يمثل صولجان الحرب فى يد بنلوب ، كما يمثل عصا تريوس الراعى المسالم .

ويقارن لسنج بين الشعر والتصوير فى ناحية هامة ، وهى ناحية البراعة فى الوصف . وهو يرى أن إدراك معالم أى شىء تتطلب نظرة خاطفة تنتقل بين أجزاء الشىء المختلفة بحيث تبدو كأنها نظرة واحدة . فالسرعة لازمة لكى ندرك أى شىء فى كليته وشموله . ولكن هذه السرعة تتعارض مع رسالة الشاعر ، لأنه فى انتقاله

من وصف جزء إلى جزء آخر غالباً ما يترتب - وغالباً ما يركز على جزء ما عندما يرى أن التركيز سيحدث الأثر الشعري المطلوب . ويترتب على ذلك في النهاية نسيان المستمعين للشعر ما قيل في أول الأبيات عند استماعهم وصف الأجزاء الأخيرة التي يصفها الشاعر . وما يسفر عنه ذلك هو تعذر الإحاطة بالكل في السرعة المطلوبة ، اللهم إلا إذا كان المستمعون يتمتعون بذاكرة فذة تساعدهم على نسيان هذه الفواصل الزمنية وعلى تجميع الأوصاف الجزئية بحيث تتحقق صورة شاملة واضحة :

إن مثل هذه الصورة الشعرية الجامعة في وصف الأشياء غالباً ما تكون أكثر وهناً وتفككاً من أية صورة مرسومة تعتمد على الخطوط والألوان . صحيح أن اللغة لا تعجز عن تمثيل أى كل مادي ، ولكن يلزم في هذه الحالة مراعاة خاصتين من خصائصها وهي أنها تتألف من ألفاظ لا تدل إلا على أشياء متتابعة وأنها قد نبعت من الأشخاص ولم تنبع من الأشياء ولذا تحتل كثرة من التأويلات . وإذا أمكن للمستمع التغاضي عن هاتين الخاصتين وتناسي أن اللغة لا تنبئ بغير الأشياء المتعاقبة في الأزمان ، وليس من شأنها وصف الأجسام المتجاورة في مكان واحد ، فإنه سيرضى عن الأوصاف التي يقرأها في الشعر ويستفيد منها .

ولكن هل يعد تخلي اللغة عن هاتين الخاصتين (عدم تحديدها وتركيزها على الأشياء المتعاقبة) ميزة لها . إن الشعر في الواقع لا يهدف إلى الأوصاف الواضحة ، لأن هذه هي مهمة النثر . أما ما يرمى إليه الشعر فهو استحثاثنا على تخيل المشاعر التي كنا نشعر بها في حضرة الأشياء التي يتحدث عنها الشاعر . فإذا ترك الشاعر مثل هذه المهمة الجليلة كان هذا دليلاً على إفلاسه . فلا عجب إذا نظر بوب في سنواته الأخيرة بازدراء إلى أشعار الوصف التي أضع فيها وقته في صباه . كما أن كلايست قد نظر إلى قصيدته « الربيع »

نظرة خالية من كل تقدير . ولو قدر له أن يحيا طويلاً لما كان من المستبعد إقدامه على تغييرها . ويستخلص لسنج من هذه المناقشة قاعدة أساسية هي ضرورة تخصص الشاعر في المتعاقبات في الزمان ، وتخصص المصور في النواحي المتجاورة في المكان .

وتبعاً لهذه القاعدة انتقد قيام بعض المصورين مثل فرانيسكو مازولي لقيامه بتصوير مشهدين في نفس الصورة ، كما انتقد تيسان لإقدامه على تصوير قصة الابن المنحل وحياته التي سادها الإنحلال ، وتعاسته ثم تكفيره عن خطايا ، في صورة واحدة . فتجاوز مهمة التصوير (وهي رسم شيء مكتمل) والقيام برسم أحداث متفرقة متباعدة في الزمان يدل على عدم إدراك المصور لمهمته . ويعمد المصور البارع الذي يدرك قصور التصوير وإضطراره إلى التركيز على لحظة واحدة ، إلى اختيار أفضل اللحظات وأغناها بالمعاني ، كما يلجأ إلى البراعة في ترتيب شخوص صورته ، وإلى الاقتصاد في اختيار مكونات الصورة .

والشاعر بحكم هذه القاعدة مضطر إلى التركيز على جانب من الأحداث أو الأشياء التي يتحدث عنها ، بدلا من سردا جملة واحدة . ولكن الشاعر ببراغته في اللغة قد يستطيع اختيار كلمات مشبعة بالمعاني تجعلنا نتوهم أنه قد جمع فيها أكبر قدر من الأوصاف التي يرى التعبير عنها . ولنضرب مثلا لذلك هو وصف الدرع عند هوميروس ، (وهي مسألة قد شغلت كثيرين من المفكرين في القرن الثامن عشر نذكر منهم الشاعر بوب ومدام دارسيه) فهو لم ينس في هذا الوصف الدقيق أن يعرفنا مادته وشكله وكل الصور التي كانت مرسومة على سطحه الرحيب مما ساعد المصورين المحدثين على إبداع رسوم تمثل هذه الأشكال تمثيلاً دقيقاً . ولا يفهم من ذلك أن هوميروس قد اعتدى على حدود الشعر . فهو لم يصف الدرع جملة واحدة ، بل وصف المراحل المتتابعة التي يمر بها صنع الدرع . فنحن

الجمال والدمامة في التصوير والشعر

وتنتقل المقارنة بين الشعر والتصوير بعد ذلك إلى ناحية أخرى وهي القدرة على عرض الأشياء الجميلة . والجمال الطبيعي يعنى وجود اتساق وانسجام بين الأجزاء المختلفة . ولكي يظهر هذا الاتساق ينبغي أن توجد هذه الأجزاء متجاورة . لذا أصبح الجمال هو الموضوع الذى تتميز به الفنون التشكيلية .

أما الشاعر وبحكم اضطراره إلى عرض الجمال اعتماداً على صور جزئية متعاقبة ، فإنه لا ينجح في إحداث تأثير مماثل لتأثير المصور ، ومن ثم فإنه بتجنب أى وصف للجمال على هذا النحو . فتمتد اختلاف بين منظر أى شىء مكتمل الأجزاء ومنظره مجزأ إلى أجزاء متعاقبة . إن الحالة الأخيرة لا تستحثنا إلى الشعور بالجمال . اللهم إلا إذا تذكرنا حالات مكتملة ماثلة بمجرد رؤيتنا للقطات الجزئية التى يعرضها الشاعر .

وهوميروس هو أفضل من تنبه إلى هذه القاعدة أيضاً . فهو يكتفى بالإشادة بجمال هلين ، ولكنه لا يقحم نفسه فى عرض تفاصيل مفاتها ، لأنه واثق أن مثل هذا العرض لن يساعد على إحداث الأثر المطلوب . فلا صحة إذن لاعتقاد بعض النقاد أن الشعراء العباقرة قادرون على تحقيق ما تنجح فى إبرازه اللوحة المصورة ويرى لسنج أن ما يمكن الإفصاح عنه على أفضل وجه بواسطة الخطوط والألوان ، هو شىء تعجز الكلمات عادة عن التعبير عنه . فإذا كان دولشى قد أثبت على وصف الشاعر أريوستو لإحدى النساء الجميلات ، فإن لسنج بعد أن قرأ هذا الوصف يرى هذه القصيدة أفضل تحذير لجميع الشعراء بعدم اتباع مثل هذا الاتجاه غير السديد .

ربما استشفنا من بعض قصائد أريوستو بعض قواعد التناسب التى عرفها القدامى ، وربما اعتقد البعض أن هذه القصائد قد دلت على معرفة كاملة بالتلوين

لا نتخيل عندما نقرأ الوصف الدرع ذاته ، بل نتخيل العانع البارع عندما قام بصنعه ، فنراه وهو يمسك بالقادوم ، ويقف أمام السندان ، ونرى الحديد عند صهره وسبكه ، كما نرى الصانع الفنان وهو يتخيل الأشكال المختلفة التى ينوى تزيين الدرع بها . ولكن النقاد الذين لم يرضوا عن وصف هوميروس للدرع قد انتقدوا هذا الوصف لعدم درايتهم بما بين الشعر والتصوير من اختلاف . فقبل إن هوميروس قد ملأ الدرع بعدد كبير من الأشكال ، ما كان ميسوراً أن يحتويها سطحه . وأثبت بوفان (عالم اليونانيات الفرنسى جان بوفان) ذلك عندما قام برسم تخطيطي للدرع وفقاً للأبعاد التى ذكرها هوميروس ، ولكنه نسي أن الشاعر لا يعنى بالأحداث أو الأوصاف باعتبارها متجاورة فى مكان واحد ، بل إن ما يعنيه هو اللحظات المتعاقبة التى قد لا يستوعبها مكان واحد . ولهذا فإننا إذا جمعنا صور هوميروس على شكل لحظات أى حولناها من صورتها الشعرية إلى الصورة التى تناسب التصوير ، لاحتجنا بغير جدال إلى عدد كبير من الصور كل منها تمثل لحظة من الزمان . فكل مشهد من هذه المشاهد العديدة التى صورها الشاعر بأشعاره فى حاجة إلى صورة منفردة . هذه المعانى يستطيع الشاعر إدماجها فى صورة مركزة غير مقيدة بأى تجاور فى المكان ، أو اشتراك فى لحظة واحدة كما هو الحال عند المصور .

وظن الشاعر بوب أن هوميروس قد صور هذه المشاهد وفقاً لقواعد التصوير ، أى أنه لاحظ التباين وقواعد المنظور . الخ . ولكنه تناسى أن فن التصوير أثناء حرب طروادة لم يكن قد توطد بعد كما شهد المؤرخ بليني وآخرون . وبدلاً من أن يعترف بوب بالاختلاف بين التصوير والشعر ، فإنه قد جعل الشاعر يتنبأ بقواعد التصوير التى ظهرت بعد أكثر من ألف سنة من وفاته .

لا تختلف عن معرفة تيسان بها ، ولكن ما هي الفائدة التي سنجنينا من قراءة بعض أشعار تعرفنا بالجمال في صورة مادية ؟ إن الشعر يرمى إلى شيء آخر وهو تعريفنا بالجمال الذي ينبض بالحياة ، والقصيدة الشعرية الحقة هي التي تدفعنا إلى الإحساس بالانفعال الصحيح الذي نشعر به في حضرة الجميل . فلا قيمة إذن لترديد الشاعر أوصاف الجمال التي نراها مصورة ، أو لترديده النسب المختلفة لتقاطيع الوجه . وكأن الشاعر مدرس رسم يعرف تلاميذه الصغار كيف يرسمون بعض نماذج الجمال :

وأحسن فرجيل (ولم ينسج عليه كثيراً خصوصاً عندما كان يقارنه هوميروس) عندما أكد عجزه عن تصوير جمال هلين كما ينبغي ، وإن كان هذا لا يرجع إلى خطئه ، بل يرجع إلى حدود فنه . فهو إذن جدير بالثناء لأنه قد عرف كيف يراعى حدود هذا الفن ، لذا لجأ إلى حيلة طريفة لوصف الجمال . إذ تخيل رساماً يرسم معبودته في حضرتها . ولم يكن الشيء الذي يبغيه هو رؤية أجزاء الوجه وهي ترسم أمامه ، بل تخيل المحبوبة حاضرة أمامه وكأنها تتحدث أو تبسم . والشعر لن ينحسر كثيراً إذا تجنّب وصف الأشياء الجميلة لأنه يعوض ذلك بشيء آخر يتناسب مع قدراته وهي وصف الأثر الذي يحدثه الشيء الجميل ، وهكذا يستطيع أن يوحي لنا بوجود الشيء الجميل دون أن يعرض لنا تفاصيله . والشيء الذي تحدثت عنه الشاعرة اليونانية سافو وجعلها تفقد وعيها وصورها ، لا آخالنا نتصوره من الأشياء القبيحة . والشعر قادر على منافسة التصوير في وصف الجمال على نحو آخر عندما يحول الجمال إلى سحر . والسحر عبارة عن جمال في صورة متحركة ، ومن ثم لا يصبح من الموضوعات التي تناسب التصوير . وموضوع الفن التشكيلي يقتصر على الموضوعات الثابتة كما رأينا ، لذا يترك المصور استخلاص الحركة لفطنة المتأملين للوحاته .

ولقد طالب الشاعر أناكريون بالمستحيل من المصورين عندما طالبهم بجعل صورة محبوبته تنسم بالسحر الذي ينبغي أن يشع من ذقنها الرقيقة ومن عنقها المرمرى . فهل كان هذا ميسوراً ؟ . إن التصوير بمعناه الصحيح ليس قادراً على تحقيق ما يبتغيه أناكريون . فالمصور يستطيع رسم الذقن في أكمل استدارة ممكنة ، ويستطيع أن يبرز فتنة الوجه وملاحظه ، وأن يختار أفضل الألوان التي تناسب العنق بحيث يجعلها قريبة إلى الحياة ، ولكنه سينتعر لا محالة إذا حاول أن يخطو أية خطوة بعد ذلك . وبعد أن تحدثت لسنج عن الجمال انتقل إلى الدمامة ، وما تنيه في كل من الشر والتصوير . ولكي نحكم على أي شيء بالدمامة علينا أن نراه مكتملاً ، لأن الدمامة لا تظهر كما ينبغي في حالة التقطعات الجزئية . وهي في هذه الناحية ماثلة للجمال . وفقاً لذلك ، فإنها ليست من الموضوعات المناسبة للشعر . ومع كل هذا فقد رسم هوميروس الدمامة في أبشع صورها عندما تحدثت عن أحد أبطاله . فما الذي دفعه إلى وصف الدمامة مع معرفته أن الشعر يختص بالصور المتلاحقة ، ومع إحجامه عن القيام بفعل مماثل في حالة الجمال ؟ . ألا تؤدي تجزئة أوصاف الدمامة إلى التخفيف من حدتها ، وإلى إضعاف الوصف كما يحدث في حالة الجمال ؟ . ويعترف لسنج بصحة هذا الرأي ، وإن كان هوميروس محقاً فيما اتبعه ، لأن تجزئة أوصاف الدمامة تؤدي إلى التخفيف من خصائصها المنفرة (!) ومن ثم يستطيع الشاعر تحويل هذه الدمامة إلى أشياء مثيرة للسخرية أو الرعب . فهوميروس قد صور الشخصية (التي أشرنا إليها) قبيحة لكي يجعلها مثيرة للسخرية . ولم يعتمد على الدمامة وحدها لإحداث هذا الأثر ، بل لجأ إلى إظهار التباين بين هذه الصورة القبيحة التي تبين عدم الاكتمال وبين صورة أخرى تمثل الكمال . والشيء المثير للسخرية لا يعتمد على قبح الملامح وحدها ، بل يجب أن تكمله صفات خلقية قبيحة كذلك . فايزوب كان سيتصف

إلى تخفيف نفورنا ، بل سيدهونا إلى التساؤل عما دفع الفنان إلى تخيله مثل هذا المعنى المنفر ، وإلى التشكك في سلامة ذوقه .

وربما قيل اننا قد نعجب بمثل هذه الصور التي تمثل الدمامة باعتبارها تشيع فضولنا وميلنا للاستطلاع . ولكن مثل هذا الشعور مؤقت لا يعتد به ، وسرعان ما يزول ولا يبقى سوى الشعور بالنفور من الأشياء الدميمة أو ما بمائلها .

والأمثلة التي ذكرها أرسطو للدمامة لا تمثل أشياء دميمة في الواقع ، لأن الحيوانات المتوحشة ليست دميمة ولكنها تثير الرعب . وسر شعورنا بالارتياح عندما نتأمل صورها هو أنها لا تماثلها من ناحية إثارتها للرعب ، إنما هي تشبهها من حيث المظهر وحده . وعلى ذلك يرفض لسنج اعتبار الدميم موضوعاً للفنون التشكيلية ، لأن الدمامة تثير النفور على الدوام ، ولا شيء يخفف من وطأتها . فهي قد تثير السخرية أمدأ قصيراً في حالة عدم إحداثها أي ضرر ، ولكنها تظل بعد ذلك على الدوام موضع استهجان واستنكار .

والشاعر يستطيع تطعيم مبدعاته ببعض النواحي الدميمة المنفرة التي تتباين مع الطابع العام لشعره فتزيد من تأثيره . والأشياء المنفرة تساعد على إشاعة السخرية في حالة مقارنتها بالأشياء الجميلة ، كما يظهر لنا عنه أريستوفان . وأهم شرط عند تقديم المنفر في الشعر هو إحسان اختيار الموضوع المناسب الذي لا يتعارض مع الأثر العام للقصيدة الشعرية أو الدراما في صورتها الكلية كما نلاحظ عند هوميروس وعند سوفوكليس .

* * *

واضح من هذا العرض شدة تعلق لسنج بالشعر ، واعتقاده أنه أسعى منزلة من التصوير . ولا أميل إلى إرجاع ذلك كما جاء في كثير من مراجع تاريخ الفن إلى نقص في معرفة لسنج بالفنون التشكيلية . فالأرجح في رأيي هو شدة تعصب المفكرين في القرن الثامن عشر

بقبح مماثل لشخصية هوميروس التي تحدثنا عنها ، لولا حكمته وفضله وأثرهما في الحيلولة دون إثارته للسخرية . والدمامة عندما لا يتسبب عنها أي ضرر تثير السخرية ، ولكنها عندما تحدث ضرراً تصبح شيئاً مثيراً للرعب . واستشهد لسنج بشكسبير في هذه الناحية ، وقارن بين شخصيتين من شخصياته أشهرهما ميلهما للشر وهما إدموند الابن الحرام لإيرل جلوستر في رواية الملك لير ، وريتشارد دوق جلوستر الذي لجأ إلى كل الحيل الدنيئة والخبيثة للحصول على العرش ، ونجح وأسمى نفسه ريتشارد الثالث . والشخصية الأولى لا تثير فينا رعباً مماثلاً للرعب الذي تحدثه الشخصية الثانية . فان الشخصية الأولى - برغم شعورنا بما فيها من جوانب شريرة - تستدر شفقتنا وهي تشكو المجتمع وظلمه ، وأحكام الناس الخالية من كل شفقة . ولكن شخصية إيرل جلوستر في صورتها الشرسة المتغطرسة لا تمثل أي شيء سوى الشيطان ذاته .

ومن حيث الصلة بين الدمامة والتصوير : فان المصور قادر على محاكاة الدمامة ، لأنه يستطيع محاكاة جميع المرئيات ، الجميلة والقيحة على حد سواء . ولكن الفن الرفيع يمنع ذلك .

وقد يقال إن صور الأشياء القبيحة كثيراً ما تتحول إلى أشياء مستحبة . ويدلنا على ذلك أن المشاهد المروعة أو المخزنة ليست من المشاهد التي ننفر منها عندما نراها مصورة ، لأننا لا نبغض الشر إلا إذا تصورناه شيئاً حقيقياً ، فاذا عرفنا أن الشرور أشياء موهومة مصطنعة ستتحول مشاعرنا من النفور إلى الارتياح .

ولكن النفور ليس مرتبطاً بحقيقة الشيء المنفر فحسب ، لأننا نشعر بنفور حتى إذا أدركنا أن ما نراه ليس شيئاً حقيقياً البتة . والأمر بالمثل فيما يتعلق بقبح الأشكال ، لأن الأشكال القبيحة تثير الاشمئزاز ، وتعد شيئاً متعارضاً مع ميلنا إلى النظام والاتساق . واعتقادنا أن الأشياء التي نراها ليست حقيقية لن يؤدي

النظريات . كما تدلنا على ذلك تفرقة أخرى مشهورة لهم بين النظرة الطبيعية إلى الحياة والواقع ، والنظرة التاريخية . ولا أستطيع أن أؤكد وجود صلة واعية بين هاتين الفكرتين . ولنا حاجة إلى بيان بطلان هذه الفكرة . أو إلى القول بتغير نظرنا إلى المكان والزمان تغيراً شاملاً . أى أننا نراها الآن في صورة مغايرة إلى أبعد حد للصورة التي زعمها لسنج .

هذا النقد لا يعنى تناسي قيمة الكتاب وأصالته . فلقد عرض مشكلة هامة بانث آثارها في تاريخ الاستايطيقا وفي تاريخ الفن . وترتبت عليها عدة نتائج ما زلنا نعانى من آثارها حتى الآن . ففى أغلب الإستايطيقيات التي ظهرت بعد لسنج (خصوصاً الألمانية منها) نصادف ترتيباً هرمياً للفنون . وهذه الفكرة تعنى وجود شيء مشترك بينها يسمح بمثل هذه المقارنة . وربما حدث تجاهل الاختلاف بين الفنون على نحو آخر . إذ اعتقد أحياناً أن مضمون الفن واحد والاختلاف هو اختلاف في الشكل فحسب . فقام الفنانون وفقاً لذلك بنقل موضوعات الفنون الأخرى وإعادة عرضها في صورة لم تتناسب غالباً مع خصائص فهم .

وأغلب الظن أن الفنون التشكيلية . كانت أكثر الفنون متأثراً بهذه النزعة . إذ اعتبرتها أكثر المذاهب المثالية الألمانية أحط الفنون مرتبة بسبب شدة تقيدها بالحاكاة والواقع . وهذا هو ما دفعها إلى التحرر من طابعها . فحاولت تقليد الموسيقى تارة وتقليد فن العمارة تارة أخرى . . الخ . وما زال التصوير يعانى الأمرين بسبب حيرته التي تورط فيها ، أو بسبب إساعة المفكرين فهمه . أو تصورهم أنه أحط منزلة من الشعر والموسيقى .

فكتاب لسنج : برغم عدم اكتماله : (لأن الشية كانت متجهة في البداية إلى تأليف ثلاثة أجزاء في هذا الموضوع) عظيم القيمة إذن : لأنه محاولة قيمة للتنبه

للحضارة الهلينية والرومانية . وفنونها . هذا التعصب هو الذى دفع لسنج إلى تناسي نفائس الفن التشكيلي الفلمنكى الأقرب عهداً من الفن اليونانى والرومانى . (وهو نفس السبب الذى دفع فنكلمان برغم معرفته الواسعة بالفنون التشكيلية إلى إصدار عدة أحكام يسخر فيها من الفن الفلمنكى) .

وأدى تركيز لسنج دراسته على الفن اليونانى إلى توهمه أن الجمال وحده هو غاية الفنون التشكيلية . هذا الحكم وإن صح عن آثار اليونان والرومان : فانه لن يصح إطلاقاً على العصور الذهبية للتصوير سواء عند الإيطاليين في عصر النهضة . أو عند الفلمنكيين . أو عند الأسبان . أو عند المدارس الفرنسية المتعددة التي ظهرت في القرن التاسع عشر . والتي لم يعرفها لسنج . والتي أثبتت - كما أثبت رمبرانت من قبل - أن الفن التشكيلي لا يعرض لحظة من الزمان فحسب . كما اعتقد لسنج متأثراً بالمفكر الإنجليزي كينز : بل هو قادر على عرف تاريخ طويل حافل . وما يتميز به المصورون العباقرة هو قدرتهم على رسم لوحات تظهر التغلب على كل معوقات فهم . ففى مثل هذه اللوحات : لا نرى ألواناً أو أشكالاً ثابتة فحسب . بل نتوهم أحياناً أنها تتحرك أمامنا . ونادر أن تشابهت نظراتنا المتكررة إلى أية لوحة خالدة . ففى كل مرة ننتبه إلى شيء جديد لم نكتشفه في المرات السابقة .

وربما كان لسنج متشككاً في صحة ادعائه . كما يبين من ثانی اختبارات التي قمت بترجمتها في نهاية البحث : والتي تبين كيف يتحایل المصورون على مظاهر الثبات والسكون في لوحاتهم : فتبدو اللحظة الواحدة المشار إليها وكأنها تجر في أذيالها جملة لحظات أخرى .

ومن الأفكار الهامة التي تضمنها كلام لسنج وأحدثت أثراً كبيراً في الاستايطيقا ، تفرقة بين فنون المكان وفنون الزمان . والألمان مولعون بمثل هذا النوع من

إلى ضرورة الالتفات إلى أوجه الخلاف بين الفنون ، وإلى عدم افتعال أى تأثير متبادل بينها . وهو الأمر الذى يعزى أحياناً إلى نبوع كل الفنون من الإنسان ، أو من روح حضارية واحدة .

نماذج من الكتاب

التصوير فن المكان والشعر فن الزمان

(من الفصل السادس عشر)

. . . لو صح القول أن التصوير ياجأ فيما يحاكي إلى وسائل أو رموز مختلفة عن الوسائل والرموز المستعملة فى الشعر (التصوير يستخدم أشكالاً وألواناً فى المكان ، والشعر من ناحية أخرى يستخدم أصواتاً منطوقة فى الزمان) ، وإذا سلمنا بأن هذه الرموز ينبغى أن تتصل اتصالاً مناسباً بالأشياء التى ترمز إليها . فى هذه الحالة فإن هذه الرموز عندما ترص متجاورة لن تستطيع أن تعبر إلا عن الموضوعات التى تتألف من أجزاء مترابطة بجوار بعضها البعض . كما أن الرموز المتتابعة لن تعبر إلا عن موضوعات تتألف من أجزاء متتابعة .

والموضوعات التى تتألف من أجزاء متجاورة مترابطة تسمى بالأجسام ، ومن ثم فإن الأجسام بخصائصها المرئية هى الموضوع الذى يختص به التصوير والموضوعات التى تتألف من أجزاء متتابعة تسمى بوجه عام بالأفعال ومن ثم فإن الأفعال هى الموضوع الذى يختص به الشعر .

على أن الأجسام ليست موجودة فى مكان فحسب ، بل هى موجودة أيضاً فى زمان . فهى مستمرة فى الوجود . وقد تظهر فى أية لحظة من لحظاتها فى مظهر مختلف ، أو تتجمع مكوناتها فى صورة مختلفة . وكل مظهر من هذه المظاهر المؤقتة ، أو كل تكوين من هذه التكوينات نتيجة لأشياء سابقة له . ومن ثم فإنه يعد المحور الذى يتركز عليه أى فعل . من هذا يتضح أن

التصوير يستطيع أيضاً أن يحاكي الأفعال ، وإن كان هذا لا يتحقق إلا فى صورة غير مباشرة بوساطة الأجسام .

ومن ناحية أخرى ، فإن الأفعال لا تستطيع أن تحدث اعتماداً على نفسها ، بل ينبغى أن تكون مرتبطة بكائنات معينة . فمن حيث أن الكائنات إذن عبارة عن أجسام ، أو ينظر إليها على هذا النحو ، لذا يستطيع القول أن الشعر قادر على تصوير الأجسام ، وإن كان هذا لا يتحقق إلا فى صورة غير مباشرة بوساطة الأفعال . فالتصوير بسبب تألف مبدعاته من أشياء مترابطة لن يستطيع أن يصور غير لحظة واحدة من اللحظات التى يستغرقها أى فعل ، ومن ثم فإنه مضطر إلى اختيار أنسب اللحظات التى توحى بالفعل ، وتشرح فى وضوح ما سبقها وما يعقبها .

وبالمثل ، فإن الشعر فى مبدعاته التى تعتمد على أحداث متلاحقة لن يستطيع الإفصاح عن أكثر من خاصة واحدة من خصائص الأجسام ، ومن ثم فإن عليه إختيار الخاصة التى تستطيع أن تعرفنا فى أكمل صورة حسية مستطاعة الجسم المقصود ، والناحية التى يراد تمثيلها .

* * *

متى يمكن تجاوز حدود الشعر والتصوير

(من الفصل الثامن عشر)

. . . مرة أخرى إذن أوكد أن موضوع الشاعر هو الأحداث المتعاقبة فى الزمن ، أما المصور فموضوعه هو ما يظهر فى المكان .

وإن عرض حادثتين متباعدتين بالضرورة فى نفس الة ورة الواحدة -- (كما فعل فرانشسكو مازولى عندما صور لإغته اب نساء بعض القبائل ، كما بين فى نفس الة ورة مصالحة النساء لأزواجهن وأقاربهن) أو كما حدث عند تيسان الذى صور (قصة الابن المهتك

وحياته المنحلة وتعاسته ثم ندمه في النهاية) - يعد تطفلاً من ناحية المصور في عالم الشاعر . وهو أمر لا يرضى عنه إطلاقاً أى ذوق سليم .

ومحاولة تعريف القارئ صورة الكل بتعداد الأجزاء المختلفة أو الأشياء المختلفة الواحدة تلو الأخرى (أى الأشياء التى لا يمكن الإحاطة بها في الحياة الفعلية إلا بمجرد نظرة خاطفة لو أريد التأثير بالشئ في شموله) يعد تطفلاً من الشاعر على عالم التصوير ، ويؤدى إلى تبديد قدر كبير من الخيال بغير مبرر .

إن التصوير والشعر يشبهان عالَمين متجاورين متحابين . وبينما لا يسمح الواحد منها للآخر بأى إعتداء على أراضيه ، إلا أنهما قد يسمحان في ترفق بأى أشياء تحدث على حدودهما ، أى أنها يتغاضيان في سلام عن أية إعتداءات صغيرة على حقوقهما بتأثير الظروف أو العجلة .

ولتأييد هذا الرأى لن أذكر ما يحدث في اللوحات التاريخية الكبرى عندما تمتد اللحظة الواحدة بعض الشئ ، ولكننى أكتفى بالقول بأنه قلما توجد لوحة واحدة غنية بالشخوص ، تقوم فيها الشخصيات بعرض الحركة المناسبة أو الوضع الذى يتناسب مع حركة الفعل المطلوب . ففي بعضها تبدو الحركة أسرع مما يجب ، وفي البعض الآخر تظهر أبطأ قليلاً . هذه الحرية التى يتمتع بها الفنان ، ينبغى أن يحرص على موازنتها أثناء قيامه بترتيب مكونات لوحته كأن يبرز بعضها إلى الأمام أو يرجعها إلى الخلف وسوف أكتفى بذكر ملاحظة ذكرها الهر منجز عن الأردية التى عرضها رافايل في لوحاته . فهو يذكر أن كل ثنايا الأردية في صورته كان لها ما يبررها . إذ كانت تدل على حركة الأطراف ، كما كانت تدل على اتجاهها . وفي بعض أحيان كانت هذه الثنايا تعرفنا أشياء سابقة للوحة ويمكننا أن ندرك من شكل هذه الثنايا

هل تحركت الساق أو الذراع إلى الأمام أو إلى الخلف . أو هل بدأت حركتها من الانقباض إلى الاستقامة أو العكس . ولا يمكن أن ينكر أن الفنان في مثل هذه الحالات ، يحاول الجمع بين لحظتين في الوقت نفسه . فمثلاً عندما تتحرك أية قدم إلى الأمام بعد انثنائها إلى الخلف ، يتبع ذلك على الفور حركة مماثلة في الرداء المحيط بها ، اللهم إلا إذا اتصف قماش الرداء بصلابته وفي هذه الحالة فانه لن يناسب التصوير على الإطلاق . ولا يمكن للرداء أن ينثنى إلا الانثناءات التى يتطلبها وضع الساق على الذراع . وحتى ظهور ثنايا أخرى هو الجمع بين حركة الرداء في هذه اللحظة ، وحركته التى حدثت في لحظة سابقة لذلك . ولكن منذ الذى يصر في هذه الحالة على ضرورة دقة المصور ، الذى ارتأى ضرورة عرض حادثتين ترجعان إلى لحظتين مختلفتين . ومنذا الذى لا يثنى عليه لأنه قد أدرك ذلك ، وتمتع بالشجاعة التى جعلته يقترف خطأ عديم الأهمية لتحقيق قدر أعظم من الكمال في التعبير .

ويغتفر للشاعر أقراف خطأ مماثل . فهو عندما يحاكي الأشياء المتعاقبة لا يسمح له في أية لحظة بتناول أكثر من جانب أو خاصية من الأشياء التى يعرضها . ولكن إذا تميزت لغته ببراعة تساعد على التعبير عن أكثر من معنى بوساطة أى كلمة واحدة ، فلماذا لا يفعل ذلك لأننى لا أبغى من ذلك تبرير ما يقوم به الشاعر والمصور اللذان سبق أن جعلتهما شبيهين بالجارين المتحابين . فان التشبيه ليس برداناً على صحة هذه القضية ، أو مبرراً لعدم اتباعها . على أننا نستطيع القول بأنه كما تقرب في حالة المصور اللحظتان المنفصلتان بحيث نتصورهما بغير تردد وكأنهما لحظة واحدة ، كذلك في حالة الشاعر ، فان الملامح المتعددة التى تصور الأجزاء ، والتى تتبع زمانين بينهما تعاقب سريع ، يضيق فيه الفاصل الزمنى ، بحيث أننا نتخيل كأنهما قد حدثتا في وقت واحد

عجائب الآثار في التراجم والأخبار لعبد الرحمن الجبرتي

بعلم

الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

وقد عاش المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي في الوقت الذي خيم فيه الركود على الوطن العربي ، وسجل في كتابه «عجائب الآثار» تاريخ مصر منذ أواخر القرن السابع عشر حتى الربع الأول من القرن التاسع عشر ، وقدم لنا صورة عن مصر لا تكاد تختلف في خطوطها العريضة عن صور الحياة في الحواضر العربية الأخرى : الصورة التي قدمها البديري عن دمشق والغزي عن حلب ومطالع السعود عن بغداد . فصور الحياة في هذه الولايات العربية لا تكاد «تختلف إحداها عن الأخرى ، لأن المقومات التي قامت عليها حياة المجتمعات فيها تكاد تكون واحدة ، والأنظمة التي وضعها السلاطين العثمانيون لحكمها كانت واحدة»^(١) . ويسجل الجبرتي أن من أسباب تدوير الكتابة التاريخية في مصر العثمانية تسرب الكتب التاريخية من البلاد : «فإننا لم نر من ذلك كله إلا بعض أجزاء مدشته بقيت في بعض خزائن كتب الأوقاف في المدارس» ؛ كما يربط هذه الظاهرة بتعدد الفتن واستفحال النزاع بين الفرق العثمانية والبيوتات المملوكية وما ترتب على ذلك من تلف كثير من المكتبات :

ازدهرت مدرسة التاريخ في مصر في العصور الوسطى وبلغت أوجها في القرن الخامس عشر الميلادي^(١) ، وكان هذا الازدهار مرتبطاً بوجه عام بما بلغته الحضارة العربية من تقدم وانتعاش . ثم طرأت عدة عوامل كان لها أثرها في اضمحلال الحضارة العربية ليس فقط في مصر ، بل في قواعدها الأخرى في المشرق والمغرب : فقد استهلكت الحضارة العربية - الإسلامية حيويتها ، ثم تأثرت تأثراً بالغاً بتحول طرق التجارة عن مصر والمشرق العربي - في أعقاب حركة الكشوف الجغرافية - إلى انخيمات والعالم الجديد ورأس الرجاء الصالح . وفي النهاية وقعت الكتلة العربية من العالم الإسلامي في أيدي الأتراك العثمانيين الذين آثروا ، لأسباب عسكرية ودينية ، أن يعزلوا ملكهم من العالم الخارجي . وحدث كل ذلك في الوقت الذي عرفت فيه أوروبا النهضة والإصلاح الديني وظهور الملكيات الحديثة التي ضعفت الإقطاع وتحالفت مع الطبقة الوسطى لتدعيم الدولة الحديثة ، مصطنعة أساليب حديثة تقوم على وسائل الكشف والاختراعات .

(١) أحمد عزت عبد الكريم : حوادث دمشق اليومية ،

(١) انظر محمد مصطفى زيادة : المؤرخون في مصر في

« ثم ذهبت بقايا البقايا في الفتن والحروب وأخذ الفرنسيين ما وجدوا إلى بلادهم » - هذا إلى ازورار الخاصة عن كتابة التاريخ : « وعدوه من شغل البطالين وقالوا أساطير الأولين » .

لهذا فإن ظهور مؤرخ كعبد الرحمن الجبرتي يعد ظاهرة متفردة ليس لها تفسير واضح ، وإن يكن هذا متصلاً بالبيئة العلمية التي نشأ فيها وبالظروف المادية التي أحاطت به ، وهي ظروف يسر لم تتح للكثير من الكتاب سواء في عصر الجبرتي أم في غير عصره . هذا إلى وضعه الاجتماعي الذي سهل عليه الإحاطة بأحداث عصره ، وحبه للاستطلاع الذي انتقل به إلى مواطن الأحداث ، وما تميز به من دقة وموضوعية . وأخيراً فإن معاصرته لعصور ثلاثة قد أضفى على تاريخه أهمية خاصة : فقد عاش الجبرتي في أواخر العصر المملوكي - العثماني وشهد الحملة الفرنسية وأوائل حكم محمد علي . وهو أول مفكر في مصر الحديثة نستطيع أن نستخلص من آثاره موقفه من حضارة الغرب ، لا لأنه - كما هو الحال بالنسبة إلى رفاعة رافع الطهطاوي - قد لمس الحضارة الأوروبية في منابعها الأصلية ، بل لأنه عاصر أول عدوان أوروبي على مصر في العصر الحديث ، وسجل انعكاساته لدى المصريين ، وهي انعكاسات يشبهها المؤرخ أرنولد ثويني بموقف بني البشر من أعمال مجموعة من السوبرمن .

عبد الرحمن الجبرتي

ولد عبد الرحمن الجبرتي في عام ١٧٥٤ م ، وكان الوحيد الذي تبقى من الأبناء الذكور الذين أنجبهم الشيخ حسن الجبرتي - وكان من علماء الأزهر - وهو ينتسب إلى أسرة نزح أجدادها من جبرت بالحيشة . وكان الشيخ حسن ذا أوقاف وأملاك تدر عليه موارد غير يسيرة وتضفي عليه بجوحة من العيش وتمكنه من الإنفاق على كثير من المشايخ الناشئين والمهاجرين الذين

كانوا هم وغيرهم دائبي الترداد على منزله الكائن بمجبهة الصنادقية بالقاهرة المعزية . وقد لمس الشيخ حسن في ابنه ووحيد عبد الرحمن مخايل النجابة : فقد حفظ القرآن وهو في سن الحادية عشرة ، وكان يصغى إلى أحاديث والده ويحاول أن يفهم ويستوعب ما يسمعه . لهذا أخذ الوالد يقص على الابن أحداث العصر وأخبار الولاة والأمراء والمشايخ الذين عرفوه - حتى إذا ما توفي ترك له أموالاً طائلة وصدقات وطيدة أطرافها الأشياخ والمريدون من الطلبة والأصدقاء من الأمراء والكبراء . وما نبث عبد الرحمن أن تخرج في الأزهر بعد أن درس شتى علوم الفقه واللغة . ثم أكب على خزانة والده يستزيد من علوم الفلك والحساب والهندسة وغير ذلك ، وعقد حلقات التدريس وفق ما جرت به عادة المبرزين من مشايخ الأزهر . ولم يكن الجبرتي راضياً عن زملائه في المهنة - وعدم الرضى لهذا هو المسئول في كثير من الأحيان عن عادة التفكير الجاد والكتابة ؛ فقد أخذ عليهم أنهم « افتتنوا بالدنيا وهجروا مذاكرة المسائل ومدارسة العلم إلا بمقدار حفظ التاموس مع ترك العمل بالكلية . وصار بيت أحدهم مثل بيت أحد الأمراء : . . واتخذوا الخدم والمقدمين والأعران وأجروا الخبس والتعزير والضرب بالفلقة والكرايبج . . واستخدموا كتبة الأقباط وقطاع الجرائم والإرساليات نلبلاذ وقدروا حتى طرف لأتباعهم ، وصارت لهم استعجالات وتحذيرات وإنذارات عن تأخر المطلوب مع عدم سماع شكاوى الفلاحين - ومخاصمتهم القديمة مع بعضهم بموجبات التحاسد والكراهية المحبولة والمركوزة في طباعهم الخبيثة . وانقلب الوضع فيهم بضده ، وصار دينهم واجتماعهم ذكر الأمور الدايوية والخصص والالتزام وحساب الميرى والفانظ والمضاف والرماية والمرافعات والمراسلات والتشكى والتناجى مع الأقباط واستدعاء عظماهم في جمعياتهم وولائمهم والاعتناء بشأنتهم والتفاخر بتردادهم عنهم والمهاداة فيما

– وغير ذلك . كما شرع يدون أسماء أمراء الوجاقات والصناجق ومن بلغ منهم مشيخة البلد ومن شاركه في الحكم . وحين اتسع العمل أمامه طلب مساعدة صديقه إسماعيل الحشاب . ولما كان الحشاب من عدول المحكمة ، وبها صكوك وحجج ، فقد طلب منه الجبرتي أن يدون أسماء الناس وأعمارهم – وكان يتردد على الديوان حيث دفاتر الكتبة والمباشرين . وقرر الجبرتي الطواف بالقرافات لقراءة المنقوش على القبور ، والاتصال بأقرباء الذين ماتوا للرجوع إلى أوراقهم . إن كانت لهم أوراق .

وقد تعجل الجبرتي الترجمة لأشهر أعلام المائة المنصرمة ، وبذل جهداً كبيراً في تحرى الأخبار الصادقة والتواريخ الدقيقة وتفصى آثار المترجم لهم لدى أهلهم وأصدقائهم . وجمع هذه التراجم في كراريس عديدة ، كما جمع إلى جانبها كثيراً من الحوادث والوقائع في أوراق متناثرة يسميها طيارات ، تستقل كل منها بحادث معين ينوى تحقيق صحته فيما بعد – وهذه الطيارات لا تكاد تختلف عن « الفيشات » التي يلجأ إليها الكتاب الحديثون .

وتبدو جدية الجبرتي في تحرى الحقيقة التاريخية والدقة الموضوعية من قوله : « وانقضت السنة (١٢٢٥ هـ) بحوادثها التي قصصنا بعضها – إذ لا يمكن استيفائها للتباعد عن مباشرة الأمور وعدم تحققها على الصحة وتحريف النقلة وزيادتهم ونقصهم في الرواية – فلا أكتب حادثة حتى أتحقق صحتها بالتواتر والاشتهار – وغالبها من الأمور الكلية التي لا تقبل الكثير من التحريف . وربما أخرت قيد الحادثة حتى أثبتتها ويحدث غيرها وأنساها ، فأكتبها في طيارة حتى أقيدها في محلها إن شاء الله تعالى عند تهذيب هذه الكتابة – وكل ذلك من تشويش البال وتكدر الحال وهم العيال وكثرة الاشتغال وضعف البدن وضيق العطن . (ج ٤ ، ص ١٢٤) .

بينهم زيادة عما هو بينهم من التنافر والتحاسد والتحاقد على الرياسة والتفاقم والتكالب على سفاسف الأمور وحظوظ الأنفس على الأشياء الواهية مع ما جبلوا عليه من الشح والشكوى والاستجداء وفراغ الأعين والتطلع للأكل في ولائم الأغنياء والفقراء والمعاتبة عليها إن لم يدعوا إليها ، والتعريض بالطلب وإظهار الاحتياج لكثرة العيال والأتباع واتساع الدائرة وارتكابهم الأمور المخلة بالمروءة المقسطة للعدالة : كالاتحاد في سماع الملامى والأغاني والقيان والآلات المطربة وإعطاء الجوائز والنقود بمناداة الخلبوص وقوله وإعلامه في السامر» (١) « وقد زالت هيبتهم ووقارهم من النفوس وانهمكوا في الأمور الدنيوية والحظوظ النفسانية والوساوس الشيطانية ومشاركة الجهال في المآثم والمسارعة إلى الولائم في الأفراح والمآثم ، يتكالبون على الأسمطة كالبهاثم – فتراهم في كل دعوة ذاهبين وعلى الخوانات راكعين وللكباب والمحمرات خاطفين وعلى ما وجب عليهم من النصيح تاركين » (٢) .

ولا شك أن الجبرتي قد سر حين طلب منه أستاذه محمد مرتضى الزبيدي أن يغاونه فيما بدأ فيه من الترجمة لأعلام المائة سنة المنصرمة : من مصريين وحجازيين ، خاصة وأن عبد الرحمن كان قد نشأ في بيت علم واتصل برجال مصر من أمراء وكبراء ومشايخ وأعيان . وقد أوصاه الزبيدي بالالتفات إلى الأعلام المشهورين و « بالتخير والتحرز » . ووفق الجبرتي يدون الأسماء – وكان من الطبيعي أن يبدأ بالمشايخ ، ومن كان منهم شيخاً للأزهر ، ثم أشياخ الأروقة وأرباب الحلقات ومن كان أبوه يطلق عليهم اسم « الطبقة العليا » ، ثم الطبقة التي تليها من اشتهروا بالعلوم النقية والعقلية والنقلية والشعر والأدب والخطابة

(١) ج ٤ ص ٦٨ – ٩ .

(٢) نفس الجزء ص ٢٤٥ .

التركية - وتم ذلك في عام ١٨٠٧ ، بل إن يوسف باشا قد استشف تطلع الجبرتي في علم الفلك فعهد إليه بتحرير التقويم والتوقيت ورتب له مكافأة على قيامه بذلك .

وأغلب الظن أن الجبرتي لم يعتزل الحياة العامة بعد خروج الفرنسيين ، ولم يقتصر نشاطه على العلم والتأليف ؛ بل خاض مع المشايخ فيما خاضوا فيه من الاهتمام بشئون الرعية بقدر ما يسمح له بالالتفات إلى مشاغله الخاصة ، لا سيما وأن الثناء على كتابه « مظهر التقديس » قد قوى عزمه على متابعة مشروعه التاريخي . وفي عام ١٢٢٠ هـ (١٨٠٥ م) ، وهو العام الذي اشتعلت فيه الثورة في القاهرة ضد فوضى الحكم العثماني وشهد تولية محمد علي ، رأى أن يجمع التاريخ الذي انشغل به خمس عشرة سنة . وقد سهل عليه ما كتبه عن الحملة الفرنسية متابعة مشروعه ، فأخذ يستعين بأوراقه وكراريسه ويؤكد ذاكرته : فوضع تمهيداً تحدث فيه عن التاريخ وفائدته ، ثم أتبعه مقدمة ضافية تفلسف فيها في تقسيم طبقات الناس ، ثم بسط النصيحة للحكام بمراعاة العدل وحسن السياسة . ثم ألم إلمامة سريعة بتاريخ مصر حتى الفتح العثماني ، وتدرج منه إلى أواخر المائة الحادية عشرة . وإن يكن تاريخه يبدأ بالفعل بعام ١١٠٠ هـ (١٦٨٨ - ٩ م) ، بحكم أن نهاية المقدمة ليست بأى حال من الأحوال عرضاً منتظماً للأحداث ، بل إنها لا تحتوي على أية مادة تاريخية إلا في القليل النادر . وبعد المقدمة شرع يتابع السنن واحده فواحدة : يبسط حوادثها ثم يترجم لمن ماتوا فيها . ولما وصل إلى الحملة الفرنسية اكتفى بإثبات كتابه « مظهر التقديس » برمته بعد أن حذف مقدمته وبعض فصوله ، وعاد إلى أمانته التاريخية وقوم بعض الحوادث وصححها . ثم وإلى تنسيق الأحداث على النمط الذي اختطه لنفسه : فقسم الكتاب إلى ثلاثة أجزاء ، وسار بالجزء الأول حتى آخر عام ١١٨٩ هـ وبالثاني

وحين أنت إلى مصر الحملة الفرنسية دون في كراريسه أعمالها ومنشورات القادة ومراسلاتهم كما وصلت إليه ، خاصة وأنه تردد على بعض منشاتهم وأقام بعض الصلات مع رجال الحملة وأصبح عضواً في الديوان الوطني في عهد الجنرال منو . وحين خرجت الحملة من مصر في عام ١٨٠١ رأى أن يشارك المصريين أفراسهم وأن يحتفي بالعمانيين الذين عادوا إلى حكم مصر ، فوضع كتاباً سماه « مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين »^(١) أهدها إلى الوزير العثماني يوسف باشا . ولا يستبعد أن الجبرتي الذي كان قد تعاون مع الفرنسيين قد خشى على نفسه بعد ذهابهم ، خاصة وقد انقلب المصريون على من تعاونوا مع الفرنسيين ، فألف كتاب « مظهر التقديس » ليبرئ نفسه ويعان ولاءه للدولة العثمانية . وقد أفاض في هذا الكتاب في سرد أحداث الحملة الفرنسية ، ولم يذكر فيه شيئاً عن اتصاله بالفرنسيين وحضور حفلاتهم ومشاهدة تجاربهم العلمية ومفاوضة علمائهم ، وأغفل ورائق محاكمة سليمان الحلبي ، ولم يذكر عن نفسه أنه كان عضواً بالديوان الذي أنشأه منو . وأثر الجبرتي في كتابه أن يكون أسلوبه مرسلًا حين يسرد الأحداث اليومية ، ومسجوعاً حين يصف المعارك والفتن - وهو نفس الأسلوب الذي اتبعه فيما بعد حين وضع كتابه « عجائب الآثار » . وحين عاد الوزير العثماني إلى الأستانة عرض الكتاب على السلطان سليم الثالث الذي أمر كبير أطبائه مصطفى بهجت بنقله إلى

(١) يقال إن المؤرخ الراحل محمد شفيق غربال قد حقق « مظهر التقديس » تحقيقاً علمياً قبل وفاته . وقد نشرت وزارة التربية والتعليم المصرية تحقيقاً للكتاب قام عليه أحمد زكي عطية وعبد المنعم عامر ومحمد فهمي عبد اللطيف وحنفي عامر (١٩٦١) . كما قام محمد عطا بنشر مظهر التقديس في جزأين في سلسلة اخترنا لك (٥٩ - ٦٩ سنة ١٩٥٨) .

وللجبرتي مخطوطة تحت عنوان « تاريخ مدة الفرنسيين بمصر » هي جزء من كتاب مظهر التقديس : يحتمل أنه وضعها في عام ١٧٩٨ بسبب انفعاله بمجاعة احتلال الفرنسيين لمصر .

وقد بقي تاريخ الجبرتي محظوراً طبعه وتداوله إلى أن رفع الحظر في عهد الخديو توفيق - فطبع الجزءان الثالث والرابع ، ثم طبع الجزءان الأول والثاني في عهد الخديو عباس الثاني . وفيما بين عامي ١٨٨٨ و ١٨٩٦ ظهرت له ترجمة فرنسية كاملة في تسعة أجزاء قام بها شفيق منصور (يكن) وعبد العزيز خليل وجبرائيل نقولا كحيل وإسكندر عمون تحت عنوان :

Merveilles biographiques et historiques, ou chroniques du Cheikh Abd el-Rahman el-Djabarti.

وترجم بعض الجزءين الثالث والرابع إلى اللغة الروسية ، مع مقدمة وبعض الملحوظات تحت عنوان :

L.M. Fil'shtinsky, Egipet v period ekspeditsii Bonaparta, 1798-1801 ; Kh. I. Kil'berg, Egipet pod vlast'yn Mukhammada Ali, 1806-1821 : (Moscow, 1962-63).

وصدر لتاريخ الجبرتي فهرس تاريخي وضعه جاستون فييت وعبد الرحمن زكي تحت عنوان « فهرس عجائب الآثار في التراجم والأخبار »^(١). هذا إلى المختصرات التي توخت تبسيط هذا التاريخ وتقديمه إلى القارئ العادي - ومن ذلك « المختار من تاريخ الجبرتي » الذي قام عليه محمد قنديل القبلي وأشرته مطابع الشعب في عام ١٩٥٨ في عدة أجزاء .

أهمية تاريخ الجبرتي

لم يقتصر الاهتمام بتاريخ الجبرتي علينا نحن العرب بل إنه أثار الاهتمام في العالم الخارجي حيث اهتم به الباحثان والمستشرقون واعتبروه مصدراً رئيسياً لا غنى عنه بالنسبة إلى تاريخ مصر في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر . ومن ذلك أن ماكدونالد - في دائرة المعارف الإسلامية - يقول عن تاريخ الجبرتي إنه « باعتباره صورة تفصيلية للحياة الشرقية له

(١) القاهرة ١٩٥٤ .

حتى آخر عام ١٢١٢ هـ وبالثلث حتى آخر عام ١٢٢٠ هـ - وأسماه « عجائب الآثار في التراجم والأخبار » . وقد انتهى الجبرتي من تدوين هذه الأجزاء الثلاثة في عام ١٢٢١ هـ (١٨٠٦ م)^(٢).

وقد وقف الجبرتي من محمد علي موقف المعارضة العنيفة منذ أوائل حكمه ، وظل حتى عام ١٢٤٠ هـ (١٨٢٥ م) - وهو عام وفاته - يدون الحوادث على الطريقة التي شرحناها ، ويسندها إلى مصدر ثقة أو شاهد عيان أو شاهد سماع . وفيما يتعلق بالأحداث العامة كان يتوجه بنفسه لمعاينتها ، وكان يتصل بمن يأنس فيهم الاتصال بالأحداث . لهذا فإن الجزء الرابع أقرب إلى مذكرات كان يمني النفس بتهديتها وتنسيقها ، وفصوله مسهبة وسياقه منتظم ، وإن بدت بعض الفصول ممعنة في القصر .

وفي عام ١٢٣٧ هـ (١٨٢٢ م) قتل ابنه خليل . وقد كثرت الإشاعات والأقاويل بهذا الصدد ، وقيل إن الحادثة متصلة بنقله لحكم محمد علي . وأياً كان الأمر ، فقد تأثر الجبرتي تأثراً عميقاً بهذه الفاجعة ، فلم يقو على استكمال تاريخه - وكان قد وصل فيه إلى أحداث الثورة اليونانية . وظل يندب ابنه حتى ذهب بصره ، وقبع في داره أعمى لا يقرأ ولا يكتب إلى أن أدركته الوفاة - وهذا مما يفسر أن نهاية الجزء الرابع من تاريخه تبدو مبتورة^(٣).

(١) أدى انتشار هذه الأجزاء الثلاثة في حياته إلى عدا بعض المشايخ له بوجه خاص ، وذلك لما احتوى عليه تاريخه من نقد مرير لبعض الناس .

(٢) يذكر موريه في بحثه :

Reputed Autographs of Abd al-Rahman al-Jabarti and Related Problem.

أن الجبرتي ظل حتى نهاية حياته يبيع وينسخ الكتب في القاهرة ، وأنه لهذا خط أكثر من نسخة من كتبه التاريخية . قارن هذا تحليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتي .

وهو دقيق الملاحظة ألمعى الذكاء نفاذ البصيرة . إلا أنه مهما حاول السمو عن مستوى عصره ، فقد بقي مشدوداً إليه لا يسمو إلى النظرة الشاملة . وهو ضيق الأفق بحكم بيئته ، لا يعرف شيئاً عما نسميه بالسياسة العليا ، ولا يتنبه إلى كبار الأوروبيين الذين زاروا مصر في حياته . وقد أولع بالتغنى بالعدل والتشجيع على ظلم الحكام - وهو يفهم أن العدل إنما هو إقامة الشريعة والرفق بالرعية ، مما جعله يقف موقف النقد والتحدى من مستحدثات الأمور ، وخاصة ما جاءت به الحملة الفرنسية . فهو من رجال الدين بحكم بيئته ووضعهم الاجتماعي ووظيفته ، لا يسمو إلى مستوى فحول الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ممن وصلت بهم حضارتهم إلى درجة من الثقة بالنفس لا تستنكف الأخذ والعطاء ، بل تعده مصدراً من مصادر تجديد الحوافز وشحن العزائم .

وقد تأثر الجبرتي كثيراً بالصدقة والصحة : فهو يعلن ميوله الشخصية وإثاره هذا على ذلك . ولهذا كان لوالده وأصدقاء والده وأشياخه نصيب وافر من تاريخه ، مع محاولة الإنصاف وإجتهاد النفس على تحرى الحق أو ما يراه حقاً . وقد أتقن فن الترجمة بقدر ما أتيج له ، وبرع في تصوير الشخصية وإبراز خلق المترجم لهم براعة فائقة . على أن ولعه بالتراجم جعله يترجم لكل من عرفهم ومن لم يعرفهم من كبراء وأمرء ، ومن كل ربيع ووضع ، حتى إنه ترجم لخدمة النعال في المساجد والوقادين والمجنوبين ، بل لمن لا يعرف لهم ترجمة . ولعله انفرد بين المؤرخين بالتوسع في وصف القاهرة ومساجدها وشوارعها وعطفاها وتاريخ ما فيها من قصور وقلاع ومنازه . ولقد أسهب في ذكر الشعراء ، يستشهد بالكثير من شعرهم ، وقد يستشهد بشعر بعض المتقدمين ، ولكنه لا يشعر بتضلعه في الأدب والشعر . ثم إنه فقيه صوفي لا بد أن يولى هذه مشايخ الصوفية ويشرح معمياتهم وألغازهم . وهو أيضاً

قيمة اجتماعية عظيمة - وقد أفاد منه لين لهذا الغرض في التعليقات التي وضعها لكتاب ألف ليلة وليلة . ومما يجعل كتاب « عجائب الآثار » مصدرراً من الدرجة الأولى ما تميز به مؤلفه من دقة واستقصاء للأحداث والتحفظ في ذكرها . كما أنه يتميز بالموضوعية التي نستشفها من تأكده أنه يكتب للحقيقة والتاريخ : « ولم أقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير ، أو طاعة وزير أو أمير . ولم أداهن فيه دولة بفاق أو مدح أو ذم مباين للأخلاق . . . لئيل نفساني أو غرض جسماني » . وهذه الموضوعية لا تجعل من تاريخ الجبرتي عرضاً بارداً للأحداث ، بل إن كتاباته تفيض بالحرارة التي من ورائها عمق انفعاله بالأحداث . ثم إن الجبرتي محب لبلده ، يشاركه أفراحه وأتراحه - فهو لا يقتصر على تسجيل الأحداث والنظر إليها من بعيد بحجة التجرد والموضوعية المطلقة التي هي خرافة في مجال العلوم الإنسانية ، طالما أن من يكتب كائن حتى لا بد له ميوله واتجاهاته وانفعالاته . ومما يجعل تاريخ الجبرتي صورة نابضة بالحياة أن تاريخ مصر العثمانية أغنى بكثير من تاريخ سوريا أو العراق في نفس هذه الفترة ، وإن يكن هذا لا يقلل من تمكنه كمؤرخ : فقارئ الجبرتي يحس دائماً بالحياة الجياشة التي يصورها وأنه يعيش في أجو الحقيقي لمصر وللعصر ، خاصة وأنه تميز بالدخول مباشرة إلى لب الموضوع الذي يدونه ومن رسم صورة كاملة نابضة بالحياة .

وقد امتاز الجبرتي عن تقدمه من مؤرخي مصر بأنه لم يقصر اهتمامه على علمية القوم والأحداث الهامة : فقد عنى بالأمر الجليل والحقيرة والرفيعة والوضيعة ، ولم يدع شيئاً نحى إلى علمه ، مهما عظم أو صغر ، إلا ودونه في دقة مدهشة . وهو محب للإتقان حيناً ، عجول يرم أحياناً . لذلك نراه دقيق التحرى أميناً في النقل نزيهاً في الرواية ، يكشف عن آرائه فيما يعرض له : فينبسط وينقبض ويسخر وتهكم ويشتط ويغضب .

عالم فلكي يجب أن يذكر الأحداث الفلكية ويحاول تفسير الحوادث على ضوءها في بعض الأحيان - ولعل تطلعه في العلوم الحسابية جعله يطيل الجدل في النقود وسكها وما فيها من ذهب وفضة . ولقد عني عناية خاصة بالسلع وأثمانها وتوفرها ونقصها ، وأصبح يستعيد الذكريات القديمة حتى يصلها بما سبق له تدوينه أيام اشتغاله بالتراجم لشيخه مرتضى الزبيدي : فيسرد حوادث السنة متابعاً ترتيب الشهور ، ثم يهتمها بتلخيص الحالة العامة وتراجم الذين ماتوا .

والجبرتي في الجزئين الأول والثاني من « عجائب الآثار » ينقل عن غيره من المؤرخين : كالإسحاق والدمرداشي وأحمد شابي عبد الغني . ولهذا فإن قيمة مؤلفه في هذين الجزئين - باستثناء ما عاصره ودونه في النصف الثاني من الجزء الثاني - لا يعتد بها كثيراً من الناحية العلمية بسبب نقله من عدة مصادر دون تمحيص . وفي بداية الجزء الأول نجده متحفظاً إلى أقصى حد فيما يتعلق بمصادر أوائل الحكم العثماني لمصر - ومن ثم فليس ثمة دليل على إشارته إلى ابن إياس والقرماني وابن زنبيل باعتبارهم ثقات عن الفتح العثماني - إذ أن وصفه لهذه الحادثة من القصر بحيث لا يمكننا التحقق من مصادره . ومع ذلك فإنه أسهب في وصف تعادى الفرق العثمانية وتنافس أمراء المماليك على الحكم ووسائلهم ومصارعهم . والحملة الفرنسية التي يبدأ بها الجزء الثالث تعتبر حداً فاصلاً في تاريخ الجبرتي . فقد كانت مصر حتى الحملة لا تزال غارقة في سبات العصور الوسطى ، إلى أن آذنت الحملة برجعها إلى المشاركة في الفكر العالمي . والفارق كبير بين العقلية الأوروبية التي مثلتها الحملة وبين العقلية الشرقية التي كانت تتمثل في مصر المملوكية - العثمانية بمقدار الفارق الزمني الطويل الذي قطعناه في تأخر وقطعته أوروبا في تقدم . ولقد حدث الأثر الجديد في مصر في عهد الحملة الفرنسية ذاتها وإن كان قد بدأ ضعيفاً . فالصربون قد ذهلوا لمقارنة

تأخرهم بتفوق حكاهم الجدد - ونلاحظ ذلك كله في الجبرتي ذاته ، فإنه يمثل أفكار عصره . ومما يدل على الأثر الجديد الذي امتد إليه أنه بات بعد وفود الفرنسيين إلى مصر أكثر نقداً وجرياً وراء الأسباب والنتائج ، وقد قل تعصبه الديني للدرجة التي أدت به إلى تمحي زوال العثمانيين . كما قل أثر غيبية التفكير في تفسيره للأحداث ، وإن ظل حتى نهاية حياته محدود الأفق : إذ لم يستطع التخلص من إطار العام الذي شكل تفكيره وبنيت عليه شخصيته .

وهو يبدأ الجزء الثالث بالكلام عن سنة ١٢١٣ هـ (١٧٩٨ م) - عام نزول الفرنسيين أرض مصر ، ويعد هذه السنة « أولى سنى الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة وتضاعف الشرور وترادف الأمور وتوالى الحن واختلال الزمن ، وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع وتتابع الأهوال واختلاف الأحوال وفساد التدبير وحصول التدمير وعموم الحراب وتواتر الأسباب - وما كان ربك مهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون » . وبهذا يلمح الجبرتي إلى استحقاق أهل مصر لما نزل بهم من كارثة الغزو الأجنبي . والصفحات القائمة التي خصصها لحكم إبراهيم ومراد في الجزء الثاني من تاريخه لا تترك مجالاً للشك في أنه كان يكن لهذا العهد مقتناً شديداً مرده ألوان المظالم التي أنزلها الحكام بالمحكومين وفساد طوية الرعية . فالأجناد « متنافرة قلوبهم منحاة عزائمهم مختلفة آراؤهم حريصون على حياتهم وتنعمهم ورفاهيتهم ، مختالون في ريشهم معترون بجمعهم محتقرون شأن عدوهم مرتبكون في رويتهم مغمورون في غفلتهم - وهذا كله من أسباب ما وقع من خذلانهم وهزيمتهم » . أما الفلاحون فقد سلبت الله عليهم « بسوء أفعالهم وعدم ديانتهم وإضرارهم لبعضهم البعض من لا يرحمهم ولا يعفو عنهم . . . وإذا التزم بهم ذور رحمة ازدروه في أعينهم واستهانوا به وبخدمه وماطلوه في الخراج وسموه بأسماء

وتمردت بعض الفئات الاجتماعية على الأوضاع الموروثة وارتدت ما كان محرماً عليها من ملابس وامتنعت الخيول وتحدثت العرف الإسلامي بالأكل والشرب علناً في رمضان وبتعاطي المسكرات . وتداخل الفرنسيون في صميم حياة الناس فنبهوا عليهم بالامتناع عن دفن الموتى بالترب القريبة من المساكن ، وبنشر الثياب والأمتعة والفرش والأسطحة عدة أيام وبتبخير البيوت خوفاً من الطاعون . وهدموا المساطب والبوابات جرياً وراء تحصين القاهرة واشتدوا في الإرهاب والتكليل خاصة كلما نشبت ثورة أو اضطراب . ومع ذلك فهو يندد بالهياج الشعبي وما اتصف به من إسراف - فهو يقول في وصف ثورة القاهرة الأولى : « وخرجت العامة عن الحد وبالغوا في القضية بالعكس والطرده . وامتدت أيديهم إلى النهب والخطف والسلب ، فهجموا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصرارى الشوام والأروام ، وما جاورهم من بيوت المسلمين على التمام . وأخذوا الودائع والأمانات وسبوا النساء والبنات » .

وتبدو موضوعية الجبرتي من إشارات بحب الفرنسيين للعلم - فهو يسجل أنهم أفردوا للعدبرين والفلكيين وأهل المعرفة والعلوم الرياضية والهيئة والتقوشات والرسومات والمصورين والكتبة والحساب والمنشئين حارة الناصرية وأنهم جعلوا بيت حسن كشف جركس مكتبة رحبوا بزوارها : « حتى أسألفهم من العساكر إذا حضر إليهم بعض المسلمين ممن يريد التفرجة لا يمتنعون اندخول إلى أعز أما كتبهم ويتلقونه بلبشاشة والضحك وإظهار السرور بمجيئه إليهم وخصوصاً إذا رأوا فيه قابلية أو معرفة أو تطلعاً للنظر في المعارف بذلوا له كل مودتهم ومحبتهم - ويحضرون له أنواع الكتب المطبوع بها أنواع التصاوير وكرات البلاد والأقاليم والحيوانات والطيور والنباتات وتواريخ القدماء وسير الأمم وقصص الأنبياء » وأشاد بأنهم « كانوا يعطون الرجال زيادة عن أجرتهم المعتادة ويصرفونهم بعد الظهر ويستعينون في الأشغال

النساء وتمنوا زوال التزامه بهم وولاية غيره من الجبارين الذين لا يخافون ربهم ولا يرحمهم لينالوا بذلك أغراضهم بوصول الأذى لبعضهم . وكذلك أشياخهم إذا لم يكن الملتزم ظالماً يتمكنون هم أيضاً من ظلم فلاحهم لأنهم لم يحصل لهم رواجع إلا بطلب الملتزم » . أما العلماء فقد سبق أن أشرنا إلى رأى الجبرتي فيهم ، وهو رأى يدل على انحدر مستواهم وعدم ارتفاعهم إلى مستوى الوضع الذى خلعه على أنفسهم ، أو خلعتة عليهم القيم الإسلامية كما كانت عليه في العصور الوسطى .

ويرتبط أثر الحملة الفرنسية في تفكير الجبرتي بما أثارته في آفاق المصريين بوجه عام : فقد كانت بالنسبة إلى المصريين بمثابة تحد ضخم لهم ولقوماتهم . حقيقة إنها فشلت في خلق نظام سياسى - اجتماعى على أنقاض فوضى الممالك ، كما فشلت في تطوير نوع من الحكم الذاتى لم يكن مقصوداً لذاته على أى حال . بل كان مجرد وسيلة للربط بين الحاكم والمحكوم ، وفي محاولة لإرساء دعائم إدارة مدنية حديثة تحت السيطرة الفرنسية . وحقبة أيضاً إن قصر مدة الاحتلال الفرنسى وعداء السكان للفرنسيين قد عرفنا انتشار أية مؤثرات أوروبية في المجالين الاجتماعى والثقافى . إلا أنها - من ناحية أخرى - هددت قوى الممالك المادية والمعنوية . ومهدت للقضاء النهائى عليهم وبالتالي أفسحت المجال لإدخال النظم الحديثة . وأهم من هذا أنها أوجدت أمام المصريين نمطاً حضارياً متفوقاً نظروا إليه بعين الشك لمخالفته لألوفهم . ولكنهم لم يكونوا يستطيعوا مدافعة أثره في بعضهم : كالشيخ حسن العطار وبعقوب حنا وغيرهما .

ويستقيح الجبرتي ما شاءت له ميوله وتقاليده مستحدثات الفرنسيين : كإفلات بعض الرجال والنساء وتحللهم من التل الأخلاقية التى انطبع بها المجتمع المصرى خاصة وقد أبيع البغاء العلمى ، وسفرت بعض النساء ولبسن الملابس الملونة واختلطن بالرجال ،

عمل الشيطان - ويصف هذه الحادثة بقوله : « طلب صارى عسكر بونايرته المشايخ ، فلما استقروا عنده نهض بونايرته من المجلس ورجع ويده طيلسانات ملونة بثلاثة ألوان كل طيلسان ثلاثة عروض أبيض وأحمر وكحلى - فوضع منها واحداً على كتف الشيخ الشراوى فرمى به إلى الأرض واستعفى وتغير مزاجه وامتنع لونه واحتد طبعه . فقال الترجان : يا مشايخ أنتم صرتم أحباب الصارى عسكر وهو يقصد تعظيمكم وتشريفكم بزيه وعلامته ، فإن تميزتم بذلك عظمتكم العساكر والناس وصار لكم منزلة في قلوبهم - فقالوا له : لكن قدرنا يضيع عند الله وعند إخواننا المسلمين » . ورفض العلماء أن يعينوا قاضياً من بينهم بدل القاضى التركى قائلين إن تعيينه من حق السلطان ، وأنكروا عرض بونايرت الوظائف عليهم وقالوا له إن العامة لا يخشون سوى الأتراك . واشتد المصريون في قتال الفرنسيين حين اصطدم تصورهم للحكم ووظيفته ومداه بتصورهم هم - فقد كانوا لا يكادون يعرفون لهم حكومة حقيقية تحكمهم وكان تدخل الإدارة العثمانية في شئونهم ضيقاً متقطعاً - هذا بينما الفرنسيون قد جاءوا من عالم تطور فيه الحكم إلى حلقة متتابعة من الأنظمة الدقيقة المتصلة بنشاط الأفراد جميعاً . وكان هذا التطور هو الذى وجههم إلى تنظيم الملكية وترتيب الأحوال الشخصية وإعادة ربط الضرائب . وكان هذا كله ، بالإضافة إلى الشعور الدينى ، من وراء ثورة القاهريين مرتين على الحكم الفرندى واستمرار أعمال التمرد في الأقاليم .

* * *

وجلا الفرنسيون عن مصر في عام ١٨٠١ ، وتعرضت البلاد للقلق العام المترتب على النزاع على السلطة وسوء سلوك الجند العثمانيين الذين اعتبروا مصر بلداً مفتوحاً يسوغ لهم أن يطلقوا فيه العنان لغرائزهم ولصوصيتهم . وخرج الشعب يدافع عن وجوده وكرامته ، فهيات مصر لحركة شعبية إيجابية وصلت

وسرعة العمل بالآلات القريبة المأخذ السهلة التناول المساعدة في العمل وقلة الكلفة » : كاستعمال العربات ذات العجل لنقل التراب بدلا من النقل اليدوى البحت في الغلقان والقصاع وغير ذلك . ومن الأمثلة التي يسوقها الجبرتى لترخى الفرنسيين احترام القانون ما ذكره من إعدام بعض جنودهم الذين قاموا بأعمال السطو - فقد « قتلوا ثلاثة أنفار من الفرنسيين وبندهوا عليهم بالرصاص بالميدان تحت القلعة قبل إنهم من المتسلقين على الدور » . ومنها أيضاً ما ذكره وهو نص بيان الديوان الذى أشار إلى عقاب بونايرت للخارجين على القانون ولو كانوا من جنسه أو ملته : « وقد اقتض من عسكره الذين أساءوا بمنزل الشيخ محمد الجوهري وقتل منهم اثنين بقراميدان وأنزل طائفة منهم من مقامهم العالى إلى أدنى مقام ، لأن الخيانة ليست من عادة الفرنسيين خصوصاً مع النساء والأرامل ، فإن ذلك قبيح عندهم لا يفعله إلا كل خسيس » . وقد استفاض في وصف محاكمة سليمان الحلبي قاتل كليبر وأعجب بطريقة الفرنسيين في المحاكمة التى أحيطت بكافة ضمانات العدالة ، واكتشف أن الإجراءات الجنائية لها قوانين تنظمها ، كما أورد تقرير الطبيب الشرعى والجراح عن إصابات كليبر وسبب وفاته وشهادة الشهود وكل ما ورد بملف القضية من استجوابات في محضر التحقيق وأشاد بعناية المحاكمة .

وهكذا كان الجبرتى ان القليلين الذين أعجبوا بما يستحق الإعجاب من أعمال الفرنسيين . فلقد حاول بونايرت أن يرضى المصريين بشئى الوسائل : فهو يفهمهم أنه أتى إلى مصر برضى السلطان العثمانى ، ويلوح لهم بالحكم الذاتى ، ويستثير فيهم مصر الفرعونية التى تقطعت بها الأسباب ، ويخاطبهم بلغة الثورة الفرنسية الداعية إلى الحرية والمساواة . ولكن العلماء أبوا تزيين صدورهم بالطيلسان المثلث الألوان رمز الثورة الفرنسية الذى كان يتلقفه الأحرار في أوروبا - بل رأوا فيه رجساً من

إلى حد الثورة ، وحاصرت الطوائف الشعبية القلعة وأعلنت خلع الوالى العثماني خورشيد باشا الذى اعترض على ما حدث وعده اعتداء على حقوق السلطان وقال إن الفلاحين لا يملكون حق خلعهم . وركب الجميع إلى بيت محمد على وقالوا له : «إننا لا نريد هذا الباشا حاكماً علينا ولا بد من عزله من الولاية» - فقال : «ومن تريدونه يكون والياً؟» قالوا له : «لا نرضى إلا بك وتكون والياً علينا بشرطنا لما نتوسمه فيك من العدالة والخير» . وترجم هذه الحركة قادة المصريين من المشايخ - وعلى رأسهم نقيب الأشراف عمر مكرم - الذين اعتبروا أنفسهم أولى الأمر لأنهم حملة الشريعة المتصدون لرفع الظلم .

وناصب الجبرتي محمد على العدا «لأن في طبعه داء الحسد والشره والطمع والتطلع لما في أيدي الناس وأرزاقهم»، ولأنه «فتح بابه لنصارى الأروام والأرمن فترأسوا بذلك وعلت أسافلهم ولبسوا الملابس الفاخرة وركبوا البغال والرهوانات وأخذوا بيوت الأعيان التي بمصر القديمة وعمروها وزخرفوها وعملوا فيها بساتين وجنائن وذلك خلاف البيوت التي لم بداخل المدينة - ويركب الكلب منهم وحوله وأمامه عدة من الخدم والقواصة» - ولأنه «يجب الشوكة ونفوذ أوامره في كل مرام ولا يصطفى ويجب إلا من لا يعارضه ولو في جزئية أو يفتح له باباً يهب منه ريح الدراهم والدنانير أو يدلّه على ما فيه كسب أو ربح من أى طريق أو سبب من أى ملة كان» - ولأنه «لم يكن له من الشغل إلا صرف همته وعقله وفكرته في تحصيل المال والمكاسب وقطع أرزاق المسترزقين والحجر والاحتكار لجميع الأسباب ، ولا يتقرب إليه من يريد قربه إلا بمساعدته على مراداته ومقاصده ومن كان بخلاف ذلك فلا حظ له معه مطلقاً ، ومن تجاسر عليه من الوجهاء بنصح أو فعل مناسب ، ولو على سبيل التشفع ، حقد عليه وأبعده وعاداه معاداة من لا يصفو أبداً» :

وضاق الجبرتي بإجراءات الاحتكار التي طبقها محمد على وما كان من «استمرار المبتدعات والمكوس والتحكير وإهمال السوقة والمتسبين حتى عم غلو الأسعار في كل شيء» . وبحكم وضعه الطبقي والاجتماعي أخذ يندد بتضييق الوالى الجديد على الطبقات الغنية القديمة : من ملتزمين وأعيان ونظار أوقاف وكبار تجار - وغير ذلك . بل إن إبراهيم باشا ، ابن الوالى وحاكم الصعيد ، اشتد على أصحاب الحقوق المكتسبة : «وإذا قال المتشفع والمترجى للمتأمر ينبغي مراعاة مثل هذا ومساخته لأنه يطعم الطعام وتنزل بداره الضيفان فيقول له : ومن كلفه بذلك؟ فيقال له : وكيف يفعل إذا نزلت به الضيوف على حسب ما اعتادوه؟ فيقول : يشترى ما يأكلون بدراهمهم من أكياسهم ويغلقون أبوابهم ويشتغلون بأنفسهم وعيالهم ويقتصدون في معاشهم فيعتادون ذلك ، وهذا الذى يفعلونه تبذير وإسراف ونحو ذلك على حسب حالهم وشأنهم في بلادهم ، ويقول الديوان أحق بهذا، فإن عليه مصاريف ونفقات ومهمات ومحاربات الأعداء» .

ولكن الجبرتي لا يتخلى عن موضوعيته ، فيشيد ببعض ما قام به محمد على من أعمال كإعادته لسد المواصل إلى الإسكندرية ، وكان قد تحرب وزحف منه ماء البحر المالح وأتلف أراضى كثيرة وخربت منه قرى ومزارع . ووصف محمد على بأنه له «مندوحة لم تكن لغيره من ملوك هذا الزمان» ، وإن يكن قد تحفظ بقوله : «فلو وفقه الله لشيء من العدالة ، على ما فيه من العزم والرياسة والشهامة والتدبير والمطاولة لكان أعجوبة زمانه وفريد أوانه» . وحين بنى محمد على حائطين في رشيد على يمين البوغاز وشماله ينحصر بينهما الماء فلا تظفى الرمال وقت ضعف النيل ، أكبره الجبرتي ووصف ما قام به بأنه «من أعظم المهتم الملوكية التي لم يسبق لمثلها» . وحدث أن مصرياً - اسمه حسين جليبي عجوه - ابتكر جهازاً يوفر نصف الطاقة الحيوانية

مصادر البحث

أ - العربية

- أحمد عزت عبدالكريم : حوادث دمشق اليوبية (١١٥٤ - ١١٧٠ هـ = ١٧٤١ - ١٧٦٢ م) -
 جمعها الشيخ أحمد اللبديري الحلاق ونقحها
 الشيخ محمد سعيد المقاسمي (القاهرة ١٩٥٩).
 جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون في مصر في القرن
 التاسع عشر . (القاهرة ١٩٥٨) .
 خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتي - سلسلة اقرأ :
 رقم ٧٠ (القاهرة ١٩٤٩) .
 صبحي وحيد : في أصول المسألة المصرية (القاهرة ١٩٥٠) .
 عبد الرحمن الجبرتي : عجائب الآثار في التراجم والأخبار -
 طبعة بولاق .
 مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين -
 نشر وزارة التربية والتعليم المصرية
 (١٩٦١) .
 لويس عوض : المقوترات الأجنبية في الأدب العربي الحديث
 - المبحث الثاني : الفكر السياسي والاجتماعي
 - القسم الأول : من الحملة الفرنسية إلى
 عهد إسماعيل . (القاهرة ١٩٦٣) .
 محمد أحمد أنيس : مدرسة التاريخ المصري في العصر العثماني .
 (القاهرة ١٩٦٢) .
 : حقائق عن عبد الرحمن الجبرتي مستمدة من
 وثائق المحكمة الشرعية - المجلدان التاسع
 والعاشر من المجلة التاريخية المصرية
 (١٩٦٠ - ١٩٦٢) .
 محمد مصطفى زيادة : المؤرخون في مصر في القرن الخامس عشر
 (القاهرة ١٩٤٩) .

ب - الافرنجية

- Ayalon, David, The Historian al-Jabarti,
 in : Historians of the Middle East, edited
 by Bernard Lewis and P.M. Holt. (London,
 1962).
 — Holt, P.M., Al-Jabarti's Introduction to the
 History of Ottoman Egypt (B.S.O.A.S.,
 XXV, part 1, London, 1962, pp. 38-51).
 — Moreh, S., Reputed Autographs of Abd al-
 Rahman al-Jabarti and Related Problems.
 (B.S.O.A.S., XXVIII, part 3, London, 1965,
 pp. 524-540).

اللازمة لدق الأرز ، فشجعه محمد علي واقنع بأن في
 أولاد مصر نجابة وقابلية للمعارف - فعمل على تعليم
 بعضهم .

وهكذا يقف الجبرتي شامخاً باعتباره المؤرخ المصري
 الذي توخى الحقيقة التاريخية ، ولم يقف من الأحداث
 موقفاً سلبياً ، بل انغمس فيها وعمل على تسجيلها . وهو
 من آخر من كتبوا الحوليات في مصر : إذ ما لبثت أن
 انصبت على البلاد الموجة الغربية التي جرفت الكثير من
 الأساليب والعادات القديمة . وفي مجال التاريخ أخذت
 تظهر المؤلفات التي تتوخى الاهتمام بالأسباب والنتائج ،
 وتنحو منحى الوحدة الموضوعية وربط أطراف
 الموضوعات التاريخية بعضها ببعض . كما ظهرت
 الكتابات التاريخية المتخصصة ، وتطورت كتابة
 التراجم ، وظهرت فيها اتجاهات تنزع إلى التحليل
 النفسى وتبرز أثر البيئة المادية والمعنوية . على أن كل
 ذلك يتصل بتاريخ النهضة الفكرية في مصر الحديثة .

مؤلفات الجبرتي

- ١ - عجائب الآثار في التراجم والأخبار (٤ أجزاء) .
- ٢ - مظهر التقديس بزوال دولة الفرنسيين .
- ٣ - تاريخ مدة الفرنسيين بمصر .
- ٤ - مختصر تذكرة الشيخ داوود الأنطاكي .
- ٥ - نقد لكتاب ألف ليلة وليلة .

تريستان وايزولد بجوتفريد فون شتراسبورج

بمقام
الدكتور مصطفى ماهر

تمهيد

فون شتراسبورج واحد من عمالقة قلائل حملوا عصرهم يعرف في الأدب الألماني بعصر الازدهار الأول أو بعصر الكلاسيكية الأولى أو بعصر الفروسية أو بالعصر البلاطي أو بعصر الملوك الاشتوفيين . وهذه الأسماء كلها صحيحة ، وقد تعددت لأنها تذهب في تحديدها العصر أكثر من مذهب ، وتبصر به في أكثر من ناحية . تمتد هذا العصر من الربع الأخير للقرن الثاني عشر إلى مشارف القرن الرابع عشر ، أي أنه يعد نحو ثلاثة عشر عقداً أو نحو قرن وربع قرن من الزمان . أما العمالقة الآخرون الذين نهضوا بأدب هذا العصر مع جوتفريد فون شتراسبورج فهم :

— هرتمن فون أوى (بين عام ١١٦٨ و ١٢١٥ على وجه الاحتمال) صاحب القصص الشعرية الجميلة : ايريك — جريجوريوس — هاينريش المسكين — ايفانين .

— فولفرم فون اشينباخ (بين عام ١١٧٠ وعام ١٢٢٠ تقريباً) صاحب القصص الشعرية الفريدة : بارتسيفال — فيلاهلم — تيتوريل .

— هاينريش فون فيلديكه (بين منتصف القرن الثاني عشر ومطلع القرن الثالث عشر) صاحب الانبياء

تريستان وايزولد « Tristan und Isold » ، قصة شعرية أنشأها الشاعر الألماني الفذ جوتفريد فون شتراسبورج Gottfried Von Strassburg حول عام ١٢١٠ ، ولم يذشئ غيرها على قدر ما نعرف ، لا من النثر ولا من الشعر ، بل إنه ترك درته هذه ناقصة ، لم يتمها ، ولا بد أن يد المنون اختطفته ، بعد أن سطرت يده هو البيت رقم ١٩٥٤٨ بقليل . ولكنه صنع للإنسانية تحفة من أعظم تحفها ، لا تقتصر عظمتها على إفادة القارئ المتأمل وامتناعه ، بل تتجاوز ذلك إلى إلهام الأديب الخلاق والشاعر المبدع في كل زمان ومكان . وهي تحفة إنسانية بكل ما في هذه الكلمة الدسمة من معان ، فلم تكن مادة « تريستان وايزولد » ملكاً لجوتفريد ، ولا ملكاً لمن سبقه إلى معالجتها ، ولن تكون ملكاً لمن تبعه ويتبعه إلى معالجتها . إنها ملك الإنسان .

عصر جوتفريد

ويذنبى علينا في محاولتنا فهم جوتفريد فون شتراسبورج وعمله أن نضع أنفسنا في زمانه ومكانه حتى لا نعامل الأحياء معاملة الموتي أو الجوامد . جوتفريد

— فالتر فون در فوجلفايديه (بين عام ١١٦٨ وعام ١٢٢٨) صاحب الأغاني والقصائد التي لم يطاولها من بعده أحد حتى جاء جوتته .

هؤلاء الأدباء كانوا من غير رجال الدين . فما أعظم التغيير ! من قبل كان الأدب حرفة رجال الدين يكلفون به ويحتكرونه احتكاراً ويشكلونه بقولهم (اذكر جامع الأناجيل لتاسيان و هلياندا أو حياة المسيح المخلص وكتاب الأناجيل وغير ذلك كثير) لأنهم هم الذين أخذوا بنصيب من العلم . أما الآن فحملة الأدب « دنيويون » منخرطون في سبيلك الفروسية أو مؤمنون بثقافة الفروسية ، مقيمون في بلاط الأمراء أو متصلون بهم ومتخذون أمزجتهم وميولهم . كان أهل أوروبا في القرون القليلة الماضية قد امتصوا مجموعة من الحضارات أتتهم على الأغلب عنوة ، امتصوا الفكر المسيحي وما أتى معه من طرف من ثقافة الإغريق والرومان ، وامتصوا الكثير من الثقافة العربية من أسبانيا تارة ، ومن جنوب فرنسا (البروفانس) المتأثرة بحضارة الأندلس تارة أخرى ، وأخذوا عن العرب والمسلمين الكثير عبر إيطاليا وأثناء التحامات الحروب الصليبية . كانت الحياة في ألمانيا من قبل التأثير العربي الإسلامي — سواء من المشرق العربي أو من المغرب العربي — تعرف بلاط الأمير وتعرف طبقة الفرسان ، ولكن الصورة التي تشكل بها بلاط الأمير والقالب الذي ظهر فيه الفارس في ذلك العصر المزدهر ، يحملان على الجزم بتأثير أنماط الحضارة العربية . وقد حدثت تطورات سياسية مختلفة في الديار الألمانية شجعت على هذا التحول الذي شهده المجتمع والذي تهمنا منه ناحية حلول « الدنويين » أو أهل الدنيا محل أهل الدين أو رجال الدين في حمل رسالة الأدب ، وناحية ازدياد قوة ورفاهية الأمراء واهتمامهم بالآداب . ويمكننا أن نلخص هذه التطورات السياسية أو الأحداث السياسية هنا ونستعين بملخصها على التعمق نوعاً ما في فهم

أصول هذه التطورات وعلى تصور المكان الذي اتصلت فيه .

كانت حقبة الملوك الزالين قد انتهت بظهور صراع شديد بين القيصر الألماني الذي كان يمد سلطانه إلى شمال إيطاليا وبين البابا الذي لم يكن يرضى أن يترك السياسة والحكم في الدنيا لأهل الدنيا (قارن هاينريش الرابع وما حدث بينه وبين البابا) . وأصبح البابا طرفاً في انتخاب القيصر الألماني ، وكان القيصر الألماني في حقيقته أميراً من بين الأمراء ، صاحب إمارة من بين أصحاب الإمارات ، ولا يقوى إلا بالجيش والفرسان والاعتماد على إخوانه . وهكذا تمكن البابا من دفع الأمراء الألمان على اختيار قيصر ضعيف هو كونراد الثالث (١١٣٨ — ١١٥٢) حتى تخلو له الجو . وقد تم للبابا ما أراد ، وتعثرت كونراد في ألمانيا وتعثرت أكثر في إيطاليا . هكذا بدأ الأشتوفيون بداية فاشلة . وكونراد الثالث هذا ، القيصر الأشتوفي الأول (كلمة اشتوفي صفة من « شتوفن » اسم قلعة في منطقة شفاين بجنوب غرب ألمانيا) هو الذي اشترك مع لويس السابع ملك فرنسا في الحملة الصليبية الثانية التي منيت بالفشل . وإذا كانت سياسة البابا قد نجحت مع كونراد الثالث ، فقد فشلت مع خلفه « فريدريش الأول » بارباروسا ، الذي كان قيصراً قوياً محنكاً مستنداً على عصبية من أولى القوة والبأس . فأعاد سلطان ألمانيا على شمال إيطاليا ، ودعم قبضته على ألمانيا نفسها ، وحارب البابا الكسندر الثالث فلم يتغلب عليه لتحالفه مع الفرنسيين ، ولكنه مهد للسياسة المستقبلية وهي ضم جنوب إيطاليا إليه عن طريق زواج ابنه مع الأميرة كونستانسه ، لكي يضع البابا بين شقي الرحي . وخلف فريدريش بارباروسا ابنه هاينريش السادس (١١٩٠ — ١١٩٧) الذي كان أقوى القياصرة الألمان نفوذاً وأوسعهم ملكاً . وهنا ينبغي أن نتوقف وقفة قصيرة ونشير إلى فشل الحرب الصليبية بعد أن قاد المسلمين صلاح الدين الأيوبي الذي

حول الحروب الصليبية إلى نهايتها خاصة بعد انتصاره في حطين عام ١١٨٧ . ونعود الآن إلى هاينريش السادس لنجدته يموت مبكراً ولنجد موته يبدأ عهداً جديداً من الفوضى في أوروبا وألمانيا . عاد البابا إلى التدخل في انتخاب القيصر الألماني ، وعاد الانقسام بين الأمراء الألمان . تولى أوتو الرابع (١١٩٨ - ١٢١٥) وهو من حزب البابا ، ونصب حزب الاشترايين فيليب ابن بارباروسا . وقامت حروب أهلية انتهت بموت فيليب عام ١٢٠٨ . فلما استتب الأمر لأوتو حارب البابا . فخلعه الأمراء ونصبوا فريدريش الثاني (١٢١٥ - ١٢٥٠) الذي حمل التاج في روما عام ١٢٢٠ واتجه إلى الشرق في محاولة صليبية جديدة باءت بالفشل . ثم حدث له ما حدث لأسلافه ، إذ اختلف مع البابا ، فأخرجه البابا من المسيحية وأعلن خلعه ، فهاجم هو البابا واضطر البابا إلى الفرار إلى فرنسا . ونصب الأمراء الألمان جماعة من الملوك ضد فريدريش الثاني . وشاعت الفوضى والحروب الأهلية . ومات فريدريش عام ١٢٥٠ فماتت الإمبراطورية الألمانية .

يظهرنا هذا العرض الموجز على أسباب ظهور الاتجاه الديني في الأدب خاصة منذ عهد بارباروسا ، وعلى أسباب قوة الفرسان الذين كان العصر كله يتحرك بمشيتهم لاتصال النزاع ، وعلى أسباب استقلال الأمراء ككل في إمارته سيد وفي بلاطه ملك . هذا هو الزمان الذي نشأت فيه الكلاسيكية الأولى وهذا هو المكان الذي احتواه . وفي هذا الزمان والمكان عاش جوتفريد فون شتراسبورج وأنتج .

من هو جوتفريد فون شتراسبورج ؟

هذا سؤال لا نعرف له جواباً شافياً . واضح من الاسم أنه من مدينة شتراسبورج الالزاسية . هذا هو كل ما في الأمر . كذلك وصلتنا قصة شعرية ضخمة اسمها تريستان وايزولد لم يتمها صاحبها ، ولم يذكر

اسمه ، وما كان يمكن أن يذكر اسمه إلا في آخرها على عادة العصر . ولكن جماعة من الأدباء تناوات القصة وحاولت اكتمالها وذكرت أن اسم المؤلف هو جوتفريد وأنه من شتراسبورج فانسبت القصة إلى اسمه ، نسبة صحيحة لا نكاد نشك فيها ، ولكننا لا نعرف عن الرجل شيئاً . وقد سعى الباحثون في القرن الماضي إلى استجلاء هذا المكنون وظنوا أن جوتفريد كان كاتب مدينة شتراسبورج . ولكن البحث الحديث كذبهم . ومما يذكر عن جوتفريد ، استقاء من قصته ، أنه لم يكن من رجال الدين ، وقد أشرنا إلى ذلك من قبل ، وأنه كان يتقن اللغة الفرنسية إتقاناً كبيراً ، وأنه كان من عامة الشعب ولم يكن فارساً أو نحو ذلك فلم يذكره معاصروه ومن أدركوه بما يفيد غير ذلك . لم يسمه أحداً « السيد جوتفريد » بل سموه « جوتفريد » مما يقطع بأنه كان من عامة الناس .

رفع جوتفريد فون شتراسبورج يده عن قصته « تريستان وايزولد » حول عام ١٢١٠ أي في الوقت الذي أتم فيه معاصره العظيم فولفرم فون اشينباخ درته « بارتسفال » . ولهذا يمكننا دون التورط في تواريخ بعينها . أن نقول إن جوتفريد أدرك القيصر فريدريش بارباروسا وعصره المحيد وأدرك القيصر هاينريش السادس وأدرك أوتر الرابع وغيره فيليب ، وأنه على الأرجح لم يشهد تنصيب القيصر فريدريش الثاني (١٢١٥) . وهذا يعني أنه عاش جزءاً كبيراً من حياته في ظل القياصرة المظفرين ، وفي ظل الاستقرار . وهذا يعني أيضاً أنه عاش مرحلة الحروب الصليبية الخامسة وأنه تأثر بما كان فيها من تيارات .

أحداث « تريستان وايزولد »

يشمل النص الذي بين يدينا من قصة تريستان وايزولد ١٩٥٤٨ بيتاً تنتظمها ٢٤٥ صفحة مزدوجة (أي ذات نهرين) هي طبعة العلامة فريدريش رانكه .

(اعتمدنا على الطبعة التاسعة منها التي ظهرت في عام ١٩٦٥ في زيوريخ وبرلين) .

ويمكن أن نقسم الأحداث إلى ثلاثة فصول كبيرة :
نشأة تريستان ورحلته الأولى إلى أيرلنده - رحلة تريستان إلى أيرلنده للمرة الثانية وهيامه بايزولد - نفى تريستان ونهايته . وهذا هو التقسيم الذي أخذ به هلموت دى بور (المجلد الثاني من تاريخ الأدب الألماني ، نشر هلموت دى بور وريشارد نيفالد . ميونيخ ١٩٦٠ . ص ١٣٠ وما بعدها) . وهناك تقسيم آخر أكثر تفصيلاً اصطنعه العلامة الفرنسي جوزيف بدييه في رواية « تريستان وايزولده » هو :

- ١ - طفولة تريستان .
- ٢ - مورولت الأيرلندي .
- ٣ - الحساء ذات الشعر الذهبي .
- ٤ - الشراب السحري .
- ٥ - برانجين والوعول .
- ٦ - شجرة الصنوبر الكبيرة .
- ٧ - القزم فرونسن .
- ٨ - قفزة من الكنيسة .
- ٩ - غابة موروا .
- ١٠ - الناسك أوجرين .
- ١١ - المخاضة العجيبة .
- ١٢ - حكم بالسلاح .
- ١٣ - دعاء البلبل .
- ١٤ - الجرس العجيب .
- ١٥ - ايزولد ذات الأيدي البيضاء .
- ١٦ - قاهردين .
- ١٧ - ديناس دى ليدان .
- ١٨ - تريستان مجنوناً .
- ١٩ - الموت .

وقد قسم الناسخ الذي كتب مخطوط هامبورج الورقي في عام ١٧٢٢ أو الذي كتب الأصل الذي نسخ

هذا عنه : القصة إلى ٢٦ فصلاً حسب الأحداث لا الفكرة كما فعل بدييه فيما بعد .

تبدأ القصة بمحدث عن الأمير « ريفالين » أمير بارمينيرلانده وحرابه المظفرة ضد واليه « مورجن » وتقتل منه إلى وصفه رحلة قام بها إلى الملك الشهير « مارك » . ملك كورنيفال وإنجلترا . ولقد أحسن الملك مارك استقبال ضيفه ريفالين وأقام حفلاً عظيماً تبارى فيه الفرسان ما شاء لحم التبارى . وبرز فيه ريفالين وتفوق على الآخرين بما أوتي من مهارة وسرعة وقوة وبراعة فأعجبت به النساء كل الإعجاب . وكان إعجاب النساء بالفارس أسمى تقدير لفروسيته في ذلك العصر . وكانت الحساء بلنشفلور أخت الملك مارك أكثر النساء إعجاباً بريفالين . بل إنها أحبته وأوسعت له في قلبها مكاناً . وما لبثت أن أحباها هو أيضاً . ويصف جوتفريد هذا الحب وصفاً رائعاً :

ريفالين ذو الفكر واللب

حدث له ما بين

أن الروح المحيية

تشبه الطائر الطليق تماماً

الذي ينطلق بالحرية التي لديه

إلى الغصن المدهون بالصمغ (= الخيض) فيحط عليه

وعندما يحس بالصمغ ويتخلص منه

ويهم بالطيران

تزداد ساقاه التصاقاً .

فيحرك ريشه وينتفض

فلا يلمس من الفرع

جزءاً مهماً رق

إلا ويزيد قيده وبحكم وثاقه .

فيضرب بكل ما أوتي من قوة

من هنا إلى هناك ومن هناك إلى هنا

حتى ينتهي في النهاية

إلى هزيمة ذاته بمقاومته

وإلى الرقود لصيقاً على الغصن

.....

هذا ما حدث لريفالين .

(الأبيات من ٨٤١ إلى ٨٥٨ ثم ٨٧١) وجوتفريد فون شتراسبورج يتوسع دائماً في وصف الحب ، وتحليله ، وله فيه نظرية سنعرض لها في جزء خاص . وخرج ريفالين ، على ما كان متبعاً في ذلك العصر ، لمنازلة أعداء الملك مارك . فأبلى في ذلك بلاءً حسناً ولكنه أصيب بجرح شديد قربه من الموت . فذهبت إليه بلنشفلور واعتنت به حتى برأ . فلما استعاد قوته أخذها إلى دياره زوجة له . ولكن حياة ريفالين امتلأت بعد ذلك بالمعارك كما كانت ممثلة بها من قبل ، وانتهى أمره فيها إلى إصابة أودت بحياته . وكانت زوجته بلنشفلور حاملاً فوضعت ابناً هو تريستان وماتت عقب الوضع وتركت الصغير يتيم الأبوين .

وشب تريستان في رعاية عامل ريفالين « روال » كأنه من أبنائه ، حتى بلغ الرابعة عشر فغامر حتى نزل بلاطاً هو بلاط الملك ماركة أو مارك ، وهو خاله . ولكنه لم يكن يعلم بأمر القرابة وكذلك الملك لم يكن يدرى شيئاً عنها . وتقدم تريستان في الفروسية حتى رسم فارساً وأظهر من الشجاعة والقوة ما لم يستطعه الآخرون . وكان أهم عمل قدر عليه هو منازلة العملاق الهائل مورولت الذي كان يثير الرعب في البلاد ويفرض على الملك مارك أداء أتاوة أو جزية كان هذا يؤدها صاغراً . ولم تكن منازلة هذا العملاق فرداً لفرد أمراً هيناً ، بل أمراً بالغ الخطورة . فقد تلقى تريستان من سيفه المسموم ضربة أحدثت به جرحاً لم يعرف أحد سبيلاً لمداواته .

وعلم تريستان أن العملاق مورولت له أخت هي ملكة أيرلنده وأنها متضلعة من الطباية وأنها وحدها تعرف مرهماً إذا وضع شيء منه على الجرح برأ والتأم . فتنكر في زي اللاعب تنناريس وقصد ديار الملكة الأيرلندية واسمها الملكة براجته الموسيقية فعالجته حتى شفى وعينه مدرساً

للموسيقى لابنتها الحسناء إيزولد . وجاء اليوم الذي قرر أن يعود فيه إلى بلاده ، فخرج سليماً معافى منتصراً سعيداً ، وسلك طريق الإياب . ولقيه خاله أعظم لقاء ، وسعد لعودته أعظم السعادة ، وعينه وريثاً له مما أثار حقد الحاقدين ممن يعتقدون أنهم أوتوا بسطة في الجسم والمال وأنهم أولى بالعرش منه . فلا عجب إذن أن يكلف الملك مارك ولي عهده تريستان بأكثر وأصعب مهمة ألا وهي مهمة خطبة إيزولد لتكون زوجة له - أي للملك مارك - وهي ابنة العدو القديم . والمهمة صعبة لأسباب كثيرة ، فقد أقام تريستان في بلاط ملكة أيرلنده متنكراً ، وظل مدة طويلة يدعى أنه لا يزيد على أن يكون العازف تنناريس ، وقد أحب تريستان إيزولد وأحبته هي ولم يزد الحب عن مجرد الحب شيئاً ولعل إيزولد منت نفسها أن يعود تريستان إليها يوماً ليخطبها لنفسه ، وقد طلب تريستان عون الملكة فعاونته وشفته من جرح كان لا محالة مهلكه وكان هو قاتل أخيها العملاق مورولت . فكيف يعود الآن إلى الملكة ؟ وبأى وجه يرجع الآن إلى إيزولد ؟ لا بد له من الإتيان بعمل هائل ، بعمل خارق للعادة يكون فيه خير وسعد لأيرلنده وملكتها حتى يحق له أن يسلك السبيل إليها .

وهكذا جاءت الرحلة الأيرلندية الثانية لتريستان . نزل تريستان سراً ودخل في صراع أليم مع التنانين الفظيعة التي كانت تفسد على أهل أيرلنده أمرهم كله أو جلّه وكانت تجعلهم يعيشون في رعب دائم ، حتى رصد البلاط جائزة رقيقة لمن يخلص البلاد من شر هذه التنانين . ولم تكن هذه الجائزة الرقيقة سوى يد الحسناء إيزولد . من قتل التنانين وخلص البلاد من شرها حق له أن ينال إيزولد ذات الشعر الذهبي . وهكذا غلب تريستان التنانين . فلما تم له ذلك وقع مغشياً عليه من فرط التعب ، فوجدته النسوة وحملته إلى البلاط . وهناك عرفت الملكة أنه هو قاتل مورولت ، عرفت ذلك من سيفه ومن أثر القتلة الباقي فيه . واغتازت

ولما بدت كورنيفال في الأفق أفاقاً إلى نفسها، وأحسا
 بلأثمهما، ولكنهما قررا مع الخادم الوفية برنجين أن يستمرا
 في حبهما وأن يستعينا على أمرهما بالحيلة والخداع، وتعاهد
 الثلاثة على الاخلاص حتى الموت بعضهم للبعض .
 ووصل الركب . واستقبله الملك أحسن استقبال . وأخذ
 الملك يستعد لعقد القران والثلاثة يقررون الخطط
 لخداعه . وفي ليلة عقد القران بدأ تنفيذ أول خطة إذ
 قاسمته الفراش « برنجين » دون أن يدري ، وبهذا بقي
 سر الجريمة التي ارتكبتها تريستان ولإيزولد في الطريق
 مكتوناً . وسرعان ما فكر تريستان ولإيزولد في التخلص
 من برنجين بالقتل لأنها هي الوحيدة التي تعلم السر
 والتي يخشى أن تبوح به . ولكن خطة القتل لم تنجح .
 وتعرض القصة حكاية لا تمس صلها هي حكاية خطف
 الفارس « جاندين » لإيزولد، وكثيراً ما تعرض القصص
 في العصور الوسطى فصول اعراضية من هذا النوع .
 وسارت حياة تريستان ولإيزولد في بلاط الملك
 مارك على الحب والخديعة . ظل الاثنان على علاقتهما ،
 يتبادلان الحب ، ويطيعان ما يتأجج في دمهما ، وكلما
 لاحظ أحدهم شيئاً وحذر الملك ، عرف الاثنان كيف
 يكيدان ويمكران ويخرجان من الموقف . وظل الملك
 مارك يؤمن بطهر لإيزولد ولا يشك فيها أدنى شك ،
 وظل يثق في تريستان ولا يرتاب فيه أقل ريبة . ولكن
 سرعان ما تغير الوضع ، وكثر الكلام وتردد الملك مارك
 بين التصديق والتكذيب ، وأراد أن يلزم جانب العدل
 فلا يحكم على لإيزولد إلا بعد تثبت . وهنا تبدأ سلسلة من
 المحاولات لكشف الحقيقة لا تصل إلى شيء لشدة مكر
 الحبيبين . وأول من وشى بالحبيبين هو تروكسيس الذي
 كان له دور مشين أثناء إقامة تريستان الثانية في أيرلندة .
 من محاولات مارك مثلاً وقوفه متخفياً في قلب أعصان
 شجرة ليفاجئ الحبيبين ، ولكنهما يلاحظان وجوده
 فيتحدثان بحديث يبعد عنهما الشبهة تماماً . كذلك هناك
 فصل مؤثر جرت فيه محاولة تحكيم الله باستعمال حديد

الملكة ، ولكن تريستان استطاع ، مستعيناً برنجين
 الخادم المخلصه ، أن يهدئ من روعها ويصور لها الأمر
 على نحو آخر أقرب إلى صالحه . كذلك تعرض تريستان
 في الوقت نفسه إلى محنة أخرى ، إذ ادعى تروكسيس
 الجبان أنه هو الذي قهر التنانين . ولكن تريستان لم
 يعدم الحيلة ليكشف كذب الجبان وليؤكد قوته
 ويانتصاره . وأعلن تريستان على الفور مهمته فطلب يد
 لإيزولد الجميلة لخاله وسيده الملك مارك . ونجحت
 المهمة وبدأ الاستعداد للعودة إلى كورنيفال . وكانت
 لإيزولد ما تزال تحمل في قلبها كرهاً شديداً لتريستان
 قاتل خالها مورولت ، حل محل حبها الشديد له قديماً .
 ولكن الأمر لاح كأنه قد قضى ، فقد تقرر زواجها
 من الملك مارك وخرج تريستان من الموضوع . وأعدت
 الملكة الأم شراباً سحرياً ليشرب منه لإيزولد ومارك .
 كان هذا الشراب السحري يؤدي بشاربيه إلى التأجج
 حباً ، وإلى الارتباط برباطه إلى الأبد ولم يكن هناك
 شيء يخفف منه أو يوقف مفعوله .

وفي الطريق ظمى تريستان وظمث لإيزولد فشرب
 تريستان وسقى لإيزولد من الكأس التي وضعت الملكة
 الأم فيها مشروبها السحري . وجاءت الخادم برنجين
 الوفية متأخرة ورأت ما حدث ففرغت أشد الفزع
 وأخذت الاناء وألقت به في البحر . ولكن المقدر حدث
 فتحول كره لإيزولد إلى حب عنيف ملتهب وامتلاً قلب
 تريستان بمثله . وتحدد بهذا مصير الاثنين : الحب الذي
 لا تقف أمامه عقبة . . . والحيلة النافذة التي تمهد لهذا
 الحب كل طريق . وتمتع الحبيبان بالحب الحرام طوال
 أيام الرحلة دون أن يفكر أحدهما في الأثم الذي
 يتورطان فيه ، فما كان يليق بتريستان أن يفعل ما فعل
 وقد كلفه خاله وسيده بالمهمة واثمنه عليها ، وما كان
 يليق بإيزولد أن ترتكب ما ترتكب وهي في الطريق
 إلى من سيصبح زوجها . ولكن ما الحيلة والشراب
 السحري يجرى في دماثهما ويصب فيهما لهيباً لا يهدأ ؟

ويتزل بلاط مارك فلا يعرفه أحد إلا ليزولد ، ومرة أخرى يتخفى في هيئة مجنون ويلتقي بإيزولد .
 وبينما تريستان نحوض المارك من أجل الأمير قايدين ، يصيبه جرح مميت لا يستطيع أحد علاجه إلا ليزولد ، فيرسل إليها من يبلغها الخبر ويرجوها الحضور لإنقاذه من موت محقق ، ويرجو الرسول أن يرفع على المركب وهو قادم علماً أبيض اللون إذا كانت ليزولد معه ، وأسود اللون إذا أتت بدونها ، حتى يعرف الخبر قبل أن ترسو السفينة : ولكن ليزولد بيضاء اليدين تغتاض ويتحرك قلبها بغيره سوداء مقيبة فتكذب على زوجها المحتضر وتدعى أن المركب مقبلة بعلم أسود فيلطف أنفاسه الأخيرة . وتصل ليزولد الشقراء بعد فوات الأوان فترى تريستان جثة هامدة فترتمي عليها وتموت من فورها . ويصل خبر موت تريستان وإيزولد إلى الملك مارك ، ويعلم بقصة الشراب السحري فيغفر للحبيبين ، وكيف لا يغفر لها وقد علم أنهما كانا من تأثير الشراب السحري كالريشة يحركها الريح فلا تستطيع رداً أو صداً . ويقرر أن يدفنها في مقبرتين متجاورتين ، فإذا بشجرة تخرج من قبر تريستان وتدخل فروعها في قبر أيزولد ، وكلما قطعت الشجرة نمت ومدت فروعها إلى قبر الحبيبة ، فما كان للموت أن يفرق بين اثنتين ربطهما الحب :

مادة تريستان وإيزولد

ليس جوتفريد فون شتراسبورج أول من عالج قصة تريستان وإيزولد من الألمان ، فقد سبقه إلى ذلك أبلهارت فون أوبرج بقصته « تريسترانت وإيزالده » : والمعتقد أن أبلهارت من قرية أوبرج قرب مدينة براونشفايخ وأنه كان متصلاً ببلاط هذه المدينة وربما كان متصلاً أيضاً بالبلاط الإنجليزي هنري الأسد وزوجه الثانية ماتيلده (ابنة هنري الثاني واليانور دي بواتو) . ويحتمل أن يكون إبلهارت قد فرغ من قصته « تريسترانت وإيزالده » حول عام ١١٨٠ . وقصته

متأجج ، وفي هذه المحاولة أيضاً تمكنت ليزولد من إثبات براءتها كذباً . وينتهي الأمر بالملك مارك إلى نفى ليزولد وتريستان . فيذهبان إلى الغابة ويعيشان هناك في كهف أجمل عيشة ، يطلقان لأنفسهما العنان ، وينطلقان في الحب لا ينغص عليهما منغص ، ولا يقرب منهما عزول . ويكتشف مارك محبتهما في كهف الحب ، ويتصادف أن يجدهما راقدين أحدهما بجوار الآخر وبينهما سيف . وكانت تلك علامة على الظهر في ذلك العصر (راجع النيبلونجليد) فانخدع الملك مارك مرة أخرى ولا م نفسه وعفى عن الاثنتين وأعادهما إلى البلاط . وعاد الاثنان إلى البلاط ، ولم يكف عن حبهما الأبدى . وذات يوم فاجأهما الملك مارك في البستان متعانقين أوثق عناق ، فلم يعد به حاجة إلى دليل . ورأى الاثنان أن الملك مارك قد اكتشف العلاقة ، فقرر أن يتعد أحدهما عن الآخر .

لم يعاقب الملك مارك ليزولد واتباع في ذلك نصح أصدقائه ، وترك تريستان ينفي نفسه ويرحل بعيداً . فرحل إلى نورمانديا ، ولكن الحب لم يفارق قلبه ، بل ظل يتأجج به ويورقه ، وظل الحنين إلى ليزولد يملك عليه نفسه ، ولا يفارقه لحظة . وراح تريستان ينازل ويصارع ويقهر العتاه ويغلب الغاصبين حتى قربه أمير أروندل « قايدين » إليه ، وعرض عليه أن يتزوج من أخته واسمها ليزولد ذات الأيادي البيضاء أو ليزولد بيضاء اليدين .

وهنا تمف قصة جوتفريد فون شتراسبورج . ولكننا نعرف من المصادر المختلفة بقية القصة . يتزوج تريستان من ليزولد بيضاء اليدين ، ويستمر في حياته المضطربة ، فيكثر من الزوال والصراع ، ولا ينسى ليزولد الشقراء قط ، بل يدفعه حبه لها ، وحينئذ إليها ، إلى التماس كل السبل للوصول إليها ويتم له ذلك . مرة يتنكر جاعلاً نفسه مريضاً مصاباً بالبرص يتلمس العلاج على يد ليزولد المتضلعة من الطباية

ينابعوا تطورها من يد ليد أو على الأصح من قلم إلى قلم . ولا شك في أن مادة تريستان وإيزولد شأنها شأن المواد الأدبية القديمة ترجع في أصلها الأول إلى وقائع تاريخية لا يستطيع البحث أن يكشف عنها دائماً . ثم تتحول هذه الوقائع التاريخية إلى أساطير بإضافة عنصر التحويل إليها وبتغيير أشخاصها وأماكنها أحياناً وبمزج الأشياء المتفرقة المتباعدة بعضها مع البعض الآخر . كما أوضحنا في مقالنا « النيلونجليلد » الذي نشر في هذه المحلة منذ بضعة أشهر . والمعتقد أن قصة تريستان وإيزولد تجمع على الأقل أسطورتين رئيسيتين . أولاً أسطورة حب الإنسان لجنية . . وتبدأ هذه الأسطورة عادة باجتماع الجنية للإنسان بقوة السحر - وهذا هو ما يجري على تريستان إذ يتورط في صراع العملاق مورولت ، وهو أخو الجنية الأم (الملكة) ، فيجرح جرحاً يقربه من الجنية ، لأنها هي الوحيدة التي تستطيع علاجه . ثم تحمله سفينة إلى حيث الجنية (الجنية - العملاق - الجرح - السفينة) - والمرحلة الثانية في هذه الأسطورة هي عودة الإنسان إلى جماعة البشر وإلى حب امرأة من البشر . . وهذا هو ما يحدث لتريستان عندما يذهب إلى الملك هافيلين أو الأمير قايدين ويتزوج من إيزولد بيضاء اليدين ، وهي امرأة من البشر . والمرحلة الثالثة هي استعادة الجنية لحبيبها الإنسان والالتجاء وإياه إلى ملكوت الجنيات وكثيراً ما تستعمل الجنية في هذه المهمة السفينة - وفي قصة تريستان شيء من هذا مثلاً : التجاء تريستان وإيزولد إلى الغابة وإلى كهف الحب وكذلك منظر موته وحضور إيزولد الشقراء إليه . ولكن قصة تريستان وإيزولد لا تنتهي هذه النهاية لأنها ممتزجة بأساطير أخرى كما قلنا ، نشير منها إلى الأسطورة الرئيسية الثانية وهي أسطورة الخيانة الزوجية وهي قديمة جداً في الثقافة الكلتية ، وتسير في خط واضح هو اثمان رجل آخر على زوجته وخيانة هذا الأمانة .

هي أقدم رواية كاملة لمادة تريستان وإيزولد . وليس هناك شك في أن أيلهارت استخدم مصدراً أو مصادر مختلفة ، ربما نفس المصدر الذي استخدمه بيرول الفرنسي في قصته التي وصلتنا في ٤٥٠٠ بيتاً . في قصة أيلهارت نجد الفصول الرئيسية المختلفة التي في قصة جوتفريد فون اشتراسبورج ونجد أيضاً بقية الأحداث التي لم يعش جوتفريد ليروها بقلمه . أيلهارت يحكي عن مولد تريستان (تريسترانت) ونشأته ووالديه ريفالين وبلنشفلور (أخت الملك مارك) . كذلك يحكي عن موت الوالدين وتيمم تريستان ودخوله في ولاية آخر ويتبعه عندما يكبر ويصارع مورولد (أو مورولت) ويصاب بجرح ثم يسافر إلى الملكة الأيرلندية طالباً الشفاء ، ويلتقي بالحسنة أيزالده (إيزولده) . ثم يعود به إلى خاله الملك مارك الذي يكلفه بالذهاب إلى أيرلنده وطلب يد إيزولده زوجة له . فيذهب إلى هناك ويصارع التنانين ، وينجح في مهمته ويعود بإيزولد . وفي الطريق يشرب معها خطأ من المشروب السحري وتشتعل نار الحب بين الاثنين . وفي رحاب الملك مارك تتصل سلسلة من الخيانات ، تبدأ بوضع الخادم برنجين (أو برنجينه) في فراشه بدلاً من زوجه حتى لا يعلم بسوء ما حدث ، وتتطور إلى محاولة قتل الخادم الوفية ، ثم إلى تصنت الملك مارك على تريستان وإيزولد وراء شجرة ثم تجارب إثبات براءة البريء ، ثم هرب الاثنين إلى الغابة والحياة في كهف الحب . وتصل إلى نفى تريستان وبقاء إيزولد في معية الملك مارك . ويذهب تريستان إلى الملك هافيلين ويعاونه بقتله ويصادق ابنه كيهينيس ويلتقي بإيزولده بيضاء اليدين ، ويعود متخفياً إلى إيزولده الشقراء ويرأها سراً . وتنتهي القصة بموته ، على نحو ما ذكرنا من قبل .

الأحداث مشابهة تقريباً لما في قصة جوتفريد . والحقيقة أن مادة تريستان وإيزولد تشغل الباحثين منذ زمن طويل يريدون أن يعرفوا مصدرها وأن

شئ من الإيجاز طرفاً من مكوناتها الأسطورية والتاريخية الكثيرة المعقدة . والمتخصصون في تريستان وايزولد ينترون وجود أصل قديم للقصص التي عرفت في فرنسا ثم تناقلتها البيئات الأخرى ، ويطلقون على هذا الأصل الافتراضي اسم «أورترستان» أي الصيغة الأولى لتريستان ويضعونه في منتصف القرن الثاني عشر أو قبله بقليل أو بعده بقليل (بدييه - شوبرله) . هذه الصياغة الأولى أو هذه القصيدة البدائية أو النمط القديم أو الأورترستان شئ لا طاقة لأحد على وصفه أو تحديده ، وكذلك لا طاقة لأحد على انكار وجوده . ويدفعنا الظن إلى القول بأنه كان أقصر من الصيغ المتأخرة وبأنه لم يكن يضم قصة والذي تريستان ريفالين وبلنشفلور وبأنه لم يستعمل عنصر الشراب السحري الذي يشعل الحب أبداً ، وبأنه كان يقف عند هرب الحبيبين إلى كهف الحب بالغابة . ويرى رانكه أن الصياغة الأصلية لا بد كانت تشتمل على الأجزاء التالية :

(أ) صراع تريستان ومرولت ثم الرحلة الخطيرة

إلى الجنية . ثم العودة إلى كورنيفال .

(ب) إيزولد هي زوجة مارك ، تقع في هوى

تريستان وتريد دفعه إلى الاتصال بها ،

فيهرب الاثنان إلى الغابة برفقة كلب أمين .

ولكن تريستان يظل مخلصاً لسيدة فلايمس

إيزولد ، بل يدع السيف يفصل بين

فراشيها . ويصل مارك إليهما ويراهما

والسيف بينهما .

(ج) ذات مرة يخوض تريستان وإيزولد عبر نهر

فترفع المياه إلى أعلى ساقى إيزولد فتحنقه ،

ويتطور الأمر إلى تورط تريستان في خيانة

سيدة مارك .

(د) يلقي تريستان النصل في الماء وهكذا يصل

مارك إلى اكتشاف مكانهما . ثم يصيب

وهناك عناصر من أساطير أخرى مثل عنصر فرار تريستان وهو عنصر معروف في الأساطير الأيرلندية وفيها ينبد المجتمع الحبيب أو الأحباء فيلوذ أو يلوذون بالغابة . كذلك هناك عنصر سفر الشاب بحثاً عن حبيبة أو زوجة ، وعنصر قنال الثنائين ومشروب الحب والعروس المدسوسة ، واغتيال الشريك (هنا برنجين) وعنصر التنكر ، كلها عناصر ربما أخذت من مصادر أيرلندية . وقد أظهر الباحثان زنجر وبورداخ أن شخصية ايزولد بيضاء اليدين مستقاة من مصادر عربية . وليست شخصية ايزولد بيضاء اليدين وهي العنصر العربي الوحيد في القصة ، بل إن القصة مليئة بالعناصر العربية صغيرة وكبيرة ، في الأحداث وفي الشخصيات وفي الأسلوب . أما البحث وراء تاريخية تريستان وإيزولد فلم يؤد إلى نتائج حاسمة . تمكن البحث مثلاً من الكشف عن أصل اسم تريستان والجزم بأنه اسم بكتي (نسبة إلى ملوك البكت الذين سكنوا أسكتلنده قبل الكلتيين) كثيراً ما استعمل في القرون السابع والثامن والتاسع وكان أصلاً «دريستان» ومنه تفرعت الأسماء تريستان وتريسترات وتريستان . أما الملك مارك فقد كان له وجود حقيقي ، كان ملكاً مشهوراً في كورنويل (كورنيفال) . وأما اسم إيزولد فأغلب الظن أنه اسم جرمانى من «ايسهلد» أو «اسفالدا» أو «ايبيلدا» ومن هذه الأصول تفرعت أسماء ايزولد المختلفة : ايزنت - ايزويت - ايزيه - ايزولت - ايزول - ايزيلت - ايزود - ايزوته .

ومكان قصة تريستان وإيزولد هو أرض الكلتيين :

أيرلنده (إيزولد ومورولد) وكورنيفال (مارك) وبريتاني (مسقط رأس تريستان وإيزولد بيضاء اليدين)

تريستان وإيزولد عند الفرنسيين

لم ينشئ جوتفريد فون شتراسبورج ولا سلفه أيلهارت فون أوبرج مادة تريستان وإيزولد التي بينا في

وهكذا أتيح لحفيدة الشاعر البروفنسالى الأول أن تعيد الحياة التى ألقها فى البلاط فى بواتيه ، إلى بلاط وستمنستر ، واهتمت بالأدباء والشعراء وأشعلت جذوة مبدعة منذ عام ١١٥٤ خاصة عندما أصبحت «ملكة إنجلترا وسيدة أيرلنده ودوقة نورمانديا والأكيتين وجاسكونيا ، وكونتيسة بواتو وسانتونج وأنجوموا وليموزان وأوفيرنى وبوردو وآجن وأنجوومين وتورين» وأبنتها ماتيلده (من هنرى الثانى) تزوجت من هنرى الأسد ، ويعتقد غالبية النقاد أنها كانت «سيدة» الشاعر أيلهارت فون أوبرج ، صاحب تريسرانت وايزالده وملهمته ، فقد مدحها ورفعها ما استطاع . فلما عزل القيصر بارباروسا هنرى الأسد من ساكسونيا ذهبت ماتيلده وزوجها إلى بلاط أبيها وكان لماتيلده هناك تأثير أدبى هام . أما الابنة الأخرى لاليانور وهى ماري (من لويس السابع) فقد تزوجت هنرى الأول أمير شامبانيا ، وكانت ماري هذه هى سيدة وملهمته كريستيان دى طروا شاعر فرنسا الشهير فى ذلك الحين الذى يهمننا هو ملاحظة الاتصال الوثيق بين البيئات الأوروبية المختلفة بعضها البعض وارتباطها فى شخصية اليانور وبناتها ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية ملاحظة اتصال هذه البيئات بالشرق وقربها منه على الأقل (اليانور فى بواتيه وفى سوريا) . ويكاد العلماء يجمعون على أن الأورترستان أو الصياغة الأولى لترستان وايزولد نشأ فى بلاط اليانور فى بواتيه قبيل منتصف القرن الثانى عشر على يد شاعر مجهول لنا . وقد استند هذا الاجماع على شواهد منها أبيات للشاعر البروفنسالى برنارت دى فنتادور (حول عام ١١٥٠) التى تذكر «العاشق ترستان والعذاب الذى لقيه من ايزوت الشقراء» .

وإذا قلنا إن الأورترستان نشأ فى بلاط بواتيه فعنى ذلك أن واحداً أو كثيرين حملوا المادة من مهدها إلى هناك . وقد أظهر البحث منذ حوالى ثلاثين سنة أن عملية

مارك ترستان بمرح فميت ، وترثمى ايزولد على صدره ويتعانقان فيخنقها ويموتان معاً . من هذه الصياغة الأصاية بصورتها هذه أو بصورة شبيهة خرجت قصص توماس وبيرول وأيلهارت . وقصة الصياغة الأولى وكذلك قصص صياغات توماس وبيرول وأيلهارت مرتبطة بامرأة شهيرة هى «اليانور دى بواتو» وابنتها «ماتيلده» . ولدت اليانور دى بواتو (فى عام ١١٢٢) وسط بيئة مهتمة بالأدب والفن ومثله العليا من فرسانية وشهامة وحب وغزل . وكان جدها الدوق وليم التاسع دوق إقليم الأكيتين الفرنسى القريب من أسبانيا ، ولا يخفى أن إقليم بواتو الذى تنتسب إليه اليانور هو الإقليم الذى شهدت عاصمته «بواتيه» المعركة الشهيرة بين المسلمين والفرنجية والذى ظل على اتصال بالبيئة الثقافية العربية الإسلامية النشطة فى أسبانيا . وجد اليانور هو أول شاعر بروفسالى (تروبادور) نسمع به ، أما وليام العاشر والد اليانور فقد مات فى عام ١١٣٧ وترك اليانور فى سن الخامسة عشرة تصبح أغنى أميرة فى أوروبا وسيدة على أوسع ملك فيها . وفى العام نفسه تزوجت من الملك لويس السابع ملك فرنسا وكانت تعتقد أنها تزوج ملكاً بمعنى الكلمة يعيش فى ابهة الملوك ويحفل بالأدب والفنون ، فاذا بها تكتشف أنه أشبه شىء بالرأب الزاهد الذى لا يعرف له شيئاً يهتم به إلا الحروب الصليبية . وقد اشترك لويس السابع فى الحملة الصليبية الثانية (١١٤٧ - ١١٤٩) مع القيصر الألماني كونراد الثالث والأمير فريدريش الذى سيصبح القيصر فريدريش بارباروسا ، وأخذ لويس السابع زوجه اليانور معه إلى الشرق فى هذه الحملة التى فشلت فشلاً تاماً . ولم تحتمل اليانور البقاء مع لويس أكثر مما فعلت فطلقت منه فى عام ١١٥٢ وتزوجت هنرى «بلاننا جينيه» الذى سيصبح هنرى الثانى ملك إنجلترا وكان يصغرها بأكثر من عشر سنين . وكان هنرى يحب الأبهة ويشجع الفنون والآداب :

النقل هذه تمت على يد قصاص يدعى بلزيريكوس أو بليرى أو بريرى ، وأنه فعل ذلك أيام أبي الينور . وقد ورد ذكر بريرى هذا في شعر توماس على أنه من العليمين بحكايات الملوك البريطانيين . وإذا كان هذا هو الاسم الوحيد الذى وصلنا ، فليس معنى هذا أن عملية النقل أنجزها هذا الرجل وحده ، فالمؤكد أن بلاط وليم العاشر كان يعجج بالقصاصين العليمين بالأساطير الكلتية وغيرها . المهم أن مادة تريستان وايزولد وصلت إلى هذا البلاط وأنها اختلطت بعناصر من مصادر مختلفة منها المصدر العربى وصيغت على نحو يوافق المزاج الأوروبى فى صياغة قديمة أو فى صياغات قديمة .

وأول من أزشأ قصة حول مادة تريستان وايزولد هو شاعر فرنسا العظيم فى العصر الوسيط كريستيان (أو كرتيان) دى طروا . وقد ضاعت قصته ، ولكن إشاراته إليها فى قصصه الذى بقى ، وخاصة فى « كليجيه » يقطع بوجودها ، ويوحى بأنه استعمل صيغة أقدم . وكانت عادة الكتاب المتبعة فى العصر الوسيط عامة هى « الاقتباس » ، هى التماس المادة فى « مصدر » والتشرف بذكر هذا المصدر لا التخرج منه . وصيغة تريستان ، على قدر ما تجمع لدينا من أخبارها ، تتحدث عن الصراع بين الخال وابن أخته على حسناء ، ولكنها تتصرف فى أمر الحب المحرم الآثم وتجده حلاً من السحر .

وهناك قصة بيروول ، التى يسمونها أيضاً الصيغة العامة ، التى وصلتنا فى قطع مجموع أبياتها حوالى ٤٥٠ بيتاً ، تحكى جل الحكاية ، على ما يبدو لجمهور واسع ، ومن هنا تسميتها بالصيغة العامة . والعلاقة بين قصة بيروول وقصة أيلهارت غامضة . بعض النقاد يذهب إلى أن أيلهارت استمد مادة قصته من بيروول ، والبعض الآخر يرفض ذلك . والرأى الوسط هو أن الاثنين استعملا مصدراً ، تالياً على الأورترستان فى الأغلب ،

هو ما يسمى « بالقصة » . وقد أشرنا من قبل إلى علاقة أيلهارت بالينور التى ارتبط اسمها واسم بلاطها بترستان أوثق ارتباط . وتنقسم قصة بيروول (نشأت بين عام ١١٧٠ و ١١٩٠ أو بعد ذلك أو قبل ذلك ؟) تنقسم إلى قسمين قسم أول (بيروول الأول) وقسم ثان (بيروول الثانى) . فى القسم الأول يعالج بيروول الحوادث إلى حياة الحبيين فى الغابة ، على نحو يشابه أيلهارت . أما القسم الثانى - بيروول ٢ - فيختلف عن أيلهارت أشد الاختلاف . فلعل بيروول استخدم مصدراً آخر غير « القصة » أو لعل كاتب « بيروول ٢ » شخص آخر والقصة الأخرى التى يعرفها تاريخ الأدب الفرنسى هى قصة توماس . والموجود منها حوالى ٣٠٠٠ بيت من الشعر تصل بالحكاية إلى ختامها . توماس البريطانى ألف قصته باللهجة الأنجلو نورمانية فى وقت مناظر لوقت بيروول تقريباً ، ولسنا نعرف هل كان توماس إنجليزياً أم كان من بلاد أخرى ؟ المهم أنه صاحب فضل كبير فى تطوير مادة تريستان وايزولد وتشكيلها بشكل رفيع متأثر بذوق البلاط ، الذوق الاليانورى . مصطنعاً أسلوباً ليناً حسن الجرس ، مرهف الغنائية . نجد توماس مثلاً يخفف وصف العاطفة الجياشة من الأصل الوحشى العنيف الغليظ وينتج نهجاً رقيقاً نافذاً إلى أعماق نفوس شخصياته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وحديث توماس عن الحب حديث مغمم بالمفاهيم البلاطية ، أو حديث يدور حول تحديد مفهوم الحب البلاطى . والحقيقة أن معالجة توماس لتأثير المشروب السحرى على قلب تريستان وايزولد ومارك معالجة جديدة بالاعجاب . فتوماس يرفض فكرة الحب بغير لقاء سابق ، ففى حين يتورط بعض المؤلفين فى جعل تريستان يحب وايزولد على غير لقاء سابق ، يشترط توماس هذا اللقاء ويتمسك به ، ثم يأتى المشروب السحرى فيقوى علاقة نشأت بالفعل . وإذا كان المشروب السحرى من شأنه أن يثير الحب ، وإذا كانت مقتضيات القصة تفرض أن

يظل مارك على حب ايزولد ، فإن توماس يبقى في كأس المشروب السحري شيئاً يصل إلى مارك ويشربه فيمتلىء قلبه بحب ايزولد إلى النهاية . إنك تحس أن توماس رجل تعلم وعرف المنطق واجتهد في أن يربط الأسباب والمسببات .

جوتفريد فون شتراسبورج وتريستان وايزولد

تأثر جوتفريد فون شتراسبورج بتوماس خاصة ، واتبع نضه اتباعاً وثيقاً . ولكنه كان يعرف المؤلفين الآخرين ونصوصهم ، وخاصة أيلهارت . في الأبيات ١٣١ وما بعده يقول متحدثاً عن مصادره :

« أنا أعرف أن هناك كثيرين

قرأوا (وحقوا ؟) عن تريستان .

ولكن ما أقل

أولئك الذين أحسنوا القراءة (والحكاية ؟) .

فإذا كنت أسلك السبيل نفسه الآن

وأقول فيه كلمتي

.....

فإنني أتصرف على نحو آخر :

ولا ألومهم : فقد تكلموا

بنية كريمة خالصة

وأرادوا خيراً وخير الدنيا .

ولا ريب أنهم تصرفوا عن حسن نية :

وكل ما يفعله الإنسان عن حسن نية

هو أيضاً خير وعمل صالح .

أما ما قلته

من أنهم لم يحسنوا القراءة (والحكاية ؟)

فأمر واقع ، على نحو ما تحدثت .

لم يقص هؤلاء بالحق (= اعتماداً على مصدر)

مثلاً فعل توماس البريطاني ،

الذي كان أديباً سيّداً في القصة

وقرأ في الكتب البريطانية :

حياة الأمراء جميعاً
وحكاها لنا وعرفنا بها .
ومثلما قال عن تريستان
الصواب وذكر الحقيقة (المصدر ؟) .
بدأت أنا أبحث بحثاً حاراً
في كل أنواع الكتب
الرومانية واللاتينية
ورحت أجتهد وأكد
حتى أنشئ
هذا الأدب على صواب .

جوتفريد يقرأ إذن مصادر مختلفة باللغات الرومانية (يعنى الفرنسية ؟) واللاتينية - ربما تواريخ الأمراء ، ويعتمد على توماس البريطاني الذي كان في رأيه الوحيد الذي لزم الصواب والذي استمد القصة من مصادرها الحقيقية والذي أنشأ قصة جعلته سيّداً في ميدان الأدب : ولكن جوتفريد أصيل ، يتحدث عن الحب حديث من خبره وعرفه ، ويرتب الأحداث ترتيباً يدل على أنه تصورهما على نحو متكامل وأنه اتخذ له فيها مذهباً .

والعنصر الرئيسي في قصة تريستان وايزولد في صياغة جوتفريد هو الحب الذي يرتبط به الكيان الفرسانى بمغامرات أخلاقية وغير أخلاقية . وقد شهدت هذه الفترة من العصر الوسيط اهتماماً كبيراً بالحب ، وأنشأت له وحوله الكثير من الشعر الغنائى ، وألفت له الكتب تبحث في أسبابه وأحواله وقواعده . والبحث في احتمال تأثير البيئة العربية الأيبانية على ظهور هذا الاتجاه في أوروبا بحث هام خلقى بأن يفرد له مقال خاص . المهم أنه في عصر تأليف تريستان ظهر كتاب أندريه كاييلان (أو شابلان) أو على الأصح ظهرت كتبه الثلاثة في الحب (باللاتينية) ، وبها جزء طريف عن قواعد الحب ، يلخصها فيما يلي :

١ - ليس الزواج مبرراً لعدم الحب .

٢ - من لا يعرف الغيرة لا يقدر على الحب .

٢٣ - من أرقه التفكير في الحب قل طعامه وقل
نومه .

٢٤ - كل فعل من المحبوب مرتبط بالتفكير في
المحوبة .

٢٥ - المحب الحق لا يستحسن إلا ما يعتقد أنه
سيسر محبوبته .

٢٦ - الحب لا يمنع شيئاً عن الحب .

٢٧ - لا يمكن أن يمل المحبوب من وصال محبوبته .

٢٨ - أقل الظن يدفع العاشق إلى الشك في محبوبته

٢٩ - ما عرف الحب من أرقه الاثم .

٣٠ - العاشق الحق لا يفتأ يتأمل محبوبته .

٣١ - ليس هناك ما يمنع المرأة من حب رجلين ،

ولا الرجل من حب امرأتين .

هذه القواعد تقرّبنا من مفهوم الحب عند جوتفريد .

الحب عنده شيء قوى ، هائل يتملك الإنسان ويتسلط

عليه ويجرده من إرادته . وما شراب الحب إلا رمز على

هذه القوة الهائلة . وما أسعد جوتفريد عندما وجد عنصر

« الشراب السحري » ، فقد حسم به مشكلة العلاقة

بين الحب والأخلاق ، لأن الشراب السحري يجرد

الإنسان من إرادته ، ومن تجرد من إرادته أصبح تأثيمه

عبثاً أو ظلماً . فلا إثم إلا على من كان في وعيه ،

وكان يتصرف عن عمد وإرادة . جوتفريد يجعل الشراب

السحري رمزاً ، ويدخل في مفهومه عن الحب عناصر

من الصوفية ، كما بينت البحوث الحديثة . جوتفريد

فون شتراسبورج يصور حبيبين تريستان ولانزولد في

سعيهما نحو الوحدة الصوفية أو الاتحاد الصوفي على

صعيد الحب ونهايتهما نهاية الشهداء ، شهداء العشق ،

لوقوف الدنيا منهما موقف العدو . ولهذا نجد جوتفريد

في مقدمته يتجه بقصة الحب الصوفية هذه إلى أصحاب

« القلوب الكريمة » وحدهم ، ولا يتجه بها إلى العامة ،

الذين لا يطبقون الصوفية ولا يفهمون الربط بين الحب

٣ - لا يمكن أن يرتبط إنسان بحبين .

٤ - الحب دائم الزيادة أو النقصان .

٥ - ما ينال المحب من محبوبته ضد إرادتها لا

لا طعم له .

٦ - لا يمكن أن يحب الرجل إلا إذا بلغ الرجولة

الكاملة .

٧ - ينبغي أن يحزن الأحياء على حبيب مات

لمدة عامين .

٨ - لا يحق أن يحرم إنسان من الحب بغير سبب

كاف .

٩ - لا يمكن أن يحب إنسان إلا إذا جذبه إغراء

الحب إلى ذلك .

١٠ - من عادة الحب تجنب دار البخل دائماً .

١١ - من غير المقبول أن يحب الإنسان من قد

يُحجّل من الزواج بها .

١٢ - الحبيب الحق لا يميل إلى التمتع بحب واحدة

سوى حبيبته .

١٣ - نادراً ما يدوم الحب بعد أن يكتشف .

١٤ - سهل المنال من الحب يصبح مقبلاً ، وصعب

المنال من الحب يصير عزيزاً .

١٥ - كل حبيب يشحب عادة عندما يرى حبيبته

١٦ - قلب العاشق يرتجف عندما يرى حبيبته فجأة

١٧ - الحب الجديد يطرد القديم .

١٨ - حسن الخلق وحده يجعل الإنسان خليقاً

بالحب .

١٩ - إذا خفت الحب فما أسرع ما ينسى وما أندر

ما يعود .

٢٠ - العاشق دائماً خجول .

٢١ - عاطفة الحب تزداد دائماً بالغيرة الصادقة .

٢٢ - اندفاع المحب وعاطفته يزدادان عند الشك

في المحبوبة .

والأم ، بين الحياة والموت في كل واحد ، في وحدة واحدة على طريقة أهل الصوفية .

وجوتفريد محدثه هذا عن أصحاب القلوب الكريمة يقسم الواقع إلى قسمين ، قسم رفيع وقسم وضعيع ويضع القسمين أحدهما ضد الآخر . والقسم الرفيع هو الذى ذاق الحب ، وخبره خبرة عميقة ، فبلغ الفضيلة وتبلغ الشرف والرفعة (انظر القاعدة رقم ١٨ من قواعد كايبلان) . جوتفريد ينقل مفاهيم الصوفية من صعيد الدين إلى صعيد الحب ، ويستعمل مصطلحاتها . هدف العاشقين هنا اتحاد بدنى روحى على أرقى مستوى ، ولا شأن له بالمعروف فى الاتحاد الصوفى ، اللهم إلا إذا عيننا المنهج . فى مفهوم الاتحاد الصوفى « الغرامى » نقرأ هذه الآيات :

هائم وهائمة

رجل ، امرأة — امرأة رجل ،

تريستان ايزولد — ايزولد تريستان .

نراه يبدأ فى البيت الأول بربط الهائم والهائمة بحرف العطف « و » ، ثم ينتقل إلى التوحيد بينهما فيرفع حرف العطف ، فكأنما تريستان و ايزولد كائناً واحداً . والحب عند جوتفريد شيء يقصد لذاته ، تريستان يحب ايزولد وينالها لأنه برع فى المغامرات وأتى بالكثير من أعمال القوة ، وإنما ينالها لأنه جدير بالحب (انظر قواعد كايبلان) ، و ايزولد تستجيب للحب وتقابله بحب ولا تفعل ذلك مقدمة ثمناً أو مكافأة ، بل لاحتساسها بلقاء من يملأ قلبها . إنه حب فوق كل شيء ، حب لا حدود له . والحب هنا لا يسعى إلى الزواج ، وأتى له هذا ؟ (انظر القاعدة الكايبلانية الأولى) إنه حب لذاته ، فيه الحس وفيه الروح . وجوتفريد لا يجرد الحب من ناحيته الحسية ، بل يراها جانبه الظاهرى الذى لا بد منه لكمال الحب . وهكذا يخرج جوتفريد بمفهومه هذا عن المفهوم الاجتماعى . والمجتمع لا يعترف من الحب إلا بالزواج . وقد يعترف بالحب

المجرد عن الحس . أما هذا الحب فلا بد له من مكان آخر غير المجتمع بصورته المعروفة . ومن هنا يأتى تقسيم المجتمع إلى قسمين .

وقد كان تقسيم المجتمع إلى قسمين ، واحداً معنواً وواحد علينا ، شائعاً فى ذلك العصر ، فعاصر جوتفريد الشاعر فولفرم فون اشينباخ يقسم المجتمع إلى قسمين ولكن على أساس آخر هو : المقدرة الفرسانية . وفى قصة جوتفريد نشاط فرسانى ، على عادة العصر ، ولكنه لا يقسم المجتمع ، بل لا يواجهه هذه المشكلة أبداً . هذا النشاط الفرسانى ثانوى ، يمهد للأحداث الرئيسية ، مثلاً الصراع بين تريستان ومورولت : يمهد للقاء تريستان و ايزولد لا أكثر من ذلك ، فلست نجد تريستان يتوسل ببراعته وتفوقه على مورولت ليصل إلى قلب ايزولد ، بل على العكس لا بد لتريستان أن يخفى أمر هذا الصراع لأن مورولت هو خال ايزولد الحسنا . ويؤكد جوتفريد على ثقافة تريستان ، ويصفه بأنه كان يجيد القراءة ويحسن العزف ويتقن الكلام بأنه كان رجلاً يتميز بأدب الندماء . وكذلك ايزولد ، أروع ما يصفه بها جوتفريد هو « أنوثتها » هو طبيعتها الرقيقة . وأن ايزولد لتبقى امرأة فى كل حال ، امرأة بكل ما تتصف به المرأة من صفات مميزة . (قارن صورة المرأة فى النيبلرنجنيلىد مثلاً) .

والفصل الخاص بكهف الحب ، بصور قمة الاتحاد الصوفى بين الحبيبين اللذين عجز المجتمع بقسمه الوضع عن شمولها . ليس كهف الحب عند جوتفريد ، كما كان عند سابقه ، مكان هاربين طريدين ، بل هو رمز الاتحاد على أعلى مستوى له . الحبيبان عند جوتفريد لا يخرجان طريدين ، بل يسعيان إلى مكان خليقٍ محبهما . وجوتفريد يصور هذا المكان ، هذا الكهف ، كأنه الجنة ، ويضع فيه « سريراً من البلور » يرفع به مفهومه عن الحب إلى أعلى درجات النقاوة والصفاء .

وفي بروكسل وفي هامبورج (نسخة هامبورج هذه صنعت في القرن الثامن عشر في عام ١٧٢٢ نقلا عن نسخة خطية قديمة ، وهي تقسم القصة إلى ٢٦ فصلا لكل عنوان مفصل يلخص مضمونه) .

وهناك مجموعة كبيرة من بقايا المخطوطات أو من المخطوطات الجزئية استعملها العلماء في تحقيق النص وفي الدراسات الفيلولوجية والأدبية المختلفة ، نكتفي بالإشارة إلى وجودها . أما الطبقات التي ظهرت للنص محققاً فنذكر منها طبعة ر . بيششتاين (لا بيتسج ١٨٦٩ وبعد ذلك) وطبعة مارولد (لا بيتسج ١٩٠٦ وبعد ذلك) ثم الطبعة الهامة التي أخرجها ف . رانكه عام ١٩٣٠ والتي اعتمدنا عليها في طبعة عام (١٩٦٥) .

وأول من أخرج نص تريستان وايزولد في العصر الحديث (وكان أدب العصر الوسيط قد توارى تحت غبار الماضي والنسيان عدداً من القرون) هو كريستيان هاينريش مولر في مجموعته المسماة « سلسلة الآداب الألمانية في القرن الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر » ، المجلد الثاني ، برلين عام ١٧٨٥ . ومنذ ذلك الحين كثرت الطبقات ، خاصة بعد أن أصبحت دراسات الآداب الألمانية في العصر الوسيط علماً خاصاً على يد الأخوين جريم في القرن التاسع عشر .

مكملو تريستان وايزولد

علمنا أن جوتفريد لم يتم قصته ، وأنه تركها ناقصة على الأرجح لموته . وقد تناول اثنان من الأدباء القدماء قصة جوتفريد واستعانوا بمؤلفات أخرى مشابهة لا كمالها . هذان هما أولريش فون تورهايم (بين ١٢٢٥ و ١٢٣٥) وهاينريش فون فرايرج (حول عام ١٢٩٠) . ولا شك أن اهتمام جماعة من الأدباء (ربما بايعاذ من الأمراء) باكمال هذا العمل الناقص دلالة على تقدير لقيمته ، وعلى استحسان القراء له . وقد أفدنا من هذا الاهتمام إفادة جوهرية تتلخص في معرفة اسم صاحب

ويظهر أن جوتفريد كان مقتنعاً من أن هذا اللون من الحب لا دوام له ، لأنه لا يستند على أساس من الواقع ، وأنه كان يريد أن يسير بقصته إلى المنقلب ، فيأسف على سوء ما حدث للمحبين ، ويتابع التراجيديا إلى انحطاط الحب من الرفعة إلى الضعة . وربما أراد جوتفريد بعد مشهد الانحطاط ، أن يصور انتصار مفهومه في النهاية ، بقاء المحبين الخالدين ، واتحادهما في الموت إلى الأبد .

مخطوطات تريستان وايزولد لجوتفريد

وصلتنا قصة تريستان وايزولد الشعرية لجوتفريد فون شتراسبورج في مخطوطات أهمها ١١ مخطوطاً ، منها ستة مخطوطات من الرق :

م - مخطوط ميونيخ ويرجع إلى القرن الثالث عشر وهو محلى بالكثير من الصور ، ويرجع إلى القرن الثالث عشر ، ولكنه غير كامل .

ه - مخطوط هايدلبرج ويرجع إلى القرن الثالث عشر أيضاً .

ب - مخطوط بلا نكهنايم ، وهو محفوظ الآن في الأرشيف التاريخي لمدينة كولونيا ، ويرجع إلى القرن الرابع عشر ، وهو محلى بالصور .

ف - مخطوط فلورنسا ، بالمكتبة القومية هناك ، ويرجع إلى القرن الرابع عشر .

ن - مخطوط برلين ، وهو بمكتبة برلين ، ويرجع إلى القرن الرابع عشر .

ف - مخطوط فيينا بالمكتبة الملكية ، ويرجع إلى القرن الرابع عشر .

أما المخطوطات الورقية الخمسة فهي ترجع غالباً إلى القرن الخامس عشر وهي خالية من الصور وبعضها يحمل عناوين لفصول قسم الناسخ القصة إليها . وهذه المخطوطات محفوظة في مودينا ، وفي كولونيا وفي برلين

« تريستان وايزولد » لأنه كان من عادة الأدباء ألا يذكروا أسماءهم إلا في آخر مؤلفاتهم (وربما ذكر بعض الأدباء اسمه في مقدمة مؤلفه كما فعل هرتمن فون أوى في « هاينريش المسكين ») ، وهكذا لم يرد اسم جوتفريد في قصته . ولكن أولريش فون تورهايم وهاينريش فون فرايبرج ذكرا اسم جوتفريد فصحت نسبة العمل إليه . وقد اعتمد الأديبان المكملان على نص أيلهارت رغم اتهام جوتفريد له بعدم معرفة القصة على حقيقتها ، وكان الأخرى بهما أن يعتمدا على المصدر الذي رجع هو بصفة أساسية إليه وهو نص توماس . ولكن نص أيلهارت كان أقرب مثالا وأكثر إغراء .

والمحقق الذي أضافه أولريش فون تورهايم يتميز بالإيجاز الشديد ، وليست له قيمة أدبية كبيرة . ولأولريش فون تورهم نشاط مشابه في اكمال قصة فيللاهالم للشاعر الألماني العظيم فولفرم فون اشينباخ . ويبدو أن العصر عرف اتجاهاً يميل إلى اكمال أعمال الكبار التي لم تتح لهم الفرصة لاكملها .

تريستان وايزولد بعد جوتفريد

لقيت مادة تريستان وايزولد رواجاً شديداً في البلاد المختلفة . في الروبيج مثلاً ظهرت عام ١٢٢٦ قصة تريسترام الزويجي ، وفي إيطاليا ظهرت في مطلع القرن الرابع قصة حول تريستان ، وفي القرن الرابع عشر نشأت قصة تريستان التشيكية . وفي الوقت نفسه تقريباً ظهرت قصة السيد تريستراوند في إنجلترا . أما في فرنسا فقد ظهرت — علاوة على ما سبق أن أشرنا إليه — قصة نثرية عن تريستان في النصف الأول من القرن الثالث عشر . وقد حظيت القصة بصيغها المختلفة باهتمام العلماء في فرنسا ، ولا بد أن نشير هنا إلى « رواية تريستان وايزو » التي صاغها جوزيف بدييه من جديد منذ أكثر من ربع قرن ، والتي نقلنا تقسيمها في موضع آخر من هذه الدراسة . والطريف في هذه الرواية أن بدييه

استخدم فيها النصوص الأساسية المعروفة كلها تقريباً ، استخدم توماس وبيرون وأيلهارت وجوتفريد ، واتبع منهجاً وسطاً بين الترجمة والتأليف ، واصطنع أسلوباً شبيهاً بأسلوب العصر الوسيط .

أما الألمان فقد ألفوا قصة أخرى (قصيرة) عن تريستان في نهاية القرن الثالث عشر أو في مطلع القرن الرابع عشر في براج ، وألفوا في الوقت نفسه أو قبله بقليل في منطقة الألزاس عن الموضوع نفسه بعنوان « تريستان راهباً » وهي قصة مغامرات طريفة . ولما دخلت المطبعة ظهرت في ألمانيا رواية نثرية عن تريستان وايزولده طبع في أواخر القرن الخامس عشر أكثر من مرة ، وكانت محلاة بالصور ، واعتمد النص على قصة أيلهارت خاصة وقد ترجمت هذه الرواية الألمانية الشعبية إلى اللغة الدنمركية في منتصف القرن التاسع عشر ، وكانت الدنمرك تعرف رواية دنمركية باسم « تريستان وانديانا » منذ نهاية القرن الثامن عشر لا يعرف مصدرها ، وإن كان المعتقد أن يكون رواية ألمانية ضاعت . وأوحت الرواية الألمانية المطبوعة التي تحدثنا عنها ، إلى الشاعر العامل هانز زاكس بخمس أغان وبتراجيديا (عام ١٥٥١ و ١٥٥٣) . وفي عصر الرومانتيكية ظهر اهتمام مجدد بتريستان وايزولد فألف كارل اميرمن قصة شعرية (ماحمة) لم يتمها (١٨٤١) على أن الفضل يرجع إلى ريشارد فاجنر ، الشاعر الموسيقي ، في صياغة مادة تريستان وايزولد الصياغة النهائية في الدراما الموسيقية « تريستان وايزولده » . كتب فاجنر النص في عام ١٨٥٧ ووضع موسيقاه في عام ١٨٥٩ ، ومنلت الأوبرا لأول مرة في ميونيخ في عام ١٨٦٥ . وكان فاجنر في هذا الوقت متأثراً بحب ماتيلده فيزندونك وما لقيه فيه من خبرة عميقة خلافة . وقد قرأ فاجنر تريستان وايزولد في ترجمة هـ . كورتس (عام ١٨٤٤) وترجمة زيمروك (١٨٥٥) وتأثر « بشوبنهاور » وربما « بنوفاليس » ، فتم له من هذه

وسارت السفينة بايزولد وتريستان ومن معهما إلى
أرض الملك مارك . وكانت ايزولد حزينة وكان
تريستان يواسيها (١١٥٤٠ وما بعده) :

وأعطيت السيدة (ايزولد) في الرحلة

بإشارة من تريستان

حجرة بالسفينة

خفية متوارية

لتقيم فيها .

هناك كانت الملكة

وفتياتها معها

ولا يدخلن ليلهن رجل أبداً

إلا تريستان من وقت لآخر :

فكان يدخل أحياناً

ويواسي الملكة

عندما كانت تجلس باكية .

كانت تبكي وتنتحب

لأنها تركت هكذا بلدها

الذي تعرف أهله

وتركت أصدقاءها جميعاً

لترحل مع قوم لا تعرفهم

.....

وهكذا كان تريستان يواسيها

على أحلى ما يستطيع

في كل ساعة .

عندما كان الحزن يحل عليها .

كان يأخذها بين ذراعيه

بكل حلاوة ورفق

بطريقة لا تختلف عن

الزوج مع زوجته .

كان الرجل المخلص يجتهد

في أن يكون للحساء

المؤثرات جميعاً خلق العنصر الجوهري وهو الحب إلى
الموت وفي الموت ، هو الحنين إلى الحب والوصال في
الموت ، هو الرمز الخالد لخلاص الإنسانية في وحدة
الكل وانسجامه .

أمثلة من قصة تريستان وأيزولد

أعدت الملكة ايزولد الأم مشروب الحب السحري
وأعطته للوصيفة برانجين وأوصتها الوصيفة التالية (البيت
١١٤٤٩ وما بعده) :

أخذت السيدة الحكيمة (الملكة ايزولد الأم) الشراب

وتكلمت مع برانجين بصوت خفيض ،

قالت لها : « أي برانجين ، يا عزيزتي وبنيت أختي

أرجو ألا يكون كلامي ثقيلاً عليك ،

فقد قررت أن تذهبي مع ابنتي في سفرها .

لذلك فافتحي لي ذهنك

وانتهبي إلى كل ما أقول لك :

خذي هذا الكأس بما فيه من شراب

واجعليه في حفظك وصونك ،

وانتهبي إليه جداً أكثر من كل ما عداه .

حذار أن يأتي كائن من كان على الأرض

ويمد يده إليه !

احفظيه بكل جد وجهد

حتى لا ينعم به أي إنسان .

واجتهدي أشد الاجتهاد

عندما تقترب ايزولد ومارك

من وصال الحب

أن تقدي لها هذا الشراب على أنه نبيذ

ليشرباه معاً كله .

.....

لأنه شراب الحب والهيام :

فلا تنسى هذا قط . »

تخفيفاً عما بها من هم .
فلما تكرر
تطويقه اياها بذراعيه ،
فكرت ايزولد الجميلة
في موت خالها
وقالت له محتدة :

« كفالك ياريس » (ريس المركب !) ، ابتعد ،
وابعد ذراعيك عنى !
أنت رجل جلد شرير ،
فلماذا تلمسنى ؟
فيقول : « آه ، أيتها الجميلة ، هل أسئ التصرف ؟
فترد : « نعم ، لأننى أكرهك » .

ويتقرب تريستان إلى ايزولد ويحدث بينهما كلام
وعتاب . وفي الطريق يقتربان من الشاطئ طلباً للراحة ،
ويذهب من بالسفينة كل في ناحية ، ويبقى تريستان مع
ايزولد ، ويعطشان ، ويشربان على غير علم من الاناء
الذى به الشراب السحرى ، فإذا بالحب يشتعل في
قلبيهما . (١١٧٤٥ وما بعده) :

فلما أحس تريستان بالحب
فكر على الفور
في الاخلاص والشرف
وأراد أن يحسم الأمر حسماً .
ولكنه ما لبث أن ثار على نفسه وقال :

« دع يا تريستان الأمور تجرى مجراها
ولا تهتم » .

كان قلبه يريد أمراً
وكان هو يصارع إرادته ،
وكان يشتهى ضد رغبته .
كان يريد هذا ، ثم يريد ذاك .
وفي الطريق حاول الرجل الضائع
مراراً وتكراراً

محاولات كثيرة ، واجتهد في الاستقامة طويلاً .
وكان أمره مع الاخلاص
بضطرب بين حالين متلاصقتين قاسيتين :
كان كلما رآها بعينه
بدأ الحب الجميل
بؤجج قلبه ويوقد حسه ،
ثم يفكر في الشرف ، فيصرفه فكره عن الحب ،
ثم ما يلبث الحب أن يعاوده ،
والحب صاحب الأمر والنهى ،
فيتحتم عليه الامثال .

اختلجت في نفسه : الرغبة
والاخلاص والشرف في وقت واحد .
ولكن اختلاج الحب كان أقوى
وكان يحدث به ما هو أشد من الألم ،
وكان يؤرقه

أكثر مما يؤرقه الاخلاص والشرف مجتمعين .
وكان قلبه ينظر إلى الاثنين ويضحك
وتشيع عيناه عنهما .

كان إذا لم يرها
يحس بالقلق أشد القلق .
وكثيراً ما كان يرى نفسه ،
مثل الأسير

الذى يريد الهرب
ثم يعود إلى التفكير ويقول في نفسه :
« قف في وجه هذا ! ورد ذاك !
اصرف هذه الرغبة !

ابعد هذا الحب ! وفكر في شىء آخر »
ولكنه كان إذا تناول قلبه وحسه
وهو في الطريق
وحاول أن يغيرهما
لم يجد فيهما
إلا ايزولد والحب » .

مفاتيح العلوم

للخوارزمي

بمقام
الاستاذ سعيد زايدي

وضع مصطلحات علمهم ، وهم - فوق ذلك - قد يطلقون لفظاً واحداً في علم واحد على معنيين مختلفين ، ما داموا قد ارتضوا ذلك واصطلحوا عليه ؛ وهم كما يستمدون لفظاً من الفصحى فإنهم يستمدون آخر من العامية ، وكما يستعينون باللغة الحية فإنهم يستعينون باللغة الميتة .

والمصطلحات العلمية قديمة قدم العلم ، عرفت أيام قدماء المصريين ، وأيام ازدهار حضارة اليونان والرومان وقد عرفها العرب قبل ظهور الإسلام بقدر ما كان لديهم من علوم محدودة تدور في فلك محدود وتناسب مع حياتهم داخل الجزيرة العربية . وازدهرت بظهور الإسلام وما أتى به من نظم تغلغت في حياتهم الخاصة والعامية ونظمت العلاقات الفردية والعلاقات العامة . فوضعت أسس المعاملة في داخل الأسرة ، وأسست الصلة بين أفراد القبيلة وجمهور الأمة ، بل الإنسانية جمعاء ، وما ينبغي أن يسير عليه الفرد بالنسبة لربه وما تقتضيه العبادات من شروط وأحوال . فكما شرع الرسول صلى الله عليه وسلم أسس الأحكام الدينية ، فقد شرع أيضاً أسس الاصطلاح واستعمال الألفاظ ، فنبتت على يديه بذور الاصطلاحات الفقهية في القرن

١ - المصطلح العلمي هو اللفظ الذي يتفق عليه العلماء ليدلوا به على شيء محدود ، ويميزوا به معاني الأشياء بعضها عن بعض . وهو جزء من المنهج العلمي وركن أساسي في كل علم ، فـ « العلم لغة أحكم وضعها » كما قيل قديماً . فهو لغة التفاهم بين العلماء ، وهو الذي يعين على حسن الأداء ويدور عليه تبادل الآراء والأفكار ، وهو أيضاً النافذة التي يطل منها العلماء على غيرهم من الدارسين والمثقفين ، والأساس الذي يتبلور فيه التعاون بينهم ، إذ هو من ضرورات العلم وإحدى وسائله الهامة في التعليم ونقل المعلومات . فالمصطلحات العلمية تقرب المسافة ، ويختصر الطريق ، وتوضح الدلالة ، وتستساغ الحقيقة العلمية .

والمصطلحات العلمية تتبع بالضرورة تقدم العلوم وازدهارها ، بما يصاحبها من اكتشافات واختراعات . فليس من شك في أن التقدم والتطور - في مجال العلوم - تنتج عنه أشياء جديدة تقتضي مسميات فيصطلح العلماء على تسميتها تسمية توأمت بين المعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي الذي يختارونه أو لا توأمته ؛ فإن العالم حر في اختيار اللفظ الذي يؤدي به الحقيقة العلمية . إذ من البديهي أن علماء كل علم هم ذوو الاختصاص المباشر في

الفرد ، والجوهر والعرض ، والحركة والسكون ،
والجسم والروح ، وهي كلها ألفاظ عربية اختيرت في
دقة متناهية بما يلائم المعاني التي يراد التعبير عنها .

أما عصر الترجمة ، فقد مر بدورين : دور النقل
المعجل إشباءاً للنهم العقلي ، وقد كان من الطبيعي أن
تتسلل في هذا الدور بعض المصطلحات الأعجمية مثل :
هيولى وأسطقس ، وفنطاسيا ، وناموس . . . الخ .
ودور التمحيص والإتقان فيما ترجم ويترجم ، وفيه ظهر
العقل العربي مارداً جباراً مستبصر المدارك مستدير
الملكات ، فراجع ما نقل في هدهود ووضع مصطلحات
عربية خالصة بدلاً من المصطلحات الأعجمية ، بل
جدد وزاد وأبدع وأجاد .

وقد نقل المسلمون عن العبرية والسريانية والفارسية
والهندية واللاتينية واليونانية . وترجموا بعض الكتب
عدة مرات وفقاً للأصول التي عثروا عليها . وغذت
مدارس الإسكندرية وجنديسابور وحران المسلمين
بالكتب والمترجمين من مسيحيين ويهود وصابئة وهنود
وفرس . وقد تكونت بفضل الترجمة مصطلحات علمية
في الطب والكيمياء والفلسفة والمنطق والسياسة وجميع
العلوم التي ترجمت . واعتمد المترجمون في هذا المجال
على اللغة العربية أولاً ، فاستعملوا الحجاز باستعارة ألفاظ
ذات دلالات لغوية معروفة ، وشاءوا لها تأدية معاني
جديدة ، ولجأوا في بعض الأحيان إلى العلوم الأسبق
تكويناً مستعملين بعض مصطلحاتها للتعبير عن المعاني
الجديدة ، وبذا ظهر بعض المصطلحات المشتركة بين
العلوم المختلفة عند المسلمين ، كما أشار الخوارزمي ،
وكما سنين ذلك في جزء لاحق من هذا الفصل إن شاء
الله .

ولم يقف العرب عند هذا ، بل نحتوا ، واشتقوا ،
واستعملوا المصدر الصناعي . فقالوا بالهوية والماهية
وما إلى ذلك ، وضموا « لا » النافية ليشيوا لفظاً جديداً

الأول للهجرة ، وذلك بنقله بعض الألفاظ من معانيها
اللغوية إلى حقائق عرفية شرعية . وقد ظهرت آثار هذا
النبت وأينعت في القرن الثالث الهجري بفضل المدنية
التي ازدهرت من أواخر القرن الثاني الهجري فأثرت
في كل شيء بما في ذلك تفكير الناس وتعبيرهم ،
وبفضل التدوين ، فإن التدوين يستلزم تحديد المعاني في
ألفاظ تدون للدلالة عليها . ويقتضى صيغ الأحكام
بالصبغة العلمية . ولقد كان للاختلاف بين فقهاء
الحجاز وفقهاء العراق أثره الواضح في إمعان النظر في
أدلة الأحكام ومصادرها وتحديد ما يدل عليه الدليل
وتمييزه عن غيره . وقد أدى ذلك إلى وضع كثير من
المصطلحات التي كونت ثروة ضخمة ظهر أثرها جلياً
في دراسة العلوم القانونية باللغة العربية .

وكما أثرت مدنية الإسلام في الدراسات الفقهية ،
فقد ظهر أثرها أيضاً في العلوم الأخرى . فنشأت
دراسات أسفرت عن علوم واضحة المعالم منهجية
الأسس في اللغة والدين والقرآن والحديث والشريعة
بصفة عامة ، علوم تداولها العلماء وعلموها لطلابهم
وذخرت بالمصطلحات العلمية .

ولقد كان لمدرسة المفكرين الأحرار في الإسلام
وهي مدرسة المعتزلة بحوث عقلية هدفها الملاءمة بين
العقل والنقل . فكان من الطبيعي أن تظهر في كتاباتهم
مصطلحات واضحة ذات مفهوم محدد ، استعملوها
في مجادلاتهم وسجلوها في كتبهم ، مثل كتاب المغني
لشيخهم القاضي عبد الجبار الهمداني الذي نشرت
أغلب أجزائه أخيراً . فن أصولهم الخاصة اصطلاحات
العدل والتوحيد ، والوعد والوعيد ، وما يتبعها من
الصلاح والأصلح والحسن والقبيح العقليين والجبر
والاختيار وما إلى ذلك ؛ ثم المنزلة بين المنزلتين ، والقول
بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد تبني الفلاسفة المسلمون ، بعد ذلك ، كثيراً
من مصطلحاتهم مثل الجزء الذي لا يتجزأ أو الجوهر

فقالوا باللاأدرية واللاهائية وهو ما يسمى بالتركيب المزجي .

وهكذا نرى أن العرب قد لجأوا في مصطلحاتهم العربية والدخيلة إلى المحاز والاشتقاق والترجمة والتعريب ولم يستعينوا بالنحت إلا في النادر ، ولجأوا أيضاً إلى التركيب المزجي .

وهناك كتب كثيرة تناولت المصطلحات العربية ، منها كتب عامة أى تعرضت لمجموعة من العلوم ، وكتب خاصة تخصصت في فن معين . ونذكر منها على سبيل المثال - لا الحصر - كشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى المتوفى سنة ١١٥٨ هـ ، وكليات العلوم لأبي البقاء الحسينى المتوفى سنة ١٠٩٤ هـ ، والتعريفات للجرجاني المتوفى سنة ٨١٦ هـ ، والبصائر النصيرية في علم المنطق للساوى المتوفى سنة ٣٨٠ هـ . وكتاب مفاتيح العلوم للخوارزمي .

٢ - حياة الخوارزمي

إن الخوارزمي الذى نقصده هنا ، هو أبو عبدالله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب البلخي الخوارزمي ، وهو باحث من أهل خراسان . وقد قال عنه ابن خلكان في « وفيات الأعيان » والمقريزي في « خطط المقريزي » إنه محمد بن أحمد بن يوسف ، وانفرد المقريزي بإضافة لقب « البلخي » بدلا من قوله « الخوارزمي » . وهو عالم آخر غير أبي عبدالله محمد بن موسى الخوارزمي ، الرياضى المعروف ، والذى عاش في النصف الأول من القرن الثالث الهجرى . إذ أن عالمنا هذا عاش في القرن الرابع الهجرى ، وألف كتابه الوحيد وأهداه إلى أبي الحسن عبيدالله بن أبي السبي الذى كان وزيراً من وزراء نوح الثانى السامانى ، فقد كان يشغل منصباً إدارياً في بلاطه بنيسابور من سنة ٣٦٦ حتى سنة ٣٨٧ هـ .

وبقدر ما ذخرت المراجع العامة بأخبار محمد ابن موسى الخوارزمي ، وأفاضت في ذكر أخباره وكتبه ، فقد ضنت على محمد بن أحمد بن يوسف الخوارزمي ، فلم يذكر أغلبها عنه شيئاً ؛ والذى ذكر عنه لم يزد على مقتطفات هزيلة ، وكذلك الحال بالنسبة للمراجع الأجنبية التى حفلت بذكر أخبار العالم الأول . فقد نال شهرة عظيمة عند الإفرنج ودخل اسمه المعاجم الإفرنجية فقيلاً : *Algorismus Guarismo Algorithm* . وقد تعلم أهل الغرب علم الحساب عن كتابه في الحساب بعد أن ترجم إلى اللاتينية وعن كتب أخرى بنيت على هذا الكتاب . وقد نشر فرديريك روزن النسخة العربية لكتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي سنة ١٨٣١ م وطبعها في لندن ونشر معها ترجمة إنجليزية له مع تعليق باللغة الإنجليزية . وبعد ذلك ترجم « مار » الفصل الخاص بالمساحات معتمداً على النسخة التى حققها روزن . وفى سنة ١٩١٥ نشر كاربنسكى ترجمة عن النسخة اللاتينية التى ترجمها روبرت أوف تشستر عن الأصل العربى . هذا ، وقد حقق الكتاب المرحوم الدكتور على مصطفى مشرفة والدكتور محمد مرسى أحمد عن نسخة محفوظة بأكسفورد ، ونشر هذا التحقيق في القاهرة سنة ١٩٣٧ . وللخوارزمي هذا غير كتاب الحساب وكتاب الجبر والمقابلة كتاب في تقويم البلدان شرح فيه آراء بطليموس وكتاب رابع جمع بين الحساب والهندسة والموسيقى والفلك . (الدليل البيولوجرافى . ط . مركز تبادل القيم الثقافية ، ص ٣٢٠ ، القاهرة ١٩٦٥) .

ويقول فان فلوطن *G. Van Vloten* الذى نشر كتاب « مفاتيح العلوم » في ليدين في يناير سنة ١٨٩٥ وقدم له باللغة اللاتينية إن الخوارزمي (أبو عبدالله محمد ابن أحمد بن يوسف) كان يستعمل مقاييس وأوزان أهل خراسان في إشرافه على توزيع المياه في مرو . وكان الخوارزمي على علم تام باللغة الفارسية ، فقد كان يرجع الكلمات العربية إلى أصلها الفارسى . ومن المحتمل أنه

الخطوط ولا عن المكان الذى حفظ فيه . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإننا لا نستطيع القول بأن هذا النشر محقق ، فهو لا يعدو أن يكون طبعاً للمخطوط كما هو بدون تعليق أو شرح أو حتى تصحيح .

وليس صحيحاً أن هذا النشر هو الأول كما ذكرت طبعة القاهرة ، إذ أن كتاب مفاتيح العلوم طبع طبعة علمية أخرى منذ أكثر من سبعين عاماً فى ليدن ، بتحقيق فان فلوطن G. Van Vloten فى يناير سنة ١٨٩٥م معتمداً فى نشره على خمس مخطوطات ، متخذاً مخطوطة ليدن أساساً ، ومراجعاً لها على أربع مخطوطات أخرى : ثلاث مخطوطات من المتحف البريطانى ، والرابعة هى مخطوطة برلين التى توجد ضمن مجموعة لانديج . وقد قدم له الناشر مقدمة ضافية ، وإن لم يذيله بفهرس عام كما فعلت نشرة القاهرة ، اكتفاء بالتقسيم الذى ذكره المؤلف فى أول الكتاب للمقالات والأبواب والفصول وقد وقعت نشرة فلوطن فى ثلاثمائة وثمان وعشرين صفحة من القطع الكبير ، منها مائتان وستة وستون صفحة للنص ، وثلاث وخمسون صفحة للمصطلحات التى وردت فى الكتاب ، وتسع صفحات لأسماء البلدان عدا مقدمة باللغة اللاتينية فى سبع صفحات .

هذا ، وقد نشرت الألفاظ الاصطلاحية التاريخية التى وردت فى الكتاب فى المجلد السابع من المحلة التاريخية المصرية سنة ١٩٥٨ مذبوطة محققة بمعرفة الدكتور يحيى الخشاب والدكتور الباز العرينى ومقدماتها بقلم المرحوم الأستاذ محمد شفيق غربال . وقد انفرد الدكتور يحيى الخشاب بضبط الفصلين الأول والثانى من الباب الثانى من المقالة الأولى المختص بعلم الكلام : وموضوع الفصل الأول « فى مواضع متكلمى الإسلام » ، وموضوع الفصل الثانى « فى ذكر أسامى أرباب الآراء والمذاهب الإسلامية » . وأورد شروحاً على ما ورد فيها من مصطلحات من كتب : كشاف اصطلاحات الفنون للهانوى ، وكتاب تبصرة العوام فى معرفة مقالات

كان يعرف شيئاً من اللغات اليونانية والسريانية والنسكربتية . ومما لا شك فيه أن معرفته بهذه اللغات أفادته من مؤلفات العلماء أمثال أفليدس ونيقوماخوس وهيرو وفيلون . غير أنه لم تكن من عاداته ذكر أسماء المراجع التى اعتمد عليها إلا فيما ندر ، عدا ما يتعلق بالخليل بن أحمد الذى جاء ذكره فى كتابه ثلاث عشرة مرة ؛ وذكر أيضاً أسماء ابن درستويه والأصمعى وابن المقفع ورسائل إخوان الصفاء .

ولم تذكر المراجع تاريخ مولد الخوارزمى ؛ واتفق أغلبها على ذكر تاريخ الوفاة ، فقد ذكر المستشرق فيدمان E. Wiedemann فى دائرة المعارف الإسلامية وحاجى خليفه فى كشف الظنون وفان فلوطن G. Van Vloten فى مقدمته لمفاتيح العلوم وبروكلمان فى تاريخ الآداب العربية وجورج سارتون فى المدخل إلى تاريخ العلوم Introduction to the History of Science أن الخوارزمى توفى سنة ٣٨٧ هـ . ولكن البغدادي فى كتابه تاريخ العارفين قال إنه توفى حوالى سنة ٣٨٠ هـ . وفى رأينا أن التاريخ الأول هو الأصح إذ أنه ظل يعمل فى بلاط نوح الثانى السامانى من سنة ٣٦٦ هـ حتى سنة ٣٨٧ هـ .

٣ - مفاتيح العلوم

لم يدلنا أى مرجع من المراجع العامة التى تحدثت عن الخوارزمى أن له كتاباً آخر غير كتاب مفاتيح العلوم . وقد نشر الكتاب فى القاهرة سنة ١٣٤٢ هـ أى منذ ثلاثة وأربعين عاماً فى مائة وخمسين صفحة من القطع الكبير ، وذييل بفهرس عام فى أربع صفحات . ولم يكتب على غلافه إلا العبارة التالية التى تقول « عنى بتصحيحه ونشره للمرة الأولى سنة ١٣٤٢ هـ إدارة المطبعة المنيرية » . وقد قام النشر على نسخة خطية مكتوبة بخط نسخ منقوط واضح القراءة ، على ما يبدو من إحدى ورقات المخطوط التى صورت وظهرت فى أول الكتاب . ومن أسف لم يكشف الناشر عن اسم

القصيرة التي قدم بها الكتاب . ومفاتيح العلوم - كما يتبين من اسمه - يعد مدخلاً للعلوم ومفتاحاً لأكثرها . ويتحدث عن الألفاظ المصطلح عليها في كل علم والتي تواضع عليها العلماء واتفقوا على معانيها والمجال الذي تستعمل فيه ، وهي ألفاظ - كما يقول الخوارزمي - خلقت منها أو من أجلها كتب اللغة . وقد تحرى في مصطلحاته « الإيجاز والاختصار ، وتوقى التطويل والإكثار ، وابتعد عن ذكر المشهور والمعروف بين الجمهور ، وكذلك الغامض الغريب الذي يحتاج إلى شرح طويل وتفسير كثير » .

وقد قسم الخوارزمي « مفاتيح العلوم » إلى مقاليتين : تحتوى المقالة الأولى على ستة أبواب ، فيها اثنان وخمسون فصلاً ؛ وتحتوى المقالة الثانية على تسعة أبواب ، فيها واحد وأربعون فصلاً ؛ وبذلك يكون الكتاب كله يحتوي على خمسة عشر باباً ، فيها ثلاثة وتسعون فصلاً . وقد خصص المقالة الأولى بالعلوم الأدبية أو ما يغلب عليها روح الأدب من فقه وعلم كلام ونحو وكتابة دواوين وشرع وعروض وأخبار . وخصص المقالة الثانية بالعلوم التي تغلب فيها روح العلم من فلسفة ومنطق وطب وحساب وهندسة وعلم النجوم وموسيقى وحيل وكيمياء .

ويبدأ الخوارزمي كتابه بالحديث عن الفقه في الباب الأول من المقالة الأولى ، فيتكلم في أصول الفقه والطهارة والصلاة والصوم والزكاة والحج وشروطه والبيع والنكاح والديات والفريضة والنواذر . فهو في أصول الفقه يذكر أنها ستة أصول : ثلاثة متفق عليها وهي الكتاب والسنة والإجماع ، وثلاثة مختلف فيها وهي القياس والاستحسان والاستصلاح ؛ وهو في كل ذلك يضع شروحاً وتعريفات توضح السبيل لمن يشتغل بعلم الأصول . أما فيما يتعلق بالطهارة ، فيعرف الخوارزمي الماء المضاف ، والماء المطلق ، والماء المستعمل ، وسور الكلب ، والتحرى ، والاستنثار . وفي فصل

الأنام للسيد المرتضى ، والترجمة العربية لكتاب بيان الأديان ، وكتاب الملل والنحل للشهرستاني ، والترجمة العربية لكتاب شرفنامه ، وكتاب الزيدية ومنشأ نحلهم لأحمد تيمور ، وكتاب تاريخ الزيدية وأصل عقيدتهم لعباس العزاوي ، وكتاب مختصر كتاب الفرق بين الفرق للبيهقي ، ومختصر كتاب الفرق بين الفرق للبيهقي بقلم عبد الرازق بن رزق الله الرسغني ، وكتاب الفهرست لابن النديم ، وكتاب أصل الشيعة وأصولها للشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء ، وكتاب تنسیر ترجمة يحيى الخشاب عن الفارسية ، وكتاب التبصير في الدين للاسفرائيني ، وكتاب ناصر خسرو (بالفرنسية) ليحيى الخشاب ، وغير ذلك من المراجع .

واشترك الدكتور يحيى الخشاب مع الدكتور الباز العريبي في ضبط وتحقيق الفصل الخامس من الباب الثاني من المقالة الأولى أيضاً ، وعنوانه « في أسامي أرباب الملل والنحل المختلفة » ، والفصل السادس الذي يتكلم عن « عبدة الأصنام من العرب وأسماهم أصنامهم ، والباب الرابع بأكمله ويحتوي على ثمانية فصول تناول الكلام عن الألفاظ التي تستعمل في كتابة الدواوين كديوان الخراج وديوان الخزن وديوان البريد وديوان الجيش وديوان الضياع والنفقات وديوان الماء ، ومواصفات كتاب الرسائل ؛ وكذلك الفصول الأول والثالث والسادس والثامن والتاسع من الباب السادس الذي يتكلم في الأخبار فيذكر ملوك الفرس وألقابهم وملوك اليمن في الجاهلية وألقابهم ، ويذكر بعض الألفاظ التي يكثر جريها في أخبار الفرس وأخبار عرب الإسلام وملوك عرب الجاهلية وملوك الروم . وقد قام الدكتور يحيى الخشاب بضمبط وتحقيق الألفاظ الفارسية وقام الدكتور الباز العريبي بضمبط وتحقيق الألفاظ العربية معتمدين على بعض المراجع العامة .

قلنا إن الخوارزمي كتب كتابه للوزير أبي الحسن عبيد الله بن أحمد العتبي . وقد بين ذلك في المقدمة

أقسام الفلسفة وأصنافها ، وفي الفصل الثاني عن « جمل ونكت عن العلم وما يتصل به » ، وفي الفصل الثالث عن « ألفاظ ومواضع يكثُر جريها في كتب الفلسفة » أما فيما يتعلق بأقسام الفلسفة ، فيبدأ الخوارزمي الكلام فيها بأن كلمة الفلسفة مشتقة من كلمة يونانية وهي فيلاسوفيا وتفسيرها محبة الحكمة ، « ومعنى الفلسفة علم حقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح » . ثم قسمها قسمين : جزء نظري ، وآخر عملي . والنظري له ثلاثة أقسام : قسم يفحص فيه عن الأشياء التي لها عنصر ومادة ويسمى علم الطبيعة ، وقسم يفحص فيه عن ما يخرج عن العنصر والمادة ويسمى علم الأمور الإلهية ، وقسم يفحص فيه عن أشياء موجودة في المادة لا عن أشياء لها مادة مثل المقادير والأشكال والحركات ويسمى العلم التعليمي والرياضي . وهذا القسم متوسط بين العلم الأعلى وهو الإلهي وبين العلم الأسفل وهو الطبيعي . ثم يتناول الخوارزمي الفلسفة العملية فيقسمها إلى ثلاثة أقسام أيضاً : القسم الأول هو علم الأخلاق ، والثاني تدبير المنزل ، والثالث السياسة . ويرجع المؤلف مرة أخرى إلى الفلسفة النظرية ليذكر الفروع التي تقع تحت أقسامها ، فيذكر أن العلم الطبيعي يندرج تحته علم الطب وعلم الآثار العلوية وعلم المعادن والنبات والحيوان وجميع طبائع الأشياء التي تقع تحت فلك القمر ، وكذلك صناعة الكيمياء . ويذكر أن العلم التعليمي والرياضي ينقسم إلى أقسام أربعة : الأريثماتيقي أي علم العدد والحساب ، والجومطريا أي علم الهندسة ، والاسطرونوميا أي علم النجوم ، وعلم الموسيقى . هذا فيما يتعلق بأقسام العلم الطبيعي والعلم التعليمي . أما العلم الإلهي فقد أفرده الخوارزمي فصلاً خاصاً به سماه « في جمل العلم الإلهي » ، فذكر أن « الله تبارك وتعالى وعز وعلا هو موجد العالم وهو السبب الأول والعلّة الأولى وهو الواحد والحق ، وما سواه لا مخلو من كثرة من جهة أو جهات ، وصفته الخاصة أنه واجب الوجود ، وسائر الموجودات

الصلاة والأذان يعرف الثوب والترجيع والتحريم والتشهد . ويتحدث عن الصوم فيعرف الفلس والاعتكاف ، والفجر الأول ، والفجر الثاني . ثم يعرف - عند الكلام على الزكاة - الورق ، والنصاب ، والركاز ، والكسعة ، وما إلى ذلك من أوزان ومكاييل تستعمل في مجال الفرض الثالث من فروض الإسلام وعندما يتكلم عن الحج يعرف القران ، والتمتع ، والإفراد ، والاستلام ، والهدى ، والتجمير . وفي الفصل السابع يتكلم عن البيع والشركة ، فيعرف بيع الغرايا ، وبيع الغرر ، وبيع المزبنة ، وبيع المحاقلة ، وبيع النجش ، وبيع المضاربة . ثم يتناول الكلام عن النكاح والطلاق في الفصل الثامن ، فيعرف زواج الشغار ، وزواج المتعة ، وطلاق الظهار ، والإيلاء ، والملاعة ، والقرء ، والاستبراء ، والحلل . ويتكلم عن الدييات في الفصل التاسع ، فيعرف الغرة والقسامة ، والأرش والشجاج . وفي الفصل العاشر يتكلم في الفريضة فيعرف العسبة ، والكلالة ، والأكدرية ، ثم يعرف التناسخ في مجال الوراثة . وعندما يتكلم عن النوادر في الفصل الحادي عشر يعرف اليمين ، والنكول ، والجرح والحجر والتدبير ، والمكاتب ، والتعجيز ، والرقبي .

وهكذا يسر الخوارزمي فيما يتعلق ببقية أبواب وفصول المقالة الأولى من كتابه ، فيعرف المصطلحات التي ترد في علوم اللغة والكلام والنحو والشعر والعروض والأخبار .

أما المقالة الثانية من « مفاتيح العلوم » فهي - كما قلنا - تتناول الفلسفة والمنطق والطب وعلم العدد والهندسة وعلم النجوم وعلم الموسيقى وعلم الحيسل والكيمياء . ويبدأ الخوارزمي مقالته هذه بالكلام في الفلسفة ، وقد اعتبرها من علوم العجم وهي العلوم التي وقف عليها هذا الجزء من كتابه ، وقد قسم الباب الخاص بها إلى ثلاثة فصول : تكلم في الفصل الأول عن

ممكنة الوجود» . ثم عرف العقل الفعال بأنه القوة الإلهية التي يهتدى بها كل شيء في العالم العلوى والسفلى من أفلاك وكواكب وجاد وحيوان وإنسان . وعرف أيضاً العقل الهبولانى ، والنفس ، والنفس الكلية ، والنفس العامة . ومخلص الخوارزمى بعد ذلك إلى الفصل الثالث الذى خصه بالألفاظ التي تذكر كثيراً في الفلسفة ، فعرف الهبولى ، والصورة ، والأسطقس ، والكيفيات الأولى ، والمكان ، والحلاء ، والزمان ، والمدة ، والجسم الطبيعى ، والجسم التعليمى ، والتجزؤ الطبيعى ، والتجزؤ التعليمى ، وفنطاسيا التي قال فيها إنها القوة الخيلة من قوة النفس وهي التي يتصور بها المحسوسات في الوهم وإن كانت غائبة عن الحس وتسمى القوة المتصورة والمصورة . وعرف أيضاً الأرواح عند الفلاسفة ، ورأى أنها ثلاثة أقسام : الروح الطبيعية وتشترك بين الحيوان والنبات ، والروح الحيوانية وتشترك بين الحيوان الناطق وغير الناطق ومكانها القلب والروح النفسانية وهي تخص الإنسان ومكانها الدماغ . ثم عرف الكون والاستحالة والإرادة والمحال والكيان والنواميس .

أما الباب الثانى من المقالة الثانية فقد خصه الخوارزمى بالكلام في المنطق وقسمه إلى تسعة فصول : تكلم في الفصل الأول عن لإساغوجى أى المدخل ، والثانى عن قاطيغورياس أى المقولات ، والثالث عن بارى ارمينياس أى العبارة ، والرابع عن أنولوطيقا أى القياس ، والخامس عن أفودقيقى أى البرهان ، والسادس عن طوبيقى أى الجدل ، والسابع عن سوفسطيقى أى السفسطة ، والثامن عن ريطوريقى أى الخطابة ، والتاسع عن بيوطيقى أى الشعر . ويلاحظ أنه اتبع التقسيم التقليدى لأجزاء المنطق الذى عرف منذ أرسطو وسار عليه فلاسفة الإسلام ، وما كان له أن يفعل غير هذا ، وهو الذى لا يهتم بالموضوع بقدر اهتمامه بالمصطلحات الواردة في العلم .

وقد تناول المؤلف في الباب الثالث من هذه المقالة موضوعات الطب في سبعة فصول : فتكلم في الفصل الأول عن التشريح كما عالج الأمراض والأدواء والأغذية ثم الأدوية المفردة والمركبة وأوزان الأطباء ومكاييلهم في بقية فصول هذا الباب . وقد عرف الشرايين والعروق والعضلات والأعصاب والمشيمة والشبكية والقرنية والاثني عشر وغيرها ، كما عرف من الأمراض السمنة والهبرية والبهق والحصف والقوباء والجذام والسح والسرطان والصرع والبرقان ، كما تكلم عن الأدوية المفردة فقال : إنها إما نباتية وهي ثمر أو جذور أو زهر أو ورق أو قصبان أو أصول أو قشور أو عصارات أو ألبان أو صموغ ؛ وإما معدنية ، وإما حيوانية ، وشرح الأفاقد والسنبل الهندى والميعة والساذج والضرو والجنطايانا والبيروج وعصى الراعى وعنب الثعلب ولسان الثور .

وفي الباب الرابع تعرض الخوارزمى لموضوعات الأريماطيقى ، فعرف الكمية المفردة والكمية المضافة والأعداد والنسبة وحساب الهند وحساب الجمل ومبادئ الجبر والمقابلة .

وتناول في الباب الخامس الهندسة وعالج موضوعاتها في أربعة فصول : الأول في مقدمات الصناعة ، والثانى في الخطوط ، والثالث في البسائط ، والرابع في المحسمات .

وتحدث في الباب السادس عن علم النجوم ، فعرض أسماء النجوم السيارة والثابتة وصورها وتركيب الأفلاك وآلات المنجمين كالاسطرلاب وأنواعه المختلفة من هلالى وكروى وزورقى وصدقى وغيرها .

وخص الباب السابع بالموسيقى وآلاتها وإيقاعاتها . والباب الثامن بالحيل من نحو جر الأثقال بالقوة اليسيرة وآلاته ، وآلات الحركات .

وختم الخوارزمى كتابه بالباب التاسع من المقالة الثانية وخصه بالكيمياء وقسمه إلى فصول ثلاثة : فصل

في آلات الصناعة ، وآخر في العقاقير والأدوية من
الجواهر والأحجار ، وثالث في تدبيرات هذه الأشياء
ومعالجتها .

والخوارزمي في جميع فصول كتابه يعرف
المصطلحات تعريفات مختصرة أحياناً ، أو تعريفات
تقرب من الشروح أحياناً أخرى ، وإن كان إلى المنهج
الأول أميل . وهو في تعريفاته على العموم يراعى الدقة
والإيجاز ويضع اللفظ في مكانه المناسب ويستخدم
التعابير العلمية .

ومما لا شك فيه أن الخوارزمي في كتابه « مفاتيح
العلوم » يعد من العلماء المستقرئين ذوى الاطلاع الواسع
والقراءة الشاملة ؛ فقد اطلع على ما كتبه غيره من علماء
وفقهاء وفلاسفة ومتكلمين ، واستخلص تعريفاته من
مجالات استعملهم لها ؛ وهذا شأن من يريد أن يبرز
المصطلح العلمى في الحقل الثقافى ، فهو يهتم أساساً بما
تواضع عليه علماء كل علم وبما اصطالحوا عليه ،
وباللفظ الذى نال حياة فى كتاباتهم ، ثم يسجل هذا
كله فى قاموس مصطلحاته . فالمهمة الأساسية لواضع
القاموس الاصطلاحى هى التسجيل بالإضافة إلى الثقافة
الواسعة والتزام المنهج العلمى فى التبويب ، وهو
ما نلاحظه فى كتاب مفاتيح العلوم وما يبدو واضحاً فى
فصوله المختلفة . فإنه يذكر المصطلح الواحد فى أماكن
متفرقة فى كتابه حسب التبويب الذى سار عليه ،
ويفرق - بالطبع - بين استعماله عند طائفة من أهل العلم
وبين طائفة أخرى غيرهم . فهو فى الفصل الأول من
الباب الثانى من المقالة الأولى الذى خصه بالكلام عن
« مواضع متكلمى الإسلام » يذكر تعريف « الشيء »
عند المتكلمين بأنه « ما يجوز أن يخبر عنه وتصح الدلالة
عليه » . وفى مكان آخر من الكتاب يذكر أن « الشيء »
فى كلام أهل الجبر والمقابلة هو الجذر المجهول » وذلك
فى الفصل الخامس الذى عنوانه « فى وجوه الحسابات »

من الباب الرابع من المقالة الثانية عند الكلام فى
الأريثمطيقى .

ويعرف « المعدوم » - عند المتكلمين - بأنه
« ما يصح أن يقال فيه هل يوجد ، والمعدوم هو المنتفى
الذى ليس بكائن ولا ثابت » ؛ ويقول بصدده - فى
مجال الكيمياء - « إن الخارصينى جوهر غريب شبيه
بالمعدوم » .

ويعرف « الجوهر » - عند المتكلمين بأنه « المحتمل
للأحوال والكميات المتضادات » ويعرفه - عند
الفلاسفة - بأنه « كل ما يقوم بذاته كالسما والكوكب
والأرض وأجزائها والماء والنار وأصناف النبات والحيوان
وأعضاء كل واحد منها » .

ويذكر معنى « الاسم » - عند النحويين - بأنه
أحد أجزاء الكلام الثلاثة . ثم يذكره - عند المنطقيين -
بأنه « كل لفظ مفرد يدل على معنى ولا يدل على زمانه
المحدود ، كزيد ونخالد » .

ويعرف « الخط » - عند المتكلمين - بأنه « المجتمع
من الجواهر طولاً فقط » ؛ ويقول - عند الكلام فى
الأعداد المسطحة والمجسمة - « إن الواحد بمنزلة النقطة
لأنه لا ينقسم ، الاثنان بمنزلة الخط لأنهما لا ينقسمان
إلا مرة واحدة ، كما أن الخط لا ينقسم إلا طولاً » .
وفى مجال علم الجغرافيا يعرف خط الاستواء قائلاً : إن
« خط الاستواء من الأرض هو الخط الذى يقابل معدل
النهار ، وهو حيث يرى القطبان الجنوبي والشمالى
ملاصقين للأرض ، والليل والنهار مستويان فيه أبداً » .
وعند الكلام « فى آلات المنجمين » يقول : « إن خط
الاستواء هو الخط المقسوم الآخذ من المشرق إلى
المغرب المار على مركز الصفيحة . وخط نصف النهار
هو الخط الذى يقطع خط الاستواء على زوايا قائمة
وابتداؤه من العروة » .

ويُعرف « الرجعة » عند الشيعة - بأنها عند بعضهم
« رجوع الإمام بعد موته » ، وعند بعضهم الآخر

— في المنطق — « اسم للمقولة السابعة ويسمى النصبه وهي مثل القيام والعود . . . » .

هذه بعض المصطلحات التي وردت في كتاب « مفاتيح العلوم » والتي تستعمل في علوم مختلفة ، سقناها للدلالة على مدى الدقة التي وصل إليها المصطلح العلمي عند القدماء ، ومدى وضع المعنى الاصطلاحي في تعبير موجز دال ، ومدى أهمية كتاب الخوارزمي في محاولة دراسة شاملة للمصطلحات العلمية عند العرب . وإن المتأمل فيها ليروعه تلك العقلية الفذة التي كان لها أثر واضح في كل مجالات العلم الموضوعية وكيف امتد هذا الأثر إلى المجال الاصطلاحي .

٤ — منتخبات من الكتاب

١ — في أصول الفقه : أصول الفقه المتفق عليها ثلاثة : كتاب الله عز وجل ، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإجماع الأمة . والمختلف فيها ثلاثة : القياس ، والاستحسان ، والاستصلاح . فأما كتاب الله سبحانه ، فإن سبيل الفقيه أن يعرف تأويله ووجوه الخطاب فيه من الخصوص والعموم ، والناسخ والمنسوخ ، والأمر والنهي ، والإباحة والحظر ، ونحوها مما شرح في التفاسير وكتب الدين . وأما سنة الرسول صلى الله عليه وسلم فهي ثلاثة أضرب : أحدها القول ، والثاني الفعل ، والثالث الإقرار . فالقول ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال . والفعل ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه فعله . والإقرار ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه أقر عليه قومه ولم ينكره عليهم . ثم من الأخبار (خبر التواتر) وهو ما رواه جماعة من الصحابة وقد اتفق عامة الفقهاء على قبوله . ومنها ما هو (خبر الواحد) وهو ما يرويه الرجل الواحد من الصحابة ، وأكثر الفقهاء يقولون بقبوله على شرائط يطول الكلام بذكرها . ومن الحديث ما هو متصل ، وهو الذي إلى النبي صلى الله عليه وسلم

« رجوعه بعد غيبته » . ويقول عنها — عند علماء الفلك — « بأن رجوع الكواكب ورجعتها هو سيرها طولاً على خلاف نضد البروج » . ويعرفها — في ألفاظ ديوان الكتابة — بأنها « حساب يرفعه المعطى في بعض العساكر بالنواحي لطمع واحد إذا رجع إلى الديوان » ، و « الرجعة الجامعة يرفعها صاحب ديوان الجيش لكل طمع من صنوف الاتفاق » .

ويعرف « الردف » — في علم العروض — بأنه « حرف لين قبل الروى مثل ياء . . . » ، ويعرفه — في علم الأخبار — بأنه « هو خليفة ملك الحيرة وكان له المربع من الغنائم وكان يجلس على يمين الملك ويشرب بغيره قبل الناس كلهم ، والردافة هي الخلافة » . ويقول عنه — في المنطق — بأن « النتيجة ما ينتج من مقدمتين كقولك كل إنسان حي ، وكل حي نام ، فنتيجة ما بين المقدمتين كل إنسان نام ، ويسمى الردف أيضاً » .

ويعرف « الضرب » — في علم العروض — بأنه « الجزء الأخير من البيت » ، ويعرفه — في الأريباطيقي — بأنه « تضعيف أحد العددين بأحد الآخر » .

ويعرف « العرض » — في الفلسفة — بأنه « ما يتميز به الشيء عن الشيء لا في ذاته ، كالبياض والسواد والحرارة والبرودة ونحو ذلك » ، ويعرفه — في علم الكلام — بأنه « أحوال الجوهر ، كالحركة في المتحرك ، والبياض في الأبيض ، والسواد في الأسود » .

ويعرف « القلس » — في الفقه — بأنه « هو ما خرج من الحلق ملء الفم أو دونه » ، ويعرفه — في علم الحيل — بأنه « الحبل الغليظ الذي يشد به السفن وغيرها » .

ويعرف « القول » — في الفقه — بأنه « ما روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قاله » ، ويعرفه — في المنطق — بأنه « ما تركب من اسم » .

ويعرف « الوضع » — عند كتاب ديوان الجيش — بأنه « يخلق على اسمه فيوضع عن الجريدة » ، وهو

الرابع المجبرة وهم خمس فرق . . والمذهب الخامس مذهب المشبهة وهم ثلاث عشرة فرقة . . والمذهب السادس المرجئة وهم ست فرق . . . والمذهب السابع مذهب الشيعة وهم خمس فرق .

٤ - في وجوه الإعراب على مذهب فلاسفة اليونانيين - الرفع عند أصحاب المنطق من اليونانيين واو ناقصة : وكذلك الضم وأخواته المذكورة . والكسر وأخواته عندهم ياء ناقصة . والفتح وأخواته عندهم ألف ناقصة . وإن شئت قلت الواو الممدودة اللينة ضمة مشبعة والياء الممدودة اللينة كسرة مشبعة والألف الممدودة فتحة مشبعة وعلى هذا القياس . الروم والإشمام نسبتها إلى هذه الحركات كنسبة الحركات إلى حروف المد واللين أعنى الألف والواو والياء .

٥ - قانون الخراج أصله الذي يرجع إليه وتبني الجباية عليه وهي كلمة يونانية معربة . الرزنامج تفسيره كتاب اليوم لأنه يكتب فيه ما يجري كل يوم من الخراج أو نفقة أو غير ذلك . . . الموافقة والجماعة حساب جامع يرفعه العامل عند فراغه من العمل ولا يسمى موافقة ، ما لم يرفع باتفاق بين الرافع والمرفوع إليه فإن انفرد به أحدهما دون أن يوافق الآخر على تفصيلاته سمي محاسبة .

٦ - الفئ ما يؤخذ من أرض العنوة . . الخراج ما يؤخذ من أرض الصلح . . . العشر ما يؤخذ من زكاة الأرض التي أسلم أهلها عليها والتي أحيها المسلمون من الأرضين أو القطنع . . . صدقات الماشية هي زكاة السوائم من الإبل والبقر والغنم دون العوامل والمعلوفة .

٧ - التسبيب أن يسبب رزق رجل على مال متعذر ليعين المسبب له العامل على استخراجها فيجعل ورداً للعامل وإخراجاً إلى المرتزق بالقلم . . . الحبة سدس سدس مثقال ، وإن شئت قلت ربع تسع مثقال ، والدينار ست وثلاثون حبة ، والشعيرة ثلث الحبة ،

واحد عن آخر من غير أن ينقطع ، والمرسل والمنقطع ما يرويه أحد التابعين الذين لم يروا النبي صلى الله عليه وسلم ، مثل الحسن البصرى وابن سيرين وسعيد بن المسيب ، ويقول : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم من غير أن يذكر من حدثه به عنه - وقد قبله كثير من العلماء وزيفه بعضهم . وأما الإجماع فهو اتفاق الصحابة من المهاجرين والأنصار . وكذلك اتفاق العلماء في الأمصار في كل عصر دون غيرهم من العامة . وأما القياس فقد قال به جمهور العلماء غير داود بن علي الأصفهاني ومن تبعه . والقياس نوعان : قياس علة ، وقياس شبه . فقياس العلة أن تجمع المقيس والمقيس به علة ، وقياس الشبه أن لا تجمع المقيس والمقيس به علة ولكن يقاس به على طريق التشبيه . وكثير من الفقهاء لا يفرقون بينهما . وطرده العلة هو أن تجعل مطردة في جميع معلولاتها . وأما الاستحسان فهو ما تفرد به أبو حنيفة وأصحابه ، ولذلك سموا أصحاب الرأي : ومثال ذلك جواز الخمام وإن كان ما يستعمل فيه من الطين والماء مجهول المقدار . وقيل : الاستحسان هو قياس ، ولكنه خفي غير جلي . وأما الاستصلاح فهو ما تفرد به مالك بن أنس وأصحابه : ومثاله ما أجازته من تعامل الصيارفة وتبايعهم الورق بالورق والعين بالعين بزيادة وتقصان ، وإن كان ذلك محظوراً على غيرهم لما فيه من الصلاح للعامة .

٢ - أيس هو خلاف ليس . قال الخليل بن أحمد ليس إنما كان لا في أيس فأسقطوا المزمة وجمعوا بين اللام والياء ، والدليل على ذلك قول العرب : ايتى بكذا من حيث أيس وليس .

٣ - في ذكر أسامي أرباب الآراء والمذاهب من المسلمين وهي سبعة مذاهب : أحدها المعتزلة ويتسمون بأصحاب العدل والتوحيد وهم ست فرق . . والمذهب الثاني الخوارج وهم أربع عشرة فرقة . . . والمذهب الثالث أصحاب الحديث وهم أربع فرق . . . والمذهب

والدينار مائة وثمان شعيرات ، والشعيرة ثلث ربع تسع مثقال ؛ وقد تختلف هذه المقادير باختلاف البلدان لكن ذكرت ما هو أعم وأشهر .

٨- الترصيع أن يكون الكلام مسجماً متوازن المباني والأجزاء التي ليست بأواخر الفصول مثل قول أبي البصير : حتى عاد تعريضك تصريحاً وتمريضك تصحيحاً التضرير هو ضد الترصيع وهو أن لا تراعى توازن الألفاظ ولا تشابه مقاطعها . . المضارعة أن يكون شبيهاً بالاشتقاق ولا يكونه ، كما قال بعضهم ما خصصتني ولكن خستني .

٩- العروض هو الجزء الأخير من النصف الأول من البيت وهي مؤنثة ، وبها سمي علم العروض لأنه إن عرف نصف البيت سهل تقطيعه . . . الضرب ذو الجزء الأخير من البيت . . . السبب الخفيف حرفان أولهما متحرك والثاني ساكن مثل قد وعلامته ١٥ والسبب الثقيل حرفان متحركان مثل أر وعلامته ٥٥ وذلك أن علامة الحركة عند العروضيين حلقة كالهاء وعلامة الساكن خط كالألف .

١٠- المرازبة جمع المرزبان وهم ما وراء الملوك ، وهم ملوك الأطراف ، ومرز هو الحد بالفارسية مرزبان وهو صاحب الحد ، وكانت الفرس تسمى صاحب النهر أعني جيحون مرز توران أي حد الترك ، وكان أهل خراسان يسمونه مرز إيران أي حد العراق .

١١- الله تبارك وتعالى وعز وعلا هو موجد العالم وهو السبب الأول والعللة الأولى وهو الواحد والحق وما سواه لا يخلو من كثرة من جهة أو جهات وصفته الخاصة أنه واجب الوجود وسائر الموجودات ممكنة

الوجود . . . العقل الفعال هو القوة الإلهية التي مهتدى بها كل شيء في العالم العلوي والسفلي من الأفلاك والكواكب والجماد والحیوان غير الناطق والإنسان لاجتلاب مصلحته وما به قوامه وبقاؤه على قدر ما تنبأ له وعلى حسب الإمكان ، وهذه القوة التي في الأشياء التي في العالم الطبيعي تسمى الطبيعة . . . العقل الهولاني هو القوة في الإنسان وهي في النفس بمنزلة القوة الناطقة في العين : والعقل الفعال لها بمنزلة ضوء الشمس للبصر ، فإذا خرجت هذه القوة التي هي العقل الهولاني إلى الفعل تسمى العقل المستفاد .

١٢- الشرايين هي العروق النابضة ، واحدها شريان ، ومنبثها من القلب تنتشر فيها الحرارة الغريزية أي الطبيعية وتجري فيها المهجة وهي دم القلب : وأما العروق غير النوايض فمنبثها من الكبد ويجري فيها دم الكبد . ومن الشرايين الأبهران وهما يخرجان من القلب ثم يتشعب منها سائر الشرايين .

١٣- الترياق مشتق من تريون باليونانية ، وهو اسم لما ينهش من الحيوان كالأفاعي ونحوها ويقال له بالعربية أيضاً الدرياق السكنجين هو المركب من الخل والعسل ثم يسمى بهذا الاسم وإن كان مكان العسل سكر ومكان الخل رب السفرجل أو غيره .

١٤- علم النجوم يسمى بالعربية التنجيم وباليونانية اصطنوميا : واصطر هو النجم ونوميا هو العلم .

١٥- علم الهيئة هو معرفة تركيب الأفلاك وهيئتها وهيئة الأرض فلك البروج هو الدائرة التي ترسمها الشمس بسيرها من المغرب إلى المشرق في سنة واحدة وهو مقسوم اثني عشر قسماً وهي البروج .

التغيرات أو فلسفة ألين واليانج

بصم
الإستاذ فوآر محمد شبل

معان محدودة . واتسمت قراءة هذه الشقوق بالصعوبة البالغة ، فكان أن اتخذ العرافون متواليات ثلاثية ، وضعوا لكل متوالية معنى خاصاً ؛ وشاعت هذه الطريقة لمعرفة الطوالع ، حتى أصبحت الجيوش تستخدمها في المعارك ، ويستعين بها الملوك في رسم سياستهم ، ويعتمد عليها أفراد الشعب في توجيه شئونهم الخاصة . ثم أقبل العلماء أنفسهم على الاستعانة برموز كتاب التغيرات في أبحاثهم ودراساتهم ، حتى أصبحت عماد الفكر الصيني في السياسة والفلسفة والأدب والأخلاقيات والاجتماع والقانون والطب . الخ . ولم تترأ مدرسة فلسفية واحدة من الاستعانة بكتاب التغيرات بطريقة أو بأخرى . وما برح لهذا الكتاب تأثيره على الفكر الصيني حتى وقتنا الحاضر .

٢ - المتوالية الثلاثية

قوام كتاب التغيرات أن ظواهر الكون بأسره تتألف في جوهرها من عاملين : إيجابي ، وسلبى . وقد حصر مؤلف الكتاب هذه الظواهر في ثمان أساسية ومثل كلا منها في متوالية ثلاثية الخطوط :

١ - التعريف بالكتاب

يعتبر كتاب التغيرات Yi Ching من أمهات تراث الصين الثقافى التى يحصرها فلاسفتها فى مؤلفات خمسة هى :

- ١ - كتاب التغيرات
- ٢ - كتاب التاريخ (أو الوثائق)
- ٣ - كتاب الأناشيد (أو الأشعار) والموسيقى
- ٤ - كتاب الطقوس
- ٥ - حوليات الربيع والخريف

ولكتاب التغيرات منزلة رفيعة عند المفكرين الصينيين ، أنزلته منزلة التقديس : وينسب إلى الملك الحكيم فوهسى Fu Hsi . وترجع الأساطير العهد بتأليفه إلى عام ٣٣٢٢ قبل الميلاد .

والكتاب - فى الأصل - سجل للعرافة والكهانة . إذ يضم بين دفتيه رسوماً اقتبسها مؤلفه - أو مؤلفوه - من الرسوم التى تنشأ عن إحراق صدفه السلحفاة . فهذه الرسوم ، بعضها مستقيم ؛ والبعض الآخر مكسور . فكان أن وضع الكهان والعرافون لكل مجموعة من الخطوط مغزى خاصاً ورموزاً تشير إلى

وترمز المتوالية إلى تلاقى ظاهرة كونية سلبية بأخرى ايجابية ، ونتيجة هذا التلاقى :

فالظاهرة الايجابية يطلق عليها كتاب التغيرات اسم اليانج . ويعنى فى الأصل « الشمس » ويرمز إليها بشرطة متصلة —

ويطلق على الظاهرة السلبية اسم « الين » ويعنى الاصلاح « القمرى » ويرمز إليه بشرطة متقطعة — ويتكون كتاب التغيرات — أساساً — من تجميع ثمانى متواليات ترمز إلى العناصر الثمانية الأساسية : السماء — الرعد — الرياح — النار — الماء — الجبال — المستنقعات . وهاك بياناً بهذه المتواليات ؟

(٤)	(٣)	(٢)	(١)
≡≡≡	≡≡	≡	≡
(٨)	(٧)	(٦)	(٥)
≡≡≡	≡≡	≡	≡

فالمتوالية (١) ترمز إلى السماء . وإذ كانت هى الرب الأعظم ، لأن السماء مصدر الأمطار ، فقد أصبحت ترمز إلى الأب . ونظراً لأن الرب هو رمز الأسرة ، ترمز المتوالية الى ، القوة ، السيادة .. الخ . وتتألف المتوالية من خطوط سليمة (يانج) ، وفى هذا توكيد مبدأ الذكورة المطلق .

والمتوالية (٢) ترمز إلى الأرض ، وهى الأم التى تتلقى الأمطار . وفى مجال المعانى تدل على : الحنان : المودة ، العطف ، الطاعة ... الخ . وتتألف المتوالية من خطوط جميعها متقطع ، توكيداً لمبدأ الأنودة المطلق .

ومن اتحاد المتوالتين (١) و (٢) ينتج :

المتوالية (٣) ؛ وتدل على الابن الأكبر . ويلاحظ أن الخط الأسفل سليم مثل الخطوط التى تمثل الأب ، وتشير المتوالية فى مجال المعانى إلى : التحرك والانطلاق والتحفز .

المتوالية (٤) تدل على البنت الكبرى . ويلاحظ أن الخط الأخير من المتوالية متكسر (ين) . وتدل المتوالية فى مجال المعانى على اختراق الأشياء والنفوذ إليها .

المتوالية (٥) ترمز إلى الابن الثانى ؛ وفى مجال المعانى الرعورة وشدة الانحدار .

المتوالية (٦) ترمز إلى البنت الثانية . وفى مجال المعانى إلى السطوع واللمعان ... الخ .

المتوالية (٧) ترمز إلى أصغر الأبناء ؛ وفى مجال المعانى إلى التوقف والصد ... الخ .

المتوالية (٨) ترمز إلى صغرى البنات . وتدل فى مجال المعانى على الرضاء والمسرة والحبور والغبطة .. الخ .

وبعدما تحددت هذه المعانى الأساسية ؛ أخذ الباحثون من شراح كتاب التغيرات ، يقيمون عليها المظاهر الكونية المختلفة ، وشرعوا يطابقونها على جميع الأشياء :

فالعاصفة ابن أكبر يرمز إليه بالمتوالية ≡≡ بينما أن الريح بنت كبرى يرمز إليها بالمتوالية ≡≡≡ .

ويعتبر الماء ابناً ثانياً يرمز إليه بالمتوالية ≡≡ بينما أن النار بنت ثانية يرمز إليها بالمتوالية ≡≡≡ .

ويعتبر الجبل ابناً أصغر يرمز إليه بالمتوالية ≡≡≡ ، لكن تعتبر المستنقعات بنتاً صغرى يرمز إليها بالمتوالية ≡≡≡ .

وبعبارة أوضح ، كانت المتواليات الثمان — الثلاثية الخطوط — تمثل لدى قدماء الصينيين عناصر الكون ذات الأهمية القصوى لهم وهى فى السماء الشمس والقمر والرياح والعواصف ؛ وعلى الأرض : الجبال والمستنقعات ، ومن الأشياء : الماء والنار . وقد ربطوا بين هذه المتواليات بعلاقات الأبوة والأمومة والبنوة .

٣ - المتواليات السداسية

من المتواليات الثمان ذات الخطوط الثلاثة -
السالفة الذكر - ركبت في العصور التالية متواليات
تتألف الواحدة من ستة خطوط . . . وتم ذلك عن
طريق مزج متواليتين من ذواتي الخطوط الثلاثة -
إحدهما بالأخرى . فيتكون - من ثمة - أربع وستون
متواليات جديدة تتألف الواحدة من ستة خطوط .

ويطالعنا كتاب التغيرات بمتواليات سداسية الخطوط
فريدة في نوعها ، وتركيبها :

— — — — —
— — — — —
— — — — —
المتواليات بحالة سكون (خط متقطع - -)
تتلوه حركة (يانج خط متصل - -) ، يتلوه ين ثم
يانج ثم ين ثم يانج . وباجتماع الين واليانج تتم عملية
اليانج (أي الحركة والانطلاق) . ويعنى تكرار
الاجتماع ، توكيد عملية الارتقاء .

والأشياء بفطرتها في تغير مستمر . ويحمل
التغير في الكون بين طياته الزيادة والنقصان ، القدوم
والذهاب ، الهدم والبناء . . . الخ . فلا نهاية
اطلاقاً لعملية التغير ؛ لأن ما يأتي ، يجب أن يذهب ؛
وما يذهب ، يجب أن يأتي مرة أخرى .

ومصافاً لهذا الرأي ؛ يرمز إلى الرخاء واليسر
والرفاهية . . . وما إلى ذلك من المعاني بالمتواليات
السداسية الخطوط :



(أي ثلاثة خطوط ين بأسفلها ثلاثة خطوط
يانج) . فان تغيرت للأحوال وحل القحط والإحمال
والضيق . . . وما إلى ذلك من المعاني ؛ انقلب وضع

ويفسر كنفوشيوس نشوء المتواليات الثلاثية الثمان
بأن « الأول الأعظم » هو مصدر التغير وعلته . وهو
قد قسم نفسه اثنتين كوناً السماء (اليانج) والأرض
(الين) . وانقسم الاثنان إلى أربع كوتت الفصول :
الربيع والخريف والشتاء والصيف . وعلى أساس فكرة
اليانج والين (الجامد واللين) ؛ تكونت المتواليات
الثلاثية الثمان . وعندما اتخذت تلك المتواليات ترتيبها
المناسب توطد بذلك - كما يقول كنفوشيوس -
منهاج السماء والأرض وتحددت رموز كل من : الرعد ،
الريح والماء والنار والجبال والمستنقعات .

وباستكمال دورة المتواليات الثلاثية الثمان يتم :
أولاً - تحديد الفوارق بين مواضع جهات البوصلة
الأصلية الأربعة ووجهاتها الفرعية .
ثانياً - انجاز عمليات الإنتاج والنماء والحصاد
والتخزين .

ثالثاً - التعرف على صور الين واليانج
رابعاً - اضماء القدرة على الاختراق والنفوذ
على طاقة الفعل الروحية الخيرة .

خامساً - ابلاغ الأشياء جميعها مرتبة الكمال .
ويربط شراح كتاب التغيرات بين المتواليات الثمان
والفضائل الخمس الثابتة التي عينها كنفوشيوس في
مختاراته : الحب والعدالة والحشمة والحكمة ،
الإيمان الحق .

فالسلك الصالح : تستثيره المحبة ، وتوطده الحشمة
وتنظم العدالة أوضاعه ، ويحدد الإيمان الحق أبعاده ،
وتكمله الحكمة .

وهذه الفضائل الخمس - وفقاً لـ كنفوشيوس -
هي جماع الفضائل البشرية وهي الروابط التي تصل
السماء بالإنسان ، وعن طريقها يتمكن الحكيم من
فهم دلالة السماء وتنظيم العلاقات البشرية وإدراك
أسمى أشكال السلوك .

٤ - مدرسة الين واليانج الفلسفية

استخدم الصينيون - منذ عهد بعيد - فكرة الين واليانج لتوضيح ظواهر الوجود : فالثابته (١) - ابان ازدهارها - قد استخدمت الاصطلاحين لشرح مبادئها . ويطالعا في هذا المقام عبارة تنسب إلى لاو تزو تقول « ان التساو (أى السبيل أو النهج) قد أنتج الواحد ، والواحد أنتج الثنائية ، وتطورت الثنائية إلى التثليث ، وانبعث عن التثليث الآلاف المؤلفه من الأشياء . وتضم الأشياء جميعها بين طياتها « الين » وتشتمل على اليانج ، وبفضل الين واليانج ، يتوافر للأشياء التناسق والإنسجام » . وتأسيساً على هذا الرأى ، يرتب كل شىء في الوجود تحت أى من الفصيلتين ، باعتبار الين أنثى ، واليانج ذكر :

وبالتالى :

تنتمى السماء والشمس والنار إلى فصيلة اليانج . وتلحق الأرض والقمر والماء بفصيلة الين . ويدلل كتاب التغيرات على صدق الفكرة بأن العدسة المحرقة تستجلب النار من الشمس ، فى حين أن المرأة - وهى يانج - إذا ما تركت فى العراء ليلاً تلتقط الندى - أى الماء - من القمر .

وتجب ملاحظة أن ثنائية الين واليانج ؛ لا تعنى تلك الثنائية المألوفة خارج الصين . وتعنى لدينا : الخير والشر ، والروح والمادة . . . وهى ثنائية ينفصل أحد شقيها عن الآخر ويباينه تماماً . فعلى العكس ؛ ينادى المنطق الصينى - كما بسطه كتاب التغيرات - بأن الين واليانج يكمل أحدهما الآخر ؛ وبفضل هذا التكامل يتوافر للكون انسجامه

(١) رجاء مراجعة بحثنا عن لاو تزو - عدد مارس ١٩٦٦ من تراث الإنسانية .

خطوط اليانج الثلاثة لتوضع فوق خطوط الين الثلاثة ، على النسق التالى :



كذلك ترمز السداسية :



(وهى عبارة عن خطي يانج - تتلوه خمسة خطوط ين - -) إلى عملية التحول : ويلاحظ أن خط اليانج (ويرمز إلى الحركة والانطلاق) قد تلتته خمسة خطوط ين (ويدل على التفكك والسكون) . فاذا تغيرت الحال بعودة الشىء إلى الحركة ؛ انقلب وضع السداسية فأصبح :



ومنه يبدو أن اليانج قد تغلب فى نهاية المطاف ، فعاد النشاط وتجددت فى الشىء الحياة ؛ وبالمثل ، ترمز السداسية :



إلى الحركة المنطلقة المستمرة المتواصلة ؛ وفيها خطان متقطعان (- -) رمز الين ، يتلوهما خط يانج (—) وهو رمز الحركة . فاذا ما توقفت الحركة ، يرمز إلى العملية بالسداسية :



أى خط يانج (رمز الحركة) يتلوه خطان للين (رمز السكون) يتلوهما خط يانج الذى يتلوه بدوره خطان للين :

وتناسقه . فالشتاء - وينتسب إلى فصيلة الين - يتحول إلى صيف وهو من فصيلة اليانج :

فالين هو العنصر السهل ، اللين ، المدعن ، وهو السالب الساكن ؛ واليانج هو العنصر المتين الحشن ، وهو الموجب ، الحامل للحركة .

ويرمز اليانج إلى السيادة ، أما الين فيرمز إلى التكامل :

وإذا كان اليانج - بحكم طبيعته - هو العنصر المبدع ، فانه يصبح في حالة سكون وقميا يصدف عن الإبداع . فاذا ما أخذ يحقق الإبداع ، يغدو في حالة فعل وحركة .

وإذا كان الين - بحكم طبيعته - على استعداد للاستجابة لنداء القوة المبدعة . فاذا توافرت لديه قابلية الاستجابة ، يصبح في حالة فعل وانطلاق .

وجميع الأشياء توضع - أو ان إبداعها - في قائمة اليانج ، بينما توضع الأشياء - أوقات استجابتها - في قائمة الين . ويتيسر لكل شيء أن يكون في وضع « اليانج » كما يتيسر لكل شيء أن يكون في وضع الين .

وإذا كان لكل من الين واليانج معنى مختلف ، إلا أنهما مترابطان ولا غنى لأحدهما عن الآخر . فالشمس تغرب ، فيطلع القمر ، ولكل وظيفة واحدة هي إضاءة الأرض . كذلك إذا ولي الشتاء أقبلي الصيف ، فاذا راح الصيف وفد الشتاء . ويتعاقب الصيف والشتاء تم دورة السنة .

وإذا وصل شيء إلى حد التمام ، يكون قد بلغ - بالضرورة - مكانه السليم . ويقصد بالمكان السليم ، الموضع الذي يجدر أن يكون فيه ، أي يصبح كائناً في البيئة المناسبة له . فوضع الزوجة السليم ، صلتهما بشئون الأسرة الداخلية ، ومناطق موضع الزوج السليم صلتهما بشئونها الخارجية . إذ

تمثل العلاقة السليمة ركن العدالة الركين في العالم . فاذا فحصنا نظام الأسرة ، نجد أن مكان الزوج الطبيعي أن يصبح - دون بقية أفرادها - الزعيم والمسيطر . فالأسرة الطبيعية هي التي يكون فيها الوالد والداً والابن ابناً .

وإذا كانت الكنفوشيوسية قد اتجهت في بداية عهدها إلى بحث مشكلات السياسة والعلاقات البشرية ، فلم تعر الموضوعات الميتافيزيقية ما تستحقه من رعاية واهتمام ، فلقد انبعثت مدرستان فكريتان لسد هذا النقص في التفكير الصيني ، وتبلورتا في مدرسة الين واليانج ، والمدرسة الطاوية .

ويعبر الفيلسوف « تونج شونج - شو » عن رأي هذه المدرسة الفلسفية في طبيعة الين واليانج بقوله :

« يوجد الين واليانج في نطاق الكون في حالة أثرية وينغمر جميع الناس فيهما على الدوام مثلما ينغمر السمك في الماء على الدوام . والفارق بينهما وبين الماء أن جيشان الماء منظور ، في حين أن فوران الين واليانج غير منظور . على أن وجود الانسان في الكون مثل ارتباط السمك بالماء . ويوجد هذا الأثر في كل مكان ، لكن ليست به لزوجة الماء . فالمقارنة بينه وبين الماء ؛ كالمقارنة بين الماء والطين . وعلى ذلك يبدو أن ثمة في الكون عدمية ، ومع ذلك فثمة هيولى . أن الناس مغمرون على الدوام في هذه الكتلة الدوامة التي تحملهم قدما في تيار واحد ، بانتظام أو بغير انتظام » .

وإذا كان الوصف السابق يوحي إلى الذهن باعتبار كل من « الين » و « اليانج » أثراً - مادياً أو سائلاً - لكن لا ينظر إليهما بهذه الصورة المادية . فالحق يقصد من وراء تشبيه هذا الفيلسوف ، تقريب الأمر إلى الذهن . إذ يصف الين واليانج بموضع آخر من مؤلفه بأنهما « قوتان متعارضتان تتبعان سير السماء الراسخ لكنهما

لا ينشأن في وقت واحد . وهذا يعني أنه وقماً ينبعث اليانج ، يترجع الين ؛ والعكس بالعكس .
 رخص فلاسفة الصين من دراساتهم لكتاب التغيرات إلى نتيجة عملية مدارها أنه إذا كان كل شيء في الحياة ينقلب إلى نقيضه - إذا ما وصل منتهاه - فعلى الرجل العاقل أن يتخذ أهبة للأحداث التي تفد مع التغير ويحناط لصروف الزمان . وعلى السياسي الحصيف أن يضع في ذهنه دائماً المخاطر التي لا بد وأن تفد وفقاً لمنطق التغير . ونجد أحداً حكماهم « هسي تزو » يقول :

« ان الإنسان الذي يجعل الخطر ماثلاً في ذهنه هو الذي يحتفظ بمكانته ، والذي يرى النكبات قائمة أمام ناظره هو الذي يعيش ، والذي يعمل حساباً للفوضى المتفشية ، يصبح في مكنته السيطرة على المجتمع . ومن تقدر له السيطرة على المجتمع ، يجب أن ينسى امكانية تعرض حكمه للاضطراب . فالسلطان الحكيم هو من لا ينسى العدوان في أوقات السلم ، والذي يتخذ الحيطة ضد العابثين بالأمن . ويجب أن يتحلى المرء بالتواضع لأن الدنيا إذا أقبلت لا تلبث أن تدبر » .

ويستوقف نظر الباحث في كتاب التغيرات ؛ ذلك التشابه المذهل بين المذهب الفيثاغوري ودراسة الصينيين للرموز والأعداد وفقاً لكتاب التغيرات :
 ١ - وردت العبارة التالية بالملحق الثالث من كتاب التغيرات « في التغيرات ، ثمة الأول الأعظم الذي أبرز الصيغتين (الين واليانج) إلى الوجود » . إذ تماثل هذه الفكرة القضية الفيثاغورية القائلة « من الجوهر الفرد ينشأ الاتحاد الزوجي غير المحدد » .

٢ - إذا ما اخبرنا مجموعة عشرة أزواج من المتناقضات التي ذكرها الفيثاغوريون - كالمحدود والمطلق - فواضح أن ما يطلق عليه المحدود يطابق تماماً ما يدعوه شرح كتاب التغيرات باليانج . كما

أن ما يسميه الفيثاغوريون « المطلق » يطابق « الين » الصيني .

٣ - تستمسك الفلسفة اليونانية - عامة - بالفكرة القائلة بأن المطلق يكوّن المادة وأن المحدود يكوّن الصورة وأن الأشياء الطبيعية هي حاصل تأثير الصورة على المادة . وبالمثل ، يعتقد شرح كتاب التغيرات في الصين فكرة أن اليانج ايجابي ، فيمنح الين سلبي ، فهو - لذلك - يتلقى ويتسلم على أن ثمة فارقاً بين النظريتين الصينية واليونانية يتبين في ناحيتين :

الأولى - يجعل شرح كتاب التغيرات من المحدود (أى اليانج بالاصطلاح الصيني) معادلاً للمربع ، ومن المطلق - أى اللامحدود - (وهو الين في الاصطلاح الصيني) معادلاً للمستطيل . ومن رأيهم أن السماء (وهي مظهر اليانج المعين) مستديرة والأرض - مظهر الين المعين - مربعة .

وهنا تعرض لنا نقطة لا يختلف فيها الفيثاغوريون عن شرح كتاب التغيرات : فان الفيثاغوريين يعتبرون الأعداد الفردية - وتطابق المحدود - أعداداً مربعة ، بينما أن الأعداد الزوجية - وتطابق المطلق - أعداد مستطيلة . كذلك يعتبر شرح كتاب التغيرات أعداد اليانج (واليانج هو المحدود) فردية وأعداد الين (والين هو المطلق) زوجية . وهذا هو سبب تمثيل اليانج بخط فردي متصل (-) ، في حين يمثل الين بخط زوجي (متقطع - -) .

الثانية - يجعل الفيثاغوريون من المحدود مطابقاً للسكون ، والمطلق معادلاً للحركة . وهذا يخالف وجهة النظر الصينية على طول الخط لمعادلتها اليانج (أى المحدود) بالحركة ، والين (أى المطلق) بالسكون .

٥ - الحكم على مدرسة لين واليانج

تضم نظريات لين واليانج (وهي قوام كتاب التغيرات) الشيء الكثير من السخافات ، لكنها تتضمن - في نفس الوقت - بدايات العلوم والفنون الصينية . فالحق ؛ يتبلور هدف الآراء المتصلة بالين واليانج في إيجاد نظام فكري شامل جامع إلى أبعد الحدود . وبالأحرى ، خلق مدرسة فكرية تستطيع الإحاطة بظواهر الكون بأسره وتفسرها . فهما يقل عما في منهاجها من قصور علمي ، وما يظهر من ضعف فروضها ، لكن تستبين لنا روح علمية من خلال نشأتها تنظيم ظواهر الكون وتنسيقها في إطار مذهب علمي ، وسعيها إلى معرفة الأسباب والدوافع : وقد يبدو - للوهلة الأولى - زوال تأثير مدرسة لين واليانج من التفكير الصيني ، بفعل اقتحام الفكر الأوربي - الغربي والماركسي - معاقل الفكر الصيني . غير أن الاقتحام ظاهري محض ، وحسي للتدليل على هذا الرأي ، فكرة الثورة الدائمة عند ماوتسي تونج وغيرها .

فالكون عند الزعيم الصيني في حالة تغير دائم يبنى عليه استمرار قيام التناقضات بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج ، حتى بعد زوال الطبقات . ولا تتأني تسوية هذه التناقضات إلا بسلسلة « لانهائية » من التغيرات الوصفية (النوعية) . إذ لا مناص من نشوء تناقض بين قوى الإنتاج - نمواً متصلاً - وبين جهود الأفراد لتكثيف أنفسهم وفقاً لهذا النمو . ويحل هذا التناقض محل الصراع الطبقي .

وتناقض فكرة ماوتسي تونج عن الثورة الدائمة ، الفكرة الماركسية على طول الخط . فها هنا يتبدى لنا تأثير فكرة لين واليانج ، التي تعني - فيما تعنيه - انبعاث الشيء من تقيضه في سلسلة من التوالد والتكاثر لا نهاية لها من التفاعلات . بينما قد تأثر

تفكير كارل ماركس - وهو يهودي الأصل - بفكرة اللجنة الموعودة ، فكان أن دفعه إلى اعتبار المجتمع اللاطبقي الذي ينتهي منه عنصر الإرغام - ممثلاً في الدولة - وحيث يحصل الجميع على احتياجاتهم في يسر وسهولة ووفرة ؛ اعتبره غاية الغايات . أي أنه اللجنة الواردة في الكتب المقدسة ، تنتصب على الأرض في دنيا الناس .

وتقر فكرة لين واليانج أن لكل من الاصطلاحين معنى مختلفاً . لكنهما مترابطان ولا يمكن فهم أحدهما بدون الآخر ، ولهذا تأثيره على نظرية التناقضات عند ماوتسي تونج . فانه يعتقد بأن عملية التحول تقوم على تحويل نوع ما - أي نوع - الى نوع آخر ويتم التحول نتيجة للتغير في العلاقة الكمية بين أوجه التناقض الغالبة وأوجهه الخاضعة المغلوبة على أمرها ، وينجز على طريق أولي ذي اتجاه واحد . ويقول الزعيم الصيني « الأشياء المتناقضة تكمل وتم - في نفس الوقت - بعضها بعضاً ، وهي تشكل الدعامة التي بفضلها تستند التناقضات بعضها بعضاً ويحافظ أحدها على بقاء الآخر ووجوده . وإذا كانت الأضداد - بحكم طبيعتها - تحالف أحدها الآخر ، فهي - من الناحية الأخرى - مترابطة ترابطاً وثيقاً متداخلة في بعضها متلاحمة ولا غنى لأحدهما عن الآخر : فلا تفهم السهولة عن غير الصعوبة كذلك بدون السهولة لا توجد صعوبة . فالحق أنه من غير الواجهة الأخرى التي تعارض الواجهة ؛ تفقد كل واجهة مبرر وجودها » . ويطلب ماوتسي تونج بالعمل على كشف وجهة تطور التناقض ؛ والقاعدة - كما يقول - إن الواجبات المتعارضة تحول نفسها - في ظل ظروف خاصة - إلى أضدادها ؛ وتتخذ الحركة في جميع الأشياء : اما وضع السكون النسبي واما التغير المطلق الواضح ؛ وينشأ وضعاً الحركة

— كلاهما — عن صراع عاملين متعارضين الإتجاه داخل الشيء نفسه^(١) ؟

ولمدرسة الين واليانج تأثير آخر على تفكير الزعيم الصيني يتبين من قوله إن الريح قد شرعت تهب من الشرق من جديد . بمعنى أن رياح التغير أخذت تنطلق وستقود إلى انتقال النفوذ والسلطان من الغربيين إلى الشرقيين . فان مناظ فكرة الين واليانج ، تحول الين إلى يانج وهذا إلى ين . . . وهكذا . أى استحالة استدامة وضع من الأوضاع وثبات موقف إلى مالا نهاية . فالزعيم الصيني يعتبر نهضة الصين الحالية تغييراً في ميزان القوى الدولية يبشر باسترداد الصين مكانتها الحضارية المرموقة التي فقدتها بانتقال القوة غرباً .

٦ — مقتطفات من كتاب التغيرات

١ — عملية التغير الشامل

السماء مرتفة والأرض منخفضة ، وبهذا تتحدد السماء والأرض . ومصدقا لهذا يتحدد مكان الشريف والوضيع ولكل من الحركة والراحة وضعه الثابت ، ومن هنا يختلف القوى عن الضعيف وتتطابق السبل وفقاً لأنواعها ، وتنقسم الأشياء إلى رتب . لذلك يحدث الحظ الحسن والحظ السيئ . وفي السماء تبدى الظواهر وعلى الأرض تعرض الأشكال . وعن طريق عرض الأشكال يصبح التغير والتحول واضحين . وهكذا تتفاعل خطوط المتواليات الثلاثية الثمانية الضعيفة والقوية ويؤثر كل منها في الآخر ويتأثر به . إن الأشياء يستفزه الرعد فينبعث موسم برد يتلوه موسم حرارة . إن طريق السماء يكون المذكر . أما طريق الأرض فيكون المؤنث . تميز السماء الابتداء العظيم ، بينما

(١) رجاء الاطلاع على مقالتنا « فلسفة المتناقضات عند ماوتسى تونج » بعداد فبراير ١٩٦٦ من مجلة الفكر المعاصر .

تضفي الأرض على الأشياء تمامها . ان ادراك السماء مستمد من السهولة واليسر .

ان تعاقب حركة الين واليانج يؤلف ما يطلق عليه « السبيل القويم » . ومنه ينبعث الشيء الصالح . ويبلغ مرتبة الكمال بفضل الفطرة البشرية . وعندما عجز الانسان « السبيل القويم » يطلق عليه « الانسانية » لكن الحكيم يطلق عليه الحكمة . وتعاقب الين واليانج هو عامل الانشاء واعادة الإنشاء :

٢ — بدايات الثقافة البشرية

عندما كان فوهسى^(١) يحكم العالم ، تطلع إلى السماء ليرصد مظاهرها ، وشخص إلى الأرض ليعاين أشكالها . فلاحظ أشكالها وسماها وكيف توأمت نفسها وفقاً لبيئتها . وأحوت إليه دراسته لبدنه نفسه ، طائفة من الآراء ، لكنه مضى أبعد من ذلك فاستخلص أفكاراً قيمة من دراسته للأشياء الأخرى وبفضل دراساته هذه ابتكر الثماني المتواليات ذات الخطوط الثلاثية ، لكي يفقه فضائل الكائنات الروحانية وليصف أحوال جميع المخلوقات . وهو أول من عقد الحبال وصنع الشباك لصيد الأسماك واصطياد الطير والحيوان . وقد اقتبس الفكرة من دراساته لإحدى المتواليات الثلاثية .

ولما مات « فوهسى » ظهر شين تونج « الذي علم العالم فوائد حرث الأرض وتطهيرها من الأعشاب واقتبس ذلك من دراسة إحدى المتواليات الثلاثية » وهو الذي شيد الأسواق وعلم الناس مبادلة منتجاتهم الزراعية والصناعية بمنتجات غيرهم ، سيراً بدراسته لمتواليات ثلاثية .

وبعد موته ظهر في العالم « الامبراطور الأصغر » و« ياو » و« شون »^(٢) وقد استفادوا من معرفتهم بكنه

(١) امبراطور الصين الذي ينسب اليه تأليف كتاب التغيرات .

(٢) هؤلاء أباطرة أسطوريون . وما يزال الصينيون إلى وقتنا

الحاضر يضربون بهم المثل في فعل الخير وإيثار النفع العام .

« البين » . فاذا ما بلغ سكونه منتهاه فقد دورة جديدة من النشاط . ومن ثمة ، تتعاقب الحركة والسكون ، ويغدو كل منهما منشأ الآخر .

وعن طريق تحول اليانج واتحاده مع الين ، تتولد العوامل الخمسة الرئيسية : الماء ، النار ، الخشب ، المعدن ، التراب ، وبفضل توزيع هذه القوى المادية الخمس توزيعاً متناسقاً ، تسلك الفصول الأربعة سبيلها المعروف .

وتؤلف العوامل الخمسة نظاماً واحداً للين واليانج . ويؤلف الين واليانج « الأول الأعلى » . وتكون السماء عنصر التذكير ، وتكون الأرض عنصر التأنيث . وبوساطة تفاعل هاتين القوتين الماديتين ، يتم تكاثر آلاف الأشياء المولفة وتحولها ، وتتكاثر ألوف الأشياء وتتوالد في تحول لانهائي .

والإنسان وحده هو الذى يتلقى القوى المادية في أحسن حالاتها ، فهو بذلك أشرف المخلوقات وأذكاه وأبرعها . ويتبدى شكله المادى وينمى روحه الوجدان . ويترب عن احتكاكه بالعالم الخارجى واستجابته لتحدياته ، استنارة المبادئ الخلقية الخمسة الكائنة في طبيعته وهى : الشفقة ، العدالة ، الذوق ، الحكمة ، الايمان الصحيح ، وهنا ينطق صوب الحركة والنشاط ، ويميز الخير من الشر . والإنسان الحصيف هو من ينمى هذه الصفات في ذاته ، بينما ينهمك حرمتها الإنسان الخسيس .


٥ - الإخلاص


الإخلاص جوهر الحكمة ، عظيم هو مبدأ السماء ، البارئ . منه تستمد جميع الأشياء بداياتها ، وهى منبع الإخلاص . ويتغير طريق مبدأ السماء ، ويتحول لكى يحصل كل شئ على فطرته السليمة وينال قسمته ونصيبه ، ومناط طريق السماء حركة الين واليانج المتعاقبة ، وما ينبعث عن نهج السماء خير ، والحكيم هو الإنسان المخلص .

التغير في إراحة الناس من متاعب الحياة . إذ أبانوا للناس أن التغيرات إذا بلغت في سيرها منتهاه ، تعدل خط سيرها . فيمكنها هذا من الانطلاق في طريقها إلى أن تصل إلى منتهاه فتعدل سيرها من جديد . وتظل هكذا أبد الأبدين ودهر الدهارين بفضل معونة السماء التى توفر الخير . وبفضل تواضع هؤلاء الأباطرة وسماحتهم ، انتظمت أحوال الدنيا ، وانبعثت إلى الوجود الابتكارات الهامة مثل استئناس الحيوانات واستخدامها في النقل ، كما اخترعت القوارب للنقل المائى .

وظهر بعد هؤلاء الأباطرة حكماء أرشدوا الناس إلى تشييد الدور لحمايتهم من الرياح والأمطار والبرد والحر ، وعلموهم دفن موتاهم . وتوجت جهود الحكماء باختراع الكتابة والقراءة . وتم هذا كله بفضل الاستعانة بمنطق التغير .

٣ - سداسية السماء والأرض

جميع خطوط متوالية السماء متصلة  وتغير عما هو عظيم ومبدع ونافع وقويم وراسخ . فالسما هي منشأ جميع الأشياء . وبفضلها تبدى في أشكالها الكاملة . ويتبلور أسابوب السماء في التغير والتبديل بحيث ينال كل شئ في الكون فطرته السليمة التى تحددها السماء . وعندئذ يتحقق للكون الوحدة والتجانس .

أما الأرض فجميع خطوطها الستة متقطعة  وتدين لها جميع الأشياء بمولدها . وهى تتلقى - طائفة - تأثيرات السماء . فهى ساكنة سكوناً تاماً ، صفتها الوداعة والسماحة ، وهى تتبع سيدها .

٤ - الأول الأعظم

إن الأول الأعظم يولد - بفعل تحركه - اليانج . فاذا ما بلغ نشاطه منتهاه ، يركن إلى السكون ، وفى خلال فترة سكونه يولد

الخراج لأبي يوسف

بمستم
الدكتور على حسنى الزربوطى

ترجمة حياة أبي يوسف :

كان مولد يعقوب بن إبراهيم ، الذى اشتهر بأبي يوسف ، فى عام ١١٣ هـ ، وهو من أسرة عربية ، عريقة فى أصلها ، فقيرة فى مالها . وينحدر من الصحابى الجليل سعد بن حبة ، وهو من أنصار المدينة المنورة . وكان مولد أبي يوسف فى العصر الأموى ، وشهد انتشار الدعوة العباسية فى العراق وخراسان ، ثم عاصر قيام الدولة العباسية فى سنة ١٣٢ هـ وكان حينئذ فى التاسعة عشرة من عمره . فشهد مطلع العصر العباسى الزاهر ، وعاصر عهود الخلفاء العباسيين الخمسة الأول

تلقى أبو يوسف علومه الأولى فى العراق ، فدرس دراسة دينية من قرآن وحديث وفقه ، ودراسة أدبية من نحو ولغة وشعر . وكان ممن تلقى منهم العلوم الدينية محمد بن عبد الرحمن بن أنى ليلى . وأبدى أبو يوسف نبوغاً وتفوقاً ، رشحه ليكون فى مقدمة تلاميذ إمام عصره أبي حنيفة . وأدرك أبو حنيفة مواهب تلميذه ونبوغه ، فكان يمدد بالمال ليسد به حاجات الحياة وحتى يتفرغ لتلقى العلم على يديه . وكان أبو يوسف واحداً من ثلاثة من أبرز تلاميذ أبي حنيفة الملازمين له ، أما

التلميذ الثانى فهو محمد بن الحسن الشيبانى ، والتلميذ الثالث هو زفر . وكان أبو يوسف أكثرهم فقراً ، فقد كان للشيبانى موسراً حتى إنه أنفق على تعلمه النحو والشعر والفقه ثلاثين ألف درهم . كما كان هذيل ، والد زفر ، والياً على البصرة .

وكان أبو يوسف يلزم أستاذه فى كل مجالسه ليتلقى عنه الدين والفقه والعلم . وكان أبو حنيفة فى سعة من العيش ، يحترف التجارة ، يبيع الخبز ويجلس فى السوق ، ولذا كان معاصروه يطلقون عليه اسم النعمان ابن ثابت الخزاز . وشارك أبو يوسف أستاذه مجلسه فى السوق ، مما أفاده فى حياته العملية إذ اطلع على دقائق النشاط الاقتصادى ، وعرف ما يجرى فى الأسواق من معاملات تجارية وبيع وشراء ، فنمت معلوماته عن الاقتصاد والضرائب . وقد بلور هذه المعلومات فيما بعد فى صورة علمية منهجية دقيقة فى كتابه الخراج .

حتى إذا أتم أبو يوسف دراسته رحاز نصيباً وافراً من العلم ، أخذ يشق طريقه فى الحياة ، ترنوه عينا أستاذه ، فتدرج فى المناصب حتى تولى منصب القضاء فى عهد الخليفة العباسى الثالث المهدي ، وكان هذا المنصب حينئذ من أبرز مناصب الدولة . وقد اشتهر

كان يؤسس الدولة العباسية ويدعمها ويقضى على خصومها ، ويعمل بمذهب (الغاية تبرر الوسطة) وينادى بأن الخليفة هو ظل الله في أرضه . وقد نكل المنصور بالإمام العلوي محمد النفس الزكية وبأخيه إبراهيم ، كما قتل أبا مسلم الخراساني عضد الدولة العباسية . أما أبو يوسف فقد تولى القضاء في عهد الخليفة الثالث المهدي ، الذي كان عهده فترة رخاء واستقرار نعمت فيها الدولة العباسية بالهدوء والأمن ، واشتهر المهدي بالتدين والعدل والتسامح ، ويعتبر عهده مرحلة انتقال بين عهد القمع والشدة الذي شهده عهد أبي العباس السفاح والمنصور ، وعهد التدين والتسامح في عهود الرشيد وأولاده .

كما أن أبا يوسف كان رجلاً فقيراً ، في حاجة إلى العمل وتولى مناصب الدولة ، بينما كان أبو حنيفة تاجراً موسراً ليس في حاجة إلى الوظيفة الحكومية : ويعبر أبو يوسف عن رأيه في المال فيقول : « رعوس النعم ثلاثة : أولها نعمة الإسلام التي لا تتم النعمة إلا بها ، ونعمة العافية التي لا تطيب الحياة إلا بها ، ونعمة الغنى التي لا يتم العيش إلا بها » . وقد رأى أبو يوسف أن يجمع بين النعم الثلاثة : الإسلام ، والعافية ، والغنى ، ولكن أبا يوسف في عمله القضائي لم ينحرف أو يحد عن الحق ، بل نراه في كتابه « الخراج » يعظ الخليفة هارون الرشيد في حزم وقوة ، ويتوجه إليه بالنصائح ، وحاز إعجاب ثلاثة خلفاء اختلفوا في مشاربهم ووسائل حكمهم .

بل أتاح تولى أبي يوسف منصب القضاء فرصة له ليفي لأستاذه أبي حنيفة حقه ودينه عليه . فقد حافظ أبو يوسف على مذهبه ، ودونه في كتبه . حتى إذا أصبح قاضي القضاة في عهد الرشيد ، عمل على تدعيم مذهب أبي حنيفة وبثه في الأمصار الإسلامية ، وهذه الفرصة لم تتح لغير أبي يوسف من تلاميذ أبي حنيفة العديدين ، فقد جعل أبو يوسف مذهب أبي حنيفة

المهدي بالعدل ، حتى إنه كان أول الخلفاء الذين جلسوا للنظر في المظالم ، مما أتاح الفرصة لأبي يوسف لممارسة وظيفة القضاء في حرية ، وبدون تدخل من الخليفة : وقد خالف أبو يوسف في ذلك مسلك أستاذه أبي حنيفة الذي رفض أن يتولى منصب القضاء في عهد الخليفة العباسي الثاني أبي جعفر المنصور ، كما تذكر بعض المصادر التاريخية ، كما رفض من قبل هذا المنصب أيضاً حينما عهد به إليه ابن هبيرة عامل مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين . وينسب المؤرخون رفض أبي حنيفة منصب القضاء في عهد الخليفة المنصور إلى ميله إلى العلويين ، كما كان المنصور ينقض عهوده ، وشعر أبو حنيفة أنه عاجز عن إرضاء المنصور وحاشيته فقال له : « لو هددتني أن تغرقني في الفرات أو أن آلى الحكم لاخترت أن أغرق ، فلك حاشية يحتاجون إلى من يكرمهم لك ، فلا أصلح لذلك » .

ولم يرض كثير من المعاصرين لأبي يوسف عن قبوله منصب القضاء ، ونجد ذلك في كتابات بعض المؤرخين ، فيقول الطبري : « إنه قد تحامى حديث أبي يوسف قوم من أهل الحديث ، من أجل غلبة الرأي عليه وتثريعه الفروع والأحكام ، مع صحبة السلطان وتقلده القضاء » . فقد كان هناك في مطلع العصر العباسي كثير من العلماء والفقهاء ممن يزهدون في تولى الوظائف العامة في الدولة ، حتى يظل الدين بعيداً عن السياسة ، وحتى لا يضطر العالم أو الفقيه أن يخالف دينه أو ضميره ويمالء الخليفة وحاشيته .

وإن كنا نجد العذر لأبي حنيفة في رفضه منصب القضاء ، إلا أننا نجد العذر أيضاً لأبي يوسف في قبوله منصب القضاء في عهد المهدي ثم ولديه الهادي والرشيد . فقد رفض أبو حنيفة تولى القضاء في نهاية عصر الدولة الأموية ، وهي فترة قلقه حرجة تحفل بالاضطرابات السياسية وتيارات الشعوبية بين العرب والفرس ، كما رفض أبو حنيفة أن يلي القضاء للخليفة المنصور الذي

يتخذ صورة عملية إيجابية . ولذا يقول الحنفية : « إنه يعمل بقول أبي يوسف في القضاء » .

وبعد وفاة الخليفة المهدي ، أقر ابنه الخليفة الهادي أبا يوسف في منصبه القضائي ، اعترافاً بفضله وعدله ، رغم أن الهادي قد بدل كثيراً من الرجال البارزين في عهد أبيه المهدي . حتى إذا تولى الخليفة هارون الرشيد ، لمع نجم أبي يوسف ، وأنشأ الرشيد منصب « قاضي القضاء » وكان أبو يوسف أول من تولى هذا المنصب . ويشبه المؤرخون المحدثون صاحب هذا المنصب بوزير العدل في أيامنا هذه . فكان قاضي القضاء يقيم في عاصمة الدولة ، ويولى قضاء ينوبون عنه في سائر الأمصار الإسلامية ، واتسعت دائرة سلطات أبي يوسف ، فبعد أن كان ينظر في القضايا المدنية والجناحية ، أصبح يفصل في الدعاوى ، والأوقاف وتنصيب الأولياء ، كما تولى الإشراف على الشرطة والمظالم والحسبة وبيت المال . وتحدث المؤرخ السيوطي عن منصب قاضي القضاء فقال : « كان الخلفاء يولون القاضي المقيم ببلدهم القضاء بجميع الأقاليم والبلاد التي تحت ملكهم ، ثم يستنوب القاضي من تحت أمره من شاء في كل إقليم وفي كل بلد ، ولهذا كان يلقب بقاضي القضاء ، ولا يلقب به إلا هو بهذه الصفة ، ومن عداه بالقاضي فقط . . . » ولقد كان قاضي القضاء إذ ذاك أوسع حكماً من سلاطين هذا الزمان .

حاز أبو يوسف رضا وإعجاب الخليفة هارون الرشيد ووزرائه من البرامكة ، حتى إنهم قدموه على سائر القضاة ، وخاصة القاضي محمد بن الحسن الشيباني ، وهو من تلاميذ أبي حنيفة ، كما تتلمذ أيضاً على أبي يوسف . ويعلل المؤرخون ذلك بأن أبا يوسف كان يداري ويجمال ، كما كان متواضعاً سمحاً ، خبيراً بمعاملة الناس . بينما كان الشيباني متعالياً حتى إنه رفض أن يقوم للرشيد حين قدم إلى مجلس كان فيه . ورغم صداقة أبي يوسف للشيباني في صباهما ، إلا أنه

كانت بينهما وحشة في عهد الرشيد . ورغم هذه الوحشة بين الرجلين العظيمين ، فإن الشيباني يذكر في صابر كل باب من أبواب كتابه (الجامع الصغير) : « محمد عن يعقوب (أبي يوسف) عن أبي حنيفة » .

وظل أبو يوسف يتولى منصب قاضي القضاء حتى توفي مدينة بغداد بالعراق في سنة ١٨٢ هـ . وأصبح أبو يوسف قدوة يحتذى سائر القضاة الذين أتوا بعده حذوه ، وأصبحت أحكامه في الحراج نافذة طوال العصر العباسي .

آثار أبي يوسف :

تولى أبو يوسف منصباً من أخطر مناصب الدولة العباسية ، ولكن هذا لم يشغله عن البحث والدراسة والاستقصاء ، فوضع أبحاثاً فقهية عظيمة ، وكتباً قيمة أشادت بها المصادر التاريخية القديمة .

اتصل أبو يوسف بالمحدثين ، وروى عنهم ، وفي ذلك يقول المؤرخ الطبري : « كان أبو يوسف يعقوب ابن إبراهيم القاضي فقيهاً عالماً حافظاً ، ذكر أنه يعرف بحفظ الحديث ، وأنه كان يحضر الحديث ، فيحفظ خمسين أو ستين حديثاً ثم يقوم ويمليها على الناس ، وكان كثير الحديث ، وكان قد جالس محمد بن عبد الرحمن ابن أبي ليلى ، ثم جالس أبا حنيفة ، وكان الغالب عليه مذهب أبي حنيفة ، وكان ربما خالفه أحياناً في المسألة بعد المسألة » . وكانت هذه الدراية الواسعة بالأحاديث أساساً متيناً لكثير من المؤلفات القيمة .

وكان يحاول أهل العراق أن يقارنوا بين أبي يوسف والشيباني وزفر ، وكلهم من تلاميذ أبي حنيفة . فقد روى عن المزني صاحب الشافعي أنه جاءه رجل فسأله عن أهل العراق ، قال : ما تقول في أبي حنيفة ؟ قال : سيدهم ، قال : فأبو يوسف ؟ قال : أتبعهم للحديث . قال : فمحمد بن الحسن ؟ قال : أكثرهم تفريراً . قال : فزفر ؟ قال : أحدهم قياساً .

تحدث ابن النديم في كتابه «الفهرست» عن آثار أبي يوسف ، فذكر لنا أسماء كتبه . فقد وضع أبو يوسف كتباً عن أركان الإسلام وفرائضه ، فكان من كتبه « كتاب الصلاة » ، « كتاب الزكاة » ، « كتاب الصيام » ، « كتاب الفرائض » . كما وضع أبو يوسف كتباً تناول مسائل فقهية متنوعة ، مثل « كتاب البيوع » « كتاب الحدود » ، « كتاب الوكالة » ، « كتاب الوصايا » ، « كتاب الصيد والذبائح » ، « كتاب الغصب والاستبراء » . كما وضع كتاباً عن مظاهر الاختلاف في الأمصار الإسلامية بعنوان « كتاب اختلاف الأمصار » .

وكان العصر الذي عاش أبو يوسف فيه عصر نهضة فكرية ، ظهر فيه كثير من الفقهاء والمحدثين . وقد تأثر أبو يوسف بآراء أستاذه أبي حنيفة ، واهتم بتدوينها وتسجيلها ، مع جانب من التجديد والتطوير ، دون تعصب أو تحيز ، بل طعم آراء أبي حنيفة بآراء أخرى تلقاها عن أستاذ آخر له هو : محمد بن عبدالرحمن ابن أبي ليلى الذي كان خصماً لأبي حنيفة حتى إن أبا حنيفة كان يجهله في بعض القضايا ويبرز أخطائه ، كما تأثر أبو يوسف في كتبه ببعض آراء الإمام مالك بن أنس وفقهاء الحجاز .

ومن كتب أبي يوسف « كتاب الرد على مالك بن أنس » . وكان أبو يوسف قد رحل إلى المدينة المنورة ، والتقى بالإمام مالك وناظره ، وأخذ عنه ورجع عن بعض آرائه إلى قول مالك وأقوال الحجازيين ، كما خالفهم في بعض آرائهم . وقد أشاد بعض المحدثين بأبي يوسف ، وفي مقدمتهم ابن معين وابن حنبل ، ولكن المحدثين الذين عارضوا الإمام أبي حنيفة عارضوا بالتالي تلميذه أبي يوسف . فيقول في ذلك ابن عبد البر : « كان ابن معين يثنى عليه - أي على أبي يوسف - ويوثقه ، وأما سائر أهل الحديث فهم كأعداء لأبي حنيفة وأصحابه » .

شهد أبو يوسف أمجاد البرامكة في العصر العباسي ، وأدى توليه منصب قاضي القضاة إلى قيام صداقة وطيدة بينه وبين الوزراء البرامكة وخاصة يحيى بن خالد البرمكي ، وزير الرشيد ومريبه . وقد كلف هذا الوزير أبا يوسف بتأليف « كتاب الجوامع » ، فجعله أبو يوسف في أربعين كتاباً ، تحدث فيه عن اختلاف الناس والرأي المأخوذ به .

كما طلب الخليفة هارون الرشيد من أبي يوسف أن يضع كتاب الخراج ، وفي ذلك يقول أبو يوسف : « إن أمير المؤمنين أيده الله تعالى سألني أن أضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج ، والعشور والصدقات والحوالي » .

ومما يؤسف له ضياع جميع المؤلفات التي وضعها أبو يوسف ، ولم يبق لنا من آثاره سوى « كتاب الخراج » ، إلى جانب بعض الأقوال التي نقلها عنه الفقهاء من بعده ، وأبواب نقلها عنه الإمام الشافعي في كتابه « الأم » .

منهج أبي يوسف في كتاب الخراج :

نلمس في كتاب الخراج مدى تأثر أبي يوسف بآراء أستاذه أبي حنيفة ، فقد حافظ أبو يوسف على جوهر مذهبه ، واهتم بتدوينه ، والاستدلال له ، وترتيب مسائله وتوسيعها . وكان تولى أبي يوسف منصب قاضي القضاة عاملاً على أن يخدم فيه فقه أبي حنيفة بسلطانه . كما أن أبا يوسف نقل إلينا أقوال أبي حنيفة في كل باب من أبواب الفقه وحفظ لنا ما ضاع من تراثه .

سار أبو يوسف على نهج أستاذه أبي حنيفة في التشدد في قبول الحديث ، فلم يقبل الخبر عن الرسول إلا إذا رواه جماعة عن جماعة . وفي ذلك يقول أبو يوسف « فعليك من الحديث مما تعرف العامة ، وإياك والشاذ منه . . . وكان عمر فيما بلغنا لا يقبل الحديث عن رسول

الله (ص) إلا بشاهدين ، وكان على بن أبي طالب لا يقبل الحديث عن رسول الله ، والرواية تزداد كثرة ، ويخرج منها ما لا يعرف ولا يعرفه أهل الفقه ، ولا يوافق الكتاب ولا السنة ، فإياك وشاذ الحديث ، وعليك بما عليه الجماعة من الحديث وما يعرفه الفقهاء ، فقس الأشياء على ذلك ، فما خالف القرآن فليس عن رسول الله (ص) وإن جاءت به الرواية»

وهذا التشنيد في الأخذ بالحديث دفع أبا يوسف إلى التوسع في القياس والاستحسان ، فما لم يكن فيه أثر كتاب ولا أثر صحيح ، فليس فيه أمام المجتهد إلا القياس والاستحسان . وقد ساعده على ذلك خبرته التي اكتسبها من ممارسته شئون القضاء ، فبرز في ذلك على غيره من الفقهاء .

طور أبو يوسف بعض جوانب فقه أبي حنيفة ، فقد رجع عن آراء له إلى الحديث الذي صح عنده ، وضيق حدود الرأي والقياس عما كانت عليه في عهد أبي حنيفة ، نتيجة اتصاله الوثيق بأهل الحديث وفقهائه كما كان لناظرات أبي يوسف مع الإمام مالك وفقهاء الحجاز أثرها في رجوعه عن بعض آرائه إلى آرائهم . كما أدى اتصال أبي يوسف بالمحدثين إلى تدعيم مذهب أبي حنيفة بالحديث أيضاً ، وتطعيم المذهب ببعض آراء الفقهاء الحجازيين .

تفقه أبو يوسف بفقه أهل الرأي في الكوفة ، وبفقه أهل الحديث في المدينة وغيرها . ونرى أبا يوسف في كتابه الخراج يفاضل بين الأحاديث ويختار أكثرها ذبوعاً وانتشاراً ، وفي ذلك يقول : « واتبعنا الأحاديث التي جاءت عن رسول الله (ص) في مساقاة خيبر لأنها أوثق عندنا وأكثر وأعم مما جاء في خلافها » .

كما تخالف أبو يوسف في كتاب الخراج بعض آراء أستاذه أبي حنيفة ، إذ يرى اتباع الأثر ، فيقول : « وسألت يا أمير المؤمنين عما يخرج من البحر من حلية وعنب وقد كان أبو حنيفة وابن أبي ليلى رحمهما

الله يقولان : ليس في شيء من ذلك شيء لأنه بمنزلة السمك ، وأما أنا فإني أرى في ذلك الخمس ، وأربعة أخماسه لمن أخرجه لأننا قد روينا فيه حديثاً عن عمر رضي الله عنه ، ووافقه عليه عبد الله بن عباس ، فاتبعنا الأثر ولم نر خلافاً » .

وكتاب الخراج هو خلاصة ما تلقاه أبو يوسف من علم وثقافة إلى جانب خبرته في شئون الدولة وتجاربه الشخصية . وأبو يوسف يتحدث فيه عن أمور الدولة المالية ، وهو من أصعب الأبحاث وأدقها ، ولم يكن أبو يوسف بقادر على أن يحيط بأطرافها المتعددة لو لم يكن يتولى هذا المنصب الكبير في الدولة العباسية . وساعده على ذلك أيضاً معاصرته لعهود ثلاثة خلفاء من أبرز الخلفاء العباسيين وهم المهدي والمهدي والرشيد .

ويظهر في كتاب الخراج سعة اطلاع أبي يوسف ، فقد اطلع على وثائق الدولة ودفاترها القديمة ، كما اتصل بحكم منصبه بكبار الموظفين ، واكتسب خبرة حكومية كما اتصل بشيوخ عصره في سائر الأمصار الإسلامية على اختلاف آرائهم ومذاهبهم ، فهو يروي عن أبي حنيفة ، وعن مالك بن أنس ، وعن الليث بن سعد وغيرهم ، كما يروي عن « بعض أشياخنا الكوفيين » ، وعن « بعض أشياخنا من أهل المدينة » .

وحفظ أبو يوسف لنا الكثير من أقوال صحابة الرسول وأعمالهم ، كما أبرز لنا سيرة الخليفة عمر بن الخطاب وسياسته في الحكم والإدارة والشئون المالية . فقد تمت الفتوحات الإسلامية في عهده ، ووضع أسس النظم الإدارية والمالية التي سار عليها معظم الخلفاء ، كما كان أول من دون الدواوين . ويراعى أبو يوسف ظروف الزمان والمكان ، فلا يجد حرجاً في مخالفة بعض نظم عمر بن الخطاب ، وخاصة فيما فرضه من ضرائب على الأرض ، ويعلل أبو يوسف هذه المخالفة بقوله : « إن عمر رضي الله عنه رأى الأرض في ذلك الوقت محتتملة لما وضع عليها ، ولم يقبل حين وضع عليها

ما وضع من الخراج إن هذا الخراج لازم لأهل الخراج ،
وحتم عليها ، ولا يجوز لي ولن بعدى من الخلفاء أن
ينتقص منه ولا يزيد فيه

اعتمد أبو يوسف فيما جاء في كتابه (الخراج)
من تشريع وأحكام وأخبار على كثير من الرواة نذكر
أشهرهم حسب الترتيب الأبجدى : أبان بن أبي عياش ،
الأحوص بن حكيم ، أبو اسحاق الشيباني ، إسرائيل بن
يونس ، إسماعيل بن أبي خالد ، أشعث بن سوار ،
الأعمش ، ابن جريج ، الحجاج بن أرطاة ، الحسن بن
عمارة ، الصري بن إسماعيل ، سعيد بن أبي عروبة ،
سفيان بن عيينة ، شعبة ، عبدالله بن علي ، عبدالله
المرزني ، عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان ، عبد الرحمن
ابن عبدالله المسعودي ، عطاء بن السائب ، الكلبي ،
الليث بن سعد ، ابن أبي ليلى ، مالك بن أنس ، المخالد ،
ابن سعيد ، محمد بن اسحاق ، محمد بن السائب الكلبي ،
أبو معشر ، مغيرة ، هشام بن سعد ، هشام بن عروة ،
يحيى بن سعد ، يزيد بن أبي زياد ، وغيرهم .

الملاح العامة لكتاب الخراج :

يذكر معظم المؤرخين أن أبا يوسف كان أول من
وضع كتاباً عن الخراج . ولكن الحقيقة أن معاوية
ابن يسار وزير المهدي ، والمعاصر لأبي يوسف ، كان
أول من ألف كتاباً في هذا الموضوع ، فيقول المؤرخ
ابن طباطبا في كتابه « الفخرى في الآداب السلطانية »
عن هذا الوزير : « وصنف كتاباً في الخراج ذكر فيه
أحكامه الشرعية ودقائقه وقواعده ، وهو أول من صنف
كتاباً في الخراج ، وتبعه الناس بعد ذلك ، فصنفوا
كتب الخراج . » ولكن هذا الكتاب ضاع فلم يصل
إلينا . ولذا يمكننا أن نصحح رأى هؤلاء المؤرخين ،
فبقول أن كتاب أبي يوسف عن الخراج هو أقدم
الكتب التي حفظها الأيام لنا .

ولا شك أن أبا يوسف الذي كان يتولى القضاء في
عهد المهدي قد اطلع على كتاب الوزير ، وربما استفاد
منه في تبويب ومنهج كتابه ، وإن كنا لا نستطيع
تأكيد ذلك ، لأن أبا يوسف لم يشر إلى كتاب هذا
الوزير أو إلى شخصه في صفحات كتابه ، رغم أن هذا
الوزير قد أحدث نظاماً جديدة في الخراج تغير ما كان
متبعاً في عصر الخلفاء الراشدين والأمويين ، إذ يذكر
المؤرخ ابن طباطبا أن المهدي فوض إليه تدبير أمور
الدولة ، وسلم إليه الدواوين ، فكان مقدماً في صناعته ،
وابتكر أموراً كثيرة ، منها أنه نقل الخراج إلى المقاسمة
وكان الخليفة قبله يأخذ عن الغلات خراجاً مقررأ
ولا يقاسم ، فلما تولى هذا الوزير الوزارة قرر أمر
المقاسمة ، وجعل الخراج على النخل والشجر ،
واستمرت الحال على ذلك طوال العصر العباسي .
ولكن من اليسير علينا أن نفرس اهمال أبي يوسف
لكتاب الوزير معاوية بن يسار ، فقد كان الوزير
متكبراً متعالياً ، كم اتهم ابنه بالزندقة فأمر الخليفة
المهدي بقتله ، واضطر الوزير إلى اعتزال الوزارة
فلزم داره حتى مات سنة ١٧٠ هـ .

هذا كثير من الكتاب حذو أبي يوسف في الاهتمام
بموضوع « الخراج » ، فقد وضع يحيى بن آدم كتاباً
في هذا الموضوع وسماه « الخراج » أيضاً . كما تحدث
الإمام الشافعي عن الخراج في كتابه « الأم » . ثم ألف
أبو عبيد بن سلام كتابه « الأموال » وأصبح الخراج
أبرز مواضيع كتابه ، كما نال الخراج اهتمام الماوردي
في كتابه « الأحكام السلطانية » .

وكتاب أبي يوسف ، وغيره من الكتب التي تدور
حول نفس الموضوع ، تمد المؤرخ بكثير من المعلومات
عن أحوال الشعوب الإسلامية ، وتنظمهم الإدارية
والمالية ، إذ يطرق هؤلاء الكتاب الجوانب المختلفة من
حياة هذه الشعوب ، وتمدنا بصور اجتماعية واقتصادية
مختلفة ، كما تحوى الكتب كثيراً من الفتاوى في كثير

عرض لكتاب الخراج ومقتطفات منه :

١ - يبدأ كتاب الخراج برسالة وجهها المؤلف إلى أمير المؤمنين هارون الرشيد ، بدأها بالدعاء للخليفة ، ثم تحدث عن هدفه من تأليف الكتاب ، وأنه قد قام بتأليفه بتكليف من الخليفة .

قال أبو يوسف : « إن أمير المؤمنين ، أيدته الله تعالى ، سألتني أن أضع له كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج ، والعشور ، والصدقات ، والجواري ، وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به ، وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته ، والصلاح لأمرهم . وفق الله تعالى أمير المؤمنين ، وسدده وأعانته على ما تولى من ذلك ، وسلمه مما تخاف ويحذر . وطلب أن أبين له ما سألتني عنه مما يريد العمل به ، وأفسره وأشرحه ، وقد فسرت ذلك وشرحته » .

والآراء مختلفة حول تفسير كلمة « الجوالي » التي أشار أبو يوسف إليها آنفاً . فهناك تفسير يذهب إلى أن الجوالي هي اختيار الأحسن من كل شيء ، سواء أكان من الممتلكات أم من الشاء ، الهزيل منها الصغير ، وربما كانت هذه هي وظيفة العامل في الزكاة . أما التفسير الآخر لكلمة جوالي فيذهب إلى جمع كلمة « جالية » ، وأصلها الجماعة التي تفارق وطنها وتنزل وطناً آخر ، ومنه قيل لأهل الذمة الذين أجلاهم عمر بن الخطاب عن الجزيرة العربية « جالية » ثم نقلت هذه اللفظة إلى الجزيرة التي أخذت منهم ، ثم استعملت في كل جزية وإن لم يكن صاحبها جلا عن وطنه . والرأي الثاني أقرب إلى الحقيقة والواقع :

ثم يتوجه أبو يوسف إلى الخليفة الرشيد بالنصيحة والموعظة فيقول : « لا تؤخر عمل اليوم إلى غد ، فانك إذا فعلت ذلك أضعت . إن الأجل دون الأمل ، فبادر الأجل بالعمل ، فانه لا عمل بعد الأجل . إن الرعاية مؤدون إلى ربهم ما يؤدي الراعي إلى ربه . فأقم الحق

من القضايا والمواضيع التي تشغل الأذهان وتختلف فيها الآراء والمشكلات التي يعانون منها . وإن كان كتاب الخراج لأبي يوسف ليس بكتاب تاريخ ، بل كتاب فقه بهم بصفة خاصة بفقهاء الخراج ، إلا أنه بمدنا بصور تاريخية تصور تطبيق الأحكام الفقهية في الدولة الإسلامية ويحدثنا عن الفتوح الإسلامية للعراق والشام .

ولندرك تفسر أبي يوسف للخراج ، علينا أن نستعرض بعض الآراء حول كلمة « خراج » . فقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية أن كلمة « خراج » مشتقة من كلمة (Choregia) الآرامية أو البيزنطية ، ومعناها العام « الضريبة » . أما معاجم اللغة فهي تفسرها تفسيرات مختلفة ، فقد جاء في لسان العرب أن الخراج هو الإتاوة التي تؤخذ من أموال الناس ، كما يوسع لسان العرب نطاق الخراج بحيث يشمل الجزية التي تفرض على أهل الذمة ، ثم يلخص معنى الخراج في كلمة واحدة هي « الغلة » . أما « القاموس » فيذكر أن الخراج هو الإتاوة . والخراج في لغة العرب اسم للكراء والغلة ، ومنه قول الرسول : « الخراج بالضمان » ويذكر « جب » و « كرامرز » في مختصر دائرة المعارف الإسلامية أن كلمة خراج فارسية اقتبسها الفرس عن الكلمة الآرامية « هلاك » . ويعرف الماوردي الخراج في الإسلام بأنه « هو ما وضع على رقاب الأرض من حرق تؤدى عليها » . ويذكر الماوردي أيضاً أن هناك فرقاً كبيراً بين الخراج والعشر ، فالخراج مقابل إيجار الأرض ، أما العشر فيؤخذ من المسلمين كزكاة على الزرع والتمر ، كما يذكر أنه لا يجوز أن يجتمع العشر والخراج ، بل يسقط العشر بالخراج . ويعرف ابن آدم أرض الخراج بأنها هي كل أرض مسحت ووضعت عليها الخراج ، ويعرفها النويري في « نهاية الأرب » أنها كل أرض روتها أنهار الخراج ، وخصصت لزراعة الغلات المختلفة ، أو جعلت بساتين للنخل والكروم وغيرها ، أو شغلت بالطواحين ٥

فما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار ، فان أسعد
الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت به رعيته :
ولا تزغ فتزيع رعيتك ، وإياك والأمر بالهوى والأخذ
بالغضب وكن من خشية الله على حذر . . . واحذر
فإن الحذر بالقلب وليس بلسان ، واتق الله دائماً
ومضى أبو يوسف في نصيحته ، فيذكر الخليفة
بالآخرة ويوم الحساب ، ويدلل على نصيحته بآيات
قرآنية كريمة ، ثم يقول : « فلا تلق الله غداً وأنت
سالك سبيل المعتدين ، فان ديان يوم الدين إنما يدين
العباد بأعمالهم ولا يدينهم بمنزلهم » .

ثم يبين أبو يوسف للخليفة أهمية كتابه ، ويطلب
منه أن يتمن فيه حتى يفهمه ، ثم يضعه موضع التنفيذ ،
حتى لا يقع ظلم على أحد ، ويلصق أمر الرعية ،
فيقول : « وقد كتبت لك ما أمرت به وشرحت لك
وبينته ، فتفقهه وتدبره وردد قراءته حتى تحفظه : فاني
قد اجتهدت لك في ذلك ولم آلك والمسلمين نصحاً ،
ابتغاء وجه الله وثوابه وخوف عقابه : وإني لأرجو
— إن عملت بما فيه من البيان — أن يوفر الله لك خراجك
من غير ظلم مسلم ولا معاهد ، ويصلح لك رعيتك ،
فان صلاحهم باقامة الحدود عليهم ورفع الظلم عنهم
والتظلم فيما اشتبه من الحقوق عليهم . وكتبت لك أحاديث
حسنة ، فيها ترغيب وتحضيض على ما سألت عنه ، مما
تريد العمل به إن شاء الله . فوقمك الله لما يرضيه عنك ،
وأصلح بك ، وعلى يدك » .

ويدعم أبو يوسف نصائحه وتحذيراته بكثير من
الأحاديث النبوية ، تحث على العدل وعمل الخير
وتحقيق صلاح الأمة ، وتستغرق هذه الأحاديث نحو
خمس صفحات . ثم مضى أبو يوسف في تدعيم أقواله ،
فيذكر وصية أبي بكر لخلفه عمر بن الخطاب ، ويتبعها
بخطبة لأبي بكر يوصي فيها الناس بتقوى الله ويذكرهم
بالموت : ثم يذكر خطبة لعمر بن الخطاب يطلب فيها
من الرعية تقوى الله وطاعته . ثم يذكر أبو يوسف

وصية عمر لمن يتولى الخلافة بعده والتي جاء فيها :
« . . . وأوصيه بأهل الأنصار ، فانهم ردة الإسلام
وغيظ العدو وجباة المال ، أن لا يأخذ منهم إلا فضلهم
عن رضئ منهم » . ثم يذكر أبو يوسف كثيراً
من خطب عمر ووصاياها لولائه في الأمصار . ثم تحدث
أبو يوسف عن عثمان وبكائه حينما كان يتذكر الجنة
والنار ، كما ذكر وصايا علي بن أبي طالب لعماله
وولائه . ثم تحدث أبو يوسف عن رد الخليفة الأموي
عمر بن عبد العزيز المظالم ، وكان هذا الخليفة هو
الوحيد من بين خلفاء بني أمية الذي ينال تقدير الخلفاء
العباسيين ، مما جعل أبو يوسف يخصه بالحديث من بين
الخلفاء الأمويين العديدين .

٢- ثم يبدأ باب « قسمة الغنائم » : ويوجه
أبو يوسف الحديث إلى الرشيد : فيذكر أحكام قسمة
الغنائم كما جاءت في القرآن الكريم ويعدد الآيات
القرآنية ، ثم يتحدث عما فعله الرسول في موقعة بدر
وغيرها من الغزوات : ثم يذكر رأى أستاذه أبي حنيفة
ويتحدث عن تطبيق هذه القواعد في الدولة الإسلامية ،
في عهد الخلفاء الراشدين ، وفي عهد الخليفة الأموي
عمر بن عبد العزيز . ثم ينتهي أبو يوسف إلى إبداء
رأيه الخاص في طريقة قسمة الغنائم .

أما أحكام القرآن الكريم في قسمة الغنائم : فيقول
أبو يوسف عنها : « أما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين
من قسمة الغنائم إذا أصيبت من العدو وكيف يقسم
ذلك ، فان الله تبارك وتعالى قد أنزل بيان ذلك في
كتابه فقال فيما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم
« واعلموا أنما غنمتم من شيء فان لله خمسه وللرسول
ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم
آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى
الجمعان ، والله على كل شيء قدير » . فهذا والله
أعلم فيما يصيب المسلمون من عساكر أهل الشرك ،
وما أجلبوا به من المتاع والسلاح والكرراع ، فان في

ذلك الخمس لمن سمي الله عز وجل في كتابه العزيز ،
وأربعة أخماسه بين الجند الذين أصابوا ذلك : من أهل
الديوان وغيرهم ، يضرب للفارس منهم ثلاثة أسهم ،
سهمان لفرسه ، وسهم له ، وللراجل سهم على ما جاء
في الأحاديث والآثار :

وبعد أن استعرض أبو يوسف سنة الرسول في
قسمة الغنائم ، وآراء الفقهاء ، وما سار عليه الخلفاء ،
أبدى رأيه فقال : « فعلى هذا تقسم الغنيمة فما أصاب
المسلمون من عساكر أهل الشرك وما أجليوا به من
المتاع والسلاح والكرع وغير ذلك ، وكذلك كل
ما أصيب في المعادن من الذهب والفضة والنحاس
والحديد والرصاص ، فان في ذلك الخمس - في أرض
العرب كان أو في أرض العجم - وخمسه الذي يوضع
فيه مواضع الصدقات : وفيما يستخرج من البحر من
حلية وعنبر والخمسة يوضع في مواضع الغنائم » :

٣- والباب الثالث هو باب « الفئ والحراج » ،
فذكر أبو يوسف أن المقصود بالفئ هو الحراج في
العصر العباسي ، واستشهد أبو يوسف في ذلك بكثير
من الآيات القرآنية الكريمة ، ثم تحدث عن سنة عمر بن
الخطاب في الفئ ، وخاصة بعد فتح بلاد العراق والشام
عرف أبو يوسف الفئ والحراج فقال : « فأما الفئ
يا أمير المؤمنين فهو الحراج عندنا ، حراج الأرض ،
والله أعلم . لأن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه « ما أفاء
الله على رسوله من أهل القرى فله وللرسول ولذي
القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون
دولة بين الأغنياء منكم » ، حتى فرغ من هؤلاء ثم قال
عز وجل « للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم
وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً ، وينصرون
الله ورسوله أولئك هم الصادقون » ، ثم قال تعالى
« والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر
إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا

ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن
يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » ، ثم قال تعالى
« والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا
الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين
آمَنوا ، ربنا إنك رؤوف رحيم » ، فهذا والله أعلم لمن
جاء من بعدهم من المؤمنين إلى يوم القيامة » :

وتحدث أبو يوسف عن سياسة عمر بن الخطاب
نحو تقسيم أراضي بلاد العراق والشام فقال : « وقد
سأل بلال وأصحابه عمر بن الخطاب رضى الله عنه
قسمة ما أفاء الله عليهم من العراق والشام ، وقالوا اقسم
الأرضين بين الذين افتتحوها كما تقسم غنيمة العسكر ؟
فأبى عمر ذلك عليهم ، وتلا عليهم هذه الآيات ، وقال :
قد أشرك الله الذين يأتون من بعدكم في هذا الفئ ، فلو
قسمته لم يبق لمن بعدكم شيء ، ولئن بقيت ليلبغن
الراعى بصنعاء نصيبه من هذا الفئ ودمه في وجهه » :

وأبو يوسف كعادته يبدي رأيه الخاص في نهاية
كل فصل بعد أن يعرض أحكام الدين ، وسنة الرسول ،
وسياسة الخلفاء ، فيقول : « والذي رأى عمر رضى
الله عنه من الامتناع من قسمة الأرضين بين من
افتتحتها عندما عرفه الله ما كان في كتابه من بيان
ذلك توفيقاً من الله كان له فيما صنع ، وفيه كانت
الخيرة لجميع المسلمين ، وفيما رآه من جمع خراج
ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم ، لأن
هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس في الأعطيات والأرزاق
لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير في الجهاد ،
ولما أمن رجوع أهل الكفر إلى مدتهم إذا خلت من
المقاتلة والمرزقة ، والله أعلم بالخير حيث كان » ٥

٤- ثم يعقد أبو يوسف فصلاً يتحدث فيه عن
أرض العراق المعروفة بأرض السواد لما اشتهرت به من
خصوبة جعل لوئها أسود ، وجعل عنوان هذا الفصل
« ما عمل به في السواد » . ولخص أبو يوسف ما تناوله
هذا الفصل فقال : « أما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين

من أمر السواد وما الذي كان أهله، عوملوا به في خراجهم وجزية رعوهم ، وما كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه فرضه عليهم في ذلك . وهل يجرى في شيء منه صلح ، وما الحكم في الصلح منه والعنوة » .

وتحدث أبو يوسف عن سياسة عمر بن الخطاب نحو أرض السواد فقال : « وافتتح عمر السواد والأهواز فأشار عليه المسلمون أن يقسم السواد وأهل الأهواز وما افتتح من المدن فقال لهم : فما يكون لمن جاء من المسلمين ؟ فترك الأرض وأهلها ، وضرب عليهم الجزية ، وأخذ الخراج من الأرض » .

وفصل أبو يوسف الحديث عن المحاورات ، والمناخرات التي دارت بين عمر بن الخطاب وكثير من الصحابة حول تقسيم أرض السواد . كما تحدث أبو يوسف عن فتح المسلمين للأراضي الفارسية ولقاء المغيرة للقائد الفارسي رستم ، وعدد انتصارات المسلمين على الفرس في كثير من المواقع الحربية ، وخاصة موقعي القادسية ونهاوند .

وكان بلال بن رباح وعبد الرحمن بن عوف يريدان تقسيم السواد ، بينما رأى عمر وعلى وطلحة غير ذلك . قال عمر : « فكيف أقسمه لكم ، وأدع من يأتي بغير قسم ؟ فأجمع على تركه وجمع خراجه وإقراره في أيدي أهله ووضع الخراج على أرضهم والجزية على رؤسهم » .

وأشار أبو يوسف عما انتهجه عمر بعد أن قرر عدم تقسيم السواد ، فقد « مسح السواد فبلغ ستة وثلاثين ألف ألف جريب ، وأنه وضع على جريب الزرع درهماً وقفزاً ، وعلى الكرم عشرة دراهم ، وعلى الرطبة خمسة دراهم ، وعلى الرجل اثني عشر درهماً ، وأربعة وعشرين درهماً ، وثمانية وأربعين درهماً » .

وتحدث أبو يوسف عن تطبيق سياسة عمر ، فقد ولى عمر عثمان بن حنيف مساحة الأراضي ، وجعل أجره على ذلك ربع شاة يومياً . وقام عثمان بمسح

الأرض ، وجعل على جريب العنب عشرة دراهم ، وعلى جريب النخل ثمانية دراهم ، وعلى جريب القصب ستة دراهم ، وعلى جريب الحنطة أربعة دراهم ، وعلى جريب الشعير درهمين ، اثني عشر درهماً . كما فرض الجزية على أهل الذمة ، فكان الموسر منهم يدفع ثمانية وأربعين درهماً ، ويدفع متوسط الحال أربعة وعشرين درهماً ، ويدفع الفقير اثني عشر درهماً ، مع إعفاء النساء والصبيان .

وقد ولى عمر بن الخطاب حذيفة على بعض أراضي السواد ، واستدعاه يوماً هو وعثمان بن حنيف ، وقال لهما : لعلكما حملتما الأرض ما لا تطيق . فقال عثمان : حملت الأرض أمراً هي له مطيقة ولو شئت لأضعفت أرضي . وقال حذيفة : وضعت عليها أمراً هي له محتملة ، وما فيها كثير فضل . فقال عمر لهما : انظرا لا تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق ، أما لئن بقيت لأرامل أهل العراق لأدعهن لا محتجن إلى أحد بعدى . وقبل وفاة عمر أوصى بأهل الذمة « أن يوفى لهم بعدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وأن يقاتل من ورائهم » .

٥ - وانتقل أبو يوسف من بلاد العراق إلى بلاد الشام والجزيرة ، فخصص فصلاً جعل عنوانه « فصل في أرض الشام والجزيرة » تحدث فيه عن شروط الصلح الذي عقده المسلمون مع أهل هذه البلاد ، وذكر أبو يوسف مصدره الذي استمد منه معلوماته ، وهو شيخ من أهل الحيرة ، وهي الإمارة العربية التي قامت على مشارف الشام قبل الإسلام .

فقال أبو يوسف : « وأما ما سألت عنه يا أمير المؤمنين من أمر الشام والجزيرة وفتوحهما ، وما كان جرى عليه الصلح فيما صولح عليه أهله منهما ، فاني كتبت إلى شيخ من أهل الحيرة له علم بأمر الجزيرة والشام في فتحهما أسأله عن ذلك » . ثم نقل أبو يوسف رسالة هذا الشيخ ، وهي رسالة مطولة تستعرض تاريخ إقليم الجزيرة قبل الإسلام ، وسكانه وحدوده ، ثم

تحدث عن رسالته عن الجيوش الإسلامية وقوادها وفتوحاتها ومعاهدات الصلح المختلفة التي وقعها قواد المسلمين مع أهالي هذه البلاد ، وقد اختلفت هذه المعاهدات في نصوصها وشروطها :

٦ - عقد أبو يوسف فصلاً بعنوان « كيف كان فرض عمر لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم » ، بدأه بأن تحدث عن سنة الرسول حينما جاءه مال البحرين ، فقد أعطى كل رجل ما كان قد وعده به ، ثم قسم بقية المال « بالسوية على الصغير والكبير ، والحر والمملوك ، والذكر والأنثى » : ثم تحدث أبو يوسف عن سياسة أبي بكر ، فقد قسم المال فساوى بين الناس جميعاً ، واغترض البعض على هذه السياسة وقالوا إن بين الناس « أناس لهم فضل وسوابق وقدم » ، فأجاب أبو بكر : « أما ما ذكرتم من السوابق والقدم والفضل فما أعرفني بذلك ، وإنما ذلك شيء ثوابه على الله جل ثناؤه ، وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة » . أما عمر بن الخطاب فقد رسم سياسته فقال : « لا أجعل من قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم كمن قاتل معه » ، ولذا فضل السابقين في الإسلام وقدماء المهاجرين والأنصار محمد شهدوا موقعة بدر « وفرض لمن كان له إسلام كإسلام أهل بدر دون ذلك ، أنزلهم على قدر منازلهم من السوابق » :

وحاول البعض تملق عمر بن الخطاب فقالوا له : ابدأ بنفسك : ولكن عمر كان عادلاً ، فرفض رأيهم « فبدأ بالأقرب من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففرض للعباس ثم لعلي رضي الله تعالى عنهما ، حتى والى بين خمس قبائل حتى انتهى إلى بني عدى بن كعب » ٧ - رأينا أبا يوسف وقد أفرد فصلاً بعنوان « ما عمل به في السواد » أي أنه تحدث عن الماضي ، ثم نراه يعقد فصلاً آخر بعنوان « ما ينبغي أن يعمل به في السواد » ، فقد رأى وجوب تغيير السياسة القديمة المتبعة ، تبعاً لسنة التطور وتغير ظروف الزمان والمكان :

وأراد أبو يوسف أن يدعم رأيه وأقترحاته ، فذكر أنه وصل إلى هذه الآراء بعد بحث ودراسة واستشارة المتخصصين في مسائل الخراج :

قال أبو يوسف : « نظرت في خراج السواد وفي الوجوه التي يجبي عليها ، وجمعت في ذلك أهل العلم بالخراج وغيرهم وناظرتهم فيه ، فكل قد قال فيه بما لا يحل العمل به ، فناظرتهم فيما كان وظف عليهم في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في خراج الأرض واحتمال أرضهم إذ ذاك لتلك الوظيفة » :

ثم قارن أبو يوسف بين الظروف التي تمت فيها نظم عمر بن الخطاب ، وظروف العصر الذي يعيش أبو يوسف فيه ، فقال : « فذكروا - أي أهل العلم الذين ناظرهم - أن العامر كان من الأرضين في ذلك الزمان كثيراً وأن المعطل كان يسيراً ، ووصفوا كثرة العامر الذي لا يعمل وقلة العامر الذي يعمل وقالوا لو أخذنا بمثل ذلك الخراج الذي كان حتى يلزم للعامر المعطل مثل ما يلزم للعامر المعطل ثم نقوم بعمارة ما هو الساعة عامر ولا نحدثه لضعفنا عن أداء خراج ما لم يعمله وقلة ذات أيدينا » .

وتحدث أبو يوسف عن مشكلة الغلاء وارتفاع الأسعار أو انخفاضها ، وعلاقة ذلك بنظرية العرض والطلب ، فقال : « والرخص والغلاء بيد الله تعالى لا يقومان على أمر واحد . وكذلك وظيفة الدراهم مع أشياء كثيرة تدخل في ذلك تفسيرها يطول ، وليس للرخص والغلاء حد يعرف ولا يقام عليه إنما هو أمر من السماء لا يدري كيف هو . وليس الرخص من كثرة الطعام ولا غلاؤه من قلته ، إنما ذلك أمر الله وقضاؤه ، وقد يكون الطعام كثيراً وغالياً ، وقد يكون قابلاً ورخيصاً » :

٨ - ثم عقد أبو يوسف فصلاً عن القطن ، فقال « فأما القطن من أرض العراق فككل ما كان لكسرى ومرازبه وأهل بيته مما لم يكن في يد أحد » . كما تحدث

من أموالهم فلهم ، وكذلك أرضهم لهم وهي أرض عشر » .

ثم يعقد أبو يوسف فصلا عن « موات الأرض في الصلح والغنوة وغيرهما ، ويبدى أبو يوسف رأيه في الأرض الموات فيقول : « فإذا لم يكن في هذه الأرضين أثر بناء ولا زرع ولم تكن فينا لأهل القرية ولا مسرحاً ولا موضع مقبرة ولا موضع محتطمهم ولا موضع مرعى دوابهم وأغنائهم ، وليست ملك لأحد ولا في يد أحد ، فهي موات ، فمن أحيها أو أحيها منها شيئاً فهي له . ولك - أي للرشد - أن تقطع ذلك من أحببت ورأيت ، وتؤجره وتعمل فيه بما ترى أنه صلاح ، وكل من أحيها أرضاً مواتاً فهي له » .

ويخصص أبو يوسف فصلاً صغيراً بعنوان « الحكم في المرتدين إذا حاربوا ومنعوا الدار » فقال أبو يوسف عن الحكم فيهم : « ولو أن المرتدين منعوا الدار وحاربوا سبي نساؤهم وذرياتهم وأجبروا على الإسلام » ثم تحدث أبو يوسف عن الخراج الذي يفرض على ما يخرج من البحر ، فقال : « وسألت يا أمير المؤمنين عما يخرج من البحر من حلية وعنبر ، فان فيما يخرج من البحر من الحلية والعنبر الخمس ، فأما غيرها فلا شيء فيه » . وخالف أبو يوسف في ذلك أبا حنيفة وابن أبي ليلى فقد اعتبرا كل ما يخرج من البحر بمنزلة السمك ، واعتمد أبو يوسف في رأيه على رأي عمر وعبدالله بن عباس . ثم تحدث أبو يوسف عن الخراج الذي يفرض على العسل والجوز واللوز فقال : « وأما العسل والجوز واللوز وأشباه ذلك فان في العسل العشر إذا كان في أرض العشر ، وإذا كان في أرض الخراج فليس فيه شيء ، وإذا كان في المفاوز والجبال على الأشجار أو في الكهوف فلا شيء فيه ، وهو بمنزلة الثمار تكون في الجبال والأودية لا خراج عليها ولا عشر » وعقد أبو يوسف فصلاً صغيراً بعنوان « قصة تجران وأهلها » ، وقد كانت مدينة تجران قبل الإسلام

عن الصوافي فقال عنها : « وهي التي يقال لها صوافي الأثمار ، وذلك أنه - أي عمر بن الخطاب - كان أصفى كل أرض كانت لكسرى أو لأهله أو لرجل قتل في الحرب أو لحنق بأرض الحرب أو مفيض ماء أو دير يريد » . ثم شرح أبو يوسف وضع هذه الصوافي والسياسة الواجب اتباعها فيها : « وذلك بمنزلة المال الذي لم يكن لأحد ولا في يد وارث ، فللإمام العادل أن يجيز منه ويعطى من كان له غناء في الإسلام ويضع ذلك موضعه ولا يخاي به . . . وإنما صارت القطائع يؤخذ منها العشر لأنها بمنزلة الصدقة ، وإنما ذلك إلى الإمام إن رأى أن يصير عليها عشرأ فعل ، وإن رأى أن يصير عليها عشرين فعل ، وإن رأى أن يصيرها خراجاً - إذا كانت تشرب من أنهار الخراج - فعل ذلك موسعاً عليه في أرض العراق خاصة ، وإنما يؤخذ منها العشر لما يلزم صاحب الإقطاع من المئونة في حفر الأنهار وبناء البيوت وعمل الأرض ، وفي هذا مئونة عظيمة على صاحب الإقطاع ، فن ثم صار عليه العشر لما يلزم من المئونة . والأمر في ذلك إليك - أي إلى هارون الرشيد - وما رأيت أنه أصلح فاعمل به إن شاء الله » .

٩ - ثم عقد أبو يوسف فصلاً صغيراً ، تحدث في أولها عن أراضي الحجاز واليمن والأراضي العربية التي افتتحها الرسول ، ورأى أبو يوسف أنه « لا يزداد عليها ولا ينقص منها لأنه شيء قد جرى عليه أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحكمه » . ثم عقد فصلاً عن أرض البصرة وخراسان فقال : « فأنهما عندي بمنزلة السواد وأما ما افتتح من ذلك عنوة فهو أرض خراج وما صولح عليه أهله فعلى ما صولحوا عليه ولا يزداد عليهم ، وما أسلم عليه أهله فهو عشر » . ثم جعل أبو يوسف فصلاً بعنوان « فصل في إسلام قوم من أهل الحرب وأهل البادية على أرضهم وأموالهم » ، وأبدى أبو يوسف رأيه في السياسة الواجب اتباعها نحوهم فقال : « فان دماءهم حرام ، وما أسلموا عليه

مركزاً للجمالية المسيحية في بلاد اليمن . وتحدث أبو يوسف عن سنة الرسول ، والسياسة التي اتبعها أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، ويرى أبو يوسف أن يعامل أهل نجران معاملة أهل الذمة فيدفعوا الجزية « ولو اشترى نجراني أرضاً من أرض الخراج كان عايه فيها الخراج » .

١٠ - خصص أبو يوسف فصلاً عن « الصدقات » ويرى أبو يوسف أن يتبع الولاية سنة الرسول ثم سياسة الخلفاء ، فقال : « وسألت يا أمير المؤمنين عما يجب فيه الصدقة في الإبل والبقر والغنم والخيول ، وكيف ينبغي أن يعامل من وجب عليه شيء من الصدقة في كل صنف من هذه الأصناف ؟ فمر يا أمير المؤمنين بالاملين عليها بأخذ الحق وإعطائه من وجب له وعليه العمل في ذلك بما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم الخلفاء من بعده ، واعلم أنه من سن سنة حسنة كان له أجرها ومثل أجر من عمل بها من غير أن ينتقص من أجورهم شيء ، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من غير أن ينتقص من أوزارهم شيء » . ويشير أبو يوسف إلى حديث الرسول : « تجاوزت لكم عن صدقة الخيل والرقيق » . ويقول أبو يوسف « فأما الإبل والعوامل والبقر العوامل فليس فيها صدقة . . . ولا تؤخذ الصدقة من الإبل والبقر حتى يحول عليها الحول . . . والمعز والضأن في الصدقة سواء » .

ثم يختم أبو يوسف حديثه عن الصدقات فيقول : « لا يحل لرجل يؤمن بالله واليوم الآخر منع الصدقة ولا إخراجها من ملكه إلى ملك جماعة غيره ليفرقها بذلك فتبطل الصدقة عنها بأن يصير لكل واحد منهم من الإبل والبقر والغنم ما لا يجب فيه الصدقة ولا يحتال في إبطال القدمة بوجه ولا سبب » .

١١ - يتحدث أبو يوسف عن عدة مواضع متنوعة ، يبدأها بالحديث عن (بيع السمك في الآجام) ويقول : « فلا يجوز بيع السمك في الماء لأنه غرر وهو الذي يصيده ، فانه كان يؤخذ باليد من غير أن يصاد

فلا بأس ببيعه » . ثم تحدث عن « إجارة الأرض البيضاء وذات النخل » فقال : « فان أصحابنا من أهل الحجاز وأهل المدينة على كراهة ذلك وإفساده ، ويقولون الأرض البيضاء مخالفة للنخل والشجر ولا يرون بأساً بالمساقاة في النخل والشجر بالثلث والربع وأقل وأكثر ، وأما أصحابنا من أهل الكوفة فاختلفوا في ذلك ، فمن أجاز المساقاة في النخل والشجر منهم أجاز المزارعة في الأرض البيضاء بالنصف والثلث . . . » ثم يبدي أبو يوسف رأيه الخاص فيقول : « أن ذلك كله جائز مستقيم صحيح ، وهو عندي بمنزلة مال المضاربة قد يدفع الرجل إلى الرجل المال مضاربة بالنصف والثلث فيجوز هذا وهذا مجهول لا يعلم ما مبلغ ربحه ليس فيه اختلاف بين العلماء » .

ثم تحدث أبو يوسف عن « الجزائر في دجلة والفرات » واعتبرها بمنزلة الأرض الموات فن أحياها فهى له ، بشرط عدم الإضرار بالآخرين . ثم تحدث عن « القنى والآبار والأنهار والشرب » فقال : « وكل نهر له منفعة أكثر فلا ينبغي للإمام أن يهدمه ولا يتعرض له ، وكل نهر مضرته أكثر من منفعته فعلى الإمام أن يهدمه ويظمه ويسويه بالأرض إلا ما كان للشفة » . كما قال « وكل من كانت له عين أو بئر أو قناة فليس له أن يمنع ابن السبيل من أن يشرب منها ويسقى دابته وبعيره وغنمه منها ، وليس له أن يبيع من ذلك شيئاً للشفة . . . وله أن يمنع السقى للأرض والزرع والنخل والشجر . . . ولا بأس ببيع الماء إذا كان في الأوعية » . ثم تحدث أبو يوسف عن « الكلا والمروج » فقال : « ولو أن أهل قرية لهم مروج يرعون فيها ويحتطبون منها قد عرف أنها لهم ، فهى لهم على حالها يتبايعونها ويتوارثونها ويحدثون فيها ما يحدث الرجل في ملكه ، وليس لهم أن يمنعوا الكلا ولا الماء ، ولأصحاب المواشى أن يرعوا في تلك المروج ويستقوا من تلك المياه . . . وليس لأحد أن يحدث مرجاً في ملك غيره ، ولا يتخذ

فيه نهراً ولا بئراً ولا مزرعة إلا باذن صاحبه ،
ولصاحبه أن يحدث ذلك كله » .

١٢ - عقد أبو يوسف فصلا عن « شأن نصارى
بنى تغلب وسائر أهل الذمة وما يعاملون به » . فقال إن
بنى تغلب ضوعف عليهم الصدقة في أموالهم وأسقطت
الجزية عن رؤوسهم وحدد أبو يوسف من تجب عليه
دفع الجزية ومقدارها فقال : « الجزية واجبة على
جميع أهل الذمة ممن في السواد وغيرهم من أهل الحيرة
وسائر البلدان من اليهود والنصارى والخوس والصابئين
والسامرة ، ما خلا نصارى بنى تغلب وأهل نجران
خاصة ، وإنما تجب الجزية على الرجال منهم دون النساء
والصبيان . وعلى الموسر ثمانية وأربعون درهماً ، وعلى
الوسط أربعة وعشرون ، وعلى المحتاج الحراث العامل
بيده اثنا عشر درهماً ، يؤخذ ذلك منهم في كل ستة ،
وإن جاءوا بعرض قبل منهم ، مثل الدواب والمتاع
وغير ذلك . ويؤخذ منهم بالقيمة ولا يؤخذ منهم في
الجزية ميتة ولا خنزير ولا خمر » . ثم تحدث أبو يوسف
عن لباس أهل الذمة وزيمهم فقال : « لا يترك أحد منهم
يتشبه بالمسلمين في لباسه ولا في مركبه ولا في هيئته »
واعتمد أبو يوسف في تفسير ذلك على قول عمر بن
الخطاب : « حتى يعرف زيمهم من زى المسلمين » .

ويرى أبو يوسف أن تؤخذ الجزية من الخوس
والصابئة والسامرة على ألا يأكل المسلمون من ذبائحهم
ولا يتزاوجون معهم . وكان الرسول قد صالح مجوس
أهل هجر « على أن يأخذ منهم الجزية ، غير مستحل
مناكحة نسائهم ولا أكل ذبائحهم » .

١٣ - عقد أبو يوسف فصلا عن « العشور » ، وقد
حددها فقال : « يؤخذ من المسلمين ربع العشر ، ومن
أهل الذمة نصف العشر ، ومن أهل الحرب العشر ،
من كل ما مر به على العاشر وكان للتجارة ، وبلغ قيمة
ذلك مائتي درهم فصاعداً أخذ منه العشر ، وإن كانت

قيمة ذلك أقل من مائتي درهم لم يؤخذ منه شيء . . .
وما لم يكن من مال التجارة ومروا به على العاشر فليس
يؤخذ منه شيء » . ثم تحدث أبو يوسف عن سياسة عمر
في العشور وأبدى رأيه الخاص فقال : « فإن عمر بن
الخطاب وضع العشور فلا بأس بأخذها إذا لم يتعد فيها
على الناس ، ويؤخذ بأكثر مما يجب عليهم . وكل ما أخذ
من المسلمين من العشور فسيبيله سبيل الصدقة وسبيل
ما يؤخذ من أهل الذمة جميعاً وأهل الحرب سبيل
الخراج ، وكذلك ما يؤخذ من أهل الذمة جميعاً من
جزية رؤوسهم وما يؤخذ من مواشي بنى تغلب فإن
سبيل ذلك كله سبيل الخراج ، يقسم فيما يقسم فيه
الخراج . وليس هو كالصدقة ، قد حكم الله في الصدقة
حكماً قد قسمها عليه فهي على ذلك ، وحكم في الخمس
حكماً فهو على ذلك . فتلك الوجوه التي عليها الصدقات
في المواشي والأموال . وعلى هذا العمل عندنا والله
أعلم » .

١٤ - ثم عقد أبو يوسف فصلا عن « الكنائس
والبيع والصلبان » فرأى أن يبقى لأهل الذمة كنائسهم
لأنه « كان الصلح جرى بين المسلمين وأهل الذمة في
أداء الجزية ، وفتحت المدن علي أن لا تهدم بيعهم
ولا كنائسهم » . ثم عقد أبو يوسف فصلا « في أهل
الدعارة والتلصص والجنايات وما يجب فيه من الحدود »
ورسم أبو يوسف للخليقة السياسة الواجب السير عليها
فقال : « لا بد لمن كان في مثل حالهم إذا لم يكن له شيء
يأكل منه لا مال ولا وجه شيء يقيم به بدنه أن يجرى
عليه من الصدقة أو من بيت المال ، من أى الوجهين
فعلت فذلك موسع عليك ، وأحب إلى أن تجرى من
بيت المال على كل واحد منهم ما يقويه » . ثم تحدث
أبو يوسف عن « الحكم في المرتد عن الإسلام » ،
فقال : « وأما المرتد عن الإسلام إلى الكفر فقد اختلفوا
فيه ، فمنهم من رأى استتابته ومنهم من لم ير ذلك » ،

وعرض أبو يوسف كثيراً من آراء الفقهاء ثم أبدى رأيه وسنده في الرأي ، فقال : « وأحسن ما سمعنا في ذلك والله أعلم أن يستتابوا ، فإن تابوا وإلا ضربت أعناقهم على ما جاء من الأحاديث المشهورة ، وما كان عليه من أدركناه من الفقهاء » .

١٥ - تحدث أبو يوسف في ختام كتابه عن عدة مواضيع متنوعة في فصول صغيرة ، أولها عن مصدر المرتبات التي يدفعها الخليفة لقضاته وعماله ، فقال إنها تدفع من بيت مال المسلمين من جباية الأرض والجزية ، وليس من مال الصدقة . ثم تحدث أبو يوسف « فيمن مر بمسالح الإسلام من أهل الحرب وما يؤخذ من الجواسيس » فقال : « فإن كان هذا الرجل الحربى إذا مر بمسلحة مر ممتنعاً منهم لم يصدق ولم يقبل قوله ، وإن لم يكن ممتنعاً منهم صدق وقبل قوله ، فإن قال أنا رسول الملك بعثنى إلى ملك العرب ، وهذا كتابه معى ، وما معى من الدواب والمتاع والرقيق فهذه إليه ، فإنه يصدق ويقبل قوله إذا كان أمراً معروفاً . » وإن قال هذا الحربى المأخوذ إنما خرجت من بلادى وجمت مسلماً فإن هذا لا يصدق وهو فى للمسلمين إن لم يسلم ، والمسلمون فيه بالخيار إن شاعوا قتلوه وإن شاعوا استرقوه » .

ثم تحدث أبو يوسف عن « قتال أهل الشرك وأهل البغى وكيف يدعون » فقال : « لم يقاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم قوماً قط فيما بلغنا حتى يدعوهم إلى الله ورسوله » . وتحدث أبو يوسف عن الإغارات على بلاد المشركين ، وطريقة توزيع الغنائم التي يغنمها المسلمون منهم ، وتحدث عن سياسة الرسول حين فتح مكة ، وشروط الهدنة أو الصلح ، وأبرز شروط صلح الحديبية الذي عقده الرسول مع أهل مكة ، كما تحدث أبو يوسف عن السياسة التي انتهجها على بن أبى طالب حين قاتل خصومه السياسيين من المسلمين فقال : « إنه لم يقاتل قوماً قط من أهل القبلة فن خالفه حتى يدعوهم ، وإنه لم يتعرض بعد قتالهم وظهوره عليهم لشيء من مواريتهم ولا لنسائهم ولا لذراريهم ، ولم يقتل منهم أسيراً ، ولم يذفف منهم على جريح ، ولم يتبع منهم مدبراً » . ثم تحدث أبو يوسف عن أهل البغى فقال : « ولا يصلى على قتلى أهل البغى ، ويورث قاتلهم من أهل العدل من مواريتهم مثل ما يورث نظراؤه ممن لم يقتل من قبل أن القاتل قتله على حق ، ولا يورث الباغى إذا قتل من أهل العدل أحداً مبرئاً منه إن كان قتله بيده لأنه قتله بباطل » . وكان هذا هو ختام المواضيع التي تحدث عنها أبو يوسف في كتابه الخالد « الحراج » .



الجماعة والمجتمع لفريدياندر توينر

بمعلم

الدكتور السيد محمد بدوي

أستاذ الاجتماع بجامعة الاسكندرية

منذ عام ١٩١٢ . ولذا فلم يكفد أحد بتوقع - قياساً على الدراسات التي تلقاها - أن يصبح «توينر» يوماً ما عالم اجتماع ؛ إذ أنه أثناء دراسته كان يجد ميلاً خاصاً لآراء «سبينوزا» و «نيتشه» ، ثم تأثر بعد ذلك بفلسفة «كانت» و «شوبنهاور» و «أفلاطون» و «أرسطو» .

وفي عام ١٨٧٦ تعرف في برلين على «پاولزن Paulsen» وهو فيلسوف أخلاقي كان له أثر كبير في تشكيل آرائه . فمن صحبته اقتبس الفكرة التي تقول بأهمية علم النفس كأساس لكل دراسة تتخذ الإنسان موضوعاً لها وسنجد بعد ذلك في آرائه أن الطبيعة الإنسانية يجب أن ينظر لها أولاً من زاوية «الإرادة» «كما نجد أثر» «پاولزن» في معالجته للمسائل الأخلاقية ، ومحاولته ربطها بالنشاط الحيوي وبنمو الاستعدادات الشخصية للفرد سواء أكانت موروثاً أم مكتسبة .

غير أن ما يهمننا في هذا المجال ، بصفة خاصة هو توجيه «پاولزن» لتوينر نحو الفلسفة الاجتماعية ، فقد عين له الطريق التي يسلكها في أبحاثه حين نصحه بدراسة «هوبز» و «آدم سميث» و «كارل ماركس»

يعتبر فريدياندر توينر ، في محيط الدراسات الاجتماعية في ألمانيا رائداً وأستاذاً . إذ نجد الأسس الجوهرية لنظريته عند الغالبية العظمى من علماء الألمان المحدثين . كما أن هذه النظرية أصبحت تدرس وتناقش في كثير من جامعات العالم ، وعلى الأخص في هولندا وبلجيكا ، والولايات المتحدة ، واليابان . وفي ألمانيا ذاتها تغلغل تأثير الكتاب الذي نستعرضه في هذا البحث وهو «الجماعة والمجتمع» ، في نفوس الجماهير إلى درجة جعلت بعض الحركات السياسية الشعبية تتخذ منه مادة أساسية لبرامجها وخططها التقدمية :

حياته :

ولد توينر في ٢٦ يوليو ١٨٥٥ في «كير شبل أولدنزفورت» Kirchspiel Oldenswort بمقاطعة «شلزونج Schleswig» . وعندما بدأ في عام ١٨٧٢ ، دراسته العليا في الفلسفة في جامعة ستراسبورج لم يكن في ألمانيا علم اجتماع بالمعنى الحقيقي لهذه الكلمة . فلم يظهر هناك إلا في أوائل القرن العشرين حيث بدأ تدريسه في الجامعات الألمانية

وقام تونيز برحلة إلى الولايات المتحدة حيث اشترك في عام ١٩٠٢ في أعمال « مؤتمر الفنون والعلوم » ونشر مجموعة من البحوث الاجتماعية نذكر منها : « نحو المسألة الاجتماعية » (١٩٠٧) . والعادة Die Sitte (١٩٠٨) . ثم ذاعت شهرته بعد المحاضرات والبحوث التي ألقاها في « المؤتمر الدولي للفلسفة » في هيدلبرج . وهكذا نرى كيف أخذ تونيز يشق طريقه خطوة خطوة نحو النجاح . وهنا نقف برهة لنذكر أن فشله في المرحلة الأولى من حياته العلمية كان يرجع لسببين يعتبر الثاني منهما نتيجة للأول : أما السبب الأول فهو نظر الحكومة البروسية إليه بعين الشك والريبة . فنذ أن نشر كتابه « الجماعة والمجتمع » اعتبره أقطاب السياسة البروسية أحد أتباع ماركس ، واعتبروا نظريته مظهراً من مظاهر الفكر الاشتراكي ولم يفهم هؤلاء السياسيون . بل بتعبير أصح لم يحاولوا أن يفهموا أن هذا الكتاب يعالج نظرية اجتماعية من الناحية العلمية المحضة . وكان عذرهم في عدم الفهم أن علم الاجتماع لم يكن يدرس بعد في الجامعات الألمانية . أما السبب الثاني للفشل الذي صادفه تونيز في هذه المرحلة ، فهو مرتبط بالأول ارتباطاً وثيقاً . ذلك أن جامعات ألمانيا لم تكن تهتم في ذلك الحين إلا بالعلوم السياسية بوصفها أداة للسيطرة البروسية . وكانت المدرسة التاريخية ، والفلسفة الهيكلية تقف موقف العداء من كل محاولة لإنشاء نظرية اجتماعية علمية . وبموازرة الحكومة البروسية استطاع علم السياسة أن تكون له الغلبة على الدراسات الاجتماعية الأخرى .

بل إن العلوم الاجتماعية نفسها كانت تقف أحياناً عقبة في سبيل ظهور علم الاجتماع العلمي . إذ كانت تستوحى آراءها من نظريات كونت وآدم سميث وسبنسر . فأدى ذلك إلى تشعب اتجاهاتها وعدم استطاعتها التزام منهج دقيق وتحديد مجالات البحث . فلم يكن من الغريب ، في مثل هذه الظروف ، أن

و « رودبرتوس » و « هيوم » و « سبنسر » و « أوجست كونت » . واهتم تونيز بهذه الدراسات اهتماماً جعله يحدد طريقه نحو البحوث الاجتماعية عندما أتم دراسته العليا في عام ١٨٧٧ .

ويمكن أن نميز في حياة « تونيز » العلمية مرحلتين أساسيتين . وتمتد المرحلة الأولى من عام ١٨٨١ إلى ١٩١٢ ، ويتخللها عدد من مرات الفشل . فقد بدأ « تونيز » بالتدريس عام ١٨٨١ في جامعة « كيل » ، وفي عام ١٨٨٣ لم يكن يستمع إلى دروسه إلا طالب واحد . وحينئذ ترك التدريس وسافر إلى لندن حيث أقام فيها خلال عام ١٨٨٤ ، وانتهز هذه الفرصة لتتعمق في دراسة « هوبز » و « سبنسر » . وعندما عاد إلى ألمانيا في عام ١٨٨٥ استأنف تدريسه بالجامعة ومنى مرة أخرى بالفشل . وفي عام ١٨٨٧ اعتكف في مكان منعزل وأخرج في العام نفسه مؤلفه الرئيسي « الجماعة والمجتمع Gemeinschaft und Gesellschaft » . ولم يصادف الكتاب في بادئ الأمر ، من النجاح أكثر مما صادفته محاضراته في الجامعة ، بالرغم من أنه يتضمن الأفكار الرئيسية لنظريته الاجتماعية .

وزاده تخففه من أعباء التدريس إمعاناً في البحث والتأليف . وخصصت له إحدى المحلات العلمية باباً يعرض فيه بانتظام آراءه حول الكتب والبحوث التي تظهر في ميدان علم الاجتماع . ومكنت له اتصالاته بمجالات هذه الدراسة في البلاد الأجنبية من أن يصبح عضواً في « المجمع الدولي لعلم الاجتماع بباريس » عام ١٨٩٤ . وفي عام ١٨٩٨ حصل بدراسته عن « المصطلحات » الفلسفية من وجهة النظر النفسية الاجتماعية (١) « على جائزة « ولبي Welby » ولكن هذه الدراسة لم تنشر إلا في عام ١٩٠٦ .

Philosophische Terminologie in (١)
Psychologisch-Soziologischer ansicht. Berlin,
K. Curtius, 1906.

(١٩١٧) - « مسألة المسئوليات » (١٩١٩) .
ومنذ عام ١٩٢٢ بدأ ظهور عدد من مؤلفاته
ذات القيمة السوسيولوجية المتفاوتة . فظهر أولاً « نقد
الرأى العام » (١) ، ويعتبر الجزء الأول من مشروع
علمى ضخيم ظهر منه الجزء الثانى فى عام ١٩٣٥
بعنوان « روح العصور الحديثة » (٢) وظل الجزء الأخير
دون إكمال . ومن مؤلفات « تونيز » الأخيرة نذكر
مؤلفه الهام الذى ظهر فى ثلاثة مجلدات بعنوان « دراسات
ومحاولات نقدية فى علم الاجتماع » (٣) وهو مجموعة
من المقالات والأبحاث مختلفة تلقى ضوءاً ساطعاً على
اتجاهات المؤلف وتعين على فهم نظريته الاجتماعية .
وفى عام ١٩٤١ نشر « مقدمة فى علم الاجتماع » (٤) .

وحظى « تونيز » قبل وفاته بالجد ، ونعم بمظاهر
التكريم الرسمية والشعبية . وكان أكبر انتصار لجهوده
أن شهد دخول علم الاجتماع بصفة رسمية فى الجامعات
الألمانية . ورأس حتى آخر حياته مؤتمر علم الاجتماع
فى ألمانيا . وها هى مؤلفاته ونظرياته تدرس الآن
فى كثير من الجامعات الأجنبية .

وإذا تركنا جانباً القيمة العلمية الأصيلية لمؤلفات
« تونيز » من الناحية السوسيولوجية البحتة ، وجدنا أن
من العوامل التى أسهمت فى نجاح آرائه وذبوعها ،
أنها صادفت توافقاً مع الروح الاجتماعية التى ولدها فى
ألمانيا نمو الصناعة الكبيرة . فنظرية « المجتمع » ،
وجدت إلى حد ما صداها فى التعارض بين الطبقة
الكادحة ورأس المال ، وهو تعارض تحول إلى صراع
حاد منذ عام ١٨٤٠ ، وحددت الحكومة البروسية

بصادف كتاب « الجماعة والمجتمع » عدم الاكتراث
فى بادىء الأمر . إذ أن هذا الكتاب قد أخذ على
عائقه وضع أسس النظرية الاجتماعية فى صورتها
التحليلية الصرفة ، وكان علماء أواخر القرن التاسع
عشر فى شغل شاغل عن الاهتمام بمثل هذه الدراسة
التحليلية ؛ ولذلك لم يجد الكتاب من يهتم به ويقدره
حق قدره إلا منذ عام ١٩١٢ .

ومنذ هذا التاريخ تبدأ المرحلة الثانية من حياة
تونيز العلمية ، وهى مرحلة تتميز بالخصب والنجاح
المتواصل . فأعيد فى السنة نفسها طبع كتاب « الجماعة
والمجتمع » بعد أن بدأ المفكرون ، فى المحيط العلمى ،
يكشفون مراميهِ الحقيقية وما احتواه من أسس
نظرية عميقة . وفى عام ١٩١٣ عين أستاذاً ولكنه
اضطر لتدريس الاقتصاد من ناحيته النظرية والعملية .
إذ بالرغم مما ظهر من أبحاثه وأبحاث زميله « زيميل
Simmel » - الذى نشر فى عام ١٩٠٨ أبحاثه فى
أشكال المجتمع - فلم يكن قد أنشئ بعد كرسي
لعلم الاجتماع فى الجامعات الألمانية . غير أن الدراسات
والأبحاث الاجتماعية أخذت تتكون وتنتشر فى المحيط
الهامشى للجامعة . فتأسست فى عام ١٩٠٩ « الجمعية
الألمانية لعلم الاجتماع » وانتخب « تونيز » رئيساً لها .
وفى عام ١٩١٦ أوقف « تونيز » محاضراته مرة
أخرى ليتفرغ تفرغاً تاماً لأبحاثه ، ثم عاد إلى
التدريس فى عام ١٩٢١ ، وأصبح ما يشغله منذ ذلك
الحين هو تحقيق هدفه الرئيسى ؛ ونعنى به إرساء
قواعد علم الاجتماع العلمى فى ألمانيا .

وفى خلال سنوات الحرب أسهم فى كتابة عدة
مقالات ذات طابع سياسى . نذكر منها : « القيصرية
وحلفاؤها » (١٩١٤) - « مكان ألمانيا تحت الشمس »
(١٩١٥) - « السياسة العالمية الإنجليزية من وجهة نظر
انجلترا » (١٩١٥) - « الدولة الإنجليزية والدولة الألمانية »
(١٩١٧) - « الحرب العالمية وحقوق الشعوب »

(١) Kritik der öffentlichen Meinung
Springer, Berlin 1922.

(٢) Geist der Neuzit, Hans Buske,
Leipzig, 1935.

(٣) Sociologische Studien und Kriti-
ken. Fischer, Iéna, 1929.

(٤) Einführung in die Soziologie,
Enke, Stuttgart, 1931.

للعيش في المجتمع لأن حياة المجتمع من أهم الوسائل لحفظ النوع .

وقد تعاقبت بعد ذلك النظريات والآراء التي تقول بأن علاقة الإنسان بغيره ، وتأثيره في الغير أو تأثره به جزء جوهري من الشخصية الإنسانية ، لا نستطيع إذا أغفلناه أن نفهم الدوافع الأساسية التي تسيطر على نشاط الفرد .

وهناك طائفة من العلماء المحدثين نذكر منها « أوتمار سيان Spann » الألماني ، و« ألفريد إسبيناس Espinas » الفرنسي ، هؤلاء قد حاولوا تصوير هذه العلاقة على أساس اعتبار المجتمع كائناً عضوياً تتعاون الأعضاء المختلفة فيه (وهم الأفراد) على القيام بأوجه نشاطه . فالفرد إذا نظرنا إليه كعنصر منفصل عن الجسم كله أو عن الكيان الاجتماعي بأكمله ، ظهر لنا بوضوح أنه لا يستطيع أن يكفى نفسه بنفسه . وعلى ذلك فالتأثير المتبادل بين الأفراد ، روحياً كان أم مادياً ، هو المبدأ الخالق الذي تتحقق عن طريقه الشخصية الإنسانية .

والفرق بين « المجتمع الطبيعي » ، و « المجتمع المصطنع » في نظر « سبان » ، وكذلك في نظر « تونيز » — كما سنوضحه بعد قليل — يتركز في أن « المجتمع الطبيعي » أو الجماعة التلقائية تعبر عن وحدة متكاملة ، وتبرز فيها فكرة الاندماج والتعاون التي تتجلى بأجلى معانيها في الكائن العضوي ، وهذه الوحدة المتكاملة هي الشرط الأساسي لظهور القيم الروحية أو إذا شئت فقل إنها تجعل من المجتمع قوة خالقة .

والإنسان بدون اندماجه في هذا الكائن لا يكون إلا إنساناً بالقوة . والمجتمع وحده هو الذي يخرج نشاطه من حيز القوة إلى حيز الفعل ، ويحرك الإمكانيات الكافية فيه نحو تحقيق نموه الروحي .

أما « إسبيناس » فلم يقتصر على هذه الفكرة ، بل زاد عليها أن الفردية في جميع مراحلها ليست في

موقفها منه بمحاربتها للاتجاهات الاشتراكية . وحتى بعد أن خفت حدة هذا الصراع فقد وجد جزء من الشعب الألماني في نظريات « تونيز » صدى لآماله ومطامحه . ومما يؤيد ذلك أن « تونيز » نفسه قد أوضح التطبيقات العملية لنظريته ، وعرض بصراحة وشجاعة قضية الطبقات الشعبية ، وانتقد في نزاهة لا يشوبها الحقد أو الكراهية مساوىء الرأسمالية العالمية .

وكان استقبال الجماهير لنظريته عن « الجماعة Communauté » أشد حماسة وقوة ، لأنها وجدت فيها تعبيراً عميقاً عن روح الشعب ومزاجه . وإذا كان « المجتمع » يصور مرحلة التدهور العربي ، فإن « الجماعة » تصور على العكس الحالة الاجتماعية التي يجب الرجوع إليها . ومن هذا التعارض بين الواقعي والمثالي استمدت « حركة الشباب » Die Jugendbewegung القوة التي تغذيها واتسع نطاقها في جميع أنحاء ألمانيا منذ عام ١٩١٩ . وهكذا نرى أنه إلى جانب القيمة العالمية لآراء « تونيز » فإنها قد أفسحت المجال لتغيرات ومعان أيديولوجية ظل المؤلف يحتج ضدها لأنها لا تتفق مع روح البحث العلمي .

نظريته الاجتماعية

كان أرسطو أول من أوضح في العصور القديمة أن الحياة الاجتماعية من جوهر الإنسان ؛ ولخص ذلك في عبارته المشهورة « الإنسان حيوان سياسي » (أو اجتماعي) . وقد نشر الرواقيون بعد ذلك أفكارهم التي تقول إن الإنسان تتحكم فيه غريزتان أساسيتان . الأولى « أنانية » ، والأخرى « غيرية » . وهاتان الغريزتان تندجان اندماجاً كلياً في حياة الإنسان بحيث لا نستطيع أن نفصل أثر إحداهما عن أثر الأخرى . فالإنسان لا يرضى بحياة العزلة حتى ولو تهيأت له جميع أنواع الملذات . وهو حين يحافظ على حياته يدافع من الأنانية يسعى ، في الوقت نفسه ،

٣ - تنمية الذاكرة للإفادة بما تعيه في تقدم الإنسان (وهذا المظهر هو حلقة الوصل بين الحياة العضوية والحياة العقلية) .

ويذهب « تونيز » إلى أن هذه الإرادة العضوية هي مصدر الحاسة الخلقية . لأن الخير ليس إلا نوعاً من العقل العملي الغرض منه تحقيق الرفاهية للجنس البشري .

أما الإرادة العاقلة فإنها تتمثل في الفكر الخالص ومن الغريب أن يدعى « تونيز » أنها تهدف إلى غرض واحد هو سعادة الفرد دون النظر إلى المجموع . ولذلك فإنها أساس البحث عن مظاهر القوة ، والطمع ، والطموح . ومكانها خارج نطاق الأخلاق لأنها لا تولد إلا روح العدا .

هذا التناقض الذي قد يبدو في فكرة « تونيز » عن الإرادة العضوية وصلتها بالأخلاق والإرادة العاقلة وصلتها بالأخلاق ، والإرادة العاقلة وصلتها باللاخلقية ، لا يفسره إلا تذكر مذهب « نيتشة » عن فلسفة القوة . فالإنسان بالغريزة قد يميل إلى الخير (كما قال روسو) . ولكنه بالذكاء والعقل لا يميل إلا للسيطرة والغلبة .

كما أن هذه التفرقة بين نوعين من أنواع الإرادة تذكرنا بما جاء في فلسفة بسكال من تفرقة بين القلب والعقل ، وبما جاء في فلسفة برجسون من تفرقة بين الإنسان الصانع homo faber ، والإنسان العاقل homo sapiens .

وقد وجد « تونيز » أن المرأة يغلب عندها النوع الأول من الإرادة (أى الإرادة العضوية) : ولذا فإن نشاطها يتميز بتغلب العاطفة . أما الرجل فيغلب عنده النوع الثانى ، ولذا فهو يحكم العقل غالباً ، ويحسب للأمر حسابها الدقيق .

على أن أهم فكرة استخرجها « تونيز » من هذا التضاد بين نوعى الرياضة هي تقسيم أنواع التجمع

الواقع إلا درجة من درجات الحياة الاجتماعية : فالكائن « الحى » مجتمع من الأعضاء بل إن العضو « مجتمع من الخلايا » فن غير الطبيعى إذن ألا تنظر إلى الفرد على أنه عضو فى المجتمع الذى يعيش فيه : والحقيقة التركيبية للعناصر التى يتكون منها الكائن العضوى ، ليست من طبيعة أخرى تختلف عن الحقيقة التركيبية للأفراد الذين يتكون منهم المجتمع وليس المجتمع نفسه إلا كائناً حياً . وعلى ذلك فالشعور الاجتماعى أو غريزة الاجتماع ليست ؛ فى الواقع ؛ إلا غريزة الحياة نفسها إذ أن الحياة لا تظهر لنا إلا على شكل تجمعات لعدد من العناصر :

وإذا كان « سپان » و « إسنياس » قد فسرا العلاقات الاجتماعية على أنها تعاون تلقائى يشبه التعاون العضوى الذى يدفع بالكائن الحى إلى النمو والتطور ، فإن « تونيز » على العكس يفسر هذه العلاقات بالرجوع إلى الحركات الإرادية للأفراد أنفسهم : وهو يميز بين شكلين من أشكال الإرادة . الإرادة العضوية « أو إرادة الحياة » (Wesenwille) والإرادة العقلية (Kurwille) .

والإرادة الأولى لا تنفصل من النشاط العملى لأنها تعبر عن الحالة الكاملة لنمو الفرد وتطوره . وهى وثيقة الصلة بنشاط الجسم ولكنها تتضمن كذلك الفكر ، أو على الأقل النشاط الفكرى الذى يهدف إلى تأكيد الكيان العضوى للفرد ، وذلك بمساعدته على التغلب على الصعوبات التى تثيرها أمامه الطبيعة . وهذه الإرادة العضوية تتخذ مظاهر ثلاثة رئيسية .

١ - جلب اللذة وابعاد الألم (وهو المظهر الذى يعبر عن حياة النمو الصرفة (Vie Végétative)

٢ - تكوين العادات النافعة (وهو المظهر الذى يعبر عن الحياة الحيوانية) .

إلى قسمين كبيرين : التجمع الطبيعي أو الجماعة
(Gemeinschaft) — Communauté ، والتجمع السياسي
(Gesellschaft) — Société .

فالتجمع الطبيعي أو الجماعة أساسها العلاقات
العضوية . وهذه العلاقات العضوية تقوم على عواطف
طبيعية وتلقائية ، ولذلك يتولد عنها الوثام وحسن
المعاشرة . وهي على أنواع ثلاثة :
علاقات الدم (وتتصل بإرادة حياة النمو وحفظ
النوع) .

وعلاقات المكان (وتتصل بالحياة الجوانية) .
وعلاقات الروح (أو العلاقات ذات الطابع
المعنوي) وتتصل بإرادة الحياة العليا .
ومعنى ذلك أن العلاقات الجماعية التلقائية الأساسية
هي : علاقة القرابة ، وعلاقة الجوار ، وعلاقة
التعاطف .

والقانون العام الذى يسيطر على التجمع الطبيعي
هو فى جوهره قانون الحب .

أما المجتمع السياسى فيقوم ، على العكس ، على
علاقات عقلية بين إرادات مفكرة مدبرة . وإذا
شدت فقل إنه يقوم على حساب وتدبير للمصالح .
والمبدأ الأساسى الذى يسره هو الموازنة الحسابية بين
الوسائل والأغراض . ولذلك تنمو فيه وتنتعش أوجه
النشاط النفعى كالتبادل والتجارة والصناعة والتكنولوجيا .

ومعنى ذلك أن العلاقات الاجتماعية Sociétaires
تقوم فى أصلها على التبادل ، وهذا التبادل قد يتم بين
أفراد ليس بينهم أى صلة فى الدم ، ولا يستبعد أن
يكونوا أعداء بالطبيعة جمعت بينهم المصلحة .

قانون التملك وقانون التعاقد

ويستخلص « تونيز » من التقسيم السابق لأنواع
التجمع ، تقسيماً آخر يقوم على التفرقة بين نوعين من
القانون :

(أ) قانون التجمع الطبيعي Droit Communautaire
ويتميز بفكرة التملك ووضع اليد . وهذا التملك يبدو
فى ثلاثة مظاهر أساسية :

١ - تملك الإنسان : ومن أهم مظاهره سلطة
الأب المطلقة على أفراد الجماعة (أو الأسرة الكبيرة) ،
وسلطة الزوج المطلقة على نسائه .

٢ - تملك الأشياء : ويظهر فى الاستحواذ على
كل أرض بواسطة من يفلحها .

٣ - التملك الروحى : وأساسه سيطرة العقيدة
وتسلطها على عقول الأفراد .

(ب) أما قانون المجتمع السياسى فلا يقوم على
العواطف والمشاعر ، بل يعتبر الأفراد وحدات
مجردة . وهو لا يصاغ فى شكل حكم أو لائحة
Statut تصدر من الكبير إلى الصغير ، بل يعبر
عن نوع من « التعاقد Contrat » بين الأفراد الذين
يتكون منهم المجتمع .

وفكرة الملكية فى المجتمع السياسى لا تتخذ شكل
التملك ووضع اليد ، كما كان الحال فى التجمع
الطبيعى ؛ بل تصبح الصلة بين المالك وبين ما يملكه
صلة قانونية . وامتلاك الأشياء لا يصبح غاية تقصد
لذاتها بل وسيلة لتحقيق أغراض أخرى .

ويبدو لنا أن هذا التمييز بين نموذجين للتنظيم
التشريعى ، نموذج « اللائحة Statut » ، ونموذج
التعاقد Contrat » قد اعتمد إلى حد كبير على التقسيم
المائل الذى أورده « السير هنرى من Maine » فى
كتابه المشهور « القانون القديم . Ancient Law

فقانون اللائحة يمثل القانون الطبيعى للجماعة
العضوية ، وتحده العلاقات وأنواع الترابط القائمة
على الإيرادات العضوية الفردية . وهو — كما قلنا —
فى أشكاله المختلفة يقوم على فكرة « التملك
Possession » وهو لا يصدر عن الفرد بوصفه

كائناً مجرداً ، بل يعبر عن الإرادة العضوية لمجموعة من الأفراد المرتبطين ، بعضهم مع بعض ، بروابط طبيعية ، ويكونون جماعات قد يضيق نطاقها أو يتسع يطلق عليها « تونيز » اسم « الكائنات الاجتماعية » ، وأبسطها « الكائن الاجتماعي الباطريركى L'être social patriarcal أو الأسرة وقد يتسع نطاق الأسرة فتنبثق عنها جماعات أكثر تركيباً كالجماعات الإقليمية أو الجماعات الدينية. وتتصل بهذه الأشكال الرئيسية الثلاثة للكائنات الاجتماعية ، ثلاثة أشكال من أشكال القانون :

- ١ - القانون العائلي .
- ٢ - القانون العرفي .
- ٣ - القانون الديني .

هذا مع ملاحظة أن الدين ، في الجماعات العضوية ، يداخل في كل شئ وتسم به جميع النظم التشريعية ، وهو الذى يوحى بها ويوجهها .

والقانون العائلي هو التعبير الصريح للإرادة العضوية للكائن الباطريركى . وأول مظاهره الاتحاد الطبيعي بين الرجل والمرأة الذى يقوم على الغريزة الجنسية وعلى إرادة التناسل . ويبدو أن الزواج منذ أصوله البعيدة كان خاضعاً لتنظيم صارم محدد . وكان قانون الجماعة يحمى المرأة - وفقاً لشعائر وقواعد خاصة - طالما أنها لا تنتمى إلى رجل ؛ فالعلاقات الجنسية يحوطها سياج من التنظيم والمحرمات الصارمة "Tabous" ؛ والعلاقات الآتمة بين الأقارب L'inceste ممنوعة لما تجره من شرور وخراب على الجماعة ولكن بمجرد أن يتم الزواج تصبح المرأة ملكاً للرجل :

وتبدو ظاهرة « التملك » أيضاً في القانون العائلي بالنسبة للأولاد ، وهى هنا مظهر من مظاهر الغريزة الطبيعية التى نجدها أيضاً عند الحيوان ، ونعنى بها

غريزة الأمومة . غير أنها عند الإنسان تغدو شعوراً بالالتزام ؛ وهذا الشعور قد ظهر أولاً في صورة « النظام الأمي Le Matriarcat » حيث ينتمى الطفل إلى أمه ويحمل اسمها ويتبعها من الناحية القانونية . ويحتمل في رأى « تونيز » أن يكون هذا الشكل البدائي للقانون العائلي قد نتج عن دور المرأة الرئيسى في الإنسان واستمرار الحياة (١) .

ولم تتأكد السلطة الأبوية و « النظام الأبوي Le Patriarcat إلا بصورة تدريجية وبعد تغير ظروف حياة الجماعة وتتخذ صورة « التملك » في هذا النظام ، مظهر القوة بعد أن كانت تقدم على الغريزة الطبيعية عند المرأة . إذ يتمتع الرجل ، الذى يغدو « عاهل الأسرة Pater Familias بسلطان مطلق يعترف به القانون ، ويمتد هذا السلطان لا إلى زوجته أو (زوجاته) فحسب ، بل إلى أبنائه حتى ولو كانوا متزوجين ، وإلى جميع من يظلمهم سقف بيته من خدم وأرقاء وموالى وأسرى حرب .

ولم يبق اليوم في القوانين الحديثة للأحوال الشخصية إلا صوراً باهتة من القانون العائلي القديم مجردة من سماتها العضوية والعاطفية التى كانت تعطيها كل جوهرها في الماضي .

ويتصل القانون العرفي بالقانون العائلي اتصالاً وثيقاً يعبر عن العلاقات الدائمة بين الاشتراك في المكان والاشترك في الدم . فالأسرة لا تستطيع أن تعيش دون ارتباط بالأرض التى تستغلها وما يتصل بهذا الاستغلال من روابط وعلاقات قانونية . وينشأ عن « تملك » الأرض وعن العمل الذى يتطلبه هذا التملك عادات اجتماعية تكون في مجموعها مايسمى بالعرف La Coutume وعلى أساس القانون العرفي الذى يعبر

(١) أيدت الدراسات الأثنوبولوجية التى قام بها «باخوفين» وأثبتها في كتابه المشهور « حق المرأة » Das Mutterrecht كثيراً من آراء تونيز حول هذا الموضوع .

مكتوب ولكنه فطرى ؛ لم نتعلمه أو نقرأه ولكن تلقيناه عن الطبيعة واستيقناها من مصادرها » :
 أما بالنسبة للقانون الدينى فإن « تونيز » يميز بين الإيمان والشعائر : وهو يرى أن الإيمان فى جوهره ذو طابع جماعى واضح ، إذ يعبر عن وحدة الجماعة والتفافها حول مبادئ وأفكار واحدة : وليس التدين فى جملته إلا مجموعة من الأفعال تصدر عن الإيمان .

ويصاحب الدين جميع أشكال ومراسم القانون دون أن يكون بالضرورة أساساً لها . وما ذلك إلا لأن الدين والقانون مظهران من مظاهر الحياة الجماعية أحدهما (وهو القانون) يعبر عن الحياة الواقعية والآخر (وهو الدين) يعبر عن الحياة المثالية . وتبدو هذه العلاقة بوضوح فى القانون العائلى : فالدين يكرس الزواج ويضفى عليه طابع القدسية ، ولكن الزواج ، فى حد ذاته ، نتيجة للغريزة الجنسية التى يكسبها القانون صفة الشرعية . ويتدخل الدين بصفة مستمرة فى كل ما يتصل بالعلاقات العائلية ، فتتسم بطابعه جميع المناسبات كالميلاد والوفاة وتقسيم الميراث ، وهو بذلك يدعم ويرفع من الصفة القانونية لهذه المناسبات .

والصفة البارزة فى القانون الدينى هى ، فى الحقيقة ، قيمته الخلقية . فبينما يتميز فى القانون العقلى - حسب رأى كانت وفيخته - الفصل بين « الحق » و « الواجب » ، وبين « الأخلاقية » و « القانونية » ، نجد أن التطابق كامل بين القانون الدينى والأخلاق : وتفسير ذلك نجده فى الصفات الأساسية لحياة الجماعة العضوية ، وهى التضامن الوثيق والتعاطف الروحى بين الأفراد . فالقانون الذى يؤسس على هذه الصفات يجب أن يكون تعبيراً خالصاً عن إنكار الذات أو الغيرية ، أو بمعنى أشمل عن الحبة . ولذا فإن مبادئ هذا القانون يصعب

عن الإرادة العضوية للجماعة ينظم الأفراد سلوكهم وأعمالهم ومسلك الفرد أو الجماعات الخاصة بإزاء هذا القانون يشبه مسلك الأنسجة والأعضاء بالنسبة للكائن الحى فهم محدودون بالإطار العام الذى يسيطر عليهم . وينظم القانون العرفى حياة الجماعة حتى فى أدق تفاصيلها ، فيحدد مثلاً المساحات التى تزرع صيفاً أو شتاء ، ويحدد أجور الزراع فى الحقول والعمال فى القرى ، وينظم العلاقات بين الملاك مقررأ حق الجوار وحق الشفعة ... الخ

والغاية القصوى لهذا القانون - فى رأى تونيز وكما قرر سير هنرى من قبل - هى حفظ السلام للكائن الاجتماعى الذى يعتبر هذا القانون وسيلته الوحيدة للتنظيم . وهو ينجح فى تحقيق هذه الغاية بقدر ما يقوم فى جوهره على « التوافق » ، أى على الانسجام بين عناصر النظام الطبيعى : ولكى يضمن عدم تكبير صفو هذا الانسجام يحيد القانون العرفى أن تتحول العلاقات الفردية ، « والخدمات المتبادلة ، والمساعات الودية إلى « واجبات ملزمة » : ويستمد القانون العرفى سلطته من الاحترام الراسخ فى النفوس لتقاليد السلف . فأعضاء الجماعة يحتفظون بالقواعد التى تلقوها عن أجدادهم ، لأنهم يؤمنون بفائدتها فحسب ، بل وأيضاً لأن العرف مناسبة فريدة لإظهار تقديسهم وتبجيلهم للسلف الصالح :

وعلى هذا النحو يرى « تونيز » أن القانون العرفى قانون عضوى ينبثق مباشرة من الحياة الجماعية . وهو قانون طبيعى وتلقائى كالقانون العائلى سواء بسواء ؛ لا يصدر عن الإرادة والمعرفة الموضوعية ، بل عن الشعور وعن الإحساس بضرورة إبعاد الشر وجلب الخير . فهو إذن لا يعبر عن « موقف قانونى » بقدر ما يعبر عن « موقف ضميرى » : وينطبق عليه وصف شيشرون ، المشرع الرومانى بأنه « قانون غير

التعبير عنها وترجمتها في صيغ واضحة ومنطقية كما يحدث بالنسبة للقوانين الفعلية في المجتمع السياسي .

وخلصنا نظرية « تونيز » أن الإنسان يوجد في جماعة طبيعية « مع أهله بمجرد ولادته إذ يتحد معهم في الخير والشر . ولكنه يدخل بعد ذلك في « المجتمع » كما لو كان يدخل في أرض غريبة . والأسرة هي التعبير العام عن فكرة الجماعة الطبيعية . أما العلاقات الاجتماعية فإنها تتكون تحت شعار « كل يعمل لمصلحته » ؛ ولا يتنازل أي إنسان عن أي شيء لزميله إلا إذا تأكد أنه سيتلقى منه شيئاً مساوياً على الأقل لما تنازل عنه، وعلى ذلك فإن المجتمع تسود فيه فكرة الحساب المغرض (كما كان يرى هوبز) ، والعلاقات القائمة على وزن الأمور بميزان العقل ؛ على حين أن الجماعة تسود فيها العلاقات القائمة على الغريزة وعلى العاطفة .

ونظير العلاقات « الاجتماعية » في شكل العرف ، وبحكمها نطاق الدين . أما العلاقات « الاجتماعية » فإنها تظهر في شكل التجارة والصناعة والعلم .

وقد كان سير التاريخ من الجماعة الطبيعية القائمة على السلطة المطلقة إلى المجتمع السياسي القائم على التعاقد . إذ ساد في العصور الوسطى نظام الاقطاع القائم على التملك والاستحواذ ؛ وكان عصر النهضة بداية التحول نحو الحالة الاجتماعية القائمة على المساواة . أما من حيث التوزيع الجغرافي فإن تونيز يرى أن مجتمعات الغرب تتميز بالمظهر الجماعي communautaire على حين أن مجتمعات الغرب تتميز بالمظهر الاجتماعي sociétaire

ويبدو لنا أن هناك نوعاً من التعسف والتجريد في هذا التقسيم الذي قسمه « تونيز » لأنواع العلاقات الإنسانية . والواقع أن كلا من فكرة « الجماعة » و« المجتمع » كما وصفهما لا تعبر عن حقيقة واقعية

وتصنيفه على هذا النحو لا يعبر إلا عن « نماذج تقديرية » لا تنطبق إلا انطباقاً جزئياً على المجتمعات الكائنة بالفعل .

وبالرغم من اعتراف تونيز بهذه الحقيقة ، فإنه يؤكد أن لتصنيفه أهمية من الناحية التاريخية ؛ إذ أن التطور الطبيعي للفكر الإنساني قد أدى إلى طغيان « الإرادة الطبيعية » . ولذلك فإنه لا يسعه إلا أن يقرر (مع الأسف) أن النموذج « الجماعي » يترك مكانه ، في مجتمعاتنا الحديثة للنموذج « الاجتماعي » .

ولقد كان لنظرية تونيز أهمية كبيرة في تاريخ علم الاجتماع بألمانيا ؛ واقتبس كثير من علماء الاجتماع وجهة نظره في التمييز بين الجماعة والمجتمع . ومن هؤلاء « فيركنت Vierkandt ومدرسته . فهذه المدرسة قد أكدت وجود « العاطفة الاجتماعية » أو الغريزة الاجتماعية « وصلتها أساساً لتكوين الجماعة . وإذا كنا نجد في تحليلها لمظهرى الحياة الاجتماعية ، أي الجماعة والمجتمع ميلاً إلى منهج علم النفس ، إلا أننا نلاحظ ، في سهولة مقدار التقدم الذي أحرزته هذه المدرسة ، إذا قارنا ما وصلت إليه من نتائج بما وصل إليه ماك دوجال وتارد وأمثالهما من المتطرفين في التشيع لعلم النفس الفردي . فالفرد هنا يحقق ذاته كاملة عن طريق العلاقات الاجتماعية ، وعلى ذلك فعلم النفس الاجتماعي له مجاله الخاص وهو لا يمكن أن يوول إلى علم النفس الفردي بالرغم من اتخاذه أساساً له . ونحن إذا درسنا الفرد الوحيد ، فلا يمكن أن نجد في هذه الدراسة ما يتشابه مع موضوعات البحث في علم النفس الاجتماعي .

كتاب « الجماعة والمجتمع » :

Gemeinschaft und Gesellschaft

يشتمل هذا المؤلف على ثلاثة كتب (أو أقسام) وملحق وموضوع الكتاب الأول هو تحديد المعاني

« توجد الإرادات الإنسانية في علاقات متعددة بين بعضها وبعض . وكل علاقة من هذه العلاقات عبارة عن نشاط متبادل ، بحيث إذا كان النشاط يمارس من جهة فانه يستقبل من جهة أخرى . وهذه النشاطات تبدو لنا كما لو كانت تنزع إما للمحافظة وإما لتدمير الإرادة أو الكائن المقابل ؛ فهي إما أن تكون إيجابية أو سلبية . »

« والنظرية التي أعرضها ، وموضوعات بحثها لا تهتم إلا بالعلاقات ذات التأثيرات الإيجابية المتبادلة . وكل من هذه العلاقات تمثل وحدة في التعدد ، وتعدداً في الوحدة . فهي تتألف من متطلبات ، ومسكنات ، وأفعال تذهب وتعود ، وتعد تعبيراً عن الإرادات وعن مدى قوتها . »

والمجموعة التي تتكون من هذه العلاقات الإيجابية ، يوصفها كائناً أو موضوعاً فاعلاً بطريقة متجانسة في الداخل أو الخارج ، - هذه المجموعة تسمى « تجمعاً association » .

« والعلاقة نفسها ، ومن ثم التجمع ، يمكن أن تفهم على أنها حياة حقيقية أو عضوية ؛ وحينئذ يكون هذا هو جوهر فكرة الجماعة Gemeinschaft وإما أن تفهم على أنها تصور بالقوة يتحقق بطريقة آلية ، وحينئذ يكون هذا هو مفهوم « المجتمع » Gesellschaft » .

« واستخدام المصطلحات التي اخترناها سيوضح أن أساسها هو الاستعمال المشابه في اللغة الألمانية . ولكن مما يؤسف له أن الكتابات العلمية ما زالت تستخدمها دون أي تمييز ، بل إنها قد تخلط عن قصد بين مصطلح وآخر . ولذا يتعين إثبات بعض الملاحظات التمهيدية التي توضح التعارض بين معنى وآخر :

فكل ما يوحى بالثقفة والألفة والمعيشة المشتركة يدخل في نطاق حياة « الجماعة » ، (أو هكذا نحن

الأساسية للنظرية وينقسم إلى فصلين كبيرين ، يعالج المؤلف في الفصل الأول نظرية الجماعة ، وفي الفصل الثاني « نظرية المجتمع » . أما الكتاب الثاني فموضوعه « الإرادة المفكرة » ، وهو ينقسم إلى ثلاثة فصول : فصل عن « أشكال الإرادة الإنسانية » ، وفصل ثان عن « التعارض بين شكلي الإرادة » ، وفصل ثالث يشرح المعاني التجريبية لهذا التعارض كما يظهر عند الرجل والمرأة ، وعند الشباب والشيوخ وهكذا ... وينقسم الكتاب الثالث أيضاً إلى ثلاثة فصول وموضوعه « الأسس السبولوجية للحق الطبيعي » وهو في الفصل الأول يهتم بتحديد بعض المفاهيم كالشخصية والإلزام والتعاقد والتجمع والاتفاق . أما الفصل الثاني فيشرح الصلة بين الطبيعة العضوية والقانون . ويوضح الفصل الثالث كيف تتخذ أشكال الإرادة في المجتمع ، ثم يحدد الصلة بين الكائن الاجتماعي والدولة .

وينتهي المؤلف بملحق يوضح النتائج التطبيقية للبحث ، ومدى ما يمكن التطلع إليه في المستقبل . وسنحاول الآن إعطاء القارئ العربي صورة متكاملة عن هذا الكتاب من خلال النماذج التي اخترناها من أجزاء متفرقة وراعينا فيها أن تكون معبرة أصدق تعبير عن آراء المؤلف وموضحة للدقائق نظريته (١) .

العلاقات بين الإرادات الإنسانية - الجماعة والمجتمع في التعبير اللغوي :

يشرح المؤلف في الفصل الأول الفكرة العامة الموجهة لنظريته ويهتم على الخصوص بتحديد معاني المصطلحات الرئيسية التي ترد خلال سرد تفصيلات هذه النظرية فيقول :

(١) اعتدنا في هذا العرض على الترجمة الفرنسية التي نشرت بالعنوان التالي :

Communauté et Société, trad. de J. Leif, P.U.F., 1944.

وحدة الدم ، والمكان ، والشعور ، والقربة ،
والجوار ، والصدقة :

« تنزع جماعة الدم ، كوحدة للوجود ، إلى تأكيد
كيانها عن طريق وحدة المكان ، وتصل إلى ذلك
بتعبير مباشر في المسكن المشترك . ويؤدى هذا بدوره
إلى وحدة الشعور عن طريق النشاط والتنظيم المشترك
في اتجاه واحد ولهدف واحد . ووحدة المكان يمكن
اعتبارها الكل المتناسق للحياة الحيوانية ؛ على حين
أن وحدة الشعور والتفكير يمكن اعتبارها الكل
المتناسق للحياة العقلية - وهذه الأخيرة هي إذن -
في علاقتها مع الأولى - أكثر أنواع الوحدة تحقيقاً
للصفة الإنسانية وأعلاها درجة .

وكما أن وحدة الدم تفترض ارتباطات تنصل
بالقربة ، فكذلك نجد أن وحدة المكان تفترض
علاقات بالنسبة للتربة والأرض ، ونجد أن وحدة
الشعور تفترض علاقات مشتركة بالأماكن المقدسة ،
وبالآلهة المعبودة . وهذه الأنواع الثلاثة من الوحدة
الجماعية يرتبط بعضها ببعض في المكان وفي الزمان ،
ومن ثم ترتبط في نموها وفي كل من ظواهر الخاصة ،
وكذلك بصفة عامة في تأثيرها على الحضارة الإنسانية
وتاريخها .

وكلما كان هناك أناس يرتبطون بعضهم ببعض
عن طريق إرادتهم العضوية ، ويقوم بينهم اتفاق
متبادل يمكن القول بوجود « جماعة » من هذا النوع
أو ذلك . ونستطيع أن ننظر إلى هذه الأنواع المختلفة
من الجماعات ، الواحدة بعد الأخرى ، من خلال
أسمائها الأصلية المفهومة :

١ - القربة . ٢ - الجوار . ٣ - الصدقة .

والقربة لها البيت كمكان يجسم حقيقتها ؛ ففيه
تكون المعيشة المشتركة تحت سقف واحد ، وفيه
يكون الاستمتاع المشترك بما تملك الأسرة وخاصة

تصورها) . أما « المجتمع » فيعنى ما هو عام ، وهو
الاتصال بالعالم الخارجى . ونحن نجد أنفسنا في
« جماعة » مع ذويتنا منذ الولادة ، ونرتبط معهم
ارتباطاً وثيقاً في السراء والضراء ؛ على حين أننا ندخل
« المجتمع » كما لو كنا ندخل أرضاً غريبة . ونحن
نحذر اليافع ضد « المجتمع السيئ » ؛ ولكن تعبير
« الجماعة السيئة » يطارق الأذن كما لو كان فيه تناقض .
صحيح أن الشرعين يتكلمون عن « المجتمع العائلى » ،
ولكنهم حينئذ لا يقصدون إلا المفهوم الاجتماعى
للعلاقة . ولكن « الجماعة العائلية » ، بتأثيراتها اللانهائية
على الروح الإنسانية ، يشعر بها كل واحد ممن ينتمون
إلى هذه الجماعة . وعلى هذا النحو يشعر الخطيبان
أهما ، بالزواج ، يندخلان في حياة جماعية كاملة
communio totius vitae . أما إذا قلنا إنهما
يبدخلان في « حياة مجتمعية » ، فهذا التعبير ينطوى
على تناقض في حدوده .

وتوجد « وحدة جماعية » تم عن الاشتراك في
اللغة أو العادات أو العقيدة ؛ ولكن يوجد « مجتمع »
للعمل أو للعلوم . ومجتمعات التجارة لها من وجهة
النظر هذه دلالة خاصة ؛ وحتى مع وجود الثقة
والترابط بين أعضائها ، فلا نستطيع مع ذلك أن
نسماها « جماعات » التجارة .

ونستطيع بمعنى عام أن نتكلم عن « جماعة »
تضم الإنسانية كلها ، على النحو الذى تدعو إليه
الكنيسة . ولكن « المجتمع » الإنسانى يفهم على أنه
مجرد تجاوز بين أفراد مستقلين بعضهم عن بعض .
ومجمل القول إن « الجماعة » مفهوم قديم ، أما
« المجتمع » فهو حديث كوجود وإسم . والجماعة هي
المعيشة المشتركة الحقيقية والدائمة ؛ أما المجتمع فإنه
فقط عابر وظاهرى . وعلى ذلك نستطيع أن نفهم
الجماعة على أنها كائن حى والمجتمع على أنه تكتل
آلى ومصطنع .

يأنس بعضهم إلى بعض لأنهم يرتبطون برباط واحد أو يشتركون في عمل واحد .

وإذا كانت الحياة المشتركة في المدينة يمكن اعتبارها نوعاً من الجوار ، وكذلك الحياة تحت سقف واحد ما دام يشترك فيها غير الأقارب والخدم ، فإن الصداقة الروحية تشكل على العكس نوعاً من الرباط غير المنظور ، نوعاً من الاتحاد الصوفي بحركه ويغذيه شعور حدسي وإرادة خالقة . والعلاقات بين الأشخاص بوصفهم أصدقاء أو رفاق ليست لها بالضرورة الصفة العضوية التي تجعلها تتأثر بشروط داخلية . فهي أقل ما تكون خصوصاً للغريزة ، وشرط العادة أقل ظهوراً فيها مما هو بالنسبة لعلاقات الجوار . فهذه العلاقات (أي علاقات الصداقة) ذات طبيعة عقلية ، ولذلك فهي إذا قورنت بعلاقات الجوار نجد أنها تقوم إما على الصداقة أو على الاختيار الحر .

الحياة المنزلية — الدوائر الثلاثة

تتكون الأسرة المنزلية من ثلاث طبقات أو دوائر تتحرك كلها حول مركز واحد . فالطبقة أو الدائرة الداخلية هي أقدم الثلاثة وهي تتألف من الرجل والزوجة أو الزوجات إذا كن يتمتن بمركز مماثل بالنسبة لبعضهن البعض . وتأتي بعد ذلك الذرية ، وأفرادها يكونون دائرة واحدة حتى ولو كان بعضهم متزوجاً أما الدائرة الخارجية فتتكون من الخدم والأتباع ؛ وهؤلاء ولو أنهم في الحقيقة نبات خارجي ، إلا أنهم ينتمون إلى الجماعة بقدر ما يندمجون في إرادتها وروحها العامة ، وبقدر ما يشعرون بالارتياح للانتماء إليها والانسحاق في تيارها العام . وهذا الوضع أيضاً ينطبق على النساء اللاتي يأتين إلى أزواجهن من الخارج . وبما أن الأولاد هم ثمرة اتحاد الزوج والزوجة فإنهم يألفون ، بوصفهم ذرية وأتباعاً ، حالة وسطاً بين السلطة والتبعية . وكذلك يمكن القول

الأغذية المستمدة من مؤن واحدة ، والتي تقسمها الأفراد حول مائدة واحدة . كما أن البيت يمثل وحدة العبادة حيث تقام الشعائر للأسلاف (١) حتى تظل أرواحهم غير المنظورة حامية لأهله وبحيث تكون الرهبة والتقديس المشترك حافزاً أكيداً لحياة عائلية مطمئنة ونشاط مستمر ... ولهذا الأسباب فإن الإنسان السوي يكون عادة في أتم حالات السعادة وهدهد النفس عندما يكون محاطاً بأفراد عائلته ؛ إذ أنه يحس حينئذ بأنه في بيته .

والجوار هو الصفة العامة للمعيشة المشتركة في القرية حيث يكون تقارب المساكن وتجاور الحدود في الحقل من عوامل الاتصالات العديدة بين الناس وحيث تؤدي عادة الحياة المشتركة والمعرفة الوثيقة المتبادلة إلى ضرورة الاشتراك في العمل وفي التنظيم والإدارة وإلى الابتهاج إلى آلهة واحدة تمنح الخير والبركة وتدفع البلاء . وإذا كان الشرط الجوهرى لروابط الجوار هو الاشتراك في مكان الإقامة ؛ إلا أن هذه الروابط قد تظل قائمة في حالة البعد وإن كانت بدرجة أقل من روابط القرابة . وفي هذه الحالة تبحث عما يغذيها في بعض الذكريات المشتركة أو الاجتماعات بين الحين والحين .

وتتميز الصداقة عن القرابة والجوار بهوية ظروف العمل وطرق التفكير التي تغدو نتيجة لها . فهي تنشأ من تشابه الحرفة أو الفن ولكن هذه الرابطة يجب أن تتوطد وتتدعم عن طريق محاولات من التقارب واللقاء بين حين وآخر ويحدث هذا داخل نطاق مدينة واحدة . وهكذا نرى أن أصحاب الفن الواحد وكذلك من يشتركون في عقيدة واحدة

(١) يشير المؤلف إلى عبادة الأسلاف في المجتمع اليوناني القديم انظر كتاب فوستيل دي كولانج « المدينة القديمة »

إن حالة الخدم قد تشبه حالة الأولاد ، ولكنها تنقلب إلى استرقاق عندها تهاون كرامة الإنسان .

وهناك اعتقاد خاطيء راسخ في الأذهان بأن الخدمة مهنية في ذاتها ولذاتها لأنها ضد المساواة الإنسانية . والواقع أن أى إنسان يمكن أن يهبط بنفسه أمام إنسان آخر في ظروف متباينة : إما لأنه جبل على العبودية ، أو بسبب الخوف ، أو بالعادة ، أو التأثير بالخرافة ، أو بدافع الحساب المغررض لتحقيق مصلحة ذاتية . وهذا الخضوع يكون أشد وضوحاً كلما ازدادت وقاحة السيد ووحشيته وطغيانه، أو كلما كان جشعه وجبه للاستغلال يدفعانه لامتهان الأشخاص التابعين له . وعلى حين أنه يتعاقد معهم تعاقدًا حرًا إلا أنه يسمح لنفسه بظلمهم وإيلاهم . وإذا كان من يعامل معاملة سيئة يرضى بذلك ، فإنه « كما سح الجوخ » (أو المتعلق) ذو طبيعة أقرب إلى طبيعة الرقيق ؛ على حين أن الخادم الذى يتقاسم مع الأسرة أفراحها وآلامها ، ويكنّ لسيد الأسرة احتراماً كاحترام الابن الناضج ، ويتمتع بثقته كرفيق يستشيره في أموره الخاصة - هذا الخادم يكون ، على العكس ، إنساناً حرًا من الناحية الخلقية ، حتى ولو لم يكن كذلك من الناحية القانونية . وينطوى الوضع القانونى للرقيق على الإجحاف والظلم وذلك لأن القانون يهدف إلى أن يكون ، بل يجب أن يكون معقولا . وهو حين يميز ، على هذا الأساس ، بين « الإنسان » و « الشيء » يتطلب في الواقع الاعتراف بإنسانية الكائن العاقل .

الاقتصاد المنزلى - البيت والمائدة

إن أول شيء يجب الاهتمام به في تنظيم المنزل هو الاقتصاد المنزلى على اعتبار أنه المظهر الذى تبدو فيه الجماعة عاملة ومستمتعة في وحدة متناسقة . والمتعة التى تتكرر دائماً - شبيهة بالتنفس - هى متعة الغذاء . ومن

هنا كان صنع الأغذية وتحضيرها هو أشد الأعمال ضرورة وأكثرها انتظاماً . وتتوزع هذه الأعمال عادة بين الأبناء والأحفاد دون الكبار . وكما أن الغاية والحقل هما المجال الخارجى الطبيعى ، فكذلك يعتبر الموقد (١) وشعلته المتوهجة نواة البيت وجوهره الأساسى إذ أنه المكان الذى يجتمع حوله الرجال والنساء ، والشبان والشيوخ ، السادة والخدم ليستمتعوا سوياً بتناول الوجبة الأساسية ولذلك اتخذ الموقد والمائدة معنى رمزياً : فالموقد يرمز للطاقة الحية للبيت واستمراره في تتابع الأجيال ، والمائدة ترمز لاتحاد أعضاء الأسرة في احتفاظهم وتجديدهم للجسم والروح .

ويمكن القول إن المائدة هى البيت نفسه على اعتبار أن كل فرد في الأسرة يتخذ مكانه منها ويحصل على نصيبه من خيرات الجماعة . وإذا كان الأعضاء يتفرقون ويقسمون أنفسهم ليقوموا بالعمل اللازم فانهم هنا (أى حول المائدة) يعاودون التجمع ليتناسموا فيما بينهم ثمار هذا العمل .

ويتعارض التبادل بمعناه الحقيقى مع طبيعة الأسرة وهو لا يوجد إلا خارج القسمة المشتركة للمتع الأساسية ، ويقدر ما يرغب الأفراد في امتلاك شيء مستقل ؛ وفي هذه الحالة يحققون رغبتهم بتبادل أشياء صنعوها لأنفسهم خارج نطاق النشاط الجماعى ويستطيع البيت ذاته كوحدة - عن طريق رئيسه أو من ينيبه عنه - أن يحول الفائض من منتجاته إلى سلع يرى أنها ضرورية عن طريق التبادل . ومثل هذا التبادل لا يمكن تصوره إلا إذا حدث بين أسر تدخل في نطاق جماعة تعتبر نفسها أسرة كبيرة واحدة (كما يحدث في القرية ، وفي المدينة أو بين المدينة والريف في منطقة واحدة) . وحينئذ يتم التبادل في هدوء وسلام

(١) في المجتمع اليونانى القديم كانت الشعلة المقدسة في وسط البيت رمزاً لاستمرار الأسرة ، ولذلك كان يقال « شعلة انطفأت » بمعنى أسرة اندثرت . انظر فوستيل دى كولانج « المدينة القديمة » .

طبيعته وتصرفاته ؛ والأفراد فيه يمكن وصفهم ، حسب تعبير آدم سميث بأن « كل منهم تاجر » . وإمكان العلاقة الاجتماعية لا يفترض شيئاً آخر غير عدد من الأشخاص المحردين ، يكونون قادرين على الإنتاج وبالتالي على بذل الوعود .

والمجتمع من حيث أنه تجمع لعدد من الناس يجب أن يسود بينهم نظام اتفاق من القواعد ، يكون ، بحسب هذا التعريف ، غير محدد بحدود ؛ إذ أنه يستطيع أن يتخطى باستمرار حدوده الحقيقية . أو المحتملة .

وبما أن كل شخص في المجتمع يبحث عن منفعة الخاصة ، ولا يتفق مع الآخرين إلا بالقدر وفي المدة التي يسعون فيها معاً لتحقيق مصلحة واحدة ، فإن علاقة كل شخص بالآخر قبل الاتفاق وخارجه ، وكذلك قبل وخارج أى تعاقد خاص - هذه العلاقة يمكن تصورها على أنها علاقة عداة بالقوة ، أو حرب كامنة ، وذلك بغض النظر عن اتفاقات الإرادة التي قد تكون بمثابة معاهدات للصلح . فالمشتركون والباثعون ، في وجوه نشاطهم المختلفة ، يقف كل منهم إزاء الآخر كما لو كان يرغب ويحاول أن يعطى أقل ما يمكن من ماله الخاص ، ويحصل على أكثر ما يمكن من مال الغير . كما أن التجار الحقيقيين يجرى كل منهم في حلبة السباق . ويحاول أن يتخطى صاحبه ليكون ترتيبه الأول - إذا أمكن - في الوصول إلى الهدف . ومعنى ذلك أن كلا منهم يحاول أن يدفع الآخر بمنكبه حتى يكبو ، وبذلك تكون خسارة الواحد هي في الوقت نفسه مكسباً . للآخر . وهذه هي « المناقسة العامة » التي تحدث في شتى الميادين ؛ ولكنها أشد ما تكون وضوحاً في ميدان التجارة . وقد وصفها بعضهم للتدليل على ما أطلقوا عليه « حرب الجميع ضد الجميع » ، واعتبروا

وفق مبادئ يظهر عدلها للتفكير السليم ، وتبدو كما لو كانت تعبيراً عن قسمة مشتركة شبيهة بالمنفعة المشتركة حول المائدة الخافلة . وسوف نلاحظ أن هذه الحركة البسيطة هي الأصل في فكرة التبادل وفي دورة البضائع . ولكن مظاهر هذه الفكرة قد تغدو بعيدة كل البعد عن الأصل وتبدو تشويها لها مما يضطرنا - لكي نفهم التبادل في صورته الحقيقية - إلى تفسيره بالعودة إلى حاجات الأفراد وارااداتهم .

نظرية المجتمع

المجتمع عبارة عن مجموعة من الناس يعيشون بعضهم مع بعض ، ويحتفظون إزاء بعضهم البعض بعلاقات سلمية (كما هي الحال عند أفراد الجماعة) ، ولكن لا تجمع بينهم أية رابطة عضوية ، بل يظلون دائماً منفصلين عضوياً .

« فبينما يكون الأفراد في الجماعة » مرتبطين بالرغم من انفصالهم ، فهم في المجتمع منفصلون بالرغم مما قد يؤدي إلى ارتباطهم . وعلى ذلك فلا يوجد في المجتمع نشاطات تصدر عن وحدة قبلية *a priori* وبصورة ضرورية بل بعمل كل واحد من أجل نفسه ؛ ويصدر سلوكه عن حالة من التوتر والتحفز بإزاء الآخرين . ومثل هذا السلوك السلبي الطبيعي في المجتمع ؛ فلا يقبل أى شخص أن يقوم بخدمة للآخر ، أو يعطى أى شئ للآخر ، إلا إذا كان ذلك نظير خدمة مقابلة ، أو عطاء يكون على الأقل مساوياً لعطائه . وقد يكون من الضروري أحياناً أن تكون الخدمة أو العطاء الذي يحصل عليه أكثر فائدة ، في نظره ، من ذلك الذي يقدمه ، وذلك لأن الأمل في الحصول على شئ أحسن هو وحده الذي يدفعه إلى عمل الخير .

والمجتمع المدني هو في الحقيقة مجتمع تبادل Société d'échange يهتم الاقتصاد السياسي بمعرفة

التي تحمل معناها الحقيقي فجعلها هو الجماعة التي
يجمع بينها رباط الدم .

التعارض بين الجنسين

يربط « تونيز » التعارض بين الرجل والمرأة
بالتفرقة الأساسية التي أقامها بين الإرادة العضوية
(أو العاطفية) والإرادة الواعية (أو العقلية) . وقد
شرح تفاصيل هذا التعارض في القسم الثالث من
الكتاب الثاني الذي خصصه لما سماه « المعاني التجريبية
لنظريته .

وهو يقول : « من الحقائق الشائعة والهامة في
الوقت نفسه أن النساء يتحركن في غالب الأحوال
مدفوعات بعاطفتهم وأن الرجال يخضعون لما
يمليه عليهم العقل وأنهم أكثر ذكاء من النساء
فهم وحدهم قادرون على العمليات الحسابية المعقدة
وعلى التفكير المجرد وربط الأفكار بعضها ببعض
في إحكام وفقاً لقواعد المنطق . والقاعدة العامة هي
أن النساء قلما يسلكن هذا المسلك . ومعنى ذلك أنه
ينقصهن التعبير الجوهري عن الإرادة الواعية .

على أنه ليس بصحيح أن الرجال يلجأون إلى
الإرادة الواعية وحدها عندما يقومون بنوع من
النشاط الخاص وأنهم يتخذون موقفاً محايداً إزاء
الطبيعة وسيطرون سيطرة تامة عليها . بل كل مافي
الأمر أن نشاطهم يتطلب استخدام العقل الواعي
أو المفكر . وأن هذا الاستخدام ينمي هذه الملكة
لديهم .

وتفسير ذلك أن الأنثى لا عند البشر فحسب بل
وكذلك عند الحيوانات الثديية تكرس مظم وقتها
لرعاية صغارها ؛ أما الذكر فعليه يقع عبء
توفير الغذاء والدفاع ضد العدو المهاجم . ووظيفة
المهجوم والاعتصاب - ويلخل في ذلك اغتصاب
الأنثى ذاتها - تستدعي منه أن يكون حذراً يحسن

هذه الحالة ، هي الحالة الطبيعية العامة التي فطر عليها
الجنس البشري (١) .

غير أن هذه المنافسة ، تحمل في طياتها ككل
أشكال الحرب إمكان نهايتها . إذ يقرر الأعداء
ولو بتجشم المصاعب أحياناً ، أن بعض المواقف
تقتضى منهم الاتفاق لأن ذلك تحقق مصلحة الجميع ؛
وبذلك يتغاضى كل منهم لصاحبه عن بعض الأمور
بل قد يتحدون لتحقيق هدف مشترك (وفي الغالب
يكون هذا الاتحاد ضد عدو مشترك) ؛ وعلى هذا
التحوتخف وطأة المنافسة وتتحول إلى تحالف
coalition .

« هذه العلاقات التي تقوم على تبادل القيم المادية
تحدث ما يناظرها في كل اتفاق اجتماعي يقوم على
الكياسة ومراعاة الغير . فتبادل كلمات الثناء وعرض
الخدمات التي يبدو فيها أن كل شخص يقدر موقف
الآخرين ويضع نفسه في موضعهم مثل هذا الموقف
في الحقيقة يخفي وراءه تفكير كل شخص في نفسه ،
واهتمامه ، على العكس ، بانتصار وجهة نظره وتحقيق
مصالحه الذاتية . ولذلك نرى أن كل واحد ينتظر
بل يطلب من الآخر قدراً معادلاً على الأقل لما قدمه
إليه من صنوف التودد والمجاملة ونراه تبعاً لذلك
يزن خدماته بدقة وكذلك تملكه وهداياه الخ... على
أساس أن هذه الأشياء ستحدد الغايات المطلوبة .

ولكن القول عموماً إن شروط الحياة الاجتماعية
أساسها المقارنة بين خدمات ممكنة أو مقترحة وأن
العلاقات بين الأشخاص تنصل بموضوعات حسية أو
مادية . أما النشاط المنزه عن الغرض والكلمات الطبيعية

(١) يشير تونيز هنا إلى نظرية هوبز التي أعلنها في كتابه
« التنين » Leviathan وذكر فيها أن حالة الطبيعة ، أي قبل
نشأة المجتمع ، هي حالة « حرب الجميع ضد الجميع » Bellum
omnium contra omnes . ومن الواضح أن تونيز يارض
هوبز ، إذ يرى ، على العكس أن حالة الحرب أو على الأصح المنافسة
لم تظهر إلا بعد ظهور المجتمع .

عموماً أكثر استقبالا وأكثر إحساساً بالإنطباع التي تفرض نفسها عليها من الخارج . وتفضل الاستمتاع بالمتعة القريبة ، الحاضرة ، المنتظمة عن البحث لبلوغ متعة بعيدة ، مستقبلية ، ونادرة .

وتتحرك إرادة المرأة بدافع الانفعال بازاء التغيرات الملائمة أو المنفرة ؛ وبالتالي فان الإحساس لديها هو واسطة التعبير عن مشاعرها الإيجابية أو السلبية وهذا الإحساس يتكون ويزداد إرهافاً بحيث تكمن فيه المقدرة على التمييز بين الخير والشر ، والجميل والقيبح ؛ وهذا التمييز قد لا ينطبق تمام المطابقة مع معرفة الأشياء والظواهر ، وهي المعرفة الموضوعية . فهذه المعرفة نحصل عليها (بوصفها إدراكاً حسيّاً) عن طريق نشاط العين الفاحصة ، ثم الأذن مع الاستعانة باللمس . أما الاحساس الانفعالي فيعتمد أولاً على حواس الشم والذوق ولا يحتاج إلا للملاحظة عابرة ، وهو ما نجده عند المرأة . ويظهر في جميع التعبيرات المحملة بالمشاعر ، وفي تغيرات المزاج ، وفي الأفكار التي يرحى بها الضمير لا العقل .

ومن طبيعة هذا النشاط الذي يقوم على الإرادة العاطفية أنه يتسم بالصرامة والإخلاص والسداجة ؛ وهي الصفات المباشرة والانفعالية عند المرأة . وكذلك عند جميع الرجال الطبيعيين^(١) في كل الظروف . وإلى هذه الصفات يرجع إنتاج العقل والإبداع الذي يصبح بواسطة رقة الشعور وحسن الاختيار والتذوق إنتاجاً فنياً ، حتى ولو كان هذا الإنتاج يحتاج - لكي يخلق أعمالاً عظيمة - إلى القوة العضلية والذكاء ، أو إلى دوافع أنانية تحرك وترفع حافز العمل عند الرجل .

(١) يقصد « تونيز » بكلمة « الطبيعيين » ، الرجال قبل أن تغيرهم حياة المجتمع السياسي .

المراقبة والترقب ويدرب أكثر حواسه نشاطاً وهي السمع والبصر حتى تصبح من الحدة والإرهاق بحيث تدرك الأشياء البعيدة . ويؤدي ذلك بطبيعة الحال إلى نمو ملكة التنبؤ وإعداد العدة لكل احتمال . وذلك لأن الرجل هو الموجه لكل نشاط يتصل بمواجهة الطبيعة الخارجية . وهذا أمر طبيعي طالما أنه الأقوى والأكثر استعداداً للصراع وكذلك الأكثر تحركاً والأخف حركة ومقارنتها بالرجل في هذا المجال ، تعتبر المرأة أكثر استكانة وأشد ميلاً للخمول .

ووظيفة الرجل كقائد تستلزم منه كذلك أن يعتاد إصدار الحكم بسرعة ، وأن يقرر في حزم ما يجب عمله ، في ظرف ما ، باعتبار أنه التصرف المناسب . فلا يكاد يشعر بخطر قادم حتى يأخذ لكل احتمال عدته ، ويتخذ من علاقات الخطر دعائم لتقليب الأمر على جميع وجوهه ؛ ومن خبرته السابقة بالأخطار المشابهة أساساً لرسم خطط العمل .

وتبرز عند الرجل عموماً ملكة المقارنة . وتتفرع عنها صفات شكلية خاصة : كالمقياس ، والوزن ، والحساب بجميع أنواعه وهذه جميعاً تتلخص في تمييز الكميات وعلاقاتها بعضها ببعض .

كما أن أنواع النشاط التي يقوم بها الرجل تستلزم نمو فِكيرة « العلية » ؛ فعلى أساس هذه الفكرة يقوم كل نشاط علمي .

* * *

ولكن إذا كان الذكاء يُعزى بحسب الأفضلية إلى الرجل ، فهو لايساوى على كل حال القوة الذهنية في عمومها . ويقدر ما تكون هذه القوة خلاقة وتركيبية فان عقل المرأة هو الذي يبرزها في أجلى معانيها . وتفسير ذلك أنه ، مثلما يتميز تكوين الرجل بسيطرة « الجهاز العضلي » يتميز تكوين الأنثى بسيطرة « الجهاز العصبي » . فنياً يتصل بنشاطها السلبي المتواصل تتحرك المرأة في دائرة ضيقة وهي

وتؤدى هذه الكلمة إلى رأى غريب عن العبقريه يسرد « تونيز » تفاصيله بقوله : « يبدو لنا على هذا النحو أن نواة العبقريه ، وأن أحسن ما فى الرجل يرجع إلى ما ورثه عن طريق الأم . ولذلك فإن الرجل العبقري يظل فى كثير من صفاته ، ذا طبيعة أنثوية ، فهو ساذج مخلص ودع ، لمّاح سريع تقلب المزاج ، هادىء أو ميال إلى الكآبة . وهو بعد ذلك حالم ، شارد الذهن ، يعيش كما لو كان تحت تأثير نشوة دائمة يعطى من ذاته للناس بإيمان وثقة .

ونتيجة لكل هذا قد يبدو مثل هذا الإنسان المتحمس - فى نظر الناس العاديين الذين يدبرون أمورهم بعقل بارد - مقهوراً أو مخبولاً ، بل أبلها أو سخيلاً ، أو كرجل ثمل بين رجال واعين . وسلوك المرأة عندما تكون أحكامها حرة غير مقيدة بقيود ، لا يختلف كثيراً عما ذكرنا ؛ ولذلك فالرجال العاديون لا يفهمونها وتبدو فى نظرم سخيفة .

وفي الحقيقة تظهر عند الرجل العبقري فى قوة ونماء ، الصفات التى قد تظهر فى شكل ما عند الكائنات المزودة بالقدرة على الكلام . وهو أكثر النماذج اقتراباً من نموذج الرجل الكامل الذى نريد أن نصوره كثال أعلى . وذلك لأن القوة العضلية والشجاعة تتفاضل بها الحيوانات فيما بينها ؛ أما الطاقة الذهنية أو العبقريه فيختص بها النوع البشرى ، حتى ولو على سبيل الإمكان لا التحقيق . فالإنسان العبقري هو الإنسان الفنان ؛ هو الشكل النامى (أو الزهرة) للإنسان الطبيعى (البسيط والحق) .

وإذا سلكت المرأة وسلك الرجل كل حسب تكوينه : الأولى ككائن طبيعى ، والثانى ككائن مصطنع ، فإن الرجل الذى تسود عنده الإرادة العضوية يكون ، مع ذلك ، ما زال مصطنعاً بالروح الأنثوية ، وهو يتخلص من هذه الروح عن طريق

الإرادة الواعية، والمفكرة ، وحينئذ فقط يبدو فى صورة الرجولة الخالصة . وقد يميل الشعراء والمفكرون إلى امتداح المجهول فى المرأة ، والعمق الخفى فى كيانها ومشاعرها ، والصفاء فى روحها . وهذا الميل يدل على أننا نحتاج ، فى بعض الأوقات لأن نتذكر كل ما فقدناه عندما أصبحنا نفكر ببرود ، أى عندما أصبحنا نعمل فى ضوء العقل وحده .

ومع ذلك فالطبيعة لا تدمر نفسها ، إلا لتنمى بطريقة جديدة عناصر طاقتها . إذ أن الإنسان يعود إلى لذة التأمل والمحبة اللذين قضى عليهما التدبير والتطلع ، عن طريق أصفى المعارف وأسماها ، وذلك حين تصبح المعرفة فلسفة .

تلخيص

وفى ختام هذا البحث نورد ملخصاً للأفكار الأساسية التى جاءت فى كتاب « الجماعة والمجتمع » ، وقد أثبت هذا التلخيص المؤلف نفسه فى بعض فصول الكتاب :

الفروق بين المرأة والرجل	
المسزاج	عند المرأة
عند الرجل	عند المرأة
يتميز بالنشاط المفروض	يتميز باللون العاطفى
الصفة المميزة	عند المرأة
عند الرجل	عند المرأة
سيطرة العقل	سيطرة الشهور
التفكير	عند المرأة
عند الرجل	عند المرأة
يعتمد على المعرفة الموضوعية	يعتمد على الحدس
الفروق بين الجماعة والمجتمع	
المجتمع	الجماعة
الإرادة الواعية	الإرادة العضوية
الشخصية	الأننا (أو الذات)
الملكية التعاقدية	التملك (أو الاستحواذ)
الاعتماد على المال	الاعتماد على الأرض أو التربة
سيادة قانون الائتزام	سيادة القانون العائلى

صورة سيّدة لهنرى جيمس

بمّسلم

الدكتورة أنجيل بطرس سمعان

رفيع وقدسية عمل الفنان الجاد^(١) ، وكرس حياته لتطبيق ما نادى به من مبادئ وآراء في أعماله المبدعة الكثيرة : فقد سعى جيمس لتوسيع إمكانيات هذا الفن مستخدماً في سبيل ذلك جميع الوسائل والأساليب الفنية الممكنة ، مستعيراً من بعض الفنون الأخرى كالتصوير والمسرح كل ما من شأنه أن يجعل الرواية أعظم تأثيراً وأكثر قدرة على تصوير الحياة ، ولذا اهتم بتأكيد أهمية الشكل والبناء الفني للرواية .

كان جيمس بالرغم من دقته المتناهية واهتمامه الشديد بالإجادة والارتقاء بعمله إلى أعلى مراتب الكمال ، كاتباً خصباً غريز الإنتاج . امتدت حياته الأدبية إلى ما يقرب من الخمسين عاماً كتب فيها تسع عشرة رواية وتسعاً وستين قصة قصيرة وثلاثة أجزاء من السير الذاتية إلى جانب ست مسرحيات وعدد كبير من كتب

(١) انظر مقاله « الفن القصصي » في :

“The Art of Fiction” (New York, 1948), pp. 3-23.

أو

“Views on the Art of the Novel”, compiled by Angele Botros Samaan (Cairo, 1965), pp. 115-144.

يعد هنرى جيمس من أعظم الروائيين في العصر الحديث ومن أهم الأسماء في تاريخ الرواية الإنجليزية بوجه خاص . فبالرغم مما لاقاه في حياته من فتور وما لاقته أعماله من كساد ، كان يعزى في كثير من الأحوال لصعوبتها وتعذر فهمها على القارئ العام ، إلا أنه يشغل الآن مكانة أدبية ممتازة ، وتحظى أعماله باهتمام كبير في الأوساط الأدبية في إنجلترا والولايات المتحدة على حد سواء . وترتكز مكانته الأدبية على سجل حافل من الأعمال الروائية والنقدية . إذ لم يكن جيمس روائياً مبدعاً من الطراز الأول فحسب ، بل كان أيضاً ناقداً هاماً في مجال نقد الرواية ، فكان أول من يمكن أن يقال عنه إنه أقام النقد الروائي على نظام موضوعي . كما أضاف إلى هذا الميدان ثروة كبيرة من الكتابات النقدية والألفاظ والعبارات النقدية التي كان يفتقر إليها .

وهنرى جيمس فنان أصيل واع بقيمة فنه وقدسيته ، اهتم أكثر ممن سبقه من الروائيين الجادين من أمثال جين أوستن وجورج إليوت بتأكيد فكرة الرواية كفن

الرحلات والتراجم والدراسات النقدية والمقالات المتفرقة التي جمع منها للآن ستة أجزاء إلى جانب ما طبع من مذكراته . كذلك راسل جيمس عدداً من كبار كتاب عصره وطبعت من رسائله الخاصة والأدبية عدة أجزاء (١) :

وقد امتازت أعمال جيمس بطابع خاص نتيجة لميوله الأدبية الشخصية وظروف نشأته وثقافته من ناحية ولطبيعة مرحلة التطور التي كانت تمر بها الرواية الإنجليزية من ناحية أخرى . فقد جمع جيمس بين ثقافتين عالميتين : الثقافة الأمريكية الحديثة والثقافة الأوروبية العريقة ، كما كتب في فترة تعرضت الرواية الإنجليزية فيها لبعض المؤثرات الأوروبية بحيث جاءت أعماله وليدة تأثره بالتراث الروائي الإنجليزي من ناحية وبعض المؤثرات الخارجية الأوروبية من ناحية أخرى . فلكونه أمريكياً عاش في أوروبا رأى لزاماً عليه أن يعالج « موضوعاً عالمياً » وأن يهتم بعلاقة الأمريكي بأوروبا وأثر أوروبا على الأمريكيين . أما تأثره ببعض الاتجاهات في مجال الرواية الأوروبية فلعل أهم مظاهره اهتمامه بالشكل الفني للرواية واحترامه الشديد لبعض الروائيين الأوروبيين من الفرنسيين والروس مثل بلزاك وفلوبير وترجينيف .

نشأته وبدء حياته الأدبية

ولد هنري جيمس في مدينة نيويورك عام ١٨٤٣ وقضى صباه متنقلاً بين الولايات المتحدة وأوروبا ثم عاد إلى أوروبا شاباً يافعاً متفتحاً للحضارة الأوروبية متنقلاً بين مسارحها في إيطاليا وفرنسا وإنجلترا ، وأخيراً استقر به المقام في إنجلترا وإن لم يتخذ الجنسية البريطانية إلا في عام ١٩١٥ أي قبل موته بسنة واحدة .

نشأ هنري جيمس في أسرة ثرية مثقفة ، فقد ورث أبوه ثروة كبيرة عن والده الإيرلندي الأصل الذي هاجر إلى أمريكا وكون ثروة ارتكز عليها رخاء الأسرة فيما بعد . وقد كانت هذه الثروة أداة لتثقيف الأبناء دون التقيد بالإعداد لمهنة معينة . فقد كان الأب رجلاً مثقفاً بل فيلسوفاً يرى في التقيد بمهنة معينة « تضييقاً » للأفق ، كما حدث عندما أبدى ابنه الأكبر وليم ميلا للفن ورغبة في دراسته ، ولكنه كان يؤمن بهيئة الفرصة لأبنائه للحصول على أكبر قدر من الثقافة . ولعل هذا الميل من جانب الأب نحو عدم التحديد بالرغم من عطفه ورقته المتناهية نحو أبنائه يفسر تصميم هنري فيما بعد على كسب عيشه عن طريق الكتابة منذ سن مبكرة بل وتنازله عن نصيبه في ثروة أبيه لأخته .

ومن حسن حظ الدارس لحياة جيمس وأعماله أن ترك لنا هذا الأديب سلسلة من السير الذاتية كتبها في أواخر أيامه ، تعد سجلاً حافلاً لحياة جيمس المبكرة إلى بداية فترة اشتغاله بالأدب هي : « صبي صغير وآخرون » (١٩١٣) ، « مذكرات ابن وأخ » (١٩١٤) و « السنوات الوسطى » التي لم يتحها جيمس ونشرت بعد وفاته (١٩١٧) .

ويبدو واضحاً في هذه الأعمال احترام هنري لأبيه وتقديره له . أما الأم فقد كانت مصدر حب وحنان وإحساس بالجمال وشعور بالأمن لجميع أفراد الأسرة التي بلغ عدد أبنائها خمسة أكبرهم وليم جيمس الفيلسوف المعروف ، يليه هنري الذي يصغره بثمانية عشر شهراً ثم يتبعه ابنان آخران وابنة تدعى أليس .

وقد شغل الأب بتعليم أبنائه ، وتردد طويلاً بين أوروبا وأمريكا ومزايا كل منهما ، فقد رأى أول الأمر أن يتلقى الأبناء تعليمهم في وطنهم ولكنه عاد فقرر لإرسالهم إلى أوروبا عام ١٨٥٥ . فقد كان يريد لأبنائه أن يفيدوا أكبر إفادة من تلك الثقافة الأوروبية العريقة التي تفتقدها أمريكا ولكنه عاد فاستدعاهم للوطن ليعود

(١) انظر لزيادة التفصيل التبت البيليوغرافي الملحق بكتاب : F.W. Dupee, "The Question of Henry James" (New York, 1945).

دلائل القدرة على الكتابة ، بل استمراره في الكتابة وتصميم جيمس على اتخاذ الكتابة مهنة يكسب منها عيشه ، ولعل هذا يعوض ما يشعر به القارئ من أن جيمس لم يكن لديه شيء ذو بال يقوله ، إذ يدور الكثير من قصصه حول شبان مهزومين حائرين .

لم تدم هذه الفترة طويلاً على أية حال ، ففي عام ١٨٦٩ قام جيمس بزيارة لأوروبا كان لها أكبر الأثر في نفسه وأصبح هذا التاريخ نقطة تحول في حياته وكان هذه التجربة قد فكت عقال نبوغه فأصبح لديه من ذلك الوقت ثروة كبيرة من المادة الهامة للكتابة .

وجدير بنا قبل أن نعالج هذه الفترة الغنية بمصادر الإلهام أن نوضح أن صداقات جيمس أثناء سنوات الحرب الأهلية الصعبة وما بعدها قد تركت في نفسه أثراً لا تمحى وحببت إليه إلى الأبد بعض نواحي الحياة الأمريكية : فنجد مثلاً في « صبي صغير وآخرون » ذكريات سارة عن صفات الشباب الأمريكي الذين عرفهم عن قرب من عدم تكلف وبساطة وإخلاص وحسن نية وروح اجتماعية . وهو يقارنهم بمن عرفهم من شباب بعض الجهات الأخرى التي زارها بصفتهم المضادة لهذه الصفات الطبيعية غير المتكلفة ، إذ يبدو هؤلاء أكثر تدريباً واستعداداً وتأهباً وتسلحاً لمواجهة الحياة الاجتماعية من الشباب الأمريكي . ولعل أحب شخصيات هذه الدائرة التي عرفها جيمس لنفسه كانت قريبته ميني تيمبل التي قضت في شبابه بداء الصدر ولم تبلغ من العمر أكثر من أربعة وعشرين ربيعاً ، والتي تلوح في كتابات جيمس كرمز وضاء لجميع صفات الفتاة الأمريكية الكاملة والتي أوحى لجيمس باثنتين على الأقل من خيرة بطلاته هما إيزابيل آرثرشربل بطله « صورة سيدة » موضوع هذا المقال وميللي ثيل بطله « جناحي الحمامة » . وعنها يكتب جيمس :

« لقد كانت طبيعية لدرجة تبلغ حد الكمال . . . كانت طبيعية في عدد من النقط وبخصوص عدد من

فيرسلهم مرة أخرى لسويسرا عام ١٨٥٨ حيث بقوا إلى عام ١٨٦٠ عندما عادوا إلى أمريكا حيث استقر بهم المقام في نيويورك أولاً ثم في بوسطن . وهكذا قضى هنري طفولته متنقلاً بين أوروبا وأمريكا وتلقى تعليمه في مدارس نيويورك وجنيف وباريس وبولونيا على أيدي مدرسين من مختلف الجنسيات . وبالرغم من أن هذا التغيير المستمر قد أقلق هنري إلا أنه قد استفاد كثيراً دون شك . لم يبرز هنري في دراسته إذ لم يكن يستطيع معالجة أصغر مسألة ميكانيكية أو هندسية ، ولكنه قرأ كثيراً واكتسب كثيراً من التجارب .

ومن بادئ الأمر نرى سحر كلمة أوروبا يلهب خيال الصبي الصغير الذي راح يحلم بتلك البلاد إلى أن أصبح الخيال حقيقة عندما أرسله والده إلى سويسرا . وهكذا يظل هنري الشاب مشدوداً إلى أوروبا مبهوراً بثقافتها وكنوزها الفنية ، يعبر عن ذلك كله عندما يعود إليها ليزور إيطاليا لأول مرة كشاب مستقل لا كطفل يذهب إلى المدرسة كما سنرى .

أما السنوات التي سبقت بدء حياته الأدبية مباشرة فكانت بداية فترة قلق واضطراب لا نعرف عنها الكثير ، فقد بدأت الحرب الأهلية في ربيع ١٨٦١ وأصيب هنري في أواخر هذا العام لإصابة في ظهره منعتة من الاشتراك في الحرب ، فأثر ذلك في حالته النفسية ، ومما زاد الحالة سوءاً أن إصابته لم يمكن تشخيصها على وجه التحديد مما أدى إلى إهمال علاجها ، فقام من جرأها كثيراً من الألم والمرارة .

بدأ نشاط هنري جيمس الأدبي عام ١٨٦٤ ونشر بين هذا التاريخ وعام ١٨٦٨ اثنتي عشرة قصة قصيرة وحوالي خمسين عرضاً للكتب ، وتعرف ببعض كتاب عصره ممن اتصل بهم بشأن نشر كتاباته مثل لويل ونورتون وبدأ صداقة وثيقة مع و . د . هاولز . ولعل أهم ما يلفت النظر بشأن هذه الفترة ليس نوع كتابته أو درجة جودتها بالرغم من أنها كانت تحوى الكثير من

الأشياء ويمدَى أكثر اتساعاً من الحرية والبساطة وامتداد الأفق بدرجة تفوق بكثير ما يمكن أن تحلم به الأخريات من بنات الخوئولة والعمومة» (١).

لقد كانت «تمثل صورة وقوام ما يشعر به المرء في الحياة من اهتمام ، اهتمام يمتد بعيداً بلطف أو يثبت بألفة وجمال ، كما قد يحدد ذلك رقة إحساسها الرائع المتغير ، إحساسها الخلقى ، الشخصي ، أو العصبى» . لقد كان جوهر حياتها أن تنغمس بنشاط في الحياة «لقد طالبت بها الحياة واستخدمتها وأزعجتها ، وجعلتها تنتقل في تحسس طريقها ، طريقها الغض وغير المضيء من بداية السلم إلى نهايته» (٢). لقد كان موت ميني تمهل بعد نضال عنيف للتغلب على المرض نهاية مرحلة في حياة هنرى وأخيه وليم . لقد كانت «نهاية شبابهما» .

أما المصدر الآخر لإلهام جيمس فهو أمريكيته . وهنا نجد جانباً هاماً من جزائب إعداده . فقد نشأ جيمس في بيئة أمريكية ثم انتقل إلى بيئة أوروبية ولذا أحس بأن لديه القدرة على رؤية هذه البيئة والكتابة عنها من وجهة نظر جديدة ، فهو ككاتب أمريكي يتمتع بامتيازات وفرص لا تتوفر لسواه ، كما يكتب لأحد أصدقائه :

«إننا أمريكيون مولدأ ، وعلينا أن نقوم بدورنا كذلك . إنى أعتبر ذلك عطية عظيمة من السماء . وأعتقد أن كون المرء أمريكياً يعده إعداداً عظيماً للثقافة . إننا كشعب نملك صفات جميلة ويبدو لى أننا نفوق الأجناس الأوروبية في أنه يمكننا أكثر من كل منها أن نعالج بحرية أشكالاً من الحضارة غير حضارتنا وبممكننا أن نختار وأن نمتص جمالياً ، بل وأن نجد ما نعتبره ملكاً

لنا في أى مكان . . . لا بد أن يكون لنا بالطبع شيء خاص بنا - شيء مميز ومماثل - وأعتقد أننا سنجد هذا الشيء في وعينا الخلقى وفي قوتنا وخفتنا الروحية التى لم يسبق لها مثيل» (١).

ويمكن ربط مثل هذا القول بما سبق الإشارة إليه من صفات الشباب الأمريكى التى تمثله ميني تمهل ، ومما يمكن أن يطلق عليه فكرة «الأمريكية» . فقد أدرك جيمس فيما بعد أن لعلاقة الأمريكى بأوروبا وجوهاً مختلفة عبر عنها بقوله «إن كون المرء أمريكياً مصير مفعم بالتركيب والتعقيد» . ويمكن اعتبار رواياته وقصصه عمليات استكشاف للطرق العديدة المختلفة التى يمكن أن يظهر بها هذا التعقيد ، كما يقول د . و . جيفرسون في دراسته لجيمس .

أما زيارته لأوروبا عام ١٨٦٩ فقد حماته إلى إنجلترا ومنها عبر فرنسا وسويسرا إلى إيطاليا بكنوزها الفنية وآثارها ومدنها القديمة وجوها الثقافية الخاص . وقد كان لروما أثر خاص في نفسه كما كتب نجر أخاه وليم عن هذه التجربة وما كان لها من أثر «لا يمكن التعبير عنه بالكلام ولا يمكن مقارنته بأى شيء آخر» :

«أخيراً - وللمرة الأولى - أحيا ! [إن روما] تفوق كل شيء . . . إنها لا تشبه في شيء روما التى تخيلها - التى قرأت عنها - لقد رحلت أتمایل وأثن وسط الطرقات . في حى من المتعة . وجبت في ظرف أربع أو خمس ساعات بجميع أنحاء روما ورأيت كل شيء رؤية خاطفة - الفورام والكوليزيوم (الذى يفوق في عظمته كل شيء) ، البانشيون والكابيتول وكنيسة القديس بطرس وعمد تراجان وقصر سانت أنجيلو - وكل الميادين والأضلاع والآثار . إن الأثر الذى

(١) «سيرة هنرى جيمس»

"Henry James Autobiography", ed. F.W. Dupee (1956), p. 283.

هذا الكتاب يحوى كتب السير الذاتية المشار إليها أعلاه .

(٢) المرجع السابق ص ٥٠٩ .

"Selected Letters of Henry (١) James," ed. Leon Edel, 1950, pp. 51-52.

يتركه ذلك شيء لا يمكن وصفه (١).

ويمتاز إنتاج جيمس في السبعينات بغزارته وثنوعه . فقد بلغ عدد ما نشره في الدوريات في عام ١٨٧٥ نحو سبعين عملاً . فبالإضافة إلى القصص القصيرة وعرض الكتب كان هناك الكثير من أدب الرحلات والنقد الأدبي والمسرحي . وظهرت قدرة جيمس الطبيعية على الوصف البليغ اللامع . وتعكس قصص هذه الفترة ورواياتها قدرة كبيرة على تصوير علاقة الأنماط الأمريكية بجوانب هامة لأوروبا والأوربيين . كما تمتاز بثروة في المادة التسجيلية نتيجة لما تمتع به جيمس من قوة ملاحظة وذكاء فطريين :

وهنا نواجه نقطة طال الجدل حولها وهي إلى أي حد كان جيمس مهتماً بتقديم ما يوصف « بالموضوع العالمي » وإلى أي حد كان مهتماً أصلاً بتقديم أنماط أمريكية . وفي هذا الصدد يقول جيفرسون : « من السهل أن نخطئ باعتبارنا المواقف العالمية في رواياته ذات أهمية هامشية أو جانبية لأنها تنصب فقط بالطبع على أولئك الأشخاص غير العاديين الذين يتزوجون من أجنبي أو الذين يصنعون لأنفسهم حياة مصطنعة مختلطة بالحياة في الخارج أو أولئك الذين تدل حريتهم في السفر على عدم ارتباطهم بمجتمعهم . غير أنه يمكن الرد على ذلك بالقول بأن وضع الأمريكيين والأوربيين جنباً إلى جنب ومقارنتهم كان وسيلة مؤثرة جداً أولاً لاكتشاف الأنماط الأمريكية ثم لتقديم هذه الأنماط تقدماً أكثر حدة وتأكيداً . فمن صفات القصة العالمية أنها وسيلة « فنية » لتحديد السلوك الأمريكي وتوضيحه . ففي مثل هذه الدراسات الصغيرة مثل « حزمة من الرسائل » ١٨٧٩ و « وجهة النظر » ١٨٨٢ ، حيث يمكن معظم السرور في الملاحظات التي تبديها الشخصيات التي تمثل أنماطاً قومية واجتماعية مختلفة بعضها على البعض الآخر ، يظهر بوضوح كبير فضل وضع الأمريكيين في وسط عالمي . إذ فمن ناحية معينة تتطلب المادة ذاتها هذا التطور . إذ يمكن اعتبار الكثير من حاجات الأمريكيين وأمانهم

ولم تكن روما المكان الوحيد الذي ترك في نفسه أثراً قوياً فقد كتب خطابات أخرى تصف تأثيره بإنجلترا وبالإنجليز وبمن قابلهم من مواطنين في الخارج . فقد كان جيمس يتمتع بقوة خارقة للاستجابة للأماكن المختلفة وأنواع السلوك المختلفة المرتبطة بها .

كانت زيارته هذه أصلاً للعلاج ولذا عاد إلى أمريكا في نهايتها بعد أن قضى أربعة عشر شهراً في أوروبا . ولكنه عاد فقام بزيارتين أخريين بعد أن تحسنت صحته وفي عام ١٨٧٥ قرر أن يقيم في باريس وتعرف أثناء إقامته بالحياة الأدبية الفرنسية عن قرب ، وخاصة ببعض كبار الكتاب مثل فلوير وترجنيف ، ولكنه ما لبث أن قرر ترك فرنسا والاستقرار في إنجلترا في عام ١٨٧٦ . وفي إنجلترا قابل بعض الشخصيات الهامة مثل جورج إليوت ولورد تينيسون وشارك في الحياة الاجتماعية الإنجليزية مشاركة خفيفة أول الأمر إلا أنه جمع مادة غزيرة نتيجة لما حققه من صلات اجتماعية كثيرة فيما بعد .

ولعل أهم ما نجنحه من تأملنا لسيرة جيمس الشخصية هو تلك الصورة القيمة لبزوغ الفنان المبدع ونموه وتطوره ، وذلك السجل الدقيق لما كان سيشغله في مستقبل حياته الأدبية من موضوعات هامة .

أعماله الأدبية وتطور أسلوبه الفني

أما أهم نتائج زيارته الأولى لأوروبا فكان مجموعة من القصص التي ترجع أهميتها إلى وصف الأماكن التي زارها مثل « السائح الشغوف » (١٨٧١) و « سيدة المستقبل » (١٨٧٣) ، إلى جانب سلسلة من كتب الرحلات بدأت في الظهور عام ١٨٧٢ .

(١) "The Letters of Henry James," ed. Percy Lubbock (1920), Vol. I, pp. 24-5.

وأوهامهم وإما متصلة اتصالاً مباشراً بأوروبا أو على الأقل فالتعبير عنها تعبيراً كاملاً أكثر احتمالاً في بيئة أوروبية . وهكذا يمكن الجدل بأن أولئك الأمريكيين الذين تزوجوا فعلاً من أجانب أو الذين أصبحوا أكثر أوروبية من الأوربيين في مسائل المعرفة بأمور الفن هم أشكال نموذجية وحالات مفيدة ومتصلة اتصالاً مباشراً بدراسة الأمريكية . فعندما أحضر جيمس بعض الشخصيات لأوروبا كان يهين لها الفرصة لتبدو بوضوح أكثر أمريكية مما لو فعلت دون ذلك» (١).

وبالرغم من أن أعمال هذه الفترة لم تكن كلها ناجحة إلا أنها جميعاً تساعدنا على فهم تطور طريقة جيمس في الكتابة في الفترة المتأخرة . ولعل « مدام موف » ١٨٧٤ أول قصة حقق فيها مستوى رفيعاً من التكنيك أو الأسلوب الفني .

أما « رودريك هلسون » ١٨٧٥ فأول رواية هامة تحوى موقفين أمريكيين كبيرين على الأقل ، وتعالج حياة شاب أمريكي فنان يذهب ليتعلم الفن في روما ولكنه يفشل . تليها « الأمريكي » (١٨٧٦ - ١٨٧٧) وتقدم نيومان الذي يمثل رجل الأعمال الأمريكي ، وتجمع شخصيته النجاح في عالم الأعمال مع سجل مشرف في الحرب الأهلية ، في اصطدامه بالنظام الأرستقراطي الأوربي - تقدم أكثر الأنماط الأمريكية تميزاً . ويلي « الأمريكي » « الأوربيان » وفيها يدير جيمس ظهره لأوروبا مسرح المغامرات والمواقف المتطرفة ويقبل على معالجة الحياة العائلية الهائلة لأسرة من أسر بوسطن المحافظة . وينقل لنا بمهارة تدعو إلى الإعجاب جو الجدلية والاهتمام بالحياة الداخلية الذي تتميز به حياة هذه الأسرة . أما الأوربيان فهما شاب وفتاة ينتميان بصلته القرابة إلى هذه الأسرة ، يعودان من أوروبا ويختلفان دون شك في كثير من أوجه سلوكيهما . ويجيد جيمس تصوير عملية الملاعبة التي

(١) D.W. Jefferson, "Henry James", (١) (19٥0), pp. 18-19.

تحدث بين مرح الزوار وحررتهم الكبيرة نسبياً وبين جدية حياة الأسرة الأمريكية ووقارها . وتعد « الأمريكي » من أعمال جيمس الناجحة التي تستحق من الاهتمام قسطاً أكبر مما تحظى به فعلاً . ويمكن القول بوجه عام إن أهم موضوعات هذه الفترة هو تصوير الاتجاهات والمواقف الأمريكية في بيئات أوروبية . غير أن هذا الموضوع يعالج بأساليب مختلفة تدل على خصوبة خيال جيمس وثرائه .

أما موضوع الفتاة الأمريكية الذي شغل به جيمس في كثير من أعماله فقد عالجه في عدة أعمال أهمها قصتنا « ديزى ميلار » و « حدث دولي » وروايتنا "The Reverbrator" و « صورة سيده » . أما « ديزى ميلار » فهي قصة من النوع الذي يطلق عليه لفظ « نوفيللا » لأنها أطول من القصة القصيرة ولكنها ليست رواية . وتعد « ديزى ميلار » من خير أعماله وأنجحها . ديزى فتاة أمريكية جميلة جذابة ولكنها لا تعرف أصول السلوك في المجتمع التقليدي . وقد رأى جيمس أن خير وسيلة للكشف عن نوع سلوك ديزى أن يقدمها لنا في هذا المجتمع . ويصور لنا كيف تفرغ السيدات الأمريكيات المستقرات في أوروبا ويشعرن بالخرج والارتباك من سلوكها . إذ تمثل هذه السيدات إطاراً من السلوك المقبول والمتواضع عليه والذي يعد كل عمل مخالف تأتبه ديزى تعدى إرادى أو لا إرادى عليه . ولكن فن جيمس يتلخص في تقديمه ديزى وحقاقتها من وجهة نظر عريف بطرق هذا المجتمع ولكنه في نفس الوقت متجاوب مع ديزى ، فهو سهل الوقوع تحت تأثيرها ولكنه يقف منها موقف الناقد الذي لا يتقبلها على علاقتها وكأنه يقف منها موقفاً وسطاً يمكنه من الحكم على سلوكها وتفهمه في نفس الوقت . وهذا الشخص مرهف الحس وعلى درجة كبيرة من الذكاء تمكنه من تحليل موقفه بالنسبة لديزى . فهو يشعر مثلاً أنه قد عاش في جنوه بعيداً عن أمريكا فترة من الزمن جعلته يحس

بشيء من الارتباك في هذا الموقف ، فهو يحس أنه قد فقد الصلة بالمزاج الأمريكي الشاب . وتبرز استجابته لديزي ما تهدف القصة إلى إبرازه ، نوع جمالها الذي يصعب تحديده والإحاطة به . فكلمنا صعب تحديدها هذا الجمال بمعناه الواسع والإحاطة به ، وكلمنا صعب اكتشافه في نخل أعمالها الحمقاء الخاطئة ، زاد السرور عندما ينقذها هذا الجمال في النهاية . فهي قد تبدو كما تقول إحدى تلك السيدات « عادية » أو خالية من علامات التهذيب والرفق الاجتماعي ، ولكن هذا الوصف لا يمكن أن يحيط بتلك الرشاقة الطبيعية العجيبة التي تتمتع بها . وهكذا نجد ونتربون مشغولاً تماماً بمحاولة الإحاطة بهذه الظاهرة الهائلة وهي سلوك ديزي ، وفي متابعة نشاطه الذهني تبقى القصة حية مثيرة للاهتمام والسرور . وهكذا نرى أن شخصية ديزي تجمع بين جنباتها شيئاً يندر وجوده في الحياة ، ولعل هذا ما كان يرمى جيمس إلى تصويره وما يعنيه عندما قال إن هذا النمط « شعر خالص » . فالرغم من أنها نشأت في بيئة غير موالية هي المسئولة عما في سلوكها من شطط وحقاقة إلا أنها تتمتع بتلك البراءة وعدم التكلف التي تتميز بها الفتاة الأمريكية والتي تنقذها في النهاية من السوقية .

وقد وجد جيمس في موضوع الفتاة الأمريكية مجالاً خصباً ممتازاً بالجدوة والنضارة ويتحمل التحديات الفنية في المجال الروائي ، فقد كان في جذبتها وعدم تكلفها في وجه التقاليد وأنواع السلوك الاجتماعي الثابتة مجال للشعر والمسرح والمهابة والمأساة ، فخلق على غرار ديزي ميلر عدداً من البطولات الأمريكية الرائعات . وإذا كانت الفتاة الأمريكية في الأعمال الثلاثة الأولى السالفة الذكر موضوعاً للمهابة الاجتماعية ، فبالرغم مما تثيره المهابة فيها جميعاً من أمور جدية ، إلا أنها في الرواية التالية من أعمال جيمس وهي « صورة سيدة » تعالج على مستوى مختلف تمام الاختلاف . فهذه رواية مأسوية من الطراز الأول ،

وبطلتها إيزابيل آرثر كما سنين بالتفصيل من أهم بطولات جيمس وأكثرهن إثارة للعطف والاهتمام .

وتعد « صورة سيدة » علامة على الطريق في حياة جيمس الأدبية لأنها تمثل نهاية المرحلة المبكرة وأعظم أعمالها من ناحية ولأنها آخر أعمال جيمس الهامة قبل وفاة والديه في عام ١٨٨٢ وانقطاعه عن زيارة أمريكا إلى أن قام بزيارته الأخيرة في عام ١٩٠٤ ، ١٩٠٥ من ناحية أخرى .

يلي ذلك إعلان هامان هما « أهل بوسطن » ، و « الأميرة كازاماسيا » (١٨٨٥ - ١٨٨٦) وتعالج الأولى أمريكيين في أمريكا ويعتبرها كثير من النقاد من خير أعمال جيمس ، أما الثانية فتعالج المثالية الثورية وتتخذ لندن مسرحاً لأحداثها . ولعل أهم ما يجب الإشارة إليه هنا بشأن هاتين الروايتين اللتين يتفق معظم النقاد الآن^(١) ، على نجاحهما وروعتهما هو أنهما استقبلتا في الثمانينات استقبالا سيئاً جداً أصاب جيمس بخيبة أمل كادت تحرم الفن الروائي من عبقريته . ولنستمع إليه يحدث صديقه و . د . هاووز في أول ١٨٨٨ قائلا :

« لقد أقيمت على أيام شرييرة - ولكن هذا سرّاً بيننا - إن هذا يبدو أمراً جليلاً . ولكنه يعني فقط أنني أترنح تحت وطأة هذه الضربة الغامضة التي تبدو أنها قد أصابت موقفي عن طريق « أهل بوسطن » و « الأميرة » التي كنت أتوقع منهما خيراً كثيراً ولكنهما لم تعودا على شيء يذكر . فقد قلنا الرغبة في إنتاجي والطلب له للدرجة الصفر - كما أحكم من أنه بالرغم من كتابتي لعدد من الأشياء الصغيرة الجيدة ، فإنها لا تجد لها مكاناً للنشر ، إذ يؤجلها رؤساء التحرير لشهور ، بل

(١) انظر مثلاً رأى ليفيز في الأولى

F.R. Leavis, "The Great Tradition" (1960), p. 153.

ورأى ليونيل تريلنج في الثانية

Lionel Trilling, "The Liberal Imagination" (1961 edition), p. 61.

لسنوات كما لو كانوا ينجلون منها ، وهكذا يبدو وكأنه قد حكم على بالصمت إلى الأبد .

من هذه « الأشياء الصغيرة الجيدة » « درس المعلم » ، « الكذاب » و « أوراق أسيرين » . وفي عام ١٨٩٠ أصدر « ربة المأساة » ثم « التلميذ » ولكن دون أن يحدث أى تغير فى الموقف . ولكن هذا لم يفل من عزيمة جيمس إذ استمر فى العكوف على الكتابة مؤملاً خيراً فى الأيام المقبلة :

« ولكنى على أية حال لا أبأس إذ أعتقد أنى أحسن حالا مما كنت فى أية فترة أخرى من حياتى ، وما زلت أنوى القيام بأعمال كثيرة . ومن المحتمل أيضاً أن نثرى المدفون كله سيرفس الشواهد المقامة على قبره ويبعث حياً دفعة واحدة يوماً ما » .

ولكن جيمس بالرغم من ذلك حاول الهرب من مصيره الذى كان يبدو محتوماً بأن كتب للمسرح على ينال شيئاً من التقدير ويربح شيئاً من المال ، ولكنه سعى هذه المرحلة فيما بعد مرحلة « نشارة الخشب وقشر البرتقال » . كافح جيمس مع هذا النوع الأدبى حتى خيل له أنه تمكن منه . وأثارت بعض مسرحياته شيئاً من الاهتمام ، ولكن ما لبث جمهور المسرح أن انصرف عنه وفشلت المسرحية التى ظنّها خير مسرحياته « جاي دومفيل » فشلا ذريعاً فى عام ١٨٩٥ .

وتعد هذه الفترة من أسوأ مراحل حياته الأدبية . عبر عن بعض ما عاناه فيها فى بعض قصصه مثل « موت الأسد » (١٨٩٤) ، « السنوات الوسطى » (١٨٩٥) و « المرة القادمة » (١٨٩٥) . وجميع أبطال هذه القصص كتاب مرهفو الحس يؤلمهم إعراض الجمهور العديم الحس ، كما يؤلمهم تماماً اهتمامه الخاطئ بهم . وجددير بالملاحظة أنه وإن صور هؤلاء الأبطال بعض نواحي شخصية جيمس إلا أنهم يختلفون عنه كثيراً أيضاً . ويعتقد النقاد أن هذه الأعمال قد أسهمت بقدر فى الإساءة لسمعته إذ أن هؤلاء الأبطال بإحساسهم

المرهف للدرجة قد تبلغ حد الشذوذ ورقمهم وجمال أسلوبهم كانوا قريبى الشبه بأولئك الجاهلين الذين كان ينظر إليهم بشيء من الاستنكار . ومن المتناقضات أنه بقدر ما كان لجيمس من قدرة على تصوير مثل هذه الاتجاهات بعنف وحيوية بقدر ما كان هو نفسه شخصاً مختلفاً تماماً .

ولا يسعنا إلا أن نعتبر فشل مسرحية « جاي دومفيل » حدثاً سعيداً إذ دفع جيمس إلى معاودة آماله ومحاولاته بالنسبة لعماله الأصلي وهو الكتابة الروائية ، وفى الفترة التالية وصل فنه إلى أقصى مراحل تطوره ونضجه .

وفى عام ١٨٩٧ أى بعد مرور عامين على فشل هذه المسرحية قام جيمس بعمل يكاد يكون رمزياً فى مدلوله . فقد أدار ظهره لمدينة لندن وحياتها الاجتماعية الحافلة وصلاتها العديدة واتخذ لنفسه بيتاً قديماً فى بلدة راي بمقاطعة سسكس حيث كرس حياته لعمله وفنه غير أن هذه العزلة لم تكن عزلة كاملة . فبالرغم من أنه رفض الانتماء إلى أية جمعيات أو منظمات أدبية ، بل واعتذر عن قبول شرف رئاسة الجمعية الأدبية الإنجليزية إلا أنه ظل محتفظاً بعضوية ناديه فى لندن كما ظل باباه مفتوحاً لاستقبال أصدقائه المقربين من كبار الأدباء والكتاب .

فاذا ألقينا نظرة سريعة على الأعمال الروائية التى تلت « أهل بوسطن » و « الأميرة كازاماسيا » لوجدنا جيمس يوجه اهتماماً خاصاً بالمواضيع الإنجليزية أولاً ثم يعود إلى موضوعه الأثيرى ألا وهو الأمريكى فى أوربا . ولا يمكن القول بأن هناك نقطة بداية محددة لمرحلة اهتمامه بالمواضيع الإنجليزية فبعد « السائح الشغوف » تمضى سنرات قبل أن تستأثر هذه المواضيع باهتمامه ، وإن كانت هناك أمثلة لذلك مثل مشهد الافتتاح فى « صورة سيده » وشخصية لورد واربرتون بها أيضاً ، إلى غير ذلك من أعمال مثل « الحدث الدولى » و « ليدى

باربارينا» : إلا أن هذه الدراسات تزداد في النصف الثاني من الثمانينات وتسود في التسعينات كما في قصة «الشيء الحقيقي» (١٨٩٣) و «ربة المأساة» (١٨٨٩ - ١٨٩٠) ، و «غنائم بوينتون» (١٨٩٦) و «السن الحرجة» (١٨٩٩) و «النافورة المقدسة» (١٩٠١) .

ويبدى جيمس معرفة تتسم بالدقة والعمق بطرق الحياة في المجتمع الإنجليزي وبتقاليدته وتزمته وأرستقراطيته وماديته وقيمه وحدوده . ولكنه بوجه عام لا يؤكد التقدر الاجتماعي النوعي هنا ، إذ بينما يرى جيمس نقائص هذا المجتمع وعيوبه إلا أنه يرى فيه أيضاً «ثمرة من أنضج ثمار الزمن» . يقول جيفرسون «وإذا كان جيمس لم ينتم تماماً إلى المجتمع الإنجليزي فحد ذلك من عمله في بعض النواحي ، إلا أن ذلك أعطاه ميزة كبيرة ، إذ جعله أكثر قدرة على التركيز بحدة على بعض المميزات التي بدت له مركزية ونمطية ، وعلى بعض الشئون التي قد لا تلفت نظر الكاتب الإنجليزي أو التي قد لا ينظر إليها من وجهة نظر نقدية : . . . ويمكن القول بأن جيمس قد صور بعض نواحي المشهد الإنجليزي تصويراً أكثر حيوية وذكاء مما فعله أي كاتب آخر» (١) .

أما الفترة الأخيرة من حياة جيمس الأدبية فتشمل ثلاثة أعمال هامة يعدها كثير من النقاد ذروة ما وصل إليه الفن الروائي من ناحية الأسلوب والصنعة الفنية ، لا يشذ عن ذلك سوى نفر قليل يفضلون عليها بعض الأعمال المبكرة مثل «صورة سيدة» و «أهل بوسطن» . وهذه الأعمال هي «أجنحة النمامة» (١٩٠٢) ، «السفراء» (١٩٠٣) و «الكأس الذهبية» (١٩٠٤) هذا بخلاف عمليتين لم يتمهما جيمس ونشرا بعد موته هما «البرج العاجي» و «الاحساس بالماضي» (١٩١٧) .

بدا اهتمام جيمس بالحقائق النفسية والحلقية أو بما

(١) المرجع المذكور أعلاه ص ٦١ .

يشار إليه عادة بالحياة الداخلية من بادئ الأمر : وإذا كان من الطبيعي أن تزداد رؤيته للحياة نضجاً وعمقاً بمرور الزمن ، فإن ما يلفت النظر بشكل واضح هو تطور أسلوبه الفني وما يضيفه ذلك على أعماله من إحساس بالعمق وصدق الرؤية وإدراك لدقائق المشاعر والانطباعات . يبدو ذلك واضحاً أشد الوضوح إذا قارنا «ميدان واشنطن» مثلاً «بصورة سيدة» فهما تعالجان موضوعاً متشابهاً بعض الشيء . ولعل أهم ما يلفت النظر أن جيمس استمر فترة طويلة يستخدم الطريقة التقليدية في كتابة رواياته . ولكننا نلاحظ تطوراً في أسلوب التعبير الفني حتى قبل أن يبدأ في استخدام أسلوب «وجهة النظر» القائم على الاعتماد على «وعى مركزي» ، و «عنصر موحد» كما هو الحال في «السفراء» : ويتطور أسلوبه الفني ازداد أسلوبه اللغوي تعقيداً وتكاثرت الصور اللفظية وزاد الاعتماد على الرمز ، وكأنما أصبح هدفه الأول الوصول بعمله عن طريق جميع الوسائل المختلفة إلى الكمال الفني الذي يستحقه موضوعه . ولا يفوتنا الإشارة هنا إلى ما يؤكد ليفيز من أن أعمال جيمس اتسمت منذ البداية بالنضج والتكامل الفني ، وإن تفاوتت درجاتها ، ووصلت إلى أعلاها في أعماله المتأخرة كما يرى غيره من النقاد .

«صورة سيدة» (١٨٨١) (١)

تعد «صورة سيدة» من خير أعمال جيمس وأنجحها فهي تتسم بكل ما يميز عمله من صفات فنية لم يفسدها بعد إسرافه في الصنعة والاهتمام بمسائل البناء والأسلوب الذين بلغا مبلغاً في أعماله المتأخرة جعل فهمها ومتابعتها أمراً شاقاً على القارئ العادي بل وأضعف - كما يذهب بعض النقاد - الإحساس بالحياة في هذه الأعمال :

(١) ظهرت «صورة سيدة» أولاً في شكل سلسلة في الولايات المتحدة في «مجلة ماكيلان» (أكتوبر ١٨٨٠ - نوفمبر ١٨٨١) وإنجلترا في مجلة «أتلانتيك مثل» (نوفمبر ١٨٨٠ - ديسمبر ١٨٨١) .

أما هنا فنجد مثلاً رائعاً لتلازم الفن والحياة الذي نادى به جيمس ، كما نجد درجة رفيعة من الفنية وروعة التصوير وثناء الأسلوب .

كان جيمس يهتم اهتماماً كبيراً بالشكل الفني لأعماله ويسعى نحو الكمال في تنفيذ فكرته بكل ثراء ووضوح ، ولذا نراه يعنى عناية خاصة ببناء قصته ويستبعد منها كل ما لا يمت إليها بصلة الحتمية . وهو إلى جانب ذلك يفضل التصوير أو تقديم المشاهد الحية على الاعتماد على السرد أو تلخيص الأحداث ، كما يؤمن بضرورة تحميل نسج القصة كل ما يرغب في نقله للقارئ دون تدخل من جانبه . ولذلك فهو يسعى إلى الاستفادة بكل إمكانيات فنه وأن يستخلص من كل مشهد أو حدث أقصى ما يمكن استخلاصه من تأثير . قوام ذلك كله شخصيات واضحة متميزة نابضة بالحياة ، ذات وعى رائع وضمائر حية متيقظة ، شخصيات تنكشف أمامنا عن طريق الحدث والديالوج ، بل وعن طريق التأمل الذاتى الذى كثيراً ما يتسم بسمة الحدث الذى يخطو بالقصة خطوات إلى الأمام ، وقدرة بالغة على تصوير الأحداث والأماكن تصويراً تجسيمياً بأسلوب معبر غنى بالصور اللفظية ، يتبع حركة الفكرة ويكون جزءاً لا يتجزأ من مادة الرواية وبنائها .

وتتميز « صورة سيدة » إلى جانب ذلك بأنها تجمع بين جنباتها أكثر من موضوع من الموضوعات التى شغلت اهتمام جيمس طيلة حياته الأدبية : إذ نجد هنا مثلاً رائعاً للفتاة الأمريكية مما تتميز به من صفات ، كما نجد الموضوع العالمى الذى يتلخص فى علاقة الأمريكى بأوربا يلف الرواية ويكون أحد عناصرها الهامة . كل ذلك فى قصة يمكن اعتبارها قصة عن الزواج أو الحرية أو القدر .

« فصورة سيدة » قصة فتاة أمريكية ذكية جميلة مرهفة الحس مستتمة الشخصية تواقفة إلى المعرفة ، تؤمن

بحريتها وتعتقد أن الحياة شيء جميل مضى وأنه ما على المرء إلا أن يستمتع بحريته ليختبر الحياة ويحيا حياة كاماة ، ويحصل على المعرفة والسعادة وتحقيق الذات . ولكنها سرعان ما تكتشف خطأها عندما تقع فريسة خدعة كبيرة فى الوقت الذى كانت تظن أنها تمارس حريتها وتختار لنفسها الحياة التى تريدتها التى ترى فيها تحقيقاً لكل آمالها فى الحياة الحرة والمعرفة الحقة .

تنشأ إيزابيل آرثرش بطلة هذه الرواية ، كما نعرف من مجرى القصة ، فى ولاية آلبنى بالولايات المتحدة فى أسرة لا يؤمن ربها بالشدّة والصرامة فى تنشئة بناته فتتمتع هذه الابنة منذ صغرها بقسط وافر من الحرية حتى بالنسبة للفتاة الأمريكية العادية التى لا تتقيد بالتقاليد الاجتماعية الأكثر صرامة والتى تلتزم بها الفتاة الأوروبية أو الفتاة الإنجليزية فى ذلك الوقت بوجه خاص .

وتبدأ الرواية بذهاب إيزابيل آرثرش إلى أوروبا بصحبة خالة ثرية لها تتوسم فيها الذكاء والاستقلال فتقرر منحها فرصة زيارة عدد من البلاد الأوروبية ، وتحل بها أولاً فى إنجلترا فى منزل زوجها مسرّ تشيت الذى يعيش معظم الوقت بصحبة ابنه الوحيد رالف بينما تعيش الزوجة بمفردها فى منزل لها بإيطاليا فيما عدا فترة قصيرة من كل عام تزور فيها زوجها وابنها . ثم تصطحبها إلى باريس ثم إلى إيطاليا . وتسعد الفتاة برحلتها وبلقاتها بعدد من الناس وبنجاحها الاجتماعى . وتمارس إيزابيل حريتها فى رفض خطيبين يتقدمان لها مفتونين بجالها وذكائها وشخصيتها ، أحدهما نبيل إنجليزى يتمتع بالذكاء والوسامة والثراء والجاه وكرم المختد ، والآخر رجل أعمال أمريكى شاب يحبها منذ فترة طويلة ، ولكنها ترفضهما معتمدة دون شك على أذ فى الحياة مجالاً لأشياء أفضل . ويرى ذلك ابن خالتها رالف تشيت ، الذى يحبها بدوره ولكن يمنعه المرض بداء الصادر من أن يبوح لها بحبه ، ويدرك أنها لا يمكن أن تتمتع بكامل حريتها واستقلالها مع فقرها ، فيقع والده

إلى أعلى مراتب الكمال ولتطور هذا الفن على يديه ،
وما لا نستطيع شرحه هنا بالتفصيل ، فهي تلقى لنا بكثير
من الضوء على الروايات الفردية التي قدم لها وعلى
طريقة معالجته لها والأسلوب الفني الذي اتبعه في كل
منها .

يقول جيمس في مقدمته « لصورة سيدة » التي
كتبها في عام ١٩٠٨ أى بعد حوالي عشرين عاماً من
كتابة الرواية نفسها :

« إنني عندما أحاول أن أستعيد هنا البذرة الأولى
لهذه الرواية أرى أنها لم تتكون إطلاقاً من فكرة
حبكة - هذا اللفظ الشرير - أو في وميض من الخيال ،
أو في مجموعة من العلاقات أو في أحد هذه المواقف
التي تبدأ على الفور عن طريق منطق خاص بها في الحركة
أمام عين القصاص ، في مسيرة عسكرية أو في حركة
اندفاعية ، في قعقة من الخطوات السريعة ، بل تكونت
في الإحساس بشخصية واحدة ، شخصية ومظهر شابة
معينة فاتنة ، شخصية كان لا بد وأن يضاف إليها جميع
العناصر العادية اللازمة للموضوع ، وللمشهد
بالطبع » (١).

ويوضح جيمس أنه كان - مثله في ذلك مثل
صديقه الروائي الروسي المعروف إيفان ترجنيف -
يحس أول ما يحس بالشخصيات التي تحوم حوله وتشد
انتباهه وليس بالمشهد الذي ستظهر فيه هذه الشخصيات ،
وأنه لم يكن يستطيع التفكير إلا قليلاً في أية قصة لا تحتاج
أولاً إلى أشخاص يدفعون بها إلى الأمام ولا التفكير في
أى موقف لا يعتمد في إثارته للاهتمام على طبيعة
الأشخاص وعن طريق ذلك على طريقة سلوكهم في
هذا الموقف .

ويشرح جيمس كذلك أن نوع ودرجة إحساس
الفنان بموضوعه لها أهمية خاصة إذ يعدا التربة التي سيزرع

أن يترك لها الجزء الأكبر من الثروة التي كان سيورثها
له على أن يكتفي هو بجزء صغير منها ، ممتناً النفس
بالاستمتاع بمشاهدة إيزابيل وهي تتصرف بحرية في
حياتها بعد أن كفل لها الثراء والاستقلال المادى . ولكن
إيزابيل تخيب أمه عندما تقع - رغم ذكائها وفطنتها
وما تعتقد أنها تتمتع به من قدرة على فهم الناس والتمييز
بينهم - في شرك تنصبه لها امرأة أمريكية مستوطنة في
أوروبا هي مدام مرل وعشيقها السابق ، الفنان الأرملة
الفقير جيلبرت أوزموند . وهكذا نجد إيزابيل التي
تؤمن بحريتها وتسعى للاحتفاظ بها فترفض لورد
واربرتون ثم كاسبار جودوود تقع فريسة هذه الحرية
والمثالية . تظن إيزابيل أنها وجدت بغيها في هذا
الرجل الذي ترى فيه إنساناً حراً وفناناً أصيلاً يمكنها أن
تساعده بما لها فتكتشف بعد زواجها أنه إنسان محب
للذات ، عبد للتقاليد ، وما فنه وحبه للحرية وتعاليه
على التقاليد إلا خداع وادعاء ، وأنه ما تزوجها إلا لما لها
وما سيكفله لا بنته من عشيقته مدام مرل من نصيب
محترم يكفل لها زواجاً ممتازاً .

وقبل أن نتابع أحداث هذه المساة لنرى كيف
تسلك إيزابيل عندما تكتشف حقيقة شخصية زوجها
وخديعتها الكبرى ، لتجد نفسها في عالم مظلم وسجن
ضيق خائق ، وكيف تحقق المعرفة الذاتية التي كانت
تنقصها بعد أن تدفع ثمن تفاؤلها ومثاليها ورومانسيها
غالباً ، لتتوقف برهة لندرس كيف يقدم لنا جيمس
هذه القصة وكيف يعالجها فنياً .

كتب جيمس في الجزء الأخير من حياته ثمانى عشرة
مقدمة لبعض أعماله الروائية التي أعيد نشرها في طبعة
نيويورك . وتعد هذه المقدمات في مجموعها مرجعاً هاماً
في فن الرواية وتضارح في أهميتها في رأى أحد النقاد
« فن الشعر » لأرسطو في مجال النقد الأدبى . وبالإضافة
إلى أهميتها كتعبير صادق عن كثير من آراء جيمس في
فن الرواية وكوصف لمحاولته للبلوغ بهذا الفن عملياً

(١) أنظر "Views on the Art of the Novel",
p. 252.

منها هذا الموضوع وتمثل هذه التربة وقدرتها على أن تنبت القصة بالقوة اللازمة والاستقامة اللازمة رؤيا الفنان الخلقية للحياة بقوتها أو ضعفها .

أما بالنسبة « لصورة سيدة » فقد كانت الخطوة الأولى في سبيلها هي «إمسأكي بهذه الشخصية الواحدة التي تملكني منذ فترة من الزمن». فقد كان من الكافي أن يبدو لي أنني كنت أملكها تماماً وقد تملكها لمدة طويلة من الزمن جعلتها مألوفة تماماً لي وإن لم يقل ذلك من سحرها ، فقد كنت أراها بكل وضوح وإيلام متحركة متنقلة . وهذا يساوي قولي إنى رأيتها مصممة على مصبرها - مصبر ما - أما أى مصير من بين هذه المصائر الممكنة فقد كان هذا هو السؤال الذى يشغلنى . وهكذا كان فى حوزتى هذا الفرد المتميز - المتميز بدرجة قوية - بالرغم من كونه ما زال طليقاً وغير مقيد بظروف معينة ، وغير مغموس فى الحومة التى ننظر إليها عندما نبحث عن الكثير مما يميز شخصية مثل هذا الفرد» (١).

ذلك إذن هو موضوع « صورة سيدة » . والسؤال الآن هو ما الأسلوب الفنى الذى صور به جيمس هذا الموضوع ؟

وللإجابة على هذا السؤال يمكننا الإشارة أولاً إلى قول لجيمس يعبر خير تعبير عن موقف الفنان الجاد من فنه واهتمامه وعكوفه على تقديم موضوعه فى خير صورة فنية : يقول جيمس : « إن إحساسى بقيمة هذه الصورة لطبيعة أنى شابة - كانت تحت يدى طيلة هذه المدة - هو الذى جعلنى أرغب رغبة دينية فى أن أضع (كنزى) فى المكان الصحيح : وهذا يذكرنى ببائع العاديات الذى يفضل أن يحتفظ بالقطعة الثمينة فى حوز حريز ، مهما كلفه ذلك ، على أن يبيعها لأيد لا تعرف قيمتها » .

(١) ص ٢٥٧ .

ثم يستطرد جيمس موضحاً أن النقطة الهامة هى أن حجر الزاوية الصغير الوحيد هذا كان كل ما يملك من عتاد لهذا البناء الكبير « لصورة سيدة » ، والذى صار منزلاً مربعاً فسيحاً ، وبناءً مقاماً بكفاءة هندسية فائقة ، بل إن ما يشير الاهتمام حقاً هو أن هذا البناء كان لا بد له أن يوضع حول هذه الشابة بينما تقف هى فى عزلة تامة ، « فبأى عملية منطقية إذن كان لهذه الشخصية الضئيلة التى لا تعدو أن تكون ظلاً رقيقاً لفتاة ذكية جريئة أن تجده نفسها وقد أضفيت عليها كل الصفات الرفيعة التى تجعل منها موضوعاً لرواية ؟ » ، فالرواية بطبيعتها « عملية حول شىء ما » :

والسؤال الآن هو هل كان من السهل أن تصبح ليزابيل آرثرش موضوعاً لرواية ؟ ولعل هذا السؤال يتضمن بدوره سؤالين آخرين هما : أولاً هل لهذه الشخصية من الأهمية ما يجعلها أهلاً لهذا الاهتمام ؟ وثانياً أليس الاهتمام بها أو وضعها فى مركز الاهتمام عملاً شاقاً صعباً ؟ وكان جيمس يجيبنا على هذين السؤالين بقوله : « لقد أمعنت النظر فى هذا الإسراف فكانت النتيجة أن أدركت سحر هذه المشكلة ، فأنت إذا تبصرت أية مشكلة بذكاء لأدركت بسرعة أنها مفعمة بالقيمة . أما العجيب هنا فهو كيف تتمسك الشابات من أمثال ليزابيل آرثرش ، بل والكثيرات ممن هن أقل منها شأنًا بكثير بأنهن ذوات قيمة كبرى » .

ولعل جيمس يكشف لنا هنا عن سر اهتمامه بالشخصيات النسائية فى أعماله ، فالمرأة تلعب دوراً هاماً فى كثير منها . وكأنه يجيب على سؤالنا الأول عندما يشير إلى قول الروائية جورج إليوت : « إن هذه الآنية الضعيفة تحمل بين جنباتها على مر العصور كنز المحبة الإنسانية » ثم يضيف مؤمناً على ذلك بقرله إنه فى مسرحية شكسبير « روميو وجولييت » يجب أن تكون جولييت ذات أهمية كبيرة كما أنه فى « آدم بيد » و « ميد لمارش » و « دانيال ديروندا » وغيرها من أعمال

وهكذا نرى أن « سحر هذه المشكلة » كان يمكن دون شك بالنسبة لجيمس في صعوبتها ، تلك الصعوبة التي تجذب انتباه الفنان الجاد وتشجده . فلقد كان من الممكن أن يتجنب تلك الصعوبة وأن يركز اهتمامه لا على هذه الآنية الرقيقة ، بل على علاقتها بالآخرين مثلاً ، ولكنه رفض هذا الشكل بإباء وصمم على البحث عن أصعب الطرق لمعالجته . فهو يجادل نفسه تارة :

« لتضع مركز الموضوع في وعي هذه الفتاة ننسها فتحصل بذلك على صعوبة شائقة جميلة بقدر ما تريد . عليك أن تلزم بذلك - بمركز الاهتمام - ضع الثقل الأكبر في تلك الكفة التي ستكون لحد كبير كفة علاقتها بنفسها . واجعلها تهتم بالقدر الكافي فقط ، في نفس الوقت ، فيما يعدو ذاتها من أشياء ، ولا تخشى من أن تجعل هذه العلاقة محدودة جداً . وضع أثناء ذلك في الكفة الأخرى الثقل الأقل وزناً (ذلك الثقل الذي يرجح عادة كفة ميزان الاهتمام) وتضغط أقل ما تضغط ، باختصار ، على وعي اتباع بطلتك ، وخاصة الذكور منهم ، واجعل من ذلك مجرد مركز اهتمام يسهم في أهمية المركز الأعظم . ولتر على أى حال ما يمكن فعله بهذه الطريقة . وهل هناك مجال أفضل للمهارة اللازمة ؟ إن الفتاة تخلق بشكل لا يمكن إخفاءه كمنخلق فاتن ، وستكون المهمة ترجمتها إلى أسمى عبارات هذه التركيبة ، وبقدر الإمكان علاوة على ذلك إلى التركيبة كلها . فإذا اعتمدت عليها وعلى شؤونها الخاصة اعتماداً كلياً فعليك أن تذكر أن ذلك سيوجب عليك أن تصورها أو أن « تفعلها » بحق : really "doing" her ، كما كان يحلو لجيمس أن يصف عملية التصوير الفني (١) .

جورج إليوت يجب أن تكون شخصياتها النسائية مثل هيتي سوريل وروزاموند فينسي وجوندولين هارليث شخصيات هامة أيضاً . ثم يضيف وكأنه يجيب على سؤالنا الثاني قائلاً « ولكن هذه الشخصيات تمثل أنمطة من الصعب وضعها في مركز الاهتمام ، بل يمكن القول إن هذه الصعوبة بلغت حداً جعل كتاباً كبيراً مثل ديكنز ووالتر سكوت ، بل وروبرت لويس ستيفنسون يفضلون الإحجام عن محاولة ذلك . بينما يحتفى كتاب آخرون وراء القول بأن هذه المحاولة لا تستحق القيام بها وإن كان هذا لا ينقذهم من اللوم ، إذ أن ضعف شعور الفنان بشيء ما لا يبرر تصويره له على أسوأ ما يكون التصوير » (١) .

وتتضح الصعوبة عندما نرى - كما يشير جيمس - أنه حتى في حالة شكسبير وجورج إليوت فإن تسليمهما بأهمية جولييناتهم وكليوباتراتهم يعانى من أن تلك الرقيقات عندما تظهرن كالدعائم الأساسية للموضوع فإنه لا يسمح لمن مطلقاً بالاستئثار باثارة الاهتمام ، بل يكمل نقصهن عن طريق « المساعد الفكاهي » والحبيكات الثانوية كما يقول كتاب المسرح إن لم يكن كلية مجرائم القتل والمعارك والانقلابات العالمية . وإذا أظهرن على أن لمن أهمية خاصة إلى أقصى حد ممكن فإن الدليل على ذلك يوجد في مئات من الأشخاص الآخرين الأكثر قوة والذين لهم مئات من العلاقات الأخرى الهامة بجانب علاقتهم الواحدة بهذه الشخصيات النسائية ، كما هو واضح في حالة بطلات شكسبير مثل كليوباترا ، وبورشيا في مسرحية « تاجر البندقية » . ولعل ذلك أكبر دليل على صعوبة المشكلة التي واجهتها جورج إليوت عندما جعلت من آنتيا الرقيقة إن لم تكن المركز الكلي من الانتباه فقد جعلت منها على الأقل أكثر مراكز الاهتمام وضوحاً واستثارة .

(١) انظر ص ٢٦٢ .

(١) ص ٢٦٠ .

وهكذا نرى كيف استطاع جيمس عن طريق تلك الصرامة الفنية المنظمة الرفيعة التي التزمها أن يقيم على تلك المساحة من الأرض كومة متناسقة من اللبنة التي تكون من الناحية البنائية أثراً فنياً رائعاً . كذلك فقد كان مصمماً بالرغم من إدراكه لضرورة وضع هذه اللبنة لبنة لبنة ألا يدع مجالاً لشيء يخرج عن المستوى أو المحال الذي اختاره ، وبالرغم من ذلك فإنه - باعتدافه - لم يأل جهداً للترفيه عن القارئ : « ولعل هذا هو المسئول عن تطور قصتي بما فيها من تعقيدات . فقد كان من الجوهرى أن تكون هذه الفتاة شخصية متعددة الجوانب - كان هذا على الأقل هو الضوء الذي رأيته فيه - غير أنه كان لا بد من أضواء أخرى متضاربة متصارعة . وذات ألوان مختلفة . . لاستخدامها لإثبات ذلك . . . وهكذا وجدت نفسي ذات صباح وفي حوزتي جميع تلك الشخصيات الأخرى اللازمة للمساعدة في تاريخ إيزابيل آرثرس . . لقد عرفت فيهم الأجزاء الملموسة الحبكتي » .

أما الآن فلنحاول تتبع كيف حقق جيمس هذه الخطة الفنية في الرواية ذاتها .

أدرك جيمس من بادئ الأمر أن عليه أولاً أن يثبت شخصية بطلته وأن يكشف للقارئ عن حقيقتها ويرسي قواعد علاقاتها بمن حولها : قبل أن يقذف بها في معمعة الدراما الإنسانية التي تنزل كيانها النفسي والعاطفي ، فتقضى وقتاً طويلاً في بداية الرواية للتعريف بها لا عن طريق السرد أو الخبر ، بل عن طريق المشهد الحي والكشف عن الكثير مما يدور بوعياها أو بوعى الآخرين بخصوصها .

قدم لنا أولاً صورة واضحة زاهية للمنزل الريفي القديم الذي ستزول به إيزابيل عندما تحل بإنجلترا وقدمنا إلى ثلاثة رجال يتلقى اثنان منهما نبأ وصولها في برقية مقتضبة ترسلها زوجة أحدهما - والدة الآخر - من أمريكا قائلة إنها ستحضر معها ابنة أخت « مستقلة »

ويعجب الرجال لهذا القول لا يدرون ماذا تعني مسز تشيت بكلمة « مستقلة » ، أعنى الاستقلال الاقتصادي أو استقلال الشخصية . ومنذ البداية نجد إشارات عابرة إلى شخصية مسز تشيت ذاتها أيضاً ، فعلم أنها امرأة شاذة نوعاً ما في معاملتها للناس وفي ميلها إلى الاستقلال والاعتماد على النفس ونكتشف في ذلك أحد أسباب اهتمامها بإيزابيل التي تشبهها في بعض النواحي :

ولكن جيمس يسعى قبل أن يلقي لهؤلاء الرجال بهذا النبأ إلى التعريف بهم . أما الأول وهو رجل مسن يجلس في ظل شجرة كبيرة مغطياً قدميه بغطاء من الصوف ، فيبدو من تقاسم وجهه أنه أمريكي لم يغير كثيراً من طريقة حياته الأمريكية بالرغم من الثلاثين عاماً التي قضاها في إنجلترا ، كما يبدو أنه رجل طيب كريم على معرفة بطباع الناس وخلقهم :

« لا بد أنه عرف كثيراً من الرجال وإن كان وجهه يتم بابتسامته الباهتة عن بساطة تكاد تكون ريفية ، تلك الابتسامة التي تبدو على وجهه الواسع الحاد وتقضى عينه المرححة وهو يضع ببطء وعناية فنجان الشاي على المنضدة . كان حسن الهندام في حلة سوداء ، يغطي رجله بغطاء مطبوع ويلبس في قدميه شياً سميكاً مطرزاً . وجلس على الخضرة بجواره كلب « كولي » جميل يلاحظ وجه سيده بنفس الدقة التي ينظر بها هذا السيد إلى البيت الذي يبدو أكثر جلالاً ، بينما كان كلب آخر يوزع اهتمامه بين الرجلين الآخرين » .^(١)

أما الرجلان الآخران فأحدهما « رجل قوى البنية بشكل ملحوظ في الخامسة والثلاثين من عمره يبدو وجهه إنجليزيا بقدر ما يبدو وجه الرجل المسن شيئاً آخر : يتمنع برجه وسيم نضر صريح ذي تقاطع مسقيمة ثابتة ، وعين رمادية اللون تبدو فيها الحيوية ، ولحية

(١) « صورة سيدة » (طبعة أكسفورد ، ١٩٦٢) ص ٣ من الآن فصاعداً سنشير إلى رقم الصفحة من هذه الرواية بعد الفقرة المستندة من نص مباشرة .

جاءت بحثاً من زوج . وبعد لورد واربرتون تحذير
مستر تشيت قسوة من جانبه ولكنه يقول :

« من المحتمل جداً أن تكون مخطوبة ، لقد عرفت
كثيراً من الفتيات الأمريكيات وكن دائماً مخطوبات ،
وإن لم أجد مطلقاً أن هذا يغير من الأمر شيئاً . أما عن
كوني زوجاً صالحاً فاني لست متأكداً من ذلك . على
كل يمكن للمرء أن يحاول »

ولكن الآب يقول بابتسامة : « حاول كما تحلو لك
ولكن لا تحاول مع ابنة الأخت هذه » . وتبدو معارضة
للفكرة معارضة مقرونة بشيء كبير من الفكاهة .

ويتم اللورد ، بقدر أكبر من الفكاهة « ربما تكون
في النهاية لا تستحق المحاولة » . (ص ١١) .

وببداية الفصل الثاني نعلم أنه بينما كان مستر
تشيت وظيفته يتبادلان هذا الحديث ، بغتة يرى رالف
تشيت الذي كان يتجول قليلاً في الحديقة - فتاة غريبة
تقف عند مدخل المنزل وتجري نحوها كلبه وهو ينبح
نباحاً يرم عن الترحيب أكثر مما يرم عن شيء آخر ،
ويلحظ رالف كيف تدرك الفتاة بسرعة ترحيب الكلب
فتنحني لتلتقطه دون تردد بينما يستمر هو في ثرثرته .
ويرى رالف أنها فتاة طويلة القامة ترتدى ثوباً أسود
وتبدو جميلة لأول وهلة ويعجب رالف لهذا الأمر إذ
يعلم أن المنزل قلما يرتاده الضيوف نظراً لمرض الأب .
ويراها الرجلان الآخران في نفس الوقت ويتساءلان من
تكون ، بينما يتقدم رالف نحوها فتسألها وهي ما زالت
تحمل الكلب الصغير « هل هذا كلبك يا سيدى ؟ »
فرد قائلاً « لقد كان كلبى منذ لحظة ولكنك تبدين بغتة
وكأنه تملكينه » .

فترد قائلة « ألا يمكن أن نشترك فيه ؟ إنه في منتهى
اللطيف » .

وينظر إليها رالف فيجد أنها جميلة جداً ، فيقول
« يمكنك أن تعتبره ملكاً لك كلية » .

غزيرة كستنائية : وكان هذا الشخص يبدو سعيداً لامعاً
غير عادي - يشع حوله جو من المزاج السعيد الذي
أخصبته حضارة رفيعة - جو يجعل كل من يراه تقريباً
يحسده . أما صاحبها فكان مختلفاً تمام الاختلاف
وبالرغم مما قد يثيره من حب استطلاع قوى فانه على
العكس من الآخر لم يكن ليثير في نفس المرء تلك الرغبة
العمياء في أن يجد نفسه مكانه . كان طويل القامة نحيلاً ،
يبدو عليه ضعف البنية وتفككها - له وجه قبيح ،
مريض ، ذكي ، فاتن ، ولحية وشارب لا يزيدان من
جماله بشكل من الأشكال . كان يبدو ذكياً ومريضاً
وهما صفتان لا تبدوان متفتحتين » (ص ٤) .

ومن حديث الرجال الثلاثة يبدو أن الأول وهو
لورد واربرتون يدعى السأم بينما يميل الثاني وهو رالف
تشيت إلى السخرية من الأشياء وعدم الثقة بها ، ولكنه
بالرغم من مرضه دائم المرح ومحاولة التخفيف عن والده
المريض الذي يعتقد بدوره أن ابنه لم يتمتع قط بفرصته
في الحياة ، بالرغم من مرحلة الدائم .

ويتطرق الحديث تدريجياً إلى موضوع الزواج
فيقول الأب للورد واربرتون إن خير علاج للملأه أن يجد
لنفسه امرأة ويتزوجها « إن السيدات هن اللاتي
سيخلصننا - غير أنني أعني خير السيدات ، لأنني أفرق
بينهن - تقرب من امرأة طيبة وتزوجها فتصبح حياتك
شائقة أكثر مما هي الآن » . ذلك بالرغم مما يعلمه ابنه
وصديقه خير العلم من أن تجربته هو في الزواج لم تكن
ناجحة تماماً . ويحذر مستر تشيت لورد واربرتون
بتصميم وفي شيء من المزاح من التفكير في الزواج من
ابنة أخت زوجته . ويعجب لورد واربرتون لذلك
لجهله بوجود مثل هذه الفتاة فيخبره صديقه بأمر البرقية
التي أرسلتها الخالة من أمريكا . يقول مستر تشيت ؛
« يجب ألا تفكر في هذه الفتاة إذ قد لا تصلح
لأن تكون زوجاً صالحاً . . . أو ربما تكون هي مخطوبة
فعلاً » . وإن لم تكن مخطوبة فهو يرجو ألا تكون قد

ويلاحظ أن الفتاة تتمتع بثقة كبيرة بنفسها وبالناس ولكن هذا الكرم المفاجئ من جانبه يدفع بحمرة الحجل إلى وجهها فتقول « يجب أن أخبرك أني في الغالب ابنة خالتك » .

فرد قائلاً « في الغالب » ثم يردف وهو يضحك « كنت أظن أن الأمر مؤكد ! » .

وتخبره الفتاة بأنها وصلت منذ نصف ساعة مع والدته التي تطلب إليه أن يذهب لرويتها في الساعة السابعة إلا ربعا . فيشكرها ويرحب بها . ويلاحظ رالف أنها :

« كانت تنظر إلى كل شيء بإدراك واضح - إلى رفيقها وإلى الكلبين وإلى الرجلين اللذين يجلسان تحت الأشجار - وإلى المنظر الجميل الذي يحيط بها » ، ثم تقول « لم أر في حياتي أجمل من هذا المكان . لقد تجولت في جميع أنحاء المنزل . إنه منزل ساحر بدرجة غير معقولة » . (ص ١٢) .

وعندما تسأله عن رفيقه يخبرها أن أحدهما والده والآخر صديق لها هو لورد واربرتون ، فتبدى سعادة قائلة « لقد كنت أرجو أن يكون هناك لورد . إن هذا تماماً كما في الروايات » . ويعتذر رالف لأنه لم يعرف بوجودها قبل ذلك ويشير إلى أن والده مريض ثم يأخذها ليقدمها له فيستقبلها الأب بلطف وطيبة كبيرين . وتبدو إيزابيل ذكية ، سعيدة بما ترى ، خالية من التكلف ، فعندما تعلق على جمال المنزل ويرد الأب مجابلاً بقوله إنها هي جميلة أيضاً ، تجيب دون تكلف : « نعم إنى جميلة » . ثم يلي ذلك حديث بينها وبين رالف الذي يتوق إلى مواصلة الحديث معها . يعجب رالف لعدم تقابلها من قبل فتخبره أن السبب هو خلاف نشب بين أبيها وخالتها بعد وفاة والدتها ولكن خالتها قد عادت فزارتها بعد وفاة والدها ثم تضيف :

« لقد كانت لطيفة جداً معي . واقترحت أن أذهب معها إلى أوروبا » .

ويرد رالف « فهمت ، لقد تبنتك » .

« تبنتني ؟ » وتحملق الفتاة بينما تعود الحمرة إلى وجهها تصحبها نظرة سريعة ثم عن الأكم ، ينزعج لها محدثها . لقد أساء تقدير وقع كلماته . وأثناء ذلك يقتررب لورد واربرتون الذي كانت تلح عليه الرغبة في رؤية إيزابيل عن قرب . وتستقر عينا إيزابيل المتسعتان عليه ثم تقول « آه ، كلا ، إنها لم تبنتني - إنى لست مرشحة للتبني » . ويتمم رالف « إنى في شدة الأسف - لقد كنت أعنى - أعنى - » ولم يكن يعرف تماماً ما يعنى : « كنت تعنى أنها أبدت اهتماماً بي ، أنها أخذت يدي . نعم ، إنها تحب أن تهتم بالناس وتأخذ بيدهم . لقد كانت لطيفة جداً معي ولكن » ثم أضافت برغبة بادية في الإيضاح . « ولكنى شغوفة جداً برتي » .

« أتحدثون عن مسز تشيت ؟ » هكذا ابتدرهم الرجل المسن من كرسيه « تعالي هنا يا عزيزتي وحدثيني عنها . . إنى دائماً شاكر لأية معلومات أتلقاها عنها » .

وترددت الفتاة قليلاً مبتسمة ثم أجابت « إنها حقاً طيبة جداً » ثم ذهبت لزواج خالتها الذي داعبته كلماتها . أما لورد واربرتون فظل واقفاً مع رالف تشيت ثم قال له بعد برهة « لقد كنت ترغب منذ وقت قصير في أن تعرف فكرتي عن امرأة تثير الاهتمام . . ها هي ذى ! » . (ص ١٧ ، ١٨) .

ومنذ البداية نجد تركيزاً على فكرة الحرية والاستقلال ، في برقية مسز تشيت أولاً وفي كلمات إيزابيل ذاتها ثانياً ، ثم من فم مسز تشيت في حديثها مع رالف .

وهكذا يقدم لنا جيمس بطلته عن طريق هذه المقابلة بينها وبين عدد من الشخصيات التي ستلعب دوراً هاماً في حياتها والتي تبدو سريعة التأثير بها وباستخلاص الكثير عنها في هذه اللحظات القصيرة التي تعرفها فيها . فنحن نلاحظ كيف يظهر الأب ميلاً لها منذ اللحظة الأولى وكيف تثير اهتمام الشابين الذكيين لورد واربرتون

ورالف تشيت ، كما نلحظ اعتدادها بنفسها وبجهاها
واهتمامها بكل ما حولها .

وينظم جيمس مادته في شكل عدد من المشاهد التي
تلقى مزيداً من الضوء على هذه الفتاة . فيأخذنا أولاً إلى
الوراء (الفصل الثالث) ليقدم لنا مشهد المقابلة الأولى
بين الخالة وابنة أختها - وذلك بعد أن يعرفنا بهذه
الخالة - ثم يرينا كيف رأت هذه السيدة ما أعجبها في
هذه الفتاة الغربية الصريحة التي تفضل قضاء وقتها بمفردها
في غرفة داخلية « حبيس » بعيدة عن بقية المنزل والتي
تبادر خالتها عندما تعرفها بنفسها بقولها « لا بد أنك
خالتي المحبونة » ، أو التي ترد عندما تقول لها الخالة :

- « إذا عرفت أنك ستكونين مطيعة وتفعلين كل
ما أمرك به فسأخذك إلى فلورنسا » .

- « أفعل كل ما تأمريني به ؟ لا أضن أنني
أستطيع أن أعد بذلك » .

- « لا . إنك لا تبدلين من هذا النوع .
إنك تفعلين ما تريدن . ولكني لا أستطيع أن
ألومك على ذلك » .

- « ولكن مع ذلك ، فالذهاب إلى فلورنسا
يجعلني أعد أن أفعل أي شيء تقريباً » (ص ٢٧)

ثم يأخذنا جيمس إلى حضرة أخت إيزابيل وزوجها
(الفصل الرابع) ليسمعنا كيف يتحدثان عن إيزابيل .
أما الأخت فتتوق إلى زواج أختها التي تراها فتاة ذكية
شغوفة بالقراءة والمعرفة وأن كل ما تحتاج إليه هو
الفرصة المواتية . ولكن الزوج يرى أن إيزابيل آخر
فتاة يمكن أن يفكر في الزواج منها وأنه لا يفهمها .
ويضيف أن آخر ما تحتاج إليه هو فرصة تجعلها تنمو
وتتطور أكثر مما هي . ويحتم الزوجان حديثهما بالقول
بأن إيزابيل دون شك تشعر بالعظمة منذ زارتها خالتها ،
ودعتها للسفر معها إلى أوروبا .

ثم ينفذ بنا جيمس إلى ذهن إيزابيل نفسها لئرى
تأثير دعوة خالتها عليها واستجابتها لتلك الفرصة الرائعة
في فقرة من فقرات الرواية المميزة :

« سواء شعرت بالعظمة أم لا ، فإنها على أي حال
تشعر بالاختلاف ، تشعر وكأن شيئاً حدث لها . وعندما
وجدت نفسها بمفردها في المساء جلست برهة تحت
المصباح وبداها خاليتان وقد أهملت أعمالها المألوفة ؛
ثم قامت وتجولت في الغرفة ثم من غرفة إلى أخرى ،
مفضلة الأماكن التي لا يصلها ضوء المصباح الشاحب ؛
لقد كانت قلقة ، بل ومضطربة ، وأحياناً كانت
ترتجف قليلاً . إن ما حدث لها أهم بكثير مما يبدو ، لقد
حدث حقاً تغيير في حياتها . أما ما سيأتي به هذا التغيير
فما زال غير محدد على الإطلاق ؛ ولكن إيزابيل كانت
في موقف يجعل لكل تغيير قيمته . كانت ترغب في أن
ترك الماضي وراءها وأن تبدأ من جديد ، كما تقول
لنفسها . ولم تكن هذه الرغبة في الحقيقة وليدة هذه
الاحظة ؛ بل كانت شيئاً مأوفاً لديها كصوت سقوط
المطر على النافذة ، كانت هذه الرغبة السبب في بدايتها
صفحة جديدة مرات كثيرة جداً . أقفلت عينها وهي
جالسة في أحد أركان حجرة الجلوس المظلمة أفادئة ؛
ولكن ذلك لم يكن نتيجة لرغبتها في أن تغفو وتتناسى ،
بل لأنها على العكس من ذلك كانت تشعر بأنها في حالة
صحو شديد وترغب في أن تكبح جماح إحساسها بروية
أشياء كثيرة في وقت واحد . لقد كان خيالها بطبيعته
نشطاً بشكل مضحك ؛ فإذا لم يكن الباب مفتوحاً قفز
من النافذة ؛ ولم تكن معتادة في الحقيقة أن تحبسه وراء
الأقفال ؛ وفي اللحظات الهامة ، عندما كانت تفضل
أن تستخدم عقابها فقط ، كانت تدفع ثمن إسرافها في
تشجيع قدرتها على روية الأشياء دون الحكم عليها .
أما الآن ؛ وعندما شعرت أن ناقوس التغيير قد دق فقد
حضرها تدريجياً عدد من صور الأشياء التي ستركها
وراءها ؛ عادت إليها سنوات حياتها ، وجلست

عشر الآخرين سوقيين في ميولهم الجمالية . كانت إيزابيل في قرارة نفسها ترغب رغبة لا حد لها في الفوز بالاعجاب ، بل إنها كانت تفوق في ذلك أختها إيديث ، ولكن طبيعة هذه الفتاة كانت تقع على عمق بعيد كما أن الاتصال بينها وبين السطح كان يحول دونه عشرات النزوات القوية كانت ترى الفتیان يتهاقتون في أعداد كبيرة على روية أختها ولكنهم بوجه عام يحشونها هي ، كانوا يعتقدون أن الحديث معها يستلزم استعداداً خاصاً . كانت معروفة بمحبها للقراءة فكان ذلك يحيطها بغلاف من السحب كما لو كانت إلهة في ملحمة . كانت الفتاة المسكينة تود أن يظنها الناس ذكية ، ولكنها كانت تكره أن تعتبر شديدة الشغف بالكتب ؛ كان من عاداتها أن تقرأ سرأ وبالرغم من قوة ذاكرتها إلا أنها كانت تتجنب كل ما قد يبدو مباهاة بمعلوماتها . كانت ترغب رغبة قوية في المعرفة ولكنها في الحقيقة كانت تكاد تفضل على الكتاب أي مصدر آخر للمعلومات ، كان لديها حب استطلاع كبير وكانت دائمة التطلع والتعجب . كانت تحمل بداخلها رصيذاً كبيراً من الحياة ، وكانت أعمق متعها أن تشعر بالاستمرار بين حركات روحها وخلجات العالم » . (ص ٣١ - ٣٤)

ويذهب جيمس ليؤكد لنا أن كل ذلك لم يبعد عنها الفتیان تماماً فقد كان بينهم من خفق لها قلبه وعقله معاً . وبالاختصار فقد تمتعت إيزابيل بكل ما تتمناه فتاة في مثل سنها من الحنان والاعجاب والحلوى والزهور وفرص الرقص والاستمتاع بالموسيقى والقراءة ، فتاة لم تعرف الألم ولم تختبر الشر . يمر كل ذلك أمام ذاكرتها في شكل مشاهد وأحداث ، وهي تجلس في ذلك الركن المظلم من الغرفة الهادئة :

وكان لا بد لجيمس أن يطلعنا هنا على إحدى علاقاتها بهذا العالم المتصل بكل هذه الذكريات ولذا فهو يقدم ذلك الشاب الأمريكي الذي يحب إيزابيل ويتقدم لها في هذه اللحظة عارضاً حبه بكل عزم وتأکید

تستعرضها لفترة طويلة من الوقت : في سكون لا يبدده سوى دقات الساعة البرنزية الكبيرة . لقد كانت حياة سعيدة جداً كما كانت هي شخصاً محظوظاً جداً حقاً - لقد كانت هذه هي الحقيقة التي ظهرت بكل وضوح . لقد تمتعت بنحير الأشياء ، في العالم الذي لا تدعو فيه ظروف كثير من الناس إلى الحسد ، كان عدم تعرضها أبداً لشيء كرهه حقاً ميزة كبيرة . لقد بدا لإيزابيل أن الشر كان مجهولاً لها ، لأنها لمست من معرفتها بالأدب أن ذلك كثيراً ما يكون مصدر الاهتمام والعبء . ولكن والدها قد جنبها ذلك - والدها الوسيم الذي أحبته كثيراً والذي كان يكره الشر بشدة . لقد كانت سعيدة أشد السعادة بينوتها له ، بل لقد شعرت إيزابيل بالزهو في أبوتها لها . كان يبدو لها منذ وفاته وكأنه يدير لأولاده جانبه الأكثر شجاعة وكأنه قد أفلح في تجاهل القبح الكائن في الحياة العملية بالقدر الذي تمنى تجاهه . ولكن هذا إنما رفع من حنانها نحوه ؛ فلقد كان من المؤلم أن تفترض أنه كان مسرفاً في الكرم ، مسرفاً في السباحة ، مسرفاً في عدم اهتمامه بالمسائل المادية القبيحة لقد كان والدها ينظر إلى الحياة نظرة كبيرة ، ولم يكن قلقه واضطراب سلوكه في بعض الأحيان إلا دليلاً على ذلك كان يجب أن تكون شريكة لو والدها فقد كانت العضو الوحيد من بناته الثلاث الذي عوضه عن كل الأشياء الكريهة التي لم يذكرها ، وفي أخريات أيامه لم يقلل من رغبته العامة في ترك العالم - الذي ازدادت فيه صعوبة سلوك الإنسان كما يحلو له كلما تقدمت به السن - سوى ألم القراق من ابنه الذكية المتفوقة الممتازة أما أختها إيديث فكانت أكثر منها نجاحاً في اجتذاب الآخرين . فتسعة عشر شخصاً من عشرين (بما في ذلك الأخت الصغرى نفسها) كانوا يعرفون بأن إيديث تفوق أختها في جمالها تفوقاً لانهاثياً . أما الشخص العشرين فلن يكفي بقلب هذا الحكم ، بل يرفه عن نفسه باختبار التسعة

ولكن إيزابيل التي ترى في هذا الحب قيда لحريتها ،
ترده خائباً ، وإن كان هو يبدو وكأنه لن يقبل الهزيمة :
ذلك هو كاسبار جودوود الذي يستمر في عرض حبه
وإخلاصه لها إلى النهاية .

ولا يتم هذا التعريف بإيزابيل دون أن نراها كما
يراهها رالف ابن خالتها ، الشاب الذكي الفيلسوف الذي
يمثل أحد أعمدة الرواية لما يتمتع به من وعى فذوتعاطف
مع البطلة لا يعوقه عن أن يراها بالرغم من حبه لها
بموضوعية نافذة ، ولما يلعبه في حياتها من دور فعال.
يذهب رالف للترحيب بوالدته وقبل أن يدور

بينهما حديث كاشف عن إيزابيل ، يكشف لنا جيمس
أولاً عن شخصية هذا الشاب ، فنعرف أنه جاء إلى
إنجلترا طفلاً بصحبة والديه وتلقى تعليمه في مدارس
إنجليزية ثم في جامعة أمريكية ثم أمه في جامعة أكسفورد
الإنجليزية ، وكان الأب يرغب في خلق توازن بين أثرى
إنجلترا وأمريكا في شخص ابنه . كان الأب أحد
أصحاب البنوك وسرعان ما وجد الابن طريقه إلى عمل
أبيه ولكن مرضه يمنعه من العمل المجهد ، ولذا فهو يحيا
الآن حياة خالية من العمل أو الاهتمام الجدى . « وقد
أنقذه من وطأة قسوة التضحية بالحياة العاملة معين كبير
من عدم الاهتمام ، إلا أن رائحة الفاكهة المحرمة كثيراً
ما كانت تداعب أنفه مذكرة إياه بأن أجمل المتع هي
نشوة العمل » . يشير رالف اهتمام إيزابيل ، كما تثير
هي بذكاؤها وجمالها وإقبالها على الحياة اهتمامه وتشوقه
إلى معرفة المزيد عنها ، فيخاطب والدته قائلاً :

« أما الآن فحدثيني عن هذه الفتاة . . ماذا تنوين
أن تفعل بها ؟ » .

وتجيب مسر تشبث على الفور « أنوى أن أطلب من
والدك أن يدعوها للبقاء في جاردن كورت ثلاثة أو
أربعة أسابيع » .

ويقول رالف « دعك من هذه الرسميات ، إن
والدى سيدعوها لذلك بطبيعة الأمر ! » .

« ومن أدراك بذلك ! إنها ابنة أختي أنا ، وليست
ابنة أخته » .

« بالله يا والدتي العزيزة ، ما كل هذا الإحساس
بالملكية ! إن هذا ادعى لأن يدعوها والدى للبقاء هنا
ولكن بعد ذلك - أعني بعد ثلاثة شهور (فن المضحك
أن ندعو الفتاة المسكينة أن تبقى هنا ثلاثة أو أربعة
أسابيع هزيلة) - ماذا تنوين أن تفعل بها ؟ » .
« أنوى أن آخذها معي إلى باريس . أنوى أن
أشترى لها ملابس » .

« آه طبعاً . ولكن بخلاف ذلك ؟ » .
« سأدعوها لقضاء الخريف معي في فلورنسا » .
ويقول رالف « إنك لا ترتفعين عن مستوى
التفاصيل يا والدتي العزيزة . إنى أود أن أعرف ماذا
تنوين أن تفعل بها بوجه عام » .
وتعلن مسر تشبث « أفعل واجبي ! » ثم تضيف
« أظنك تشعر بشفقة كبيرة نحوها » .

« لا ، لا أظن أنى أشفق عليها ، إنها لا تبدو لي
وكأنها تثير الشفقة . لكنى أحسدها . ولكن قبل أن
أتأكد من ذلك خبريني قليلاً عما تريهه واجبك نحوها » .
« إنى أرى واجبي في أن أريها أربعة بلاد أوروبية -
وسأترك لها اختيار اثنتين منها - وفي منحها فرصة اتقان
اللغة الفرنسية التي تعرفها جيداً الآن » .

ويقطب رالف جبينه قائلاً « إن هذا يبدو جافاً
بعض الشيء - حتى بالرغم من حرية اختيار اثنتين من
هذه البلاد » .

فتقول الأم ضاحكة « إذا كانت هذه الخطة جافة،
فيمكنك أن تترك لإيزابيل أمر ربيها ! فهي دائماً مثل
مطر الصيف » .

« أتعنن بذلك أنها مخلوقة موهوبة ؟ » .
« لا أدري إذا كانت مخلوقة موهوبة أم لا ، ولكنها
فتاة ذكية - ذات إرادة قوية ، ومزاج حاد . ولاتنوى
أن تشعر بالملل » .

ويقول رالف « يمكنني أن أتخيل ذلك » ثم يضيف بغتة « كيف تتفقان أنها الاثنان ؟ » .

« أتعني بذلك أني ممتلئة ؟ لا أظن أنها تجدني كذلك ، إنني أعرف أن بعض الفتيات قد يجدنني كذلك ؛ ولكن إيزابيل أكثر فطنة من ذلك . أظن أنها تجد عندي شيئاً من الترفيه . إننا نتفق لأنني أفهمها ؛ أعرف أي نوع من الفتيات هي . إنها صريحة جداً وأنا صريحة جداً . إننا نعرف تماماً ما نتوقعه الواحدة من الأخرى » .

« آه يا والدتي العزيزة ، إن المرء يعرف دائماً ما يتوقعه منك ! إنك لم تبعثي الدهشة في نفسي إلا مرة واحدة ، اليوم ، عندما قدمت لي ابنة خالة جميلة لم يخطر لي وجودها قط على بال » .
« أنظنها جميلة جداً إذن ؟ » .

« جميلة جداً حقاً ، ولكنني لا أصمم على ذلك . إن ما يلفت نظري هو ما توحى به من أنها شخص معين . من هذه المخارقة النادرة وما هي ؟ أين وجدتها وكيف تعرفت عليها ؟ » . (ص ٤١ - ٤٣) .

وهكذا يستمر الحديث بين رالف ووالدته كاشفاً عن اهتمام رالف بإيزابيل واهتمامه بوجه خاص بما تنوي الأم أن تفعله بها ولكن الأم ترد قائلة عندما يكرر سؤالها عن ذلك « إنك تتحدث عنها كما لو كانت متراً من القماش . إنني لن أفعل بها شيئاً على الإطلاق ، وهي نفسها ستفعل كل ما تريد ، لقد عرفتنى بذلك » .

ثم نرى رالف يصطحب إيزابيل في جولة حول المنزل لتشاهد إيزابيل اللوحات التصويرية الجميلة بينما يرى رالف أنها أجدر بالنظر والتأمل من هذه اللوحات . فهي إلى جانب ذكائها واستقلالها جميلة جداً .

وهكذا تتضح أمامنا تدريجياً صورة حية واضحة المعالم لشخصية فتاة جميلة ذكية حساسة مثقفة ، تعدد برأيها وحريتها وتسعى لمعرفة المزيد عن العالم والناس وتهم بكل ما حولها . أما رالف فيجدها مثيرة جداً للاهتمام وكأنها هبة من السماء قد وهبت له في الوقت

الذي كاد يفقد اهتمامه بكل شيء ، ويعتقد أنها أفضل بكثير من أجود عمل فني ، وأن في رويتها متعة تفوق كل شيء في الوجود . « فهي أنفوس من لوحة فنية لتيتيان أو تمال إغريقي أو كاتدرائية قوطية » (ص ٦٥) وبالرغم من أنه يقبل على الاستمتاع بهذه الفرصة النادرة إلا أنه يدرك أنه لا يملك مفتاح هذه الكاتدرائية ولا يفهمها تماماً . إنها ذكية وكريمة وطبيعتها جميلة حرة ولكن ماذا ستفعل بنفسها ؟ ولكن هذا سؤال غير عادي ؟ فعظم النساء لا يصنعن شيئاً على الإطلاق بأنفسهن ، بل ينتظرن في سلبية إلى أن يأتي رجل ويقرر مصيرهن في الحياة . ولكن إيزابيل مختلفة . إنها توحى للمرء بأن لها أفاً شخصية . ويتمنى رالف أن يكون حاضراً ليشاهدها عندما تنفذ تلك الأهداف .

وتمر الأيام وبالرغم من رغبتها في رؤية عدد أكبر من الناس إلا أنها تستمتع بقضاء الوقت بصحبة زوج خالتها الذي تجلس بجواره تتحدث إليه وتمطره بأسئلتها . أو بصحبة رالف الذي يصحبها للتجديف أو التجول بالحديقة الواسعة أو ما حولها في العربة الصغيرة التي يملكها مستر تشيت .

وذات يوم يحل بجاردن كورت زائر هو لورد واربرتون الذي كانت إيزابيل قد رآته لمدة نصف ساعة عند وصولها واكتشفت أنه يعجبها . ويبقى الضيف بضعة أيام يدعو في نهايتها إيزابيل لزيارة قصره . وتذهب إيزابيل بعد أن تأتي الأخوات لزيارتها ودعوتها رسمياً . وتعرف إيزابيل أن إحساسها الأول بالنسبة للورد واربرتون كان صادقاً فهي تعجب به بعد أن تعرفه عن قرب نتيجة لحديثهما معاً ولحديثها عنه مع رالف الذي يظنه لطيفاً جداً ومحظوظاً جداً ، بينما ترى فيه إيزابيل لأول وهلة بطلا رومانسياً ثم تكتشف أنه نبيل من آخر طراز ، فهو ديموقراطي النزعة ومعارض للطرق العتيقة ولكنه بالرغم من ذلك يحتفظ بلقبه وأملاكه ومركزه ولا يفكر لحظة في التخلص منها ، ولذا فهي ترى في

موقفه شيئاً من الخداع وعدم المنطق وتوق لرؤيته في بوتقة الاختبار . ولكن مسر تشيت يؤكد لها أنه وإن قامت بالبلد ثورة فإن أحداً لن يمس لورد واربرتون بسوء ، لأنه محبوب جداً .

وتنهذ إيزابيل قائلة « إذن فلن يمكنه أن يصبح شهيداً حتى ولو أراد ذلك ! إن هذا موقف يدعو إلى الأسى » .

ويرد الرجل المسن « إنه لن يصبح شهيداً أبداً إلا على يدك » .

وتهمز إيزابيل رأسها ؛ قد يبدو أن هناك شيئاً مضحكاً في أنها فعلت ذلك بلمحة من الحزن :

« لن أجعل من أى إنسان شهيداً » .

« إنى أرجو ألا تصبحى أنت شهيدة » .

« أرجو ذلك . ولكن هل تشعر نحو لورد واربرتون بالشفقة كما يفعل رالف ؟ » .

ونظر زوج خالتها إليها فترة ، بنظرة عطف ثابتة « نعم أظن أنى أشعر نحوه بالشفقة في نهاية الأمر ! » (ص ٧٨) .

وجازى إيزابيل رالف قائلة « إنى أرجو ألا تصبحى أنت شهيدة » .

« أرجو ذلك . ولكن هل تشعر نحو لورد واربرتون بالشفقة كما يفعل رالف ؟ » .

ونظر زوج خالتها إليها فترة ، بنظرة عطف ثابتة « نعم أظن أنى أشعر نحوه بالشفقة في نهاية الأمر ! » (ص ٧٨) .

ويمكن القول هنا بأنه كما تمثل إيزابيل الفتاة الأمريكية فإن لورد واربرتون يمثل الحضارة الإنجليزية بقيمتها وتقاليدها وعراقتها ، بينما يبدو رالف نتاجاً للحضارتين الأمريكية والإنجليزية معاً ، أما كاسبار جودود فيمثل الحضارة الأمريكية الخالصة :

وتشعر إيزابيل أن لورد واربرتون يعجب بها وتحس نغمة غريبة تزحف في حديثه معها وتبعث في نفسها الخوف - الخوف من أن يعبر لها عن حبه لها - هذا في الوقت الذي تنبئها صديقها هنريتا ستاكبول الصحفية الأمريكية بوصول كاسبار جودود الذي مايلبث أن يكتب لها طالباً رؤيتها ، وبينما تستغرق إيزابيل في قراءة هذا الخطاب في الحديقة وهي تشعر بالضيق تلتفت لترى لورد واربرتون واقفاً أمامها :

وهكذا نرى جيمس لا يألُ جهداً في معالجة موضوعه فهو لا يعتمد على المشهد الحى والصورة المحسمة فقط بل يعتمد على الصورة اللفظية والحدث الرمزي والتلميح ليوفى الموضوع حقه من الناحية الفنية أو التكنيكية . فيزابيل مثلاً مثل العمل الفني في جمالها وإثارتها للانتباه ، ورالف يتنازل عن ملكيته لكلبه لجرد أن تبدى إيزابيل إعجابها به ، ومسر تشيت يقول إن الشخص الوحيد الذى يمكنه أن يجعل من لورد واربرتون شهيداً هو إيزابيل بينما يتحنى ألا تصبح هى بدورها شهيدة . أما فى هذا الموقف بالذات فإنه - بينما تشعر إيزابيل بالضيق لنبا وصول كاسبار وتحشى أن يعكر وصوله صفو الجو الجميل الذى تتمتع به فى جاردن كورت ، فإنها تحس عندما يقف لورد واربرتون أمامها فى الحديقة بعد انتهائها من قراءة خطاب كاسبار « أن ابتسامته كانت سارة وودية بصفة خاصة وقد بدا شخصه كله وكأنه يشع هذا الإحساس الطيب والحياة الطيبة الذين شعرت بسحرهما فى شعورها الأول نحوه . وكان هذه الابتسامة قد أحاطت به كمنطقة من الجو الصيفى الصحو » (ص ١٠٧) .

ومرة أخرى يطلعا جيمس على ما يدور بخاطر هذه الفتاة وهى تواجه هذا الموقف الذى تحشى فيه أن تتقدم لها هذه « الشخصية الكبيرة » بطلب يدها للزواج والذى تشعر فيه بشيء من حب الاستطلاع والجزع فى نفس الوقت . أما الجزع فيتكون من عدة عناصر لم تكن كلها غير سارة . فقد قضت إيزابيل فى الواقع عدة أيام تحللها فيها ونجحت فى فصل السار عن المؤلم من هذه العناصر :

« لم تكن منلهفة على إقناع نفسها بأن مالكا عظيماً من ملاك الأرض ، كما سمعت لورد واربرتون يدعى ، قد أصابته سهام حسنها . فقد كان التقدم بهذا الطلب من مثل هذا المصدر يحمل معه حقاً من علامات الاستفهام أكثر مما يجب . لقد أحست إحساساً قوياً بكونه « شخصية كبيرة » ،

فقد كان هناك شاب أمريكي ليس له نظام على الإطلاق ولكن كانت له شخصية مستحيل عليها أن تحاول إقناع نفسها بأن الأثر الذي تركه في نفسها أثر منير « (ص ١٠٧ - ١٠٩) .

ويعرض عليها لورد واربرتون الزواج فعلا ولكنها بالرغم مما تشعر به نحوه من ميل وإعجاب وتقدير وما يبديه هو نحوها من حب خالص نقي - مثل المصباح الذي يضيء باستمرار في مكان لا تهب به رياح - فإنها ترفضه برفق واحترام وشعور بالشكر . لأنها لا تستطيع الزواج من لورد واربرتون . « لقد فشلت هذه الفكرة في إثارة أى شعور مستنير في صالح حرية استكشاف الحياة التي تدين بها للآن أو التي كان بمقدورها أن تدين بها الآن » (ص ١١٧) .

أما ما أقلقها وأثار العجب في نفسها فهو أنها لم تعان إلا قليلا جداً مقابل رفضها هذه « الفرصة الرائعة » ، وتوضح لنا أهمية هذه الفرصة عندما نرى رد فعل أصدقائها لهذا الرفض . أما مسز تشيت الذي تذهب إليه لتنبئه أولاً بهذا الخبر فهو الوحيد الذي يشعر أنها أصابت بالرفض . أما مسز تشيت فتستنكر هذا الرفض ويعجب رالف لما يمكن أن تأمل فتاة ترفض شخصاً مثل لورد واربرتون أن تفعل بحياتها .

ترفض إيزابيل كذلك الشاب الأمريكي كاسبار جودوود الذي يتبعها عبر المحيط سعياً وراء إجابة أفضل مما حصل عليه في ألباني . ترفضه إيزابيل لأن الزواج منه يعنى الحد من حريتها وخاصة بعد أن رفضت في سبيل هذه الحرية رشوة كبيرة هي الزواج من لورد واربرتون . هذا بالإضافة إلى أنه كان يبدو لها « ذافك مربع جداً وكان قوامه مستقيماً جامداً جداً ، وكانت هذه الأشياء توحى بنقص في سهولة التوافق مع حركات الحياة العميقة » .

وهكذا ترفض إيزابيل ما تقدمه لها الحضارة الإنجليزية العريقة وما تقدمه لها الحضارة الأمريكية

وشغلت نفسها بتأمل هذه الصورة . وبالرغم مما قد تعرض له من إضافة دليل آخر على استقلالها الذاتي فإنه يجب القول بأنه كانت هناك لحظات كان يمثل فيها إمكان إعجاب شخصية كبيرة بها درجة من الإهانة ، بل ودرجة من المضايقة فهي لم تعرف شخصية كبيرة من قبل ، ولم يكن في حياتها شخصية كبيرة بهذا المعنى ومن الممكن ألا توجد مثل هذه الشخصيات في بلدها . عندما كانت تفكر في شخصيات ممتازة كانت تفكر في ذلك على أساس الخلق والذكاء وخفة الروح ، وما يمكن أن يجبه المرء في عقل الشخص وحديثه . هي ذاتها شخصية ذات طابع معين - كان يتعين عليها أن تدرك ذلك ، وحتى ذلك الوقت كانت رؤيتها للوعى الكامل تشغل نفسها لحد كبير بالصور المعنوية ، وبما إذا كانت الأشياء تسر روحها السامية أم لا . أما لورد واربرتون فكان يلوح أمامها ضخماً مضيئاً مثل مجموعة من الصفات والقدرات التي لا تقاس بهذه القاعدة البسيطة ، بل تتطلب تقديراً من نوع آخر - تقديراً أحسست الفتاة التي اعتادت الحكم السريع الحر - أنه ينقصها الصبر اللازم للقيام به . فهو يبدو وكأنه يطلب منها شيئاً لم تجرؤ أحد آخر أن يطلبه منها . وكان ما تحسه هو أن شخصية بارزة في مجال الملكية الأرضية ، ومجال السياسة والمجتمع قد فكرت لاجتماعها في خطة تتسم بشيء من الظلم داخل النظام الذي تعيش وتتحرك فيه ، وأحسست بغريزة معينة ، غير مسيطرة ولكنها مغرية تقول لها أن تقاوم وتتم لها أن لها في الواقع نظاماً ومداراً خاصاً بها . وتقول لها أشياء أخرى كثيرة متضاربة ، كأن فتاة مثلها لا تخطئ إذا سلمت نفسها لمثل هذا الرجل وإنه لمن الشائق أن ترى شيئاً من نظامه من وجهة نظره هو . وإنه من ناحية أخرى فعلى أى حال من الواضح أن جزءاً كبيراً من هذا النظام سيبدو لها في كل لحظة كمجرد تعقيد للأمور ، بل وإن بالنظام بأكمله شيئاً جامداً يتسم بالغباء ويجعله حملاً ثقيلاً . وبالإضافة إلى ذلك

الشابة . وكأنها ما زالت تبحث عن شيء أفضل .

ويبدأ فصل هام في حياة إيزابيل عندما تتعرف بسيدة أمريكية مستوطنة في أوروبا هي مدام مرل صديقة مسز تشيت التي تحضر لزيارتها في الوقت الذي يرقد فيه مسر تشيت على فراش الموت . وتذكر إيزابيل لأول وهلة ترى فيها مدام مرل - عندما تسمع شخصاً يعزف البيانو فتذهب إلى حجرة الجلوس لتراها وظهرها نحوها تعزف بمهارة فائقة - تذكر أنه سيكون لهذه المرأة شأن كبير في حياتها . تجد إيزابيل في مدام مرل سيدة ذكية أنيقة جميلة تلفت النظر بعرفتها وخبرتها وطريقة سلوكها ، وتخبرها خالتها أنها سيدة لا تخطئ أبداً وأن مقدورها أن تتعلم منها الكثير . أما عندما تذهب لاستطلاع رأى رالف فيبدي هذا أنه لا يميل إليها كثيراً ولكن دون أن يذكر لذلك أسباباً معينة . ولذا فإن إيزابيل لا تتقبل آراءه التي لا تغير من علاقتها بـ مدام مرل شيئاً ، بل على العكس نجد هذه الصداقة تنمو وتقوم .

ويعت مسر تشيت تاركاً لإيزابيل ثروة ضخمة تقدر بسبعين ألفاً من الجنيهات . ويرجع ذلك إلى تدخل رالف الذي أقنع والده أن يترك لإيزابيل نصف نصيبه من ثروته قائلا « أريد أن أضع بعض الريح في شراعها . إنني أود أن أمكنها من الوفاء بمطالب خيالها » . وبالرغم من تخوف الأب من وقوعها فريسة في يد زوج يسعى وراء ثروتها إلا أن رالف يرى أن تلك مخاطرة لا مفر منها .

أما إيزابيل التي لم تكن تتوقع شيئاً من هذا القبيل فتكاد تصاب بشبه ذهول تام ، وتمر أيام وهي لا تدري ما تظن بأمر هذه الثروة الكبيرة . ولكنها بعد أن ترسل شيكاً لكل من أختها في أمريكا ، تبدأ في التفكير في كيفية استخدام هذه الثروة ومدى الفرص التي تمنحها لها ، وما تعنيه من قوة وما تستلزمه من جدية . وتبدي إيزابيل تخوفها من كل هذه الثروة وما تعنيه من حرية

لرالف عندما تسأله عما إذا كان يعلم بأمرها أو بسبب ترك والده لها . فهي تخشى أن تخطئ وتود أن تعلم كيف تستعملها ولكن رالف يقوى عزيمتها قائلاً : « إن الثروة قد تخيف الضعفاء ولكنها قوية » . فتسأل : « ولكن كيف تدري أنني لست ضعيفة ؟ » فرد « آه لو كنت ضعيفة ، فإني سأكون قد بعثت نفسي » . (الفصل الحادى والعشرون) .

وتعلم مدام مرل في هذه الأثناء بما أصاب إيزابيل من حظ وافر وكأنها تشعر بشيء من الحسد ولكن ذكاءها الشيطاني يرشدها إلى وسيلة تفيد عن طريقها من ثروة هذه الفتاة الساذجة المثالية فتعمل على تقديمها لشخص يدعى جلبرت أوزموند تقول إنه صديق قديم لها وتصفه بأنه فنان وشخصية متميزة يتعين على إيزابيل لقاءها . أما مسز تشيت فتصحب إيزابيل إلى لندن فباريس ومنها إلى فلورنسا حيث يقيم أيضاً هذا الرجل الأمريكي المستوطن بأوروبا دون أن تعلم ما يدور بخلد صديقها . وفي منتصف الكتاب تقريباً يترك جيمس إيزابيل تتأمل مصيرها وماضيها وحاضرها ، ليقدم لنا أوزموند وابنته بانسى ويكشف لنا عن شيء من العلاقة التي تربط أوزموند بـ مدام مرل . وعلى عادة جيمس يبدأ أولاً بوصف الفيلا الأنيقة التي يقطنها أوزموند وبعض محتوياتها قبل أن يقدم لنا أوزموند نفسه الذي يقدم لنا وصفاً دقيقاً لمظهره (ص ٢٤٦) . أما ابنته فتاة صغيرة ترى بصحبة الراهبتين اللتين قد أتتاها من المدرسة ، مطيعة ، ربها الراهبات على الطاعة والخضوع للسلطة . يصفها والدها بأنها زهرة نقية . وهي تمثل نمطاً من الفتيات اهتم جيمس بتصويره في كثير من أعماله . وفي هذا المشهد وبعد انصراف الراهبتين ، يكشف الروائي للقارئ عن العلاقة التي تربط أوزموند بـ مدام مرل وعن شيء من شخصيتهما الحقيقية . أما أوزموند فيتضح من كلام مدام مرل أن أسوأ صفاته ليس حب الذات كما يدعى هو ، بل التكاسل . لكن مدام مرل

تخبره أنها تريده أن يقوم بعمل ما في فلورنسا وتكشف له عن خطتها التي تتلخص في أن يتقرب من إيزابيل ويتزوجها ، مشيرة إلى جمالها وشخصيتها الجذابة وثروتها الكبيرة . ويتضح من خلال هذا الحديث التفاهم التام بين هذين الشخصين اللذين يبدوان متعاونين متفاهمين وإن لم يكونا متحابين كما كانا في وقت من الأوقات . ويعد أوزموند بزيارة إيزابيل وإن كان يفضل ألا يرى رالف الذي لا يحبه ، أما الحالة فلا يعاب كثيراً لها .

وفي بداية الفصل التالي (التاسع والعشرين) تشير مدام مرل في حديثها مع إيزابيل مرة أخرى إلى أوزموند ولكن بصورة أقل تأكيداً أو صراحة مما تفعل في إشارتها لأوزموند عن إيزابيل ، معبرة عن رغبتها في أن تتعرف به كواحد من خير معارفها ومن أطف وأمهـر الرجال في أوروبا . وتصوره مدام مرل على أنه شخص غير عادي ومثير للاهتمام ويستحق دون شك أن تعرفه إيزابيل .

وخلال هذه الفترة تستمتع إيزابيل بكنوز فلورنسا الفنية وتستسلم في نشوة غامرة لتأثير ما تراه من لوحات فنية وتماثيل رائعة وكنائس قديمة ومبان جميلة ، يقودها لذلك رالف الذي يتجدد حماسه الأول لهذه الأشياء وهي يقدمها لابنة خاله الشابة الممتلئة شوقاً واهتماماً .

ثم يأتي أوزموند لزيارة مدام مرل وتقدم هذه له إيزابيل . ويصور لنا جيمس مشهداً رائعاً غنياً بمدلولاته . تجلس إيزابيل ساكنة بعيداً في الظل لمشاهدة المشهد الرائع بين هذين الشخصين الرائعين وكأنها تنصت لحفلة موسيقية ستفسدها حتماً إن نهى تدخلت في الحديث . ومنذ البداية تشعر وكأن هذين الشخصين يقومان بتحميل دور أعداء خصيصاً لاكتساب هذه الفتاة التي تبهـرها مهارتهما في الحديث وفي السلوك بحيث لا تكاد تبدي حراكاً .

وبالرغم من أن جيمس يهدف كما يقرر في المقدمة إلى كشف الأمور عن طريق وعى إيزابيل إلا أنه يستخدم أيضاً وعى رالف أحياناً ، بل ومدام مرل أحياناً أخرى . فهنا مثلاً لا ترى إيزابيل ولا يمكن أن ترى ما يدور خلف الستار بين مدام مرل وأوزموند . ولكن لديها فرصة استنتاج شيء عن حقيقتهما من ملاحظات رالف عنهما . وكى يتضح لنا لإسراف إيزابيل في الاعتماد على النفس وحرية الاختيار نراها بالرغم من رغبتها في استطلاع رأى رالف في مدام مرل وأوزموند لا تتقبل وجهة نظره . هذا علماً بأن رالف لا يفصح عن رأيه في كليهما وإنما يكفي بالتلميح أولاً ثم بالأفصاح فيما بعد (عندما يشعر بخطورة الموقف) . فيقول عن مدام مرل مثلاً إنها سيدة ماهرة جداً وأنها تبدو كاملة بدرجة تقلقه . أما عن أوزموند فيقول إنه يجهد كل شيء عنه فيما عدا كرهه للسوقية والابتذال وما يبدو من أن هذا هو شغله الشاغل . ومهما يكن من أمر فإنه يبدو من الواضح أن رالف لا يميل إليهما ، بل وإنه بالرغم من رفضه الأفصاح عما يدور بخلده إلا أنه لا يدع مجالاً للشك لدى إيزابيل في أنه لا يوافق عليهما ، ولكنها مبالغة في الاعتماد على رأيها ، ترجع ذلك إلى حالته النفسية ومرضه .

فحينما تسأله إيزابيل مثلاً إذا ما كان جيمس يعرف أوزموند يرد قائلاً :

« هل أعرفه ؟ . . . نعم أعرفه ، لا أعرفه جيداً ولكن بوجه عام بالقدر الكافي . لم أعاشره قط كما يبدو أنه لم يجد قط أنه لا يمكنه الاستغناء عن صحبتي . من هو وما هو ؟ إنه أمر يكى غامض لا يمكن تفسيره . عاش هنا في إيطاليا طيلة ثلاثين عاماً أو أقل قليلاً . لماذا أقول إنه لا يمكن تفسيره ؟ لا شيء سوى تغطية الجهل . فأنا لا أعرف ما سبق من حياته ولا أسرته ولا أصله . ومن يدري لعله بالرغم من ذلك أمير متنكر ، فهو يبدو كذلك بعض الشيء . وعلى أى حال فهو يبدو كأمر

« إنها شخصية ممتازة إذا أردت شخصاً تعرفينه ؟
وما دمت ترغبين في رؤية العالم فلن يمكنك الحصول
على دليل خير منها » .
« أظنك تعنى بذلك أنها ذنبوية ؟ »
« ذنبوية ؟ إنها الدنيا الكبيرة المستديرة ذاتها ! »
(ص ٢٧١) .

وواضح أن نعمة رالف التي لا تخلو عادة من
الفكاهة والسخرية تحمل كثيراً من المعنى هنا . وقد
نتساءل لماذا لا يفصح رالف برأيه في مدام مرل ؟
السبب كما يكشف لنا جيمس هو أن رالف كان يعتقد
أن المرأتين لا تعلمان كل شيء عن بعضهما وأنه بمجرد
أن تكتشف إحداهما شيئاً من ذلك فإن علاقتهما ستفتر
وأن إيزابيل لن يلحقها من ذلك أذى ضرر .
وتذهب إيزابيل بصحبة مدام مرل لتناول الشاي
مع أوزموند وابنته وأخته الكونتيسة جيميبي وبندل
أوزموند جهداً خاصاً للحفاوة بإيزابيل دون ابتذال
أو سوقية ، ويربها تحفه وقطعه الفنية ، ويفضئ إليها
بشيء غير قليل عن نفسه وعن عدم اهتمامه بالنجاح
أمام العالم واكتفائه بالأفعال شيئاً . وترك الزيارة أثراً
قويماً في نفسها بينما يخرج القارئ بشعور لا يمكن التخلص
منه بأن البيت يشبه المتحف ، وأن كل شيء به بما في ذلك
سلوك صاحبه قد جهز خصيصاً للعرض . ويزورها
أوزموند في بيت خالتها خمس مرات في أسبوعين مما
يلفت نظر الخالة ورالف ولكن رالف لا يعتقد أن
إيزابيل ستقبل أوزموند حتى لو تقدم طالباً يدها .
أما إيزابيل فتشعر أنه مثير للاهتمام - وكان الصورة التي
تركها في نفسها زيارتها لمنزله في أعلى التل تبقى وتقوى
بتكرار لقاءهما . . صورة رجل هادئ الطبع ، ذكي ،
حساس ، ممتاز .

ويذهب الجميع إلى روما حيث تلتقي إيزابيل
صدفة بلورد واربرتون الذي يبدو أنه ما زال يحيا .
ويتكرر لقاء الأخير بأوزموند ويدرك ما يسعى إليه هذا ،

تنازل عن الإمارة في فورة من السخط وبقي في حالة
تأفف منذ ذلك الوقت . كان يعيش في روما ؛ ولكنه
اتخذ له مقراً هنا في السنوات الأخيرة ؛ أذكر قوله إن
روما أصبحت سوقية . إنه يخشى السوقية بدرجة كبيرة
هذا هو اتجاهه الخاص ؛ فليس له اهتمام آخر على ما أعلم .
يعيش من دخله الذي لا أظنه كبيراً بدرجة سوقية . إنه
رجل فقير ولكنه شريف - هكذا يصف نفسه . تزوج
في شبابه وفقد زوجته ، وأعتقد أن له ابنة . وله أيضاً
أخت ، متزوجة من كونت ما من هذه الناحية . أذكر
مقابلتي لها فيما مضى . إنها ألطف منه ، فيما أعتقد ،
ولكن من الصعب تحملها . أذكر أنه كانت هناك بعض
الشائعات عنها ولا أظن أني أشير عليك بمعرفتها . ولكن
لما لا تسألين مدام مرل عن هؤلاء الناس ؟ إنها تعرفهم
خيراً مما أعرفهم أنا » . (ص ٢٦٨) .

أما بخصوص مدام مرل ، فعندما نتحدث إيزابيل بأنه
لا تعجبها الطريقة التي يتحدث بها رالف عنها فانه يقول :
« إنني أتحدث عن مدام مرل تماماً كما أتحدث إليها
باحترام مبالغ فيه أيضاً . . . أفعل ذلك لأن مزايا مدام
مرل مبالغ فيها . . . دعيني أشرح . عندما أقول إنها
تبالغ فاني لا أعني أنها تبالي بالطريقة المبتدلة - أي أنها
تفاخر وتسرف في القول أو تصف نفسها وصفاً رائعاً .
ولكن أعني بالحرف الواحد أنها تذهب بالسعي وراء
الكمال إلى حد بعيد جداً - وأن مزاياها نفسها مبالغ فيها
فهى طيبة جداً ، وكرمة جداً ، وذكية جداً ، ومثقفة
جداً ، ومهذبة جداً ، وكل صفاتها مبالغ فيها ،
وبالاختصار فهى كاملة جداً » . (ص ٢٧٠) .

ثم يردف رالف مخاطباً إيزابيل :
« إنه من الممكن أن يجد المرء نقصاً أو نقطة سوداء
في كل شخص آخر ، حتى أنت ، أما بالنسبة لمدام
مرل فلا شيء ، لا شيء ، لا شيء » .
وتقول إيزابيل « إنني أتفق معك تماماً . وهذا هو
السبب في حبي الشديد لها » .

المشهد الذي يكشف فيه رالف أخيراً لإيزابيل عن رأيه في خطبتها .

يحد رالف نفسه في حيرة بالغة فهو يعلم أن تدخله لكشف حقيقة أوزموند ومدى خداعه لابنة خالته التي يعزها أكثر من أى شىء آخر في الوجود ، إنما يمكن تبريره فقط إذا تأكد من نجاحه في إقناع إيزابيل ، أما إذا باءت محاولته بالفشل فسيقضى عليه ، إذ ستلومه إيزابيل وتستمر في طريقتها . وهكذا قضى رالف وقته شاردأً تائهاً متنقلاً بين أنحاء القصر كسفينية بغير دفة في مجرى صخرى ، أو جالساً في الحديقة على كرسي كبير من الخيزران ماداً رجله وملقياً برأسه إلى الخلف وقبعته تغطي عينيه .

« كان يشعر برودة حول قلبه : لم يكره في حياته شيئاً مثلما كره هذا الأمر . ماذا يستطيع أن يفعل وماذا يستطيع أن يقول ؟ فسواء جهر برأيه أو تظاهر بغير ما يعتقد فسيكلفه ذلك نفس الجهد . إذ لا يمكنه الموافقة باخلاص أو المعارضة بأمل » . (ص ٣٦٦)

أما لإيزابيل فبالرغم من توقعها معارضة رالف لزواجها إذ من الطبيعي أن يكره ابن الخالة الزوج ويعارض ، إلا أنها كانت على استعداد لهذه المعارضة ؛ لن تلوم رالف إذا لم يظهر مشاركة كافية . وتمضى ثلاثة أيام لا يتفوه فيها رالف ببنت شفة :

وذات صباح تعود لإيزابيل من نزهتها الصباحية لتجده في بقعة جميلة من الحديقة في جلسته المعتادة فتظنه نائماً . وبالرغم من أنها لضيقها قد أتهمته بعدم الاكتراث إلا أنها لم تغفل عن ظهوره بمظهر من يشغله أمر . ولكنها كانت ترجع شروده جزئياً لسوء حالته الصحية أو لأسباب تتعلق بأعماله المالية . وتقف لإيزابيل تتأمله لحظة من الزمن . ولكن رالف يفتح عينيه فتجلس بجواره ويدور بينهما الحديث التالى :

« معذرة ، لقد أيقظتك . إنك تبدو متعباً » .

فيقلقه الأمر ويشاور رالف الذي يرى أن خير وسيلة لإقناع إيزابيل هي عدم التدخل . وينقل إلينا جيمس بمهارة بالغة قلق أصدقاء إيزابيل بشأن أوزموند وتقربه منها عن طريق أحاديثهم الخاصة كما هو الحال بين رالف وواربرتون وملاحظاتهم المباشرة كما هو الحال مع هنريتا التي لا تخفى ضيقها منه .

وقبل أن تترك إيزابيل روما يعبر لها أوزموند عن حبه بمنتهى الاحترام واللباقة ولكنها ترفض مناقشة الأمر معه محتجة بأنها لا تكاد تعرفه وأنه خير لها أن يفترقا . ويعلق جيمس على استجابة إيزابيل لهذا الموقف بقوله :

« وعندما انصرف ، وقفت برهة تنلفت حولها ثم جلست ببطء وبشئ من التعن . جلست هناك إلى أن عاد رفاقها ، ويداها مطويتان ، تحمق في السجادة القبيحة . كان اضطرابها - الذى لم يتناقص - اضطراباً ساكناً جداً ، عميقاً جداً . أما ما حدث فكان شيئاً توقعه خيالها طيلة الأسبوع وتقدم لملاقاته ، ولكن هنا ، عندما حدث ، توقفت ، فبشكل ما تعطل هذا المبدأ السامى . لقد كان سلوك هذه الفتاة النفسى غريباً ، وكل ما أستطيع فعله أن أقدمه لكم كما أراه ، دون أمل في أن أجعلها تبدو طبيعية » . (ص ٣٣٧) .

وتقوم لإيزابيل مع مدام مرل برحلة في الشرق الأوسط ، وولتقى بها مرة أخرى بعد عودتها ونزولها بقصر مسز تشيت في فلورنسا في أواخر الربيع أى بعد عام من الأحداث التي رويناها . وفي هذا الجزء من الرواية ترى أثر إعلان خطبتها على كاسبار جودود الذى يحضر خصيصاً من أمريكا ليراها قبل أن تزوج وليعرف شيئاً عن ذلك الرجل الذى تزوجه (الفصل الحادى والثلاثون) ثم على خالتها التي تستنكر هذه الخطبة وخداع مدام مرل لها وتعد بأن تعمل على إقناع إيزابيل بالعدول عن رأيها بأن تطلب من رالف أن يحاول ذلك ، نرى هذا في عدد من المشاهد المتتالية ، لعل أهمها

ويقول رالف «إني أشعر بتعب شديد . ولكنى لم
أتم . كنت أفكر فيك .»

«أتعبت من ذلك؟»

«تعبت جداً . فذلك لا يؤدي بي إلى شيء .
فالطريق طويل ولا أصل أبداً .»

ثم قالت إيزابيل وهي تطوى مظلها «وإلى أي
شيء تريد الوصول؟»

«إلى نقطة التعبير كما يجب عما أظنه في أمر خطبتك»
فأجابت بخفة «لا تفكر كثيراً في أمرها .»

«أتعنين أن ذلك ليس من شأنى؟»

«بعد نقطة معينة ، نعم .»

«تلك هي النقطة التي أود تحديدها . ظننت أنك
قد تجديني مقصراً في حسن السلوك ، إذ لم أهنتك

بعد .»

«لاحظت ذلك طبعاً وعجبت لماذا التزمت

الصمت؟»

«كانت هناك أسبابا كثيرة . سأخبرك الآن .»

وخلع رالف قبعته ووضعها على الأرض . ثم جلس
ينظر إليها . واتكأ إلى الخلف في ظل تمثال برنيني

(الموجود في الحديقة) ورأسه يستند إلى القاعدة
المرمرية ، وتدلى ذراعه إلى جنبه ، ويداه على جانبي

مقعده الواسع . بدا في وضع غير رشيق وغير مريح
وتردد طويلاً . ولم تقل إيزابيل شيئاً . كانت عادة تشعر

بالأسف نحو الناس عندما يجدون أنفسهم في حيرة ،
ولكنها صممت ألا تساعد رالف في التفوه بكلمة

لا تشرف قرارها الرقيق . وأخيراً قال رالف «لم أفق
بعد من دهشتي . لقد كنت آخر شخص أتوقع أن أراه

وقد وقع في الشرك .»

«إني لا أدري لماذا تقول وقع في الشرك .»

«لأنك ستوضعين في قفص .»

فأجابت «فاذا أحببت القفص فيجب ألا يقلقك

هذا .»

«هذا ما أعجب له . هذا ما كنت أفكر فيه .»

«إذا فكرت أنت فيمكنك أن تتصور كيف

فكرت أنا . إني مقتنعة بأنى على صواب .»

«لا بد أنك تغيرت تغيراً كبيراً . فمذ عام كنت

تقدرين حريتك فوق كل شيء . كنت تريدن فقط

أن ترى الحياة .»

فقالت إيزابيل «لقد رأيتها . وأعترف أنها لا تبدو

لي الآن كما كان مقر لهذا الحد .»

«إني لا أدعى أنها كذلك . ولكنى كنت أظن

أنك تنظرين إليها نظرة ودية وتحاولين رؤية الميدان

بأكمله .»

«لقد رأيت أنه ليس بمقدور المرء أن يفعل شيئاً

عاماً هكذا . لا بد أن نختار المرء ركناً ويوليه عنايته .»

«هذا هو اعتقادي . يجب على المرء أن يختار خير

ركن . لم أكن أدري ، طيلة الشتاء ، بينما كنت أقرأ

خطاباتك الممتعة ، أنك كنت تختارين . لم تذكرى شيئاً

عن ذلك . لقد جعلني صمتك أتخلى عن حيطتي .»

«لم يكن هذا أمر محتمل أن أكتب لك عنه . وإلى

جانب ذلك ، فإني لم أكن أعلم شيئاً عن المستقبل . فقد

حدث كل هذا حديثاً . وحتى إذا كنت قد أخذت

حيطتك فماذا كنت تفعل؟»

«كنت أقول : أنتظري قليلاً .»

«أنتظري ماذا؟»

فقال رالف وعلى وجهه ابتسامة مضحكة بعض

الشيء بينما وجدت يدها طريقهما المعتاد إلى جيبه :

«تنتظري نورا أقوى قليلاً مثلاً .»

«ومن أين كان لهذا النور أن يأتي؟ منك؟»

«ربما كان في استطاعتي أن أقدح شرارة أو

الذئبين .»

كانت إيزابيل قد خلعت قفازيها . وأخذت ترتبها

وهما على ركبتيها - كانت رقة هذه الحركة عرضية .

إذ لم تكن نظرتها نظرة مصالحة : «إنك تدور وتلف

يا رالف .. إنك ترغب أن تقول إنك لا تحب مستر أوزموند ولكنك خائف ! » .

« إنى على استعداد لأن أجرح ولكنى أخشى أن أضرب ؟ » إنى على استعداد لأن أجرحه هو ، نعم — ولكن لا لأجرحك أنت . . . إنى أخشاك أنت ولا أخشاه فإذا تزوجته فانه لن يكون من حسن حظى أن صرحت برأى . »

« إذا تزوجته ؟ وهل كان لديك أمل فى أن تثيقى عن عزمى ؟ » .

« بالطبع يبدو لك هذا ضرباً من العبث . »

فقالت ليزابيل بعد قليل « لا ، بل يبدو لى شيئاً يدعو إلى الرثاء . »

« إن هذا لا يغير من الأمر شيئاً . إن ذلك يعانى مضحكاً لدرجة الرثاء . »

ربت ليزابيل مرة أخرى على قفازها الطويلين « إنى أعلم أنك تكن لى مقداراً كبيراً من المحبة . . هذا شىء لا يمكننى التخلص منه . »

« بحق السماء لا تحاولى . احتفظى بذلك أمام ناظريك فسيقنعك هذا إلى أى حد أتمنى لك أن تفلحى . »

« ما أقل ثقتك لى ! »

ساد السكون لحظة وبدت الظهيرة الحارة وكأنها تنصت ثم قال رالف « إنى أثق بك ، ولكنى لا أثق به » رفعت عينيها ورمته بنظرة واسعة عميقة « لقد قلتها الآن ، وإنى مسرورة لأنك وضحت الأمر بهذه الدرجة ولكنك ستقاسى بسبب ذلك . »

« لن أقاسى إذا كنت عادلة . »

وقالت ليزابيل « إنى عادلة جداً » (ص ٣٧٠ —

٣٧١) .

يصور جيمس هذا الموقف بمنتهى الجمال والرفقة بحيث تصيف كل لسة وكل جملة من الحديث الجارى بين هذين الشخصين إلى شعورنا بإحساس رالف المرهف ووجه ليزابيل ورغبته الصادقة فى تحذيرها وإلى إدراكنا لغضب

ليزابيل وشعورها ببطوليتها لا فى الدفاع عن أوزموند فقط ، بل فى محاولتها للكشف عن فكرتها ورغبتها فى العدل تجاه رالف . يقول رالف معبراً عن مدى خيبة أمله فى مستقبلها :

« إن هذا لا يشبه فى شىء الزواج الذى كنت أتصورك ستعقدينه . » (ص ٣٧٢)

ثم يضيف مفسراً :

« لقد كنت أمتع النفس برويا فانتة لمستقبلك . . »

كنت أسرى عن نفسى بتخطيط مصير رفيع لك . لم يكن به شىء من هذا القبيل . فما كنت لتبطلى بهذه السرعة . »

« أتقول أهرط ؟ » .

« إن هذا يعبر عن إحساسى بما حدث لك ، على أى حال . كنت تبدين لى وكأنك تخلقين بعيداً إلى أعلى فى زرقة السماء ، وكأنك تبجرين فى نور وضاء — فوق رعوس الرجال . وبغته يلقى شخص ما بوردة ذابلة لم تفتح أكمامها — بقذيفة كان يجب ألا تصل إليك أبداً — وبسرعة تهبطن إلى الأرض . . إن هذا يؤلمنى ، يؤلمنى كما لو كنت أنا الذى سقطت . » (ص ٣٧٣) .

وتتعجب ليزابيل من قوله هذا بقولها : « إنه ما من شىء أرفع للفتاة من أن تزوج شخصاً يعجبها » فيجيب رالف :

« إن إعجابك بالشخص الذى نتحدث عنه هو ما أجرؤ على نقده ، يا ابنة خالتى العزيزة . كنت أتصور الرجل الذى تزوجينه ذا طبيعة أكثر نشاطاً وأكثر اتساعاً وحرية . وتردد رالف ثم أضاف : « لا يمكننى التخلص من الإحساس بأن أوزموند بشكل ما — لنقل ، صغير . » . لقد نطق هذه الكلمة الأخيرة دون ثقة كبيرة ؛ كان يخشى أن تغضب مرة أخرى . ولكن أدهشه أن بقيت هادئة ، وكان منظرها يوحى بأنها تفكر .

« صغبر ؟ » لقد جعلت الكلمة تبدو هائلة ؛
« أظن أنه ضيق الألق ، محب للذات ، يأخذ نفسه
مأخذ الجلد بإسراف » :

ويستمر الحديث وكل يدافع عن وجهة نظره ،
والف يبين نقائص أوزموند وإيزابيل تدافع عما تراه من
مزاياه ومحاسنه ويختم رالف الجزء الأول من هذا الحديث
بقوله إنه ما تحدث بهذه الطريقة إلا لأنه يحب إيزابيل ،
ولكنه يضيف عندما تهمة بالتحيز نتيجة لذلك بأنه
يجبها حباً لا أمل فيه . وتقول إيزابيل في كلمات تعلق
بذهن القارئ ويذكرها بعد فشل زواجها واكتشافها
حقيقة زوجها :

« إنك تفعل خيراً بتحذيري ، إذا كنت فعلاً منزعاً
ولكني لا أعد بالتفكير فيما قلت : سأنسى ذلك بأسرع
ما يمكن . حاول أنت أيضاً أن تنساه . لقد أدبت واجبك
ولا يمكن لأى إنسان أن يفعل أكثر من ذلك . لا أستطيع
أن أشرح لك ما أشعر به ، وما أؤمن به ، ولن أفعل
حتى إذا استطعت ذلك . إنى لا أفهم فكرتك عن مستر
أوزموند . لا يمكننى أن أفهم حقها ، لأنى أراه بشكل
مختلف تماماً . إنه ليس مهماً - لا ، إنه ليس مهماً ؛
إنه رجل لا يعنيه المركز المهم على الإطلاق إذا كان
هذا ما تعنيه عندما تسميه « صغراً » ، إذن فهو
« صغبر » بالدرجة التى تحلو لك . أنا أسمىه « كبيراً » -
إنه أكبر شيء أعرفه . : هل تشكو من أن أوزموند
ليس غنياً ؟ إن هذا بالذات هو سبب ميلى له . فن
حسن الحظ أنى أملك مالا كافياً . لقد مرت بي لحظات
كنت أود أن أذهب وأرعى بجانب قبر والدك : لعله
قد فعل خيراً مما قصد عندما مكنتى من أن أتزوج رجلاً
فقراً - رجلاً تحمل فقره بعزة وعدم اهتمام . إن مستر
أوزموند لم يجر ولم يكافح - إنه لم يعبأ بأية جائزة
دنيوية . إذا كان هذا ضيقاً للأفق وحباً للذات ، إذن فكل
شيء على ما يرام : إنى لا أخشى مثل هذه الكلمات .
ولست حتى مستاءة ؛ ولكنى آسفة فقط لأنك

ترتكب خطأ كهذا . قد يخطئ الآخرون ولكنى
أعجب أن تخطئ أنت . فأنت يمكنك أن تعرف الرجل
الكريم إذا رأيت واحداً ، فلك عقل ممتاز . أما مستر
أوزموند فلا يرتكب أخطاء . إنه يعرف كل شيء ،
يفهم كل شيء وروحه أكثر الأرواح رقة وحناناً
وسمواً . لقد كونت فكرة خاطئة . إنه لمن المؤسف ،
ولكنى لا أستطيع أن أقول شيئاً . فهذا شأنك أنت
وليس شأنى » . (ص ٣٧٥ - ٣٧٧) .

ويختم رالف بقوله : « لقد قلت لك فى العام الماضى
إذا وجدت نفسك فى مأزق فأسأعش وكأنى قد بعث
نفسى . هذا ما أشعر به اليوم » . ويضيف أنه يظن
الإنسان فى مأزق إذا كان على خطأ . وتجب إيزابيل
« إنى لن أشكو لك من أى مأزق » . (ص ٣٧٧) .

وهكذا تسد إيزابيل أذنها عن سماع النصيحة وتجدها
نفسها سعيدة بخطبتها لرجل تحبه وتحترمه ، تستسلم له
بواضع وتزوج به بخير وتشعر أنها بزواجها منه
لا تأخذ فقط ، بل تعطى أيضاً . أما أوزموند فكان نجاحه
فى الحصول على إيزابيل أكبر حافز للسلوك المثلئ :
فكان محباً مثالياً ، عطوفاً رقيقاً ، واثقاً من نفسه .

أما أول إشارة إلى فشل هذا الزواج فتأتى من مدام
مرل فى حديث لها مع شاب أمريكى وصديق قديم
لإيزابيل ، يود الزواج من بانسى أوزموند ويرى أن
مسز أوزموند أى إيزابيل تستطيع أن تساعد ، ولكن
مدام مرل تنصحه بالأى يكون السبب فى توسيع شقة
الخلاف بين الزوجين : يجب إدوارد روزير بانسى
ويرغب فى الزواج منها ولكن الأب يعتقد أنه ليس
كفاً لها لأنه ليس غنياً بالدرجة الكافية . ولكن مدام
مرل ترى أن تحتفظ به مؤقتاً ، بينما ترفض إيزابيل
مساعدته رغم عطفها عليه لأنها تدرك موقف الأب منه .
تبادلها بانسى الحب ولكن أوزموند واثق من أنها لن
تعصى له أمراً فقد رباها تربية صحيحة .

وجدير بالذكر أننا نرى كلا من إيزابيل وزوجها أول ما نراها بعد الزواج من خلال نظرة روزير لها - روزير جامع التحف الذي يدرك أصالة الشيء وقيمه الحقيقية بغض النظر عن قيمته الكتالوجية أو المالية . وبينما يبدي إعجابه بإيزابيل وقلقه على سعادتها فهو الذي ينطق أيضاً بكثير من الأحكام على أوزموند في مجرى تعبيره عن استيائه من موقفه من حبه لبانسي . فعندما يقول مثلاً : « إن بانسي لا تأبه مثقال خرة بمال الشخص » ، فترد إيزابيل « ولكن أباهاً بأبه كثيراً » ، يقول « آه لقد أثبت ذلك » . كذلك فاننا نراها من خلال موقفهما بالنسبة لحب بانسي وروزير .

وتسر الأحداث بسرعة أكبر في الجزء الثاني من الرواية وكان جيمس يعوض عن بطء الجزء الأول وخلوه نسبياً من الأحداث ، فيحشد هنا عدداً من المشاهد الرائعة التي تحمل القصة إلى نهايتها المحتومة .

ومرة أخرى يظهر لورد واربرتون على مسرح الأحداث بصحبة رالف الذي يحضره إلى إيطاليا نظراً لاشتداد المرض عليه وحاجته إلى الانتقال إلى جو أكثر دفئاً . ومرة أخرى يبدي الصديقان قلقهما على إيزابيل وشكهما في سعادتها عندما يكتشف كل منهما أن حجة الآخر في الحضور إلى روما لم تكن سوى عذر واه لرؤيتها . ويدرك الاثنان أن إيزابيل لن تشكو تعاسها لأحد ، فهي تضع على وجهها قناعاً سميكاً من الهدوء والآلية . ثم يحضر إلى روما كاسبار جودوود وهنريتا ستاكبول صديقة إيزابيل وتكتمل الدائرة .

وتبدأ الأمور في التعقيد عندما يبدي لورد واربرتون اهتماماً ببانسي ، وتظهر مدام مرل بغتة في روما بعد أن ظلت بعيداً لمدة طويلة بعد زواج إيزابيل . وتلاحظ إيزابيل تغيراً في سلوكها ومبالغة في الابتعاد عنها وكأنها تذكر قول رالف إن مدام مرل تسرف في كل شيء حتى إن كمالها يبدو مبالغاً فيه كما تعجب لما تسر به لها مدام مرل ذات يوم من أنها إنما تبتعد حتى لا تسبب لها

أية مضايقات ، خاصة وأنها صديقة قديمة لأوزموند . وترجو إيزابيل إذا ما وجدت ما يثير غيرتها أن تلومها هي لا أوزموند .

وذات صباح تعود إيزابيل من نزهتها لتجد مدام مرل وأوزموند في وضع يلقي كثيراً من الضوء على بعض ما ساورها من شكوك عن مدى علاقتهما . إذ تجد أوزموند جالساً بينما تقف مدام مرل وبينهما إحدى النظرات التي تطول بين شخصين رفعت الكلفة بينهما . وقبل أن تنصرف مدام مرل وبعد أن يتركهما أوزموند تفضي هذه لإيزابيل بما يدور بخاطرها بشأن إعجاب لورد واربرتون ببانسي وتشير إلى أنه بمقدورها أن تجعله يتزوج بانسي بما لها من تأثير عليه ، مذكرة إياها بأنها إذا كانت قد رفضت هي الزواج منه فلا أقل من أن تهيئ له فرصة الزواج من أخرى .

وفي الفصل التالي نرى إيزابيل تفكر في هذا الأمر وترى أن زواج بانسي من لورد واربرتون سيسعد زوجها . هي تريد أن تسعد زوجها . لماذا لا تساعد إذن على إتمام هذا الزواج ؟ غريب أن يعجب لورد واربرتون ببانسي « الدمية » الصغيرة الهادئة ، ولكن من يعلم ما يعجب الرجال . وفي الوقت الذي تقرر فيه إيزابيل أنه من الجميل فعلاً أن يتم هذا الزواج يدخل أوزموند ويفسد كل شيء . فهو يصمم بدوره أنه بما لها من نفوذ على لورد واربرتون يمكنها أن تساعد على إتمام هذا الزواج وتتساءل إيزابيل فيما بينها وبين نفسها : هل يتصور أوزموند أن إيزابيل ستساعد في جعل لورد واربرتون الذي ما زال يحب زوجة أوزموند على أن يتزوج ابنته ؟ لا لن تفعل ذلك .

وفي الفصل الثاني والأربعين الذي يعد من خير فصول « صورة سيده » تواجه إيزابيل هذه الصورة كما تواجه صورة مدام مرل وأوزموند كما رأتهما في اجتماعهما الذي يدل على الألفة والقرب . وفي نظرة إلى الوراثة تستعرض إيزابيل زواجها ، وكيف خدعت

فيه ، كيف خدعها أوزموند ، وكيف خدع بها هو بدوره . لقد ظننا ستتسلم له والآرائه وتقاليدہ . لقد كان أسوأ شيء بالنسبة له أن اكتشف أن لها شخصية خاصة وفكراً خاصاً . كان يتصور أنها ستتقبل آراءه وتجعل منها آراءها . فلما أبدت أنها ستستخدم قدرتها على الحكم على الأشياء ، بل وستظهر احتقاراً لآرائه لم يكن باستطاعته إلا أن يكرهها :

« لم يكن هذا نتيجة لخطئها – إذ لم تمارس هي أى نوع من الخداع ؛ لقد أعجبت وصدقت . خطت الخطوات الأولى بمنتهى الثقة ، وبغته وجدت أن المنظر اللانهائى للحياة المتكاثرة ، حارة ضيقة في نهايتها حائط كالحج : وبدلاً من أن توصل إلى أماكن السعادة العالية حيث يبدو العالم للمرء من تحته ، وحيث ينظر إلى أسفل بشعور من الرفعة والامتياز ، ويحكم ويختار ويشعر بالشفقة ، إذا بها توصل إلى أسفل ، إلى الأرض ، إلى الممالك المحدودة ، ممالك الحزن والضيق حيث تسمع من أعلى أصوات حياة أناس آخرين ، حياة أسهل وأكثر حرية ، وحيث تعمل على جعل الشعور بالفشل أكثر عمقاً . كان شعورها العميق بعدم الثقة بزوجها – كان هذا ما أظلم الحياة لها . . . لقد حدث ذلك تدريجياً – لم يحدث حتى نهاية السنة الأولى من حياتهما معاً ، تلك السنة التي اتسمت أول الأمر بألفة تدعو إلى الإعجاب . ثم بدأت تتجمع الظلال ، كما لو كان أوزموند عن عمد وسوء نية تقريباً قد أطفأ الأنوار ، الواحد تلو الآخر . كان الغسق في بادئ الأمر رقيقاً غير واضح ، وكانت لا تزال ترى طريقها فيه . ثم ازدادت كثافته بصفة مستمرة ، وحتى إذا انقشع من وقت لآخر أحياناً فقد كانت هناك أركان بالذات من المنظر الذي يمتد أمامها – أركان حالكة الظلام لا يمكن اختراقها . » (ص ٤٦١ – ٤٦٢) .

ويصور هذا الفصل خير تصوير بويس ليزابيل ووحدها، فهي حريصة أشد الحرص ألا يرى أصدقائها

وخاصة رالف ما أصاب حياتها من فشل وما حل بها من ظلمة . ويناقش الأصدقاء فيما بينهم بويسها وفشلها : لورد واربرتون ورالف ، جودوود ورالف ، أما الوحيدة التي تحدث ليزابيل صراحة كعادتها فصديقتها هنريتا ستاكبول . وعندما يشتد المرض برالف ويقرر العودة إلى إنجلترا فتطلب ليزابيل من كاسبار جودوود أن يصحبه في سفره، يشعر الجميع أن ليزابيل تود التخلص منهم جميعاً (لا مجرد أن أوزموند يكره أصدقاءها) ، بل لأنها تشعر أنهم جميعاً يلاحظونها ، ويودون اكتشاف دخليتها . تقول هنريتا « إنك مثل الغزال الجريح الذي يسعى بعيداً نحو الظل الداخلى » . (٥٤٦) . أما رالف فأحر كلماته لها : « لقد كنت أرغب في الحياة من أجلك . . . ولكن يبدو أنى لا أستطيع أن أقدم لك أية خدمة » . ولكنها إذ تشعر بأن نهايته قد حانت وعمدى عطفها عليه تقول « إذا استدعيتنى فسألبي النداء » فيرد قائلاً « سأبقى هذه المتعة إلى النهاية » .

وسرعان ما تصل برقية من مسز تشبيت تطلب من ليزابيل بناء على رغبة رالف الحضور إذا أمكنها ذلك . تصل هذه البرقية في وقت تشتد فيه الأزمة بين ليزابيل وزوجها نتيجة لظن أوزموند أن ليزابيل قد عملت على إبعاد لورد واربرتون عن بانسى ، كما تلومها مدام مرل على ذلك . ويبدى أوزموند عدم موافقته على سفر ليزابيل لرؤية رالف الذي يكرهه . وفي هذه الحالة من البؤس واليأس ، تثير ليزابيل شفقة الكونتيسة جيميني أخت أوزموند التي لا تحبه كثيراً ، فتكشف لها عن حقيقة العلاقة بين أوزموند ومام مرل وأن بانسى ابنتها ، وتؤكد لها أن مدام مرل قد رتبت زواجها من أوزموند كي تحقق لابنتها حياة رغدة .

وتكاد تنهار ليزابيل تحت وقع الصدمة ولكنها تقرر السفر . وتذهب قبل سفرها لزيارة بانسى التي أعادها والدها إلى الدبر الذي تعلمت فيه ليعبدها عن روزيبر

بين ذراعيه لتندفع في الظلام نحو المنزل بسرعة ودون [تردد .

وهكذا نرى إيزابيل ترفض الحب والخلاص من السجن المظلم الذي تحولت إليه حياتها لتعود إلى زوجها ، لأن ذلك هو الطريق الوحيد الذي تراه أمام الزوجة التي تتمتع بضمير رائع وإحساس بالواجب ، وتقبل نتائج عملها الحر واختيارها وخطئها . طالما نوقشت هذه النهاية وادعى القراء أنها لا تتمشى مع بقية الأحداث ولا تتفق مع شخصية البطلة . فهم يتوقعون إيزابيل الحرة المستقلة التي لا تخضع للتقاليد أن تترك زوجها . ولكن الواقع غير ذلك ، فإيزابيل الحرة الطليقة هي إيزابيل الفتاة الجريئة التي لم تختبر الحياة ، أما إيزابيل التي تعود إلى روما فهي إيزابيل الزوجة التي عرفت الحياة والتي فقدت حريتها ولكنها ما زالت تحفظ بفكرتها عن الحق والواجب ، بل وعن نفسها وعن نزاهتها وقيمتها . فكما نجد كلمتي الحرية والاستقلال تسودان الجزء الأول من الكتاب نجد كلمتي الشرف والواجب تتكرران بشكل ملفت في الجزء الأخير منه .

تلك إذن لحظة عن صورة السيدة التي يقدمها لنا جيمس في بناء متناسق مترابط محكم التنظيم ونسيج فني يفيض حيوية وثراء ، ويعتمد على اللفظ المعبر والصورة والرمز . لقد أصاب ف . ر . ليفيز عندما أطلق على جيمس تعبير « الروائي الشاعر » وفسر ذلك بالإشارة إلى قول هوثورن الروائي الأمريكي « إن جيمس دائم البحث عن صور تتخذ مكانها في تقابل تصويري جميل مع الحقائق النفسية التي يعنى بها . فهذا البحث بالطبع من جوهر الشعر »^(١) . فإذا أضفنا إلى ذلك قول جوزيف كونراد أن جيمس « مؤرخ الضمير الرائع »^(٢) لوجدنا أن عمق اهتمامات جيمس وجلتها تتضح أولاً في

(١) انظر "The Great Tradition," p. 129.

(٢) انظر "Views on the Art of the Novel", pp. 227- 282.

الذي باع جميع تحفه ليتزوجها ولكن الأب رده خائباً . وهنا نرى مثالا آخر لقسوة أوزموند وماديته - إذ يضحى بسعادة ابنته أملا في حصولها على زوج أغنى وأهم اجتماعياً . ونرى الفتاة الرقيقة ترتعد خوفاً من والدها وترجو لإيزابيل ألا تهجرها وتعد إيزابيل بالعودة وهناك أيضاً تقابل إيزابيل مدام مرل بعد أن عرفت حقيقتها . ولكن مدام مرل التي تستنتج ما حدث تخبرها أن ابن خالتها رالف هو في الحقيقة المسئول عن كل ما حدث لها ، فهو الذي أقنع والده أن يترك لها كل تلك الثروة .

وقبل وفاة رالف تشكره إيزابيل على عطفه عليها ومساعدته لها وتعترف له ببؤسها وبمحاولتها لإخفاء ذلك عنه ، ولكنه يخبرها أنه كان يعلم طيلة الوقت ما تعانیه . وهكذا يقرب الصديقان في لحظة من السعادة العميقة والرضا . ويؤكد لها رالف بأخر أنفاسه تقريباً . أنها « وإن كانت موضع كره فقد كانت أيضاً موضع حب ، لا بل عبادة » .

وللمرة الأخيرة يجتمع الأصدقاء حول وفاة رالف ويواجهنا السؤال : ماذا تفعل إيزابيل الآن؟ تعلم إيزابيل أن لورد واربرتون على وشك الزواج من فتاة أرستوقراطية وإن كان سلوكه نحوها لا يقنعها تماماً أنه تغلب على حبه لها . أما كاسبار جودوود فيظهر أمامها مرة أخرى ليعرض عليها حبه ويرجوها ألا تعود لزوجها وتبقى معه : ولكنها ترفض . وكأن جيمس يدرك ما قد يشهده قرار بطلته من شكوك في أذهان القراء ، فيقدم لنا لمسة إنسانية بارعة عندما يصور إيزابيل وقد احتضنها جودوود في فورة من الحب العارم ، فتشعر بضعف مفاجئ وكأنها تصبو للاستسلام ، وتحس لأول مرة مدى إخلاصه - وكأن حبه « يلفها ويرفعها عن الأرض » في الوقت الذي تشعر فيه بثقل من الرصاص يشدها إلى أسفل . ولكنها تتخلص من

نوع المسائل النفسية والخلقية التي تشغله وفي عكوفه على تصويرها فنياً خير تصوير ثانياً ، فهذا في الواقع جوهر اهتمامه بالحياة والفن .

وهكذا نرى أن روعة « صورة سيدة » لا تكمن فقط في أهمية الموضوع الذي عاجله وفي روعة شخصية البطلة ، بل وفي المقدرة الفنية التي صور بها هذا الموضوع . أما من ناحية البناء ، فبالرغم من تعدد الشخصيات وراثها مثلاً فإنها جمعياً لازمة وهامة بالنسبة للخطة الكلية للرواية . ففي تقابلها وتضادها توضح بعضها بعضاً وتسهم بنصيبها في الخطة الكلية . ففي تقابل لورد واربرتون وأوزموند ، وكاسبار جودوود وأوزموند ، وراف وأوزموند مثلاً تتضح لنا شخصية أوزموند وما قد تمثله . فهو من ناحية الفنان المدعى والإنسان الأناني الضيق الأفق ومن ناحية أخرى الأمريكي المستوطن في أوروبا الذي تنقصه صفات الأوربي الحقيقي والأمريكي معاً ، بينما يمثل واربرتون نتاج الثقافة الإنجليزية الحقيقية الذي تغلب عليه صفاتها الحميدة ، ويمثل جودوود الحياة الأمريكية بما تمتاز به من صراحة واستقامة وما قد يصحبهما من حاجة إلى الصقل ، بينما يجمع رالف صفات كل من الحضارتين إلى جانب صفاته الشخصية من ذكاء ورقة ووعي رائع . كذلك الحال بين الشخصيات النسائية في الرواية . فمدام مرل المغتربة الأمريكية الكاملة لا تملك من الصفات الأمريكية شيئاً ولكنها تملك صفات الحضارة الاجتماعية التي تمثلها وكأنها - في سعة تجاربها ومعرفتها الاجتماعية وصعوبة الإمساك بها - العالم الكبير المستدير بأكمله كما يصفها رالف ، تقابلها مسز تشيت بصراحتها وحداثتها وسلوكها الذي يترك كما يشير ليفيز أثراً كحد السكين . ثم هناك الكونتيسة جيمني سيدة المجتمع التي فشلت في إخفاء أمر مغامراتها ولكنها ما زالت تحمل قلباً رقيقاً يحن لإيزابيل في محنتها وإن كانت لضعف شخصيتها وسيطرة مدام مرل عليها لم تتمكن من تحذير إيزابيل في

الوقت المناسب . هناك أيضاً هنريتا ستاكبول الصحفية الجريئة الحرة التي تمثل المرأة الجديدة ونوعاً آخر من استقلال الشخصية يقابل استقلال إيزابيل ، كما تمثل البراءة الأمريكية التي تزدهر في تعرضها الحر للعالم ، يقابلها نمط الزهرة النقية والبراءة التي يسبح حولها بسياج من العناية والحيطه الذي تمثله بانسي .

أما استخدام جيمس للصورة والرمز في روايته هذه للتعبير عن الحقائق النفسية والخلقية والكشف عن حقيقة الشخصيات وتطورها فيحتاج لمقال مستقل . فاذا اتخذنا على سبيل المثال تصويره لشخصية إيزابيل في مراحل مختلفة من قصتها لوجدنا مثلاً كيف يراها رالف بادئ الأمر كعمل فني رائع ألقت به المقادير في طريقه ، ثم كيف تشعر إيزابيل بعد عودتها من رحلتها الطويلة في الشرق الأوسط من أنها أكبر سناً وأنها كالعامل الفني تزداد قيمته بمضي الوقت ، ثم كيف يتأملها روزير جامع التحف الحبيب وهي تقف في أحد أبواب بيتها المذهبة في روما ، ثم كيف نشعر أن أوزموند قد أفلح في إضافة تحفة نادرة إلى مجموعته ، تحفة خدع هو في حقيقتها ، إذ لم يدرك مدى أصالتها وكأنه حطمها بلمسته ، إذ نلاحظ كيف يحلو لإيزابيل بعد فشل زواجها أن تجلس بين أطلال روما وآثارها التي تهدمت وتحطمت وكأنها واحدة منها .

ومن ناحية أخرى يراها رالف في بادئ الأمر كسفينة يود أن يضع شيئاً من الريح في شراعها ثم نراها في النهاية كسفينة تتقاذفها الأمواج في بحر عاصف . كذلك يتصورها رالف طائراً محلقاً فوق رعوس الجميع ثم يشير عند خطبتها إلى أنها أمسكت وستوضع في قفص ، بينما نشعر طيلة الوقت بوجود فكرة الفخ الذي تسعى مدام مرل لإيقاع إيزابيل فيه والتي تسعى هي نحوه نتيجة لمثالياتها وجهلها بالحياة . وفي النهاية تشعر إيزابيل بأنها سحينة ذلك القصر الكبير الذي أثنه أوزموند تبعاً لذوقه الخاص والذي أصبح رمزاً لذلك الزواج

البسيطة الجميلة ، التي تضع اللمسة النهائية لبطلته ذات
الضمير الرائع :

« تلفتت حولها من كل ناحية ؛ وأنصتت قليلاً ؛
ثم وضعت يدها على المزلاج . لم تكن تدري من قبل أين
تتجه ؛ ولكنها عرفت الآن . عرفت أن هناك طريقاً
مستقيماً جداً » .

غير أن تصوير جيمس للشخصيات واستخدامه
للصورة والرمز والأسلوب المعبر ليست إلا بعض
جوانب عذته الفنية . ولعل ليفيز يعبر عن ذلك خير
تعبير عندما يقول : « إن اهتمام جيمس الدائم والعميق
بالحقائق النفسية يجد تعبيراً لا فيما يجب أن يسمى
باستخدام الرمز فحسب ، بل أيضاً في معالجته
للشخصيات والأحداث والحوار وفي كلية الحكمة ،
حتى إنه عندما يبدو وكأنه يقدم لنا رواية سلوك فهو
يطيئنا شيئاً أكبر شيئاً يلعب فيه الشعر دوراً أساسياً » (١)

(١) Leavis, "The Great Tradition," p. 129.

الفاضل القائم فعلاً على التقاليد التي تسحقها كالرحي
كما يقول رالف . وترى إيزابيل نفسها بدلاً من ذلك
الإنسان الحر الذي كانت تخيله ، مجرد أداة حديدية
معلقة استخدمتها مدام مرل وأوزموند لأغراضهما
الخاصة . وعندما تفكر في وفاة رالف تحسده ، وترى
في فكرة العدم الكلي فكرة جميلة كرويا حمام بارد في
حوض من المرمر في حجرة مظلمة ، في بلد حار .
وفي النهاية عندما يعرض عليها كاسبار جودوود فكرة
البقاء معه بعيداً عن زوجها قائلاً إن العالم مكان كبير
جداً وترد قائلة لا بل العالم صغير جداً ، يبدو لها العالم
في الواقع أكثر اتساعاً منه في أي وقت آخر ، يبدو
و كأنه ممتد ويتسع أمامها كبحر هائل ، حيث تطفو هي
في حياة لا قاع لها . وتشعر وكأن المساعدة التي كانت
تتوق لها قد جاءت في سيل جارف . ولكنها ترفض هذه
المساعدة . وعندما تتخلص من ذراعي كاسبار في
الحديقة وتذهب بعيداً عنه نحو باب المنزل يعبر جيمس
عن لحظة الرؤيا التي تثبت أمام إيزابيل بهذه الكلمات



الأشعار الغنائية لسافو

بهتلم

الدكتور إبراهيم بكر

وإيوريجيوس Eurygyos : وكان الأول يعمل ساقياً للخمر بقاعة المدينة ، وكان هذا العمل مقصوراً على شباب الأسر الكريمة الذين يتميزون بحسن المظهر ؛ وتحدثنا أخبار الرواة بأنها هاجرت من مسقط رأسها إلى مدينة ميتليني Mytilene عاصمة الجزيرة حيث عاصرت الفترة العصيبة التي كانت تجتاح المدينة في ذلك الوقت ، إذ كانت الديمقراطية تعمل على الإطاحة بطبقة النبلاء القديمة ، وذلك تحت زعامة جماعة من الباحثين عن الشهرة والمجد على رأسهم ميلانخروس Melanchros وميرسيلوس Myrsilos والحكيم بتاكوس Pittakos . وليس هناك ما يدعو إلى الشك في صحة الرواية التي تقول إنها لجأت إلى صقلية فراراً من حالة الاضطرابات التي سببتها تلك الثورات في جزيرة ليسبوس ، فقد كانت صقلية وطناً ثانياً لكثير من المنفيين السياسيين ؛ ومما لا شك فيه أن أهل سيراكوز Syracuse بصقلية قد أقاموا تكريماً لها تماثلاً هو قطعة رائعة من أعظم ما نحته الفنان سيلانيون Silanion في القرن الرابع ق . م . ، وقد ظل هذا التمثال يزين قاعة مدينتهم حتى سرقه فيرس Verres في القرن الأول ق . م . Cf. Cic. In ver. II. iv. 126-127

سافو هي أعظم شعراء الشعر الغنائي اليوناني ، وقد وضعها ديونيزيوس الهاليكارناسي (Lit. comp. 23) على رأس قائمة شعراء هذا اللون من الشعر ، وجعل أناكريون Anacreon وسيمونيديس Simonides في المرتبة الثانية بعدها .

كانت سافو معاصرة للشاعر ألكايوس Alcaeus وعلى معرفة به ، وإن فاقت شهرتها شهرته ؛ وكان لها معاً أثر كبير على أسلافهما . كان اسم سافو يلقي نوعاً من السحر على الأجيال التي جاءت بعدها من إغريق ورومان ، فنسجوا حول حياتها وأعمالها القصص والروايات ؛ حتى أصبح من الصعب الآن التمييز بين ما هو حقيقي منها وما هو مخنلق .

ولدت سافو Sappho (أو Psappho) باجماع معظم الآراء في الأولمبياد الثاني والأربعين (أي حوالي عام 612 - 609 ق . م . قارن سويداس ، تحت اسم سافو) بمدينة إريسوس Eresos في جزيرة ليسبوس Lesbos ، من أبوين كريمين ينتميان إلى طبقة ملاك الأراضي . كان أبوها يسمى سكاماندرونيموس Skamandronymos وأمها Kleis ؛ وكان لها ثلاثة إخوة: لارنخوس Larichus وخاراكسوس Charaxos

وفي ميتليني عاشت سافو حياة رائعة مذهشة ، فقد جمعت حولها جماعة من بنات جنسها في معهد خاص ، تربهن فيه على فنون الشعر والموسيقى ، وكانت تطلق على معهدها هذا اسم *μοισοπóλων οίκια* أى بيت رايعيات الفنون (cf. fr. 108) ولكن يبدو أن هذا المعهد كان يعنى شيئاً أكثر من مجرد مدرسة يجتمع فيها الفتيات لتلقى بعض المحاضرات عن الشعر والموسيقى فقد كانت عضواته تشكلن ما يسمى *θίασος* ، أى اجتماع ديني مقصور على الفتيات وكان مكرساً للإلهة أفروديت . ولم تكن جماعة سافو هي الوحيدة من نوعها في ميتليني . كانت هناك جماعات أخرى تحت إشراف بعض المنافسات لسافو مثل جورجو *Gorgo* وأندروميذا *Andromeda* . ولم تكن علاقة سافو بهن علاقة طيبة ، إذ قامت بينهما وبينها منازعات مصدرها الحقد والغرة ، الأمر الذى ساعد على نشر الشائعات عنها ، فاتخذت الكوميديا من ذلك موضوعاً للفكاهة والتسلية ، مما جعل البعض يسيئون الظن بها ويصدرون ضدها أحكاماً قاسية . وكان يربط جماعة سافو ببعضهن وبرائدتهن روابط صداقة متينة وحب وودودة . ولم يكن ماكيسيموس التبرى على خطأ حين قارن علاقة سافو بتلميذاتها بالعلاقة التي كانت تربط سقراط بأتباعه (Max. Tyr. 24) . ووجه الخلاف بينهما أنه بينما كان سقراط يجمع حوله الشباب بتأثير شخصيته وسحر موضوع البحث عن الحقيقة ، كانت سافو مرتبطة مع فتياتها بروابط دينية أو نصف دينية على الأقل . لم يكن إذن بيت خادمات الإلهة أفروديت ورايعيات ربات الفنون *Muses* مدرسة أو كلية للموسيقى والشعر ، بقدر ما كان أولاً وقبل كل شيء اجتماعاً لبعض الفتيات تحت زعامة إحداهن ، وقد كرسن أنفسهن جميعاً لعبادة الإلهة أفروديت . وكانت جماعة سافو هذه تختلف في طابعها عن جماعات الفتيات في إسبرطة ، اللاتي كن يقمن ببعض التاموس الدينية الخاصة بالإلهتين أرتيميس *Artemis* وهلين *Helen* فن الواضح أنهن لم يكرسن حياتهن كلية للعبادة ، كما

ومن العجيب ألا نرى فيما وصلنا من أشعار سافو ما يشير إلى هجرتها لصقلية . ويبدو أن سافو كانت صغيرة عندما كانت في صقلية ، حتى أنها لم تترك في نفسها أثراً عميقاً ، أو أنها كانت منغمسة في حياتها الخاصة لدرجة أنها لم تلاحظ العالم الجديد الذى دخلته . وعلى أية حال فقد عادت سافو إلى ليسبوس وأنفقت باقى أيامها في مدينة سيتليني .

وقد تزوجت سافو وأنجبت بنتاً أطلقت عليها اسم أمها *Kleis* . فهى تقول في إحدى شذراتها (٣٠) (١) :
«لى ابنة صغيرة لطيفة تشبه الزهرة الوضاءة ،
الأوهى محبوبتى *Kleis* ، التى لا أرضى بغيرها بديلاً ،
حتى ولو أعطيت كل ليديا أو ليسبوس البديعة » .

ورغم أن اسم زوجها وهو كيركيلاس *Kerkylas* من جزيرة أندروس *Andros* ما هو إلا أسطورة في نظر البعض ، إلا أنه لا يوجد أدنى سبب يجعلنا نعتقد أنها لم تزوج ، لجرد أن عدم الزواج كان تقليداً شائعاً بين مثيلاتها في ذلك العصر . ولكن الأمر الذى لا يقبله العقل ، إذ يبدو بعيداً عن الواقع ، هو القصة التى تحكى أنها أحببت شخصاً يدعى فاون *Phaon* ، وأنها ألفت بنفسها من فوق صخرة ، لتتخلص من تباريح الهوى . وحقيقة الأمر تنضح بجلاء عندما نعلم أن فاون *Phaon* لم يكن رجلاً ، بل قوة إلهية مرتبطة بالإلهة أفروديت *Aphrodite* (Cf. Ath. 2. 69 d) . ويبدو أن رواية حب سافو لفاون قد شاعت على أثر ظهورها في الكوميديا الحديثة ، كما جاء في ميناندر (Fr. 312, Koch) ومن المحتمل أنها جاءت نتيجة تفسير خاطئ لبعض أشعار سافو نفسها ، التى جاء فيها وصف لجمال هذا الإله *Phaon* . وعلى أية حال فإن تاريخ وفاتها غير معروف ، ومن المحتمل أنها قد عمرت طويلاً ، وهذا إن صح الزعم القائل بأنها كانت تقصد نفسها عندما شكت من بياض الشعر ووهن أعضاء الجسم (Fr. 118, appendix, p. 434; cf. fr. 42)

١ - أرقام الشذرات لأشعار سافو حسب ترتيبها في طيبة
Lyra Graeca by J.M. Edmonds

كانت تفعل تابعات سافو ، وإن كان يبدو من أغنية
ألتمان Alcman المسماة «أغنية العذراء» أن فتيات
إسبرطة كن يعشن في جو من المودة العاطفية : وهذا
يشير إلى احتمال وجود تشابه بين الحالتين .

كانت سافو وفتياتها محرصن دائماً على الاحتفال
بالإلهة أفروديت والإلهات التابعات لها : أعني إلهات
الرشاقة Χάρπες ، وربات الفنون al Μούσαι
وإن لم يكن هذا هدفهن الوحيد من الحياة : فقد كن
يوهفن أنفسهن للزواج : وكان عندما يأتي تكتب لهن
سافو أغنيات الزفاف . وبعد ذلك تقطع علاقتها بهن .
ولكن حتى يحين هذا الروم : فقد كن يعشن حياة منزلة
بعيدة عن مجتمع الجنس الآخر : وأفكارهن وعواظهن
كانت متجهة ناحية بعضهن ورائدتهن سافو . وقد
أشرفت سافو على رغباتهن الناضجة وتمكنت من
توجيهها الوجهة الصالحة : بأن تسالت في نفوسهن
بالتعاطف معهن وبالفهم الصادق لمشاعرهن وإحساسها
العميق بضرورة إنجازها نحوهن . وما بقى لنا من
أشعارها بين لنا إلى أى مدى دخلت سافو حياة
فتياتها : ونم كانت تبادلهن الحب والمودة . وكيف
استطاعت أن تعبر عن روح رغباتهن .

قد لا يستطيع البعض ، من وجهة النظر الحديثة ،
تقدير مثل هذا النوع من المجتمعات تقديراً صحيحاً .
فلم تكن العقيدة فيها شعوراً ذاتياً بالجمال . بل عبادة
حقيقية لإلهة تؤمن بها سافو وفتياتها كل الإيمان : إذ
كانت أفروديت إلهة موجودة في نظر سافو وفتياتها ،
وعبادتهن لها كانت تفرض عليهن اتخاذ موقف معين
تجاه الحياة . كانت أفروديت تعتبر راعية جمال المرأة ،
ومن ثم فإن جمال من يعبدنها أمر معترف به وجددير
بالتكريم ، وكان هذا الجمال يناقش بحرية ويقبل على
أنه سبيل للحب والإخلاص . إن عقيدة الجمال هذه
غالباً ما كان يساء توجيهها ، ولكن يبدو أنها كانت
تطوراً طبيعياً في ديانة تقبل العطايا الطيبة عندما تأتي
من الآلهة . ومما لا شك فيه أن مثل هذه المجتمعات في
إسبرطة كانت تعقد فيها مسابقات رياضية بين الفتيات ،

مثل ما كان يحدث في الاحتفال بأعياد الإلهة هيرا
في أوليمبيا (cf. Paus. V, 16, 2-8) ، أما في
ليسبوس فقد اتخذ الاحتفال بأفروديت شكلاً أبسط
وأكثر اتصالاً بالإلهة . فلم يكن النشاط الأساسي في
الرياضة : بل في الغناء . كانت أفروديت تكرم ربات
الفنون : وكان من المعتقد أن الاحتفال بهن يتطلب
الأغاني ، وكانت سافو تدرّب الفتيات المكرسات
لأفروديت على الغناء .

لم تكن أفروديت الإلهة الوحيدة للحب ، كما أنها
لم تكن إلهة الحب فحسب . فقد كانت الشهوة وجميع
الرغبات الجسدية من اختصاص إروس Eros ، أما
أفروديت فكان اختصاصها أعم وأشمل ويختلف عن
ذلك : فهي إلهة الجمال أكثر منها إلهة الرغبة فيه ، كما
أنها إلهة الأزهار والبحر الباسم ، وقوتها تكمن في البهجة
والفتنة التي تلقها بسحرها على المرثيات ، ومن ثم فإن
Eros الرغبة و Peitho الاغراء تابعان لها ،
كما صورهما فيدياس Pheidias في أوليمبيا Olympia .
ولكن حيث إن جمال التكوين الإنساني يصور
أروع وأعظم ما في الكائنات من فتنة : فلا بد
وأن تكون واهبته مسؤولة أيضاً : ولو مسؤولة
غير مباشرة . عن السحر الذي ينزل بكل من يقع
نظرهم عليه . ومن ثم اعتبر الإغريق هبة أفروديت
كنوع من الجنون واعتقدوا أن زنارها يحتوى على فنون
الغواية «التي تسلب حتى لب الحكيم» (cf. Paus.
V. 16, 216-217) وكما تمثل أرتميس Artemis المثال
الكامل للبراءة : فإن أفروديت تمثل اللحظات المفاجئة
للجمال المذهل الذي يطراً على المرثيات فيغوى من يقع
نظرهم عليها ويجعلهم في حالة بعيدة كل البعد عن
خبرتهم العادية . وحتى يوربيديس Euripides كان
يراه قوة حقيقية للطبيعة . قوة ، وإن كانت قاسية ،
إلا أنها منصفمة . واعترف سوفوكليس Sophocles
بقوتها التي لا يستطيع أحد الصمود أمامها . أما سافو
فكانت نظرتها إليها تختلف عن ذلك ، فإن سحر الجمال

الفيزيقي بكل أشكاله ، والعواطف التي يوقظها هذا الجمال في الفتيات اللاتي لم تطمس مشاعرهن بالزواج والولادة ، كل هذا كان بالنسبة لسافو المادة التي تصوغ منها أغانيها .

كان شعر سافو يعنى أساساً بالحياة في جماعتها ، فقد كانت تكتب في مناسبات محددة ولأفراد معينين ، وكانت أشعارها تعكس مشاعرنا نحو جماعتها ونحو أفراد هذه الجماعة . ويتحتم على من يريد منهم قصيدة من أشعارها أن يحاول أولاً أن يعرف الظروف التي كتبت فيها هذه القصيدة . قد يكون صواباً ، وهو أمر سهل ميسور ، تعميم معنى أشعارها وتطبيقه على مواقف إنسانية عامة ، ولكن سافو كتبت لأفراد معينين لهم صفات وطباع محددة ويختلفون عنا كثيراً ، وهذا ما يجب أن يوضع في الاعتبار . إن طبيعة هذه المسألة يمكن أن ترى بوضوح في القصيدة الأولى من كتابها الأول ، وهي عبارة عن أنشودة موجهة إلى أفروديت : « أي أفروديت الخالدة ، يا ذات العرش الوضاء ، يا بنت زيوس ، يا مدبرة الأمور ، إلبك أتقدم بالضراعة : أي ملكتي ، لا تفعمي قلبي بالأم والأحزان ، بل أقبلي إلى هنا ، إن كنت قد استمعت من قبل إلى صوتي ذات مرة عن بعد وأنت تطلين من علي ، إن كنت قد تركت بيت أبيك الذهبي وأقبلت بعد أن ماكت زمام عربتك . إن بجعتيك المليحتين السريعتين قد أحضراك فوق الأرض المعتمة ، وهما ترفرفان بأجنحتهما القوية عبر السماء خلال الهواء ، وسرعان ما وصلتا . وأنت ، أيها المباركة ، والابتسامة تعلق وجهك الخالد ، قد سألت عم ألم ني ، ولماذا أدعوك ، وماذا في قلبي الثائر أريده أن يحدث أكثر من أي شيء آخر : « من تلك التي تودين الآن أن يوقظها الإغراء في حبك ؟ من تلك التي تلحق بك الأذى ، أي سافو ؟ وحتى لو كانت تفر منك الآن ، فإنها سرعان ما سوف تسعى لإليك ، وإذا كانت لا تتقبل منك هداياك ، فإنها مع ذلك سوف تعطيك ، وإذا كانت لا تحبك ، فإنها سوف تقع سريعاً في

هواك ، رضيت أم أبت » . تعالى إلى الآن كما فعلت من قبل ، وخلصيني من الهموم القاسية ، وحققني كل ما يتطلع إليه قلبي ، حققني ، وكوني حليفتي في المعركة » .

إن الغرض من كتابة هذه القصيدة واضح إلى حد كبير . فإن سافو تستنجد بأفروديت ، لعلمها أن الإلهة قد أسرعت لنجدها من قبل . في وقت آخر ، كان يمكن لمثل هذه الأبيات أن تعد تعبيراً عن بعض المشاعر كتبها شاعرة لتخفف بها عن نفسها من ضغط أفكارها عليها . ولكن في حالة سافو ، وقد كانت تكتب أشعارها لتغنيها هي أو أفراد جماعتها ، فلا بد أن تكون هذه الضراعة لأفروديت قد ألفت لمثل هذا الغرض . لأنها ضراعة حقيقية موجهة إلى إلهة حقيقية عاشت سافو على خدمتها . إن الصدق واضح في القصيدة بصورة لا تقبل الشك ، فالقصيدة تتحدث عن حادثة وقعت في حياة سافو ، ولكن سافو ، على غير ما هو متوقع ، لا تذكر اسم المحبوبة ، بل تترك الموقف غامضاً . القصيدة وصلتنا كاملة ، وليس هناك ما يدعو إلى القول بأن اسمها ذكر بعد ذلك فيما لم يصلنا من القصيدة ولعل السبب في عدم ذكر الاسم هو أن سافو كانت قد غنت هذه القصيدة في حضور الفتاة المحبوبة بين باقي أفراد الجماعة ، وأنها كانت معروفة لدى جميع الحاضرات (Cf. Wilamowitz, Sappho und Simonides, p. 48)

هذه القصيدة توصلنا إلى قلب الحياة في جماعة سافو ، فهي ترينا كيف أن هذه الحياة كانت تسيطر عليها الإلهة أفروديت التي تعبدها وتكرهها تلك الجماعة . فطالما كانت الفتيات عضوات في هذه الجماعة ، فقد كان في إمكانهن تبادل الحب مع بعضهن ومع سافو . وليس في مثل هذه العلاقة أي غضاضة من وجهة النظر الأخلاقية اليونانية ، وحيث إنه لا يوجد أي دليل أكيد على أن هذا الحب كان مشوباً بالأنانية أو البحث عن المتعة الجسدية ، فليس هناك ما يدعو إلى توجيه أي اتهام ضد هذا الحب ، جرياً وراء قراعد أخلاقية أكثر

وكان من دواعي الفخر لئساء عصرها أن يقال عنهم
 إنهم كسافو في الثقافة والحكمة وكتابة الشعر (Luc. Merc.
 Cond. 36) ولعل وجود سيدة ساقطة في ليسبوس تحمل
 نفس اسم الشاعرة سافو (cf. Ael. V.H. 12, 19 ; Suid.
 SV. Phaon) من الأمور التي أدت إلى إشاعة الخلط
 بين الشخصيتين عند بعض الرواة . كما أن التفسير
 الخاطئ لكلمة *εταῖρα* التي تحمل في الغالب معنى
 « محظية » من الأمور التي أدت إلى نفس الشيء ،
 فالكلمة تحمل أيضاً معنى « صديقة حميمة » وقد
 استعملتها سافو نفسها في هذا المعنى في إحدى قصائدها
 (Ath. 15, 571 d)

...τάδε νῦν ἑταίραις

(شذره ١٢) ταῖς ἑμαῖσι τέρπινα κάλως ἀείσω
 « سأغني الآن لصديقاتي هذه الأغنيات غناء متقناً » .
 أما عظمتها كشاعرة فأمر يكاد يكون متفقاً عليه من
 جميع الرواة والنقاد ، فقد رفعها البعض إلى مصاف
 الإلهة واعتبرها إلهة عاشرة لربات الفنون التسعة Muses
 (cf. Anth. Pal 71, 407, 718 ; 9, 66, 506 ; Plut.
 Amat. 18) وأشعارها في رأى البعض الآخر
 تفوق كل شعر دبجه براع امرأة ، كما يفوق
 شعر هوميروس كل شعر جاء على لسان رجل
 (cf. Anth. Pal. 7, 15) وكان من عادة سقراط أن يطلق
 عليها اسم « سافو الجميلة » أثناء حديثه عنها ، رغم أنها
 كانت ضئيلة وسمرء ، وذلك لجمال أشعارها وروعها ،
 (Max. Tyr. 24 (18), 7) ، تلك الأشعار التي تمنى
 سولون الحكيم ذات يوم أن يحفظ بعضاً منها ثم لتأت
 المنية (Stob. Fl. 58, 29) ٥

إن طبيعة عواطف سافو يمكن أن ترى بوضوح
 من هذه الأبيات الرائعة التي تتحدث فيها عن فتاة رحلت
 عنها ، وتستعيد أيام حياتهما معاً في شكل محادثة دارت
 بينهما قبيل الرحيل (شذرة ٨٣) .

« إذن فاني لن أرى أثيس مرة أخرى » .

صرامة من القواعد اليونانية . فهذا الحب كان يختلف
 تماماً عن اللواط الذي كان موجوداً في بلاط
 بوليكراتيس Polycrates (طاغية جزيرة ساموس
 في النصف الأخير من القرن السادس ق . م) ، وبالرغم
 من أن الجماعتين كلتاهما لها طبيعة تكاد تكون واحدة ،
 وهي انغزال الجنس اجتماعياً عن الجنس الآخر ، إلا أن
 الحب في جماعة سافو كان أسمى بكثير عن مستوى
 الحب في البلاط السالف الذكر . فقد كان الحب في
 جماعة سافو تطوراً طبيعياً بين جماعة تؤمن إيماناً صادقاً
 بالحب وإلته ، هذا إلى جانب أن الحب بينهن كانت
 تصونه قيود صرامة من القيم الروحية ، وتسمو به حاسة
 سافو الأخلاقية الخاصة . حقاً كانت مشاعرها تجاه
 العذارى في كثير من الأحيان مشاعر عاطفية ، ولكنها
 لم تكن بحال مشاعر جنسية . فشاعرها كانت مليئة
 بالرفقة والود ؛ فهي تحس بلوعة الفراق وذل المهجران ،
 ولكن هذه كلها مشاعر طبيعية لشخصية كسافو تحس
 إحساساً عميقاً وتعبر بوضوح عما تحس . وإنه لمن سوء
 الحظ لطبيعة سافو الغريبة وعبقريتها الفذة أن الشذرات
 الباقية من أشعارها محوطة بالغموض ومليئة بالأفكار
 المتضاربة ، فهي أحياناً لودعية ، وأحياناً أخرى
 خيالية ، وفي بعض الحالات عاطفية ، بل وعاطفية
 جداً حتى لتبدو مرهضة شوهاوية ، مما دعا البعض ،
 ممن لا يتوخون الدقة في إصدار أحكامهم ، إلى اتهامها
 بالخلاعة والمجون ، واعتبارها امرأة ساقطة ؛ وهذا
 يتنافى تماماً مع الاحترام الذي كان يبديه كتاب العصور
 القديمة أثناء حديثهم عنها . فأرسطو (Rhet. 1398 B)
 يحدثنا عن تقدير معاصريها واحترامهم لها ، حتى إن
 حكومة بلدها قد مجدها ونقشت صورتها على قطع
 العملة . (Pollux IX, 84) . ويضعها سقراط في
 مصاف الحكماء (Plat. Phaed. 235 B) ولا يملك
 المرء ، عند سماع أغانيها ، إلا أن يتوقف عن
 الشراب ويخفي كأسه خجلاً (Plut. Symp. VII, 8, 2)

للطريقة التي كانت تقدم بها طقوس عبادتها تكاد تكون
مجهولة تماماً . وأفضل ما وجد فيها وصلنا من شعر
سافو ، وله صلة بهذه الطقوس ، شذرة تتألف من
أربعة أبيات (شذرة ١١٧) تصف مذبحاً من الأغصان
نصب تكريماً للإلهة أفروديت وإلهات الرشاقة Χάριτες
«... أما أنت ، يا ديكا ، فانسجى بيديك
الرقبتين جدائل بديعة واجدليها معاً بأغصان الزهور .
فان الإلهة (أفروديت) تهتم بكل ما أبدعت زينته
بالأزهار ، وكذلك ربات الرشاقة المباركات يزداد
استحسانهن له ، ولكنهن يتحولن عن كل الأشياء التي
لا تتوجها الزهور » .

ويبدو من هذه الأبيات أن طقوس الإلهة أفروديت
كانت تتم في الهواء الطلق . وربما في أحد الأحرش
المقدسة . وهناك بيتان يؤكدان هذه الفكرة (شذرة
١١٢) .

« لقد طلع البدر علينا ، واتخذت الحداري أماكنهن
حول المذبح ... »

وربط إلهات الرشاقة بالإلهة أفروديت أمر طبيعي
ومعروف ؛ فهو ميروس في الإلياذة (٥ ، ٣٣٨)
يجعل إلهات الرشاقة ينسجن رداء مقدساً للإلهة
أفروديت ، وفي الأوديسا (٩ ، ٣٦٤) يتغنى
ديمودوكوس Demodocus بالطريقة التي كن
يعسلن بها الإلهة أفروديت ويضمخنها بالزيت عند
ذهابها إلى قبرص .

وكانت الإلهة تستدعى لحضور هذه الطقوس
بالأغنيات . ولدينا شذرة (٦) تدل على أن هذه
الطقوس كانت عبارة عن «أدبة تدعى إليها الإلهة
لتشارك فيها :

« أي إلهة الحب ، أقبل ، أيها القبرصية ، وصبي
برقة لرفيقتي ورفيقاتك الرحيق الممزوج بالبهجة في
الكؤوس الذهبية » .

ولا بد أن تكون هذه الأبيات جزءاً من أنشودة
إبتهال من سافو إلى أفروديت . ومن المحتمل أن تكون

« إنى حقاً أود أن أموت . لقد تركتني وهي تبكي
بدموع غزيرة وقالت لي « وأسفاه ! كم نحن نعاء !
على الرغم مني ، يا سافو ، أرحل عنك ، أقسم
لك » . وأجبتها بهذه الكلمات « اذهبي وابتهجي ، فقط
اذكريني ، فأنت تعرفين مدى شغفي بك . وإن كنت
لا تذكرين ، فاني أذكرك بما نسيت ، أذكرك
بالأوقات السعيدة البهجة التي أمضيناها معاً . فكم من
مرة ، وأنت بجانبني ، قد زينت خصل شعرك المهدلة
بجدائل من زهر البنفسج والورد البهيج ، وعقدت حول
عقك الرقيق قلائد من مئات الأزهار ، وضمخت
جلدك البض ، وأنت في صدري ، بكثير من العطور
الملكية الثمينة ، وكل ما تتمناه (فتاة أيونية ناعمة)
حصلت عليه ، وأنت تجلسين على حشية لينة ، من
أبدى وصيفات رفيفات . وليس هناك من (تل) أو
مكان مقدس أو (جدول ماء) لم نذهب إليه ؛ ولم
(ملاً) الربيع (المبكر) أي غابة بشدو (البلابل)
المتنوعة (إلا وتجولت فيها معي) ... » .

وبالرغم من أن القصيدة لم تصلنا بدايتها ولا نهايتها ،
وكثير من أبياتها متناثرة ، إلا أنها مع ذلك تمدنا بطبيعة
الحياة بين سافو وجاعتها . فالقصيدة تسجل محادثة
استعادت فيها سافو الساعات الحلوة التي أمضتها مع
صديقتها التي اضطرت إلى الرحيل عنها والتي قال عنها
بعض المعلقين إنها كانت تسمى أثيس . فهي تبدأ
بكلمات مختصرة غير منمقة يتجلى فيها الأسى بوضوح ،
ثم تنتقل سافو إلى ذكر ألوان المتع المختلفة التي كانت
تمضي فيها حياتها مع صديقاتها : في الاحتفالات ،
حيث كن يتزين بالزهور ويتضمخن بالطيب ، وفي
زيارة الأماكن المقدسة حيث يحتفلن بأعياد الإلهة
أفروديت ، وفي التجوال بين المناطق الحلوة التي حبتها
الطبيعة بجمال فتان وبين الأحرش وجدول المياه حيث
تصدح البلابل بشدوها العذب الذي يبعث في النفس
الذشوة والطرب .

إن الإلهة ، التي كانت سافو وصوبحياتها يقمن
على خدمتها ، هي أفروديت ، ولكن التفاصيل الدقيقة

عندما كانت تنوح من أجل سليل كينيراس الصغير (وهو أونيس ، cf. Ox. Class. Dict., p. 193) في الدغل المقدس للآلهة المباركة « Anth. Pal. vii. 407) إن النحيب من أجل أدونيس يعبر عن النحيب لغروب شمل الحياة عن الحقول والحدائق ، والأغنية التي كتبها سافو لهذه المناسبة تحمل طابع الأغنية الشعبية ، وقد وصلنا من هذه الأغنية بيتان (شذرة ١٠٣) هما حوار بين أفروديت ووصيفاتها اللاتي ربما كن عرائس الغاب . ومن المحتمل أن هذه الأغنية كانت تغنيها سافو ممثلة أفروديت ويرد عليها فتيات جماعها بمن ثابعت أفروديت . ويمكن أن ترتب على النحو التالي :

العرائس : أي كيثيريا (اسم لأفروديت) ، إن أدونيس الرقيق في النزع الأخير ، إذا ينبغي علينا أن نفعل ؟

أفروديت : أضربن صدوركن ، يا فتيات ، وزقن ثيابكن .

إن رنة الحزن والنحيب على الإله المحضرب تبدو بجلاء في الأغنية ، ومثل هذه النغمة الحزينة تظهر أيضاً في العبارة « ὦ τὸν Ἀδωνίω » ويلاه لأدونيس (شذرة ٢٥) .

كانت جيرينا Gyrimna وأثيس Athis وأناكتوريا Anaetoria أحب الفتيات إلى قلب سافو (Max. Tyr. 24, [18]) والقصيدة التالية تبين مدى شغفها بالأخيرة (شذرة ٣٨) .

« في رأى البعض أن أحسن ما على الأرض السوداء جيش من الفرسان ، وفي رأى البعض الآخر جيش من المشاة ، وفي رأى غيرهم أسطول من السفن ، ولكن بالنسبة لى فهو من بحبه المرء . ومن السهل توضيح ذلك لأى إنسان . فان هيلين ، التي كانت تفوق كل البشر جمالا ، فضلت على أفضل الرجال (وهو زوجها ميتلاوس) من دمر كل شرف طرواده (باريس) دون أن تفكر مطلقاً في طفلها (هيرميون) ووالدها الأجزاء ، ولكن أضلها الحب فجعلها تذهب بقلبها

الكووس الذهبية كووساً خاصة بالطقوس الدينية تستعمل في المناسبات الكبيرة ، كالأواني الذهبية التي يصفها بندار وهي تستعمل في حفلات الزفاف (Ol. vii. I ff) . وأفروديت نفسها هي التي تصب الخمر ، وإسناد الوظيفة إليها شخصياً يجعلنا نعتقد أن شرب الخمر كان جزءاً من الطقوس . وهي باعتبارها إلهة للنماء ، فقد كانت ، كالإله ديونيزيوس Dionysius مرتبطة بالخمر واهب الحياة . وكانت إلهات الرشاقة تستدعى أيضاً بمثل هذه الكلمات (شذرة ٦٨) .

« أى إلهات الرشاقة ، ذوات الأذرع الوردية الطاهرة ، أقبلن ، يا بنات زيوس » وكانت ربات الفنون مرتبطة بإلهات الرشاقة ، والربط بينهما طبيعي ومعقول ، فعبادة إلهات الرشاقة تشتمل على الغناء ، وهو من اختصاص ربات الفنون ؛ ومن ثم فان ربات الفنون كانت هي الأخرى تستدعى لمثل هذه اللواتم (شذرة ١٢٩) .

« أى ربات الفنون ، أقبلن أيضاً ، واتركن (ماواكن) الذهبي » .

وهذا البيت يجمع بينها (شذرة ١٠١) .

« والآن ، أقبلن ، أى إلهات الرشاقة الرقيقات ، وأنتن أيضاً ، أى ربات الفنون الشقراوات » .

وكان يرتبط بعبادة أفروديت أيضاً حبها الصغير أدونيس Adonis . وكان روحاً من أرواح النماء ، ولد من شجرة الآس (Ovid. Met., x, 512) التي أصبحت رزاً تدل عليه . كانت القرايين التي تقدم إليه هي ثمار الخريف ، وكانت أحراض الزهور يطلق عليها اسم « حدائق أدونيس » (Plat. Phaed., 276 b) وكان أدونيس يحيا ويموت كل عام . وبالرغم من أن عبادته لم تلق رواجاً في معظم أنحاء العالم اليونانى ، إلا أنها كانت ذات أهمية كبيرة في ليسبوس . ولا بد وأن تكون سافو قد كتبت عن عبادته بعض الأغنيات ، فان ديوسكورديس Dioscorides قد كتب يحدثنا عنها بأنها كانت « تشارك أفروديت في نحيبها ،

مقامها الجديد وهي تتذكر أنتيس بشوق وحين
(شذرة ٨٦) .

« أنتيس ، إن عزيزتنا أناكتوريا تسكن بعيداً)
في سارديس ، ولكنها كثيراً ما تبعث بأفكارها إلى
هنا ، وتفكر في الأيام التي تكنا نحياها معاً ، عندما كنت
بالنسبة لها إلهة مجيدة ، وأغانيك أحب الأغاني إليها .
ولكنها الآن تضيء بين نساء ليديا ، كالقمر بعد غروب
الشمس ، كالقمر ذى الأصابع الوردية وهن من حولها
كالنجوم ، كالقمر الذي ينشر ضوءه عبر البحر
الأجاج وفوق الحقول المزهرة أيضاً ، بينما الظل ينزل
جميلاً على الأرض ، والورود تحيا من جديد وكذلك
الحشائش الرقيقة والنباتات المزدهرة . وهي غالباً
ما تروح وتغدو عندما تتذكر حبا لأنتيس الدمثة ،
ويتحرق قلبها الرقيق بلا شك شوقاً وحنيناً ، وتصرخ
بنا عالياً أن نذهب إليها هناك ، وما تود أن تقوله ،
فنحن نعرفه جيداً ، أنا وأنت ؛ لأن الليل ، الذي تنسج
خيوطه الأزهار والذي يملك آذاناً كثيرة ، يطلعنا على
كل ما بيننا . »

إن المناسبة التي أثارَت سافو لكتابة هذه الأبيات
يمكن تخمينها على النحو التالي : ترى سافو القمر يطلع
من البحر عبر ميثليني ويجعل ليديا على مرأى البصر ،
الأمر الذي يذكرها بصديقها التي تعيش في سارديس
تحت ضوء نفس القمر . ومشاعرها هنا ليست مشاعر
الحب بقدر ما هي مشاعر التعاطف والمشاركة الوجدانية
فقد أثارها الحب الذي تكنه الفتاة البعيدة لأنتيس .
وتدخل سافو في الموضوع مباشرة حتى لتبدو القصيدة
وكأنها رد فعل لحبا هي . وطبيعة عاطفتها تظهر من
التشبيه بالقمر ، فهذا التشبيه بين كم كانت سافو تجد
المتعة في جمال الفتاة ، وتصويرها لرفعة شأنها بين الفتيات
الليديات بالقمر بين النجوم تصوير رائع ، لا لأنه
تصوير مناسب وجميل فحسب ، بل لأنه تصوير فرضه
عليها القمر نفسه وهو يتلأ لأفوقها مضيئاً في كبد السماء ،
إن الفتاة التي تشير إليها هذه القصيدة هي أنتيس ،
والفتاة الأخرى التي رحلت إلى ليديا هي أناكتوريا .

بعيداً ، فن السهل دائماً أن تسأل المرأة ، عندما تفكر
باستخفاف فيما هو قريب وعزيز . وهذا ما يجعلني
أتذكر الآن أناكتوريا ، التي رحلت هنا ، والتي
أفضل سماع وقع خطاها الجميل وروية وجهها المشرق
الوضاء ، على جميع عجلات ليديا الحربية ومشاتها
المسلحين . إنني أعلم علم اليقين أن المرء لا يستطيع أن
يحصل على الأكل ، ولكن أن يرغب فيما يشاركه فيه
غيره ، أفضل من أن ينساه . »

هذه القصيدة تلقي ضوءاً على عواطف سافو
وفها ، فهي قصيدة عن الحب ذاته . وما تريده سافو
هو حضور أناكتوريا الذاتي ؛ والجملة التي تعبر فيها
عن هذه الرغبة هي بيت القصيد ، وعلى الرغم من
بساطة هذه الجملة ، إلا أن الكلمات فيها قد أحسن
اختيارها ، حتى إن كلا منها يعطي التأثير المطلوب في
الحال . ولهذا القصيدة أهمية أخرى ، فهي تلقي ضوءاً
على رأى سافو في الحب من خلال ذكر هيلين . واسم
هيلين بالذات له أهمية كبيرة ، لأنه يفسر طبيعة الحب .
إن سافو لم تهتم هيلين ، كما تهتم الكايوس عندما
قارنها بثيتيس Thetis (شذرة ١٢٠ من الكايوس
في Lyra Graeca) ، ولم تمتدحها ، ولكنها تقرر
أنها فعلت ما فعلت بسبب الحب وحده . وسافو في
موقفها هذا تجاه هيلين أقرب إلى موقف هومر من أي
شاعر آخر من شعراء الإغريق ، والفرق بينهما أن فهم
هومر لمشكلة هيلين يأتي من الخارج ، أما فهم سافو لها
فن الداخل . فسافو تفهم هيلين ، لأنها هي نفسها
تحب ، وتعلم جيداً أن المرأة عندما تحب ، فإن كل
شيء ، فيما عدا الحب ، لا يعنى شيئاً بالنسبة لها .

إن الدور الذي لعبه الليديون في هذه القصيدة بين
لنا إلى أي مدى كانت ليسبوس قريبة من آسيا العظيمة
القوية ، وتقدير هذه القوة حق قدرها بمدنا محل لفهم
قصيدة أخرى تتعلق بفتاة أخرى من تلميذات سافو
وصديقاتها وهي أنتيس ، الموقف هنا واضح تمام
الوضوح . فتاة ما قد رحلت إلى سارديس Sardis
في ليديا Lydia ، وسافو تفكر فيها وهي في

وتلخص فيها حبها القديم لأنتيس . وفي هذه القصيدة بيت من أجمل ما كتب في هذا المعنى (شذرة ٤٨) :
« أى أنتيس ، كنت أحبك ذات يوم ، منذ أمد بعيد » .

وهي في نفس القصيدة تصفها عندما رأتها لأول مرة ، وكانت سافو ما تزال في ريعان صباها ، بأنها كانت صغيرة غير مكتملة .

« وعندما كان شباني في أوج ازدهاره ، كنت في نظري مجرد طفلة صغيرة غير مكتملة » .

وهناك بيتان في نفس الوزن ، وربما كانا من نفس القصيدة ، يشيران إلى قصة الحب القديم بينهما (شذرة ٨٩) .

« لقد أحسنت صنعاً إذ أتيت ، فقد كنت في شوق إليك ، فأنت تشعلين قلبي غراماً بك » .

فهذه الأبيات المتناثرة تشير إلى قصة عاطفية ، فان سافو وهي في ريعان شبابها ترى أنتيس ، ولا تأبه لها في أول الأمر ، ولكنها تقع في حبها ، وتبادلها أنتيس العاطفة ، ثم ترحل عنها إلى أندروميديا ، فتغضب سافو وينكسر قلبها إلى حد كبير .

هذه الحادثة تكشف لنا عن مشاعر سافو نحو فتيات جماعتها . ومثل هذه العلاقة كانت تصل إلى ذروتها عندما ترحل عنها إحدى الفتيات إلى بيت

الزوجية . ففي هذه الحالة كان يتنازع سافو عاملان .

الأول مشاعرها الخاصة لانفصال إحدى صديقاتها عنها ، وكانت هذه المشاعر تلهمها كتابة قصيدة تعبر فيها عن أحاسيسها الخاصة . ولكن كان عليها أيضاً أن تكتب أغنية الزفاف ، وكانت هذه تصور بروح مختلفة تماماً . وأحسن ما يصور الحالة الأولى قصيدة مشهورة ،

كتبها سافو في حفل عرس ، عندما رأت العروس تجلس بالقرب من عريسها ، وهذه القصيدة ترينا كيف أن سافو أحست الموقف إحساساً عميقاً (شذرة ٢) .

« يبدو لي أن هذا الرجل ند للآلهة ، إذ يجلس أمامك ويستمتع ، وهو قريب منك ، إلى نغمت صوتك

وهناك أشعار أخرى جاء فيها ذكر أنتيس ، والدليل على حب سافو لها هو أشعارها . فبعد كتابة القصيدة السابقة ، تركت أنتيس سافو وانضمت إلى جماعة أندروميديا Andromeda منافسة سافو . فكتبت سافو تقول (شذرة ٨١) .

« انظري ، إن الحب ، الحلو المر ، مفكك الأعضاء ، ذلك المخلوق الذي لا يقهر ، يعصف في ، بينما أصبحت أنت ، يا أنتيس ، تكرهين التفكير في ، وهربت إلى أندروميديا بدلا مني » .

كانت أندروميديا مثل سافو ترأس جماعة من الفتيات . وكان الخروج من جماعة إلى أخرى يعتبر خيانة شخصية . وقد قارن أحد النقاد (Max. Tyr. 24 [18])

علاقة سافو مع أندروميديا بعلاقة سقراط مع السفسطائيين بروديكوس Prodicus وجورجياس Gorgias وبروتاجوراس Protagoras ، وقال

« كانت في بعض الأحيان تخطنهن ، وأحيانا أخرى تدحض دعواهن أو تتجاهلهن ، تماماً كما كان يفعل سقراط » . وقد وصلنا من أعمال سافو مثلان يوضحان

هذه العلاقة . في الأول تخاطب سافو فتاة معجبة ، بأندروميديا وتوضح لها أخطاء منافستها (شذرة ٩٨)

« أى امرأة ريفية في ملابس ريفية تلك التي تلهب صدرك ، مع أنها لا تعرف كيف تسدل رداءها إلى ما فوق خلاخيل أقدامها » .

وفي مناسبة أخرى توجه خطابها إلى أندروميديا في سخرية مريرة (شذرة ١٢١) :

« إنى أتشرف بتقديم أزكى تحياتي إلى ابنة الملوك الكثيرين » .

كما جاء ذكر أندروميديا في بيت آخر (شذرة ١٢٥) « لقد حصلت أندروميديا على صفقة راححة » .

وليس هناك ما يشير إلى طبيعة هذه الصفقة ، وإن كان من المحتمل أن يكون المقصود بها ذهاب أنتيس إلى جماعتها . وإذا كانت سافو تعامل منافستها أندروميديا

بطريقة عاجلة ومرتبلة ، فإنها تعامل عدم وفاء أنتيس لها بمجدية كبيرة . ويبدو أن سافو قد كتبت قصيدة

تكاد تقضى عليها ، حتى إن الموت لا يبدو أمراً حتمياً فحسب ، بل ومرغوب فيه أيضاً . ولا بد أنها كانت في مثل هذه الحالة عندما قالت : « وإنى لتسيطر على رغبة ملحة في أن أموت ، وأرى ضفاف نهر أخيرون التي تغطيها أزهار اللوتس الندية » . (شذرة ٨٥ ، ١٠ - ١٢) وعندما قالت « إنى حقاً لؤد أن أموت » (شذرة ٨٣ ، ٢) .

وإذا كانت هذه مشاعر سافو عندما رأت إحدى فتياتها الأثيرات تجلس بجوار عريسها ، فإن الشذرات الباقية لنا من أهازيج العرس *πρωγάμια* التي كتبها تؤكد لنا أنها كانت تستطيع أن تكبح جماح عاطفتها الشخصية ، وتكتب أغنيات في غاية الجمال والشفافية لتغنى في حفل الزفاف التقليدي .

كانت لأهازيج العرس أنواع مختلفة تبعاً لزمان ومكان الحفل الذي ستغنى فيه . وكانت حفلات العرس تبدأ عادة بوليمة العرس ، التي كان يحضرها العريس وعروسه ؛ وكانت هذه الوليمة تقام بمنزل والد أحدهما ، وكان يمكن للسيدات الحضور . وكان لهذه الوليمة طابع ديني ، إذ كان والد العروس يقدم القرابين لآلهة الزواج ومن بينها الإلهة أفروديت ، ومعرفة سافو لهذه الطقوس تتضح من وصفها لإحدى هذه الولائم في الأولب (شذرة ١٤٦) .

« كان هناك وعاء من الأمبروزيا المخلوطة معداً من قبل ، وقد أخذ هيرميس لإبريق الخمر وصب للآلهة . وعندئذ رفع الجميع أقداحهم ، وأراقوا قرباناً من الخمر وتمنوا للعريس أطيب التمنيات جميعها » .
وأيا كان العريس والعروس المقام لهما هذا الحفل في الأولب ، فلا شك أنه صورة طبق الأصل لحفل على ظهر الأرض . وليس من الواضح أن الأغنيات كانت تغنى عادة أثناء هذه الولائم ، وليس في أغنيات سافو الخاصة بحفلات الزواج ما يشير إلى ذلك بصورة واضحة . ويبدو أنها كانت تبدأ في نهاية الوليمة . وكان

العذبة وضحكائك الساحرة ، التي تجعل قلبي يحنق بين جوانحي . فعندما أنظر إليك ، أي بروخيا ، تعوزني الألفاظ أو تخونني تماماً ، وينعقد لساني عن الكلام ، وفي الحال تسرى في بدني نار هادئة ، وتغيم عيناى ، وتظن أذناى ، ويتصبب منى العرق ، وتنتاب جسدى كله رعدة ، وأصبح شاحبة كالعشب ، حتى لأبدو وقد صرت قاب قوسين أو أدنى من الموت » .

لا شك أن المناسبة التي أثارَت سافو لكتابة هذه الأبيات هي حفل عرس ، لا لأن كلمة *ἄγαπη* تحمل معنى « زوج » ، ولكن لأنه في حفلة الزفاف فحسب يمكن للفتاة أن تجلس بجوار الرجل وتتحدث معه في حرية . ومن المحتمل أن تكون الفتاة محجبة والحفل مقام في منزل أبيها . ووجود سافو بالحفل يرجع إلى أنها أستاذة الفتاة ورئيسة الجوقة التي ستغنى أغنية الزفاف . ولكن فيما يخص مشاعر سافو الخاصة ، فإنها منفصلة عن واجبها حيال العروس ، فهي تشعر بالخسارة التي حاقت بها كنتيجة حتمية لهذا الزواج . والآثار الناجمة عن عواطفها المتأججة أثار فيزيقية ، كما هو واضح من ألفاظ القصيدة ، وقد جاءت مثل هذه التعبيرات في شذرات أخرى لسافو . فهي تصف الحب (شذرة ٢٨) بأنه « مسبب الألم ، ناسج خيوط الأفاصيص » (قارن شذرة ٤٢ ، ٧ - ٨) . وفي مكان آخر تقول (شذرة ٥٤) :

« أما بالنسبة لى ، فإن الحب يعصف بروحي ، كما تعصف ريح عاتية بشجرة عالية » .
وفي نهاية القصيدة تقول بأنها موشكة على الموت . والتعبير طبيعى وصادق بعد الأعراض الفيزيكية التي انتابتها . إن الرغبة في الموت تعبير شائع بين الشعراء منذ العصر الهلنسى ؛ وبالرغم من أنه قائم على عواطف حقيقية ، إلا أنه أصبح « كليشيه » ينقصه الإخلاص الصادق . أما بالنسبة لسافو ، فإنها عندما تقول إنها تود أن تموت ، فهي تعنى ما تقول ، لأن تبايح الهوى بسبب الهجران

يبدوان أقل سعادة مما هما . ومثل هذا الفحش والصخب يرى بوضوح في أغنية الزفاف الموجودة في نهاية مسرحية «السلام» لأرستوفانيز ، ولكن هناك من أشعار سافو ما يكفي لتوضيح ذلك . كان الهزل عند سافو أقرب إلى المداعبة منه إلى الفحش . كان «البواب» شخصية هامة ، ومن ثم يستحق المداعبة بالتهكم عليه . كان على البواب أن يوصد الباب على العروسين ويمنع أصدقاء العروس من الدخول لمساعدتها ، إذا ما صاحت مستنجدة . وقد جعله ثيوكريتوس Theocritus يقول وهو يباشر عمله «الجميع بالخارج» (ἐνδοὶ πᾶσαι) ثم يوصد الباب (cf. Theoc. XV. 77) وكان هناك بالطبع بعض أفراد الجوقة من أصدقاء العريس الذين كانوا يتهمون عليه . وفي هذه الأبيات تهكم سافو من أقدام الضخمة (شذرة ١٥٤) :

« إن أقدام البواب يبلغ طولها سبعة أذرع ، ونعاله مصنوعة من جلد خمسة من الحيوان ، واشتغل بها عشرة من صانعي النعال . »

وبمثل هذه الروح المرحة تداعب العريس وتهكم على طول قامته وتقول إن السقف يجب أن يرفع عندما يدخل (شذرة ١٤٨) :

« ارفعوا السقف عالياً ، مرحباً باله الزواج Hymen ارفعوها عالياً ، أيها العمال المهرة ، مرحباً باله الزواج Hymen

فالعريس قادم وكأنه أريس ، مرحباً باله الزواج Hymen .

وهو أطول من أطول رجل ، مرحباً باله الزواج Hymen .

ومن ناحية أخرى فإنه من الطبيعي أن تمتدح سافو العروس ، وهي صديقتها ، وتبين كم هي جميلة ، وكيف أن العريس محظوظ بالزواج منها . وهنا سرعان ما يتحول موقفها من الهزل إلى الثناء . وأحسن مثال لهذا الانتقال يمكن أن يرى بوضوح من بعض الأبيات

الحفل ينتهي عندما تصل إلى منزل الزوجة الجديد عربية العروس التي كان تفلها وبجانها العريس وبالجانب الآخر الإشيبي المسمى παρανύμφιος . وقد وصف لنا لونجوس Longus ، وهو أحد الشعراء العارفين بتقاليد ليسبوس الذين قرأوا أشعار سافو ، نموذجاً ريفياً لمثل هذه الحفلات (Longus, Daph. & Ch. IV. 40) « وعندما يأتي الليل ، كان المدعوون يصحبونهما إلى مخدع الزوجية ، كان البعض يعزفون بالآلات والبعض الآخر يعزفون بالزمار ، وآخرون يحملون في أيديهم الزوانيس والمشاعل وهم يسرون في مقدمة الموكب . وعندما يصلون إلى عتبة المخدع كانت تنطلق الأغاني في نغبات جافة خشنة تشبه أصوات الفئوس والمعاول . »

والأغنية التي كانت تغنى على هذا النحو هي أغنية الزفاف الحقة (ὕμναιος) وقد ورد وصف مماثل في هومر (It. XVIII 491-496) :

« كان هناك أعراس وولائم ، وكانوا يخرجون العرائس من حجر آمن ، ويسرون بهن خلال المدينة تحت أضواء المشاعل ، وكانت أغاني العرس التي كانت تتردد إذ ذاك عظيمة ، كان الفتية الراقصون يدورون ، ومن حولهم ترتفع أصوات النايات والزامير ، وكانت كل واحدة من السيدات تقف مشدوهة عند الباب الأمامي . »

لم يصلنا من شذرات سافو ما يشير إلى هذا الموكب وإن كان بعضها يمكن ربطه باللحظات الأخيرة منه ؛ عندما يتوقف الجمع أمام مخدع العرس . وكما جعل لونجوس المحتملين بالعرس الريفي يغنون في «أنغام جافة خشنة» فقد تركت سافو في هذه الأغاني أساؤها الشاعر المعتمد ، واستخدمت أساوباً مغايراً قريباً من لغة الحوار المتداول بين الناس . ولعل السبب في وجود الصخب والتهريج وفحش القول في حفل الزفاف يرجع إلى فكرة إبعاد الحظ السيئ عن العروسين بجعلهما

التي تبدأ بهتنة العريس وتنتهي بأنشودة تتغنى فيها
بالعروس (الشذرات ١٥٥ . ١٥٦ . ١٥٨) :

« أيتها العريس السعيد ، هنيئاً لك ،

فقد تحققت لك الزواج كما تمنيت ،

وحصلت على العروس العذراء كما تمنيت ،

إن وجهها البديع يفيض رقة وعذوبة .

وأنت أيتها العروس ، إن شكلك بديع للغاية .

عينك ذات لون عسلي ، ووجهك يغمره الحب .

وقد جبتك أفروديت بالتحريف والتكريم » .

ويبدو أن مثل هذه الأغاني كانت تنهى بمثل هذه

الكلمات (شذرة ١٦٢) :

« إلى الملتقى أيتها العروس ، إلى الملتقى أيتها العريس

الموقر » .

وهناك لون آخر من أغنيات الزفاف قد لا تجد له

مثيلاً لدى شعراء الإغريق في غير أعمال سافو . ففي

إحدى الشذرات التي وصلتنا نجد حواراً بين العروس

وفتاة أخرى تمثل العذرية (شذرة ١٦٤) :

العروس : أي عذرتي ، أي عذرتي ، إلى أين

هربت وذهبت بعيداً عني ؟

العذرية : إلى حيث لن أعود إليك ثانية ، إلى حيث

لن أعود إليك ثانية » .

ومثل هذه الأغنية لا بد وأن تكون مستمدة من

الأغاني الشعبية ، وهي تذكرنا بالحوار الذي تبادل

فيه أفروديت وتابعاتها النحيب على أدونيس (شذرة

١٠٣) . ومن المحتمل أن العروس كانت تقوم بدورها

في الأغنية ، وترد عليها إحدى زميلاتهما من فتيات

سافو .

لم يلعب الرجال إلا دوراً ضئيلاً في حياة سافو ،

ومن ثم لم يأت لهم ذكر في أشعارها إلا نادراً . فقد جاء

ذكر لأخيها خاراكسوس Charaxus في بعض

الأشعار . وقد حدثنا هيرودوت (II. 135) عن القصة

التي أثارت سافو لكتابة هذه الأشعار . رحل خاراكسوس

إلى ناوكراتيس Naucratis المستعمرة اليونانية
في دلتا النيل بمصر . وهناك التقى بمحظية مشهورة يطلق
عليها اسم رودوبيس Rhodopis ووقع في غرامها ،
وصرف مبالغ طائلة من أجل تحريرها ، وعندما عاد
إلى وطنه ، عنفته أخته سافو على تصرفه هذا في إحدى
قصائدها .

كانت ناوكراتيس إحدى المراكز الهامة للتجارة
اليونانية ، ومن المحتمل أن خاراكسوس كان قد رحل

إلى هناك لأموار تتعلق بتجارة النبيذ من ليسيبيا (cf. Ath.

xiii. 596 b) . ولكن أهم ما في القصة هو الجدية والصرامة

التي قابلت بها سافو تصرف أخيها ، وإن في معارضتها

لهذا التصرف الطائش مع امرأة من هذا النوع لدلالة

أكيدة على رفعة مستوى سلوك سافو نفسها . ولعل

الاسم الذي عرفها به هيرودوت ، وهو رودوبيس ، هو

اسم الشهرة الذي كان يطلقه عليها المحبون ، والاسم الحقيقي ،

وهو ماجاء ذكره في أشعار سافو ، هو دورينخا Doricha

(cf. Stob. XVII, 808; Pap. Oxy. XV, 1800, I.

Phot. s.v 'Ροδωπίδος ἀνάθημ) . وإذا لم

تكن القصيدة التي أشار إليها هيرودوت قد وصلتنا ، فقد

وصلنا على الأقل شذرات تشير فيها سافو بعداء إلى

دورينخا . فقد جاء في إحدى الشذرات (٣٧) :

« أيتها القبرصية (أفروديت) لعل دورينخا تجدك

أكثر مرارة ، ولا تفاخر مرة ثانية بقولها إنها قد

وصات إلى الحب الذي كانت تتوق إليه نفسها » .

لقد كان يكفي سافو أن تعيد إليها دورينخا حب

أخيها لها ، وقد عبرت عن هذا الأمل بتمنيتها لدورينخا

أن تجد الحب مرأاً . ومن المحتمل أن هذه الشذرة جزء

من القصيدة التي أشار إليها أثيناينوس (xiii. 596 b)

بأن سافو عنفت فيها دورينخا لأنها نحلت وبر أخيها .

وإذا كانت سافو تستخدم في الحديث عن دورينخا

ألفاظاً قاسية ، فإنها سرعان ما تصفح عن أخيها . ولدينا

شذرة هي افتتاحية لقصيدة ترجو فيها سافو لأخيها عوداً

حميداً إلى الوطن ، وتعهده بأنها ستغفر له كل أخطائه

(شذرة ٣٦) :

لسانك لا يهفو إلى قول ما هو سيء ، فلن يملأ الحياء
عينيك ، بل ستحدث عنه محادثة .
وذلك رداً على أشعار لألكابوس يقول فيها (شذرة
١٢٤) :

« أى سافو الطاهرة ، يا ذات الحصل البنفسجية
والابتسامة العذبة ، بنفسى كلام أود لو أقوله لك ،
ولكن الحياء يمنعني » .

وربما جاء ذكر لزوجها في بعض الأشعار المفقودة
(cf. Rose, H.B. G. L. p. 96)

وبالرغم من أن الجزء الأكبر من أشعار سافو كان
يتصل بحياتها الخاصة ، إلا أن هناك بعض الشذرات
التي لا علاقة لها بها الحياة .
من هذه الشذرات :

« إن من يبدو جميلاً فهو جميل المظهر ، ولكن
الفاضل سرعان ما يكون جميلاً أيضاً » . (شذرة ٥٨)
« إن الثراء بلا فضيلة ليس رقيقاً مأمون الجانب ،
ولكنهما لو اجتمعا معاً يكونان قمة الحظ السعيد » .
(شذرة ١٠٠)

« إن الموت بلاء ، هكذا يعتقد الآلهة على الأقل ،
وإلا لكانوا قد ماتوا هم أنفسهم منذ أمد بعيد » .
(شذرة ٩١)

هذه هي سافو وهذه هي بعض الشذرات التي
وصلتنا من أعمالها التي يقال إنها كانت تملأ تسعة كتب.
ومن الواضح أنها كانت واثقة كل الثقة من نفسها
وفنها ، وقد عاشت أشعارها كل هذه القرون الطويلة
وما زالت تحمل نفس الروعة والبهجة والطرافة التي
كانت عليها وقت كتابتها لأول مرة ، ومن ثم فهي
تعتبر أعظم امرأة شاعرة أنجبها الطبيعة حتى الآن ؛ فان
ذوقها السلم ، وصدقها المتناهي في التعبير ، وخيالها
البديع ، وقوة عاطفتها ، لى مميزات وهبتها لها إلهات
الفنون وربات الرشاقة ، فجعلن منها شخصية خارقة
تفوق مستوى البشر ، ولذا نراها قد كرست معظم
حياتها وفنها لهن ، كما أن أشعارها تفوح دائماً برائحة
عبير وحيين .

« أى عرائس البحر الشقراوات ، أرجو أن تسمحوا
لأخي أن يعود سالماً ، وأن تحققوا له كل رغبات قلبه
الصادقة ، كما أرجو ، وقد زالت عنه كل أخطائه
السابقة ، أن يصبح بهجة لأصدقائه ، وخطراً على
أعدائه ، ولعل بيتنا لا يصيبه الخزي بسبب أى رجل .
كما أرجو أن يكون راغباً في أن يجعل أخته تمتلئ فخراً
به ؛ ولعله ، عندما يعود في يوم قريب ، يعمل ، وهو
في عز فرحة مواطنيه به ، على إزالة الألم المرير والكلمات
الجارحة للشعور ، التي أصر قبل رحيله أن يملأها
قلبي ؛ ولعاه يحصل ، إن أراد ، على زوجة جذيرة به
وبعقد شرعي ؛ أما أنت ، أيها الكلبة السوداء المؤذية
(والمقصود بها دورنخا بلا شك) ، فلعل سموم شرك
تذهب هباء ، وتسعين لاصطياد فريسة أخرى »
لم يقتصر احتقار سافو لدورنخا ، بل تعداها إلى
أخريات . فلدينا شذرة (٧١) يقال إنها موجهة إلى
امرأة غير متعلمة (cf. Stob. Flor. IV, 12) .

« عندما تموتن فسوف ترقدين في عالم النسيان
ولن يذكرك أحد ، لأنك لم تقوى بدور تجاه الورود
نتاج بييريا Pieria ؛ فهناك الظلام ، وفي الظلام
سوف تجوسن في منزل الموت ، وتتجولين بين أشباح
عدم القيمة لا وزن لها » .

ولهذه الأبيات أهمية خاصة ، لأنها تطلعتنا على رأى
سافو بأن الخلود الحقيقي في كتابة الشعر والأغاني ،
وهي أول من عبر عن هذا الاعتقاد . كانت سافو
تؤمن بهذا الرأى إيماناً صادقاً ، حتى إنها كتبت بفخر
ولكن ببساطة (شذرة ٧٦) :

« إنى أقول إن شخصاً ما سيتذكرنا حتى في الأيام
المقبلة » .

كما تقول أيضاً (شذرة ١١) :

« ولكنى حصلت على النجاح الحق من إلهات الفن
الشقراوات ، وعندما أموت لن أصبح نسياً منسياً » .
ومحدثنا أرسطو (Rhet. 1.9) بأن ألكابوس هو
الشخص الذي كتبت له سافو تقول (شذرة ١١٩) :
« إذا كنت ترغب فيما هو عفو ونبييل ، وإذا كان

النجوم الزاهرة في ملوك مصر والفاهرة بحال الدين أبي المحسن يوسف ابن تغري برك

بهتم
الأستاذ إبراهيم الأبياري

تمهيد

وما إن أهل القرن الرابع الهجري حتى انضمت
إلى هذه المدرسة التاريخية مدرسة أخرى تعنى بالحديث
عن خطط البلاد، وكان أول من ألف في ذلك أبو عمر
محمد بن يوسف الكندي (٣٥٠ هـ).

ومضت هاتان المدرستان المختصتان بالمدن تسعان
للكثير مع القرون اللاحقة، وكان ممن كتبوا عن مصر
في الجانب التاريخي:

١- ابن يونس عبد الرحمن بن أحمد الصديقي
(٣٤٧ هـ) وله تاريخان: أحدهما لأهل مصر، والثاني
للغرباء الواردين عليها.

٢- أبو عمر محمد بن يوسف الكندي (٣٥٠ هـ)
وله: فضائل مصر المحروسة.

٣- ابن زولاق الحسن بن إبراهيم (٣٨٧ هـ)
وله: الذيل على تاريخ الصديقي.

٤- المنجم علي بن عبد الرحمن بن أحمد بن
يونس (٣٩٩ هـ) وله: تاريخ أعيان مصر.

٥- الحضرمي أبو القاسم يحيى بن علي (٤١٦ هـ)
وله: ذيل أيضاً على تاريخ الصديقي.

٦- المسيحي عز الملك محمد بن عبد الله (٤٢٠ هـ)
وله: تاريخ مصر.

واعم علم التاريخ في نشأته نشأة الأمة العربية،
فكان حديثاً عن أنساب الناس حين كانوا قبائل مترحلة
لم تستقر الأماكن تحت أرجلها، كما كان حديثاً عن
آبائهم وآثارهم حين تشابهوا على مواقع الحيات حيث
الخصب، وحين ظهر من بينهم الأنجاد والأجداد؛
وعندما استوت لهم مدن كان حديثهم عنها يمثل التاريخ
الجامع لشئونهم الكثيرة، وشاعت عصبية الوطن
بعندما اختفت عصبية النسب وإذا هذه الأوطان
تختصها المؤرخون بكتب خاصة.

ومن أقدم ما انتهى إلينا من ذلك - أعني الحديث
عن البلدان - أخبار الحيرة لهشام بن محمد الكلبي
(٢٠٤ هـ). وقد أخذ مؤرخو كل إقليم منذ القرن
الثالث في جمع ما يتصل بتاريخ إقليمهم، فكان من
ذلك تاريخ مصر والإسكندرية للواقدي أبي عبد الله
محمد بن عمر (٢٠٧ هـ)، وأخبار مكة للأزرقي
أبي الوليد محمد بن عبد الله (٢٢٣ هـ)، ثم فتوح مصر
والمغرب لابن عبد الحكم أبي القاسم عبد الرحمن بن
عبد الله (٢٥٧ هـ).

- ٧- أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأندلسي (٥٢٩هـ) وله : الرسالة المصرية ، ذكر فيها من اجتمع بهم من أهل مصر وما شاهد من آثارها .
- ٨- ابن الصبري أبو القاسم علي بن منجب (٥٥٠هـ) وله : الإشارة إلى من نال الوزارة .
- ٩- إبراهيم بن وسيط شاه (٥٩٩هـ) وله : جواهر البحور ووقائع الدهور في أخبار الديار المصرية .
- ١٠- موفق الدين عبد اللطيف البغدادي (٦٢٩هـ) وله : أخبار مصر .
- ١١- ابن أبي طي يحيى بن حميد الحلبي (٦٣٠هـ)
- ١٢- القفطي جمال الدين علي بن يوسف (٦٤٠هـ) وله : تاريخ مصر .
- ١٣- التيفاشي أحمد بن يوسف (٦٥١هـ) وله : سجع المهليل في أخبار النيل .
- ١٤- أبو المظفر وحيد الدين منصور بن سليم الإسكندري (٦٧٤هـ) وله : تاريخ الإسكندرية .
- ١٥- ابن ميسر المصري أبو عبد الله محمد بن علي (٦٧٧هـ) وله : أخبار مصر ، وهو يعد ذيلًا على تاريخ مصر للمسبحي .
- ١٦- ابن دانيال شمس الدين أبو عبد الله محمد الخزاعي (٧١٠هـ) وله : عقود الجواهر فيمن ولى مصر
- ١٧- الأدفوي أبو الفضل جعفر بن ثعلب (٧٤٩هـ) وله : الطالع السعيد الجامع لأسماء فضلاء الصعيد .
- ١٨- ابن الدرهم الموصلی تاج الدين علي بن محمد (٧٦٢هـ) وله : الانصاف بالدليل في أوصاف النيل .
- ١٩- ابن مرزوق التلمساني شمس الدين محمد بن أحمد (٧٨١هـ) وله : أشرف الطرف للملك الأشرف .
- ٢٠- ابن الطولوني حسن بن حصين بن أحمد (٨٣٢هـ) وله : النزهة السنية في أخبار الخلفاء والملوك المصرية .
- ٢١- المقرئ تقي الدين أحمد بن علي (٨٤٥هـ) وله : عقد الجواهر الأسفاط من أخبار مدينة الفسطاط ، والسلوك .
- ٢٢- ابن حجر العسقلاني أحمد بن علي (٨٥٢هـ) وله : الإعلام بمن ولى مصر في الإسلام .
- ٢٣- الباعوني أبو الفضل محمد بن أحمد (٨٧١هـ) وله : فرائد السلوك في تاريخ الخلفاء والملوك .
- ٢٤- ابن تغري بردي جمال الدين يوسف (٨٧٤هـ) وله : النجوم الزاهرة ، المنى سنحدثك عنه وعن كتابه .
- ٢٥- السيوطي جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (٩١١هـ) وله : حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، وتحفة الكرام بأخبار الأهرام .
- ٢٦- الباعوني محمد بن يوسف (٩١٦هـ) وله : الإشارة الوافية .
- ٢٧- ابن إياس محمد بن أحمد (٩٣٠هـ) وله : بدائع الزهور في وقائع الدهور .
- وتتالي من بعد ذلك في هذا الميدان مؤلفون بأساليب تقارب وتباعده من المنهج الذي بدأه السابقون .
- أما عن مدرسة الخطط فقد بدأها - كما قدمت - الكندي (٣٥٠هـ) ثم جاء من بعده :
- ١- ابن زولاق الحسن بن إبراهيم بن الحسين (٣٨٧هـ) وعنه يقول ابن خلكان : وله كتاب في خطط مصر استقصى فيه .
- ٢- القضاعي أبو عبد الله محمد بن سلامة (٤٥٤هـ) وله : المختار في ذكر الخطط والآثار .
- ٣- أبو عبد الله محمد بن بركات النحوي (٥٢٠هـ) وهو تلميذ القضاعي . وقد ذكره حاجي خليفة فيمن كتب في خطط مصر ولم يذكر اسم مؤلفه .
- ٤- الشريف محمد بن إسماعيل الجواني ، وله : النقط لمعجم ما أشكل من الخطط ، قال عنه حاجي خليفة : وقد نبه فيه على معالم قد دثرت .

٥ - ابن نشوان محي الدين عبد الله بن عبد القاهر (٨٦٩٢ هـ) وله : الروضة النيرة الزاهرة والخطط المصرية القاهرة .

٦ - ابن المتوج تاج الدين محمد بن عبد الوهاب (٨٧٣٠ هـ) وله : إيقاظ المنفعل وإيعاظ المتوسل ، بين فيه أحوال مصر وخطتها إلى سنة ٧٢٥ هـ .

٧ - المقرئ تقي الدين أحمد بن عبد القادر (٨٤٥ هـ) وله : المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار .

٨ - علي مبارك (١٣١١ هـ) وله : الخطط التوفيقية .

ابن تغرى بردى

بالقرب من مدرسة السلطان حسن (حى القلعة الآن) وفي دار كانت للأمير سنجك اليوسفى ، وفي حلود سنة (٨١٢ هـ) كان مولد مؤلفنا يوسف بن الأمير تغرى بردى .

على هذا تلميذه أحمد بن حسين التركمانى ، المعروف بالمرجى ، فى ترجمته للمؤلف بأخر كتاب المنهل الصافى . ويشاركه هذا الرأى ابن العماد الحنبلى فى كتابه شذرات الذهب عند الكلام على حوادث سنة (٨٧٤ هـ) ، وابن إياس فى تاريخه .

ومخالفهم السخاوى فى كتابه الضوء اللامع فيقول : « ولد فى شوال تحقياً سنة ثلاث عشرة وثمانمائة تقريباً » ويعيننا أن نقول إن الذى ذكره تلميذه التركمانى كان نقلاً عن المؤلف نفسه ، فهو يقول : سأله عن مولده فقال : مولدى بالقاهرة ... فى حلود سنة اثنتى عشرة وثمانمائة تقريباً ...

وكان أبوه تغرى بردى مملوكاً رومياً جميل الطلعة اشتراه السلطان برقوق وجعله من مماليكه ، وحين شب أعتقه وضمه إلى إحدى فرق المماليك السلطانية .

وبعد أن توفى برقوق وتولى ابنه فرج بن برقوق الأمر مكانه ، نبه شأن تغرى بردى فتولى نيابة دمشق ، إلى أن كان دخول تيمور لى الشام وانهمز فرج ابن برقوق بجيوشه أمامه ورجوع تغرى بردى معه . ثم عاد تغرى بردى إلى نيابة دمشق للمرة الثانية بعد خروج التتار عن الشام ، غير أنه ما لبث أن آهم بالخيانة العظمى ، فهرب إلى التركمان وبقي هناك إلى أن عفا عنه السلطان ، وتزوج من كبرى بناته فاطمة ولأنه نيابة دمشق للمرة الثالثة ، فبقي عليها إلى أن وافته منيته سنة ٨١٤ هـ .

وحيث ترك هذا الأب دنياه خلف من ورائه أبناء ستة - كان أبو المحاسن أصغرهم ، وكان عندها فى الثانية من عمره - وبنات أربعاً منهن : خوند فاطمة ، زوج السلطان فرج ، وبيرم ، وكانت زوجة لقاضى القضاة ناصر الدين بن النديم الحنفى ، وبعد وفاته تزوجت قاضى القضاة جلال الدين البلقينى الشافعى .

ونشأ رجلنا أبو المحاسن يتما ، ذاق اليم مبكراً ، فقد توفى أبوه وهو فى الثانية من عمره كما مر بك ، فتولى تربيته زوج أخته بيرم قاضى القضاة ناصر الدين محمد بن النديم إلى أن مات ابن النديم سنة تسع عشرة وثمانمائة ، فتولى تربيته الزوج الثانى لبيرم وهو قاضى القضاة جلال الدين عبد الرحمن البلقينى الشافعى ، فأخذ فى تحفيظه القرآن الكريم ، وما إن أتم حفظه حتى كان الفتى قد كبر وترعرع واستعد للتلقى والتعلم ، فحفظ مختصر القدورى فى فروع الحنفية ومضى يستزيد فى دراسة المذهب الحنفى ، وهو منهج زوج الأخت الراحل ابن النديم ، ولم يلتفت للمذهب الشافعى وهو مذهب زوج أخته البلقينى ، فتفقه بالشيخ شمس الدين محمد الرومى ، وبقاضى القضاة بهاء الدين أبى البقاء الحنفى قاضى مكة ، وبقاضى القضاة بدر الدين محمود العيى الحنفى ، ودفعه ميله إلى المذهب ألا يأخذ النحو وغيره من علوم أخرى إلا عن أحناف إن وجد ، فأخذ النحو عن تقي الدين الششمسى الحنفى ، وقرأ

إياس ، والسيوطي وعبد الباسط بن خليل الحنفى ،
وابن الطولوني حسن ، وابن زنبيل أحمد الرّمّال .
هذه العصر الحافل بالمؤرخين والكتّاب التاريخيّة
هو الذى أظّل أبا المحاسن ، وقد عاش أبو المحاسن بين
أجلتهم فلقد عاصر المقرئى والعينى وابن حجر وعاصره
ابن الصيرفى والسخاوى وابن لياس .
وحيث قبض الله عليه المقرئى ثم العينى أصبحت
زعامة التاريخ فى مصر لأبي المحاسن .

مؤلفاته

١ - المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى . وهو يضم
تراجم الأعيان والناهبين من أوائل الدولة التركية من
المعز أيلك التركمانى إلى زمن المؤلف . وقد أراد به مؤلفه
أن يجعله ذيلًا للوافى ، تأليف الصفاى . وقد أخذت
دار الكتب المصرية فى طبعه وتولته عنها دار التأليف
والترجمة .

٢ - الدليل الشافى على المنهل الصافى ، وهو مختصر
للمنهل الصافى ، ومنه مصورة بمعهد المخطوطات بجامعة
الدول العربية .

٣ - مورد اللطافة فى ذكر من ولى السلطنة
والخلافة . اقتصر فيه على ذكر الخلفاء والسلاطين ،
وهو اختصار للدليل الشافى . ومنه مصورة بمعهد
المخطوطات بجامعة الدول العربية .

٤ - منهل الظرافة لذيل مورد اللطافة . ويشمل
أسماء أمراء مصر إلى سنة ٨٨٤ هـ ، ومنه نسخة بمكتبة
برلين .

٥ - حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور :
جعله مؤلفه ذيلًا لكتاب السلوك للمقرئى فبدأه من
حيث انتهى ، أى من سنة ٨٥٦ هـ ، وقد خالف
المقرئى فى طريقته فأطال فى التراجم إلا ما جاء ذكره
فى كتابه المنهل الصافى . ومنه مصورة بمعهد المخطوطات
بجامعة الدول العربية .

المقامات الحريرية على قوام الدين محمد بن محمد
الحنفى ، وأخذ البديع والأدبيات عن شهاب الدين
أحمد بن عمر شاه الدمشقى الحنفى .

وكانت له ملازمة لمشايخ عصره وإفادة من أديهم
ومن علمهم مثل : شهاب الدين أحمد بن حجر ،
وقاضى القضاة جلال الدين أبى السعادات بن ظهيرة
قاضى مكة ، والعلامة بدر الدين بن العليف ، وقطب
الدين أبى الخير بن عبد القوى ، وكان هذان الأخيران
شاعرى مكة فأخذ عنهما أبو المحاسن الكثير من شعرهما
وتأدب بأديهما ، وكانت له غير هذا سماعات كثيرة على
مشايخ كثيرين يخاف أن ننقل بذكر أسمائهم .

ثم حُبب إليه علم التاريخ فلأزم مؤرخى عصره
مثل قاضى القضاة بدر الدين محمود العينى ، والشيخ
تقى الدين المقرئى .

وكان له ولع بالفروسية فأجاد فنونها ، كلعب
الرمح ورمى النشاب ولعب الكرة ، كما حذق فنون
النغم والضروب والإيقاع وفاق فى ذلك أهل زمانه .

وكان إلى هذا كله ورعاً دينياً عفيفاً مع حسن محاضرة
ولطف منادمة وحشمة زائدة ، وحياء كثير وميل
إلى الخير ومحبة لأهل العلم والفضل والصلاح .

وهذه الحياة الجامعة بصّرت أبا المحاسن بأن يشارك
فى أمور كثيرة وأن يخالط فئات مختلفة ، وحيث أخذ
فى التأريخ استقامت له من تلك الحصيلة الكبيرة مادة
غزيرة ومكنته هذه المنافع المختلفة من أن يسلك
سبلاً متنوعة :

ولقد كان هذا القرن التاسع الهجرى من أهم القرون
التاريخية ، فلقد أظّل مع أبى المحاسن جملة من مشهورى
المؤرخين فى مصر ، منهم من نشأ فيها ومنهم من ألم بها
مثل ابن خلدون والمقرئى وابن حجر والعينى وابن
عرب شاه و خليل بن شاهين والخالدى بهاء الدين بن
محمد العمري ، وابن الصدى ، والسخاوى ، وابن

٦- نزهة الرأى فى التاريخ . وهو تاريخ متصل على السنين والشهور والأيام وفى مجلدات عدة ، منها الجزء التاسع فى مكتبة أكسفورد . ويضم حوادث السنين من ٦٧٨ - ٧٤٧ هـ .

٧- البحر الزاخر فى علم الأوائل والأواخر . مرتب على السنين . ومنه جزء صغير بالمكتبة الأهلية بباريس يحوى حوادث السنين من ٣٢ - ٧٢ هـ .

٨- منشأ اللطافة فى ذكر من ولى الخلافة . يؤرخ لمصر من أقدم أزمانها إلى سنة ٧١٩ هـ . ومنه نسخة بالمكتبة الأهلية بباريس .

٩- نزهة الألباب فى اختلاف الأسماء والألقاب .

١٠- حلية الصفات فى الأسماء والصناعات ، مرتب على الحروف يشتمل على مقاطيع وتواريخ وأدبيات .

١١- البشارة فى تكلمة الإشارة ، وهو ذيل على كتاب الإشارة للحافظ الذهبى .

١٢- الانتصار للسان التتار ، وهو فى معانى اللغة التركيبية .

١٣- كتاب فى الرياضيات والموسيقى .

١٤- السكر الفاضح والطرر الفائح ، فى التصوف ، ومنه نسخة بمكتبة الإسكوريال . ثم كتابه :

١٥- النجوم الزاهرة .

وهو من أهم ما ألف أبو المحاسن ، يؤرخ فيه لمصر منذ الفتح الإسلامى إلى الدولة الأشرفية سنة ٥٨٧ هـ مع استطرادات كثيرة فى أخبار البلاد المحاورة ، وهو مرتب على السنين وفى آخر كل سنة تراجم من مات فيها وزيادة النيل ونقصانه . . يقول ابن تغرى بردى فى خطبة هذا الكتاب :

«أما بعد فلما كان لمصر ميزة على كل بلد بخدمة الحرمين الشريفين ، أحببت أن أجعل تاريخاً للملكها مستوعباً من غير ميسن ، فحملنى ذلك على تأليف هذا الكتاب وإنشائه ، وقمت بتصنيفه وأعبائه ، واستفتحت

بفتح مصر وما وقع لهم فى المسالك ومن حضرها من الصحابة ومن كان المتولى لذلك ، وعلى أى وجه فتحت : صلح أم عنوة من أصحابها ، وأجمع فى ذلك أقوال من اختلف من المؤرخين وأهل الأخبار وأربابها ، وذلك بعد اتصال سندي إلى من ولى عنه منهم رواية ، ليجمع الواقف عليه بين صحة النقل والدراية ، وأطلق عنان القلم فيما جاء فى فضلها وذكرها من الكتاب العزيز ، وما ورد فى حقها من الأحاديث وما اختصت به من المحاسن فصار لها على غيرها بذلك التمييز ، ثم أذكر من ولىها من يوم فتحت وما وقع فى دولته من العجب ، وأحداً بعد واحد لا أقدم أحداً منهم على أحد باسم ولا كنية ولا لقب ، ثم أذكر أيضاً فى كل ترجمة ما أحدث صاحبها فى أيام ولايته من الأمور ، وما جده من القواعد والوظائف والولايات فى مدى الدهور ، ولا أقصر على ذلك ، بل أستطرد إلى ذكر ما بنى فيها من المباني الزاهرة ، كالميادين والجوامع ومقياس النيل وعمارة القاهرة ، أولاً بأول أذكره فى يوم مبناه وفى زمان سلطانه ، مستوعباً لهذا المعنى ضابطاً لشأنه ، على أنى أذكر من توفى من الأعيان فى دولة كل خليفة وسلطان باقتصار ، بعد فراغ ترجمة المقصود من الملوك مع ذكر بعض الحوادث فى مدة ولاية المذكور فى أما قطر من الأقطار ، وأبدأ فيه بعد التعريف بأحوال مصر بولاية عمرو بن العاص فى المملكة الإسلامية ، ثم ملك بعد ملك كل واحد على حده ، وما وقع فى أيامه إلى الدولة الأشرفية الإبنالية ، وسميته :

«النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة» .

والله الموفق والمنان ، وبالله المستعان .

ويقال إن الصحبة التى كانت بين المؤلف والأمير محمد بن جقمق هى التى حملته على أن يأخذ فى تأليف هذا التاريخ ، وكان فى نيته أن يختتمه بحكمة غير أن المنية عاجلت ابن جقمق قبل أن يأخذ المؤلف فى تأليف هذا

التاريخ الكبير ، فلقد كانت وفاة ابن جقمق نحواً من سنة ٨٣٢ هـ .

ولما فتح السلطان سليم العثماني مصر ووقع له هذا الكتاب أمر بنقله إلى التركية فنقله شمس الدين أحمد بن سليمان بن كمال باشا قاضي العسكر بالأناضول يومئذ . ويقول شمس الدين ساهي في كتابه قاموس الأعلام التركي أنه ترجم إلى اللغة اللاتينية وإلى لغات أوربية أخرى .

وقد ذكر حاجي خليفة أن المؤلف قد لخص هذا الكتاب وسماه « الكواكب الباهرة في النجوم الزاهرة » وقال : وهو مجلد أوله الحمد لله الذي زين السماء الدنيا بالنجوم الزاهرة . . . الخ . ثم قال : ذكر أنه اختصره حذراً من أن يختصره غيره على تبويبه وفصوله واقتدى في ذلك بجماعة من العلماء كالذهبي والمقرئزي ، فإن الذهبي اختصر تاريخ الإسلام بسير النبلاء ، ثم اختصر سير النبلاء بالعبر ، ثم اختصر العبر بالإشارة إلى وفيات الأعيان .

وقد اهتم بنشر كتاب النجوم الزاهرة المستشرقون منذ زمن بعيد ، فأخرج منه المستشرق الهولندي جونيل مجلدين كبيرين في أربعة أجزاء مع مقدمة وملاحظات باللغة اللاتينية طبعت بمطبعة بريل في مدينة ليدن من سنة ١٨٥١ - ١٨٥٥ م .

ويشمل المجلد الأول السنين من ٢٠ - ٢٥٣ ، والثاني ٢٥٤ - ٣٦٥ هـ

كما أخرج المستشرق الأمريكي وليم بويزر منه عشرة مجلدات مع مقدمة باللغة الإنجليزية وقد طبعت بكالفورنيا من سنة ١٩٠٩ - ١٩٢٩ وتشتمل على السنين من ٣٦٥ - ٥٦٦ ، ومن سنة ٨٠١ - ٨٧٢ هـ . ومن هذا نرى أن الجزء الخاص بالسنين من ٥٦٧ - ٨٠٠ ، لم يخرج . وقد أخذت دار الكتب المصرية في طبع هذا الكتاب كله طبعة محققة فصورت للنسخة الخطية المحفوظة منه بمكتبة أياصوفيا وقد

أصدرت الجزء الأول سنة ١٩٢٧ وينتهي بسنة ١٤٣ هـ ومضت تخرجه مع الأعوام أجزاء كل جزء يضم حقبة من السنين - وقد ذيل كل جزء بفهارس واسعة مختلفة وقد انتهت إلى الجزء الرابع عشر .

ثم تولت دار التأليف والترجمة بوزارة الثقافة الأجزاء الباقية ، وسوف تخرج قريباً .

وقد أعادت دار التأليف طبع الأجزاء الأولى التي طبعت في دار الكتب واقتطعت منها الفهارس لتضمها كلها معاً في آخر الكتاب بعد تمام طبعه . وهذا شيء مما جاء في كتاب النجوم الزاهرة عن ولاية الظافر :

ذكر ولاية الظافر على مصر

الظافر بالله أبو منصور إسماعيل بن الحافظ لدين الله أبي الميمون عبد المجيد بن الأمير محمد ، ابن الخليفة المستنصر معد بن الظاهر على بن الحاكم منصور بن العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله معد ، التاسع من خلفاء مصر من بني عبيد ، والثاني عشر منهم ممن ولي من أجداده خلفاء المغرب .

بويج بالخلافة بعد موت أبيه الحافظ في جهادى الآخرة سنة أربع وأربعين وخمسة ، وهو ابن سبع عشرة سنة وأشهر ، لأن مولده في يوم الأحد منتصف شهر ربيع الآخر سنة سبع وعشرين وخمسة . وأمه أم ولد تدعى ست الوفاء ، وقيل : ست المنى .

قال العلامة شمس الدين أبو المظفر يوسف بن قزأوغلى سبط ابن الجوزي في تاريخه مرآة الزمان - بعد أن ساه يوسف ، والصواب ما قلناه أنه إسماعيل - قال : « وكانت أيامه مضطربة لحدائثة سنه واشتغاله باللهو ، وكان عباس الصنهاجي لما قتل ابن سلاور وزير له واستولى عليه . وكان له ولد اسمه نصر ، فأطمع نفسه في الأمر وأراد قتل أبيه ، ودس إليه سماً ليقتله ، فعلم أبوه واحترز وأراد أن يقبض عليه فما قدر ، ومنعه

والجامع الظافري هو المعروف الآن بجامع الفاكهانيين
على الشارع الأعظم بالقرب من حارة الديلم .

وقال ابن القلانسي : « إن الظافر إنما قتله أخواه

يوسف وجبريل وابن عمهما صالح بن الحسن . »
قلت : وهذا القول يؤيده قول ما نقله أبو المظفر من
أن عباساً قتل أخوى الظافر وابن عمه صبوا (أعني
لما بلغه قتلهم للظافر قتلهم به) غير أن جمهور المؤرخين
اتفقوا على أن قاتل الظافر نصر بن عباس المقدم ذكره .

قال : وكان الظافر قد ركن إليهم (يعني أخويه
وابن عمه) وأنس بهم في وقت مسراته . فاتفقوا عليه

واغتالوه . وذلك في يوم الخميس سلخ صفر . وحضر
العادل عباس الوزير وابنه ناصر الدين نصر وجماعة

(من) الأمراء والمؤمنين (للسلام) على الرسم . فقيل
لهم : إن أمير المؤمنين ملثا الجسم . فطلبوا الدخول
إليه فنعوا . فألحوا في الدخول بسبب العيادة فلم يمكنوا .

فهمجوا ودخلوا القصر وانكشف أمره . فقتلوا الثلاثة
وأقاموا ولده عيسى وهو ابن ثلاث سنوات . ولقبوه

بالقائز بنصر الله وبايعوه . وعباس الوزير إليه تدبير
الأمر . ثم ورد الخبر بأن طلائع بن رزيك فارس
المسلمين قد امتنع من ذلك وجمع وحشد وقصد

القاهرة . وكان من أكابر الأمراء . وعلم عباس أنه
لا طاقة له به . فجمع أمراءه وأسبابه وأهله وخرج

من القاهرة فلما قرب من عسقلان وغزة خرج عليه
جماعة من خيالة الفرنج . فاغتر بكثرة من معه . فلما

حمل عليهم قتل أكثر أصحابه وانهمزوا . فانهزم هو
وابنه الصغير وأسر ابنه الكبير الذي قتل ابن سلاز مع

ولده وحرمة وماله وكراعه . وصار الجميع للفرنج .
من هرب مات من الجوع والعطش . ووصل طلائع

ابن رزيك إلى القاهرة : فوضع السيف فيمن بقي من
أصحاب عباس . وجلس في منصب الوزارة . انتهى
كلام ابن القلانسي . وما نقله غالبه مخالف لغيره من
المؤرخين . والله أعلم .

مؤيد الدولة أسامة بن منقذ وقبح عليه ذلك ، وقال :
إن فعلت هذا لم يبق لك أحد ويفر الناس عنك : فشرع
أبوه بلاطفه (يعني الوزير عباس يلاطف ابنه نصرا)

وقال له : عوض ما تقتلني اقتل الظافر . وكان نصر
يتادم الظافر ويعاشره . وكان الظافر يثق به وينزل في

الليل إلى داره متخفياً . فنزل إليه إلى داره وكانت
بالسيوفيين داخل القاهرة ومعه خادم له . فشربا ونام

الظافر : فقام نصر فقتله ورمى به في بئر . فلما أصبح
عباس (يعني الوزير أبا نصر المذكور) جاء إلى باب

القصر يطلب الظافر ، فقال له خادم القصر : ابنك
يعرف أين هو (ومن) قتله . فقال عباس : ما لابني

فيه علم . وأحضر أخوى الظافر وابن أخيه فقتلهم
صبوا بين يديه ، وأحضر أعيان الدولة وقال : إن

الظافر ركب البارحة في مركب فانقلبت به فغرق . ثم
أخرج عيسى ولد الظافر . فنفروا عن عباس وابنه ،

وثار الجنود العبيد وأهل القاهرة وطلبوا بئار الظافر من
عباس وابنه نصر . فأخذ عباس وابنه نصر ما قدرا

عليه من المال والجواهر وهربا إلى الشام . فبلغ الفرنج
فخرجوا إليهما . وقتلوا عباساً وأسروا ابنه نصراً ،

وقتل نصر في السنة الآتية . انتهى .
وقال القاضي شمس الدين أحمد بن خلكان :

« بوع يوم مات أبوه بوصية أبيه . وكان أصغر أولاد
أبيه سنّاً . كان كثير اللهو واللعب . والتفرد بالجواري ،

واستماع المغاني . وكان يأنس بنصر بن عباس . فاستدعاه
إلى دار أبيه ليلا سرّاً بحيث لا يعلم به أحد . وتلك الدار

في المدرسة الخنقية السيوفية الآن . فقتله بها وأخفى
أمره . قال : وقصته مشهورة ، وذلك في نصف
الحرم سنة تسع وأربعين وخمسمائة . وكان من أحسن

الناس صورة . والجامع الظافري الذي بالقاهرة داخل
باب زويلة منسوب إليه ، وهو الذي عمره وأوقف
عليه شيئاً كثيراً . انتهى كلام ابن خلكان . قلت :

وقيل غير ذلك : أن خدام القصر كتبوا إلى طلائع
ابن رزيك وهو والى قوص وأسوان والصعيد يخبرونه
بقتل الظافر ويستجدونه على عباس وابنه نصر . وكتب
إليه فيمن كتب القاضي الجليس أبو المعالي عبد العزيز
ابن الحباب قصيدته الدالية التي أولها :

دمعى عن نظم القريض غوادى

وشف فوادى شجوه البهادى
وأرق عيني والعيون هواجع

أهموم أقضت مضجعى ووسادى
بمصراع أبناء الوصى وعرة الن

سبي وآل الذاريات وصاد
فأين بنو رزيك عنهم ونصرهم

وما لهم من منعة وزياد
أولئك أنصار الهدى وبنو الردى

وسم العدا من حاضرين وباد
لقد ند ركن الدين ليلة قتله

بخير دليل للنجاة وهاد
تدارك من الإيمان قبل دثوره

حشاشة نفس آذنت بنفساد
وقد كاد أن يظننى تأثق نوره

على الحق عاد من بقية عاد
فلو عاينت عينك بالقصر يومهم

ومصرعهم لم تكتحل برقاد
وهى طويلة كلها على هذا المنوال فى معنى النجدة .

وقد نقلتها من خط عقده لا يقرأ إلا بجهده . فلما بلغ ذلك
طلائع بن رزيك جمع ودخل القاهرة فى تاسع شهر
ربيع الأول ، وجلس فى دست الوزارة ، وتلقب
بالمالك الصالح ، وهو صاحب الجامع خارج بابى زويلة
وأخرج جسد الظافر من البئر التى كان رمى فيها بعد
قتله وجعله فى تابوت ومشى بين يديه حافياً مكشوف
الرأس ، وفعل الناس كذلك ، وكثر الضجيج والبكاء
والعويل فى ذلك اليوم .

وقال بعضهم وأوضح الأمر ، وقوله : إن الظافر
كان قد أحب نصر بن عباس حباً شديداً ، وبقي
لا يفارقه ليلاً ونهاراً . فقدم مؤيد الدولة أسامة بن
منقذ من الشام ، فقال لعباس الوزير يوماً : كيف
تصبر على ما أسمع من قبيح القول ! قال عباس :
وما يقولون ؟ قال يقولون : إن الظافر بنى على ابنك
نصر . فغضب عباس من ذلك ، وأمر ابنه نصرأ ،
فدعا الظافر لبيته فوثب عليه وقتله ، وساق نحوأ مما
سقتاه من قول أبى المظفر وابن خلكان . وانتهى كلامه
وقال صاحب كتاب المقتلين فى أخبار الدولتين :

« ولما تم أمر الظافر ركب بزى الخلافة وعاد إلى القصر ،
ولم يقدم شيئاً على انتقامه من ابنى الأنصارى لما كان
يبلغه عنهما فى أيام والده الحافظ » :

وخبر ابنى الأنصارى أنهما كانا من جملة الكتاب
وتوصلا إلى الحافظ ، فاستخدمهما فى ديوان الجيش

قصداً لتمييزهما ، وهما غير قانعين بذلك ، لما يعلمانه من
إقبال الحافظ عليهما ، فوثبا على السادة من رؤساء

الدولة مثل الأجل الموفق أبى الحجاج يوسف كاتب
دست الخليفة ومشورته ، ومن يليه مثل القاضى

المرتضى الحنك ، والخطيرى البواب ، فتجرأ على
المذكورين وغيرهم من الأمراء مع قلة دربة . فتدع

القوم عورتهم ، والخليفة الحافظ لا يزداد فيهما إلا
رغبة . ووقع لها أمور قبيحة ، والقوم يبلغون الخليفة

خبرهم شيئاً بعد شىء ، وهو لا يلتفت إلى قولهم .
ولا زال ابنا الأنصارى حتى صار الأكبر شريك

الأجل الموفق فى ديوان المكاتب ، ولكن خصص
الموفق بالإنشاء جميعه . ولما تولى ابن الأنصارى نصف

الديوان نعت بالقاضى الأجل سناء الملك ، بعد أن
وصاه الخليفة الحافظ أن يقنع مع الموفق بالرتبة ويدع

المباشرة ، ويخدم الموفق . وصبر الأجل الموفق على
ذلك مراعاة لحاظ الخليفة . وأما ابن الأنصارى الصغير
فانه تجند فتأمر فى يوم ، وخلع عليه بالطوق وما يلزم

الأمرية ، وصار أمير طوائف الأجناد . فقال الناس : هو الأمير الطارى بن الأنصارى ! وبينما هم في ذلك مرض الخليفة الحافظ ومات ، وآلت الخلافة لولده الظافر هذا . فراجع لما كنا عليه من أمر الظافر مع ولدى الأنصارى المذكورين . فركب الخليفة الظافر بعد العشاء الآخرة في الشمع بالقصر ، ووقف على باب الملك بالإيوان الجاور للشباك ، وأحضر ابني الأنصارى واستدعى مولى الستر ، وهو صاحب العذاب ، وأحضرت آلات العقوبة ، فضرب الأكبر بحضوره بالسياط إلى أن قارب الهلاك ، وثنى بأخيه كذلك ، وأمر بإخراجهما وقطع أيديهما وسل ألسنتهما من قضيتهما ، وصلبا على بابي زويلة الأول والثاني زماناً .

وأقام الظافر ابن مصال المغربي وزيراً مدة شهرين فخرج عليه ابن سلار ، وكان والياً على البحيرة والإسكندرية ، ولم يرض بوزارة ابن مصال المذكور ، وتابعه عباس وكان والياً على الغربية ، وهو ولد زوجته ، فلما بلغ الوزير ابن مصال ذلك ، خرج إلى الصعيد لكونه لم يطق لقاء ابن سلار ومن معه على غير موافقة من الخليفة الظافر . ودخل ابن سلار إلى القاهرة وزيراً ، فما طابت به نفس الخليفة الظافر بالله ، فباشر الأمور مباشرة بجد . وأقام الظافر خليفة إلى أوائل سنة تسع وأربعين وخمسة ، ولم يصف بين الخليفة والوزير عيش قط ، وجرت بينهما أمور ، وثبت عند ابن سلار كراهة الخليفة فيه ، فاحترز على نفسه منه ، وأقام كذلك أربع سنين وبعض الخامسة ، حتى قتله نصر بن عباس اغتيالاً في داره . وذكر أن ذلك بموافقة الخليفة الظافر على ذلك ، لأن هذا نصرأ كان قد اختلط بالخليفة اختلاطاً دائماً أدى إلى حسد أكثر أهل الدولة له على ذلك . وخشى عباس على نفسه من ولده نصر المذكور لما تم منه في حق ابن سلار ، فرمى بينه وبين الخليفة بموهومات قبيحة ، حتى قتل نصر الخليفة أيضاً . ودفنه في داره التي بالسيوفيين ، وقتل أستاذه معه :

ولما علم الخليفة استخلف ولده بعده ، وهو أبو القاسم عيسى ، ونعت بالفائز بنصر الله ، وكان عمره يومئذ خمس سنين . أخرجه الوزير عباس من عند جدته أم أبيه الخليفة يوم قتل عميه يوسف وجبريل ابني الحافظ - وهما مظلومان - بتهمة أنهما قتلا أخاهما الخليفة الظافر حسداً على الرتبة لينالها بعده . وليس الأمر كذلك ، بل عباس الوزير وولده نصر قتلاه . فرأهما الخليفة هذا الصغير مقتولين ، فتنزع واضطرب وغشى عليه . ولازمه ذلك وكثر به .

قلت : وقول هذا عندى في قتل الخليفة الظافر أثبت الأقاويل . وبكلامه أيضاً يعرف جميع ما ذكرناه في أمره من أقوال المؤرخين ، فإنه ساق أمره على جلسته من غير إدخال شيء معه .

وأما تفصيل أمر عباس الوزير وابنه نصر فإن عباساً كان رجلاً من بني تميم ملوك الغرب ، ودخل عباس القاهرة فاجتمع بالخليفة ، فأكرمه وأنعم عليه بأشياء ثم خلع عليه بالوزارة على العادة ولقبه ، فباشر عباس الوزارة وخدم الأمور وأكرم الأمراء وأحسن إلى الأجناد لينسبهم العادل ابن سلار . واستمر ابنه نصر على مخالطة الخليفة الظافر ، حتى اشتغل الظافر عن كل أحد بابن عباس المذكور ، وأبوه عباس يكره خلطته بالخليفة . وانتهى الخليفة معه إلى أن يخرج من قصره لزيارة ابن عباس بداره التي بالسيوفيين ، بحيث لا يعلم عباس بذلك . فلما علم استوحش من الخليفة لجرأة ابنه ، وتوهم أنه ربما يحمله الخليفة على قتله . فقال عباس لابنه سرأ : قد أكثرت من ملازمة الخليفة حتى تحدث الناس في حقك معه مما أزعج باطنى ، وربما يتناقل الناس ذلك ويصل إلى أعدائنا منه ما لا يزول ، ففهم ابنه نصر عنه وأخذته حدة الشباب ، فقال نصر لأبيه : أيرضيك قتله ؟ فقال : أزل التهمة عنك كيف شئت . فخرج الخليفة ليلة إلى نصر بن عباس على عادته فقتله بالجماعة الذين قتل بهم الوزير ابن سلار ، وقتل

فيها مطرت اليمن مطراً دماً . وبقي أثره في الأرض
وفي ثياب الناس .

وفيها في المحرم نزل الملك العادل نور الدين محمود
ابن زنكي صاحب الشام على دمشق وحاصرها ، فراسله
صاحبها مجير الدين ، وخرج إليه هو والرئيس ابن
الصوفي وبذلا له الطاعة وأن يخطب له مجير الدين بعد
الخليفة والسلطان ، وأن ينقش اسمه على الدينار
والدرهم ، فرضى نور الدين وخلع عليه ورحل عنه .
وعاد وافتتح قلعة اعزاز .

وفيها اختلف وزير مصر ابن مصال المغربي والعادل
ابن سلار وجمعا العساكر واقتتلا : فقتل الوزير ابن
مصال ، واستقل ابن سلار بالوزير والملك . وقد
ذكرنا نحو ذلك في ترجمة الظافر هذا .

وفيها توفي أبو المفاخر الحسن بن ذى النون الواعظ
(ابن أبي القاسم) كان فاضلاً صالحاً إماماً فقيهاً حنفياً
المذهب : كان يعيد الدرس خمسين مرة . ومن شعره :

مات الكرام ومروا وانقضوا ومضوا

ومات بعدهم تلك الكرامات

وخلفوني في قوم ذوى سفه

لو أبصروا طيف ضيف في الكرى ماتوا

وفيها توفي الأمير أبو الحسن علي بن دبب صاحب
الحلة . كان شجاعاً جواداً إلا أنه كان على عادة أهل
الحلة رافضياً خبيثاً .

وفيها توفي قتيلا الوزير علي بن سلار وزير الظافر
صاحب الترجمة بديار مصر . كان يلقب بالملك العادل .
وتولى الوزير بعده عباس أبو نصر الذي قتل الظافر ،
حسب ما ذكرنا ذلك كله مفصلاً .

وفيها ملكت الفرنج عسقلان بالأمان بعد أن قتل
من الفريقين خلق كثير . وكان قد تمادى القتال بينهم
في كل سنة إلى أن سلموها . وأخذ الفرنج جميع ما كان
فيها من الذخائر وغيرها .

أيضاً أستاذين كانا مع الخليفة الظافر ، وطمرهم في بئر
هناك . وأصبح عباس فبايع عيسى بن الظافر ، ولقبه
الفائز ، على ما يأتي ذكره في أول ترجمة الفائز .

ولما تم لعباس ما قصده من قتل الخليفة وتولية ولده
الخلافة ، كثرت الأقاويل . ووقع الناس على الخبر
الصحيح بالحسد . فاستوحش الناس قتل هؤلاء الأئمة .
وكان طلائع بن رزيك والياً على الأشمونين ، والبهنسا ،
فتحرك حاشداً على عباس . ولبس السواد وحمل
شعور النساء حرم الخليفة على الرماح . فتخلخل أمر
عباس وتفرق الناس عنه . وصار الناس تسمعه المكروه
في الطرقات من كل فج . حتى أنه رمى من طاق ببعض
الشوارع وهو جائز بهاون نحاس ، وفي يوم آخر بقدر
مملوءة ماء حاراً ، فقال عباس : ما بقي بعد هذا شيء .
فصار يدبر كيف يخرج وأين يسلك . فأشار عليه بعض
أصحابه بتحريق القاهرة قبل خروجه منها فلم يفعل ،
وقال : يكفي ما جرى . فلما قرب طلائع بن رزيك إلى
القاهرة خرج عباس وابنه ومعهما كل ما يملكانه طالباً
للشرق . فحال الفرنج بينه وبين طريقه ، فقاتل حتى
قتل زأسر ولده نصر . وفاز الفرنج بما كان معه . وذلك
في شهر ربيع الأول سنة تسع وأربعين وخمسمائة . وأما
ولده نصر فنذكر أمره وقتله في أول ترجمة الفائز
بأوسع من هذا إن شاء الله تعالى .

وكانت قتلة الخليفة الظافر هذا في سلخ المحرم سنة
تسع وأربعين وخمسمائة على قول من رجح ذلك : وله
اثنان وعشرون سنة . وكانت خلافته أربع سنين
وسبعة أشهر وسبعة أيام . وتولى الخلافة بعده ولده
الفائز عيسى .

ونذكر إن شاء الله أمر قتله أيضاً في ترجمة الفائز
بأوسع من هذا هناك .

السنة الأولى من ولاية الظافر بأمر الله أبي منصور
إسماعيل على مصر وهي سنة خمس وأربعين وخمسمائة .

السنة الثانية من ولاية الظافر على مصر وهي سنة
ست وأربعين وخمسة .

فيها دخل السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه
السلجوقي إلى بغداد ، وخرج الوزير ابن هبيرة وأرباب
الدولة إلى لقائه فأكرمهم .

وهذا الرجل الذي عَسَى نفسه بهذه الأعمال الكثيرة
وظل مكباً عليها إلى ما قبيل وفاته : لم يسلم من نقد
رجلين مؤرخين ممن عاصروه ، وهما ابن الصيرفي
والسخاوي . وما أكثر ما توغر المشاركة في عمل
صدور المعاصرين ، ثم إنا ما عرفنا السخاوي ترك
علماً من أعلام عصره دون أن يجرحه وينقله وما نجا
منه المقریزی شيخ المؤرخين في عصره ، ولا ابن
خلدون شيخ مؤرخي الإسلام .

ولقد ظل أبو المحاسن مشغولاً بعمله وتأليفه
لا يصرفه عنه صارف إلى أن توفاه الله في يوم الثلاثاء
خامس ذي الحجة سنة أربع وتسعين وثمانمائة .

وحسب هذا الراحل عزاء عما ترك من عمل
صالح ، ما كتبه عنه تلميذه أحمد بن حسن التركاني
في ترجمته له :

« ونرجو إن أطال الله عمره وفسح في أجله لئلا
خزائن من العلوم والمصنفات في كل فن لعلمي
باتساع باعه في التصنيف والتأليف » .

ثم قول ابن إياس فيه : « وهو الذي قد خلف
أبا المحاسن على زعامة المؤرخين بمصر : وضع لنا حقاً
أنه كان رئيساً حشماً فاضلاً حنفياً المذهب وله اشتغال
بالعلم وكان مشغولاً بكتابة التاريخ » .

ثم حسب ابن تغري بردي في وصف نفسه شعره
الذي يقول فيه :

تجارة الحب غدت في حب خود كاسده
ورأس مالى هبة لفرحتى بفائده

وفيها توفي أحمد بن منير بن أحمد الأديب
أبو الحسين الطرابلسي الشاعر المشهور المعروف بالرفاء .
ولد سنة ثلاث وسبعين وأربعمائة بطرابلس . وكان
بارهاً في اللغة العربية والأدب إلا أنه خبيث اللسان كثير
الفحش . حبسه الملك تاج الملوك بوري صاحب دمشق ،
وعزم على قطع لسانه ، فاستوهبه منه الحاجب يوسف
ابن فيروز فوهبه له فنجاه . وكان هجاً خلّاقاً كثيرة ،
وكان بينه وبين ابن القيسراني مهاجاة ، وكان رافضياً .
وكانت وفاته بحلب في جمادى الآخرة . ومن شعره :

جنى وتجننى والفؤاد يطيعه
فلا ذاق من يجنى عليه كما يجنى
فان لم يكن عندي كعيني ومسمعى
فلا نظرت عيني ولا سمعت أذني

وفيها توفي الأمير تمرتاش بن نجم الدين البلغازي
الأرتقي صاحب ماردين وديار بكر . كان شجاعاً
جواداً عادلاً محباً للعلماء والفضلاء يبحث معهم في فنون
العلوم . وكان لا يرى القتل ولا الحبس . ومات في ذي
القعدة ، وكانت مدته نيفاً وثلاثين سنة . وقام بعده
ابنه .

وفيها توفي حيدر بن الصوفي الذي كان أقامه
مجير الدين صاحب دمشق مقام أخيه ، ثم وقع منه سعي
بالفساد ، فاستأذنه مجير الدين إلى القلعة على حين
غفلة فضرب عنقه لسوء سيرته وقبح أفعاله .

الدين ذكر الذهبي وفاتهم في هذه السنة ، قال :
وفيها توفي أبو بكر محمد بن أبي حامد بن عبد العزيز بن
علي الدينوري البسّيع ببغداد . والمبارك بن أحمد بن
بركة الكندي الحبار .

أمر النيل في هذه السنة : الماء القديم ست أذرع
وأربع وعشرون أصبغاً . مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً
وثلاث عشرة أصبغاً .

* * *

مدام بوشارى السجوتاف فلوبير

بسلام
الأستاذ على أدبهم

لأسلوبه لإيقاع موسيقى ، ولذلك كان يقرأ ما يكتب بصوت مرتفع ليتحاشى الكلمات الحوشية والحروف المتنافرة ، وكان الذين يمرون بجانب داره - كما يروى لنا النقاد الدانمركى جورج براندز - يسمعون وهو يعيد قراءة ما يكتب فيعتقدون أنه محام يجرب ما سيقوله أمام المحكمة ، وقد كان الكاتب الروائى الروسى الكبير ليثان ترجنيف صديقاً حميماً لفلوبير ، وكان كثيراً ما يزوره فى أثناء إقامته بفرنسا ، وقد أعان أنه مما يثير العطف ويبعث على الإشفاق أن يراه وهو أقل الناس صبراً عاكفاً على المهادنة فى استبعاد العبارات الغامضة ، والتراكيب المستغلقة ، باذلاً فى سبيل ذلك أقصى ما فى طاقته من الجهد ، وروى عنه استراتشى أنه حاول فى أحد مشاهد رواياته وصف حديقة نبات الكرنب فى ضوء القمر ليلاً ، فسأل نفسه « كيف يبلى منظر حديقة الكرنب فى ضوء القمر وقد أرخى الليل سدوله ؟ فأرجأ الوصف حيناً من الزمن حتى جاءت الليلة المناسبة ، فخرج من داره يحمل مفكرة فى يده ، وغشى لإحدى حدائق الكرنب ليبدون بالتفصيل الدقيق ما شاهده ، ولذلك كان لإنتاجه بالقياس إلى غيره من مشاهير الكتاب الروائيين قليلاً ، فقد كان يكتب فى

جوستاف فلوبير فى طليعة كبار الكتاب البارزين فى تاريخ الأدب الفرنسى ، وهو يعد فى تاريخ الأدب العالمى أحد الأساتذة الرواد فى كتابة الرواية الواقعية ، ولم يبلغ فلوبير هذه المكانة الرفيعة فى عالم الأدب لأنه كان كاتباً موهوباً فحسب ، وإنما ظفر بها لأنه أراد ذلك ، وعقد عليه العزم ، ولم يدخر جهداً ، ولم يحجم عن أية تضحية فى سبيل تحقيق رسالته الأدبية ؛ وهى مسألة لها وزنها فى تقويم عبقريته وتقدير أدبه ، ولم يعط كاتب من الكتاب أساويه العناية التى أسبغها فلوبير على أسلوبه ، ولم يأخذ أحد من الكتاب نفسه فى مزاوله الكتابة بالشدّة فى تحرير الكلام وضبطه وتصفيته وتنقيحه التى التزمها فلوبير وفرض على نفسه قيودها الثقيلة وتكاليفها المرهقة ، كان يمضى ثمانية أيام - كما يقول لاميل فاجيه فى كتابه القيم عنه - من العمل المتصل ليكتب صفحة واحدة ، وكان يصحح ما يكتبه ويعيد عليه الكرة منقحاً ومصححاً ، ويفحص كل كلمة ويزنها ويعرضها على أذنه ليختبر وقعها فى السمع ، ويعترف جرسها ، وكان يقيم لنفسه عقبات لا لزوم لها تحريماً لمراعاة الدقة والإحكام فى الكتابة ، فلا يكرر لفظة بعينها فى الصفحة نفسها ، ويعمل على أن يكون

بطء شديد ، وقد قضى قرابة سبع سنوات في كتابة أشهر رواياته ، وهي رواية مدام بوقارى ، كما قضى بعد ذلك ثلاث عشرة سنة في كتابة روايته « بوقار وبيكيشيه » ولم تكن قد كملت حينما أدركته الوفاة .

وفلوبير في تحريه الدقة في الوصف و نفاذ ملاحظاته وبراعة تعليقاته خليفة للكاتب الروائى الفرنسى الكبير بلزاك ، ولكنه في فرط عذائته بأسلوبه وتثقيف جملة وتنطسه في اختيار ألفاظه نقيض لسابقه العظيم ، وهذه الزايا والصفات تجعل فلوبير ممثلاً لعصره ، فقد كانت الحاسة الناقدة مسيطرة عليه وعلى عصره ، ولكن تمكنها منه وسيطرتها عليه كانت تفوق سيطرتها على سائر الكتاب المعاصرين له ، وكان هو نفسه يقول عن بلزاك لصديقه لويز كوليه « أى رجل كان يمكن أن يكون بلزاك لو أنه عرف كيف يكتب ! » .

وكان فلوبير يحتمل هذه الآلام المبرحة في التأليف ويتعرض لأزمات اليأس ونوبات الضيق والكرب لا رغبة في الشهرة ، ولا استجابة لحرصه على جمع المال ، ولا بغية التقرب لامرأة يود اسمائها ، ونيل عطفها واعجابها ، وإنما بدافع إخلاصه للفن الذى كان يعد مبشراً برسائله وكاهناً في محرابه ، ومن أقواله في لإحدى رسائله « إنى لا أعبأ فتيلاً بالدنيا ، ولا بالمستقبل ولا بما سيقوله الناس ، ولا أطمع في منزلة وطيدة ، ولا أنطلع حتى إلى الشهرة الأدبية التى كنت في بواكر أيامى أفضى الكثير من الليالى حالمًا بها » ، ولم يكن فلوبير بطبيعته صالحاً للاستمتاع بأى لون من ألوان السعادة الدنيوية التى عرفها الكثيرون ممن هم أقل منه شأنًا ودونه منزلة ، فحينما نال كتابة « مدام بوقارى » شهرة موقوتة تسرب إليه الشك في قيمته ، وكتب إلى صديقه دى كامب « أود لو استطعت أن أجهد سبيلاً لجمع قدر من المال حتى أشتري جميع النسخ الموجودة من « مدام بوقارى » وألقى بها جميعاً في النار ولا أسمع شيئاً مرة

ثانية عن هذا الكتاب » ، وكانت سبب الحالات النفسية الغالبة عليه والتي كانت تبعثه على إعلان مثل هذه النصححات النزعة الكليبية العريقة في نفسه ، وقد كتب في لإحدى رسائله يقول « برغم أنى والحمد لله لم ألق قط عناء على يد أحد الناس ، وبرغم أن حياتى لم تكن تنقصها الوسائل التى أستصعب بها أن أنتحى زاوية وأنسى الناس جميعاً فانى مع ذلك أمقت شركائى في الحياة ولا أشعر أبداً بأنى زميل لهم » وقد أثارت الحياة نقمته فظل يعانى الضيق والمال ، وقال في ذلك لصديقه دى كامب « إن مخدر الملل الذى غمست فيه نفسى في إبان الشباب سيكون له تأثيره حتى أواخر أيام حياتى ، إنى أمقت الحياة ، نعم إنى أمقت الحياة وأجتوى كل شى عندكرفى بأن الحياة يجب أن تحتمل ، فالأكل وارتداء الملابس والوقوف على قدمى ذلك كله يكلفنى ما لا أطيق من العناء ، ولقد رسفت في قيود هذا الشقاء بكل مكان حللت به » وربما كان سبب ذلك فرط حساسيته ، وهذا الضيق بالحياة يبدو واضحاً خلال روايته مدام بوقارى ، ولذا كان يقول عن هذه الشخصية العجيبة التى أوجدها « مدام بوقارى هى أنا » .

وكان فلوبير في كتابته يتعمد إخفاء عواطفه ، وقمع ميوله ، وأهوائه ، وكبت حيويته ، لأنه كان يعتقد أن التجرد التام من تيمود الميول والأهواء لازم للفن الصادق والكتابة الجيدة ، ويؤكد لنا فرنسيس ستيجملر - أحد من تصدوا لدراسة حياة فلوبير - أنه لم يكن من هؤلاء الذين تتملكهم العواطف الزنيقة في الحب وتعصف بنفوسهم عواصفه ، ولم يجرب في حياته الميل إلى البقاء مع حبيبته أبد الدهر أو الشعور بأن غيابها عنه سيفقل في وجوه أبواب الجنة ، ولم يكن الحب في رأيه أكثر من متعة جسدية ، ويستدل على ذلك بما كتبه إلى صديقه لويز كوليه قائلاً « إذا كنت تحسبن أن الحب هو الطباق الرئيسى في الوجود فإن

الحركة كالرياضي المصارع ، غير شاعر بمواهبه العقلية والجسدية ، وغير حافل بتقاليد المجتمع . . . وحيثما قلت له أن النفوذ والشهرة من الأشياء المرغوبة والتي لها قيمته أصغى لحدِيثِي في غير اكتراث وقل. علا وجهه الابتسام ، وكان يعجب بما هو جميل في الطبيعة والفن ، وقال إنه سيعيش من أجل ذلك دون أن يفكر في مصلحته الشخصية ، ولم يحلم قط بالمجد أو المنفعة ، وكان الذي يفيض على نفسه السرور أن يجد شيئاً يبدو له أنه جدير بالاعجاب ، والمتعة التي يجدها الإنسان في الاجتماع به والقرب منه باعها تحمسه لكل ما هو نبيل ، وتفوقه العقلي يبدو في فرديته القوية ، والذي ينقص طبيعته هو الاهتمام بالأشياء الخارجية النافعة ، فإذا سمع قول الناس أن الدين والسياسة أو الشؤون العملية شائقة مثل الأدب والفن فانه يفتح عينيه من التعجب والرتاء لحالة القائلين بذلك .

وهكذا كانت حالة فلوير حينما قدم باريس سنة ١٨٤٠ لدراسة القانون ، وقد مل الحياة بها وكره ما يسمى « حياة الطلبة » ولم يكن قد وضع خطة لحياته الأدبية بعد ، وكان يقضى أكثر أيامه وحيداً في شقته الصغيرة وما يكاد يفتح كتاباً من كتب القانون حتى يطوى صفحاته ويستلقى ساعات في فراشه مدخناً وحالماً ، لقد صار ممن يوثرون الاسترسال مع الأفكار والغوص في التأملات .

وكان يتردد من الحين إلى الحين على مرسم براديه ، وهناك لقي في أحد الأيام فيكتور هيجو وعرف السيدة لويز كوليه وكانت إحدى النساء المتأدبات المعروفات في ذلك العهد ، وفي سبتمبر وأكتوبر سنة ١٨٤٠ قام برحلة في جبال البرانس وجزيرة كورسيكا ، وكان لهذا التغيير في أسلوب حياته أثره الحسن في حالته النفسية ، ووصفه لجزيرة كورسيكا في الرسائل التي بعث بها إلى أصدقائه يتم على قدرته الفائقة على الوصف التي تجلت بعد ذلك في مؤلفاته .

جوابي عن ذلك هو النفي ، أما إذا كنت تريد أن تطبق لإضافي فأني أوافقك ، وإذا كنت تعنين بالحب أن يظل الإنسان مشغولاً بمن يحب وأن لا يعيش إلا معها وأن لا يرى في الأشياء التي ترى في الدنيا غيرها وأن يملأ التفكير فيها نفسه وأن يشعر بأن حياته مرتبطة بحياتها وأنها قد أصبحت شعبة من نفسه فإني أورد على ذلك بالنفي ، وإني لم أشعر قط بضرورة معايشة أي إنسان ، نعم قد شعرت بالرغبة وأما بالحاجة فلا .

وقد ولد فلوير بمدينة روين في ١٢ ديسمبر سنة ١٨٢١ وهو ابن أشيل كليوفاس فلوير الذي كان كبير جراحي مستشفى المدينة ، وكان هو نفسه نجل طبيب بيطري ، وكانت والدته آن جستن كارولين فليريو ، وكانت تنتسب من ناحية والدتها إلى أقدم الأسر في نورماندي السفلى ، وكانت شديدة الاعتزاز بنسبها ، وقد أورثت ابنها الاستعداد لاضطراب الأعصاب والميل إلى احتقار الناس العاديين ، ومهما يكن من الأمر فانها كانت شديدة التوفر على العناية بنجلها ، وكان هذا من أسباب إعراضه عن الزواج ، فقد قضى حياته عزباً .

وكان فلوير طويل القامة ، قوى البنية ، وقد مال في شيخوخته إلى البدانة ، وكان كبير الأنف ، عالي الجبين بارز العينين ، كث الشارب ، وقد ولد في مستشفى هوتيل ديبه ونشأ بها ، وظل هناك حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره ، وأرسل إلى باريس لدراسة القانون ، ودرس في الليسيه طالباً خارجياً ، ولم يبذل في دراسته جهداً ، وظهر تعلقه بالأدب مبكراً ، ففي الحادية عشرة من عمره اشترك مع بعض رفاقه في تمثيل رواية من تأليفه .

ولم يكن فلوير في طفولته أو شبابه كثير الأصدقاء وقد وصفته سيدة عرفته في مطلع شبابه فقالت « كان جوستاف فلوير في ذلك الوقت يبدو كأنه يوناني في مقبل السن ، وكان طويل القامة ، نحيف الجسم ، رشيق

وفي سنة ١٨٤٥ مات والده ، وتوفيت شقيقته كارولين في السنة التالية ، وأصبحت والده تعيش في عزلة ، فصمم على مغادرة باريس التي كان لا يستريح إلى الإقامة بها وترك دراسة القانون التي كان يكرهها وآثر أن يعيش في كرواسيه القريبة من روين بمنزل يستطيع أن يرى منه نهر السين والقوارب مصفدات فيه ومنحدرات ، وفي الضفة الثانية التلال المكسوة بالخضرة .

وقضى في ذلك المكان أربعة وثلاثين عاماً حتى أدركه الموت ، وعاش عيشة دراسة وعكوف على العمل لم يتخللها سوى رحلة إلى بريتانى مع صديقه ماكسيم دى كامب سنة ١٨٤٦ ورحلة معه كذلك إلى الشرق سنة ١٨٤٩ وزيارات لباريس في فترات غير منتظمة .

ولم يقبل على الأدب إقبالا جدياً إلا في سنة ١٨٤٦ وبدأ يكتب من القراءة والاطلاع ويكتب مذكراته ويسجل تعليقاته على ما يقرأ في رسائله إلى أصدقائه ، ويضع خططاً لحياته المقبلة ، وشرع في كتابة أصول روايته « لإغراء القديس أنطونيوس » ، وفي هذه السنة نفسها بدأت علاقته المعروفة بالسيدة لويز كوليو ، وظلت حتى سنة ١٨٥٤ وكانت هي العلاقة العاطفية الوحيدة في حياة فلوير .

وفي سنة ١٨٤٩ قام بالرحلة إلى الشرق السابق الإشارة إليها مع صديقه ماكسيم دى كامب وزار مالطة ومصر (وقد أصعد في النيل إلى قنا) وسوريا وفلسطين والقسطنطينية وأثينا وجزءاً من بلاد اليونان ، وفتن بما شاهد من مناظر ، وعاش باقي أيام حياته يحلم بالعودة إلى تلك البلاد الحافلة بالأطلال الدوارس والآثار التاريخية ، وأعجب أعجاباً بأهرامات الجيزة وأنى الهول ، وكتب في ذلك يقول « بلغنا سفح التل الذي تقوم فوقه الأهرامات في مساء الساعة الرابعة يوم الجمعة الموافق اليوم السابع من ديسمبر سنة ١٨٤٩

وأطلقت العنان للجواد الذي امتطيته وكذلك فعل ماكسيم ووقفنا عند قدمى أنى الهول . وتلقاء منظره الذي لا يمكن وصفه طافت بذهني خواطر شتى ، وحال لون وجه صاحبي حتى صار في بياض صفحة الورقة التي أكتب عليها ، وحينما أقبل المساء وغربت الشمس بدا أبو الهول والأهرامات الثلاثة جميعاً وردية اللون كأنها غارقة في الضوء ، ونظر إلينا هذا الوحش الجبار العجوز نظرة جامدة مخيفة ، ولن أنسى ما عشت الانطباع الغريب الذي خلفه ذلك المنظر في نفسي ، وقضينا ثلاث ليال عند أقدام هذه الأهرامات القديمة ، والقول الصريح أنها رائعة ، وكلما أطلت إليها النظر بدت لك أكبر وأضخم ، وأحجارها التي تبدو على مسافة عشرين خطوة مثل أحجار رصف الطرق تقرب في الحقيقة من حجم الإنسان ، وحينما تتسلقها تزداد علواً منلما يتساق الإنسان جبلاً .

وبعد سنة ١٨٥٠ أصبحت حياة فلوير مقصورة على حوادث حياته الأدبية ، وصار تاريخه تاريخ كتبه التي شغل بتأليفها ، وكان يقضى معظم العام في كرواسيه مقبلاً على التأليف ، ولا يسمح لنفسه بالراحة إلا مدة أيام قلائل ، وكان لا يذهب إلى روين إلا إذا كان هناك بعض أعمال تقتضى ذلك ، وحينما كان يزور باريس كان يجتمع بسانت بييف وتيوفيل جوتييه وغيرهما من الكتاب والأدباء ، وفي أواخر حياته كان يلقي الفونس دوديه وإميل زولا والأخوين إدمون جونكور وجيل جونكور وتلور بينهم أحاديث عن الأدب والفن ، وفي بعض هذه الزيارات كان يجتمع برينان وتين وجورج ساند .

وشغل في المدة من سنة ١٨٥٠ إلى ١٨٥٦ بكتابة روايته المشهورة « مدام بوفارى » وقد ظهرت في مجلة « ريشي دى بارى » من أول أكتوبر سنة ١٨٥٦ إلى ١٥ ديسمبر من السنة نفسها ، وفي يناير وفبراير سنة

١٨٥٧ شغل بالقضية التي أتمهته فيها الدولة بالخروج على الآداب في رواية مدام بوقاري ، وقد برأته المحكمة ولكن بعد أن أبدى القاضي ملاحظات شديدة حول قيمة الكتاب من الناحية الأخلاقية .

وفيا بين سنة ١٨٥٧ وسنة ١٨٦١ شغل بتأليف رواية سلامبو ولتمام رواية لغراء القديس أنطونيوس ، وظهرت سلامبو سنة ١٨٦٢ بعد أن بذل في كتابتها جهوداً أدبية ضخمة وقام ببحوث تاريخية وأركيولوجية وفيما بين سنة ١٨٦٢ إلى سنة ١٨٦٩ عاد إلى دراسة عادات المجتمع الحديث ووصف أحواله وكانت نتيجة هذه الدراسة رواية التربية العاطفية التي ظهرت في سنة ١٨٦٩ .

وبعد سنة ١٨٧٠ تكاثرت عليه الموموم والأحزان ، وكان بطبيعته ميالاً إلى الحزن والتشاؤم ، وقد قوى هذا الميل في نفسه تقلم سنه والأحداث السياسية وما لقيته رواياته « سلمبو » و « التربية العاطفية » من قلة الرواج وسوء التقدير ، يضاف إلى ذلك تعرضه لمرض عصبي أصابه كانت نوبات هيجانه تشكل خطراً مستمراً على حياته ، وكان قد فقد منذ زمن أخته وصديقه الحميم لي بوتيفان كما فقد صداقة ماكسيم دي كامب ، وفقد والدته سنة ١٨٧٢ وتقدم في الشيخوخة ، وحفت به العزلة الموحشة ، ولم تسعده في هذه الفترة سوى رعاية قريبته مدام كومنفيل وصداقة جورج ساند التي ساندته وكتبت إليه رسائل مشجعة تنطوي على كثير من التقدير والاعجاب والتشجيع ، كما راقه تفتح ملكات تلميذه جي دي موباسان ، وقد علمه فلوير العناية الشديدة بالأسلوب والتخرج من المبادرة إلى سرعة الإخراج ، ووجد فيه بحق خير متمم لرسالته ومقلد في الكتابة الفنية لطريقته وخطته .

وفي سنة ١٨٧٧ أخرج مؤلفاً به ثلاث قصص لم يلق النجاح المنتظر ، وأخذ يستعد بعد ذلك لكتابة

رواية « بوقار وبيكيشيه » وكان يؤثرها على سائر مؤلفاته ، وقد بذل في كتابتها جهداً جباراً وبرغم ذلك مات قبل أن يتمها ، وكان ينوي أن يخرجها في مجلدين ، ولكن المواد التي تركها لم تكن تكفي لإلا مجلداً واحداً ، وقد مات في أعقاب نوبة سكتة قلبية في صباح اليوم الثامن من شهر مايو سنة ١٨٨٠ وهو في الثامنة بعد الخمسين من عمره ، وكانت جنازته في اليوم الحادي عشر من مايو ، ولم يكن عضواً في الأكاديمية الفرنسية ، ولم تلقى خطب على قبره سوى كلمة وداع من لايبير أحد أصدقاء أسرته وصاحب مجلة كانت تصدر في روين ؟

وقد كانت تغلب على فلوير خليقتان ، وهما الحياء والكبرياء ، والحياء بطبيعته يغرى بالكبرياء ، كما أن الكبرياء تزيد الحياء قوة وسيطرة على النفس ، وكان فلوير حياً ومتكبراً إلى حد كبير ، فكان لا يطبق المعارضة في المناقشة ، وكان أصدقاؤه يعرفون ذلك ويتحاشون مخالفته خشية ثورة الغضب التي تتملكه وتهدد حياته حينما يبارضه أحد في آرائه ومذاهبه ، وكان شديد الاحتقار لأدب القرن التاسع عشر ، وكان يرى أن كل ما لا يعنيه ليس له قيمة ، وهذا المزيج من الحياء والكبرياء كان يجعله حريصاً على أن يتحدث عن نفسه ، ولكنه مع ذلك لم يكن يشعر بالارتياح في ذلك ويسره أن يسمع الحديث عن نفسه ولو أنه يسبب له قلقاً وازعاجاً ، وقد أفسدت سرعة غضبه ما بينه وبين صديقه ماكسيم دي كامب ، وبطبيعة الحال كان يضيء بالتقد ، فحينما كتب سانت بييف عن مدام بوقاري مقدرراً ومطرباً كتب فلوير يقول « إن مقال سانت بييف صالح كل الصلاحية للبورجوازية ، وقد بلغني أنه أحدث تأثير عظيم في روين » .

وهذه الكبرياء المقترنة بالحياء وفرط الحسادية جعلت فلوير يعيش في عزلة دائم التذمر ، وكان يحبس

نفسه في صومعته بكرواسيه مضمراً الاحتقار للبشر
متطوياً على همومه في صمته وإبائه ، ولا يسمح إلا لعدد
قليل من الأصدقاء بالاقتراب منه ، ولم يسمح لأية امرأة
أن تقتحم عليه عزله لتؤنس وحشته برغم التوسل إليه
للسماح بذلك ، وقد عاش هكذا طوال حياته ، وقد
أدرك منذ مستهل شبابه أنه سيظل يعيش على هذا النمط ،
ففي الثامنة عشرة من عمره كتب يقول « لا تحسبني
متردداً في اختيار وظيفة ، فاني في الحقيقة ان أختار
أية واحدة ، لأنني شديد الاحتقار للناس إلى حد أنني
لا أريد أن أسدى لهم خيراً أو أن أسبب لهم ضرراً » ،
وفي الخامسة والعشرين من عمره كتب يقول « الجو
أكدر ، والنهر أصفر اللون ، والحشائش خضراء ،
ولا تكاد تظهر أوراق الشجر ، إنها آخذة في الظهور ،
لأنه الربيع أوان السرور والحب ، ولكن قلبي ليس به
ربيع . . . ومن عجيب الأمور أنني قد ولدت بمثل
هذا الإيمان القليل بالمعادة ، وحينما كنت في أولى
مراحل الشباب طالعتني صورة ما سألتني في الحياة من
متاعب وهموم ، لقد كانت تشبه رائحة المطعم الكريمة
التي تأتي من خلال النافذة ، فقبل أن تلمس الطعام
بيدك تدرك أنه يسبب لك المرض » وفي الثلاثين من عمره
كتب يقول « من يوم ليوم أشعر بأن نفورى من زملائي
البشر يزداد وهذا مما يسرنى » ويقول كذلك « أحب أن
أرى الإنسانية وكل ما يحترمه الإنسان وقد هان شأنه
واستخف به وسخر منه وكره وانتقص ، وهذا سبب
ما عندي من الاحترام القليل للإنسان » .

ولقد كانت حساسيته تجعله سريع الغضب ،
وسرعة الغضب كانت في دورها تجعل الحزن غالباً على
طباعه ، وحزنه كان يحيله كارهاً للبشر ، وكرهته
للبشر كانت تثير حقله عليهم ، ولذلك كان تمت
السخف والغباء ويحبهما في الوقت نفسه ، لأنه يجد فيهما
مجالاً لاشباع هوايته في الزرابة بالناس وأستصغار

شأنهم ، وهكذا كان فلوير الكاتب الروائي الفنان
ينظر إلى الإنسانية نظرة خوف واشمئزاز وسخرية
واستخفاف ، وقد أمضى حياته وهو يقول لنفسه وبعيد
القول ويكرره إن الإنسان صغير والفن عظيم ، فهو
يحتقر الإنسان ولكنه في الوقت نفسه يخدم الفن في
حماسة وإخلاص وتفان .

وكان فلوير رومانسياً وواقعياً في الوقت نفسه ،
وقد بدأ ظهوره في عالم الأدب في منتصف القرن التاسع
عشر ، فاجتمعت في نفسه مؤثرات الأربعين سنة السابقة
والأربعين سنة اللاحقة ، وهو منذ طفولته كان يؤثر
الأحاسيس العارمة ، وقد ولد ونشأ في مستشفى ،
وكان يتسلق في طفولته مع صغار الأطفال الحيطان
ليروا الجثث في قاعة العمليات ، وكما يحلم كثيراً
بالعودة إلى أشرق ويحزنه أنه لا يستطيع أن يعيش في
ربوعه ، كتب إلى صديق له يقول « أمها الرفيق القديم
العزيب متى تعود إلى الاستقامة فوق رمال الإسكندرية
أو إلى الرقاد في ظلال أشجار الداب على شاطئ
الدرديبل ؟ وكان يميل إلى الحزن ويستطيعه ويجد فيه
متعة تبعثه على تحليله تحليلاً وافياً ليزداد به تشبهاً وله
تقديرأ . ومن أقواله « لم أر قط طفلاً دون أن أذكر
أنه سيصير رجلاً عجوزاً وشيخاً هاماً ، ولا رأيت مهيداً
إلا ذكرت القبر ، وكلما نظرت إلى امرأة بدت لخاطري
صورة هيكلها العظمي ، ولهذا تحزني المناظر المرحية
المفرحة والمناظر المحزنة لا تؤثر في نفسي كثيراً » وهذا
الميل إلى تذوق الحزن واستطلاع الخفايا الغامضة والنزوع
إلى الشرق وأضوائه الساحرة هي العناصر التي تتكون
منها النزعة الرومانسية ، ولكنها ليست الأساس الذي
تقوم عليه .

وأساس الرومانسية هو النفور من الواقع والرغبة
الملحة في الحرب منه ، ولذا تضيق الرومانسية بدقة
الملاحظة ، لأن الملاحظة نستدعى الخضوع لواقع ،

والاستعانة بالعقل في دراسته ، وجعله نقطة الابتداء ، ومحور التركيز والاهتمام ، وهي تحرر نفسها من الواقع عن طريق الخيال والتعويل على الحساسية الفردية ، وبرغم العناصر الرومانسية التي كانت في نفس فلوير فإنه كان يميل إلى مواجهة الواقع وتأمله ودرسه ، ففي السابعة عشرة من عمره كان يدون ملحوظاته عن الناس العاديين الذين يلقاهم وعن مدرسيه وأترابه من الطلبة ، وقد ولد قوى الملاحظة ، نافذ النظرات ، قادراً على وصف الواقع ، وكان يعجب بكبار الشعراء الذين مثلوا النزعتين ، النزعة الواقعية والنزعة الرومانسية مثل هوميروس وأخيلوس وشيكسبير وبيرون وفيلكتور هيجو وشاتوبريان وراييه وجيتي وفولتير ولايرير ولي ساج ، أى أنه كان من ناحية يعجب بالذين أوتوا الخيال العظيم المخلق والذين وهبوا الملاحظة الدقيقة الحاسمة ، وكان يحب أن يرى الأشياء بدقة ووضوح بحيث لا تخفى عليه فيها خافية ، وكان يميل في الوقت نفسه إلى أن يتخيل المشاهد الفخمة ، والمناظر الرائعة الضخمة ، أى أن عقله كاز موزعاً بين حب استطلاع الواقع والحاجة في الوقت نفسه إلى انطلاق الخيال وخصوبته وقد كانت مؤلفات فلوير نتاج اجتماع هاتين النزعتين في نفسه ، فبعد إخراج مدام بوقارى الواقعية النزعة أتم رواية سلمبو ، وهي رومانسية النزعة ، وبعد رواية سلمبو كتب رواية « التربية العاطفية » وبعد الانتهاء منها شرع في تأليف « إغواء القديس أنطونيوس » وبعدها كتب رواية « بوقارى وبيكنشيه » ، ويمكن أن نستخلص من ذلك أنه كان في توالى مؤلفاته يرضى النزعتين الكامنتين في نفسه ، وحينما كان يؤلف ما يشبع خياله كان يعود بعد ذلك إلى تأليف ما يقنع نزعته الواقعية .

وكانت هناك فكرة غالبية على تفكير فلوير ، وهي أن الأدب يجب أن يكون « غير شخصي » أى أنه يجب

أن لا يظهر المؤلف في مؤلفاته ، ويجب أن لا يقحم مشاعره وأفكاره ومعتقداته ، وأن لا يجعل كتاباته نم على أفكاره وآرائه وحالاته النفسية ، وقد أكد هذه الفكرة مئات المرات في الرسائل التي كان يبعث بها إلى جورج ساند ، قال عن روايته مدام بوقارى « موضوع الرواية وشخصياتها وتأثيراتها كل ذلك من خارج نفسي . وأعتمد أن هذا ما يجب أن يكون ، وما تكتبه لا تكتبه لنفسك . وإنما تكتبه للآخرين ، والفن لا شأن له بالفنان ، فإذا كان لا يحب اللون الأحمر أو اللون الأخضر أو اللون الأصفر فإن هذا مما يضر به ، والألوان جميلة ، ولا بد من رسمها » ويقول في رسالة أخرى « ليس في استطاعتنا أن نعرف هل كان شيكسبير حزيناً أو مسروراً ؟ وعلى الفنان أن يسلك بحيث يجعل الأجيال التالية تظن أنه لم يعيش قط ، وكلما قلت قدرتي على تكوين فكرة عنه بدالى أنه أعظم شأناً ، ولا أستطيع أن أتخيل شيئاً عن شخصية هوميروس أورابليه ، وحينما أفكر في ميشيل أنجيلو لا أرى سوى ظهر رجل مسن ضخم الجسم يعمل في نحت تماثيله في الليل على ضوء المشعل » .

وهذه الفكرة تؤكد الجانب الواقعي في فلوير ، لأن الفن الواقعي قوامه الخضوع للموضوع ومحاولة النظر إليه في وضوح ودقة ، والمشاعر التي تقوم بنفس الإنسان في مواجهة الأشياء قد تجعله لا يراها على حقيقتها وإنما يراها كما يود أن يراها ، فالتجرد وعدم التأثير من مستلزمات الواقعية ، ونحن بطبيعة الحال لا بد أن نشعر ، ولكن علينا أن لا نطلق العنان لمشاعرنا حينما نصف مشاعر غيرنا ، لأن التداخل من جانب مشاعرنا حينما نصف مشاعر غيرنا يغير الصورة التي نحاول تصويرها ، والفنان الواقعي حقاً لا تسيطر عليه نزعاته الشخصية ، وفنه نفسه يرغمه على أن يكبح جماح شخصيته .

رواية مدام بوفارى

وفى سنة ١٨٥٠ كانت النزعة الرومانسية قد أجهدت نفسها ، وكان بلزاك وستندال ومرميه قد مهدوا السبيل لتذوق الفن الواقعى دون أن يشعروا الميل الى هذا التذوق ، إشباعاً وافياً ، وبرغم أن هؤلاء الكتاب الثلاثة قد ساعدوا على خلق تذوق الواقعية فإنهم لم يمثلوا الأدب الواقعى تمثيلاً كاملاً ، وقد قام بهذا التمثيل فلوير وبوجه خاص فى رواية مدام بوفارى .

ويعرف قراء بلزاك أنه يبدأ رواياته بالأسباب فى وصف البيئة ومختلف الأمكنة التى تقع فيها حوادث الرواية ، ويتقلب فيها أبطالها ، ويعنى بوصف دقائق المسكن الذى يقيمون به وملابسهم وسمات وجوههم وطريقتهم فى التعبير عن أنفسهم ومختلف مظاهر كيانهم الطبيعى ، ويروى لنا بعد ذلك أخبار تحركاتهم وأفعالهم ، أما فلوير فيمزج من أول الرواية وصف البيئة والمظاهر الطبيعية بوصف الأخلاق والأمزجة والأعمال ، فحينما يظهر أبطاله ويتحدثون يمثل لنا بيئتهم فى خلال حديثه عن الصفات المميزة لهم ، ففى أول لقاء بين بوفارى وإلما يصف له المزرعة وروالت العجوز وإلما وبوفارى فى صفحة واحدة ، ويسير على هذا النمط فى مختلف فصول الكتاب :

وفلوير يعيش مع أشخاص رواياته ، فرى ما يرون ، ويشعر بما يشعرون . وهذه هى الواقعية الحقة ، ورواية مدام بوفارى حافلة بالشخصيات الحية ، وكلهم ناس عاديون ، ولكن لكل واحد منهم مع ذلك خصائصه ومميزاته ، فهم ليسوا طرزاً معروفة ولا مختصرات موجزة للإنسانية ، وإلما هم شخصيات نابضة بالحياة بادية السمات والملامح .

والحياة الرتيبة المملة الخالية مما يشوق ويعجب تؤثر تأثيراً سيئاً فى أصحاب الخيال الواسع والطموح البعيد ، وقد يصد هذا التأثير إلى حد وقوع المأساة ، وهذا هو المحور الذى دارت حوله رواية مدام بوفارى ،

يرى بعض الناس أن الواقعية هى الأمانة فى الفن ، وقد كان فلوير يفهم الواقعية على هذا الأساس ، ولذلك كان يلتزم أقصى حدود الأمانة فى رواياته الواقعية ، ولقد كانت النزعة الرومانسية متأصلة فى نفسه ، ولكنه شعر بأن الرومانسية يصحها لون من ألوان الدجل والشعوذة والخداع والمبالغة والتضليل يموه به الكاتب على نفسه ويخدع قراءه ، والخيال قد يغتم فرصة انطلاقه بلا كايح ليعمى فى تزييف الواقع وخلق الأوهام ، وفلوير فنان له ضمير يحرص على تحرى الحقائق ، ويعنى ببذل الجهود فى التعرف على الطرائق وتصوير الواقع ، وكان لذلك يقدر صعوبة الفن الواقعى ، فإن على الفن الواقعى أن يتناول الناس العاديين ، وهم ليست لهم مميزات بارزة تميز بعضهم من بعض ، وبرغم ذلك فإن على الكاتب الواقعى أن يكون دقيقاً فى وصفه ، أميناً فى تصويره ، يظهر الفروق الدقيقة بين الناس العاديين ، وعليه كذلك أن يخون شائفاً فى عرضه بارعاً فى تصويره حتى لا تملنا واقعيته ، ويحملنا على الاهتمام بأشخاصه العاديين .

وتعد رواية مدام بوفارى فى طليعة الروايات التى استوفت شرائط الواقعية ، وقد ظهرت فى وقت كان مناسباً لظهورها ، فقد كانت موجة الأدب الرومانسى قد أخذت فى الانحسار ، ومل قراء الأدب المبالغاب الرومانسية ، وفى عالم الأدب كما فى عالم الفكر بوجه عام كلما سادت نزعة من النزعات تستنفد جهودها وتمهد السبيل لظهور نزعة مناقضة لها ، وبعد التحليق فى الخيال تميل إلى أن نرسو على شاطئ الواقع ، ولما كان الواقع نفسه لا يخلو من رتابة مملة لذلك سرعان ما تمل النفس وترتد إلى الخيال حتى تضيق ذرعاً بنوع آخر من الرتابة .

وفي تصوير فلوير لمدام بوفارى قدم لنا صورة من أروع الصور النسائية في الآداب العالمية ، فقد استقصى حوادث حياتها وأرانا تطور مشاعرها وتتابع الحالات النفسية التي استولت عليها واستبدت بها ، ولقد كان والدها روالث رجلاً عطوفاً ولكنه مجرد من العاطفة الدينية والحاسة الأخلاقية ، حسياً إلى حد ما قليل الجدية وبه شيء من الزهو والخيلاء ، وكانت لا تكاد تعرف والدتها ، وقد نشأت نشأة حسياً اتفق في ضيعة والدها ، وظلت بها حتى بلغت الثالثة عشرة من عمرها وتعلمت القراءة والكتابة دون أن تقوم بعمل أى شيء في الضيعة ، وقرأت رواية بول وفرجينيا في طفولتها ، وهي رواية لها تأثيرها في إيقاظ الأحلام الرومانسية ، وخاصة في نفس حساسة نزاعة إلى الاسترسال مع تلك الأحلام مثل الطفلة إيما التي صارت فيما بعد مدام بوفارى ومن سيات النزعة الرومانسية تطلع الإنسان إلى ما وراء آفاق حياته الراهنة ، ومن شأن هذا التطلع أن يجعل صاحبه غير قادر على تبين ما في حاضره من مزايا ونواح مقبولة ، والرغبة في التغير الدائم من أعراض النزعة الرومانسية ، وقد ظهرت هذه الأعراض على إيما منذ بلوغها الثانية عشرة من عمرها ، وألحقها والدها في الثالثة عشرة بدير الراهبات ، وقرأت روايات السير ولتر سكوت التاريخية ، فامتلاً خيالها بصور العصور الوسطى والفرسان والقلاع والجسور التي تفتح وتغلق ، وقرأت أشعار لامارتين العاطفية ، وأخرجت من الدير وعادت إلى ضيعة أبها ، ولم تكن والدتها هناك لتحمل عنها أعباء الضيعة ، وكان لهذا الانتقال من الحياة الدينية الحاملة للتأملية إلى حياة الضيعة الرتيبة الحشنة اليومية وقعه السيئ في نفسها ، ولذلك كانت تنتظر من ينتقدها من الضيعة والإشراف على شؤونها ، ويلوح في أفق حياتها وهي تعاني التبرم بحياتها شارل بوفارى ، وكانت مستعدة للترحيب بأى رجل يتقدم لها ويطلب يدها ، وكان يبدو لها أن كل رجل قادر على إشباع أحلامها الرومانسية

واستنقاذها من الرتبة المملة التي تعيش فيها وتعاني أوصابها .

وقد استطاع فلوير في وصفه لشخصية شارل بوفارى أن يتغلب على صعوبات جملة ، فشارل بوفارى أقرب إلى أن يكون طرازاً من الناس منه إلى أن يكون له شخصية ، أو هو شخصية بغير شخصية إن صح هذا التعبير ، وهو مخلوق سلبي تشكله البيئة كما شاءت مثل الماء الذي يأخذ شكل الإناء الذي يحتويه ، وهو خلو من الذكاء والإرادة والخيال ، لا يفكر ولا يحلم ولا يكاد يرى شيئاً بعينه ، فهو صدى لأفكار غيره من الناس ، ورغباته تملئ عليه ، وهو المنفذ ، ومشاعره نفسها تأخذ الصورة المطلوبة لها ، وهو يحب زوجته ولكن كما تريده هي أن تحبها ، ويحب طفلته ولكن بالأسلوب الذي يفرض عليه ، وقد تزوج في أول الأمر نزولاً على إرادة والدته وعملا بإشارتها ، وهي التي اختارت له الزوجة الملائمة في تقديرها ، وماتت زوجته الأولى ، أما في المرة الثانية فقد تزوج باختياره المرأة التي أحبها ، وكان والدها قد أصيب بكسر في ساقه فاستدعى الطبيب الريفى شارل بوفارى لمعالجتها ، وكان شارل حينذاك قد فقد زوجته الأولى ، ووفق شارل في علاج الساق المكسورة واقتضاه ذلك أن يتردد غير مرة على ضيعة روالث ، وتكرر لقاؤه للآنسة إيما ، ولما أتم علاج الساق المكسورة وكان روالث قد علم بفجيعته في زوجته الأولى دعاه في ذات صباح وقدم له أجر العلاج وأهدى إليه ديكاً رومياً وقال له وهو يربت على كتفيه « لقد جربت هذه الفجيعة ، وكنت في هذا الموقف نفسه ، وحينما فقدت زوجتى العريرة كنت أذهب إلى الحقول لأخلو بنفسى وسقطت على جذع شجرة ، وبكيت ودعوت الله . . . وكنت مستطار العقل إلى حد أنى لم أر شيئاً وفكرة الذهاب إلى المقهى منفرداً ملأت نفسى نفوراً . . . وكرت

الأيام يتلو بعضها بعضاً وبالتدرج تولى هذا الشعور ، لقد ذهب وغاص في الأعماق ، أعنى بذلك أن شيئاً يبقى في القاع كما يقول الناس ، يبقى راسخاً في قلب الإنسان ! ولكن ما دام هذا هو حظنا جميعاً فعلياً أن لا نستسلم لليأس ، ولا نريد الموت لأن غيرنا قد مات ، وعليك أن تتجدد ياسيد بوقارى ، وكل هذا سيزول ، فاحضر لزيارتنا ، وابنتى تفكر فيك في بعض الأحيان ، أتعرف ذلك ؟ وهى تقول إنه يبدو أنك قد نسيتها .

وعمل شارل بنصيحته ، فكان يتردد على الضيعة ويقص عليه الشيخ صاحب الضيعة طريف أخباره ، وتأكدت العلاقة بينه وبين إيما ، وشجع ذلك شارل على التقدم لخطوبتها ، وتم الزواج ، ولكن بعد انتهاء شهر العسل أدركت إيما أنها لا تحب زوجها ، ورأته على حقيقته رجلاً عادياً لا نصيب له من الخيال ولا عناية له بملبسه والحفاظ على مظهره الخارجى وليست له آراء مبتكرة ، وإنما هو يردد كالبغاء الآراء الشائعة الممجوجة ولا يميل إلى ارتياد المسرح ومشاهدة أحدث الروايات التمثيلية وحياته فى مجموعها بطيئة بليدة مكونة من أشياء صغيرة وتفاهات لا قيمة لها ، ولم يسوئها منه أنه من الناس الذين يمرون بالحياة دون أن يستبطنوا أسرارها ودخائلها فإن معظم الناس من هذا القبيل وإنما ساءها بوجه خاص أنه كان لا يفهم شيئاً ولا يحسن النظر حتى من الزاوية الضيقة التى يعيش بها ، وهو لا يرى ما يتجاوز أنفه ، وهو يعيش لأنه يجد ما يمسك عليه ريقه ويقم أوده ، وهى تعيش فى المستقبل وهو يعيش فى حاضره ، وهو مستغرق فى الواقع ، وهى مسترسلة فى الأحلام وهو كالمقيد بالمكان الذى يحتويه ، وهى هاربة بأفكارها وطموحها من مستقر وجودها ، فهو فى رأسها يمثل الحاضر الذى تضيق به وتمتته ، وإذا حدثته فهو لا يصغى لها ولا يفهم دلول حديثها ، وكل ما تحدثه عنه مناف لطبيعته ، وقا. قبلته خطيباً

ورضيته زوجاً لا لأنها أحبته وإنما بدافع من رغبته فى التغيير وميلها إلى مفارقة البيئة التى تعيش بها وتجربة لون آخر من ألوان الحياة ، وكانت نغمتها على حاضرها تزداد حدة مع مرور الأيام ، فهى لا تكف عن التطلع إلى التغيير الذى تحلم به ، كانت كالملاح الذى ألقى به السفينة الغارقة على شاطئ مهجور ، فهو لا ينى يدير الطرف فى الوحشة المحدقة به مترقباً رؤية الشراع الأبيض لأخفى فى الأفق غير عارف إلى أى مكان تدفع به الرياح ، ولكنها تنتظر فى كل صباح مجئ يوم الخلاص وحينما تغرب الشمس ويقبل الليل يغمر نفسها الحزن رتعاود التطلع إلى الغد المأمول .

ودعيت مع زوجها إلى حفلة أقامها مركز من أعيان الريف فى ضيعته ، وكان شارل قد عالجها وهدأ آلام برة أصيب بها ، وارتدت إيما خير ما عندها من الملابس وأزيىذت ورقصت مع أحد الحاضرين على نغمات الكمان ، وقد زادها حضور هذا الحفل ضيقاً بحياتها فعادت غاضبة نائمة ، وأخذت تحلم بالحياة فى باريس وغشيان المسارح والصالونات ، وتحدثت نفسها بأن هذا هو الوضع الذى يلائمها ويرضى نزعاتها ، وصارت حياتها الحاضرة تبدو لها فى صورة أضال من حقيقتها وأنزل من مستواها الحقيقى ، وقوى شعورها بأن زوجها أكثر فظاظة وأشد نكراً ، فكانت تقول لنفسها « ما أشد فقره وإجذاب نفسه وما أحقره وأهون شأنه ! »

وفى هذا الموقف العصيب والحالة النفسية المتأزمة ظهر فى أفق حياتها العاشق المنتظر فى صورة الشاب الوسيم الرشيق ليون كاتب أحد الخامن فى مدينة يونفيل القريبة من روين ، وكانت قد أغرت زوجها بالإقامة بهذه البلدة وولدت له بها طفلة ، وكان ليون مثلها يحلم بالحياة فى باريس ، وتحب الموسيقى ، وكان مما دار بينهما من الحديث فى أول لقاء قولها له « لى لا أعرف

أجمل من الجلوس إلى جانب الموقد في المساء مع كتاب جيد بينما الريح تعصف بزجاج النافذة والمصباح يرسل الضوء الباهر في الحجره .

فقلت إنما وقد حدثت إليه النظر بعينها الواسعتين السوداوين « هذا ما أراه تماماً » فاسترسل ليون قائلاً « إن الإنسان ينسى كل شيء والساعات تمضي بعضها في أثر بعض وينتقل الإنسان في البلاد التي يحسب أنه يراها ، وأفكار الإنسان التي يحملها تيار الرواية تجد متعة في كل تفصيل وإيضاح أو تتابع سرد أنجبار المغامرات وتصبح هذه الأفكار أجزاء من الشخصيات المختلفة ، ويتوهم الإنسان أنه هو نفسه الذي يتنفس في ملابسها » .

فأجابت إنما « هذا حقيقي ، هذا جد حقيقي » .
فضى ليون يقول « ألم يحدث لك أن صادفت فكرة غامضة ، فكرة غير واضحة تأتي من بعيد وبرغم ذلك تعبر عن أعماق مشاعرك الخفية ؟ » .
فأجابت إنما « لقد لحظت ذلك في أغلب الأوقات ، وهذا سبب ولوعي بالشعر بوجه خاص ، فإني أرى أن الشعر أرق حاشية من النثر وأنه يفجر الدموع من عيوننا بسهولة أكثر » .

فقال ليون « ولكن برغم ذلك سرعان ما تدأمنه ، وأنا على نقيض ذلك أحب قراءة القصص التي تسترسل بدون اعتراض وتكاد تجعلك خائفة وأكره الأبطال السوقيين والمواطف المبتذلة » .

وتكررت مناسبات التقائهما وشعر كل منهما بتقارب ميولهما ولكنهما لم يتبادلا مع ذلك ألفاظ الحب وعباراته ، وشعر ليون بأنها تحاول بكلماتها عواطفها لإرغامه على إعلان حبه لها .

وكانت تزداد في خلال ذلك كراهتها لزوجها شارل ، وكان اعتقاده بأنه لا يدخر وسعاً في العمل على إسعادها يبدو لها كأنه إهانة تدل على فرط الغباء ، وأنه

أجمل من غروب الشمس ، وبخاصة بجانب البحر » ، فأجابها ليون قائلاً « آه ، لني أهم بالبحر » فأجابته قائلة « ألا نرى أن العقل يبدو أكثر حرية وانطلاقاً حينما نواجه هذا الامتداد غير المحدود ، وأن روحنا تسمو حينما نتأمله ، وأنه يوحي إلينا أفكاراً عن المثل الأعلى وعن اللانهاية ؟ » .

فأجابها ليون قائلاً « هذا هو نفس ما يشعر به الإنسان في المناطق الجبلية ، ولي ابن عم قد سافر إلى سويسرة في السنة الأخيرة ، وقد أخبرني أن الإنسان لا يستطيع أن يتصور شعر البحيرات وجمال منحدرات المياه وتأثير الأنهار المتجمدة الضخم ، وهناك أشجار صنوبر سامقة بصورة لا تكاد تصدق متناثرة في سيول جبالها وبيوت صغيرة معلقة على هاويات وعلى مسافة ألف قدم في الأعماق أودية تلوح للناظرين حينما ينجلى الضباب ، وأمثال هذه المناظر يجب أن تملأ نفوسنا بالحاسة وتوحي إلينا العبادة والنشوة الروحية ، ولذلك لا يدهشني هذا الموسيقىقار الشهير الذي كان من عادته أن يذهب إلى أحد المواقع الفخمة ويعزف على البيان ليثير خياله ويزيده نشاطاً » .

فسألته إنما « هل أنت موسيقار ؟ » .

فأجابها قائلاً « كلا ، ولكنني شديد الولع بالموسيقى » .

« وأي نوع من أنواع الموسيقى تفضل ؟ »
فأجابها « أوه ، الموسيقى الألمانية ، إنها جد حلوة »
« أتعرف الأوبرات الإيطالية ؟ »

فأجاب ليون « لم أعرفها بعد ، ولكن في نيتي أن أوالى الذهاب إليها في السنة التالية ، حينما أعترم المعيشة في باريس وأفرغ من دراستي القانونية » .

وحينما قال شارل بوفاري في عرض الحديث « أن زوجتي تؤثر أن تظل دائماً في حجرتها لتقرأ » أجابه ليون قائلاً « إن شأنها في ذلك كشأنى ، ولا شيء بالتأكيد

نوع من إنكار الجميل ، وغلب على تفكيرها الاعتقاد بأنه هو العقبة القائمة في طريق سعادتها وأنه سبب الشقاء الذي تمانيه وألقت عليه تبة متاعها جميعها ، وكانت تود لو أن شارل أوسعها ضرباً حتى تجد مبرراً لكرهها له وضيقها به والعمل على الانتقام منه ، وكانت في بعض الأحيان تعجب من خواطرها الشريرة ، وبرغم ذلك كله كان عليها أن تتكلف الابتسام ، وتزعم أنها سعيدة ، وتدعى ذلك لتحمل الغير على تصديقها .

وكرهت هذا الرياء ومالت إلى الهرب مع ليون إلى أي مكان كان ما دامت تجدد فيها حياتها وتتخلص من رتابة عيشها الممل ، ولكنها كانت في الوقت نفسه تشك في حبه لها فإذا تصنع ؟

كانت كلما فكرت في ذلك تنهمر من عينها الدموع ويشد بها الكرب ، ولم يطمئن ليون لبقاء هذه العلاقة التي لم تسفر عن حب واضح صريح فأثر الابتعاد ونأى بجانيه عنها ، فأخذت تلوم نفسها وتأسى على ابتعادها عنها فقد كان النور الذي أضاء في ظلمات حياتها ، والأمل الوحيد الذي تعلق به في نوبات يأسها ، فلماذا أضاعت من يدها هذه الفرصة السعيدة ولماذا لم تحرص على اجتدابه وتيسير أسباب اقترابه ، واكتساب عطفه ووجهه ؟ وطاف ببألها أن تذهب إليه معتذرة متوسلة ، وترتمي بين يديه ، ولكنها أحجمت عن ذلك ، وكبر عليها الأمر وضاعف الأسف رغباتها وأطال حيرتها وأصبحت ذكرى ليون تثير شجاها ورواقد آلامها .

وأخذت تهدأ ثورة حبه له وتنظف وقدة هيامها به ، وساعت حالتها النفسية واعتلت صحتها ، وفي هذه الفترة ظهر رودلف بولانجيه صاحب ضيعة لأهيشت القريبة من يونفيل ، وهو رجل أعزب له دخل سنوي لا يقل عن خمسة عشر ألف من الفرنكات ، وكان قد جاء إلى شارل ليجري عملية فصد لحادمه ، وحضرت مدام بوفاري لإجراء العملية ، ونظر إليها بولانجيه

بعد انتهاء العملية وتبادل بعض الأحاديث مع الحاضرين ومنهم مدام بوفاري وقال لها « لقد سررت بمعرفتك » ودفع أجر إجراء العملية بغير أكثرات وانصرف .

وأعجب بولانجيه بمدام بوفاري ، واستماله جلالها ، وكان في الرابعة بعد الثلاثين من عمره ، وفي طباعه شدة وصرامة ولكنه كان واضح التفكير ، وله خبرة بأحوال النساء وطول معاشرته لمن جعلته يجيد فهمهن ، وقد أخذ يفكر في إيما لأنها حسناء فائنة ، وقال لنفسه « لاني أتصور أن زوجها غاية في الغباء وهي من غير شك قد سئمت معاشرته ، وأظافره قدرة ، وهو لم يحلق لحيته منذ ثلاثة أيام ، وهي بطبيعة الحال ترى أن معيشتها في هذه البلدة الصغيرة مملة ، وتفضل أن تعيش في المدينة وترقص في كل مساء ، وهذه المسكينة لا بد أن تكون نزاعة إلى الحب ، فإذا قال لها أي رجل ثلاث كلمات مهذبة فإنها ستعبده عبادة ، ولاني واثق من ذلك ، وستكون شديدة الحب قوية العطف ولكن كيف أتخلص منها بعد ذلك ؟ » وأخذ يقارن بينها وبين عشيقته التي ملها وبدأ يزهدها فيها ، وقال لنفسه « لاني أفر منها جيلاً وأكثر نضارة . . . » وعقد العزم على إيجاد علاقة معها وشرع يفكر في أقرب السبل إلى ذلك ، واستقر رأيه على اغتنام الفرص ، وأن يزور شارل في بعض الأوقات ويدعوه لزيارته مع زوجته ، وتسنع الفرصة المنتظرة ويلقى إيما ، ويقول لها في حديثه معها :

« لقد عاكسني الحظ في أشياء كبيرة ، ولقد عشت دائماً وحيداً ، آه فلو كان لي هدف في الحياة أو لو اقيمت عطفاً أو قابلت أحداً . . . لو حدث ذلك لكنت استنفدت كل ما عندي من طاقة ولكنك تغلبت على كل عقبة . »

فقالت له إيما « لا أظن بعد كل شيء أن حالتك يرثي لها . »

فسألها قائلاً « أتظنين ذلك ؟ » .

فقلت بعد أن ترددت لحظة « بعد كل شيء أنت
حر وغني » .

فقال « لا تسخرى مني » ففتت ذلك عن نفسها .

وقال لها في خلال هذا الحديث « إنى لم أجد مثل
هذه المتعة في الاجتماع بأى امرأة قبلك ولكنك ستسسينى
وسأكون كجرد خيال مر بحياتك ، ولكن لا ، من
المؤكد أننى أمثل شيئاً في أفكارك وحياتك » .

وكان هذا اللقاء والحديث في المعرض الزراعى ،
وصحبها رودلف حتى أوصلها إلى باب منزلها وودعها
وعاد أدراجه .

ومر على هذا اللقاء ستة أسابيع لم يرها فيها وقال
لنفسه « إنها إذا كانت قد أحببتى من اليوم الأول للقائنا
فإن ذلك الحب سيقوى ويزداد ، وستكون شديدة
الشوق إلى لقائى » وحيما زارها تأكد من إصابة ظنه ،
ووجد الفرصة سالحة لمصارحتها بحبه لها ، والواقع أن
لما لقيت رودلف في الفترة التى طغى فيها الممل على
نفسها ولفها في غياهبه ، وشعرت بأنها في حاجة إلى
حب يستولى عليها ، ويزود عنها السأم الذى تعانیه ،
فهى كانت تحرص على الدخول إلى عالم الحب لا إلى
رودلف ، وكان رودلف الذى هيا لها الفرصة ، وأشبع
في نفسها تلك الرغبة ، وقد عرفت متعة الحب ، وعاشت
فترة في عالم غريب لامع كله أحلام ومتعة ونشوة ،
فهى تحب الحب نفسه لا رودلف ، ورغبتها في أن
تعرف الحب هى سبب الخطيئة الأولى التى وقعت فيها
ثم يقع الخلاف بينها وبين رودلف وهو مأساة حياتها ،
فقد اتفقت معه على أن يهربا معاً ، ولكن رودلف غير
في آخر لحظة رأيه ، ونكث وعده ، ونقض وعده ،
وأرسل إليها رسالة يقدم بها أعذاره ، وكان لهذه الرسالة
أسوأ وقع في نفسها ، وانهارت أحلامها ، وفكرت
في الانتحار ، ومرضت مرضاً شديداً ، وحيما خفت
وطأة المرض صحبها زوجها شارل إلى المسرح ، وهناك

لقيت ليون ، وأعاد ذلك اللقاء نيران جهنم القديم إلى
الاشتعال ، وتجددت العلاقة الغرامية بينهما ، ولكن
الشاب ليون لم يقو على الثبات أمام عواطفها القوية
الاحتاجة ، وتعرضت لصدمة زادت همومها ، وبلبلت
خوابها ، وأوقعها في حيرة عز عليها المخرج منها ،
فقد أصبحت الصكوك التى كانت تستدين بموجبها
وتسرف في نفقاتها دون أن يعلم شارل واجبة
الدفع ، وصارت مهددة في كل لحظة بالحجز على
ما في منزلها وكل ما تملك هى وزوجها ، ولجأت إلى
ليون وتوسلت إليه أن يعمل على استئانة المبلغ المطلوب
سداده لتتعاشى الحجز ، ولكن ليون لم يوفق في
مساعيه ، ولم يبق أمامها إلا أن تستذل كرامتها وتنزل عن
كبريائها ولبائها وتذهب إلى رودلف تلتمس منه أن
ينقذها من ورطتها ، ويصف لنا فلوير لقاءها لرودلف
في الفصل من الثامن الجزء الثالث من الرواية فيقول
« سألت نفسها ماذا تقوله له وما الذى نوت أن تبدأ به
الحديث ، ومضت في طريقها وعرفت الأشجار
والأدغال القائمة فوق الرابية والقصر الرابض في سفحها
وشعرت بخنوها السابق عليه يعود إلها ، وخفق بالحب
قلبا المومج ، ودخلت من باب الحديقة الصغير كما
كانت تفعل في الأيام السابقة ، ومشت في الساحة
الكبرى التى كان يحف بها صفان من شجر الزيزفون
وكانت أغصانه تتمايل ويسمع حفيفها في الرياح ،
وأخذت الكلاب المقيدة بالسلاسل تنبح ، وأمكن لم
يظهر أحد برغم الضجة التى حدثت ، وصعدت على
الدرج الواسع المنحدر الذى يودى إلى الممشى المرصوف
وكان به حجرات عدة على طريقة الأديرة أو الفنادق ،
وكانت حجرتة في أقصى آخر الممشى من ناحية اليسار ،
وخشيت أن لا يكون هناك ، والواقع أنها كانت تأمل
أن لا يكون هناك ، وبرغم ذلك كان هو أملها الوحيد ،
وفرصتها الوحيدة للخلاص ، ولذلك انتظرت لحظة
لكي تستعيد جأشها وتشد من عزمها ، واستعانت

بالفكير في أزمته الراهنة على ابتعاث شجاعته ،
ودخلت الحجر ، وكان جالساً إلى جانب الموقد وقدماه
فوق حاجز الموقد وقد أشعل غليونه .

فقال وقد نهض مسرعاً « ها أنت ! » .

« نعم ها أنا ذا ، لقد جئت أسألك النصيحة
يا رودولف . »

« إنك لم تغري ، إنك دائماً فاتنة . »

فأجابت في مرارة « أوه ، إن محاسني قليلة
يا صديقي ما دمت تزدريها . »

فأخذ يحاول تفسير سلوكه معتذراً عن نفسه بكلمات
غامضة لأنه لم يستطع أن يبتكر أعذاراً أقوى وتركت
نفسها تقبل كلماته وتتأثر أكثر من ذلك بصوته ورويته
حتى تظاهرت بتصديقه أو ربما صدقته فيما قاله عن
سبب انقطاع العلاقة بينهما ، لقد كان سرّاً يتوقف عليه
شرف شخص ثالث ، بل حياته ، وقالت وقد نظرت
إليه في حزن « لقد شقيت كثيراً . »

فأجابها متفلسفاً « حسن ، هذا هو نصيب الإنسان
العادي في الحياة . فضت إنما تقول « مهما يكن من
الأمر فإني آمل أن حظك كان سعيداً منذ أفرقتنا . »

« أوه ، من هذه الناحية لم يكن هذا بوجه خاص
ولا ذاك . »

« ربما كان الأحسن أننا لم نفرق . »

« نعم ربما . »

فسألته قائلة « أحقاً تظن ذلك ؟ » واقتربت منه
وتابعت الحديث بعد أن نهلت تنهداً عميقاً « أوه ! لو
كنت تعلم يا رودولف ! لقد أحبيتك حباً قليل النضير
وأمسكت بيده وجلسا حيناً من الزمن مثل جلستهما في
اليوم الأول لقاتهما في المعرض الزراعي ، ولما رأت أنه
يجاهد في إخفاء حنوه بدافع الكبرياء قالت وقد ارتمت
على صدره « كيف تنتظر أن أعيش بدونك ؟
لا يستطيع الإنسان أن يتعود فقدان السعادة ، لقد كنت

يائسة ، وخطت أنه كان يجب أن أموت . . . في حين
أنك - أنت تجنبتني . »

ولقد كانت هذه هي الحقيقة ، فقد عمل على ذلك
في السنوات الثلاث الأخيرة ، بدافع ذلك الجبن الذي
يمز الجنس الأقوى ، وأسترسلت إيماءاً في حديثها محاولة
لإغراءه كالمهرة العاشقة ومحركات رشيقه من رأسها « إنك
متميم بنساء أخريات ، قل الحق ، أوه ! لاني أفهم ذلك
وأنا أعذرهن ، وأظنك أغويتن كما أغويتني ، وأنت
رجل فيك كل الصفات التي تمكنك من أن تجعل نفسك
محبوباً ، ولكننا سنبدأ ثانية أليس كذلك ولا تزال يجب
كل منا الآخر ؟ انظر ! لاني أضحك وأشعر بالسعادة !
. . . . تحدث لي ! » .

كان منظرها فاتناً جذاباً وقد ترقرت الدموع في
عينها مثل قطرات الندى في غلالة زهرة زرقاء ،
وجذبها إلى ركبتيه وداعب شعرها الذي انعكست عليه
أشعة الشمس الغاربة ، بظهر يده ، فأحنت رأسها فقبل
في رفق جفنها بطرف شفثيه .

وهتف قائلاً « ولكنك تبكين ! فما سبب ذلك ؟ »

فاشتمت تشجيعها ، وظن رودولف أنه مجرد تعبير عن
حبها ، ولكن لما كانت لا تزال صامتة فقد ظن أن
هذا آخر جهادها مع الاحتشام ، فغضبى يقول « أوه
ساحبيني ! إنك أنت المرأة الوحيدة التي أعنتني بها ،
ولقد كنت قاسياً وأحمتني ، لاني أحبك وسأظل أحبك
دائماً . . . فما شأنك ؟ أرجوك أن تخبريني » وركع على
ركبتيه إلى جانبها .

« حسن ، لقد دمرت حياتي يا رودولف ! أتعريني
ثلاثة آلاف فرنك ؟ » فقال وقد أخذ ينهض من ركوعه
بالتدريج وعلت وجهه سيما الجلد « ولكن . . . ولكن
هل هذا حقيقي . . . »

فضت مسرعة في حديثها قائلة « أنت تعرف أن
زوجي قد وضع أمواله في يد المحامي ، وقد هرب

وألقت بها من يدها في عنف إلى حد أن السلسلة الذهبية الرفيعة كسرت عند اصطدامها بالحائط .
فأجاب رودلف في هدوء تام كما يفعل الرجال حينما يدافعون عن أنفسهم متخذين الغضب درعاً « إنى لا أملك هذا المبلغ ! » .

فخرجت ، وبدالها كأن الحيطان تهتز وأن السقف سينقض ، ونزلت من الممشى الطويل ، وكانت تتعثر في أكداس الأوراق الجافة التي تندروها الرياح ، وكسرت أظافرها في محاولة في فتح البوابة الصغيرة ، وعلى بعد مائة ياردة توقفت عن السير لاهثة من الإعياء وشعرت كأنها توشك أن تسقط .

وأحست كأن الأرض تدور بها ، وكانت لا تعي وجودها إلا بتيار الدم السريع المتدفق في شرايينها ، وكانت تستطيع أن تعتقد أنها سمعته يفلت منها مثل الموسيقى التي تصم الآذان والتي ملأت ما حولها ، وكانت الأرض تحت قدمها ألين من الأمواج وبدت أخايد الأرض كأنها أمواج داكنة ، وظهر لها أن كل ما تتذكره وأفكارها جميعها كأنها تفر منها مثل آلاف الشظايا في عرض كبير للألعاب النارية ، ورأت والدها ومكتب ليهيريه وحجرتها ومنظراً طبيعياً آخر ، وشعرت كأنها قد فقدت صوابها وتمشى الخوف في نفسها ، ولكنها نجحت في استعادة جأشها ولو أنها كانت لا تزال مضطربة النفس قد اختلط علمها الأمر ولم تستطع أن تتذكر سبب الحالة الرهيبة التي تعانها أى أنها كان باعها المال ، ولم تذكر إلا شقاءها في الحب ، وشعرت بأنها تفقد روحها في تلك الذكرى كالجرحي من الرجال الذين يشعرون وهم يعانون غصص الموت بأن حياتهم تساقط من خلال جروحهم الدامية .

وأقبل الظلام ، وبدأ طير العققق يعود إلى مواطنه ، وفجأة بدا لها كأن كريات نارية تنفجر في الهواء مثل الكرات المدوية وأنها تدور وتعلو حتى تختفي في الثلج

الهامى ، وكان علينا أن نفترض ، والمرضى لا يدافعون ، وضبيعة والده لم تصف بعد ، وسنحصل على المسال قريباً ، ولكن إذا لم نجد ثلاثة آلاف فرنك فان منزلنا سيحجز عليه اليوم ، ولقد يحدث ذلك في أية لحظة ، وقد جئتكم معتمدة على صداقتك » .

ففكر رودلف الذي اشتد فجأة اصفرار وجهه « أوه ! هذا هو السبب الذي جاءت من أجله » ولكنه قال في هدوء تام « ليس عندي ما يعادل هذا المبلغ يا عزيزتى » .

وكان بلا شك صادقاً فيما قال ، ولو كان يملك هذا المبلغ لأعطاه لها من غير شك ، ولو أنه باعتبار القاعدة عامة من أعمال العطف التي لا ترتاح لها النفس ، وليس أكثر قضاء على الحب من طلب المساعدة المالية ، فنظرت إليه في صمت دقيقة أو دقيقتين ، ثم قالت : « ليس عندك هذا المبلغ ! » وكررت ذلك قائلة « ليس عندك المبلغ ! . . . كان يجب أن أجنب نفسي هذا العار الأخير ، إنك لم تحبني قط ولست خيراً ممن الآخرين ! » .

ولكن رودلف اعترض حديتها قائلاً إنه هو نفسه في ضيق مالى ، فقالت « إنى حزينة من أجلك ! نعم أنك مأزوم في الواقع » ورأت بندقيّة ماسورتها مرصعة في أحد الأركان فقالت « حينما يكون الإنسان مأزوماً لا يكون عنده ألواح من الفضة في كرتافة بندقيته ولا يشتري ساعة حائط مغلفة بعظم الساحفة ولا صفاير مطلية ولا تعويذات لسلسلة ساعته ، فعنده كل ما يريد . . . وأنت في رغد من العيش ، وعندك جوستق ، ولك ضباع وغابات ، وتذهب للصيد وتقضى جزءاً كبيراً من وقتك في باريس ، وإذا لم يكن عندك شيء سوى هذه الأزرار (وتناولت أزرار القميص من المشجب) فانك تستطيع أن تحصل منها على المال ! أه إنى لا أريدها ! احتفظ بها » .

وذهبا إلى المر الذي يقضى إلى باب العمل، وكان هناك مفتاح معلق على الحائط ، وصاح الكيميائي الذي بدأ يقلق « جستن ! »

فقال « اصعد إلى الطابق العلوي ، فتبعها ، وفتحت المغلاق بالمفتاح واتجهت إلى الرف الثاني مباشرة (لأن ذاكرتها خدمتها جيداً) وأمسكت بالزجاجة الزرقاء ورفعت سداتها وأدخلت يدها وتناولت كمية من المسحوق الأبيض وشرعت في ابتلاعها .
فصاح بها ممسكاً بيديها قائلاً « توقفى ! » .

فأجابته « التزم الصمت ، وإلا حضر بعض الناس » .

فلم يدر ما يصنع ، وأراد أن يدعو أحداً لنجدته ، ولكنها طلبت إليه أن لا يقول شيئاً لأن الخطأ جميعه سيقع على سيده ، وذهبت إلى بيتها ، وشعرت فجأة بالارتياح كأنها قد أنجزت واجباً .

وهكذا وصف لنا فلوبيير عودة أمها خائبة من قصر رودلف ، وتصميمها على تناول السم ، وكيف ذهبت إلى دار الكيميائي هوميز وابتلعت الزرنيخ .

ولما عاد شارل إلى المنزل ووجدها سألها « ما الخبر » وطلب منها أن توضح له جلية الأمر ، وكانت حينذاك جالسة إلى مكتبها وقد آتمت كتابة رسالة له وطوتها ، بعد أن أثبتت بها التاريخ والساعة ، وقالت له في لهجة جادة « لا تقرأ هذه الرسالة إلا غداً ، وبين هذا وذاك أرجوك أن لا توجه إلى أى سؤال » .

ويشدد بها الألم وتسوء حالتها ، ويسرع شارل إلى الرسالة ويفحصها ويقرأها ويعرف أنها تناولت السم ، ويطلب النجدة ، وتتقاذفه لجج الحزن ، فتقول له إيما « لا تبك ، فبعد قليل لن أتعبك أبداً » .

فيقول لها شارل « ولماذا ؟ ما الذي دفعك إلى ذلك ؟ » .

بين فروع الأشجار ، وظهر وجه رودلف في وسط كل منها ، وأخذ عددها في التكاثر وتقارب بعضها من بعض ، واخفتت أخيراً ، وعرفت حينئذ أضواء المنازل التي كانت تضيئ خلال السحاب في الأفق ، ثم أخذت تدرج موقفها على حقيقته ، وقد بدا أمامها كالهواية الفاغرة ، ولهت كأن صدرها كان سيتمزق ، واتقدت في نفسها حماسة بطولية جعلتها تكاد تشعر بالسعادة ، فانطلقت إلى أسفل التل وعبرت الجسر الخشبي واجتازت المر الضيق ، وبعد أن عبرت الميدان وصلت إلى حانوت الكيميائي

ولم يكن هناك أحد ، وهمت بالدخول ، ولكن يمكن أن محضر أحد على صوت الجرس ولذا تلمست طريقها إلى الحائط وقد حبست أنفاسها حتى وصلت إلى باب المطبخ حيث كانت هناك شمعة مشتعلة فوق الموقد ، وكان جستن يحمل طبقاً للخارج ، فقالت لنفسها « أوه ! أنهم يتناولون عشاءهم وعلى أن أنتظر » ولما عاد قرعت النافذة قرعاً خفيفاً ، فخرج ، فقالت له « اعطني مفتاح الحجره التي في الطابق العلوي حيث يوجد . . . » .

« ماذا تعنين بذلك ؟ » . . ونظر إليها وقد عرته الدهشة لاصفرار وجهها فقد بدا أبيض اللون في ظلمة الليل ، وظهرت له غاية في الجمال وقد حفها الجلال كأنها طيف مائل ، وبدون أن يفهم ما كانت تريده أدرك أن شيئاً مخيفاً سيحدث ، ولكنها بادرت مسرعة إلى القول في نغمة رقيقة منخفضة متوسلة « إني أريده ، إعطني إياه » .

وكانا يستطيعان أن يسمعا من خلال الحاجز الرقيق صوت السكاكين والشوك في حجرة الطعام ، وادعت أنه تريده لقتل الفيران التي منعتها من النوم .

فقال « ولكن لا بد من أن أخبر السيد هوميز » .
فأجابته قائلة « إن الأمر لا يستحق لإزعاجه » ، وسأخبره في الحال ، أرجوك أن تربني النورية .

فتجاوبه قائلة « كان على أن أفعل ذلك يا عزيزي »
فيقول شارل « ألم تكوني سعيدة؟ وهل أخطأت؟
لقد بذلت كل ما في وسعي؟
« هذا حق . . . أنك طيب جداً . . . »

وأمرت يدها في بطء على شعره ، وعمقت عذوبة
هذا الإحساس حزنه ، وشعر بأن حياته جميعها تنهار
أركانها حينما فكر في أنه سيفقدها في الوقت الذي
تعترف فيه بحبها له .

واضطرب شارل بعد موتها إلى أن يبيع كل ما يملك
من الأشياء النفيسة وأثاث المنزل ليسدد الديون ، وفتح

في النهاية درج مكتب إيما فوجد فيه الرسائل التي كان
يبعث بها لآلها ليون ، وصورة رودلف ، فتضاعف
حزنه وكبر عليه الأمر ، ورفض أن يرى مرضاه
وآوى إلى حجرته معزلاً الناس وكان يتمشى في حديقة
داره جيئة وذهوباً وهو يبكي بصوت مسموع ، وفي
ذات يوم وجدته طفلته الصغيرة ميتاً وفي يده خصلة
طويلة من شعر إيما الأسود اللون .

وهذه هي مأساة مدام بوقاري التي بذل فلوبير
في كتابتها جهداً جباراً فجاءت طرفة من طرائف الفن
الحالدة في موضوعها وفي أسلوبها .



رسالة منطقيّة فلسفية للورثج فتجنشتاين

بمستلم
الدكتور عزيمى اسلام

بدلاً من إقامة نسقات فكرية أو ميتافيزيقية متكاملة .
أصبحت الفلسفة لديه بمعنى آخر فلسفة للفلسفة ،
وأصبح عمل الفيلسوف عنده هو أن يكون فيلسوفاً
للفيلسوف بتحليله لما يقول :

كما تعود أهمية فتجنشتاين أيضاً إلى أنه كان أول
من نادى بأن قواعد المنطق - إن هي ، إذا حللناها -
إلا قواعد اللغة ، فأوجد بذلك نوعاً من التوازي بين
قواعد كل منهما على أساس أن صورة المنطق ، ومن
ثم صورة الفكر شيء واحد : وقد تبعه في هذا
الكثير من الفلاسفة فيما بعد مثل كارناب :

هذا فضلاً عن الأثر البالغ الذي تركه فتجنشتاين
في كل التيار الفكرى الوضعى والتحليلى المعاصر ،
الأمر الذى جعل دراسة الفلسفة فى اتجاهها التحليلى
أو الوضعى المنطقى شيئاً متعذراً بغير دراسة أفكار
فتجنشتاين وتحليلاته المنطقية التى اعتبرها برتراند رسل
لعمقها واتساع مجالها حدثاً هاماً فى تاريخ الفلسفة .

حياة فتجنشتاين

ولد للدفيج جوزيف يوهان فتجنشتاين
Ludwig Joseph Johann Wittgenstein فى

يعتبر فتجنشتاين ، على الرغم من النقد الذى
يوجه لى فلسفته بصفة عامة ، أحد العلامات الهامة
على طريق الفكر الفلسفى المعاصر ، حتى لقد ذهب
بعض مؤرخى الفلسفة المعاصرة مثل بتشر Pitcher
إلى القول بأن فتجنشتاين كان واحداً من كبار فلاسفة
القرن العشرين إن لم يكن أعظمهم بالفعل :

وتعود أهمية فتجنشتاين إلى أن فلسفته - وخاصة
تلك المتمثلة فى رسالته المنطقية الفلسفية - كانت بمثابة
نقطة تحول حاسمة فى تاريخ الفلسفة المعاصرة والمنطق
الجديد ، ولم يكن ذلك راجعاً إلى ما توصل إليه من
نتائج فلسفية بقدر ما يرجع إلى المنهج التحليلى الذى
اتبعه فى بحثه الفلسفى ، حتى أن كثيراً من المعاصرين -
على حد تعبير دافيد بول فى كتابه عن فلسفة
فتجنشتاين - يؤكدون أن كل طرق التفلسف القديمة
أصبحت غير مقبولة منذ ظهور مؤلفات فتجنشتاين :
وتعود أهمية فتجنشتاين كذلك إلى أن فلسفته
كانت أشبه ما تكون بالثورة على الفلسفة التقليدية
وذلك بدعوته إلى تغيير المفهوم القديم للفلسفة
فأصبحت عنده عبارة عن تحليل للغة التى نتكلم بها فى
الفلسفة أو نعبّر بها عما نثيره من مشكلات فلسفية

وقد اختار فتنجشتين بعد انتهاء الحرب مهنة التدريس ، وتدرّب عليها في الفترة بين عامي ١٩١٩ ، ١٩٢٠ في كلية المعلمين بفيينا ، ومارس هذه المهنة لمدة ست سنوات ثم استقال منها عام ١٩٢٦ . وبدأ في خريف العام نفسه في عمل استغراق فيه طوال سنتين كاملتين ، وهو بناء منزل في فيينا لإحدى أخواته وقد تعرف لآليه في تلك الأثناء موريس شليك مؤسس جماعة فيينا وفريدريش فايزمان أحد أعضائها ، ثم عاد إلى كبروج مع بداية عام ١٩٢٩ وتقدم برسائله المنطقية الفلسفية للحصول على درجة الدكتوراه ، وحصل عليها في يونيو من العام نفسه ، وأصبح ابتداء من عام ١٩٣٠ زميلاً في كلية تربيتي . وقد ظل فتنجشتين يعمل في كبروج حتى نهاية العام الجامعي ١٩٣٥-١٩٣٦ ثم رحل إلى النرويج وظل بها لمدة عام تقريباً بدأ فيه تأليف كتابه « أبحاث فلسفية » ، ثم عاد إلى كبروج عام ١٩٣٧ وخلف جورج مور عام ١٩٣٩ على كرسي الفلسفة بها حتى قامت الحرب العالمية الثانية فاشترك فيها مساهماً في الأعمال الطيبة بمستشفيات لندن ونيوكاسل . ثم اعتزل كرسي الفلسفة بالجامعة عام ١٩٤٧ وارتحل إلى أيرلندا وظل بها إلى أن أكمل الجزء الثاني من كتابه « أبحاث فلسفية » ، وقد تبين له في تلك الأثناء أنه مريض بالسرطان الذي ظل يعاني منه حتى توفي في كبروج عام ١٩٥١ .

أعماله :

لم يكن فتنجشتين مكثراً في إنتاجه الفلسفي بل كان مقلاً ، حتى إنه لم ينشر في حياته إلا كتاباً واحداً هو « رسالة منطقية فلسفية » ، ومقالا له بعنوان « بعض ملاحظات على الصورة المنطقية » . وكل ما نشر من كتاباته - سواء قبل وفاته أو بعدها - كان عميقاً يصعب فهمه أحياناً حتى بالنسبة لتلاميذه الذين كانوا يستمعون إلى محاضراته ، الأمر الذي أدى إلى ظهور

السادس والعشرين من شهر أبريل عام ١٨٨٩ بالنمسا وتلقى أول تعليم له بالمنزل حتى سن الرابعة عشرة ثم التحق بمدرسة لينتز Lintz في شمال النمسا لمدة ثلاث سنوات التحق بعدها عام ١٩٠٦ بالأكاديمية الصناعية في برلين وظل بها حتى عام ١٩٠٨ حين سافر إلى إنجلترا والتحق بجامعة مانشستر لدراسة الهندسة واستمر بها حتى عام ١٩١١ . وقد شُغل في هذه الفترة - بالإضافة إلى دراسته - بأبحاث قام بها في الملاحة الجوية ، انتقل من تجاربه فيها على الطائرات الشراعية إلى إنشاء محرك نفاث للطائرات وكان عمل المحرك أول الأمر هو موضع اهتمامه ، إلا أنه سرعان ما ركز كل اهتمامه على تصميم المحرك ، وكان هذا التصميم في أساسه عملية رياضية الأمر الذي دفعه إلى الاهتمام بالرياضة فاتجه أولاً إلى الرياضة البحتة ثم إلى أسس الرياضيات وفلسفتها ، وبدأ بدراسة الجزء النظري من أسس الرياضيات فقرأ كتاب « أصول الرياضيات » لبرتراند رسل الذي كان قد ظهر عام ١٩٠٣ . وفي عام ١٩١١ توقف فتنجشتين عن دراسة الهندسة وارتحل إلى ينا Jena في ألمانيا لكي يناقش أفكاره عن أسس الرياضيات مع فريجه G. Frege الذي نصحه بالتوجه إلى كبروج للدراسة مع رسل ، فعاد إليها في السنة نفسها وظل بها يدرس الفلسفة والمنطق والرياضيات فضلاً عن علم النفس والموسيقى وفلسفة الجمال حتى خريف عام ١٩١٣ حين ارتحل إلى هولنده وأقام لنفسه بها كوخاً صغيراً بالقرب من مقاطعة سكولدن ، عاش فيه متفرغاً للفلسفة حتى اندلعت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ فتطوع في جيش النمسا ، ووقع في الأسر أثناء انهيار الجيش النمساوي الهجري في نوفمبر من عام ١٩١٨ ، وظل أسيراً حتى أغسطس من العام التالي ١٩١٩ بأحد معسكرات الاعتقال في جنوب إيطاليا .

المنطقية الفلسفية وبممكننا القول بأن هذه المؤلفات الثلاثة والرسالة بصفة خاصة توضح الأثر الكبير الذي تركه كل من فريجه وورسل في تفكير فتنجشتين المنطقي والرياضي وقد عبر فتنجشتين عن ذلك في مقدمة رسالته بقوله «لأنني لن أشير إلا إلى مؤلفات فريجه التي أنا مدِين لها ، كما أنني مدِين لكتابات صديقي برتراند رسل من حيث استشارة أفكارى هذه» .

٤ - مؤلفان كبيران مكتوبان باللغة الألمانية على الآلة الكاتبة (لم ينشرا بعد) .

(١) الأول منها بحث يقع في حوالي ثمانمائة صفحة مقسمة إلى أجزاء وفصول .

(ب) والثاني يحمل اسم « ملاحظات فلسفية » Philosophische Bemerkungen وكان موضوعهما عاما شاملا ، وإن كان فتنجشتين يعطى فيهما اهتماماً خاصاً لفلسفة الرياضيات ويمثلان موقف فتنجشتين الفلسفي بصفة عامة سنة ١٩٣٠ حين بدأ يراجع أفكاره الفلسفية الأولى .

٥ - محاضرات فتنجشتين فيما بين عامي ١٩٣٠

- ١٩٣٣ ، وهي بعض الملاحظات التي استطاع جورج مور جمعها من محاضرات فتنجشتين ومناقشاته في كامبردج في تلك الفترة وقد نشرت بالعنوان السابق في مجلة مايند عام ١٩٥٤ (عدد يناير سنة ١٩٥٤ من صفحة ١-١٦ ، وعدد يولية من صفحة ٥٣٠-٥٥٩ ، وعدد يناير ١٩٥٥ من صفحة ١ - ٢٧) ثم أعاد مور نشرها ضمن مجموعة مقالات له ظهرت بعنوان « بحوث فلسفية » Philosophical Papers عام ١٩٥٩

٦ - « الكتابان الأزرق والبنّي » Blue and

Brown Books وهو العنوان المختصر لهذين الكتابين اللذين ظهرتا في مجلد واحد عام ١٩٥٨ (وقد أعيد طبعهما عام ١٩٦٠ ، ثم عام ١٩٦٤) والكتاب

كثير من الكتب الحديثة يحاول مؤلفوها شرح أفكار فتنجشتين الفلسفية التي أوجزها في مؤلفاته القليلة . وخير مثال لذلك ظهور أكثر من خمسة أبحاث في السنوات العشر الأخيرة ، يحاول أصحابها - وأغلبهم من تلاميذ فتنجشتين ، مثل أنسكوم Ancombe أن يفسروا ما ذهب إليه في رسالته المنطقية الفلسفية التي ظهرت لها ترجمتان إنجليزيتان حتى الآن مختلفتان إلى حد ما في تناول النص الأصلي الذي كتبه فتنجشتين باللغة الألمانية .

وفيما يلي أهم مؤلفات فتنجشتين الفلسفية ، مرتبة ترتيباً زمنياً :

١ - المذكرات Notebooks التي كتبها في الفترة

بين عامي ١٩١٤ ، ١٩١٦ وقد ترجمتها إلى الإنجليزية أنسكوم التي قامت بنشرها كذلك بالاشتراك مع فون رايت عام ١٩٦١ في بلاكويل بإنجلترا وتعتبر هذه المذكرات بصفة عامة نموذجاً طيباً لأفكاره الفلسفية الأولى التي ركزها بعد ذلك وبلورها في رسالته المنطقية الفلسفية .

٢ - « رسالة منطقية فلسفية »

Logich — Philosophische Abhandlung

ونشرت باللغة الألمانية عام ١٩٢١ ، ثم باللغة الإنجليزية عام ١٩٢٢ بالعنوان اللاتيني الذي عرفت به وهو Tractatus Logico-Philosophicus بعد أن ترجمها أوجون Ogden وكتب لها رسل مقدمة طويلة وسأتناول بالتفصيل أهم أفكار فتنجشتين في هذه الرسالة فيما بعد .

٣ - « بعض ملاحظات على الصورة المنطقية »

Some Remarks on the Logical Form

وهو مقال باللغة الإنجليزية نشر في « منشورات الجمعية الأرسطية عام ١٩٢٩ ، يستكمل فيه فتنجشتين الإطار المنطقي الذي أسهب في الحديث عنه في رسالته

٩ - « قصاصات » Zettel

وهي مجموعة من الملاحظات التي كتبها فئجنشتين على قصاصات في الفترة بين عام ١٩٢٩ ، وعام ١٩٤٨ . وأغلب الملاحظات المنشورة في هذا الكتاب تتعلق بالفترة بين عامي ١٩٤٥ ، ١٩٤٨ - وقامت بترجمتها أنسكوم ونشرتها بالاشتراك مع فون رايت عام ١٩٦٦ . وتعتبر هذه الملاحظات عن أهم أفكار فئجنشتين الجديدة التي ظهرت مرتبة مبلورة في كتابه « أبحاث فلسفية » .

١٠ - « أبحاث فلسفية »

Philosophische Untersuchungen

وهو مكون من جزئين انتهى فئجنشتين من أولهما عام ١٩٤٥ ، أما الجزء الثاني فقد كتبه بين عامي ١٩٤٧ ، ١٩٤٩ وقد قامت أنسكوم بترجمتها إلى اللغة الانجليزية ونشرته بالاشتراك مع ريز Rhees عام ١٩٥٣ (وأعيد طبعه عام ١٩٥٨ ، ثم عام ١٩٦٣) . ويعتبر هذا الكتاب (١) بمثابة المراجعة الأخيرة أو التصحيح النهائي لأفكار فئجنشتين السابقة ، وقد عبر عن هذا المعنى بقوله في مقدمة الكتاب - إنني قد اضطررت أن أتبين أخطاء جسيمة فيما كتبت في الكتاب الأول مثل فكرته عن الأنا وحديه وفكرته عن الذرية المنطقية : (٢) كما يعتبر في الوقت نفسه بمثابة تطوير لأفكاره القديمة الواردة في رسالته المنطقية الفلسفية ، أو هو بمثابة إعادة ترجمة لهذه الأفكار القديمة في سياق فلسفي جديد متطور .

* * *

الرسالة المنطقية الفلسفية

Tractatus Logico-Philosophicus

تعتبر رسالة فئجنشتين المنطقية الفلسفية من أهم المؤلفات التي ظهرت في الثلاثينيات الأخيرة ، سواء بالنسبة للمنطق أو بالنسبة لفلسفة التحليل المعاصرة :

الأزرق عبارة عن محاضرات ألقاها فئجنشتين في كمبرج أثناء العام الجامعي ١٩٣٣ - ١٩٣٤ ، أما الكتاب البني فقد أملاه على اثنين من طلبته هما فرانسيس سكينر F. Skinner وأليس ابروز A. Ambrose أثناء العام الدراسي ٣٤ - ١٩٣٥ . وترجع تسمية هذين الكتابين بالأزرق والبني إلى لون الغلاف الذي كان كل منهما مغلفا به ، بحيث تداول تلاميذ فئجنشتين قراءة هذه الكتب مع تسميتها بلون الغلاف الذي كانت النسخة الأولى من كل منهما مغلفة به . وترجع أهمية هذين الكتابين إلى أنهما توضحان بصفة خاصة كثيراً من العبارات الغامضة في رسالته المنطقية الفلسفية ، كما أنهما توضحان تطور أفكاره الفلسفية - وخاصة الكتاب الأزرق - لأنه كان محتوى على ما أسماه فئجنشتين بالفلسفة الجديدة التي تمثلت فيما بعد في كتابه « أبحاث فلسفية » :

٧ - « ملاحظات على أسس الرياضيات »

Bemerkungen über die Grundlagen

der Mathematik وهي مختارات من ملاحظات كتبها فئجنشتين فيما بين عامي ١٩٣٧ - ١٩٤٤ ترجمتها أنسكوم ونشرتها بالاشتراك مع ريز Rhees عام ١٩٥٦ ثم أعيد طبعها عام ١٩٦٤ وهي تمثل أفكار فئجنشتين الجديدة المتعلقة بأسس الرياضيات بصفة خاصة وبالعلاقة الرياضية بالمنطق بصفة عامة .

٨ - « محاضرات في الجمال وعلم النفس والدين »

وهي مقتطفات من العدد القليل من المحاضرات التي ألقاها فئجنشتين في كمبرج عام ١٩٣٨ عن فلسفة الجمال فضلا عن عدة ملاحظات كتبها فئجنشتين عن علم النفس والدين في ذلك الوقت (وقد جمع هذه المحاضرات والملاحظات ريز R. Rhees ، وسميثيز Y. Smithies ونشرها سيريل باريت Barrett عام ١٩٦٦ .

فهي كانت ذات أثر بالغ في الفكر الفلسفي بصفة عامة ، وفيما يتعلق بالاتجاهات الفلسفية المؤيدة للاتجاه التحليلي المنطقي خاصة ، مثل مدرستي كمبردج وأكسفورد وكذا فلسفة الوضعية المنطقية .

ولا يكاد الإنسان يغالى في القول بأن هناك شبه إجماع بين دارسي الفلسفة المعاصرة على أهمية «رسالة» فتنجشتين وأثرها البالغ في الفكر الفلسفي المعاصر فيقول رامزي مثلاً في كتابه «أسس الرياضيات» (صفحة ٢٧٠) «إن الرسالة كتاب له أهمية غير عادية ويستحق أن يوليه كل الفلاسفة اهتمامهم الشديد» ، كما يقول ماكسويل في كتابه «الفلسفة والتحليل اللغوي» (صفحة ٩٣) «إن الإنسان يستطيع القول - بلا مبالغة - إن كل الفلسفة الانجليزية التالية لظهور الرسالة ، كانت متضمنة في الرسالة نفسها على نحو أو آخر» . ويعبر ستينوس عن هذا المعنى أيضاً في كتابه «رسالة فتنجشتين المنطقية الفلسفية» (صفحة ١٦) بقوله «إن الرسالة كانت ذات أثر بالغ في الحياة الفكرية المعاصرة» وهو المعنى ذاته الذي يذكره بنشر في كتابه «فلسفة فتنجشتين» (صفحة ٦) حين يقول «إن الرسالة أحدثت تأثيراً عميقاً في كل ما تلاها من أفكار فلسفية» ، مؤيداً بذلك قول موريس شليك بأن ظهور رسالة فتنجشتين كان بمثابة نقطة تحول حاسم في تاريخ الفلسفة .

هذا ويمكننا تلخيص أهمية رسالة فتنجشتين بصفة عامة في أنها قدمت لنا طريقة مثيرة وجديدة في كيفية تناول المشكلات القديمة للفلسفة ، وذلك بتحليل القضايا التي نصوص فيها هذه المشكلات تحليلاً منطقياً يوضح أن أغلبها ليست إلا مشكلات زائفة وانها لم تنشأ إلا نتيجة لسوء فهم منطق اللغة . ولقد كان لهذه الفكرة أبلغ الأثر في فلسفة التحليل

المعاصرة المتمثلة في مدرستي كمبردج واكسفورد ، وخاصة عند رايل وأوستن وستروسون وويزدم . ولقد عبر دافيد بول في كتابه فلسفة فتنجشتين المتأخرة» عن أهمية المنهج الذي اتبعه فتنجشتين بقوله «يكفى أن نقول إن فتنجشتين قد ابتدع طريقة جديدة للتفلسف ، بل إن كثيراً من المعاصرين يؤكدون أن كل طرق التفلسف القديمة أصبحت غير مقبولة في الفلسفة منذ ظهور مؤلفاته» . كما أن فكرة فتنجشتين عن تحقيق القضايا في «الرسالة» بمقارنتها بالدافع الخارجي ، كانت ذات أثر بالغ في ظهور مبدأ التحقق عند فلاسفة الوضعية المنطقية بصفة عامة ، وبعد أن تطور في فلسفة اير Ayer إلى ما يعرف بالتحقق الفعلي والتحقق الممكن .

فضلاً عن أن الرسالة كانت تطبيقاً للمنطق الرمزي على أوسع نطاق ، على حد تعتبر بلا نشارد في كتابه «العقل والتحليل» (صفحة ١٣٥) ، كما كانت في الوقت نفسه استكمالاً للنقائص الموجودة في محاولات رسل وفريجه المنطقية .

كما ويعتبر فتنجشتين في «رسالته» أول من تكلم في المنطق المعاصر على أنه مجرد علامات اتفاقية لا تكشف عن طبيعة الأشياء ، الأمر الذي جعله ينتهي فيها إلى أن قضايا المنطق كلها تحصيلات حاصل.

تكوين «الرسالة» .

تعتبر رسالة فتنجشتين المنطقية الفلسفية تعبيراً موجزاً عن تأملاته في الفلسفة والمنطق والرياضيات لفترة لا تقل عن ست سنوات آخرها عام ١٩١٨ حين انتهى من كتابة مسودتها قبل أن يقع أسيراً في العام نفسه أثناء اشتراكه في الحرب العالمية الأولى . وقد نشرت الرسالة لأول مرة باللغة الألمانية عام ١٩٢١ في الحلة السنوية لفلسفة الطبيعة ثم غير فتنجشتين عنوان الرسالة إلى الإسم اللاتيني الذي

تكون العبارة رقم ٤,٥ شرحاً للعبارة رقم ٤ وللعبارات الموجودة بين رقم ٤ ورقم ٤,٥ وهكذا .

وتتكون أيضاً من عبارات فرعية أخرى رقمها فتجنشتين بأعداد مثنوية مثل ١,١١ وهذه تكون تعليقاً على العبارات ذات الرقم العشري مثل ١,١ وبالتالي على العبارة الأساسية رقم ١ وهكذا تتفرع العبارات بحيث تكون كل عبارة فرعية جديدة شرحاً لما سبقه أو تمهيداً لما يأتي بعدها من عبارات ، وفي هذا الصدد يقول فتجنشتين في بداية رسالته « إن الأعداد العشرية كأرقام للقضايا المنفصلة توضح الأهمية المنطقية للقضايا ، وقد ركزت على هذا الموضوع أثناء حديثي في هذا الكتاب . فالقضايا ١ ، ٢ ، ٣... الخ هي بمثابة الشروح للقضية ن كما أن القضايا ن م ، ١ ، ن م ٢... الخ تعتبر بمثابة التعليقات على القضية نوم ... وهكذا .

لأن فتجنشتين لا يلتزم التزاماً دقيقاً بهذه القاعدة فهو أحياناً يستخدم عبارات مرقمة بأعداد مثنوية أو ألفية لكي يتناول بها القضية الأصلية مباشرة ، كما هو الحال في العبارة رقم ٢,٠١ التي تكون تعليقاً على العبارة السابقة لها مباشرة وهي رقم ٢ إذ ليس في الرسالة وجود لعبارة رقمها (٢,٠) ، وكالعبارة رقم ٣,٠٠١ التي تكون تعليقاً على العبارة السابقة لها مباشرة وهي رقم ٣ إذ لا وجود لعبارة رقمها (٣,٠٠) أو (٣,٠) في الرسالة .

ولقد كانت طريقة كتابة الرسالة على هذا النحو من أهم الأسباب التي أدت إلى وصف هذا الكتاب الهام بالصعوبة بل وحتى بالغموض ، وهو رأى يجمع عليه كل من تناول « الرسالة » بالدراسة مثل ارستينوس الذي يذهب إلى أن « الرسالة » عمل فلسفي بالغ الصعوبة ، ويعترف صراحة بعدم فهمه بعض عباراتها فيقول في مقدمة كتابه « رسالة فتجنشتين

أقترحه جورج مور بعد ترجمتها إلى اللغة الإنجليزية على غرار الإسم اللاتيني الموسوم به كتاب سبينوزا « رسالة لاهوتية فلسفية » - Tractatus Theologico- Politicus وقد قام أوجدن بترجمة الرسالة إلى اللغة الإنجليزية بمعاونة بعض المتخصصين في الفلسفة من أصدقاء فتجنشتين مثل فرانك رامزي ، ونشرها كيجان بول في حوالي ثمانين صفحة باللغة الألمانية ، تقابلها صفحات ماثلة عليها الترجمة الإنجليزية ، مع مقدمة لرسول تقع في سبع عشرة صفحة يلخص فيها أهم أفكار فتجنشتين الفلسفية ويشرح أهم المصطلحات الواردة بها .

وتتكون « الرسالة » من سبع قضايا أساسية - هي في نظر فتجنشتين أكثر عبارات الكتاب أهمية - رقمها بأعداد صحيحة تبدأ من ١ وتنتهي بالعدد ٧ وهي على التوالي :-

- ١ - العالم هو جميع ما هنالك .
- ٢ - إن ما هو هنالك ، أي الواقعة ، هو وجود الوقائع الذرية .
- ٣ - الفكر هو الرسم المنطقي للوقائع .
- ٤ - الفكر هو القضية ذات المعنى .
- ٥ - القضايا عبارة عن دالات صدق للقضايا الأولية . (والقضية الأولية هي دالة صدق نفسها) .
- ٦ - إن الصورة العامة لدالة الصدق هي : [ق ، غ ، ن ، (غ)] وهي تقرأ هكذا : نسبة القضية المعينة إلى سياقها في حالي الإثبات والنفي .
- ٧ - إن ما لا يستطيع الإنسان أن يتحدث عنه ، ينبغي أن يصمت عنه .

كما تتكون أيضاً من عبارات فرعية أخرى رقمها بأعداد عشرية مثل ٤,٥٢١,١ تكون شرحاً للقضايا الأساسية السابقة أو تعليقاً عليها ، فتكون العبارة رقم ١,١ مثلاً تعليقاً على العبارة رقم ١ كما

٦ - براند بلانشارد الذي ذهب في كتابه « العقل والتحليل » إلى أن منطق فئجنشتين في الرسالة قد بلغ حداً من الصعوبة أن كان منطق هيرجل إلى جانبه شيئاً واضحاً مفهوماً .

والواقع أن من يقرأ رسالة فئجنشتين يصطدم لأول وهلة بهذه الصعوبة أو بهذا الغموض ويصبح حاله كحال بتشر الذي يقول في مقدمة كتابه عن « فلسفة فئجنشتين » إن الرسالة كتاب صعب في عباراته عبارة عبارة ، وغالباً ما يشعر الإنسان أثناء قراءته إياها لأول مرة بأنه قد فشل في فهم ما قد قيل في كل عبارة على حده . إلا أن فئجنشتين لم يكن يعتمد الصعوبة أو الغموض في رسالته ، بل كان يرمى دائماً إلى الوضوح بقدر الإمكان ، حتى إنه جعل من الوضوح الكامل شرطاً أساسياً للفلسف ، وجعل وظيفة الفلسفة مقصورة على مجرد توضيح القضايا والعبارات بتحليلها تحليلاً منطقياً يكشف عما إذا كانت ذات معنى أو لم تكن . ولقد عبر فئجنشتين عن هذا المعنى في أكثر من موضع من رسالته ، وخاصة في العبارة رقم ١١٦، التي تقول « إن كل ما يمكن التفكير فيه على الإطلاق يمكن التفكير فيه بوضوح ، وكل ما يمكن قوله ، يمكن قوله بوضوح » .

ونحن لو تحللنا عن محاولة فهم كل عبارة من العبارات الأساسية في الرسالة على حدة ، لوجدناها أشبه ما تكون بالكل المترابط ولأضحت أمامنا خطأ فكرياً متصلاً يبدأ من العبارة رقم ١ وينتهي بالعبارة رقم ٧ ماراً بالعبارات الفرعية المتوسطة التي تزيد ليضاحاً وغنى وثناء . فهو يتكلم في العبارة الأولى عز العالم وتحليله ، ثم يتناول الوحدات النهائية التي ينحل إليها العالم . وهي الوقائع الذرية في العبارة الثانية ، ثم يربط بين الفكر وبين هذه الوقائع الذرية في العبارة الثالثة ، ثم بين الفكر واللغة في العبارة الرابعة ، وبالتالي بين اللغة وبين العالم فيكون الفكر هو القضية ذات

المنطقية الفلسفية « إن عبارات هذه الرسالة تنقسم إلى أربعة أنواع هي :

أولاً : عبارات أعتقد أنني أفهمها وأظن أنها عبارات هامة ، وهي بالطبع أحسن أجزاء الرسالة .
ثانياً : عبارات أعتقد أنني أفهمها ، وإن كنت أظن أنها عبارات مضللة ، ولذا فإن قيمتها تكون نالية لقيمة العبارات الأولى .
ثالثاً : عبارات لم أفهمها ولذا فإنني لا أستطيع تحديد قيمتها .

رابعاً : عبارات تبدو من ناحية مما يمكن فهمه إلا أنها تبدو من ناحية أخرى تعطينا انطباعاً غامضاً غير محدد ، ولذا فهي ليست مما يتعذر قبوله أو رفضه .
٢ - ماكسويل تشارلز روث الذي يذهب في كتابه « الفلسفة والتحليل اللغوي » إلى أنه لا يوجد شيء في تاريخ الفاسفة كله يمكن أن يساعدنا على فهم الرسالة ، فهي مكتوبة على شكل سلسلة من الأقوال الفلسفية المفككة الغامضة .

٣ - فرانك رانزي الذي يذهب في كتابه « أسس الرياضيات » إلى أن الرسالة كتاب يصعب فهمه إلى أقصى حد .

٤ - أنسكوم التي ذكرت في كتابها « مقدمة لرسالة فئجنشتين » إن الأفكار في كتاب فئجنشتين كانت مضغوطة جداً حتى أصبح من الضروري أن يتوقف الإنسان عند كل كلمة لينظر في معناها حتى يمكنه أن يفهم عباراته الأمر الذي جعل باتون Paton يذهب في التمهيد الذي صدر به كتاب أنسكوم إلى القول بأن الكتاب يتطلب جهوداً كبيراً من القارئ حتى يستطيع أن يفهمه .

٥ - ماكس بلاك الذي يقول في مقدمة كتابه عن رسالة فئجنشتين أننا لانكاد نجد عملاً فلسفياً من الصعب فهمه والسيطرة عليه كما هو الحال بالنسبة لرسالة فئجنشتين .

فالفلسفة ليست نظرية من النظريات ، بل هي
فاعلية . ولذا يتكون العمل الفلسفي أساساً من
توضيحات ، ولا تكون نتيجة الفلسفة عدداً
من القضايا الفلسفية إنما هي توضيح للقضايا .
فالفلسفة يجب أن تعمل على توضيح وتحديد الأفكار
بكل دقة ، وإلا ظلت تلك الأفكار معتمة ومبهمة -
إذا جاز لنا هذا الوصف .

والتحليل عند فتنجشتين هو السمة البارزة في
فلسفته ، بل إن بعض مؤرخي الفلسفة المعاصرة -
مثل ماكويل - يذهبون إلى أننا نستطيع أن نتكلم
لأول مرة بطريقة صحيحة عن وجود فلسفة للتحليل
حينما نتكلم عن فلسفة فتنجشتين .

وهو يستخدم التحليل كمنهج في الفلسفة لا كغاية
فلسفية ، فهو لا يستهدفه لمجرد تقسيم العالم إلى عدد
من الوقائع ، أو لرد اللغة إلى عدة قضايا ، إنما
يستخدمه كي يوصله إلى غاية أبعد من ذلك ، هي
توضيح المشكلات الفلسفية - وخاصة الميتافيزيقية -
التي إذا حللناها زال عنها كل غموض ، واتضح
أنها مشكلات زائفة ، أو أنها ليست بمشكلات أصلاً .

والتحليل عند فتنجشتين لا يضيف إلى معرفتنا
معرفة جديدة ، ولا تنتج عنه مبادئ جديدة ، بل
هو مجرد طريقة توضح ما نقوله - لكي نتبين بناء
عليها - ما له معنى من كلامنا وما لا معنى له .

ومنهج التحليل عند فتنجشتين كما يتمثل في
« الرسالة المنطقية الفلسفية » ، يعتمد على رد ما هو
مركب إلى عناصره الأولى ، أو وحداته الأولية
البسيطة التي لا تنحل إلى ما هو أبسط منها . فالعالم
عنده بناء على ذلك ينحل إلى وقائع (عبارة رقم ١٠١) ،
والوقائع تنحل إلى أشياء أو بسائط (عبارة رقم ٢٠١) ،
كما أن اللغة تنحل إلى مجموعة من القضايا الأولية
(٤٠٥٢) والقضية الأولية تنحل إلى أسماء (٤٠٢٢) ،
وهكذا .

المعنى . ثم يحلل اللغة في العبارة الخامسة ، منبها إلى
أن جميع القضايا عبارة عن دلالات صدق للوحدات
الأولى التي تنحل إليها اللغة وهي القضايا الأولية .
ثم يتكلم عن تعميم القضية وكيفية الوصول إلى صورة
عامة لكل قضية ذات معنى ، أي تكون دالة صدق
لقضايا أولية موضحاً الصورة العامة لدالة الصدق
في العبارة السادسة ، ثم يختم رسالته بالعبارة
السابعة التي ينصحنا فيها بأن نسكت عن الكلام إذا
لم نستطع أن نقول كلاماً يأخذ شكل الصورة العامة
لدالة الصدق الواردة في العبارة السادسة التي تعبر عن
الصورة العامة للقضايا ذات المعنى .

• • •

فلسفة فتنجشتين في الرسالة :

يمكننا أن نعرض بإيجاز لأهم أفكار فتنجشتين
الواردة في رسالته - وخاصة ما يتعلق منها بالفلسفة
والمنطق وكانا موضع اهتمامه الرئيسي فيها - من خلال
عرضنا لتحليلاته المختلفة ، وذلك على النحو الآتي :-

أولاً : معنى الفلسفة ووظيفتها :

يربط فتنجشتين بين الفلسفة والتحليل ، وهو
بنسبته يعطى للتفلسف بعداً جديداً غير الأبعاد التي
كانت تستخدم في إقامة نسقات فكرية ميتافيزيقية
متهاسكة . فالفلسفة عنده منهج يتبع وأسلوب يصطاع
في تناول المشكلات وليس تفكيراً تأملياً مجرداً
يهدف إلى إقامة نسقات مثالية ، إنها طريقة لحل
مشكلات الفلسفة لا إلى خلق مشكلات جديدة
وإضافة صعوبات أخرى في طريق الفكر الإنساني .
إنها تحليل للمشكلات عن طريق تحليل عبارات اللغة
التي نصوغ فيها تلك المشكلات وقد عبر فتنجشتين
عن ذلك المعنى بقوله في العبارة رقم ١١٢ ر ٤ « إن
موضوع الفلسفة هو التوضيح المنطقي للأفكار .

ثانياً : تحليل العالم :

يبدأ فتنجشتين رسالته المنطقية الفلسفية بالحديث عن العالم في حين أن الغرض الأساسي من فلسفته في هذه الرسالة هو تحليل اللغة ، وبيان كيف يكون سوء فهمنا لمنطقها هو السبب في كثير من مشكلات الفلسفة . وكان الأولى به أن يبدأ بحته باللغة وتحليلها إلا أنه فضل أن يبدأ بتحليل العالم . وأرجح أن يكون مرجع تفضيله هذا إلى أن تحليل اللغة بالطريقة التي ذهب إليها في رسالته يستلزم تحليل العالم أولاً لأن صدق أو كذب القضايا الأولية التي تنحل إليها اللغة إنما يتوقف على مدى مطابقتها ، للواقع الخارجي ، لأن القضية الأولية ليست إلا وصفاً لواقعة من الوقائع التي ينحل إليها العالم .

والعالم عند فتنجشتين « هو جميع ما هنالك » (عبار رقم ١) ، فهو يتكون من كل ما هو موجود ، وإن كان وجود هذه الموجودات يتبدى في شكل وقائع لا في شكل أشياء بسيطة منفصلة . ولذا فالعالم عنده « هو مجموع الوقائع لا الأشياء » (١،١) ، أي أن الواقعة هي الوحدة الأولى التي ينتهي إليها تحليل العالم وإن كانت هي نفسها تنحل بدورها إلى أشياء . وهو في هذا يتفق مع رسل الذي يذهب في « فلسفة الذرية المنطقية » إلى أن « العالم الخارجي لا يمكن وصفه وصفاً كاملاً بواسطة مجموعة من الأشياء المفردة ، بل يجب أن ندخل في اعتبارنا أيضاً هذه الأشياء التي أسميها بالوقائع » ، فالواقعة عند رسل ليست شيئاً جزئياً ، بقدر ما هي مركبة من شيء (أو أكثر) بالإضافة إلى صفاته وعلاقته .

كما يتفق كذلك مع تشارلز بيرس الذي يذهب إلى أن الوجود الخارجي يتعلق أولاً بالوقائع ولا يتعلق بالأشياء إلا من حيث عناصر هذه الوقائع .

ثالثاً : تحليل الوقائع

لا يكاد القارئ لرسالة فتنجشتين يجد تعريفاً محدداً لمعنى الواقعة ، إنما يمكن القول بأنها هي ما تجعل القضية صادقة أو كاذبة . وهو يستخدم كلمة واقعة في رسالته على أكثر من نحو : -

(١) فالواقعة إما مركبة (fact) Tatsache تتكون منها وقائع أخرى أبسط منها وإما بسيطة لا تتكون من وقائع أخرى أبسط منها ، ويسمى فتنجشتين بالواقعة الذرية Sachverhalt . والوقائع الذرية هي : -

١ - أبسط ما يمكن أن ينحل إليه الوجود الخارجي فإذا قلت مثلاً « سقراط حكيم » جاء هذا القول معبراً عن واقعة ذرية ، أما إذا قلت « سقراط حكيم وأفلاطون تلميذه جاء قولك معبراً عن واقعة مركبة لا واقعة ذرية بسيطة .

٢ - على من كونها أبسط وحدات ينتهي إليها تحليلنا للعالم، إلا أنها هي في حد ذاتها مما يمكن تحليله . وليس في هذا تناقض ، فالواقعة الذرية بسيطة من حيث أنها أبسط مستوى من الوقائع يمكن أن ينتهي إليه تحليلنا للعالم ، وهي مركبة بمعنى أنها تتكون من أشياء أو عناصر بسيطة . وهذا ما يفسر لنا قول فتنجشتين « إن العالم مجموع الوقائع لا الأشياء » (عبارة رقم ١،١) لأن الأشياء بالنسبة له ليس لها وجود مستقل منفصل عن الوقائع التي تدخل في تكوينها - « فن جوهر الشيء أن يكون مكوناً ممكناً لواقعة ذرية ما » (٢،١١) - ولذا فالأشياء تتضمن إمكان حملها لأية حالة من حالات الواقع (٢،١٤) - « وكما أننا لا نستطيع تحليل الأشياء المكانية خارج المكان ، ولا الأشياء الزمانية خارج الزمان ، فكذلك لا نستطيع أن نتخيل شيئاً ما معزولاً عن إمكان ارتباطه بأشياء أخرى (٢،١٢١) وعلى ذلك

فالشيء في ذاته ليس له وجود منفصل عن الواقعة،
معنى أن ما له وجود هو الوقائع لا الأشياء، وإن
كان وجود الوقائع معتمداً على وجود الأشياء .

٣ - أنها مستقل بعضها عن بعض بحيث أننا
« لا نستطيع من وجود أو عدم وجود واقعة ذرية
ما أن نستنتج وجود أو عدم وجود واقعة ذرية
أخرى » (٢,٠٦٢) فن وجود واقعة ذرية ولتكن ق
(الكتاب أزرق) مثلاً لا نستطيع أن نستنتج وجود
واقعة أخرى ل (الكتاب على يمين القلم) أو عدم
وجود واقعة أخرى مثل م (الكتاب بين القلم
والحبرة) إذ ليست هناك ضرورة منطقية ولا واقعية
تستلزم مثل هذا الاستدلال .

٤ - أنها مكونة من أشياء مرتبطة بعلاقات
معينة وليست مجرد مجموعة من الأشياء ، وفي هذا
الصدد يقول فتجنشتين « ان التركيبة التي قوامها أشياء
هي التي تشكل الواقعة الذرية » (٢,٠٢٧٢) « ففي
الواقعة الذرية تتشابهك الأشياء أحدها بالآخر كحلاقات
السلسلة » (٢,٠٣) « أو هي ترتبط بعضها ببعض على
نحو محدد » (٢,٠٣١) والطريقة التي تتشابهك بها
الأشياء في الواقعة الذرية يسميها فتجنشتين ببنية
الواقعة ، أما إمكان ترابط الأشياء على نحو معين ،
أى إمكان قيام هذه البنية فيسميه بصورة الواقعة .
وعلى ذلك فبنية الواقعة تتعلق بالواقعة نفسها ، بينما
صورة الواقعة تتعلق بالأشياء التي تتكون منها هذه
الواقعة وبإمكان ترابط هذه الأشياء على هذا النحو أو
ذاك ، أى في هذه الواقعة أو تلك .

٦ - هي ليست ثابتة بل متغيرة ، أما الثابت فهي
الأشياء التي تتكون منها الوقائع الذرية ، ويعبر
فتجنشتين عن هذا المعنى بقوله في العبارة رقم ٢,٠٢٧١
« ان الشيء هو الثابت ، وهو الموجود ، أما المتحول
المتغير فهو البناء المركب من أشياء » والتركيبية التي
قوامها أشياء هي التي تشكل الواقعة الذرية . ولتوضح

ذلك أقول : لو كانت أممي ثلاثة أشياء أرمز لها
بالرموز ا ، ب ، > مرتبة على النحو التالي في
واقعة ذرية (ب بين ا ، >) فان هذه الواقعة
يمكن أن تتغير بتغير العلاقة الموجودة بين العناصر التي
تكونها ، فتصبح مثلاً (ا بين ب ، >) وتكون هذه
واقعة جديدة غير الواقعة الذرية الأولى . وقد تتغير
هذه الواقعة الجديدة فتصبح مثلاً (> بين ب ، ا)
وهي واقعة تختلف عن الواقعتين السابقتين .. وهكذا
ظلت ا ، ب ، > ثابتة بينما تغيرت الوقائع بتغير
الروابط التي تربط بين هذه العناصر الثابتة .

(ب) والواقعة أيضاً إما أن تكون موجبة فتشير
إلى ترابط الأشياء على نحو معين في الواقع الخارجي
كأن أقول (القلم على يمين الكتاب) ويكون القلم
موجوداً بالفعل على يمين الكتاب . وإما أن تكون
سالبة فلا تمثل الطريقة التي توجد بها الأشياء في
الواقع الخارجي ، وفي هذا الصدد يقول فتجنشتين
ان « وجود الوقائع الذرية أيضاً يسمى بالواقعة الموجبة
وعدم وجودها يسمى بالواقعة السالبة » (عبارة رقم
٢,٠٦) . ولتوضح ذلك نفترض أن العالم كله
يحتوى على ثلاثة أشياء هي ا ، ب ، > نسميها
على التوالي بالرموز التالية : ل ، م ، ن في هذه
الحالة يمكننا أن نكون القضايا الذرية الآتية :

١ - ل م بحيث تشير إلى الواقعة الذرية المكونة من
ا ، ب ولرمز لها بالرمز ق١ .

٢ - م ن بحيث تشير إلى الواقعة الذرية المكونة من
ب ، > ولرمز لها بالرمز ق٢ .

٣ - ل ن بحيث تشير إلى الواقعة الذرية المكونة من
ا ، > ولرمز لها بالرمز ق٣ .

ولنفرض أن القضيتين الأوليتين ل م ، م ن
فقط صادقتان ، أما القضية الأخيرة (ل ن) فهي
كاذبة . في هذه الحالة سيكون العالم مكوناً من

واقعتين ذريتين فقط هما ق₁ ، ق₂ بحيث يعبر اتصالهما معاً عن كل الصدق الموجود في العالم .

لكن قد يكون هناك من يعترض على ذلك القول بأننا أهملنا في حديثنا عن العالم شيئاً آخر بالإضافة إلى ق₁ ، ق₂ هو عدم وجود الواقعة المكونة من ا ، ح . في هذه الحالة يمكن القول بأن العالم مكون من ثلاث وقائع هي : ق₁ ، ق₂ ، لا ق₃ وسنحتاج بالتالي إلى قضية سالبة لا موجبة لكي نعبّر بها عن لا ق₃ أو عن عدم وجود ق₃ . ولكن لكي يكون قولنا هذا صحيحاً ، لا بد - بناء على رأي فتجنشتين - أن يكون هناك في الواقع الخارجي ما يجعل هذه القضايا صادقة ، لأنه « إذا كانت القضية الأولية صادقة ، كانت الواقعة موجودة ، وإذا كانت كاذبة ، كانت غير موجودة » (عبارة رقم ٤,٢٥) ، وهو شرط متوفر بالنسبة للقضيتين الأوليتين (ل م) ، م ن اللتين تعبران عن الواقعتين ق₁ ، ق₂ على التوالي ، لكنه لا ينطبق على القضية الثالثة لا (ا ح) التي عبرنا عما تشير إليه بالرمز لا ق₃ . إلا أن الرمز لا ق₃ لا يعنى وجود الواقعة ، أو هو يعنى عدم وجود مجموعة مكونة من ا ، ح في الواقع الخارجي .

إذن ما الذي يقابل هذه القضية السالبة في الواقع الخارجي ؟ يقابلها عدم اتصال ا ، ح في مجموعة واحدة أو واقعة ذرية معينة ، وعلى ذلك فإن صدق لاق ٣ يرجع إلى انفصال ا عن ح أو عدم وجود واقعة مكونة من ا ، ح في العالم .

رابعاً : تحليل اللغة :

كان تحليل اللغة هو الهدف الأساسي من فلسفة فتجنشتين بصفة عامة ، وفي رسالته المنطقية الفلسفية على وجه الخصوص ، وقد عبر فتجنشتين عن هذا المعنى في أكثر من موضع من رسالته . وهو حين يحلل اللغة ينتهي إلى أن أبسط وحدة نصل إليها هي

القضية لا الاسم ، كما كان الحال في تحليله للعالم حين انتهى إلى الوقائع لإلى الأشياء . « فاللغة هي مجموع القضايا » (عبارة رقم ٤,٠٠١) كما أن العالم هو مجموع الوقائع لا الأشياء .

هذا ويمكننا تصنيف القضايا عند فتجنشتين طبقاً لتحليلاته المختلفة في الرسالة على النحو الآتي

١ - من حيث الصدق أو الكذب - وهي عنده ثلاثة أنواع :

١ - قضايا صادقة بالضرورة ، أى صادقة في جميع الظروف الممكنة ولا يمكن تصورها على أنها كاذبة على الإطلاق ، ويسمى فتجنشتين بقضايا تحصيل الحاصل Antology ويمثل لها بالقضايا المنطقية والقضايا الرياضية ، مثل قضايا الذاتية (ا ، هـ ، ا) ، والقضية الرياضية (٢ + ٢ = ٤) . وهي في نظره لا تقول شيئاً فإني لا أعرف مثلاً أى شيء عن حالة الطقس حين أعرف أن السماء إما أن تمطر أولاً تمطر » (عبارة رقم ٤,٤٦١) ..

٢ - قضايا كاذبة بالضرورة ، أى كاذبة في جميع الظروف الممكنة ، ولا يمكن تصورها على أنها صادقة على الإطلاق ، ويسمى فتجنشتين بقضايا التناقض مثل (ا هـ لا ا) أو (ا هـ ب ولا ب) .

٣ - قضايا يمكن تصورها على أنها صادقة ، كما يمكن تصورها على أنها كاذبة ويكون حكمنا في هذه الحالة على مدى صدق القضية أو كذبها بناء على مقارنتها بالوجود الخارجي الذي تصوره ، وهي القضايا التجريبية أو قضايا العلوم .

ب - من حيث المعنى .. وهي عند فتجنشتين على نوعين هما :

١ - قضايا لها معنى لأنها تقول شيئاً مثل القضايا

التجريبية أو العلمية التي تتحدث عن الوجود الخارجي فتجيب رسماً له سواء كان هذا الرسم مطابقاً للواقع فتكون القضية صادقة ، أو غير مطابق للنمو الذي يوجد عليه الواقع فتكون كاذبة .

٢ - قضايا خالية من المعنى لأنها لا تقول شيئاً بحكم تركيبها مثل قضايا الرياضة وقضايا المنطق وكذا قضايا الميتافيزيقا .

فقضايا المنطق تحصيلات حاصل ولذا فهي قضايا تحليلية لا تجربنا خبراً جديداً عن الواقع الخارجي وهذا ما يفسر السبب في « عدم إمكان إثباتها تجريبياً بأكثر من رفضها تجريبياً ، إذ لا يكفي في قضية المنطق استحالة أن تنقضها أية خبرة ممكنة ، بل لا بد لها كذلك من استحالة أن تؤيدها أية خبرة ممكنة » (العبارة رقم ٦،١٢٢٢) .

وقضايا الرياضيات أيضاً تحصيلات حاصل طالما أن « الرياضيات هي إحدى طرق المنطق » عبارة رقم ٦،٢ عند فتنجشتين . ولذا فصدق أو كذب القضية التحليلية رياضية كانت أو منطقية لا يتوقف على مدى مطابقتها للواقع الخارجي لتتحقق مما إذا كانت تصوره أم لا ، بل يتوقف على مدى اتساق القضية نفسها بحيث لا تبدو متناقضة بذاتها ، كما هو الحال في القضية الرياضية التي هي عبارة عن معادلة ، والتي يكون صدقها موجوداً في القضية نفسها لا بمقارنتها بالوجود الخارجي . فإذا كان هناك تعبيران يرتبط أحدهما بالآخر بعلاقة التساوي ، مثل $٤ + ٦ = ١٠$ فإن ذلك يعني إمكان استبدال أحدهما بالآخر ويلزم أن يكون ذلك بارزاً في التعبيرين معاً على حد سواء » عبارة رقم ٦،٢٢ أي واضحاً في القضية نفسها .

وهذا ما ينطبق أيضاً عند فتنجشتين على قضايا الفلسفة وخاصة الميتافيزيقا « فعظم القضايا والأسئلة التي كتبت عن أمور فلسفية ليست كاذبة ، بل هي

خالية من المعنى . فلنستطيع إذن أن نجيب عن أسئلة من هذا القبيل ، وكل ما يسعنا هو أن نقرر عنها أنها خالية من المعنى عبارة رقم ٤،٠٠٣

ح - من حيث الكيف .. وهي عنده نوعان هما :

١ - قضايا موجبة - وهي التي تفيد في رسالة فتنجشتين أن الأشياء الموجودة في العالم الخارجي قد ترابطت على نحو معين في واقعة ما ، وهي قد تكون صادقة إذا جاء ما تفيدته القضية رسماً صادقاً للواقع الخارجي وإلا كانت كاذبة .

٢ - قضايا سالبة - وهي التي تفيد في فلسفة فتنجشتين أن الأشياء الموجودة في العالم الخارجي ليست مترابطة على نحو معين مثل « (لا) ع) ب » وهي أيضاً قد تكون صادقة أو كاذبة بقدر تصويرها للواقع الخارجي .

د - من حيث الكم .. وهي عند فتنجشتين على نوعين رئيسيين هما : -

١ - قضايا تصدق كل منها على واقعة واحدة فقط ، كأن أقول « سقراط مفكر » أو « القلم على يمين الكتاب » ، وهي ما يسميها فتنجشتين بالقضية الأولية Elementarsatz ويسمها رسل بالقضية الذرية في مقابل الواقعة الذرية التي ترسمها هذه القضية .

والقضية الأولية هي الوحدة النهائية التي يرتد إليها تحليلنا للغة ، هي أبسط أنواع الكلام لأنها تعبر عن أبسط أنواع الوحدات التي ينحل إليها الوجود الخارجي وهي الوقائع الذرية . وكما أن الواقعة الذرية تتكون من أشياء ، فكذلك تتكون القضية الأولية من أسماء تشير إلى هذه الأشياء . وكما أن الأشياء ترتبط في الواقعة الذرية على نحو أو آخر ، فكذلك ترتبط الأسماء في القضية الأولية على هذا النحو أو ذلك بحيث تجي رسماً صادقاً أو كاذباً لما هو موجود في الواقع .

والقضية الأولية لا ترسم الواقعة الذرية فقط عند فتجنشتين ، بل لأنها تثبت وجودها أيضاً ، وهو في هذا الصدد يقول « إن أبسط قضية ، أى القضية الأولية ، تثبت وجود واقعة ذرية ما » عبارة رقم ٤,٢١ . فاذا قلت « اعلى ميم ب » فهذا يعنى أن الوجود الخارجى موجود على النحو الذى أوضحته . وهو كون ا على ميم ب بالفعل — إذا كانت القضية صادقة . وهذه الفكرة عند فتجنشتين هى ما تسمى باسم النظرية التصويرية للغة ، تلك النظرية التى لزم عنها قوله بفكرة تحميق القضية — وهى الفكرة المعروفة فى الفلسفة الوضعية بمبدأ التحقق — على الرغم من أنه لا يكاد يستخدم كلمة تحقق verification فى فلسفته ، بل نجده يستخدم كلمة مقارنة فيقول فى العبارة رقم ٢,٢٢٣ « لكى نكشف عما إذا كان الرسم صادقاً أو كاذباً يلزم أن نقارنه بالوجود الخارجى » ، كما يقول فى العبارة رقم ٤,١٥ « أن الوجود يقارن بالقضية » .

كما ترتب أيضاً على قول فتجنشتين بتحقيق القضية بمقارنتها بالواقع الخارجى ، نتيجة على جانب كبير من الأهمية فى فلسفته وهى القول بالأنا وحدية (أو الأناة Solipsism) أو بالمثالية الذاتية المتطرفة . إذ أن مقارنة الوجود بالقضية تم حين تكون الواقعة حاضرة فى خيرة الشخص الذى يعقد هذه المقارنة حتى يمكنه معرفة ما إذا كان هناك تطابق بينهما أم لا . ولا كانت الخبرة شيئاً خاصاً بالضرورة ، شيئاً شخصياً أو ذاتياً ، لزم عن ذلك أن الإنسان لا يستطيع أن يعرف شيئاً على أنه موجود باستثناء ما يقع فى خبرته هو ، الأمر الذى يجعل معنى العالم مقصوراً على ما يدركه الإنسان ويستطيع أن يعبر عنه باللغة . كما يضيف من مفهوم اللغة ذات المعنى فتصبح محدودة بما يقوله الإنسان من قضايا تعبر عما يقع فى خبرته هو . وقد عبر فتجنشتين عن هذه النتيجة بقوله « إن معنى أن العالم هو عالمى ، يتبدى فى الحقيقة

القائلة بأن حدود اللغة (اللغة التى أفهمها) تعنى حدود عالمى » (عبارة رقم ٥,٦٢) وهو بهذا يقرب إلى حد كبير من مثالية بركلى الذاتية المتمثلة فى عبارته المشهورة « الوجود هو الإدراك » ، وإن كان قد حاول التخلي عن هذه الفكرة فى فلسفته المتأخرة بعد ذلك .

والقضايا الأولية مستقلة منفصلة كل واحدة منها عن الأخرى ، شأنها شأن الوقائع الذرية التى ترسمها : فلا تتضمن أية واحدة منها واحدة أخرى ولا تتناقض معها لأن كل استدلال منطقي يتعلق عند فتجنشتين بالقضايا غير الأولية ، « فلا يمكن استدلال أية قضية أولية من قضية أولية أخرى » (عبارة رقم ٥,١٣٤) ، فاذا قلت مثلاً « سقراط حكيم » فإن صدق هذا القول لا يستلزم صدق أو كذب القول بأن « سقراط أثينى » . أو بالعكس والقضايا الأولية تتصف كذلك بصفة بالغة الأهمية بالنسبة لمنطق فتجنشتين ، وهى أنها أسس صدق للقضايا ، بمعنى أن القضايا الأولية هى التى تخلع الصدق على القضايا (عبارة رقم ٥,١١) طالما أن « القضايا هى كل شيء ينتج عن القضايا الأولية » (عبارة رقم ٤,٥٢) بناء على اتخاذ إجراء معين لإزاء إحدى القضايا الأولية . ويمثل فتجنشتين لهذه الإجراءات بالنفى والجمع المنطقي والضرب المنطقي والتعميم . . . مثل (لاق) التى تنتج عن القضية الأولية (ق) بتطبيق لإجراء النفى .

٢ - قضايا لا تصدق كل منها على واقعة واحدة بل أكثر ، ولذا فهى ليست قضايا بالمعنى الحقيقى عنده بقدر ما هى دالات صدق للقضايا الأولية . وفتجنشتين يستخدم كلمة دالة function بالمعنى الذى تستخدم به فى الرياضيات ، فاذا كانت $v = ٢$ س + ٥ مثلاً ، كانت ص هى دالة س بمعنى أن قيمة س هى التى تحدد قيمة ص ، وأن قيمة ص تتوقف على قيمة س ،

بل هي دالات صدق لقضايا أولية أجرينا عليها
 لإجراء التعميم بحيث يتوقف صدقها أو كذبها
 على صدق أو كذب القضايا الأولية التي عمناها :
 فإذا كانت لدى قضية أولية مثل «سقراط عاقل»
 وأجريت عليها إجراء التعميم فوضعت اسماً متغيراً
 (إنسان) بدلا من الاسم الثابت (سقراط) لحصلت
 على القضية الكلية التالية «الإنسان عاقل» وهي عند
 فتجنشتين مجرد دالة قضية وليست بالقضية ، لأن
 صدقها أو كذبها يتوقف على صدق أو كذب القضايا
 الأولية التي تتكون من أسماء مثل سقراط ، محمد ،
 هي كل قيم متغير القضية الكلية (أي الإنسان) :

• • •

موضع الرسالة في فلسفة فتجنشتين :

تعتبر الرسالة تعبيراً صادقاً عن فلسفة فتجنشتين
 في المرحلة الأولى من مراحل تفكيره الفلسفي ، وكان
 يعتقد - وقت كتابته إياها - أنه قد توصل بها إلى حل
 جميع مشكلات الفلسفة فراه يقول في مقدمة الرسالة
 ان الأفكار التي سبقت هنا يستحيل الشك في صدقها ،
 أو هي أفكار مقطوع بصدقها ، ولذا فأنى أعتقد أن
 ما هو أساس في مشكلات الفلسفة قد تم حله نهائياً :
 إلا أنه بدأ يراجع أفكاره مرة أخرى بعد أن
 تبين فيها بعض الأخطاء ، نديجة لمناقشاته مع بعض
 أعضاء جماعة فينا مثل شليك وفايزمان ، فضلاً عن
 نقد بيروسرافا Sraffa وفرانك رافري الذي يعطى
 له فتجنشتين أهمية كبرى في مقدمة كتابه «أبحاث
 فلسفية» .

ومما لاشك فيه أن أهم نقد وجه إلى رسالة
 فتجنشتين كان منصباً على الفكرة الرئيسية التي تدور
 حولها رسالته ، وهي معرفة حدود اللغة حتى
 لا نتكلم فيما لا يمكن الكلام فيه ولا نقول إلا ما يمكن
 أن يقال . ولما كان كل ما يمكن قوله عند فتجنشتين

فلو كانت قيمة س هي ٣ في المثال السابق ، كانت
 ص = ١١ . وهذا هو نفس المعنى الذي يذهب إليه
 فتجنشتين حين يقول إن جميع القضايا عبارة عن
 دالات صدق للقضايا الأولية ، بمعنى أن صدق هذه
 القضايا أو كذبها يتوقف على صدق أو كذب القضايا
 الأولية . فإذا كانت كل من ق ، ل قضية أولية ،
 كانت العبارة (ق ، ل) وكذا العبارة (ل ، ق)
 مثلاً دالة صدق لكل من القضيتين الأوليين ق ، ل
 بمعنى أن صدق أو كذب أى من العبارتين يتوقف
 على صدق أو كذب ق وكذا على صدق أو كذب ل .
 ومثل هذا النوع من القضايا (أو بالأحرى
 دالات الصدق تبعاً لنظرية فتجنشتين) ينقسم بدوره
 إلى نوعين في «الرسالة» هما :

(١) قضايا مركبة : وتتحدث عما هو مركب
 من واقعيتين أو أكثر ، ولذا فهي تتكون من أكثر
 من قضية أولية واحدة . مثل قولي «سقراط حكيم
 وأفلاطون تلميذه» الذي يتكون من قضيتين أوليين
 هما «سقراط حكيم» و «أفلاطون تلميذ سقراط»
 أو قولي «القلم على يمين الكتاب وهو قلبي» وهو
 قول يتكون من قضيتين أوليين هما : «القلم على
 يمين الكتاب» و «القلم قلبي» .

والقضايا المركبة ليست إلا دالات صدق للقضايا
 الأولية التي تتركب منها عند فتجنشتين ، بمعنى أن
 صدقها أو كذبها إنما يتوقف على صدق أو كذب هذه
 القضايا الأولية :

ب - قضايا عامة (كلية) مثل قولي «الإنسان
 مفكر» ، وهو قول لا يشير إلى فرد أو جزئية واحدة
 [بل يتكلم عن صفة نصف بها أو خبر نخبر به عن أى
 فرد أو جزئية يمكن أن يندرج تحت فئة بعينها
 هي موضوع الحديث : ومثل هذه القضايا ليست
 بالقضايا الأولية لأنها لا تشير إلى واقعة ذرية واحدة ،

٢ - وإما ألا نعتقد في صحة هذه العبارات ،
وفي هذه الحالة لا نستطيع أن نحكم على القضايا
الواردة في الرسالة بأنها خالية من المعنى :

بمعنى آخر أننا نجد دوراً في هذا النقد ، لأن
المعيار الذي أحكم بناء عليه مخلو قضايا الرسالة من
المعنى ، هو نفسه أحد أجزاء الرسالة ، فهو أيضاً
خال من المعنى وبالتالي لا يصحح لأن يكون معياراً
استخدمه في الحكم على غيره طالما أنه هو نفسه لا يفيد
أى معنى .

والرأى عندى أن فتجنشتين حين قال إن عباراته
الواردة في الرسالة على الرغم من أنها خالية من المعنى
إلا أنها تعتبر لغوا له أهمية ، كان يفيد نفس المعنى
الذي ذكره من قبل عن تحصيل الحاصل ، وعن معنى
الصفير في الرياضة : فعلى الرغم من أن قضايا تحصيل
الحاصل والتناقض لا تفيد شيئاً ولا معنى لها عند
فتجنشتين ، إلا أنها ليست خالية تماماً من المعنى « لأنها
جزء من الجهاز الرمزي ، على نفس النحو الذي
يكون فيه « الصفير » جزءاً من الجهاز الرمزي الخاص
بالحساب » (عبارة رقم ٤٠٤٦١١) . وكأن فتجنشتين
كان يريد القول بأننا كما نستخدم الصفير في الجهاز
الرمزي الخاص بالحساب على الرغم من أنه لا يشير
إلى فئة معينة من الأشياء ولا يعتبر متغيراً شأنه شأن
بقية الأعداد الأخرى ، وكما أننا نستخدم تحصيل
الحاصل وكذا التناقض في الجهاز الرمزي الخاص
بالقضايا وإمكانات الصدق ، فكذلك نحن نستخدم
قضايا الفلسفة لكي نرتفع فوقها ونجاوزها على الرغم
من أنها في نظره خالية من المعنى .

وعلى العموم ، فقد بدأ فتجنشتين يراجع أفكاره
الفلسفية الواردة في « الرسالة » فيما بعد ومن بينها
أفكاره عن اللغو والمخلو من المعنى وكذا فكرته عن
الذرية المنطقية ، ونظريته التصويرية للغة ، وفكرته

هي قضايا العلم الطبيعي التي تتناول العالم الخارجي ،
كانت قضايا الفلسفة والميتافيزيقا بوجه خاص خالية
من المعنى ، وكانت قضاياها الواردة في الرسالة نفسها
مجرد لغو لا معنى له . ولقد كان فتجنشتين نفسه
واعياً بذلك الموقف لكنه كان يحاول تبريره فيذهب
إلى أنها قضايا ذات فائدة على الرغم من خلوها من المعنى
لأنها تكون في نظره أشبه بالدرجات التي يستخدمها
الإنسان في الصعود إلى أعلى فيتجاوزها ، ثم يلقي
بالسلم بعيداً بعد أن يكون قد حقق وظيفته فيقول
في هذا الصدد « ان قضاياى توضح الموقف على النحو
التالى : ان من يفهمنى سيعلم آخر الأمر أن قضاياى
كانت بغير معنى وذلك بعد أن يكون قد استخدمها
(سلماً) فى الصعود ، أى صعد عليها ليجاوزها »
(عبارة رقم ٦٠٥٤) :

إلا أن هذا التبرير الذى فسر به فتجنشتين
موقفه من قضاياها الفلسفية لم يكن تبريراً مريحاً لدى
الكثيرين مثل كارنوب ورسل وكورنفورث وغيرهم .
لكننا إذا ما ناقشنا هذه الفكرة ، فربما يتبين لنا أن
نقدر رسالة فتجنشتين على هذا النحو وهو كذلك
يحتاج إلى تبرير ، لأننا إذا ما اعتبرنا أن قضايا الرسالة
مجرد لغو ، فسنكون قد توصلنا إلى هذا الحكم
اعتماداً على بعض عبارات الرسالة نفسها - مثل
العبارة رقم ٤٠٠٣ ورقم ٦٠٥٢٢ ورقم ٦٠٥٣ التي
تفيد أن قضايا الفلسفة والميتافيزيقا خالية من المعنى :

ونحن في هذه الحالة : - ١ - إما أن نعتقد في
صحة هذه العبارات . وبالتالي يكون لها معنى . ومن ثم
فإننا نحكم على الرسالة بأنها خالية من المعنى أو مجرد
لغو . لكن هذه العبارات هي بعض عبارات الرسالة
نفسها ، فهي بالتالى خالية من المعنى شأنها شأن بقية
عبارات الرسالة ، وعلى ذلك فهي ذات معنى ، وهي
خالية من المعنى في الوقت نفسه وهذا تناقض .

عن طبيعة المعنى وفكرته عن الأنا وحديه . . وغير ذلك .

فهو مثلاً يتخلى عن فكرته التي افتتح بها «رسالته» من أن العالم ينحل إلى وقائع ذرية تتكون من أشياء أو من سائط منطقية .. إذ أن السبب الأساسى الذى دعا فتجنشتين إلى القول بتحليل العالم إلى وقائع ، كان هو ضرورة وجود وحدات أولية ينحل إليها العالم ، لكي تقابل الوحدات الأولية التي تنحل إليها اللغة - أى أن تحليله للعالم على هذا النحو جاء تبريراً لتحليله للغة إلى مجموعة من القضايا الأولية .

ولما غير فتجنشتين من وجهة نظره بتحليل اللغة في فلسفته المتأخرة (التي تتمثل في كتابه « أبحاث فلسفية تخلى بالتالى عن فكرته السابقة في تحليل العالم .

* * *

وأخير لم يكن فتجنشتين مهتماً بالنتائج الفلسفية التي يتوصل إليها بقدر اهتمامه بالمنهج الجديد الذى يجب اتباعه في الفلسفة وهو المنهج التحليلي . ولقد تركت هذه الفكرة في كثير من الفلاسفة المعاصرين أثراً بالغاً ، فضلاً عن تأثير أفكاره الفلسفية ذاتها في فلاسفة الوضعية المنطقية وفلاسفة التحليل اللغوى .

فلقد تأثر برتراند رسل بأفكار تلميذه فتجنشتين المتعلقة بالذرية المنطقية فزاه يقول في مقدمة مقاله عن « فلسفة الذرية المنطقية » التي نشرت عام ١٩١٨ « انه معنى إلى حد كبير بشرح الأفكار التي تعلمها من صديقه وتلميذه السابق لدفيج فتجنشتين » .

كما كان تأثير فتجنشتين في رودلف كارناب أشد وضوحاً وخاصة فيما يتعلق بفكرته عن خلو قضايا الميتافيزيقا من المعنى ، وليس أدل على ذلك من أن كارناب خصص لهذا المعنى مقالا بعنوان « حذف الميتافيزيقا باستخدام التحليل المنطقي للغة » وهي نفس الفكرة التي دعا إليها أيضاً في مقاله « المنطق القديم والمنطق الحديث » . فضلاً عن تأثيره في آير Ayer وخاصة فكرته عن تحقيق القضية وارتباط معناها بمدى مطابقتها للواقع . وكذا فكرته عن خلو قضايا الميتافيزيقا من المعنى ، تلك الفكرة التي نجد صداها دائماً عند كل فلاسفة التحليل اللغوى المعاصرين مثل جلبرت رايل الذى يذهب في مقال له بعنوان « تعبيرات مضللة » الى أن العبارات الميتافيزيقية من هذا النوع لأنها في حقيقتها خالية من المعنى . وهي نفس الفكرة تقريباً التي نجدها عند فايزمان وويزوم وغيرهما .



فن الحب لأوفيدوس

بمترجم
الدكتور احمد عبد الرحيم البوزيد

كلية الآداب - جامعة القاهرة

وقد ظهر شعراء الإليجي منذ سنة ٧٠٠ ق م و يمكننا أن نعرف الموضوعات المختلفة التي طرقها الشعراء اليونان الأوائل مثل الأغنيات التي كان يتغنى بها وقت الشرب والموضوعات الحماسية التي تدور حول الحرب والسياسة والقصص المأخوذة من واقع الحياة أو من وضع الخيال والنقوش المسطورة على المقابر والمراثيات . وقد جعل شعراء الإسكندرية لهذا النوع من الشعر صورة أدبية مميزة وابتعدوا به عن أغراضه السابقة وأضافوا إليه صورة حية من عندهم فكان « كاليماخوس » شاعر الإسكندرية أكبر داع للقصيدة الشعرية القصيرة وسيد الشعر الإليجي بعد كتابته لقصيدته المعروفة « الأسباب » Aitia ، كما كتب أشعاراً عن الحب مثل قصيدته « خصلة بربليكييس » التي كتب عنها الشاعر الروماني كاتولوس . وقد تأثر أيضاً كتاب غير كاتولوس بشعراء الإسكندرية فكتبوا عن الحب بالشعر الإليجي .

ولكن الرومان - وليس كاليماخوس - هم أول من ابتكروا شعراً إليجياً لا يتحدثون فيه عن قصص الحب عامة بل يعبرون عن تجاربهم العاطفية الذاتية . كما نجد في كاتولوس الذي أحب لسبيا Lesbia

كان « أوفيدوس » Ovidius شاعراً مثقفاً حمل إلينا ثقافته الواسعة سواء تلك التي أخذها عن اليونان وبخاصة شعراء الاسكندرية أو تلك التي استقاها من الرومان الذين سبقوه أو عاصروه . وأعطى أوفيدوس للوزن الإليجي باتقانه وسيطرته عليه صورته النهائية واستخدمه في مجال أوسع فكتب به في الحب ، وفيما يخالج المرأة من نزعات ، وفي الشعر التعليمي ، وفي الذم وفي الأحزان . ووجد أوفيدوس آذاناً صاغية من العالم الأوربي الذي استجاب لكتاباته أكثر من استجابته لأي كاتب روماني آخر .

أما عن الحب فقد كتب شاعرنا كتباً كثيرة منها كتاب في « الغزليات » Amores وآخر في « رسائل البطلات » Heroides وثالث عن « طلاء وجه المرأة Medicamina Faciei ورابع عن « فن الحب » Ars Amatoria وخامس عن « الشفاء من الحب Remedia Amores

وكانت هذه الكتب جميعاً بالشعر الإليجي الذي يقوم على بيتين من الشعر ، الأول بالوزن السداسي ، والثاني بالوزن الخماسي . ومن الصعب تحديد موضوع هذا اللون من الشعر عند اليونان والرومان .

وجالوس الذي أحب « ليكوريس » Lycoris وتيبولوس الذي أحب ديليا Delia وپروپرتيوس الذي أحب « كينثيا » Cynthia وأخيراً أوفيدوس الذي كان يحب « كورينا » .

فكان الشعر الإليجي هو أقوى أنواع الشعر الصادر عن ذاتية الشاعر . وبالرغم من أن الغموض يكتنف أصل هذا النوع من الشعر وتطوره عند الرومان فإن كاتولوس قد خطا في ميدانه خطوة هامة أصبح لها تأثير كبير على من أتى من بعده من شعراء الرومان ومن ثم على الأدب في العالم . فقد أصبح الحب أهم موضوع للشعر الإليجي .

والشعراء الذين ينظرون من الشاعر أن يلتزم بتعاليم أخلاقية قد يجدون في أوفيدوس شاعراً مسهراً . ولكن علينا أن نلاحظ أنه كان طبيعياً في تفكيره ومصطلحاته ، وأنه كان يكتب للتسلية التي هي من أهداف الأدب . وقد كان الحب موضوع حديث من سبقوه منذ كتابة « الملاحم » حتى « الدراما » فلم يكن في كتابات « أوفيدوس » ما يثير الشهوات أو ما يناق الأخلاق . حقاً إنه كان يكتب عن الحب ولكنه كان يكتب عن تجربة في أمر خطير في عالمنا وهو جنس النساء ولم يظهر أي شاعر روماني معرفة عميقة بهذا الموضوع أكثر منه ، وكما لم يظهر أي شاعر مقلدة مثله على سرد القصص .

ولد « بوبليوس أوفيدوس ناسو » Publius Ovidius Naso في ٢٠ مارس سنة ٤٣ ق.م بمدينة « سولمو » Sulmo التي يطلق عليها الآن اسم « سولمونا » Sulmona وتبعد نحو تسعين ميلاً شرق روما . وتقع في مقاطعة « بايليجني » Paeligni في وسط إيطاليا ويحدثنا أوفيدوس عن جوها البهيج وجداولها الكثيرة وكانت أسرته من طبقة الفرسان .

ومعظم معلوماتنا عن حياته مستمدة من مقطوعة له في كتابه « الأحزان » Tristia (الأحزان -

الكتاب الرابع - المقطوعة العاشرة) بالإضافة إلى ماخبرنا « سنكا الأكبر » و « كوينتيليانوس » عن تعاليمه البلاغية ومميزاته بوصفه شاعراً . اهتم والده بتربيته وأراد له العمل بوظائف الدواة فأرسله مع أخيه الذي كان يكبره بسنة إلى روما ليتعلم فن البلاغة والخطابة حيث درس على يد « أريليوس فوسكوس » Arellius Fuscus و « پوركيوس لاترو » Porcius Latro وقد أظهر أوفيدوس ميلاً إلى الشعر أكثر من ميله إلى الخطابة . وبعد ذلك ذهب إلى أثينا كغيره من أبناء الأغنياء إذ كانت أثينا تعتبر جامعة العالم الروماني . وذهب أيضاً إلى آسيا الصغرى مع صديقه الشاعر « ماكر » Macer وعند عودته التحق ببعض الوظائف الصغيرة مثل وظيفة التريومفير كاپيتاليس Triumvir Capitalis (١) « والكنتمفير » Centumvir (٢) ولكنه سرعان ما ترك هذه الوظائف المضنية التي أرادها له أبوه واحتشد لكتابة الشعر فقد كانت لديه فطرة قوية نحو الشعر منذ الصغر وقد شجعه على ذلك كونه الوارث الوحيد لممتلكات أبيه بعد وفاة أخيه . وطرق أوفيدوس المحب للحياة السهلة المريحة موضوع الحب في أشعاره التي كتبها بالوزن الإليجي ، هذا الوزن أصبح على يديه في صورة جديدة تخالف ما كان عليه في شعر « پروپرتيوس » و « تيبولوس » فكان هذا الوزن أكثر صقلاً وصفاء من ذي قبل ، ينساب في سرعة وخفة ورواق .

وقد جعله مناسباً للإنتاج السريع ذي التأثير المشبع دون أن يضمه تعقلاً كبيراً . وهكذا ابتداء عهد جديد وشعر الناس بوجوده عندما نشر أوفيدوس

(١) يتكون هذا المنصب من ثلاثة قضاة يفصلون في المنازعات بين العبيد والأشخاص من الطبقات الدنيا ويباشرون السجن ويحضرون موت المجرمين .

(٢) محكمة من مائة شخص يفصلون في القضايا الخاصة بالملكية والوراثة .

حوالى سنة ١٦ ق. م. طبعته الأولى من « الغزليات » Amores وقد كتب كتباً أخرى فكانت محاولته الثانية هى « رسائل البطلات » وهى مجموعة من الرسائل الأدبية الشعرية ترفعها سيدات من الأساطير إلى أزواجهن الغائبين أو محبين . وطرق بعد هذه الرسائل موضوعاً تعليمياً عن زينة المرأة فكتب عن « طلاء الوجه » ، وبعد السنة الأولى الميلادية نشر مؤلفه عن « فن الحب » قصد به أن يعالج الحب كعلم ثم كتب « الشفاء من الحب » عندما أحس أن مؤلفه « فن الحب » لا يروق الامبراطور « أوغسطس » الذى كان يهدف إلى تقويم الأخلاق. ثم تحول إلى موضوع آخر أكثر جدية فجمع عدة قصص من الأساطير تحدث فيها عن تحول شخص أو شيء إلى شكل مغاير وصاغها بدربته على سرد القصص فى إطار مناسب أكسبها نوعاً من الوحدة ، وهذه القصص احتواها كتابه المسمى « التغيرات » Metamorphoses وفى نفس الوقت الذى كان مشغولاً فيه بكتابة التغيرات كان يكتب كتابه عن « التقويم الرومانى » Fasti .

وبينما كان يواصل كتابته لهذا الكتاب حلت به ملة نغصت عليه حياته إذ كان يعيش فى روما فى هدوء مع زوجته الثالثة التى برهنت على إخلاصها وولائها له ويقدره الجميع لمقدرته الأدبية إذ جاءه أمر امبراطورى سنة ٨ ميلادية وهو فى سن الخمسين بالنفى إلى « ترمى » Tomi التى تقع على البحر الأسود كما صودرت جميع كتبه من المكتبات العامة فى العاصمة . وقد كان نفى أوغسطس من النوع الذى يظن عليه « ريليجاتيو » Relegatio وهو أبسط أنواع النفى إذ أن المنفى يؤمر بأن يعيش فى بلد معينة خارج إيطاليا بينما يحتفظ بحقوقه كمواطن ولا تصادر أملاكه . ويذكر أوغسطس بأن الامبراطور لم يسلبه الحياة أو الغنى أو حق المواطن^(١)

(١) Nec vitam nec opes nec ius mihi civis ademit.

ويقول فى مكان آخر إن جميع ما فعله هو أنه أمرنى بأن أترك وطن آبائى^(١) . ولكن كان وقع الخبر عليه كالصاعقة فتألم كثيراً إذ كان يجب عليه أن يترك روما بمنسراتها وجمتمعها الذى أحبه وكذلك زوجته ومنزله وأصدقائه إلى مكان قصى دون روما فى الحضارة والمدنية ويختلف فى اللغة والعادات.

وكان من نتائج تأثره أن أحرق وهو فى طريقه إلى المنفى بعضاً من أشعاره ومن بينها كتاب « التغيرات » الذى لم يتمكن من مراجعته جميعه ولكن لحسن الحظ كانت هناك نسخ منه فى أيدي أصدقائه الذين نشروه . ونحن لا نعرف حتى الآن السبب الحقيقى فى نفى أوغسطس . وهو نفسه يخبرنا بأن نفيه يرجع إلى شيتين : « قصيدة » و « غلطة »^(٢) والقصيدة هى « فن الحب » Ars Amatoria تلك القصيدة التى تتنافى مع اصلاحات أوغسطس الاجتماعية بما تحويه من أشياء مفسدة للأخلاق . ويتضح ذلك مما يذكره أوغسطس فى الجزء الثانى من كتاب الأحران^(٣) . ولكن بما أنه قد مضى ما يقرب من عشر سنين على نشر هذا الكتاب فإنه لا بد وأن يكون السبب المباشر لنفيه هو الغلطة ويذكر أوغسطس بأنها غلطة error وليست جريمة (scelus)^(٤) . ولكنه يلوذ بالصمت ولا يفسر لنا طبيعة هذه الغلطة بل يقول إن سبب نفيه سوف

(١) Nil nisi me patriis iussit abire focus.

(٢) كتاب الأحران - الجزء الثانى - سطر ٢٠٧ : duo crimina, carmen et error.

(٣) Carmina fecerunt, ut me moresque notaret iam demum visa Caesar ab arte meos. Trist. 11.7.

(٤) إن قصائدى سمات السبب فى أن قيصروصنى وأخلاقى بالعار بسبب الفن (فن الحب) الذى ظهر لمدة طويلة خلت .

كان فن الحب قد نشر فى سنة ٢ ميلادية .
Tristia I. iii. 37

(٤)

بكتاب « رسائل من پونتوس » Epistulae ex Ponto كما كان هناك مقطوعته المعروفة باسم « لايبيس » Ibis وهي قصيدة هجاء ضد شخص أراد أن تصادر أملاكه . وكتب أيضاً قصيدة تعليمية بالوزن السداسي (ذلك الوزن الذي كتب به أيضاً «التغيرات») عن الأسماك والحيوانات البحرية المختلفة في البحر الأسود . كما نسب إليه مقطوعات أخرى مثل المقطوعة المسماة « شجرة عين الجمل » Nux التي يتحدث فيها عن آلام هذه الشجرة التي يذفها المارة بالحجارة دون جريرة ارتكبتها .

كل هذه القصائد يتقصها المرح الذي نشاهده في قصائده الأولى ونجد فيها آلامه وتوسلاته الكثيرة إلى الأباطرة فقد قضى في المنفى ما يقرب من عشرين سنة قضى منها أربعاً تحت حكم الامبراطور تيبيريوس خليفة أوغسطس ولكنه لم يمنح الإذن بالعودة إلى إيطاليا . وهكذا مات في المنفى كبير القلب سنة ١٨ ميلادية .

أعماله

الغزليات

تحدث أوفيدوس عن محبته « كورينا » Corinna ولم تكن كورينا شخصية حقيقية بل كانت من نسج خيال الشاعر . وقد خالف الشاعر بذلك المأثور عن شعر الحب الإليجي . فلقد سبقه من قبل الشاعران « تيبولوس » و « پروپرتيوس » وكان كل منهما يحب معشوقته حقاً فكان الأول يحب « ديليا » Delia وكان الثاني يحب « كينثيا » Cynthia ولكن معشوقه أوفيدوس لم تكن سوى شخصية خيالية جعلها موضوعاً لتجاربه الذاتية .

ونعتقد أن شاعرنا ربما خاض من التجارب العاطفية الكثير ، وأن تجاربه هذه كانت متنوعة المواقف رغم وحدة الشخصية التي اتخذها موضوعاً

لا يبوح به وسيكون في طي الكتمان^(١) . وعلى كل فقد آذت هذه الغلطة الامبراطور أوغسطس^(٢) . ونظراً لأن أوفيدوس نجحنا بأن عينيه كانتا السبب^(٣) . فهذا يدل على أنه كان شاهد عيان لعدو ما أغضب الإمبراطور . فما هو إذن هذا الشيء ؟ اختلفت الآراء في كنهه ، فمن قائل إنه ربما كانت هناك مؤامرة ضد أوغسطس ولكن كان يجب حينئذ أن يعاقب المتآمرون عقاباً صارماً بدلاً من نفهم مع الاحتفاظ بحقوقهم المدنية . ومن قائل إنه ربما رأى زوجة أوغسطس في الحمام . ومن قائل إنه ربما كان عشيق جوليا (Julia) حفيذة الامبراطور أو تستر على علاقتها الفاسقة ففي سنة ٨ ميلادية ، وهي نفس السنة التي نفى فيها أوفيدوس ، نفى الامبراطور حفيده إذ أن أفعالها الخزية تتعارض مع سياسة أوغسطس لإزاء حماية الأخلاق كما تحمل العار لمنزله فربما رأى أوفيدوس عملاً مشيناً أنته هذه الحفيذة ... إلى غير ذلك من الافتراضات .

واستغرقت رحلته من روما إلى « تومي » - تلك التي كان بعضها بحراً وبعضها الآخر برأ ما يقرب من سنة - وقد كان هذا المنفى أمراً قاسياً بالنسبة لشاعر حساس متحضر كأوفيدوس فقد قاسى الكثير من مرارة المنفى والمرض وجو تلك البلاد القارس البرد كما كان دائم الشكوى من نقص الكتب والأصدقاء من الأدباء ومن هجوم القبائل المتبربرة الحبيطة بالمنطقة التي كان يقطن بها وكان تواقاً للعودة إلى وطنه أو على الأقل إلى منفى آخر أليق من تومي . كل هذه الآلام والآمال المذكورة في أشعاره التي كتبها في المنفى وأهمها كتاب « الأحزان » Tristia وأتبعه

(١) Tristia. IV. x. 99

(٢) Tristia. II.-133, 209

(٣) Tristia. III. v. 49 : peccatumque oculos est habuisse meum.

« وإن خطئي هو أن لي عينان »

لتجاربه . وربما أوحى ذلك لنا بأن «كورينا» كانت خلاصة النساء اللاتي صادقهن الشاعر في حياته فهي حيناً مزوجة ، وحيناً بغير زوج ، وتارة نراها تستدعي الإعجاب وأخرى نراها عارية من الحياء . وهذا يعزز ما نراه من أن كورينا كانت النموذج الذي اتخذهُ الشاعر لكل المواقف العاطفية التي عاناها في حياته رغم تعددها وتباينها بل تناقضها أحياناً .

ويحتوي كتابه عن الغزليات تسعاً وأربعين إليجية تختلف في تنوعها وقوة جيشانها مما كتبه أسلافه في هذا الميدان . وهي توضح لنا ميله الشديد لمغامرات الحب . إنه يقول : « وأخيراً فإن أية فتاة يعجب بها شخص في أي حي من أحياء روما يتطلع إليها حيي »^(١) .

وكتاب الغزليات يشتمل على ثلاثة كتب :

يتحدث في الكتاب الأول عن كيوبيد إله الحب وكيف أنه يلزمه بالكتابة عن الحب وأنها أفضل من الكتابة عن الحرب ثم يذكر أنه أسير عند كيوبيد . ويتحدث في المقطوعات الأخرى عن إخلاصه لسيدة حقيرة ومحاولته الكلام بلغة تلميحية في حضرة زوج معشوقته ، واستعطافه البواب لكي يفتح الباب لمعشوقته . واعتذاره لضرب معشوقته ولعنه للقوادة التي تعلم معشوقته كي تستخدم مفاتيحها للاستمتاع والكسب ، وإخباره معشوقته بأن الحب يجب ألا يدنس ، وشكره لأحد الخدم بعد أن سلم رسالة حب من أجله ورجاؤه الفجر ألا يسرع بالرحيل . ويتحدث في الكتاب الثاني عن محاولته أن يثنى معشوقته عن رحلة اعتزمت القيام بها وتمنيه لها بولادة سهلة عندما يأتيها المخاض . وإطرائه لبلدته «سولمو» Sulmo تلك التي لا يتقصها إلا حضور معشوقته . واعترافه بعبوديته لمعشوقته كورينا . ويحتج على سيدة في المقطوعة السابعة لآتهمها إياه بأنه أحب خادمتها . وفي المقطوعة

(١) كتاب الغزليات الثاني - المقطوعة الرابعة .

العاشرة يعترف بأنه يحب وأنه يراجو أن يقع في حب فتاتين في وقت واحد .

ويصف في الكتاب الثالث سباق العربات الذي حضره مع معشوقته ، ويخبر في المقطوعة الثالثة زوجاً غيوراً بأنه بقدر ما هو يراقب زوجته بعناية بقدر ما هي تميل إلى الرذيلة . وفي السادسة يلعن نهر آعاق مروره إلى معشوقته .

وفي الثامنة يندب حظه لأن معشوقته قد فصلت عليه رجلاً ثرياً . وفي التاسعة يشكو الإلهة «كيريس» لأن عيدها قد فصله عن معشوقته . ويذكر في الثانية عشرة كيف أن أشعاره قد أعلنت عن معشوقته حتى أصبح له منافسون كثيرون . ويصف في الثالثة عشرة عيد الإلهة «يونو» الذي حضره مع زوجته ، ونلاحظ أن كتابه هذا يحتوي على مقطوعات أوحى له بكتابة مؤلفه عن «فن الحب» وذلك مثل المقطوعة الرابعة من الكتاب الأول حيث ينصح معشوقته بالسلوك الواجب عليها اتخاذها في حضرة زوجها ، أو المقطوعة الثامنة من الكتاب نفسه حيث يتحدث عن نصائح القوادة للعامة .

البطلات

أما كتابه عن البطلات فهو مجموعة من رسائل خيالية من سيدات من عصر الأبطال أو الأساطير إلى أزواجهن أو عشاقهن الغائبين . وتظهر هذه الرسائل مقدرة أوفيد يوس على سرد القصص وفهمه لأخلاق النساء . ويعتبر هذا الكتاب أكثر أعمال أوفيد يوس ذبوعاً .

فهناك مثلاً رسالة بينيلوبي Penelope إلى زوجها «أوديس يوس» تشكو ما هي فيه بسبب عدم عودته من حرب طرواده . والرسالة التي تبعث بها «بريسيس» Briseis محظية «أخيليس» تؤنب فيها أخيليس لعودته عن إنقاذها من «أجاممنون» الذي استولى عليها .

من ذلك الشيء الذى يسكن القلب ، وإذا كان الانسان مضطراً للبقاء في المدينة رغبة منه أو بالرغم منه فعليه ألا يقترب من الأماكن التي تعود أن يقابل محبوبته فيها . ويجب أن يقطع علاقته بأصدقائها ويحرق رسائلها ويمزق صورتها ويتخذ لنفسه فتاة أخرى .

التغيرات

قام أوفيدوس بكتابة مجموعة هامة من القصص التي تبلغ مائتين وخمسين قصة معظمها عن الأساطير اليونانية يتحدث فيها عن تحول شخصي أو شيء ما إلى شكل مغاير له تماماً كشجرة أو صخرة أو طائر أو حيوان أو زهرة أو جسم سماوى . . . وهذه التغيرات تحدث بسبب الحب والحقد والانتقام الذى ينتاب الآلهة والأبطال أو المحبين الغضاب . وجعل الشاعر بدايتها مقترنة بابتداء الخليقة حتى عصر يوليوس قيصر الذى وصفه بأنه قد تحول إلى نجم . فيتحدث مثلاً عن «سكيلا» Scylla إحدى حوريات البحر التي أحبها إله البحر «جلاوكوس» ولكنها صدته عن حبها فذهب إلى الإلهة «كيركي» Circe الشهيرة بالسحر كي تساعد على أن تحبه سكيلا ولكن الإلهة الساحرة نفسها أحبت جلاوكوس فلم يستجب لحبها فصممت على ألا تتمتع سكيلا بحب جلاوكوس وسممت المكان الذى كانت سكيلا قد تعودت أن تستحم فيه وكان نتيجة ذلك أن تحولت سكيلا إلى وحش بحرى واتخذت الشكل الذى نشاهده في الفن - وإن كان وجهها لا يزال وجه حورية جميلة ولكن بقية جسمها اتخذ صورة وحوش في شكل كلاب تنبح . وقد واجهها أوديسيوس في رحلته البحرية بعد سقوط طرواده . وقد كان مسرح حوادث أسطورة سكيلا في مضيق مسينا حيث توجد صخرة في الجانب الإيطالي من المضيق

والرسالة التي تبعها «أوينوني» Oenone إلى باريس Paris تذكره فيها بأيام شبابهما الحلوة على منحدرات جبل «إيدا» Ida بطرواده وكيف أنه خط اسمها على الأشجار هناك ثم تساءل إن كان سيقراً خطابها أم أن زوجته الجديدة (هيلين) ستمننه من ذلك . أو الرسالة التي تبعها (ديدو) ملكة قرطاجنه إلى «أينياس» الذى هجرها فعزمت على الانتحار .

وكل رسالة من هذه تعبر عن مأساة ولكن في كل منها تنوع في الحوادث ، وتصوير مغاير لشخصياتها أمدها أوفيدوس بروح من عنده ووضعها في قالب حتى بمقدرته التي لا تجارى في فن القصص رغم أنه أخذ موضوعاتها عن غيره .

تطرية وجه السيدات

وهي عبارة عن كتاب يوضح الطريقة التي تتبعها السيدات في صبغ وجوههن . ووصلت إلينا في شذرات مكتوبة بالوزن الأليجي . ويعتبر كتاباً تعليمياً .

الشفاء من الحب

لاقت كتب أوفيدوس عن الحب شيئاً من عدم الاستحسان حمله على أن يسترضى هذه المشاعر بكتابه الذى أطلق عليه «الشفاء من الحب» .

وفي هذا الكتاب يذكر مثلاً كيف يجب على الإنسان أن يقلع عن الحب قبل أن يتملك منه . وإذا لم يستطع فليتنظر قليلاً حتى يفرغ الحب جميع مافي جعبته ويستنفد قواه . وبعد أن ينهل الإنسان من كأس الحب حتى يرتوى ويشعر بالمرض فليبحث عن عمل كالزراعة ، أو فلاحه البساتين أو الرماية أو صيد الأسماك ليشغل به نفسه فإن الحب ينتصر على البطالة . ويمكن للإنسان أن يرحل بعيداً فليس هناك ما يفضل السفر الطويل وتغيير المناظر للتخلص

تسمى باسمها ، ومن هنا أضيفت الأسطورة القائلة بأنها قد انتابها تغير آخر بمرور الزمن وتحولت إلى صخرة .

وكانت طريقة سرد أوفيدوس لهذه القصص غالباً ما تقوم على المزج بين القصص . ونلاحظ أنه رغم أن هذه القصص عديدة إلا أنه يسودها الوحدة كما تسود قصص « الف ليلة وليلة ، وربما كانت قصص أوفيدوس أكثر وحدة فإن موضوعات قصصها متشابهة وتسودها روح رومانتيكية أسطورية واحدة . وقد اتبع أوفيدوس طريقة شاعر الاسكندرية « كاليماخوس » في كتابه « الأسباب » Aitiae المكون من عدة آلاف من الأبيات في قالب قصصي فجمع بين العمل الطويل والقصص القصيرة فيحتوى كتاب التغيرات خمسة عشر جزءاً .

وأخذ أوفيدوس موضوعه هذا عن الشعراء وكتساب المسرحية اليونان الذين طرقتوا موضوع الأساطير ، كما أخذ عن بعض الفلاسفة اليونان ، مثل « بيثا جوراس » Pythagoras الذى يقول بتناسخ الأرواح وأن الأشياء تتغير دون أن تفتى .

كما أنه تأثر أيضاً بشعراء الاسكندرية فقد طرقت بعضهم موضوع التغيرات كما في مؤلف « نيكاندرس » (القرن الثانى قبل الميلاد) المسمى Heteroionumena « أشياء تغيرت » وهو يشتمل على مجموعة من القصص .

وكتب أحدهم ويدعى « بويوس » Boeus في تاريخ غير معروف Ornithogonia « أصل الطيور » ويتعلق بتغير البشر إلى كائنات مجنحة .

وكان هذا نموذجاً لعمل شبيهه كتبه « أميلوس ماكر » Aemilius Macer أحد معاصري أوفيدوس . وتأثر أيضاً بالرومان ، مثل فرجيليوس خاصة عندما تحدث عن رحلة « أيباس » : ونلاحظ أنه لم

يشد بالوطنية الرومانية ولم تكن هدفه كما كانت عند فرجيليوس . حقاً لقد تحدث عن يوليوس قيصر كما تحدث أيضاً عن أوغسطس ولكنه لم يتخذ الأخير محوراً لحديثه بل ذكره كأنه آخر أعجوبة حيث يقول إنه يعتبر مجدداً خالداً ليوليوس قيصر أن يكون أباً لأوغسطس وإنه حينما يترك أوغسطس العالم الدنيوى سوف يحكم في السماء ويصبح إلهاً يجيب الدعوات .

من هذا يتضح أن معظم هذه القصص كانت معروفة ولكن أوفيدوس سردها بطريقة مختصرة بليغة وأكسبها لونا جذاباً لا يستطيع القيام بمثله سوى رجل ذى مقدرة أدبية . وقد تحرر أوفيدوس في سرده لبعض هذه القصص كما أنه قد ذكر بعضاً من قصص الأساطير التي ليس لها علاقة بالتغيرات كاختطاف « بروسرينا » مثلاً وموت « أخيليس » وقصة حب

« بيراموس » لثيسيبي Thisbe

وقد طلى أوفيدوس هذه الأساطير بطلاء جديد وأكسبها حيوية أثرت في الأدب والفن في العصور الوسطى والنهضة الأوروبية .

ولقد كانت الأساطير القديمة مظهرأ واضحاً من مظاهر ثقافات كثير من اليونان والرومان المثقفين ، وبخاصة الشعراء فلاغرابية في أن يطرق أوفيدوس المثقف هذا الموضوع مثلهم وأن يسبق عليه من معلوماته الوفيرة وذاكرته القوية وخياله الخصب وتصوره اللامح حياة جديدة ... ولاغرابية في أن تتأثر أيضاً حضارة العصور الوسطى والنهضة الأوروبية بهذا الموضوع ...

التقويم الرومانى Fasti

كتب أوفيدوس قصيدة هي تقويم للسنة الرومانية ولذلك تعتبر قصيدة تعليمية . وقد وصل إلينا منها ستة كتب يتحدث في كل منها عن شهر من أشهر النصف الأول من السنة وذلك من شهر

يتأير حتى شهر يونيو وفيها وصف الأعياد والطقوس الدينية والأساطير والحوادث التاريخية المتصلة بأيام خاصة .: وقد استقى أوفيدوس مادتها من السجلات القديمة للدولة الرومانية والتاريخ والأساطير وعلم الفلك .

ونحن نأخذ أوفيدوس نفسه بأنه استخدم السجلات القديمة .

ونحن نعرف أن «فيروس فلاكوس» Verrius Flaccus كتب تقويماً شبيهاً بما فعله أوفيدوس خصوصاً ما يختص بأيام الأعياد والاحتفالات السنوية كما كتب «فارو» Varro عن الآثار الرومانية القديمة والمعتقدات الدينية الشائعة . وكذلك كتب «إننيوس» Ennius وغيره «حوليات» Annales عن الموضوع نفسه .: وكتب «كلوديوس توسكوس» Clodius Tuscus عن علم الفلك - فمن المحتمل أن يكون أوفيدوس قد استقى معلوماته من هؤلاء جميعاً .

وقد عرض الشاعر «بروبيرتيوس» في أواخر أيامه للأساطير ولمثل هذه الموضوعات الأثرية عندما ينس من الحب وعندما شجعه «مايكيناس» وزير أوغسطس على ذلك فطرق هذه الموضوعات بالوزن الإليجي وبذا يكون قد خلق لوناً جديداً من الشعر الإليجي اقتبسه أوفيدوس لكتابة تقويمه إذ أنه خالف الشعراء التعليميين السابقين أمثال «لوكريتيوس» و «فرجيليوس» الذين استخدموا في أشعارهم وزناً غير الوزن الإليجي وهو الوزن السداسي .

ويذكر أوفيدوس^(١) أنه كتب اثني عشر كتاباً ولكن ليس لدينا سوى ستة ولا يوجد ما يثبت وجود الستة الباقية حتى يكمل الجزء الخاص بنصف السنة الثاني فمن المحتمل أنها قد أحرقت مع ما حرقه

(١) كتاب الأحران - الجزء الثاني - سطر - ٥٤٩ .

من كتاباته عند ترك روما لمنفاه أو أنها لم تكن معدة للنشر وعلى أية حال لا يمكن الجزم برأى قاطع في هذه المسألة :

ويمتاز وزن الإليجي فيها بالبرقة والسهولة ولكنه لم يبلغ من السمو والإيقاع الهرموني ما نجده عند كبار الشعراء ، كما يتلاعب أوفيدوس فيها بتصويراته وخياله :

وقد خلق أوفيدوس شعراً وطنياً وربما كان يهدف إلى إرضاء الامبراطور أوغسطس حتى يأخذ في القصر الامبراطوري مكان الشعارين «فرجيليوس» و «هوراتيوس» اللذين كانا قد توفيا، خاصة بعد كتاباته عن الحب التي لم تكن تساعد الامبراطور على نشر القيم الأخلاقية في المجتمع الروماني ولكن جاء نفيه مخيباً للآمال :

الأحران (Sc. Carmina) Tristia

وكتب أوفيدوس في منفاه أغاني حزينة في صورة رسائل بالوزن الإليجي تظهر حزنه العميق لنفيه وما يقاسيه في هذا النفي . ويشمل مؤلفه هذا خمسة كتب تقوم على الترتيب الزمني كما أن أوفيدوس لا يذكر فيها أسماء الأشخاص المرسله إليهم حتى لا يتعرضوا لغضب الامبراطور .

والكتاب الثاني منها يقوم على موضوع واحد أما باقي الكتب فتشتمل على عدة رسائل متنوعة لها مقدمة وخاتمة فيذكر مثلاً في المقطوعة الأولى من الكتاب الأول - الذي يحتوي على إحدى عشرة مقطوعة مجموعها ٧٣٨ بيتاً ، يذكر إرسال الكتاب إلى روما وأنه لم يعن بتغليفه لما كانت عليه حالة كاتبه المنفي من الأسى وأنه ليس عنده أمل في أن يجسر أحد الأشخاص على تقديمه للإمبراطور .

والمقطوعة الحادية عشرة هي الخاتمة وفيها يعتذر عن العيوب والشوائب التي تكابد منها قصائده إذ أنها

بالدراسات الأدبية واللغوية . كما أن اليأس قد تطرق إليه بدرجة كبيرة جعلت أمله ضعيفاً في الغفوة عنه .

« رسائل من بوتوس »

Epistulae ex Ponto

وأوفيدوس أربعة كتب يطلق عليها « رسائل من بوتوس » - أي - « رسائل من تومي » .

وهي تعتبر امتداداً لكتبه « الأحزان » فهي من النوع نفسه ومنظومة أيضاً بالوزن الإلجى . وتختلف عن الأحزان في أنه يذكر فيها أسماء الأشخاص الذين يرفع إليهم كتبه .. وقد كتبت الكتب الثلاثة الأولى فيما بين سنة ١٢ و ١٣ ميلادية .

أما الكتاب الرابع فقد نشر بعد وفاة أوفيدوس . ونلاحظ أن الأحزان والرسائل من « بوتوس » تسودها الرثابة لأنها تصور أحزان أوفيدوس العميقة التي يرددها بكثرة .

كما أن أسبابه المطرد يقلل من تأثير الجانب الحزن الذي يستجيش العواطف رغم أنها تمس أحياناً شغاف القلوب .

ويذكر أوفيدوس نفسه أن أشعاره في المنفى لم تكن جيدة مثل تلك التي كتبها في روما .

إيبس Ibis

كتب أوفيدوس في منفاه إلى جانب هذه الأشعار مقطوعة عنوانها « إيبس » Ibis مقلداً في ذلك شاعر الاسكندرية كاليماخوس « الذي كتب مقطوعة بهذا العنوان هاجم فيها « أبولونيوس الروديسي » Apollonius Rhodius ولفظ « إيبس » Ibis يطلق على طائر ذى عادات قذرة كان يرمى في أماكن كثيرة من الإسكندرية (Strabo, p. 823) .

ويظهر أنه كتبها في « تومي » في بداية منفاه إذ يذكر أوفيدوس نفسه (Ibis 7) أنه لم يكتب سطرأ

كتبت أثناء رحلة شاقّة عبر بحر الأدرياتيك وبحر إيجه أما الكتاب الثاني فقد كتبه في المنفى ورفعته إلى أوغسطس ويختلف عن باقي الكتب كما ذكرنا في أنه لا يحتوي على عدة رسائل بل على موضوع واحد فهو عبارة عن دفاع مطول يبلغ ٥٧٨ بيتاً عن كتابه « فن الحب » وكتبه بلغة تقرب من اللغة الخطابية في المحاكم . ويذكر ضمن دفاعه أنه بالرغم من أن كتابه « فن الحب » يعتمد أنه يعلم الزنا إلا أنه ليس هناك من يتهمة شخصياً بهذا السلوك السيئ وربما كانت تسود أشعاره الحرية ولكن لا تشوب حياته شائبة .. وأنه ليس من الواجب على الشعراء أن يكونوا قد مارسوا جميع ما يقولونه في أشعارهم ، ومع أن الشعراء كانوا قد طرقتوا موضوع الحب إلا أن أوفيدوس هو الوحيد الذي لحقه اللوم من جراء ذلك .

ويسرد فيه قصة حياته وأعماله وكان يرجو أن يتبدل العقاب الذي لحق به ويقنع بمنفى يكون أليق من بلدة « تومي » ، منفى يناسب زلته اليسيرة .

والقصائد في هذه الكتب صادرة عن نفس معذبة مفعمة بالشكوى التي تستدعي الشفقة والرحمة لصاحبها ، كما يكثُر فيها التوسل الذي يصل إلى درجة الذلة والعبودية فكان يبيث كتبه آلامه وأحزانه وما ينتابه من مشاعر فهو أحياناً يعطف على زوجته ويظهر فيها تقديره إياها ويتحدث عن إخلاصها ويصف آخر ليلة قضتها في روما ويرفع قصيدة إلى صديق تنحى عنه أو إلى شاعر صديق أسعده نجاحه ، ويأمل أن يتجو من مصير كالذي حل بشاعرنا . وأحياناً أخرى يرسل إلى أصدقائه في روما ويصف متاعبه وأحزانه ووحده في « تومي » ويحثهم على مساعدته في محنته . أو يتحدث عن برودة المنطقة التي يعيش فيها ووحشيتها . أو يهاجم الشخص الروماني الذي حط من قدر شاعرنا الذي كتب ضده مقطوعته المسماة « إيبس » Ibis ونشعر فيها بألم أوفيدوس بسبب الوحدة وتحايله عليها

واحداً يحمل روح العداء لأحد خلال الخمسين سنة التي انقضت .

وفي القصيدة قاموس من الشتائم واللعنات ساقها أوفيدوس ضد شخص مجهول الاسم اضطهد زوجته وأصدقائه وحاول أن تصادر أملاكه ليستفيد منها . ويقال إن هذا الشخص هو الذي يشير إليه في كتابه الأحزان ، (الكتاب الأول - المقطوعة السادسة - سطر ١٤ : الكتاب الثالث - المقطوعة الحادية عشرة ؛ السطر الثاني والسطر العشرون ؛ الكتاب الرابع - المقطوعة التاسعة - السطر الخامس عشر وما بعده) .

وقد صب على رأس ذلك العدو كل لعنة خطرت على باله سواء من الأساطير أو التاريخ ساعده على ذلك معرفته الواسعة بالأساطير .

وكتب أيضاً مقطوعة تعليمية Haleuticon « الصيد في البحر » بالوزن السداسي وهي الوحيدة من بين كتابات أوفيدوس التي كتبت بهذا الوزن إذا استثنينا « التغيرات » - عن السمك وبعض المخاوقات الأخرى الموجودة في البحر الأسود . ويذكر المؤرخ پلينيوس Plinius أنه كتبها في أواخر أيامه وهي غير كاملة ولم يصل إلينا منها سوى ١٣٢ بيتاً ويتحدث في القسم الأول منها عن طرق دفاع هذه المخلوقات عن نفسها حسب ما وهبها الطبيعة ، وفي قسمها الثاني عن أنواع السمك الموجودة هناك ، ونشرت بعد مئتي سنة دون مراجعتها .

هناك مقطوعات أخرى مطبوعة في بعض الطبقات القديمة لأوفيدوس ولكن ليس من المؤكد أنها له مثل « Nux » وهي شجرة « عين الجمل » تشكو من المارة الذين يقذفونها بالحجارة بالرغم من أنها لا تستطيع الدفاع عن نفسها ولا ذنب لها سوى أنها مشمرة ، وعدد أبياتها ١٨٠ بيتاً وربما كتبت في نهاية حياة أوفيدوس وترمز إلى الشاعر نفسه الذي لاقى الكثير

من الاضطهاد : والإطراء على الامبراطور (الأسطر ١٤٣ - ١٤٦) يرجح أصحاب الرأي القائل بأنها لأوفيدوس . وكذلك مقطوعة يطلق عليها Consolatio ad Liviam وهي عزاء في ٤٧٤ بيتاً إلى « ليفيا » لموت دروسوس Drusus ويذكر فيها كيف أن الامبراطورة « ليفيا » كانت تنتظر عودة ابنها « دروسوس » منتصراً بعد أن كان يعسكر في المانيا سنة ٩ وحاز عدة انتصارات على أعداء روما ولكن موته فجأة وحمل جثته إلى روما لدفنها أغم قلبها بالحزن . ولكن خلوها من اطرائه المسهب والشكوى من حالته التي عودنا إليها في كتاباته المرفوعة إلى القصر الامبراطوري والمستوى اللغوي الذي كتبت به هذه المقطوعة والذي هو دون مستوى كتابات أوفيدوس يجعلنا لانعزوها إليه .

وهناك أشعار أخرى كتبها أوفيدوس ولكنها فقدت ولم تصل إلينا مثل مأساة « ميديا » Medea (الأحزان - الكتاب الثاني - سطر ٥٥٣) وقد امتدحها النقاد القدماء خصوصاً من الناحية البلاغية ولم يتبقى لنا منها إلا بيتان . وكتب أوفيدوس قصيدة رثاء يرثي بها الإمبراطور أوغسطس (رسائل من پونتوس - الكتاب الرابع - المقطوعة السادسة ، السطر السابع عشر) .

كما كتب قصيدة في مدح القصر الامبراطوري باللغة الجيتية وهي لغة القوم الذين كان يعيش معهم في منفاه (رسائل من پونتوس - الكتاب الرابع - المقطوعة الثالثة عشرة السطر ١٩ - ٣٦) ، والجيجانتوماخيا Gigantomachia (الكتاب الثاني من الغزليات المقطوعة الأولى - السطر ١١ - ١٦) وهي عبارة عن ملحمة أسطورية تصف موقعة بين الآلهة والعمالقة .

وقصيدة عرس Epithalamium لقسايوس ماكسيموس Fabius Maximus (رسائل من پونتوس

– الكتاب الأول – المقطوعة الثانية – السطر ١٣١).
كما كتب قصيدة رثاء لماركوس فاليريوس ميسالا
M. Valerius Messala (رسائل من بونتوس
– الكتاب الأول المقطوعة السابعة – السطر ٣٠).
وقصيدة مدح لتيبريوس في سنة ١٣ ميلادية (رسائل
من بونتوس – الكتاب الثالث – المقطوعة الرابعة –
السطر الثالث). كما كتب أيضاً مقطوعات أخرى
مثل *liber in malos Poetas* وهي عن ضعاف
الشعراء (كونديليانوس – نظم الخطابة ٦ – ٣ –
٩٦).

فن الحب Ars Amatoria

كتب أوفيد يوس شعراً تعليمياً من نوع جديد
حقاً لقد كتب الشعراء من قبله هذا النوع من الشعر
مثل «إيلوس» و «لوكريتيوس» و «فرجيليوس»
ولكنه يختلف عنهم في أنه كتب شعراً تعليمياً عن
الحب . فابتدأ بكتابة مقطوعة قصيرة لم يتبق لنا منها
إلا ما يقرب من مائة سطر يطلق عليها « عن تطرية
الوجه » *De medicamina Facie* أو *Medicamina
faciei feminae* «تطرية وجه المرأة» يتحدث فيها عن
أطرية التجميل التي تستعملها النساء لتزيين وجوههن .
أما كتبه الثلاثة المسماة « فن الحب » *Ars Amatoria*
أو *Ars Amandi* وقد أطلق عليها أوفيد يوس الاسم
الأخير^(١) . وفي الكتابين الأولين تعاليم للرجال أما
الثالث ففيه تعاليم للنساء . ويحتوى الكتاب الأول على
ما يجب أن يفعله الرجل عند اختيار المرأة التي يريد
أن يستحوذ عليها ويقول مثلاً «أولا اقبض على
أرنبك فإن الصائد يعرف كيف ينشر شبكته كي
يصطاد الوعل وصائد السمك يعرف المياه المليئة
بالأسماك أما عن الحب فإنه لا يحتاج إلى السفر بعيداً

Ars. Am. i. 1. (١)

ففى روما في إمكانه أن يجد جميع أنواع الجمال في
احتفالات النصر أو في المسرح حيث تتجمع الحسان
هناك كالنحل مرتديات أفخر الثياب ولا يرغبن في
مشاهدة المسرحية أكثر من رغبتهن أن يرمقهن الناس .
وكذلك في السيرك حيث يمكنك الجلوس بجوار امرأة
وهناك يمكنك التحدث معها بسهولة ولا تنتظر كي
تكون المرأة هي البادئة بل كن جريئاً وسوف
لا تصادف صعوبة وامطرها بوابل من المدح والثناء .
ولا تبدأ باهدائها الهدايا فإن هذا خطأ وسوف تجد أنه
لا نهاية لهذا الأمر إذ ستطلب منك الهدايا دون انقطاع
مختلفة الأسباب لذلك . ادرس الفنون الجميلة وغذ
عقلك حتى يمكنك لإدخال السرور عليها بحديثك .
ولا تتحدث إليها كأنك أستاذ بل ابتعد عن الأسلوب
العالي في حديثك . ادع السكر فإنه يساعدك على أن
تقول ما لا تستطيع أن تقوله وأنت صاح . ولا
تدعها تعرف عنك الإلحاح . وباختصار فإن هذا
الكتاب يعلم الحب كيف ينال حبيبته .

وفي الكتاب الثاني يعلم الشاعر تلميذه كيف يحتفظ
بمحبوبته فيقول مثلاً « وإن المظهر الحسن له أثره
ولكن العادات الحسنة لها أيضاً قيمتها . إن الكلمات
السارة كالموسيقى تعتبر غذاء للحب . ويجب أن يمتنع
الشخص عن العراك والمنازعات ويجب أن يسمع المحبوبة
دائماً أموراً سارة » .

ويقول إن المال يلعب دوراً كبيراً في الحب
فربما لا يحتاج المحب الثرى إلى تعلم فن الحب فإن المال
هو جواز المرور إلى كسب ود المحبوبة . رفه عن
محبوبتك إذا كانت مريضة . ولا تندفع في عواطفك
واجعل نفسك تدريجياً شخصاً لا يستغنى عنه . وعندما
تأكد أنها تتوق إليك اتركها لمدة قصيرة حتى يكون
غيابك سبباً في ازدياد شوقها إليك ولكن لا تتركها
لمدة طويلة فإن البعيد عن العين بعيد عن الخاطر .
ولا تتجسس عليها ولا تسألها عن سنها .

روما . إنه فن الكياسة والرقّة ومعاملة المحبين . وقد كتب هذا الفن التعليمي بالوزن الإنجى واستفاه - كما نخبرنا هو - من تجاربه . ولاشك أن كتابة هذا لم يعجب فلاسفة الأخلاق وإن كان أوفيدوس لم يقصد به - كما يذكر - حرائر الرومانيات ، بل الجوارى المعتقات .

ولكن ذلك ليس إلا ذراً للرماد في العيون . كما أنه كان ضد ما يرى إليه أوغسطس من اصلاحات ومع ذلك فقد كان كتابه هذا فيه صقل للذوق والعادات الرومانية كما أنه يدعو إلى نواح فنية وأدبية فهو الذى يقول بأنه يجب ألا نزين الجسم فقط بل العقل أيضاً ، فواجب على الرجل أن يهتم كما تهتم المرأة بالموسيقى والشعر والرقص . كما يعطينا صورة للحياة في عصره خصوصاً ما كانت تزين به المرأة .

ولا يتحدث أوفيدوس عن الحب ذى العاطفة الجاححة التى هى بعيدة عن مجتمعه الحب للملذات . وفى رأيه أن المحبين لو استمعوا إلى نصائحه عن الحب لما كانت نهايتهم مفرجة ولما كان « تيربوس » مثلاً قد فقد عقله بحبه « فيلومبلا » أخت زوجته ولما تحول إلى طائر بسبب آثامه ولما كانت « ديدو » قد اذتحت بسبب حبها لأينياس الذى هجرها . ولعرفت « فايدرا » خطأها عندما أحببت « هيبوليتوس » ابن زوجها . إن فن الحب شئ جديد على روما وكذلك فن الرقة والكياسة يعتبر طقساً جديداً للرومان كان أوفيدوس كاهنه الأكبر .

وقد تأثر الأدباء المحدثون بفن الحب لأوفيدوس مثل « مكاولى » Macaulay الذى يصفه بأنه أحسن أشعار أوفيدوس وكذا تأثر به « جيته » فى كتابه « الإلجيات الرومانية » وكان أوفيدوس شاعره المفضل كما أنه يقال إن قصة الرسام الإيطالى الشهير « تيزيانو » Tiziano (١٤٧٧ - ١٥٧٦) المسماة « أريادنى على جزيرة ناكوس » استوحاها من كتاب

وفى الكتاب الثالث يوجه نصائحه للنساء فيقول : « يجب أن يسرعن والا يبخلن بعواطفهن عندما يكن يافعات فإن الكبر والتجاعيد والشعر الأبيض تلتحق بهن سريعاً . إن المنظر الحسن شئ جميل إلا أنه نادر . ولكن بشئ من الزينة تصبح المرأة جذابة وبدونها يفقد الوجه الجميل فتنته . إننى أعتقد أن ماتفعله نساؤنا فى الوقت الحاضر أمر معقول ليس لأننا نملك ذهباً أو نلبس ملابس فاخرة ولكن لأننا نعرف كيف نستمتع بملاذ الحياة ولأننا انصرفنا عن عادات أسلافنا الحشنة حيث كانت تقبع المرأة فى عقردارها تحيك الملابس أو تغزل حتى تقتل وقت فراغها . تزينى بالملابس ولكن لا تغلى فيها وتعطرى واعتنى بأسنانك وانظرى كى لا تكون أرجلك مشعرة وتعلمى فن التجميل ولكن إياك أن تستخدمى المساحيق أمام زوجك فإن منظر المساحيق أثناء استخدامها شئ بغيض .

تعلمى كيف تمشين وكيف تضحكين بل كيف تبكين لأنه هناك الصواب والخطأ فى استعمال أى شئ وإذا أردت أن تحافظى على جمال وجهك تحكى فى أعصابك فليس هناك امرأة أقبح منظرأ من تلك التى يستحوذ عليها الغضب وإذا أصبحت عواطف محبوبك باردة دعيه يشتم رائحة غريم له ، لاتدعيه يعتقد أنه الحصة الوحيدة على الشاطئ ، لا تكونى نهمة ولا تكثرى من تعاطى المسكرات فليس هناك منظر أشنع من منظر المرأة السكرى... الخ .

وكل ما ذكره أوفيدوس ممكن حدوثه فى أية عاصمة أو مدينة كبيرة فالمرأة هى المرأة لم تتغير وكذلك الرجل هو الرجل والطرق التى يتبعها كل إزاء الآخر واحدة فى جميع العصور . إنه يتحدث عن مجتمع مح للمباهج والملذات ولايسوده الحب العميق الذى ينتهى بفرر أو بأس أو موت ، وفى رأيه أنه ليس هناك اخلاص دائم . وفنه هذا جديد على

« فن الحب » وليس من قصة « كاتولوس » المشهورة في ذلك الموضوع .

نصوص

من الكتاب الأول - تعاليم للرجال

عليك أولاً أن تجتهد لتجد من تحب ، أنت يا من تخوض المعركة للمرة الأولى ، سيكون مجهودك ثانياً أن تكسب ود من أحببت ، و عليك ثالثاً أن تجعل الحب يستمر مدة طويلة . هذا هو سبيلي ، هذا هو ميداني الذي سوف ترسمه عربي ، هذا هو الهدف الذي سوف تقتمحه عجالات عربي .

وما دامت الظروف تسمح وما دام في استطاعتك أن تذهب إلى أى مكان مطلق العنان فاختر من تقول لها : « إنك أنت الوحيدة التي تعجبني » . فإنها لن تأتي إليك من نفسها ... عليك أن تبحث عن الفتاة التي تروق عينيك . إن الصائد يعرف جيداً أين ينصب شبابه للغزلان . ويعرف جيداً في أى الوهاد يقيم الوعل الثائر . إن الطيور تعرف الأشجار . ومن يمسك بالشص يعرف في أى المياه تسبح أسماك كثيرة . وأنت أيضاً يا من تبحث عن تحبه حباً طويلاً الأمد عليك أن تعرف أولاً أى مكان ترتاده الفتاة دائماً .

إنني لا أطلب منك أن تيسط شراعك للريح أو أن تقطع طريقاً طويلاً حتى تجدها . وبرغم أن « پرسوس » أحضر « أندروميديا » من بين الهنود السود^(١) . وبرغم أن الرجل الفريجي اختطف

الفتاة اليونانية^(٢) إلا أن روما ستعطيك فتيات جميلات كثيرات جداً حتى إنك لتقول : « إن في روما كل ما في العالم من فتيات جميلات »^(٣) .

ويعطى « السيرك » الفسيح فرصاً كثيرة للراغبين في الحب . فلا حاجة هناك للأصابع التي تعبر بها في كلام صامت ولا حاجة للمقنن إشارة بالإيماء . فاجلس بجوارها فليس هناك عائق يمنعك من ذلك ثم اقرب منها ما أمكن حتى تتلامسا .

وهذا أمر سهل إذ أن صف المقاعد يحمل على هذا التلامس إن لم تكن هي راغبة فيه ، فبحكم المكان يجب أن تلمس الفتاة . و عليك هنا أن تبحث عن بداية الحديث التعارف ودعها تسمع منك أولاً حديثاً عاماً . ولتسأل عن أصحاب الجياد التي تتقدم في الحلبة ولا تضع الوقت . ومهما يكن الأمر فكن في صف ذلك الذي تكون هي في صفه . ولكن عندما يمر الاحتفال المزدهم الذي يتنافس فيه الشباب فصفق لفينوس سيادة الحب بأيد مشجعة^(٤) وإذا سقط غبار عن طريق الصدفة على صدرها - كما يحدث عادة - فلتنفضه عنها بأصابعك .

وإذا لم يكن هناك غبار فلتنفض اللاشيء . وليكن لديك أى مبرر لما قمت به . وإذا تهطل معطفها واسترسل على الأرض فلتلمه و لترفعه من الأرض المغفرة في عناية وحينئذ سترى عينك حمياً قدمها برضاها جائزة لك على ما قمت به .

(١) يقصد « باريس » التي اختطف « هيليني » ورحل معها إلى طروادة بآسيا الصغرى .

(٢) يقصد أنه سهل أن تجد الجمال في روما دون مشقة السفر للبحث عنه في بلاد ذاتية عن روما .

(٣) شرح أوفيدوس هذا الاحتفال في كتاب الغزليات (Amores, 3, 2, 43 ff.) ويبدأ الحفل من قنعة الكنايتول إلى سوق المدينة (الفورم) ثم إلى السيرك . وكان يحمل المختفون تماثيل من العاج يصفق لها عند مرورهم عشاق أصحاب هذه التماثيل فيصفق مثلاً المحبون لفينوس إلهة الحب ويصفق الجنود لمارس إله الحرب .

(١) ربما يقصد بالهنود السود سكان إثيوبيا « أندروميديا » بنت « كيفيوس » Cepheus ملك إثيوبيا التي ادعت أنها أجمل من حوريات البحر فكان من لإله البحر « بوسيدون » « إلا أن صب جام غضبه على وطنها وأرسل وحشاً بحرياً لتخريبه وأشارت النبوءة أنه لا يمكن انقاذ الوطن إلا بالتضحية بأندروميديا لهذا الوحش وقد قيدت فعلاً إلى صخرة على الشاطئ وأصبحت عرضة لهذا الوحش ولكن « پرسوس » يأتي في الوقت المناسب وينقدها ثم يتزوجها وترحل معه إلى بلاد اليونان .

بعيد . ليس كافياً أن تكون قد كسبت الفتاة بما مهدت لك من طريق . إنك قد حصلت عليها بنفسى وبفنى عليك أن تحتفظ بها . وليست الجرأة فى الاحتفاظ بمن كسبتها بأقل من الجرأة فى البحث عنها . وللحظ فى ذلك نصيب ولكن الأمر فى حاجة إلى فن ... إن « مينوس » Minos لم يستطع أن يسيطر على أجنحة الرجل (١) . ولكننى أعد العدة للسيطرة على الإلاه المجنح كيوبيد . لأنه لمخدوع كل من يلجأ إلى فن تساليا (٢) وأن يتعاطى ما ينزعه من جهة المهر (٣) . إن أعشاب « ميديا » (٤) Medea لن تعمل على أن يعيش الحب ... فلو أن الحب يمكن الاحتفاظ به عن طريق السحر وحسب لكأنت قد احتفظت (ميديا) باين « أيسون » (٥) Aeson كما احتفظت « كيركى » بأوديسيوس . إن أشربة الحب الصفراء تضر الفتيات : لأنها تؤثر فى العقل ولها من القوة ما يدفع إلى الجنون . لتبتعد هذه الأشياء المدنسة ! كن رجلاً حبيبا كى تحب . ولن يمنحك الوجه أو الشكل فقط هذا الشيء رغم أنك قد تكون « نيريوس » (٦) Nemesis الذى كان « هوميروس » القدماء مفتونا به ، أو الفتى اليافع « هيلاس » (٧) الذى اختطفته حوريات المياه

(١) بعد أن شيد « ديدالوس » قصر اللايرنته فى كريت أراد أن يعود إلى وطنه أثينا ولكن « ميثوس » ملك كريت لم يوافق على عودته مما اضطر « ديدالوس » لأن يصنع لنفسه أجنحة يعبر بها إلى بلاده .

(٢) كانت « تساليا » فى شرق بلاد اليونان مشهورة بالسحر .
(٣) غشاء ينمو على جهة المهر (Hippomanes) عند ولادته ويستخدم كشراب للحب .
(٤) كانت « ميديا » مشهورة بالسحر الذى ساعدت به حبيبا « جاسون » كى يستولى على القراء الذهبى .

(٥) يقصد جاسون .
(٦) كان « نيريوس » أجمل وأعظم تأنقا من كان فى جيش اليونان ما عدا « أخيلوس » (الليادا) - الكتاب الثانى - سطر ٦٧ وما بعده .

(٧) ذهب « هيلاس » إلى إحدى الينابيع كى يشرب فأخذت حوريات المياه بجاله واختطفوه إلى داخل المياه .

ولتنظر كذلك خلفك كى لا يكون هناك من يضغط على ظهرها الرقيق . إن العقول تأسرها أشياء صغيرة ، فلقد أفاد الكثيرون من تهينة وسادة الفتاة بأيد متوثبة ، أو التهوية بمروحة رقيقة ، أو وضع مقعدتحت قدمين رقيقتين ولتدع جسدك يروق بنظافته كما يروق بوغشاء (١) المعارك . لتكن عباةتك ملائمة لجسدك ولا تكن ملطخة ، ولا تدع سر حذائك متجعداً ، واحذر ألا يعلو أسنانك الصداً . ولا تجعل تدميك غير ثابتين وتسبحان فى حذاء واسع . ولا تشوه خصلات شعرك بحلاقة رديئة . واحلق شعرك ولحيتك عند حلاق ماهر . ولا تجعل أطفرك طويلة تتخللها القذارة . ولا تجعل الشعر ينمو فى خياشيمك . ولا تكن أنفاسك ذات رائحة كريهة .

من الكتاب الثانى

تعاليم للرجال

إن العاشق يتوج فى سرور أشعارى بأكاليل النصر ويفضلها على قصائد شعراء الملاحم : هكذا فعل الغريب ابن « پريام » فبسط شراعه الوضاء مصاحباً عروسه التى اختطفت من مدينة « أميكلاى » (٢) Amyclae المحاربة . وهكذا فعل من حملك ، يا « هيبوداميا » (٣) فى عربته المنتصرة وحملت على عجالات أجنبية .

لماذا تتسرع ، أيها الشاب ، ؟ إن سفينتك تبخر فى وسط المحيط والميناء الذى أنشده بينى وبينه أمد

(١) الوغشاء ، الغبار .

(٢) يقصد باريس الأمير الطروادى الذى اختطف هيلين من من أسبرطة .

(٣) يقصد « پيلوپس » Pelops الذى أتى من آسيا الصغرى إلى بلاد اليونان وأحب « هيبوداميا » وتزوجها بعد أن فاز فى سباق العربات على أبيها الذى جعل هذا الفوز شرطاً لمن يريد أن يتزوجها .

ذلك فقد خضعت لمروءة رجل : : : فبالاستسلام
سرحل منتصراً . لتستسلم إذا قاومت فبالخضوع
سوف تتحاشى المنتصر . عليك فقط أن تفعل
ما تأمرك به ، لم إذا لامت ؛ وافق على أى شئ
توافق عليه : أكد ما تؤكد وأنكر ما تنكره ؛
واضحك إذا ضحكك ؛ وتذكر أن تبكى إذا بكيت.
دعها تسطر دستورها على محياك . . . إن الحب نوع
من الحرب : أيها الجبناء ، ابتعدوا . إن أعلام
الحب هذه يجب ألا يحرسها الجبناء : إن الليل
والشتاء والرحلات الطويلة والآلام المبرحة وكل جهد
موجود بداخل المعسكر الأنيق .

أيها القوم ، احتفوا بي أنا شاعركم : تغنوا
مدحى . اجعلوا اسمى يتغنى به فى جميع أنحاء
العالم ، فقد أعطيتكم السلاح . إن إله الحدادة قد
أعطى الأسلحة لأخيلوس . فانتصروا كما انتصر بما
منحت لكم من عطايا . ولكن إذا قهر أى منكم
الأمازونيات^(١) بلاحى فليخط على غنائمه :
« إن « ناسوا »^(٢) هو سيدى » .

الكتاب الثالث — تعاليم للنساء

إن المرأة لا تلوح باللهب أو الأقواس القاسية :
ويندر أن أرى أن هذه الأسلحة تؤذى الرجال :
غالباً ما يخدع الرجال وأما الفتيات فغالباً لا يخدعن :
وإذا سألت : فإن جرائمهن فى الخداع قليلة . إن
« جاسون » الخداع طرد ميديا بينما كانت فى ذلك
الوقت أمماً ، وأتت زوجة أخرى إلى أحضان ابن
« أيسون »^(٣) . وفيما تخصص دورك يا ثيسوس فإن

(١) تقول الأساطير إن الأمازونيات نساء جميلات محاربات
كن يقطن منطقة « سيثيا » Scythia .
(٢) كان اسم أوفيدوس هو : « بوبليوس أوئيدوس
ناسو » Publius Ovidius Naso .
(٣) يقصد « جاسون » .

المنذبات . فلتصف إلى المزايا الجسمية مواهب
عقلية : إن الجمال ميزة سريعة التهشم فكلما تقدم
العمر يصبح الجمال أقل بريقاً ثم تقتطفه السنون
نفسها ، فليس البنفسج دائم الازدهار والزنبق
لا يفتح ثمره دائماً . وعندما تذبل الوردة تجف
ويبقى الشوك . أيها الإنسان الجميل ، سرعان ما يصبح
شعرك أبيض وتظهر التجاعيد التى تحفر جسمك ؛
فلتجعل لك الآن روحاً ، تلك التى من خصائصها
أن تبقى ولتصفها إلى جمالك^(١) ولأنها الوحيدة التى
تبقى معك حتى تفارق الحياة . ولا تهمل فى تثقيف
نفسك بالفنون الجميلة أو أن تتعلم اللغتين . إن
« أوديسيوس » لم يكن جميلاً بل كان فصيحاً ورغم
ذلك فإنه أشعل نار الحب فى قلبى لإلهتين من
إلهات البحر . . . وإذا لم تكن الفتاة مشجعة بما فيه
الكفاية أو ودوداً لمن يحبها ، فلتتحمل حتى النهاية
ولتأبى فسوف تصبح طيبة فيما بعد .

إن الغصن الموعج ينشئ من شجرته باللين وإنه
لينكسر لو استخدمت قوتك . وباللين تسبح خلال
المياه وإنك لا تستطيع أن تقهر الأنهار بدلا من أن
تقبض عليك الأمواج إذا سبحت ضد التيار . إن
اللين يستأنس النور وأسود « نوميديا » Numidia .
ورويداً رويداً يخضع الثور للمحراث الريفى . وهل
كان هناك أعنف من « أتالنتا »^(٢) النوناكريه^(٣) ورغم

(١) يذكرنا هذا بقول شاعر العربية أبو الطيب المتنبى :
وفى الجسم نفس لاتشيب بشيبه ولو أن مافى الوجه منه حراب
يفير منى الدهر ماشاء غيرها وأبلغ أقصى العمروهى كمام
(٢) بنت « ياسوس » Jasus ابن « ليكيرجوس » ملك
أركاديا . وكانت مشهورة بالصيد كما كانت ضد فكرة الزواج
وقد أحبها « ميلانيون » Milanion ولم يستحوذ على قلبها
ويزوجها إلا بعد وقت طويل وجهد كبير أثناء مشاركتها الصيد
« أنظر Propertius 1.19 » .
(٢) أى الأركادية « من أركاديا » نسبة إلى « نوناكريس »
وهو اسم جبل فى إقليم أركاديا .

الطبيعية . لا تدعى شعرك بغير نظام . إن لمسة باليدين واحدة تكسبك الجمال وتسلبك إياه . وليس لازمة طريقة واحدة . لتختر كل ما يناسبها ولتستشر في ذلك الأمر مرآتها . إن الوجه البيضاوى يفضل فرقا للشعر على الرأس يترك بدون زينة وتميل الوجوه المستديرة إلى أن تكون في الشعر عقدة صغيرة تترك في أعلى الجهة بحيث تظهر الأذن وقد تصنع لإحدى النساء شعرها بأعشاب ألمانية وتبحث بفنها عن لون أفضل من لونه الطبيعى . وتسير امرأة أخرى مثقلة بشعر مستعار ... لقد نصحتك ألا يذبح من لبطيك رائحة كريهة وألا تكون رجلاك مخشوشنة بشعر حاد لا تدعى حبيبك بجد علب حليك موضوعة على المنضدة .

إن الفن الخفى يساعد جمالك . من ذا الذى لا يؤذيه رؤية الصباغة تلوث جميع الوجه عندما تنزلق لتقلها وتسقط على صدرك الدافئ ؟ ! فهناك أشياء كثيرة ليس من الصواب أن يعرفها الرجال . إننا معشر الشعراء دعاة للجمال المعشوق . إن « نيميسيس » وكذلك « كينثيا » مشهورة . إن الغرب والشرق يعرف « ليكوريس » (١) .

ولم يكن غرض أوفيدوس إثارة اللذة بل التسلية ولم يكن ينظر إلى الأشياء شزراً بل كان يبتسم لها .. لقد خلق عالماً يسر به القراء فكانت رسالته موجهة إلى المجتمع المثقف فى العاصمة وإدخال السرور عليه وساعده على ذلك حيويته وفطنته وشعوره العميق بالجمال سواء الجمال الجسماني أو جمال الطبيعة وكذلك خياله الخصب القادر على الخلق فلم يكن له نظير بين

(١) « نيميسيس Nemesis » إحدى معشوقات الشاعر تيبولوس و « كينثيا » معشوقة الشاعر « پروبرتوس » و « ليكوريس » معشوقة الشاعر جالوس الذى كان أول حكم من قبل الرومان عن مصر .
وجميعهم شعراء الغزل الرومان .

« أريادنى » قد وقعت فريسة للطيور البحرية وتكرمت وحيدة فى مكان غير معروف (١) ... إن « أينايس » له شهرة بالتقوى ومع ذلك فإن الضيف يا « ديلو » أملك بسيف وسبب للموت (٢) . أخبركم عن سبب هلاككن ؟ إنكن لم تعرفن كيف تحبين . إنه كان ينقصكن المهارة . إن المهارة تجعل الحب يستمر ... والآن تذكرن الشيوخوخة . وهكذا لن يضيع وقت سدى . وما دامت الظروف تسمح ولا تزلن فى ربيع العمر فالعين لأن السنين تمر مر المياه الجارية ، والموجة التى مرت لا تستدعى ثانية ، والساعة التى انقضت لا يمكن أن تعود . استفيدى من وقتك . إن الوقت ينسل بخطى سريعة . وليس المستقبل كالماضى فى الجمال .

لبنى أبدأ بالعناية بالجسد . إن العنب ينمو جيداً من الكروم المعنى بها وعلى التربة المعنى بها تشمخ عيدان القمح . إن الحب هبة الإلاه . إن كل واحدة مفتونة بما لها من جمال خلاب ولكن منكن من تحتاج لمثل هذه الهبة . إن العناية تكسبك الجمال ، والإهمال يطمسه ولو كان شبيهاً بجمال فينوس . وإذا لم تكن نساء الماضى يعتنين بأجسادهن وكذلك لم يكن للرجال القدماء أجساد تحظى بالعناية ، وإذا كانت « أندروماخى » تتأثر فى عبادة خشنة فأى غرابة فى ذلك ؟ لقد كانت هناك فى الماضى بساطة خشنة ولكن روما الآن فى عصر ذهبى وتملك الثروات الطائلة للعالم المشهور ... إننا الآن فى عصر حضارة غيرت من حياتنا ...

ولكن لا تثقلن آذانكن بالأحجار الكريمة التى يجمعها الهندى الأسود من المياه الخضراء ولا تحضرن متقلات بملايس قد حيكمت بالذهب . وابتعدن عن الثروة التى تبحثون بها عنا . إننا نؤخذ بالأناقة

(١) جزيرة ناكسوس Naxos .

(٢) يقصد « أينايس » الذى استضافته « ديدو » ملكة قرطاجنة وأحبته ثم انتحرت بعد أن تركها وفشلت فى إبقائه معها .

مفعمة بالعواطف وقد استجابت روحه الحساسة للشعور الشخصي والطبيعة . . لذلك كان لأوفيدوس تأثير كبير على الآداب الأوروبية خصوصاً ما يتعلق منها بالحب الرومانسي وتأثر بقصصه الأدباء الفرنسيون والإيطاليون كما تأثر الأدباء الانجليز . . وقد بدأت قصصه تدخل الأدب الأوروبي في القرن الثاني عشر كما يظهر من القصة الشعرية الفرنسية المسماة « بيراموس وثيسبي » وهي قصة عاشقين بائسين ويقول عنها أوفيدوس بأنه لم يأخذها عن الرومان أو اليونان بل أخذها عن الشرق (Ovidius. Metam. 4. 55-160) وهي تشبه رواية « روميو وجوليت » إذ أن العاشقين تفرقهما العداوة بين أسرتهما ويتقابلان سرّاً ويموتان نتيجة وهم خاطئ عند علم كل منهما بموت الآخر . وقد ذاعت هذه القصة وكثيراً ما كان يستشهد بها نقلاً عن أوفيدوس كثير من الأدباء الفرنسيين والإيطاليين في القرن الثاني عشر وسابعه . . وفي القرن الثالث عشر تُرجم كتاب التغيرات الذي يعتبر أهم كتاب أثار الطريق للرومانسية .

وترجم هذا الكتاب في القرن الثالث عشر إلى اللغة اليونانية حيث كان في متناول الحضارة الشرقية التي كانت تزعمها الامبراطورية البيزنطية وقد كان يطلق على هذه الفترة من العصور الوسطى بفترة « أوفيدوس »

وفي القرن الرابع عشر عرف تشوسر Chaucer أوفيدوس أكثر من أي كاتب لاتيني آخر ولقد أعجب بالتغيرات التي كانت مستودعاً خصباً للقصص ، وملهماً لمصوري النهضة الحديثة فأخذ تشوسر عنها قصة « بيراموس وثيسبي » وجعلها قصته الثانية في مؤلفه (Legend of Good Women) كما أن كتابه المسمى (The Duchess) يبدأ وينتهي بقصة Alcyone و Ceyx (Metam. 11. 410-748.)

الرومان في سرد القصص ولم تكن شهرته ترجع إلى أنه كتب موضوعاً عن الحب ذلك الموضوع المحبب إلى النفس أو إيقانه للوزن الإليجي وإنما ترجع إلى مقدرته كقصاص ماهر خصوصاً سرده لقصص « التغيرات » التي تعتبر كتاباً قيماً في الأساطير القديمة التي يشع منها شعر سهل ، سلس ، شفاف .

لقد كان شاعراً بالسليقة وإن كان شعره لم يبلغ جلال شعر من سبقوه خصوصاً فرجيليوس ولهذا السبب ترك باعتزافه الكتابة في شعر الملاحم كشيء خارج عن نطاق قدرته ولكنه كرس نفسه لأن يكون مترجماً لعصره وإن كانت كتاباته يسودها التطويل الملل ، كما أن فلسفته لم تكن عميقة ويعيب عليه بعض النقاد استهتاره وعدم مبالاته بما تحتمه الأياقة وإنه لم يكن متديناً كما أن قصصه لا تظهر خيالا مخلقاً ويكثر من الحيل البلاغية واللفظات الملحة مما جعل « سنكاً » يلومه ويصف هذه الأشياء بأنها عبث أطفال (Seneca, Q.N. III, XXVII, 12...) ويصفه بأنه مولع بمهارته .

وأهم كتبه التي تأثر بها الغرب هو كتاب « التغيرات » ذلك الكتاب الذي يسرد فيه بسرعة وطلاقة وحيوية وتأمل وسهولة قصص الحب والمغامرات .

وقد نالت « قصص البطلات » في العصور الوسطى الإعجاب وأوحت للناس فكرة الرومانسية التي امتاز بها حب الفرسان في ذلك العصر .

وعندما ظهرت فكرة الرومانسية بوضوح في القرن الثاني عشر كانت ترجع في بعض أسبابها إلى المسيحية من ناحية احترام العذراء وعدم المبالاة بمتاعب الجسد ولكن من بين الأسباب التي ساعدت على نمو هذه الفكرة كتابات أوفيدوس فقد عالج الحب باعتباره علماً كما كانت مؤلفاته

إن تأثره فيها بشخصية « ديدو » عند أوفيدوس في كتابه التغيرات أعمق من تأثره بشخصية « ديدو » عند فرجيلوس في إنبادته .

وفي الواقع إن اشارات شكسبير عن الأساطير يرجع معظمها الى أوفيدوس وقد ترجم آرثر جولدنج « Arthur Golding (١٥٦٥ - ١٥٦٧) » كتاب التغيرات فأثرت دون الحاجة إلى قراءتها مباشرة عن الأصل اللاتيني في عقلية شكسبير وشعره :

وكان اهتمام أوفيدوس بالحب والأشياء الحارقة للطبيعة مناسباً لعصر شكسبير بل لشكسبير نفسه . واستمر تأثير أوفيدوس إذ أن كتابات « ميلتون » Milton تردد صدى « التغيرات » من حيث لغته وطريقة تفكيره كما تأثر أيضاً « دريدن » Dryden « ماتيوپريور » Mathew Prior وبوب Pope الذين كتبوا شعرهم بال Heroic Couplets التي تعتبر أوفيدية . وقد أثر جيته Goethe (١٧٩٥) بكتاب « فن الحب » في مؤلفه (الإلجيات الرومانية) وتأثر به الشعراء الغنائيون في القرن التاسع عشر أمثال « وردزورث » Wordsworth و « شيلي » Shelley اللذان يدينان له في كتاباتهما وقد ذكر « كيتس » Keats بأنه ليس هناك مادة أمام الشاعر أروع مما في التغيرات .

من هذا كله نرى مدى تأثر أدباء الغرب بأوفيدوس :

ونرى أيضاً أن أوفيدوس كان على حق عندما كان مولعاً بكتبه . وارتبه الأمر الذي عابه عليه بعض الرومان القدماء :

وكذلك كتابه المسمى The House of Fame به كثير من وصف أوفيدوس لمنزل الشهرة في التغيرات (Metam 12. 39 F) وقد أفاد أيضاً من خطابات أوفيدوس الخيالية في « رسائل البطلات » كخطاب أوفيدوس الخاص بباريس وهيلين في Pretty Coquette Criseyde وقد تأثر تشوسر أيضاً بالتقويم الروماني كما يظهر من قصته Lucretia في كتابه المسمى The Legend of good Women إن مقدره تشوسر على كتابة قطع مطولة في الوصف والمقارنات ترجع إلى دراسته الكلاسيكية :

وبعد اختراع الطباعة مباشرة أخذ في طبع « رسائل البطلات » تبعاً وكان أول ترجمة لها بالانجليزية سنة ١٥٦٧ وبعد خمس عشرة سنة من ذلك التاريخ استرعت هذه الأشعار نظر « خريستوفر مارلو » Christopher Marlowe الذي أحرقت أشعاره علناً بأمر الكنيسة سنة ١٥٩٩ :

كما تأثر به عصر الملكة اليزابيث فتأثر به « إدموند سبنسر » Edmund Spenser (١٥٩٠ - ١٥٩٦) في قصته Faerie Queene وتأثر به شكسبير بقصة بيراموس وثيسبي في روايته Midsummer-Night's dream وإن كانت معلوماته في اللاتينية أقل بكثير من معلومات سبنسر إلا أن شكسبير تأثر كثيراً بكتابات أوفيدوس حتى أنه يمكن كتابة كتاب كامل عن هذا التأثير فأخذ مثلاً مقطوعته الشعرية المسماة Venus and Adonis عن أوفيدوس متأثراً بكتابه « الغزليات » Amores وقد اهتدى النقاد إلى إشارات كثيرة في رواياته مكتوبة عن كتاب التغيرات مثلما في روايته المسماة Cleopatra التي يقول عنها النقاد

رحلات حول العالم للكابتن جيمس كوك

بهتلم
الدكتور سليم أنطون

قسم علوم البحار بكلية العلوم - جامعة الاسكندرية

القطبية الجنوبية ، وكان وجود أستراليا ونيوزيلاندا وكثير من جزر المحيط الهادى ضرب من الحدس والتخمين ومنذ خمسة قرون فقط لم يتن العالم القديم يعرف شيئاً عن أمريكا ، ولم تكن استدارة الأرض قد ثبتت عملياً بالدوران حولها .

لم تكن الحضارة المصرية القديمة حضارة نهريّة فقط بل إنها كانت تحمل أيضاً ملامح الحضارات البحرية فأنشأت الموانئ على سواحل البحرين الأحمر والمتوسط وبنت الأساطيل التي قامت برحلات بعيدة مثل رحلة حتشبسوت حوالي ١٥٠٠ قبل الميلاد إلى بلاد البنوت أو الصومال . واشتهر الفينيقيون كملاحين مهرة جابوا البحر المتوسط واستكشفوا شواطئه ، بل إنهم غامروا بالخروج إلى السواحل الأوربية والأفريقية المطلة على المحيط الأطلنطي . أما الإغريق فقد مدوا تجارتهم البحرية إلى شواطئ البحر الأسود وحملتهم غزوات إسكندر الأكبر حتى الهند شرقاً مما أضاف الكثير إلى معلوماتهم الجغرافية . ولم يكن الرومان بحارة بارعين ولكن غزواتهم حول البحر الأبيض المتوسط وعلى الأخص في أسبانيا وفرنسا وألمانيا وإنجلترا ، وسعت دائرة المعارف الجغرافية .

عشر سنوات ذهبية في تاريخ الكشوف الجغرافية ، هي نفسها سنوات مجيدة في حياة جيمس كوك . ففي ٢٨ أكتوبر ١٧٦٨ احتفل كوك بعيد ميلاده الأربعين . على ظهر سفينته « انديفر » ، وهو في مستهل رحلته الأولى حول العالم . وفي ١٤ فبراير ١٧٧٩ سقط قتيلاً على شواطئ هاواي في نهاية رحلته الثالثة ، بعد أن جاور الخمسين ببضعة أشهر . وفي خلال هذه السنوات العشر كان كوك قد « أعاد رسم خريطة العالم » ، بعد أن استكشف أو أعاد استكشاف كثير من جزر المحيط الهادى ونيوزيلانده . والساحل الشرقي لأستراليا والساحل الغربي لأمريكا الشمالية حتى مضيق بارنج شمالاً . كما استطاع أن يلتقى نظرد على القارة القطبية الجنوبية وأن يتنبأ بوجودها .

قصة الكشوف الجغرافية :

لا تكاد توجد الآن بقعة في العالم لم تستكشف بعد . وباستثناء بعض الأماكن المنعزلة في القارة القطبية الجنوبية فان هناك القليل الذي يمكن إضافته إلى خريطة العالم . ولكن الأمر لم يكن كذلك في عصر كوك أي منذ مائتي عام حين كان العالم مجهل تماماً بوجود القارة

إلى الشرق بالبحث عما كان يعرف « بالمر الشمالى الغربى » فى شمال أمريكا الشمالية و « المر الشمالى الشرقى » فى شمال آسيا ولكن هذه الجهود الجريئة لم تحقق أى نجاح حتى تمكنت هذه الدول من هزيمة أسبانيا والبرتغال ومن ثم اتجهوا إلى الجنوب أيضاً .

وبتغير القوى البحرية فى أوروبا ، أصبح من الطبيعى أن يتغير اتجاه هذا النشاط فبينما كانت الكشوف الجغرافية الكبرى من نصيب أسبانيا والبرتغال خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر نجد أن هذا النشاط انتقل إلى هولندا وإنجلترا وفرنسا وروسيا . وبنهاية القرن السادس عشر بدأ الهولنديون والإنجليز الاتجار مع الهند . ولما كانت أستراليا تقع خارج الخطوط الملاحية بين أوروبا وجزر الهند الشرقية ، فإن سواحلها بقيت دون أن تستكشف بدقة حتى عصر كوك .

هذه لحظة سريعة عن التقدم الذى أحرزته البشرية فى الكشوف الجغرافية قبل عصر كوك . وقد قصصنا هنا أن نعرف العالم الذى ولد فيه كوك قبل أن نتحدث عن الرجل .

حياة جيمس كوك :

ولد جيمس كوك فى ٢٨ أكتوبر ١٧٢٨ فى قرية صغيرة فى منطقة يوركشير بالقرب من ميناء ويتبي المطل على بحر الشمال . وقد نشأ فى أسرة فقيرة مما اضطره إلى مغادرة المدرسة ليعمل أجيراً مع والده فى الزراعة . وعندما بلغ الثامنة عشرة من عمره كان يشتغل كبشار تحت التدريب على ظهر مركب صغير يعمل فى تجارة الفحم بين شمال وجنوب إنجلترا . واستغل أوقات فراغه فى دراسة الرياضة والملاحة حتى ليقال إنه ، عندما انتهى من فترة تدريبه ، كان يعرف من الملاحة أكثر من أى مستكشف سبقه إلى المحيط الهادى . وسرعان ما أصبح كوك ضابطاً فى البحرية التجارية وهو فى الرابعة والعشرين من عمره وكان يستطيع أن يحصل

وفى خلال القرون الثمانية التى أعقبت سقوط الإمبراطورية الرومانية حوالى عام ٤٠٠ انتقلت حركة الكشوف الجغرافية إلى العرب وأهل الشمال . جاب العرب المحيط الهندى ووصلوا فى رحلاتهم التجارية إلى مدغشقر وموزامبيق فى الجنوب وإلى الهند وسيلان والصين فى الشرق . أما أهل الشمال فقد عبروا من النرويج إلى أيسلنده ومن اسكتلندا إلى جرينلاند ومنها إلى سواحل البرادور فى شمال أمريكا .

وباندلاع الحرب الصليبية توقفت التجارة بين الشرق وأوروبا ، وقاطع العرب كل الدول الأوروبية عدا البندقية التى احتكرت التجارة مع العرب وكونت ثروات طائلة من بيع منتجات الشرق إلى بقية أوروبا ، مما دفع البرتغال وجنوه إلى محاولة الوصول إلى الهند عن طريق الدوران حول أفريقيا .

وهكذا بدأ عصر الكشوف الجغرافية بمحاولات البرتغاليين الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح للوصول إلى الهند وجزر التوابل التى انتهت بنجاح فاسكودى جاما عام ١٤٩٨ . وفى نفس الوقت تقريباً عبرت السفن الأسبانية المحيط الأطلنطى تحت قيادة كريستوفر كولومبوس واكتشفت جزر الهند الغربية ، وإن كان قصدها الأصلى الوصول إلى جزر الهند الشرقية بالبحار غرباً . واصل الأوربيون بعد هذا استكشاف السواحل الأمريكية من الشمال إلى الجنوب بقصد العثور على منفذ يودى إلى جزر التوابل فى الشرق . وفى عام ١٥١٩ تمكن ماجلان على رأس بعثة أسبانية من اختراق المضيق الذى يعرف باسمه فى الطرف الجنوبى من القسارة الأمريكية ، ثم الابحار شرقاً فى المحيط الهادى والوصول إلى جزر الهند الشرقية ، فكان بحارته أول من استطاعوا الابحار حول العالم .

احتكر البرتغاليون الطريق حول أفريقيا ، والأسبان الطريق حول أمريكا الجنوبية ، وظلت لهما السيادة البحرية تاركين إنجلترا وهولندا وفرنسا يحاولون الوصول

إلى مكان قصي من العالم لرصد كوكب الزهرة . فن المعروف أن كوكب الزهرة - مثله في ذلك مثل عطارد - أكثر قرباً إلى الشمس من الأرض إليها ، وأنه يدور حول الشمس في مدار داخل مدار الأرض حولها . وفي أوقات معينة نادرة تمر الزهرة بين الأرض والشمس فعلا بحيث تتحرك على وجه الشمس كنقطة سوداء ويتربقب الفلكيون حدوث هذه الظاهرة لأنهم يستطيعون من تعيين المدة اللازمة لعبور الكوكب حساب المسافة بين الأرض والشمس . وتستلزم هذه العملية رصد الكوكب من نقطتين تفصلهما مسافة بعيدة على سطح الأرض . وقد وقع الاختيار حينئذ على جزيرة تاهيتي في جنوب المحيط الهادى لمشاهدة عبور كوكب الزهرة . وعرضت الأدميرالية ارسال سفينة تحمل البعثة العلمية إلى هذه الجزيرة التي كان كابتن «واليس» قد اكتشفها حديثاً لحساب بريطانيا .

عاد كوك إلى إنجلترا بعد أن كانت ترتيبات الرحلة قد تمت فوقع الاختيار عليه - وهو في الأربعين من عمره - لقيادة هذه البعثة . ومنذ هذه اللحظة سوف نرى أن حياة جيمس كوك ترتبط بالبعثات الكشفية الثلاث التي قادها والتي وصفها في يومياته الشهيرة بحيث يصعب علينا أن نفصل بين حياة كوك ورحلاته ويومياته ، مما يدعوننا لأن نعالج هذه الموضوعات كعناصر متداخلة في دراسة أكثر شمولاً .

عصر جيمس كوك :

أدت اكتشافات كوك إلى إلقاء الضوء على خريطة العالم ، فاستطاع برحلاته أن يرفع الحجاب عن بقاع كانت مجهولة للعالم المتحضر ، وأن ينقى ويدحض كثيراً من الشائعات والنظريات عن وجود معالم جغرافية خيالية . وحتى نتبين الدور الذي لعبه كوك ، ونتمكن من تقويم جهده ونتأمله فاننا نعرض هنا إلى حدود العالم في عصر كوك ، والمعلومات التي كانت تحت يده

على وظيفة ربان لو وقع بالعمل على السفن التجارية . وعندما اندلعت الحرب بين المستعمرين الإنجليز والفرنسيين في شمال أمريكا عام ١٧٥٥ ، وجد كوك فرصته في ارضاء طموحه في العمل في المياه البعيدة فتقدم متطوعاً إلى البحرية الإنجليزية كببحار بسيط ، وعمل على ظهر السفينة الجبل تحت امرة الكابتن سير باليسر ، الذي سرعان ما اكتشف كفاءته وخبرته . نال كوك ترقية سريعة واشترك كضابط في الحرب الدائرة في شمال أمريكا ، ولكن هذه المشغوليات لم تبعده عن كتب الرياضة والفلك وغيرها حتى يرفع من مستوى تحصيله في المدرسة . وكان الإنجليز يستعدون لمهاجمة كيويك وانزاعها من أيدي الفرنسيين ، وكان نجاحهم رهناً بقدرتهم على الملاحة في نهر سانت لورانس فكلف كوك بعمل مساحة للنهر بين كيويك والبحر ، وقام فعلا خلال أسبوع من العمل تحت جناح الظلام برسم خريطة دقيقة لهذه المنطقة ونجح في ارشاد سفن الأسطول بتحديد المجرى الملاحي بوساطات عوامات حتى تستطيع السفن الكبيرة الصعود في النهر دون عقبات واقرن احتلال الإنجليز لكيويك بالمهمة التي قام بها كوك مما أكسبه حظوة لدى رؤسائه .

اشترك كوك بعد ذلك في استعادة نيوفوندا لاند عام ١٧٦٢ وقام بعمل مساحة جزء من الشاطئ فعين في وظيفة «مساح بحرى لساحل نيوفوندا لاند والبرادور» وظل في هذه الوظيفة حتى عام ١٧٦٧ ، أعد خلالها عدداً من الحملات في الارشاد الملاحي لهذه المنطقة ، والتي صدرت (١٧٦٦ - ١٧٦٨) تحمل دليلاً على كفاءته وتمكنه من علوم المساحة البحرية . وفي خلال هذه السنوات أيضاً ارتفع صيته كرياضي وفلكي برصده الكسوف الشمسي في ٥ أغسطس ١٧٦٦ ، وكتاباته في المحلة العلمية «المراجعات الفلسفية» . وفي عام ١٧٦٨ كانت الجمعية الملكية - وهي أكبر هيئة علمية في بريطانيا - تعد العدة لارسال بعثة

الأرض على الخريطة كجزء من اليابس يمتد بين أفريقيا وآسيا على طول المحيط الجنوبي . وبالرغم من أن كثيراً من آراء الجغرافيين القدامى قد تداعت وانتهت في العصور الوسطى ، فان نظرية بطليموس بقيت ذات أثر قوى ، كما ظلت خرائطه كمرجع أساسى حتى اكتشاف الطريق البحرى إلى الهند .

ووجدت الفكرة القديمة قبولا لدى كثير من مشاهير الجغرافيين في النصف الثانى من القرن السادس عشر ، مثل الجغرافى الهولاندى « ميركاتور » ، الذى لم يضعها فقط في خرائطه ، بل أنه برر ضرورة وجودها بأن مثل هذه الكتلة من اليابس لازم لموازنة القارات في النصف الشمالى من الكرة الأرضية . ورغم أن هذه النظرية التى تدعو إلى التوزيع المتوازن لليابسة على سطح الكرة الأرضية لم تقبل من الجميع ، فانها كانت عاملا أساسياً في إحياء نظرية القارة الجنوبية .

وجاءت الكشوف المتتالية وكل منها يحمل بعض الأمل في وجود مثل هذه القارة . فعندما عبر ماجلان المضيق الذى يعرف باسمه في الطرف الجنوبى من قارة أمريكا الجنوبية ، كانت هناك أرض تمتد إلى الجنوب . وظلت خرائط الأوربيين تظهرها لسنين عديدة كجزء من القارة الجنوبية الضخمة . حتى أثبت سير فرانسيس دراك أن هذه الأرض التى تعرف باسم (Tiera del Fuego) ما هى إلا جزيرة صغيرة تنتهى جنوباً برأس هورن . ولكن نتائج بعض الرحلات الاستكشافية التالية كرحلات شوتن وكبروس وجانزون ظلت تؤيد هذا الاحتمال ، فقد اتجه معظم المستكشفين في ذلك العصر إلى أن يأخذوا كل أرض جديدة تكتشف إلى الجنوب على أنها جزء من القارة القطبية الجنوبية . وظل هذا السؤال قائماً حتى عصر كوك : هل توجد حقاً هذه القارة الجنوبية وإذا كان الأمر كذلك فما هى طبيعتها وامتدادها الجغرافى ؟

عن الأراضى التى اكتشفها فيما بعد ، وعن النظريات التى كانت تراود العلماء وتشغل حيزاً من معتقدات الجغرافيين والملاحين في ذلك العصر .

فمع انتهاء القرن السادس عشر كان هناك تقدم واضح في معلومات الأوربيين عن توزيع اليابس والماء على سطح الأرض . واحتلت أمريكا مكانها كمساحة شاسعة من اليابس على خريطة العالم . وأخذت الرحلات خلال القرن السابع عشر والنصف الأول من القرن الثامن عشر تسد الثغرات في معلوماتنا عن خريطة العالم ، وعلى الأخص في المحيط الهادى ، أضخم المحيطات وأحدها اكتشافاً . ولكن « المحيط الجنوبى » ظل يمثل مساحات ضخمة من المياه التى لم تبصر فيها أية سفينة . فحتى رحلة كوك الثانية لم تكن الدائرة القطبية عند خط عرض ٣٠° ٦٦° جنوباً قد عبرت بعد ، بل إن عدداً قليلاً من السفن كان قد أبحر حتى ٣٠° جنوباً . وطبيعى أن تبقى هذه المياه ماثراً لخيال الجغرافيين والملاحين ، وأملا يراود المستعمرين ومكاناً للتنافس بينهم ؟

شغل الجغرافيون والمستكشفون في ذلك الوقت بثلاث قضايا هامة دار حولها كثير من النقاش ، وقدر لكوك أن يقدم للعالم - خلال رحلاته الثلاث - حلا لهذه القضايا الثلاث التى نعرض لها هنا .

أولاً : القارة الجنوبية :

والتي عرفت حينئذ بأرض الجنوب المجهولة (Terra Australis Incongenita) بدأت الرحلات الهامة في المحيط الهادى تتجه خلال القرن السابع عشر إلى البحث عن أرض ضخمة مجهولة إلى الجنوب من هذا المحيط . ويرجع أصل هذه العقيدة إلى العصور الكلاسيكية ، عندما اعتقد الجغرافيون بوجود أرض في الأطراف الجنوبية من العالم . ووضع بطليموس الجغرافى هذه

ثانياً : القارة الاسترالية :

بدأ الهولنديون استكشاف واستعمار جزر الهند الشرقية ومنها وصلوا إلى سواحل أستراليا . ولكن هناك من يرى أن سفن أسبانيا والبرتغال بلغت أستراليا قبل الهولنديين . ويعتمد هذا الرأي على بعض الخرائط التي يرجع تاريخها إلى عام ١٥٣٠ . بينما يرفض جمهور من العلماء هذا الرأي ويعتقدون أن هذه الخرائط تعتمد على الخيال أو على أحاديث الأهالي في جزر الهند الشرقية .

جاء اكتشاف القارة الأسترالية متأخراً . فقد كانت تقع خارج الخطوط الملاحية بين أوروبا وجزر الهند الشرقية . وحتى عندما عرف بوجودها فإن استكشافها واستعمارها تأخر كثيراً بسبب التقارير غير المشجعة التي عاد بها الرحالون الأوائل الذين أبحروا على طول السواحل الغربية القاحلة . ومن أمثلة هذه التقارير ما جاء في وصف واحد منهم للشمال بأن « الجانب الأكبر منه صحراء ويسكنه في بعض الأماكن قوم سود قساة متوحشون » !

استطاع الهولنديون في القرن السابع عشر أن يطردوا البرتغاليين والإنجليز من جزر الهند الشرقية ويستولوا على تجارة التوابل . وكان أهم مركز تجاري لهم ميناء باتافيا في جزيرة جاوه التي نعرفها الآن باسم جاكرتا . والواقع أن الهولنديين لم يهتموا فعلاً سوى جزيرة جاوه واكتفوا بإقامة مراكز تجارية على الجزر الأخرى . وقد وجدت شركة الهند الشرقية الهولندية أن احتلال أستراليا عملية غير اقتصادية . وخاصة أن التقارير الأولى للمكتشفين الأوائل لم تكن مشجعة . ومن ناحية أخرى فقد كان الهولنديون يرفضون أن يروا أوروبا آخر يستقر في هذه الأرض لذلك أعلنوا ملكيتهم لها وادخلوها في خرائطهم وأسماها هولندا الجديدة . لعل أول من اكتشف أستراليا هو وليم جانزون

الهولندي ، الذي أبحر على طول الساحل الجنوبي لغينيا الجديدة ثم تابع رحلته جنوباً حتى وصل إلى مضيق كارينتاريا في شمال أستراليا واستمر يتحرك على طول ساحله الشرقي حتى أجبرته عداوة الأهالي على العودة . ولكن أهم رحلة استكشافية تسبق رحلة كوك كانت بقيادة ابل تاسمان الهولندي عام ١٦٤٢ أي قبل رحلة كوك بأكثر من مائة وعشرين عاماً ، وكان الحاكم الهولندي لجزر الهند الشرقية فان ديمن يرغب في معرفة نطاق هذه الأرض الجديدة فأرسل بعثة بقيادة تاسمان ، الذي غادر باتافيا متجهاً إلى الغرب حتى جزر موريشياس في المحيط الهندي ثم قفل عائداً إلى الشرق والجنوب الشرقي ليقع على جزيرة كبيرة أطلق عليها اسم أرض فان ديمن هي ما نعرفها اليوم بجزيرة تاسمانيا في جنوب شرق أستراليا . ومن هنا اتجه تاسمان شرقاً مع الرياح الغربية حتى وقع بعصره على نيوزيلاندا . فأبحر على طول ساحلها الغربي ومن هناك عاد إلى جاوه ماراً بشمال غينيا الجديدة .

يرى بعض الكتاب أن رحلة تاسمان كانت « فشلاً رائعاً ! » فمن سوء حظه أنه دار حول أستراليا دون أن يراها . ولكنه استطاع بذلك أن يحصر المساحة التي يمكن أن تقع فيها القارة الجنوبية : كما أثبت أن أستراليا ليست جزءاً من القارة الجنوبية : وإن كان قد توهم أن نيوزيلاندا جزء من القارة الجنوبية وبالرغم من هذا فإن رحلة تاسمان تعد من أنجح الرحلات الكشفية فقد أدت إلى إضافة تاسمانيا ونيوزيلاندا وعدد آخر من الجزر الصغيرة إلى خريطة العالم . وفتحت الباب على مصراعيه لرحلات كوك التالية .

ثالثاً : الممر الشمالي الغربي :

ذكرنا فيما سبق أن الطرق البحرية إلى جزر الهند الشرقية كانت تقع في أيدي الأسبان والبرتغاليين ، بينما بقيت دول شمال غرب أوروبا بعيداً عن هذا الميدان في وقت كانت النزعات القومية تفرق بينها ، وكان

بوجانفيل الفرنسي قد استعمرها في رحلة سابقة ، واستطاع بيرون في رحلته عبر المحيط الهادى أن يكتشف عدة جزر وأن يقدم بعض الأدلة على وجود أرض إلى الجنوب ، وهو زعم لم تثبت صحته بعد ذلك .

لم تنجح هذه الرحلة كثيراً ، فقرر ارسال سفينتين بقيادة كل من واليس وكارتيريت ، ولكن السفينتين افترقتا عند دخولها المحيط الهادى ، واتخذتا مسارين مختلفين ، فاكتشفت الأولى جزيرة تاهيتى الكبيرة واكتشفت الثانية مجموعة جزر سانتا كروز ، وصححت موقع عدد من الجزر التي سبق اكتشافها .

وأسهم الفرنسيون في هذا النشاط برحلات لويس انطوان دى بوجانفيل الذي قاد عامى ١٧٦٣ ، ١٧٦٥ رحلتين لاستعمار جزر فالكلاند ثم ذهب في عام ١٧٦٦ ليسلم هذه الجزر إلى أسبانيا ومنها اتجه إلى ريودى جانيرو حيث اصطحب معه سفينة تموين ليبدأ رحلة حول العالم عبر فيها المحيط الهادى بقصد البحث عن حل لمسألة القارة الجنوبية . فزار جزيرة تاهيتى بعد اكتشافها وأليس لها ببضعة أشهر ، ثم اكتشف مجموعة جزر ساموا ثم زار عدداً من الجزر التي تقع إلى الشرق من استراليا ، ومنها اتجه إلى الساحل الشمالى لغينيا الجديدة في طريق عودته إلى فرنسا التي وصلها عام ١٧٦٩ ، بعد أن غادر كوك إنجلترا في رحلته الأولى .

يوميات الكابتن كوك :

من تقاليد البحر أن يحتفظ قبطان السفينة بسجنى يكتب فيه بانتظام الأحداث التي تمر بها السفينة . وعندما تكون الرحلة غير عادية ، والأصقاع التي تمر بها السفينة غير معروفة ، يصبح دفتر الأحوال هذا عملاً له أهمية كبيرة ، وخاصة إذا كتبه قبطان مثل كوك ، ذلك العالم المدقق ، ذو الحاسة السادسة للكشوف الجغرافية ، والذي كان يعرف تماماً أبعاد المهمة المنوطة به ، ويعرف كيف يحققها على أكمل وجه .

التنافس على المستعمرات والاتجاه إلى التوسع هو الصفة الغالبة بينها . وكان طبيعياً أن تتجه هذه الدول إلى البحث عن طريق آخر إلى الشرق ، وأن يكون بحثها في مناطق لم تستكشف بعد . وانفرد الانجليز والهولنديون بمحاولة الوصول إلى جزر الهند الشرقية بالأبحار حول شمال آسيا شرقاً أو أمريكا غرباً . وقد بدأت محاولات البحث عن « الممر الشمالى الشرقى » في شمال آسيا وانتهت أولاً . ومن ثم اتجرت جهود الرحالة إلى العثور على « الممر الشمالى الغربى » على الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية . وتتعاقب رحلات المستكشفين فروبشير الانجليزى (١٥٧٦ - ١٥٧٨) وجون دافيز (١٥٨٥ - ١٥٨٧) على نفقة تجار لندن ، ثم هنرى هلسون (١٦٠٩ - ١٦١٠) في خدمة الهولنديين ، وباتون (١٦١٢) وبيلوت وبافين (١٦١٥ - ١٦١٦) وقد كشفت هذه الجهود عن تفاصيل كثيرة في خريطة الساحل الشرقى لأمريكا الشمالية ، ولكنها لم تنجح في الكشف عن ممر يودى إلى المحيط الهادى . وبقيت هذه المشكلة معلقة ليعاود كوك المحاولة في رحلته الثالثة .

• • •

هذه هي القضايا الثلاث التي شغلت بال الجغرافيين والملاحين والمستعمرين والساسة في هذا العصر ، وقدر لكوك أن يغير بشكل حاسم في أفكارهم جميعاً نتيجة للحقائق الجغرافية الجديدة التي عاد بها من رحلاته .

لم يكن كوك وحده في الميدان ، ويجدر بنا أن نأخذ فكرة عن الرحلات المعاصرة له حتى نستطيع أن نقدر النجاح الذى حازه بالمقارنة بما أحرزه معاصروه من المستكشفين في نفس المياه التي أبحر فيها كوك .

ففى عام ١٧٦٤ غادر جون بيرون لإنجلترا ، بتعليمات للبحث عن جزر بيبس وجزر فالكلاند ولكنه لم يجد الجزر الأولى التي قيل إنها شوهدت عام ١٦٨٤ ، واستولى على مجموعة جزر فالكلاند التي توجد بالقرب من مضيق ماجلان ، حاسباً إياها جزر بيبس ، وكان

أثارت رحلات كوك كثيراً من الخيال ، وأقبل الكثيرون على قراءتها مما جعل الناشرين يتبارون في إدارها بمختلف اللغات وفي طبعات وأحجام عديدة وتحت عناوين متباينة : ويستطيع القارئ أن يتبين هذا الاقبال من مقدمة أحد الناشرين عام ١٨٣٣ ، والتي أعرض هنا جزءاً منها ، يقول الناشر « بن كل الملاحين الذين عرفهم العالم ، كان الكابتن كوك أكثرهم قدرة ومهارة كما فاقهم بكثير في النجاح الذي حققه . وقد أخذ وصف رحلاته الثلاث ، منذ أمد طويل ، مكاناً متفوقاً على أي أعمال مماثلة . فنشرت أعماله في جميع الأحجام ، ويمكن أن يقال أنها أصبحت مرجعاً أساسياً للمدارس . وجزءاً لا غنى عنه في مكتبة رجل البحر » .

الرحلة الأولى :

كان الهدف الأول لهذه الرحلة هو رصد كوكب الزهرة من جزر تاهيتي أثناء عبوره عام ١٧٦٩ . ولكن الآمال الكبيرة في احتمال الكشف على القارة الجنوبية دعت البحرية إلى تخصيص سفينة تحمل بعثة الجمعية الملكية إلى تاهيتي ثم توجه بعد ذلك إلى القارة المشدودة التي كان الكل يعتقد أنها أكبر من أوروبا وآسيا مجتمعتين وأنها سوف تفيض بالثروة والرخاء على أول دولة ترفع علمها عليها . تولى كوك قيادة هذه الرحلة وكان تمكنه في علوم الفلك والملاحة قد رشحه لتولى رئاسة هذه البعثة العلمية ، التي كانت تضم عدداً من العلماء منهم شارل جرين الفلكي وجوزيف بانكس عالم النبات المعروف الذي منح لقب سر وانتخب فيما بعد عضواً بالجمعية الملكية وصار رئيساً لها لمدة تزيد على الأربعين عاماً ، وترك للمتحف البريطاني مجموعات نباتية لا تقدر بثمن . وقد صحب بانكس في هذه الرحلة صديقه دكتور سولاندر وعدداً من مساعديه ، حتى يقوموا ببحوث في التاريخ الطبيعي . وقد نجح كوك في التعاون مع مجموعة العلماء وتيسير مهمتهم ، كما كان للحماس

ممكن . ويوميات البحر هذه هي المصادر الرسمية لأي كشف جغرافي جديد ، ومرجع للعلماء في التاريخ للكشوف الجغرافية ، وخاصة عندما تتنازع الأمم شرف سبق إلى هذه الفتوح سواء عن رغبة علمية أو نزعة استعمارية . ولكن هذه اليوميات في حالتها الأصلية تصبح عبئاً على القارئ الباحث أو القارئ العابر بما فيها من تفاصيل قد لا تمت بصلة كبيرة للموضوع الأصلي . لذلك يعمل أصحابها أو الناشرون على إعادة كتابتها بعد تصفيتها من التفاصيل غير الأساسية . وهذه اليوميات لمشاهير المستكشفين تعطينا عادة صورة حية لظروف المعيشة على ظهر السفينة ، وانفعال الكاتب بالأرض الجديدة وأهلها ، والأهداف الحقيقية لهذه الرحلات ومدى نجاحها .

صدرت يوميات كوك على مراحل متتالية وتحت عناوين مختلفة . ففي عام ١٧٧٢ - ١٧٧٣ نشر دكتور هوكسورث كتاباً تحت عنوان « رحلات » وتولى فيه تحرير حكاية كوك عن رحلته الأولى تحت عنوان « وصف لرحلة حول العالم في السنوات ١٧٦٨ - (١٧٧١) » .

أما قصة الرحلة الثانية فقد كتبها الكابتن كوك نفسه بالاشتراك مع جورج فورستر ابن الدكتور فورستر العالم الطبيعي ، والذين صحبا في رحلته الثانية وتولى دو جلاس إصدارها في جزيرين عام ١٧٨٤ تحت عنوان « رحلة إلى القطب الجنوبي وحول العالم » .

أما يوميات الرحلة الثالثة فقد قام كوك بكتابتها حتى مصرعه ثم تولى الملازم « كنج » - الذي رقى فيما بعد إلى قبطان - كتابة بقية الرحلة حتى العودة إلى إنجلترا . وقد نشرت الرحلة الثالثة بواسطة دو جلاس أيضاً في ثلاثة أجزاء عام ١٧٨٤ ، تحت عنوان « رحلة إلى المحيط الهادى . . . لعمل استكشافات في نصف الكرة الشمالي » .

٤٠° إلا إذا وقعت عليها قبل ذلك ، أما إذا لم تكنشفها
أر أية علامات تدل عليها في هذا السار ، فعليك أن
تتقدم للبحث عنها إلى الغرب ، بين خط العرض السابق
ذكره وخط عرض ٣٥° حتى تكنشفها أو تقابل
الساحل الشرقى للأرض التي اكتشفها تاسمان والتي
تسمى الآن نيوزيلانده . . وإذا فشلت في اكتشاف
القارة . . فعليك عندما تصل إلى نيوزيلانده أن تلاحظ
خطي العرض والطول اللذين تقع عندهما هذه الأرض ،
وأن تكشف أكثر ما يمكنك من سواحلها بقدر ما تسمح
حالة المركب ، وصحة بحارتها ، ومخزونك من الأكل»
وهكذا لم يكن رصد عبور الزهرة سوى الهدف
المعلن لبعثه كان الهدف الحقيقي لها هو الكشف عن
القارة الجنوبية ، وإضافة أرض جديدة للامبراطورية .
وقد زود كوك عند سفره بكثير من المعلومات والخرائط
والمراجع ، كان بينها كتاب دى بروس^(١) الفرنسى
عن تاريخ الملاحة حول أرض الجنوب ، والذي كان
يحتوى عدة بيانات هامة عن القارة الجنوبية ، ودعوة
حارة إلى الفرنسيين للقيام بعمل استكشافى في هذه المنطقة
وتكررت هذه الدعوة في بريطانيا عام ١٧٦٦ بواسطة
كالندر ، ثم جاء دارليميل ، وكان من غلاة
المؤمنين بوجود هذه القارة والداعين للبحث عنها ،
فألف كتاباً صغيراً جمع فيه بيانات عن الرحلات
السابقة لهذا الجزء من العالم ، وأعطى مخطوطاً منه إلى
جوزيف بانكس قبل أن تغادر البعثة لإنجلترا . وكان من
رأى دارليميل أن هذه القارة تقع على مسافة قصيرة إلى
الغرب من أمريكا الجنوبية . ولهذا السبب فإن كوك
عندما غادر كتاب هورن في طريقه إلى تاهيتى اتخذ
كما يقول في مذكراته « مساراً أكثر انحرافاً إلى الغرب
من أية سفينة فعلت ذلك من قبل ، ولكن هذا لم يسفر

بانكس وإخلاصه وتعاونه مع كوك الفضل الأكبر في
النجاح الذى حققته البعثة . وقد أعطت هذه المجموعة
من العلماء البعثة طابعاً جديداً لم تعرفه الرحلات المماثلة
من قبل .

ووقع الاختيار على السفينة « انديفر » التى بنيت في
ويتبى لتجارة الفحم . وهى سفينة ذات ثلاثة قلاع تبلغ
حمولتها ٣٦٨ طناً ، وتمتاز بغاطس صغير ، وسعة
كبيرة وامكانية رفعها على الشاطئ لعمل الإصلاحات
الضرورية وكانت هذه كلها كما أثبتت حوادث الرحلة
مميزات كبيرة لسفينة سوف تبحر لمسافات طويلة في
مياه ساحلية لتتمكن من رسم الشواطئ الجديدة التى
ستكتشفها .

غادرت « انديفر » إنجلترا في ٣٠ يولييه ١٧٦٨ ،
وهى تحمل ٩٤ فرداً على ظهرها . وفي يناير ١٧٦٩
كانت تمر بكاب هورن في طريقها إلى المحيط الهادى
وفي ١٣ أبريل بلغت مياه تاهيتى وبدأت في الاتصال
بالأهالى . وفي خلال ثلاثة أشهر من الإقامة استطاع
كوك - بفضل النظام الدقيق الذى فرضه على بحارته -
أن يحافظ على علاقات المودة مع الأهالى . وأخيراً جاء
يوم ٣ يونيه المنتظر الذى ثبت كما يقول كوك « أنه
صالح تماماً لأغراضنا كما كنا نرجو . فلم تر سخابة واحدة
طول اليوم وكان الهواء شفافاً فحصلنا على كل ميزة
يمكن أن نتمناها في ملاحظة عبور كوكب الزهرة على
قرص الشمس » وهكذا أمكن للبعثة أن ترصد الزهرة
من مكانين أو ثلاثة على الجزيرة . وبالإضافة إلى هذا
قامت مجموعة العلماء بعدة رحلات داخل الجزيرة وعلى
طول الساحل للدراسة الجزيرة من عدة وجوه مختلفة .

وإلى هنا كانت المهمة المعلنة للبعثة قد انتهت ،
ولكن الأدميرالية كان لها هدف آخر ، ففى مظهر
مغلق كان كوك يحمل أوامر سرية بأن يتقدم من تاهيتى
« إلى الجنوب بقصد الكشف عن القارة (التى توجد إلى
جنوب مسار والاس) حتى تصل إلى خط عرض

(١) de Brosses' : Histoire des navigations aux terres Australes.

عن أى كشف حتى وصلنا إلى المنطقة المدارية حيث اكتشفنا عدة جزر .

غادرت البعثة تاهيتى فى ٣١ يوليه ١٧٦٩ أى بعد عام من بدء الرحلة . وهنا يبدأ جانبها الشيق من الناحية الجغرافية . واصطحبت البعثة معها أحد الأهل إلى بناء على رغبته . وقد قدم تويبا ، وهذا اسمه خدمات جليلة للبعثة فى مراحلها التالية . وما كاد كوك يتحرك غرباً حتى عثر على مجموعة من الجزر سماها بجزر الجمعية تكريماً للجمعية الملكية ، ثم اتجه جنوباً بحثاً عن القارة المنشودة ، حتى قطع ١٥٠٠ ميل ووصل إلى ٤٠° جنوباً دون أن يعثر لها على أثر فغير اتجاهه إلى الغرب ليصل فى ٧ أكتوبر إلى نيوزيلانده .

اكتشف تاسمان نيوزيلانده عام ١٦٤٢ ، ولكن هولندا لم تستطع احتلالها ، بل إن أحداً من الأوربيين لم يرها حتى وصل كوك . وكان تاسمان يظن أنه اكتشف جزءاً من القارة الجنوبية ، ولم يكن كوك يدري عند وصوله إذا كانت هذه هى القارة الجنوبية ، ونراه يعلق على هذا قائلاً « هذه الأرض أصبحت موضوعاً لكثير من المناقشات الشيقة ، ولكن يبدو أن الفكرة العامة تقول إننا وجدنا أرض الجنوب المجهولة » . لذلك عندما وصل كوك إلى الساحل الشرقى ، وهو الساحل الذى لم يره تاسمان أبداً ، قرر أن يبحر على امتداده حتى يتمكن من فحصه وأن يضع حداً لهذه المناقشات .

تحرك كوك ببطء فى اتجاه الجنوب حتى رأس « ترن آجين » (Cape Turn Again) ثم عاد ثانية فى اتجاه الشمال ليرسم خريطة الساحل ، ثم دار حول الجزيرة الشمالية واستكشف المضيق المعروف باسمه والذى يفصل بين الجزيرتين الرئيسيتين لنيوزيلانده ، وكان تاسمان قد اعتبره خليجاً مقفلاً . ثم دار حول الجزيرة الجنوبية ، وانتهى من رسمها بدقة فى مارس ١٧٧٠ . واستطاع أن يستكشف ٧٤٠٠ ميل من السواحل فى أكثر قليلاً من ستة أشهر ، وأن يرسمها

بدقة كبيرة ، لا تزال تشهد حتى اليوم بقدرته على الملاحظة ، وكفاءته فى المساحة البحرية . وعندما حاول أحد المستكشفين الفرنسيين أن يعمل خريطة لجزء من الساحل فيما بعد ، وجد أنه « عندما قارنت خريطى بخريطة كوك وجدت أنها على درجة من الضبط والدقة فى التفاصيل حتى أنها إدهشتنى بدرجة تفوق قدرتى على التعبير . لأننى أشك إذا كانت سواحلنا الفرنسية قد رسمت بدقة أكبر » .

وبانتهاء هذه المرحلة من الرحلة ، عرف كوك أن نيوزيلانده ليست القارة المنشودة . ولكنه كان قد نفذ تعليمات الأدميرالية بالضبط ، وكان يستطيع أن يعود إلى إنجلترا مباشرة . ولكنه كان يود أن يسلك الطريق الذى يمكن فيه احتمالات الكشف الجغرافى . وكان أمامه أن يعود عن طريق كاب هورن فى أمريكا الجنوبية حتى يدرس احتمال وجود القارة الجنوبية فى هذه لأصقاع ، ولكنه رأى أن يتفادى الابحار فى هذه العروض المتطرفة « فى أعماق الشتاء بسفينة لم تعتبر كافية لمثل هذه المغامرة » . ولهذا السبب أيضاً رفض كوك الابحار إلى رأس الرجاء الصالح مباشرة . وقرر أنه « يجب علينا أن نعود من جزر الهند الشرقية ، ولهذا السبب يجب علينا عند مغادرة الساحل أن نتجه غرباً حتى نقع على الساحل الشرقى لهولندا الجديدة ثم نتابع اتجاه الساحل إلى الشمال حتى نصل إلى طرفها الشمالى . وبهذه الفكرة تحركنا فى اتجاه البحر فى مطلع يوم السبت ٣١ مارس ١٧٧٠ » . وأثبتت هذه الخطة نجاحاً كبيراً ، فقد وقع نظرم على الأرض مرة أخرى فى ١٩ أبريل « لقد حددت موقع هذه الأرض بخط عرض ٣٨° وأعطيتها اسم نقطة هيكس (Point Hicks) الضابط الأول الذى كان أول من رآها » ولكن كوك لم ير أرضاً فى اتجاه الجنوب ورفض أن يذكر إذا كانت هذه الأرض التى اكتشفها تتصل مع تاسمانيا أو أرض فان ديمان التى اكتشفها تاسمان أم لا . وبدلاً من أن

وقد أثبت هذا الحادث أن السفينة كانت اختياراً موقفاً بسبب غاطسها الصغير الذى يسمح لها بالانحار فى المياه الضحلة . وفى خلال الفترة التى قضتها البعثة على الشاطئ استطاعت أن تستكشف جانباً من الأرض وأن ترى وتصطاد لأول مرة حيوان الكانجارو أكبر حيوان ثدى فى استراليا .

وفى ٤ أغسطس أنزلت أنديفر إلى البحر وتحركت شمالاً على طول الساحل لبضعة أيام ، ولكن القناة بين الحاجز المرجانى والساحل كانت تضيق باستمرار مما يزيد فى أخطار الملاحة حتى قرر كوك وضباطه أن يخرجوا إلى البحر عند أول فتحة فى الحاجز ، ولكنهم ما كادوا يفعلون حتى وجدوا أنفسهم فى مأزق أشد خطورة . فان الأمواج والرياح وتيارات المد كانت تدفع بهم نحو الحاجز المرجانى وبجهد كبير استطاع كوك أن يبعد سفينته عن الصخور حتى تمكن فى أول فرصة مواتية أن ينزلق مع التيار خلال إحدى الفتحات إلى المياه الهادئة بين الحاجز والساحل .

واصل كوك رحلته شمالاً حتى وصل إلى الطرف الشمالى لاستراليا فى ٢١ أغسطس ونراه يكتب « إننى الآن على وشك أن أغادر الساحل الشرقى لهولندا الجديدة الذى سرت بمحاذاته من خط عرض ٣٨° حتى هذا المكان والذى لا أشك مطلقاً أن أحداً من الأوربيين قد رآه من قبل . . . » .

غادر كوك استراليا إلى غينيا الجديدة خلال ممر تورس ، وهكذا أثبت كوك أن استراليا وغينيا الجديدة منفصلتان تماماً ، وهى حقيقة أثبتها تورس قبل قرن ونصف قبل ذلك ولكنها كانت موضع شك فى عصر كوك ، الذى نراه يعلق على بعض الخرائط ويقول فى تواضع « لقد اعتقدت دائماً قبل أن أرى هذه الخرائط أنه لم يكن معروفاً إذا كانت هولندا الجديدة وغينيا الجديدة أرضاً واحدة متصلة أم لا . لقد حسمنا الآن النقاش فى هذا الموضوع تماماً ، وكما أعتقد فان هذا

يتجه كوك جنوباً ليفحص هذا الأمر ، قرر أن يتجه شمالاً على طول الساحل تاركاً هذه المسألة ، حتى عرف عام ١٧٩٨ أن تاسمانيا جزيرة منفصلة تماماً عن استراليا . وفى أثناء الرحلة شمالاً كانت البعثة تنزل من وقت لآخر على الشاطئ وتتصل بالأهالى الذين كانوا يقابلونهم بكثير من الشك . وفى أحد الأماكن عاد بانكس ، وسولاندر بثروة من النباتات بدرجة جعلت كوك يطلق على الخليج الذى كانت تحيط به الحضرة من كل جانب اسم خليج النبات ، والذى لا يزال يعرف بهذا الاسم حتى اليوم . وإلى الشمال قليلاً اكتشف فى ٦ مايو موقع بورت جاكسون الذى احتلته فيما بعد مدينة سيدنى .

وبدأت الرحلة تدخل مرحلة خطيرة باقترابها من الحاجز المرجانى العظيم الذى يمتد ١٢٠٠ ميل على طول الساحل الشرقى لأستراليا . فقد وجدوا أنفسهم فى المنطقة المحصورة بين الحاجز والساحل ، وهى منطقة تقتضى كثيراً من الحذر أثناء الملاحة بسبب الشعاب التى تختفى تحت سطح الماء وتكون عقبات ملاحية خطيرة . ولمسافة ألف ميل كان هناك دائماً رجل فى مقدمة السفينة ليقبس عمق المياه تحتها ، ورغماً عن هذه الحيلة فقد وقعت أنديفر صباح يوم ١٠ مايو فى مأزق خطير كان يمكن أن يقضى على السفينة وبجارتها . فبعد أن مروا بعدد من الشعاب المرجانية الخطرة وبدوا لهم أنهم دخلوا فى مياه عميقة ، اصطدمت بصخرة لم يتبينوها ، وبقيت السفينة مستقرة عليها على مسافة من الشاطئ . . . وعمل الجميع على إنقاذ سفينتهم فأداروا المضخات والتواكل ما يمكن الاستغناء عنه من السفينة حتى عامت مع ارتفاع المياه أثناء المد التالى . وقد تبين فيما بعد أن السفينة قد نجت بأعجوبة حين اكتشفوا أن الثقب الأكبر فى قاع السفينة بقى مسدوداً بوساطة حجر كبير . استطاع كوك أن يقود السفينة بحذر إلى مكان مناسب على الساحل حيث رفعت السفينة على الشاطئ لاصلاحها .

الأمر كان معروفاً من قبل ، ولكن ليس على نطاق عام ، لأنني لا أدعى لنفسى أكثر من أننى أوضحت نقطة كانت غامضة .

وصلت البعثة إلى باتافيا لتقضى بعض الوقت فى الراحة وإصلاح السفينة وتموينها ، ولكنها تعرضت لأمراض المناطق الحارة مثل الملاريا والدوسنتاريا فسقط خلال عشرة أسابيع ثلاثون من الرجال ، كان من بينهم توبيا الذى رافق السفينة من تاهيتى . ثم مات جريرن الفلكى بعد أن غادرت السفينة باتافيا فى ٢٧ ديسمبر عام ١٧٧٠ فى طريقها إلى رأس الرجاء الصالح حيث قضت البعثة شهراً . وفى ١٢ مايو ١٧٧١ وصل كوك ورفاقه إلى إنجلترا بعد غيبة استمرت أكثر من سنتين وتسعة أشهر .

كان تقرير كوك إلى الجمعية الملكية غير مرض تماماً ، فان رصد عبور الزهرة لم يأت بجديد فى تحديد المسافة بين الأرض والشمس . ومن ناحية أخرى لم تصل البعثة إلى حل لمسألة القارة الجنوبية . وعدا هذا فان رحلة كوك - بصرف النظر عن آثارها السياسية - قد أضافت كثيراً إلى جغرافية الكرة الأرضية . فقد أظهرت نيوزيلانده كجزيرتين منفصلتين ، وليست جزءاً من القارة الجنوبية كما ظن تاسمان ، كما أنها ضيقت النطاق الذى يمكن البحث فيه عن القارة الجنوبية . وبالرغم من أن كوك ليس المكتشف الأول لاستراليا فإنه أضاف الساحل الشرقى بأكمله إلى المعلومات السابقة عن السواحل الأخرى ، وأثبت أن هذه القارة منفصلة تماماً عن غينيا الجديدة . واستطاع كوك أن يدعم كل هذه الاكتشافات بخرائط غاية فى الدقة .

ولعل من أهم النتائج الإيجابية لرحلة كوك ، قدرته على المحافظة على صحة بحارته فى وقت كان مرض الأسقربوط العدو الأكبر للرحلات الطويلة . ولولا الكارثة التى حلت بالبعثة نتيجة الأمراض المعدية لانتهت الرحلة دون ضحايا . فقد عرف كوك باتخاذ إجراءات

مشددة لحماية صحة بحارته ، مثل تزويده البحارة بعصير الموالح وإدخال الخضروات فى الأكل والعناية بنظافة أماكن البحارة . وهكذا كان فى استطاعته أن يعلن - عندما وصل إلى باتافيا - «لأنى أقول بكثير من الرضى لأننى لم أفقد رجلاً واحداً نتيجة المرض خلال الرحلة بأكملها» .

الرحلة الثانية :

عاد كوك إلى إنجلترا فى وقت تزايد فيه اهتمام فرنسا بالمحيط الجنوبى واحتمال الكشف عن القارة الجنوبية. فاكشف كرجيولان (Kerguelen-Trémarec) فى فبراير ١٧٧٢ الجزيرة التى تعرف باسمه فى جنوب المحيط الهندى ، وعاد إلى فرنسا فى نفس الشهر الذى غادر فيه كوك إنجلترا فى رحلته الثانية . كذلك سافر ماريون (Marion-Dufrense) وكورزيت Corzet فى رحلة إلى الجنوب حيث اكتشف جزيرة ماريون ثم جزيرة كورزيت فى يناير ١٧٧٢ . وهذه الجزر الثلاث تقع فى المحيط الهندى جنوب خط عرض ٤٥ واعتبرت بواسطة مكتشفها كنقطة متقدمة للقارة الجنوبية المنشودة . لم تكن إنجلترا بغافلة عن هذا النشاط الفرنسى فى وقت اشتد فيه التنافس الاستعمارى ، فقررت الأدميرالية الإنجليزية ارسال كوك فى رحلة ثانية ليجد حلاً نهائياً لمشكلة القارة الجنوبية . وأختبرت سفينتان حديثتان حملتهما ٤٦٢ و ٣٣٦ طناً ، ولم يدر أى جهد فى إعدادهما لهذه المهمة بدرجة تفوق أى بعثة سابقة . تولى كوك قيادة السفينة الكبيرة رزوليوشن (Resolution) بينما قاد السفينة الثانية أدفنتشر (Adventure) الكابتن فورنو (Furneaux) الذى خدم كملازم ثان تحت قيادة اليس فى بعثة سابقة . وفكر العالم الطبيعى بانكس الذى رافق كوك فى رحلته الأولى أن ينضم إليه فى مهمته الجديدة ولكن هذه الفكرة لم تتحقق وسافر مع كوك عالم فى التاريخ الطبيعى - من أصل ألمانى - هو جوهان

فورستر (Johann Forster) مصطحباً ابنه جورج ،
الذى شارك كوك في كتابة رواية هذه الرحلة .

وفي يوم ١٣ يولييه ١٧٧٢ غادرت السفينتان
بليموث ، وكانت التعليلات المكتوبة بتاريخ ٢٥ يونيه
تدل على الأثر الكبير الذى تركته الرحلات الفرنسية على
البرنامج الموضوع ، والذى بشرحه كوك فيقول « كان
على بعد مغادرة رأس الرجاء الصالح أن أتقدم إلى
الجنوب وأن أبذل جهدى كى أقع على رأس
سيريكسيزيون التى قال عنها مسيو بوفيت إنها تقع في
خط عرض ٥٤° جنوباً وخط طول حوالى ٢٠° ١١°
شرق جرينتش . فاذا اكتشفت هذه الرأس ، كان على
أن أثبت إذا كانت جزءاً من القارة التى جذبت أنظار
الجغرافيين والملاحين القدامى ، أو إنها جزء من جزيرة .
فاذا ثبت الاحتمال الأول ، كان على أن أبذل جهدى
في اكتشاف أكبر جزء منها بقدر ما أستطيع وأن آخذ
بيانات وملاحظات من كل نوع بقدر ما يكون نافعاً
للملاحة أو التجارة أو يعد تقدماً في العلوم الطبيعية . وقد
تلقيت أيضاً توجيهات بأن ألاحظ عدد السكان ، إن
وجدوا ، وما يتصرفون به من ذكاء ومهارة ومزاج
واستعداد للتعاون . وأن أبذل جهدى بكل الوسائل
الصحيحة كى أنشئ صداقة وأعقد حلفاً معهم ، وأن
أقدم لهم هدايا من الأشياء التى يقدرونها ، وأن أدعوهم
للتجارة ، وأن أظهر لهم كل أنواع الأدب والاحترام .
أما إذا أثبت أن هذه الرأس جزء من جزيرة فقط ،
أو إذا لم أتمكن من العثور على الرأس المذكورة فان
على فى الحالة الأولى ، أن أعمل المساحة اللازمة للجزيرة
ثم أوصل الاتجاه جنوباً ، بقدر ما أستطيع الحكم على
احتمال العثور على القارة الجنوبية وهو مما يجب أن أفعله
أيضاً فى الحالة الأخيرة ثم على أن أتقدم شرقاً لمزيد من
البحث عن القارة المذكورة ، كذلك أن أكتشف
الجزر التى يحتمل وقوعها فى هذا الجزء الذى لم يستكشف
بعد من نصف العالم الجنوبي ، وأن أبقى فى العروض

المتطرفة وأن أنفذ اكتشافاتى كما ذكر سابقاً بالقرب من
القطب بقدر ما تسمح الظروف حتى أكون قد درت
حول العالم ، وعندئذ يجب أن أتقدم نحو رأس الرجاء
الصالح ومنها إلى إنجلترا » .

غادرت السفينتان رأس الرجاء الصالح فى ٢٢
نوفبر ١٧٧٣ فى طريقهما نحو الجنوب وبالرغم من
الصيف الجنوبي فقد وزعت الملابس الثقيلة على البحارة ،
إذ كان الجو يزداد برودة . وسرعان ما شوهد أول جبل
ثلجى فى ١٠ ديسمبر ، ثم حاول كوك البحث عن
أرض بوقيه التى كان يعتقد أنها رأس متقدمة للقارة
الجنوبية ، ولكنه لم يجد أى أثر للقارة أو الجزيرة . وفى
يوم ١٧ يناير ١٧٧٣ ، عبرت البعثة الدائرة القطبية
الجنوبية لأول مرة فى تاريخ الإنسان ولكن كوك لم يقنع
بهذا ، وواصل التقدم حتى خط عرض ٦٧° ١٥° فى
جو متزايد البرودة وظروف ملاحة خطيرة بسبب
الضباب والأمطار والثلوج والجبال الثلجية ، حتى
اضطر للعودة قائلاً « لم نستطع التقدم أكثر من ذلك فان
نطاق الثلج كان مغلقاً تماماً إلى الجنوب على طول المسافة
من الشرق إلى الجنوب الغربى دون أقل شاهد لوجود
أى فتحة فيه » . وفى هذه الظروف افترقت السفينتان
ولم تتمكن من التلاقى إلا بعد ثلاثة أشهر فى نيوزيلانده
التى اتفق على اختيارها من قبل كمنقطة التقاء فى مثل
هذه الأحوال ، وكمكان مناسب لقضاء فصل الشتاء .

ومن نيوزيلانده قصد كوك تاهيتى فوصلها فى ١٦
أغسطس ١٧٧٣ ومن هناك زار عدداً من الجزر
واستكشفها من بينها مجموعة جزر « تونجا » التى سماها
جزر فريندلى نظراً للعلاقات الطيبة بين سكانها وحسن
استقبالهم للغرباء .

وقبل أن يتجه إلى الجنوب فى مهمته الأساسية قرر
المرور بنيوزيلانده وبالقرب من ساحلها افترقت
السفينتان مرة ثانية فى ٣٠ أكتوبر وفشلت كل محاولة
للتلاقى وفى ٢٥ نوفمبر بدأ كوك بحثه للمرة الثانية فى

عملاً خطيراً ومتهوراً أعتقد أنه لا يخطر على بال رجل في مثل موقفى. وقد كان من رأى فعلاً ومن رأى معظم الموجودين على السفينة أن هذا الثلج ممتد مباشرة حتى القطب ، أو ربما يتصل على أرض ما ويحيط بها منذ أيام سحيقة . وأنه هنا ، أى فى جنوب خط العرض الذى بلغناه يتكون فى الأصل كل الثلج الذى رأيناه متناثراً فى الشمال ، والذى ينفصل فيما بعد بواسطة العواصف أو عوامل أخرى ، وتحمله التيارات إلى الشمال والى لوحظ أنها تتجه دائماً فى هذا الاتجاه فى هذه العروض المتطرفة . وعندما اقتربنا من هذا الثلج سمعنا بعض طيور البنجوين ولكننا لم نرها أو نرى طيوراً أخرى أو أى شىء آخر يجعلنا نعتقد أن هناك أرضاً على مقربة منا . ولكننى أعتقد أنه لا بد أن يكون هناك أرض إلى الجنوب خلف هذا الثلج . وإذا وجدت هذه الأرض فإنها سوف لا تعطى ملجأ أفضل لهذه الطيور أو أى حيوانات أخرى من الثلج نفسه والذى لا بد أنه يغطيها تماماً .

وبدلاً من أن يعود كوك إلى الجزر التى يعرفها فى الشمال فإنه اتجه إلى الشمال الشرقى حتى وصل إلى جزيرة إيستر فى شرق المحيط الهادى ومنها إلى تاهيتى ثم زار عدداً من الجزر المعروفة واكتشف جزيرة كبيرة هى نيو كاليدونيا (New Caledonia) واستكشف سواحلها واتصل بأهلها ثم اكتشف جزيرة نورفولك قبل أن يصل إلى نيوزيلانده لتموين السفينة وإعطاء بعض الراحة لرجالها . وهنا استطاع أن يجد بعض الشواهد التى تدل على أن سفينته الثانية « ادفنتشر » قد سبقته إلى زيارة نيوزيلانده . غادر كوك نيوزيلانده فى ١٠ نوفمبر إلى الجنوب الغربى حتى خط عرض الطرف الجنوبى لأمريكا الجنوبية ثم تقدم فى اتجاه الشرق حتى وصل إلى كاب هورن دون أن يرى اليابسة ، وهكذا سقط أى احتمال لوجود القارة المنشودة فى جنوب المحيط الهادى بين خطى عرض ٥٠° ، ٦٠° . واستمر

اتجاه الجنوب وفى خلال هذا الصيف الجنوبى اخترق الدائرة القطبية مرتين عند خطى طول ١٤٠° ، ١٠٦° غرباً ، ووصل إلى خط عرض ٧٠° جنوباً وفى يوم ١٤ ديسمبر شاهدوا أول جبل ثلجى وفى خلال الأسابيع الستة التالية أبحرت البعثة فى جو قطبى ، تعطينا قصة الرحلة وصفاً تفصيلاً له : هو أول تسجيل دقيق لهذه الأجواء . فى ١٤ ديسمبر قابلوا عدداً من الجزر الثلجية الضخمة ثم كمية من الثلج المفكك ، وبتقدمهم أكثر ازداد عدد الجزر الثلجية بسرعة كما ازدادت كميات الثلج المفكك . وسرعان ما أفلتوا من هذه الثلوج ، ولكن بعد أن تلقوا عدة صدمات قاسية من الأجزاء الكبيرة رغم حرصهم على تفاديها . وفى ٣٠ يناير ١٧٧٤ ، فى الصباح الباكر ، رأوا سحباً فى الأفق إلى الجنوب ، فى أضواء بيضاء ثلجية غير معتادة ، فعرفوا أنها تدل على اقترابهم من حقل من الثلوج . وسرعان ما كانوا على مقربة من حافته ورأوه منتشرراً شرقاً وغرباً على امتداد البصر ، وشاهدوا من مكانهم النصف الجنوبى من الأفق مضاء بأشعة من الضوء المنعكس من الثلج إلى ارتفاع كبير ، ورأوا بوضوح ٩٧ جبلاً ثلجياً فى وسط الحقل وكان كثير منها فى منتهى الضخامة وكانت تبدو على شكل سلسلة من الجبال يرتفع فيها الواحد فوق الآخر حتى يضيعوا فى السحاب . وكانت الحافة الخارجية أو الشمالية لهذا الحقل مكونة من ثلج مفكك مفتت ولكنه مترام بعضه على بعض بدرجة لا تسمح لأى شىء باختراقه . وكان يبلغ الميل عرضاً وفى وسطه يوجد ثلج صلب فى جسم واحد متصل تبين أنه من المستحيل التقدم فى هذا الاتجاه .

وصل كوك فى بجنه جنوباً حتى خط عرض ١٠° ٧١° وهى أقصى نقطة بلغها إنسان جنوباً وظلت كذلك لمدة نصف قرن بعد كوك . وهنا وصل كوك إلى القرار التالى « سوف لا أقول أنه من المستحيل فى أى مكان التقدم أكثر إلى الجنوب ولكن المحاولة قد تصبح

كوك في اتجاهه شرقاً فاكشف جزيرة ساوث جورجيا في جنوب المحيط الأطلنطي وهي جزيرة صخرية قاحلة مغطاة بالثلوج القطبية ، وتعد نقطة متقدمة للقارة القطبية الجنوبية . ثم واصل تقدمه شرقاً فاكشف مجموعة جزر ساندويتس الجنوبية ، وأبحر على مقربة من جزيرة بوفيه ولكنه لم يرها ، حتى ألقى مرساه السفينة أمام رأس الرجاء الصالح في ٢١ مارس وهنا عرف أن السفينة « ادفنتشر » قد سبقته في العودة بسنة كاملة . وبعد زيارة قصيرة لجزر الأزور وصلت « رزوليوشن » إلى إنجلترا في ٣٠ يولييه ١٧٧٥ بعد أكثر من ثلاث سنوات وبعد أن قطعت أكثر من ٦٠ ألف ميل أى ما يكفى للدوران حول الأرض مرتين . ولعل أكبر نجاح حققه كوك في هذه الرحلة ، هو نهايتها السعيدة فلم يفقد من بين ١١٢ رجلاً سوى ثلاثة بسبب الحوادث ورجلاً واحداً فقط بسبب المرض . وكان من المعتاد أن تفقد السفن ثلث بحارتها في هذه الرحلات الطويلة ، ولكن اهتمام كوك بنظافة عنابر البحارة وملابسهم وإصراره أن يأكلوا وجبات متنوعة ، وأن يحتوى طعامهم على الخضروات ولحوم طازجة ثم تزويد مخازن السفينة بالخضروات والحساء المحفوظ كل هذا حفظ للبحارة صحتهم فلم يمت واحد منهم بمرض الأسقربوط .

كان البرنامج الذى قام به كوك برنامجاً هرقلياً . في وقت كان تحديد موقع السفينة في البحر عملاً صعباً معرضاً لكثير من الخطأ . وكانت الصعوبة المعتادة تكن في تحديد خطوط الطول وكان كثير من الاكتشافات تفقد أو يصعب العودة إليها مثل ما حدث في جزيرة بوفيه . ولكن كوك استعان بالأدوات الملاحية الحديثة وكان من أهمها جداول ملاحية جديدة وكرنومترات غاية في الدقة ، مما ساعده على بلوغ الدقة الكبيرة التى عرفت بها خرائطه وتقاريره .

نالت رحلة كوك الثانية شهرة واسعة وحتى نتبين قيمتها نذكر أن أحد المستكشفين الفرنسيين وهو فرانسوا لابروز أرسل في رحلة استكشافية إلى المحيط الهادى بعد عشر سنوات من رحلة كوك (١٧٨٥ - ١٧٨٨) . ورغم كفاءته وبرنامجه الحافل فان رحلته أثمرت قليلاً ولكنه تقبل الأمر راضياً وأعلن في كثير من السباحة « لقد أنجز مسير كوك الكثير من الأعمال - حتى إنه لم يترك لى شيئاً سوى الاعجاب بعمله . . . » .

وإدع الآن كوك يكتب تقريره عن هذه الرحلة مبيداً نتائجها ، يقول كوك : « لقد قمت الآن بالدوران حول المحيط الجنوبي في خط عرض متطرف ، واخترقته بطريقة لا تدع مجالاً للشك في احتمال وجود قارة إلا بالقرب من القطب أبعد من أن تصلها الملاحه . وبزيارتي مرتين للبحر المدارى فاني لم أنته برأى قاطع بالنسبة للكشوف القديمة فقط ، ولكننى قمت باكتشافات جديدة كثيرة ، وتركت - كما أعتقد - القليل جداً الذى يمكن عمله في هذا الجزء من العالم . ولهذا فاني راض . تماماً لأن الهدف من هذه الرحلة قد تحقق من جميع الوجوه . وأن نصف الكرة الجنوبي قد استكشف بدرجة كافية وأن نهاية قاطعة قد وضعت للبحث عن قارة جنوبية . والتي أثارت - في بعض الأوقات - انتباه بعض القوى البحرية خلال القرنين الماضيين تقريباً . كما كانت نظرية محببة بين الجغرافيين من كل العصور .

إننى لا أنكر أن هناك احتمالاً لوجود قارة أو مساحة كبيرة من اليابسة بالقرب من القطب : بل على العكس إننى من أنصار هذا الرأى . بل أن هناك احتمالاً أننا رأينا جزءاً منها . فهذا البرد الشديد والجزر الكثيرة والحقول الواسعة من الثلج العائم : كلها تنحول إلى إثبات أنه لا بد أن يكون هناك أرض إلى الجنوب . ولقد أوردت بعض الأسباب التى تجعلنى أقتنع أن أرض الجنوب هذه لا بد أنها تقع أو تمتد امتداداً أكبر نحو

الشمال في مواجهة المحيط الأطلنطي الجنوبي والمحيط الهندي ولأني أضيف إلى هذه الأسباب البرد الذي عانيناه إلى درجة أكبر في هذه البحار عن المحيط الهادى الجنوبي عند نفس خطوط العرض . . . » .

ثم تحتّم حديثه معلقاً على نتائج رحلته فيقول : « إذا كنا قد توصلنا لاكتشاف قارة هناك لكننا أقدر على إرضاء حب الاستطلاع ، ولكننا نرجو ونحن لم نجد لها بعد كل هذا البحث المضنى أن نقلل من الحدس والتخمين في المستقبل بشأن العوالم غير المعروفة والتي لا تزال في حاجة إلى الاستكشاف . ولكن مهما كان حكم الرأى العام على الأشياء الأخرى فإني - بكثير من الرضى ودون أن أدعى أى فضل سوى قياىى بالواجب - أختتم هذا الحديث بملاحظة تدعمها الحقائق وهي أننا اكتشفنا امكانية المحافظة على الصحة بين هذا العدد من ركاب السفينة ، ولمثل هذه المدة الطويلة ، وفي مثل هذه الأجواء المتنوعة . وفي وسط هذه الصعوبات والمتاعب المستمرة . وأن هذا سوف يجعل هذه الرحلة مرموقة بين المهتمين بهذه الناحية الإنسانية ، عندما يفقد النقاش حول القارة الجنوبية قدرته على جذب الانتباه وإشاعة الفرقة في الرأى بين الفلاسفة » .

الرحلة الثالثة :

عاد كوك إلى وطنه حيث نال كثيراً من الشهرة وأسبغ عليه كثيراً من التقدير فاستقبله الملك جورج الثالث ورفق إلى رتبة أعلى وعين مديراً لمستشفى جرينتش . وخلال العام التالى لعودته كانت البحرية البريطانية تستعد لإرسال بعثة إلى شمال المحيط الهادى للبحث عن الممر الشمالى الغربى الذى أوردنا عجالة عنه فيما سبق . ولما كانت المحاولات السابقة قد بدأت جميعاً من المحيط الأطلنطي لاختراق شمال القارة الأمريكية من الشرق إلى الغرب ، فقد كان هناك فسحة من الأمل في العثور على هذا الممر بالبحث في الاتجاه المعاكس وخاصة

أن الساحل الأمريكى الغربى المطل على المحيط الهادى لم يكن معروفاً بدرجة كافية . وطلب من الكابتن كوك الاشتراك في اختيار قائد لهذه البعثة ، ولكنه عرض أن يتولى قيادتها بنفسه فقبل هذا العرض في الحال وبترحيب كبير . ولعل هذه القصة تلقى بعض الضوء على شخصية كوك وهو الذى أمضى معظم سنى حياته في أسفار بحرية بعيدة ، وكان يستطيع - وهو الزوج والأب - أن يركن إلى الراحة والدعة ليتمتع بما نال من الشهرة والمجد .

كان الهدف الرئيسى من رحلة كوك الثالثة هي البحث عن الممر الشمالى الغربى ، وقد عرفنا كيف فشلت الجهود الأولى للبحث عن هذا الممر . وفي عام ١٧٤٥ أعلنت الحكومة البريطانية عن جائزة قدرها ٢٠ ألف جنيه لأية سفينة تجارية بريطانية تكتشف ممراً من خليج هدسون . وحاول عدد من السفن دون جدوى أن تنال هذه الجائزة ، فقررت الحكومة تعديل شروط الجائزة لتشمل السفن الحربية ، وأن تمتد البحث إلى مناطق أخرى غير خليج هدسون . وهكذا استقر الرأى أن تكون مهمة كوك الأساسية هي البحث عن هذا الممر من الساحل الباسيفيكي . وتعكس الأوامر الصادرة إلى كوك الأفكار السائدة حينئذ عن موقع هذا الممر ، فتطلب إليه عند وصوله إلى هذا الساحل أن يتقدم شمالاً على طول الساحل . . . « حتى خط عرض ٦٥° أو أكثر إذالم تعترضك أراض أو ثلوج وأن تأخذ حذرَكَ أن تضيع أى وقت في استكشاف أنهار أو فتحات أو لأى سبب آخر ، حتى تصل إلى خط العرض ٦٥° المذكور سابقاً . . . وعندما تقطع هذه المرحلة ، عليك أن تبحث بدقة عن مثل هذه الأنهار أو الفتحات وتستكشفتها بقدر ما يبدو من امتدادها واتجاهها نحو خليج هدسون أو خليج بافن . وإذا تبين لك من ملاحظاتك أو من المعلومات التى قد تحصل عليها من الأهالى . . أن هناك تأكيداً أو حتى احتمال لوجود ممر

مأى يصل إلى الخليجين السابقين أو إلى واحد منهما ، فعليك في هذه الحالة أن تبذل أقصى ما لديك من جهد لتر خلاله

وهناك أهداف جانبية للرحلة تظهر في الأوامر الصادرة إلى كوك ، الذى كان عليه في طريقه إلى شمال المحيط الهادى أن يستولى على الأراضى التى لم تكتشف بعد بواسطة الدول الأخرى وأن يفحص بدقة بعض الجزر التى قيل إنها شوهدت مؤخراً بواسطة الفرنسيين عند خط 48° جنوباً وعلى خط الطول التقريبي لجزر موريشياس .

عاد كوك مرة ثانية إلى سفينته رزوليوشن ووضعت تحت لوائه سفينة ثانية هى ديسكافرى (Discovery) بقيادة كابتن كلارك وتولى الملازم كنج أخذ الأرصاد الفلكية اللازمة على ظهر السفينة رزوليوشن وقام أندرسون طبيب السفينة الذى صحب كوك في رحلته الثانية ببحوث التاريخ الطبيعى ودراسة الأهالى من حيث العادات والتقاليد واللغات . وكان بين رجال كوك « فانكوفر » الذى اشتهر كقائد لرحلة استكشافية تالية ووليم بلاى الذى عرف فيما بعد كقبطان للسفينة المشهورة بونتى التى حدث عليها العصيان بالقرب من جزر تاهيتى عام 1789 . وصحب كوك معه أيضاً أوماى من أهالى جزر الجمعية ، وكانت السفينة ادفنتشر قد أحضرتة معها إلى لندن . وقد قدم أوماى خدمات جليله للبعثة حتى غادرها في موطنه الأصيل . كذلك حملت السفينتان عدداً من الحيوانات النافعة بقصد تربيتها في الجزر التى سبق اكتشافها .

غادرت رزوليوشن بليموث في 12 يولييه 1776 ، وتبعها ديسكافرى بعد بضعة أيام . وتوقف كوك في جزر كانارى حيث يرتفع جبل تاناريف بقمه الشهيرة وحاول طبيب المركب أن يصل إلى القمة ولكن الوقت

لم يسعفه بفحص الجبل الذى درسه الكسندر فون هومبولت فيما بعد بدقة كبيرة في عام 1799⁽¹⁾ .

اتخذ كوك طريقه نحو رأس الرجاء الصالح ، ومنها اتجه إلى جزيرة كرجيولن التى اكتشفها الفرنسيون جنوب المحيط الهندى . وكان كرجيولن قد أذاع تقارير مشجعة عن هذه الجزيرة ولكن كوك وجدها مجردة وموحشة إلى أقصى درجة . وأعلن طبيب المركب « ربما لم يكتشف مكان في أى من نصفى الكرة عند نفس خط العرض يعطى ميداناً فقيراً لعالم التاريخ الطبيعى مثل هذه البقعة الجرداء » .

بعد هذا قضى كوك بضعة أيام في تاسانيا ثم أسبوعين من شهر فبراير 1777 في نيوزيلانده وأمضى ثلاثة شهور في دراسة جزر فريندى قبل أن يصل في 12 أغسطس إلى جزيرة تاهيتى .

وفي 2 نوفمبر غادر كوك تاهيتى في طريقه إلى مهمته الأساسية في شمال الباسيفيكي . ولما إلى الشمال من خط الاستواء عثر كوك على جزيرة مرجانية صغيرة تعلوها أشجار جوز الهند ، حيث قضت البعثة عيد الميلاد وسمتها في هذه المناسبة جزيرة كريستاس . وفي 18 يناير 1778 شاهد كوك مجموعة جزر أسماها جزر سانديويتس نسبة إلى القائد الأول للبحرية الإنجليزية وواحد من غلاة المتحمسين للكشوف الجغرافية . وقد ظلت هذه الجزر تعرف بهذا الاسم مدة طويلة قبل أن تحمل اسم جزر هاواى بلسان أهلها الأصليين . ولا تعد هذه الجزر اكتشافاً جديداً لكوك فقد عرفها الأسبان في القرن السادس عشر ، ولكن شيئاً لم يعرف عنها خلال المائتى عام السابقة . قام كوك بدراسة هذه الجزر بقدر ما اتسع له الوقت - ومن أكثر ملاحظات البعثة طرافة أنه بالرغم من المسافة التى تفصل هذه الجزيرة عن باقى جزر المحيط الهادى فإن لغتها قريبة الشبه من

(1) أنظر الكون لألكسندر فون هومبولت « للدكتور سليم أنطون » تراث الانسانية ، المجلد الثانى ، العدد الثالث .

لغة تاميقي حتى أمكن التفاهم مع الأهالي بسهولة . ولفت نظر البعثة ما يتمتع به الأهالي من طبيعة سمحة وانطلاق كبير وقوام جميل وخبرة في السباحة .

وفي ٧ مارس وصلت البعثة إلى الساحل الغربي لأمريكا الشمالية الذي كان يعرف في ذلك الوقت باسم نيو البيون New Albion . وهنا كان كوك يقف على عتبة استكشافات جغرافية جديدة فهذا الساحل شمال ٤٠° شمالاً يعد - باستثناء المناطق القطبية - أكثر سواحل القارات حاجة إلى الاستكشاف والدراسة . وكانت كل المعلومات القليلة لدى كوك قد تجمعت نتيجة لرحلات الأسبان على طول الساحل إلى الشمال من مستعمراتهم في غرب المكسيك .

واصلت البعثة سيرها شمالاً بمحاذاة الساحل وعند منطقة سماها كوك رأس فلاتري Cape Flattery (٤٨° شمالاً) كتب كوك يقول « عند خط العرض هذا وضع الجغرافيون مضيق جوان دي فوكا الخيالي . أننا لم نر شيئاً يشبهه أو وجدنا أقل احتمال لوجود مثل هذا الشيء » .

وفي ٢٩ مارس وجدت السفينتان مرفأً ملائماً لهما في خليج نوتكا على الجانب الغربي لجزيرة عرفت فيما بعد باسم جزيرة فانكوفر ، لكن كوك لم يتيقن أنها جزيرة وهنا قضت البعثة شهراً في إصلاح السفينتين وقلاعهما بواسطة الأخشاب المتوفرة بكثرة . وكانت هذه المدة فرصة كافية للراحة وتموين السفينتين والاستعداد للمرحلة التالية من الرحلة . كذلك أمكن للبعثة أن تقيم صلات طيبة مع الأهالي ، وأن تعرف الكثير عن عاداتهم وطرق معيشتهم .

أبحر كوك إلى الشمال في محاذاة الساحل ولكن دون أن يراه إلا لماماً ، فقد اضطره الجو العاصف من ناحية ورغبته في الوصول إلى المنطقة الشمالية بسرعة إلى التغاضي عن هذه الفرصة لرسم خريطة لساحل . وهو في هذا كان ينفذ الأوامر الصادرة إليه بعدم إضاعة

الوقت قبل الوصول إلى المنطقة المنشودة التي ما كاد يصلها حتى بدأ يتفحص الساحل بدقة وخاصة فتحات الخلجان ومصبات الأنهار . واستمر يتابع ساحل الاسكا ويشاهد جبالها العالية ثم يمر على جزر الوتيان حتى يصل إلى طرف أمريكا الشمالية في أقصى الغرب ثم يدخل بحر بارنج ثم مضيق بارنج الذي يفصل أمريكا الشمالية عن آسيا والذي لا يزيد عرضه عن ٥٥ ميلاً ويصل المحيط الهادي بالبحر القطبي الشمالي .

وكان فيتاز بارنج (Vitus Bering) الدانمركي قد اكتشف هذا المضيق عام ١٧٢٨ وهو في خدمة بطرس الأكبر قيصر روسيا . ورغم أن وجود هذا المضيق كان معروفاً للرحالة الروس ، فإنه لم يكن معروفاً بشكل كاف في أوروبا الغربية وكانت الخرائط الأوربية ترسم الطرف الشمالي لآلاسكا إلى الشرق بعيداً عن موقعه الحقيقي . وعلى هذا يعلق كوك « إن قارة أمريكا الشمالية تمتد أكثر إلى الغرب مما يمكن أن نتوقعه من الخرائط الحديثة الأكثر شهرة » . ثم يضيف « وهذا يجعل وجود ممر إلى خليج بافن أو خليج هدسون أقل احتمالاً أو على الأقل يدل على أنه لا بد أن يكون أكثر امتداداً . . . » .

دخل كوك ممر بارنج وتقدم في البحر القطبي الشمالي على كل من الجانبين الأمريكي والآسيوي ولكن البحر كان مليئاً بالثلوج حتى أصبح التقدم مستحيلاً . وكان الشتاء يقترب فقرر كوك العودة إلى الجنوب بعد أن وصل إلى خط عرض ٤٤° - ٧٠° شمالاً . وفي طريق عودته قابل كوك في جزر الوتيان مجموعة من الروس وكان رئيسهم يدعى إسمايلوف وكان يعرف الكثير عن جغرافية المنطقة فأعطى كوك كثيراً من المعلومات والخرائط ، كما أن كوك سلمه تقريراً مرفقاً به خريطة حتى يقوم بإرساله إلى رؤسائه في البحرية البريطانية .

اختار كوك جزر ساندويتش لمضى فيها الشتاء وما كاد يصل مياهها حتى اكتشف جزيرة هاواي أكبر جزر هذه المجموعة ، والتي لم يرها في زيارته الأولى . قوبلت البعثة بترحاب كبير ولكن الأمور سرعان ما انقلبت عندما افتقدت البحارة أحد القوارب وحاولوا استعادته من الأهالي . وكانت طريقتهم التقليدية احتجاز واحد من شيوخ الأهالي على السفينة لحين إعادة الأشياء المسروقة . ولكن هذه الطريقة التي طالما نجحت كانت وبالا على كوك . فبينما كان مع مجموعة من البحارة على الشاطئ يحاولون أن يصحبوا واحداً من الأهالي إلى السفينة ، تجمع جمهور غاضب والتحم في معركة سريعة مفاجئة . وتأتى النهاية التعسة سريعاً ، كما يصفها تقرير البعثة :

« يرى بعض الحاضرين ، أن البحارة ، وأولئك الذين كانوا موجودين في القوارب ، قد أطلقوا النار بدون أوامر من الكابتن كوك ، وأنه كان يحرص على أن يمنع مزيداً من إراقة الدماء ، لهذا فانه من المحتمل ، أنه في هذه الظروف كانت إنسانيته سبباً في مصرعه ، فقد لوحظ أنه بينما كان يواجه الأهالي لم يبق أى تهديد ، ولكنه عندما استدار ليعطى أوامره للقوارب ، طعن في ظهره وسقط ووجهه إلى الماء . فتصايح الأهالي عندما رأوه يسقط ، وجروا جسده بطريقة غير إنسانية على الشاطئ ، حيث أحاط به الأعداء الذين تخاطفوا الخنجر بين أيديهم ، كل يحاول أن يشترك - بشغف وحشى - في نهايته » .

وعندما أطلقت رزوليوشن مدافعها على الشاطئ ، لم ير أى أثر للقائد . وبعد أيام قليلة أعاد الأهالي إلى البحارة المحزونين بقايا من جسد قائدهم . وخيم الحزن على الرجال الذين فقدوا في كوك قائداً شديداً السمير على سلامتهم وصحتهم ، والذي ذهبت معه « روح الاستكشاف والتصميم والشجاعة التي لا تقهر » .

تولى كابتن كلارك قيادة البعثة وحاول أن يتابع مهمة كوك فوصل إلى كامشاتكا (Kamchatka) في شرق سيبيريا ثم دخل مضيق بارنج في ٥ يوليه ولكن الثلوج عادت تعرقل سيره كما حدث مع كوك في الصيف السابق فانقلب عائداً عن طريق رأس الرجاء الصالح . ولكنه لم يعيش ليم رحلة العودة فقد مات في ٢٢ أغسطس ١٧٧٩ . ووقعت مسؤولية القيادة على كابتن جور (Gore) ، الذي كان يقود ديسكافري منذ وفاة كوك والذي انتقل الآن إلى السفينة رزوليوشن ، بينما رقى الملازم كنج ليقود ديسكافري والذي تعطينا يومياته القصة الرسمية للرحلة بعد وفاة كوك .

وفي ٤ أكتوبر ١٧٨٠ وصلت السفينتان إلى قاعدتهما في إنجلترا بعد غيبة أكثر من أربع سنوات ودون أن تفقد سوى خمسة من الرجال بسبب المرض .

* * *

كان قد مضى بضعة أشهر على سفر كوك في رحلته الأخيرة ، عندما أعلنت الجمعية الملكية اختيار كوك عضواً لها ومنحه ميدالية سير جودفري كوبلي (Sir Godfrey Copley) الذهبية على البحث الذي تقدم به إلى الجمعية عن الطريقة التي اتخذها في المحافظة على صحة بخارته ، بالإضافة إلى تقدير الجمعية لاكتشافاته الجغرافية العديدة ومساحته الدقيقة للسواحل المكتشفة . وكانت عضوية الجمعية الملكية في ذلك الوقت - ولا تزال - أكبر شرف علمي يمكن التطلع إليه في الجزر البريطانية .

منحت الميدالية الذهبية إلى كوك في غيابه بخطبة كلنها تقدير وتكريم من سير جون برمنجل . ولكن هذه الكلمات الحارة لم تصل إلى مسامع كوك على الاطلاق ، فعندما كانت عائلته وأصدقائه ينتظرون عودته ، تلقوا خطاباً من كابتن كلارك بتاريخ ٨ يونيو ١٧٧٩ من كامشاتكا يقول فيه أن كوك لقي مصرعه في ١٤ فبراير ١٧٧٩ .

الرعاية كحقوق اسد للحارث بن أسد المحاسبي

بیتلم
الدكتور عبد الحليم محمود

كانت تفعل الأعاجيب في القلوب ، وبكتبه التي تبين
حسن الخلق : وسائل وغايات ، والتي لا يزال لها إلى
الآن أريج عطري يتجدد على مر الزمن ، فيهدى
الحيارى ، وينير الطريق أمام السالكين .

* * *

ولكن من هو المحاسبي ؟ وما لنا نتعجل ، فنتحدث
عن المحاسبي في القمة قبل أن نبدأ معه من البداية ؟
إنه الحارث بن أسد المحاسبي ، وكنيته : أبو عبدالله
ولقد نشأ بالبصرة ، واستمر بها سنوات لا يتأتى
لنا تحديدها في يقين جازم .

ثم ذهب إلى بغداد ، ويبدو أنه ذهب إليها في سن
مبكرة ، واستقر به المقام فيها .

متى ولد ؟

إننا لا نعلم بالضبط تاريخ ميلاده ، إذ أن الكتب
القديمية التي تحدثت عنه ، لم تذكر ذلك ، بيد أن جميع
الملايسات ترشد إلى أنه ولد - على التقريب - في العقد
السابع من القرن الثاني الهجري .

أما وفاته ، فإن الكتب التي أرخت له تحدد سنة
٢٤٣ هـ ثلاث وأربعين ومائتين للهجرة .

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين .
روى صاحب طبقات الصوفية بسنده ، عن
الحارث بن أسد المحاسبي بسنده أن رسول الله ، صلى
الله عليه وسلم ، قال :

« أثقل ما يوضع في الميزان : حسن الخلق » .

ولقد وضع المحاسبي هدفاً له في الحياة يسعى إلى
تحقيقه ، هو : « حسن الخلق » :

لقد وضعه هدفاً يعمل على تحقيقه في نفسه ؛
ووضعه هدفاً يعمل على تحقيقه في مجتمعه .

أما فيما يتعلق بنفسه ، فإنه أخذها بتحقيق صفة
العبودية على أساس من القرآن والسنة لا يحيد عنه .

وإنه ليعبر عن شعاره في ذلك ، فيقول هذه الكلمة
التي تصفه حالاً ومقالاً :

« إذا أنت لم تسمع نداء الله ، فكيف تجيب داعي
الله ؟ ومن استغنى بشيء دون الله ، جهل قدر الله » .

ولم يجهل المحاسبي قدر الله ، فلم يستغن بشيء دونه
سبحانه .

وأما فيما يتعلق بالمجتمع ، فإن المحاسبي أخذ في نشر
حسن الخلق فيه بسمته ، واتباعه للسنة ، وبدروسه التي

فيقول : كم تقول عزلتى أنسى ! ؟ لو أن نصف الخلق تقربوا منى ما وجدت بهم أنساً ، ولو أن نصف الخلق الآخر نأى عنى ما استوحشت لبعدهم .

هذه القصة ترشدنا إلى قوة شخصية الإمام المحاسبي والواقع أن الظروف والأحوال الثقافية التي أحاطت بالمحاسبي ، ومواقف المحاسبي منها ، وحديث تلاميذه عنه ، وإن كان نادراً . . . كل ذلك يرشد إلى أنه كان صاحب شخصية إيجابية قوية .

ومما يستأنس به تأييداً للقصة السابقة ، وإشارة إلى ما للمحاسبي من شخصية قوية ، وبياناً عابراً عن بعض أساليبه في تأليف كتبه ، ما رواه الجنيد أيضاً بقوله :

كان الحارث المحاسبي يحجى إلى منزلنا ، ليقول : أخرج معى نصحر : (نذهب إلى الصحراء) فأقول له تخرجنى عن عزلتى وأمنى على نفسى ، إلى الطرقات والآفات ورؤية الشهوات ؟ فيقول :

« اخرج معى ، ولا خوف عليك ، فأخرج معى ، فكان الطريق فارغاً من كل شيء ، لا نرى شيئاً نكرهه » .

فاذا حصلت معه في المكان الذى يجلس فيه قال لى :

سلنى

فأقول له : ما عندى سؤال أسأله

فيقول : سلنى عما يقع فى نفسك .

فتنثال على السؤالات : فأسأله عنها ، فيجيبنى عليها لوقت .

ثم يمضى إلى منزله فيعملها كتاباً .

ترشد هذه القصة إلى أن المحاسبي لم يكن يخشى : « الطرقات والآفات ورؤية الشهوات » ، وأنه لم يكن يؤثر العزلة وما فيها من أمن على النفس وعدم تشتيت للفكر ، كلا ، إنه يجابه الحياة محاولاً السير بها إلى ما يراه حقاً وإصلاحاً .

وحياته الشخصية لا نكاد نعلم عنها شيئاً ، وقد يمكننا أن نقول : « استنتاجاً » :

إنه قضى طفولته فى شيء من اليسر ، والرخاء ، ذلك أن والده حينما توفى ترك ثروة تقدر بسبعين ألف درهم .

ويروى المؤرخون أن المحاسبي ، حينما توفى والده لم يأخذ من هذه الثروة شيئاً تورعاً : ذلك أن والده كان يقول بالقدر : أى أنه كان قدرياً يدين بمذهب المعتزلة : فلم يستعج المحاسبي أن يشترك فى الميراث توسعاً فى تطبيق القاعدة الإسلامية التى تحرم التوارث بين أهل دينين مختلفين .

وما من شك فى أن المحاسبي امتنع عن ذلك لمجرد الورع ، والزهد فيما تجره الثروة وتستتبعه من تفكير فيها ، وتدبير لها ، وتنمية وحفظ .

هذه الحادثة ترشد إلى أمور : الأمر الأول هو : أن أسرة المحاسبي ، كانت أسرة ميسورة .

الأمر الثانى : هو أن والد المحاسبي كان من الذين اشتركوا فى الثقافة الدينية ، والجدل الكلامى ، وساهم فى ذلك بنصيب : وحدد المعسكر الذى يقف جندياً فى جيشه .

وما من ريب فى أن العامة حينئذ لم يكونوا فى صف المعتزلة ، وما كان الذى يدين بما يدين به المعتزلة يفعل ذلك إلا بعد دراسة واختيار ، وأن الطريق التقليدى الذى كان يتبعه الجمهور الأعظم من الأمة إنما هو طريق أهل السنة .

والأمر الثالث الذى ترشد إليه الحادثة هو ورع المحاسبي الذى حملاه على أن يزهده فى الميراث مع حاجته إليه : تورعاً وتقوى .

وبناً آخر تابين منه شيئاً عن شخصية المحاسبي ، يقول الجنيد :

كنت كثيراً أقول للحارث : عزلتى أنسى .

أن تستأثر به وحدها ؛ ولكل منها مغرباتها ؛ ولكل منها منطقتها .

ووقف المحاسبي : مستوعباً ، متأملاً ، متروياً .

هل طال به الوقوف ؟

متى خرج من تأمله ؟

متى استقر به الاتجاه ؟

ذلك ما لا نعلمه ، إذا نظرنا إلى الزمن .

بيد أن المحاسبي ، وإن لم يعن بالتأريخ لحياته ،
تاريخاً زمنياً ، فإنه ترك لنا أثراً نفيساً ، أبان فيه عن
بعض أحوال معاصريه ، وتحدث فيه عن حيرته الفكرية
وعن أسبابها ، وعن كيفية خروجه منها .

وهذا الأثر نعتبره ، أساساً لكتاب : « المنقذ من
الضلال » راسماً للإمام الغزالي تخطيطه ، موجهاً له إلى
كتابته ، بل وراسماً له الطريق في حياته الروحية .

ولعل التشابه بين هذا النص الذي نثبته الآن ،
وكتاب : « المنقذ من الضلال » يجعلنا نستنتج أن التشابه
قوى بين المحاسبي ، والغزالي في حياتهما .

ولأهمية هذا النص بالنسبة ، للمحاسبي ولعصره ،
وبالنسبة لصلته بكتاب المنقذ من الضلال ثقة وثيقة ،
نثبته بأكمله ، وإن كان فيه بعض الطول .

وقد كتبه المحاسبي مقدمة ، لكتابه : « الوصايا »
الذي طبع أخيراً بالقاهرة .

يقول المحاسبي - في مفتتح كتابه : الوصايا - بعد
مقدمة موجزة .

« أما بعد ، فقد انتهى إلينا : أن هذه الأمة تفرق
على بضع وسبعين فرقة ، منها : فرقة ناجية ، والله
أعلم بسائرهما .

فلم أزل ، برهة من عمري أنظر اختلاف الأمة ،
وأتمس المنهاج الواضح ، والسبيل القاصد وأطلب من
العلم والعمل ، وأستدل على طريق الآخرة بإرشاد

أما فيما يتعلق بطريقته في التأليف : فإنه يعمل أحياناً
على تلبية ما يرغب المتحدثون الإجابة عنه ، وهي
طريقة حية : إنها استجابة لما يحب المجتمع أن يرى الرأي
الصريح فيه .

ولم تكن كتبه كلها على هذا النسق ، فإن بعضها
كان إسهاماً في الحركة المقاومة لحركة الاعتزال :
وكان بعضها حلقات في التخطيط الذي رسمه
المحاسبي للإصلاح الأخلاقي في المجتمع .

* * *

على أننا قد تعجلنا الحوادث مرة أخرى ، فنتحدثنا
عن المحاسبي في القمة ولم ندرج معه تدرجاً طبيعياً .

ولنعد إلى المحاسبي أول مقدمه بغداد : كان ذلك
فيما يبدو في سن مبكرة نسبياً .

وكانت بغداد حينئذ تجموع بمختلف التيارات
الفكرية : ثقافة يونانية وافدة تريد أن تأخذ حق الإقامة
سيدة متغلبة .

وثقافة فارسية ، يحاول نشرها الفرس بما لهم من
تأثير ونفوذ ، وبما لهم من مال و ثراء ، وبما لديهم من
ترف فكري ، وبما في نفوسهم من كبت لزوال
ملكهم يحاول أن يتنفس - شاعراً أو غير شاعر - في
صورة ثقافة تنافس الثقافة الإسلامية البحتة .

وثقافة عربية مشوبة بثقافات أخرى ، تريد أن تجد
حلاً للتعارض والتنافس بين مختلف الألوان والأجواء
الثقافية .

... وثقافة إسلامية بحتة ، تجاهد في أن تفوز في قيادة
المجتمع إلى الهداية الربانية ، والرشاد الإلهي .

وجاء المحاسبي بغداد ، متعلماً ، ومنتقفاً ، أو
مستزيداً من العلم والثقافة : بينغى السير على السنن
المستقيم :

وأخذ في الدرس في جد واجتهاد : فتشعبت به
الطرق ، وتجادبته الثقافات المختلفة ، تحاول كل منها ،

العلماء ، وعقلت كثيراً من كلام الله ، عز وجل ،
بتأويل الفقهاء .

وتدبرت أحوال الأمة ، ونظرت في مذاهبها
وأقويلها ؛ فعقلت من ذلك ما قدر لي .

ورأيت اختلافهم بجرأ عميقاً ، قد غرق فيه ناس
كثير ، وسلم منه عصابة قليلة ؛ ورأيت كل صنف
منهم يزعم أن النجاة في تبعهم ، وأن الهالك : من
خالقهم ، ثم رأيت الناس أصنافاً :

فإنهم العالم بأمر الآخرة ، لقاءه عسير ، ووجوده
عزيز .

ومنهم الجاهل ، فالبعد عنه غنيمة .

ومنهم المشبه بالعلماء ، مشغوف بديناه ، مؤثر لها .

ومنهم حامل علم منسوب إلى الدين ، ملتزم

بعلمه التعظيم والعلو ، ينال بالدين من عرض الدنيا .

ومنهم متشبه بالنسك ، متجر بالخير ، لا غناء

عنده ، ولا بقاء لعلمه ، ولا معتمد على رأيه .

ومنهم حامل علم ، لا يعلم تأويل ما حمل :

ومنهم منسوب إلى العقل والدهاء ، مفقود الورع

والتقى .

ومنهم متوادون : على الهوى يتفتقون ، وللدنيا

يتباذلون ، ورياستها يطلبون .

ومنهم شياطين الإنس عن الآخرة يصدون ، وعلى

الدنيا يتكالبون ، وإلى جمعها يهرعون ، وفي الاستكثار

منها يرغبون ، فهم في الدنيا أحياء ، وعن العرف

موتى ، بل العرف عندهم منكر ، والسوء معروف .

فتفقدت في الأصناف نفسي ، وضقت بذلك ذرعاً

فقصدت إلى هدى المهتدين : بطلب السداد

والهدى ، واسترشدت العلم ، وأعملت الفكر وأطلت

النظر ، فتبين لي : في كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه ،

واجماع الأمة : أن اتباع الهوى يعمى عن الرشد ،

ويضل عن الحق ، ويظيل المكث في العمى !!

فبدأت باسقاط الهوى عن قلبي ، ووقفت عند
اختلاف الأمة ، مرتاداً لطلب الفرقة الناجية ، حذراً
من الأهواء المردية ، والفرقة الهالكة ، متحرزاً من
الاقترام قبل البيان ، واتممت سبيل النجاة لمهجة
نفسى .

ثم وجدت باجتماع الأمة في كتاب الله المنزل ، أن
سبيل النجاة : في التمسك بتقوى الله ، وأداء فرائضه ،
والورع في حلاله وحرامه ، وجميع حدوده والإخلاص
لله تعالى ، بطاعته ، والتأسي برسوله ، صلى الله
عليه وسلم .

فطلبت معرفة الفرائض والسنن عند العلماء في الآثار
قرأت اجتماعاً واختلافاً ، ووجدت جميعهم مجتمعين
على أن علم الفرائض والسنن : عند العلماء بالله وأمره .

وأن الفقهاء عند الله ، العاملين برضوانه الورعين

عن محارمه المتأسين برسوله ، صلى الله عليه وسلم :

المؤثرين الآخرة على الدنيا : أولئك المتمسكون بأمر

الله وسنن المرسلين .

فالتمست من بين الأمة هذا الصنف المجتمع عليهم :

والموصوفين أصفو آثارهم ، وأقتبس من علمهم «

فرايتهم أقل من القليل ، ورأيت علمهم مندرساً : كما

قال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« بدأ الإسلام غربياً ، وسيعود غربياً كما بدأ :

فطوبى للغرباء » .

وهم : المنفردون بدينهم .

فعظمت مصيبتى بفقد الأدلاء الأتقياء ، وخشيت

بغثة الموت أن يفاجئني ، على اضطراب من عمري ،

لاختلاف الأمة ، فانكشيت في طلب عالم ، لم أجد لي

من معرفته بدءاً ، لم أقصر في الاحتياط ولم أن في النصيح

فقيض لي الرعوف بعباده ، قوماً وجدت فيهم

دلائل التقوى ، وأعلام الورع ، وإيثار الآخرة

على الدنيا .

ففتح الله لى علماً انفتح لى برهانه ، وأنار لى فضله ، ورجوت النجاة لمن أقربه أو أنتحله ، وأيقنت بالغوث لمن عمل به ، ورأيت الاعوجاج فيمن خالفه ، ورأيت الرين متراكماً على قلب من جهله وجحدته ، ورأيت الحجة البالغة لمن فهمه ، ورأيت انتحاله والعمل بحدوده واجباً على .

فاعتقدته فى سريرتى ، وانطويت عليه بضميرى ، وجعلته أساس دينى ، وبنيت عليه أعمالى ، وتقلبت فيه بأحوالى .

وسألت الله عز وجل ، أن يوزعنى شكر ما أنعم به على ، وأن يقوينى على القيام بحدود ما عرفنى به ، مع معرفتى بتقصيرى فى ذلك ، وأنى لا أدرك شكره أبداً . اهـ

ووجد المحاسبى نفسه حينئذ فى معسكر أهل السنة على وجه العموم وفى تيار الصوفية منهم على وجه الخصوص .

ولم يكن المحاسبى ، ذا طبيعة سلبية ، فكان لا بد من أن يدخل المعركة .

ودخل المعركة فى قوة قوية ، مسلحاً بالعلم والتقوى ومن أجل ذلك ، كان ذا أثر مزدوج . لقد أثر باعتباره ، قدوة وأسوة . وأثر باعتباره عالماً باحثاً .

وأثره كعالم ، كان يظهر فى دروسه ومناقشاته ، ويظهر فى كتبه .

كتبه

أما كتبه ، فإنها من الكثرة بحيث قدرها بعضهم بمائتى مصنف ، حسبما روى السبكى فى : « طبقات الشافعية » والمناوى فى : « الكواكب الدرية » .

وهذه الكتب - فى أغلبها الأعم - إنما هى فى هداية النفوس ، وترقيق القلوب ، والسير بالأرواح إلى خالم الفلاح : لأنها فى أغلبها فى علم التصوف والسلوك .

ووجدت إرشادهم ووصاياهم موافقة لأفاعيل أئمة الهدى ، ووجدتهم مجتمعين على نصيح الأمة لا يرجون أحداً فى معصيته ، ولا يقنطون أحداً من رحمته : يرضون أبداً بالصبر على البأساء والضراء ؛ والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء .

يحبون الله تعالى ، إلى العباد بذكرهم أياديه واحسانه ، ويحثون العباد على الإنابة إلى الله تعالى .

علماء بعظمة الله تعالى ، وعظيم قدرته ، وعلماء بكتابه وسنته ، فقهاء فى دينه ، علماء بما يحب ويكره ، ورعين عن البدع والأهواء ، تاركين التعمق والإغلاء مبغضين للجدال والمراء ، متورعين عن الاغتيال والظلم والأذى ، محالفين لأهوائهم ، محاسبين لأنفسهم ، مالكين لجوارحهم ، ورعين فى مطامعهم وملابسهم ، وجميع أحوالهم ، مجانبين للشبهات ، تاركين للشهوات ، مجتزين بالبلغة من الأقوات ، متقللين من المباح ، زاهدين فى الحلال ، مشفقين من الحساب ، وجلين من المعاد ، مشغولين بيبهم مؤثرين على أنفسهم من دون غيرهم ، لكل امرئ منهم شأن يغنيه .

علماء بأمر الآخرة وأهوايل القيامة ، وجزيل الثواب ، وأليم العقاب . ذلك أورهم الحزن الدائم ، والهلم المضنى ، فشقوا عن سرور الدنيا ونعيمها .

ولقد وصفوا للآداب صفات ، وحددوا للورع حدوداً ، ضاق لها صدرى . وعلمت أن آداب الدين ، وصدق الورع : بحر لا ينجو من الغرق فيه شهبى ، ولا يقوم بحدوده منلى ، فتبين لى فضلهم ، واتضح لى نصحتهم ، وأيقنت أنهم العاملون بطريق الآخرة ، والمتأسون بالمرسلين ، والمصاييح لمن استضاء بهم ، والهادون لمن استرشدهم .

فأصبحت راغباً فى مذهبهم ، مقتبساً من فوائدهم ، قابلاً لآدابهم ، محباً لطاعتهم ، لا أعدل بهم شيئاً ، ولا أوثر عليهم أحداً .

يقول النيمي - كما جاء في الكواكب الدرية -
عن المحاسبي :

« هو إمام المسلمين في الفقه ، والتصوف ،
والحديث والكلام » . اهـ

ولقد كتب المحاسبي في هذه العلوم جميعها ، بيد
أن مسحته الظاهرة ، ونزعه الواضحة ، والكثرة
الكثيرة من كتبه : إنما كانت في التصوف والكلام .
أما كتبه في الكلام ، فإنها قد فقدت . ولقد رأينا
قطعة لا بأس بها من كتبه في الكلام الذي فقد والذي
كان عنوانه : « فهم القرآن » .

ومنهجه في الكتاب . يفهم من عنوانه : إنه كان
يرجع إلى القرآن في الرد ، ويتخذ منه مرشداً وهادياً .
ولعل السبب في إهمال كتبه الكلامية وفقدائها : هو
حملة الإمام أحمد بن حنبل : عليها .

يقول الخطيب البغدادي ، في كتابه : « تاريخ
بغداد » جزء ٨ ص ٢١٤ .

« وكان أحمد بن حنبل ، يكره للحارث نظره في
الكلام ، وتصانيفه الكتب فيه ، ويصد الناس عنه » .

ويذكر هذه المسألة الإمام الغزالي في كتابه :
« المنقذ من الضلال » ، ويفصل الرأي فيها ويحسم
المسألة بحل موفق فيقول :

لقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبي
- رحمهما الله - تصنيفه في الرد على المعتزلة .

فقال الحارث :

« الرد على البدعة فرض » .

فقال - أحمد :

نعم : ولكن حكيت شبهتهم أولاً ، ثم أجبت عنها ،
فيم تأمن أن يطالع الشبهة من تعلق بفهمه ، ولا يلتفت
إلى الجواب . أو ينظر إلى الجواب ولا يفهم كنهه ؟
وما ذكره أحمد : حق : ولكن في شبهة لم تنتشر
ولم تشهر .

فأما إذا انتشرت ، فالجواب عنها واجب ،
ولا يمكن الجواب عنها إلا بعد الحكاية . ولقد أصاب
الإمام الغزالي التوفيق في رأيه .

وما من شك في أن المعتزلة إذ ذاك كانوا يعملون
جاهدين على نشر بدعتهم .

وأن بدعتهم كانت معروفة مشهورة .

ومهما يكن من شيء ، فقد كان الإمامان : أحمد
والمحاسبي متعاصرين ، وحدث بينهما اختلاف في الرأي
يتعلق بالكتابة في المسائل الكلامية ، وحمل الإمام أحمد
على كتب الإمام المحاسبي في علم الكلام ، فقل تداول
الناس لها - فيما يبدو - واختفت شيئاً فشيئاً ، ولعل
بعضها لا يزال موجوداً ، بيد أننا لا نعلم عنها شيئاً .

على أن رأى المحاسبي في المسائل الكلامية معروف ،
تحدث عنه الشهرستاني وغيره ممن كتبوا في الملل
والنحل ، وهو الرأي السلفي ، ولم تكن حملة الإمام
أحمد عليه لرأيه وعقيدته ، فذلك أمر يتفق فيه الإمامان
وإنما كان انكار الإمام أحمد عليه للأسلوب والطريقة
التي ينصر بها الدين .

وما من ريب في أن ما قام به الإمام المحاسبي ، في
الرد على المعتزلة وغيرهم من أهل الانحراف : إنما هو
في الوقت نفسه انتصار للإمام ، أحمد بن حنبل ،
وتقوية له ، وعون على بلوغه غايته : رضى الله عنهما .

* * *

أما كتبه في أدب النفس وتركيتها ، وفي الإنابة
إلى الله ، والرجوع إليه ، وفي الرعاية لحقوق الله ، وفي
التصوف على وجه العموم : فقد بقي منها كثير ، عرفنا
عنه جملة صالحة ، لا تزال مخطوطة ، وطبع البعض في
أوروبا ، والقاهرة ، وسوريا .

ومن كتبه المخطوطة في دور الكتب :

١ - المسائل في أعمال القلوب والجوارح .

٢ - كتاب أدب النفوس .

٣ - كتاب المسائل في الزهد .

٤ - فصل من كتاب العظمة .

٥ - كتاب في المراقبة .

٦ - إحكام التوبة .

٧ - كتاب العلم .

٨ - كتاب الصبر والرضا .

أما كتبه المطبوعة ، فتتحدث بكلمات موجزة عن كل منها ، ثم تفصل القول عن كتاب الرعاية .

١ - كتاب الوهم :

أول ما طبع ، للمحاسبي : « كتاب الوهم » طبع في القاهرة سنة ١٩٣٧ وقد غنى بنشره الدكتور ا. ج . آربري ، وكتب مقدمته الدكتور : أحمد أمين وفي المقدمة يقول ، عن الكتاب :

« نحا فيه منحى طريفاً يدل عليه اسمه ، فلم يقتصر على ما ورد من الأخبار في الخوف والرجاء ، كما فعل غيره ، بل استعمل توهمه ، وبعبارة أخرى خياله في وصف شعور أهل الجنة وأهل النار ، وما يلقون من : سعادة وشقاء ، ونعيم وعذاب ، وأسلس لخياله القيادة ، فتخيل ما تخيل وصور ما صور ، فهي لوحة جميلة لفنان أجاد ألوانها ، أو رواية رائعة ، لكاتب جمل منظرها ، وفصل مواقفها ، وصقل لغتها ، حتى يؤثر بالحقيقة التي تتضمنها في نفوس القارئ والسامعين ، أكبر الأثر وأبلغه » .

٢ - رسالة المسترشدين :

وطبع له في « حلب » رسالة المسترشدين . « حققه وخرج أحاديثه ، وعلق عليه : عبد الفتاح أبو غدة » . وهذه الرسالة اللطيفة الحجم يوجه فيها المحاسبي الإرشاد للمسترشدين الذين يريدون أن يكونوا من ذوى الألباب العالمين بالله وبأمره .

ومنهاج ذوى الألباب - كما تحدده الرسالة - إنما هو رعاية حدود الشريعة من كتاب الله تعالى ، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ، وما اجتمع عليه المهتمون من الأئمة .

وهذا هو الصراط المستقيم الذي دعا إليه عباده ، فقال جل وعز :

« وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه : ولا تتبعوا السبل ، فتنفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

وقال رسول الله ، صلى الله عليه وسلم :

« عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ » .

والرسالة : إنما هي إرشادات توضح بعض زوايا هذا المنهج ، فهى تتحدث عن التوبة ، والتقوى والخطرات ، والخوف من الله ، والصبر والرضا ، وغير ذلك من أحوال اللائذين إلى الله ، السالكين إليه .

٣ - كتاب الوصايا :

وطبع له في القاهرة أخيراً : « كتاب الوصايا » تحقيق وتعليق وتقديم : عبد القادر أحمد عطا . والعنوان مكتوب هكذا : « الوصايا » أو النصائح الدينية ، والنفحات القدسية ، لنفع جميع البرية ، وموضوعه هو موضوع الكتاب السابق ، وإن كان على صورة أوسع ، وبأسلوب فيه بعض الحدة ، وهو أقل تألقاً وجزالة من أسلوب الكتاب السابق .

٤ - كتاب الرعاية ، لحقوق الله عز وجل :

وكتاب الرعاية : هو أكبر الكتب التي بين أيدينا من كتب المحاسبي ، مخطوطة كانت تلك الكتب أم مطبوعة ، وربما لا يوجد فيما فقد من كتبه ما هو أكبر منه ، ويقع في حوالى أربعمائة وستين صحيفة من القطع الكبير .

« فان الله تبارك وتعالى ، أخبرنا في كتابه . . . » .
وهذا التعبير أو ما في معناه : سار في جميع أجزاء
الكتاب ، ويضاف إليه الاستناد إلى السنة ، وقد كان
المحاسبى من المحدثين ، تلقى الحديث على أعلام السنة ،
وتلقى عنه أعلام السنة .

وبعد أن قدم المحاسبى ، ضرورة حسن الاستماع ،
بدأ في شرح معنى : الرعاية ، لحقوق الله . وهى أمر
عظيم ، أصبح عامة الناس - كما يقول المحاسبى - له
مضيعين :

وما من شك فى أن : « كل ما أمر الله - عز
وجل ، بالقيام به ، قد أمر برعايته » . « وكل حق
أوجهه الله ، جل وعز ، على عباده فى خاصة أنفسهم ،
أو فيما أوجب لبعضهم على بعض : فقد أمرهم بحفظه
والقيام به ، وذلك رعاية حقه الذى افترضه عليهم » .

وسواء أقلت : الرعاية لحقوق الله أم قلت :
« التقوى » فان المعنى لا يكاد يختلف ، ذلك أن التقوى ،
إنما هى : اتقاء الشرك فما دونه من ذنب ، من كل
ما نهى الله عنه ، واتقاء تضييع واجب مما افترضه الله .
والرعاية والتقوى هما : الاستجابة إلى الأمر
والانتهاء ، عما نهى الله عنه .

ومن أجل ذلك تحدث المحاسبى ، عن التقوى بعد
شرحه لمعنى الرعاية توضيحاً للرعاية وبياناً لها ، وبين
جزاء المتقين وأنهم : « فى مقام أمين » ، ويقال لهم عن
الجنة :

« ادخلوها بسلام آمين » .

والناس دائماً يريدون الأمور ، محددة مرسومة ،
فيسألون عن الخطوة الأولى التى يخطوها من يريد أن
يسلك الطريق إلى الله ؟ وعن كيفية البدء فى الإعداد
للمقام بين يديه ، سبحانه .

« فليكن أول ما تبدأ به من العدة لذلك المقام :
تقوى الله ، عز وجل ، فى السر والعلانية ، ليأمن قلبك

وهو على كل حال أهم كتبه فى نظر القدماء
والمحدثين ، حتى لقد عرف به ، وإذا لم يذكر أحد
المؤرخين القدماء من كتب المحاسبى إلا كتاباً واحداً :
فانه يكون الرعاية ، وهو بالنسبة للمحاسبى ، كاحياء
علوم الدين بالنسبة للغزالي ، وقد حاول المحاسبى أن
يشرح فيه الطريق الذى يحقق الرعاية ، لحقوق الله تعالى
ويبدأ المحاسبى ، كتاب : « الرعاية » بالحمد
والثناء على الله ، سبحانه وتعالى ، ثم يتحدث عن حسن
الاستماع :

« فقدم حسن الاستماع منك ، لما أجبته به ، لعل
الله عز وجل ، أن ينفعك بفهم ما أجبته عنه : من
الرعاية ، لحقوق الله عز وجل ، والقيام بها ، فان الله
تبارك وتعالى ، أخبرنا فى كتابه . أنه من استمع كما
يحب الله ويرضى ، كان له فيما يستمع إليه ذكرى .
يعنى : اتعاضاً ، ثم يذكر المحاسبى الآيات الدالة على
هذا والأحاديث .

ويرى القارئ فى هذا النص الذى نقلناه من
الصحيفة الأولى للكتاب أمرين :

الأمر الأول : أن المحاسبى ، يفترض مخاطباً ،
مخاطبه ، أو سائلاً يسأله والمحاسبى يجيبه .
والواقع أن الكتاب كله يسير على هذا النسق :
أسئلة من مخاطب وإجابات من المؤلف .

وما من شك فى أن بعض الأسئلة التى أوردتها
المحاسبى قد سئلتها بالفعل ، وقد سبق أن أشرنا إلى أن
بعض كتب المحاسبى ألف استجابة لأسئلة .

يبد أن كتاب : « الرعاية » يظهر فيه - فى
وضوح - من التناسق والترتيب والتخطيط ما يبعد
الظن بأنه ألف استجابة - مجرد استجابة - لأسئلة
وقتيبة .

أما الأمر الثانى الذى يتبينه الإنسان من النص ، فهو
أن المحاسبى يرجع إلى الكتاب الكريم ، يستند إليه فى
آرائه ، إنه يقول :

في ذلك المقام مع قلوب المتقين ، حين ينجز لهم ما وعدهم : من الأمن ، والغبطة ، والسرور .

فالتقوى أول منزلة العابدين ، وبها يدركون أعلاها ، وبها تزكو أعمالهم ، لأن الله ، عز وجل ، لا يقبل عملاً إلا ما أريد به وجهه .

ولكن الإنسان قد يكون مغترأً مخدوعاً بعبادته :

فكم من متكشف في لباسه ، متذلل في نفسه ، آخذ من حطام الدنيا اليسير ، ومن مصل ، وصائم ، وغاز ، وحاج ، وبك ، وداع ، ومظهر للزهادة في الدنيا ، والرفض لها على غير صدق ، ولا إخلاص ، ولا صلاح حقيقي :

وإذا ما أراد إنسان من هؤلاء : أن يزن أعماله بموازين الدين ، إذا استيقظ فؤاده ، فأراد أن يعرف أين هو من المخلصين ؟ فعليه أن يرجع إلى نفسه ، ويعرض أيامه التي خلت من عمره في عبادته وينظر : هل أتى عليه يوم منها حفظ فيه جوارحه وقلبه عما كره الله ؟ ! وهل سلم من العجب ، والكبر ، والحسد ، والشماتة ، وسوء الظن ؟ !

ولعله بعد هذا العرض يتواضع ويبدأ في إصلاح أمره :

على أن التقوى ، وإن كانت أول منازل السالكين ، فإنها معنى عام ، يبدأ أول ما يبدأ ، حينما يعلم الإنسان أنه عبد مريبوب : « لأن أول ما يلزمك في صلاح نفسك الذي لا صلاح لها في غيره ، وهو أول الرعاية : أن تعلم أنها مربوبة متعبدة ، فإذا علمت ذلك علمت أنه لا نجاة للمربوب المتعبد إلا بطاعة ربه ومولاه » :

والطاعة سبيل النجاة .

والعلم هو الدليل على السبيل :

ولا بد للتقوى من المحاسبة ، وقد كان المحاسبي كثير المحاسبة لنفسه ، بل إنه لم يسم المحاسبي ، إلا لهذه المحاسبة .

وقد روى عن النبي ، صلى الله عليه وسلم : « الكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت » . وقوله : دان نفسه : يعنى حاسب نفسه . ولقد قال سيدنا عمر ، رضي الله عنه : « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا ، وزنوا أعمالكم قبل أن توزنوا ، وتهبثوا للعرض الأكبر » . وكتب إلى أبي موسى : « حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة » .

هذا الذي قدمناه للآن يعتبره المحاسبي ، كالمقدمات العامة للموضوع ثم يأخذ في وصف : « منازل التوابين » ويبين فيه اختلاف الفطر والجبيلات :

فمن الناس من نشأ على الخير ، فرعاية حقوق الله ، عز وجل ، عليه أسهل .

ومنهم تائب بعد صبوته ، وراجع إلى الله عن جهالته ، وإنه ليدخل في نطاق قوله تعالى : « والذين اهتموا زادهم هدى وآتاهم تقواهم » .

أما الثالث : فانه المصر على ذنبه المقيم على سيئاته ، إنه : « محتاج إلى ما يحل به عقود الإصرار من قلبه ، فيتوب إلى ربه من ذنبه ، فيلحق بصاحبيه اللذين من قبله : الناشئ على غير صبوة ، والمنيب بالتوبة إلى خالقه تعالى .

ما الذي يبعثه على التوبة وترك الإصرار ؟ أما الذي يبعثه على التوبة وترك الإصرار : فهو الخوف والرجاء ، يقول تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى ، فان الجنة هي المأوى » .

فأخبر عز وجل ، أننا لما خاف ربه نهى نفسه عن الهوى ، ولقد وصف الله أوليائه بأنهم يدعونهم رغياً ورهباً : أى راجين خائفين .

وينال الخوف والرجاء ، بأن تصبح المعرفة بعظم قدر الوعد والوعيد واضحة سافرة والله ، سبحانه قد

خوفنا بالعقاب لنخوف أنفسنا ورجانا لرجيها ، ومما يعين على ذلك ، وقد أمرنا الله به : أن نفكر في المعاد ، وهجوم الموت ، وعظيم حق الله عز وجل ، ووجوب طاعته .

وحقاً إن الفكر في ذلك ثقيل على النفس بيد أنه مما يحققه علم الإنسان بعظيم قدر ما ينال بالفكرة من المنافع في الدنيا والآخرة : ذلك أن في نعيم الطاعة في الدنيا والظفر بنعيم الآخرة سعادة لا تعد لها لذة المعاصي ولن يتذكر متذكر ، أو يفكر في المعاد والنجاة مفكر ما لم يجتمع همه ، فطريق الفكرة ومفتاحها ، إنما هو : « اجتماع الهم مع المطالبة بالعقل والتوكل على الرب لا على العقل » .

واجتماع الهم إنما هو بعدم تشتت القلب والجوارح في ميادين اللعب واللهو ، يقول ابن مسعود ، رضی الله عنه :

« طوبى لمن لم يشغل قلبه بما ترى عيناه ، ولم ينس ذكر ربه بما تسمع أذناه » .

على أن المصرين في منازل شتى : فبهم من كثرت ذنوبه ، ومنهم من قلت ذنوبه ، ومنهم تائب من بعض ذنوبه وهو مصر على البعض الآخر .

وعلاج كل ذلك هو إدمان الفكر بالتخويف ، كالداء إذا أعضل لم يبرأ صاحبه إلا بدوام التداوى ؛ وإدمان الفكر بالتخويف يستمر إلى أن تسخو نفسه بالتوبة الخالصة النصوح التي يوقن فيها أنها كانت بمنة ربه وتفضله ، سبحانه ، لا بقوته هو فيستأهل بذلك الزيادة من الله عز وجل لأنه يقول :

« لئن شكرتم لأزيدنكم » .

وفي التفسير : لأزيدنكم من طاعتي :

على أنه إذا سحت نفسه بالتوبة فتاب ، فإنه يجب أن يستمر في تيقظه وحذره ، فان الاهتمام والحذر إن ألزمهما قلبه يوقظاه ، فيما يستقبل من عمره ، فإذا استمر على توبته دخل تحت قوله تعالى :

« رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه » .

ومما لا ممارسة فيه : أنه لا بد للاختار أجمعين من معرفة حقوق الله ، عز وجل ، بأسبابها وأوقاتها وعللها وإرادتها ووجوبها ، وفيه هي ؟ وأياها بدأ الله عز وجل به خلقه ؟

فعلى العبد أن يبدأ بما بدأ الله عز وجل ، به فيبدأ برعاية حقوق الله عز وجل في قلبه إذ عنه تكون أعمال الجوارح ، وجمل حقوق الله عز وجل في القلب ثلاث : اعتقاد الإيمان ومجانبة الكفر ، واعتقاد السنة ومجانبة البدعة ، واعتقاد الطاعة ومجانبة الإصرار على ما يكره الله عز وجل من عمل قاب وبدن .

وجمل حقوق الله ، عز وجل ، في الجوارح : القيام بالحركات فيما أوجب الله تعالى ، وترك الحركات وهو السكون عما كره الله عز وجل .

على أنه مع كل ذلك ، لا بد من مراعاة حقوق الله ، عز وجل ، عند خطرات القلب الداعية إلى كل خير وشر .

وقد تكون الخطرات من هوى النفس ، والله سبحانه وتعالى ، يقول :

« إن النفس لأمر بالسوء » .

وقد تكون خيراً .

ومهما يكن من شيء فإنه إذا عرضت الخطرات عرضها على الكتاب والسنة : فما وافق قبله وما خالف رفضه : يجب أن يشهد له العلم ، أن الله عز وجل ، قد أمر بها وندب إليها ، أو أذن فيها بأسبابها وعللها ووقتها وإرادتها فيها ، فإنه قد يقبل الخطرة يرى أنها داعية إلى سنة وهي بدعة ، وقد يرى أنها داعية إلى طاعة وهي معصية ، وقد يرى أنها داعية إلى خير وهي شر : كالخطرة تدعو إلى الإخلاص بترك العمل ، وإلى التنزه عن الخلق بالفكر ، وإلى الرجاء على العمل بالعجب والعزة ، وإلى المنافسة بالحسد ، وإلى الغضب لله عز

والمقاييس ، ولكن يطول ذكرها ، وإنما أردنا تحذير
جملتها ، ليعرفها العالم المثبت بالكتاب والسنة .

وكذلك الخطرات التي تدعو إلى تدين القلوب من
غير عبادات بالأعمال : كالقدر .

ورأى جهم ، والرفض ، والاعتزال ونحوه ، فلن
يميز العبد بين ذلك ، وبين ما أحب الله عز وجل ، من
الأعمال والسنن إلا بشاهد العلم . اهـ

لقد تعمدنا نقل هذا النص السابق بطوله ، لأنه يدل
على اتجاه المحاسبي في الجانب العقدي أي أنه يحدد اتجاهه
بالنسبة للفرق الموجودة في عصره ، وهو نص غاية في
الأهمية ، من الناحية الصوفية ، ومن الناحية الكلامية :
أما من الناحية الصوفية ، فإن المحاسبي يحمل على
من يدعو إلى الإخلاص بترك العمل وإلى التنزه عز
الخلق بالفكر ، ويرى أن ذلك خطرات شيطانية ،
وكذلك الأمر في كل خطرة ، تدعو إلى نوع من
الزهد ، والرضا ، والتوكل الذي يخالف زهد الأئمة ورضاءهم
وتوكلهم ويقينهم ، أي تخالف السنة .

ومن أمثال ذلك اعتقاد قوم الزهد في الدنيا
بتضييع العيال ، وبترك وجوب حق الوالدين .

وإنه لمن الانحراف الشيطاني - فيما يرى - أن يمتنع
قوم عن الاكتساب على الأهل والأولاد ، أو الخروج
في السفر بلا زاد تحت تعلقة التوكل ؛ أو أن يرضى
بالبلاء يقع بالمسلمين ويحرم الدواء ويمتنع عن الدعاء
وكل ذلك تحت تعلقة الرضا

إلى آخر ما ذكره المحاسبي من ذلك .

أما من الناحية الكلامية ، فإن هذا النص يبين أن
المحاسبي ، لا ينتسب إلى المعتزلة ولا إلى الجهمية .
ولا يقول بالتنشيه ، ولا بالتعطيل ، ولا بوجود تحقق
الوعيد ، وأنه ليس من المرجئة ، وليس من الشيعة .

إن هذا النص الذي جاء في صورة عابرة : يشير
إلى بعض ما كان يمكن أن يفصل لو أننا عثرنا على

وجل بتمنى البلاء في الدين والدنيا للمسلمين واعتقاد
استحلال ما حرم الله عز وجل ، منهم ، ونحو ذلك من
الخطرات ، وإلى القدر^(١) بتنزيه الله عز وجل ، وإلى
رأى جهم^(٢) : بنفى التشبيه ، وإلى التشبيه : بنفى رأى
جهم ، وإلى الاعتزال بتثبيت الوعيد ، وإلى الخروج
بالسيف بالغضب لله عز وجل ، أو إلى الإرجاء بتعظيم
الأقدار وتنزيه الإيمان من النقصان .

وقد تخطر الخطرة تدعو إلى بدعة في الجملة يحسبها
سنة ، ومما يدل على ذلك : أن قلوب أهل البدع إذا
خطر بها الخطرات تدعوهم إلى بدعة عدوها سنة ،
فكذلك أهل السنة : لن يدع العدو أن يدعوهم إلى
البدع عند غفلاتهم من حيث لا يشعرون ، ولولا ذلك
ما ابتدع أحد بدعة بعد اعتقاده للسنة في عبادة ولا غيرها
لأنه قد يدعو العدو إلى الابتداع في زهده ، وفي
رضائه ، وتوكله ، فيخالف زهد الأئمة المتقدمين
وتوكلهم ، ورضاءهم ، ويقينهم بمخالفته السنة
واعتقاده البدعة ، وهو يرى أنها سنة ، كما اعتقد قوم
الزهد في الدنيا بتضييع العيال وبترك وجوب حق
الوالدين ، والتوكل بترك الاكتساب على الأهل
والأولاد والخروج في السفر بلا زاد ، والرضا بالسرور
بالبلاء إذا وقع بالمسلمين وبتحريم الدواء والدعاء وترك
التمنى أن المعاصي لم تكن ، وبالاشتغال بالله ، عز وجل ،
بترك الفرائض وبترك النوافل ، ودعوى البصائر
واستنارة القلوب بادعاء علم الغيوب : من القطع على
ما في ضمائر الخلق وما يسرون ويكتمون ؛ ويحتجون
في ذلك بآثار : مثل قوله ، صلى الله عليه وسلم :

« المؤمن ينظر بنور الله » .

وكل فرقة ممن ذكرنا تحتج بالآثار ، والكتاب ،

(١) القول بالقدر : هو القول بجزئية الإرادة : أي أن
الإنسان حر فيما يأتي وفيما يدع من الأفعال ، وليس مجبوراً من
الله على عمل من الأعمال .

(٢) رأى جهم في الصفات : هو أن الصفات عين الذات .

« كلا إنها كلمة هو قائلها ، ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون » .

قال عبد الرحمن بن يزيد ، لرجل يعظه :
يا فلان ، هل أنت على حال ترضى فيها الموت ؟
قال : لا

قال : فهل أجمعت للثقله إلى حال ترضى فيها الموت ؟

فقال : لا ، ما سنحت نفسي بذلك بعد .

قال : فهل بعد الموت دار فيها مستعيب ؟
قال : لا

قال : فهل تأمن بعتقه الموت ؟
قال : لا

قال : ما رأيت مثل هذا الحال رضى بها عاقل .

والعاقل هو الذى يتوب - قبل الموت - أى على الفور ، توبة طاهرة عن الذنوب والخطايا : بأن لو قيل له : إنك تموت الساعة ، فانه لا يجد عنده ذنباً يحتاج إلى التوبة منه ، فيسأل النظرة من أجله .

ولقد أجاد سيدنا عمر بن عبد العزيز : فى الحصى على الذكر والفكر ، حينما قال فى خطبته بـ

« ألا ترون أنكم تتقبلون فى أسلاب المالكين ، ويرثها منكم الباقون ، كذلك حتى تردون إلى خير الوارثين ، وأنتم تجهزون كل يوم غادياً أو راحاً إلى الله عز وجل ، تضعونه فى صدع من الأرض ، ثم فى بطن صدع ، قد توسد التراب ، وخلف الأحباب ، وقطع الأسباب ، موجه للحساب ، غنى عما خلف ، فقير إلى ما قدم » .

* * *

ثم يبدأ المحاسبى شرح وتحليل الرذائل النفسية ، ووصف العلاج لها : تلك الرذائل التى تحبط الأعمال وتنفى الإخلاص :

الكتب التى فقدت ، ولكن أهميته لا تقل بسبب اجمالها ، إذ هو واضح كل الوضوح فى بيان موقف المحاسبى من الفرق الكلامية ، ومن الاتجاهات المنحرفة فى التصوف . ثم بعد هذا يأخذ المحاسبى فى شرح ما يتبدى به الإنسان من أداء الفروض وترتيب ذلك .

فاذا عرض للعبد أمران واجبان فى وقت واحد بدأ بأوجههما ، مثال ذلك فى الوالدين : فان العبد يبدأ بحاجة والدته ، لأن برها مقدم فى سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، وكذلك إذا وجب عليه الحج بالاستطاعة المالية وعليه دين حل موعده ، فليؤد إلى الدائن حقه .

وإذا عرض له واجبان ، لأحدهما وقت يفوت والآخر لا يفوت وقته بدأ بما يفوت وقته قبل الآخر ، كالرجل يريد الحج فى وقت فيه ساعة من الأيام ، فيأمره والده أن يقيم إلى آخر الوقت للحج فليطعهما .

وإذا كان فى فرض ، فعرض له فرض دونه : لم يخرج منه إلى ما هو دونه حتى يتمه ، كما إذا كان فى الحج المفروض محرماً به ، فكتب إليه والداه بالحضور فليتمه ولا يخرج منه .

وإذا كان فى فرض فعرض له فرض أوجب منه : قطعه بعد ما يحل فيه كالصلاة ، وكما إذا أمره والداه ألا يخرج من بلدهما ، فيحضر التغير لظهور المشركين على المسلمين وليس فى وجوههم من يقوم بقتالهم ، فعليه الخروج وترك المقام .

وإن عرضت له نافلة وهو فى واجب لم يقطعه من أجلها .

وكذلك الفضل والتطوع : يبدأ بالأفضل فالأفضل على أن الواجب أن يبادر الإنسان بالعمل على نجاة نفسه حتى لا يكون مثله كمثل من قال الله ، فيه :

« حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحاً فيما تركت » .

قال الله ، عز وجل ، مجيباً :

« إرادة العبد العباد بطاعة ربه » .

يقول تعالى :

« من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم فيها لا يبخسون ، أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » .

وقد روى عن معاوية بن أبي سفيان ، وروى عن مجاهد ، في تفسير هذه الآية قالاً : « هم المرءون » .

والآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وكلام الصحابة والتابعين ، رضى الله عنهم في التحذير من الرياء ، لا تكاد تحصى .

ومن أشد ما يروى في ذلك حديث رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، عن أبي هريرة - فيما رواه مسلم - سمعت رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، يقول :

« إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها : قال : قاتلت فيك حتى استشهدت قال : كذبت ولكنك قاتلت ، لأن يقال جرئ ، فقد قيل ثم أمر به ، فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها ، قال : فما عملت فيها ، قال : تعلمت العلم وعلمته ، وقرأت فيك القرآن . قال : كذبت ، ولكنك تعلمت ، ليقال : عالم وقرأت القرآن ، ليقال : قارئ ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار ، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال ، فأتى به فعرفه نعمه فعرفها قال : فما عملت فيها ، قال : ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك ، قال : كذبت ولكنك فعلت : ليقال جواد ، فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار » .

وفي رواية ، أن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، خط على فخذ أبي هريرة ، وقال : « يا أبا هريرة أولئك أول

وأول هذه الرذائل هو : « الرياء » ويستفيض المحاسبي في الحديث عن الرياء استفاضة تتناسب مع تغلغله في النفوس وتشعبه بحيث يظهر فيما لا يكاد يحصى من الأعمال ، على أن جميع أعمال البر عرضة ، لأن يعصف بها الرياء ، فتصبح كسراب بقيعة . ومن أجل كل ذلك كتب عنه المحاسبي حوالى خمس وعشرين ومائة صحيفة أى ما يزيد قليلاً على ربع الكتاب ووضعه تحت عنوان كتاب : « الرياء » .

ويبدأ المحاسبي ، كتاب الرياء على الصورة العادية في كتاب الرعاية كله : سؤال السائل ، وإجابة المؤلف قلت : قد وصفت لى مراقبة الله - عز وجل - وذكره الرعاية لحقوق الله عز وجل ، ووجوه طلبها .

والأول من الواجب والفضل ، فما تخاف على إن قمت لذلك ؟

قال : أخاف عليك أن تفسده بما يبطل ثوابه في آخرتك ، ويذهب بحلاوته من قلبك .

قلت : ذلك أعظم للحسرة : أن أتغنى ثم يحبط ويبطل عملى ، وما ذاك المعنى ؟ . اهـ

ومما يحبط عمل المتقى : أن يحب ، أن يحمده ويوقر بسبب عبادته .

ولا بد من الإخلاص التام ، حتى يصل الإنسان إلى منزلة الخاصة .

وما من شك في أن الإخلاص : منزلة الأقوياء والخاصة من العابدين ، ولكن الجميع مطالبون به وعلى قدر إخلاصهم يكون ثوابهم .

وقد سأل رجل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله : فيم النجاة ؟ فقال :

« ألا تعمل بما أمرك الله به تريد الناس » .

فسأله عن نجاته في أعماله ، فأخبره بترك : الرياء .

لا غنى للعبد إذن عن تركه : فإذا سألت الآن عن مفهوم الرياء فانه :

خلق الله ، عز وجل ، تسع بهم نار جهنم يوم القيامة »
فذلك أعظم الرياء عند الله ، عز وجل .

وإذا كان هذا إرادة غير الله بالطاعة ، فإن من
أنواع المرائين من يريد الله ويريد الناس أيضاً . وذلك
أقل من السابق ولكنه أيضاً رياء .

يقول تعالى :

« فن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ،
ولا يشرك بعبادة ربه أحداً » .

ويقول ، صلى الله عليه وسلم ، في حديث قدسي ،
عن الله عز وجل :

« أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل لي عملاً ،
وأشرك معي شريكاً ودعت نصيبي لشريكي » .

ومن أخس أنواع الرياء : أن يتظاهر الإنسان
بالعبادة ، طمعاً فيما في أيدي الناس وحباً في أن يبرره
بما يظهر من طاعة ربه .

لا بد إذن من المجاهدة والمكابدة والتيقظ ، لمداخل
الشیطان والنفس الأمارة وليس ذلك بسهل في مبدأ
الأمر ، والناس في هذا متفاوتون ولكن ، الله ، سبحانه
وعد بأن يعين الذي يبدأ مخلصاً في السير إليه ، حيث
قال ، سبحانه :

« والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا . . . » .

ثم يأخذ المحاسبي ، في وصف ألوان من الرياء
عديدة تأتي على شكل خطرات تتردد في النفس ،
ليكون الإنسان منها على حذر ، ويبين المراءة في
الفروض ، والمراءة في السنن .

ثم يتحدث عن بعض ما ينشأ عن الرياء من الأخلاق
المرذولة المذمومة .

ومن هذه الأخلاق التي تنشأ عن الرياء : مثل
المباهاة بالعلم ، والعمل ، والتفاخر بالدين والدنيا ،
وحب الغلبة .

أما علامة المرائي : فهي حب الحمد والثناء ،
وإظهار العمل من أجل الاحترام والتبجيل والمدح .

ومن أجل كل ذلك ، لا بد من إخلاص النية ،
ولا بد من أن يصل الإنسان إلى أن يكون ممن وصف
الله من عباده ، مادحاً لهم ، فقال :

« يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً ،
ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ، ويتيماً وأسيراً ،
إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً ،
إننا نخاف من ربنا يوماً عبوساً قمطريراً ، فوقاهم الله
شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسروراً ، وجزاهم بما
صبروا جنة وحريراً » .

أما من تحدث إلى الناس بما عمل من الطاعة ، يريد
بذلك وجه الله ، وحضهم على الاقتداء به ، فليس من
الرياء في شيء ، ولأن يهدي الله بك رجلاً خيراً لك
من الدنيا وما فيها .

وقد ختم المحاسبي ، كتاب : « الرياء » بقوله :

وقد روى أن ابن السناك ، قال لجارية له : « مالي
إذا أتيت بغداد تفتحت لي الحكمة ؟ قالت له جازيته :
يشخذ لسانك الطمع ، وصدقت : إن العبد يكثر
الكلام بالخير عند الغنى ، ما لم يتكلم به عند الفقير ،
يهيجه الطمع على ذلك ، أو تعظيمه للدنيا وكذلك يظهر
الخشوع وغيره من الطاعات .

* * *

ويبدأ المحاسبي بعد ذلك في : « كتاب الإخوان
ومعرفة النفس » ولا يقصد المحاسبي أن يتكلم في هذا
الباب على الصداقة وشروطها وواجباتها ، أو عن
النفس من ناحية التصور الفلسفي لها : جوهرها ، كانت
أم عرضاً ، وقديمة أم حديثة كلا ، وإنما يريد أن
يتحدث في الموضوع من ناحية الإعانة على ذكر الله
والتقوى ، فقد يترك الإنسان الرياء فترة من الزمن
عازماً على ألا يعود إليه ، ثم تخور عزمته ، وينتكت
في طريقه .

ولأجل ألا يحصل ذلك لا بد من قطع كل سبب يكون عنه الزلل والفتنة ، فإذا ما زل مع ذلك ، فلا بد من المسارعة إلى الإفلاج قبل أن تألف النفس المعصية ، وتمكن في القلب حلاوة الشهوة .

وقد يكون من أسباب الزلل : مجالسة الذين لا يسلم الإنسان معهم - بسبب مجالستهم - من الزلل ، ومثل صاحب السوء ، كمثّل صاحب الكبر يعني الحداد : إن لم يحرقك بشره يعقبك من ريحه .

ولقد قال سيدنا عمر : احذر صديقك إلا الأمين من الأقوام ، ولا أمين إلا من خشى الله ، كل هذا إذا أنس من نفسه ضعفاً ، أما إذا كان يمكنه أن يغير اتجاه أصحابه ويتغلب على تياراتهم فيوجههم إلى الخير ، فذلك حسن .

يقول إبراهيم التيمي :

« إن الرجل ليأتى القوم وهم يخوضون في الباطل ، فيصرفهم إلى الذكر ، فيكون له أجره وأجرهم . »

وبعد هذا الكتاب ، كتاب آخر يرتبط به ارتباطاً وثيقاً ، حتى لقد كان يمكن أن يكونا كتاباً واحداً ، ويكونان بذلك وحدة متحدة ، ذلك هو : « كتاب التنبيه على معرفة النفس وسوء أفعالها ، ودعائها إلى هواها » . ونكتفي في هذا بما ذكرناه سابقاً .

ومن الرذائل الخبيثة في النفس : « العجب » فبسببه هلك أئمة الضلالة ، وبالعجب تكبر المتكبرون وافتخروا المفتخرون ، واختال المختالون .

ولقد روى عن رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « ثلاث مهلكات : شح مطاع ، وهوى متبع ، واعجاب المرء بنفسه » .

وقد يكون العجب بالدين :

والعجب بالدين بوجوه أربعة : بالعمل والعلم والرأى الصواب والرأى الخطأ ، فالعلم : ما حفظ وفهم من الكتاب والسنة وقول علماء الأمة .

وأما الرأى الصواب : فما استنبط قياساً ، على الكتاب والسنة والإجماع ، مشبهاً بها حكمة مثل حكمة . وأما الرأى الخطأ : فما كان من غير استنباط من كتاب ولا سنة ولا إجماع الأمة . وإنما هو : تأويل بغير الحق ، وانتحال له على سبيل الجهول ، من قبل هوى النفس ، مع اعتراض من الظن أنه حق .

فأما الإعجاب بالعمل والعلم والرأى الصواب ، فغنى واحد : لأنه كله منة من الله عز وجل ، ونعمة منه .

فجملة العجب بالدين : حمد النفس على ما عمات أو علمت ، ونسيان النعم من الله ، عز وجل ، عليك بذلك فحمد النفس ونسيان المنعم : هو العجب بالدين . أما إذا رأى الإنسان أن ما به من نعمة - مالا أو قوة ، أو علماً أو سداداً في الرأى ، أو طاعة وعبادة فمن الله : فانه بذلك ينفي العجب عن نفسه ، يقول تعالى :

« ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً » .

ويستفيض في الحديث عن العجب بالدنيا ، وبأعمال الطاعة ، وبالعلم ، وبالنفس ، وبالخسب ، مع أن الله تعالى ، يقول :

« إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

ومع قول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لابنته ولعمته : يا فاطمة بنت محمد ، وبأصفيّة بنت عبد المطلب : عمّة رسول الله ، صلى الله عليه وسلم : « اعملا لأنفسكما ، فاني لا أغني عنكما من الله شيئاً » .

ويتحدث المحاسبي عن العجب بكثرة العدد ، ويذكر رداً على ذلك قول الكافرين :

« نحن أكثر أموالاً وأولاداً » .

ثم يأخذ المحاسبي في كتاب : « الكبر » والكبر : من علامات الذين لا يؤمنون بالآخرة ، يقول تعالى :

« فالدين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون » .

وما ألد كثير من الملحدين ، أو انحراف كثير من المنحرفين ، إلا بسبب الكبر : إن الله يصرفهم عن رؤية آياته والاعتبار بها بسبب كبرهم .

« سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق » .

وإن الله ، سبحانه وتعالى ، يطبع : « على كل قلب متكبر جبار » .

وقد ينشأ الكبر عن العجب في الدين بالعلم والعمل ، فإذا كان من قبل العلم ، فإن العالم إذا أعجب بعلمه ، أخرجته عجبه إلى الكبر تعظماً على العباد ، فيتكبر على العوام ، وإن كان بعضهم أتقى لله عز وجل ، منه وذلك الذي خافه عمر - رضي الله عنه - على العلماء ، حين قال : « تواضعوا لمن تعلمونه ولا تكونوا من جبابرة العلماء ، فلا يقوم علمكم عند الله بجهلكم ، أي لا يزكو عند الله إذا تكبرتم به .

ومن العباد قوم ضلال ، قد جمعوا إلى الضلال الكبر ، لا يرون أن أحداً يقول : الحق على الله عز وجل ، غيرهم وأنه لا مهتد في الأرض غيرهم ، وهم الذين يقولون : إن القرآن مخلوق ، وهم الذين يقولون بالوقف ، والذين يقولون باللفظ ، والذين يكذبون بالقدر ، والذين ينكرون أن الله عز وجل ، يرى في الآخرة والذين يغلطون الموازين ، ومنهم الرافضة^(١) والمرجئة ، والحرورية^(٢) والذين يكذبون بالشفاعة ، ويشتمون أصحاب رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، والذين يشتمون عائشة أم المؤمنين المبرأة من الإفك ورحمها الله ، ولولا ما أكره أن يطول الكتاب بذكرهم لذكرتهم فكل هذه الفرق آفة غير جائرة عن الطريق .

(١) الرافضة : هم الشيعة .

(٢) الحرورية : هم الخوارج .

لا يرون أحداً يقول بالحق ، وأنه لا مهتد في الأرض غيرهم جهلاً بالله عز وجل ، وتكبراً على عباده ، كما روى العباس ، رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

« يكون قوم يقرءون القرآن ، لا يجاوز حناجرهم ، يقولون : قد قرأنا القرآن ، فن أقرأ منا ؟ ومن أعلم منا ؟ » . ثم التفت النبي ، صلى الله عليه وسلم ، إلى أصحابه ، فقال :

« أولئك منكم أيها الأمة ، أولئك هم وقود النار » . وقد يكون الكبر عن الرياء :

ويجب على كل إنسان : أن يعلم ، أن أصل بن آدم : من التراب الذي يوطأ بالأقدام إنه من حمأ مسنون والله ، سبحانه وتعالى ، يقول :

« قتل الإنسان ما أكفره : من أي شيء خلقه ؟ ! من نطفة خلقه فقدره » .

ثم إن الله تعالى ، لا يحب المستكبرين ، ويقول ، صلى الله عليه وسلم :

« لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » .

ثم يتحدث المحاسبي عن : « الغرة بالله عز وجل » ويميز بين الغرة والرجاء فبعض المغترين : يظن أن الغرة منه رجاء ، فيقيم على معاصي الله ، عز وجل ، ويظن ذلك حسن الظن منه ، وليس ذلك بحسن ظن ، كما قال وهب : حسن الظن بالله ما جانب الغرة : وقيل للحسن : إن قوماً يقولون نرجو الله عز وجل ، ويضيعون العمل ، فقال :

هيات هيات ، تلك أمانهم يترجعون فيها من رجا شيئاً طلبه ، ومن خاف شيئاً هرب منه .

ويتحدث المحاسبي في كتاب : « الغرة » عن غرة أهل النسك ، وغرة الفقهاء ، وغرة الوعاظ ، وغرة المتكلمين .

وفي كتاب : « الاحياء » يقول عنه الإمام الغزالي ،
دون تحفظ ولا استثناء ، هذا التقدير الهائل :
« المحاسبي خير الأمة في علم المعاملة » .

وله سبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس ،
وأفات الأعمال ، وأعوار العبادات .

وكلامه جدير بأن يحكى على وجهه » . اهـ

هذه الشهادة أو التقدير من الإمام الغزالي ، كان
له أثر كبير في كتاب : « الاحياء » فان كتاب الأحياء :
تضمن تقريباً كتاب : « الرعاية » وكلمة الشيخ زاهد
الكوثري ، رحمه الله : سبق أن ذكرناها في المقدمة
التي كتبناها ، لكتاب الرعاية : إذ يقول :

« لقد تبطن الإمام الغزالي : كتاب الرعاية في

كتابه الإحياء » .

ولكن أثر المحاسبي كان أيضاً كبيراً قبل الإمام
الغزالي ، يقول السبكي عنه :

« عالم العارفين في زمانه ، وأستاذ السائرين ،
الجامع بين علمي الباطن والظاهر » .

ويقول الشعرائي عنه ، إنه : « أستاذ أكثر
البغداديين » .

لقد كان رحمة الله عليه ، أستاذ أكثر البغداديين
وعلم العارفين في زمانه ، وامتد تأثيره إلى الإمام
الغزالي ، وإلى الصوفية من بعده ، واستمر هذا التأثير
قرناً فقرناً ، واستمر تقدير العلماء الصوفية له قرناً
فقرناً ، حتى إذا كان القرن الحادي عشر الهجري ،
وكان المناوي صاحب التأليف الكثيرة المشهورة
المعروفة : كتب عن المحاسبي في كتابه : « الكواكب
الدرية » يقول :

المحاسبي البصري : علم العارفين في زمانه ،
وأستاذ السائرين في أوانه . عالم سار بنا فضله ،
وصوفي طار نبهه ، برع في عدة فنون ، وتكلم على
الناس فأراهم الجوهر المكنون ، وأحيا القلوب بوعظه ،
وشف الأسعاع بدر لفظه ، تصانيفه مدونة مسطورة ،

ثم يأخذ في شرح الحسد : أسبابه ومضاره ،
وما من ريب في أن جملة الحسد المحرم : أن يكره
الحاسد ما يرى من غيره من النعم ويجب زوالها عنه .

وأما المنافسة في خيري الدنيا والآخرة ، وأن يجب
ما يرى بغيره من النعم ، أن يكون له مثله غبطة منه ،
دون أن يكره لغيره ما يرى به من النعم ، فهذا لا بأس
به ، بل إنه مما يحسن ومن هنا كان قوله ، صلى الله
عليه وسلم :

« لا حسد إلا في اثنتين : رجل آتاه الله عز وجل ،
مالا فسلطه علىهلكته في الحق ، ورجل آتاه الله عز
وجل علماً ، فهو يعمل به ويعلمه الناس » .
فذلك الذي هو المنافسة في الخير .

ويحتم المحاسبي : « كتاب الرعاية » ب « كتاب
تأديب المرید » يذكر فيه سيرة المرید في ساعات الليل
والنهار : إنه يرسم فيه الدستور الذي يسير عليه المسلم ،
في حياته ، حينما يعزم على أن يأخذ سمت الإسلامی
الصحيح .

وفيه يقول المحاسبي :

فنعود بالله من الحيرة بعد الهدى : ومن العمى يعد
البصر . ومن الإعراض عن الله تعالى : بعد الإقبال
إليه . ونسأله السلامة والعون على ما يحب ويرضى . . .

أثر المحاسبي وكتابة «الرعاية» في الفكر الإسلامي

إن تأثير المحاسبي في الأجيال التالية له : لا ينكر .
إنه من الواضح . أن تلميذه الأكبر - وإن لم يلتق
به - كان الإمام الغزالي :

إن الإمام الغزالي . يعترف بأنه قرأ كتب الحارث
المحاسبي . قال ذلك في كتابه : « المتقد من الضلال » .

ولقد قرأ أيضاً سيرة الحارث المحاسبي . ويتحدث
عن الخلاف الذي كان بينه وبين الإمام أحمد بن حنبل
ثم إنه ينقل عنه في كتابه : « الأحياء » كثيراً من
الآراء والنصوص .

على أن التقدير الذي نحب أن نسجله هنا : هو ما كتبه الأستاذ لويس مسينيون عن كتاب : « الرعاية » في كتابه مصطلحات التصوف :

« إن المحاسبي : سما فيه بالتحليل النفسى إلى مرتبة لا نجد لها مثيلاً في الآداب العالمية إلا نادراً » .

وبالأمس القريب خصص التلفزيون في الجمهورية العربية المتحدة عدة حلقات للمحاسبي وكتابه : « الرعاية » في برنامج : « دنيا ودين » تحدث فيها عميد كلية دار العلوم ، وعميد كلية أصول الدين ، والسيد الدكتور عيسى عبده ، تحدثوا فيها عن المحاسبي كممثل لمنهج معين من مناهج المعرفة ، وكممثل للاتجاه الصوفي السليم ، وتحدثوا عن كتاب : « الرعاية » باعتباره من الكتب ذات القيمة الذاتية الخالدة .

وأقواله مبوبة مشهورة وأحواله مصححة مذكورة ، وكان في علم الأصول راسخاً راجحاً . وعن الخوض في الفضول جانحاً . وللمخالفين الزائغين قامعاً وناطحاً ، وللمريدين مريباً وناصحاً . . .

قال التيمى : هو إمام المسلمين في الفقه ، والتصوف ، والحديث ، والكلام وقال غيره له المصنفات النافعة الجمّة ، بحيث تبلغ نحو مائتي مؤلف ، وناهيك برعايته ، وكتبه في هذه العلوم ، أصول لمن صنف فيها .

قال في الأحياء : المحاسبي خير الأمة في علم المعاملة ، وله السبق على جميع الباحثين عن عيوب النفس ، وآفات الأعمال ، وأعوار العبادات ، وكلامه جذبر بأن يحكى على نفسه .

النصــــــــــــــــوص

النص الأول

باب منازل التوايين

اعلم أن الناس مختلفون في ذلك على ثلاث منازل ، لا رابع لها :

فمنهم من نشأ على الخير ، لا صبوة له إلا الزلة عند الشهوة ، كالأزلة التي لم يعر من مثلها النبيون ، والصديقون ، ثم يرجع إلى قلب طاهر لم تعتوره الشهوات ، ولم يغتد اللذات من الحرام ، ولم تعقبه الذنوب ، ولم يعل قلبه الرين^(١) ، ولم تغلب عليه القسوة فرعاية حقوق الله عز وجل ، والقيام بها على هذا أسهل ، والمحنة عليه أخف ودواعي النفس له أقل

(١) الرين : الدنس

وأضعف ، لأن قلبه طاهر ، والله عز وجل عليه مقبل ، وله محب ومتول ، والولى لا يخذل وليه ، والحبيب لا يسلم إلى الهلكة حبيبه .

وقد جاء في الحديث يعجب ربك للشاب ليست به صبوة ، أى يسر به ، ويعظم قدره عنده لأن العجب على وجهين :

أحدهما المحبة بتعظيم قدر الطاعة ، والسخط بتعظيم قدر الذنب في الجرأة .

والوجه الثانى : الاستكثار للشيء ، وإنما يعجب استكثاراً للشيء ، الجاهل الذى لم يكن يعرف الشيء فلما رآه استكثره وتعجب منه ، وجل الله جل جلاله عن هذا الوصف وإن كان قد قرأ بعض القراء : (بل

عجبت^(١) فليس هو على الاستكثار لما لا يعلم ومعنى قوله يعجب ربك للشباب ليست له صبوة : أى أن الله عز وجل : محب له ، راض عنه ، عظيم قدره عنده .

وروى فى بعض الحديث عن شريح : أن للشباب الناشئ على عبادة ربه ومحبة أجر سبعين صديقاً .

وروى معاذ بن جبل ، رضى الله عنه ، عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أن الله عز وجل ، يقول : « أيها الشاب الباذل شبابه لى ، التارك شهوته من أجلى ، أنت عندى كبعض ملائكتى » .

فمن أظهر من هذا قلباً ، أو من أولى بالمعونة والتوفيق ممن لم يركب الذنوب عند بلوغه ونشأ على طاعة ربه وعبادته ، واعتاد القيام بحقه ورعاية حقوق الله عز وجل ، عليه خفيفة لطول عادته للقيام بها وتركه الركون إلى أضدادها ، قليل مكابده ومجاهدته ، طويل بالله عز وجل شغله واشتغاله .

وآخر تائب من بعد صبوته ، وراجع إلى الله سبحانه ، عن جهالته ، ونادم على ما سلف من ذنوبه فى أيامه ، قد أعطاه العزم ألا يعود إلى تضييع شىء من غرضه ، ولا معاودة شىء مما سلف من ذنوبه ، والنفس منه تنازعه إلى عادتها لترده برغبتها إلى لذتها ، وهو يقمعها ، ويجاهدها ، ويخوفها عواقب ما كان منها ، وعدوه يذكرها ما فاتها ويدعوها إلى ما تركت من شهوتها ، وهو يذكرها قبيح ما كان منها . ويعظم منه الله عز وجل ، عليها بنقلها عما يسخط به ربها عليها ، فما لبث إلا قليلاً - أن صدق الله ، عز وجل فى مجاهدته ، وأمسك نفسه عن الشهوات التى تنقص عزمه - حتى يمدد الله عز وجل ، بمعونته ، فيسهل عليه سبيل الطاعة كما ضمن لمن أناب إليه ، فقال عز وجل :

« والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم^(١) » .
وقال عز وجل :

« ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتاً وإذا لأتيناهم من لدنا أجر عظيماً . ولهديناهم صراطاً مستقيماً » .

فوعدهم الله تبارك وتعالى : أن يحملهم على الطريق المستقيم ، ويربهم الحق نهاراً سرمداً : لأنه كريم يتقرب ممن يتباعد منه ، فكيف بمن يتقرب إليه ؟ ويتجنب إلى من يتبغض إليه . فكيف بمن يتجنب إليه ؟

وكذلك روى أبو هريرة . عن النبي . صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : يقول الله عز وجل :

« يا بن آدم إن تقرب إلى فترا تقربت إليك شبراً ، وإن تقربت إلى شبراً تقربت إليك ذراعاً . وإن تقربت إلى ذراعاً تقربت إليك باعاً وإن أتيتنى سعياً أتيتك هرولة » .

وإنما هذا على حسن المعونة . وسرعة الإجابة والهداية بالسداد والتوفيق ، والاكتناف بالعصمة . فلم يلبث هذا التائب إلا يسيراً حتى يقبل الله ، عز وجل عليه بمعونة فيغلب له هوى نفسه ويقوى منه ضعفه . ويميت منه دواعى شهواته . فيقهر العقل منه الهوى . ويغلب العلم منه الجهل . ويسكن قلبه الخوف والهم . ويواصل فيه الأحران بعد طول لومه . واتصال أفراحه بالدنيا . كلما ذكر ما كان منه من ذنوبه حاج خوفه ، وغلب همه وطال حزنه . فاذا غفل عن الذكر وسها عن التذكر . نازعته نفسه فقال إلى بعض الزلل الذى لم يعر من مثله الصالحون عند غفلاتهم وسهوهم ، ثم يرجع إلى الله - عز وجل - بقلب طاهر من الرين والدنس ، قد قطمه عن عادته وأعقبه بالخوف من الأيمن والإصرار ، وبالرجاء الصادق من الغرة

(١) وفى هذا المعنى قوله تعالى : (والذين جاهدوا فىنا ، لهدينهم سبيلنا) .

(١) يشير إلى الآية الثانية عشرة من سورة الصافات وهى : « بل عجبت ويسخرون » .

النص الثاني

باب منازل أهل الرعاية ، لحقوق الله عز وجل ،
في رد الخطرات وقبولها في أعمال القلوب والجوارح
على قدر منازل أهل القوة والضعف .

والراعون ، لحقوق الله عز وجل ، في منازل
شتى ، وقد ينتقل كل راع منهم في تلك المنازل على
قدر قوته وضعفه ، فأول منزلة من الرعاية ، وأهلها
أقوى الخلق في الرعاية لحقوق الله عز وجل ، الرعاية
عند الخطرات بعد اعتقاد جمل حقوق الله عز وجل ،
فلا تخطر بقلبه خطرة من أعمال قلبه ، إلا جعل الكتاب
والسنة دليلين عليها ، فلم يقبلها باعتقاد الضمير ،
وبتركها يسكن قلبه في مجال الفكر من التمتي وغيره ،
إلا أن يشهد له العلم أن الله عز وجل ، قد أمر بها
وندب إليها ، أو أذن فيها بأسبابها وعللها ، ووقتها
ولإراداتها فيها ، فانه قد يقبل الخطرة ، يرى أنها داعية
إلى سنة وهي بدعة ، وقد يرى أنها داعية إلى طاعة وهي
معصية وقد يرى أنها داعية إلى خير وهي شر ،
كالخطرة تدعو إلى الإخلاص بترك العمل ، وإلى التنزه
عن الخلق بالفكر ، وإلى الرجاء على العمل بالعجب
والغرة ، وإلى المنافسة بالحسد ، وإلى الغضب لله عز
وجل ، بتعنى البلاء في الدين والدنيا للمسلمين واعتقاد
استحلال ما حرم الله عز وجل منهم : ونحو ذلك من
الخطرات : وإلى القدر بتنزيه الله عز وجل : وإلى
رأى جهنم : بنفى التشبيه ، وإلى التشبيه : بنفى رأى
جهنم : وإلى الاعتزال بتثبيت الوعيد : وإلى الخروج
بالسيف بالغضب لله عز وجل . أو إلى الإرجاء بتعظيم
الأقدار وتنزيه الإيمان من النقصان .

وقد تخطر الخطرة تدعو إلى بدعة في الجملة يحسبها
سنة ، ومما يدل على ذلك أن قلوب أهل البدع إذا خطر
بها الخطرات تدعوهم إلى بدعة عدوها سنة ، فكذلك
أهل السنة : لن يدع العدو أن يدعوهم إلى البدع عند

والتسوية ، فهو من سالف ذنوبه هارب لرحمة ربه
عز وجل ، بهربه طالب حتى يلقاه آمناً من عذابه .
وقد جاء في الحديث عن النبي ، صلى الله
عليه وسلم :

« إن العبد ليذنب الذنب ، فيدخله ذنبه الجنة ،
قيل : يا رسول الله ، وكيف يدخله ذنبه الجنة ؟ قال
لا يزال نصب عينيه تائباً منه هارباً منه حتى يدخله الجنة .
وقيل لسعيد بن جبير : من أعبد الناس ؟ قال :
رجل أصاب من الذنوب ، فإذا ذكرها اجتهد .
وروى عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :
« خياركم كل مفتن تواب » .

يخبرك : أن خيار أمته لم يعرفوا من الزلل ، وأن
علمهم بالله عز وجل ، لن يدعهم حتى يرجعوا إليه
بالتوبة والإنابة .

والثالث مصر على ذنبه ، مقيم على سيئاته ، يغلبه
الهُوى وضعف الخوف ، مفر مع ذلك بأن لله عز
وجل : معاداً يبعثه فيه وهو لا يتغشاه به ، ومقاماً
يوقفه فيه ويسأله عما كان منه ، وثواباً وعقاباً بصرفه
من بعد السؤال إلى أحدهما ، ثم يحل فيه مخلداً ، إلا
ما شاء الله الملك الكريم من بعد التخليد في العذاب الأليم
فهذا إقرار بالإيمان في قلبه قد زایل به الجحد ،
وصدق به الرب عز وجل . والقلب بالشهوات مشغول
عن الفكر . والرزين له مانع عن الذكر إلا الخطوة
تبيح من الإيمان بذكر المعاد ثم لا تجد موضعاً تستقر
فيه . لما غلب على قلبه من القسوة وتتابع فيه من الغفلة :
فقلبه هائج باشتغال الدنيا . لا يلزمه ذكر التخويف .
ولا يتفرغ للفكر . ولا يجد حلاوة الذكر وكيف
يكون للذكر فيه مستقر . والأشغال تنازعه ، والغفلات
تغلب عليه ؟ فهذا محتاج إلى ما يحل به عقود الإصرار
من قلبه . فيتوب إلى ربه من ذنبه . فيلحق بصاحبيه
الذين من قبله : الناشئ على غير صبوة والمنتب بالتوبة
إلى خالقه تعالى .

ولكن يدع العدو أن يدعو العبد المرید إلى نفي خطرات
التنبية على الخير والشر لئلا يقبلها ، لأن على العباد وإن
أرادوا الله عز وجل ، أن يصيبوا الحق بذلك .

وقد ذم الله عز وجل ، قوماً ولم يعذرهم ، بأن
رأوا أن الشر خير والخير شر . فقال جل وعز :

« وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا^(١) » .

وقال عز وجل :

« أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا^(٢) » .

وقال حذيفة . رضى الله عنه : لرجل سأله عن
الرجل : يقاتل يريد وجه الله عز وجل ، فيقتل ،
ولم يوفق للحق . فقال : ليدخل النار ممن يقتل أكثر
من كذا وكذا ولكن من قاتل يريد وجه الله عز وجل ،
فأصاب الحق فهو في سبيل الله .

ومن لم يوفق للحق . لم يوفق للخير . وكذلك الذى
ينفى خطرات من الخير يحسبها سواء ولا يميز بين ذلك
إلا بشاهد العلم من الكتاب والسنة ، وإذا تبين له بشاهد
العلم إحدى الخطرتين . أنها مما أحب الله عز وجل من
عمل قلب أو اعتقاد سنة قبلها وعزم عليها . وإن تبين
له بشاهد العلم أنها مما كره الله عز وجل أو ذمه فى كتاب
الله عز وجل . أو فى سنة النبي - صلى الله عليه وسلم -
أو اجتمعت^(٣) عليه العلماء نفاها عن قلبه وحجب قلبه
عنها . فإن لم يتبين له عند إحدى الخطرتين ما هى ،
أهى مما أحب الله عز وجل . أو مما كره الله تعالى ؟
وقف وثبت ابتداء أو يشهد العلم له بأحد الأمرين
فيقبل أو ينفى . وهو فى فسحة حتى يتبين بالنظر بقلبه .
أو بسؤال العلماء . إن كان مما لا يبلغه علمه فإنه إن
لم يفعل ذلك لم آمن عليه . أن يضل بغير دليل . فيعتمد
الشر ويحسب أنه خير أو ينفى الخير ويحسب أنه شر .

(١) ١٣ : ١٠٤

(٢) ٣٥ : ٩

(٣) أجمعت العلماء على أنها ما يكره الله عز وجل .

غفلاً منهم من حيث لا يشعرون ، ولولا ذلك ما ابتدع
أحد بدعة بعد اعتقاده للسنة فى عبادة ولا غيرها . لأنه
قد يدعو العدو إلى الابتداع فى زهده وفى رضائه
وتوكله ، فيخالف زهد الأئمة المتقدمين وتوكلهم ،
ورضاءهم ويقينهم بمخالفته السنة واعتقاده البدعة .
وهو يرى أنها سنة . كما اعتقد قوم الزهد فى الدنيا
بتضييع العيال وبتترك وجوب حق الوالدين . والتوكل
بتترك الاكتساب على الأهل والأولاد . والخروج فى
السفر بلا زاد . والرضا بالسرور بالبلاء إذا وقع
بالمسلمين . وبتحريم الدواء والدعاء . وترك التمسى أن
المعاصى لم تكن وبالاشتغال بالله عز وجل . بترك
الفرائض . وبتترك النوافل ودعوى البصائر ، واستنارة
القلوب بادعاء علم الغيوب : من القطع على ما فى ضمائر
الخلق وما يسرون ويكتمون . ويختجون فى ذلك بآثار :
مثل قوله . صلى الله عليه وسلم :

« المؤمن ينظر بنور الله » .

وكل فرقة ممن ذكرنا تختج بالآثار . والكتاب .
والمقاييس . ولكن يطول ذكرها . وإنما أردنا تحذير
جملتها . ليعرفها العالم المثبت بالكتاب والسنة .

وكذلك الخطرات التى تدعو إلى تدبير القلوب من
غير عبادات بالأعمال : كالقدر ورأى جهم والرفض
والاعتزال ونحوه . فلن يميز العبد بين ذلك وبين
ما أحب الله عز وجل من الأعمال والسنة إلا بشاهد
العلم : لأن الله عز وجل . أمر بذلك أو ندب إليه وأذن
فيه ولا تخطر خطرة فينفيها . أو يحجب قلبه عنها . إلا
أن يشهد له العلم . أن الله عز وجل . قد نهى عنها وذمها
بسببها وغلها وأوقاتها . فإنه قد تخطر بقلب العبد الخطرة
داعية إلى خير فينفيه . وهو يحسب أنها شر . وقد تدعو
إلى سنة فينفيها وهو يحسب أنها بدعة . يزينها له عدوه .
ومما يدل على ذلك : أن قلوب أهل البدع : إذا خطرت
بها خطرة تبعهم على اعتقاد السنة نفوها وحسبوا بدعة

وعليه وسلم ، فجعل بعض فرضه أوجب من بعض ، إذا اجتمع الفرضان ، وفرض فرضاً له وقت يفوت ، إن جاز وقته بغير عذر قبل أن يؤدي كان العبد عاصياً لربه ، وفرض فرضاً له وقتان ، فمن أداه في أول وقته كان ذلك أفضل عليه وإن أداه في الوقت الثاني لم يكن مأزوراً وأوجب الله عز وجل ، ألا ينال فرضه بما حرم على عباده ولا يؤثر على فرضه نافلة مما يتقرب به إليه ، فعليك وعلى العباد ألا يؤثروا من فرضه ، ما أوجب أن يبدأ به ، ولا يقدموا ما أمر أن يؤثر بعد غيره من الغرض ولا يتركوا فرضاً ، لطلب قرابة بنافلة ولا غيرها

النص الثالث

باب ما ينبئ به العجب بالرأى الخطأ

قلت : أفرأيت نفى العجب بالرأى الخطأ ، إذا كان ليس بنعمة فأذكر منة الله عز وجل ، بذلك ، ولا أضيف ذلك إلى نفسى فم أنفيه ، إذ تبين لى أنه بلية وخذلان ، أو نقص فى الدين ؟

قال : قد ينفى العبد العجب بالرأى الخطأ بتهمة نفسه ، وترك الاستحسان لشيء من رأيه إلا بدليل بين وحجة واضحة من الكتاب والسنة ، أو قياس عليهما واستنباط حكم فى نازلة .

قلت : وكيف يتهمها ؟ وما الذى ينال به تهمتها ؟ قال : لمعرفته ما بنيت عليه فى الحلقة أن من شأنها السهو والغفلة ، ولما جرب منها من كثرة غلطها ، وكثرة زللها ، وسوء تأويله ما لا يحصى مراراً كثيرة ، فى كل ذلك يرى أنه مصيب ، لا يشك عند نفسه فى ذلك ، ثم يتبين له بعد أنه قد كان غفل وغلط ، وكان استجابة لذلك من قبل الهوى ، وتزيين الشيطان ، ولو لم يبعثه على تهمتها إلا ما يعرف من عامة هذا الخلق : من غلطهم وقولهم فى دين الله ، عز وجل ، بغير الحق ، وكلهم يزعم فيما يدعى الحق وهو على باطل ، وهو - مع ما هو عليه من الباطل - لا يشك أنه محق صادق ، وأن من

ويعرف الشر ثم يعتقد ، أو يعرف الخير ثم يجانبه ، ولو تبين ذلك لم آمن ذلك عليه أيضاً ، فإذا فعل ذلك فقد رعى حقوق الله عز وجل ، فى جوارحه فلا يخطر بقلبه خطرة تدعو إلى القول بلسانه ، فيعتقد لهم بها ، ولا يأذن للسانه ، أن ينطق بها ، حتى يتبين له فى العلم بالكتاب والسنة ، أو فى اجماع الأمة أن الله عز وجل ، أمر بها أو ندب إليها وأباحها ، وكذلك الداعى إلى الاستماع إلى صوت من الأصوات ، فيعتقد لهم إلى الإصغاء إلى ذلك الصوت ، إلى أن يتبين له فى العلم أن الله عز وجل ، قد أذن فى ذلك ، أو ندب إليه أو أباحه .

ألا ترى إلى ما جاء فى الحديث عن ابن عمر ، عن النبي ، صلى الله عليه وسلم ، أنه مر بزماره راع ، فوضع أصبعيه فى أذنيه ، وعدل عن الطريق ، حتى قيل له : إن الصوت قد انقطع ، فنع سمعه ، فلم يأذن له إلى ما كرهه الله عز وجل .

وكذلك إن خطرت خطرة تدعو إلى نظرة ، لم يعقد لهم بها ، ولم يدع بصره يتردد فى النظر إليها إن كانت نظرة فجأة ، حتى يعلم أن الله عز وجل ، قد أمر بها ، أو ندب إليها أو أباحها ، وكذلك يدها : لا يعقد لهم ببطشهما وحركاتهما ، بل لا يخلى بينهما وبين البطش ، وكذلك الرجلان لا يخلى بينهما وبين المشى حتى يعلم أن الله عز وجل ، قد أمر بها ، أو ندب إليها أو أباحها ، فى كتاب أو سنة أو فى اجماع الأمة .

قلت : فإذا رعى حق الله عز وجل ، عند الخطرات التى تدعو إلى عقد ضمير القلوب ، والخطرات التى تدعو إلى الهمة بحركات الجوارح وسكونها ، فما تخاف على بعد ذلك ؟ وهل يجب على غير ذلك ؟

قال : نعم ، إن الله عز وجل ، أوجب فرائضه فى كتابه نصاً فى التلاوة وكثير من نص التلاوة مجمل بالفرض ، يحتاج إلى التفسير بما فى سنة النبي صلى الله

وقال أبو سعيد الخدرى ، رضى الله عنه : يقول الله تعالى ، لنبيه ، صلى الله عليه وسلم ، لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ، وقال : ونحن أصحابه ، فأنتم أعجز رأياً .

وقال ابن مسعود ، رضى الله عنه :

« أيها الناس أتهموا الرأى ، ولقد رأيتنى وأنا أهم أن أضرب بسيفى فى معصية الله ، عز وجل ، ومعصية رسوله ، صلى الله عليه وسلم . »

وقال سهل بن حنيف :

« أيها الناس : أتهموا آراءكم . »

وقال عمر : رضى الله عنه ، أنهم رجل رأيه ، ولقد رأيتنى يوم أبى جندل ولو أقدر لرددت على رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ؛ يعنى يوم صالح النبى ، صلى الله عليه وسلم ، قريشاً يوم الحديدية فى إجابته إياهم ، والأحاديث فى ذلك كثيرة ، وتركتها ذكرها كراهية التظويل .

قلت : فإذا ثبتت المعرفة بذلك فاتهم رأيه ، كيف يثبت حتى لا يخطئ ؟

قال : تعلم أن من كتاب الله ، عز وجل ، آيات محكمات قد أجمع المسلمون على تفسيرها ، ومنه ما يشبه ويمكن فيه التأويل ، وذلك الذى اختلف فيه ومنه مشبه ولم يختلف فيه إلا أهل الزيغ الذين أخبرنا الله عز وجل : أنهم يبتغون تأويله ، ابتغاء الفتنة ، لما فى قلوبهم من الزيغ والضلالة : وكذلك سنة النبى ، صلى الله عليه وسلم ، بهذه المنزلة .

فليعلم العبد المرید للصواب : ليدين الله عز وجل ، به أن من الكتاب والسنة محكماً بين التلاوة مفسراً باجماع وأن ذلك واضح لا يحتاج فيه إلى النظر والبحث ، ولا يجب على النفس التهمة فى قبولها واجتنابها إياه ، وأن الذى يمكن فيه الخطأ والصواب ، لضعف ابن آدم وسهوه ، وغفلته وغلبة هواه له ، وترزين عدوه له :

خالفه مبطل كاذب من جميع أهل الأديان ومن أهل البدع من المسلمين ، وكثير من أهل الفتيا والرأى .

وقد علم أن النفوس طبعها بعضه قريب من بعض ، بل كلها لا تعرى من السهو والغفلة ، وما نفسه إلا من أنفس الخلق من ولد آدم ، عليه السلام ، بنيت كبنيتهم ، وغريزته كغريزتهم ومع ذلك فإن المزين لهم واحد ، وهو الشيطان المرصد لهم بالعداوة ، والباغى لهم الزلل والعصيان فإذا أثبت فى قلبه هذه المعرفة بنفسه أتهمها ولم يعجل بما يستحسن دون النظر فى الكتاب والسنة ، أو مساءلة أهل العلم والبصيرة ، ولم يزل ذلك شأن الصالحين العارفين بأنفسهم ، ولم يزلوا متهمين لآرائهم ، خائفين من أنفسهم . من ذلك ابن مسعود ، اختلف إليه شهراً فى مسألة عن امرأة مات عنها زوجها ولم يدخل بها ولم يسم لها صداقاً . فلم يجبه شهراً مخافة الخطأ فى إجابته إياهم عما سألوه عن ذلك : تهمة لنفسه وخشية لخطئها ، ثم قال لما لم يجد بداً من القول فيها قال : أقول فيها برأى فإن كان صواباً فمن الله ، عز وجل ، وإن كان خطأ فمن نفسى .

وروى عن أبى بكر ، رضى الله عنه : مثل ذلك .

وقال عمر : رضى الله عنه : إن الرأى كان من رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، صواباً ، لأن الله ، عز وجل ، كان يريه : وهو منا الظن والتكلف .

وقال أبو سعيد ، رضى الله عنه : قال الله - عز وجل - لهم وهم أصحاب نبيه ، صلى الله عليه وسلم : « لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم (١) » :

فكيف فيمن دونهم من الناس ؟

وقال قتادة فى قوله عز وجل : لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ، فأنتم أطيش أحلاماً ، فاتهم رجل رأيه وانتصح كتاب ربه ، عز وجل .

العلم بالإيمان به ، وترك تأويله ، وذلك فيما لا يجب على العباد فيه حكم يعملون به ، فهذا ما ينفي عنك العجب بالرأى الخطأ ، حتى لا تعجب إن شاء الله بخطأ في دين الله - عز وجل - من غلط تأويل ولا قياس .
قلت : فالعمل الذي لم يمن به على كيف العجب فيه .

قال : الاتكال على قوتك وصبرك لما جرت من نفسك ونسيانك انتظار منة الله - عز وجل - بذلك .
وقد روى الأحنف بن قيس عن النبي : صلى الله عليه وسلم ، أن داود عليه السلام : قال : يا رب إن بنى إسرائيل يسألونك بآبرهم وإسحاق ، ويعقوب ، قال ابن عباس في هذا الحديث : إن داود - صلى الله عليه وسلم - حدث نفسه أنه إن ابتلى يستعصم .

وقال محمد بن كعب والمقبري في هذا الحديث :
« إن الله ، عز وجل ، قال : إني ابتليتهم فصبروا ، قال : يا رب وأنت إن ابتليتني صبرت ، قال : أما إني ابتليتهم ولم أخبرهم بأى شيء ابتليتهم ، ولا في أى شهر ولا في أى يوم ، وأنا مخبرك في سنتك في شهرك هذا ، ولكن داود لم يصبر على الابتلاء ، فاحرز نفسك » :

ما اختلف فيه ، أو حادثة يحتاج فيها إلى التمثيل والقياس على الكتاب والسنة والاجماع . فعند ذلك يهيم نفسه ، ويتثبت ولا يعجل ، إذ كان الخطأ في ذلك منه ممكناً ، فالعجلة وترك التثبت غرور وخطأ وترك التفقد للدين والتحرز من القول على الله لغير الحق ، فلا يعجل ، ويتثبت ولا يجترئ ويتجنب ولا يقبل ولا يعتقد ما يستحسنه قلبه وزين في عقله إلا من كتاب أو سنة أو ما اجتمعت عليه الأمة ، أو تأويل فيما اختلف فيه شبه للكتاب والسنة والاجماع أو قياس مساو لذلك إذا كان ممن يجوز له القياس والنظر ، وإن لم يكن ممن له أن يقيس ولا ينظر سأل العلماء ونظر في أقوالهم وإلى ما ذهبوا إليه ، وإن كان ممن لا يحسن أن ينظر ويميز من الذين لا يعرفون حلالاً من حرام ، ولا يحسنون التمييز لضعف عقولهم ، فليس على أولئك إلا التقليد للعلماء ، إذا سألوهم عند الحاجة ، وذلك كالأعجمي وبعض النساء ممن لا يحسنون التمييز ، وإن كان من المتشابه الذي وجب على المؤمنين الإيمان به ، ووكّل علمه إلى الله ، عز وجل ، وقف وعلم أنه ليس له تأويله ، وبذلك وصف الله عز وجل : الراسخين في



ثلاث مسرحيات للوبي دي فيجا

بمقام
الدكتور محمود عاي مكي

مسرح لوبي دي فيجا

يعتبر لوبي دي فيجا أعظم أعلام المسرح الإسباني على الإطلاق ، وهو في إسبانيا والعالم الناطق بالإسبانية بمثابة شيكسبير في الأدب الإنجليزي ، وما زالت رواياته تمثل حتى اليوم على مسارح البلاد التي تستخدم اللغة الإسبانية دون أن يفقدها الزمن غضارتها وجدتها . على أن مسرح لوبي دي فيجا لم يقدر له في العالم الخارجي ما قدر لمسرح شيكسبير من ذبوع وشهرة ، ولكن ذلك راجع إلى طبيعة كل من المسرحين ، فالإنجليزي أكثر اهتماماً بالنوازع النفسية إذ أن ميدانه هو الإنسان وسلوكه وأعماله مما هو مشترك بين سائر الأمم والمجتمعات ، أما مسرح لوبي فانه إسباني خالص قبل كل شيء ، هو مسرح وطني تتمثل فيه حياة إسبانيا لا في عصره فقط ، بل إنه يعكس لنا حياة هذه الأمة منذ العصر الروماني حتى وقت المؤلف ، وليس معنى ذلك أن مسرح لوبي دي فيجا خال من تلك الشخصيات التي تعتبر نماذج بشرية عامة ، غير أنه وسماها دائماً بسمة بلاده الخاصة بحيث لم يكن من السهل فهمها وتمثلها إلا في نطاق بيئتها .

عصر لوبي دي فيجا

وقد كان لوبي صورة صادقة لإسبانيا في عصره ، وربما كان مسرحه جاعاً للقيم الفنية والأدبية في ذلك العصر الذي اصطلح على تسميته بالعصر الذهبي El Siglo de Oro للأمة الإسبانية ، وهو في فنه المسرحي يعتبر نظيراً وقريناً لأديب آخر عبقرى هو ميغيل دي ثيرفانتيس سافدرا Miguel de Cervantes Saavedra صاحب تلك الرواية الخالدة التي تعد أشهر أثر أدبي إسباني على الإطلاق : « دون كيخوتي دي لامانتشا » ، وهي التي تمثل مع مسرح لوبي الروح الإسبانية خير تمثيل .

أما هذا الذي يطلق عليه اسم « العصر الذهبي » في إسبانيا فانه هو الذي يوافق أوج الإمبراطورية الإسبانية خلال القرن السادس عشر ، ثم بدء اختلال هذه الدولة في أواخر هذا القرن والقرن التالي كله ، وإذا كانت إسبانيا قد ظهرت في خلال الفترة الأولى من حكم الأسرة المعروفة باسم « أسرة النمساويين » Casa de Austria باعتبارها الدولة الأوربية الأولى من الناحيتين السياسية والعسكرية ، فان اصطلاح « العصر

١٤٩٢ من السنوات الحاسمة ذات المدلول العميق في التاريخ الإسباني . لا سيما وأنه وقع في نفس السنة حدثان لا يقلان خطراً عما يعنيه التخلص من آخر ملاذ للإسلام في أرض شبه الجزيرة . أولهما طرد اليهود من إسبانيا ، وبهذا بدا لإسبانيا المسيحية أنها قد استكملت عناصر وحدتها الدينية . ثم كشف أمريكا بعد أن وصات سفن كريستوفر كولمبس إلى العالم الجديد في ١٢ أكتوبر سنة ١٤٩٢ .

وقد بدا لإسبانيا المسيحية بالفعل منذ هذه السنة أنها مقبلة على عصر من العظمة لم تشهده أبداً من قبل . وأكدت هذه العقيدة سلسلة من الانتصارات المتوالية قفرت بإسبانيا إلى مكان الصدارة في أوروبا خلال سنوات قليلة . ففي سنة ١٥٠٤ غزت الأساطيل الإسبانية إيطاليا فاحتلت مملكة نابلي وجزيرة صقلية أي نحو نصف إيطاليا الجنوبي . ثم بدأ تطوع إسبانيا إلى شمال إفريقيا . ففي سنة ١٤٩٧ احتلت مليلية . ثم المرسى الكبير سنة ١٥٠٥ ووهران سنة ١٥٠٩ . وفي السنة التالية وصلت أساطيل إسبانيا إلى بجاية وطرابلس . وتأكدت سيطرة إسبانيا على جزر كنارياس .

وفي سنة ١٥١٢ استكملت إسبانيا وحدتها الجغرافية السياسية باحتلال إمارة نبرة الواقعة على الحدود بين فرنسا وإسبانيا . وكان ذلك هو آخر خطوة في توحيد إسبانيا كلها بصورتها الراهنة بعد أن اتحد عرشاً مملكتي قشتالة وأرغون بالزواج المعقود بين إيزابيل وفرناندو . وبعد أن تم الاستيلاء على مملكة غرناطة .

ولا تمضي على ذلك سنوات حتى يتسع نطاق السياسة الأوربية الإسبانية منذ أن يلي عرش إسبانيا حفيد الملكين الكاثوليكين كارلوس الأول (المعروف باسم شارلكان أو شارل الخامس) في سنة ١٥١٧ . وفي عهد هذا الملك وصلت الإمبراطورية الإسبانية إلى حد بعيد من الاتساع ، إذ كان ثمره زواج ابنة الملكين الكاثوليكين بالأمير النمساوي الأرشيدوق فيليب

الذهبي « ينبغي ألا نخدعنا ، فان هذه العظمة التي أتاحت لإسبانيا كانت تحمل في طياتها عناصر الانحلال ، وهكذا لم يكد القرن السابع عشر يستهل حتى كانت إسبانيا في تراجع وتخلف مطرد لم يزل يشتد طوال القرنين التاليين ، ولعل ذلك العصر الذي هو موضوع حديثنا لم يكن « ذهبياً » حقيقة إلا في الفنون والأدب : هو عصر ثيرفانتيس أكبر روائى عرفته إسبانيا . وعصر لوبي دي فيجا وكالديرون Calderon وتيرسو دي مولينا Tirso de Molina عباقرة المسرح . وعصر بروجيتي Berruguete وجريجوريو فرنانديث Gregorio Fernandez مثالي إسبانيا الشهيرين ، وعصر خوسيه دي ريبيرا José de Ribera وموريليو Murillo وثورباران Zurbaran وفيلانكث Velazquez أمراء فن التصوير .

وقد كانت بداية هذه النهضة الإسبانية الهائلة التي كان لها في أول الأمر ظاهر سياسي وعسكري يوحى بالقوة وإن كان ينطوي على مبادئ الانحلال هي استيلاء الملكين الكاثوليكين فرناندو وإيزابيل على غرناطة آخر معاقل الإسلام في الأندلس في سنة ١٤٩٢ . وهكذا اختتم آخر فصل من فصول التاريخ الإسلامي في هذه البلاد بعد صراع طويل استمر خلال نحو ثمانية قرون وبعد أن قدم العرب والمسلمون لإسبانيا ولأوروبا عن طريق الأندلس خلاصة تجربة حضارية تركت على أرض شبه الجزيرة آثاراً عميقة لم تندثر معالمها حتى الآن غير أن هذا الاحتكاك الديني الطويل بين الإسلام والمسيحية على أرض إسبانيا أوهم ساسة هذه البلاد وقادة الكنيسة فيها بأن عظمة إسبانيا لن تبدأ إلا من حيث تنتهي سيادة المسلمين في البلاد ، وعلى ضوء هذا الاعتقاد ينبغي أن نفهم تاريخ إسبانيا الحديث ، فقد كان القضاء على غرناطة الإسلامية موحياً بآتمام الوحدة الدينية وبانتهاء تلك الحرب الطويلة التي دارت على أرض الأندلس قروناً طويلة . ومن هنا كانت سنة

وكانت العصية الدينية هي التي حملت ملوك إسبانيا على اتخاذ هذا الإجراء ، ولكنهم لم يفتنوا إلى مدى ما قدر أن يصيب إسبانيا من جراء طرد هذه المجموعات الكبيرة من سكان البلاد ، ويقدر المؤرخون عدد هؤلاء بأكثر من نصف مليون ، ولا شك في أن هذا العدد أقل بكثير من الحقيقي ، وقد أدى هذا إلى حرمان إسبانيا من عنصر كان من أكثر عناصر أهلها نشاطاً وخبرة . إذ كان هؤلاء المسلمون هم الذين يضطلعون بوجوه النشاط الحيوي من زراعة وتجارة وصناعة . ولهذا فأننا لا نلبث أن نرى أوضاع إسبانيا الاقتصادية تتدهور تدهوراً سريعاً . ورافق ذلك سلسلة من الكوارث السياسية والعسكرية تعاقبت خلال حكم فيليب الثالث (١٥٩٨ - ١٦٢١) وفيليب الرابع (١٦٢١ - ١٦٦٥) وكارلوس الثاني (١٦٦٥ - ١٧٠٠) ، نذكر منها الحروب المستمرة مع فرنسا وإنجلترا ، واستقلال هولندا وانفصال البرتغال بدورها (سنة ١٦٦٥) . ولا ينتهي القرن السابع عشر ويبدأ في إسبانيا حكم أسرة البوربون حتى تكون إسبانيا قد فقدت مكانتها باعتبارها الدولة الأوربية الأولى ، وتصبح فرنسا هي وريثها في هذا الميدان .

حاولنا في الصفحات السابقة أن نوضح الخطوط العامة للعصر الذي عاش فيه لوني دي فيجا . إذ أن أديب إسبانيا المسرحي الأول لم يكن بمعزل عن أحداث هذا العصر ، بل شارك فيه وصوره وكان مسرحه تعبيراً صادقاً له ، وإن كانت أمثال هذه العبقرية الحارقة للطبيعة لا يسهل إخضاعها لمقتضيات الأحوال السياسية والاجتماعية أو قياسها بهذا المقياس الضيق المحدود .

المسرح الإسباني قبل لوبي دي فيجا

يمكن أن نقول إنه لم يكن هناك مسرح بمعنى الكلمة في إسبانيا قبل لوبي دي فيجا ، وإنما كانت هناك

المعروف بلقب الجميل ، وهكذا ورث عن أبويه ملك إسبانيا ومستعمراتها الجديدة في أمريكا بالإضافة إلى عرش النمسا والإمبراطورية الألمانية والبلاد الواطئة وممتلكات أسرة بورجونى وجنوب إيطاليا وصقلية وسردانية .

واستمر حكم كارلوس الأول حتى سنة ١٥٥٦ ، وزادت الإمبراطورية الإسبانية في عهده اتساعاً بعد فتح المكسيك (١٥١٩ - ١٥٢١) وبيرو وشيلي (١٥٣١ - ١٥٤١) والاستيلاء على تونس (١٥٣٥) ، وبعد أن هزمت الجيوش الإسبانية ملك فرنسا فرانسوا الأول في معركة بافيا (١٥٢٥) . وهكذا نرى أن إسبانيا لم تلبث أن صارت صاحبة الكلمة الأولى في أوربا .

وظل الأمر كذلك خلال الشطر الأكبر من حكم خلف كارلوس الأول وابنه فيليب الثاني (١٥٥٦ - ١٥٩٨) ، وكان من أبرز ما تم في عصره القضاء على ثورة الموريسكيين من بقية المسلمين في جبال غرناطة بين سنتي ١٥٦٨ و ١٥٧٠ ثم الانتصار على الأسطول العثماني في موقعة ليبانتو Lepanto البحرية في سنة ١٥٧٠ ، وأخيراً ضم البرتغال وممتلكاتها في أمريكا (البرازيل) وأفريقيا إلى التاج الإسباني (١٥٨٠) . فضلاً عن فرض سيطرة إسبانيا على جزر الفيلين (١٥٨١) وغيرها من جزر المحيط الهادى . وهكذا نرى الإمبراطورية الإسبانية تبلغ أوج اتساعها وقوتها ، وتصبح أعظم قوة سياسية في القارة الأوربية . غير أن إسبانيا لم تنعم بذلك طويلاً ، إذ كان من المفارقات أن عصر فيليب الثاني نفسه هو الذى بدأ فيه انحلال إسبانيا ولا سيما منذ أن استطاعت بريطانيا تحطيم الأسطول الإسباني المشهور المعروف باسم «الأسطول القاهر» La Armada Invencible (الأرمادا) في سنة ١٥٨٨ ، وبهذا تبدأ قوة إسبانيا العسكرية في الاضمحلال ويستمر ذلك طوال القرن السابع عشر ، وبصورة خاصة حينما يبدأ طرد المسلمين الموريسكيين في سنة ١٦٠٩ ،

وهي تتألف من واحد وعشرين فصلاً ، وكان ذلك مما جعلها غير صالحة لأن تمثل على خشبة المسرح بصورتها الراهنة ، ولكنها مع ذلك تعد خطوة طيبة في السبيل التي سلكها المسرح الإسباني حتى بلوغه مرحلة النضج .

ومن يستحقون الذكر من بين هذا الرعيل الأول من المؤلفين الإسبان الإشبيلي لوبي دي رويدا Lope de Rueda الذي ولد في أوائل القرن السادس عشر وتوفي سنة ١٥٦٥ ، وكان صاحب فرقة مسرحية يجوب بها مدن إسبانيا ، وقد أثنى ثيرفانتيس على مسرحه ثناء عظيماً ، وكان متأثراً في فنه بما كانت تقدمه الفرق المسرحية الإيطالية التي كانت تضطرب في جنبات إسبانيا في ذلك الوقت . والمؤلف الثاني الذي يعتبر مبدئياً بلوبي دي فيجا هو خوان دي لاكويفا Juan de la Cueva (١٥٥٠ - ١٦١٠) وكان على عكس سابقه يعمل على تجنب الموضوعات الهزلية والشعبية ويحاول أن يخلق مسرحاً أكثر جدأً وقيمة أدبية ، إذ كان يستلهم تمثيلاته من المسرح الإغريقي ومن التاريخ الوسيط والمعاصر ، ولعل أهم ما برز فيه هذا المؤلف هو ما استوحى مادته من المدونات التاريخية والأشعار الملحمية المرتبطة بتاريخ إسبانيا والتي كانت تتناقل شفاهاً جيلاً بعد جيل^(١) .

لوبي دي فيجا : حياته

إذا كان مؤرخو الأدب الإسباني قد وفقوا في السنوات الأخيرة إلى معرفة الكثير عن هذا الشاعر العبقرى خالق المسرح الإسباني فان في حياته وجوانب شخصيته أركاناً ما زالت تستحق مزيداً من الدراسة والتحليل . فالواقع أن لوبي دي فيجا يعتبر « حالة

محاولات يتفاوت نصيبها من التوفيق . وأول ما نعرفه من صور الأدب المسرحي في القرن الخامس عشر هو بعض التمثيلات ذات الطابع الديني أو اللاهوتي كل منها من فصل واحد ، وكانت هذه التمثيلات تعالج ما من شأنه أن يلهب الروح الدينية في ذلك العصر الذي كان الصراع فيه بين الإسلام والمسيحية يوشك على أن يتقرر مصيره الحاسم . فكانت الموضوعات التي يطرقها المؤلفون - وأغلبهم من رجال الكنيسة - تتناول السيد المسيح وحياته وآلامه وعن حيوات القديسين والقديسات ومواضيع اللاهوت التي تجسد فيها المعاني الروحية والقيم العقيدية والأسرار الصوفية ، فنحن نجد من شخصيات هذا المسرح اللاهوتي : الأبد والحب والفضيلة والشرف والخطيئة والإرادة والشر والشيطان والموت .

ولعل أول من أخرج المسرح من رحاب الكنيسة إلى الشارع هو الراهب الشاعر الموسيقي خوان دي لا إنثينا Juan de la Encina (١٤٦٨ - ١٥٢٩) وكان أديباً موسيقياً يعمل في بطانة أحد النبلاء الإسبانين ثم انخرط في سلك الرهبنة فكان راعياً لكنيسة مالقة ، ثم ارتقى في السلك الكنسي حتى أصبح أسقفاً لمدينة ليون ، ولم تمنعه ثقافته الدينية من معالجة الشعر الغنائي والمسرح الشعبي ، وإن كانت مسرحياته بسيطة في الشخصيات والحوار ، وعلى كل حال فهو يعتبر أول من ألف تمثيليات ذات موضوعات شعبية عادية بعد أن كان المسرح الإسباني البدائي مرتبطاً بالدين والكنيسة ، وهذا هو ما جعل مؤرخي الأدب الإسباني يطلقون عليه لقب « أبا المسرح الإسباني » .

ومن المسرحيات التي ترجع كذلك إلى ذلك العصر تمثيلية « لاثلستينا » I.a celestina (القوادة) التي تنسب إلى طالب كان يدرس في جامعة سلمنقة هو فرناندو دي روخاس Fernando de Rojas ، وقد كتبت هذه المسرحية في سنة ١٤٩٧ ، ويبدو عليها الطابع البدائي ، إذ هي أشبه بقصة طويلة أكثرها حوار ،

(١) انظر دراستنا عن « المسرح الإسباني في القرن السابع

عشر » - في « المجلة » ، العدد ١٦ ، أبريل سنة ١٩٥٨ ص ٤١-٥١

به وتمكنت من استنقاذه من بين ذراعى خيلته . كذلك نعرف من حياة والد لوبي دى فيجا أنه كان على كثرة مغامراته الغرامية وولوعه بالنساء كثيراً ما تنابه نزعات متدينة صوفية يحاول فيها التكفير عن خطاياها فيعود المرضى ويكثر من التصدق ويسلك حياة التبتل والزهد ؛ ونحن نعرف من بين أفراد أسرة لوبي عمه ميغيل دل كاربيو Miguel del Carpio الذى كان أحد قضاة محكمة التحقيق La Inquisicion ويذكر عنه أنه كان من أكثر هؤلاء تعصباً وصرامة وقسوة ، حتى إنه كان مضرب المثل فى ذلك .

وإذا كان حقاً ما يذكر من قوانين الوراثة فإننا نجد فى أسرة لوبي دى فيجا التى انحدر منها كثيراً من الخصائص التى ميزت حياته . فنحن نرى فى أصله المتواضع الفقير ما يفسر لنا نزوعه إلى الشعبية وكرهيته للنبلاء وللطبقات الممتازة المتعجرفة ، ونرى فى حياة أبيه من التذبذب بين اللهو والولوع بالنساء وحياة الزهد والعبادة ما سراه بعد ذلك لدى لوبي دى فيجا نفسه من ذلك فى صورة أجلي وأكثر تناقضاً ، وأخيراً نجد عنده ما نلاحظه عند عمه من العصبية الدينية والبعد عن التسامح .

ولسنا نعرف الكثير عن طفولة لوبي دى فيجا ، غير أننا نعلم أنه أخذ العلم فى صباه فى أحد معاهد اليسوعيين ، وأنه وهو لم يتجاوز الثانية عشرة من عمره هرب مع صبي صديق له إلى شقوبية Segovia لسبب لا نعرفه ، غير أن ذلك يدل على ما كانت تتميز به شخصية لوبي منذ صغره من نزعة إلى التمرد والانطلاق . كذلك نعرف من أخباره فى صباه المبكر أنه قام فى هذه السنوات المبكرة بترجمة قصيدة الشاعر كلاوديانو عن « اختطاف بروسرينا » De raptu Proserpinae من اللاتينية إلى الإسبانية ، وكانت هذه الترجمة الشعرية باكورة إنتاجه الأدبى .

نفسية « كثيرة التعقيد متشابكة الأطراف شأنه فى ذلك كشأن الكثيرين من عباقرة الفكر والفن والأدب ، وقد كان نشر مجموعة كبيرة من « رسائل » لوبي الخاصة فى السنوات الأخيرة مما أعان على فهم كثير من هذه النواحي الغامضة من شخصيته ونفسيته^(١) ، كما أننا نجد فى ثنايا مؤلفاته الغنائية والقصصية والمسرحية إشارات كثيرة إلى نفسه وإلى تفاصيل حياته ، ولو جمعت كل تلك التفاصيل ودرست دراسة علمية فاحصة بالإضافة إلى رسائله ومكاتباته فانه من الممكن أن يكون كل ذلك أساساً لبحث مستفيض تحلل فيه نفسية هذا الأديب العبقري ويصلح مدخلاً إلى دراسة فنه .

ولد لوبي فيلكس دى فيجا إى كاربيو Lope Felix de Vega Carpio فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٥٦٢ فى مدريد من أبوين أصلهما من قرية قريبة من مدينة سانتا ندير Santander (فى شمال إسبانيا على البحر الكنتبرى) . وكان من أسرة متواضعة معجورة تنتمى إلى عامة الشعب فى ذلك العصر الذى كان التباين الطبقي فيه من أسس الحياة الاجتماعية . وكان والد لوبي حاكماً فقيراً لم يكن لديه من سعة المال ما يعلم به أبناءه ، ويذكر لوبي دى فيجا نفسه أن أخته إيزابيل كانت أمية لا تعرف حتى مجرد التوقيع باسمها .

ويشير لوبي فى بعض ما كتبه إلى حياة والده التى كانت مزيجاً من المغامرات العاطفية العنيفة والتدين العميق . فقد هرب من بلده سانتا ندير إلى مدريد بعد أن أغوى إحدى النساء واختطفها على ما يبدو ، غير أن زوجته أم لوبي : فرانسيسكا فرنانديث فلورس Francisca Fernandez Flores لم تلبث أن لحقت

(١) مثل المجموعة التى نشرها جونزالث دى أميشوا ومهد لها بدراسة قيمة بعنوان : « لوبي دى فيجا من خلال رسائله » - فى أربعة أجزاء

A. Gonzalez de Amezua : Lope de Vega en sus cartas, Madrid, 1935-43.

ولم يلبث لوئى أن التحق بخدمة أسقف مدينة أبله . ثم التحق بجامعة ألكالا دى إينارس Alcalá de Henares (وهى بلدة قريبة من مدريد كانت تدعى فى أيام المسلمين قلعة عبد السلام) . وذلك فى سنة ١٥٧٦ على وجه التقريب . ثم استكمل دراسته فى جامعة سلمنقة Salamanca بين سنتى ١٥٨٠ و ١٥٨١ .

ولم يكد لوئى يجاوز سن البلوغ حتى بدت ميوله إلى النساء . وبدأ فى خوض مغامرات غرامية لم تنته إلا قبل موته بقليل . فنحن نعرف أنه وهو فى السابعة عشرة من عمره قد عشق امرأة متزوجة هى إيلينا أوسوريو Elena Osorio زوجة أحد الممثلين . واستمرت صلته بهذه المرأة نحو خمس سنوات ، وسجل لنا قصة غرامه هذه فى إحدى رواياته هى التى تحمل عنوان « لادوروتيا » La Dorotea .

غير أن المرأة اللعوب انصرفت عن لوئى وآثرت عليه رجلاً آخر من أسرة نبيلة مما حمل لوئى على هجائها هى وأسرته فى أبيات عنيفة جارحة . وكان من آثار ذلك أن لوئى قدم للمحاكمة بتهمة القذف . وحكم عليه فى ٧ فبراير ١٥٨٨ بالنفى من مدريد مدة ثمانية أعوام .

وفى ١٠ مايو ١٥٨٨ تزوج لوئى من إيزابيل دى أورينا Isabel de Urbina التى كان قد اختطفها من قبل فى ٨ فبراير بعد خروجه من السجن . وكانت إيزابيل هذه ابنة أحد المثالين المشهورين وأخت حاكم مدريد . غير أنه لم يبق مع زوجته إلا أياماً قليلة ، فقد عادت النزعة إلى المغامرة تلح على لوئى من جديد ، فاذا به يتطوع فى الأسطول البحرى الأسباني المعروف باسم « الأرمادا » . ويذكرنا هذا بانخراط ميغيل دى ثيرفانتيس أديب إسبانيا الأكبر وصاحب رواية « دون كيخوتى » فى سلك الأسطول أيضاً واشترآكه فى موقعة ليبانتو البحرية ضد الأتراك . وأبحر لوئى دى فينجا من ميناء لشبونة فى ٢٩ مايو على ظهر المركب

« سان خوان » تاركاً زوجته فى أشد حالات الحزن والقلق . غير أن مغامرة لوئى الحربية انتهت على نحو محزن يشبه ما انتهت به مغامرة مؤلف « دون كيخوتى » الخالد . وإذا كان هذا قد وقع فى الأسر فلننا نعرف أن « الأسطول القاهر » قد تحطم كله على أيدي البريطانيين فى سنة ١٥٨٨ ، وكانت تلك الكارثة مؤذنة بأفول الشمس عن الإمبراطورية الإسبانية التى لم تكن الشمس تغيب عنها . وعاد لوئى دى فينجا مثل آلاف غيره من الإسبان وقد استبد بهم القنوط واليأس .

واستقر المقام بأديبنا المغامر بعد عودته فى بلنسية إذ كان قرار نفيه من مدريد ما زال قائماً ، وهناك قضى أياماً هادئة فى دفاء منزله ومع زوجته وأبنائه . وانقطع لوئى فى تلك الفترة إلى الكتابة ، إذ لم يكن لديه وسيلة أخرى لكسب العيش إلا حرفة الأدب : وهو يشير فى مسرحياته التى ألفها حينئذ إلى نفيه وبعده عن مدريد ثم التحق بخدمة الدوق أنتونيو ألفاريث دى توليدو Antonio Alvarez de Toledo فاشتغل كاتباً له . ورافقه فى رحلاته إلى طليطلة (١٥٩٠) ثم إلى ألبا دى تورميس Alba de Tormes . وفى هذه البلدة توفيت زوجته إيزابيل سنة ١٥٩٥ ، فبكاها فى قصائد مؤثرة أشار فيها إلى وفاته لها وحبه إياها ، ثم لم تلبث بنتاه منها أنتونيا Antonia وتيودورا Teodora أن لحقتا بأمهما بعد قليل .

ومع ذلك فإن إخلاصه لذكرى زوجته المتوفاة لم يدم طويلاً . إذ نعرف أنه تعرض للمحاكمة بتهمة علاقات غير شرعية بامرأة متزوجة هى أنتونيا تريليو دى آرمنتا Antonia Trillo de Armenta (سنة ١٥٩٦) ، ولم يكتف بذلك ، بل إلى هذه الفترة ترجع أيضاً صلته بممثلة جميلة متزوجة هى كاميليا لوئيندا Camila Lucinda وكانت زوجة ممثل مغموور رحل إلى بعض المستعمرات الإسبانية فى أمريكا وكان قد أحب هذه المرأة حباً عنيفاً مضطراً ، وعاشت

معه في طليطلة ثم في إشبيلية حيث استقر بعد ذلك ، وأنجب منها سبعة أبناء .

وفي سنة ١٥٩٨ تزوج لوبي دي فيجا من جديد . وكانت امرأته هذه المرة خوانا جواردو Juana Guardo ابنة تاجر غني كان متعهداً بتوريد اللحم والسمك إلى القصر الملكي . وسخر أعداء لوبي من هذا الزواج وتندرؤا به . إذ اعتبروه صفقة رابحة لم يسع فيها إلا من أجل ثروة زوجته . وعاش لوبي مع زوجته في طليطلة ثم انتقل إلى مدريد حيث استقر بها منذ سنة ١٦١٠ . وإن كان بين وقت وآخر يعود إلى طليطلة وأشبيلية حيث يعيش فترات مع خليلته الممثلة كاميللا لوئيندا .

وفي سنة ١٦١٣ توفيت زوجته الثانية خوانا جواردو . فعادت حياته إلى الاضطراب من جديد . فانتقل فترة إلى طليطلة حيث عاود مغامراته الغرامية بينما كان يفكر في الانخراط في سلك الرهبنة . وهو ما حدث فعلاً في سنة ١٦١٤ حين غير لوبي منهاج حياته أو هكذا كان يبدو . إذ أصبح قسيساً منقطعاً إلى حياة التبتل والرهبنة . والواقع أن لوبي كان مخلصاً في رغبته هذه ، إذ كان يشعر بثقل خطاياها وكان يسعى إلى التحرر منها والانتقطاع إلى حياة أخرى ينعم فيها بسكينة الروح .

غير أن لوبي كان ضعيفاً أمام نفسه الهوائية المتقلبة وعواطفه العنيفة المضطربة . إذ لم يلبث وهو بأخرة من عمره أن وقع في غرام جديد. فقد عشق امرأة أخرى هي مارتا دي نيفارس Marta de Nevars وكانت مثل النساء السابقات في حياته متزوجة . وأحب لوبي هذه المرأة بكل جوارحه . وهو يصورها لنا تصويراً نرى منه كيف كان يعتبرها جعاع كل ما في المرأة من جمال وفضيلة . وعاش لوبي مع مارتا السنوات الأخيرة من حياته . وأنجب منها بنتاً هي أنتونيا كلارا Antonia Clara . غير أن القدر يعود فيلاحقه بأرزائه . فتصاب مارتا بالجنون ثم تفقد البصر . وتموت بعد ذلك في سنة ١٦٣٢ وهي تناهز الأربعين سنة . وكان الله أراد

أن ينتقم من لوبي وهو على شفا قبره لمن أغوى من نساء . فيفجعه بابنته الحبيبة إلى قلبه أنتونيا كلارا . إذ يقبض لها فتى كان يخدم في البلاط الملكي يدعى كريستوبال تينوريو Cristobal Tenorio . فلا يزال يغويها حتى يحملها على الهرب معه .

ويقضى لوبي سنواته الأخيرة في داره في مدريد وحيداً لا مؤنس له . منقطعاً إلى كتبه وإلى حديثه الصغيرة وإلى صلواته التي أراد أن يكفر بها عن حياة قلقه لم يستروح خلالها نفحات السكينة .

ويبدو أن النكبات المتوالية التي حلت بلوبي في تلك السنوات هي التي عجبت بوفاته . فقضى نحبه في ٢٧ أغسطس سنة ١٦٣٥ . وتنكر القدر للأديب العظيم حتى بعد موته . إذ أن الدوق دي سيسا الذي كان لوبي يعمل كاتباً له كان من الجحود والقسوة بحيث أتى أن يتولى نفقات الجنازة ودفن رفات لوبي بعد أن كان قد وعد بذلك . مما أدى إلى دفن جسده في إحدى المقابر العامة حيث اختلطت برفات الكثيرين . وهكذا لم يعد أحد يعرف الآن مستقراً للموضع الذي دفن فيه أديب إسبانيا الخالد .

وقد تقلب لوبي دي فيجا خلال حياته في وظائف الكتابة الخاصة لبعض النبلاء كان أولهم الدوق دي ألبا Duque de Alba (سنة ١٥٩٠) والكونت دي ليوس Conde de Lemos (١٥٩٨) . غير أن أهم شخصيات النبلاء الذين اتصل لوبي بهم هو الدوق دي سيسا Duque de Sessa . وكان لوبي يوليه حبه ويخلص في خدمته إخلاصاً أشبه بالتذلل المقيت ، ومع ذلك فقد كان الدوق دي سيسا هو الذي تنكر لذكرى صديقه بعد موته فأبى أن يتكفل بنفقات دفنه وجنازته . على أنه كان يوده ويقربه في حياته . وكان من مظاهر ذلك أنه منحه ضيعتين في قرطبة وفي أبلة كانتا تدران على الشاعر الأديب ما يقوم بأود حاجته .

مسرح لوبي دى فيجا

ربما لم يعرف تاريخ الأدب الأسباني ، بل الأدب العالمي كله أديباً له خصوبة لوبي دى فيجا ووفرة إنتاجه وكثرة الآثار الجيدة من هذا الإنتاج . وقد كان لوبي نائراً شاعراً وإن كان الشعر أغلب على إنتاجه ، وتضيق هذه الصفحات عن تعداد عناوين مؤلفاته التي تناولت كل الألوان الأدبية المعروفة في عصره ، فقد عالج الرواية الطويلة والقصة القصيرة وكتب في التاريخ والزهد ، أما الشعر فافتنا نراه كذلك قد استخدمه في الأدب الملحمي والقصصي والديني والغنائي ، وربما كان لوبي هو أبرز الشعراء الغنائيين في العصر الذهبي على الإطلاق . ولا يقاربه في ذلك أحد من معاصريه .

أما آثاره المسرحية فافتنا لا نعرف كاتباً في العصور القديمة ولا الحديثة له مثل هذا العدد من المسرحيات . ويقدر مونتالبان الذي ترجم حياة لوبي عددا ما كتبه من مسرحيات بألف وثمانمائة ، وبنص لوبي نفسه على أنه كثيراً ما كان يكتب المسرحية الواحدة في أربع وعشرين ساعة . صحيح أن هذه المسرحيات ليست في مستوى واحد من الجودة ، ومع ذلك فانه ليس من بينها ما يمكن أن يعتبر رديئاً ، بل إن كثيراً منها تعتبر من أجمل نماذج المسرح العالمي .

وقد عالج مسرح لوبي كل ما يمكن أن يسعه التفكير من موضوعات : ففيه المسرحيات الدينية التي كانت تتألف كل منها من فصل واحد وتدور حول المسيح وآلامه أو الأسرار اللاهوتية والميتافيزيقية ، والمحاورات الفلسفية ، وتدخل في هذا الباب مسرحيات مستوحاة من التوراة بعهديها القديم والجديد ، ومن حيوات القديسين والقديسات أو الأساطير الدينية . ومن مسرحياته ما هو مستمد من الميثولوجيا الإغريقية القديمة ، ثم نجد جانباً كبيراً من أعماله يدور حول موضوعات تاريخية ، ولا يكاد يند عن مسرح لوبي

التاريخي عصر من العصور ، إذ نجد فيه ما كتب عن العصر الروماني وعن التاريخ القديم سواء في إسبانيا أو في بلاد أخرى ، وأما العصور الوسطى فللوبي عشرات من المسرحيات تتبع فيها تاريخ إسبانيا منذالعصر القوطي حتى أيامه ، وصور فيها حياة إسبانيا بمختلف ممالكها المسيحية والإسلامية على السواء .

ولم يخل مسرح لوبي من آثار ترك فيها الحقيقة إلى الخيال والتاريخ إلى الأسطورة ، وجنح به خياله الحصب إلى الخوض في كل موضوع . نجد منها ما عالج به القصص المتداولة بين الرعاة ، وقصص الفروسية ، ومسرحيات استلهم فيها الأدب القصصي السائد في إسبانيا خلال العصور الوسطى ، منها ما هو مأخوذ من مجموعات عربية مثل « ألف ليلة وليلة » ومنها ما هو مستوحى من القصص الإيطالية التي كان لها ذبوعها في إسبانيا بحكم خضوع إيطاليا في ذلك الوقت للإمبراطورية الإسبانية ، وأهم هذه القصص هي التي كتبها بوكاتشو Boccaccio وبنانديلو Bandello وجيرالدى تشنتيو Giraldi Cinthio ، هذا فضلا عن القصص الإسبانية الأصلية .

وهناك جزء كبير من مسرح لوبي يمكن أن نطلق عليه المسرح الاجتماعي وهو يصور لنا المجتمع الإسباني في ذلك الوقت تصويراً رائعاً ، وهو في ذلك لا يكاد يعزب عنه شيء ، نجد فيه حياة الملوك والنبلاء في قصورهم والمزارعين في حقولهم وقطاع الطرق والعجر والطبقات الوسطى ورجال الكنيسة .

كل شيء كان يستطيع قلم لوبي السحري أن يحوله إلى مسرح ، وكل شخصية تخطر على البال مهما كبرت أو صغرت كانت صالحة لكي تحتل مكانها من أدبه . وإن القارئ لمسرح لوبي ليعجب لهذا العدد الهائل من الشخصيات التي رسمها في براعة ودقة لكل أنواع النماذج البشرية أو الخيالية : الآلهة الوثنيين والأبطال الأسطوريين والأنبياء والقديسين والرموز والأشباح ،

والمملوك ، والنبلاء ، والجنود والبحارة والطباة والمتسولين
وأهل الشطارة ، واللصوص وقطاع الطرق والأميرات
وسيدات المجتمع الراقى والحاديات والقواديات ،
والعاهرات .

وأهم ما يميز مسرح لوبي دى فيجا هو الطابع
الشعبي الغالب عليه ، فهو مسرح « جماهيري » بمعنى
الكلمة ، غير أنه ينبغي ألا نفهم من ذلك أنه مسرح
يهدف إلى إرضاء الجمهور على حساب الفن ، بل هو
موجه لإرضاء الجميع ، يجد فيه ذوو الثقافة الراضية
والذوق الناضج ما يشبع فضولهم ، ويغلب ألباب
الجمهور العادى بما فيه من حركة وإثارة . هو من هذه
الناحية مثل مسرح شيكسبير ، ووجه العبقرية فى هذين
المؤلفين أنهما عرفا كيف يقدمان أدباً يأخذ منه القارئ
أو المتفرج ما يرضيه مهما كانت ثقافته ومستواه . وإن
كان هناك فرق واضح بينهما هو أن شيكسبير كان يهتم
بالنوازع النفسية وهى قدر مشترك بين الناس جميعاً ،
بينما كان مسرح لوبي وطنياً إسبانياً قبل كل شىء ، وهذا
هو ما جعل لشيكسبير عالمية أوسع وأبعد مدى مما كان
لهذا الأديب الإسباني الكبير .

وقد كان لوبي كما ذكرنا من أسرة متواضعة
فقيرة ، ولعل هذا هو ما جعله خير مترجم لروح الشعب
نفسه ، ونحن نرى فى كثير من أعماله تصويراً لتفكير
الطبقات الشعبية وإحساسها ولا سيما فى علاقاتها بطبقة
النبلاء الإقطاعية المتعجرفة ، كذلك نجد فيه صورة
إسبانيا المسيحية المتعصبة التى كانت تعتبر نفسها حامية
للكاثوليكية مجاهدة فى سبيلها ، وإن كنا نرى مع ذلك
صوراً للمسلمين الموريسكيين تستثير الإعجاب والتقدير
وهذا وإن بدا من المفارقات أمر طبيعى منطقي ، فقد
كان الموريسكيون الإسبان الذين احتفظوا بديانتهم حتى
عصر لوبي من أهم عناصر المجتمع وأكثرها نشاطاً
وفاعلية وكان كثير من الإسبان المسيحيين يكونون لهم
مودة وعطفاً على الرغم من عصبية الكنيسة والحكومة .

أما اليهود فقد رسم لهم لوبي صورة منفردة تثير الاهتمام
وهى بدورها ليست إلا تعبيراً عن شعور الشعب
الإسباني كله نحو هذه الطائفة التى طالما تأمرت على
الأندلس الإسلامية وإسبانيا المسيحية على السواء . ومن
مظاهر هذه الروح الشعبية فى مسرح لوبي كثرة ما يرد
فيه من أغان ومقطوعات كانت مما يتردد على ألسنة
الناس على مختلف طبقاتهم . وهذا هو ما جعل لمسرحه
طابعاً غنائياً واضحاً ولا سيما حينما ينساب إلى شاعريته .
ولعل أعظم ميزة لمسرح لوبي دى فيجا هى التنوع
الذى لا يعرف الحدود ولا الخضوع لقلب معين .
وإذا كان المسرح بعد تطوره قد تحددت مذاهبه
وأصبحنا نعرف الكتاب المسرحيين ونقوم خصائصهم
سالكين إياهم فى مدارس وطوائف . فان لوبي دى فيجا
يستعصى على ذلك ، فنحن نجد فى رواياته كل
ما ستأتى لنا به المدارس المسرحية التالية لعصره حتى
اليوم : فيه الاتباعية والابتداعية وفيه العاطفية الحاملة .
والواقعية المتطرفة ، وفيه الحركة الموثبة والتفكير
الفلسفى الهادئ . . . بل إن من الغريب أن نرى لوبي
مع هذا الإنتاج الهائل الذى لا نعرفه توفر لأديب
مسرحى آخر - لم يعمد إلى نقل إحدى مسرحياته من
مسرحية أخرى كما يفعل كثير من المؤلفين عفواً أو
عمداً ، فهو لا يكرر أبداً . وكل ما كان يأتي به جديد
يختلف عما سبقت له كتابته .

وهذا هو ما جعل لوبي دى فيجا يعتبر « أمة وحده »
فالمسرح من قبله كان فى بدايته الأولى المتعثرة . وكان
من المنتظر أن يمر وقت طويل حتى يكتمل نضجه ،
ولكن لوبي كان فى تاريخ المسرح الإسباني « حالة »
استثنائية غريبة لا تستقيم مع سنن التطور أو النمو ، إذ
نرى فيه المسرح الإسباني وقد اكتمل فجأة وبغير
مقدمات ، ولسنا نبالغ إذا قلنا إن إنتاجه سواء من ناحية
الكم أو الكيف يعتبر كثيراً على عشرات من المؤلفين
معاً . وقد كان معاصرو لوبي يشعرون بذلك ، وتكفيينا

مسرحية «بيريبانيث وحاكم أوكانيا»

إذا وضعنا نصب أعيننا ذلك الإنتاج الهائل الذى خلفه لوبي دى فيجا والذى ضاع منه الكثير وإن كان ما بقى منه يملأ عشرات من المجلدات فإنه يمكن للقارئ أن يقدر مدى الصعوبة فى التعريف حتى بمختارات قليلة من آثاره المسرحية المشهورة ، إذ أنها لن تمثل إلا جانباً محدوداً من إنتاجه ، غير أنه لا حيلة لنا فى ذلك ما دام المجال لا يسمح بأكثر منه .

ولعل من أجمل مسرحيات لوبي وأصدقها تصويراً لفنه هذه التى وقع عليها اختيارنا ، وهى التى تحمل عنوان *Peribanez y el comendador de Ocaña*

وهى مسرحية مستمدة من أغنية شعبية كانت متداولة فى الأندلس فى خلال أسطورة ربما كان لها أصل تاريخى :

ويرفع الستار فى الفصل الأول على منظر احتفال بزفاف ، فترى العروسين اللذين كانا قد انتهيا تواء من عقد مراسم الزواج : بيريبانيث *Peribanez* وهو فلاح من أسرة متواضعة وإن كان ميسور الحال ، وكاسيلدا *Casilda* وهى كذلك فلاحه رائعة الجمال فيها بساطة الريفيات وشرفهن وكرم أخلاقهن . ويقدم لنا لوبي هنا لوحة فولكلورية رائعة تمثل لنا هؤلاء المزارعين البسطاء فى أفراحهم وحفلات زواجهم وما يتخللها من رقص وأغان شعبية ، وربما كانت تلك الأغنية التى يشترك فيها الموسيقيون وأهل قرية أوكانيا *Ocaña* من أجمل ما اشتمل عليه ذلك الفصل :

ليرحب بالعروسين
شهر مايو المشرق
والمروج المرحه
والعيون والأنهار
ولترفع أشجار الحور
رؤوسها المتوجة بالخضرة

فى تقدير هذا الأديب شهادة أديب إسبانيا الأكبر ثيرفانتيس الذى سماه «الأعجوبة الجامعة للعبقريات» *El Fenix de los Ingenios* و«المارد الخارق لنواميس الطبيعة» *El Monstruo de la Naturaleza* ، وما نظنه أبعد فى هذا الوصف ولا جنح إلى الإحالة .

وقد كان من الرسوم التى وضعها لوبي للمسرح الإسباني واستقرت منذ ذلك حتى اليوم تقسيمه للعمل المسرحى إلى ثلاثة فصول ، وهو تقليد لم يكن معروفاً من قبل ، ولم يتقطع فى إسبانيا إلا فترات قصيرة تأثر فيها المسرح الإسباني بالمسرح الفرنسى خلال القرن التاسع عشر^(١).

(١) هناك طبعات كثيرة مجبوعات من مسرحيات لوبي دى فيجا بعضها تم فى عصر لوبي نفسه إما باذنه أو سطواً بغير علمه ، وفى هذه الطبعات كثير من التعريف والتشويه مما كان يدخله المثلون أنفسهم على خشبة المسرح ، وهو أمر طالما شكنا منه لوبي . وهناك مسرحيات أخرى ظلت مخطوطة فى مختلف مكاتب العالم حتى وقت قريب . وفى أواخر القرن التاسع عشر بدأ المجمع اللغوى الملكى فى مدريد فى إعداد طبعة جديدة لمسرح لوبي ما بين سنتى ١٨٩٠ و ١٩١٤ ، وقد نشرت هذه المجموعة التى لم تضم إلا مسرحياته المشهورة المتداولة فى خمسة عشر مجلداً ضخماً ، وقد اشتمل معظم هذه المجلدات (من الثانى إلى الثالث عشر) على دراسات تمهيدية لعالم إسبانيا الكبير مندث بيلايو *Menendez Pelayo* ، ولما كانت هذه الطبعة كما ذكرنا غير كاملة ولا مستوفية لكل آثار لوبي المسرحية فقد شرع المجمع اللغوى بعد ذلك فى طبع مجموعة أخرى للمسرحيات التى كانت أقل نصيباً من الشهرة والتداول أو التى لم تكن قد نشرت بعد أو التى كان مشكوكاً فى نسبتها إلى لوبي ثم أثبتت الأبحاث الحديثة صحة هذه النسبة ، وقد اضطلع بهذا العمل الناقد الأدبى إميليو كوتاريانو *Emilio Cotarelo y Mori* فنشر فى هذه المجموعة ٢٥٨ مسرحية فى ثلاثة عشر مجلداً يبلغ عدد صفحات كل منها نحو ٧٠٠ من القطع الكبير وبحروف بالغة الصغر والدقة . ومع ذلك فقد تبين بعد ذلك أن هاتين المجموعتين لم تستقصيا مسرح لوبي كله ، فقام بتذييلها الباحث جونثالث دى أميثوا *Gonzalez Amezua* بمجموعة تحت عنوان «مسرحيات مخطوطة مجهولة لوبي دى فيجا» (مدريد سنة ١٩٤٥) . أما الدراسات والأبحاث حول لوبي فإنها ربما احتاجت إلى كتاب خاص لتعدادها ، ويكفى أن نشير إلى أن من أهمها ما كتبه مندث بيلايو والباحث الإسباني المعاصر إنترامباساجواس *Joaquin Entrambasaguas* الذى تخصص فى دراسة لوبي وإنتاجه الأدبى .

ولتحبيهما أشجار اللوز
بئارها الجديدة
وليشرع عليهما الفجر الضحوك
سيوفاً خضراء
قد عطرها ندى السحر
ملياً عليهما نيراً من أزهار السوسن

ونرى بعد ذلك بيريبانيث وامرأته وحدهما في
محاورة بعد ذهاب حاكم أوكانيا . وتقول المرأة المحبة
لزوجها الوفية له إن الحاكم وعد بمكافأتهما على حسن
صنيعهما ، ولكنه يشعر بالغيرة ويتملكه شعور غامض
بأن نزول الحاكم في داره فال غير طيب . ولكن الزوجة
الودود تزيل مخاوفه ، ويدور بين الاثنين بعد ذلك
حوار غزلي يتحدث فيه الاثنان عن حقوق الزوجين
والتراماتهما ، وهو حوار رقيق ربما كان من أجمل
القطع الغنائية في هذه المسرحية ، وقد عرف لوبى فيه
بمقدرته وبراعته كيف يستثير إعجاب المتفرجين
وعطفهما على هذين الزوجين المتحابين اللذين يعبران
في غير تعمل ولا افتعال عن هذه العاطفة بين رجل
وامرأة ارتبطا برباط الزواج المقدس .

وننتقل في المنظر التالي إلى قصر الحاكم حيث نسمعه
وهو يتحدث نفسه عن الفلاحة الجميلة التي استولت
على قلبه ويعبر عن حسده لذلك « الجلف » الريفى الذى
يتمتع بهذه المرأة ، ثم يستدعى إلى حضرته أحد أتباعه
« لوخان » ويبوح له الحاكم بسرره ، فهون هذا عليه
الأمر ، ويقول له إنه لن يصل إلى المرأة حتى يغمر
زوجها بفضله وعطاياه ، « فما أكثر الأزواج الذين
يغفلون عن شرفهم إزاء الإغراء بالمال والجاه » ، ونحن
نرى في هذه المحاورة القصيرة صورة لأولئك الأتباع
والخدم الذين لا هم لهم إلا إرضاء شهوات سادتهم حتى
ولو كانوا يقومون في سبيل ذلك بأدوار لا تشرف
المصطلح بها . وينصح « لوخان » سيده باهداء بيريبانيث
زوجاً من البغال ، ويذكره بمدى ضعف النساء أمام
إغراء المادة .

ونشهد في المناظر التالية حديثاً بين بيريبانيث
وكاسيلدا وهو يستعد للذهاب إلى أوكانيا ، وتذكره
زوجته بما وعد الحاكم به من مكافأتهما على صنيعهما
وتشير عليه في سداجة الريفيات بأنه لا بأس بأن يطلب

ويمضى الفلاحون في غنائهم ورقصهم ويتوالى أهل
القرية على بيريبانيث وعروسه مهنتين إياهما ، فقد كان
الرجل طيباً محبوباً من الجميع ، وبينما الكل منصرفون
إلى شأنهم إذا نجمة شديدة وأصوات استغاثة تقرب من
المحتمعين ، ثم يقدم رسول يبلغهم بما حدث : أن حاكم
قلعة أوكانيا كان في حفلة من حفلات مصارعة الثيران
قريباً من المكان الذى كان الفلاحون يحتفلون فيه بزواج
صاحبهم بيريبانيث ، وتعقب الحاكم ثوراً ضخماً ثم
شرع في الإلقاء عليه بأنشوطته ، ولكن الجبل نشب في
عق جواده ، فألقى به إلى الأرض ، وهاجمه الثور
فأصابه بجراحات شديدة . ولا تمضى لحظات حتى يأتى
الرجال وقد حملوا الحاكم وهو فاقد الوعي . وتنفض
حفلة الزفاف ويقوم بيريبانيث وامرأته في شهامة ومروءة
بالعناية بأمر الحاكم ، وتسهر كاسيلدا على تمريضه ،
غير أن الحاكم لا يكاد يتالك نفسه حتى يستطير لبه وهو
يرى جمال العروس ، فيشتبهها ، ويخاطب نفسه قائلاً :

« أليس من سوء تصرف الأقدار

أن يكون هذا الجمال من نصيب فلاح جلف ؟ »

ويشفى الحاكم من جروحه بفضل عناية بيريبانيث
وكاسيلدا ، ويشكر الزوجين على ما لقيه لديهما من
إكرام وحفاوة ويعدهما بالمكافأة الجزلة ، ثم يمضى وهو
يسر رغبة عارمة في إغواء امرأة ذلك الفلاح الذى
لا يكن له - بحكم عنجهيته وعمجرفته - إلا الاحتقار ،
إذ لا يراه يصلح حتى ليكون واحداً من أتباعه
وخدمه .

تلك الاحتفالات الدينية التي شهدها الرجل هو وأهله في طليطلة ، ونحن نرى الحديث يجرهم بعد ذلك إلى الكلام عن كنيسةهم الصغيرة وصورة القديس سان روكي التي توجد بها ، فيسوق الإيمان الساذج بعضهم إلى اقتراح تجديد تلك الصورة القديمة وتكليف أحد المصورين في طليطلة بذلك ، ويعهدون بالمهمة إلى بيربانيث ، فيقبل ويستعد للسفر .

ويوعز حاكم أوكانيا الذي أمضته الرغبة في امرأة بيربانيث إلى أحد أتباعه « لوخان » بأن يتنكر في زي أحد المزارعين ويلتحق بالزمرة التي تعمل في جمع المحصول بأرض بيربانيث حتى يهتئ لسيدته فرصة اقتحام دار الرجل في غيبة منه . ويتنزه هذه الفرصة على عادته فيرسم لنا لوحة رائعة بديعة لهؤلاء المزارعين وهم بعد انتهائهم من الحصاد مخلدون إلى أغانيهم التي تنبض بحرارة الإيمان . ونرى بعد ذلك « لوخان » تابع الحاكم وقد تجسس على بيت بيربانيث وعرف مسالكه يعوذ إلى سيده وبدله على الطريق حتى يقتحم مخدع كاسيلدا منتهزاً فرصة غياب زوجها في طليطلة . ولكن الزوجة الوفية المخلصة لا تكاد تحس به حتى تغلق بابها وترفض لقاؤه ويعود الحاكم خائباً بعد أن أحس به رفاق بيربانيث الذين يتظاهرون بالنوم على باب داره ، ويحاول الحاكم الحديث مع كاسيلدا وهي مطلة من النافذة فيصارعها بحبه لها وبرغبته في وصلها ويعدها بالمال والجاه لزوجها لو انقادت له ، وهنا يجرى لنا لوبي ذلك الحوار البديع بين المرأة الوفية لزوجها المحافظة على شرفه وذلك المتصور الذي يريد أن يشتريها بماله ، وفيه تقول كاسيلدا :

« وإذا كان الحاكم يحبني كما يقول
أكثر مما يحب روحه وحياته
وإذا كان يريد أن يشتري شرفي وعفتي
بعبارات من الغزل الكاذب

من الحاكم ما يستعين به على شأنه ، فثقل هذا السيد النبيل الذي قدما له المعروف من قبل لا يمكن أن يرده خائباً ، بل لا بد أن يكون ذا كراً لفضله ومروءته .

ونعود إلى مشهد يدور فيه الحوار بين حاكم أوكانيا وأتباعه الذين يريدون أن ييسروا له سبل الاتصال بامرأة بيربانيث ، وهو يسألهم كيف يمكن أن يهدى إلى الرجل البغليين وغيرهما من الهدايا دون أن يرتاب في الأمر ، وفيما هم في هذا الحديث إذا بخادم يعلن إلى الحاكم أن بيربانيث واقف على بابه ينتظر الإذن بالدخول . ويستطيع الحاكم فرحاً ، وهو يرى الزوج الغيور قادماً عليه دون دعوة ولا ميعاد ، ويرى في ذلك بشري خير بأن الأمر موشك على أن يستقيم له وأنه سرعان ما سيقضى مأربه . ويستقبل الحاكم بيربانيث في حفاوة بالغة ، ويهدى إليه البغليين وهدايا أخرى قيمة من أبسطة ثمينة وحلى لزوجته . ولا يرى الفلاح الساذج في هذا الكرم الذي يستقبله الحاكم إلا دليلاً على وفائه واعتراؤه بالجميل ولا يتطرق إليه الشك في نواياه .

وفي المناظر الأخيرة من هذا الفصل نرى الملك إنريكي الثالث Enrique III الذي يصوره لنا لوبي دي فيجا في صورة الملك العظيم العادل الذي يتطلع إليه الشعب في محبة وإعجاب ، وكان الملك قد أتى إلى طليطلة ليشهد احتفالاتها الدينية التي تقام في شهر أغسطس ، ونحن نرى بعد ذلك بيربانيث وزوجته مع عدد من أهل قريتهما وقد أتوا ليتفرجوا على الاحتفالات ولينظروا إلى موكب الملك . ونرى حاكم أوكانيا وقد أتى بمصور يجلسه على مقربة من بيربانيث وأصحابه ويكلف المصور بأن يرسم صورة لكاسيلدا لكي ينقلها بعد ذلك على لوحة يحتفظ بها في داره ، ويقوم المصور بمهمته . وينتهي بذلك الفصل الأول .

ويبدأ الفصل الثاني بعدة مناظر في القرية التي يسكنها بيربانيث ، فترى الفلاحين مجتمعين يتحدثون عن تلك

فأقل له إننى أكثر حباً لبريانيث
بعيائه التى حلال لونها واغبر
منى لحاكم أوكانيا ذى الجاه والثروة
بظيلسانه الموشى بخيوط الذهب »

وهذه الأبيات التى أدخلها لوبى دى فيجا فى ثنايا
هذا الحوار هى ألفاظ الأغنية الشعبية الشائعة التى استمد
منها لوبى المسرحية كلها .

ثم تهب كاسيلدا برفاق زوجها الراقدين أمام
دارها بالنهوض . ويرى الحاكم أنه سيفتضح أمره ،
فيهرب على عجل ، وقد أقسم على أن ينتقم من المرأة
الشريفة وأن يذل قيادها طوعاً أو كراهية .

ونرى بعد ذلك فى المنظر التالى بريانيث وهو فى
مرسم المصور الطليطلى الذى أراد أن يكلفه برسم
صورة جديدة لتديس القرية ، ويكون من الصدق أن
يكون هذا المصور هو نفسه الذى قام برسم صورة
كاسيلدا من أجل حاكم أوكانيا . وبينما يتأمل بريانيث
الصور المتناثرة فى المرسم إذا به يرى صورة امرأته ،
ويستبد العجب بالرجل فيسأل المصور عن شأن تلك
الصورة ، ويبوح له هذا بالسر : أن الحاكم أمره
برسمها لامرأة ريفية تيمه هواها دون أن تظن هى
لذلك . ويقع الخبر على بريانيث وقع الصاعقة وإن
كان يخفف من ألمه ما يشهد به المصور من أنها ليست
على علم بشيء . ويخاطب بريانيث نفسه مقلباً الأمر
على وجوهه : كيف يفعل مع ذلك الحاكم الذى كان
ينبغى عليه أن يدين له بالطاعة والذى قدم إليه هو الخير
 والمعروف ثم لم يكن من جزائه إلا أنه حاول الاعتداء
على شرفه ؟ والمقطوعة التى يقدمها لنا لوبى على لسان
بريانيث فى هذا المقام من أجمل ما كتب فى تصوير
الغيرة والغضب للشرف المنهك ، وفيها البيت الذى
جعله لوبى ختاماً لكل فقره :

« ما أسوأ حظ الفقير يا رب

إذا خطر له أن يتزوج بامرأة جميلة ! »

ويتفق بعد ذلك أن يوجه الملك إلى حاكم أوكانيا
رسالة يأمره فيها بتعبئة عدد من فرسان البلدة لكى
يشتركوا فى الحملة التى كان يعدها لقتال المسلمين فى
غرناطة ، وتعن للحاكم فكرة تعينه على إدراك مأربه
من المرأة التى زاده إعراضها عنه تصميها على نيلها ،
فيأمر باخراج مائتين من رجال البلدة : مائة من النبلاء ،
ومائة من المزارعين . ويعن للحاكم أن يسند قيادة كتيبة
المزارعين إلى بريانيث فيرضى بذلك كبرياءه وبعده
عن منزله فى الوقت نفسه . ويلجأ الحاكم إلى تابع آخر
من أتباعه « ليوناردو » فيأمره بأن يتعقب « إينيس » بنت
عم كاسيلدا وصديقتهما وأن يتظاهر لها بالحب وبعزمه
على الزواج منها حتى يتيسر له عن طريقها الوصول إلى
المرأة العنيدة .

وتمضى الخطة كما رسم الحاكم ، فيعاهد ليوناردو
وإينيس على الزواج ويقول لها إن الحاكم نفسه يريد أن
يخطبها لتابعه وأن يتحدث إليها فى شأن الخطبة ، وتلح
إينيس على ابنة عمها أن تستقبل الحاكم فى دارها ،
ويقدم بريانيث فى هذه اللحظة ولكنه لا يكاد يستقر
قليلاً مع امرأته حتى يأتيه رسول من قبل الحاكم
يستدعيه إلى حضرته . وبهذا ينتهى الفصل الثانى .

ونشهد فى أول مناظر الفصل الثالث كيف يقص
الحاكم على أتباعه مدى نجاحه فى تنفيذ مشروعه . فانه
لم يستدع بريانيث إلا ليعلن إليه أنه اختاره لكى يتولى
قيادة المزارعين المائة ، ويتضحك الحاكم من براءة
الفلاح المسكين الذى ظن أن فى ذلك تشریفاً له فأنفق
أكثر ما لديه من مال قليل على شراء عدة الحرب
والظهور بمظهر القيادة . ونرى بريانيث بعد ذلك على
رأس فرقته المتواضعة وهو يؤدى قسم الولاء للملك أمام
الحاكم ، ويبالغ هذا فى تمثيل الدور ، فيمنح بريانيث
لقب « فارس » ويسلم إليه سيف « الفروسية » وحينئذ

يقف الفلاح الفارس فيوصى الحاكم في آيات كلها تعريض بأن شرفه وأسرته أمانة في يديه . ويوقع كلام بيريانيث بعض الاضطراب في نفس الحاكم ولكنه لا يكاد يذكر كاسيلدا وامتناعها عليه حتى تقوى عزيمته على اغتصابها في نفس هذه الليلة بعد أن يخرج زوجها على رأس فرقته إلى دار الحرب .

ويقدم لوبي بعد ذلك مشهداً طريفاً للعرض العسكري الذي تقوم به فرقنا النبلاء والفلاحين ، ويظهر هو نفسه على المسرح تحت اسم « بيلاردو »^(١) الذي اعتاد أن يشترك به في كل المسرحيات التي ألفها باعتبارها واحداً من أهل القرية المتفرجين على الاستعراض ، فيجري مقارنة بين جيشي الفلاحين والنبلاء ، ويقول إن هؤلاء الأخيرين على جمال زيهم وحسن سلاحهم لا يرون عربياً مسلماً إلا تولاهم الذعر وأطلقوا سوقهم للريح كأنهم أرانب مذعورة تهرب من كلاب صيد ، ونحن نرى في هذا التعليق الساخر مدى ما كان يكنه لوبي من الاحتقار لهؤلاء النبلاء ومدى اعتداده وإعجاب به بأولئك المزارعين المتواضعين .

ويطمئن الحاكم إلى ذهاب بيريانيث فيستعد

لاقتحام داره والظفر بزوجه . غير أن الفلاح الغيور كان في ريبة من أمر ما يدور وراء ظهره فاذا به لا يبلغ مشارف البلدة حتى يترك فرقته ويعود في المساء متخفياً إلى القرية . ويتوجه بيريانيث إلى منزل صديق وجار له حتى يتسلل من هناك إلى بيته دون أن يحس به أحد . ويربص الرجل بعد ذلك في ركن من أركان داره منتظراً ما سيحدث . أما الحاكم فانه يتمكن عن طريق أتباعه من اقتحام البيت ، وتستيقظ كاسيلدا على أصوات غريبة في دارها ، وإذا بها ترى الحاكم يهجم عليها محاولاً اغتصابها ، فتدافع المرأة عن شرفها في بسالة واستماتة ، ويخرج بيريانيث في هذه اللحظة من مكانه ولا يتردد في قتل الحاكم بنفس السيف الذي كان قد قلده إياه في صبيحة ذلك اليوم .

ثم يحمل بيريانيث زوجته على ظهر جواده ويتوجه إلى طليطلة حيث كان معسكر الملك إنريكي الثالث . ونرى بعد ذلك مشهداً يظهر فيه الملك وزوجه وقد أتاهما رسول من أوكانيا يبلغهما أن أحد المزارعين اغتال حاكم المدينة ، فيهيج الملك ويعتبر ذلك إهانة له ويأمر بالبحث عن المزارع القاتل وزوجه . ولا يكاد النداء يتردد بذلك حتى يستأذن في الدخول إلى محضر الملك أحد المزارعين ، وإذا به بيريانيث نفسه أتى هو وزوجه ليسلما نفسيهما وليشرحا قضيتهما ، ولا يتأكد الملك من صدق الفلاح المتواضع حتى يعفو عنه ويأمر بضيعه له ولأسرته ويقلده سيف الفروسية بنفسه . وبهذا ينزل ستار الختام .

مسرحية فوتي أوبيخونا

وهذه المسرحية الثانية Fuente Ovejuna تعتبر من أشهر آثار لوبي دي فيجا وأروعها ، وإذا كانت الأولى التي عرضناها في الصفحات السابقة مستوحاة من حديث أسطوري يدور حول أغنية شعبية

(١) اعتاد لوبي دي فيجا في كثير من مسرحياته أن يقدم نفسه دائماً في دور ثانوي لا يظهر على المسرح إلا عدة لحظات تحت اسم « بيلاردو » ، وهو في هذه الأدوار يقص علينا شيئاً من تفاصيل حياته في المسرحية مما يجعل الحوار المنسوب إلى بيلاردو في مسرحه مرجعاً عظيم القيمة فيما يتصل بترجمة حياته . وهو مثلاً في هذه المسرحية يظهر نفسه فلاحاً عجوزاً يسألونه عن سنه فيقول إنه في التاسعة والستين من عمره وهو يلقي بتعليقات ساخرة لا تخلو من الفخر بكثرة ما كتب ، إذ يقول إنه لم يتعلم في مدرسة وأنه ربما لا يحسن القراءة وإن كان من الطريف أنه مع ذلك يجيد الكتابة . وولع لوبي دي فيجا بإظهار نفسه على المسرح في أدوار قصيرة عابرة يشبه ما جرى عليه الفنان الإسباني جويبا Goya من تصويره لنفسه في مكان ثانوي من الصور التي تشتمل على جموع كثيرة من الناس . ومثل هذا نراه اليوم كذلك في ميدان الفن السينمائي في الروايات التي يخرجها هيتشكوك إذ يصر هذا المخرج دائماً على أن يحتفظ لنفسه بلمحة سريعة يظهر فيها في دور ثانوي لا يستغرق إلا ثوانى معدودات .

فان « فونتي أوبيخونا » مسرحية نقلها لوبي من صفحات التاريخ .

ونحن نرى في أول مناظر الفصل الأول محاورة تجرى بين فرنان جومث دى جثمان قائد بلدة فونتي أوبيخونا (من أعمال قرطبة) ورودريجو خيرون Rodrigo Giron القائد الأعلى لجماعة قلعة رباح الدينية^(١) . وقد رسم لنا لوبي من خلال هذه المحاورة في لمحات سريعة خاطفة شخصية القائد فرنان جومث دى جثمان Fernan Gomez de Guzman ، فنحن نرى أنه فارس لا تنقصه الشجاعة ولا الجرأة ، غير أنه مغرور متكبر يحتقر عامة الشعب كما لو كانوا من طينة غير طينته ، وهو مستبد لا يراعى خلقاً ولا ضميراً في معاملة الناس . ثم يستكمل لوبي صورة القائد من خلال محاورة أخرى تجرى بين فتاتين ريفيتين من أهل قرية فونتي أوبيخونا هما باسكوالا Pascuala ولاورنثيا Laurencia ، إذ نعرف من هذه المحاورة أن فرنان جومث طالما غرر ببينات القرية مستنداً

(١) جماعة قلعة رباح Orden de Calatrava هي إحدى الجماعات الدينية العسكرية التي تأسست في إسبانيا المسيحية على غرار الطوائف التي أنشئت في أوروبا في عهد الحملات الصليبية مثل « فرسان المعبد » و « الاستبارية » وغيرهما ، وكانت هذه الجماعات رد فعل لطوائف مماثلة أسسها المسلمون الأندلسيون في إسبانيا من المرابطين المجاهدين الذين كانوا يقومون بحماية الثغور ، ولهذا كان يطلق عليهم اسم « المغاورين » أو « الثغريين » أو « أهل الرباط » . وقد ظهرت أول جماعة من هذا النوع في إسبانيا المسيحية في عهد ملك قشتالة سانتشو الثالث في سنة ١١٥٨ ، وهي المذكورة هنا في مسرحية لوبي والتي كان يطلق عليها اسم « فرسان قلعة رباح » إذ كانت تتخذ ثغر قلعة رباح Calatrava (في المنطقة الواقعة بين مملكة قشتالة والأندلس الإسلامية) مركزاً لأعمالها العسكرية . ثم أسست بعد ذلك جماعة « فرسان سانت ياقب » Orden de Santiago وقد سميت بذلك لأن الهدف من تأليفها كان حماية الحجاج المسيحيين إلى مدينة سانتياجو في شمال غرب إسبانيا ، وتأسست من بعد جماعة ثالثة هي المعروفة باسم « فرسان القنطرة » Orden de Alcántara ، وكان لفرسان هذه الجماعات نفوذ كبير في خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر كما نرى من خلال أدب العصر الذهبي .

إلى جاهه وسلطانه ، وهو لا يرى ولا يسمع بامرأة جميلة إلا حاول اغتصابها يعاونه في ذلك أتباعه وعلى رأسهم أورتونيو Ortuño وفلورس Flores وهما إمعنان لا عمل لهما إلا تملق الحاكم وكسب رضاه حتى على حساب كرامتهما ، بل إنهما لا يتورعان عن استغلال النساء له .

ثم نشهد منظراً يجمع بعض شباب القرية والفتاتين باسكوالا ولاورنثيا ، ونسمع فيه جدلاً بريئاً ساذجاً وإن كان حافلاً بتلك الحكمة التي تجرى على ألسنة القرويين في غير تعمل ولا اصطناع ثقافة حول الحب ، فبعضهم ينكر وجوده وآخرون يؤكدونه ، ونفهم من هذا الحديث أن الفتى فروندوسو Frondoso متعلق بلاورنثيا وأنه يريد الزواج منها .

ويدخل المسرح بعد ذلك فلورس تابع القائد فرنان جومث وقواده فيعلن إلى أهل القرية قرب وصول القائد بعد عودته من الحملة الظافرة التي اضطلع بها هو والقائد الأعلى لطائفة قلعة رباح ضد سكان مدينة « تيوداد ريال » Ciudad Real الثائرين . ويروى فلورس خبر الحملة في عبارات طنانة يسبغ فيها المديح على سيده ويشير إلى بسالته واقتداره على فنون الحرب ، ولا تخلو عباراته من إشارة إلى قسوة القائد عند الحديث عن افتتاحه المدينة عنوة واستباحتها لجنوده وإيقاعه الوحشى بالثائرين . ولا نلبث بعد ذلك أن نرى القائد وهو يدخل في كبرياء وقد اجتمع كبار أهل القرية لاستقباله وتهنئته ومعهم فرقة من الموسيقيين والمنشدين وهم يرفعون أصواتهم بنشيد حماسي . ويتقدم واحد من عمد القرى التابعة لفونتي أوبيخونا فيقدم للقائد باسم هؤلاء الريفيين البسطاء هدية مما جمعوه له : عربة كاملة محملة من الدجاج والخنازير واللحوم والخبز وغير ذلك . وينصرف الجمع ، ولكن القائد يأمر باستبقاء باسكوالا ولاورنثيا ويحاول أن يدخلهما إلى قلعته حتى « يربهما

الانتقام لا من الشابين المتحابين فحسب ، بل من أهل القرية جميعاً .

ويبدأ الفصل الثاني بمشهد يضم كبار رجال القرية وعلى رأسهم العمدة إستيبان Esteban والد لاورنثيا وخوان روخو وعمها وغيرهما وهم يتحدثون عن بعض شئون عملهم من الزراعة والفلاحة . ثم يدخل عليهم القائد بين تابعيه الوفيين فلورس وأورتونيو . ويتشعب الحديث بين المجتمعين ، ونسمع القائد وهو يخاطب كبار رجال القرية في تعال واحتقار . ثم بسبهم جميعاً ويقول إنهم جهلة مترمتون ، فهم يغارون على نساءهم حتى كأن الله لم يخلق الشرف إلا بينهم مع أن هناك من النساء المدنيات المتحضرات من كن يتمنين أن يصفى أمثال القائد شرف وصاله عليهن . ويغضب رجال

القرية وينصرفون فيتابعهم فرنان جومث بإساءاته وإهاناته دون أن يبالي بكبر سنهم أو مقامهم في القرية . ويحاول فلورس وأورتونيو أن يخففا حدة غضبه وينصحانه بالمداواة والرفق ولكنه يجيبهما في عجرفة : « أترام يريدون أن يسوا أنفسهم وهم السوقة العبيد بالسادة النبلاء من أمثالي ؟ » ثم يتساءل القائد عن فروندوسو فيقال له إنه ما زال في القرية ، فيبيح ويصيح :

« أيجرو على السير في أنحاء ذلك المكان

رجل حاول قتلي ؟

وهل هان قدر الرجال

حتى يتحدثى مثلى — ممن إذا شهروا سيوفهم

ارتعدت قرطبة وغرناطة فرعاً —

صبي حقير من جملة فلاحي هذا الريف

حتى إنه يوجه إلى صدرى السهم في وعيد ؟

إن هذا لنذير بقرب قيام الساعة يا فلورس ! »

ويتساءل أورتونيو كيف تركه حياً حتى تلك

اللحظة ، فيقول فرنان جومث إنه لو أراد لضرب

ما أحرز من غنائم « ولكن لاورنثيا تسأل أورتونيو : « ألا يكفي سيدك ما أهدى إليه من لحوم ؟ » فيجيب التابع في مجون وصفاقة « إنه لا يريد إلا لحمكما أنما ؟ » وتنظر إليه الفتاتان في احتقار وترفضان دخول القلعة وتصرفان إلى شأهما .

ويظهر المكان الكاثوليكيان فرناندو وإيزابيل بعد ذلك ، فزاهما في معسكرهما بأذنان بالدخول لاثنتين من كبار أهل مدينة ثبوداد ريال ، فيعرضان على الملكين ما أصابهما على أيدي القائد الأعلى للجماعة فرسان قلعة رباح والقائد فرنان جومث ، ويشكو الرجلان من الفظائع التي ألحقها بهم القائدان ويقولان إن فرنان جومث عاد إلى قلعته في فونتي أوبيخونا حيث يعامل أهلها على نفس الصورة القاسية المستبدة . ويستاء الملك لذلك ويأمر دون مانريكي Don Manrique أحد أعوانه وثقاته بأن يذهب إلى فونتي أوبيخونا ويطلب إلى القائد تقديم حساب عن أعماله .

ونرى بعد ذلك لاورنثيا وفروندوسو يتطارحان الغرام في حقل على شاطئ النهر ، ويطلب القتي الريفي إلى صاحبه أن تحدد موعداً لزوجهما . وفي هذه اللحظة يقرب القائد فرنان جومث مطارداً ظلياً كان يحاول اقتناصه في رحلة صيد . ويغضب القائد لالتقائه بالفتاة وحدها في ذلك المكان الخالي — إذ أن فروندوسو كان قد اختفى وراء بعض الأشجار — ويحاول القائد استمالة القروية الجميلة بلبين الكلام وبالوعود ويقول لها إنه لا يفهم تمنعها هذا مع أن من نساء القرية المتروجات من وهبه جبين في غير جهد . ولكن الفتاة تصده في عنف وحينئذ يستشيط غضباً ويحاول اغتصابها بالقوة . فيخرج فروندوسو وبلتقط من الأرض قوس القائد ونباله ويهدده بالقتل لو أنه اقترب من الفتاة ، وحينئذ يتركها القائد وإن كانت « الإهانة » التي لحقت من جانب الشاب الغيور قد أثارت نائوته ، فهو يقسم على

أعناق أهل القرية جميعاً في ساعة واحدة ، غير أنه يريد أن يوقع بهم انتقاماً لم يسبق له مثيل . ثم يتحدث عن لاورنثيا فيقول إن تمنعها عليه هو الذي يلهب من جذوة غرامه وإنها لو كانت مثل غيرها من النساء الطيبات السهلة الانقياد لما أولاهها عنايته .

وتظهر بعد ذلك لاورنثيا وباسكوالا ومنجو وهو فلاح كهل ، ويتحدث الجميع عن آخر جرائم القائد ، ويتمدحون بشجاعة فروندوسو الذي واجهه مدافعاً عن شرف لاورنثيا ، على أنهم يجمعون على أنه من الخير لفروندوسو أن يترك البلدة ويختفى عن الأنظار إذ أن القائد لن يتركه في سلام فقد أقسم على أن يشنقه من فرع شجرة . وفي هذه الأثناء تلحق بالمتجمعين فتاة ريفية هي خائنتنا Jacinta هاربة من مطاردة خدم القائد وجنوده ، فتهرب الفتاتان الأخريتان ولا تجد من الرجال إلا منجو الذي يتعهد لها بأن يحميها على قدر طاقته . ويظهر بعد ذلك جنود القائد فيحاول الفلاح الشيخ أن يمنعهم من اختطاف الفتاة ، ويدور الشجار بينه وبين الجنود ، ثم يأتي القائد على أصوات العراك ، فيناشده منجو أن يكف أتباعه عن المرأة الوحيدة العزلاء . ولكن الغضب يستبد بفرنان جومث فيأمر جنوده بأن يجلدوا منجو حتى يدموا ظهره . أما خائنتنا فانها تستعطف القائد ثم تنذره فيقول لها إن جزاء وقاحتها هو ألا تكون من نصيبه هو ، بل طعمة سائفة لرجالها وأتباعه .

ونرى بعد ذلك كهول القرية وبعض رجالها ونفوسهم تغلي بالثورة والتمرد وهم يروون آخر فعاليات القائد من جلد منجو والاعتداء على خائنتنا وغيرها من النساء . ثم يتغير اتجاه الحديث بعد أن يأتي فروندوسو لكي يخطب لاورنثيا إلى أبيها إستيبان . ويوافق أهل الفتاة . ولا نلبث بعد ذلك أن نرى الاحتفال بزواج الشابين وما يتخلل الحفلة من أغان وأحاديث مرحة ، غير أن الجو يكفهر فجأة باقتحام القائد وجنوده للعرس

ويأمر فرنان جومث بالقبض على فروندوسو وإيداعه السجن بتهمة إهانة « فرسان قلعة رباح » التي يمثلها القائد ، ويستشفع له كهول القرية ، ويهب أبو العروس إستيبان للدفاع عن صهره ولكن القائد يأمر جنوده بانتزاع رمح منه وبأن يوجعوه ضرباً ، وتحتج الفتاة على ما أصاب زوجها وأباها ، فيأمر بسجنها هي أيضاً تحت حراسة عشرة من الجنود .

رأينا في أواخر الفصل الثاني كيف كانت كلمات إستيبان التي واجه بها القائد فرنان جومث دى جثمان نذيراً باشتعال الثورة عليه بعد أن فاض الكأس وتقطعت حبال الصبر ، وأما الفصل الثالث فان الستار لا يكاد يرفع عن مناظره الأولى حتى نرى كبار أهل القرية وهم مجتمعون يتدبرون أمرهم ، ونرى إستيبان وقد أصبح هو محرك الثورة والحاض عليها :

« كهل قد خضبت شيبته الدموع

يسائلكم أيها الفلاحون الشرفاء :

أى مآثم عليكم أن تقيموا

على وطن ذليل ضاع شرفه ؟

وإذا كانت قد بقيت لديكم مسكة من شرف

فاذا أنتم فاعلون ولم يبق من بينكم

من لم يلحقه من هذا المتوحش عار الإهانة ؟

أجيبوني : هل فيكم أحد

لم يصب من قبله في حياته أو شرفه ؟

ألا تجتمعون فيناكى بعضكم إلى بعض ؟

فاذا لم يبق لديكم ما يمكن أن تبكوا على فقده

فما تنتظرون ؟ وإلام أنتم ساكتون ؟ »

ويتداول شيوخ القرية فيما بينهم وتنتقل أولى الصيحات منادية بالانتقام ، وفجأة تقنم عليهم المكان لاورنثيا وهي مشعثة الشعر ممزقة الملابس . ويصيح إستيبان وهو لا يكاد يتعرف عليها : « أليست هذه هي ابنتي ؟ » فتقول له :

« لا . . . لست ابتك . . . »

لأنى لو كنت كذلك لما تركت هذا الطاغية يخطفنى
دون أن تحرك يداً للانتقام !

أو تحاول استرجاعى من أيدى هؤلاء الخونة .

إننى لم أكن قد أصبحت بعد فى عصمة فروندوسو

حتى أطالبه هو باعتباره زوجى

بأن يأخذ بثأر شرفى المنهك ،

بل كنت أنت المكلف بعبء ذلك ! »

وتمضى لاورنثيا فى استنفارها لحمية رجال القرية

فتدعوهم « أشباه رجال ! . . . ضرب من البواجن ! . . .

لأنكم تسكنون على انتهاك أعراض نسايتكم ! . . . فلماذا

تتقلدون السيوف وتضطنون مظاهر الرجولة ! » وهى

تصرخ أخيراً بأنه من الخير لهذه البلدة أن يخلو منها

« أنصاف الرجال » هؤلاء وأن يهب نساؤها للدفاع عن

شرفهن ما دام رجالها على هذه الصفة من الذل والخنوع .

وتوفى صيحة لاورنثيا ثمرتها فاذا بالرجال وكان من

بينهم المتردد والخائف يجتمعون يداً واحدة على الانتقام

والثأر ، وتجمع لاورنثيا النساء فهيب بهن أيضاً أن

يثأرن لشرفهن ، ويستجيب لها النساء فيقررن أن

يتسلحن بدورهن ويهاجمن قلعة القائد .

ونرى بعد ذلك القائد فى قلعته يحيط به جنوده وهم

يقتادون فروندوسو مقيد اليدين والرجلين والقائد يأمرهم

بأن يشنقوه ويلقوه من برج القلعة حتى يكون عبرة

ومثلاً لأهل القرية . وهنا نسمع من الخارج أصوات

ضحيج ترتفع وتقرب ، ويأتى جنود القائد فى فرع

فيعلنون عليه النبأ : لقد اندلعت الثورة وأقبلت جموع

الفلاحين نساء ورجالا فافتحمت الأبواب وهى تنادى

بالموت للطاغية وأعوانه . ولا يجد القائد بداً من الهرب

ولكننا نسمع صوته من الخارج وهو يصرخ صرخة

مدوية ، إذ قطع عليه الثائرون الطريق وقتلوه هو ومن

عهد للمقاومة من أصحابه ، بينما يعمد الآخرون للفرار
بعد أن ينتم منهم أهل القرية شر انتقام .

ثم يظهر لنا الملكان فرناندو وإيزابيل وقد استأذن

عليهما فلورس ذراع القائد الأيمن وكان قد أفلت من

ثورة « فونتى أوبيخونا » بعد أن جرح ، ويأتى فلورس

لكى يشكو إلى الملكين ما فعله أهل القرية بالقائد ، وهو

يصف لنا قسوة انتقام القرويين ، فيقول إنهم مزقوا

لحمه وإن النساء تناهين ما تناثر من أعضاء جسده ،

ثم مضى الثائرون إلى داره فهبوا وأعملوا فيها التحريق

والهدم ، ثم يطلب من الملكين توقيع العقوبة على

الثائرين . ويتأثر الملك بما صوره فلورس من أمر هذه

الثورة الجائحة ، فيأمر بأن يحقق ثقافته فى الأمر ويروا

ما الذى أدى إلى الثورة وأن يعاقب الجناة .

ونرى بعد ذلك أهل القرية وهم يحملون رأس

فرنان جومث على حربة ويهتفون بحياة بلدهم وبحياة

الملك ، إذ أن ثورتهم لم تكن موجهة إلا ضد القائد

الطاغية المستبد ، دون أن تتجاوز ذلك إلى التمرد على

الملك أو حكومته ، وهم يعرفون أن الملك سديعت إليهم

بمن يحقق فى أمر مقتل القائد فيتداولون فيما يكون جوابهم

جميعاً فى التحقيق .

ويأتى القاضى المرسل من قبل الملك ونسمع التحقيق

مع عدد من أهل القرية من رجال ونساء وفتيان وأطفال

فهو يسألهم عن قتل القائد ، فاذا بجواب واحد يردده

الجميع : « فونتى أوبيخونا » ، ويستشيط القاضى غيظاً

فيأمر بتعذيبهم حتى يعترفوا ويقروا ، ولكنهم يصممون

على ذلك الجواب .

ويتكرر التحقيق ، والسؤال والجواب لا يتغيران :

— من الذى قتل القائد ؟

— فونتى أوبيخونا يا سيدى .

ويكاد صواب القاضى يطير ، فيصيح فى غضب :

— ومن هو فوتي أوبيخونا ؟

— الكل في واحد ! . . .

الروسي يحول حفلات عرض « فوتي أوبيخونا » إلى مظاهرات صاحبة تهتف بسقوط القيصر وحكومته الإقطاعية الظالمة (١) .

وليس من العسير علينا أن نجد تفسير هذه الظاهرة، فنحن نرى في مسرح لوبي ولا سيما في هذين الأثرين المسرحيين اللذين عرضناهما : « بيربانيث » و « فوتي أوبيخونا » تصويراً لأول مظاهر الصراع الاجتماعي بين الطبقات ، وهو يلح على هذه الحقيقة ، ويرسم لنا صورة قائمة للنبلاء الإقطاعيين بكل ما يتصفون به من جشع وأناية وقسوة ونزوع إلى الفوضى واستهتار بكل الشرائع السماوية أو المدنية ، ولوبي يحدد لنا الطبقات المتصارعة تحديداً واضحاً ، فنحن نرى في المسرحيتين المذكورتين ذلك التضاد الواضح بين كتلتين : عامة الشعب وسلطة الملك من ناحية والإقطاع من ناحية أخرى . ويجدر بنا أن نشير إلى أن لوبي ملكي النزعة وهو يصور السلطة الملكية على أنها الشرعية المستنيرة التي لا تتردد في الوقوف إلى جانب الشعب ، بينما نجد السادة الإقطاعيين هم العقبة الوحيدة في سبيل التقدم الاجتماعي ، ويجب ألا نعتبر ائتلاف الشعب والملك هنا من المفارقات ، فقد كان النظام الملكي هو السائد المعترف به في تلك العصور ، والواقع أن ملوك إسبانيا في تلك الفترة التي يصورها مسرح لوبي كانوا ذوي نزعة تقدمية ديمقراطية ، وكانوا في صراع دائم مع طبقة النبلاء والسادة الإقطاعيين ، وكثيراً ما كانوا يقفون إلى جوار الشعب العامل في كفاحه ضد هؤلاء الإقطاعيين الذين كانوا لا يكفون عن استغلاله ، ونهب ثرواته . هذا مع أنهم لم يبذلوا أبداً أية تضحية في سبيل قضية البلاد، حتى الصراع مع المسلمين الأندلسيين خلال القرن الخامس عشر لم يكن يتجشم مثوته إلا

ونرى القاضي بعد ذلك في محضر الملك ، وهو يقول له إنه حاول أن يعرف من هو المسئول عن مصرع القائد ، فلم يتلق منهم إلا جواباً واحداً أجمعوا عليه هو أن « فوتي أوبيخونا » قتله ، ويقول القاضي إنه لم يستطع استكشاف الحقيقة حتى بعد أن قام بتعذيب ثلاثمائة من أهل القرية ، حتى الأطفال دون العاشرة لم يكن عندهم إلا ذلك الجواب . ويستأذن القاضي في أن يدخل على الملك طائفة من أهل القرية حتى يسألهم بنفسه ، ويدخل هؤلاء فيصفون ما كانوا يلاقون على أيدي القائد وأعدائه من عنف وعبث بالأرواح ونهب للأموال وهتك للأعراض . ويقتنع الملك فيعلن عفوه عن القرية وقبوله لحجج أهلها .

وبهذا تنتهي مسرحية « فوتي أوبيخونا » التي تعتبر من أروع ما كتب لوبي دي فيجا . ولعل أجمل ما فيها هو ما تضمنته من تمثيل واقعي حتى لروح الشعب كله ، فالبلبل هنا ليس فرداً بعينه ، بل القرية كلها ، ونحن نرى أن المسرحية تنتهي دون أن نعرف من هو الذي قتل القائد فرنان جومث ، وقد تعمد لوبي أن يبرز هذا المعنى ، فلب المسرحية هو تصوير ثورة شعبية بمعنى الكلمة على حاكم إقطاعي مستهتر مستبد . ولهذا فإن « فوتي أوبيخونا » كانت من أول طلائع ما يمكن أن نسميه « الأدب الثوري » وهذا هو ما يفسر انتشارها وذيوعها ، فقد ترجمت إلى الإنجليزية والفرنسية والألمانية وغيرها من اللغات في وقت مبكر ، بل إن من الطريف أن نذكر أنها ترجمت إلى الروسية وكانت كثيراً ما تعرض في مسارح روسيا القيصرية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل العشرين ، إذ كانت تعتبر متنفساً لطبقات الشعب الفقيرة الكادحة ضد سطوة الحكام الإقطاعيين المستبدين ، وكثيراً ما كان الجمهور

(١) من حسن الحظ أن هذه المسرحية ستشر أيضاً بالعربية قريباً ، فقد اضطلع الأستاذ الدكتور حسين مؤنس بترجمتها كاملة وسيتمكن لقراء العربية أن يقرأوها في مستقبل قريب .

الفلاحون الفقراء ، ونحن نرى بهذه المناسبة كيف يسخر لوبي من هولاء النبلاء في مسرحية « بريانيث » فيقول إنهم لا يكادون يرون أندلسياً مسلماً ، بل لا يسمعون باسم فارس مسلم إلا ملاً الرعب قلوبهم فولوا عنه فراراً .

وهناك ناحية أخرى نراها تتكرر في مسرح لوبي : هي مسألة الدفاع عن العرض المنتهك والانتقام المروع من المعتدى على الشرف ، وفي المسرحيتين اللتين عرضناهما في الصفحات السابقة أروع مثل على علاج مسألة « العرض » عند لوبي ، والحل الذي يأتي به لوبي لهذه العقدة هو القتل . . . القتل الذي لا يعرف التردد أو الاحتكام لأي قانون . . . بل القتل الرهيب القاسي الذي لا بأس فيه بأشنع صور المثلة كما نرى في مسرحية « فونتي أوبيخونا » ، فالشرف لا يسلم كما قال الشاعر العربي إلا إذا أريق على جوانبه الدم . وهذا المفهوم للشرف هو الشائع في البيئة الإسبانية قديماً وحديثاً ، وهو الذي أبرزه الأدباء الإسبان منذ لوبي دي فيجا حتى غرسية لوركا ، إذ نراه كذلك في إسبانيا القرن العشرين في مسرحية « بيت برنارد ألبا »^(١) . وهنا ننبه مرة أخرى إلى تطابق هذا المفهوم لدى الإسبان ولدى العرب ، ولسنا نشك في أنه من جملة ما ورثه الشعب الإسباني عن الأندلس العربية .

مسرحية « كلب البستاني »

ونعرض أخيراً لأحد آثار لوبي المشهورة ، وهي « كلب البستاني » El perro del hortelano وهي تنتمي إلى لون مسرحي آخر يختلف عن اللونين اللذين عرضنا النموذجين السابقين لها ، فهذه المسرحية ليست مستوحاة من أسطورة شعبية مثل « بريانيث » ولا من حدث

(١) « بيت برنارد ألبا » لفيدريكو غرسية لوركا ، ترجمة د. محمود علي مكي ومراجعة الدكتور حسين مؤنس ، سلسلة روثع المسرح العالمي رقم ٢٣ ، سنة ١٩٦٢ .

تاريخي واقعي مثل « فونتي أوبيخونا » ، بل تندرج تحت ما يمكن أن ندعوه « مسرح المجتمع » ، إذ يصور فيها لوبي العادات والتقاليد المتبعة في المجتمع الإسباني المعاصر له ، تصويراً لا يخلو من النقد والسخرية .

وتدور أحداث المسرحية في نابلي بإيطاليا ، وإن كان معظم أبطالها إسبانيين ، فنحن نعرف أن نابلي وجنوب إيطاليا وصقلية كانت منذ القرن الخامس عشر تابعة للإمبراطورية الإسبانية . ويرفع الستار في الفصل الأول عن جانب من قصر إحدى سيدات المجتمع الراقى الإسباني ، وهي الكونتيسة ديانا دي بلفلور Condesa Diana de Belflor ونرى ديانا في ساعة متأخرة من الليل وهي تتعقب شيخ رجلين يهربان من قصرها ، وتزعج السيدة وتنادى خدماها وتعنفهم على إهمالهم حراسة القصر حتى إنهم يتركون رجالاً غرباء يتسللون إليه في ظلام الليل . على أننا نعرف منذ بدء الرواية شخصية هذين الرجلين اللذين اقتحما القصر ، فهما تيودورو Teodoro الكاتب الخاص للسيدة وأمين سرها وخادمه تريستان Tristan ، أما السبب في دخولها القصر خفية فهو أن تيودورو على علاقة غرامية بوصيفة السيدة مارثيلا Marcela ، وإن كان الاثنان يتستران على هذه العلاقة خوفاً من أن تطردهما السيدة من خدمتها . وتوظف ديانا جميع خدام القصر ووصيفاته وتبدأ في مساء لهم حتى تهتدى إلى حقيقة من اقتحم منزلها ، وأخيراً تكشف لها الخادمة أناردا Anarda عن سر تلك العلاقة الغرامية بين تيودورو ومارثيلا . وتغضب ديانا إلا أنها تكتم غضبها وتستوضح مارثيلا الحقيقة ، فتعترف لها الوصيفة بكل شيء وبأن تيودورو ينوي الزواج منها . وهنا يضع لوبي أيدينا على جانب من جوانب نفسية المرأة لا يكاد يستبطنه إلا أديب موهوب مثل لوبي يعرف كيف يصل إلى أعماق النفس الإنسانية فنحن نرى أن ديانا النبيلة التي تعزز بحسبها ونسبها والتي تؤمن بالفروق بين الطبقات لا تكاد تعرف بنياً ذلك

هذا الشك في أنه هو المقصود بتلك القصة المصطنعة ، ولكنه يستكثر على نفسه أن تحبه ، لا سيما وأنها حريصة على عدم البوح له بشيء ، ثم إنه تهاوت عليها كثير من النبلاء ولكنها لا توليهم عنايتها ، ونحن نرى كيف يتنافس على الظفر بقلب ديانا الجميلة اثنان من الكبراء : الكونت فيديريكو Conde Federico والماركيز ريكاردو Marqués Ricardo ، ولكن المرأة اللعوب التي يعجبها أن تكون موضعاً للتدليل ومثاراً للمنافسة لا تصدهما ولا تقربهما ، بل تدع لكل منهما بصيصاً من الأمل في الظفر بها . وهي تفعل مثل ذلك بكتابها المسكين الذي لا يكاد يدخل في روعه غرامها به . حتى تستدعيه وتقول له إنها موافقة على زواجه من وصيفتها . وإن كانت تأمرهما بأن يتجنبنا كل لقاء يمكن أن يسيء إلى سمعة دارها .

ويكمل لنا لوبي في أول الفصل الثاني ملامح شخصية تيودورو . وهو يبدو هنا رجلاً ضعيف الشخصية لا يكاد يرى من سيدته ما يوحى بحبها له حتى يعامل خطيبته الوصيفة في جفاء وتكبر . فاذا ولت له ديانا ظهرها عاد إلى حبه الأول مستكيناً مستغفراً .

ونرى مثلاً لذلك حينما تستدعيه ديانا . فتقول له مصطنعة البراءة وعدم المبالاة إنها قررت أخيراً أن تزوج ، غير أنها متحيرة في أمرها إذ لا تدري من تختار : الكونت فيديريكو أو الماركيز ريكاردو ، وتسأله أن يشير عليها . ولكنه يمتنع عن إبداء رأيه فتقول له إنها تفضل الزواج من الماركيز وتأمره أن يذهب لكي يبشره بأنها اختارته زوجاً لها . وحينئذ ينقطع رجاء تيودورو من سيدته . ويرى مارتيليا فيهرع إليها متودداً رغباً في الصلح . فتسخر هذه من ضمعه في تخطي الحواجز الاجتماعية والزواج من سيدته . وتعلن إليه أنها قررت قطع صلتها به وأنها قد أصبحت خطيبة فايو الذي يعمل أيضاً في قصر ديانا . ويستعطف تيودورو

الحب بين وصيفتها وخادمتها حتى تدركها الغيرة ، وتولد فيها الغيرة شعور الحب . غير أنها كانت تكتم هذا الحب وتحاول مقاومته . إذ تراه حباً مستحيلاً لا يوصل إلى نتيجة . فديانا خاضعة لحكم تقاليد العصر التي تفرض بين الطبقات الاجتماعية أسواراً وحدوداً لا يمكن تخطيها . فهي لا تستطيع الزواج من ذلك الشاب الذي يعتبر واحداً من جملة خدمها ، ولكن اكتشافها لحقيقة الصلة بين تيودورو ووصيفتها مارتيليا يثير في نفسها لهيب الغيرة . ويحملها على التفكير في انزعاج هذا الرجل الذي أحبه من بين ذراعي خادماتها . وهنا نرى براعة لوبي في تحليل نفسية تلك المرأة النبيلة المتغترسة . فقد أثار اكتشافها للحقيقة في نفسها إعصاراً عنيفاً . فهي باعتبارها امرأة تريد أن تظفر بهذا الرجل وتنزعه من امرأة أخرى غريمة لها . وهي مع ذلك لا تستطيع الزواج منه . فلا يبقى أمامها إلا أن تفسد العلاقة بين الاثنين وتنتظر حتى يحل الوقت تلك العقدة . ومن هنا جاء العنوان الذي اختاره لوبي لمسرحيته . إذ هو تشبيه للسيدة بكلب البستاني الذي يقول عنه المثل الإسباني المعروف إنه « لا يأكل ولا يدع الناس يأكلون » Como el perro del hortelano : ni come ni deja comer

وتعزم ديانا على أن توحى إلى أمينها الخاص بحبها له بطريق غير مباشرة ، إذ أن كرامتها ومستواها الاجتماعي يفرضان عليها ألا تنزل إلى مصارحته بغرامها ، فتدعوه إلى محضرها وتسلمه رسالة تزعم أنها من صديقة لها من سيدات المجتمع الراقى تهيم حباً برجل يجهل حقيقة شعورها . وتقول في هذه الرسالة إن حبها لهذا الرجل نبع من غيرتها من امرأة أخرى يبادلها الحب . وتطلب ديانا من كاتبها أن يبدى رأيه في هذه المسألة ، وتدور بين الأثنين محاوراة بديعة حول الحب وكيف ينبع من الغيرة ، مع أن المؤلف هو أن الغيرة هي التي تتولد عن الحب . وتتكرر المحادثات بين ديانا وكاتبها : ويخالج

مخرج لهم من ذلك هو اغتيال كاتب ديانا والتخلص من منافسته المزرية بقدرهما .

ويفكران حينئذ في استخدام أحد المحرمين المحترفين الذين كانت تغص بهم مدينة نابلي ، فيذهبان إلى إحدى الحانات التي يجتمع فيها أمثال هؤلاء وتسوقهم الصدفة إلى أن يختاروا لتنفيذ مهمة قتل تيودورو رجلاً كان يبدو لهم رئيس مجموعة من الأشرار تجلس في الحانة دون أن يعرفوا أن ذلك الرجل هو نفسه « تريستان » خادم تيودورو وموضع ثقته الذي عمه خير سيده منذ أصبحت ديانا تغدق عليه المال والعطايا . ويتظاهر تريستان بقبول المهمة ويطلب إلى النييلين « مقدم الأتعاب » ، ويقول لها إن خير وسيلة لقتله هو الالتحاق بخدمته حتى تسنح فرصة للإهاء عليه .

ثم يلتقي تريستان بسيده تيودورو فيطلعه على ما دبر الماركيز ريكاردو والكونت فيديريكو لقتله ، ويوحي تيودورو لخادمه بما يلقي من عنق ديانا وتقلبها ، إذ أنها وإن كانت قد صرحت له بحبها إياه لا تجرؤ على أن تتخذة زوجاً لما يفصل بينهما من فوارق فرضها المجتمع ، فيفكر الخادم الوصولي الذكي في حيلة يهيئ بها أمر زواج سيده من ديانا . وأخيراً يهتدي تريستان إلى الحل المنشود ، فان للسيدة ديانا جاراً نبيلاً عجوزاً هو الكونت لودوفيكو Conde Ludovico كان قد أرسل ابناً وحيداً له يدعى تيودورو إلى جزيرة مالطة منذ عشرين سنة ، ولكن مركباً حربياً من مراكب المسلمين في بنزرت (تونس) أغارت على الجزيرة وأسرت تيودورو ومضت به إلى بلاد المسلمين ، ومضت السنون وانقطع أثر هذا الابن وإن كان أبوه الكونت لم يفقد الأمل في عودته . فلماذا لا يتقمص كاتب السيدة ديانا شخصية هذا الابن المفقود ويصبح بذلك وريث الكونت لودوفيكو وبهذا يصبح له من الجاه والثروة ما يكون به نداءً لديانا وجديراً بطلب يدها ؟ ويتكفل تريستان

الفتاة حتى تستجيب له أخيراً ، وتعود بينهما المياه إلى مجاريها ، ولكن بعد أن يعلن أن الكونتيسة قبيحة الشكل والخلق ، وهنا تدخل ديانا إلى المسرح فتسمع إلى كل هذا الحديث ، ولكنها تتظاهر بأنها لم تسمع شيئاً ، وتأمرة بأن يأتي لتمليه رسالة ، وإذا بالرسالة موجهة إليه هو وفيها تقول له إن الرجل الفقير المتواضع إذا باحت له سيدة ثرية نبيلة بحبها فان من الحماقة أن يتحدث مع أخرى ، وتنصرف غاضبة . ويندم تيودورو على تسرعه بمضالحة مارثيلا فلا يكاد يراها حتى يطلب إليها أن تقطع كل صلاتها به . ثم يأتي الماركيز ريكاردو مسرعاً بعد أن أبلغ بنبأ قبول ديانا الزواج منه ، ويهرع لرؤية الفتاة اللعوب فتصطنع السداجة وتقول له إنها لم تقرر شيئاً بشأن الزواج وإنه ربما كان خدم القصر قد سمعوا ثناءها عليه فظنوا أنها قد اختارته زوجاً ، وتعتذر له عما حدث من سوء الفهم والتأويل . وأما تيودورو فانه ينفجر أخيراً ويقول لها إنه لا يفهم تصرفاتها إذ هي تحول بينه وبين مارثيلا غير أنها لا تمنحه بصيصاً من الأمل في وصالها . وتغضب ديانا وتصارحه بأن غيرتها من خادمتها مارثيلا هي التي تدفعها إلى ذلك وأنه حر يستطيع أن يتزوج ممن يشاء باستثناء تلك الوصيعة ، وتثور ثائرتها فتنهال بالصفعات على وجه كاتبها حتى تخضب قميصه بالدم . على أنها لا تلبث أن تأتي إليه مراضية ملاطفة وتأمرة له بألف إسكودو (العملة الإسبانية حينئذ) حتى « يشترى قمصاناً جديدة » .

ونرى في الفصل الثالث المتنافسين على قلب ديانا : الماركيز ريكاردو والكونت فيديريكو وقد شهدا ما وقع من ضرب السيدة لكاتبها ثم مصالحتها له ، وهما يعلقان على ذلك في تشكك وتوجس ، ويهجس في خاطرهما أن هناك علاقة مريبة بين ديانا وكاتبها ، وأنه لو تسربت أنباء هذه العلاقة إلى الخارج لأصبحت فضيحة تلوث أسماء الجميع ، وحينئذ يرى السيدان النييلان أن خير

لودوفيكو يقتحم المكان وهو لا يتمالك نفسه من الفرحة وتوتر الأعصاب ، ويبلغ الكونتيسة نبأ عثوره على ولده المفقود ، ثم يرتقى بين ذراعى تيودورو وهو يبكي . وتفاجأ السيدة بهذا الخبر ، ولكنها تبتهج وترى فيه حلاً لمشكلتها فيها هو ذا تيودورو قد أصبح نبيلاً يحمل لقب « كونت » الذى أورثه إياه أبوه ، وبهذا تتمكن من الزواج به بلا غضاضة . وهكذا تقرر عقد قرانها به فى نفس تلك الليلة .

غير أن الفتى تدركه النخوة ، فينفرد بها ويصارعها بأن كل هذا ليس إلا أكذوبة اخترعها خادمه ، وتكبر هى فيه ذلك ولكنها تهمة بالغباوة وتنصحها بأن يقبل ما ساقه إليه القدر من خير وسعادة . وتنتهى المسرحية بينما نرى نبلاء المدينة مهنتين للعروسين اللذين يقرران زواج ماثيلاً خطيبة تيودورو السابقة من فايو أحد خدم ديانا وتريستان من دوروتيا إحدى خادمتها . وينزل الستار وتيودورو يخاطب جمهور المتفرجين قائلاً لهم إنه يرجوهم ألا يذيعوا سره على الملأ .

وتعتبر رواية « كلب البستانى » من أكثر روايات لوبى نجاحاً بين الجماهير ، إذ حشد فيها المؤلف كل العناصر التى تعتبر مقومات العمل المسرحى الناجح ، ولا سيما إذا كان يدخل فى باب « الملهاة » . وقد وفق لوبى كل التوفيق فى رسم شخصية الخادم الظريف « تريستان » الذى نراه يتمص مرة شخصية مجرم محترف مصطنع لدور « قاتل القتلة » ومرة أخرى شخصية تاجر أرمنى يتكلم لغة غريبة ملففة مضحكة ، وهو فى كل ذلك لا يكف عن الحركة وتدبير الحيل واختراع الأكاذيب .

والرواية بوجه عام محكمة البناء متماسكة التكوين . ولعل خير ما فيها هو تحليل نفسية النبيلة المدللة التى تعبت بقلوب الرجال والتي تثير الغيرة فى نفسها جذوة الحب الكامنة لرجل أقل منها مقاماً وقدرأ ، غير أنها

بتدبير الأمر بحيث تنطلى الحيلة على النبيل العجوز ، فيزيأ بزى تاجر أرمنى ويذهب إلى الكونت بعد أن يخترع قصة قد أحسن حبك أطرافها : فهو يقول إنه تاجر قادم من بلاد الأرمن وإن له أباً كان من تجار الرقيق ووقع له يوماً صبي أسره المسلمون فى مالطة فاشتراه ورباه فى بيته مع أبنائه ، وأن هذا الصبي الذى كانوا يدعونه تيودورو نشأ مع أخت للتاجر ، فلما بلغ سن الشباب أحب الفتاة واتصل بها بغير زواج حتى حملت منه ، وخشى هو على نفسه من أبها فهرب من أرمينيا وبخثوا عنه كثيراً دون أن يوفقوا إليه ، وأخيراً بعث التاجر والد الفتاة ابنه إلى إيطاليا لكي يتحرى عنه لا لكي يرغمه على الزواج من ابنته ، بل لمجرد الاطمئنان إلى أنه حتى يرزق ، إذ كان يحبه حباً عظيماً . ويمضى تريستان التاجر الأرمنى المزيف فى قصته فيقول إنه سمع أخيراً من جارية يونانية فى نابلى أن هناك شاباً يدعى تيودورو يعمل فى خدمة الكونتيسة ديانا دى بلفلور ، وأن أوصافه تتفق مع أوصاف الفتى الذى يبحث عنه ، فذهب التاجر إلى هناك واجتمع به وعرف منه أنه هو فعلا الفتى الهارب ورجاه هذا لا يذيع خبره إذ أنه لا يريد أن يعرف أحد عنه أنه كان عبداً . ولكن التاجر قرر أن يبلغ الكونت لودوفيكو نبأ ابنه المفقود الذى كان يائساً من عودته . وتنطلى القصة الملفقة على الكهل ، ويستطير قلبه فرحاً ويقرر الذهاب إلى دار الكونتيسة على الفور حتى يجتمع بابنه .

ويكون تيودورو فى هذه الأثناء قد علم نبأ المؤامرة المدبرة لاغتياله . فيذهب إلى سيدته ويبلغها أنه قد عزم على ترك نابلى والعودة إلى إسبانيا إذ أن حياته فى خطر ولا أمل فى إمكان زواجه منها ، وتوافق هى على ذلك وهى منخرطة فى البكاء ، إذ أنها بدأت تحب كاتبها حباً صادقاً . ونشهد أخيراً موقف الوداع المؤثر بين ديانا وتيودورو ، ولكن لا نلبث أن نرى الكونت

أن كل ذلك لا ينال من قيمتها المسرحية وجودتها الفنية .

» * «

عرضنا في الصفحات السابقة بعض آثار لوبي دي فيجا ، وهي ليست إلا جزءاً بالغ الضآلة من إنتاج هذا العبقرى الذى كان يقول عن نفسه إنه « كان يكتب بيدين في وقت واحد » ، غير أنه يمكن أن يقدم لنا مثلاً على عبقرية هذا الأديب الإسباني الذى حول كل شيء إلى مسرح ، والذى يعتبر أعظم المؤلفين فى هذا الميدان خصوبة وأكثرهم إنتاجاً منذ وجد المسرح حتى اليوم .

تصمم على انتزاعه من منافستها حتى تظفر بذلك فى النهاية . ومن هنا تعتبر رواية « كلب البستاني » من أول الأعمال المسرحية التى تولى جانباً كبيراً من اهتمامها إلى تحليل النوازع البشرية ولا سيما تلك التى تختلج فى نفس المرأة .

صحيح أن هناك بعض ما يؤخذ على هذه المسرحية وهو ما نجده من تكلف وافتعال فى بعض الأحداث ، مثل ما نراه من الاعتماد على الصدفة فى التقاء الكونت والماركيز بخادم تيودورو وظنهما أنه مجرم محترف ثم تكليفهما إياه بقتل سيده ، أو فى السهولة التى انطلت بها خدعة الخادم الماكر على الكونت لودوفيكو ، غير



تاريخ آداب اللغة العربية بجرجي زيدان

بمستلم
الأستاذ محمد عبد الغني حسن

أولاً : سيرة حياة

سنة ١٩١٤ من مجلة « المقتطف » فلم ترد على صفتين ، ولكن جاء في متنها وهامشها تصحيح مهم لما جاء في الترجمة الملحقه بكتاب تاريخ آداب اللغة العربية خاصاً باشتراك جرجي زيدان في تحرير المقتطف ، فقد جاء في تلك الترجمة أن إدارة المقتطف طلبت إلى جرجي زيدان سنة ١٨٨٦ « أن يتولى إدارة أشغالها ، والمساعدة في تحريرها ، ففعل ». ولكن الدكتور يعقوب صروف في ترجمته لجرجي زيدان أنكر أن يكون صاحبنا قد حرر في « المقتطف » شيئاً ، إلا خاتمة السنة الحادية عشرة ، وهي نصف صفحة فقط ، كتبها جرجي زيدان لما كان مشتغلاً بإدارة المقتطف ! ومعنى هذا أن الثمانية عشر شهراً التي اشغل فيها جرجي زيدان بالمقتطف كانت (لإدارة) فقط ، ولم يجر فيها قلمه (بالتحرير) إلا على نصف الصفحة التي أشار إليها الدكتور يعقوب صروف . . .

وقد اضطر صروف - على أدبه وحيائه - إلى تصحيح هذه الواقعة « إظهاراً للحقيقة » كما قال في تأييده وترجمته لزميله وصديقه جرجي زيدان . . . وعلى الرغم من هذا التصحيح المنتور في مجلة المقتطف سنة ١٩١٤ ظل كثيرون من مؤرخي سيرة جرجي زيدان ومترجمي

إن مصادرنا في الترجمة لحياة جرجي زيدان - مؤرخ العرب والإسلام والحضارة الإسلامية والأدب العربي - كثيرة متنوعة ، فقد تناولته بالدراسة والترجمة بضعة كتب ظهر بعضها في العقد الأخير من القرن التاسع عشر في حياة الرجل ، كمثل كتاب « مرآة العصر » الذي أصدره إلياس زخورة سنة ١٨٩٧ في ثلاثة أجزاء ، فكان أقدم مصادرنا لسيرة هذا الرجل المتعدد جوانب الثقافة .

على أن هناك ترجمة مختصرة دقيقة له ملحقه بآخر كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » ، أو على وجه الدقة ملحقه بذييل الجزء الرابع من هذا الكتاب ، الذي لم يكده الرجل ينتهي من تأليفه حتى فاجأته المنية في شهر يوليو سنة ١٩١٤ ، فرأى القائمون على إصدار الكتاب من أسرة دار الهلال أن يختصمه (بمخلافه ترجمته وذكر مؤلفاته على ما يقتضيه موضوع الكتاب . . .) .

وتكاد تداني هذه الترجمة من ناحية الزمن ، تلك الترجمة الموجزة الدقيقة التي كتبها الدكتور يعقوب صروف رئيس تحرير « المقتطف » بقلمه في عدد سبتمبر

المؤلفين» أنه توفي بالقاهرة في ٢١ أيلول «سبتمبر» سنة ١٩١٤. وذكر شارحو ديوان الشاعر محمد حافظ إبراهيم المطبوع سنة ١٩٣٧ أنه توفي في شهر أغسطس سنة ١٩١٤، بل ذكرت مجلة المقتطف في عدد أغسطس سنة ١٩١٤ أن صاحب الهلال توفاه الله بغنة في يوم الثلاثاء مساء في ٢١ يوليو سنة ١٩١٤. . ولا نجد مفرأً من أن نأخذ بقول أهل الفقيده أنفسهم، فهم أدري بتاريخ وفاة فقيدهم، كما هم أعلم بكثير من أمره. فقد جاء في الترجمة التي ظهرت في ذيل الجزء الرابع من «تاريخ آداب اللغة العربية» أن مؤلف هذا الكتاب توفي في ٢٢ يوليو سنة ١٩١٤.

على أن هذا الخلاف اليسير الهين في يوم وبعض يوم، وشهر بعض شهر، يذكرنا بما وقع فيه مترجمو سيرة المفكر الثائر: أديب اسحاق، فقد كادوا يجمعون على أن وفاته كانت سنة ١٨٨٥، إلا واحداً فقط هو المستشرق الدكتور كرنيلوس فانديك، الذي ذكر تاريخ الوفاة صحيحاً في سنة ١٨٨٤، حيث يؤكد هذا قرينة أخرى قوية، وهي أن نعى أديب اسحاق في المقتطف كان في عدد يوليو سنة ١٨٨٤ فليس من المعقول أن تكون الوفاة قد وقعت في سنة ١٨٨٥^(١)!!

هاتان حقيقتان لا بد من تصحيحهما والتنبيه إليهما في معرض الحديث عن جرجي زيدان، بمناسبة الحديث عن كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية»، وما عدا ذلك من الحقائق والوقائع مما يتصل بسيرة هذا المؤرخ اللغوي الأديب الكبير فلا اعتراض لنا عليه:

وإذا كانت بضعة من الكتب قد أمدتنا بمعلومات هامة عن سيرة جرجي زيدان، كما أن عشرات من المقالات في المجلات قد زودتنا بحصيلة من المعارف

(١) كان لنا حظ السبق إلى تصحيح تاريخ وفاة أديب اسحاق في بحث لنا نشر بمجلة «المعرفة» التي تصدر بدمشق عدد شهر فبراير سنة ١٩٦٥.

حياته يقعون في الوهم، ويذكرون أن جرجي زيدان قد شارك في تحرير المقتطف. ومن هؤلاء الأب لويس شيخو اليسوعي الذي ذكر في كتابه «الآداب العربية في الربع الأول من القرن العشرين» أن مجلة المقتطف انتدبت جرجي زيدان «ليكتب فيها، فنشر عدة مقالات مستحسنة»!! مع أن هذا الندب كان للإدارة لا للتحرير. وقد جرى على هذا الوهم بغير تحقيق ليف من أفاضل المحققين الذين نكن لهم كل تقدير، كالأستاذ عمر رضا كحالة في موسوعته الكبيرة العظيمة «معجم المؤلفين». والأستاذ طاهر الطناحي في الفصل الجيد الذي كتبه في كتاب «عصاميون عطاء من الشرق والغرب»: والأستاذ محمد رجب البيومي في البحث الطيب الذي كتبه عن جرجي زيدان في العدد ٥٢٢ من مجلة الثقافة. الصادر في ٢٨ من ديسمبر سنة ١٩٤٨، والدكتور محمد يوسف نجم في كتابه «القصة في الأدب العربي الحديث»، وهو ينقل عن الترجمة الملحقة بتاريخ آداب اللغة العربية نقلاً حرفياً.

وهذه الحقيقة في سيرة حياة جرجي زيدان قد آن لها اليوم أن تتضح بعد أن ظلت منزوية في ركن من الإغفال والنسيان منذ قام بتصحيحها والتنبيه إليها الدكتور يعقوب صروف في سنة ١٩١٤.

ولو أن هذا التصحيح المهم قد جاء من رجل غير أستاذنا المغفور له الدكتور صروف، الذي عرفنا الكثير من خلقه العظيم، لقلنا إنه تصحيح ذو غرض، ولكن الرجل كان صادقاً في تصحيحه - كعهده في أمره كله - وما علمنا أن أحداً قام بالرد على الدكتور يعقوب صروف ليناقضه في هذه الحقيقة التي لا نعلم له مصلحة خاصة في تصحيحها.

ولست هذه هي الواقعة الوحيدة في حياة جرجي زيدان التي تحتاج إلى تصحيح، فهناك تاريخ وفاته الذي اضطرب فيه بعض من ترجموا له. فقد ذكر «معجم

العام ، خافت والدتي أن يطول مقامي ويضيع مستقبلي . وكانت تكره المطاعم . وكانت منذ طلبني والدي لمساعدته تلح عليه أن لا يطول مقامي ، وهو يعدها . فلما مضت السنة الأولى ألحت عليه أن يخرجني وبعيدني إلى المدرسة ، فقال لها : إنه قد أتم دروسه ، ولا فائدة من كثرة الدرس ، إلا إذا كنت تنوين أن تجعله كاتباً أو معلماً ، فضلاً عن أن كثرة التعليم تجعله متفرنجاً متأقفاً ، لا يأكل إلا بالشوكة والسكين ، وربما حدثته نفسه أن يلبس اللباس الأفرنجي . . . !! » .

على أن هذا المطعم كان نعمة كبرى على الغلام جرجي زيدان فيما بعد . . . فقد كان - بمن يحويهم من نخبة الطاعمين - مثاراً لطموح الفتى واتساع اهتماماته . ففيه التقى باليازجي ، وعبدالله البستاني اللغوي وغيرهما ، واستمع إلى أحاديثهم ومناقشاتهم ، وفيه التقى بطلبة الطب في الكلية الأميركية التي أنشأتها الإرسالية الأمريكية في بيروت سنة ١٨٦٦ . ولا شك أن هؤلاء الطلبة قد أثاروا حماسه لطلب العلم . ولا شك أنهم هم الذين دلوه على طريق الدخول في مدرسة الطب هناك . فدرس العلوم الإعدادية التي تؤهله للالتحاق بقسم الطب في الكلية سنة ١٨٨١ . ولم تزد مدة دراسته الإعدادية هذه على شهرين ونصف شهر . وتصور لنا هذه المدة القصيرة روح الغزيمة والجد التي تجلت في الفتى منذ أول أمره . وإلى هذه الروح يشير خليل مطران في رثائه له بقوله :

ألا في سبيل الله حكمتك التي
جلاها « هلال » ماليء الكون مقمر
وجد به رضى الصعاب : فما كبا
إلى أن دهاه جسدك المتعثر

ولقد كان لهذا المطعم أثر آخر في اهتمامات جرجي زيدان التي تجلت بعد هذا في اطلاعاته الواسعة على حفنة من اللغات الأجنبية . فقد التقى فيه بأحد الحرفاء

الضرورية لترجمة حياة المؤرخ زيدان ، فإن هناك « مذكرات خاصة » للرجل قد رجع إليها ونقل عنها الأستاذ طاهر الطناحي ، وهو يترجم لصاحبنا في كتاب « عصاميون عطاء من الشرق والغرب » الذي أصدرته دار الهلال سنة ١٩٥٤ . ولا شك أن هذه المذكرات التي كتبها صاحبها في جو من الصراحة التامة وعدم التخرج من ذكر الفقر وصعوبات الحياة - تلقى أضواء ساطعة قوية على حياة هذا الرجل الذي تعد سيرته درساً عظيماً لكل من يريد النجاح في الحياة .

وتدلنا مذكرات جرجي زيدان الخاصة ، على طراز من الرجال ندر أن تقع العين من مثله على كثير . فكثير من الناس - وخاصة من بلغوا شيئاً في الحياة - يتنكرون لماضيهم ، ويستحون أن يذكر هذا الماضي البئيس أمامهم أو يذكروه هم على أطراف ألسنتهم . . . ويحاولون أن يطمسوه طمساً ، ويودون - بجذع الأنف - لو محى من تاريخهم . . . ولكن العصامي جرجي زيدان كان غير هذا . . . لقد كان أبوه صاحب مطعم متواضع في بيروت ، وقد جمع إلى الفقر الأمية في العلم ، فلم يظفر بتعليم . . . ولكن ذلك لا يمنع صاحبنا أن يقول في مذكراته : « نشأت في صباى وأنا أرى والدي يخرج إلى دكانه في انفجر ، ولا يعود إلا في نحو منتصف الليل أو قبيله . وأرى والدتي لا تهدي لحظة من الصباح إلى المساء . . . » .

واضطر الغلام جرجي زيدان - وهو في الحادية عشرة - أن يجيب دعوة أبيه إياه لمساعدته في المطعم ، ولو كاتباً للحسابات على الأقل ! ووجد الأب من ابنه عوناً نافعاً فحبسه في المطعم وحجزه عن إتمام تعليمه الذي كانت نفسه تنحرق إليه . . . وخشيت الأم وخشيت معها ابنها على مستقبله . ويحدثنا جرجي زيدان في مذكراته الخاصة بعبارته السمحة الطيبة قائلاً : « ولما مضى على اشتغالي في ذلك المطعم عام وبعض

« الزبائن » المترددين عليه للطعام ، - وهو المعلم مسعود الطويل - الذى كان يشتغل بتعليم الشبان اللغة الإنجليزية فى مدرسة خاصة فتحها لهذا الغرض ، ولم يتوان جرجى زيدان عن الانضمام إلى هذه المدرسة المسائية ، وما هى إلا خمسة أشهر حتى كان صاحبنا يقرأ « رحلة كوك » بالإنجليزية فى سهولة ويسر .

وكان كتاب رحلة كوك أول كتاب يقرؤه الفتى بالإنجليزية ، إلا أن كتباً عربية كثيرة قد سبقت إلى يديه ، وحصل عليها بماله الذى كان يقطععه من مصروفه . والغرام بشراء الكتب واقتنائها - مهما كانت أثمانها - ظاهرة تلفت النظر فى حياة زيدان . ويروى لنا هو نفسه فى مذكراته الخاصة كيف اقتنى لأول مرة فى حياته كتاب « مجمع البحرين » للشيخ ناصيف اليازجى ، فيقول : (كنت أسمع بكتاب مجمع البحرين ، وأحب اقتنائه . لكنى كنت أستغليه ، لأن ثمنه على ما أظن كان أربعة فرنكات أو خمسة . ففى ذات يوم كنت جالساً بالمطعم ، فر غلام ويده هذا الكتاب مستعملاً ، وهو يعرضه للبيع ، فاشتريته منه بتسعة قروش بيروية ، أى أقل من نصف ثمنه ، وفرحت به كثيراً . ولما رجعت والذى سألتى عنه ، فأخبرته أنى اشتريته بتسعة قروش ، فزعل ، وقال : « أتدفع فى هذا الكتاب تسعة قروش ، وتبدل الدرهم بورق ؟ » . فزعلت ، ولم أجه . ولما انصرفنا للبيت فى المساء ، وكانت الوالدة قد أعدت لنا العشاء ، أظهرت أنى لا أريد الطعام ، وذهبت للنوم ، وأنا أتوقع أن يدعوانى ، ولا يتركانى أنام جائعاً . وسمعت والذى تعنف والذى لإغضابى حتى نمت بلا أكل ، ولكنه أصر على رأيه . . . واتفق أن جاء أمين فياض - أحد أصدقاء والذى - للسهرة عنده فى تلك الليلة ، وكان يتودد إلى ، فسأل عنى ، فقيل له إنى نمت . واغتمت والذى هذه الفرصة ، وشكت إليه عناد والذى . فسأله عن سبب غضبه ، فقال : « إنه يصرف

الدرهم فى شراء الورق بلا فائدة ! » فأجابه : « اشكر الله الله يا أبا جرجى أن ابنك ينفق الدرهم فى شراء الكتب ، وليس فى السكر ونحوه . إنها نعمة يجب أن تشكر الله عليها » وسمعت كلمات هذا الصديق وأنا أتظاهر بالنوم وللحال اشتد ساعد والذى ، وقامت فأيقظتنى ، وأجلستنى إلى المائدة ، وطيبت خاطرى ، وكذلك والذى . . . ولا تزال هذه الحادثة نصب عيني . . .) .

لقد كان الحافظ إلى التعلم عند جرجى زيدان شخصياً وطبيعياً ، ولكن ظروفًا مواتية أعانت على تقوية هذا الحافظ ودفعه إلى الأمام ، على الرغم من عدم مواتة الظروف المادية التى كانت تعيش فيها أسرته . ولم يبال الفتى بهذه الظروف المعاكسة وحاول دائماً أن يتغلب عليها . وعلى أبواب السنة العشرين من عمره ، وفى سنة ١٨٨٠ ، كانت قد ظهرت الطبعة الثانية لكتاب « سر النجاح » لصمويل سميلز الذى ترجمه الدكتور يعقوب صروف وأصدرته مطبعة المقتطف ، وفى هذا الكتاب صور نماذج بشرية نجحت فى الحياة ، وتغلبت على ما فيها من عقبات ، استناداً إلى العزيمة والدأب ، والجد والكفاح ، وعدم تسرب الملل واليأس إلى النفس . واقتنى الفتى نسخة من هذا الكتاب ، ورأى بعد قراءته أن المطالب العالية فى الحياة لا يقف دونها ما قد يتوهمه الناس حوائل وموانع . وكانت قراءته لهذا الكتاب مما دفعه دفعاً إلى الالتحاق بقسم الطب بالكلية الأمريكية :

ودخل جرجى زيدان مدرسة الطب ببيروت سنة ١٨٨١ ، وكان من أحسن طلابها استماعاً للأستاذة ، وإقبالاً على العلم ، وعكوفاً على الدرس ، على الرغم من انشغاله فى الوقت نفسه بأمر معاشه . وتشير المصادر إلى أنه اضطر إلى ترك كلية الطب فى العام الثانى بسبب « الاختلال المشهور الذى حصل فى تلك المدرسة »^(١)

(١) الآداب العربية فى الربع الأول من القرن العشرين -

للأب لويس شيخو ص ٧١ .

ويشير مصدر آخر حديث إلى أنه في سنة ١٨٨١ وقعت في الكلية حادثة « الحرية الفكرية » ، ويشير الأب لويس شيخو - نقلاً عن مجلة الهلال - إلى ما حدث في المدرسة من المنازعات التي كان لزيدان فيها نصيب وافر ، ثم ما حصل بين المعلمين من الانقسام بسبب التعليم بالإنجليزية بدلاً من العربية .

وقد استطعت بعد طول تنقيب وتنقيب أن أجد في السنة السابعة من مجلة المقتطف تفصيلاً - بقلم الدكتور يعقوب صروف نفسه - لحادث المدرسة الكلية الطبية ببيروت ، وما لابسه من استقالة ثلاثة من المشتغلين بالتدريس فيها ، وهم الدكتور كرنيلوس فانديك المستشرق المشهور ، وأستاذ الباثولوجيا بها ، والدكتور أدون لويس أستاذ الطبيعيات والكيمياء ، والدكتور وليم فانديك نجل العلامة كرنيلوس ومدرس المادة الطبية والحيوان بالكلية .

واتجه جرجي زيدان بعد ذلك إلى دراسة الصيدلة بدلاً من الطب مع لفيق من رفاقه المبعدين من الكلية ، وامتحنته لجنة خاصة محايدة من علماء سورية وأطبائها ، منهم الكولونيل مراد بك حكيمباشي العسكر ، والدكتور فانديك ، والدكتور لويس ، فنال شهادة الصيدلة بالنجاح في العلوم الآتية : اللغة اللاتينية ، والطبيعيات ، والحيوان ، والنبات ، والجيولوجيا ، والكيمياء العضوية والمعدنية ، والتحليل الكيمى ، والمواد الطبيعية ، والأقرباذين العلمى والعملى .

وجاء إلى مصر بعد ذلك ، ورغب أن يدخل مدرسة الطب المصرية ، ولكن طول الدراسة فيها صرفه عنها ، فاشتغل بالعلم ، والصحافة محرراً في جريدة « الزمان » . ورافق الحملة النيلية إلى السودان سنة ١٨٨٤ مترجماً . وقد أكسبته هذه الرحلة كثيراً من التجارب الجديدة عليه .

وفي سنة ١٨٨٥ عاد إلى بيروت من مصر ، وكانت قد سبقته إليها شهرته العلمية واللغوية التي كسبها بقراءاته الواسعة ، فانتخب عضواً بالمجمع العلمى الشرقى . وهناك تعلم العبرانية والسريانية وأتقنهما وأضاف إليهما بعض اللغات السامية والشرقية الأخرى . وفي سنة ١٨٨٦ زار إنجلترا وجمال جولة مفيدة في متاحفها ومكتباتها الشهيرة . وفي شتاء العام نفسه عاد إلى مصر حيث طلب إليه أصحاب مجلة المقتطف أن يتولى « إدارته » لا « تحريره » كما سلف القول . فنهض بالعبء على خير وجوهه . ولكنه أثر أن يستقل بالعمل وحده ، فاستقال من إدارة المقتطف سنة ١٨٨٨ حيث تفرغ للكتابة والتأليف ، وفي هذه الفترة أتم تأليف كتابه « تاريخ مصر الحديث » .

ولم يكن « تاريخ مصر الحديث » أول الكتب التي ألفها جرجي زيدان ، فقد سبقه بضعة من الكتب ، ولعل أول كتاب ألفه هو « الفلسفة اللغوية » الذى ظهر سنة ١٨٨٥ والذى قدمه إلى الهيئات والجامع العلمية الدولية : فظفر بعضوية « المجمع الآسيوى الملكى » فى إيطاليا . وتستطيع أن تحكم على العبقرية المبكرة لهذا العالم الباحث إذا عرفت أنه أتم تأليف « الفلسفة اللغوية » ولم يتجاوز عمره الخامسة والعشرين . . .

أما أولى روايات جرجي زيدان التاريخية ، فهى رواية « المملوك الشارد » التي أتمها حوالى سنة ١٨٩٠ ، والتي تصور عصر محمد على أدق تصوير .

وإذا كان كتاب « الفلسفة اللغوية » هو أول كتاب علمى لغوى ألفه جرجي زيدان : فإن كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » هو آخر كتاب علمى أدبى صنعه ، فما كاد ينتهى من الجزء الرابع فى صيف سنة ١٩١٤ حتى أدركته منيته فى شهر يوليو من العام نفسه ، على أن أول جزء من هذا الكتاب - الذى هو موضوع بحثنا اليوم - قد صدر فى صيف سنة ١٩١١ ، فكأنه قضى

في تأليف هذا الكتاب ثلاث سنوات ، وإن كان قد نشر طائفة من فصوله في مجلة « الهلال » سنة ١٨٩٤ أي بعد صدورها بعامين اثنين .

ولقد دخل جرجي زيدان ميدان الصحافة الأدبية بأنشائه مجلة الهلال الشهرية سنة ١٨٩٢^(١) . وفي أول سبتمبر من ذلك العام صدر أول أعداد الهلال يحمل فيما يحمله من مقالات وبحوث ودراسات ، مقدمة لمنشئه ، يكشف فيها عن خطته وأهدافه من إصدارها قائلاً : « لا بد للمرء فيما يشرع فيه من فاتحة يستهل بها ، وخطة يسير عليها ، وغاية يرمى إليها . أما فاتحتنا فحمد الله على ما أسبغ من نعمه ، وأفاض من كرمه . والتوسل إليه أن يلهمنا الصواب ، وفصل الخطاب ، وأما خطتنا فالإخلاص في غايتنا ، والصدق في لهجتنا ، والاجتهاد في وفاء حق خدمتنا . ولا غنى لنا في ذلك عن معاضدة أصحاب الأقلام من كتبة هذا العصر في كل صقع ومصر ، أما الغاية التي نرجو الوصول إليها ، فأقبال السواد على مطالعة ما نكتبه ، ورضائهم بما نكتبه ، وإغضاؤهم عما نرتكبه . فإذا تيح لنا ذلك كنا قد استوفينا أجورنا ، فنشط لما هو أقرب إلى الواجب علينا . »

وعلى الرغم من دخول « الهلال » ميدان الصحافة الأدبية منافسة « للمقتطف » التي أنشئت قبلها ببضعة عشر عاماً^(٢) . فقد استقبلت الرصيفة القديمة زميلتها الجديدة استقبالا كريماً في باب « الهدايا والتقاريط » من عدد سبتمبر سنة ١٨٩٢ ص ٨٤٤ ، معرفة بها وبأبوابها ، مثنية على « منشئها الكاتب الفاضل جرجي أفندي زيدان » ، موجزة الحديث عن انسجام عبارتها وجمعها لأشتات الفوائد ، متمنية لها أتم النجاح .

(١) ذكر الأب لويس شيخو أن الهلال صدر في تشرين الأول (أكتوبر ١٨٩١) ، وهو وهم .

(٢) صدرت المقتطف أولاً في بيروت سنة ١٨٧٦ عن الدكتورين يعقوب صروف وفارس نمر ، ثم انتقلت إلى مصر بعد ذلك بخمس سنوات حيث ظلت توالي إصدارها إلى سنة ١٩٥٢ .

وقد ظل اسم « الهلال » وجرجي زيدان متلازمين حتى بعد وفاة صاحب الهلال سنة ١٩١٤ . وما أغفل شاعر أو كاتب أو خطيب هذا التلازم في حفل التأبين الذي أقيم لجرجي زيدان في نادي الاتحاد السوري في ٢٨ مايو سنة ١٩١٥ ، أي بعد عشرة أشهر من وفاته . فنجد الشاعر أحمد شوقي يقول :

قد أكل الله ذياك « الهلال » لنا

فلا رأى الدهر نقصاً بعد إكمال

ولا يزل في نفوس القارئ له

كرامة الصحف الأولى على التالي

فيه الروائع من علم ومن أدب

ومن وقائع أيام وأحوال

وفيه هممة نفس زانها خلق

هما لباعى المعالى خير منوال

ونجد الشاعر حافظ إبراهيم يقول عن زيدان

صاحب « الهلال » ، واليازجى صاحب « الضياء » :

وكم فزت من رب « الهلال » بحكمة

وكم زنت من رب « الضياء » بياني

ثانياً : آثاره ومؤلفاته

لقد كان جرجي زيدان متعدد النواحي الثقافية ، فلم يقف بالمعرفة عند حد . وقد هيأته ثقافته الطبية والصيدلية والطبيعية الأولى لكي يكون مؤرخاً وأديباً ولغوياً علمي المنهج . فهو مؤرخ أدب لم تنجح به عاطفة ولم يمل به خيال في الأحكام . وإتاما هو صاحب عقلية علمية منهجية تجريبية . وقد ظهرت هذه العقلية في أكثر ما كتبه وألفه من كتب . فحين أخرج لنا كتابه « تاريخ مصر الحديث » ، مبتدئاً من تاريخ الفراعنة حتى العصر الحديث ، لم يكتب بالانكباب على الكتب يقرأها ويستخرج منها مادة كتابه التي نسقها تنسيقاً بديعاً ، ولكننا رأيناها يتجه إلى « المعاينة » و « المشاهدة »

وبنايات بناها المالك أو غيرهم في حال محاربتهم حكومة البلاد أو دفاعهم عنها . كل هذه الأماكن تفقدتها جيداً إتماماً لمعدات التأليف . . . » .

ومن هنا يتضح لك منهج جرجى زيدان في تأليفه . فهو ليس جعاج مادة . ولا حاشد معارف . بقدر ما هو محقق لها ومعين لها بالنظر . ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . وتمتاز كتابات جرجى زيدان - وخاصة العامية - بحسن عرضها . وتنسيقها . وتنظيم الأفكار فيها . وأعله تأثير في هذا بكتابات المستشرقين ودراساتهم . فهو ينحو نحوهم من طول ما عاناه من مطالعة كتبهم وبخوشهم . وقد وفق الله جرجى زيدان إلى أن يضع معلوماته الغزيرة ودراساته الجادة في أسلوب علمي واضح مشرق العبارة . في غير تعمل ولا تصنع ولا تعقيد ولا نحوض . فهو يؤدي إليك المعاني المرادة في بلاغ حسن بعيد عن الزخرفة والوشى . وينزل الألفاظ منازلها على أمدار موضعها من الكلام . وفي ترسل سهل يسير لا معازلة فيه ولا تكاف . وقد أحسن المغفور له أنظون الجميل نعت أساب جرجى زيدان بقوله : « من الكتاب من هم كالسيل الجارف المروع . يتدفق مرغياً مزبداً . فيثب وثبات عظيمة . وينحدر شلالات فخمة . يقف عندها المرء مهيباً . ومنهم من يشبه ذلك الجدول المترقق على الحصباء . العاكس في قاعه الصافي زرقة الماء . يناغيه على ضفتيه الزهر الندى . ويضطرب الأسماع بخبره الشجي . وليس زيدان ذلك السيل الجارف . ولا هذا الجدول المترقق . بل هو يشبه النهر الهادئ . كنه النيل مثلاً في واديه . يسير بكل سكون ووقار . فيحمل في طياته الحياة والثروة . فيحول الجذب خصباً . والتراب تبراً . . . » ومن هنا وجدت مؤلفات جرجى زيدان وكتاباته . وحتى رواياته . سبيلها إلى نفوس القراء في كل أرض عربية أو تعرف العربية .

و « التجربة » : كما كان يفعل الجاحظ . وكما أوصى مؤرخنا « ابن خلدون » أن يفعل المؤرخون حين يؤرخون . فترى جرجى زيدان يحصل على ترخيص من وزارة الأوقاف بتفقد الآثار العربية . ثم يجشم نفسه عناء الرحلة والنقلة إلى الآثار التي تحدث عنها في كتابه : حتى يكون كلامه كلام الخبير المحرب . ثم هو لا يبالي أن يرحل في سبيل « المعينة التاريخية » إلى ما وراء « حلفا » آخر الحدود المصرية . ويقول في مقدمته لكتاب « تاريخ مصر الحديث » : « فزرت معظم جوامع القاهرة وضواحيها . ولا سيما ما كان منها قديماً . كجامع عمرو . وجامع ابن طولون . والجامع الأزهر . وجامع السلطان حسن . وجامع السلطان برقوق . وجامع قايت باي . وجامع الغورى وغيرها . وزرت ما هنالك من البنايات القديمة كالقلعة وما جرى مجراها . وتسلفت ما صعب مسلكه منها . ولا سيما أسوار القاهرة القديمة وأبوابها . كباب النصر . وباب الفتوح . وباب الشعرية وغيرها . ومن هذه الأماكن ما قد تداعت أركانها وصعب الصعود إليه إلا بالمخاطرة . فكثيراً ما كنت أخطر بحياتي لهذه الغاية . ومن الآثار التي تفقدتها . ما عدا الجوامع والمشاهد والتكيات والشوارع . قصر الشمع أو دير النصرى في مصر القديمة . ودار التحف العربية في جامع الحاكم بشارع النحاسين . وغير هذه من الأماكن في القاهرة وضواحيها كالقناطر الخيرية وغيرها .

أما الآثار المصرية القديمة فقد تفقدتها كلها أيضاً . ولا سيما ما هو منها في مصر العليا . مبتدئاً من أهرام الجيزة بجوار القاهرة . إلى ما وراء وادى حلفا آخر حدود مصر . فزرت خرائب سقارة . وأسنا . وطيبة . والكرنك . وبينان الملوك . وجبل السلسلة . وأنس الوجود . وأبا سنبل وغيرها . ومثل ذلك آثار مصر السفلى مبتدئاً بالمطرية . فأتريب وغيرها . وفي مصر العليا فضلاً عن الآثار المصرية القديمة آثار استحكامات

الكثيرة الموقفة التي لقي فيها المستشرقون وغير العرب أشياء جديدة عليهم . ويكفي أن نذكر هنا رأى العالم المنصف الدكتور يعقوب صروف في مؤلفات جرجى زيدان على جملتها : « . . . واستخلص من ذلك كتباً ممتعة في آدابها ، تشهد له بسعة الاطلاع ، وأصالة الرأى ، والبراعة في التوبيع والتنسيق ، فكان لهذه الكتب شأن كبير شرقاً وغرباً ، وترجم بعضها إلى كثير من اللغات الشرقية والغربية . وبحث في تواريخ دول الإسلام . وألف فيها كتاباً جليلاً ، وبنى على نوادرها سلسلة من الروايات التاريخية الفكاهية ، جمع فيها زبدة تواريخ تلك الدول على أسلوب لا يمله القارئ . . . » (١)

ثالثاً : كتاب تاريخ آداب اللغة العربية

تمتاز كتب جرجى زيدان في التاريخ والأدب واللغة والسير والتراجم بأصالتها ، وبأنها أثرت المكتبة العربية ، وبأنها فتحت في البحث العلمى ميادين جديدة لم يكن للناس في عهده بها عهد . . . ويكفى لبيان حيوية هذه الكتب أنها شغلت العلماء والباحثين والناقدين بنقدتها ومناقشتها . والكتاب الجيد هو الذى يثير من القضايا ما لا يدع للناس سبيلاً إلى السكوت عنه . وقد كان جرجى زيدان من العلماء الذين يرحبون بالنقد ولا تضيق صدورهم به . وكثيراً ما رأينا يستحث العلماء على نقد مؤلفاته . ولا يكتفى منهم بتقريرها ، كما كانوا يفعلون في عصره - ولا يزالون يفعلون - إبقاءً على الود وإيثاراً للعافية . . . ومما يؤكد هذه الحقيقة أنه لما أصدر روايته « المملوك الشارد » في سنة ١٨٩٢ أهدى نسخة منها إلى صديقه الدكتور يعقوب صروف رئيس تحرير المقتطف رجاء الكتابة عنها . وندع الدكتور صروف يكمل بقية الحديث قائلاً : « تلقينا بالأمس نسخة من رواية المملوك الشارد التي وضعها جناب صديقنا الأديب جرجى أفندى

ونستطيع أن نقسم مؤلفات جرجى زيدان إلى مؤلفات تاريخية : ومؤلفات في اللغة ، ومؤلفات في تاريخ الأدب ، ومؤلفات في الاجتماع ، وروايات . أما مؤلفاته التاريخية فهي :

- ١ - تاريخ مصر الحديث .
- ٢ - تاريخ تمدن الإسلامى .
- ٣ - تاريخ العرب قبل الإسلام .
- ٤ - تاريخ الماسونية العام .
- ٥ - تراجم مشاهير الشرق .
- ٦ - التاريخ العام .
- ٧ - تاريخ إنكلترا .
- ٨ - تاريخ اليونان والرومان .
- ٩ - أنساب العرب القدماء .

أما مؤلفاته في اللغة فهي :

- ١ - الفلسفة اللغوية .
 - ٢ - تاريخ اللغة العربية .
- أما مؤلفاته في الاجتماع فهي :
- ١ - علم القراءة الحديث .
 - ٢ - طبقات الأمم .
 - ٣ - عجائب الخلق .

وليس له في تاريخ الأدب إلا كتابه الخالد :

« تاريخ آداب اللغة العربية » في أجزائه الأربعة .

أما رواياته فيبلغ عددها اثنتين وعشرين رواية تدور مع تاريخ العرب من الجاهلية ، ومع تاريخ الإسلام منذ الفتوح إلى العصر الحديث .

وعلى الرغم من أن جرجى زيدان قد أفاد في نحوته ودراساته من كتب المستشرقين والأجانب ، فإن كثيراً من كتبه ورواياته قد ترجم إلى لغات أجنبية وشرقية . ولا يقولن قائل إن بضاعة المستشرقين قد ردت إليهم بهذه الترجمات ! فإن كتب جرجى زيدان مملوءة بمعارف ومعلومات من استنباطات الرجل واجتهاداته

(١) مجلة المقتطف - عدد سبتمبر سنة ١٩١٤ - ص ٢٨٤ .

زيدان . فاعتذرنا عن انتقادها ، وأردنا أن نقرظها بذكر موضوعها وإظهار محاسنها ، والإغضاء عما نظنه عيباً فيها ، فأبى إلا أن ننتقدها انتقاداً . فأجبتنا الطلب وقرأنا الرواية على ما نحن فيه من كثرة الأشغال ، وضيق الوقت ، وعلقنا عليها السطور التالية . . . »^(١)

ولما ظهر كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » سنة ١٩١١ صبر النقاد عليه حتى ظهر جزؤه الثاني بعد الأول . فاستقبلوه بالنقد والتعليق والمناقشة - مما سنعرض له بعد قليل - ولكن مؤرخنا العظيم لم يجزع للنقد ، ولم يهتز له : بل انتضى قلمه الهادئ الرزين يرد الحججة بالحجة ، ويقرع البرهان بالبرهان . في أدب جم ، وعلم غزير ، وصبر جميل . حتى لم تبد من بين شفثيه لفظة نابية . . . أو كلمة جارحة .

والحق أن كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » لجرجي زيدان يعد رائداً في التأليف في تاريخ الأدب العربي على نهج لم يسبق إليه : ومن هنا كان الاهتمام بهذا الكتاب . لمكانه من الريادة في هذا الميدان .

والحق - أيضاً - أن جهداً كريماً في هذا الميدان قد سبق به الشيخ حسين المرصفي في كتابه « الوسيلة الأدبية » الذي تحدثنا عنه في العدد السادس من المجلد الرابع من « تراث الإنسانية » . فقد خطا المرصفي خطوة - على صغرها - في ميدان التاريخ الأدبي على حسب العصور ، لا على حسب الموضوعات ودراسة النصوص كما كان يفعل القدماء . وهذه حقيقة لا ينبغي أن يفوتنا التنويه بها في مقام التحقيق :

والحق - أيضاً - أن جهداً كريماً في هذا الميدان قد سبق به الشيخ حسين المرصفي في كتابه « الوسيلة الأدبية » الذي تحدثنا عنه في العدد السادس من المجلد الرابع من « تراث الإنسانية » . فقد خطا المرصفي خطوة - على صغرها - في ميدان التاريخ الأدبي على حسب العصور ، لا على حسب الموضوعات ودراسة النصوص كما كان يفعل القدماء . وهذه حقيقة لا ينبغي أن يفوتنا التنويه بها في مقام التحقيق :

وجاء بعد الشيخ حسين المرصفي تلميذه في دار العلوم المرحوم حسن توفيق العدل الذي تخرج فيها سنة ١٨٨٧ ، أي قبل وفاة أستاذه المرصفي سنة ١٨٩٠ بثلاث سنوات . فتنبه إلى ما في تاريخ الأدب حسب

(١) مجلة المقتطف - السنة السادسة عشرة - سنة ١٨٩٢ -

ص ٣٤٧ .

العصور من مزية . وأكد هذا المعنى في نفسه ما أتبع له من بعثة في ألمانيا واتصال بالمستشرقين هناك . وخاصة « بروكلمان » الذي كان قد وضع كتابه في تاريخ الأدب العربي على طريقة العصور . وإن كان لم يظهر مطبوعاً إلا في سنة ١٨٩٨ . وأعجب المرحوم حسن توفيق العدل بهذه الطريقة . فلما عاد من ألمانيا ليشتغل بالتدريس في دار العلوم قدم هذه الطريقة إلى طلبته فيها على هيئة مذكرات عنوانها « تاريخ آداب اللغة العربية » . ويذكر المرحوم الأستاذ محمد عبد الجواد أنها ذبعت بعد وفاته سنة ١٩٠٦ بمطبعة مدرسة الفنون والصناعات الخديوية^(١) وجاء المرحوم محمد بك دياب - وهو من رجال دار العلوم أيضاً - فأصدر في التاريخ الأدبي على وفق العصور كتابه الموسوم : « تاريخ آداب اللغة العربية » الذي ظهر في جزئين سنة ١٨٩٩ - ١٩٠٠ م . وانتهى القرن التاسع عشر بهذه الكتب الثلاثة في تاريخ الأدب العربي على حسب العصور . ألفها ثلاثة من أساتذة دار العلوم أو أبنائها .

وجاء القرن العشرون فإذا بالأستاذ محمد حسن نائل المرصفي^(٢) يصدر في سنة ١٩٠٨ كتابه : « أدب اللغة العربية » مرتباً ترتيباً زمنياً كذلك . وفي سنة ١٩٠٩ يظهر كتاب « أدبيات اللغة العربية » للجماعة من أبناء دار العلوم هم محمد عاطف ، ومحمد نصار . وعبد الجواد عبد المتعال . ولا يطول بنا الزمن بعد هذا أكثر من عامين اثنين حتى نرى مؤرخنا جرجي زيدان يصدر كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » على نحو واسع مبسط مفصل لم يألفه الناس فيما صدر قبله من كتب في

(١) مجلة الكتاب - عدد يوليو سنة ١٩٤٧ - ص ١٣٨٠ .

(٢) كان الشيخ محمد حسن نائل المرصفي من توفيق الأدب .

في وقته : وهو أزهرى ، ولم يصمم في دار العلوم كما ذكر ذلك خطأ خير الدين الزركلي في « الأعلام » ونقل الخطأ عنه عمر رضا كحانة في « معجم المؤلفين » . ومن آثاره في الصحافة الأدبية مجلة « الجديد » التي كانت تحفة رائعة . توفي سنة ١٩٣٥ .

تاريخ الأدب العربي . ويظهر الجزء الأول من هذا الكتاب في سنة ١٩١١ بهذا الاسم الجديد لهذا العلم الذي هو من مبتكرات جرجي زيدان . وقد سبق جرجي زيدان المرحومين حسن توفيق العدل ومحمد دياب ومحمد حسن نائل المرصفي ، ومحمد عاطف وزملاءه إلى تسمية هذا العلم بعلم « تاريخ آداب اللغة العربية » ، فإنه في سنة ١٨٩٤ وفي السنة الثانية من مجلة « الهلال » كان قد نشر فصولاً تحت عنوان : تاريخ آداب اللغة العربية ، فكان بذلك أول واضع لاسم هذا العلم ، وعنه أخذ الأساتذة السابق ذكرهم عناوين كتبهم التي سبقوا بها في الصدور والظهور منذ سنة ١٨٩٩ ، وإن كان كتاب جرجي زيدان لم يظهر - على شكل كتاب - إلا في سنة ١٩١١ .

وقد يكون جرجي زيدان على حق حين يقول عن نفسه إنه أول من كتب في « تاريخ الأدب العربي » على هذا النحو ، وإنه أول من سمي هذا العلم باسم « تاريخ آداب اللغة العربية » ؛ فإن الفصول التي بدأ بنشرها في مجلة الهلال منذ سنة ١٨٩٤ تحت هذا العنوان الجديد ، هي أقوى مؤيد لدعوته ، على أن جهود هؤلاء الرواد الذين ذكروا في هذا السبيل لا يجوز إغفالها أو التقليل من قدرها .

وقد استقبل الدكتور يعقوب صروف الجزء الأول من « تاريخ آداب اللغة العربية » بكلمة في مقتطف أغسطس سنة ١٩١١ تكاد تكون تقريراً للكتاب وعرضاً موجزاً له . قدمها بهذه الأسطر : « لصديقنا جرجي أفندي زيدان - صاحب الهلال - فضل لا ينكر على أبناء العربية ، بما ألفه فيها ، وآخر ما أتحننا به الجزء الأول من كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » ، وهو يبحث في تاريخ آداب هذه اللغة في عصر الجاهلية وعصر الخلفاء الراشدين والعصر الأموي » .

واكتفى الدكتور صروف في كلمته عن الجزء الأول بالتقرير والعرض ؛ فلما ظهر نقد الجزءين الأولين

والثاني لحفنة من أفاضل العلماء ، لم يجد « صروف » بدأ - حين حديثه عن الجزء الثالث في عدد سبتمبر من المقتطف سنة ١٩١٣ - من أن يدخل ميدان النقد بكلمة وجيزة يقول فيها : « ولا شبهة في أن كثيراً من نقولاته وأحكامه يفتقر إلى التحقيق والتحصيص ، ولكن ذلك يكون بعد هذا الجمع والتبويب . . » ويلاحظ ما في هذه الكلمة من كياسة ولباقة ؛ فقد رضى الناقد هنا بمرحلة الجمع والترتيب - على ما فيها من مأخذ وأخطاء ، على أن يأتي التحقيق بعد ذلك في مرحلة تالية . . . ! والحق أن كلمة الدكتور صروف هنا كانت دفاعاً عن صديق من صديق ، في معركة سل عليه النقاد فيها سيوف نقدهم !

وتتجلى الروح العربية الخالصة في مؤلفات زيدان عامة ، وفي « تاريخ آداب اللغة العربية » خاصة ، فهو يدافع عن العرب في كل موقف ، ويغلي في تقديرهم إلى درجة كبيرة ، ويضعهم من حيث الثقافة والعقلية في مستوى لا يقل عن مستوى الأمم ذات الحضارات القديمة كاليونان والرومان ، وينفى عنهم ما قد توهمه البداوة جهالة وتخلفاً . فيقول مثلاً في موضع الحديث عن درجة ارتقاء عقولهم : « وقد يتبادر إلى الأذهان أن أولئك البدو كانوا أهل جهالة وهمجية ، لبعدهم عن المدن وانقطاعهم للغزو والحرب . . . ولكن يظهر مما وصل إلينا من أخبارهم أنهم كانوا كبار العقول ، أهل ذكاء ونباهة واختبار وحنكة . وأكثر معارفهم من ثمار قرائحتهم ، وهي تدل على صفاء أذهانهم ، وصدق نظرهم في الطبيعة وأحوال الإنسان ، مما لا يقل عن نظر أعظم الفلاسفة »^(١) ويذهب في تقدير حكمتهم درجة أخرى أكثر إغلاء في المرمي ، فيمدحكم زهير بن أبي سلمى في معلقته المشهورة مما « لا يقل شيئاً عن أحكام أكابر الفلاسفة . . . »^(٢) .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية - الجزء الأول - طبعة سنة ١٩٥٧ - ص ٣٤ . (٢) المصدر نفسه ص ٣٥ .

لصديق حسن خان القنوجي الهندي من علماء المسلمين
في القرن التاسع عشر .

وعاد جرجي زيدان بعد قليل ليصحح الرأي في
هذا الموضوع الذي أثاره فقال إن هذه الكتب وأمثالها
تعد من المآخذ الأساسية لدرس آداب اللغة ، ولكنها
لا تصحح أن تسمى تاريخاً لها بالمعنى المراد بالتاريخ اليوم^(١)
وتتجلى القيمة الحقيقية لكتاب « تاريخ آداب اللغة
العربية » لجرجي زيدان في مزايا كثيرة تنكشف بأدنى
نظرة عند القارئ المحقق المتفطن لقيمة ما يقرؤه ، وأول
هذه المزايا ما هدف إليه جرجي زيدان من « بيان منزلة
العرب بين سائر الأمم الراقية ، من حيث الرقي الاجتماعي
والعقلي » . ولم يتخل هذا الهدف عن عيني « زيدان »
لحظة واحدة في خلال الألف وخمسة مائة صفحة التي
يحتويها هذا الكتاب الضخم .

على أن جرجي زيدان لم يكتف - في معرض إثباته
لحقيقة العقلية العربية الحصبة - بتقريرها فقط ، ولكنه
يثبت بالوقائع والأدلة ما تقلبت عليه عقول العرب
وقرائحهم ، وما كان لهم من أثر في العصور المتعاقبة
عليهم ، وما كان لتلك العصور وأحداثها من أثر في
تاريخ تطورهم العقلي والحضاري .

ولا يكتفى صاحبنا بالوقوف عند هذا الحد أو
بلوغ هذا المبلغ ، ولكنه يقف عند كل علم من علوم
العرب وقفة طويلة مستأنية ، يتابع فيها نشأته ، وتطوره ،
ويراقب - مراقبة دقيقة واعية - نموه ونضجه وتشعبه
وانحلاله أو ازدهاره . فعل ذلك في الشعر الجاهلي ، وفي
العلوم الطبيعية والرياضية في العصر الجاهلي ، وفي
الخطابة في الجاهلية و صدر الإسلام . وفعل مثل ذلك
وأكثر منه في العصر الأموي والعباسي والمغولي والعثماني
والعصر الحديث الذي يبدأ منذ بداية القرن التاسع عشر .
ففي النحو - مثلاً - نراه يتحدث عن نشأته ، وأول

(١) المصدر السابق ص ١٠ .

تم يمضي جرجي زيدان في إعظام تقديره للعلوم
عند عرب الجاهلية فيقرر « أن العرب عرفوا كثيراً من
الأمراض ومعالجتها ، وناهيك بما عرفوه وتوسعوا فيه
من أحوال الأعضاء وأوصافها ، وهو من قبيل علم
التشريح ، وهم يعبرون عنه بخلق الإنسان . وقد ألف
أدباء المسلمين كتباً كثيرة في هذا الموضوع نقلًا عن
العرب ، سيأتي ذكرها بين مؤلفات أهل اللغة . والمتأمل
فيما حوته من أسماء الأعضاء وأوصافها يتبين له أن أولئك
الجاهليين كانوا على معرفة بتشريح الأعضاء . . . »^(٢) .

وقد بلغ من غلو جرجي زيدان في هذا التقدير أن
الدكتور شوقي ضيف - الذي عهد إليه تحقيق الطبعة
الأخيرة من « تاريخ آداب اللغة العربية » والتعليق عليها ،
والإضافة إليها - وجد نفسه مضطراً إلى أن يعلق على
هذا الغلو قائلاً : « ينبغي ألا نبالغ في معرفة عرب
الجاهلية بالطب ، فإن ما كان عندهم من ذلك لا يتجاوز
ملاحظات أولية بسيطة »^(٣) ! !

ولم يُخَلَّ جرجي زيدان بين العرب ومعرفة علم
تاريخ آداب اللغة العربية وسبقهم إليه ، كسبقهم في
موضوعات أخرى . ويقرر - في هذا الشأن - أن كتب
التراجم التي ألّفها العرب فيها كثير من علم تاريخ
الأدب ، لأنهم يشفعون الترجمة بما خلفه المترجم له من
الكتب ، ويبينون موضوعات هذه الكتب ، وقد
يجاوزون هذا التبيين إلى وصفها^(٤) . وعد من هذه
الكتب المتخصصة في البحث عن المؤلفين ومؤلفاتهم
كتاب « الفهرست » لابن النديم ، و « مفتاح السعادة »
لطاشكبري زاده ، و « كشف الظنون » عن أسامى
الكتب والفنون » لحاجي خليفة ، و « أجدد العلوم »

(١) المصدر نفسه ص ١٩٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ١٩٩ بالهامش .

(٣) مقدمة جرجي زيدان لكتاب تاريخ آداب اللغة العربية -

العسقلاني « ابن حجر » في كتابه « الدرر الكامنة ، في أعيان المائة الثامنة » المطبوع ببيدر أباد الدكن بالهند سنة ١٣٤٨ هـ سنة ١٩٢٩ م . ولكن جرجي زيدان يذكر المآخذ والمصادر عقب كل ترجمة لكل علم ، شاعراً كان ، أم خطيباً ، أم مؤلفاً ، أم فقيهاً ، أم مفسراً ، أم محدثاً ، أم لغوياً ، أم صحافياً . . .

ولا يكتفى هنا بالمصادر العربية ، ولكنه يضيف إليها المصادر الأجنبية - أوروبية كانت أم أمريكية . ففي ترجمته - مثلاً - للشاعر الجاهلي : « تأبط شراً » يذكر مآخذ الترجمة لحياته على هذا النحو قائلاً : « وأخباره في الأغاني ٢٠٩ ج ١٨ ، والشعر والشعراء ١٧٤ ، وخزانة الأدب ٦٦ ج ١ . وكتب عنه بور BAUR بالألمانية مقالة في سيرة حياته وشعره ، في المجلة الشرقية الألمانية سنة ١٨٥٦ »^(١) .

ولا تقتصر المصادر والمآخذ التي يسجلها جرجي زيدان في تراجم الأعلام الأدبية على القديمة ، ولكن الرجل كان متابعاً لأحدث الكتب في وقته . ففي ترجمته للمؤرخ بدر الدين العيني المتوفى سنة ٨٥٥ هـ يضيف إلى مآخذ ترجمته كتاب « الخطط التوفيقية » لعلي مبارك باشا . وفي ترجمته للشاعر الجاهلي : المتلمس ، يضيف إلى المصادر القديمة مصدراً معاصراً له وهو كتاب « شعراء النهروانية » للأب لويس شيخو اليسوعي المتوفى سنة ١٩٢٧ .

وحين يذكر جرجي زيدان كتب المؤلفين والأعلام الذين يترجم لهم ، أو دواوين الشعراء الذين يتناولهم بالدراسة ، لا يكتفى بذكر أسماء تلك الكتب وعناوينها ، ولكنه يشير إلى أماكن نسخها الخطية إن كانت مخطوطة ، وإلى أماكن طبعها وتاريخ الطبع إن كانت مطبوعة . وقد استعان في ذلك العمل بالجهد الضخم الذي بذله المستشرق الألماني بروكلان في كتابه « تاريخ الأدب

من عله ، وأول من ضبط قواعده وألف فيه ، ومذهب البصريين والكوفيين . وكل هذا في معرض الحديث عن النحو في العصر العباسي الأول . فإذا بلغ العصر العباسي الثاني عالج موضوع النحو والنحاة فيه معالجة ملائمة ، فإذا بلغ - بعد عشرات وعشرات من الصفحات - العصر العباسي الثالث تناول موضوع النحو والنحاة فيه على ضوء ما تطور من دراسته ، مع بيان ما حدث فيه من تحلف أو توقف أو ابتكار ، وهكذا يمضي في بقية العصور حتى العصر الحديث .

وهكذا يتناول الرجل كل علم ، وكل موضوع في كل عصر من عصور الأمة العربية ، فيلقى عليه من الأضواء ما يكشف عن حقيقته ونموه أو تحلفه .

ولا يرضى صاحبنا من الحديث عن موضوعات العلوم وفنون الأدب بهذا القدر ، ولكنه يقف عند رجال هذا الموضوع ، أو أعلام هذا الفن ، يترجم لكل واحد منهم ترجمة قد تقصر إلى بضعة من السطور وقد تطول إلى بضع من الصفحات . فترجمته للإمام مسلم صاحب الجامع الصحيح في حديث الرسول عليه السلام تبلغ ستة أسطر^(٢) ، وترجمته للمؤرخ الأديب الشاعر صلاح الدين الصفدي صاحب كتاب « الوافي بالوفيات » تبلغ أربع صفحات أو تقاربها^(٣) .

ومن المؤرخين والمؤلفين من يكتفى في تراجمه للرجال بذكر أخبارهم التي ينقلها عن مصادر ومراجع لا يرى ضرورة للإشارة إليها . ولكن جرجي زيدان قد أفاد من المستشرقين في هذه الناحية . فهو يذكر في كل ترجمة المصادر والمراجع التي يمكن الرجوع إليها لمن يريد أن يتوسع في الموضوع ، أو لمن يريد أن يهتدى إلى مآخذه ومصادره . ولقد كان بعض المؤرخين العرب يكتفى بذكر المصادر والمآخذ جملة في صدر كتابه أو في مقدمته ، كما فعل مؤرخنا المصري

(١) الجزء الثاني من تاريخ آداب اللغة العربية ص ٢٤٦ .

(٢) الجزء الثالث - ص ١٧٤ - ١٧٨ .

(٣) تاريخ آداب اللغة العربية ج ١ ص ١٦٢ .

العربي» . ولكنه لم يكن في الأمر كله عالة على بروكلمان، فقد أفاد من رحلاته وزياراته هو المتعددة إلى مكتبات أوربية كثيرة ، كما أفاد من تردده على « دار الكتب المصرية » واستثناسه الدائم بفهارسها . كما أفاد خاصة من مكتبة المرحوم أحمد تيمور باشا .

وتعد تعريفات جرجي زيدان بالكتب التي خلفها الفكر العربي الإسلامي على مر العصور حتى عصرنا الحديث الذي ظهر فيه كتابه - أدق وأوجز تقويم لهذه الثروة الطائلة من إنتاج الثقافة العربية، والعقلية الإسلامية. فقد يقوم الكتاب أو ديوان الشعر في سطر أو في بضعة أسطر ، أو في صفحة كاملة أو قريب منها ، فيقدم إلى القارئ صورة صحيحة دقيقة عن الكتاب الذي يقومه . ولا شك أن هذا التعريف للكتب التي ظهرت في العربية على مر العصور يعد مرآة صادقة صافية لتطور الحياة الفكرية عند العرب ، كما يعد مقياساً دقيقاً لهذا التراث الضخم ، وميزاناً مضبوطاً لمد التيارات الفكرية العربية وجزرها .

وإذا كان كثير من تلك الكتب التي وصفها جرجي زيدان حتى وفاته سنة ١٩١٤ قد تغير حاله إلى الطبع بعد أن كان مخطوطاً ، كما أن كثيراً من تراجم الرجال قد استحدثت فيها دراسات وكتب جديدة منذ وفاة جرجي زيدان حتى يومنا هذا ، وإذا كانت موضوعات البحث حتى عصر زيدان قد جد عليها دراسات جديدة لم تكن في عهده ، كما أن كشوفاً أدبية ولغوية وتاريخية قد ظهرت في الميدان منذ لقي جرجي زيدان ربه ، فإن طبعة جديدة منقحة مزيدة من كتاب « تاريخ آداب اللغة العربية » كانت ضرورية . ولقد نهض بهذا العبء الضخم رجل من علمائنا حمّال مثل هذه الأعباء، هو الدكتور شوقي ضيف الأستاذ بكلية الآداب بجامعة القاهرة .

وظهرت الطبعة الجديدة من « تاريخ آداب اللغة العربية » بتحقيقات الدكتور شوقي ضيف وتعليقاته

وتصويباته واستدراكاته وإضافاته الثمينة سنة ١٩٥٧ . ومن عجائب المقدور أن يقوم الدكتور شوقي ضيف بعد أربعة وأربعين عاماً بتحقيق أمنية الدكتور يعقوب صروف التي تمنّاها على المؤلف في حياته بتحقيق الكتاب وتمحيصه . ولا أحسب الدكتور شوقي ضيف قد بلغ الغاية من هذا ، ولكن مجهوده الضخم المصني يظهر واضحاً في كل صفحة من صفحات هذه الطبعة .

ومن مظاهر الروح العلمية في هذه الطبعة الجديدة « لتاريخ آداب اللغة العربية » أن الدكتور شوقي ضيف قد أسقط عنصر الحاملة من حسابه ، مع أن ولدى جرجي زيدان هما اللذان ندباه للقيام بهذا العمل . ففراه يصحح الخطأ في حرية تامة في التعبير . فقد عدّ جرجي زيدان الشاعر « عبدالله بن الدمينه » من شعراء الجاهلية . وهنا نجد في الهامش تعليقا من المحقق يقول فيه : « أخطأ المؤلف في عد ابن الدمينه من شعراء الجاهلية ، فهو إسلامي »^(١) . ولا نمضي في سرد أمثلة من هذه التحقيقات الثمينة ، فهي كثيرة واضحة تشهد بعلم المحقق وسعة اطلاعه وطول مراجعته ومعاودته للمصادر والمراجع . ولكن يظهر أن الدكتور شوقي قد أجاز لنفسه التغيير والتعديل المطلق في مادة الكتاب . كما فعل في صفحة ٢٤ من الجزء الأول - مثلاً - فقد أباح لنفسه أن يصلح قليلاً في النص كما يعترف هو نفسه في الهامش . بل جاوز الدكتور شوقي ضيف الحد في صفحة ٢٤٦ من هذا الجزء أيضاً ، فوضع أسماء أربعة من رجال الحديث المشهورين في العصر الأموي بدلا من أربعة آخرين مغمورين وضعهم جرجي زيدان في الطبعات السابقة . وكان من الممكن أن يبقى الدكتور شوقي ضيف الأسماء الأربعة التي وضعها زيدان في صلب الكتاب ، وأن

(١) تاريخ آداب اللغة العربية - ج ١ ص ١٧٨ .

رابعاً : نبـوـصـ مـخـتـارـة

لعل كلام جرجى زيدان نفسه عن « تاريخ آداب اللغة العربية » وأقسامها يكون أصدق تعبير عن قضية كان الرجل أول من حمل لواءها بشمول واتساع وتفصيل ، فلنسمعه هنا يقول : (وإذا نظرنا إلى آداب اللغة العربية وأخواتها الساميات ، رأيناها تنطبق على ما تقدم بوجه اجمالي . أما عند التفصيل فأنا نجد بين آداب هذه اللغات وتلك فرقاً كالفرق بين طبائع الأمتين . فالشعر عند الساميين أقدم آدابهم ، لكن أكثره غنائى ، وليس فيه من الشعر القصصى إلا نطف قليلة . أما التمثيل فيظهر لأول وهلة أنه بعيد عن آداب العرب ، وسرى أنه موجود فيها . . . ولا غرو إذا امتازت اللغات الأوربية بالشعر القصصى والتمثيلي ، فإن اللغة العربية وأخواتها تمتاز بنوع من الآداب كبير الأهمية ، ليس منه في لغات الأفرنج إلا نطف ، نعى « الأمثال » فأنها جزء مهم من آداب اللغات السامية ، ولا سيما العربية والعبرانية ، وتندر في سواها .

وآداب اللغة العربية التي هي موضوع هذا الكتاب أغنى سائر الآداب السامية ، بل هي على الإجمال أغنى آداب سائر لغات العالم . . . لأن الذين وضعوا آدابها في أثناء التمدن الإسلامى أخلاط من أم شتى جمعهم الإسلام أو الدولة الإسلامية ، وفيهم العربى والفارسى والتركى والهندي والسورى والعراقى والمصرى والرومى والأرمنى والبربرى والزنجى والصقلبى وغيرهم . . . وكلهم تعربوا ونظموا الشعر العربى ، وألفوا الكتب العربية ، فى الأدب والنحو والتاريخ والطب والعلم والفلسفة ، فاحتوت آداب اللغة العربية بسبب ذلك على أحاسن القرائح ، وشتات الأخلاق والآداب والطبائع ، وأدخلوا فيها كثيراً من أساليب ألسنتهم الأصلية بدون قصد أو تعمل .

يضع فى الهامش الأسماء الأربعة التي يراها أولى من غيرها . . .

وكما أجاز الدكتور شوقى ضيف لنفسه الزيادة - حيث لا تجوز الزيادة - فى الكتاب ، فإنه أجاز لنفسه الحذف ، والحذف الكثير ، بلا داع يبرره ، ولا سبب يسوغه . ففى مقدمة جرجى زيدان للجزء الثالث التى يرد بها على منتقديه ، نرى المحقق الفاضل يحذف ما يقرب من أربع صفحات تتناول موقف الرجل من المنتقدين ، كما تتناول موضوع انتقاد « تاريخ آداب اللغة العربية » وأسماء ناقديه وإيجاز الرد عليهم . ولا يفوتنا هنا - للتاريخ فقط - أن نذكر أسماء هؤلاء المنتقدين ، وهم الأب لويس شيخو اليسوعى الذى نشر نقده فى مجلة المشرق ، والسيد كاشف الغطاء الشيعى النجفى وقد نشر نقده فى مجلة « العرفان » التى كان يصدرها أحمد عارف الزين فى صيدا ، والأب أنستاس مارى الكرملى ، وقد نشر نقده فى مجلة « لغة العرب » التى كان يصدرها فى بغداد ، وأستاذنا المرحوم الشيخ أحمد الأسكندرى الذى نشر نقده فى مجلة « المنار » فى سنتها الخامسة عشرة والسادسة عشرة .

ونعود هنا فنؤكد قضية اهتمام جرجى زيدان بالنقد وإيمانه بفائدته وعدم ضيق صدره به . ومن مآثوراته فى هذا السبيل قوله : « لا جدال فى أن الانتقاد أكثر فائدة من التقريظ ، وقد يتبادر إلى الأذهان أن انتقاد الكتب يحط من قدرها أو يذهب بفضل أصحابها ، وهو خلاف الواقع . وإذا رأينا له مثل هذا التأثير أحياناً فلأن الكتاب المتقدم لم يكن يستحق عناية المنتقدين . ولو ترك بلا انتقاد لكان أسرع إلى السقوط . أما الكتب الهامة فأنها تزداد بالانتقاد شيوعاً ورواجاً ، ويزداد أصحابها رسوخاً فى عالم الشهرة »^(١) .

(١) تاريخ آداب اللغة العربية - ج ٣ ص ٤ .

- ٣ - العصر العباسي .
- ٤ - العصر المغولي .
- ٥ - العصر العثماني .
- ٦ - العصر الحديث .

وقسمنا العصر العباسي إلى أطوار بحسب التقلبات السياسية كما ستراه في مكانه (١١) .

وننتقل من هذا النص إلى نص آخر يعرف فيه جرجي زيدان الشعر ، فيقول : (الشعر من الفنون الجميلة التي يسميها العرب الآداب الرفيعة . وهي الحفر والرسم والموسيقى والشعر . ومرجعها إلى تصوير جمال الطبيعة . فالحفر يصورها بارزة ، والرسم يصورها مسطحة بالأشكال والخطوط والألوان ، والشعر يصورها بالخيال ، ويعبر عن إعجابنا بها وارتياحنا إليها بالألفاظ ، فهو لغة النفس ، أو هو صورة ظاهرة لحقائق غير ظاهرة . والموسيقى كالشعر . . . هو يعبر عن جمال الطبيعة بالألفاظ والمعاني . وهي تعبر عنه بالألغام والألحان ، وكلاهما في الأصل شيء واحد .

هذا هو تعريف الشعر في حقيقته ، ولكن علماء العروض يريدون بالشعر الكلام المقفى الموزون ، فيحصرن حدوده بالألفاظ ، وهو تعريف للنظم لا للشعر . . . وبينهما فرق كبير ، إذ قد يكون الرجل شاعراً ولا يحسن النظم . وقد يكون ناظماً وليس في نظمه شعر . . . وإن كان الوزن والقافية يزيدان الشعر طلاوة ووقفاً في النفس ، فالنظم هو التقلب الذي يسبب فيه الشعر ، ويجوز سبكه في الشعر .

وقد تقدم ابن خلدون خطوة أخرى في تعريف الشعر ، فقال : « الشعر هو الكلام المبني على الاستعارة والأوصاف ، المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي ، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده ،

ونريد بتاريخ آداب اللغة العربية بسط ما تقلبت عليه اللغة وآدابها من أقدم أزمانها إلى الآن . . . فهي - بهذا الاعتبار - تقسم إلى أطوار ، لكل منها شأن يمتاز عن سواه ، وقد لاحظنا في تقسيم هذا التاريخ ما توالى على الأمة من الانقلابات السياسية أو الأدبية ، وما كان من تأثير ذلك على المواهب والقرائح .

ويمكن قسمة تاريخ آداب اللغة العربية حسب علومها وآدابها ، أو حسب الأعصر التي توالى عليها . ونريد بقسمتها حسب العلوم أن نستوفي الكلام في كل علم على حدة من نشأته إلى الآن ، على أن نبدأ بأقدمها ، ونترج إلى أحدثها ، فنبدأ بآداب الجاهلية ، فنذكر تاريخ الشعر مثلاً وتراجم الشعراء من نشأته ، وما تقلب عليه من الأدوار في الجاهلية والإسلام إلى اليوم . ونفعل مثل ذلك في الخطابة وغيرها من آداب الجاهلية ، وبالفتنة والتفسير والأدب والنحو واللغة وغيرها من الآداب الإسلامية . وهكذا نفعل بالعلوم الدخيلة منذ دخولها وما تقلب عليها إلى الآن .

أما قسمتها حسب العصور ، فيراد بها الكلام عن العلوم كلها معاً في كل عصر على حدة . وهذا الذي اخترناه في هذا الكتاب ، لأنه يصور حالة العصور المختلفة ، وما يكون من تأثير السياسة وانقلاباتها في العلم والأدب . ولذلك فقد قسمنا تاريخ آداب اللغة العربية إلى قسمين كبيرين : يفصل بينهما أهم انقلاب أصاب العرب من أول عهد تاريخهم إلى الآن . . . نعني ظهور الإسلام . فهي بهذا الاعتبار تقسم إلى آداب اللغة قبل الإسلام وآدابها بعده . وقسمنا آدابها قبل الإسلام إلى عصرين : عصر الجاهلية الأولى ، وعصر الجاهلية الثانية ، وقسمنا تاريخها بعد الإسلام إلى أعصر أو أطوار ، تناسب انقلاباتها السياسية أو الاجتماعية ، وهي :

١ - عصر صدر الإسلام .

٢ - العصر الأموي .

الجارى على أساليب العرب المخصوصة به « فهو يجعل
التقفية والوزن من شروط الشعر ، ويشترط أيضاً
استقلال كل بيت منها بغرضه ، وهو تقيد لا باعث
له ، إذ قد ترى في الكلام المنثور معاني تؤثر في نفسك
تأثير الشعر ، وذلك كثير في كلامهم ، والحكم فيه
للذوق . ومن أصعب الأمور أن نعرف الشعر ، وتجعل
له حدوداً جامعة مانعة ، كما نعرف الصرف أو النحو
أو الفلك أو غيرها من العلوم والآداب . ولكنك إذا
قرأت قولاً فيه خيال شعري تعرفت الشاعرية فيه ،
وشعرت بلذة ذلك التعرف وطربت له . وقد يكون
ذلك النثر قولاً ، وإنما أطربك ما فيه من أساليب الكناية
أو الاستعارة . . . فإذا سبكته في قالب شعري زاد
رونقاً وطلاوة ، فإذا غنيتته على توقيع الألحان زدت
طرباً به . فالوزن يزيد الشعر طلاوة ، من قبيل التوقيع
الموسيقى في الألفاظ والحركات ، لا من قبيل المعنى .
فإذا قرأنا لبعضهم نثراً يصف به ذهوله في الحب ،
فيقول : « إذا جئت دار الحبيب ليلاً الحاجة لي أتمسها ،

فلا أدخل الدار حتى أنسى ما جئت له » فهذا معنى
شعري ترتاح إليه النفس ، لكن ارتياحها يكون أكثر
إذا نظم ذلك المعنى شعراً ، كقول الجنون :
فيا ليل ! كم من حاجة لي مهمة
إذا جئتكم بالليل لم أدر ما هيا
ويكون وقعته في النفس أشد إذا غنى عن لحن
مطرب .

وعلى ذلك فيدخل في الشعر كثير من أقوال العرب
التي نعتها من قبيل الأمثال أو الحكم الماثورة المبنية على
الكناية ، كقولهم : « المرء بأصغريه لا يبرديه ، وعاد
الأمر إلى نصابه ، وصاحت عصفير بطنه ، ونحو
ذلك » .

فالشعر بالمعنى لا بالوزن والقافية . . . وقد رأينا
بعض متقدمي العرب يرون هذا الرأي في تعريف
الشعر ، فقد قال بعضهم : « الشعر كلام وأجوده
أشعره » ولم يقيده بالوزن ولا القافية . وقال آخر :
« الشعر شيء تجيش به صدورنا ، فنقذه على ألسنتنا » .



أدولف لينيامين كونستان

معلم

الأستاذ احمد رشاد

رجل غير واقعي

(Mme de Charrière) التي اعتاد استشارتها في أموره بقوله : « رغم إفهامهن أنني لا أكن لمن إلا الصداقة ، كن يطلبن مني الزواج مبديات استعدادهن للتضحية من أجلي حتى يشرفهن وبكل ما يمكن . . . » . وفي الواقع ، كان لينيامين يميل إلى الترويح الذهني أكثر من ميله إلى لذة الشهوة الجسدية . وإن صادف وهزته هذه الشهوة ، جعل استمتاعه بها مع بنات الهوى . كان كل همه التفتن في المغازلة التي يسميها مونتسكيو « بأحب الكاذب » .

إن تشاؤمه ، ورخاوته ، وتردده ، وسرعة غضبه ، وخوفه من المسؤولية وقلقه المستمر من الخديعة ، شحنت حياته بالمضايقات والمتاعب والفشل ، وجعلت منه « رجلاً غير واقعي » على حد تعبيره .

إن هذا الكاتب - السويسري المولد ، الفرنسي الثقافة ، الإنجليزي النزعة - ليس إلا مجموعة من المتناقضات . وهو يعترف بأنه لم يذق طعم الحنان في صباه - وهي الحقيقة - ولكنه بمجرد أن يشعر بالشفقة عليه من أحد ، يسخر منه ويهزأ به . وبينما يصرح بأنه يكره الحياة ويحترقها ، يتهمها بأنها لم تجلب إليه الرفعة المشوذة ، ولا علو الصيت المرتقب . وأنه إن دافع عن

يجمل بنا في مقدمة هذه الدراسة ، قبل أن نرفع الكلفة بيننا وبين لينيامين كونستان (Benjamin Constant) القول بأن هذا الرجل الذي كان يفتخر بخبرته في فنون الغرام ، وأنه اتخذ الهيام هادياً ورسولاً ، لا يجد في نظرنا مكاناً له بين كبار الأجابة ولا مجلساً له مع أهل الهوى :

لا نريد اتهامه باتخاذ ربات الحجال سبيلاً للتسلية ، وإنما نظنه يعتبر النساء - على الأقل اللاتي عاشرن - زميلات مرفهات أو صديقات في وسعهن منافسته في ذكائه . كان حبه لمن يلبس ثوب الصداقة أكثر من رداء الشهوة ، وكان يميل إلى رؤية نفسه محبوباً أكثر منه كونه محباً ، ليكون دائماً في مأمن من حرارة الحب أو الإطالة في عمره .

وسنراه في الثلاثين من عمره وسط صديقات تحاول كل واحدة منهن أسره بسحرها وإلحاحها ، لتجعل منه شريك حياتها ، ناسية أنه حريص كل الحرص على التمتع بحريته « وأن إلحاح النساء عليه في مجال الغرام جعله يفتح مدام دي شاربير

له ، بفضل طول الصبر والثبات . ويعلق كونستان معترفاً بدوره : « إن منظر تلك السعادة جعلني أندم على عدم بحبي عن مثلها ، فلم أكن بعد قد اتصلت بامرأة استطاعت بحبها لي ارضاء كبريائي . . . وأمام اضطراب شعوري ، قلت لنفسى : إلا من حبيبة تعشقتي ؟ » .

هل سمعته أيها القارئ العزيز ؟ إن كل ما يصبو إليه ، وكل ما ينشده ، لا أن يحب ولكن أن يرى نفسه محبوباً ! إن المسكين قد فاته أن حبنا لا ينمو ولا يثبت إلا عندما ننسى حبنا الذاتي !

ولنستأنف كلامنا عنه باستشهادات مستقاة من قصته ، إذ يقول : « في اللحظة التي كان قلبي فيها متفتحاً للحب ، وطموحي تواقاً إلى النجاح ، وقع نظري لحظة على اللينور (Ellénoire) فخلتها خير فريسة لي » . أهذا هو كلام المحب الصادق أم الرجل النهاز للقرص الذي لا يهمه إلا إشباع هوايته بايقاع أكبر عدد من النساء في حباته ولا يرغب إلا في اذلال المرأة باسم الحب ؟ ولكن هناك ما هو أسوأ ! إنه كثيراً ما يخلط بين الحنان العميق الصادق وبين عاطفة طارئة مزاج متقلب ، إذ يقول : « إن أية عقبة تقف في سبيل حياتي كانت تؤرقني . والحب الكاذب الذي كنت أبدو منذ حين ، كان يخيل لي إلى أنني أشعر بلهيبه في أحشائي » . والأمر الذي يحيرنا في استجلاء شخصية هذا الرجل الذي اتخذ اللعب بالقلوب هواية ، هو قوله في قصة « أدولف » : « الويل للرجل الذي لا يعتقد في أبدية رابطة الحب » . ثم هو يقول مستأنفاً الكلام عن مغامراته مع اللينور : « وكنت أشعر بأن رابطة حبنا لا يمكن أن تدوم » .

وإذا عارضنا أحد في هذا الحكم متعللاً بأن هذا الشعور إنما ينطبق على أدولف بطل الرواية ، لا على بنيامين ، فارجوه الاطلاع على المذكرات الخاصة التي

قضية عادلة ، فسرعان ما يتفقد صبره ويعلل ذلك بقوله : « إن الكفاح يتعبني ، وكل ما أريده هو الراحة » . وأنه إن تفاني في مساعدة إخوانه ، فن باب الحماة لا الحب . وأنه إن افتخر بحريته الشخصية ، نجده أسير النساء ، أسير الميسر وضحية التقلبات السياسية . وأنه إن أكد بأن العقيدة لم تجد سيلاً إلى قلبه وأكب على تأليف المجلدات ضد الأديان ، نراه يعترف للدوق دي بروي (Duc de Broglie) قائلاً : « لقد جمعت حوالي أربعة آلاف حادثة تعزز رسالتي ضد الأديان ، لكنني بعد تفكير عميق ، استبعدتها لعدم جدواها . وأنه إن تاق إلى رؤية اسمه يلعب بين أهل عصره ، وأفكاره تملأ صدورهم ، نراه يعترف وهو في سن السابعة والثلاثين قائلاً : « لقد ضقت ذرعاً بالعالم وأهله حتى فقدت الأمل في أن يستظرفني أحد ، فيا ليتني مت قبل هذا ! » وأنه إن انتظر طويلاً للعثور على زوجة شابة جميلة لطيفة كفيلاً بضمان حياة رتيبة له ، نجده يتزوج لأول مرة بامرأة دميمة لا يحبها ولا تحفظه بالغيب . ثم يتعلق بصديقة قدمه ، يتركها مدة ، ليتزوجها بعد خمسة عشر عاماً . وأنه كان يمثل عدم الاستقرار ، ولكنه بدل الاعتراف بذلك ، يحاول التخلص من هذا العيب ليقع في أعمال صبيانية ومهاترات تافهة .

ولكي نعطي صورة واضحة لحكمتنا هذا عليه ، فلا يسعنا إلا أن نتركه يتكلم عن نفسه . إنه يقول في مذكراته : « إن ذكرى عشرين عاماً من حياتي قد ضاعت وأصبحت ملكاً لمن استحوذ عليها دوني ، الأمر الذي سيجعلني أحتقر نفسي وسيبسط من همتي إلى اليوم الذي تتغلب فيه عزمي على تردي » . ولكننا سنرى أن هذا التردد المرذول الذي يسميه « بعذاب الحياة الأكبر » سيلازمه طيلة حياته دون استطاعته التخلص منه .

ونراه في كتابه « أدولف » (Adolphe) يقص علينا اعترافات أحد أصدقائه نجح في الفوز بحب امرأة

كتبها المؤلف والتي يقول فيها بالحرف في سنة ١٨٠٧ :
« سأبدأ بكتابة قصة هي في الواقع تاريخ حياتي » .

ولا نريد أن يعتقد القارئ أننا سنلازم هذه القسوة
في الحكم على عواطف وتصرفات بنيامين كونستان ،
الرجل ذى القلب الرحيم الذى ذبل قبل الأوان ،
وصاحب القريحة الوقادة ، والملل السريع ، بل إننا
نطمئن القارئ بأن الرجل يستحق أن نبعد عنه كل
ما من شأنه أن يقلل من مكانته ، لأنه في الحقيقة ، رغم
ما فيه من تباين في الصفات والأخلاق ، يعتبر كاتباً
ماهرأ يتمتع بسليقة الأديب ذى الأسلوب الساحر
الأخاذ . وسحر بيانه كفيف بل يجلب له الغفران على
زلاته . ولا يجد القارئ متعة في قراءة أروع مؤلفاته
فحسب ، بل يجد لذة في استعادة قراءتها . كما أن نبل
الكلمات التى سنسردها فيما يلي ، خير شفيح للتغاضى
عن أخطائه وأطوار طيشه : « إننى أمقت كل مدع
يتلمس العذر لإعجابيه بمنطقه . إنى أمقت كل مختال
يدير دفة الحديث حول نفسه ، ويحلل للسامعين
شخصيته بدلا من الاعتراف بأخطائه . إنى أمقت ذلك
الضعيف الذى يلقي تبعية ضرر ضعفه على الآخرين
ولا يعترف بأنه هو مصدر ذلك الضرر » .

إن ما يفضى على بنيامين كونستان صبغة العظمة
ويرفعه في أعيننا هو قضاؤه سنى الصبا وأطوار الشباب
دون عقاب يكبح جماحها . وليس الخطأ من عنده ، بل
يقع التقصير على أولئك الذين كان من واجهم السهر
على تربيته . ومع ذلك فهو لا ينحو باللائمة على أبيه
ولا على مدرسيه رغم أنهم جميعاً أفرغوا في قلبه الشك
والجحود بالإيمان فى سن يكون فيها الشباب عادة مفعم
القلب بالتفاؤل وقوة الإيمان . لهذا لا يجب علينا أن
نرى فيه بعين الدهشة ، تلك الطبيعة المعقدة وميله إلى
التهور أكثر من التوعدة ، وإلى التردد أكثر من الثبات ،
وإلى الاندفاع أكثر من الحزم !

ويرى بعض النقاد فى بنيامين الرجل الجاف الذى
لا يعرف الرحمة ، ولكنه فى الواقع ، كان يخفى وراء
ذلك قلباً روئوفاً مليئاً بالطفية . وهو يكره فى الرجال
تظاهرهم بأحاسيسهم وتأثرهم وحبهم على صاحب
المصيبة لأن غرضهم فى نظره ، لا مشاطرته أحزانه
وأتراحه ، بل لإلباس فداحة الأمر ثوب التفاهة . ويقول
فى مذكراته : « إنى من أولئك الذين يحترمون آلام
الغير ، وأدعو الله أن يحفظنى من إطفاء لهيبها فى قلوبهم
بعبارات المواساة التقليدية ، لأنها فى نظرى تدنيس
لتلك الآلام . ولا يثيرنى شيء أكثر من رضا المكوم
عنها » .

ونجده فى اعترافاته رجلاً متساعماً ، يميل إلى الصلح
والمصالحة ، ولولا رجاحة عقله لظنناه يؤمن بالقضاء
والقدر وما كتب على الجبين ؛ وهو يقدر ضعف
الإنسان ، لذلك فهو يترفق به ويحلم عليه . ويقول فى
هذا : « لا يوجد الرجل الكامل ولا يمكن أن يكون
الإنسان صريحاً كل الصراحة ولا خبيثاً كل الخبيث » .
ويؤثر عن مونتني (Montaigne) قوله : « إن
الإنسان متباين الصفات ومتلون الأخلاق » . وإذا كانت
هذه الصفة لا يمكن خلعها على كل إنسان فإنها تنطبق
تماماً على بنيامين كونستان ، ذلك المخلوق الموائى
المزاج ، الرقيق العاطفة الذى تسيره الأهواء كيف
شاءت ، لا يعرف ماذا يريد ، ولا يدري ماذا يقيد ،
كأنه لعبة فى أيدي الظروف ، يدس نفسه فى مآزق
ولا يستطيع الخروج منها حتى ينخيل لناقديه أنهم أمام
رجل زئبقى ، يفلت من بين الأصابع ، أو رجل غامض
لا يمكن استشفاف أفكاره وتوابعه ، أو استكشاف
اعوجاجه وانحرافاتة !

وكتب عن نفسه فى ذات يوم يقول : « لقدهدمتنى
الحياة وجوها الذى ينحق كل موهبة . . لا أدري كيف
أصف سرورى لوجودى وحيداً . . . إن العزلة هى
دوائى الوحيد » .

ولعله كتب هذا وهو يفكر فيما قاله بسكال (Pascal) بأن المصائب تنصب على رأس الإنسان ، لأنه لا يعرف كيف يستجم في غرفة . ولو أن كونستان انترم هذا العلاج لكفانا مؤونة البحث عن دراسة سكناته وحركاته لفهمه .

حياته وآثاره

كان هذا الكاتب ، بملامحه النبيلة ، ووجهه المعبر ، وشعره الأحمر المتجمد ، وعينيه الصغيرتين ، وقامته الطويلة المنحنية ، وكتفيه الضيقتين ، وساقيه الرفيعتين ، يخفى في ثيابه أكثر من رجل عظيم ولكنه لم يكن واحداً منهم ؛ وعاش أكثر من حياة ولكن لم يستفد بواحدة منها . لقد سار وراء الحب دون أن يصل إليه ، وحاول الاعتقاد بأنه يعشق ولكن إله الحب كان لا يثق في تصرفاته ، فأصم أذنيه لكي لا يستمع إلى نداءاته الوهانة . ويرجع ذلك إلى ميله لجلب العراقل لنفسه ، والوصول إلى غايته عن طريق الأشواك ، والتصرف دون النظر في العواقب أو الشعور بالمسئولية في أموره وأحواله ، حتى ليبدو كأنه شخصية « فودفيل » . فغامراته تنتهي عادة بمبارزة أو بانتحار غير موفق ، بل إنك لا تعرف أكان صريحاً في شعوره أم مخاتلاً ، صادقاً أم كاذباً . ومن أقواله عن نفسه : « إن خير صفة خلعتها على السماء هي أني جعلت من نفسي مادة للسخرية ! » وكان يجدر به أن يضيف بأنه يجد لذة في جعل الآخرين مادة لسخريته .

ولد في لوزان يوم ٢٥ من أكتوبر سنة ١٧٦٧ من أسرة فرنسية بروتستنتية الأصل ، استقرت في هذه المدينة منذ أوائل القرن السابع عشر . كان والده جوست كونستان دي ريبيك (Juste Constant de Rebecque) من مواليد سنة ١٧٢٦ يعمل ضابطاً برتبة يوزباشي في فرقة سويسرية تابعة لهولندا . أما أمه هنرييت دي شانديو (Henriette de Chandieu) ، المولودة في عام

١٧٤٢ : فقد لفظت أنفاسها الأخيرة بعد وضعه بأسبوعين .

قضى الصبي شبابه دون أن يشعر بأى عطف أو حنو . كما سبق أن قلنا . ولم يستطع أبوه أن يسهر على تربيته أو يسدى إليه النصائح لكثرة تنقلاته وما أتصف به من خجل مشوب بكبرياء . وساحة ممزوجة بخشونة فضلاً عن عدم وجود تجاوب نفسي بينه وبين ابنه .

ترعرع الشاب بين أيدي عدد من المدرسين والمربين غربي الأطوار والأحوال : كان مربيه الألماني يضربه ويركله ثم يحنو عليه ، وكان مدرسه الفرنسي لا يعتقد في الأديان ويميل إلى الفسوق ، وكان أستاذه البلجيكي موسيقاراً ضعيف العزيمة يترك تلميذه يلتهم المؤلفات المفسدة للأخلاق . وهناك مدرس فرنسي آخر هجر المحاماة للتدريس وحكم عليه بالنفي ، كان يرغم الشاب على نقل مسودات مؤلفاته التاريخية التافهة ، وراهب فرنسي ترك التبعد . مثقف ومجامل إلا أنه كان خائر الإرادة انتهى به الأمر إلى الانتحار من أجل حب فتاة .

هكذا تناولت تربيته عدة أيدي متناقضة إلى أن رأى والده إلحاقه بجامعة أكسفورد بإنجلترا . ولكن تبين له أن الجامعة لا تقبل إلا من بلغ العشرين عاماً بينما ابنه كان لا يزال في الثالثة عشرة . عاد به أبوه إلى سويسرا حيث كلف به أحد المدرسين لتثقيفه ، ثم أخته بجامعة ارلنجن (Erlangen) في سنة ١٧٨٢ . أظهر الفتى ذكاء ومثابرة في تحصيل العلم ولكنه كان على جانب كبير من « الشقاوة » الأمر الذي جعله يترك ألمانيا ويلحق بأبيه الذي أدخله جامعة ادنمبورج لاستكمال دراسته : وكان عمره ستة عشر عاماً .

أقام الفتى عند أستاذ في الطب يوجر غرافاً في بيته لبعض الطلبة . ونشأت بين كونستان وبين زملائه صداقة أدت إلى قيام محاورات ومناقشات وتحقيقات

النيران المتأججة في فؤاده من أجلها ، فلم تقبل إلا صداقته بينما كان يطمع فيما هو أكثر من الصداقة ، فذهب إليها وارتمى تحت قدميها في تمثيلية عجيبة ، ثم راح يضرب رأسه في الحائط ، مما جعل مدام تريفور في وضع محرج دفعها إلى تهديته ونصحه ، لكنه انصرف مهدداً بالانتحار . لم ينفذ تهديده هذا ، بطبيعة الحال ، كما لا يخفى على القارئ ، وراح يردد عليها مكثفاً بالصداقة .

ولقد ذكرها في كتيبه المسمى « الكراسية الحمراء » (Le Cahier Rouge) الذي حرره سنة ١٨١١ وقص فيه الحوادث التي مرت به في العشرين سنة الأولى من عمره ، ويقول عن هذه السيدة : « كانت تستقبلني في بيتها ونمكت منفردين فيه حتى الثالثة صباحاً دون أن يحدث بيننا أى شيء ، فقد كنت خجولاً للغاية رغم غرامي الشديد بها . ولم أكن أعلم وقتئذ أنه كان يجب على أن آخذ ثمرة الحب غلاباً لا استجداء . كنت أستجدي ، في الواقع ، ولا أنال شيئاً إطلاقاً . كانت مدام تريفور تنظر إلى كعشيق من طراز فريد . ولما كانت النساء عادة يحبن كل ما يشبع غرورهن ، فلم تستنكر تصرفاتي وتعودت عليها . »

لم تدم هذه الصداقة وانتهت عند عودة بنيامين إلى باريس بأمر والده .

مدام شارير وكونستان

تعرف بنيامين أثناء وجوده في العاصمة الفرنسية ، بسيدة تتمتع بقدر وافر من الثقافة والذكاء أثرت في مصيره تأثيراً ملموساً ، هي مدام دي شارير (Mme de Charrière) الهولندية الأصل البالغة من العمر سبعة وأربعين عاماً ، بينما لم يكن فتاناً قد ناهز العشرين . كانت لا تزال تحتفظ بقسط كبير من الجمال والدلال . تزوجت هذه السيدة بعد الثلاثين من عمرها برجل سويسري له أملاك شاسعة ، رقيق الطباع لكنه فاطر

عن الفن والأدب والفلسفة . ولكنه تعرف في هذه الأثناء ، للأسف ، بموسيقار إيطالي تعلم منه لعب الميسر أكثر من فن الموسيقى . وتعلق بهذا الداء إلى آخر يوم في حياته .

وبعد إقامة سنة ونصف في اسكوتلندا . توجه إلى باريس في مارس سنة ١٧٨٥ بناء على رغبة أبيه . وكان يبيت في دار الكاتب جان باتست سوار (Jean-Baptiste Suard) ويتلاقى مع زواره الأدباء . ووكل به الميسو بومييه وهو رجل تافه محتال ، فكان يطوف به على المواخير وبيوت الدعارة ، وعلم والده بالحياة التي يعيشها ابنه فأمره بالذهاب إلى بروكسل حيث نبض قلبه بأول حب .

» » »

هام بنيامين كونستان بمدام جوهانو (Mme Johannot) البالغة من العمر ثلاثين عاماً ، وهي سويسرية ساحرة الجمال على قسط وافر من الذكاء ، متزوجة من رجل أعمال عين بعد الثورة الفرنسية نائباً في الجمعية الثورية . كان هذا الحب يقوم على الفضيلة ولم يدم إلا دوام سخابة الصيف .

تلقى بنيامين أمراً من أبيه يحتم عليه العودة إلى سويسرا . فأقام في مدينة لوزان وأكب على الدراسة وبدأ يكتب « تاريخ الوثنية » متأثراً بأفكار الفيلسوف الفرنسي هلفيسوس (Helvétius) صاحب كتاب « الروح » .

دخل قلب الفتى حب جديد في شخص مدام هاريت تريفور (Mme Harriet Trévor) وهي سيدة انجليزية في الخامسة والثلاثين من عمرها ، افترقت جسدياً عن زوجها ، سفير إنجلترا في تورينو بايطاليا . كانت لا تزال تتمتع بحسن نادر وجمال أخاذ ، وكان لها أكثر من معجب . انضم بنيامين إلى جماعة المعجبين بهذه السيدة وأرسل إليها كتاباً بث فيه غرامه وشرح لها

حتى لا يكاد يرى ، ولكن صلابته تجعله لا ينقطع أبداً .

وعندما علم بموتها صرح قائلاً : « لقد خسرت صديقة وفيه وأصبح العالم في نظري خالياً من الناس » .
إذا كانت مدام دي شارير أثرت في عقلية فتاها ، فإنها لم تفلح في التأثير على أخلاقه وطباعه . فهو لا يزال يصرف وقته في الميسر ويستدين . وأرادت سيدة عجوز تعرف أسرته أن تزوجه من فتاة في السادسة عشرة من عمرها ، جميلة ولها إيراد يبلغ تسعين ألف جنيه سنوياً ، قاصدة بذلك ابعاده عن ذلك الداء . ولكن اتضح أن الفتاة مخطوبة . فما كان من والد بنيامين - على أثر فشل هذا الزواج واستمرار ابنه في لعب القمار ، إلا أن أوفد إليه رسولا ليحضره إليه ، بيد أن الفتى هرب إلى إنجلترا . والعجيب أنه بمجرد وصوله إلى هناك ، اشترى كلبين وقرداً ! ثم راح يطوف المدن البريطانية بحثاً عن أصدقائه وزملائه في الدراسة . وانتهى به المطاف إلى اديمبورج .

وأخيراً فكر في ضرورة العودة إلى والده ، فوصل إليه وكله خوف من عتابه ، ولكنه استقبله دون غضب أو فرح وهو يلعب الورق مع ضباط من أصدقائه ، مبادراً إياه بقوله : « آه ! أنت هنا ! كيف جئت ؟ » فقال : « تارة راكباً جواداً وطوراً عربية » . فرد عليه أبوه قائلاً : « لا شك أنك متعب . اذهب إلى الفراش » . ظل بنيامين ثلاثة أيام في عزلة تامة ، ثم ذهب لزيارة مدام دي شارير وليبت عمه في لوزان . ويجمل بنا القول هنا بأن كونستان كان يكره أسرته ومسقط رأسه لكثرة ما صبه أبوه في صدره من مساوئ الأرستقراطية السويسرية .

تشريفاتي وزوج

وجد الفتى نفسه في أوائل سنة ١٧٨٨ محروماً من دفء الحياة العائلية ، مهموماً من تجارب الحب والغرام ،

الشعور ، الأمر الذي جعلها تهرب من الحياة الزوجية إلى الإنشاء والتحرير . وعندما جاءت إلى باريس لطبع إحدى قصصها ، تقابلت مع بنيامين .

ويحق لسانت يوف (Sainte-Beuve) أن يقول بأن هذه السيدة اللامعة ساهمت أكثر من أي إنسان آخر على شحذ قريحة كونستان . ويجدر بنا - وإن بدا هذا غريباً - الاعتراف بأن هذه القريحة كانت مزدانة أصلاً بعدة معلومات ومعارف متنوعة قبل أن يعرف هذه السيدة . فرغم حياته المختلة ومجونه وسهره على موائد الميسر ، استطاع تعلم اليونانية واللاتينية والإنجليزية والألمانية والإيطالية ، وأن ينشر مقالات ذات شأن ، وأن يقرأ عدداً ضخماً من كتب الأدب والفلسفة والتاريخ .

وخلال الأعوام الثمانية التي قضاها مع مدام دي شارير ، كان إما يرأسها أو يزورها في ضيعتها بمدينة كولومبييه (Colombier) . ويذكر ذلك في كتابه « الكراسية الحمراء » حيث يقول : « كم من أيام وليال قضيناها في المسامرة ! وكم كانت مدام دي شارير قاسية في حكمها على الناس ، وكم كنت أنا ساخراً بطبيعتي ، الأمر الذي جعلنا في تجاوب تام » .
مل بنيامين مع طول الوقت تلك المسامرات والأحاديث الجافة الجدية المشبعة بالتشاؤم ، الخالية من الفكاهة والمرونة . أما مدام دي شارير ، فقد فهمت صعوبة الاحتفاظ بجانبها ، بمثل هذا الفتى الطموح القلق المتقلب المليء بالشهوة ، التواق إلى الحرية ، والاستقلال .

وقرت صلة بنيامين بدمام شارير عندما تعرف بدمام دي ستال (Mme de Staël) ، بيد أن هذا الفتور لم يمنع الصديقة السابقة من الاحتفاظ بالشباب الذي خفف عليها وطأة حياتها الكئيبة ، حتى إنها كتبت في سنة ١٨٠٥ ، قبيل وفاتها ، تقول عن صلتها بكونستان : « إن من الخيوط ما يكون رفيعاً ودقيقاً

غادرة تركت معاشرتها له أسوأ الأثر في نفسه ، فأصيب بأزمة تدهورت على أثرها صحته ؛ ولم يكتسب من رجال البلاط إلا العداوة والحسد ، فقدم استقالته وترك عمله في عام ١٧٩٤ ليعود إلى سويسرا قرير العين لبعده عن عالم لم يهضم أخلاقه وتصرفاته .
ولنذكر هنا أنه قبل مغادرته بلاط الأمير بستة تعرف بشارلوت دي هاردنبرج (Charlotte de Hardenberg) التي سنراه يتزوجها في عام ١٨٠٨ .

وصال يدوم خمسة عشر عاماً

وصل بنيامين في هذه الفترة من حياته إلى منحن هام حيث تعرف بمدام دي ستال التي فرضت سيطرتها عليه بجدّة ذكائها وقوة حيويتها . امتازت هذه السيدة بميول تحررية ، وضمن لها قلمها صيتاً مدوياً في الأوساط الأدبية .

تزوجت في عام ١٧٨٦ من البارون دي ستال هولشتاين (Staël-Holstein) سفير السويد في باريس ، ولم تجد نجاحاً في بلاط لويس السادس عشر . ثم رأت من الحكمة أن تترك العاصمة الفرنسية بعد انهيار الملكية ، فلدجأت إلى إنجلترا ، ثم إلى سويسرا حيث جمعت حولها في قصرها بمدينة كوبي (Coppet) عدداً من النبلاء الفارين من وجه الثورة الفرنسية . وفي هذا القصر ، تمت مقابلة بنيامين مع مدام دي ستال لأول مرة في ١٩ سبتمبر ١٧٩٤ .

لاحظت عليه علامات الخجل مما بدا عليه من ارتباك في مشيته ، كما كان مدعاة للسخرية والضحك في نظرها ، بقامته الطويلة وبصره الضعيف ، لكنها غيرت رأيها فيه بعد مجالسته ومحادثته ، إذ اكتشفت فيه المحدث اللبق الواسع الاطلاع حتى إنها طلبت منه العودة إلى زيارتها مرة أخرى .

عاد إليها ليلظل معها حتى عام ١٨١٠ . وكثيراً ما حاول بنيامين التخلص من مزاج هذه السيدة الحاد

توافقاً إلى إيجاد عمل شريف يشغله عن قلقه ، وينشله من البطالة التي يعيشها ، لذلك نراه يقبل وظيفة تشريفاتي في بلاط أمير دوقية برانسونيك (Duché de Brunswick) شارل الثاني السياسي المرن والإداري المحنك ، والأديب النابه . وبالرغم من تقدير بنيامين لهذا الأمير ، كان يمتق حاشيته ولم ينسجم مع الذوق الألماني وأحس بكرهية طبيعية لسكان البلد . ويقول في ذلك : « إن الألمان قوم ثقالي في التفكير وفي المزاج وفي التسلية وفي الملل » . وكانت سخرية بنيامين وتصرفاته موضع استياء من النبلاء والعظماء في البلاط ، فكانوا يعاملونه بجماء وصلابة ، فكان يهرب من الجو بقراءة اليونانية ودراسة تاريخ ألمانيا وركوب الخيل واللعب على البيانو ومكاتبه مدام دي شارير . بدأت خطاباتها تحمل إليه كل حب وحنان ، ثم راحت تظهر شيئاً فشيئاً العتاب ، إذ نجحت الأقاويل الخبيثة المغرضة في بث بذور الشك في قلب هذه السيدة وإضعاف تلك الصداقة النقية الطويلة .

هكذا وجد بنيامين نفسه في عزلة ، مكلوم الفؤاد ، مكسور الخاطر ، فقرر الزواج في مايو ١٧٨٩ من وللملين دي كرام (Wilhelmine de Cramm) الوصيصة في بلاط شارل الثاني . لم تكن هذه الزوجة جميلة ، بل بالعكس دميمة تحمل أثر الجدرى في وجهها ، محمرة الأجنفان ، نحيفة القوام ، عارية من كل ثقافة ، وفقيرة فوق كل هذا . عاش الزوجان فترة ساد فيها التفاهم . ولكن سرعان ما انقلبت وللملين من امرأة وديعة مطيعة إلى خائنة لرباط الزوجية مع أمير روسي . وعلم بنيامين بهذا فتركها ثم طلقها في سنة ١٧٩٥ .

إن هذا الشاب الذي جاء إلى ألمانيا في الواقع ليرتب حياته ويضمن لنفسه مستقبلاً باهراً بما حباه الله من ذكاء ، وسعة اطلاع وقوة قريحة ، والذي استقبل الثورة الفرنسية بحماس ، لم ينجح إلا في الارتباط بامرأة

ولهجتها الآمرة ، ولكن سرعان ما كانت تهيمن عليه فيطيب له المقام بجانبها . كان يشعر بحاجته إلى هذه « المرأة الذكر » ليقوى من عزمته ويبعد عن نفسه التردد .

وبعد انتهاء عهد الارهاب في فرنسا ، رأت مدام دي ستال العودة إلى باريس ، ظناً منها أن في التناف المعجيين بها وانتشار صيتها ، سيجعل نجمها يتألق في سماء فرنسا . ولكن سرعان ما خاب أملها ، فعادت أدراجها إلى كوبي في نوفمبر سنة ١٧٩٥ ، أي بعد شهر من تكوين حكومة الإدارة الفرنسية (Directoire) المكونة من خمسة أعضاء والتي ظلت في الحكم أربعة أعوام .

لم يذهب بنيامين إلى سويسرا مع مدام دي ستال لاعتقاده أن النظام الجديد ستكتب له الحياة . وطاب التجنس بالجنسية الفرنسية بصفته منحدرأ من أسرة بروتستانتية مهاجرة . ثم اشترى ضيعة بمبلغ ٣٠.٠٠٠ فرنك في ضاحية باريس .

وظهر أول كتيب له بعنوان « قوة الحكومة الحاضرة في فرنسا وضرورة الانضمام تحت لوائها » . (De la Force du Gouvernement actuel en France et de la nécessité de s'y rallier)

ثم أعقبه بمؤلفين آخرين هما :
« رد الفعل السياسي »

(Des réactions politiques)

و« عواقب الارهاب »

(Des effets de la Terreur)

وبعد أن عاد الوافق بين مدام دي ستال والحكومة الفرنسية ، سمح لها بالعودة إلى فرنسا على ألا تقطن باريس . فأقامت في ضيعة بنيامين وكان في نيّتها أن تجعل منه وزيراً . وقبل أن تهتم بأمره رأت أن تؤدى خدمة جلييلة لصديقها القديم تاليران (Talleyrand) حيث استطاعت تعيينه وزيراً للعلاقات الخارجية ، أما كونستان ، فجعلت منه سكرتيرها في مساعيا

ومباحثاتها ودسائسها حتى أتعبته وأنهكته إلى درجة جعلته يكتب إلى عمته لتبحث له عن زوجة . لقد مل خليلته الأدبية المتعبة ومل استعبادها له وعدم الاستقرار الذي يعيش فيه ، وإن كان في قرارة نفسه قد اعتاد على تلك الحياة المضطربة الصاخبة بصالوناتها السياسية ، التي كان يخدم فيها مع الصحفيين الذين كانوا يعتبرونه فرنسياً دخيلاً .

وفي أوائل عام ١٧٩٧ ، أذنت الحكومة لمدام دي ستال في الإقامة بمدينة باريس حيث عادت إلى دسائسها . وهكذا ساعدت باراس (Barras) أحد الأعضاء الخمسة في « الإدارة » ، في التخلص من اثنين من زملائه ومن كثير من أعضاء البرلمان . ثم قامت بعد ذلك تناهض الإجراءات التعسفية التي اتخذها باراس ، وتستنكرها بعنف .

ووصف بنيامين أعمالها هذه بالطيش وعدم الروية فصبت عليه غضبها هو الآخر . ورأى باراس أن يتخلص من ثرثرة ونقد مدام دي ستال ، فأصدر أمره بطردها من الأراضي الفرنسية .

ظل كونستان في باريس ليحاول أن يثني عزم باراس ويقنعه باصدار العفو عن مدام دي ستال . وفي هذه الأثناء تقابل مع سيدة تدعى جولي تالما (Julie Talma) سبق له التعرف بها على أثر عودته من بلاط شارل الثاني .

ويجدر بنا أن نذكر كلمتين عن هذه السيدة التي نجد شبا بينها وبين بطلة قصة كونستان المشهورة .

ولدت سنة ١٧٥٦ ، ورقصت على مسرح الأوبرا وهي في التاسعة من عمرها . ثم تزوجت سنة ١٧٩٠ بالمثل الكبير تالما الذي لم يك وفاقاً لها .

كانت جولي تتمتع بحسن نادر وبجمال وثناء وثقافة ، راجحة العقل ، قوية العزيمة ، صادقة الحكم ، لمع صالونها خلال حكومة الإدارة . عشقت بنيامين

ولكنه لم يشعر نحوها إلا بالصدقة والاحترام ، فاستيقنت أنها لن تستطيع استمالة ذلك الرجل الثائر ، فانصرفت عن حبه . وماتت بمرض ذات الرئة بين ذراعى بنيامين فى مايو ١٨٠٥ ، فخلد ذكرها فى صفحات جميلة تحمل عنوان « رسالة عن جولى » (Lettre sur Julie) طبعت سنة ١٨٢٩ .

أنا لندسى وكونستان

رجعت مدام دى ستال إلى فرنسا بفضيل مساعى بنيامين ، وفى رأسها أكثر من مشروع ، وأولها إيقاع الجبرال بونابارت فى حبائلها ، وهو يومئذ أكبر رجل فى الجمهورية . وعملت على مقابلته عند تاليران فى باريس عام ١٧٩٨ ، وحاولت جاهدة إغراءه بذكائها أكثر من جمالها . ولكنها أخفقت تماماً لأن بونابارت كان يمت المرأة التى تشتغل بالسياسة . فتوجهت مدام دى ستال مكسورة الخاطر ومهزومة إلى كوفى وبصحبها بنيامين كاتم سرها ووكيل أعمالها ومشاطرها أحرانها وآلامها .

وعندما عاد بونابارت من مصر وأحدث انقلاب ٩ نوفمبر سنة ١٧٩٩ الذى مهد لقيام الامبراطورية ، كانت مدام دى ستال وبنيامين فى باريس : واختلقت نظرتهما لهذا الحدث حيث تشاءم بنيامين بينما رأت هى فيه فجر الحرية . لذلك راحت تولى الولائم وتبدى اعجابها بنبابوليون وبأعماله ، وهى ترمى من وراء ذلك أن تجعل من بنيامين كونستان عضواً فى المجلس الاستشارى (Tribunat) بمساعدة تاليران . وقد تم لها ما أرادت .

وقبل أن نسير وراء بنيامين فى وظيفته الجديدة ونتصدى لآرائه السياسية : يجمل بنا الكلام عن انا لندسى (Anna Lindsay) التى تعرف بها ، لما لها من شبه كبير ببطلته قصته المسماة « أدولف » .

لأنها فتاة متوسطة الحال من أصل أيرلندى ، قامت بترتيبها الدوقة فريتيس جيمس (Fritz-James) فى لندن حيث تقيم . واجتذبتها تيار المدنية وقامت بعدة مغامرات غرامية ، ثم استقرت مع شخص يدعى لاموايون (Lamoignon) أنجبت منه ولدين . وذكرها شاتوبريان فى مذكراته قائلاً عنها « إنها سيدة جميلة ساحرة ولكنها ذات مزاج عنيف » .

وعندما أجمعت على الحياة فى باريس سنة ١٧٩٩ ، اتصلت بجولى تالما وترددت على صالونها ، وتقابلت فيه مع بنيامين وتبادلا حباً جنونياً .

كانت « أنا » تطمع فى حياة رتيبة بالزواج من بنيامين ولكنه لم يكن ليفكر فى القران بها ، بل كان همه أن يزيد اسمها فى قائمة عشيقاته . وتراسلا ، واجتمعا ليفترقا على أمل التلاقى مرة أخرى . وتصرف هذا الرجل لا يدهشنا ، فقد عودنا على تصيده النساء اللاتي يشبهن فى أخلاقه وأطواره العجيبة ، ثم تركهن لينسأهن فى أحضان غيرهن .

بطل التحرير

لترك مغامرات بنيامين فى الهوى لنقتفى آثاره فى مهمته السياسية . لم يحاول التزلف إلى رجال الحكم ، بل راح ينتقد موقف الحكومة من أعضاء المجلس الاستشارى . فهاجم الحكومة لعدم اعطائها الوقت الكافى لرجال المجلس لدراسة القوانين ، وطالب بحقه وحق زملائه فى فحص التشريعات فحسباً حرراً . كان مذهبه السياسى يرتكز على الدفاع عن الفرد بما له من حقوق لا تقل عن حقوق الدولة نفسها ، مما أكسبه لقب « بطل التحرير » .

لم يعترف بمبدأ السلطة ولا بمبدأ الأغلبية وإنما بمبدأ الاستقلال الفكرى . ومن المأثور عنه قوله فى أهمية المعارضة : « ما هى حقوق وواجبات المعارضة ؟ إذا كان وجودنا لا فائدة منه ، فليستغنا عنا . وإذا كانوا

مدينة وايمر (Weimar) بالذات حيث يقم فيها أناس من ذوى الشهرة العالمية في مجال الفكر والقلم . فقبلت عرضه . وهناك في جو من الهدوء المناسب ، استطاع كونستان أن يقوم بتأليف كتابه عن الدين .

السير وفق مهاج مخطط

كان بنيامين يتردد على المكتبات العامة ليطالع على أهم المؤلفات اليونانية في اللاهوت والعلوم ويتصل بكبار المفكرين والمؤرخين والعلماء . وكثيراً ما اجتمع على موائد الطعام بالشاعر الفيلسوف الألماني جوته ويقول عنه : « أنه رجل ذكي عميق التفكير ، له آراء جديدة ، ولكنه أقل الذين عرفتهم بساطة . » وكثيراً ما جالس شيلر وأمضى معه أمسيات في التسامر . وكان اعجابه بهذا الأخير أكثر من اعجابه بجوته .

ظل يتابع أبحاثه طيلة سنة ١٨٠٤ حتى إذا ما ملها ، راح ينتقل ، للترويج عن نفسه في المدن الألمانية ، ولا سيما لاينبرج وفرانكفورت . كما كان ينزح إلى جنيف ولوزان وكوبي ، لكنه كان يفضل قائمار حيث يقول : « في هذه المدينة أجد ما يشجعني على اتمام مؤلفي الذي اعتبره أهم حدث في حياتي » .

بدأ يشعر بأن صلته وعلاقته بمدام دي ستال لم تأت بالثمرة التي كان يريها ، رغم تضحياته ، كما يتضح من يومياته : « منذ أن تركت العزلة ، أصبحت لا أقوم بأى عمل قيم . . . أين السعادة التي كنت أشعر بها في العزلة ! . . . لقد أصبحت لا أجد اللذة التي ضحيت لها بكرامتي ، ولا الكرامة التي ضحيت لها باللذة ! » .

ولما عزمت مدام دي ستال في ديسمبر ١٨٠٤ على الذهاب إلى إيطاليا لتجد الجو الملائم لكتابة روايتها المقبلة ، انتهز بنيامين الفرصة للاستجمام ، ذهب إلى فرنسا . وجد هناك بعض صديقاته ، فأثر الإقامة مدة أطول من التي قدرها لنفسه . وتردد على جوليت

في حاجة إلينا فليعطونا الوسائل الكفيلة بقيامنا بالمهمة التي عينا من أجلها » . ثم أضاف : « إذا حدث ضرر حاسبونا عليه ، وإن خسرنا حرباً أو تأخر عقد السلام ، اتهموا المعارضة . يبقى علينا أن نصبح مسؤولين عن التقلبات الجوية وأن نسير الرياح والعواصف لإغراق الأساطيل وإهلاك الحرث » . وأنهى كلمته بهذه العبارة التي أغضبت بونابارت : « بدون استقلال المجلس الاستشاري لن يكون هناك تناسق في الأعمال ولا حياة للدستور ، بل سيرزح الشعب تحت نير العبودية والصلمت ، الصمت الذي سوف تسمعه أوروبا بأسرها » وفي اليوم التالي ، استهدف بنيامين تهكمات الصحافة وثورة بونابارت الذي صاح متوعداً المعارضة بقوله : « هناك اثنا عشر أو خمسة عشر من ذوى الأفكار المجردة يجدر بنا إلقاؤهم في البحر . فهم بمثابة الجرائم العالقة بي والتي يجب أن أقضى عليها » .

أما بنيامين ، فإنه لم يتفاعل عندما رأى بونابارت يقبض شيئاً قشياً بيد من حديد ، على كل السلطات معلناً أن « الحكومة الفرنسية تمثل الشعب صاحب السيادة ولا يمكن قيام معارضة ضد السيادة » . ولم يندعش بنيامين عندما رأى نفسه ، في يناير ١٨٠٢ ، معزولاً من المجلس الاستشاري مع عشرين من زملائه الأحرار .

لم يطق البقاء في هذا الجو الخائق وعاد إلى ضيعته في ضواحي باريس مشط الهمة ، خائر القوى . لقد أسكنت قعقة السلاح وطلقات المدافع صوت الحكمة والمقل !

وفي هذه الأثناء مات البارون دي ستال ولم يكن في الواقع إلا زوجاً اسمياً . ورأى بنيامين من واجبه أن يتقدم للزواج من أرملته ، ولكنها رفضت عرضه لأنه يفقدها لقب « بارونة » التي تريد التمسك به .

وعندما أبدت تعبها من النفي المستمر ، قال لها بنيامين إنه مستعد لمصاحبها إن هي ذهبت إلى ألمانيا وفي

« إما أنها مجنونة وإما أنا المجنون ؛ ولا أدرى كيف سينتهي الأمر بيننا » .

واستطاع بالرغم من حياة القلق التي يعيشها ، الانتهاء من تأليف كتابه عن الوثنية الذي ابتدأه منذ عشرين عاماً ، ولكنه لم يطبع إلا في سنة ١٨٣٣ تحت اسم « الوثنية عند الرومان » .

(Du polythéisme romain)

وفي أوائل عام ١٨٠٧ ، ألف ، في مدى خمسة عشر يوماً قصته المشهورة « أدولف » التي راح يتناولها على بعض أصدقائه ، ولكنها لم تظهر في السوق إلا سنة ١٨١٦ ، بعد أن تناولها عدة مرات بالتنقيح . وسوف نحل هذه القصة في آخر دراستنا .

بلغ بنيامين كونستان الأربعين من العمر « دون أن يحقق الفخار الذي كان ينشده » على حد تعبيره . وسبق له أن قال عن نفسه قبل ذلك ببضع سنوات « إن ما يتقصني في حياتي هو السير وفق منهاج مخطط » . ثم نراه يقول بعد ذلك : « لم أتحذ قراراً حاسماً لثقتي بقصر الحياة الإنسانية » .

إن مثل هذه العقلية ، ومثل هذه الطريقة في تفهم الأمور والأشياء لا تدهشنا إذا كان بنيامين قد وصل إلى عنفوان القوة والسن دون أن يعثر على الحياة التي طالما تمنّاها ، ليكون محط أنظار معاصريه . إنه بلا أسرة ، ولا زوجة ، ولا أصدقاء ، ولا حب ، ولا سعادة ، ولا نجاح ، ولا أي مشروع مخطط للمستقبل . هذه كانت حياة هذا الرجل الذكي المثقف الذي معه ضعف عزيمته ، من اختراق أبواب الحياة ، وكبله بالسلاسل حتى أنه بدل أن يرتفع صيته ، ظل منزوياً وغير معروف إلى حين .

ونود التنويه هنا بملاحظتين عن بنيامين : الأولى أن علاقته بمدام دي ستال لم ترفع من معنويته ، بل كانت مصدر متاعب ومضايقات له . صحيح أن هذه العشيقة المتسلطة كانت تعترف بموهبة صديقتها ولكنها

ديكاميه (Juliette Récamier) التي لم يكن قد هام بها بعد ، وزار أنا لندسي التي ما زالت تبحث عن زوج شرعي ؛ واتصل بجولي تالما التي أصيبت بداء الصدر وأشرفت على الموت ؛ وتقابل مع شارلوت دي هندنبرج التي كانت تأمل في أسر قلب بنيامين بعد أن فشلت في حياتها الزوجية مرتين .

هكذا أمضى بنيامين أجمل الأوقات في باريس ، ثم توجه إلى كوبي في يوليو ١٨٠٥ ، وكانت مدام دي ستال قد عادت إليها بعد رحلتها الموفقة ، فوجدها أكثر تفتحاً لدواخل قلبها ، وأكثر فيضاً في شعورها . وكان المعجبون بها يحفون من حولها ويستمعون بلذة إلى الانطباعات التي تركتها « المدينة الخالدة » في نفسها . لم يستغ بنيامين هذا المنظر واستاء من هذه الجموع ودخلت الغيرة قلبه على صديقه ، وقامت محاولات لتهدئته وترضيته . وروى آخر الأمر تمضية الشتاء في جنيف . وعرضت مدام دي ستال أن يقوم بدور تمثيلية لراسين وأخرى لفولتير ، ولكنه لم يحسن دوره ، بينما أظهرت مدام دي ستال مقدرة فائقة على التمثيل .

لم تنسه هذه التسليات مهنته ككاتب حيث يقول : « كم أريد الانتهاء من كتابين أحدهما في السياسة والآخر في الدين ، لأترك أثراً خالداً من بعدى » .

وفي سنة ١٨٠٦ ، نشر مقتطفات من كتابه في السياسة الذي استغرق أربع مجلدات طبعت فيما بين ١٨١٨ و ١٨٢٠ تحت عنوان : دراسات في السياسة الدستورية

(Cours de Politique Constitutionnelle)

وفي شهر مايو من هذه السنة ، استدعت مدام دي ستال صديقها كونستان إلى أوكسير (Auxerre) حيث كانت تقيم مؤقتاً للإشراف على طبع روايتها الجديدة كورين (Corinne) . وما أن اجتمع العشيقان حتى قام الشقاق بينهما ، ويقول في ذلك :

كانت مشغولة عنه بمصلحتها الخاصة ، وكانت ترى فيه العشيقة أكثر من الأديب ، العشيقة الذى يستطيع اشباع رغباتها وملذاتها أو يخفف من حدة الشدائد التى كانت تستهدف لها من جراء تهورها . والملاحظة الثانية ، أن الشهرة التى حظى بها بنيامين فى آخر حياته ، كانت سياسية أكثر منها أدبية . فالصدفة والصدفة وحدها هى التى جعلت منه روائياً . وهذا الرواى لم يسجل التاريخ اسمه إلا بعد وفاته بوقت طويل .

شارلوت وكونستان

ورد اسم شارلوت دى هردنبرج فيما سبق من الكلام . ويجمل بنا هنا أن نذكر طرفاً من جوانب حياتها المتصلة بكونستان .

تتنمى هذه المرأة العاطفية فى شعورها ، الهوائية فى مزاجها ، البسيطة فى تفكيرها ، إلى أسرة ثرية من هانوفر (Hanovre) . كانت على وشك الطلاق من زوجها الأول عندما تعرفت بصاحب هذه الدراسة ، فى برانسويك ، واشتعل قلبها حباً به . ولكن لم تكن لديه الرغبة فى الزواج منها بعد أن مر بتجربته مع ولهمين .

رأت شارلوت ، أمام هذه الصدمة أن تتركه مدة من الزمن ، ولكنها لم تستطع ذلك بدافع عاطفتها الفياضة . وعندما أظهر لها حنانه تمتعت عنه . فغضب . فطلبت منه الصفح ؛ فلم يبد اهتماماً . فأصرت على أن يعتذر ، فتهرب ، فتملكها الغضب بدورها وقررت قطع علاقتها به نهائياً . فاستحلفها أن ترضى بزيارته لها ، فقبلت ولكنه تراجع .

ومرت عشر سنوات ، وكان كونستان فى هذه الآونة قد تعلق بمدام دى ستال . فما كان من شارلوت إلا أن عقدت قرانها الثانى على الفيكونت ألكسندر دى ترتر وهو رجل دنى لا ضمير له :

وتلاقى بنيامين بشارلوت فى باريس فى شتاء عام ١٨٠٤ - ١٨٠٥ وأفرغ كل منهما ما فى قلبه من متاعب ومآسى للآخر وانفقا على الزواج ، ولكن كان عليهما الانتظار ثلاث سنوات : فكونستان كان مقيداً بمدام دى ستال من جهة ، ولم يقبل زوج شارلوت طلاقها من جهة أخرى إلا مقابل مبلغ وثير من المال .

وفى مايو ١٨٠٧ ، التقى العشيقتان فى باريس . ويقول كونستان فى مذكراته : « كثيراً ما أذهب إلى مدام دى ترتر وأشعر بسحر جمالها وبطبيعتها وحنانها مما يجعلنى أحس بالسعادة بجانبها وأن قرانى بها فيه راحة الحياة .

ولكنه سرعان ما كان ينتقل من التفاؤل إلى التشاؤم ، ومن اليقين إلى الشك ، فيضيف فى مذكراته : « قضيت سهرة مع شارلوت . هل تنظف جذوة هذا الحب ويحل محلها السأم ؟ هذا ما أحشاه ! إن سحرها أخاذ فعلا ولكنها قلقه الشعور ولا تعرف تنويع الحديث » .

ومع كل ، فان كانت مدام دى شارير ، وأنا لندسى ، وجولى تالما ، وحتى مدام دى ستال ، لم يستطعن الاحتفاظ به ، فان شارلوت استطاعت ذلك . صحيح أن كونستان عندما سيصل إلى الخمسين من عمره سيهيم بامرأة أخرى . ولكن هذه المغامرة ستبلغ التفاهة حدأ يجعل شارلوت لا تعطى أية أهمية .

ولكن لا نتعجل الحوادث : فشارلوت لا تحمل اسم مدام كونستان بعد . وعندما ستحملة ، ستضطر إلى الانتظار بعض الوقت للإقامة فى عش واحد . ففى أواخر يونيو ١٨٠٧ ، ذهبت إلى ألمانيا لتصفية موقفها مع ألكسندر دى ترتر . وأرسلت مدام دى ستال رسولا من قبلها إلى كونستان ليخبره بأنها ستنتحر إن لم يعد إليها : هب كونستان يلبي نداءها ، فلما وصل إليها وجدها تضحك وتلهو وسط زوارها ، فغضب وتركها مع بطانتها التى لم يسترح لها ، وذهب إلى لوزان . ألحت

وزوجته بالهزيمة : فذهبت شارلوت إلى والد زوجها ،
وتوجه هو إلى كوبي عند مدام دي ستال .

مناهضة الاستعمار

رأى كونستان ، بعد أن أمضى شهراً وشهوراً في
كوبي ، بين البطالة وحدة المزاج وعقاب الضمير ،
أن يسافر إلى ألمانيا مع شارلوت للتعرف على أسرتهما .
وهناك أقام في قصر والديها وشعر بالنشاط يدب في
أوصاله ، ولكن إلى حين . لأن البروتوكول الألماني
المتشدد لم يرقه . وخلال فترة النشاط تلك . حرر
« الكراسية الحمراء » وزار مدينة برانسويك التي أمضى
فيها ست سنوات من شبابه ، ثم عاد منها محملاً
بالذكريات المحزنة المؤلمة .

بدأ يمل الحياة حتى مع زوجته كما بدأ هذا الملل
يجعله يأسف على الأيام التي عاشها في نزاع مع مدام
دي ستال « ذلك البركان المتقد » الذي انطلقاً بالنسبة له ،
والذي قد يلهب مرة أخرى لأناس آخرين .

وفي هذه الأثناء : وصلته أنباء هزيمة نابليون في
روسيا ، وهبت على أوروبا ربيع الحرية . وبدأت قلوب
الناس تتفتح لآمال جديدة . وشاطر كونستان الناس
حماسهم ورأى أن نهاية الإمبراطور قد قربت . فنشر
في هانوفر رسالة ضد نابليون تحت عنوان « روح الغزو
والسلب »

(De l'esprit de Conquête et de l'Usurpation)
إن هذه الرسالة التي تشرف كاتبها . تعتبر بحق ،
ذات قيمة كبيرة حتى في أيامنا هذه ، ذلك لأن
الاستعمار لا يزال يصب سموه في العالم بواسطة أذنابه .
وتستحق هذه الرسالة : في الواقع : دراسة دقيقة وافية
ولكن نظراً لضيق المقام . سنقتطف منها هاتين
الفقرتين :

« إن الدفاع عن الوطن شيء . والاعتداء على
أقوام لهم وطن يدافعون عنه شيء آخر . إن روح الغزو

مدام دي ستال في عودته إليها ولكنه تلكأ في الاستجابة
فذهبت هي إليه . ويقول في مذكراته : « جاءت إلى
وارتمت تحت قدمي وراحت تصرخ بشكل يفتت
الأكباد المتحجرة . وعدت معها إلى كوبي ورضيت
بالإقامة فيها ستة أسابيع . إن شارلوت تنتظرن في
أواخر سبتمبر . فما العمل ؟ هل أدوس على مستقبلها
وعلى سعادتي ! » .

مرت الأسابيع الستة ومرت الأشهر وكونستان
لا يستطيع الفكك من مدام دي ستال .

وأخيراً تقابل مع شارلوت في باريس سنة ١٨٠٨
وكانت قد تخلصت من رابطة الزوجية وتنتظر تكوين
حياتها الجديدة .

لم تكن لدى كونستان الشجاعة الكافية ليفتح
مدام دي ستال بمكنون صدره خوفاً من « أظافرها أن
تمزق لحمه » حسب قوله .

وأخيراً قرر الزواج من شارلوت في يونيو ١٨٠٨
على شرط أن يظل هذا القران طي الكتمان بعض الوقت .
رضيت شارلوت ، في بادئ الأمر ، عن هذا الشرط .
ثم رأت أن زوجها كثير التغيب ، كثير الأسفار إلى
كوبي ، فطلبت منه أن يثوب إلى رشده وأن يتصرف
تصرف الرجل القوي الحازم .

لم يستطع ذلك إلا في مايو سنة ١٨٠٩ عندما ضرب
ضربته القاضية بتقديم زوجته إلى مدام دي ستال التي
رأت نفسها أمام الواقع ، فراحت تكيل له أنواع المهجو
والشتم ووصمته بعدم الوفاء والأنانية والجبن . وبعد
ذلك أملت عليه شروطها : لا بد من بقاء الزواج سراً
إلى إيجاد حل مشرف لموقفها : وخلال البحث عن حل
لهذه الورطة . يجب على بنيامين أن يعيش في كوبي ؛
أما شارلوت فلتنذهب حيناً أرادت .

ولما لم يمكنه الوقوف في وجه هذه الطلبات ولا
الصمود أمام تيار ذلك العتاب : اعترف كونستان

أستحقه ، لا كما يخيّل إلى أنهم يرفضون هذا المركز لي .

وأخيراً قرر الفوز بهذا المركز بعد أن انضم إلى الملكية الدستورية ، نشر عدة كتيبات يوضح موقفه ، نذكر منها : « تأملات في النظم » (Réflexions sur les Institutions) و « التفرقة بين السلطات » (Distinction des Pouvoirs) و « حرية الصحافة » (Liberté des Journaux) و « مسؤولية الوزراء » (Responsabilité des Ministres) .

نالت مؤلفاته التحريرية هذه كل تقدير وكان موضع حفاوة وولائم وحفلات . ويقول في ذلك وقد عمه السرور : « لقد انتشر صيتي » .

إن كل شيء أصبح يبتسم في وجه كونستان وتفتحت أمامه الأبواب على مصاريعها لمهام جديدة . ولكن في هذه اللحظة شعر بحج جارف طارئ لا يناسب وقاره يدفعه نحو مدام جوليت ريكاميه .

كاتب سياسي لامع

كانت مدام ريكاميه تعتبر أجمل نساء عصرها ، ترمي القلوب تحت قدميها ، تتمتع بسحر لا يقاوم وذكاء وقاد . كانت تعيش في المنفى مثل صديقتها مدام دي ستال : خلال حكم نابوليون . ولما عادت إلى فرنسا في يونيو ١٨١٤ ، فتحت صالونها الأدبي لكبار الشخصيات المشتغلة بالسياسة والأدب والفن والعلم . ومع أن كونستان كان يعرف هذه السيدة منذ عشرين عاماً دون أن يشعر نحوها بأكثر من الود والصدقة ، ومع أنه كان يعرف عنها فتورها الجنسي لزاء عشاقها - وما أكثرهم - أحس « بالنار تأكل أحشائه كما لو كان في سن الثامنة عشرة » كما يقول .

وكتب في فجر هذا الحب الأسطوري يقول : « كنت أمضى أمسياتي لدى مدام ريكاميه ، المرأة التي عشت معها في سويسرا ، ورأيتها في أكثر من مناسبة

تحاول الخلط بين هاتين الفكرتين . فبعض الحكومات ، عندما ترسل جيوشها من قطب إلى آخر ، تتكلم عن الدفاع عن حياضها ، كأن كل مكان تضرم فيه النيران يصبح من أملاكها . . . » .

وقال أيضاً : « إن القوة التي تمكن شعباً من استعباد الشعوب الأخرى تعتبر في أيامنا هذه ميزة لا دوام لها . فالأمة التي تسير على هذا المنهج الاستعماري تضع نفسها في موقف أخطر من الموقف الذي تضع فيه الأقوام الضعيفة نفسها . إن مثل هذه الأمة تصبح محط الاحتقار والاشمئزاز من أهل الدنيا بأسرها . وأن الضمير العالمي والأمانى القومية والسخط العام تقف في وجهها . وأن هذا الضمير وتلك الأمانى وذلك السخط تصب ثورة غضبها على رأس تلك الأمة لتدمرها » . ولانكون مبالغين إذا قلنا بأن هذه الكلمات تنطبق بالحرف على الأمم الاستعمارية الموجودة الآن . ولو أن كونستان لم يسطر غير هذه الكلمات لكفنا لذكراه الخلد في سجل التاريخ وفي القلوب المحبة للتحرر .

وبعد هزيمة نابوليون في معركة لاينبرج واضطراره إلى التنازل عن الإمبراطورية ونفيه في جزيرة الب (Elbe) : عاد كونستان إلى باريس سنة ١٨١٤ وحده ، تاركاً زوجته في هانوفر عند أهلها .

وجد الناس الذين أغدق عليهم نابوليون الألقاب والأموال يحاولون التقرب من الملك الجديد لويس الثامن عشر . ورغم التقدير الذي لقيه من الصحف التي امتدحت رسالته ضد الاستعمار ، انتاب كونستان شعور متناقض جعله يكتب في مذكراته بتاريخ ٢٩ مايو ١٨١٤ : « لا أعرف شيئاً عن مصيرى : فلم تغدق على رجل عبارات الثناء أكثر مما أغدقت على ، ولم يعلن رجل من الغزلة التامة أكثر مما عانيت » .

ثم أضاف بعد يومين : « أعتقد أن الناس يكرهونى ، وقد يكون هذا وهماً منى . ولكنى في الحقيقة أنا المشول عن عدم وضعى في المركز الذي

هذا ونادى بالعمو العام ، وقرب إليه كونستان باعتباره أعظم كاتب سياسى فى عصره .

اتخذت مقابلة نابوليون له صفة الصراحة والود ؛ وكلفه باعداد الدستور . دهش كونستان من هذا التكليف بقدر ما سر منه . ودفعه اعتقاده فى حسن نية نابوليون إلى أن يقوم بما كلف به وينجزه فى بضعة أيام .

رأى الامبراطور أن يكافئه ، فعينه فى مجلس الدولة . وأظهر كونستان من الهمة والكفاءة ما جعله ملتقى الأنظار . ونستطيع القول بأنه كان يعتبر فى ذلك الوقت أكبر شخصية سياسية فى نظام الحكم القائم .

ولكن أنهار هذا الصرح بعد مائة يوم على أثر موقعة « واترلو » ونفى نابوليون إلى « سانت هيلانه » . وكتب كونستان فى مذكراته يوم ٢١ يونيو ١٨١٥ ، ليلة تنازل الامبراطور : « يا لهؤلاء الأندال ! إنهم خدموه بحماس عندما داس الحرية بقدميه . وتخلوا عنه عندما أقامها ! » .

وعاد لويس الثامن عشر والتف حوله النبلاء وطلبوا معاقبة الذين خدموا نابوليون . وكان المقصود بذلك بنيامين . فما كان من هذا الأخير إلا أن أرسل خطاباً إلى الملك يبرر فيه موقفه ويبرهن بأنه ظل متمسكاً بالآراء التى تخدم مصلحة الوطن فى ظل التحرر .

أنقذته هذه الرسالة من ذل المنفى . حتى إن رئيس الشرطة قال له : « لقد نجحت رسالتك وأقنعت الملك » فرد عليه بكل بساطة : « أعتقد ذلك لأنها أقنعتنى أنا نفسى » .

واتضح له أن الملكيين يحاولون انقاص قدره فى الصالونات ، فصمم على ترك البلاد . ويقول فى مذكراته بتاريخ ٢٤ يوليو ١٨١٥ : « سأترك فرنسا لمدة طويلة . لأنى منهوك القوى . قد سئمت الناس ومدام ريكاميه . إن قلبى ورأسى فى حاجة إلى الراحة .

ولم أشعر وقتها بأية جاذبية نحوها ، وإذا بى على حين غرة . أجد نفسى فريسة حب جارف . ولا أدرى هل أصابنى مس من الجنون أم أصبحت أحمق ؟ ولكن أملى أن أتخلص من هذا المأزق » .

ثم كتب بعد ذلك بأيام : « إن هذا الشعور : للأسف : لا يتركنى وحمى الحمى انسابت فى مفاصلى وامتلكت جسمى وعقلى . لقد انتهى عهد العمل والسياسة والأدب . نعم كل شىء انتهى ليبدأ عهد جوليت بالسيطرة على حياتى » .

كاد هذا الحب ينطفىء فى غده لولا نصيحة السيدة جوليانا كروندر (Juliana Kründer) التى كان لها نفوذ على القيصر اسكندر الأول . وكانت تميل إلى التصوف وعلم النفس . لقد نصحته بالصبر والأمل . ولكنه مل الانتظار والأمل وأصبح منهوك القوى « يقضى الليل راکعاً يصلى أو مستلقياً على البساط » . غريق وجدانه إلى أن تاب إلى رشده من شعوزة تلك المرأة . وعاد إلى العمل والسياسة والأدب .

وفى هذه الأثناء . رجت أوروبا أبناء عودة نابليون من جزيرة الب إلى فرنسا . ونشر كونستان فى جريدة « جورنال دى بارى » بتاريخ ١١ مارس ١٨١٥ مقالا ينتقد فيه حكم نابوليون الاستبدادى الذى سبب غزو الوطن . ثم نشر مقالا آخر فى « جورنال دى ديبا » بتاريخ ١٩ مارس . أعنف من الأول . مؤكداً أفكاره التحررية : مشبهاً نابوليون بالطاغيتين تيمور لنك وجنكيز خان .

كان لهُذين المقالين دوى كبير . ولكنهما أغضبيا أنصار الملكية وأنصار بوناپارت . ووصمه الأولون بالهوى والآخرون بالوقاحة .

وفى يوم ١٩ مارس المذكور . ترك لويس الثامن عشر باريس ليدخلها الامبراطور فى اليوم الثانى . كان من المنتظر أن ينتقم نابوليون من السياسيين الذين خانوه وأن يحكم بالحديد والنار ، ولكنه لم يفعل

سأذهب إلى سويسرا وإلى زوجتي . وهذا كل ما أطلبه من الله .

ولكنه لم يترك فرنسا إلا بعد ثلاثة أشهر من هذا التاريخ ، قاصداً بروكسل حيث لحقت به زوجته في أوائل ديسمبر . ثم سافرا إلى إنجلترا في ١٥ يناير سنة ١٨١٦ . وفي لندن ، رأت قصة « أدولف » النور بعد تسعة أعوام من تحريرها . واشتراها الناشر منه بسبعين جنياً ذهباً .

أعمال النائب الكبير

عندما عاد كونستان إلى باريس في سبتمبر ، وجد نفسه في عزلة تامة : فلا وظيفة ، ولا صديق حتى أصبح غريباً في وطنه .

كانت الانتخابات على الأبواب ، وكانت شعارات المرشحين ومناقشاتهم تافهة إلى درجة جعلت كونستان يفضل البقاء في قصره العاجي . وروح عن نفسه باستئناف كتابة مذكراته عن « المائة يوم » (Mémoire sur les Cent-Jours) التي بدأها في إنجلترا . وظهرت في جزئين بعد انتهائه من تحريرها بأربع سنوات . وفي هذه الأثناء ، علم بمرض مدام دي ستال ، فذهب إليها وظل بجوارها حتى لفظت أنفاسها الأخيرة في سنة ١٨١٧ ، ولم نعرف مدى ألمه على موتها لأن مذكراته تمف عند سنة ١٨١٦ .

عاد بنيامين بعد ذلك إلى أعماله الأدبية . فراسل عدة صحف تحريرية ، وألقى سلسلة من المحاضرات عن الدين ، وبدأ يطبع كتابه المسمى « دروس في السياسة الدستورية » الذي يضم مذهبه وآراءه وأفكاره واقتراحاته فيما يتعلق بالحكومة النيابية والدستور في فرنسا . واعتبر هذا البحث القيم ميثاق المعارضة البرلمانية لعدة سنوات .

كان ضمان حقوق الفرد في نظر بنيامين ، يكمن في كلمة « الحرية » وكان واجب الحكومة عنده ،

ضمان هذه الحرية في جميع أشكالها : حرية الفكر ، حرية الصحافة ، حرية الدين ، حرية السياسة ، حرية الاقتصاد أي حرية التصرف في الأموال المكتسبة بالمرث أو من العمل الإنساني . ولكننا نلاحظ فيما يتعلق بهذه العبارة الأخيرة ، تحفظاً يقربه من الاشتراكية إذ يضيف شارحاً : « إن الملكية بصفها من المرافق الاجتماعية ، تصبح من اختصاص تشريع المجتمع وعلى ذلك يكون للمجتمع حقوق عليها » .

ولدينا ملاحظة أخيرة : فانه وإن بنى مذهبه على مبادئ ثورة ١٧٨٩ وبالتدقيق على وثيقة حقوق الإنسان ، فهو لا يحد الانتخبات العامة ولا يهتم بالمشاكل الاجتماعية ، وبالتالي لا يثنى على الديمقراطية . هل تنسى كلمته المشهورة التي تبدو ساحرة لأول وهلة ولكن لا يمكن التسليم بها ولا أخذها على علاتها . يقول كونستان : « إن الحرية في رأي هي انتصار الفردية على السلطة التي تريد أن تحكم بالوسائل الاستبدادية وعلى الجماهير التي تطالب بحق استبعاد الأغلبية للأقلية » يتضح لنا بتحليل هذه الفكرة الخلاصة في ظاهرها ، أن الفرد يجب أن يكون فوق السيادة وفوق الأمة وفوق الدولة ، أي يجعل البلد بدون حكم وبدون مراقبة ، الأمر الذي لا يتفق مع المنطق السليم .

كان كونستان يأمل بعد تجربته المؤسفة في المجلس الاستشاري ، أن يكون في يوم من الأيام ، المدافع عن الحرية والعدالة على منصة الخطابة . ولقد تهيأت له هذه الفرصة في سنة ١٨١٩ عندما انتخب عضواً في مجلس النواب ، حيث ظل محتفظاً بهذه العضوية إلى يوم وفاته . كان عضواً معارضاً وخصماً عنيداً لحزب اليمين . لم يكن بالخطيب المقهور بيد أنه كان قادراً على حسن العرض والاقناع .

وإذا كان كونستان مكروهاً من اليمين ، فلم يكن محبوباً من أعضاء حزبه ، ونعني بهم الأحرار لتبعيتهم للبورجوازية التي كانت تهتم بالمحافظة على مركزها وعلى

أموالها ومظهرها، وتسخر من أمثال هذا الرجل الصريح الذى لا يعبأ بالتقاليد والعادات المليئة بالخداع والرياء والخبثاة .

وفى سنة ١٨٢٦ بدأ باصدار الجزء الأول من كتابه المفضل المسمى « الدين فى منبعه وأشكاله وتطوره » (La Religion considérée dans sa source, ses formes et ses développements) الذى يقول عنه البروفسور هنرى بيير (Henri Peyre) « إن كونستان يبدو فيه من كبار الباحثين فى الأدب اليونانى من ذوى الأفكار الفريدة ، متقدماً فى هذا المضمار على كينيه (Quinet) ورينان (Renan) . » . ولم يظهر الجزء الخامس والأخير من هذا العمل إلا بعد وفاة المؤلف بسنة .

كان كونستان يمثل الاستقلال البرلماني قلباً وقالباً ، كما كان يمثل المقاومة ضد الاستبداد . كان الشباب الذى يحب فيه حسن البصيرة والنزاهة يحفظ خطبه عن ظهر قلب ويقرأ بشغف واهتمام كتبه ومقالاته . وكانت الرسائل تتدفق عليه من كل أنحاء فرنسا معبرة عن التقدير له والاعجاب به .

وفى سنة ١٨٢٩ أخذ السخط يزداد فى البلاد على أثر الأوامر الملكية التى راح يصدرها شارل العاشر وريث عرش لويس الثامن عشر . وقبل ثورة الشعب فى يوليو ١٨٣٠ ، أعلن كونستان فى البرلمان قائلاً : « إننا لا نتهاجم الامتيازات الملكية وإنما نطالب الملك فقط بالتنسيق بين السلطات ، وذلك إما بطرد مستشاريه أو بقيام انتخابات جديدة » . كان كونستان يريد ، بمعنى آخر ، إما تغيير الوزراء أو حل مجلس النواب .

واختار الملك حل المجلس ، وجاءت الانتخابات فى صالح المعارضة على غير ما كان يختب . وكان على شارل العاشر إما أن يخضع أو أن يتنازل عن العرش . ولكنه اختار حلاً ثالثاً : وهو ضربه بعرض الحائط توجيهات المعارضة ، فقامت الثورة . وكان كونستان

فى الريف متعباً ملازماً الفراش يعود الأبطاء حتى إن لافاييت (Lafayette) ، رجل اليسار المعروف ، أرسل إليه يقول : « إن الناس يلعبون هنا دوراً فيه ضياع رؤوسنا ، فقدم رأسك ! » .

لب كونستان نداء الواجب وذهب إلى باريس وكان ضمن المائتين وواحد وعشرين عضواً فى مجلس النواب الذين وقعوا على وثيقة عزل الحكومة وانتخاب لويس فيليب ملكاً . ورأى الجالس الجديد على العرش أن يكافئ بنيامين ، فعينه رئيساً لمجلس الدولة .

ومات المترجم له فى ١٠ ديسمبر ١٨٣٠ ، وسار فى جنازته ، باعتباره بطلاً شعبياً ، أهالى باريس والوزراء وأعضاء البرلمان وقواد الجيش : وحمل الشباب نعشه على أكتافهم تعظيماً لرجل السياسة والأدب الذى استحق تقديرهم واحترامهم .

قصة أدولف

عندما ظهر كتاب « أدولف » ، لم يلق أى فهم أو تقدير من معاصريه . وعندما خصه الكاتب المعروف سانت بوف بدراسة فى سنة ١٨٥٢ ، لم يكن معروفاً إلا من رجال الأدب . ولم يحظ بالشهرة إلا بعد وفاة مؤلفه بأربعين عاماً : متخذاً مكانه بين روائع الأدب الفرنسى . وحكم عليه الناقد الكبير البيير تيبوديه (Albert Tribaudet) بقوله : « ألف بنيامين كونستان هذا الكتيب الذى سيزل لابساً ثوبه القشيب عبر الزمن : إنه قصة حياة فاشلة ، لا قصة فاشلة . والدليل على ذلك هو أن الرواية السيكلوجية فى فرنسا ، لم ترد خلال نصف قرن ، أكثر من السير على منوال هذه القصة المأدبة المترنة الشاملة للأهواء والأحاسيس الإنسانية ذات الرنين المستمر الصدى ، مع تعهدها بالإضافة والتعديل والتبديل والتجديد ليس إلا » . ويقول تيبوديه أيضاً : « إن « أدولف » قصة عبودية راضية ، عبودية

قام بتحليلها رجل وهدب نفسه للحرية التي فضلها على كل شيء في حياته .

إن هذه الكلمات الوجيزة التي جاءت على لسان الناقد تعطى فكرة صحيحة عن القصة وعن طبيعة مؤلفها .

تقوم عبقرية كونستان على نجاحه في التخاص من كل ما هو جاف . وتشويق القارئ بأسلوب سلس خلاب . رغم خلو القصة من وصف الطبيعة . أو وضعها في إطار زخرفي . ورغم خلوها من التفاصيل عن الأبطال والأشخاص الثانويين ، ورغم خلوها من المفاجآت ومن تكرار الحوادث أو وصف الأخلاق أو المكان الذي تجرى فيه فصول الرواية . ووقائع القصة تدور في قلوب استطاع بطلها - وهو الكاتب نفسه - أن يدرسها بدقة وأن يقوم بتشرحها . لا ليدافع عن نفسه وإنما ليثبمها ويعود عليها باللائمة . ويكشف عن الآلام . لا للشكوى منها وإنما ليتحملها في سكون . ويقدم اعترافاته بشجاعة موضحاً أخلاقه بما فيها من رخاوة وضعف : عارضاً المواقف التي خاضها دون تميق ودون دموع . لأنه « كان أكثر أهل جباه رجولة وصراحة » حتى إنه جعل من نفسه على نفسه شاهداً وحكماً .

وإذا كان من السهل على القارئ أن يعرف في أدولف حياة كونستان : فمن العسير أن يتعرف على الشخصية التي تخفيها الليبور .

بطلة القصة

يعتقد كثير من الناس أن هذه السيدة تتقمص شخصية النساء التي اتصل بهن الكاتب اتصالاً وثيقاً . ودون الوقوع في مثل هذا الاعتقاد المبالغ فيه ، يمكن القول : كما أن الرسام يستعمل مختلف الألوان ليخرج لوحته . فالأديب يتخذ من بعض الأشخاص الذين قابلهم في حياته صورة يستخرج منها شخصية البطل .

وهذا ما فعله بنيامين كونستان . وفي تقديرنا أن الليبور هي مزيج من اننا لندسي ومدام دي ستال وجولي تالما التي تكلمنا عنهن فيما سبق .

فالليبور : مثل « اننا لندسي » ، سيدة أجنبية لها طفلان تربطها علاقة غرامية . يفيض قلبها بالحنان والود ولكنها مستبدة : حادة الطبع إلى درجة مضايقة معشوقها . ومركز أدولف وخدين الليبور في القصة هو مركز بنيامين وخدين « اننا لندسي » . وأخيراً فإن الظروف التي تحيط بماضي الليبور مستقاة من الظروف التي أحاطت بأننا لندسي .

والليبور هي أيضاً مدام دي ستال في جهادها في الدفاع عن حبها وفي الرغبة الملحة في إطالة مدته وظهورها في مظهر الضحية . وأن بعض مواقف الليبور مع أدولف منتولة من المواقف التراجيدية الغرامية لمدام دي ستال مع بنيامين . وأن ما قاله كونستان في مذكراته سنة ١٨٠٤ عن حياته القلقة المشوبة بالآلام مع عشيقته تلك ، يمكن تطبيقه حرفياً على بطل الرواية : « كم أود ترك الشكوى ، لا من مصائب الحياة : بل من ناموس الطبيعة أي من الشيخوخة . إنني أريد ، أنا الرجل ، ألا أتحمل انفعالات امرأة ضاع شبابه . لا أريد أن أطلب بالحب بعد اتصال دام عشر سنوات ووصولنا إلى حافة الأربعين من العمر . وكم أعلنت أن الحب هجر قلبي . وهو تصریح لم أرجع فيه إلا لتهدئة أزمات الألم والغضب التي كنت أخشاها » .

وأخيراً فإن كونستان الذي كان بجوار جولي تالما ساعة لفظها أنفاسها الأخيرة : نراه يتذكر ذلك الموقف الرهيب عند وصفه احتضار بطلة روايته .

إن أدولف يظن أنه يحب الليبور ولكن عندما يجد هذه المرأة شغوفة به : يحاول الابتعاد عنها . إنه صورة طبق الأصل لواضع القصة : فهو المعشوق المتردد أمام الحب . الذي يظل محبوباً بينما قد خلا قلبه من الغرام : لذلك كتب كونستان في يوم من الأيام هذه الجملة :

« يدهشني أن أرى نفسي كريمة في مهب الريح ، أنا الذي كثيراً ما رغبت في التعلق بأى شيء » .

إن هذه الكلمة يمكن تطبيقها على أدولف . وفي الواقع يشعر هذا البطل بدوره بأنه غير قادر على ترك الليونر أو البقاء بجانبها ؛ غير قادر على الاعتراف بنهاية حبه لها أو إخفاء ذلك عنها ؛ غير قادر على الاحتفاظ بذكرياتها أو نسيانها .

وهذا الشعور المتناقض لاحظناه في حياة كونستان : فعندما كان يربط مصيره بمصير امرأة ما : كان هذا الرجل المطاوع لعقله أكثر من قلبه ، لا يكشف إطلاقاً عن مكنون صدره أو عما يحول في فؤاده . كان لا يتوانى في البحث عن طريقة تعيد إليه استقلاله وحرية . بيد أنه كان عند انقسام حبل الصلة ، يتأسف على الملذات السابقة ويشكو من افلاته من ذلك الحب بدون روية . كانت هذه الشكوى وذلك الأسف يجعلانه يشعر فيما بعد ، بالعرفان وبالشفقة نحو التي تركها ، لأنه إذا كان الثبات ينقصه ، فإن الشعور الرقيق متوفر لديه . ويقول في مذكراته : « إن حياتي . في الواقع : لا توجد إلا داخل نفسي ؛ ولا أظهر منها إلا جانبها الخارجي لمن يشاء . أما جانبها الداخلي فحاط بسور منيع لا يمكن لأحد اجتيازه . وربما تصل الآلام إلى هذا الجانب الداخلي عن طريق الناس ولكنهم لن يستطيعوا الاستيلاء عليه » .

والآن نورد فيما بعد ملخص قصة أدولف مع ذكر مقتطفات منها خلال سردها .

أدولف أو عدم القدرة على الحب

أدولف هو ابن وزير يعمل في معية أمير ألماني . قد أنهى علومه في جامعة جوتنجي Goettingue في سن الثانية والعشرين . تبدو عليه علامات الحجل والتحفظ كوالده الذي يريد تدريبه على مهنته ليُرث مركزه في يوم من الأيام . ويذهب أدولف للترويح عن

نفسه إلى مدينة مجاورة ويتعرف بالليونر السيدة البولندية الشابة .

على أثر اضطرابات وقعت في بولندا . انهار بيت أسرتها ونفى والدها في روسيا . وذهبت هي مع والدتها إلى فرنسا . وماتت الأم بعد بضعة سنوات . فوجدت الليونر نفسها في عزلة فعاشت بعض مغامرات عاطفية واستجابت لحب الكونت ب . . . وأصبحت خليلته . وعندما تعرفت بأدولف . كان قد قضى على علاقتها بهذا الكونت حوالي عشر سنوات .

وما أن رآها أدولف حتى سحره جلالها ووقارها ، فغازلها باضطراب نظراً لأنه كان غراً غير مجرب . لم يستطع أن يفتح لها قلبه شفاهة . ففاتها بغرامه كتابة : متبهاً لفرضة سفر الكونت . ويقول في ذلك : « رأيت الليونر رسالتي ، وهو أمر طبيعي . ناشئ عن قلب رجل يصغرها بعشر سنوات . منعم بأحاسيس لم يعرفها من قبل ، تدعو إلى الصفح عنه أكثر من الغضب عليه . وردت على بختان وزودتني بالنصائح ومنحتني صداقة خالصة . ولكنها أخبرتني بأنها لا تستطيع مقابلي قبل عودة الكونت » .

عاش أدولف في قلق وحاول أن يخيد عن شرطها دون جدوى . ورأت هي ، خوفاً من تصرف متهور من جانبها . أن تلجأ إلى الريف بعض الوقت . وعاد الكونت وأعد ونيمة كبيرة دعا إليها أدولف . وعند الذهاب إلى غرفة الطعام ، أعطى أدولف ذراعه إلى الليونر وراح يسر إليها بالأمه وآماله . ولتركة يتكلم : « إذا لم تسمحي لي غداً بمقابلتك في الحادية عشرة ، فسأترك بلدي وأسرتي وأبي وأقطع كل روابطي وأتخلى عن واجباتي ، ثم أذهب إلى أية جهة لأتخلص فيها من حياة يلذك جعلها جحيماً . فردت قائلة : « أدولف ! » ثم ترددت ، فقامت بحركة كمن يريد الابتعاد عنها . ولا أدري كيف كانت ملامح وجهي في هذه اللحظة ، ولكن كل ما أعرفه هو أنه لم يسبق لي أن تقلصت

وانتهى الأمر بها إلى الاستسلام له ، فراح يقول في نشوة المنتصر : « هل يستطيع بشر أن يعطينا صورة صادقة لسحرك أيها الحب ؟ ! ... وهل يستطيع وصفك من ذاق طعمك ؟ » .

إذا كان أدولف قد شعر بارتياح لغزو قلب اللينور ، فإنها كانت بدورها مسرورة بحياتها الجديدة . ولكن ساورها القلق والخوف عندما لاحظت أن أدولف بدأ يتضايق من ملاحظتها له ، ورغبتها في الاستئثار به كله . ففي الواقع إذا كان أدولف يشعر بألم الفراق إن ابتعد عن اللينور ، ولو بضع ساعات ، وينشرح صدره عند ملاقاتها ، فاننا نراه يقول في اضطراب : « أردت أن أجعل من اللينور مجرد عشيقه ولكن تبين لي أنها تريد رباطاً يدمج حياتي في حياتها » . وهذا تفكيره إلى أن صلته بها ستراخي بطبيعة الظروف . ويقول في ذلك : « إن علاقة اللينور بالكونت ب . . . وتفاوت السن بيننا ، واختلاف مراكزنا ، واضطراري إلى السفر الذي حان مواعده . إن كل هذه الاعتبارات دفعتني إلى أن أتمتع بها بأكبر قسط مستطاع من السعادة في أقصر وقت ممكن » .

وبدأ الكونت ب . . . يكتشف ما يدور حوله . وبدأ أدولف يخشى على عشيقته ويسدى إليها النصيح . ولكنها قالت له في تشاؤم : « لا تخف على ولا تتألم من أجلي ولتستمع بالأيام وبالساعات . . . فنفسي تحدثني بأنني سأموت بين ذراعيك . . . » .

وإرضاءً للينور . طلب أدولف من أبيه مهلة ستة أشهر ليعود إليه . ولكن هذه المهلة . جلبت للعشيقين حدة المزاج وعصبية في التصرف حتى دب الخلاف وقامت مشادات عنيفة بينهما : فهي تهمة بغشها وأن صلته بها كانت طارئة ، وأنه حرّمها من حنان الكونت وعطفه ، وجعلها في أعين الناس في مركز مشبوه .

عضلات وجهي بهذا الشكل : ونظرت إلى اللينور فلاحظت على وجهها خوفاً مشوباً بالحنان . ثم قالت : « سأقابلك غداً ولكني أستحلفك . . . » ولم تكمل الجملة لأن المدعوين كانوا في إثرنا . . . » .

ظلت اللينور في بدء الطعام حاملة متهدمة . ثم راحت رويداً رويداً تزيح كابوس الكآبة وتبتسم وتشارك المدعوين الحديث . ولاحظت في نظر جيبها من معالم السرور والعرفان ما جعلها تعطف عليه . وعند العودة إلى قاعة الجلوس تتم أدولف قائلاً : « ها قد اتضح لك أنك تسيطرين على حياتي كلها . فماذا فعلت لك حتى تجدى لذة في إيلاي ؟ » .

وعندما قابل اللينور . أعلمها بأنه لم يأت إليها لانكاره اعترافه بحبها . أو ليحدثها عن شعوره الذي لا يمحوه الزمن . وإنما ليرجوها أن تنسى ذكرى لحظة جنون بدر منه . وأن تقابله كما قابلته أول مرة حتى لا يشعر بوخز الضمير لانفعال كان الأجدر به أن يخفيه في نفسه . ومما قاله لها : « إن حالي لا تخفى عليك . ولا أخلاقي المتناقضة ولا قلبي البعيد عن ملاذ الدنيا ، المنعزلة وهو وسط الناس . المتألم من هذه العزلة . إن صداقتك هي سندی الوحيد في الحياة . . . لا آمل في شيء . ولا أطلب شيئاً حيث لا أريد إلا رويتك ، ولا بد لي من رويتك لأعيش » .

تأثرت اللينور من هذا الكلام وانقادت لرغبة أدولف على شرط أن يلتزم جانب الوقار ولا يقابلها إلا ضمن زوارها . وأحترم هذا الشرط بعض الوقت ولكن سرعان ما دبّت الغيرة في قلبه من المخاطين باللينور ، فرأت تهديئة له أن تقابله على انفراد في بعض الأحيان . ويقول أدولف : « هكذا تغيرت شروطها الصارمة بسرعة وسمحت لي بأن أصف لها حيي واعتادت تدريجياً على لغة الغرام : إلى أن اعترفت لي بأنها تحبني » .

مع أنفسهم ويوغر صدورهم عدم الثقة . ألا يعدوا بشئ ؟ لا يستطيعون انجازهم . أو أن يعترفوا العالم !

ولاحتمول هذا دفاعاً عن اللينور . فهي أيضاً مدنية بل ذنبها أكبر من ذنب معشوقها . إذ كان يجدر بها ، قبل استسلامها لهذا الحب الطائش أن تنظر إلى علاقتها الأولى وإلى سنّها وأولادها . ولو فرضنا أنها نسيت كل هذه الاعتبارات . فكان يليق بها أن تتذكر . أن الحب له أجنحة ولا يمكننا أن نوجهه حسب رغبتنا وأهوائنا . إننا نجدها حنونة صامته في بادئ الأمر . ثم تنقلب سريعاً إلى ضحية شاكية باكية متظلمة غاضبة . ناسية أنه من العسير الاحتفاظ بأدولف حينئذٍ لحب انطفأت جذوته .

وبعد انقضاء نشوة الغرام الأول . انتابها المخاوف من ناحية تقدمها في السن . وهذا الشعور بالذات هو الذي جعلها تنصرف بهور . . . ومضت فترة الستة أشهر . فترك أدولف عشيقته واعداً إياها بالعودة بعد شهرين . وبالرغم من تصريحه بأنه تركها على مضض . فإنه ينتظر بقلق مرور الأيام ليعود إليها أو تعود هي إليه . ويقول : « قارنت بين حياة الاستقلال والهدوء وبين حياة الاضطراب التي يملها على هواها . فكنت أجد المتعة في الحرية وفي الذهاب والإياب والخروج والعودة حسبما يروق لي ذلك ! ! » .

ولما لم يف بوعده . اتخذت اللينور العدة للذهاب إليه . فنصحها بتأجيل حضورها خوفاً من أن تنتابها أزمات عصبية جديدة . ولكنها جاءت إليه في تردد وأشبعته لوماً وعتاباً . فاستشاط غضباً . ويقول : « استسلمنا لغضب جنوني استبعدنا خلاله كل ملاطفة وكل رقة . وكنا فريسة للكراهية المتبادلة حتى خلنا أننا عدوان لدودان يريد كل منا تمزيق الآخر . بينما كنا في الواقع شخصين بائسين يعرفان نفسيهما حق المعرفة ولا يستطيع أحد غيرنا الحكم على تصرفنا » .

ودارت بخلد أدولف أطوار حياته المشوبة بالقيود ، وشبابه المضيق في البطالة واستبداد اللينور به ، ولكن بكاءها استرق قلبه . فيحاول مواساتها ، فعاد إليها الهدوء بعض الوقت ، وصرحت له عند تأهبه للسفر قائلة : « إن الكونت منغني من مقابلتك ولكن لن أخضع لهذا الأمر الاستبدادي . . . لأنه يستطيع الحياة بدوني ولا أستطيع الحياة بدونك » .

حاول أدولف أن يشرح لها الموقف وما عسى أن يلوكة الناس عنها ، فردت عليه بأن ذلك لا يهمها . فذكرها بابنيها المحتاجين إلى عطفها : فردت عليه بأنهما ابنا الكونت ويستغني بهما . ثم انتهى النقاش على الوجه التالي : « إذا أنا قطعت علاقتي بالكونت . فهل سترفض رؤيتي ؟ فرد قائلاً : « لا بالتأكيد ، وكلما شعرت بتألمك ، كلما امتلأ قلبي ولاء لك . ولكن قدرتي الموقف . . . » . فما كان منها إلا أن ردت قاطعة : « قدرت كل شيء ! » .

وبعد يومين تقابلا في الدار التي استأجرتها وأطلعتها على نيّتها في ترك الكونت . ولم يستطع . أمام هذا القرار الحاسم أن يبدي أية معارضة ، ورجاها أن تنسى كلي ما سببه لها من ألم وأن تثق فيه .

وبدأت المداهنة والمداراة بينهما : فاللينور لا تجرؤ على الإياحة بقلقها ، ولا هو يجرؤ على الشكوى من المتاعب والمضاعفات التي لم يستطع مجاشاتها . ويقول في ذلك : « إن المداراة تضع في الحب عنصراً غريباً عنه يغير من طبيعته ويذبله » .

ولنتساءل : هل لا يزال في الواقع يحب اللينور . بل هل أحبها في يوم من الأيام ؟ إنه أراد مغازلة امرأة ولكن دون السماح لها بالسيطرة عليه . وإنه أمر عجيب فالحب يحتاج ، لاستمراره وتوطيده - مهما شابته التطلع إلى الحرية - إلى التنازل عن جزء من هذه الحرية وعلى الناس الذين هم على شاكلة أدولف في نزاع دائم

ويرفع من صيته بين الناس ، وأن يستثمر مواهبه فيما ينفعه .

حاول أن يشرح لها أن قوانين المجتمع أشد قوة من إرادة الأفراد ، وأنه من العبث أن يستمع الإنسان لنداء قلبه ، لأن العقل ينتصر عادة في النهاية ، وأن عرض الكونت يستحق الاعتبار . وهنا أطلقت اللينور صرخة ، ثم فقدت وعيها وارتمت على الأرض ، فراح يطيب خاطرها ويسحب اقتراحه ويؤكد لها أن حبه لم يتغير ! لقد أراد من الرأي الذي أبداه أن يجعلها حرة الاختيار . ويقول : « وانتشت من كأس حبه الذي ظنت أني أبادلها إياه . وأكدت رفضها للكونت ، وأصبحت ملتزماً بها أكثر من ذي قبل » .

وبعد فترة ، علمت اللينور أن أباه الذي صدر العفو عنه ، عاد إلى بولندا ووجد ثروته كما هي وأنه يريد لها بحواره . وأرادت أن تصطحب عشيقها . وبينما هي تفكر مع أدولف في الذهاب إلى والدها ، أتاه نعيه .

رأى أدولف من واجبه أن يصطحبها لتسوية الميراث . ولم يرتح في القصر الذي ورثته محبوبته لأنه أصبح يعيش على نفقتها .

وقابل أدولف صديقاً لوالده هو البارون ت . . . السفير في وارسو ، الذي نصحه بالابتعاد عن هذه المرأة التي لن يستطيع أن يتزوجها لكبر سنها ولسمعتها التي لاكتها الأفواه ، ثم أضاف : « تستطيع الزواج من أكبر العائلات . واعلم أن العقبة بينك وبين نجاحك في الحياة هي اللينور » .

حاول أدولف الدفاع عن عشيقته ولكنه كان في قرارة نفسه مقتنعاً بكلام صديق والده الذي رن في أذنيه تماماً . فراح يسير الساعات الطويلة في مزارع الريف وهو يفكر في حياة رتيبة مع زوجة تفهمه وتقدره ويحبها . ويقول : « لم أكن أهتم إلا باللينور وبنفسي : باللينور التي تستدر عطفى . وبنفسي التي لا تستحق

ولأول مرة في حياتهما لم يحاولا تصفية نزاعهما . ولما عاد أدولف إلى داره . وجد أباه على علم بحضور اللينور . وقد قرر ابعادها عنه . فما كان من أدولف إلا أن شعر بعودة الحب إلى قلبه واستيقظت فيه روح حياية عشيقته . فراح يهزها في فراشها قائلاً : « لرحل فوراً ! هل لك في الدنيا شخص آخر يحملك غيري ؟ هل لك صديق خلافي ؟ أليست ذراعاي مأواك الوحيد ؟ » وقبل أن تفيق من الدهشة . وجدت نفسها مع فارسها في عرض الطريق . وبعد أن ضمها إلى صدره ولاطفها . أخبرها بما كان بنويه أبوه . شكرته على رقة شعوره . ثم تبينت المتناقضات في قصة حبيبها . فقالت له : « إنك مخطفى يا أدولف في حق نفسك . إنك كريم ، كلك ولاء لى لأنى مضطهدة ، وتظن أنك تحبني ، ولكنك في الواقع تعطف على فقط » . ويعترف أدولف للقارئ بشعوره هذا ، بيد أنه لا يعترف به لمحبيته .

وبعد أن وجد مكاناً يأوى إليه . كتب إلى أبيه يرجوه بالألا يغضب على اللينور لأن هذا التصرف يزيد في نار الحب ولا يفصم عراه . فرد عليه أبوه بطمئنه بأنه لن يشغل باله بمسألة صبيانية كهذه . ثم واجهه قائلاً : « إنك تضع أجمل سنى شبابك سدى وهى خسارة لن تعوض » .

اقتنع أدولف في قرارة نفسه بنصيحة أبيه لأن حياته تدور فعلا بين البطالة والآنزواء . ومع كل ، ظل بجانب عشيقته عدة أشهر في عزلة عن الناس في مدينة صغيرة من مقاطعة « بوهم » . وفي يوم من الأيام أخبرته اللينور بأنها تلقت رسالة من الكونت يعرض عليها التنازل لها عن نصف ثروته مقابل تركها « ذلك الوغد الذي سبب انفصالها » . لم تلتفت اللينور إلى هذا العرض . ولم يرق أدولف هذا التصرف « لأنه ظن أن الوقت قد حان ليختار مهنة ويدخل حياة الجد والاجتهاد

الاحترام . . . وارتحت للأفكار الجديدة التي طرأت على ذهني ، ولقدرنا على نسيان نفسي لأتطلع إلى حياة أسمى ، حتى شعرت أن روحي تستيقظ من غفوة طويلة مخجلة .

لاحظت اللينور على أدولف أنه يزداد قلقاً ، فغزت ذلك إلى الحياة المملة التي يعيشها بجانبها ، فعمدت . لتلطيف هذا الجو الخائق . إلى دعوة الأسر النبيلة القاطنة بجوارها لزيارتها . ولكنه لم يرتح لمجالسة هذه الفئة الثرثرة التي كانت بدورها تحذره وتكرهه . ويقول في ذلك : « من العجب أني كنت ضحية اللينور بينما كان الناس يبدون الشفقة عليها كما لو كانت ضحيتي . . . لقد أهملت . من أجل هذه المرأة ، كل مصالحى وملذات الحياة . ومع ذلك ، كنت أنا المحكوم عليه . »

حاولت اللينور أن تشعل نار الغيرة في قلب معشوقها بالتفاف الشباب حولها . إنه كبرياء المرأة المحروجة من فتور عشيقها . فتريد اقناع نفسها بأنها لا تزال محط أنظار المعجبين . طلب أدولف منها الكف عن هذه المهزلة المضحكة . لبت طلبه ولكن السعادة كانت قد طارت من عشهما وأضحت حياتهما مشوبة بالمنازعات والمخاصمات ، وكانت تقول له : « إنك لا تشعر بمدى الألم الذي تسببه لي ، ولكنك ستعرفه بعد أن تواريني التراب . »

وفي هذه الأثناء : أرسل البارون ت . . كتاباً رقيقاً إلى أدولف يطلب فيه مقابله . فذهب إليه ودار الحديث بينهما على كل شيء ، فيما عدا اللينور . وشجعه الدبلوماسي على زيارته من وقت لآخر . وفي إحدى المقابلات ، فاتحه البارون قائلاً : « أريد محادثتك بصراحة . ما الذي يرغملك على البقاء في حالة أنت غير راض عنها ؟ لمن تعمل الخير ؟ أنتظن أن الناس هنا لا يعلمون شيئاً عن صلاتك باللينور ؟ إنهم على علم بالشقاق وبالحياة المريرة التي تعيشها . إن ضعفك

يضعك ، وعنقك يضرك ، وتهورك لن يسعد بهذه المرأة التي حولتك إلى رجل بائس . »

تردد أدولف بعض الوقت في العمل بنصيحة السفير . ولكن اللينور راحت تعد عليه خطواته وروحاته ، الأمر الذي سود عيشته ، فانفجر معلناً للبارون : « نعم سأقتلع علاقتي بها . سأجد هذه الشجاعة . ويمكنك من الآن اخبار أبي بعزمي هذا . بيد أن الشجاعة خانته . فكتب إلى السفير خطاباً يطالب منه مهلة . فما كان من هذا الأخير إلا أن أطلع اللينور على ذلك الخطاب . فحز ذلك في نفسها ومرضت .

وعندما ذهب لعيادتها في غرفتها ، نظرت إليه ولم تعرفه . فكلّمها ، فصاحت مرتعدة : « ما هذا الصوت ؟ إنه الصوت الذي أضرني ! . . » وقرّر الطبيب المعالج أن المريضة في حاجة إلى الراحة التامة ، وطلب من أدولف ألا يطيل جلسته . وعندما صرح له برويتها ، قالت له : « لا أريد أن أسمع منك كلمة جارحة . إنني لا أطلب أي شيء . ولا أعارض في أي شيء ، ولكني أرجو هذا الصوت الذي أحبته كثيراً وتسربت نبراته إلى أعماق قلبي ، ألا يدخله اليوم نيمزقه . » حاول أدولف أن يخفف ما بها ويواسيها ويطمئنها معترفاً لها بذنبه ، معترفاً عنه لوقوعه تحت دوافع ولحظات قاسية خارجة عن إرادته ، وأنه لا بد لها من بدء حياة جديدة . فردت عليه قائلة : « لا تعاتب نفسك ، إنك كنت دائماً طيب القلب نحوي ولكنني أردت المستحيل . إن الحب كان كل شيء في حياتي ولم يكن بالنسبة لك . »

بدأت انينور تضعف وهزل وأدولف يحضر لها الطبيب إثر الطبيب ، ويطلب لها أنواعاً من العقاقير دون جدوى . ويقول : « وأرادت البكاء ، لكنها لم تجد الدموع . وأرادت الكلام ، ولكنها فقدت صوتها ، فتركت رأسها يميل في استسلام على ذراعى وانخفض تنفسها وانطفأت . . . وشعرت بأخر رباط لي ينفصم ،

وأصبحت أمام الحقيقة المخيفة التي فرقت بيني وبينها ،
وأصبحت الحرية التي كثيراً ما ندمت عليها ، ثقيلة
على كاهلي . وكم تأقت نفسي إلى ذلك الخضوع الذي
كثيراً ما ثرت من أجله ! » .

وعثر بين مخلفات اللينور على خطاب كانت رغبته
احراقه دون قراءته ، فاطلع عليه بدافع الفضول ، فاذا
به عتاب موجه منها إليه . يقول الخطاب في مضمونه :
« لم تعاملني بهذه القسوة يا أدولف ؟ ما هو الجرم الذي
ارتكبته ؟ الأني أحبك ولا أستطيع الحياة بدونك ؟
ما هي هذه الشفقة الغريبة التي تمنعك من فصح عرى
رابطة ثقيلة عليك وتشدك إلى مخلوقة بانسة تمزق
أحشاءها ؟ . . . هل يطيب لك موتي يا أدولف ؟ إذن
ليدخل قلبك السرور : ستموت هذه المخلوقة الضعيفة
التي كنت تحبها ولكنك ضربتها بقسوة . ستموت
اللينور التي لم تعد تتحمل رؤيتها لأنها أصبحت عثرة في
طريقك . . ستموت وستعود أنت إلى الناس الذين تريد
الاختلاط بهم بفارغ الصبر وستعرفهم على حقيقتهم .
وربما تضيق في ذات يوم بهذه القلوب الجافة ، فتندم
على ذلك القلب الذي كان في حوزتك ويعيش بحنانك ،
وكان مستعداً لخوض الأخطار لحمايتك ، ولم تعد تكافئه
حتى بنظرة » .

قد تسألني أيها القارئ العزيز ، بعد هذا القدر من
القصة : ما الذي كان يستطيع عمله أدولف ليخفف
من آلامه وآلام معشوقته ؟

إن هذا السؤال بالذات ألقاه عدد كبير من القراء
على كاتب القصة بعد طبعها ، فكان جوابه الآتي :
« لم يكن هناك منفذ لموقف أدولف واللينور . وهذا
ما قصده بالفعل . لقد أظهرته مضطرباً قلقاً لأنه كان
يحب اللينور حباً ضعيفاً . ولو أحبها حباً جماً لما تغير
اضطرابه ولا قلقه على كل حال . كان يتعذب من
أجلها لغتور شعوره نحوها . ولو طغى شعوره لتعذب
لأجلها . ولما كان المجمع قاسياً في حكمه ، فلن يتورع
من استنكار حنان أدولف لأنه عار من أية روابط ؛
وعلى طالب السعادة في الحياة ألا يبتدئها بمثل هذه
الصلة : لأن الإنسان متى سار في هذا الطريق ، فلا
مناص له من تحمل الآلام » .

إنه حكم قاس ولكن واقعي . ويسرنا أن نختم به
هذه الدراسة التي جعلت القارئ العزيز يقف على حقيقة
رجل غير مستقر ولكنه صريح ، رجل أديب رقيق
بقدر ما هو غزير المادة ، قوى التعبير . ولعلها تدفعك
إلى قراءة روايته إن كنت لا تعرفها ، وإلى إعادة
قراءتها إن كانت في حوزتك . وإني واثق من منحك
الكاتب كل رضاك .



الخطط التوفيقية لعلي مبارك

بمعلم
الدكتور عبد العزيز الشاوي
أستاذ للتاريخ الحديث بجامعة الأزهر

مكانته في تاريخ مصر القومي :

يتمتع علي مبارك بصدارة واضحة بين رواد النهضة العلمية في مصر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . كان علي حظ موفور من العلم وجمع بين الثقافتين العربية والفرنسية ، ففتح العلم أمامه باب الأمل واسعاً لا حد لسعته ، وباب الرقي طويلاً لا حد لطوله ، وتقلد العديد من المناصب الوزارية ، وهو الذي كان في مرتع صباه يبيت من الجوع طاوياً ، وانطلق يشارك في توجيه الحياة العقلية للمصريين ويسهم في تنظيم الجهاز الحكومي وسرعان ما برز بروزاً واضحاً قوياً في ميادين العلم والتعليم والتربية والتأليف ، وغدا يمثل طرازاً فريداً بل جهد الوزير العالم ودأب الباحث المحقق .

نشأته الأولى : طفولة مشردة :

ولد علي مبارك في قرية برنبال الجديدة (١) من

(١) توجد في الوجه البحري ثلاث قرى تحمل هذا الاسم : احداها في مركز دسوق بمحافظة كفر الشيخ وتقع على الشاطئ الشرقي لفرع رشيد شمال مطوبس . وبرنبال القديمة وتسمى أيضاً برنبال البحرية وتقع على البحر الصغير بمحافظة الدقهلية . وبرنبال الجديدة مسقط رأس علي مبارك.

أعمال مركز دكرنس بمحافظة الدقهلية سنة ١٢٣٩ هـ (١٨٢٣ - ١٨٢٤ م) من أسرة ريفية رقيقة الحال مثقلة بوفرة الإنجاب على العادة الشائعة في المجتمع المصري وقتذاك ، إذ كان له سبع بنات شقيقات وإخوة ذكور من غير أمه . وعلي مبارك وهو يترجم لنفسه يسوق تسلسل آبائه على هذا النحو : مبارك ابن مبارك بن سليمان بن ابراهيم الروجي . وظفر جده الأعلى الشيخ ابراهيم الروجي بمكانة سامية في البلدة فكان إمامها وخطيبها وقاضيها . وتوارث أبناؤه وحفدته هذه الوظائف فعرفت أسرته بعائلة المشايخ ، وأضيفت إلى وظائفها توثيق عقود الزواج والرقابة على الموازين والمكايل . وكانت حكومة محمد علي ترهق الفلاحين من

أمرهم عسراً بما تفرضه عليهم من نظام ضريبي جائر . وحدث أن أقطعت الحكومة أسرة المشايخ قسراً عنها قدراً من الأقطان لزراعتها ، وكانت هذه الأقطان مثقلة بضرائب متأخرة وطلبت منها سدادها مع الضرائب الجديدة ، واستخدمت مع أفراد الأسرة الضرب والسجن وغير ذلك من وسائل التعذيب « كأسوة الفلاحين

فضاق خناقهم من ذلك لعدم اعتيادهم الإهانة ، وبعد
بذلهم ما بأيديهم ويبيعهم المواشي وأثاث البيوت ،
وأو أن لا ملجأ لهم من ذلك إلا الفرار » (١) فارتحل
أفراد أسرة المشايخ عن قريتهم وتفرقوا في البلاد .
ونزل الشيخ مبارك بن مبارك والد علي مبارك في قرية
الحماة من أعمال محافظة الشرقية . وكان علي مبارك
قد بلغ من العمر وقتذاك ست سنوات . ولم يطب
المقام للشيخ مبارك إذ لمس أن شعور أهل الحماة نحو
الأسرة النازحة شعور غير طيب فارتحل عنها إلى
عرب السماعنة وهم من عرب الخيش بمحافظة الشرقية .
وعرف عن هؤلاء العرب أنهم يجلبون رجال الدين ،
وكان الشيخ مبارك رجلاً صالحاً على ثقافة دينية فظفر
بتقديرهم وأصبح مرجعهم في المسائل الدينية ، وشيدوا
مسجداً وعينوه إماماً وطابت له الإقامة في هذا المرتحل
الحديد وانصرف يدبر شئون أسرته .

وكان علي مبارك قبل رحيله من قرية برنبال الحديدية
بدأ يتعلم على رجل كفيف من أهلها ، فلما استقر
بأسرته المقام بين عرب السماعنة أسلمه والده إلى
فقيه يدعى الشيخ أحمد أبو خضر ، وعلى يديه استظهر
القرآن حفظاً ، ولكنه ما لبث أن نفر من هذا الفقيه ،
إذ كان فظاً غليظ القلب أسرف في ضربه وإيذائه .
وأراد أبوه أن يجبره على الرجوع إلى الفقيه ، لكنه أصر
على الرقص وعول على الهرب ، وتدخل إخوته في
الأمر وصرح لهم بأنه لا يريد أن يكون فقيهاً وأنه
يفضل أن يكون كاتباً نظراً لما لمسه من مزايا يتمتع بها
الكاتب « من حسن الهيئة والهيبة والقرب من الحكام »
ونزل الوالد علي رغبة الابن ، فعهد إلى صديق له
يعمل كاتباً بتعليمه الكتابة . ولكن ما لبث الصبي أن

(١) ترجمة حياة علي مبارك بقلمه . المخطوط التوفيقية ج ٩ .

رأى من الكاتب غلظة فاقت قسوة الفقيه ، إذ ضربه
يوماً بمقلاة بن شجت رأسه لأنه أخطأ في الإجابة على
سؤال في جدول الضرب . فأثر على مبارك الهرب على
احتمال القهر والضرب والهوان ، وكأنه كان يتطلع
إلى أسلوب في التعليم أرقى من الأسلوب العتيق .

حار الوالد في تعليم الابن ، فأحاله إلى صديق آخر
من كتبة المساحين كى يقوم على تعليمه ، فلزمه ثلاثة
أشهر ثم طرده ، لأنه كان يفشى أسرار الرشا التي
كان يتناولها من الأهلين ، وبقي في بيت أبيه يقرأ
نُ عليه ، ثم وفق الوالد في أن يجد لابنه وظيفة كتابية هي
مساعد كاتب في مأمورية أبي كبير بمرتب شهري قدره
خمسون قرشاً . وماطل الكاتب في دفع مرتبه إلى أن
تسلم علي مبارك يوماً ما حصيللة الضرائب من إحدى
قرى مركز أبي كبير ، فاستقطع منها مرتباته المتأخرة عن
ثلاثة أشهر وترك له ايصالاً بتسلم هذا المبلغ ووضع
الإيصال في كيس النقدية . فتم منه الكاتب هذا
التصرف وأغرى به مأمور المركز واتفق معه علي
تجنيدته واعتقده ، وظل في السجن بضعة وعشرين يوماً
وهو مقيد بالحديد . وبذل الشيخ مبارك مساعيه وساعدته
الظروف إذ كان محمد علي يزور منيا القمح بمحافظة
الشرقية ، فرفع إليه ظلامته ، وأمر محمد علي بإخلاء
سبيل الابن ، وعاد الوالد بالأمر إلى المأمور يطلب
تنفيذه . وخرج علي مبارك من السجن ليعين كاتباً
عند مأمور زراعة القطن بناحية أبي كبير وكان يسمى
عنبر أفندى وجعل مرتبه خمسة وسبعين قرشاً في
الشهر وجراية من الخبز تقدم له كل يوم . ولقي
علي مبارك معاملة طيبة من عنبر أفندى .

هل يقف السادة أمام العبيد ؟ حوار مثير بين الابن وأبيه

لاحظ علي مبارك أن عنبر أفندى رجل حبشى أسود
اللون وكأنه عبد مملوك . وزاد من دهشته أن رأى

علية القوم من أصحاب الثراء والحكام ومشايخ البلاد وقوفاً بين يديه وهو يلقي عليهم بالأوامر « وكنت لم أر مثل ذلك قبل ، ولم أسمع به ، بل أعتقد أن الحكام لا يكونون إلا من الأتراك على حسب ماجرت به العادة في تلك الأزمان . وبقيت متعجباً متحيراً في السبب الذي جعل السادة يقفون أمام العبيد ، ويقبلون أيديهم . وحرصت كل الحرص على الوقوف على هذا السبب » .

وفي اليوم التالي حضر الشيخ مبارك لزيارة ابنه . فقدمه إلى المأمور الذي بالغ في إكرام وفادته حتى خرج من عنده ولسانه يلهج بالثناء عليه . ودار في مساء نفس اليوم حوار مثير وطريف بين الوالد وابنه حول عنبر أفندي والأسباب التي قفزت به إلى شغل هذا المنصب الكبير . ولندع على مبارك يقص هذا الحوار « ولما سهرت مع والدي ليلًا جعلت كلامي معه في هذا المأمور ، فقلت له هذا المأمور ليس من الأتراك لأنه أسود ، فأجابني بأنه يمكن أن يكون عبداً عتيقاً . فقلت هل يكون العبد حاكماً مع أن أكابر البلاد لا يكونون حكاماً فضلاً عن العبيد ؟ فجعل هو يبيِّنني بأجوبة لا تقنعني ، فكان يقول لعل سبب ذلك مكارم أخلاقه ومعرفته ، فأقول : وما معرفته ؟ فيقول : لعله جاور بالأزهر وتعلم فيه . فأقول : وهل التعلم في الأزهر يؤدي إلى أن يكون الإنسان حاكماً ؟ ومن خرج من الأزهر حاكماً ؟ فقال : يا ولدي كلنا عبيد الله ، والله تعالى يرفع من يشاء . فأقول : مسلم ، لكن الأسباب لا بد منها ، وجعل يعظني ويذكر لي حكايات وأشعاراً لم أقتع بها ، ثم أوصاني بملازمته وامتنال أوامره ، وبعد يومين سافر عني وتركتني عنده » .

أخذ على مبارك بوسائله الخاصة يتقصى الأخبار عن

نشأة المأمور واتصل بأحد الخدم المقربين للمأمور وعلم منه أنه كان عبداً اشترته إحدى سيدات المجتمع في مصر بشمن بخس دراهم معدودة . ولما أنشأ محمد على المدارس الحديثة استطاعت هذه السيدة بمالها من نفوذ في مجتمع تركي أرستقراطي أن تلحقه بمدرسة القصر العيني الثانوية . وأبلغه الفراش أن خريجي هذه المدرسة يعينون حكاماً . فجاشت في نفسه رغبة جامحة في أن يلتحق بهذه المدرسة ، ولما سأله عما إذا كان يدخلها أحد من الفلاحين ، أجابته أن التحاق الفلاح بها أمر ممكن إن كانت لديه « واسطة » فقلق من هذا القيد ولكن لم تنفّر عزيمته وأخذ يجمع مزيداً من المعلومات عن المدرسة ، فعلم أن تلاميذها يتعلمون بالحنان وتقوم الحكومة بإطعامهم وإيوائهم وكسائهم ، وازداد إصراراً على الالتحاق بالمدرسة وأخذ يسأل عن مكانها في القاهرة وطريقة السفر إلى العاصمة ومقدار المسافة التي عليه أن يقطعها وأسماء البلدان التي يمر بها وصحت عزيمته على ترك عمله وطلب الإذن في زيارة أسرته فمُنحه عنبر أفندي إجازة خمسة عشر يوماً ، واتخذ طريقه إلى القاهرة سرباً .

نقف هنا وقفه قصيرة لنقرر أن عاملين رئيسيين لعبا دوراً كبيراً في رسم مستقبل حياته ، هما : الآمال الكبار التي داعبت فؤاده وهو لا يزال شاباً يافعاً فأني أن يقنع بعمل صغير في معاونة موظف حكومي ومن ثم صمم على المضي في تحصيل العلم مهما لقي من مشاق وأهوال : أما العامل الثاني فكان حرصه على كرامته إذ ظل حادث سجنه عالماً في ذهنه ، وكان يسأل نفسه عما يحدث لو نهج عنبر أفندي المأمور نهج الكاتب وألقى به في غياهب السجن « واستمرت الفكرتان في بالي ، وكانت همتي في التخلص من كل ذلك ومن أمثاله ، وأود أن أكون بحالة لا ذل فيها ولا تخشى

غواثلها « وهذا القول دليل على أنه كان على حظ موفور من عزة النفس والطموح وإباء الضيم .

التحاقه بالمدارس الحديثة :

وبينما كان على مبارك يقطع الطريق إلى القاهرة سيراً على قدميه التقي بصيبة مع كل واحد منهم دواة وأقلام ، وعلم منهم أنهم تلاميذ مكتب منية العز ، وأن نجباء تلاميذ المدارس الابتدائية - مكاتب الابتدائيين بمصطلح ذلك العصر - ينقلون إلى المدارس التجهيزية - أى الثانوية - دون واسطة « فرأيت ذلك غاية مرغوب ، فلم أتأخر عن الذهاب معهم ودخلت المكتب » وتفوق في دراسته واختير سنة ١٨٣٦ للالتحاق بمدرسة قصر العيني التجهيزية (١) وفي سنة ١٨٤٠ وقع عليه الاختيار لدخول مدرسة المهندسخانة واستمر محافظاً على تفوقه العلمي . وفي سنة ١٨٤٤ أوفد في بعثة علمية إلى فرنسا أطلق عليها بعثة الأمراء أو بعثة الأنجال لأنها كانت تضم بعض أبناء محمد على وحفدته . وبعد أن أتم سنتين في باريس عين ضابطاً في الجيش الفرنسي برتبة ملازم ثان في مدرسة المدفعية والهندسة الحربية بمدينة متر Metz . وقضى فيها سنتين آخرين تعلم فيهما فن الاستحكامات وجزاز امتحانها بنجاح وعين في الفرقة الثالثة من سلاح المهندسين بالجيش الفرنسي . ولما تولى عباس الأول حكم مصر أمر باستدعاء معظم أعضاء البعثات فعادوا إلى مصر وكان من بينهم على مبارك .

وفي حكم عباس الأول تقلد على مبارك عدة مناصب حكومية ووظف بتقدير هذا الوالى الذى عهد إليه بوضع مشروع جديد للنظام التعليمى فى مصر وأخذ به

عباس وأصدر قراراً بالموافقة على لائحة على مبارك التعليمية (١٧ رجب ١٢٦٦ - ٢٩ مايو ١٨٥٠) ورفاه إلى رتبة عميد وعينه ناظراً للمدرسة المهندسخانة وملحقاً بها وظل يشغل هذا المنصب حتى نهاية حكم عباس . يقول مؤرخ التعليم فى مصر الحديثة إنه « قد أتيح للمدرسة المهندسخانة إدارة حازمة مستبيرة فى شخص ناظرها على مبارك . وكانت الفترة التى قضاها ناظراً لها من ١٨٥٠ إلى ١٨٥٤ من أحفل الفترات فى تاريخ حياته . والواقع أنها أعدت على مبارك وهياته للدور الخطير الذى سيقوم به فى إدارة التعليم وتوجيهه بعد ذلك فى عصر اسماعيل وبعد عصر اسماعيل (١) » .

ولما تولى محمد سعيد حكم مصر عزله من منصبه وألحقه بإحدى فرق الجيش المصرى كانت مسافرة للاشتراك فى حرب القرم . وقد لبث فى هذه المهمة سنتين ونصف سنة تعلم خلالها اللغة التركية واتسعت مداركه وزادت معلوماته . ولما عاد إلى مصر حفت به المتاعب من يمين وشمال وعاش عيشة ضنكاً يشغل وظائف تافهة حيناً ، ويفصل منها أحياناً ، وتسوء حالته النفسية ، ويفكر فى العودة إلى قرينته ليشتغل فلاحاً ، ويفكر حيناً آخر فى مزاوله التجارة . وبينما هو يجهد الفكر فى إيجاد عمل يرتزق منه جاء الموت سعيد باشا فى مطلع سنة ١٨٦٣ وتولى اسماعيل حكم مصر . وعندئذ بدأت حياة على مبارك تأخذ اتجاهاً آخر ، وغدا العالم المغمور المتعطل نجماً يسطع فى سماء البلاد وأصاب فى الحياة العامة النجاح والجاه والمال والمركز السامى .

كان على مبارك زميلاً للوالى الحديد فى بعثة الأمراء إلى فرنسا ولذلك كان اسماعيل به حفيماً . فعينه ناظراً

(١) د. أحمد عزت عبد الكريم : تاريخ التعليم فى مصر . عصر عباس الأول وسعيد . القاهرة ١٩٤٥ ص ١٠٦ .

(١) نقلت هذه المدرسة بعد سنة إلى أبى زعبل لتحل محلها فى قصر العيني مدرسة الطب البشرى .

لمدرسة الابتدائيين فمهندساً للقناطر الخيرية وأظهر براعة في توزيع الماء بين فرعي رشيد ودمياط ، وأشرف على عمليات تعميق رياح المنوفية وإقامة قناطره ومبانيه ، وعين كبيراً لمهندسي المعية السنية . وحدث أن ناقش مجلس شورى النواب في نوفمبر ١٨٦٦ السياسة التعليمية وانتهت مناقشاته إلى عدة قرارات هامة كان من بينها إنشاء مدرسة ابتدائية في كل مديرية وتنظيم المكاتب الأهلية تحت إشراف الحكومة وإباحة الالتحاق بها للجميع « من عموم الناس بالرغبة بدون استثناء مسلم أو قبطي ، غني أو فقير . » ويتلقى جميع التلاميذ دروسهم معاً ما عدا دروس الدين ، فيفرد محل خاص للأقباط ويتدب غبطة البطريرك أحد القسوس لتعليمهم الديانة المسيحية « حيث جميعهم أولاد الوطن » . ولم تكن هذه القرارات سوى مبادئ عامة تحتاج إلى إعداد فني واسع . وهنا تقدم على مبارك ، وكان يشعر بحيل فطري نحو التعليم ، للعمل في الحقل التعليمي . فقدم لاسماعيل مذكورة تضمنت آراءه ومعهامشروع لائحة لتنظيم وإصلاح المكاتب الأهلية . وعرفت هذه اللائحة باسم لائحة ١٠ رجب ١٢٨٤ (٧ نوفمبر ١٨٦٨) وهي تؤرخ المحاولة الحقيقية الأولى لنظام قومي للتعليم في مصر وأوضح الطريق لمن جاء بعده من دعاة الإصلاح . وقبل أن تتم الموافقة على هذه اللائحة عين وكيلاً لديوان المدارس في سبتمبر ١٨٦٧ ثم مديراً له وناظراً للأشغال وناظراً للأوقاف . وجمع كل هذه الوزارات في سراي درب الحماميز ليسهل إشرافه عليها ثم أضيفت إليه مصلحة السكك الحديدية . وقد وزع وقته بين هذه الوزارات طوال النهار وزلفاً من الليل .

وقد أرسى مبادئ هامة في ميدان التربية والتعليم لانتزال معمولاً بها إلى اليوم . وليس هذا المقال مجال

التعرض لها . وقد أنشأ مدرسة دار العلوم لتخريج مدرسي اللغة العربية ، ومن المدارس الأخرى التي أقامها : الألسن والإدارة والمحاسبة ، كما أنشأ دار الكتب المصرية وأسس أول مجلة ثقافية في مصر الحديثة هي مجلة روضة المدارس . ولئن كانت شهرته تركز على أمرين : خدماته في التربية والتعليم ، وتأليف الخطط التوفيقية ، إلا أنه له مآثر أخرى تتصل بمنشآت الري وتوسيع الشبكة الحديدية في مصر وتنظيم القاهرة والمدن الأخرى وغير ذلك من الأعمال الهندسية والعمرائية .

وحدث أن فترت العلاقات بينه وبين الخديو اسماعيل بسبب دس الحاسدين له ، فانفصل عن مناصبه واعتكف في منزله سنتي ١٨٧٠-١٨٧١ ثم أعيد إلى ديوان المدارس ونظارة الأوقاف والأشغال . ولما أُلّف نوبار باشا وزارته الأولى في أغسطس ١٨٧٨ دخلها على مبارك وزيراً للمعارف والأوقاف . ولما سقطت هذه الوزارة في فبراير ١٨٧٩ خلفتها وزارة الأمير توفيق في ٢٢ مارس وتقلد على مبارك فيها نفس الوزارتين . ولم تعمر هذه الوزارة طويلاً وأعقبها في ٨ من أبريل ١٨٧٩ وزارة شريف باشا ولكنه لم يدخلها وظل وزيراً متقاعداً حتى نهاية حكم اسماعيل .

ولما تولى توفيق الحكم ظل على مبارك بعيداً عن المناصب الحكومية معتكفاً في داره . إلى أن أُلّف مصطفى رياض باشا وزارته في سبتمبر ١٨٧٩ فدخلها على مبارك وزيراً للأشغال . وفي عهد هذه الوزارة ظهرت مقدمات الثورة العرابية ولم يكن على مبارك من أنصارها ، بل كان يميل إلى الاعتدال وأخذ الأمور بالحكمة والهوادة . وقد سقطت الوزارة في سبتمبر ١٨٨١ نزولاً على إرادة الثوار . وتعاقت أحداث

هذا الواجب جنباً إلى جنب واجب آخر هو وضع الكتب المفيدة . فتأليف هذا النوع من الكتب هدف سعى إليه على مبارك بنفسه ودعا إليه القادرين على التأليف العلمى نهوضاً بالوطن وتوفية لما له من حقوق عليهم . ويقول فى أداء هذين الواجبين « ولهذا التزمت فى كل ما تقلدت من الأعمال ، وجميع ماتقلبت فيه من الأحوال ، أن أخدم وطنى بكل ما نالته يدى وبلغه إمكاني مما أراه يعود عليه بالفائدة والنفع قل أو جل ، كالسعى فى استكثار المكاتب والمدارس ، وتعميم التربية والتعليم ، ونشر الكتب المفيدة ، إما بالاشتغال فى تأليفها بنفسى ، أو الحث والتحريض عليها لمن أرى فيه أهلية القيام بها » .

وتمشياً مع ما أخذ به نفسه تميز على مبارك بالإنتاج العلمى والأدبى الوفير . ففضلاً عن كتاب الخطط التوفيقية له مؤلفات أخرى منها .

١ - حقائق الأخبار فى أوصاف البحار . وقد نشر أول الأمر فى حلقات متتابعة فى مجلة روضة المدارس ثم طبع مكتملاً فى مطبعة وادى النيل سنة ١٢٨٧ هـ (١٨٧٠) م .

٢ - تنوير الأفهام فى تغذى الأجسام . طبع سنة ١٢٨٩ هـ (١٨٧٢) م .

٣ - نخبة النيل فى تدبير نيل مصر . وقد طبع فى مطبعة وادى النيل سنة ١٢٩٨ (١٨٨١) وقد أفرغ فى هذا الكتاب ثقافته الهندسية فى شئون الري ومشروعاته فى مصر .

٤ - علم الدين . وهو قصة خيالية فى أربعة أجزاء تقع أحداثها فى مصر وأوروبا ، ويدور الحديث فيها بين أحد العلماء المصريين من خريجي الأزهر وقد أطلق عليه اسم علم الدين ، وبين عالم انجليزى وقد

الثورة سراعاً وانتهت بالإخفاق ووقوع البلاد فريسة للاحتلال البريطانى . ولما أُلّف شريف باشا وزارته الرابعة سنة ١٨٨٢ عقب الاحتلال دخلها على مبارك وزيراً للأشغال وظلت هذه الوزارة فى الحكم إلى أن استقالت فى يناير ١٨٨٤ احتجاجاً على أمر الحكومة البريطانية لها بإخلاء السودان وكان لعلى مبارك نصيب فى الموقف المشرف الذى وقفته هذه الوزارة ، ووجد الإنجليز فى نوبار باشا أداة طيعة لينة فقبل تأليف الوزارة على قاعدة إخلاء السودان . ولم يدخل على مبارك هذه الوزارة بطبيعة الحال . وظل نوبار فى الحكم إلى أن استنفد الإنجليز أغراضهم منه ومن وزارته ، فأقيمت الوزارة فى ٧ يونيو ١٨٨٨ ، وعهد توفيق إلى رياض باشا تأليف وزارة جديدة ودخلها على مبارك وزيراً للمعارف . وقد بقيت هذه الوزارة فى الحكم من ١١ يونيو ١٨٨٨ حتى ١٢ مايو ١٨٩١ وكان هذا التاريخ هو آخر عهد على مبارك بالمنصب الحكومية إذ أوى إلى داره ، وأخذ ينتقل بين القاهرة وقرينته حيث أصيب بداء المثانة فعاد إلى القاهرة واشتدت عليه وطأة المرض إلى أن جاز إلى ربه فى داره بالحلمية الجديدة فى ١٤ نوفمبر ١٨٩٣ . وهو من الشخصيات المصرية القليلة التى عاصرت حكم محمد على وإبراهيم وعباس وسعيد وإسماعيل وتوفيق وعباس حلمى . وكانت حياته خصبة حافلة بمجالات الخدمات والأعمال تجعل من صاحبها طرازاً فريداً بين الرجال .

مؤلفات على مبارك :

كان لعلى مبارك فلسفته فى الحياة ، فهو يرى أن أول واجب يؤدى إلى الشعب هو تعليم أبنائه ونشر التعليم بينهم وزيادة عدد المدارس حتى يصبح نابذة البلاد عناصر صالحة منتجة فى المجتمع . ويمشى مع

تناول فيه المؤلفان تاريخ مصر في مختلف العصور ابتداء من العصر الفرعوني ثم حكم الفرس وعصرى البطالمة والرومان ثم العصر الإسلامى ووصلا فيه إلى سنة ١١٦٠ هـ (١٧٤٨) م أى إلى منتصف القرن الثامن عشر الميلادى تقريباً وقد ذكر محمد مجدى وهو يترجم لوالده صالح مجدى (١) أن المؤلفين جمعا المادة العلمية لهذا الكتاب فى نيف وأربعمائة كراسة وأنها لدى على مبارك وأنه يغلب على ظنه أنها مهياة للطبع ، ولكن هذا الكتاب للأسف مفقود لانعرف عنه شيئا .

١٢ - آثار الإسلام فى المدنية والعمارة . ويقول الدكتور محمد درى باشا فى ترجمته لعلى مبارك باشا إن هذا الكتاب كان آخر ما ألفه على مبارك ، وقد تناول فيه ما أدخله الإسلام من العمارة فى البلاد التى انتشر فيها ، وأنه لما انتهى من وضعه وتبييضه أعطاه لأحد علماء الأزهر لمراجعته ، وأن هذا الكتاب محفوظ فى خزانة على مبارك .

الخطط التوفيقية : ملامحها العامة :

وأما كتاب «الخطط التوفيقية الجديدة لمصر القاهرة ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة» فيمثل قمة إنتاجه العلمى وأوج نضوجه العقلى . ويقع فى عشرين جزءاً ، وهو موسوعة عربية كبرى أو دائرة معارف عربية خاصة بمصر . وقد سار على مبارك فى وضع هذه الموسوعة على نهج المقرئى فى خططه . وقد اشتهرت مصر الإسلامىة بفن تأليف كتب الخطط . فهذا الفن ، كما يقول الأستاذ الدكتور جمال الدين الشبال ، فن مصرى أصيل نشأ فى مصر

(١) صالح مجدى هو علم من أعلام مدرسة الألسن أظهر نبوغاً فى دراسة اللغة الفرنسية وتعاون مع على مبارك فى الإنتاج العلمى .

إلى مصر وتعلم اللغة العربية . ويبدأ الحديث فى مصر ويتخذ العالم الإنجليزى موقف التلميذ من الشيخ المصرى يستوضحه مظاهر الحياة المصرىة التى يراها وتاريخ البلاد . ثم يرحل الرجلان إلى أوروبا فينقلب الموقف تماماً ، وإذا بالعالم المصرى يتخذ موقف التلميذ ويسأل رفيقه الإنجليزى عن كل ما يراه فى المجتمع الأوروبى . واستهدف على مبارك من وضع هذه القصة عقد مقارنة بين مظاهر الحياة والحضارة فى الشرق والغرب لتنبه أذهان أهل الشرق إلى مزايا الحضارة الأوربية الحديثة . والكتاب يزخر بمادة علمية وتاريخية واجتماعية غزيرة ومفيدة وطريفة وتضمن بحثاً فى الموالد والأعياد والمواسم والمسارح ويسمىها «التياترات» وتعدد الزوجات ومضار تعاطى الحشيش . وقد طبع الكتاب فى مطبعة المحروسة فى الإسكندرية سنة ١٢٩٩ هـ (١٨٨٢) م .

٥ - الميزان فى الأقيسة والمكاييل والأوزان ويحتوى على دراسة مقارنة فى تاريخ الأقيسة وغيرها فى مصر القديمة وفى مصر الإسلامىة . وقد طبع فى القاهرة ١٣٠٩ هـ (١٨٩١) م .

٦ - خلاصة تاريخ العرب وهو كتاب عربى من الفرنسىة لمؤلفه سيدىو . وطبع فى القاهرة سنة ١٣٠٩ (١٨٩١-١٨٩٢) م .

٧ - تذكرة المهندسين .

٨ - تقريب الهندسة .

٩ - طريق الهجاء والتمرين وهو فى جزئين .

١٠ - المزاحمة وتأثيرها فى الارتقاء البشرى .

١١ - ومن الكتب التى أشير إليها ولم تطبع إلى اليوم كتاب ضخيم وضعه بالاشتراك مع صالح مجدى

تعرضت لكثير من أحداث الزمن منذ أن شيدت على عهد المعز لدين الله رابع خلفاء الدولة الفاطمية وأولهم في مصر ، فحينما كانت القاهرة مدينة زاهرة عامرة ، وحينما كانت واهنة واهية . وقال إن المقریزی المؤرخ العربي الذائع الصيت قد شرح في كتابه «المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار» وهو الكتاب المشهور باسم الخطط ، ما طرأ على القاهرة من تغيير في معالمها من منشآت وميادين وشوارع وما إليها ، وأسدى بوضع هذا الكتاب خدمة جليلة للتاريخ . ولكن منذ أن جاز هذا المؤرخ إلى ربه في أوائل سنة ١٤٤٢ لم يحفل أحد بأن يرسم خطاه فيتابع تسجيل التطور التاريخي والعمرائي والديني والاجتماعي للقاهرة وسائر المدن المصرية على الرغم من الحاجة الماسة الى القيام بمثل هذا العمل ، فقد وقعت منذ وفاة المقریزی أحداث عصفت ببعض معالم كانت قائمة على عهده فاندثرت وكادت تصبح نسياً منسياً ، ونسبت منشآت لغير أصحابها ، كما نفذت مشروعات هامة وظهرت شخصيات قيادية تركت بصماتها في تاريخ البلاد . ثم يقول على مبارك في وطنية دافقة «إن معرفة ذلك حق علينا ، إذ لا يلبق بنا جهل بلادنا ، والتهاون بمعرفة آثار أسلافنا ، التي هي عبرة للمعبر وذكري للمذكر . فهم وإن مضوا لسبيلهم ، قد تركوا لنا ما يحثنا على اقتفاء آثارهم ، وأن نصنع لوقتنا ما صنعوه لوقتهم ، وأن نجد في طريق الاستفادة كما جدوا » . ومن ثم جاشت في نفس على مبارك رغبة جامحة في وضع مثل هذا المرجع العلمي ، وقد وصفه في تواضع العلماء بأنه « كتاب واف بما لمصر من قديم وحديث متضمن لذكر مبانيها الدائرة والموجودة ، وما يتبع ذلك من أخبار أربابها وذكر نيلها ومنافعه وكيفية تصرفاته ومواضعه » بيد أنه استشعر من أول الأمر ضخامة

الإسلامية ، وفيها دون غيرها من الأمصار الإسلامية ، نما وترعرع . وكان الكندي أول من ألف فيه ، ولم يكن يمضي قرن بعد ذلك حتى يظهر فيه مؤلف أو أكثر يكتبون في خطط مصر ، وكان آخرهم تقي الدين المقریزی (١) واتخذ على مبارك بصورة عامة خطط المقریزی أساساً لخططه التوفيقية ، ففتح مدن مصر وقراها ، ووصف طبوغرافيتها ، فكان يتحدث عن موقع المدينة أو القرية أولاً ، ثم يؤرخ لها من أقدم العصور إلى الوقت الذي اندثرت فيه أو حتى القرن التاسع عشر إذا كانت لاتزال قائمة ، ويصف ما بها من منشآت ومرافق عامة مثل المساجد والزوايا والأضرحة والكنائس والأديرة والمدارس والكتاتيب والوكائل والحمامات والمستشفيات والمصانع والقصور والدور ويثبت ما أصابها من تغيير . ويقرن هذا الوصف الطبوغرافي المسهب بترجمة لمن برز في كل بلدة ممن ولدوا بها أو عاشوا فيها أو دفنوا في ثراها . وقد أفرد على مبارك الأجزاء الستة الأولى لمدينة القاهرة ، وخص مدينة الإسكندرية بالجزء السابع ثم أرخ لباقي المدن المصرية في عشرة أجزاء تبدأ من الجزء الثامن إلى الجزء السابع عشر . وأفرد الجزء الثامن عشر لمقياس النيل منذ عهد الفراعنة حتى القرن التاسع عشر والاحتفالات التي كانت تقام عند وفاء النيل في مختلف العصور . وفي الجزء التاسع عشر تكلم عن ترع النيل ورياحاته ومنشآت الري . أما الجزء العشرون فقد أرخ فيه للنقود المصرية في العصر الإسلامي .

عرض سريع لمحتوى الخطط التوفيقية :

شرح على مبارك البواعث التي أملت عليه وضع هذه الموسوعة العربية ، فقال إن مدينة القاهرة قد

(١) دكتور جمال الدين الشيال : التاريخ والمؤرخون في

مصر في القرن التاسع عشر . الطبعة الأولى ١٩٥٨ ص ١٠٥ ، ١٠٦

المشروع وصعوبته لما يحتاجه من مجهود مضمّن ووقت فسيح لا يتسع له وقته بسبب أعباء المناصب الكبرى التي كان يتقلدها مجتمعة في يده ، ومن ثم عرض على صفوة من علماء مصر القيام بهذا المشروع العلمي الجليل فلم تلق دعوته استجابة منهم وانتهى به التفكير إلى أنه لا مناص من أن ينهض بمفرده بهذا العمل .

* * *

وقد استهل على مبارك الجزء الأول من الخطط التوفيقية بوصف المكان الذي أقيمت عليه مدينة القاهرة كقائمة اوصف هذه العاصمة مدة الخلفاء الفاطميين ثم انتقل إلى كتابة تاريخ مصر عبر العصور التاريخية منذ تأسيس القاهرة حتى السنوات الأخيرة من حكم الخديو توفيق فوقف عند سنة ١٣٠٥ هـ (١٨٨٧-١٨٨٨ م) أي بعد الاحتلال البريطاني لمصر بسبع سنوات تقريبا ، وهي فترة اجتمع فيها مجد الوطن وبؤسه والتقى أملة الطالع بشمس الغاربة ، وشهدت البلاد قيام عدة دول وأسرات تعاقبت على حكمها : فأرخ للدولة الفاطمية ثم للأيوبية والمماليك البحرية والمماليك البرجية والحكم العثماني لمصر والاحتلال الفرنسي وسنوات الاضطراب السياسي التي أعقبت خروج الفرنسيين ثم تولية أسرة محمد علي حكم مصر حتى الثمانينات من القرن التاسع عشر - وعاد المؤلف بعد هذا السرد التاريخي إلى مدينة القاهرة يعين حدودها وتقسيمها الإداري في القرن التاسع عشر وعدد أقسام الشرطة والمرافق العامة بها من مستشفيات وصيديات ومدارس حديثة ومرفق المياه وذكر عدد المساجد والزوايا والربط (١) والخوانق (٢) والتكايا (٣) والأسبلة (٤) والمقاهي والحمامات العامة وموالد الأولياء وعدد سكان القاهرة حسب تعداد ١٨٨٢ وقد بلغ ٣٧٤,٨٣٨ نسمة ثم أورد احصائية طريقة

عن أصحاب الحرف في القاهرة وقد بلغ عددها ٧٥ حرفة . وكانت أكثر الحرف تعدادا هي حرفة الحمارة فقد بلغ عدد أفرادها ١٧٣٩، ويلاحظ أن وسيلة المواصلات الرئيسية لعامة الشعب في القاهرة وقتذاك كانت الحمير . وكان يلي الحمارة - من حيث العدد - النجارون (الدق) ثم عمال البناء ثم البقالون فالترزية ثم الصرمانية وهم المشتغلون بصنع الأحذية والبلغ وتصليحها . وكان أقل رجال الحرف تعدادا هم الصدفجية أي المشتغلون بتطعيم الأخشاب بالصدف وصانعو المنشآت .

* * *

وفي الجزء الثاني تكلم المؤلف عن شوارع مدينة القاهرة وحاراتها وعطفها ودروبها وما يتبع ذلك من أسواقها . وقد بدأ هذا الجزء بحى الحسينية . وكان يتكلم عن كل شارع من حيث بدايته ومساره ونهايته والأزقة التي تتفرع منه وما بنى فيه من المساجد والزوايا والأضرحة والأسبلة والتكايا والمدارس

(١) الربط ويطلق عليها أيضاً الرباطات جمع رباط وهو مكان كان يعد لإقامة المتصوفة فيه وكان بعض الربط يخصص للسيدات المنقطعات أو المهجورات أو المطلقات أو العجائز الأرامل العابدات .

(٢) الخوانق ويطلق عليها أيضاً الخانقاوات وهي كلمة فارسية معناها بيت العبادة ثم خصصت لإقامة المتصوفة . وكانت تجس عليها الأوقاف السخية .

(٣) التكايا جمع تكية وهي مكان يقيم فيه الدراويش من الأعاجم .

(٤) الأسبلة جمع سبيل مكان يستقى منه المارة بواسطة كوز من النحاس مربوط بسلسلة وكان تحت السبيل صهريج تخزن فيه المياه . كان يقام عادة فوق السبيل مكتب لتعليم الأطفال القرآن الكريم والكتابة .

الفاطميين وخزانة الكسوة بشارع النحاسين وشتى أنواع الخزائن التي كانت قائمة في هذا الشارع مثل خزانة الفرش وخزانة الخيم والأمنعة والسلاح والسرج وخزانة الطيب والجواهر والطرائف ، ثم مشيخة الجامع الأزهر وتجديد بناء المسجد الحسيني وبيان ما أنفق في سبيل ذلك . ويلاحظ أن الفهرس الموضوع لهذا الجزء يتبع النظام التالي في ذكر خطط القاهرة مع التقيد بترتيب الحروف الأبجدية في كل قسم : الشوارع - الحارات - العطف - الدروب - الجوامع - الزوايا - المدارس - التكايا - الأضرحة - الأسبلة - الحمامات - الدور - القصور - الكنائس - المكاتب الأهلية - الوكائل - التراجم - المطالب (١) .

وفي الجزء الثالث سار على مبارك على نسق الجزء الثاني فتكلم عن بقية شوارع القاهرة ومنشأتها، وبدأ بشارع بين السورين . وعالج المؤلف موضوعين هامين في هذا الجزء هما الأسطول الحربى المصرى على عهد الفاطميين وقواعده في دمياط والإسكندرية وغيرهما ، ثم موضوع الرزق الإحباسية الموقوفة على جهات البر ، وأفاض في شرح أنواعها وتطورها التاريخى . وقد حفل هذا الجزء بتراجم لعدد كبير من الأعلام في تاريخ مصر الوسيط والحديث سواء في دنيا المال والاقتصاد أو في عالم السياسة أو في مجال العلم أو الدين أو الحرب أو الإدارة ، نذكر على سبيل المثال احمد المحرقى كبير تجار القاهرة وقد ارتبط اسمه بأحداث الحملة الفرنسية على مصر وما تلاها ثم ابنه محمد المحرقى، والقائد جوهر الصقلى والشيخ محمد مرتضى الزبيدى من أبرز علماء مصر في القرن الثامن

(١) المطالب يقصد بها أبحاث

والوكائل والكنائس والحمامات والقصور والخانات (١) وتميز هذه الطبوغرافية الدقيقة بمادة تاريخية طريفة ، فاذا تكلم مثلا عن المنحر الذى اتخذه الخلفاء الفاطميون لذبح الأضاحى في عيد الأضحى وصف وصفا شائقا خروج الخليفة في موكبه الرائع لأداء صلاة العيد ثم الذبائح التي كانت تنحر في ذلك اليوم وما يتخلل ذلك من مراسم ، ثم الأسمطة التي كانت تمتد إلى غير ذلك من صور للحياة الاجتماعية في مصر أيام الفاطميين - وفي هذا الجزء وصف على مبارك قصر ابن طولون ومدينة القطائع وما طرأ عليها . وقد ترجم في هذا الجزء أيضا لبعض الوزراء الفاطميين والأمراء المماليك وكبار مشايخ الطرق الصوفية ومن إليهم ممن أطلقت أسماؤهم على بعض المساجد والمنشآت العامة ، كما ترجم لبعض كبار موظفى الحكومة المصرية المعاصرين له مثل عبد الله باشا فكرى وزير المعارف في وزارة محمود سامى البارودى ، وترجم أيضا لحسين باشا حسنى ناظر مطبعة بولاق الأميرية ، وحجاج الخضرى أحد أبطال المقاومة الشعبية في مطلع القرن التاسع عشر والذى تميز بالبطولة والفدائية ، ورفلة عبيد أحد كبار التجار في حى الجمالية ، وترجم لشيوخ قبيلة كتامة الذين وفدوا مع الفاطميين إلى مصر . واختتم هذا الجزء بمائة وخمسة وعشرين بحثا تناول فيها شتى الموضوعات في التاريخ والمجتمع والطبوغرافية وما إلى ذلك مثل أسواق القاهرة القديمة سواء التي كانت قائمة في شارع مرجوش أو الغورية أو في شارع الخردجية بخط الجواهرجية ، وخزانة الكتب أيام

(١) خانات جمع خان وهو وكالة أو فندق معد لاستقبال التجار والحجاج وبضائعهم أو أمتعتهم ودوابهم ويوجد به اصطبل للدواب وفي أعلاه غرف ينزل فيها الوافدون وتطل هذه المساكن على مساحة يطلق عليها الحوش يتوسط الخان . وكان يلحق بالخان بئر ماء وميضأة ومسجد صغير .

بيت الأئني بالأزبكية وسكنى محمد على فيه ، ومدرسة الألسن ، ومعنى لفظة الخور لغة وعرفا عندما تعرض لخليج الخور بشارع قنطرة الدكة ، وكذلك سراى العتبة الخضراء . وأفرد في نهاية الجزء الثاني بحثا مستفيضا عن أسرة البكرى التي ينتهى نسبها إلى أبى بكر أول الخلفاء الراشدين ويضئ المؤلف على هذه الأسرة الكثير من عبارات التبجيل . وانتهاز الفرصة فترجم لأبى بكر الصديق ثم تكلم عن أصلاب أسرة البكرى وبعض فروعها وانتقل بعد ذلك إلى بيان الطرق الصوفية التابعة لمشيخة البكرى والتكايا التابعة لها ، وشرح تحت عنوان «العوائد الخصوصية للبيت الصديقى» احتفالات المولد النبوى الشريف التي كانت تقام على مر العصور في المشرق والمغرب العربيين ثم وصف هذه الاحتفالات في مصر الحديثة وحرص على إبراز دور أسرة البكرى في هذه الحفلات وما تنفقه في سبيلها من أموالها . وقد جاء فهرس هذا الجزء متمشيا مع فهرس الجزء الثانى من حيث ترتيب ذكر المنشآت مع اختلاف يسير يتمثل في تقديم أو تأخير بعضها فذكرها على النحو التالى : الشوارع - الحارات - العطف - الدروب - الجوامع - الزوايا - المدارس - الأضرحة - الأسبلة - المكاتب الأهلية - الكنائس - الحمامات - الوكائل - الدور - التراجم - المباحث والمطالب .

* * *

وأفرد على مبارك الجزء الرابع لمساجد القاهرة وابتدأ بتاج الجوامع وهو الجامع العتيق أو مسجد عمرو ابن العاص على أساس أنه أول مسجد أسس في مصر الإسلامية ، فكتب فيه بحثا تناول فيه تاريخ إنشاء المسجد والتطور المعمارى الذى طرأ عليه من حيث التجديدات والزيادات التي أضيفت إليه ، وزوايا التدريس بهذا

عشر والذى شرح القاموس وأطلق على شرحه تاج القاموس في عشرة مجلدات ، ثم الأمير أزبك بك الذى أطلق اسمه على منطقة الأزبكية ، ثم الأمير حسن بك الحداوى ، كما ترجم ترجمة مقتضبة نوعا ما للأمير محمد بك الأئني كبير بيت الألفية في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر . كما ترجم المؤلف لبعض المحاذيب من الدراويش مثل الشيخ على البكرى (١) والشيخة أمونة . وكان الاثنان وأضرابهما يمثلون قطاعا هاما في المجتمع المصرى في القرن الثامن عشر هو قطاع الدراويش وقد اتخذ معظمهم الدجل والشعوذة وسيلة لابتزاز الأموال من البسطاء رجالا ونساء باسم الدين والدين منهم براء . وتضمن هذا الجزء أيضا مائة وأربعة وستين بحثا تناول فيها موضوعات متنوعة نذكر منها على سبيل المثال تحديد مواقع الأرض الحكر (٢) في القاهرة وأنواعها وأوجه استغلالها ، وإنشاء دار الكتب المصرية ودار الضيافة وزواج السلطان طومانباى آخر سلاطين دولة المماليك الشركسية ، وخان الحمزاوى ، وأسوار القاهرة ، والمباني التي أزيلت عند بناء قصر عابدين ، ومسكن بونابرت في

(١) كان هذا المجدوب يسكن سويقة الكرى فأطلق عليه اسم البكرى نسبة إلى السويقة وهو بذلك ، كما يقرر الجبرتى ، لايمت بصلة إلى أسرة البكرى . انظر الجبرتى ج ٢ ص ٢٤٨ . وانظر قصته في ج ٣ ص ٨٠ - ٨١ .

(٢) الحكر نوع من أنواع استغلال الأرض الموقوفة ويكون تأجيرها لغرض معين كالبناء والغراس فيها دون تقييد بمدة معينة فهو تمليك المحتكر حق البقاء والقرار في الأرض المحتكرة له مادام ملتزما بدفع أجره المثل . انظر : محمد سلام مذكور . موجز الوقف من الناحية الفقهية والتطبيقية ١٩٦١ صص ٩٧ - ٩٩ وانظر أيضا دكتور عبد المنعم البدر اوى : المدخل للعلوم القانونية ١٩٦٢ صص ٥٠٩ - ٥١١ .

المسجد . وانتقل المؤلف إلى ذكر مساجد القاهرة ملتزماً بالترتيب الأبجدي لأسمائها ، فبدأ - بعد جامع عمرو - بالجامع الأزهر وأفاض في عرض تاريخه عبر القرون ووصف الجامع من حيث حدوده وأبوابه ومقاصيره ومحاريبه وصحنه وأروقته ومناراته ومزاوله والقناديل التي تستخدم في إنارته والصهاريج التي تستخدم كستودعات للمياه العذبة والمدارس الملحقة بالجامع الأزهر ، وتطرق إلى شرح طرق التدريس في الأزهر وأساليب الامتحانات وطلبة الأزهر وعاداتهم ومأكلهم ، وترجم للعلماء الذين تولوا مشيخة الأزهر . والحق أن ما كتبه على مبارك عن الأزهر في هذا الجزء يعتبر كتاباً قائماً بذاته . ومضى بعد ذلك يستعرض مساجد القاهرة واختص المساجد الكبرى بالإسهاب والتأريخ لها ، ونذكر منها مساجد ابن طولون والحاكم بأمر الله والسلطان حسن والرفاعي والمسجد الحسيني والسلطان الحنفى وأبي العلا وأولاد عنان والدمرداش . وجريا على عادته ترجم لهذه الشخصيات التي أطلقت أسماءها على المساجد سواء كانت شخصيات دينية أو سياسية . واختص سيرة الحسين بن علي بن أبي طالب بإسهاب فترجم للحسين وخروجه من مكة إلى العراق واستشهاده بها والأحاديث التي كانت تروى وما اتخذته الشيعة يوم قتله والعادات التي لا يزال يتمسك بها الشيعة إلى الوقت الحاضر في شهر المحرم . وترجم المؤلف أيضا لعدد من المتصوفة المدفونين بخانقاه سعيد السعداء . وانتهى في هذا الجزء عند مسجد الرويعي .

* * *

ومضى على مبارك في الجزء الخامس على نفس النهج يؤرخ لبقية مساجد القاهرة مبتدئاً بحرف الزاى حتى آخر الأبجدية العربية . ومن أهم المساجد الكبرى التي أُرخ لها في هذا الجزء زين العابدين والسيدة

زينب والسيدة سكينة والسيدة عائشة والسيدة فاطمة النبوية والإمام الشافعي وجامع المؤيد والظاهر والغوري والقاضي يحيى وجامع الكخيا - على مقربة من ميدان الأوبرا حالياً - وجامع الليث بن سعد بالقرب من مسجد الإمام الشافعي وجامع سنان باشا ببولاق على مقربة من شاطئ النيل وجامع قايتباي بقلعة الكيش والروضة والصحراء وجامع المؤيد وقوصون وجامع السادات الوفاية وجامع محمد علي بالقلعة وقد أسهب في وصف الجامع الأخير وجامع الامام الشافعي من قبل . وأورد المؤلف في هذا الجزء بياناً عن الأوقاف الموقوفة على جامع كل من الغوري وسيدى عقبة وقايتباي وكوم الشيخ سلامة والكيخيا ومحمد أبي الذهب والإمام الشافعي وجامع سنان باشا وملحقاته من السبيل والمكتب والخان الكبير ببولاق . وذكر في هذا الجزء أيضاً حادثين يعكسان صورتين من صور المجتمع في مصر وقد وقع أولهما في النصف الأول من القرن الثامن عشر وثانيهما في نصفه الثاني . ويتلخص الحادث الأول في أن واعظاً تركيا أخذ يعظ المصلين في مسجد المؤيد خلال شهر رمضان ١١٢٣ (١٣ أكتوبر - ١١ نوفمبر ١٧١١) وحمل حملة عنيفة على ما يفعله فريق من المصريين بأضرحة الأولياء وإيقاد الشموع والقناديل فوقها وحولها وجاهر بأنه لا يجوز بناء القباب فوق أضرحة الأولياء . وقد صادفت آراء هذا الواعظ التركي قبولاً من جمهرة المستمعين وتحمسوا لها ، إلا أن نهاية الواعظ كانت مؤسفة إذ تكتل ضده بعض علماء الأزهر وقاضي القضاة وانضم إليهم الباشا العثماني ومن ثم أصدر الأوامر إلى الجنود بنى الواعظ وألقوا القبض على زعماء المصريين الذين ناصروه وأوسعوهم ضرباً وإهانة ونفوا بعضهم . أما الحادث الثاني فيتمثل في أغرب عملية نصب ارتكبت في القاهرة سنة ١١٧٣ هـ (١٧٥٩ -

بين العثمانيين وبين الزيدية انتصر فيها سنان باشا وسمى هذا الفتح بالفتح الثاني لليمن . ومما ذكره على مبارك أمرين : أولهما أن سنان باشا ضم إلى الحملة العسكرية عدداً من الأمراء المماليك صناجق مصر فاستشهدوا جميعاً في حرب اليمن ، وثانيهما أن سنان باشا عين مرتين والياً على مصر وكانت المرة الأولى قبل حملة اليمن من ٢٤ شعبان ٩٧٥ حتى ١٣ جمادى الآخرة ٩٧٦ (فبراير ١٥٦٧ - ديسمبر ١٥٦٨) وكانت المرة الثانية بعد انتهاء حملة اليمن من أول صفر ٩٧٩ حتى سنة ٩٨١ (يونيو ١٥٧١-١٥٧٤) وأنه تولى الصدارة العظمى أى رئاسة الوزارة في الآستانة أربع مرات . ومن الشخصيات التي ترجم لها على مبارك في هذا الجزء أيضاً الملك الكامل وشجراندر والظاهر بيبرس والسلطان المؤيد والأشرف قايتباي وقانصوه الغوري ومحمد أبو الذهب وعبد الرحمن ككتخدا ، ومن الشخصيات الدينية الإمام الشافعي والشخ أحمد السبكي وعقبة بن عامر وذو النون المصري وعمر بن الفارض والسيدة عائشة والسيدة سكينه والسيدة نفيسة كما كتب نبذة عن السيدة زينب .

وكان الجزء السادس هو ختام الأجزاء التي خصصها المؤلف لمدينة القاهرة . وقد استهل هذا الجزء بالكلام عن مدارس القاهرة فأرخ لست وتسعين مدرسة أنشئت منذ عصر الدولة الأيوبية وبعضها مدارس قائمة بذاتها وبعضها ملحق بالمساجد والبعض الثالث تحول عن غرضه الأصلي فأصبح يستخدم في أغراض أخرى بعيدة عن التعليم مثل مدرسة الأشرف اينال وقد أنشأها بالصحراء حيث القرافة الكبرى . الملك الأشرف أبو النصر اينال العلاني الناصري سنة ٨٦٠ هـ (١٤٥٦ م) فقد أصبحت مخزناً للبارود يتبع وزارة

(١٧٦٠) وهي حادثة العترة الصغيرة التي احتفظ بها الشيخ عبد اللطيف كبير خدام مسجد السيدة نفيسة ونسج حول العترة قصصاً خيالية تدل على أنها تتمتع بكرامات شتى وتسامع الناس بهذه القصص حتى أصبحت العترة حديث القاهرة فأقبل أهلها من كل فج لزيارة العترة ويقدمون للشيخ النذور والهدايا . وأوغل الشيخ في استغلال العترة والحماهير معاً ، فقال إنها لا تأكل إلا قلب اللوز والفستق ولا تشرب إلا ماء الورد والسكر المكرر ، فحمل إليه الأهالي هذه الأصناف بكميات وفيرة وعملوا للعترة قلائد وأطواق من الذهب الخالص . وسمع الأمير عبد الرحمن ككتخدا - كبير الأمراء المماليك - بقصة العترة فأرسل إلى الشيخ عبد اللطيف يلتمس منه الحضور ومعه العترة ليتبرك بها هو وأهل بيته . فركب الشيخ البغلة ووضع في حجره العترة وتحف به الطبول والأعلام والحجم الغفير من الشعب حتى إذا وصل هذا الركب إلى دار الأمير أمر بادخال العترة إلى الحرم ليتباركن بها ، وكان قد أوصى بنذبحها وطبخها وحيء بالغذاء وفيه لحم العترة فأكل منها الأمير والشيخ وضيوف الأمير من الأمراء والأعيان . ولما فرغوا من الأكل وتناولوا القهوة طلب الشيخ العترة ليعود بها إلى مقر عمله فأخبره الأمير بما حدث وأنه تأنيباً عنيفاً وأمر بأن يوضع جلد العترة على عمامته وأن يذهب بها كما جاء بموكبه وبين يديه الطبول والأعلام وعهد بشرذمة من الخنود بإيصاله وهو على هذه الصورة النكراء إلى المسجد النفيسى . وقد حفل هذا الجزء أيضاً بعدد من الشخصيات ترجم لها المؤلف نذكر منها سنان باشا الذي قاد حملة عسكرية عثمانية كبرى لإعادة فتح بلاد اليمن سنتي ١٥٦٨-١٥٦٩ . وكان الزيدية قد تمكنوا من طرد العثمانيين من أغلب بقاع اليمن . ودارت حرب ضروس

والحمام والبواب والفراش والخفير ومفرق الربعة وخدم كل من الزاوية والمقام والسبيل وكذلك ثمن زيت القناديل وأجرة الوقاد . وذكر المؤلف أنه توجد في القاهرة ست عشرة زاوية تسمى كل واحدة زاوية الأربعين ، وأن في معظم الزوايا أضرحة لبعض المشايخ تعمل لهم حضرة يوماً في الأسبوع يتلى فيها القرآن الكريم والأوراد أو الأحزاب إذا كان الشيخ المدفون من المتصوفة ، كما يقام له مولد كل عام . ونستدل أيضاً من الدراسة الفاحصة للزوايا التي أرخ لها على مبارك أنه كان يقيم في بعضها مجذوب من الدراويش وغالباً ما يطلق على هذه الزاوية اسم هذا الشخص المجذوب ، في زاوية ابراهيم بن عصفير بشارع بين السورين كان يقيم فيها هذا الابراهيم وتبدو منه تصرفات غريبة ، فإذا مرت عليه جنازة وأهلها يبكون هرع إلى النعش يمشي أمامه ويقول زلاية هريسة ويكررها . وقد مات هذا المجذوب سنة ٩٤٢ هـ إبان الحكم العثماني ودفن بالزاوية . ومن الزوايا التي من هذا القبيل زاوية الشيخ عبد الرحمن المجذوب بالحسينية وكان رجلاً مقعداً يجلس على الرمل صيفاً وشتاء وإذا جاع أو عطش قال : أطعموه أسقوه . وكان ثلاثة أشهر يتكلم وثلاثة أشهر يسكت ، وقد دفن في هذه الزاوية التي أطلق عليها اسمه . ومن الزوايا عاد على مبارك إلى استكمال بحث مساجد القاهرة فأرخ لسبعة عشر مسجداً مع تراجم لأصحاب بعضها . وانتقل بعد ذلك إلى الخوانق فأرخ لثمانية عشرة خانقاه وكان من بينها خانقاه سعيد السعداء وبيبرس وشيخو وقوصون ويونس وطناى النجمي وطيرس . وانتقل المؤلف بعد ذلك إلى الربط فتكلم عن سبعة ربط كان من بينها رباط البغدادية والحازن والفخرى والمشتهى والست كليلة . ومن الربط انتقل إلى التكايا فذكر عشرين تكية ، نذكر منها تكية المغاوري وشيخو والحلوتية

الحرية . ومعظم المدارس التي أرخ لها على مبارك يرجع إلى القرن الثامن الهجري وإن كان بعضها يرجع إلى القرن السابع ثم القرنين التاسع والعاشر . ويلاحظ أن المؤلف لم يورخ في هذا الجزء للمدارس الحديثة التي أنشئت في القاهرة في القرن التاسع عشر الميلادي مثل مدرسة الطب البشري والطب البيطري والمهندسخانة والزراعة والصيدلة والكيمياء والألسن والمعادن وغيرها . ومن المدارس انتقل إلى الزوايا وهي المساجد الصغيرة وقد أرخ لمائة وست وتسعين زاوية ، كان معظمها تقام فيه الشعائر وقليل منها معطل الشعائر وبعضها تنفق عليه وزارة الأوقاف أو « تحت نظر ديوان عموم الأوقاف » بمصطلح العصر وبعضها يعتمد على الوقف الأهلي ، إذ كان منشئو هذه الزوايا يشيدون في بناء الزاوية بعض الحوانيت أو بعض المساكن ويوقف إيرادها للانفاق منه على الزاوية . وكان المؤلف حريصاً على ذكر التجديدات التي عملت للزوايا على مر العصور فكان يذكر اسم الشخصية التي أمرت بتجديد الزاوية وما أنفق عليها في عمليات التجديد ثم يقرن ذلك بذكر الوقفية التي عملت للانفاق على الزاوية . وخير مثل يضرب في هذا الصدد زاوية الطحاوي بالقرب من الإمام الشافعي ، فقد جاء في الخطط في هذا الجزء السادس أن حمزة باشا الوالي العثماني أمر بتجديد الزاوية سنة ١٠٩٨ هـ (١٦٨٦-١٦٨٧) وأقام بها سيلا وحوضاً وساقية ومزولة راسية ومزملة لشرب الماء . وفي حجة ووقفه المؤرخة في ١٠٩٩ هـ (١٦٨٧-١٦٨٨) أنه أرصد على هذه الزاوية والمقام المدفون فيه الشيخ أحمد الطحاوي والسبيل والحوض والساقية جهات ير عديده ينفق من إيرادها على أجرة الجمال التي تحمل الماء يومياً من النيل إلى السبيل وحدد مرتبات شهرية تدفع بانتظام إلى كل من شيخ القراء والقراء بالزاوية

فريضة الحج وسارع المعلم إبراهيم الجوهري رئيس
 كتبة القطر المصري بتقديم خدمات جليلة لها أثناء إقامتها
 في الديار المصرية في الذهاب وللعودة ، كما قدم لها
 هدايا قيمة تناسب مقامها . فأرادت مكافأته واستفرت
 منه عما يريد فالتفت منها المساعدة في استصدار مرسوم
 من السلطان بالإذن في بناء كنيسة بالأزبكية ورفع الجزية
 عن الرهبان وغير ذلك من مسائل طائفية ، وقد استجابت
 الآستانة لهذه الطلبات وانتهى العمل في تشييدها سنة
 ١٨٠٠ وأخذ على مبارك يصف الكنيسة والهيكل المقامة
 بها والقباب والنقوش والأعمدة الرخامية وما إلى ذلك .
 وأرخ بعد ذلك لعدد آخر من كنائس الأقباط الأرثوذكس
 في القاهرة ومنها الكنيسة الأولى والكنيسة الثانية بحارة
 زويلة وكنيسة حارة الروم السفلى وكنيسة الشهيد
 جرجيوس وكنيسة حارة السقاين . وترجم لبعض
 مشاهير الأقباط في القرن التاسع عشر مثل دميان بك
 جاد شичه وميخائيل جاد تادرس عريان وابنه عريان
 بك تادرس . ثم أردف ذلك ببحث عن تاريخ بطاركة
 الأقباط الأرثوذكس وقد بدأ فيه حيث انتهى المقرئ
 الذي كان قد وقف في سرده لتاريخ البطاركة عند
 البطريرك اثناسيوس ابن القس أبي المكارم بن كلي
 وكان هذا البطريرك هو السادس والسبعون في عدد
 البطاركة الذين تولوا الكرسي البطريركي الإسكندري
 فأتم على مبارك تاريخ البطاركة مبتدئاً بالبطيرك
 السابع والسبعين وهو غبرائيل الثالث ومضى يستعرض
 تاريخ كل منهم الواحد بعد الآخر حتى وصل إلى
 البطريرك الثاني عشر بعد المائة وهو كبير ولس الخامس
 وقد صدر أمر الخديو اسماعيل بتعيينه بطيركاً في
 سنة ١٨٧٥ .

وقد أفرد المؤلف الجزء السابع لمدينة الإسكندرية

ودرب قرمز والسناينة والسليمانية والمولوية والنقشبندية
 وتكية السيدة نفيسة وتكية السيدة رقية وتكية السادة
 الوفائية وتكية المنود . ثم تكلم عن الأسبلة أو السبل
 في القاهرة فذكر خمسة وخمسين سبيلاً كان من بينها
 سبيل أم عباس ورضوان بك والسلطان محمود والسلطان
 مصطفى والشيخ صالح وحسن كتخدا عزبان وخليل أغا
 مستحفظان وطوسن باشا والسك شوكار والسك عائشة
 وعائشة هانم والعدلى والهياتم واليازجى . واستطرد على
 مبارك إلى الحمامات العامة في مدينة القاهرة فتكلم عن
 ستين حماماً منتشرة في أنحاء القاهرة ، كان من بينها
 حمام الأفندى وحمام الباشا وحمام الخليفة وحمام بابا
 وحمام الخواجة وحمام البشرى وحمام الثلاث وحمام
 الدرب الأحمر وحمام الذهبى وحمام السيوفى والشعرانى
 والصنادقية والصلبية وطولون والعتبة الخضراء
 والعدوى والقطارين والغورية وقلاوون والكبخيا
 والقريبة والقاضى والمقاصيص والمؤيد والناصرية .
 واختتم المؤلف الجزء السادس بالكلام عن الكنائس
 الموجودة في القاهرة والتابعة لمختلف الطوائف المسيحية
 فذكر ست وعشرين كنيسة منها كنيسة الأرمن الكاثوليك
 وكنيسة الأروام وكنيسة خميس العهد وكنيسة الشوام
 والسبع بنات والسريانى والموارنة ، وذكر كنيسة واحداً
 لليهود : ثم عاد وتكلم عن كنائس الأقباط الأرثوذكس
 المقامة في القاهرة حتى سنة ١٨٨١ وقد بدأ بالكنيسة
 البطريركية الكاتدرائية الكبرى وقال إنها معروفة أيضاً
 باسم الكنيسة المرقسية لأنها مرسومة باسم القديس
 مرقس الحوارى المبشر بالإنجيل في الديار المصرية ،
 كما أنها تعرف بالبطيريكخانة وبالقلالية أيضاً ، وأن معنى
 القلالية مسكن الرئيس الروحى ، ثم عرض بالتفصيل
 لتاريخ إنشائها وكيف أن أخت السلطان العثمانى كانت
 قد مرت بمصر في طريقها من الآستانة إلى الحجاز لأداء

طويلا عن هزيمته في فارسكور ووقوعه في الأسر واقتياده إلى المنصورة وافتدائه بالمال الوفير . وخلص من هذا الاستطراد إلى القول بأن « غارة سندلويز سنة ١٢٤٨ على الديار المصرية لم تضر بالقطر ، وإنما أضرت باسكندرية لأن الفرنساوية والبندقين أضرموا فيها النار وتركوها حين علموا أنهم لا يمكنهم الإقامة بها وذلك سنة ١٢٥٠ » ثم تعرض لتاريخ الدولة الأيوبية ودولتي المماليك والحكم العثماني وشرح النظم السياسية والإدارية التي وضعها العثمانيون لحكم مصر وكيف تطورت هذه الأنظمة تطوراً أدى إلى استئثار الأمراء المماليك بالنفوذ ، وتكلم عن حركة على بك الكبير - ويسميه على بك أباطة - وفشل هذه الحركة واستمر يؤرخ لمصر إبان حكم أبي الذهب ومراد بك وإبراهيم بك حتى نزول الحملة الفرنسية أرض مصر . وخلص من هذا التاريخ إلى حكم عام ينسحب على الإسكندرية وغيرها من بلاد القطر إذ قال « ومن النظر فيما تقدم من أخبار المدد السابقة والتقلبات التي مرت على تلك الديار علم أن مدينة الإسكندرية وغيرها من بلاد القطر بعد أن كانت متوجة بتاج المهابة والإجلال رافلة في حلال السعادة والإقبال ، وكان وادي النيل مزيناً من كل جانب بالمدن الفخيمة ذات المعابد والهياكل المشيدة العظيمة ، تلوح على صغير أهلها وكبيرهم لوائح الثروة والابتهاج ، نالها من شدائد الأزمان ما أخرها عن هذه التقدّمات ... »

وانتقل من هذا التعميم إلى التخصيص وأخذ يتكلم عن تاريخ الإسكندرية منذ إنشائها على عهد الإسكندر وأبرز الرأي الراجح بين المؤرخين وهو وإن كان الاسكندر هو صاحب الفكرة في انشاء المدينة لأن عصره لم يشهد سوى تخطيط المدينة وإقامة بعض المباني فإن الذي قام ببنائها هو بطليموس سوتير « فالاسكندر

فبدأ بموقع المدينة وما كان يوجد به إبان العصر الفرعوني وحكم الفرس لمصر وانتقل إلى حروب الإسكندر المقدوني وتأسيس مدينة الإسكندرية وتدرج إلى تاريخ مصر أيام البطالمة والرومان وكيف اتخذ هؤلاء وأولئك الإسكندرية عاصمة للبلاد وخص مكتبة الإسكندرية ببحث خاص أوضح فيه مكانتها العلمية في العالم وقتذاك وانتقل إلى الفتح العربي لمصر وبناء مدينة القسطنطينية وانساق إلى نشأة الإسلام وأفاض في شرح السيرة النبوية العطرة ثم خلافتي أبي بكر وعمر والفتوحات التي تمت وقتذاك في آسيا وأفريقيا وعاد إلى فتح مصر وتكلم عن موقف المقوقس من العرب أثناء العمليات الحربية وحصار عمرو بن العاص لمدينة الإسكندرية ، وناقش موضوع حرق مكتبة الإسكندرية وفنّد الفرية القائلة بأن العرب هم الذين أعملوا فيها النار ، ثم تكلم عن عدد الولاة والحكام والملوك والخلفاء والسلاطين الذين تعاقبوا على حكم مصر منذ الفتح العربي ٦٤١ حتى قدوم الحملة الفرنسية إلى مصر سنة ١٧٩٨ واستطرد إلى الأزمات التتويجية وموجات الغلاء والأوبئة التي تعرضت لها مصر خلال هذه الأحقاب ، واستعرض تاريخ بعض الولاة العثمانيين على مصر ، ثم شرح كيف فقدت الإسكندرية زعامتها السياسية والعلمية وكيف انتقلت هذه الزعامة إلى القسطنطينية فالقاهرة ، وأبرز دور صلاح الدين الأيوبي في إنهاء الحكم الفاطمي في مصر والصراع الحربي الذي اشتد أواره بينه وبين الصليبيين وتدرج إلى تاريخ الحروب الصليبية - ويسميا حرب الصليب - وخص بالذكر موقعة فارسكور سنة ١٢٥٠ ويسميا « واقعة ستلويز المشهورة » وهو يقصد بلفظة ستلويز سانت لويس Saint Louis أي لويس المقدس وهو لويس التاسع ملك فرنسا وعاد فأطلق عليها « غارة سندلويز » وهو يتصد بهذه العبارة حملة لويس التاسع . وتكلم

الذي كانت تزخر به هذه المديرية . كما دخل في تفاصيل عن مدينة مريوط وبحيرة مريوط وتكلم عن الإجراء الحربى الذى أقدم عليه الإنجليز مرتين في مطلع القرن التاسع عشر وهو قطع سد أبى قير ، وكانت المرة الأولى في سنة ١٨٠١ إبان الحرب التى خاضها الإنجليز لإجلاء الفرنسيين عن مصر ومحاصرتهم الجنرال مينو فى الإسكندرية ، والمرة الثانية فى سنة ١٨٠٧ عند قدوم الحملة البريطانية على مصر واحتلالها الإسكندرية وتطرق إلى وضع تاريخ موجز لحملة سنة ١٨٠٧ . وانتقل على مبارك إلى الكلام عن الإسكندرية فى القرن التاسع عشر وذكر عدد سكانها فقرر أنه بلغ فى سنة ١٨٣٠ مايقرب من ١٣٠ ألف نفس ثم قفز هذا الرقم فى سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤- ١٨٧٥) إلى ٢٧٠ ألف نسمة ، وأشار إلى القرار الذى اتخذته الحكومة المصرية فى النصف الأول من القرن التاسع عشر بالإذن للسفن الأجنبية فى دخول الميناء الغربى وكان محظورا من قبل على هذه السفن دخوله ، وكان الميناء الشرقى هو المعد لرسو السفن الأجنبية على الرغم من الخطورة التى كانت تتعرض لها السفن فى الميناء الشرقى ، وشرح مانجم عن هذا القرار من ازدياد حركة السفن القادمة إلى الإسكندرية وتنشيط الحياة الاقتصادية فيها ، وانتقل بعد ذلك إلى حفر ترعة المحمودية سنة ١٨٢٠ والأسباب التى دعت إلى حفرها ووصف مسار الترعة والأهوسة التى أقيمت عليها ونفقات حفرها والمنافع التى عادت على المدينة من إنشائها وإحياء موات الأراضى فى إقليم البحيرة ، وذكر المباني التى ألحقت بالترعة وكان من بينها مسجدان أحدهما عند مخرج الترعة فى العطف وثنائهما عند مصبها فى البحر المتوسط وهو جامع التاريخ ، ومنها مخازن الغلال الأميرية وحفر مجرى تحت الأرض

له الفكرة الأصلية وإلى بطليموس ينسب تجسيمها» وناقش الآراء المتضاربة حول مكان قبر الإسكندر ثم شرح التطور الذى طرأ على مساحة المدينة وعدد سكانها وحياتهم الاجتماعية فى العصرين البطلمى والرومانى وتكلم عن مسلتى كليوباتره من حيث تاريخهما وأوصافهما والنقوش التى عليهما وانتقل إلى عمود السوارى فتناوله بالشرح وتكلم عن التمثال الذى كان موجودا فوق هذا العمود ، وانتقل بعد ذلك الى الكلام عن أسوار المدينة وشارع كانوب وجزيرة فاروس والمنار القديم والرصيف الحجري المسمى هيتا ستاد الذى كان يصل جزيرة فاروس بشاطئ البحر ، ووصف الميناء الشرقى وسعته والقصور التى كانت تزخر بها المدينة فى العصرين البطلمى والرومانى ، وفتنّد رأى القائل بأن نبي الله دانيال مدفون بالإسكندرية فى أسفل كوم الدكة تأسيسا على أنه مات قبل بناء الاسكندرية بثلاثة قرون وأنه قضى حياته فى بابل ، كما استند الى رأى محمود باشا الفلكى . وتكلم عن جامع أثرى هو جامع الألف عمود أو جامع السبعين ويطلق عليه أيضا الجامع الأخضر وحدد موقعه وذكر سبب تسميته بالألف عمود وجامع السبعين ، وقرر أن هذا المسجد كان موجودا إلى زمن الحملة الفرنسية . وانتقل إلى تاريخ المدينة بعد الفتح العربى وما فعله المسلمون بها ومساحة المدينة على عهد الحملة الفرنسية وعدد الأبواب التى كانت بسورها القديم ووصف ضواحي المدينة فى العصرين البطلمى والرومانى واعتمد فى ذلك على ما ذكره سترابون وديودور وغيرهما . وانتقل الى الكلام عن خليج اسكندرية ومديرية مريوط ثم مدينة مريوط ثم بحيرة مريوط وعين حدود تلك المديرية والحاصلات الزراعية التى تجود فى أرضها وأوجه النشاط العمرانى

وقوة، وقارن بين حالتها وقتذاك وحالتها عندما هتمتها حملة الجنرال بونابرت سنة ١٧٩٨ ووصف دخول الفرنسيين الإسكندرية. وتكلم عن حصيلة الرسوم البحرية وقيمة البضائع الواردة والصادرة من سنة ١٨٢٣ حتى سنة ١٨٤٢. وأفرد بحثا عن الإسكندرية إبان حكم إبراهيم باشا وبحثا آخر عنها إبان حكم عباس الأول. ويلاحظ أن على مبارك قد أشاد بحكم عباس الأول ولم يبخسه حقه كما فعل معظم الذين أرخوا لهذا الوالي. وكان على مبارك موضع تقدير عميق من عباس الذي استفاد به في تنظيم المدارس وعينه ناظرا لمدرسة المهندسخانة وملحقاتها. تكلم على مبارك عن الأنظمة العسكرية التي أدخلها عباس على الجيش المصري واهتمامه بإقامة الاستحكامات العسكرية في الإسكندرية وغيرها من ثغور مصر الشمالية على ضوء ما كان يقترحه جاليس بك Gallice مدير الاستحكامات. وقال على مبارك إن عباس قد أنشأ ثلاثة حصون جديدة في كل من العجمي وأبي قير ومقابر اليهود التي أنشأ فيها أيضا مستودعا للمواد الحربية كان يسع تسعة آلاف قنطار بارود، وأنه بنى عدة مستشفيات عسكرية كان من بينها مستشفى في أبي قير، وبنى ورشة للطوبجية في وسط المدينة على مقربة من كوم الناصورة تشمل أقساما للنجارة والحداة والبرادة والسبك. وذكر على مبارك أيضا أن عباس أمر بإجراء عملية مسح للشواطئ المصرية ابتداء من الإسكندرية شرقا حتى العريش، وغربا حتى مرسى مطروح التي كانت تعتبر الحد الفاصل بين حدود مصر الغربية وبين طرابلس الغرب. وظل الأمر على ذلك حتى حكم الخديو اسماعيل فاتضح بما لا يدع مجالا للشك أن السلوم هي آخر بلدة مصرية تقع على حدود مصر الغربية وسجل ذلك التحديد في خرائط عسكرية.

لتوصيل الماء العذب الى جهة الترسانة والبحرك، وقد فتح في عدة مواضع منه موارد لأخذ السقائين والأهالي الماء في أي وقت شاءوا. وانتقل المؤلف بعد ذلك إلى تعميق ميناء الإسكندرية ومد أرصفة ترسو السفن الكبيرة بجوارها للتخفيف من نفقات الشحن والتفريغ وإنشاء ترسانة بحرية وجهود المهندس الفرنسي سيريزى Cérisy في بناء السفن ولم يفت على مبارك أن يشيد بكفاءة أحد الإسكندريين في صناعة بناء السفن وهو الحاج عمر فإنه « كان صاحب إدارة ومعرفة طبيعية وإقدام على مثل هذه الأعمال مع الإصابة » وتكلم عن المدرسة البحرية التي أنشأها الحكومة لإعداد الشبان المصريين للعمل بحارة على السفن المصرية وإنشاء الفئار وقد وصف موقعه وارتفاعه وقوة إضاءته، والحوض الحاف لإصلاح السفن وشرح طريقة استخدامه، وتعرض بالشرح لقوة الأسطول الحربي المصري في النصف الأول من القرن التاسع عشر وأورد عدة بيانات تفصيلية عن عدد السفن وأسمائها وعدد مدافعها وقوتها وعدد بحارتها وأنهم بلغوا ١٥,٦٤٣ وأن عدد عمال الترسانة البحرية ٤,٠٧٦ عاملا، وعاد فذكر بيانا تفصيليا آخر عن القوات المسلحة المصرية - برية وبحرية - وأسماء الفرق والأسلحة التي تنتمي إليها وأنواعها وعددها والأماكن المرابطة فيها وما ينفق عليها، ثم تكلم عن واقعة تسليم أحمد فوزى باشا قائد الاسطول العثماني ٢٥ قطعة بحرية من الأسطول لمحمد على عقب هزيمة الجيش العثماني في موقعة نصيبين في ٢٤ يونيو ١٨٣٩ على يد الجيش المصري ثم وفاة السلطان محمود الثاني في ٣٠ يونيو، وأورد على مبارك بيانا عن قوة هذه الوحدات وعدد رجالها. وخرج المؤلف من هذا السرد إلى أن الإسكندرية قد غدت مدينة ذات بأس

وقد أمر عباس بأن تمتد عمليات المسح لتشمل بحيرة مريوط إلى حدود الأراضي الزراعية في إقليم البحيرة وإلى حدود الأراضي المرتفعة جهة وادي النطرون . وأشار إلى اهتمام عباس اهتماما زائدا بالمحافظة على صهاريج المياه في الإسكندرية لمواجهة الطوارئ ، وكانت أحداث قطع الإنجليز لسد أبي قير لاتزال ماثلة في الأذهان . ويلاحظ أن هذا الاهتمام بمسائل الطوارئ والتعزيزات العسكرية كان مرده إلى الأزمة السياسية التي قامت بين القاهرة والآستانة حول تطبيق قانون التنظيمات . وقد ظل هذا الاهتمام قائما لأنه بعد أن سويت أزمة التنظيمات اشتركت القوات المصرية في حرب القرم إلى جانب الدولة العثمانية ضد روسيا . وأشار المؤلف في هذا البحث إلى الطريق العسكري الذي أنشئ من قلعة القبارى إلى باب العرب ليجتازه الجنود في تحركاتهم ، وذكر المحطات الواقعة على الطريق من الإسكندرية إلى السلوم وانتقل الى مشروع استخراج الإسفنج من الشواطئ المصرية في منطقة السلوم بمعرفة أحد الملتزمين لمدة عشر سنوات تبدأ من سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤-١٨٧٥ م) وفق شروط معينة . وتعرض المؤلف لتخطيط المنطقة القضاء الواقعة بين ميناء البصل وميناء الشراقة حيث شيدت مستودعات ضخمة للبضائع الواردة والصادرة ، وأصبحت هذه المنطقة تعج بنشاط اقتصادى واسع لقربها من الميناء الغربى وشواطئ ترعة المحمودية حيث كانت السفن النيلية تفرغ شحناتها وفي نفس الوقت كانت السفن البحرية تشحن البضائع المصدرة إلى الخارج . كما أشار المؤلف إلى اهتمام عباس بتعمير جهات الحضرة والمندرية والسيوف والرمل ، وخلص من هذه المشروعات المتعددة إلى المشروع الرئيسى وهو مد الخط الحديدي من الإسكندرية إلى القاهرة على عهد عباس واستعرض

المؤلف المحاولات التي بذلتها بريطانيا على عهد محمد على لإنشاء خط حديدي من القاهرة عبر الصحراء إلى السويس وكيف وافق محمد على أول الأمر على المشروع واستورد مقادير من القضبان والآلات ، ثم عاد فصرف النظر عن المشروع واستخدم القضبان في مد خط من طرا إلى شاطئ النيل لنقل الأحجار اللازمة لمشروع القناطر الخيرية ، وتكلم عن تنظيم الطريق البرى من السويس إلى القاهرة فالإسكندرية على عهد محمد على وكيف اتجه هذا الولى لتمصير الأجهزة الإدارية التي تشرف على تنظيم هذا الطريق واختتم المؤلف البحث بشرح بعض الملابس التي أحاطت بإنشاء الخط الحديدي من الإسكندرية في اتجاه القاهرة . وأعقب على مبارك هذا البحث ببحث آخر عن الإسكندرية إبان حكم الخديو اسماعيل ، فذكر أن عدد سكانها حين تولى هذا الخديو الحكم في يناير ١٨٦٣ كان قد بلغ ١٧٠ ألف نفس ثم قفز في سنة ١٨٧٢ الى ٢١٢,٠٤٣ نسمة ومن بين هذا العدد ٤٧,٣١٦ أجنبية . وأورد احصائية عن استهلاك اللحوم في الإسكندرية وأوضح أن هذا الاستهلاك قد زاد زيادة كبيرة للغاية ، وأرجع هذه الزيادة إلى زيادة حركة النشاط التجارى في المدينة وارتفاع مستوى المعيشة بها ، ودلل على ذلك أيضا باحصائية طريفة عن وسائل النقل في الإسكندرية ومنها يتضح أن عدد عربات الركوب وخلافها قد بلغ ١٤٣١ من عربات حنطور ومزدوجة ومفردة وعربات ركوب بالأجرة هذا عدا عربات أفراد أسرة محمد على وتوابعهم وعربات الأجانب . ثم تكلم عن الشوارع التي فتحت في ذلك العهد وما تم تبليطه منها حتى سنة ١٢٨٧ (١٨٧٠ م) وإقامة تمثال محمد على في ميدان المنشية وقد بلغت تكاليف إقامته مليونين من الفرنكات .

ومستشفياتها وحماماتها العامة ومقاهيها ومسارحها وأسواقها والجمعيات الخيرية الأجنبية وشركات التأمين والبورصة وبيوت الرهن والشركات التجارية بها وطوائف الصناع ورجال الحرف والمدارس المصرية والأجنبية . وأقرده بخثا ضافيا عن ميناء الإسكندرية فتكلم عن المنشآت الحديثة التي تمت به إبان حكم اسماعيل من إنشاء حوض عائم من الحديد لإصلاح السفن يحل محل الحوض الذي كان محمد علي قد أنشأه من الحجر والذي أصبح لايساير تطور صناعة بناء السفن، وذكر أنه صنع في فرنسا سنة ١٢٨٥ (١٨٦٨- ١٨٦٩) . وحدد ارتفاعه وعمقه وعرضه ووزنه وقوة آلاته وقرر أن تكاليفه بلغت ١٢٦,٣٦ جنيها مصريا وقد أطلق على مبارك على الحوض لفظة دوك وهي مأخوذة من الكلمة التي تستعمل في اللغتين الإنجليزية والفرنسية dock وشرح أهمية وجود أحواض لإصلاح السفن في الموانئ الكبرى ، والمقصود بكلمة حوض . ثم تكلم عن حاجز الأمواج الذي أقامته الحكومة من جزيرة رأس التين إلى العجمى ليقى الميناء طغيان الأمواج ويجعل السفن الراسية به بمنجاة من العواصف وجعل فيه البوغاز لمرور السفن فيه ، وبناء أرصفة للشحن والتفريغ ، ومد خطوط حديدية إلى أرصفة الميناء لتسهيل تلك العمليات ثم أورد سبع إحصائيات عن النشاط التجارى البحرى للإسكندرية ومقارنته بنشاط الموانئ المصرية سواء في البحر المتوسط أو في البحر الأحمر . ومن هذه الاحصائيات إحصائية عن عدد السفن التي دخلت ميناء الإسكندرية ابتداء من سنة ١٨٣٧ حتى سنة ١٨٧٢ وإحصائية ثانية عن عدد الوافدين من الأجانب على ميناء الإسكندرية خلال هذه الفترة وقيمة البضائع الصادرة والواردة إليه في سنة ١٨٧٠ وإحصائية مقارنة عن قيمة

وانتقل الى الكلام عن التقسيم الإدارى للمدينة ، فقرر أن بها ثمانية أقسام للشرطة - أو الضبطية بمصطلح ذلك العصر - وأن في كل قسمين معاونا واحدا . وتكلم طويلا عن ضاحية الرمل وجهود الحكومة لتعميرها وتنشيط حركة الاصطياف في ربوعها وتيسير المواصلات بينها وبين المدينة . وانتقل إلى الكلام عن مساكن المدينة ودور قناصل الدول في الاسكندرية التي اتخذوها مصيفا لهم ينتقلون إليها من القاهرة في السكة الحديدية على نفقة الحكومة المصرية وانتقال الحكومة إلى الإسكندرية ثلاثة أشهر في الصيف . وقرر أن محمد علي هو الذى استن هذا التقليد ، وأوضح المنافع الاقتصادية والاجتماعية التي تعود على المدينة من انتقال الحكومة إليها صيفا . وتكلم عن مساجد الإسكندرية فقال إن بها من المساجد الجامعة ٤٩ جامعا ومن الزوايا ٩٧ وتضم بعض الزوايا أضرحة لبعض الأولياء بينما البعض الآخر خال من الأضرحة ونذكر على سبيل المثال من المساجد التي أرخ لها في إسهاب أو إيماز : مسجد أبى العباس المرسي وياقوت العرشى وتاج الدين بن عطاء الله الإسكندرى ونصر الدين والبوصيرى والشيخ تمراز والحجارى والمغاورى وعبد الرزاق الوفائى والحلوجى والصورى وسيدى جابر الأنصارى ونبي الله دانيال والطروشى وسيدى مجاهد وبجميع هذه المساجد أضرحة من تنسب إليهم . ومن المساجد الحالية من الأضرحة مسجد طاهر بك ومسجد سلطان ومسجد محرم بك ومسجد كرموز ومسجد الشيخ بالميدان ومسجد عبد اللطيف وهو معد لصلاة الخنازة . وانتقل الى الكلام بعد ذلك عن كنائس المدينة فقرر أن عددها ثلاث عشرة كنيسة : عشرة للنصارى وثلاث لليهود . وذكر أسماءها وأماكنها وتكلم أيضا عن فنادق الإسكندرية

السودان وأقسامها ومحطاتها ، وشرح على مبارك الجهود التي بذلها حين تولى إدارة مصلحة السكك الحديدية في إنشاء المحطات والنهوض بمستوى الخدمة في هذه المصلحة ، ثم تكلم عن عدد الخطوط الحديدية ومحطات الوجه البحرى والوجه القبلى والوقت الذى يستغرقه المسافر من محطة إلى أخرى . واختتم هذا البحث بالكلام عن طول الأسلاك البرقية الممتدة في مصر وفي السودان حتى سنة ١٢٩١ هـ (١٨٧٤-١٨٧٥) مقدرة بالأميال الإنجليزية . وقرر حقيقة هامة هي أن مصر فاقت في استخدام البرق كثيرا من الدول الأوروبية مثل السويد وبلجيكا والدانمرك وهولندا والبرتغال . وأورد إحصائية عن جملة أسلاك البرق في كل من مصر والسودان عدا خطوط البرق الخاصة بشركة قناة السويس وشركة مالطة .

وابتداء من الجزء الثامن حتى الجزء السابع عشر استعرض على مبارك البلاد المصرية فيما خلا القاهرة والإسكندرية . وقد التزم بالترتيب الأبجدي في ذكر أسماء البلاد . ومن البحوث الهامة التي وردت في الجزء الثامن البحث الذى وضعه عن انتشار ظاهرة اجتماعية في مصر هي شرب القهوة وما أثاره رجال الدين من ضجة حول تحريمها أو إباحة شربها . وكان قد شاع استخدامها بادية ذى بدىء في أوساط المتصوفة لتساعدهم على السهر في حلقات الذكر . وقد جلب البن الى مصر متصوفو اليمن ، واستطرد المؤلف إلى الكلام عن نبات البن في اليمن والحبشة وأشار إلى بلدة الخبرت في الحبشة وهي الوطن الأصلي لأسرة الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المؤرخ المشهور ، فترجم لوالده الشيخ حسن الجبرتى . وتكلم عن القرار الذى أصدره الجنرال بونايرت بتحريم تعاطى الحشيش

الصادرات والواردات في موانئ الإسكندرية ودمياط وبورسعيد والسويس والعريش والقصير وسواكن ومصوع ، وإحصائية أخرى توضح حجم التبادل التجارى بين مصر وبين كل من إنجلترا وفرنسا وبلاد اليونان وأمريكا والسويد والمغرب والنمسا وإيطاليا وبلجيكا وروسيا وألمانيا والشام وتركيا وأوربا وتركيا آسيا ، وإحصائية عن عدد السفن التي دخلت ميناء السويس في الفترة من سنة ١٨٤٩ حتى سنة ١٨٧٢ وكيف تضاعف عددها حوالى أربع مرات ، ثم إحصائية أخرى عن عدد السفن التي دخلت موانئ سواكن والقصير ومصوع وحمولة هذه السفن . ومن ميناء الإسكندرية انتقل المؤلف إلى الكلام عن مصلحة وابورات البوستة الخديوية والنجاح الذى حققته واتساع نطاق أعمالها وتملكها ست وعشرين باخرة تجوب البحار ناقله المسافرين والبضائع والبريد وما تستهلكه كل سفينة في السنة من الفحم مقدراً بالأطنان ، وأورد إحصائية بأسماء خمس وعشرين باخرة من سفنها وقوة كل منها ، ثم أسماء ١١ من سفن البحرية المصرية وقوة كل منها ومجموع حمولتها ونذكر على سبيل المثال أسماء ثلاث سفن هي « المحروسة » وقوتها ٨٠٠ حصان ومخصصة لركوب الخديو ، و« مصر » وقوتها ٦٠٠ حصان ، ومخصصة لركوب المعية الخديوية ، و« الغربية » وقوتها ٥٠٠ حصان ، ومخصصة لركوب الفاميليا الخديوية - أى العائلة الخديوية - ثم استعرض أسماء شركات الملاحة البحرية الأجنبية ونشاطها ومواعيد سفر سفنها ، وانتقل بعد ذلك إلى الكلام عن الفوائد التي عادت على الإسكندرية من ربطها بالشبكة الحديدية وبأسلاك البرق وتكلم عن الشبكة الحديدية في مصر وطول الخطوط الحديدية مقدرة بالأميال ، وانتقل إلى الكلام عن سكك حديد

أيام في بركة الحج - وهي قرية في شمال شرق القاهرة تقع في جنوبي الحانكة وشرق المرج - ثم استئناف سيرها إلى- الحجاز . ويستعرض المؤلف المحطات التي تقف عندها القافلة حتى تصل إلى الأراضي المقدسة بالحجاز ، والاعراض التي تتبع في إقامتها وفي طعنها وتدابير الأمن للمحافظة على الحجاج والأموال ، ويشرح كيفية عمل الكسوة الشريفة التي تأخذها البعثة الرسمية معها وتنظيم موكب المحمل وما إلى ذلك من تفصيلات وافية ودقيقة . وقد جاء كل هذا الاستطراد عندما تكلم عن بركة الحج التي أشرنا إلى موقعها . ولما تكلم عن بني مزار وصف مصنع السكر في هذه المدينة وإنتاجه من السكر الأبيض والسكر الأحمر ومدة تشغيل هذا المصنع ليلا ونهارا أربعة أشهر ابتداء من مدة عصر عيدان قصب السكر ، وتكلم أيضا عن المباني الملحقة بهذا المصنع مثل المستودعات المخصصة لحفظ السكر ومساكن المهندسين الأجانب ووابور النور الذي يمد المصنع بالإضاءة وبالقوى المحركة لإدارة آلاته ، والخطوط الحديدية الممتدة إلى داخل المصنع وإلى أراضي تفتيش زراعة القصب في بني مزار. كما يحوى هذا الجزء وصفا للأعياد التي كان يحتفل بها المصريون في العصور القديمة وقد نقلها عن هيرودوت . وشرح المؤلف بعض المصطلحات التي ورد ذكرها في المصادر والمراجع التي تناولت تاريخ مصر الإسلامية ، ومن هذه المصطلحات نذكر على سبيل المثال : البقط ، البازدار ، مفردى ، مفارده . متفردون ، مفردون ، الديوان المفرد ، الزمامى ، الزماميون ، ديوان الازمة ، صاحب ديوان الزمام ، زمام دار ، خوندة ، خوندات خاتون ، خواتين . كما شرح بعض مصطلحات فنية في دراسة فلاحية الارض نذكر منها : المرجع ، الدهبية ، البراش ، الرداد ، التلويق . ومن المدن التي

وشرب البوزة ومعاقبة من يخالف هذا القرار من المصريين بالحبس ثلاثة أشهر ، كما نص في القرار على حرق طرود الحشيش التي ترد إلى الجمارك المصرية . ولما جاء ذكر قرية انبابة - في شمال الحيزة على الشاطئ الغربى للنيل تجاه بولاق - شرح الموقعة المشهورة التي جرت بين مراد بك والجنرال بونابرت وهي التي يسميها الفرنسيون معركة الأهرام (٢١ يوليو ١٧٩٨) تمجيدا لانتصارهم فيها ، وقد أفاض على مبارك في شرح الأيام العصبية التي شهدتها القاهرة والتي سبقت ولحقت هذه المعركة وقد استقى مادتها العلمية من الخبرتى . وتعرض لوصف مقياس النيل الذى كان موجودا في أسوان وشرح معنى لفظتى اغريقى واللبتى - اللاتينى - ووصف خشب الدوم ومزاياه . وشرح في هذا الجزء أيضا شرحا وافيا لمنطقة آثار أبى سمبل ويكتبها (ابسنبول) ومعابد إدفو وأرمنت والأشمونين . ومن المدن الهامة التي أرخ لها في هذا الجزء أبو تيج واخميم وأبو كبير وأرمنت والإسماعيلية وإسنا وأسوان وأشمون والأشمونين . ومن الشخصيات التي ظهرت لها تراجم في هذا الجزء ذو النون المصرى وابن جبير وابن زولاق وابن سيناء وعبد الرحمن الناصر والشيخ محمد الخرشى وعلى الأجهورى والشيخ محمد عليش والشيخ محمد الإنبائى والشيخ محمد احمد فرغل والشيخ عبد الرحمن البوتيجى والشيخ محمد السميعى وهؤلاء الثلاثة من أعلام أبى تيج . ومن الشخصيات الأجنبية سترابون اليونانى الجغرافى وفيزاغورس العالم اليونانى وبلوتارك العالم الفيلسوف . وقد تضمن هذا الجزء البلاد التي تبدأ اسمها بحرف ا .

وفي الجزء التاسع بحث ضاف عن قافلة الحج المصرية ونظام خروجها من القاهرة وإقامتها خمسة

المكان الذي لقي فيه هذا الخليفة مصرعه وهل هو بوصير الحيزة أو بوصير الفيوم؟ واستعرض كتابات المقرئين وابن حوقل وأبي المحاسن وأبي الفداء وابن خلكان في هذا الصدد. ولما تعرض للبوطة وهي قرية في محافظة البحيرة كانت مسكنا لشيخ عرب البحيرة حسن بن برعى وأخيه شكر تعرض لقتلهما على يد المماليك الشراكسة الذين قطعوا رأسيهما وشربوا من دمهما وجزل بعضهم من لحمهما بالسيف وأفاض في وصف نهايتهما جزاء خيانتهم للسلطان طومانباي. وعند أبي قير تكلم عن الخليج الناصري (١) الذي حفره الناصر محمد ابن قلاوون وكانت هذه الرعة تخرج من الرحمانية وتأخذ مسار خليج الإسكندرية القديم واستطرد إلى العلاقات بين مصر والصليبيين في صيدا بالشام، وبين مصر وجزيرة قبرص. وانتقل من التاريخ الوسيط إلى التاريخ الحديث فتكلم عن موقعي أبي قير البحرية (أول اغسطس ١٧٩٨) وأبي قير البرية (٢٥ من يوليو ١٧٩٩) ونشر بعض منشورات بونابرت للشعب المصري وناقش موضوع قطع سد أبي قير كإجراء حربي لحأ إليه الإنجليز في محاربة الفرنسيين. ولما تكلم عن تروجه - وهي مدينة قديمة في جنوب غرب دمنهور - استعرض تاريخها منذ سنة ١١٧ هـ واستند إلى ما كتبه عنها المقرئ في خطه والنويري في نهاية الأرب وكاترمير نقلا عن المقرئ في كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك. وتعرض للمفاوضات التي جرت في هذه البلدة سنة ٣٥٨ هـ بين جوهر الصقلي قائد الجيش الفاطمي أثناء زحفه من الإسكندرية إلى الحيزة وبين وفد يرأسه أبو جعفر مسلم وأسفرت عن عقد الصلح، وانتقل إلى الكلام عن إقامة الظاهر بيبرس فيها ومقتل السلطان الأشرف خليل فيها سنة ٦٣٩ هـ. ولما وصل المؤلف

(١) كانت الترجع تسمى في ذلك الوقت خلجانا.

أرخ لها في هذا الجزء، الباجور، باقور، بانوب، بيا والبتانون، ويكتبها البتون، البداري، بدرشين، بردين، بسيون، بلييس، بلقاس، بلينا، بنها، بنى سويف، بنى عدى، بنى مزار، بهتيم، بهجورة. وفي هذا الجزء ترجم على مبارك لنفسه ترجمة مستفيضة تناولت حياته الخاصة والعامة. كما ترجم لتقى الدين احمد بن على المقرئ واستمد مادته العلمية عنه من كتاب أبي المحاسن التميمي المسمى بالمتهل الصافي والمستوفى بعد الوافي. وترجم أيضا للشيخ ابراهيم الباجوري شيخ الجامع الأزهر والشيخ احمد الدردير من علماء الأزهر وإبراهيم المتبولي وعلى الخواص من كبار المتصوفة. ومن الشخصيات الأجنبية التي ترجم لها: شامليون ويكتب على مبارك اسمه بالطريقة التركية جانبوليون، وهو عالم الآثار المصرية القديمة الفرنسي الذي عكف على فك رموز اللغة الهيروغليفية في القرن التاسع عشر، كما ترجم لبعض الفلاسفة والعلماء اليونانيين وغيرهم من القرن الثالث والخامس والسادس للميلاد نذكر منهم اجاثمبر، اتين البيزنطي، اولنيودور، بروكوب. وترجم أيضا لأحد العلماء الفرنسيين الذين اشتغلوا بالعلوم الطبيعية والنباتية وهو ريمور. ولم يغط هذا الجزء جميع البلاد التي تبدأ أسماؤها بحرف الباء فوقف عند بهوت وهي قرية تتبع مركز المحلة الكبرى بمحافظة الغربية حاليا وترجم لثلاثة من علمائها عاشوا إبان الحكم العثماني.

وحفل الجزء العاشر بعدة أبحاث تتصل ببعض البلاد المصرية ذات الشهرة التاريخية، مثل بوصير والبوطة وأبو قير - ويكتبها بوقير - وتروجه وتيس وحلوان. فلما جاء ذكر بوصير تكلم عن مقتل مروان ابن محمد آخر خلفاء الدولة الأموية وحاول تحديد

حمامات للمياه الكبريتية بها وشق شوارع متسعة ومستقيمة من النيل إلى الحمامات وبناء فندق سياحي وفندق آخر للعلاج وذكر التسعيرة التي وضعت للنازلين فيه بمختلف الدرجات ، وعما اذا كانت الإقامة تشمل تناول الطعام أو مقصورة على المبيت . وتكلم عن التيسيرات التي قدمتها الحكومة لتشجيع الأهالي على بناء دور لهم في حلوان ، واستعرض النشاط الاقتصادي فيها وازدياد حركة البناء والتعمير خلال السنوات من ١٨٨٢ إلى ١٨٨٧ ، ومن الوقائع التاريخية التي تعرض لها في هذا الجزء المدية التي أرسلها المقوقس . ويصفه على مبارك بأنه صاحب الإسكندرية . إلى النبي عليه الصلاة والسلام ، وكان ضمنها مارية وأختها سيرين ، ومارية هي التي ولدت للنبي ابنه ابراهيم وخلص من ذلك إلى القول بأن ثلاثة من الأنبياء صاهروا الأقباط هم ابراهيم الخليل تسرى بهاجر أم اسماعيل . ويوسف تزوج بابنة صاحب عين شمس التي ذكرها الله في كتابه فقال « وغلقت الأبواب وقالت هيت لك » (١) ومحمد عليه الصلاة والسلام تسرى بمارية . وتكلم عن الحياة المترفة الرتيبة التي كان يجيها المتصوفة في خانقاه سرياقوس والتي أنشأها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٣ هـ (١٣٢٣) م وجعل فيها مائة خلوة لمائة صوفي ولقب شيخها بلقب شيخ الشيوخ بعد أن كان هذا اللقب مقصورا على من يتولى مشيخة خانقاه سعيد السعداء . كما أفاض المؤلف في تحديد الأقاليم في مصر التي نزلت بها القبائل العربية بعد الفتح الاسلامي وذكر دخول معاوية بن أبي سفيان مصر وولاية محمد ابن أبي بكر الصديق عليها وقتله بها . وتكلم عن نظام الخلع في دولة المماليك وأفاض في وصف خلع أرباب السيوف وخلق أرباب الأقلام وخلق العلماء .

(١) سورة يوسف جزء من الآية رقم ٢٣ .

في ذكر المدن الى تنيس كتب تاريخا ضافيا عنها تناول الدور الذي لعبته في العصور القديمة وفي العصور الإسلامية على ضوء ما كتبه المقرئ والمسعودي وأبو السرى الطيب وأبو الفداء وغيرهم . وقال إن الحنتين اللتين ورد ذكرهما في القرآن الكريم « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً » (١) كانتا في تنيس لأخوين من بيت الملك قليمون من نسل اتريب بن قبطيم . وتكلم عن الشهرة العريضة التي أصابتها هذه المدينة في صناعة الثياب وتكلم عن الحياة الاجتماعية بين سكانها . ووضع بحثا مستفيضا عن حلوان وقال إنها كانت قرية مشهورة عامرة بالسكان منذ أكثر من ألف وثمانمائة وخمسين عاما خلت ثم أخنى عليها الدهر فغدت بلدا مهجورا حتى جددتها وعمرها عبد العزيز بن مروان الذي ولى حكم مصر وأعجب بهوائها فنزل بها سنة ٧٠ هـ ليكون بمنجاة من الطاعون الذي اتخذ مظهر الوباء في تلك السنة . وشيد بها المساجد والدور وغرس النخيل والكروم . وتابع المؤلف تاريخ حلوان عبر العصور فتكلم عن زيارة المأمون الخليفة العباسي لها سنة ٢١٧ هـ وذكر طرفا من زيارة هذا الخليفة لمصر ، وتعرض لخواص المياه الكبريتية التي تنبثق من عين حلوان وأهميتها في علاج الأمراض الجلدية ، وشرح مظاهر الاهتمام بتعمير حلوان منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر من إنشاء خط حديدي يربطها بالقاهرة . ولم يكن هذا الخط يبدأ من محطة باب اللوق كما هو الحال الآن ، بل كان يبدأ من قره ميدان بالقلعة ثم يمر على مقابر المماليك وشرق ضريح الإمام الشافعي إلى البساتين ويأخذ مساره الحالي . كما تكلم عن إنشاء

(١) سورة الكهف آية رقم ٣٢ والآيات التالية لها مكية

لقصة الأخوين .

وهي قرية بمحافظة البحيرة ، على الشاطئ الغربي لفرع رشيد وجنوبي مدينة رشيد ، وترجم لبعض الصوفية الذين عاشوا أو دفنوا في خانقاه سرباقوس ، وترجم أيضاً للأمير عيسى شيخ عرب بني عوننة ولشيخ العرب سويلم بن جيب بالقلوبية وابنيه سالم وسويلم . كما ترجم لبعض المستشرقين الفرنسيين مثل كاترمير (١٧٨٢-١٨٥٧) وساسي (١٧٥٨-١٨٣٨) وهربلورتلمي (١٦٢٥ - ١٦٩٥) . وقد غطى على مبارك في هذا الجزء بقية البلاد التي تبدأ أسماؤها بحرف الباء ثم أحرف التاء والجيم والحاء والذال .

* * *

وحفل الجزء الحادى عشر بذكر عدد من أمهات المدن ذات الشهرة التاريخية فتكلم عن دمنهور وتاريخها في العصور القديمة والحديثة وتعرض بوجه خاص لأحداث الحملة الفرنسية المتصلة بدمنهور والفترة التي أعقبت خروج الفرنسيين من مصر والحرب بين محمد على ومحمد الألى والأزمة التي واجهها محمد على حين صدر مرسوم من السلطان بنقله من مصر إلى سالونيك ومؤازرة علماء مصر لمحمد على إبان هذه الأزمة واستعرض تاريخ مدينة دمياط الحافل إبان الحروب الصليبية وأفاض في شرح أحداث الفترة الحرجة التي تولت فيها شجر الدر مقاليد الأمور عقب وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب ربمما يحضر توران شاه ابن الملك المتوفى وكانت حملة لويس التاسع قد نجحت في الاستيلاء على دمياط والوصول إلى المنصورة تجاه البحر الصغير . ومما هو جدير بالذكر أن على مبارك يسمى قائد الحملة روا دفرنس أى ملك فرنسا وهي نفس التسمية التي أطلقها من قبل المقریزی في خططه (١) وانتقل إلى تاريخ دمياط إبان الحملة الفرنسية ثم في فترة الصراع على

(١) المقریزی : الخطط . طبعة الشياح - لبنان - ثلاث مجلدات

المجلد الأول الجزء الثاني صر ص ٣٩٠ - ٣٩٢ .

ووضع بحثاً عن نظام النيابة في دولتي المماليك وشرح وظيفة النائب الذي كان يقوم مقام السلطان وكان صاحب هذه الوظيفة يسمى ملك الأمراء ونائب الحضرة وكافل الممالك ، وتكلم عن اختصاصاته المتشعبة ووضعه في الدولة وفي الاحتفالات الرسمية وفي المواكب ، ووصف دار النيابة التي بناها الملك المنصور قلاوون سنة ٥٦٨٣هـ . وانتقل المؤلف من النيابة إلى الوزارة فتكلم عنها على غرار ما فعل في كلامه عن النيابة . وتكلم عن التجربة التي قامت بها الحكومة المصرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر لزراعة أشجار التوت لتربية دود القز ، وذكر أن الحكومة حفرت أكثر من ألف ساقية واستدعت خبراء من الآستانة لتدريب المصريين ، كما زرعت أيضاً في نفس المنطقة وهي رأس الوادي بمديرية الشرقية أشجار الزيتون لاستخراج الزيت واستخدامه في صناعة الصابون . وفي هذا الجزء شرح المؤلف بعض المصطلحات التاريخية نذكر منها على سبيل المثال : بغلطاق ، بغلوطاق ، بغالطيق ، صولق ، صوالق ، الحياصة ، حوائص ، شيوب ، زراقة ، قراسنقر ، آق سنقر ، شنتور ، شنتار ، طبلخانة ، أمراء الطبلخانة ، شاد الشرايحاناه ، شاد الدواوين ، شاد العمائر ، شاد الخالص ، شاد الزردخانة ، شاد الحوش ، شادية ، أمير أخور ، جشار ، تشاهير ، مروات ، الخانقاه . ومن المدن التي أرخ لها في هذا الجزء ، عدا التي ذكرناها ، أبو قرقاص ويكتبها بوقرقاص ، وبولاق الدكرور ، ويكتبها بولاق التكرور ، بورسعيد ، تلا ، جرجا ، الحيزة . وترجم في هذا الجزء لعدد كبير من الشخصيات نذكر منها الشيخ البوصيرى صاحب البردة وابن خلكان والشيخ على البيومي من المتصوفة وابن السالوس وزير الأشرف خليل والشيخ حسن الحداوى من علماء الأزهر وهو لا ينسب إلى ميناء جده بالحجاز بل ينسب إلى الحدية

البلاد المصرية . وقد تضمن هذا الجزء ذكر البلاد التي تبدأ أسماؤها بحروف الدال والذال والراء المهملة والزاي المعجمة .

* * *

وجاء الجزء الثاني عشر على غرار الأجزاء السابقة حافلاً بالبحوث في شتى الموضوعات فخاض بحثاً ضافياً عن الرزق الإجابسية ونشأتها وتطورها في مصر الإسلامية ، وأورد نصاً حرفياً لعهد أخذ على نصارى العرب من أهل نجران في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وعدة عهود أخرى أخذها عمر بن الخطاب على نصارى الشام . وتكلم عن وضع الكنائس في ظل الإسلام مستشهداً بأحاديث نبوية وأقوال منسوبة إلى عمر ابن الخطاب وعمر بن عبد العزيز وما رواه الحسن البصرى ، ثم تكلم عن الجزية المقررة على الذميين وفتاتها وجواز رفع نسب هذه الفئات على ذوى الدخول الكبيرة . واستعرض حوادث الزلازل العنيفة التي تعرضت لها القاهرة في القرنين السابع والثامن الهجريين ، ووصف خروج السلطان أيام دولة المماليك إلى الصيد في سرباقوس أو شبرا ، ووصف ركوب السلطان من القلعة في الأعياد . وتكلم عن تخنيط الحث عند قدماء المصريين وأطلق على هذه العملية تصبير الموتى . وشرح عاداتهم في الخنازات وتكلم عن قصر أنس الوجود . وفي هذا الجزء شرح كيفية عمل السمك المقدد المعروف في الصعيد باسم الملوحة . وأرجع سبب انتشاره إلى أن سكان البلاد التي يكثر فيها قصب السكر يستطيعون أكل السمك المقدد ، وذكر أسماء الأراضي الزراعية في مصر تبعاً لنوعها وجودة الزراعة بها وسهولة ريها وما إلى ذلك ، وهي أسماء تبدو غريبة بالنسبة للقارى غير المتخصص في الشؤون الزراعية ، وحسبنا أن نذكر هنا من هذه الأنواع على سبيل المثال : البروية :

الحكم في مصر بين محمد باشا خسرو والوالى العثمانى وبين عثمان بك البرديسى ، وتكلم عن مساجدها ومدارسها ووصف سمكة تظهر في مياه دمياط يطلق عليها فرس البحر وذكر منافعها . وسار على نفس النهج عند كلامه على رشيد وأفاض في وصف المدينة والحياة الاقتصادية والاجتماعية والدينية لسكانها وأخذ يعدد أنواع المحصولات التي تشتهر بها وذكر أنواع البلح وأصناف الأرز واستعرض تاريخ رشيد في العصور الوسطى ثم في القرن التاسع عشر وأطال في الكلام على الحملة البريطانية على مصر سنة ١٨٠٧ وانتصار المصريين على البريطانيين في معركة رشيد والحماة . ولما جاء ذكر بلدة دندرة وصف معبدها وتاريخ إنشائه وانتقل منه إلى قصة إيزيس وأوزوريس وهاتور . ومن المصطلحات التاريخية التي شرحها المؤلف في هذا الجزء : خشداش ، خشداشية ، طواشى ، الغرارة ، الحواء ، البرك . ومن المدن التي أرخ لها في هذا الجزء - عدا التي ذكرناها - دراو ، الدر ، ديروط ، دشنا ، دكرنس ، الزقازيق ، زفتى . وقد ترجم لابراهيم الدسوقي والوزير صاحب ولعدد وافر من علماء دمياط ودمنهور ورشيد كما ترجم للسائح الفرنسى سافارى ويسميه « سوارى السياح الفرنساوى » وقد زار مصر في القرن الثامن عشر ، كما ترجم لسائح فرنسى آخر هو الأب سيكار ويصفه بأنه « سياح فرنساوى قسيس من طائفة الجزويت » وترجم أيضاً لعلى باشا الجزائرلى أو الطرابلسى أو على برغل وهو الوالى العثمانى الذى لقي حتفه في مطلع سنة ١٨٠٤ في القرنين بصحراء الشرقية على يد الأمراء المماليك ، كما ترجم لبعض أعضاء البعثات العلمية الذين أوفدتهم الحكومة المصرية إلى أوروبا في القرن التاسع عشر . ويغلب على هذا الجزء - الحادى عشر - في مجموعة طابع التراجم . وذكر الزوايا المنتشرة في أنحاء

الشهامة ، الثنوية ، شق الشمس ، نفاء ، وسخ ، مزدرع ، وسخ غالب ، مستبحر ، خرس ، إلى غير ذلك من الأسماء . والمهم أنه يعطى مواصفات لكل نوع من هذه الأراضي وأنواع الزراعات التي تجود فيها وكيفية ربيها إلى غير ذلك من تفصيلات فنية . واستعرض أنواع الخضر وفوائدها ، وانتقل إلى الكلام عن بعض أنواع النباتات التي تزرع في مصر وتستخدم في علاج بعض الأمراض والحميات مثل التزلات المعوية والشعبية والمغص وآلام الظهر والمفاصل والربو وأمراض القلب والجرب ، وتكلم عن النباتات التي يؤدي تعاطيها إلى زيادة إفراز الكبد ، وذكر منافع شجر الحناء ووصف تركيباً من زهرة الحناء تضاف إليها مواد أخرى لتفتيت الحصى في الكليتين ، وعلاج الطحال وإدرار البول . وتكلم عن منافع الكزبرة وشرح أنواع المشروبات التي تصنع من البلح أو الذرة أو الزنجبيل وكيفية إعدادها للشرب ثم تكلم عن شراب البوزة والدكاوى وغيرهما من المشروبات . ومن أهم المدن التي تعرض لها على مبارك في هذا الجزء مدينة السويس وقد شرح معالمها ، فتكلم عن شوارعها وأسواقها ومساجدها وزواياها ووكائنها والشركات القائمة بها والنشاط التجاري والاقتصادى بها وحركة الملاحة في مينائها وبيان البضائع الأجنبية الواردة إليها بحراً وحوض لإصلاح السفن والمنائر وما إلى ذلك من منشآت بحرية في ميناء السويس . وتكلم عن تاريخ المدينة على عهد الحملة الفرنسية وقدم الخيزال بونايرت إليها ، وهو يطلق عليه بانوبرتو ، وانتقل إلى النشاط الذى دب في المدينة وفي مينائها إبان الحروب الوهابية وإبحار الحملات العسكرية التي قامت تباعاً من ميناء السويس إلى ينبع وجدة وتكلم عن المذهب الوهابى والحركة التي قادها محمد بن عبد الوهاب . وانتقل إلى تنظيم الطريق البرى

Overland Route من القاهرة إلى السويس عبر الصحراء على عهد محمد على ، وتحسين الخدمة في هذا الطريق على عهد عباس الأول ثم مد الخط الحديدى من العاصمة إلى السويس وتكلم أيضاً عن المنطقة المحيطة بمدينة السويس وأشار إلى منطقة عيون موسى وغيرها . ومن المدن الأخرى التي ورد ذكرها في هذا الجزء أسيوط ، سمند ، سمالوط ، السنبلوين ، سوهاج ، شبراخيت ، شربين ، الشهداء ، شبين الكوم ، شبين القناطر وتكلم عن واحة سيوة وعادات أهلها . وذكر ثلاثة وأربعين بلداً يبدأ كل منها بكلمة شبرا مثل شبراخيت وشبرا الخيمة وشبرا النملة . ويتميز هذا الجزء من الخطط التوفيقية بأنه يحوى شرحاً لعدد وفير من المصطلحات التي شاع استعمالها في مصر في عصر دولتي المماليك والحكم العثماني وبخاصة في الجيش والإدارة وأنظمة الحكم والألعاب والصناعات اليدوية الدقيقة ونذكر منها على سبيل المثال : الكراتة ، شبابه ، طردارية ، المنشة ، الخاصكى ، الحمقدار ، الكفت ، الأكفات ، التزنيك ، الشربوش ، الهناب ، حامل المزرة ، اليسق ، كتاب الدرج ، كتاب الاسن ، الطشتخاناه ، الركاخاناه ، الحوائجخانه . وتضمن هذا الجزء أيضاً تراجم لشخصيات كثيرة حسبنا أن نذكر منها هنا : الحافظ وابن الأثير ومعروف الكرخى وشمس الدين السخاوى المؤرخ وجلال الدين السيوطى والعارف السوهاجى وزكريا الأنصارى وأبو بكر الماردانى أحد كبار رجال الدولة الطولونية ، وقد حبس على الحرمين الشريفين في مكة والمدينة أوقافاً وضياعاً كان من بينها أسيوط ، وكان يصل إيراد هذه الأوقاف إلى مائة ألف دينار في السنة . كما ترجم لنا بليون بونايرت ترجمة ضافية منذ مولده حتى وفاته في منفاه ثم إحضار « رفته » أى جثته إلى فرنسا لدفنها في باريس على عهد

الملك لوى فيليب وترجم أيضاً لعالم فرنسى هو لارشيه Larcher (١٧٢٦ - ١٨١٢) الذى ترجم كتاب هيرودوت وعلق عليه ، كما ترجم للمؤرخ مانتون . وقد تناول هذا الجزء البلاد التى تبدأ أسماؤها بحرف السين وحرف الشين المعجمة .

* * *

واحتوى الجزء الثالث عشر موضوعات شتى فى التاريخ القديم والوسيط والحديث فمن موضوعات التاريخ القديم تعرضه لمدينتى صا الحجر وصان الحجر فقد استعرض تاريخهما فى العصور القديمة . كما تكلم عن مدينة طينة أو بيلوز Peluse وهى فى موقع بورسعيد الحالية والدور الذى لعبته هذه المدينة فى التاريخ القديم . على أن أهم ما جاء فى هذا الجزء خاصاً بالتاريخ القديم كان بلا شك مدينة طيبة - الأقصر الحالية - ويسمىها المؤلف طيوه ، فقد أفاض فى شرح آثارها سواء معبد الكرنك أو آثار البر الغربى مثل مدينة هابو - ويسمىها أبو - والرسيوم والقرنة وسائر الآثار التى حفل بها وادى الملوك . أما الموضوعات التى تعرض لها فى التاريخ الوسيط فكان نظام البريد فى الدولة الإسلامية عامة وفى مصر خاصة ، وتولى شجر الدر حكم مصر . وشرح الموجات البشرية من التتار الذين زحفوا على الشرق العربى وسقوط بغداد فى أيديهم وانتقل إلى الكلام عن مدينة بغداد وتاريخها ، وتكلم عن الهدايا التى كان يتبادلها حكام البلاد الإفريقية فيما بينهم ، ووصف صحراء عيذاب والطريق الذى يمر عبر الصحراء من قفط إلى ميناء عيذاب الواقع على البحر الأحمر وأسماء المحطات الواقعة على هذا الطريق . وتكلم عن معدن الزمرد ومواطن استخراجة فى الصعيد الأعلى ابتداء من قفط بمديرية قنا حتى أسوان وشرح خواص هذا المعدن واختلاف لونه حسب فصول

السنة وحالة الطقس ، وقال إنه يزداد توهجاً فى ضوء القمر حتى يكتمل بدرًا . ثم انتقل إلى الزبرجد وأنواعه وخواصه . ومن المصطلحات التى شرحها فى هذا الجزء : الشاليس ، اليزكية ، الكراع ، استادار ، الاقامات بمعنى الميرة . ومن المدن التى جاء ذكرها فى هذا الجزء طنطا ، طهطا ، طلخا ، طما ، طوخ . وترجم لعدة شخصيات منها السيد أحمد البدوى ورفاعة رافع الطهطاوى وعبد الله الشراوى شيخ الجامع الأزهر فى نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر . وقد شمل هذا الجزء البلاد التى تبدأ أسماؤها بأحرف الصاد المهملة والضاد المعجمة والطاء المهملة والطاء المعجمة .

* * *

وخفل الجزء الرابع عشر بعدة بحوث ووثائق تاريخية فتكلم ، وهو يذكر أسماء البلاد المصرية ، عن عجرود . وكانت إحدى محطات قافلة الحج المصرية ، وهى على بعد عشرين كيلو متراً غرب مدينة السويس ، وتقع حالياً على الخط الحديدى الصحراوى الذى يصل بين القاهرة والسويس وتقف عندها القطارات الحديدية التى تسير على هذا الخط . وكان هذه المحطة كانت نقطة انطلاق فكرى لعلى مبارك فأخذ يذكر معلومات ضافية وطريفة عن الطريق التى كانت تسلكها قافلة الحج مارة بعجرود والمدن والدروب والمسالك والمغارات وآبار الماء والخانات والدور الواقعة على طريق الحج فى كل من مصر وشبه الجزيرة العربية حتى المدينة المنورة ومكة المكرمة ، ويصف مهام أمير الحج والترتيب الذى يوضع للحجاج فى ظعنهم وإقامتهم والأخطار التى يتعرضون لها فى الطريق من هجوم العربان عليهم وذكر أسماء القبائل والمناطق التى تسيطر عليها هذه القبائل . وتكلم عن وصول حجاج مصر والثام إلى راينج حيث يبدأ الإحرام . وانتقل إلى عيذاب كميناء تقصده

السفن القادمة من الهند وايمون، وكمركز يباع فيه اللؤلؤ الذى يستخرج من الجزر القريبة من الميناء ، وكطريق يسلكه بعض الحجاج فى الوجه القبلى إلى الحجاز .

ويذكر معلومات طريفة للغاية عن منطقة عيذاب وعادات سكانها والمتاعب التى يلقاها الحجيج القادمون من قوص إلى عيذاب فى طريقهم إلى جدة وكيف كان يتحكم سكانها فيهم ويشحنون بهم المراكب ويطلقون عليها الحلاب (جمع جلبية) فيجلس الحجاج وكأن السفن أبقاص مليئة بالدجاج حتى يستوفى صاحب الجلبية ثمنها من رحلة واحدة وهو لا يبالي بالأخطار التى تتعرض لها الجلبية وهى تجتاز البحر الأحمر . وانتهاز المؤلف فرصة كلامه عن عيذاب فربط بين هذا الميناء وبين رحلة ابن بطوطة من إدفو إلى عيذاب وكيف تعذر عليه مواصلة رحلته إلى جدة فعاد من عيذاب إلى قوص ومنها صعد فى النيل إلى القاهرة ثم واصل سفره إلى الشام ماراً ببلبيس والصالحية والعريش ورفح ، وتكلم عن القدس ومدن الرملة وطبرية وبيروت ودمشق وقبور الأنبياء الصالحين فى بعض هذه المدن الشامية مثل قبور إبراهيم واسحق ويعقوب وزوجاتهم ويونس وصالح وشعيب وسليمان وخالد بن الوليد وأبي عبيدة الجراح وعمر بن عبد العزيز وبلال مؤذن الرسول عليه السلام ، ثم انتقل إلى العراق فذكر أن قبر على فى مدينة مشهد على من بلاد العراق ، وأن أهل هذه المدينة كلهم رافضة أى شيعة ويحكمها نقيب الأشراف دون سواه ووصف المقبرة . ثم تكلم عن قرية أم عبيدة فى العراق حيث دفن بها أحمد الرفاعى ، وانتقل إلى مسجد على بن أبى طالب فى مدينة البصرة ومشهد الإمام الحسين بمدينة كربلاء ، وقبرى الإمام أبى حنيفة والإمام أحمد بن حنبل فى بغداد . وتضمن هذا الجزء أيضاً بحثاً عن العلاقات التجارية والسياسية والحربية فى

العصور الوسطى بين مصر وبين بعض الدول الأوربية مثل فرنسا والبندقية وجنوه وفلورنسه وغيرها من دول وإمارات حوض البحر المتوسط . وتكلم فى موضوع تعيين قناصل لبعض هذه الدول فى مصر منذ أيام الدولة الأيوبية ودولتى المماليك البحرية والبرجية وتبع نشاطهم ومقار عملهم ومدى نجاحهم أو فشلهم فى رعاية مصالح بلادهم ، ثم انتقل إلى موضوع المحاولات التى بذلت لإيصال البحرين المتوسط والأحمر قبل شق قناة السويس . كما تضمن هذا الجزء بحثاً عن ترعة الفرعونية شرح فيه الأخطار التى كانت تتعرض لها أراضي الوجه البحرى من مياه هذه الترعة وما كان يهددها من الغرق ، وتابع الجهود التى بذلتها السلطات الحكومية للمحافظة على جسور هذه الترعة منذ أواخر عصر المماليك فى سنة ١٢٠٧ هـ (١٧٩٢) وإبان الاحتلال الفرنسى وأوائل حكم محمد على حتى سنة ١٢٢٦ هـ (١٨١١) م . وانتقل إلى مذبحه المماليك بالقلعة ويسميتها على مبارك « وقعة المماليك بقلعة الجبل بمصر » ويعلق عليها بقوله « وكان موتهم رحمة للعباد وعمارة للبلاد وأمنت بعدهم السبل برأً وبحراً . » ومن الأبحاث التى تضمنتها هذا الجزء تدابير الحكومة المصرية فى أواخر القرن الرابع عشر الميلادى للحد من استهلاك الأقمشة المستوردة من جمهورية البندقية ، إذ كانت سيدات مصر يغالين فى تفصيل ملابسهن منها ، وكانت مودة ذلك الوقت تفصيل ملابس فضفاضة واسعة للغاية الأمر الذى أدى إلى استهلاك كميات كبيرة من الأقمشة الأوربية الفاخرة ، فحصل « التنبيه » فى الشوارع بالكف عن ذلك ، وفى أكتوبر ١٣٩٠ نزل رجال الحكومة إلى أسواق القاهرة وشوارعها وقطعوا أكمام الملابس الواسعة التى كان النساء يرتدينها . وانتقل المؤلف إلى بحث فى التاريخ القديم عن منطقة العرابة المدفونة

وأفر من علماء فرشوط والنيوم وفارسكور وقنا غير ما سبق ذكرهم . وقد عدل هذا الجزء البلاد التي تبدأ أسماؤها بحروف العين المهمة ثم العين المعجمة والناء والقاف .

* * *

واستهل على مبارك الجزء الخامس عشر بالكلام عن مدينة كانوب ، وتقع مكان ضاحية أبي قير الحالية ، واستعرض تاريخها زمن الفراعنة وفي العصرين البطلمي والروماني ومعابدها وبخاصة معبد سيرابيس الذي كان يقصده المصريون طوال العام لالتبرك والزيارة فحسب ، بل لما كانت تتخلل الحياة في كانوب من مجون وفقس بسبب كثرة النساء العاهرات وأماكن المجون واللهو غير البريء ، وخلص على مبارك من ذلك إلى القول بأن كهنة معبد سيرابيس كانوا أغنى رجال الدين في مصر قاطبة . ووقف المؤلف وقفة طويلة للغاية عند ذكر بلدة المطرية من ضواحي القاهرة وأثبت أن المطرية ليست عين شمس وإنما هي على مقربة منها ، وتكلم عن مسلاتها العديدة التي نقلت منها إلى رومه إبان الحكم الروماني ، ثم انتقل إلى هياكلها قبل دخول المسيحية إلى مصر وأخذ يستعرض تاريخها عبر العصور وتتبع رحلة السيدة مريم وابنها عيسى عليه السلام ومعهما يوسف النجار من بيت المقدس إلى مصر وتجوأهم في مختلف البلاد المصرية وإقامتهم في المطرية . وتكلم عن الأحداث التاريخية الهامة التي وقعت في منطقة المطرية إبان الحكم الإسلامي حتى وصل إلى معركة الريدانية التي لقي فيها السلطان طومانباي آخر سلاطين دولة المماليك الهزيمة على يد السلطان العثماني سليم الأول ، وشرح الأيام العصيبة التي سبقت ولحقت هذه المعركة ، وإقامة السلطان سليم في مصر ثمانية أشهر ثم رحيله إلى الآستانة والقرارات التي اتخذها عند رحيله ،

ويسميتها « العربات المدفونة » في أبيدوس على مقربة من البلينا بمحافظة سوهاج ، فشرح آثار هذه المنطقة وأسماء الشمس المقدسة عند قدماء المصريين وغيرهم من شعوب الشرق القديم . ومن الوثائق التي نشرها على مبارك في هذا الجزء نذكر ثلاثاً : هدنة عقدت بين حكومة جنوة ودولة المماليك البحرية على عهد السلطان المنصور سيف الدين قلاوون وابنه الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون ، ووثيقة ثانية تاريخها ٤٢٢ هـ باسم « دستور يتضمن العامر والغامر من أرض الفيوم » تشمل بياناً عن شبكة الترع التي كانت منتشرة في إقليم الفيوم وقتذاك . أما الوثيقة الثالثة فمنشور أذاعه غازان ملك التتار على سكان مدينة دمشق بعد معركة مجمع المروج سنة ١٢٩٨ أعلن فيه لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وندد بسياسة دولة المماليك ، وكان سلطانها وقتذاك هو الناصر محمد بن قلاوون . وشرح على مبارك على عادته بعضاً من المصطلحات التي كانت ذاتة في العصور الإسلامية ونذكر منها على سبيل المثال : الحراوة ، الندب ، التنبول ، الطرائد ، الشواني ، الحراقات ، بطس ، العشاريات ، بيكار ، ييناكبير . ومن المدن أو البلاد التي كتب عن تاريخها في هذا الجزء : العريش ، العسيرات ، العطف ، فارسكور ، فاقوس ، فرشوط ، الفرما ، الفشن ، الشيخ فضل ، فوه ، الفيوم القصير ، ققط ، القلزم ، قلوب ، قنا ، قوص ، القوصية ، قويسنا . وفي هذا الجزء تراجع لشخصيات عديدة نذكر منها : ابن خلدون وابن بطوطة وعبد الوهاب الشعراني إمام المتصوفة في مصر في القرن العاشر الهجري وبعض أفراد أسرته والإمام الليث ابن سعد وابنه الإمام شعيب والبهاء زهير والشيخ حسن العدوي وأبو الحسن الشاذلي والكندي وعبد الرحيم القنائي والشيخ سليمان الفيومي . وترجم أيضاً لعدد

بها الحكومة المصرية في النصف الأول من القرن التاسع عشر لاستيراد أنواع معينة من الأغنام من أوروبا وتربيتها في مصر بغية استغلال أصوافها وشرح بالتفصيل المراحل التي مرت بها هذه العملية واجراءات الحكومة لتنظيمها . ومن الأبحاث التي جاءت في هذا الجزء الحملة العسكرية التي أرسلها السلطان العثماني إلى مصر بقيادة حسن باشا الجزائرلى سنة ١٧٨٦ لكسر شوكة المماليك واسترجاع نفوذ الدولة في مصر ، ونشر صورة الفرمان الذي أرسله حسن باشا إلى أولاد حبيب بناحية دجوة . ومن المصطلحات التي شرحها على مبارك في هذا الجزء : الإخراق ، البرك ، المشاعلية ، نيدة البوش ، النيدة المعقودة ، الخبيص ، شجر البلسان والبسام ، عازق ، بيورلضى ، بيورلضيات ، وأنواع الأعلام الحربية مثل الشطفة ، والعصابة والصنحق . ومن المدن التي تكلم عنها كفر الزيات ، كفر الشيخ ، اللاهون ، المحلة الكبرى ، محلة روح ، المراغا ، مرصفا ، مغاغة ، ملوى ، مليج ، المنصورة ، منفلوط . وبالنسبة للمنصورة فقد أفاض في الكلام عن النهضة الصناعية التي شهدتها هذه المدينة في القرن التاسع عشر . أما منفلوط فقد أبرز معنى خاصا بها هو أنها كانت مسرحاً لحوادث القتل والشغب التي كان يلجأ إليها الأمراء المماليك في أواخر القرن الثامن عشر تحدياً لحكومة القاهرة واستخفافاً بالباشا العثماني .

ونشرالقصيدة المشهورة التي نظمها ابن اياس يرثى فيها حالة مصر بعد أن ضاع استقلالها وأضحى ولاية عثمانية واحتل أرضها جنود عثمانيون حلقوا الذقون يضعون على رءوسهم الطراوير ، ووصفهم بأنهم ليسوا على حظ موفور من الشجاعة لأنهم يعتمدون في الحرب على سلاح المدفعية ، وسجل في هذه القصيدة أعمال التخريب التي ارتكبها العثمانيون في أحياء القاهرة ومساجدها وتكدس جثث الموتى في الشوارع كأنها ذبائح عيد الأضحى . وانتقل على مبارك إلى الكلام عن موقعة عين شمس بين الفرنسيين والعمانيين وهزيمة الأخيرين (٢٠ مارس ١٨٠٠) وأفاض في الكلام عن ثورة القاهرة الثانية وهي الثورة العارمة التي قام بها الشعب ضد الفرنسيين واستطالت ثلاثة وثلاثين يوماً وذكر مراحل هذه الثورة ودور الزعماء والشعب فيها وقد استمد من الخبرتي المادة التاريخية عنها كما نقل عنه عدة حوادث تمثل المقاومة الشعبية في العصر العثماني وأوائل حكم محمد على ، وكان بعضها لعلماء الأزهر وقد وقفوا من الأمراء المماليك في كل حادث وقفة ثم عن الإباء والعزة والكرامة . ونقل عن الخبرتي أيضاً قصة وقعت في ربيع آخر ١٢٣٥ (١٧ يناير ١٨٢٠ - ١٤ فبراير ١٨٢٠) وهي تشبه في معظم عناصرها إلى حد بعيد حادث دنشواي (١٩٠٦) مع اختلاف النتائج في كل منها بطبيعة الحال (١) . وتكلم عن المحاولة التي قامت

إلى القاهرة وقابلوا وكيل محمد على واجتمع الألبانيون وأمرؤا على قتل الإنجليزي، وخشى الوكيل عاقبة هذا التصرف ، واقترح التريث حتى يستدعى القناصل ويعرض عليهم المسألة . ولكن استنكر الألبانيون تأخير قتل الإنجليزي وتعلق قتله على رأى القناصل، وطالبوا بقتله فوراً وتهدوا بنزولهم إلى حى الافرنج ونهب المساكن وقتل جميع من بها من الأجانب فلم يسع الوكيل إلا أن أمر بقتله فنزلوا به إلى الرميطة وقطعوا رأسه .

(١) قدم رجل انجليزي من الإسكندرية إلى قرية كفر حشاد بمركز تلا بمديرية المنوفية ليصطاد بها الحمام وصوب بندقيته نحو حمامة ولكن أصابت الطلقة أحد الفلاحين في ساقه . ورأى أحد الألبانيين هذا الحادث، وكان يمسك بيده هراوة غليظة فقال للإنجليزي : ألا تخشى أن يأتى إليك بعض الفلاحين ويضربوك على رأسك هكذا ؟ وأشار بما في يده إلى رأس الإنجليزي، إذ كان الألباني لا يتكلم الإنجليزية . فما كان من الإنجليزي إلا أن ضرب الألباني برصاصة صرخته في الحال . فاجتمع الفلاحون وقبضوا على الإنجليزي وسافروا به ومعهم القليل

وقد ذكر في هذا الجزء إحدى عشرة قرية تتكون أسماؤها من كلمات مركبة تبدأ الكلمة الأولى في كل منها باسم معصرة مثل معصرة اطفيح ومعصرة سمالوط ومعصرة عرفة وكلها عبارة عن قرى . كما ذكر اثنتين وثلاثين بلدة تبدأ أسماؤها المركبة بكلمة محلة مثل محلة روح ومحلة المرحوم . وحفل هذا الجزء بتراجم لعدد كبير من الشخصيات نذكر منها المسعودي المؤرخ العربي ، وابن الجباب وابن زولاق وعبد اللطيف البغدادي والشريف الرضي وعثمان بك البرديسي والشيخ محمد الدواخلي نقيب الأشراف ، والشيخ محمد الشناوي من كبار المتصوفة ، والشيخ صادومه وهو أزهري فاسق ماجن ، وحمدان ابن الأشعث مؤسس فرقة القرامطة ، والشريف الرضي وأخيه المرتضى ، والشيخ محمد القاضي المعروف بابن فخر القضاة المنفلوطي . وترجم أيضاً لطبيين عربيين برعا في الطب هما أبو بكر حامد بن سمجون وأبو القاسم عبيد الله بن عبد الله بن خرداذبة . كما ترجم لعدد وافر من علماء كل من المحلة الكبرى ومرصفا والمنصورة والمنزلة . وتضمن هذا الجزء البلاد التي تبدأ أسماؤها بحرف الكاف ثم اللام ثم الميم .

واستهل على مبارك الجزء السادس عشر بالكلام عن مدينة منف فشرح موقعها الجغرافي وتاريخها ومعناها ومقياس النيل الذي كان قائماً في منطقتها وتكلم عن عبادة أبيس عند قدماء المصريين وخاض بحثاً ضافياً عن أهرام مصر وعددها وأسماء بناتها وتاريخ إقامتها والأدوات التي استخدمت في بنائها وكيف تم تشييدها والأغراض التي استهدفها الفراعنة منها ثم المحاولات التي قام بها فريق من الملوك والحكام الأقدمين لدخول هرم الخيزة الأكبر بإحداث فجوة فيه . وتعرض للثلمة التي فتحها المأمون الخليفة العباسي في الهرم أثناء زيارته لمصر ومحاولة أحمد بن طولون فتح الهرم .

وانتقل من الكلام عن أهرام الخيزة إلى تمثال أبي الهول ويطلق على مبارك عليه «الصنم» ويلاحظ أنه استعمل نفس التسمية التي أطلقها المقرزي في خطه على «الصنم» (١) . ومن الموضوعات التي طرقتها المؤلف حمام الرسائل التي كانت تبعث به السلطات الحكومية في مصر في القرن السابع الهجري حاملة رسائل السلاطين وكبار رجال الدولة ، وقرر أن ميت عقبة بالخيزة كانت أول مراكز انطلاق الحمام الزاجل وقد بلغ عدده نحو ١٩٠٠ طائر ، ووصف طريقة حمل الرسالة تحت جناح الطائر . ومن الأبحاث الهامة التي وردت في هذا الجزء نظام القضاء في مصر إبان الحكم العثماني ، وإدخال عناصر عثمانية في القضاء المصري واستعلاء كبير القضاة العثماني على القضاة المصريين . كما تكلم المؤلف عن ظاهرة اجتماعية في العصر العثماني - أو في أوائله بتعبير أدق - هي منع النساء من الخروج إلى الأسواق خوفاً من اختلاط الجنود العثمانيين بهن وفقدانهم لياقتهم البدنية . وقد استثنيت من قرار المنع السيدات العجائز كما تقرر عدم السماح للسيدات بركوب الحمير وتقرير عقوبات رادعة على المخالفات لهذا القرار . وعلى المكارية الذين يسمحون بركوب السيدات على الحمير . ومن المصطلحات التي تناولها المؤلف بالشرح في هذا الجزء : الأورجي الأورور - الأشل ، الجريب . ومن المذن التي أرخ لها : منوف والمنيا وميت نمر وسمنود . ويمكن أن يطلق على هذا الجزء بحق الجزء الخاص بالبلاد التي تبدأ بكلمة « منية » فقد ذكر على مبارك مائة وواحداً وأربعين بلداً تبدأ أسماؤها المركبة بهذه الكلمة . ويلاحظ أن عدداً من هذه البلاد احتفظ بهذه النغمة دون تحوير أو تحريف ولا يزال يبدأ اسمها بها ، مثل منية الباسل ومنية الأشراف ومنية شنتنا عياش . وحدث في أسماء البعض الآخر تحريف

(١) المقرزي : أخطط طبعة الشياح - لبنان ثلاثة مجلدات المجلد الأول الجزء الثاني ص ٢١٦ - ٢١٨ .

إلى كلمة ميت مثل ميت نمر وميت رهينة وميت عقبة وميت القرشى وميت فارس وميت أبوغالاب وميت بره وميت حبيش القبلية وميت حبيش البحرية وميت يزيد ، كما حدث في أسماء البعض الثالث تحريف إلى كلمة منيا ، مثل منيا القمح وإن كانت تكتب أحياناً باسمها الأصلي منية القمح وأخيراً ، تخلصت تماماً بعض البلاد من لفظة منية مثل سمند . وقد ترجم المؤلف في هذا الجزء لعلى بك الكبير وأحمد باشا الوالى العثمانى الذى حاول الاستقلال بمصر سنة ٩٣٠ هـ (١٥٢٤) م ، والشيخ أحمد العروسى شيخ الجامع الأزهر ، وعبد الوهاب العففى ، وعقبة بن عامر ، وأحمد بن قاسم شيخ عرب الوجه البحرى ، وابن سنذر وقصته مع عمر بن الخطاب . ولم يشمل هذا الجزء سوى أسماء البلاد التى تبدأ أسماؤها بحرف الميم .

وفي الجزء السابع عشر من الخطط التوفيقية تكلم عن الواحات المصرية في غرب النيل وعددها وأسمائها والبلاد والقرى التابعة لكل منها وما يتصل بتاريخها من أحداث وأساطير وطرق المواصلات بينها وبين وادى النيل ومواردها الاقتصادية وعادات سكانها والامتيازات المقررة لهم كإعفائهم من السخرة والتجنيد وشرح واجباتهم إزاء الحكومة وتلخص في تقديم الإبل عند الحاجة وحراسة الدروب ، واستطرد إلى الكلام عن معدن أو حجر الشب ومواطن استخراجها في مصر وفوائده والرسوم المقررة عليه أيام دولة المماليك وطرق تصديره . وتكلم عن القبائل العربية النازلة بين الواحات ووادى النيل وتحديد منطقة كل منها ، وقد قرن المادة العلمية عن الواحات بمعلومات طريفة للغاية عن بعض بلاد الواحات ، ووصف الرحلة من القسطنطينية إلى الواحة الخارجة ثم إلى دارفور ، وقد استقى على مبارك هذه المعلومات من رحلة قام بها

الشيخ محمد بن عمر التونسى وسجل أحداثها في كتاب وضعه باسم « تشحيد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان » . وانتقل على مبارك إلى وصف الآثار والقرى الواقعة في المنطقة الممتدة من أسوان إلى وادى حلفا وتعرض لمعبدى كلبشة وأبي سمبل ثم تتبع الطريق من وادى حلفا إلى دارفور والمدن التى تقع على هذا الطريق والبعثة التى أوفدها الحكومة المصرية في سنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦) م من المهندسين والأطباء والعسكريين لاستكشاف أقرب طريق إلى تلك الجهة تمهيدا لإنشاء ما يلزم فيها من محطات ، وتكلم عن التكوين الجغرافى لسكان بلاد النوبة وعادات العرب الذين يسافرون في القوافل التى كانت تسير بين شطرى الوادى ، وتكلم عن بعض الأديرة وانتقل منها إلى غزو الفرس لمصر ثم إلى صناعة النظرون ومواطن استخراجها في مصر ، واعتمد في ذكر المادة العلمية على ما كتبه علماء الحملة الفرنسية في مصر عن وادى النظرون وصناعته والطريق من وادى النظرون إلى الطرانة . وتكلم عن مشروعات إيصال نهر النيل بالبحر الأحمر لايجاد طريق مائى تسير فيه السفن من منف وغيرها من بلاد الصعيد إلى البحر الأحمر مباشرة ، ومن البحوث الطريفة التى جاءت في هذا الجزء عادة الفراعنة في ذبح الثيران التى تقدم قرابين لألهتهم ، وأبرز حرص المصريين على أن يكون الثور خاليا من الشعر الأسود أو الأبيض احتراماً للعجل أبيض الذى كان يتميز ببقع سوداء وبضياء ، وذكر معلومات إجتماعية ودينية طريفة للغاية في موضوع تقاليد المصريين إزاء الثيران والعجول ، واستطرد إلى براهمة الهنود الذين يمتنعون عن أكل لحم البقر . وفي هذا الجزء نشر المؤلف وثيقة الوقفية التى أوقف فيها السلطان مراد الرابع سنة ١٠٣٦ هـ (١٦٢٦)

حتى القرن التاسع عشر الميلادي . وقد قدم له بالكلام عن أهمية قياس درجة فيضان النيل في كل سنة ، لأن القياس هو القاعدة في ربط الضرائب وتوزيعها على البلاد على أساس أن الفلاحين لا يستطيعون زراعة الأرض وبالتالي الحصول على الإنتاج الزراعي الا اذا سقيت الأرض بماء النيل . وانتقل إلى المقياس التي استخدمت أيام قدماء المصريين في قياس ارتفاع الفيضان : وكيف كانت آلة القياس تودع في معبد أطلق عليه اسم سيرابيس أي معبد النيل ، وكان كهنة هذا المعبد هم المخصصون لاستعمال آلة القياس . وتظهر في الخطط التوفيقية للمرة الأولى والأخيرة رسوم هي أشكال المقياس المختلفة وقد نقلها عن الرسوم الموجودة على الآثار المصرية ومما ذكره هيرودوت . ثم تكلم عن المقياس في مدة حكم الفرس والبطلمة والرومان وانتقل إلى العصر الإسلامي ، وأسهب في الكلام عن المقياس على عهد الخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين وعملات ترميمه أو إعادة بنائه في عهود الحكم الإسلامي وواصل الحديث عن المقياس زمن الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين والفرنسيين وحكم أسرة محمد علي . وتكلم عن جزيرة الروضة ومساجدها ودورها ، وكتب فصلا عن جبر البحر وهو فصل ممتع أوضح فيه عناية المصريين البالغة باحتفالات وفاء النيل على مدار العصور ، وأشار إلى العادة التي درج عليها المصريون من إلقاء عروس في النيل وكيف أبطلها الإسلام عند دخول العرب مصر ثم وصف عيد الشهيد عند المسيحيين في اليوم الثامن من شهر بشنس القبطي وهو وصف لا يخلو من طرافة ، وعاد يصف الاحتفالات بوفاء النيل أيام الفاطميين وتدرج على مر العصور والأحقاب حتى وصل إلى سنة ١٢٩١هـ (١٨٧٤م) ، وذكر المرتبات التي قررتها الحكومة

قرية وراق الحضرم شمال انبابة بالجيزة على الحرمين الشريفين . ومن البلاد التي أرخ لها في هذا الجزء : نبروه وتكلم عن مدرسة الزراعة التي انشئت بها في النصف الأول من القرن التاسع عشر كما أرخ لبلاد أخرى منها ههيا ودنقلة والفاشر ودارفور . ومن تراجم الشخصيات : الشيخ محمد النشرفي شيخ الجامع الأزهر والشيخ محمد المهدي وبعض ذويه والشيخ حسونة النواوي والشيخ محمد اسماعيل النفاوي والشيخ شهاب الدين احمد عبد الوهاب النويري مؤلف كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب ، وعرض على مبارك عرضا سريعا لأجزاء هذا الكتاب ، كما ترجم لوالد مؤلفه الشيخ تاج الدين النويري والشيخ محمد عمر التونسي .

وقد أنبى على مبارك عرض البلاد المصرية في الجزء السابع عشر بقرية اليهودية إحدى قرى مديرية البحيرة وترجم لأحد علمائها وهو الشيخ احمد برغوث بالعبارة التقليدية التي درج عليها الجبرتي وغيره «قدم الأزهر وتفقه على مشايخ العصر ومهر في المعقول والمنقول وتصدى للتدريس وانتفعت به الطلبة» ثم يختتم هذه الخطط عن البلاد المصرية بقوله «اعلم أن الكلام على خطط القاهرة من المهمات التي اعتنى بها أفاضل العلماء والمؤرخين ورؤساؤهم قديما» وقال إن الخطط جمع خطة بمعنى محلة أو بلد لانه يخطط عند التحديد . واستعرض مؤلفي كتب الخطط من المؤرخين العرب ، فقال إن أولهم أبو عمر محمد بن يوسف الكندي . وتابع أسماء زملائه الذين كتبوا في الخطط حتى انتهى إلى المقريري .

وأفرد على مبارك الجزء الثامن عشر من الخطط التوفيقية للحديث عن مقياس النيل منذ عصور الفراعنة

بين الحكومة المصرية وشركة القناة وتحكيم نابليون الثالث امبراطور فرنسا ، وأسهب في وصف حفلات افتتاح القناة وعناية الخديو اسماعيل الفاتحة بأوجيني امبراطورة فرنسا . ويستفاد من كتابته عن تاريخ قناة السويس أنه كان ناقما على سياسة التساهل التي درجت عليها الحكومة المصرية إزاء شركة القناة ، كما كان ساخطا على مظاهر البذخ الشديد في حفلات افتتاح القناة ، وقد قال تعليقا عليها إنها تكلفت أكثر من مليون ونصف مليون جنيه وقرر أن هذا المبلغ يعادل سدس إيراد الحكومة المصرية في سنة كاملة .

* * *

وأفرد الجزء التاسع عشر من الخطط التوفيقية لترع النيل ورياحاته ومنشآت الري في الوجهين البحري والقبلي . وقد قدم له باعتذار قال فيه إنه سجل في هذا الجزء ما كان موجودا في مصر من ترع ومنشآت وقت قيامه بتأليف الخطط التوفيقية سنة ١٢٩٢ هـ (١٨٧٥ م) ثم استدرك قائلا إنه « لا ينبغي أنه تجدد بعد ذلك أشياء آخر غير ما ذكر ، وبطلت أشياء ، فسبحان من لا يتغير » وقد بدأ بالكلام عن رياح وروضة البحرين ، وانتقل الى باقي الرياحات والترع فكان يتكلم عن مسار كل ترعة من مخرجها إلى مصبها أو نقطة تلاشيها ثم طولها وعرضها وارتفاع المياه فيها زمن الفيضان وزمن التحريق ، وأسماها البلاد والنواحي والكفور والنجوع التي تمر بها والمديريات التي تروى أراضيها ، وعمما إذا كانت ترعة نبيلية أو صيفية وتاريخ تحويلها إلى صيفية ، وعمما إذا كانت قديمة أو مستحدثة وتاريخ إنشائها ، وعدد العمال الذين اشتغلوا في حفرها ، ومقدار الانقراض التي تخلفت عن حفرها ، والقناطر المقامة عليها وعدد عيونها وهل هي مبنية بالطوب الأحمر أو بالحجر . ثم لا يقصر كلامه على

المصرية لشيخ المقياس ، ثم أورد جدولا سجل فيه الحد الأعلى الذي بلغه منسوب مياه الفيضان ارتفاعا والحد الأدنى هبوطا منذ أن فتح العرب مصر سنة ٢٠ هـ حتى عزل الخديو اسماعيل سنة ١٢٩٦ هـ (٦٤٠-١٨٧٩ م) وقد استغرق هذا الجدول أربعاً وسبعين صفحة من الخطط التوفيقية . وختم بحثه عن المقياس بذكر حادثين وقعا سنة ١٨٨٧ كان أولهما العثور في بئر المقياس على حجر من الرخام من عهد الحملة الفرنسية ومنقوش على أحد وجهيه باللغة الفرنسية « السنة الثامنة عشرة من الجمهورية » وعلى الوجه الآخر باللغة العربية التاريخ الهجري ١٢١٥ وهو يوافق سنة ١٨٠٠ . أما الحادث الثاني فهو عمل مقياس مرمى على حائط الرصيف الشرقي لسراى حسن باشا المانسترلى في زاوية السلم القريب جدا من المقياس الأصلي . واختتم على مبارك هذا الجزء بعدة بحوث ، نذكر منها : التغيرات التي حدثت في شاطئ النيل في منطقة القاهرة إذ كانت هناك مناطق من العاصمة ذكر أسماءها كانت تطل على النيل مباشرة ثم أصبحت بعيدة عنه وخلص من ذلك إلى القول بأن النيل أخذ في الانتقال نحو الغرب مخلفاً أرضاً كانت مغمورة به ، ومن البحوث الأخرى ما يتعلق بخليج أمير المؤمنين فقد أتى على تاريخه منذ أيام الفراعنة والفرس والرومان وكيف أعاد عمرو ابن العاص حفر هذه التربة في عام الرمادة على عهد الخليفة عمر بن الخطاب وتكلم عن مسار التربة من القاهرة حتى مصبها في البحر الأحمر والقناطر التي انشئت عليها في منطقة القاهرة . وأخيرا وضع بحثا مستفيضا عن تاريخ قناة السويس وركز اهتمامه على التاريخ الحديث منذ عهد الوالى محمد سعيد باشا وتكلم عن عقدى الامتياز التي ظفر بها دى لسبس والشروع في حفر القناة سنة ١٨٥٩ ثم استعرض مراحل النزاع

هذه البيانات أو التفصيلات بل يقرنها بالكلام عن آلات الري ويسميتها «الوابورات» التي أقيمت على كل ترعة وعددها ونوعها سواء كانت آلات ثابتة ويسميتها «ثوابت» أو متحركة ويطلق عليها «كوموبيل» وقوة كل منها مقدرة بالحصان وأسماء أصحابها . ويلاحظ من دراسة هذه الأسماء أن غالبية أصحاب الآلات كانوا من الأجانب والتمصرين واليهود وأفراد أسرة محمد علي وأصهارهم وكبار الملاك الزراعيين مثل عائلات ذو الفقار باشا وشريف باشا وراتب باشا والمنشاوي باشا وراغب باشا والشواربي باشا وعباس باشا يكن وأحمد باشا الدرغلي والبدرأوى عاشور . وتعكس دراسة هذه الأسماء صورة اجتماعية اقتصادية قائمة هي أن الملكية الزراعية في مصر منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر كانت مركزة في يد حفنة من الأجانب والأمراء والباشوات . ومما يلاحظ أن على مبارك كان يطلق على نهر النيل اسم البحر الأعظم وعلى فرع دمياط البحر الأعظم الشرقى وعلى فرع رشيد البحر الأعظم الغربى . وفي تعرضه لترعة الوادى أطلق على شركة قناة السويس عبارة « كباينة الكنال » .

* * *

أما الجزء العشرون فقد خصصه المؤلف للكلام عن العملة وتطورها . فنتبع تاريخ العملة التي كانت متداولة في مصر منذ الفتح العربى على مر العصور التاريخية ثم انتقل إلى شكل النقود وقطر كل قطعة ذهبية أو فضية مقدرًا بالمليمترات ، وعقد فصلا طويلا عن الصور والكتابة التي كانت ترسم وتنقش على النقود الإسلامية وأول من ضرب النقود في الإسلام ، وكيفية نقش التاريخ على العملة ثم عرج على العادة التي كانت متبعة من نقش الأدعية وأسماء

هذا الجدول عشر صفحات كوامل . واختتم هذا الجزء الأخير من الخطط التوفيقية ببحث رائع ضاف يقع في خمس وثلاثين صفحة تناول فيه القوة الشرائية للنفود في مصر عبر اثني عشر قرنا في مختلف عهود الحكم الاسلامي من سنة ٨٧ هـ حتى ١٢٨٦ (٧٠٦ - ١٨٧٠) م واستعرض في نظام رتيب فقرات الغلاء التي مرت بالبلاد وأزمات التموين في المواد الغذائية وكيف كان عنف المحامات عاملا في دفع الشعب إلى الثورة على الحكام . وكان يعتمد إلى الدراسة المقارنة لأسعار مواد التموين في أوقات الرخاء وفي أوقات الشدة ، وتكلم عن تدفق العملات الاجنبية على مصر في القرن التاسع عشر والعملات الذهبية والفضية التي ضربت في حكم إسماعيل وكيف جعل عيار الذهب واحدا وعشرين قيراطا . والحق أن هذا البحث يعتبر من أهم البحوث التي جاءت في الخطط التوفيقية ويعتبر مسك الختام . وقد اختتم على مبارك الخطط التوفيقية بهذه العبارات التي تم عن سمات الرجل العالم المتواضع المتدين فقال « وإلى هنا وقف بنا جواد القلم في مضمار البيان ، وإنا نسأله سبحانه وتعالى أن يجعل سعينا مشكورا ، وعملنا متقبلا مبرورا ، وأن ينفع بهذا الكتاب النفع العميم ، ويجعله سببا للفوز لديه بجنت النعيم . والمرجو ممن اطلع عليه من كل حر حسن خيمه وطاب أديمه أن يسبل على مايعثر عليه من الهفوات جميل الأستار ، فقلما يسلم جواد من عثار ، سيما والإنسان محل الخطأ والنسيان . والحمد لله على التمام ، والصلاة والسلام على من هو للأنبياء والمرسلين ختام ، وعلى آله وصحبه كلما ذكره الذاكرون وغفل عن ذكره الغافلون » .

مصادر ومراجع الخطط التوفيقية

تقلد على مبارك عديد المناصب الوزارية على عهد

الخدوي إسماعيل ثم الخديو توفيق فعين ، على فقرات متصلة حيناً ومقاربة حيناً آخر ومتباعدة حيناً ثالثاً ، وزيرا للأشغال والأوقاف والمعارف كما تقلد الإدارة العامة لمصلحة السكك الحديدية . ولا شك أنه استفاد من وجوده وزيرا في هذه الوزارات فرجع إلى محفوظات كل وزارة واستقى منها المادة العلمية اللازمة في إعداد الكثير من الأبحاث التي وردت في الخطط التوفيقية . وحسبنا أن نذكر هنا على سبيل المثال أن الجزء التاسع عشر يحوى تفصيلات ضافية فنية عن ترع النيل ورياحاته ومنشآت الري . ولا يستطيع باحث أن يكتب بمثل هذه الإفاضة والدقة والإحصائيات عن شبكة الترع الموجودة في مصر إلا إذا كانت سجلات وزارة الأشغال مسيرة أمامه يستقى منها المادة العلمية . ويكنى أيضا أن نشير إلى أنه ذكر ثلاثة وعشرين فرعا تخرج من ترعة الحمودية وخاض في تفاصيل فنية هندسية عنها . وقس على ذلك سجلات وزارة الأوقاف حيث توجد الوثائق والحجج التي أوقف فيها حكام مصر وغيرهم من أهل الخير الأراضي الزراعية وغيرها من العقارات على المساجد والزوايا والأسبلة والتكايا والحرمين الشريفين في مكة والمدينة . كما استمد من سجلات وزارة المعارف المادة الغزيرة عن المدارس وما يتصل بها . واستفاد من وجوده مديرا عاما للسكك الحديدية فرجع إلى الأوراق الرسمية عند كتابته عن الشبكة الحديدية في مصر . وعلى هذا فإن المصدر الأول للخطط التوفيقية كان الوثائق والأوراق الرسمية الموجودة في وزارات الأشغال والأوقاف والمعارف ومصلحة السكك الحديدية وغيرها من دواوين الحكومة .

وعلى مبارك يجيد اللغة الفرنسية وقد تعلمها اثناء

وجوده في فرنسا عضوا في بعثة الأنجال واستغل

الأجانب الذين كتبوا فيه قديما أو حديثا أو قاموا بأعمال البحث والتنقيب في الآثار المصرية في القرن التاسع عشر ونذكر من هؤلاء واولئك على سبيل المثال هيرودوت (١) وديودور الصقلي وسترابون (٢) وماربييت (٣) وشانليون (٤) .

وفي الخطط التوفيقية تبرز سمات مؤلفها فاذا هي صفات الرجل العالم الذي يتميز بالأمانة العلمية وبنأى بنفسه عن مواطن أو شبهات السرقة الأدبية بمصطلح الوقت الحاضر الذي نعيش فيه - فهو حريص دائما على أن يذكر اسم المصدر أو المرجع الذي أخذ عنه . وكان يذكر أحيانا اسم الكتاب فقط وحيانا اخرى اسم مؤلفه وحيانا قليلة يجمع بين اسم الكتاب واسم المؤلف وحيانا لا يذكر اسم الكتاب كاملا . ومن مظاهر الأمانة العلمية التي تميز بها على مبارك في الخطط التوفيقية أنه قرر قبل ان يتكلم عن تاريخ الكنائس والأديرة المصرية ويؤرخ للبطاركة الأقباط الارثوذكس منذ سنة ١٢٦٢ م حتى سنة ١٨٧٥ انه اعتمد في جمع المادة العلمية على « أكابر القسس الشهيرة بمصر » (٥) كما سجل أنه استفاد من الأبحاث التي قام بها العالم المصري محمود الفلكي عن جدران أسوار الإسكندرية (٦) .

ومن المراجع الرئيسية التي استقت منها الخطط التوفيقية مادتها العلمية مؤلفات المقريزي وهي الخطط ، ودرر العقود الفريدة في تراجم الاعيان المفيدة (ج ٨ ص ١٧) ، والبيان والإعراب فيمن دخل مصر من

معرفته بالفرنسية في الرجوع الى الموسوعة التي وضعها علماء الحملة الفرنسية عن مصر في عشرين جزءا باسم « وصف مصر » (١) ويطلق عليها على مبارك حينها « خطط فرنساوية » (٢) وحينها آخر « خطط مصر لفرنساوية » (٣) وكأنه يريد أن يؤكد إجادته للغة الفرنسية فلا يعتمد على هذه الموسوعة الفرنسية فحسب بل يعتمد على الترجمة الفرنسية التي قام بها المستشرق الفرنسي كاترمير Etienne Quatremère لكتاب المقريزي « السلوك لمعرفة دول الملوك » فكثيرا ما يصادف الباحث في الخطط التوفيقية هذه العبارة « نقله كترمير عن كتاب السلوك » واعتمد ايضا على بحوث المستشرق الفرنسي دى ساسي de Sacy . كما استغل معرفته باللغة الفرنسية في الرجوع إلى كتب الرحالة الأوربيين الذين زاروا مصر في القرنين السابع عشر والثامن عشر مثل فانسلب Vansleb الذي زار مصر سنة ١٦٧٢ (٤) والرحالة سافاري Savarri ويسميه على مبارك « سوارى السواح فرنساوى » (٥) واعتمد على رحلة « ولين فرنساوى » (٦) ورجع الى كتاب كلوت بك ويسميه قولوط بك (٧) ، والى قاموس الجغرافية الافرنجى ومنه استمد المادة العلمية لتراجم الشخصيات الأجنبية التي يتصل نشاطها بتاريخ مصر . وفي كتابة تاريخ مصر القديم رجع الى كتب العلماء

1) Description de l'Egypte ou Recueil des Observations et des Recherches qui ont été faites en Egypte pendant l'Expédition de l'Armée française publié par les ordres de S.M. L'Empereur Napoléon le Grand. Paris. Imprimerie impériale (1809 — 1822).

(١) ج ٩ ص ٦٤ .

(٢) ج ٧ ص ٢٧ ، ج ٩ ص ٦٧ .

(٣) ج ١٤ ص ٣٨ ، ٣٩ .

(٤) ج ٨ ص ٣١ .

(٥) ج ٦ ص ٧٢ .

(٦) ج ٧ ص ٣٥ .

(٢) ج ٧ ص ٤٣ .

(٣) ج ٢٠ ص ٤ .

(٤) ج ١٥ ص ٥٠ .

(٥) ج ١١ ص ٧٥ .

(٦) ج ٧ ص ١٦ .

(٧) ج ٧ ص ٥٠ .

الأسماء واللغات (ج ٥ ص ٥٦) والشهاب بن أبي جحلة التلمساني (ج ٥ ص ٥٦) وشمس الدين السخاوي : الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع ، وعماد الدين شاهنشاہ : تقويم البلدان (ج ١٠ ص ١٦) وعماد الدين الاصفهاني : تاريخ السلجوقية (ج ٩ ص ٣٥) وتاريخ فتح المقدس (ج ١٠ ص ٣٨) وعلى أبي جابر الاتباي : مناهل الصفا باتصال نسب السادات الوفاية بالمصطفى (ج ٣ ص) ومحمد بن عمر التونسي : تشييد الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان (ج ١٧ ص ٣٣) ومحمد عبد المعطى الاسحاقى : أخبار الدول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول (ج ٤ ص ١١١) وحسن العدوى : مشارق الأنوار (ج ٥ ص ١٠) ولسان الدين بن الخطيب : الاحاطة بما تيسر من تاريخ غرناطة ومؤلفات عبد الوهاب الشعراني وجلال الدين السيوطى والواقدي ويضاف إلى تلك المراجع كتب : ديوان الانشاء ودرر القرائد المنظمة في أخبار الحج وطريق مكة المعظمة (ج ١٤ ص ٨ ، ٥٢ ، ٥٤) وغير ذلك كثير كما رجع إلى كتاب الاحصاءات المصرية لسنة ١٨٧٢ واستقى منه الكثير من معالم تاريخ مصر الحديث . ولا يسع دارس الخطط التوفيقية إلا أن يدرك الجهود الضخم الذى بذله على مبارك فى وضع هذه الموسوعة .

تقييم الخطط التوفيقية :

نهجت الخطط التوفيقية نهجا علميا إذ استقت مادتها العلمية من المصادر والمراجع القديمة والحديثة ، العربية وغير العربية ، ونصت على اسمائها وقد ظهر فيها واضحا أثر الثقافتين العربية والفرنسية اللتين امتاز بهما المؤلف . وفى الخطط التوفيقية محاولة رائدة لإعادة كتابة تاريخ مصر القومى من جديد . والحق أن الخطط التوفيقية قد أضافت إلى تاريخ مصر القومى فى فرعى

الأعراب (ج ١٢ ص ١٠٥) والترجمة الفرنسية لكتاب السلوك والتي سبقت الإشارة إليها ، وابن اياس فى «بدائع الزهور فى وقائع الدهور» وكذلك الجبرتى فى «عجائب الآثار» .

ولا نستطيع فى هذا البحث المحدود النطاق ان نستعرض جميع مراجع الخطط التوفيقية ويكفى ان نذكر بعضا منها : ابن جزلة خواص : منهاج البيان فيما يستعمله الإنسان من الأدوية المفردة والمركبة (ج ٨ ص ٢٠) ، ابن خرداذبه : المسالك والممالك (ج ٩ ص ٧٠) ، ابن العوام : كتاب الزراعة (ج ٩ ص ٨٥) ابن زولاق : سيرة الإمام المعز لدين الله (ج ١٥ ص ٥٦) ، ابن عباد : المفاخر العلية فى المآثر الشاذلية (ج ١٤ ص ٥٧) وابن بطوطة فى رحلته ، وابن جبير فى رحلته : ذكر مشاهد بعض أصحاب النبي والتابعين بقرافة مصر ، ورحلة التابلسي ، وابن خلكان : وفيات الأعيان ، وابن أبي السرور البكرى : قطف الأزهار من الخطط والآثار ، وابن دقماق ، وابن المتوج ، وابن كثير ، وابن الصباغ : فضائل الأئمة (ج ٥ ص ١٦) وابن الطولونى : التزهة السنوية فى اخبار الخلفاء والملوك المصرية ، وابو عبد الله محمد ابن عبد الرحمن القيسى : تحفة الألباب (ج ١٦ ص ٢) وأبو المحاسن : المنهل الصافى والمستوفى بعد الوافى (ج ٩ ص ٦٩) وأبو الفداء (ج ١١ ص ٢٢) وابراهيم بن عامر العبيدى : قلائد العقيان فى مفاخر آل عثمان (ج ٦ ص ٣٤) وج ١٠ ص ١٠٢) والشيخ الصبان : اسعاف الراغبين فى أهل البيت (ج ٥ ص ٦ ، ٢٢) والنجم الغزى : الكواكب السائرة (ج ٥ ص ١٧) والاسحاقى : تزهة الناظرين (ج ٥ ص ١٩) والمحجى : خلاصة الأثر (ج ٦ ص ٣٧) والإدريسى : تزهة المشتاق (ج ٨ ص ٩٥) والنوى : تهذيب

الحديدية وأسلاك البرق التي مدت في طول البلاد وعرضها والمنائر التي أقيمت على الشواطئ المصرية لهداية السفن وإنشاء الحوض العائم في ميناء الاسكندرية ومشروع الطريق البري ثم انشاء قناة السويس إلى غير ذلك من مظاهر استعراضنا طرفا منها من قبل . وقد شارك على مبارك في تنفيذ بعض هذه المشروعات أو عاصرها أو كان قريب العهد بها فكتابته عنها لها قيمتها ولها وزنها . ثم هو يضيف إلى التاريخ الحديث تراجم للشخصيات المصرية . ويمكن أن نقسم هذه الشخصيات إلى فريقين : فريق عاش في الفترة من وفاة المتمرزي سنة ١٤٤٢ حتى أوائل حكم محمد علي . وقد استقى تاريخ حياتهم من ابن اياس وابن زنبيل والجبرتي وغيرهم . أما الفريق الثاني فقد عاشوا في القرن التاسع عشر وتقلدوا المناصب القيادية في الحكومة . وكانت الخطط التوفيقية أول من ترجمت لهم لأنهم كانوا رفاق المؤلف في الدراسة في مصر أو في فرنسا أو في زمالة العمل الحكومي . وكانت ترجمته لهم في ضوء معلوماته عنهم واتصاله بهم . وكان إذا أعوزته المادة التاريخية الكافية لوضع ترجمة أحدهم فإنه كان يطلب منه أن يكتب له ترجمة حياته بنفسه .

والخطط التوفيقية في تعرضها لتاريخ مصر القومي لم تقتصر على الجانب الاسلامي فقط ، بل شملت الجانب القبطي أيضا فأرخت للكنيسة القبطية الأرثوذكسية ولبطاركة الكرازة المرقسية وترجمت لكبار الأقباط وأعيانهم . وحرصت على ذكر الكنائس والأديرة القائمة في مصر . وبجانب اهتمام الخطط التوفيقية بتاريخ مصر القومي فقد عنيت بالتاريخ الإسلامي العام .

لقد كانت الخطط التوفيقية من العوامل التي أسهمت في نشر الوعي التاريخي في مصر في أواخر القرن التاسع عشر وساعدت على إيجاد الحاسة التاريخية

التاريخ القديم والحديث مادة علمية جديدة . ففما يختص بالتاريخ القديم استفاد على مبارك من نتائج الكشوف الأثرية التي أجريت في مصر في القرن التاسع عشر وما كتبه العلماء الاوربيون عن التاريخ الفرعوني . وكانت الكتب العربية التي وضعت في العصر الاسلامي إذا تعرضت لتاريخ مصر القديم نجسته حقه لعدة أسباب منها جهل المؤلفين بحقائقه إذ كانوا لا يعرفون عنه إلا خليطا من الأوهام ، ولأن العصور القديمة والموغلة في القدم كانت لا تمثل في أذهان المؤرخين المسلمين سوى الوثنية القائمة على عبادة الأصنام وأن فراغة مصر لم يكونوا حكاما مثاليين . يقول على مبارك عن التطور الذي طرأ على الدراسات التاريخية لمصر الفرعونية « إن أكثر الآثار القديمة كالأهرام والبرابي وغيرها مما بقي من أعمال الأمم الماضية والقرون الخالية لم يكن الغرض من ذكرها إلا كونها من عجائب الدنيا . ومعلوم أن الكتابة الطبرية المعروفة بالهيروجليفيه لم تنكشف حقيقتها إلا في هذا القرن ، فقد وقف الأفرنج على حقائقها من الكتابات الباقية على جدران الآثار المصرية والمباني الفرعونية ، وأخذوا مجدين اليوم في توسيع دائرة علمها ، فالتزمت أن أطالع ما كتب بخصوص تلك الآثار وألخص ما فيه الفائدة من غير إطالة ولا إكثار » (١) وهكذا حملت الخطط التوفيقية إلى قراء العربية معلومات صحيحة وجديدة عن تاريخ مصر القديم .

أما فيما يختص بتاريخ مصر الحديث فقد جاءت الخطط التوفيقية سجلا حافلا لمظاهر الحضارة التي أدخلت في مصر في القرن التاسع عشر مثل التوسع الزراعي ومحاولة إدخال الصناعات الكبيرة في البلاد وإنشاء القوات المسلحة البرية والبحرية والشبكة

والنقوش ، فهذه قل من استعمالها من قبل . وإذا كانت خطط المقريري قد أفادت من الوثائق والنقوش فإن الخطط التوفيقية قد خطت خطوات واسعة في هذا المضمار فهي تزخر بالكثير من الوثائق التاريخية وحجج الأوقاف والإحصائيات كما أنها تضم جزءاً قائماً بذاته عن النميات هو الجزء العشرون .

وابتعدت الخطط التوفيقية عن العبارات المسجعة وعمدت إلى الأسلوب السهل المرسل ولم تشذ عن هذه القاعدة إلا في مقدمة الخطط وفي الفقرة التي أنهى بها هذه الموسوعة . وإذا كانت الخطط التوفيقية قد سارت على نهج خطط المقريري حتى ليعتبرها البعض تكملة وتجديداً لها إلا أنها جاءت أكثر شمولاً وعمقاً وإحاطة بجميع المدن والقرى المصرية القديمة والحديثة، كما أنها لم تهمل الجانب السياسي فقط ولكنها أرخت للنواحي الحضارية والاجتماعية والاقتصادية ...

وقد استغرق وضع الخطط التوفيقية بضعة عشر عاماً ، فقد طبعت سنة ١٣٠٦ هـ (٦ سبتمبر ١٨٨٨ - ٢٧ أغسطس ١٨٨٩) أثناء توليه وزارة المعارف في وزارة رياض باشا الثانية) ، وقد ظلت في الحكم من يونيو ١٨٨٨ حتى ١٢ مايو ١٨٩١ . ولا يتبادر إلى الذهن أنه وضع هذه الموسوعة أثناء توليه الوزارة فلاشك أنه أنفق في وضعها بضعة عشر عاماً ونستدل على ذلك من عدة أدلة جاءت في سياق كتابته فمن ذلك أنه تعرض لتطور الحفلات التي أبدع المصريون في إقامتها احتفاءً بوفاء النيل منذ أقدم الأزمنة إلى عهد أسرة محمد علي ثم قال « وهاك شرح الحارثي الآن يعني سنة إحدى وتسعين ومائتين وألف هلالية » (١)

لدى المثقفين ودفعتهم إلى العناية بالتاريخ كعلم بوجه عام وتاريخ مصر في عصورها المختلفة بوجه خاص . وتأسيساً على ما سبق نستطيع أن نقرر أن هذه الموسوعة قد ساعدت على تغذية الروح القومية وأدرك الشعب أن الحضارة المصرية هي أم الحضارات وأن له أعجادا يزهو بها في ميادين العلم والهندسة والفن والثقافة . والحديد في الخطط التوفيقية هو روح الفحص والتقد والمناقشة عند كتابة تاريخ مصر القومي . ويكفي أن نشير هنا إلى موقفين على سبيل المثال . فقد نعت الخطط التوفيقية على الحكومة المصرية تساهلها إزاء شركة قناة السويس حتى ظفرت بامتيازات مجحفة بحقوق البلاد ، كما أنها انتقدت التبذير الشديد في حفلات افتتاح القناة حتى بلغت نفقات الاحتفال سدس إيراد الحكومة المصرية في السنة . أما الموقف الثاني فقد ناقشت الخطط التوفيقية ما جاء في كتاب عجائب الآثار للجبرتي خاصة بالعلاقة التي كانت تربط الفرنسيين بزینب بنت السيد خليل البكري نقيب الأشراف أيام الحملة الفرنسية . وعلى الرغم من أن كتاب عجائب الآثار استخدم عبارة مهذبة جاء فيها أن زينب كانت «من تبرج مع الفرنسيين (١) ولم يذكر تفاصيل خارجة عن التقاليد كما فعل نقولا الترك في مذكراته ، فقد ناقشت الخطط هذا الموضوع وقالت « ولا التفتت لما قاله الجبرتي مما لايناسب شرف هذا البيت العالي المقدار ، سيما والأحوال الحارية في أوقات النتن لا يوقف لها على قرار ، ولا تعلم لها حقيقة ، ولا يوصل لها إلى أصل صحيح » (٢)

واعتمدت الخطط التوفيقية على العلوم المساعدة لتفسير التاريخ وفهمه مثل الوثائق والنميات والآثار

(١) الجبرتي ج ٣ ص ١٩٢ .

(٢) الخطط ج ٣ ص ١١٣ .

ووقعت هذه السنة الهجرية في الفترة التي بدأت من ١٨ فبراير ١٨٧٤ وانتهت في ٦ فبراير ١٨٧٥ ولنا على الخطط التوفيقية مأخذان هما التكرار والاستطراد. أما التكرار فقد كان يتناول موضوعاً بالبحث ثم يعود إليه فيذكره مطولاً أو مقتضباً في جزء آخر من الأجزاء العشرين التي تتكون منها هذه الموسوعة. ومثل هذا التكرار لا يلحظه القارئ العادي ولكن يلحظه ويسجله الفاحص الباحث. ولئن قيل إن الضرورة هي التي دعت المؤلف إلى العودة إلى موضوع سبق بحثه فقد كان يكفيه أن يحيل القارئ إليه ويتجنب التكرار. وقد وقع هذا التكرار عند ذكر بعض الحوادث وتراجم الشخصيات وفي الأزمان السياسية وتفسير بعض المصطلحات التاريخية. نذكر من صور التكرار حادث العترة المشهورة التي اتخذها كبير خدم مسجد السيدة نفيسة أداة للدجل والإثراء (ج ٥ ص ١٣٧، ج ٨ ص ٥٢-٥٣) وإنشاء دار الكتب المصرية ج ٣ ص ١٤ وح ٩ ص ٥١) وترجمة ذى النون المصرى وهو من صوفية القرن الثالث الهجرى (ج ٥ ص ٥٧-٥٨، ج ٨ ص ٣٩-٤٠) والأمير عبد الرحمن كتحدا وعمائره (ج ٤ ص ١٢-١٣، ج ٥ ص ١١٦-١١٨ وح ٨ ص ٥٣-٥٤) والأمير محمد بك الألقى الكبير (ج ٣ ص ١٠٣، ج ١١ ص ٢٧-٣٤) والموقف السياسى الدقيق فى مصر عقب وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب (ج ٧ ص ٢٥، ج ١١ ص ٤٣-٤٦، ج ١٢ ص ١١٤) ويشرح معنى « أمير أخور » مرتين (ج ١٠ ص ٨٠، ج ١٢ ص ٢٧). أما الاستطراد فقد أوغل فيه المؤلف إيغالا بعيداً. ففي الجزء السابع - وقد أفرده لمدينة الاسكندرية - انتقل إلى الكلام عن الحروب الصايية وحملة لويس

التاسع على مصر ووقوعه فى الأسر فى موقعة فارسكور. ولعله شعر بهذا الاستطراد فقال « وإنما خرجنا عن الموضوع^٧ وأطلنا فى تفصيل حوادث هذه الأوقات ليعرف القارئ ما ورد على الديار المصرية. » (ج ٧ ص ٣٥) ولما تكلم فى الجزء الرابع عشر عن عجرود استطراد إلى نظام قافلة الحج المصرية على نحو ما أوضحناه وقد كتب فى هذا الاستطراد ما يقرب من تسع وعشرين صفحة. ونهج هذا المنهج الاستطرادى عند كلامه على عيداب ورحلة ابن بطوطة.

ومثل هذه المآخذ لا تقلل من القيمة العلمية لهذه الموسوعة فهى - بتعبير الأستاذ الراقى - غرة فى تاريخ مصر العلمى ومأثرة خالدة لعلى مبارك باشا (١). والواقع أنها مرجع للباحثين تتناول فى أمانة التاريخ السياسى والاقتصادى والاجتماعى والحضارى لمصر وطبوغرافية مدنها وقراها وواحاتها وثغورها وموانئها فى العصور القديمة والوسيطه والحديثة.

* * *

ونختتم هذا المقال بنقطة أخيرة خاصة باللغظ الذى أثير حول المؤلف الحقيقى للخطط التوفيقية. فقد انطلقت بعض الألسنة تردد أن هذه الموسوعة لم تكن كلها من وضع على مبارك بل كانت هناك مجموعات من مرءوسيه، وبخاصة المهندسين، وقفوا وراءه وأسهموا معه فى وضع هذه الموسوعة. وليس هناك دليل يسند هذا الإدعاء. وقد ذكر اثنان من الأساتذة الذين تعرضوا لتاريخ على مبارك هذا القول. ولكن لم يزد دور كل منهما عن أنه porte - parole أى ناقل رواية. فأحدهما، وهو الدكتور محمد أحمد خلف الله، أشار إلى « هذه التهمة التى التصقت به »

(١) عبد الرحمن الراقى : عصر اسماعيل . الجزء الأول .

الطبعة الثانية ١٩٤٨ ص ٢٤٠.

ثم قرر تعليقا عليها « ونحن لا نستطيع أن ندعى هذه الدعوى ، ولا نستطيع أن نرفضها ، وإنما نقول إن هذا الكتاب قيم . » (٢) فهو لم يقطع برأى حاسم في هذا الادعاء بل تخلص منه بلباقة وسرعة وانتهى إلى أن الكتاب ذو قيمة . أما الأستاذ الآخر وهو المؤرخ عبد الرحمن الراجحي فقد ذكر ما يلي « ولئن قيل إن العلامة على مبارك استعان في وضع الخطط بطائفة من المهندسين من تلاميذه ومرعوسيه في وزارة الأشغال والمعارف ، فذلك لا ينقص من فضله ، ولا يقلل من عظم العمل الذي اضطلع به ، وحسبه أن إرادته وجهت مساعديه إلى معاونته في البحث والتنقيب ، وروحه تتمشى في جميع أبواب الكتاب ومباحثه . » (١) وهو قول فيه دفاع وتبرير على أسوأ الفروض وهو أن الإدعاء صحيح، ولكن لم يناقش سيادته هذا الإدعاء أساساً . وسنحاول أن نناقش مسرعين هذا الرأي بعيدين عن محاباة على مبارك أو التحامل عليه . إن وضع الخطط التوفيقية قد استغرق منه وقتاً امتد بضعة عشر عاماً ، كما أثبتنا من قبل ، ولو كان المؤلف قد استعان بطائفة من مرعوسيه لاستطاع بفضل معاونتهم وإسهامهم أن يفرغ منها في زمن يقل بكثير عن هذه السنوات الطوال . ومن المقطوع به أن الكفاية والهمة والجلد على العمل ، كل هذه الصفات كانت من أبرز سجايا على مبارك وقد قرر وهو يترجم لنفسه أنه كان لا ينام من الليل إلا قليلاً وذكر في مقدمة الخطط أنه كان قد عرض على لفيف من ذوى المقدررة العلمية وضع كتاب في موضوع الخطط فلم يجد منهم استجابة فقام بمفرده بوضع الخطط التوفيقية . وكانت الصورة

(٢) دكتور محمد أحمد خلف الله : على مبارك وآثاره . لم تذكر

سنة الطبع . الناشر : مكتبة الانجلو . ص ١٥٤ .

(١) الراجحي : مرجع سبق ذكره ص ٢٤٠ .

التي علقت في أذهان معاصريه أنه الوزير الفنى العالم الذى يعمل وينتج في صمت وينأى بنفسه عن المهاترات أو الثرثرة السياسية ولم يلمع في الحياة السياسية كما سطع في الحقل العلمى وبرز في ميادين الإصلاح والتعمير والإنشاء . وليس بكثير على عالم هذه صفاته أن يضع بمفرده الخطط التوفيقية . لقد رجع على مبارك إلى الخفوضات الرسمية في وزارات الأشغال والأوقاف والمعارف وغيرها من جهات حكومية . وفارق كبير بين الاستعانة بأشخاص يؤلفون له وبين الرجوع إلى المصادر الأصلية ، وهو عبء ثقيل فادح لا يتولاه إلا كل باحث يتمتع بالأصالة والتعمق في البحث والجلد عليه ، وهو أمر لا يستطيع أحد أن ينكره على العالم الباحث على مبارك . وفي رأينا أن هذا الادعاء مردد إلى الحقد والحسد . ومن المعروف أن النابيين في كل زمان ومكان كانوا وسيظلون دائماً هدفاً لهجوم وحسد الكثيرين . وقد لقي على مبارك في حياته الكثير من المتاعب بسبب ما كان يحكيه له حساده من دسائس . ففي حكم محمد سعيد أبعد عن مصر سنتين ونصف سنة (١٨٥٤-١٨٥٦) تحت ستار إشراكه في حرب القرم . وفي حكم إسماعيل أقصى عن المناصب الحكومية فترة في سنتي ٧٠-١٨٧١ واعتكف في منزله بسبب وشاية الحاسدين وكان على رأسهم إذ ذاك إسماعيل باشا صديق . وجدير بالذكر أن المقريزى تعرض لمثل هذا الاتهام بعد أن وضع كتابه الخطط فقد اتهم بأنه سطا على مسودات من كتاب للأوحدى في نفس الموضوع ، فأخذها وزاد عليها ، مع أن المقريزى لم يقصر في ذكر المصادر والمراجع التي نقل عنها ، بل كان يسند كل حادث إلى صاحبه ، فلو كان قد اقتبس من الأوحدى لما كان يضيره أن يذكره . وتعرض شمس الدين السخاوى (٩٠٢) لموقف

شبيهه لذين الموقنين . فبعد أن انتهى من وضع كتابه « الضوء اللامع في أعيان القرن التاسع » تصدى معاصروه للتشيع عليه ، ومنهم السيوطى ألف في انتقاده كتاباً سماه « الكاوى في تاريخ السخاوى » .

ونرجو أن يكون قريباً ذلك اليوم الذى تنهض فيه إحدى المؤسسات الثقافية بطبع هذه الموسوعة العربية طبعة حديثة مع وضع فهرس متنوعة لها وشرح بعض العبارات التى وردت بها واندثر الآن استعمالها .

نماذج من الخطط التوفيقية

تعمير ضاحية الرمل بمدينة الاسكندرية

« وفى أقرب وقت صار ما حدث من الأبنية جهة الرمل يشبه مدينة قاسمة ما بين ناحية أبى قير وثر الإسكندرية بما حوته من الانتظام والرونق والبهجة فى منازلها وقصورها الحمة وشوارعها وحوانيتها المشتملة على نفائس التجارات بعد أن كانت هذه البقعة عبارة عن كثبان من الرمل وأرض غير متفتح بها ، وما كان يزرع منها إلا القليل ، وبعد أن كان الغبط الذى سعته ثمانية أفدنة أو تسعة أو عشرة لا يزيد حكره عن ثلاثة قروش صار الآن أرضاً لا يباع منها إلا بالذراع والمتر من ريال إلى نصف بيتو ، وما ذاك إلا لكونها صارت من أعمار الأماكن لسكنى المعترين من التجار والأمراء بها ، وبها البساتين المشتملة على جميع أنواع الأشجار والأزهار والرياحين . وقد بلغ عدد سكانها الذين يقيمون بها فى وقت الصيف قريباً من ٧٠٠٠ نفس ، وفى وقت الشتاء على نحو النصف من ذلك . وأول من اشترى فى الرمل الخواجا سيزينيا (١) ، فإنه اشترى من ملك عائلة أبى شال ،

(١) هو زيزينيا Zizinia أحد الرعايا اليونانيين ثم اكتسب الجنسية الفرنسية واشتغل قنصلاً عاماً بلجيكا فى مصر وكان يطلق اسمه على إحدى محطات ترام الرمل ثم تغير اسم المحطة إلى قصر الصفا .

وكان لهم أرض متسعة ، جانباً عظيماً بمبلغ ٦٠ كيسة ، والآن وقد اشترت منه الحكومة شريطاً من الأرض لوضع السكة الحديد عليه ودفعت فى قيمة المتر ٥ فرنكات ونصفاً فعلى ذلك تكون قيمة الفدان الواحد ٢٣١٠٠ فرنك . ومما زاد فى الرغبة فيها وأكد أمر السكنى بها إحداث السكة الحديد بينها وبين المدينة الأصلية ، فإنها سهلت على الناس الانتقال منها إليها وبالعكس ، فى كل أوقات السنة لا ينقطع التردد إليها ومن يقيم بها من الأعراب يجد جميع ما تطلبه نفسه خصوصاً اللوكاندة التى أحدثت هناك ، فإن بها كل ما يلزم مع الراحة والأمن . وفى الرمل نادى تجتمع فيه الناس يومى السبت والأحد من كل أسبوع ويشنفون مسامعهم بسماع الألحان والأصوات الحسنة ، وبها أيضاً ثلاث كنائس واحدة للكاثوليكين وواحدة للأروام وواحدة للتربية الصبيان ، واحدة على ذمة الأروام وأخرى للفرنساوية وأخرى للتليانيين . وفى كل ساعة يقوم من اسكندرية قطر إلى الرمل ، وفى كل نصف ساعة يقوم قطر من الرمل إلى اسكندرية . وفى كل قطر عمال من طرف البوستة لنقل المكاتب وأوراق الحوادث وغيرها . وأجرة الركاب بحسب الدرجات : فعلى من يركب فى عربات الدرجة الأولى خمسة قروش ، ومن يركب الدرجة الثانية أربعة قروش ومن يركب الدرجة الثالثة ثلاثة قروش . ومما أكد الرغبة فى سكنى جهة الرمل ما أحدثه الحديد من المباني هناك بقصد إقامته وإقامة الفاميليه (١) فى فصل الصيف ، فإنه نشأ عن ذلك فتح شارع عظيم فى وسط التلوى المقابلة لباب رشيد ، وأوله باب رشيد وينتهى إلى حدود الملاحة بأول أطيان قرية المنيرة ويمر بسرارى الرمل

(٢) يقصد على مبارك بلفظة الفاميلية العائلة أى أسرة الحديد .

الحديدية وطوله من باب شرقي إلى السرايا ٤٠٠٠ متر
في عرض ١٢ متراً ومن السرايا إلى الملاحه ٤٠٠٠ متر
في عرض ٨ أمتار ، وقد غرس في جانبيه الأشجار
المظلة . « ج ٧ ص ٦٧ .

انشاء دار العلوم

« واستحدثت مدرسة دار العلوم بعد استصدار
الأمر بها وجعلتها خاصة لطلبة بقدر الكفاية يؤخذون
من الجامع الأزهر ممن تلقوا فيه بعض الكتب في
العربية والفقہ بعد حفظ القرآن الشريف ليتعلموا بهذه
المدرسة بعض الفنون المفقودة من الأزهر، مثل الحساب
والهندسة والطبيعة والجغرافية والتاريخ والخط مع
فنون الأزهر من عربية وتفسير وحديث وفقه على
مذهب أبي حنيفة النعمان ، وجعل لهم مرتب شهري
يستعينون به على الكسوة وغيرها من النفقات، ورتب
لهم طعام في النهار للغداء ، وجعل الصرف عليهم من
طرف الأوقاف ، ورتب لهم من لزم من المعلمين من

المشايع العلماء وغيرهم ليقوموا بأمر تعليمهم وتدريبهم
حتى يتمكنوا من هذه الفنون فينتفعوا وينتفعوا ويجعل
منهم معلمون في المكاتب الأهلية (١) بالقاهرة وغيرها
لتعليم العربية والخط ونحو ذلك . فلما أشيع هذا الأمر
وأعلن ، حضر كثير من نجباء طلبة العلم بالأزهر
يطلبون الانتظام في هذا السلك ، فاختر منهم بالامتحان
جماعة على قدر المطلوب، وساروا في التحصيل فحصلوا،
وأثمر ذلك المسعى . وخرج منهم معلمون في القاهرة
وغیرها ، وحصل النفع بهم ولهم . وأما المعلمون في
غير العربية كالمهندسة والحساب واللغات ونحو ذلك
فقرر أن يكونوا من نجباء التلامذة المتقدمين الذين
أتموا دروس المدارس العالية كالمهندسخانة والمحاسبة
والإدارة . « ج ٩ ص ٥١ .

(١) المكاتب الأهلية اسم أطلق على المدارس الابتدائية
الجديدة التي أنشئت في عصر اسماعيل طبقاً لما ورد في لائحة رجب
١٢٨٤ وكان يصرف عليها من الموارد الأهلية التي رسمتها هذه
اللائحة .

تأثير القوى البحرية على التاريخ لألفريد ميجان

بمستلم
الدكتور حسين فوزى النجار

اصداء التاريخ :

وللكيسة التي تبشر بالمسيحية في شعوب ترى أنها لم تهتد إلى رسالة السماء .

وعلى موج الخضم انطلقت الجموع الأوربية على شتيت نزعاتها إلى عالم استوى فيه لديها ما كان موطننا لأعرق الحضارات ، وما زال في فجر البداوة لم يلبج محراب التاريخ بعد ، فلم يكن أيسر سبيلا من البحر على جهامته الى تلك البقاع النائية البعيدة ، فقد جنبها اقتحام البرارى والتجمع في قوافل تخضع لبطش الأمير وسطوة السلطان وطمع الحباة ، ويمكن لها أن تحمل على صقحتة جيوشا تحميها وتؤمن لها المستعمرات الجديدة ، ما كان في قدرتها أن تعبر إليها دولا تستطيع أن تتصدى لها وتمنعها من غايتها . أو سدودا تقف امامها مانعا دون غايتها :

ومضى الاستعمار الأوربي محتما بالبحر إلى حيث يمكن لنفسه في بقاع عجزت عن أن تتصدى له وتمنعه .

وشهد البحر مصرع امبراطوريات استعمارية عجزت قواتها البحرية أمام قوى بحرية جديدة أشد

في عصر امتطى فيه الاستعمار من الخضم مقتحما العباب في بحار فسيحة إلى أراض شهدت مولد الحضارات الأولى ، وأخرى كانت تعيش في حنايا الغيب بعيدة عن مجرى التاريخ حتى التقى بها في موجة الكشوف الجغرافية الباهرة خلال القرن الخامس عشر في مغرب الأرض وفي أقصى المشرق ، وفي قلب الآجام الأفريقية المظلمة وفي جزر الباسفيك المزدانة بخضرة الغابات الاستوائية المتشابكة ، غدت الحوارى الماخرات والقلاع الساخنة عنوان القوة ومنبع الثراء للمغامرين والحوابين والباحثين عن الذهب وطلاب الثروة من التجار ، والآبدن في السجون ممن قذفت بهم حكوماتهم إلى تلك البرارى الموحشة في استراليا ونيوزيلندا وأصقاع الأمريكتين ، والفارين من الظلم والاضطهاد الدينى والسياسى إلى منطلق حر في بلاد جديدة لا يناههم فيها ضم أو ضر ، وللدول التي تنشده القوة وتنطلق إلى الاستعمار وتكوين امبراطوريات لها فيما وراء البحار تعود عليها بالغنم والرخاء ،

وأقوى فأفسحت الميدان لها ترث من مستعمراتها ما تشاء .

وأصبح على الدول الاستعمارية ، لتحمي مستعمراتها ، أن تمتلك أسطولا قويا وقوة بحرية عتيدة . تستطيع أن تحصى خطوطها الملاحية . وتتصدى لكل مهاجم تسول له نفسه الهجوم على أراضيها في الداخل أو عبر البحار . فلم يعد التوسع الامبراطوري قاريا تتبع فيه الدولة من الداخل إلى الخارج في حدودها المجاورة أو القريبة منها . فاذا امتطت البحر أو خاضت معركة بحرية في أماكن قريبة من قواعدها القارية أو من ثغورها ومراكز تموينها البحرية . ولم تكن القوى البحرية أكثر من قوات ثانوية لحماية السواحل أو لنقل الأمداد والمؤن لمسافات قصيرة إلى حيث يدور القتال الرئيسي في البر . ولم تكن أكثر من سلاح تابع للجيش .

وقامت الامبراطوريات القديمة على اكتاف الفاتحين الغزاة ممن يقودون الجيوش البرية فيغيرون بها على الدول والاقاليم المجاورة فكان الامتداد المصري في عهد الدولة الفرعونية الحديثة ، امتدادا مع الأرض في الشمال وفي الجنوب حيث لاتعوق البحار الفاصلة تقدم الجيوش ، أو تفصل ما بينها وبين قواعدها الأصلية ، واجتاح الاسكندر المقدوني سهول آسيا في زحف متصل يقود قواته البرية من «الفلانكس» المدرعين الاشداء ، ورماة السهام من المشاة الخفيفة ، والفرسان المدربين تدريبا عاليا للعمل ضد الأجناب ، في مهارة جعلت منه أعظم القواد المحاربين في العصور القديمة ، فلم تكسف شمس معاركه سوى معارك نابليون في العصر الحديث ، ولم يلجأ الاسكندر للبحر الا في بعض العمليات الثانوية ، فتوسع في البر إلى أقصى ما اتسعت له حياته من فتوح . ثم كانت روما

ودمشق مركزى امبراطوريتين أعقبت ثانيتهما الأولى ، وكان امتدادهما أشبه بامتداد الدوائر المائية حول مركز سقوط حجر في الماء . ولم يكن من قبيل المصادفة أن تكون قسبة الامبراطورية في مركز متوسط تمتد حواليه أملاكها في جميع الجهات . ولكن لأن التوسع كان يريا يمتد إلى حيث تستطيع الدولة أن تمد قواتها بالمؤن والعتاد وحيث تبقى القوات على اتصال بمراكز إعدادها وتجهيزها . فلم يكن للأسطول في نظر الرومان ما كان للجيش من أهمية . وما كانت واجباته تتعدى الحراسة والنقل وحفظ الأمن في البحار القريبة الضيقة كالأدرياتيك والبحر التيراني . فلما اتسعت رقعة الامبراطورية اقتضى الأمر بناء أساطيل اقليمية في الاسكندرية وشمال افريقية لحراسة سفن نقل التمحع منهما إلى روما . كما تناثرت بعض القوات البحرية الصغيرة في البحر الأسود وفي بحر المانش حين أصبحت بريطانيا ولاية رومانية ، وانتشرت قطع بحرية صغيرة في الرين والدانوب ، كانت مهمتها ربط الامبراطورية بخلقة من المواصلات المكية إلى جانب الطرق البرية الطويلة الممتدة في جميع أنحاء الامبراطورية والتي أقامها الأباطرة لتربط بقاعها الفسيحة فكانت منفجرة من مناخر الانشاء الروماني وصانت وحدة الامبراطورية طوال قيامها . ولم يكن من مهام تلك القطع البحرية الاشتباك في القتال وما كانت أكثر من وحدات للحراسة فلم يجد القوط عناء أمامها حين أخذوا يهاجمون بيشنيا وليديا في القرن الثالث فانسابوا عبر المضائق وفي بحر ايجيه ينشرون الخراب والدمار في غرب آسيا الصغرى وفي جزر البحر الأيحي وأخذوا يهددون آتينا ذاتها . أما العرب فلم يعنوا ببناء قوة بحرية إلا بعد أن امتدت امبراطوريتهم امتدادها الفسيح شرقاً وغرباً .

معهم ، ومن قبل أبحر عثمان الثقفي من عمان مغيراً على سواحل الهند دون أن يلتقي نصيباً .

وصدق حدس عمر حين أمر بتسيير حملة بحرية ضد الأحباش رداً على غاراتهم على السواحل العربية ، نزلت على « أدواس » ونهبتها ولكنها هزمت في البر ، فلما طلب إليه معاوية - بعد ذلك - أن يأذن له بغزو قبرص ، وكتب إليه يقول : « يا أمير المؤمنين إن بالشام قرية يسمع أهلها نباح كلاب الروم وصياح ديوكهم ، وهم تلقاء ساحل من سواحل حمص .. » . ولكن ساكن الحجاز كان غير ساكن الشام ، فكتب إلى واليه على مصر عمر و بن العاص : « أن صف لي البحر ثم اكتب إلى بنجره » فكتب يقول : « إنى رأيت خلقاً كثيراً يركبه خلق صغير ، ليس إلا السماء والماء ، إن ركن خرق القلوب ، وإن تحرك أزاغ العقول ، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة ، هم فيه كدود على عود ، إن مال غرق ، وإن نجا يرق » . وأرسل عمر إلى معاوية ينهاه عن ركوب البحر حتى لا يعرض الجنود لغدره .

وظفر معاوية من عثمان بما لم يظفر به من عمر ، وولج العرب هذا العالم الفسيح وغدا لهم ببحر الروم أسطول استطاع أن يواجه أسطول البيزنطيين حتى قيل إن مائتي سفينة للعرب غلبوا ألف سفينة للروم في موقعة ذات الصواري .

ودخل العرب عالم الملاحة فأنزلوا إلى البحر السفن المثلثة الشراع وطوروا في أساليب الملاحة ومعداتها ما كان عوناً لأوروبا في فنونها البحرية وفي نهضتها الحديثة ، فشقت طريقها في البحر إلى كشوفها الجغرافية في القرن الخامس عشر ، وانتهت منها إلى حركة الاستعمار الحديث وبناء الأبراطوريات الاستعمارية الكبرى فيما وراء البحار .

وحين دعته الظروف في فترة من الزمن إلى مواجهة قوات بحرية ، بنوا أسطولا في بحر الروم (البحر المتوسط) هزموا به البيزنطيين في موقعة ذات الصواري وفتحوا قبرص وجردوا بعد ذلك الحملات البحرية للاستيلاء على جزر البحر وغزوا شواطئ الدولة البيزنطية غزوات سريعة يبدو أنها لم تبلغ الفتح والاستقرار ، ولم يجذب العرب إلى البحر غير التجارة ، فامتطوا عبايه تجاراً بارعين أكثر مما امتطوه قباطنة محاربين ، وإن لم يحل هذا بينهم وبين انشاء « السفن والشواني » - على رأى ابن خلدون - وشحنوا « الأساطيل بالرجال والسلاح وأمتطوهم العساكر والمقاتلة من وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك من ممالكهم وثغورهم ما كان أقرب إلى هذا البحر وعلى حافته مثل الشام وافريقية والغرب والأندلس » .

وكان اندفاعهم نحو البحر وليد الحرأة والشجاعة والمغامرة أكثر مما كان وليد الخبرة والدراية والتعلق بحياة البحر ، فحين اطلوا على شواطئه في موجة فتوحهم الباهرة اندفعوا نحوه غير هيايين فكان العربي من سكان الشواطئ - كما يقال - « يركب مركباً كما يركب جملاً » ، حيث يمتد البحر من أمامه كما تمتد الصحراء من ورائه إلى أبعد ما يرتد إليه بصره ، أما البدوي ساكن الصحراء فظل البحر لديه عالماً مجهولاً ، فكان أن نهى « عمر بن الخطاب » المسلمين عن الإغارة فيه . وعزل « أبي العلاء الحضرمي » واليه على البحرين . لما غزا بلاد فارس بجرا ، وكان قد عبر إليها الخليج في اثني عشر ألف من المسلمين قبل أن يستأذن الخليفة ، وغزا وغنم ولكنه فقد سفنه فاقتحم طريقه في أرض معادية إلى البصرة ، وكان أهل البحرين قد زينوا له ذلك ، وهم أهل بحر فلم يخذله لإقدامه عن السير

صراعاً معمولاً من أجل التجارة والرغبة في الثراء واحتلال الأراضي الغنية .

وبينما كانت المعارك الحامية تدور في القارة ، كانت البحار مسرحاً للقرصنة والسطو والنهب الاستعماري . وعلى قدر ما خلدت المعارك الحربية في التاريخ العسكري وكتبت صفحة باهرة في استراتيجيات الحروب وتكتيكات المعارك ، لم يكن جناؤها يضاهي خلودها ، فقد كان الغم كله في البحار على ما اتسمت به معارك البحر من ضآلة وما شابهها من طابع القرصنة ومغامرات القراصنة التي ألهمت أدب المغامرات أحداثها الشائقة أكثر مما ألهمت التاريخ وقائعها وتكتيكاتها البحرية .

وبينما كان مبدأ التوازن الدولي يتخدى ويطبق بصرامة في القارة فتشتبك الدول الأوربية في حروب طاحنة صبغت تاريخها الحديث بالدماء ، كانت تلك الدول تتوسع عبر البحار لا يحكمها غير التنافس والغلب ، فمن اكتشف منطقة أو رفع علم دولته على أرض غير مملوكة لدولة استعمارية أخرى ، أصبحت ملكاً للدولة صاحبة العلم ، وحين نظم مؤتمر برلين عام ١٨٨٤ استعمار أفريقية قرر ألا تعلن دولة حمايتها لمنطقة دون إعلان هذه الحماية إلى الدول الأخرى ، وألا تعلن ضم منطقة ما إلى أملاكها ما لم يكن مؤيداً بالاحتلال العسكري .

وكانت بريطانيا أشد الدول حفاظاً على مبدأ التوازن الدولي في القارة ، وما من سبب خاضت من أجله الحرب ، إلا وكان هذا المبدأ هو الحافز الأول لها على الحرب ، وظل هذا المبدأ قائماً حتى قضى عليه الامتداد الشيوعي في شرق أوروبا في أعقاب الحرب الثانية ، وغدا التوازن قارياً أكثر منه اقليمياً . يقوم على المحالفات العسكرية والدعوة المذهبية لا تحكمه قاعدة ولا يقف أمامه حاجز غير رغبة الدولة ذاتها في اتباع السياسة التي

ومنذ ذلك الحين احتل البحر مكانته العظمى في التاريخ ، وكتبت على صفحاته أروع مغامرات الاستعمار وسبقت الدول البحرية غيرها إلى هذا الميدان الفسيح وأحرزت قصب السبق فيه ، وكانت للبرتغال وأسبانيا ميزة المبادرة حتى اشتد بينهما الصراع فاحتكما إلى البابا فأصدر قراره عام ١٤٩٤ بتصوير خط تقسيم من القطب الشمالي إلى القطب الجنوبي يمر بالأطلنطي إلى الغرب من جزر الآزور مسافة ٣٧٠ فرسخاً فكل ما يكشف إلى الشرق منه يكون للبرتغال ، وكل ما يكشف غربه يكون لأسبانيا .

وفي أعقاب الدولتين . البرتغال وأسبانيا - نزلت دول بحرية جديدة إلى ميدان الكشوف الجغرافية تدفعها حمى الاستعمار والاستغلال والحشع إلى الثراء ، وأتيح لهولندا أن ترث البرتغال وأن تصبح أعظم قوة بحرية في مطلع القرن السابع عشر ، وتبلغ امبراطوريتها أقصى امتداد بلغته ، فلم يجد الانجليز حين بدأوا جولتهم الاستعمارية في البحار متأخرين عن سبقهم ، غير الهولنديين يسدون عليهم الطريق ، فجعلوا يتعقبونهم ويسطون على سفائنهم أينما كانت سواء في البحار الموسمية أو غيرها من البحار ولكن اتحاد العرشين الانجليزى والهولندي عام ١٦٨٩ تحت تاج وليم أورينج قد أوقف هذا الصراع إلى حين .

وكان الانجليز قد شهدوا من قبل مصرع النفوذ البرتغالي في البحار الموسمية وساهموا في القضاء عليه عندما هزموا البرتغاليين في « سورات » على مصب نهر « تيبى » عام ١٦١٢ ، فوضعوا أول دعامة لامبراطوريتهم في البلاد الموسمية الغنية . ونزل الفرنسيون هم الآخرون إلى الميدان فأسسوا « شركة الهند الشرقية الفرنسية » عام ١٦٦٤ . واصطدموا بالهولنديين والانجليز ، وشهدت بحار العالم

ترتضيها والآنحياز إلى الجانب الذي تراه فضلاً عن امتداد المبدأ إلى كافة أنحاء العالم الأخرى ، فأصبح السلام الدولي رهناً بتوازن القوى بين الدول المتحالفة ، وقيام دول جديدة حررت نفسها من التزام التحالف فقدت محور التوازن الحقيقي بين الطرفين المتصارعين .

وتقف الجمهورية العربية المتحدة في هذا الفريق داعية إلى السلام العام والرخاء الدولي وحرية شعوب العالم . ومنذ القرن السابع عشر كان مبدأ التوازن الدولي هو السياج الذي يحكم السياسة الأوروبية يطبق في القارة فحسب دون أن يحكمه مبدأ أو قانون خارج القارة إلا قوة الدولة وقدرتها على التوسع وحماية أملاكها عبر البحار . وأصبح التفوق البحري دعامة السيادة البحرية وسياج الأمن لأمالك الدولة البعيدة .

وقد اختار « ميهان » لكتابه « تأثير القوى البحرية على التاريخ » تلك الفترة التي اشتد فيها الصراع بين الدول الثلاث وانتهت بسيادة بريطانيا البحرية وتكوين امبراطوريتها التي وصفت بأنها لا تغيب عنها الشمس ، وهي الفترة من عام ١٦٦٠ إلى عام ١٧٨٣ . ففي عام ١٦٦٠ تولى شارل الثاني ، عرش إنجلترا فمد يد العون إلى « شركة الهند الشرقية الانجليزية » بعد أن كانت الحكومة الانجليزية قد أهملتها . وفي عام ١٦٦٤ أسس الفرنسيون شركة الهند الشرقية الفرنسية . وكانت هولندا قد أنشأت شركة الهند الشرقية الهولندية عام ١٦٠٢ بعد تأسيس الشركة الانجليزية بعامين : إلا أن الشركة الهولندية مضت قدماً في إقامة القواعد التجارية في البحار الشرقية بتمضيد الحكومة الهولندية وما لبثت أن كونت شركة الهند الغربية الهولندية عام ١٦٣١ للتجار مع العالم الحديد وأسسوا مستعمرة هولندية على مصب نهر الهندس ، ودعوا عاصمتها امستردام الجديدة وقد أصبحت تحمل اسم « نيويورك » . بعد أن آلت إلى الانجليز . وفي الفترة ما بين عام ١٦٨٨ وعام ١٨١٥ ، اشتبكت إنجلترا وفرنسا في سبعة حروب . كان التنافس

وعقد لواء السيادة البحرية لبريطانيا بعد تحطيم -الأرمادا- الأسبانية عام ١٥٨٨ . فشادت امبراطوريتها آمنة مطمئنة إلى تفوقها البحري الحاسم ، وأن لم تكن معركة الأرمادا بسبب التنافس الاستعماري بقدر ما كانت لأسباب تتعلق بالتراع بين الأسرتين المالكتين في أسبانيا وإنجلترا .

وكانت هولندا قد اقتنصت حريتها من أسبانيا قبل تحطيم الأرمادا بقليل عن طريق البحر حين أعوزها النصر في البر ، وعجز الثوار عن التغلب على القوات الأسبانية البرية المحتلة . فلجأوا إلى البحر ، واحتاوا ميناء « برل » الصغير فاتخذه المغامرون الهولنديون الذين عرفوا باسم « شحاذي البحار » قاعدة للغارة على القوات الأسبانية . ثم أطلقوا مياه البحر عليها حين حاصرت « قلعة ليدن » فتشتت شملها . وإنه لم ينقذ الهولنديين من إصرار الأسبان على قمع ثورتهم سوى اشتباك أسبانيا في حروب خارجية صرفتها عن قمع ثورة الأحرار الهولنديين ، ولم تنل هولندا

الأوربية ، ليكتب في كل دورة من دوراته صفحة من صفحات التاريخ الأوربي الحديث .

فأصداء التاريخ وحدها هي التي حملت ميهان على تلك الدراسة التي لم يسبقه إليها باحث وهي التي حملته على تقرير الدور البارز الذي لعبته القوات البحرية في التاريخ الحديث ، وإن لم تكن دراسته تاريخاً للمعارك البحرية بقدر ما كانت دراسة للأستراتيجية البحرية وقدرة الأساطيل على دعم سيادة الدولة وحمايتها .

الفرد ثاير ميهان :

كان تفكيره و ليد الاستقراء العلمي الدقيق لما يمكن أن تقوم به الأساطيل الحربية والتجارية في دعم سيادة الدولة وحمايتها وجلب الرخاء لها ، بل إن هذا التفكير العلمي الواقعي قد أدى به في النهاية إلى النقيض من أفكاره ومبادئه الأولى ، فأصبح من دعاة الاستعمار وكان ينكره ويحمل عليه ، بل كان خصماً للامبريالية لا يبارى كما يقول عنه « بولستون » أحد مؤرخيه ، ولكن عدو الامبريالية غدا بعد هذه الدراسة وهو يرى أن الاستعمار أحد المقومات الثلاثة لبناء القوة البحرية أما الآخران فهما بناء السفن في وقت السلم ، والتقدم الصناعي ونمو الانتاج في الدولة ، ولا تملك الولايات المتحدة منها - كما يقول - غير الأخير . فأخذ يدعوها إلى استكمالهما ، وأشار عليها بالاستيلاء على جزر هاواي لتأمين الباسفيك . بل أصبح من دعاة سياسة العصا الغليظة التي آمن بها صديقه « تيودور روزفلت » .

وقد ولد ميهان عام ١٨٤٠ لأب من رجال الجيش هو « دنيس هارت ميهان » كان يعمل أستاذاً للهندسة العسكرية بكلية « وست بوينت » الحربية ، ويأمل أن ينشأ ولده على غرار ضابطاً بالجيش ، إلا أن ألفرد اتجه إلى البحر فالتحق بالكلية البحرية في « أنابوليس » وتخرج منها ضابطاً في الأسطول عام ١٨٥٩ . وعاش

الاستعماري أبرز دوافعها .. وفي تلك الفترة شهدت القارة تطاحن الجيوش ، كما شهدت بروز عدد من القواد العظام كتبوا أروع الصفحات في تاريخ الحرب وتكتيكات المعارك ، لم تفد منها الدول التي خاضتها ما أفادت إنجلترا التي اتجهت إلى البحار ، وإن شاركت فيها بنصيب يجعل لها قدماً في اتفاقيات الصلح ، فقد رسم « بث » سياسة إنجلترا على أساس الاستفادة من حروب القارة للانفراد بالمستعمرات ، واعتمد على الأسطول أكثر مما اعتمد على الجيوش البرية .

وفي عام ١٨٧٣ ، كانت فرنسا قد خرت ساجدة أمام بروسيا في الحرب السبعينية وسلمت في صلح فرانكفورت عام ١٨٧١ بكل مطالب ألمانيا وكان الملك « وليم » قد توج امبراطوراً على الريخ الألماني في هو المرايا بقصر فرساي في يناير عام ١٨٧١ قبل أن تنتهي الحرب وقبل صلح فرانكفورت ببضعة شهور . لتبدأ ألمانيا جولتها العنيفة في ميدان السياسة الأوربية وتخط معالمها التي قلبت موازين السياسة الدولية رأساً على عقب وأثرت في تاريخ أوربا خلال السنوات التالية حتى نستطيع أن نقول إن أوربا بدأت حقبة جديدة من تاريخها لعلها قد انتهت بهزيمة ألمانيا عام ١٩٤٥ .

فإذا كان ميهان قد اختار القرنين السابع عشر والثامن عشر موضوعاً لدراسته عن تأثير القوى البحرية على التاريخ في كتبه الثلاثة التي صدرت تباعاً من سنة ١٨٩٠ إلى سنة ١٩٠٥ فلأن القوى البحرية هي التي كتبت تاريخ أوربا الحقيقي خلال تلك الفترة وهي التي حملت الاستعمار الأوربي على أمواج الخضم إلى بقاع ما كان يصل إليها إلا بالبوأخر والسفن والقلاع العائمة ، وهي جعلت الامتداد الامبراطوري بحرياً وليس قارياً ، وكان الاستعمار هو المحور الذي تدور حوالبه السياسة

الموضوع ومن حيث الامتداد الزمني للتاريخ . ولعلها لم يبع أن يضع نظرية للاستراتيجية البحرية ، ولكن آراءه وأفكاره ومناقشاته التي تضمنتها كتاباته التاريخية ، وإن جاءت متناثرة مع السرد التاريخي . تكون في إطارها العام نظرية متكاملة . لفلسفة القوى البحرية ودورها في التاريخ ولاستراتيجية البحار وتكتيكات الأساطيل وغدت عاملاً مؤثراً في سياسة الدول البحرية خلال الفترة التالية من التاريخ ، لاسيما في ألمانيا واليابان فضلا عن الولايات المتحدة ذاتها فقد وجدت نفسها تسير في نفس الخطوط التي رسمها لها ميهان . وإن لم تلق اهتماماً إلى آرائه حين ظهورها على عكس ما كان من الدول الأخرى التي حفت بها ، وأبدت عناية بكتبه فترجمت إلى اللغات اليابانية والألمانية والإيطالية والروسية والفرنسية والأسبانية ، وإن لم يظهر لها حتى الآن ترجمة باللغة العربية ، ولعلها تلقى الآن من عناية السلاح البحري للجمهورية العربية المتحدة ما يتيح لضباط البحرية دراستها والنظر فيها بما يتمشى مع نهضتنا البحرية الحاضرة .

وظهر كتابه الأول « تأثير القوى البحرية على التاريخ ١٦٦٠-١٧٨٣ » عام ١٨٩٠ وكان قد بدأ يلقي محاضراته على الطلبة في سبتمبر عام ١٨٨٦ بعد فترة قضاها متفرغاً للاطلاع والنحضير منذ كلف بهذا العمل عام ١٨٨٤ .

ويبدو أنه قد عنى باختيار كلمات العنوان ، ففي خطابه للناسر الانجليزي يقول إنه اختار عبارة « القوى البحرية Sea Power » لتجذب أنظار القراء مما يساعد على رواج الكتاب ، مفضلاً إياها على كلمة « Maritime » المشتقة من اللاتينية ، لأنها - كما يرى - لا تحمل من الحاذية ما تحمله العبارة المختارة ، فلفظ « قوة » كان من الألفاظ المتواترة على لسان العصر ، عصر المخترعات

حياة عادية لم يخض فيها معركة هامة إلا قليلاً من المعارك الصغيرة في الحرب الأهلية ، لعلها هي التي أمدته بخبرته عن « الخلجان والطرق المائية الداخلية » فكانت حياً لكتاب صغير كلف بكتابته عام ١٨٨٣ عن المعارك البحرية في الحرب الأهلية ، بعنوان « الخليج والمياه الداخلية » . « The Gulf and Inland waters »

وكان قد اكتسب خبرة بحرية واسعة من رحلاته في المياه الآسيوية والأوربية وسواحل الأمريكتين . ومن دراساته الخاصة للشئون البحرية خلال زيارته لأوروبا والشرق الأقصى وسواحل الأمريكتين .

وبدت ميوله نحو التاريخ البحري ، ويقال إنه أتى خلال تلك الفترة من حياته على كل الكتب والدوريات التي صدرت في عصره مما يتصل بالبحرية والتاريخ البحري والحرب وفاز بالجائزة الثالثة في مسابقة « المعهد البحري للولايات المتحدة » ، « يبحث عن « التعليم البحري لضباط والخوذة Naval Education for Officers and Men » كما أبدى اهتماماً جدياً بما يمكن أن يكون لانشاء قناة برزخية من أثر على مكانة الولايات المتحدة الدولية .

وواتته الفرصة التي كشفت عن هوائيه ومواهبه حين وصلته دعوة « الأميرال ستيفن . بلوس » مدير الكلية الحربية الجديدة في « نيويورك » برودى ايلاند ، عام ١٨٨٤ ، وهو على سفينة تجاه بيرو ، ليحاضر طلابها في التاريخ البحري والعمليات الحربية ، فكانت بداية حياة جديدة خلدها وجعلت منه أعظم داعية للأساطيل وأبرع مبشر للقوى البحرية على مدى التاريخ حتى وقتنا هذا ، فإذا كان كلاورقتر قد وضع أسس الحرب الحديثة فإن ميهان هو المبدع الخلاق لاستراتيجية القوى البحرية .

وكانت محاضراته أساساً لبحوثه ودراساته التي صدرت في كتب ثلاثة يكمل كل منها الآخر من حيث

في كل لا يفصل تلازم فيه شخصية الرجل وذكاء
الانسان .

ويتمتع ميهان بموهبة الكاتب وإحساسه وفراصة
المؤرخ كما تبدوان في كتاباته واستقرائه الصادق للتاريخ
وتصويره للأحداث والبشر ، فترى الصورة أو الفكرة
تتجسم في ذهنه لتبرز في كتاباته وقد اكتملت لها كل
مقومات الحيوية والنماء .

ويبدو إحساسه العميق بالأحداث في كتابيه اللذين
صور فيهما ذكريات حياته وهما :

١ - من الشراع إلى البخار : ذكريات بحار
From Sail to Steam : Recollections of Naval Life.
وصدر عام ١٩٠٧

٢ - الحناء القريب .
The Harvest Within .
وصدر عام ١٩٠٦

كما يبدو إحساسه بأحداث عصره في كتابه « الحرب
في جنوب أفريقية The War in South Africa » ،
وفي عدد من الموضوعات التي عرض لها بالبحث
والمناقشة ، جمعتها عدة مجلدات صدرت على التوالي
فيما بين عام ١٨٩٧ وعام ١٩٠٢ كان أولها بعنوان :

اهتمام أمريكا بالقوى البحرية في الحاضر والمستقبل
The Interest of America in Sea Power,
Present and Future
وصدر عام ١٨٩٧ مشتملا على ثمانية موضوعات
بدأ في كتابتها منذ سنة ١٨٩٠ حتى صدوره .

وبعد عامين أصدر المجلد الثاني بعنوان :
دروس من الحرب مع أسبانيا وموضوعات أخرى
Lessons of the War with Spain and Other articles.
وكان صدور المجلد الثالث عام ١٩٠٠ بعنوان :
مشكلات آسيا وتأثيرها على السياسات الدولية

The Problem of Asia and its Effect
upon International Policies.
وفي عام ١٩٠١ أصدر كتاباً من جزئين بعنوان :

العظيمة والقوى الجديدة التي أخذت تغير من حياة
الإنسان .

ويجمل الكتاب فلسفته البحرية ونظراته في استراتيجية
البحار وتكتيك المعارك البحرية . إلا أن الصورة
لا تكتمل من حيث الامتداد الزمني للتاريخ ، والعرض
العام للنظرية إلا بكتابه الآخرين :

١ - أثر القوة البحرية على الثورة الفرنسية
والامبراطورية : ١٧٩٣-١٨١٢ .

The Influence of Sea Power upon the French
Revolution and Empire, 1793-1812.

ونشر في بوسطن عام ١٨٩٢ .

٢ - القوة البحرية وحرب عام ١٨١٢ .
Sea Power in its Relation to the War of 1812.

ونشر هو الآخر في بوسطن عام ١٩٠٥ .

ففي عام ١٨١٢ كانت كارثة نابليون في روسيا ،
وانحدار الشمس المحرقة التي زهت في سماء أوروبا
وأحرقتها إلى الغيب ، ثم كانت حرب الأمم التي حملتها
والتي غربت بها في أجواء سانت هيلانة الاستوائية .

وبعدها افتقدت بريطانيا ركاب المجد الامبراطوري
في عالم لا تغيب عنه الشمس يدين لها بالقهر والسلطان
الاستعماري أو يدين لها بالولاء الثقافي والسياسي
وغدت بحريتها أقوى بحرية تمخر عباب البحر تخمناً
بالسيادة وتزدهى بالقوة والسلطان .

ولا تقتصر دراسات ميهان على هذه الكتب الثلاثة
أو ما سبقها من الدراسات المحدودة التي قام بها من
قبل ، بل كتب ترجمة قصيرة لحياة الأدميرال
فارجوت نشرت عام ١٨٩٢ ، كما ترجم حياة أمير
البحر الانجليزي نلسون في كتاب نشر عام ١٨٩٧
بعنوان « حياة نلسون The Life of Nelson » ، يعد
من أحسن كتب التراجم إذ صور حياته وعبقريته

العمليات البحرية الكبرى في حرب الاستقلال
الأمريكية

«The Major Operations of the Navies in the War of
American Independence».

وكلها كما نرى تدور حول البحر والاستراتيجية
البحرية ، وإن لم يهمل الجانب السياسي في العلاقات
الدولية ، فالصلة بين الاستراتيجية والسياسة جد وثيقة ،
ولا تستوى دراسة الاستراتيجية ما لم تقم على إلمام عميق
بالسياسة والشئون الدولية . فكثيراً — إن لم يكن في
الأعم الأغلب — ما تنبئ الاتجاهات السياسية على
استراتيجية الدولة واتجاهاتها العسكرية . فكتب في هذا
الصدد مؤلفاً صدر عام ١٩١٠ بعنوان « اهتمام أمريكا
بالشئون الدولية —

«The Interest of America in International Conditions.»

وكان آخر ما نشر له مجموعة من مقالاته ورسائله
صدرت عام ١٩١٤ ، آخر سني حياته وقد اشترك
العالم في أول حرب عامة مدمرة ، وحقت المارك
البحرية نظرة ميهان إلى أثر القوى البحرية في مصير
الحرب . وإن لم يعيش حتى يرى ذلك أو يشهد صدور
القانون البحري الأمريكي سنة ١٩١٦ بأن يكون
أسطول الولايات المتحدة أقوى أسطول في العالم .

أثر القوى البحرية على التاريخ

لعل شهرة هذا الكتاب تعود إلى آراء ميهان عن
قوة الدولة البحرية وما لها من أثر على مصيرها السياسي
والاستراتيجي ومكانتها الدولية مما يحدد في الواقع
مكانها من التاريخ ، وإن لم يبلغ الكتاب من دقة البحث
التاريخي وسلامة العرض ما بلغه كتابه عن « أثر القوة
البحرية على الثورة الفرنسية والامبراطورية ١٧٩٣ —
١٨١٢ » . وهو كتابه الثاني في تلك السلسلة الممتدة من
البحوث التي راح يؤكد فيها نظريته عن القوة البحرية ،

نماذج لضباط البحرية مستقاة من تاريخ البحرية
البريطانية .

Types of Naval Officers Drawn from the History of
the British Navy.

وكتاباً آخر صدر عام ١٩٠٢ بعنوان .

التفاتة إلى الماضي ونظرة إلى الأمام : دراسات في
العلاقات الدولية البحرية والسياسية

Retrospect and Prospect, Studies in International
Relations, Naval and Political.

وتدور هذه البحوث جميعاً كما نرى حول موضوعات
الساعة مما يتصل بالسياسة الدولية التي عاصرها واستراتيجية
البحار التي رسم خطوطها .

وبقي يزود المكتبة الانجليزية بمقالاته وبحوثه ومؤلفاته
حتى عام ١٩١٤ فصدر له عام ١٩٠٧ كتاب :

Some Neglected Aspects of War

عرض فيه لبعض ما دار في مؤتمر لاهاي الثاني
للسلام من مسائل تناول التسليح البحري وكان مؤتمر
لاهاي الثاني قد عقد عام ١٩٠٧ بعد ثمان سنوات من
عقد مؤتمر لاهاي الأول للنظر في خفض التسليح ومن
بينها التسليح البحري وحرب الألغام البحرية .

وفي العام التالي نشر بضع مقالات عن الإدارة
البحرية « Naval Administration » كما أصدر عام ١٩١١
كتاباً عن الاستراتيجية البحرية بالمقارنة والقياس على
العمليات العسكرية في البر دعاه :

« Naval Strategy Compared and Contrasted with the
Principles and Practice of Military Operations on
Land »

كما نشر عام ١٩١٣ في كتاب مستقل فصلاً كان
قد اشترك به في كتاب « كلاوز » عن تاريخ البحرية
الملكية ، يدور حول العمليات البحرية في حرب
الاستقلال الأمريكية بعنوان :

قريبه ملك فرنسا عام ١٦٧٤ ، بمقتضى معاهدة دوفر السرية عام ١٦٧٠ التى ضمن فيها لويس وقوف شارل إلى جانبه ، ودارت الحرب سجالا بين الفريقين فى البر ، وفى البحر وأبدى كل منهما شجاعة بحرية عظيمة وفيها ظفرت إنجلترا بمستعمرة «نيو امستردام» التى دعمتها نيويورك .

ويتبع ميهان بنوع خاص الحروب البحرية التى خاضتها إنجلترا وانتهت بها إلى سيادة البحار فيشير إلى الأخطاء الكبيرة التى وقعت فيها إنجلترا وهددت مصالحها التجارية بالخطر أثناء حرب الوراثة الأسبانية . عندما شغلت بالمحافظة على مبدأ التوازن الدولى بالوقوف أمام أطماع لويس الرابع عشر عن مصالحها البحرية والتجارية فانضمت إلى المحالفة الكبرى ضد فرنسا حين أعلن لويس تنصيب حفيده «فيليب أنجو» ملكا على أسبانيا تنفيذا لوصية مليكها الراحل «شارل الثانى» عام ١٧٠٠ . ولم يكن قد أنجب وريثا للعرش ، على خلاف ما اتفق عليه مع «وليم الثالث» ملك إنجلترا بتقسيم ممتلكات اسبانيا بعد موت شارل الثانى .

ودارت رحى الحرب فى بفاريا والأراضى المنخفضة وطال مداها بالرغم من الانتصارات الكبرى التى أحرزها الحلفاء ضد فرنسا فى «بلنهم» و«رملينز» و«أدينار» و«مبلاكيه» ، وأخيرا انتهت بصلح «اترخت» عام ١٧١٣ ، وظفرت فيه إنجلترا بنيو فوندا لاند ، ونوفا سكوشيا ، وخليج هدش ، من فرنسا كما استولت على منورقة وجبل طارق ، بينما اتجه حلفاؤها بمغانمهم إلى القارة ، وظهر لأول مرة اهتمام إنجلترا بمصالحها الاستعمارية خارج القارة ، وخرجت من تلك الحرب وقد أصبحت سيادة البحار ، وبدأت المنافسة الاستعمارية العنيفة بينها وبين فرنسا وهى المنافسة التى امتدت حتى بداية القرن العشرين .

إلا أنه وقد عرض نظريته فى هذا الكتاب الأول ، فقد غدا أشهر مؤلفاته وأجدرها بالخلود ، ولا تعدو مؤلفاته الأخرى تأكيد هذه النظرية والتدليل على سلامتها .

ولا يدعى ميهان لنفسه فضل الأصالة أو الابتكار ، فقد أشار إلى ماورد عنها فى كتابات «بيكون» و«رالى» منذ ثلاثة قرون ، كما ذكر أن «تيوسيديد» و«ثمو ستوبلكس» و«أجزركيس» قد تناولوها من قبل ، إلا أن ميهان قد سبق الجميع دون شك فى وضع نظرية محددة للاستراتيجية البحرية ، واتخذ من التاريخ معوانا له على توكيدها والتدليل على سلامتها . وفى هذا تكمن شهرته وذبوع صيته ، وبقاء كتابه فى الشوامخ من تراث الانسانية الفكرى ، فليس الرجل مؤرخا وإن اتخذ من التاريخ ميدانه الفسيح للبحث والاستقراء ، بل لعله فى هذا المضمار مؤرخ ردىء ، ولكنه جاء بنظرية راح يثبتها بوقائع التاريخ ، وبفكرة أخذ يدعو إليها فاستجابت إليها الدول على اختلافها ، ودفعت الولايات المتحدة إلى انتاجها فسارت ولما يمر ربع قرن على صدور هذا الكتاب ، فى الطريق الذى رسمه لتصبح أقوى دولة بحرية فى العالم .

ويبدأ ميهان كتابه بعرض مجمل لقيام الدول البحرية الكبرى وسقوطها ، ربط بينه وبين العوامل الأساسية التى يجب توفرها فى أمة تتطلع إلى السيادة البحرية ، وما أن استوفى هذه العوامل حتى بدأ تحليله للحروب البحرية فى أوروبا فيما بين عام ١٦٦٠ وعام ١٧٨٣ ، وهى فترة تمتد قرابة قرن وربع القرن شهدت أعنف صراع بين الدول الاستعمارية على صفحة البحار كما أشرنا من قبل . ويتخذ من الحرب بين هولندا وإنجلترا بداية لتلك الدراسة الشاملة ، وهى الحرب التى أعلنتها لويس الرابع عشر على هولندا عام ١٦٧٢ ، واشترك فيها شارل الثانى إلى جانب

ولم يبلغ ميهان من كتابه هذا - كما ذكر للأميرال لوس - أن يكتب تاريخا للوقائع البحرية ، بل كان يرمى إلى نقد المعارك وتحليلها أكثر مما يرمى إلى تتبع الأحداث والوقائع ، ولكنه عن طريق الاستقراء التاريخي استطاع أن يرسم صورة دقيقة للعلاقة القوية بين السيادة البحرية والمركز السياسي للدولة ، فعن طريق السيادة البحرية قضت إنجلترا على أطماع لويس الرابع عشر وطموح نابليون وانقذت - كما يدعى - الحضارة من أعدائها .

ويبدو أن حماسه للسيادة البحرية قد طغى على مثله العليا القديمة فأخذ ينظر إلى الاستعمار البريطاني نظرة الانجليزي نفسه إلى المجد الامبراطوري ، ولم يكن تمجيده لبريطانيا في الواقع إلا تمجيدها للسيادة البحرية طغى فيه الحماس للنظرية على مثل الإنسان فبدا وكأنه من غلاة الداعين للاستعمار ، ولم تكن دعوته إلى القوة البحرية لتستقيم ما لم يكن لها هدف تحققه وخطة تقوم عليها مما ساقه إلى تبرير الاستعمار ، ولما كانت نظريته تقوم على الاستقراء التاريخي لقوة الدولة فقد وجد في نمو البحرية البريطانية مصداقا لنظريته فكان حماسه لبريطانيا وليد الحماس للنظرية أكثر منه حماسا لشكل الاستعمار ووسائله فلم يناقش الشكل أو الوسيلة إلا من وجهة النظر الاستراتيجية والأسس التي تقوم عليها القوة البحرية التي تقوم عليها قوة الدولة الحقيقية .

والواقع أن نظرية ميهان ما هي إلا وليدة العصر الذي عاشه والأحداث التاريخية التي سبقته حين أصبح الامتداد الاستعماري بحريا أكثر منه قاريا وقامت الامبراطوريات عبر البحار أكثر مما قامت مع الامتداد البري للجيوش الغازية ، وحين أصبحت السفن وسيلة المواصلات الرئيسية للبلاد البعيدة ، وحلت

ويشير ميهان إلى انتصار إنجلترا في حرب السنين السبع عام ١٧٥٩ ويقول إن انتصار «ولف» على الفرنسيين في كندا وسقوط «كويك» العاصمة في يد الانجليز ، ما كان ليتم لو لم يعاونه الأسطول باقتحام مصب نهر سانت لورنس ، فمنع الامدادات الفرنسية من نجدة «منتسكام» القائد الفرنسي فخسر المعركة رغم بسالته ومناعة تحصيناته ، وظفرت إنجلترا فيها عندما عقد صلح باريس عام ١٧٦٣ بكندا والأقاليم الواقعة شرق الميسيسي ماعدا لويزيانا .

كما يؤكد أهمية القوى البحرية في دراسته لحرب الاستقلال الأمريكية فيقول إن تفرق وحدات الأسطول الانجليزي قد حالت بينه وبين التفوق على أسطولى فرنسا واسبانيا المتحدين وكانت فرنسا قد اتخذت جانب الثوار علنا بعد أن كانت تساندتهم سرا إثر انتصارهم في معركة ساراتوجا عام ١٧٧٧ ، فأمدتهم بجيش بقيادة «رشمبو» و «لافيت» ، كما انضمت اليهم أسبانيا خوفا على فلوريدا ، وأعلنت دول أوروبا الشمالية الحياد المسلح لتحول بين إنجلترا وتفتيش السفن المحايدة ، فأصبح انتصار الثوار مؤكدا . لاسيما بعد أن تمكن الأسطول الفرنسي من ابعاد الأسطول الإنجليزي عن الساحل ومحاصرة يوركتون بحرا ، بينما كانت القوات الأمريكية الفرنسية المتحالفة تحيط بالقوات الانجليزية برا ، فاضطر «كورنواليس» القائد الانجليزي إلى التسليم في اكتوبر سنة ١٧٨١ ، واعترفت إنجلترا باستقلال الولايات المتحدة عام ١٧٨٢ .

ويبرز ميهان حقيقة يكررها ويؤكدها في كل دراساته وهي أن الحصار البحري عامل حاسم في الحرب بين دولة برية وأخرى بحرية . يودى في النهاية بكل انتصار تحوزه القوات البرية مهما كان ساحقا .

البحرية ثابتة لا تتغير ... وكأنها تقوم على صخرة صماء» في السلم وفي الحرب .

وإن لم يأت ميهان بجديد في تعريف الاستراتيجية والتكتيك . إلا أنه كان أول من فصل بينهما في الحرب البحرية . فلم تكن النظرة إلى الأسطول من قبل إلا أنه جزء من البناء العسكري للدولة الغرض منه حماية السفن التجارية والدفاع عن السواحل ضد أية عمليات للغزو ، وفي هذا يتميز ميهان على من سبقوه . فضلا عما نادى به وأكده من أن القوة البحرية تستطيع أن تزود الولايات المتحدة ، كما زودت بريطانيا بالدعم الصلبة لقوتها ومكانتها الدولية .

والمحور الذي تقوم عليه دراسته للتاريخ البحري ، هو إثبات مالم تقوى البحرية من أثر في تاريخ الأمة ، والفكرة التي تثب على الدوام في كتاباته هي تأكيد الدور الذي تقوم به القوة البحرية للدولة في دعم مكانتها السياسية والدولية في العالم ، وتحقيق الأمن الاستراتيجي والقوة والتقدم والرخاء العام للأمة .

وعلى ضوء هذه الحقيقة التي أكدها ، انتقل إلى بحث الأسس التي تقوم عليها القوة البحرية للدولة وأجندتها في ستة عوامل رئيسية هي :

المركز الجغرافي - هيئة الأرض - الامتداد الاقليمي - السكان - الطابع القومي - النظام السياسي للحكم .

وأخذ يناقش كلا منها مبينا أثرها على القوة البحرية ، مستقرا التاريخ اثباتها .

١ - المركز الجغرافي : Geographical Position

والمركز الجغرافي هو وضع الدولة بالنسبة لجيرانها وموقعها من البحر ، فكلما فصل البحر بين الدولة وجيرانها كانت في وضع أكثر أمنا ، ويمكن إدراك هذه الحقيقة من دراستنا للوضع الجغرافي لكل من

محل القوافل في نقل التجارة ، وأصبح من الضروري حماية السفن التجارية عن طريق التسليح الذاتي أو حراستها بالسفن الحربية التي تعد لهذا الغرض فحسب .

ف عصر ميهان هو عصر التوسع البحري ، والامبراطوريات الاستعمارية فيما وراء البحار ، وعصر القباطنة العظام من ربابنة الدولة ومن قراصنة البحار على السواء .

ومهما قيل إن نظريات ميهان وآراءه العديدة في السياسة والاستراتيجية جاءت متناثرة على طول السرد التاريخي دون رابط - كما تقول مرجريت سيروت - فإنها في الواقع تكون نظرية متكاملة نستطيع أن نجعلها في الأسس التالية :

١ - أبداع فلسفة جديدة للقوى البحرية تركت أعمق الصدى في الهيئات البحرية وفي الدول المتطلعة إلى القوة .

٢ - وضع نظرية جديدة للاستراتيجية البحرية ، لم يسبقه إليها باحث ، وإن كنا لاندعي أنه أبداع شيئا لم يكن معروفا ، ولكنه وضع ماهو معروف في إطاره العلمي .

٣ - غذى التكتيكات البحرية بآراء لها وزنها في معارك البحار .

وقد وضع ميهان حدا فاصلا بين الاستراتيجية البحرية والتكتيك البحري ، وهو الفاصل المعروف في الحروب البرية ، فالاستراتيجية تقوم على خواطر طبيعية لا تتغير ك موقع الدولة من البحر وسياستها البحرية وقوة مجريتها واسطولها التجاري وقواعدها البحرية ، أما التكتيك البحري فيعني بالمعركة بعد بدايتها ، وعدته الأسلحة التي يصنعها الانسان وتطورها فيتغير تبعاً لتطور السلاح البحري . بينما تبتقى الاستراتيجية

للأقليم من أثر على القوة البحرية ، وعلى جاذبية البحر للسكان ، فطبيعة الساحل تحكم الانطلاق إلى البحر ، والموانئ الجيدة تزودها بالاحتمالات الرائعة . وطبيعة التربة اما تجذب الناس إليها أو تقذفهم بعيدا عنها إلى البحر سعيا وراء الرزق ، وقد اندفع الهولنديون إلى البحر . ولكن اعتمادهم الكلي عليه كان مصدر ضعف لا قوة . وخصب التربة الفرنسية قد حبس الفرنسيين على الأرض ونأى بهم عن البحر . فلم تكن بهم حاجة إلى طلب الرزق عن طريقه مالم يكن السعي إليه ضروريا فيه . مثلهم في هذا مثل الولايات المتحدة الذين تقعد بهم ثروتهم عن الانطلاق نحوه .

أما الجزر وأشباه الجزر من الأقاليم كبريطانيا وأسبانيا وإيطاليا . فعليها حتى تكون قوية مؤثرة ، أن تمتلك بحرية على درجة كافية من القوة . والبحر في ذاته حد فاصل ، وقوة الدولة هي في قدرتها على اجتياز هذا الحد الفاصل والانطلاق إلى ما وراءه .

٣ - الامتداد الاقليمي : Extent of Territory

ولا يعنى به سعة رقعة الدولة . أو امتداد مساحتها بالأميال المربعة . بل يعنى به الامتداد الساحلى للدولة . وملاءمة مرافئها للملاحة . والتناسب بين تعداد السكان وطول السواحل . ويضرب لذلك مثلا بولايات الجنوب التي يتمتع سكانها بروح حربية عالية . وزودتها الطبيعة بالفرص والخلجان والسواحل الممتدة . والموارد الغنية . ولكنها لم تكن تملك أسطولا حربيا أو تجاريا قويا ولم يكن أهلها ممن يخبون ابجر . ولم يكن تعدادهم ليتناسب إطلاقا مع طول سواحلهم . فرجحت كفة الشمال وكان لهم النصر في الحرب الأهلية الأمريكية .

فامتداد السواحل وكثرة الطرق المائية الداخلية

الدول الثلاث المتنافسة حينذاك وهي : بريطانيا . وهولندا . وفرنسا . فإحاطة البحر بالجزر البريطانية قد جعلها في وضع أكثر أمنا من منافستها . فقد أمنها البحر من أى غزو برى . وحررها من الحاجة إلى جيش كبير يثقل ميزانيتها ويعوق تقدمها الاقتصادى ورخاءها المادى . وهي قريبة من القارة الأوروبية إلى الحد الذى يمكنها من ضرب أعدائها . وهي في الوقت نفسه بعيدة عنها إلى الحد الذى يجعلها بمأمن من الغزو . حيث يستطيع الأسطول البريطانى من قاعدته الرئيسية في الجزر البريطانية أن يوجه ضربات قاصمة للأعداء . وأن يقوم بحصار بحرى محكم للقارة . فضلا عما يقوم به من كنفالة الأمن الاستراتيجى للدولة والدفاع عن البلاد . على تقيض فرنسا حيث يضطرها امتداد سواحلها على بحرين . إلى تقسيم أسطولها بين البحر المتوسط والمحيط الاطلنطى ويحرمها ميزة الحشد الاستراتيجى لقوتها البحرية . كما يضطرها وضعها في القارة وامتداد حدودها القارية امتدادا يحملها على تكوين جيش كبير للغزو أو الدفاع أمام جيران أقوىاء . مما ينهك اقتصادها وأمدادها البشرية من المهندسين . مثلها في ذلك مثل هولندا حين استنفدت قواتها الحربية في الدفاع عن استقلالها ضد الغزو البرى .

ولمركز بريطانيا الجغرافى ميزة فريدة في السيطرة على طرق الملاحة الرئيسية إلى شمال أوروبا وعندما استولت على جبل طارق والجزر الرئيسية الهامة في البحر المتوسط أصبحت في وضع يمكنها من السيطرة عليه « تلك السيطرة التي لعبت دورا بارزا في تاريخ العالم من الناحيتين الحربية والتجارية ، أكثر مما كان لأية رقعة مائية أخرى » .

٢ - هيئة الأرض : Physical Conformation

ويقصد بها ما يمكن أن يكون لهيئة الطبيعية

أن تحتفظ كل دولة بنسبة معينة من القوات تكون من الكفاية بحيث تتيح لها في الوقت المناسب وفي الساعة الحاسمة إعداد القوات اللازمة للمعركة مع كل مايلزمها من عتاد .

ويختتم ميهان مناقشته بهذا العامل بقوله : « إن اتجاه الأمة الطبيعي للصناعات البحرية والعمل في البحار هو أهم ما تركز عليه القوة البحرية للدولة من مقومات التفوق على مر العصور ، في الحاضر أو في الماضي » وهو مايعوز الولايات المتحدة كما قال حينذاك .

هـ - الطابع القومي : National Character

ومن العوامل التي تحدد مدى القوة البحرية للأمة أو الدولة طبيعة المواطنين وميولهم العامة . فقد أثبتت أحداث التاريخ أن الأمم التجارية كانت على الدوام أمما بحرية عظيمة ، فالليل إلى الكسب والاتجار والقدرة على إنتاج مايلزم للتجارة هما اللتان تكونان الطابع المميز للأمم البحرية ، فان توفرت هاتان الطبيعتان لأمة من الأمم حملتها على متن الخضم طلبا للثراء وحبا في التجارة لايعوقها خطر ولا تخيفها المهالك . فاذا ما اندفعت الأمة نحو الكسب والتجارة ونجحت في إقامة حركة تجارية رابحة زمن السلم كانت تلك هي خطورتها الأولى لارتداد البحار وحافزها على بناء قوة بحرية قاهرة ، ولقد حملت التجارة البحرية الواسعة بريطانيا على بناء السفن وإقامة القواعد والصناعات البحرية التي جعلت منها أعظم قوة بحرية في العالم الحديث .

ولقد جنى الانجليز والهولنديون - بالرغم مما قيل عنهم احتقارا ، أنهم من التجار وأرباب الحوانيت - من الأرباح التجارية مايفوق كل ما كسبه البرتغال والأسبان من مناجم الذهب والفضة ، وزاد على كل

كالأنهار والبحيرات قد يكون عامل ضعف لاقوة ، مالم يتناسب هذا الامتداد مع عدد السكان وكثرة الموارد وتعلق الناس بالملاحة وحبهم للبحر .

٤ - السكان : Population

ولا يعتد ميهان في هذا المضمار بالعدد العام للسكان بقدر مايعتد بعدد من يعملون منهم بالبحر والصناعات البحرية ، أو على الأقل عدد من يستطيع العمل في السفن الحربية والتجارية ، واستشهد على ذلك بكل من فرنسا وانجلترا ، ففرنسا بالرغم من أنها أكثر سكانا إلا أن عدد من يعمل منهم في البحر أقل منه في إنجلترا ، فضلا عن اهتمام الانجليز بالبحر والتجارة ، وانصراف الفرنسيين باهتمامهم الأوفى إلى الزراعة .

وما من شك في أن التجارة القومية زمن السلم تعد من أسباب القوة التي تساعد الدولة على البقاء والصمود في حرب بحرية ، وكلما عظم الاحتياطي من العمال المهرة الذين يعملون زمن السلم ، كلما كانوا عنصرا من عناصر القوة زمن الحرب ، فلم تكن إنجلترا مثلا دولة من التجار هواة البحر فحسب بل كانت تبنى السفن وتزود بها الأساطيل الحربية والتجارية على السواء . وإذا كان الوقت هو العامل المؤثر في سير الحرب ، فان على الأمم التي تعوزها الروح الحربية وتكره التجيش وما يتطلبه من نفقات باهظة . أن تبقى على الدرع الواقية للدفاع ليكون لديها الوقت الكافي عندما تبدأ الحرب لمواجهة الموقف الجديد وحشد القوى الفنية والبشرية الكافية لكسب النصر .

ويفرق ميهان بهذا بين القوات العاملة فعلا والقوات اللازمة ، فهما شيان لايتماثلان ، وإن كان من الضروري أن تظل النسبة بينهما متوازنة ، بمعنى

والحاكم الفرد - كما يعتقد رغم تفضيله للنظم الديمقراطية - أقوى وأقدر على انشاء القوة البحرية ، إذا ما تحققت له القدرة والكفاية ، مما تستطيعه أية حكومة ديمقراطية ، ولكن المشكلة هي فيمن يخلف هذا الحاكم القادر المستبد ، وهل يستطيع أن يواصل الجهد بنفس القدرة والكفاية في بناء السفن الحربية والتجارية .

ويتخذ ميهان من دراسته للحكم الانجليزي مثلا واضحا لاهتمام الحكومة بالبحر والسياسة البحرية ويتبع الأدوار التي مرت بها لتحقيق السيادة البريطانية على البحار ، فيقول إن بريطانيا بدأت جولتها الاستعمارية أيام جيمس الأول فسلكت الطريق الذي يصل بها إلى المستعمرات وضمان السيادة البحرية وتنمية التجارة الانجليزية ، ويرد ذلك إلى قيام طبقة واحدة بالحكم هي طبقة النبلاء ، وإن كنا نرى أن نمو الطبقة البرجوازية في إنجلترا ونشاطها التجاري كان أبعد أثرا في تنمية المصالح التجارية الانجليزية ، والاتجاه إلى البحر . والاهتمام بالقوة البحرية ، من أي جهد او نشاط بطبقة النبلاء . ولكنه عاد يقول إن الحكومة البريطانية قد اختطت سياسة بحرية محددة منذ البداية تقوم على سيادة البحر وتكوين امبراطورية فيما وراء البحار قامت على تنفيذها بعيدا عن تدخل الملك أو الأحزاب ، فقد جعلت منها هدفا قوميا يعلو على الملك وعلى الاحزاب معا . وإن اعتراه الشك في استمرار تلك السياسة على يد حكومة ديمقراطية لانتخب أن تنقل الميزانية بالنفقات الباهظة لقوة بحرية كبيرة ، أو لاعداد قوة عسكرية دائمة . ويستشهد على ذلك بما حاولته فرنسا أيام « كولبير » عندما أرادت أن تكون دولة بحرية كبيرة ، ولكن خلفاء كولبير انصرفوا عنها ، ولم تحصل الحكومة الفرنسية من

ما ادخره الفرنسيون من أموال ، على ما فيهم من بخل وتقتير حال بينهم وبين استثمارها في التجارة الخارجية .

وتحتاج التجارة إلى الأسواق ، حاجتها إلى انتاج السلع التجارية ووسائل التجارة ، فكانت حركة الاستعمار مرتبطة إلى أبعد مدى بحركة التجارة . وكما كانت إنجلترا أوسع الدول تجارة ، فقد غدت بالتالي أوسع الدول استعمارا ، وكما حققت لها قوتها البحرية سيادة البحار ، فقد حققت لها التجارة أوسع امبراطورية استعمارية .

وخص الانجليز بطبيعة استعمارية حققت لاستعمارهم النجاح وأفادت عليهم كثيرا من الربح فقد أقاموا مستعمرات مزدهرة حققت نوعا من الرخاء رفع القوى الشرائية فيها فراجت التجارة الانجليزية وواجهت اليه دولة استعمارية اخرى . ومن طبيعة الانجليزي أن يستقر في الوطن النازح ويوائم بين مصالحه الشخصية ومصالح وطنه القديم والحديد على حد سواء ، فيقيم حيث يطيب له العيش لا يعتربه قلق أو حنين للعودة مع بقائه على الولاء والود لوطنه الأم . وتلك طبيعة أعوزت غيره من المستعمرين فالمستعمر الاسباني مثلا ما كان يعنيه من المستعمرات غير اجتناء الثروة واستغلال موارد المستعمرات دون أن يعنى بتنمية تلك الموارد وإصلاحها . لذلك كان الاستعمار الانجليزي أطول عمرا وأكثر ثباتا من غيره .

٦ - النظام السياسي للحكم :

Governmental Institutions

ويرى ميهان أن نوع الحكومة وطبيعة الحاكم ومدى اهتمامهم بالبحر مما يؤثر تماما في قوة الدولة البحرية واطراد نموها ، فاذا أبدت اهتماما بالبحر ودفعت الناس اليه ، استطاعت أن تنشئ القوة البحرية التي تريدها .

التجارة أو المستعمرات ما يعوضها الانفاق على قوة بحرية كبيرة .

ويخلص من دراسته لسياسة الحكومات البحرية إلى أن الحكومة تحفظ سياسة بحرية للسلم وأخرى للحرب . فهي التي تسيطر على الأسطول زمن السلم وتقدر حاجته من العدة والعتاد وتزوده بالضباط والبحارة اللازمين ، وهي التي تبت في رعاياها روح المغامرة وارتياح البحار وتشرف على الصناعات وقدرتها على امداد القوة البحرية بحاجتها . وهي التي تضع الخطوط الاستراتيجية لسياستها البحرية بما لها من تأثير على بناء القوة البحرية ، وهي التي تشجع أو تقتل الميل الغريزي في الأفراد نحو البحر . وعند الحرب تعدد الاسطول للمواجهة الحربية وتقوم بتحسين القواعد البحرية وتأمينها في المناطق النائية ، كما تؤمن مسار السفن التجارية باعداد القوى البحرية المناسبة لحمولة الأسطول التجارى .

وتقرر الحكومة مدى تأثير القواعد البحرية على قوتها في البحر ، فتمثل منها ماتراه كفيلا بتحقيق الأمن الاستراتيجي لأسطولها الحربي وسفانيتها التجارية ولطرق المواصلات الرئيسية إلى مستعمراتها البعيدة ، فالبحار مسار محفوف بالمخاطر تزخر بالحصوم والأعداء ، وكلما ارتكز الأسطول إلى قواعد رئيسية حصينة تمده بالمؤن والازواد وتتيح له ملجأ أميناً للحشد والانقضاض ، كان أكثر أمناً وأقدر على مجابهة الأعداء وحماية التجارة وطرق الاقتراب الرئيسية إلى المستعمرات .

وليست هذه القواعد مستعمرات بالمعنى المفهوم بل هي مراكز حاكمة لها أهميتها الاستراتيجية فحسب ، فليس لها طابع تجارى ، وقد امتلكت انجلترا عددا منها أتاح لها فضلا عن قوة أسطولها سيطرة كاملة على

البحار لم ينازعها فيه منازع بعد معركة الطرف المر وليس للولايات المتحدة من تلك القواعد ما لبريطانيا ففري بواخرها « كطبور البر لانستطيع ابتعادا عن الساحل » .

والمستعمرات سند أكيد للقوة البحرية « فبالمستعمرات - كما يقول - ينفسح امتداد الدولة إلى اراض بعيدة ، نجد فيها سوقا رائجا لتجاريتها ، وعملا أوفر لسكانها ومأوى لأسطولها وموردا وفيرا لرخائها وثروتها » .

استراتيجية للبحر :

كانت أصداء التاريخ تدوى في أذن ميهان فأوحت له بالفكرة الأساسية في كتابه وهي تأثير القوة البحرية على كيان الدولة ومصيرها تأثيرا يحدد دورها في التاريخ ، وعندما أخذ يقومها ويثبتها كانت أحداث التاريخ دائما أمامه تمده بالبرهان والدليل ، ليخرج منها بالحقيقة التي راح يبشر بها ويدعو إليها طيلة حياته وهي أهمية القوة البحرية في بناء عظمة الدولة . وحملته الفكرة على وضع أسس محددة للسيادة البحرية ، كما حملته على استقراء مبادئ للاستراتيجية البحرية يمكن أن تقارن باستراتيجية الحرب أو تقف ندا لها . مادام قد أثبت أن الاسطول لم يعد جزءاً من بناء القوات البرية يسير في ركابها ويعاون في عملياتها الرئيسية ، وأنه بناء مستقل بذاته لا يقل دوره ، إن لم يفق دور القوات البرية ، بل انه ليرى أن القوى البحرية في كل صورها « هي الطريق الملكي المعبد للرخاء القومي ومكانة الدولة بين أقرانها » .

وجاءت آراء ميهان في الاستراتيجية البحرية مبعثرة في مؤلفاته الثلاثة وأخذت تتضح وتتحدد في كتبه الأخيرة .

والواقع أننا لا نستطيع أن نعرض لكتاب « تأثير

القوى البحرية على التاريخ» وحده دون كتب ميهان الأخرى فإنها جميعا تعالج موضوعا واحدا وكأنها كتاب واحد ، وإن ظفر كتابه الأول بالاهتمام فلائنه أجمل فكرته عن القوى البحرية وتبشيرها بما لها من أثر حاسم على الأمم ثم كانت كتبه الأخرى تكررارا لما جاء في كتابه الأول وإن اختلف الموضوع واختلفت الفترة الزمنية التي يتناولها .

ويبدو - وقد وضع فلسفة للسياسة البحرية . أنه قد شعر بحاجة هذه الفلسفة إلى الارتكاز على مبادئ استراتيجية تكون ندا لاستراتيجية الحروب البرية وقرينا لها فأخذ يجمع شتاتها ويحدد معالمها في دراساته الأخيرة .

وانخذ نظرية «جوميني» (١٧٧٩-١٨٦٩) في الحرب - وقد عاصره في شيخوخته - أساسا لدراساته الاستراتيجية ، فقرأ مؤلفاته . وأبدى اهتماما بكتابه « حملات الثورة والامبراطورية » و « موجز فن الحرب » . واعترف بفضلها حين تعلم منه أن ينظر إلى أحداث التاريخ البحري كصور « لمبادئ حية » ، وكيف يقوم بنقد تحليل للمعارك والحملات الحربية ، كما عرف من دراسته أن « ليس ثمة حد فاصل بين الاعتبارات الدبلوماسية والعسكرية » .

وقد صاغ جوميني نظريته في الحرب على أسس رئيسية هي :

الموقع - خطوط الاقتراب - المواصلات - الحشد . وأراد ميهان أن يصوغ مثيلا لتلك المبادئ للاستراتيجية البحرية وتكنيك الأساطيل ووجد فيها ما يصاح للبحار صلاحيته على الأرض ، وإن احتاج بعضها إلى التحوير والتعديل . فوضع بذلك أسس الاستراتيجية البحرية التي تركت لمسائها البارزة على سياسة القوى البحرية الكبرى جميعا ، وخطة كل منها .

وأحسن المواقع في الهجوم أو الدفاع ما احتل المركز ، فعلى البر كما في البحر . تسيطر مثل هذه المواقع المركزية على الخطوط الداخية والمباشرة للهجوم . فالخطوط الداخية ما هي الا امتداد للموقع المركزي . أو اتصال عدة مواقع مركزية بعضها ببعض . وفي قدرة من يسيطر عليها أن يخشد قواته على أية جبهة بأسرع مما يخشدها العدو وتكون له ميزة الاستخدام الحيد المؤثر . «فالسويس مثلا تقع على خط اقتراب داخلي إذا ما قورنت برأس الرجاء الصالح ، مثلها في ذلك مثل «بنما» إذا ما قيست «عمصيق ماجلان» . و «قناة كيبيل» بالنسبة « لسكا جراك »

ويبرهن ميهان على أن القيمة الاستراتيجية للموقع لا تتوقف على اتصائه بخطوط الاقتراب الاستراتيجية فحسب . وإنما على قوته الذاتية ، وعلى كفايته من الموارد الخلية أو القريبة . فموقع دوفر وموقع جبل طارق يتشابهان إلى حد بعيد في قرهما من الطرق البحرية ، وفي انهما موقعان مركزيان يتميزان باشرافهما على طرق مائة ضيقة يعبرها عديد من السفن ، وقد يتفوق موقع منهما في تحصيناته ، ولكنه يبقى متخلفا مادام يعتمد على موارد نائية كجبل طارق .

ويعني ميهان بالمواصلات خطوط التحرك بين القوات ومراكز الأمداد . فالمواصلات كما يقول : « هي أعظم العوامل أهمية في الاستراتيجية عسكرية كانت أو سياسية » و « عظمة القوة البحرية تكمن في السيطرة عليها » و « القدرة على تأمين المواصلات ، وبالتالي عرققتها في وجه العدو أقوى وأعظم ما يؤثر على شموخ الأمة » وهو ما تمتاز به القوى البحرية ، وعليها لهذا وحده أن تتحرر من كل ما يعوق قدرتها من حيث العدو أو الموقع » وكلما طالت طرق

المواصلات ، كلما مست الحاجة إلى القوة البحرية » .
« يصبح الموقع المركزى أكثر نفعا كلما كان أقدر على تأمين طرق المواصلات . وهو ما كان لفرنسا في حربها ضد اسبانيا والنمسا ، كما كان لانجلترا في حربها مع فرنسا ، فقد تمكن الأسطول الانجليزى من حصار السواحل الفرنسية ، كما تمكن من تأمين المصالح البريطانية من البلطيق إلى مصر .

والحشد - كما يؤكد ميهان - من أبرز مبادئ الحرب البرية والبحرية على السواء ، وما قيمة الموقع المركزى إلا أنه يجعل عملية الحشد أكثر كفاية ويسرا ، فاذا واجه الأسطول قوتين فعليه أن يحتشد ليجهز على كل منهما منفردا ، وهو مبدأ يتقنه ميهان من دراسته للمعارك التاريخية ، « فما من معركة إلا وكان النصر أو كانت الهزيمة نتيجة لما جرى عليه الأخذ بمبادئ الحرب » .

ويرجع تفوق الاسطول البريطانى إلى سلامة استراتيجيته البحرية وتفوقها ، فقد اكتشفت الانجليز منذ أزمنة طويلة أن بعض العمليات البحرية كانت أكثر نجاحا من غيرها ، ففي الحرب مع هولندا واجه اسطول شارل الثانى الهزيمة لأنه تجافى مبدأ الحشد وقسم أسطوله قسمين ، قسم لمواجهة الاسطول الفرنسى والآخر لمواجهة الاسطول الهولندى فى وقت واحد . وانتهت باحتلال الهولنديين لمدخل نهر التيمز ، ولم يكن قد مضى غير خمسة عشر عاما حين أغلق أسطول كرموبل القوى موانئ هولندا على تجارها . وفى الفترة ما بين عام ١٦٨٩ وعام ١٦٩٨ ، سير الفرنسيون أساطيل عظيمة لاقتسام السيطرة على البحار مع الانجليز الذين تحملوا من جراء المحاولة خسائر جسيمة ، وفى خلال حرب الوراثة الاسبانية (١٧٠٢-١٧١٢) انسحب الاسطول الفرنسى من المحيطات ،

بينما ضاعف الفرنسيون من عدد الطرادات المغيرة على السفن التجارية . وبالرغم مما فقده الانجليز من التجارة والتجار والسفن التجارية ، فقد ازدهرت التجارة الانجليزية ، بينما اختفى التجار الفرنسيون من البحر . وبدأ أن « حرب التعرض » ليست بديلا موقفا للعمليات البحرية .

وكانت العمليات البحرية ضد فرنسا فى حرب السنين السبع (١٧٥٦-١٧٦٣) ، دليلا على تطور الاستراتيجية البريطانية ، ففيها قام الاسطول البريطانى لأول مرة بحصار « برست » ليحول بين الأسطول الفرنسى والخروج إلى البحر مالم يشق طريقه بالقتال ، ففرض الحمود على السلاح الهجومى الوحيد لفرنسا وهو الأسطول ، وأصبحت عاجزة تماما عن استخدامه استخداما له قيمته العملية ، بينما أخذت السفن البريطانية فى شن غارات سريعة على الساحل الفرنسى لتبقى قوات فرنسا البرية مشتتة فى الدفاع الساحلى ، كما حشد الانجليز أسطولا فى البحر المتوسط قرب جبل طارق لمنع أسطول طولون الفرنسى من التحرك لنجدة الاسطول الفرنسى على الجانب الآخر . وعندما خلا البحر لهم أرسلوا الحملات للاستيلاء على المستعمرات الفرنسية فى جزر الهند الغربية ، وأنهارت التجارة الفرنسية بينما ازدهرت تجارة الانجليز .

وبانتهاء الحرب أدركت الحكومة الانجليزية أن السيطرة البحرية هى مفتاح الرخاء والنجاح وبذلك تحولت « مملكة بريطانيا - كما يقول ميهان - إلى الإمبراطورية البريطانية » .

ويقارن ميهان بين استراتيجية البحرية الإنجليزية واستراتيجية البحرية الفرنسية ، مناقشاً الخطأ والصواب فى كل منهما ، بما يتمشى ونظرتيه إلى استراتيجية البحر ، فيقول إن الاختلاف بينهما يعكس وجهات النظر

المتباينة للغرض الحقيقي من الحرب البحرية ، فإذا كان الغرض تأمين المواقع الساحلية ، كان الأسطول في هذا سلاحاً معاوناً وفرعاً من فروع الجيش ، وكانت تلك هي وجهة النظر الفرنسية ، بالرغم مما قاله « بيغو دي موروجي - Pigot de Moragues - أعظم رجال التكنيك في فرنسا حينذاك ، وأول مدير للكلية البحرية الفرنسية - من أنه « لا يوجد في البحر ميدان للمعركة يمكن الاحتفاظ به ، ولا مكان يجب الاستيلاء عليه » وإن كان التاريخ لا يدع شكاً في أن حروب البحرية الفرنسية كانت حروب « مواقع » وأن عمليات الأسطول كانت جزءاً من عمليات الهجوم والدفاع عن المواقع .

فإذا كان الغرض من القوة البحرية أن تتفوق على بحرية العدو للسيطرة على البحر ، فإن سفنه وأساطيله تغدو وهي الغرض الأصيل للاقتحام في كل الأحوال ، وكانت تلك هي وجهة النظر الإنجليزية ، فكان على أسطولهم أن يحطم قوة العدو في البحر ، ويقطع عليه المواصلات إلى ممتلكاته ، وينضب موارده من الثروة التي يجنيها عن طريق التجارة ، ويكون من اليسير عليه أن يغلق عليه موانئه .

ويفسر لنا وجهة النظر الفرنسية ما تكبدته فرنسا في حروبها البرية بالقارة من نفقات . فرأت الاترهقها نفقات القوة البحرية ، وفضلت الطرادات والغارة على السفن التجارية ، وهذا النوع من العمليات ، وهو ما يعرف « بحرب التعرض - Guerre de Course » فضلاً عن قلة نفقاته يحقق الهجوم على التجارة البريطانية مورد القوة والثراء للإنجليز ، إلا أنهم أهملوا الأصل متشبثين بالفرع - كما يقول ميهان - وانصرفوا إلى الغارة على تجارة العدو دون القضاء على قوته البحرية . وتاريخ النزاع الفرنسي الإنجليزي حافل بالأمثلة

التي تبرز أوجه التباين بين الاستراتيجية والتكنيك البحري لكل منهما ، فقد كان الفرنسيون يتجنبون القتال ما أمكن ، ولا يخرجون إلى البحر ما لم تضطرهم الظروف ويفضلون أسر السفن الإنجليزية بدلاً من تدميرها ، فإذا اضطروا للقتال اختاروا جانب الريح لأن هذا يفرض على العدو « المخاطرة بالهجوم » ويمكنهم من « عرقلة اقترابه » ، بينما يفضل الإنجليز اختيار الجانب المضاد للريح حتى يضمنوا دقة التوجيه عند الاقتراب بالتحكم في الدقة دون تأثير للريح « وكانت « خططهم تقوم على الاقتحام لتحطيم سفن العدو » .

واستطاع الفرنسيون خلال الحروب النابليونية أن يوقعوا بالسفن التجارية الإنجليزية لسنوات طوال وبشكل لم يسبق له مثيل ، ولكنهم لم ينجحوا في ارغامهم على التسليم والتفاهم ، وعلى العكس أخذت سيطرة الإنجليز البحرية تطرد ، وأصبح دنو السفن من الموانئ الفرنسية محفوفاً بالخطر فارتفعت نفقات المعيشة في فرنسا ، وازدادت متاعب الحصار القاري ، بينما اتسعت التجارة الإنجليزية ، ونمت قوتهم البحرية . وحين أغفل الإنجليز حصار الأسطول الفرنسي في « برست » خلال حرب الاستقلال الأمريكية ، ووزعوا قوتهم لحماية المستعمرات ، لم يقتنص الفرنسيون وحلفاؤهم تلك الفرصة للسيطرة على المانش واتجهوا للسيطرة على المياه الأمريكية ، فكان تسليم « كورنواليس » أمام الأمريكيين والفرنسيين في « يوركتون » وكان استقلال الولايات المتحدة الأمريكية .

وتقوم عقيدة ميهان الاستراتيجية على السيطرة البحرية التي تتحقق - كما يرى - بحشد القوى القادرة على طرد أساطيل العدو الحربية والتجارية من البحار ، « ولا يتأتى هذا - كما يقول - بالاستيلاء على السفن والقوافل البحرية قلت أو كثرت ، مهما كان خطرهما على

موارد الثروة والتجارة ، وإنما يتأتى بامتلاك القوة البحرية الضاربة . التي تزيح أعلام العدو عن البحار ، فلا تخفق إلا فوق صوار آفة أو شاردة ، والتي تسيطر على أعالي البحار ، فتجتازها التجارة غادية رائحة آمنة من سطوة العدو ، ولن تكون تلك القوة البحرية الضاربة إلا للأساطيل الكبيرة .

« فإذا لم يكن الغرض الكبير للأسطول هو المطاردة أو الهجوم ، وكانت السيطرة على البحار ، فإن الطابع المؤثر لمثل هذا الأسطول ، هو قوة العمل الهجومى ، وليس السرعة ، فما من فائدة في الوصول أولاً ما لم تكن من القوة التي تجابه بها العدو عند وصوله » وهذا المبدأ - كما يعتقد - أصدق في البحر منه على البر ، فالعجز في قوة النيران لا يمكن سده في البحر كما يمكن سده في البر باختيار المواقع الأرضية المناسبة ، وحيث يكون للسرعة جدواها ، وإن لم يكن على حساب قوة النيران ، لذلك أصبحت البوارج ذات المواقع الضخمة عماد الأسطول .

وإذا لم يكن للدولة أسطول قوى فإن أحسن ما تقوم به أن تحتفظ به داخل ميناء حصين لتلقى على العدو عبء حصاره حتى لا ينطلق إلى البحر ، وإن كان هذا لا ينقذه في النهاية من مصيره المحتوم أمام أسطول قوى . ويخرج ميهان من مناقشته للسياسة البحرية للولايات المتحدة بمبادئ تكمل نظريته الاستراتيجية ، فتراه ينكر أن يعد الأسطول للدفاع فحسب ، وهو خطأ وقعت فيه الولايات المتحدة بسبب الخلط بين الدفاع من الوجهة السياسية والدفاع من الوجهة العسكرية ، فالدفاع من وجهة النظر السياسية يعنى استخدام الأسطول عند الاشتباك في حرب ، ويعنى من وجهة النظر العسكرية أن يقعد حتى يهاجمه العدو فيدافع عن نفسه ، تاركاً للعدو حرية اختيار الوقت وتحديد أسلوب

القتال . وليس من مهمة الأسطول أن يقوم بمثل هذا « الدفاع السلبي » عن السواحل ، فهذا من واجب الجيش ، فإذا قام به الأسطول فلن يكون رجاله المدربون أكثر من حراس للطواني « وهي من الكثرة بحيث تحول دون حشد القوات البحرية ، فإذا كانت القلاع والطواني هي محور الدفاع الساحلى فإنها بالتالى تحقق للأسطول الأمن حين يلجأ إلى قواعده وموانيه ، وحتى إذا كان الأسطول لأغراض الدفاع فحسب ، فإن عليه أن يزيد من عدد بوارجه نسبياً ليحول بين العدو القادم من مناطق نائية وبين التفكير في الهجوم .

فالغرض الاستراتيجى في نظرية ميهان هو السيطرة على البحر ، والوسيلة هي التفوق في التسليح البحرى ، والقاعدة هي العمل الهجومى .

القنبلة الحارقة :

قد نصف كتابه كما وصفه كاتب معاصر ، بأنه أقوى من أية مادة متفجرة ، وقد نتفق على نعتة « بالقنبلة الحارقة » ، إذا ما أردنا أن نصور فقط ما كان لكتابه من تأثير بالغ في نمو القوى البحرية ، وفيما وصلت إليه قوة الأساطيل الحديثة ذات البوارج الضخمة ، والمدافع البعيدة المدى من عيار الست عشرة بوصة ، فلم يكن ميهان ممن تسوقهم نزعة الشر إلى التدمير ، ولم يكن من أصحاب المزاج السوداءى ممن ينتشون برؤية الدماء ، ولم يكن حتى من أرباب نظرية الاستعلاء الامبراطورى ، ولكنه رجل وصلت به دراساته إلى حقيقة آمن بها واعتنقها وبشر بها ودعا إليها وهي أن قوة الدولة في قوة بحريتها ، فإذا كانت نظريته في الاستراتيجية البحرية قد حملته على تأييد الاستعمار ، فإنه لم يكن في جوهره استعمارياً ، ولكنه عبر عن حقيقة عصره تعبيراً صادقاً .

وعاش ميهان ليرى دعوته تفرع أسماع الدول

الولايات المتحدة منذ ذلك الوقت قد سارت في الاتجاه الذي رسمه لها ميهان ، فتنبى صديقه « ثيودور روزفلت » فكرته عن شق قناة بحرية في أمريكا الوسطى تربط الأطلنطي بالباسفيكى عندما تولى الرئاسة ، فإن شق هذه القناة - كما يقول ميهان - عمل استراتيجى جليل بشرط أن تسيطر الولايات المتحدة على كافة خطوط الاقتراب إليها .

وتحولت الولايات المتحدة عن استراتيجىة الدفاع الساحلى إلى استراتيجىة البحرية على المياه الخارجىة للقارة الأمريكية فاستولت على القيلين وجزر هاواى وبعض المواقع فى أرخبيل ساموا وأصبح البحر الكارىبى فى قبضتها بعد هزيمة أسبانيا فى كوبا ، وسارت فى بناء أسطول قوى حتى غدت واحدة من أقوى دول العالم البحرية ، وأخذت تتطلع إلى سيادة البحر حين طالب الرئيس ويلسون الكونجرس عام ١٩١٥ بأن يكون الأسطول الأمريكى على قدم المساواة مع أقوى أسطول فى العالم ، ثم كان القانون البحرى لعام ١٩١٦ ، بعد أقل من عامين على وفاة ميهان ، فغدت به أقوى دولة بحرية فى العالم .

ولقى كتاب « ميهان » فى بريطانيا ما لم يلقه فى بلاده ذاتها ، فالانجليز أمة بحرية أقامت امبراطوريتها على متن الخضم ، وغدا أسطولها وله السيادة التامة على البحار ، إلا أن الكتاب صدر فى فترة تقدمت الحكومة البريطانية فيها برنامج للتوسع البحرى يقوم على قاعدة مساواة الأسطول البريطانى بقوة أقوى أسطولين لأقوى الدول مجتمعين معاً ، وجاء الكتاب مؤيداً لنظرية البحرية على نظرية الجيش فى الدفاع الاستراتيجى عن الجزر البريطانية ، إذ كان العسكريون من رجال الجيش يميلون إلى تحصين الشواطىء بالاستحكامات والقلاع ضد الغزو الخارجى . وما أسف الانجليز

كهزيم مدافع الأسطول القوية التى نادى بها ، وتركت آراؤه آثارها البالغة فى سياستها البحرية وفى التسليح البحرى ، كما كانت مثار النقاش عند الجيوبولتكين ، ابتداء من « ماكيندر » إلى « ستراوزهونى » و « هوسوفر » ، وفتحت ميدان الجدل قوياً فى مستقبل القوى البحرية بعد التوسع فى مد الخطوط الحديدية وبعد ظهور الطائرة كسلاح مقاتل ، وكوسيلة من وسائل النقل السريع ، وشهد ميهان التوسع القارى فى مد الخطوط الحديدية ، ولعله سمع عن مشروع خط حديد الشرق « برلين - بغداد - رأس الخليج » . ولكنه لم يعش ليرى المستقبل الذى خطه الطيران ، ومن الطبيعى ألا يتصور حاملات الطائرات الضخمة كجزء من تسليح الأسطول ، وإن أشار مراراً إلى أن الاستراتيجىة تصمد كصخرة صماء لا تتغير بينما يتطور التسليح ويتغير .

ولقد كان ميهان قد وضع الأساس النظرى والعملى لقوة الولايات المتحدة البحرية ، فقد كانت دعوته من السعة والشمول حتى غدت نبراساً يهتدى لكل الدول التى تنشئ التفوق البحرى ، بل كانت الشعاع الذى اهدت به بريطانيا فى المحافظة على قوتها البحرية .

ويقال إن تأثيره فى سياسة الولايات المتحدة البحرية بدأ حتى قبل أن ينشر كتابه هذا ، فى تقرير وزير البحرية الأمريكية لعام ١٨٨٩ ما يتضمن الكثير من آراء ميهان التى وردت فى محاضراته بكلية نيوبورث البحرية وكان قد بدأها قبل ذلك بثلاث سنوات ، وعند دراسة الاحتياجات البحرية للولايات المتحدة بعد ذلك مباشرة ، تقدمت اللجنة التى شكلت لذلك - وقد اعتمدت فى تقديرها على آراء ميهان - باقتراح بناء مائتى بارجة حديثة ،

ويمكن أن نقول إن السياسة البحرية التى اختطتها

لنظرية ، وبلغ من تقديرهم له أن الامبراطور الشاب « غليوم الثانى » كتب عام ١٨٩٤ إلى صديق له يقول : « إننى لا أقرأ كتاب ميهان بل التهمه التهاماً وإنى لأحاول الآن أن أحفظه ظهراً لقلب ، فهو من أمهات الكتب العلمية ، تراه فى كل سفنى ، مرجعاً للقباطنة والضباط فى أسطولى يقتبسون منه ويهتدون بهديه » . وإن حالت موارد ألمانيا وطبيعة موقعها الجغرافى بينها وبين التفوق البحرى .

واحتفت به اليابان ، فكان الكتاب جزءاً من المهمات التى تصرف لضباط البحرية ، وبلغ بهم الاعجاب بميهان أنهم كانوا يستشيرونه فى كل ما يتصل بإنشاء القوة البحرية من بناء السفن إلى العتاد وأنواع التسليح البحرى ، ثم عرضوا عليه أن يكون المستشار الرسمى للبحرية اليابانية وان اعتذر عن المنصب ، فقد ظلوا يهتدون بتعاليمه حتى أصبحت اليابان أعظم قوة بحرية فى الشرق الأقصى ومنافساً خطيراً للولايات المتحدة وبريطانيا فى البحر .

ومن المؤكد أن ميهان الذى انتابه القلق ، وهو على فراش الموت عام ١٩١٤ ، من شعوره بأنه كان سبباً فى نمو البحرية الألمانية ، كان سيغدو نادماً أكثر منه قلقاً لو قدر له أن يشهد كارثة الأسطول الأمريكى فى « بيرل هاربر » على يد اليابان .

لشئء قدر ما أسقوا لأن « أمريكيا هو الذى فتح أعين هذا الجيل من الانجليز على ما للقوة البحرية من أهمية وإن عادوا يقولون فى نوع من الكبرياء إنه يسرهم أن يعترفوا لميهان بالفضل بصفته الأجنبى الوحيد الذى يحق له « أن يقدم لهم النصيحة فى شئونهم الخاصة » . ووصف جلاد ستون كتابه « أثر القوة البحرية على الثورة الفرنسية والامبراطورية » بأنه « كتاب الجيل » ، وأشار « لورد سيدهام » إلى مؤلفاته بقوله : « لقد أصبحت لنا - لأول مرة - فلسفة بحرية تستند إلى التاريخ » .

وبالرغم مما تركه الكتاب من تأثير فى نفوس الفرنسيين . حمل أساتذة الاستراتيجية الفرنسية على الاعتراف بتقدمه لاستراتيجيتهم البحرية ، فإنه لم يلقى من تقديرهم ما لقيه من تقدير فى البلاد الأخرى ، ولعله قد أثار فى نفوسهم ذكرى هزائهم الماضية فى البحر . وفى وصف « الأميرال راؤول كاستكس » الأستاذ بأكاديمية الحرب الفرنسية ، لأسلوب الكتاب بأنه « كريه » ما يصور شعور الفرنسيين حياله ، وإن لم يحل هذا الوصف بين « كاستكس » وبين تقدير الكتاب بقوله : إن هذا لا يقلل إطلاقاً من قيمة الكتاب وإبداعه الحق فى ميدان النظرية الاستراتيجية .

إلا أن الكتاب كان بالنسبة للألمان دستوراً احتذوه ، وساروا على هديه ، وإن أخطأوا فى التطبيق الكلى

جارجنتوا وبانتاجرويل لفرانسوارابليه

بمقام
الدكتورة كوثر عبدالسلام

أحب دراسة اللغات القديمة والتعمق فيها لاسيما اليونانية . وكان لرابليه الكثير من الأصدقاء من الكبراء كانوا يتولون حمايته من حقد رؤسائه وبطشهم . وعلى رأس هؤلاء الأصدقاء الحماة جوفروا ديستيساك الذى كان يمدد بما يحتاج إليه من كتب ، وأسفار فى أبحاثه ويحيطه بالرعاية حتى نهاية حياته .

ومنذ تلك الفترة المبكرة من الحياة العلمية لفرانسوا رابليه بدأ من حوله يدركون أنه أوسع الإخوان الفرنسيسكان علماً ، ولذا فقد توجس منه رؤساؤه خيفة واستشعروا الخطر من ناحيته فبدأوا يشنون عليه حرباً شعواء منذ حوالى سنة ١٥٢٣ ، ولكنه كان يتغلب على كيدهم له بمعاونة أصدقائه الذين تعهدوا بحمايته . وبفضل جوفروا ديستيساك سمح البابا لفرانسوا رابليه بأن يلتحق بكنيسة سان نبرا وأن يصبح سكرتيراً لأسقفها . وكان رابليه فى هذه الفترة يوانى قراءاته المفضلة إلى نفسه ، و يقوم فى الوقت نفسه بأداء واجباته الدينية كتلاوة القداس والوعظ والإرشاد .

ولن يلبث رابليه أن يمر فى حياته بفترة مضطربة مالت فيها نفسه مع ميوله العلمية على حساب التزاماته

منهج البحث : حياة فرانسوا رابليه - مؤلفاته - فرانسوارابليه الفنان - فرانسوا رابليه وعلم التربية الحديث - الآراء الدينية لفرانسوا رابليه مع مقتطفات مترجمة من مؤلفاته - لماذا تعتبر مؤلفاته من تراث الإنسانية .

حياة فرانسوا رابليه :

لم يتمكن الباحثون حتى يومنا هذا من تحديد السنة التى ولد فيها فرانسوا رابليه ، إلا أنهم يرجحون أنه ولد سنة ١٤٩٤ . وفرنسوا هو الابن الثالث لأنطوان رابليه . وقد ولد فى ضيعة أبيه فى الديرين بالقرب من مدينة شينوف . وتضم مؤلفات رابليه الكثير من الذكريات عن هذه الضيعة وهذه المنطقة .

ولقد كانت رغبة أبيه هى أن يكرسه لحياة الرهبنة . ولذا فقد بدأ فرانسوا دراسته الأولى فى دير سوني وأتمها فى دير « لابوميت » بالقرب من مدينة أنجيه . ولما بلغ السادسة عشرة من عمره التحق بدير الكرردليه فى فونتنيه - لو - كونت ، حيث رسم قسيساً .

وفى هذا الدير لم تلبث أن تكونت جماعة من عشاق البحث العلمى كان على رأسها فرانسوا رابليه الذى

الدينية . فلقد بدأ يدرس الطب محققاً بذلك رغبة كان يكنها في أعماقه من زمن طويل ، وحصل من جامعة مونبلييه على درجات علمية ثلاث في الطب كانت آخرها هي الدكتوراه سنة ١٥٣٧ . وبدأ فعلاً يمارس مهنة الطب في مدينة ليون . وفي سنة ١٥٣٤ قام بأول رحلة له إلى روما لاكتسيس ولكن كطبيب . وكانت تلك مناسبة ثمينة بالنسبة له إذ أتيح له حضور جميع استقبالات البابا ، كما تمكن من التغلغل في حياة تلك المدينة والاعتقاد عليها ، وبعد عدة أشهر عاد إلى فرنسا . ويعتقد النقاد أنه ألف كتابه « جارجاتوا » بعد عودته من روما ، وربما كان ذلك في شهر أكتوبر سنة ١٥٣٤ .

ولقد كان للحماس الذي ظهر في كتابه هذا ضد جمود العصور الوسطى وما نشره فيه من نظريات تربوية وسياسية جديدة أثره في أن ينظر إليه المجتمع بعين الريبة والشك . ولذا فقد آثر رابليه الاختفاء من الحياة العامة بعض الوقت . وفي سنة ١٥٣٥ سافر إلى روما للمرة الثانية وانتهاز فرصة وجوده فيها فطلب من البابا أن يصفح عنه بسبب انفصاله عن البندكتان ، كما تمكن من الحصول منه على إذن بالالتحاق بدير سان مور الذي لم يلبث أن أصبح مدنياً خارجاً عن نطاق الكنيسة . وهكذا ألقى رابليه نفسه وقد تحرر من التزاماته كراهب ، واستمر يمارس مهنة الطب في ثياب غير كهنوتية . ثم عاد إلى مونبلييه للحصول على الدكتوراه في الطب سنة ١٥٣٧ كما أسلفنا . وبعد ذلك أخذ يقوم برحلات في وسط وجنوب فرنسا القصد منها الاختفاء عن الأعين حتى لا يضطهد بسبب مؤلفاته . وفي سنة ١٥٤٠ تولى جيلوم دي بيلليه حمايته ، ثم تولاها بعد وفاة هذا الأخير شقيقه رنيه دي بيلليه . وفي سنة ١٥٤٣ استطاع رابليه أن يحصل

من الملك على بعض الامتيازات « لاعادة نشر كتبه ومؤلفاته » ولم يلبث أن نشر كتابه الثالث .

وحينما مات فرانسوا الأول غادر الكاردينال دي بيلليه البلاد ، لأنه كان من المقربين إلى هذا الملك ، وذهب للإقامة في روما حيث تبعه صديقه الوفي رابليه ، إلا أنه كان يعود إلى فرنسا من حين لآخر . وفي سنة ١٥٥١ أصبح ، بفضل جان دي بيلليه ، راعياً لأبروشية مودون . وكان رابليه يحصل على الغلة المادية لهذه الأبروشية دون أن يقيم فيها ، بل كان يقيم في سان مور بجوار صديقه وحاميه الكاردينال دي بيلليه . وانتهى من كتابة مؤلفه الرابع الذي نشر سنة ١٥٥٢ . ولكن البرلمان لم يلبث أن أمر بإيقافه . ومنذ ذلك العهد فقد الناس كل أثر لفرانسوا رابليه الذي ربما يكون قد توفي سنة ١٥٥٣ أو في بداية سنة ١٥٥٤ ، وظهر مؤلفه الخامس بعد وفاته فيما بين عامي ١٥٦٢ و١٥٦٤ وما تزال نسبه لرابليه من الأمور المشكوك فيها .

مؤلفات فرانسوا رابليه :

وهكذا نرى أن فرانسوا رابليه قد خلف للإنسانية خمسة مؤلفات :

١ - باننا جرويل :

وأول هذه المؤلفات الخمسة هو « باننا جرويل » الذي نشر سنة ١٥٣٢ تحت اسم مستعار هو الكوفريباس نازيه . وقبل نشر هذا الكتاب كان قد ظهر في مدينة ليون كتاب غفل من ذكر اسم مؤلفه يحكى قصة مغامرات العملاق جارجاتوا . وحظي هذا الكتاب بنجاح كبير في الأوساط الشعبية . وأراد رابليه أن يستفيد من نجاح هذا الكتاب مجهول المؤلف ، وأن يمارس هذا النوع نفسه من كتب المغامرات فنشر مؤلفه الأول هذا « بانناجرويل » . إلا أن الفرق كان شاسعاً بين هدف المؤلف الشعبي الذي لم يكن يقصد

إلا إلى تسليية الطبقات الشعبية من القراء وهدف رابليه الذى أراد أن يجمع بين تسليية القراء بما فى جعبته الواسعة من دعايات استقاها من قراءاته الكثيرة وبين إفادتهم بالكثير من التفاصيل عن الحياة الواقعية .

وفى هذا الكتاب يتخيل رابليه أسرة من العمالقة حجماً وعقلاً يفكرون بطريقة مختلفة عن طريقة الناس فى العصور الوسطى . وبناتجرويل هو ابن جارجاتوا . ويأخذ رابليه فى سرد مغامرات هذا العملاق ليبدو فى ظاهر الأمر أنه يسلى قراءه كما فعل الكاتب الشعبي الذى سبقه ، إلا أن جو العمالقة هذا لم يكن فى الواقع إلا غطاء لما يريد التعبير عنه من أفكار جديدة مخالفة أو مناقضة لأفكار الكنيسة والجامعة فى ذلك الوقت . ولقد كان كبار الكتاب والمفكرين يتفننون دائماً فى خلق الوسائل التويهية تلك ليتمكنوا من نشر آرائهم وهم فى مأمن من بطش أصحاب السلطة وأولى الأمر كما فعل لافونتين فيما بعد حين اتخذ من دنيا الحيوان فى أقصاصه ستاراً يحتسى به ضد بطش أصحاب السلطة . ونلاحظ أن بعض فصول كتاب « بانناجرويل » تبعد بعداً تاماً عن جو الدعايات الشعبية وتنشر الأفكار الإنسانية السامية التى حارب بها رابليه جمود العصور الوسطى لا سيما الفصول التى ينتقد فيها « روتين » العلوم القضائية التى يدافع فيها عن الانجيلية .

٢ - جار جانتوا :

نشر رابليه كتابه الثانى « جارجاتوا » سنة ١٥٣٤ . وكما ذكرنا فيما سبق فقد ظهر هذا الكتاب إثر عودته من رحلته الأولى إلى إيطاليا . وبما أن جارجاتوا هو أبو بانناجرويل فقد أصبح هذا الكتاب هو الأول بالنسبة للمحنة العمالقة هذه ، بينما اعتبر بانناجرويل هو الكتاب الثانى .

وخطة هذا الكتاب هى :

(١) طفولة جارجاتوا ودراسته - صولاته وجولاته فى الحرب - مكافأته للمستصرين بإنشاء كاتدرائية تيلم .

(ب) إذا تركنا جانباً جو العمالقة المفتعل هذا نجد أن الكتاب يصف الحياة الواقعية فى المنطقة التى عاش فيها رابليه وما تقوم عليه من تقاليد وعادات بكل دقة وأمانة ولذا فتعتبر هذه الفصول مرجعاً تاريخياً لحياة الفرنسيين فى هذه الفترة . وهذا الكتاب خاص بالذكريات الشخصية لفرانسوا رابليه نفسه .

(ج) فى هذا الكتاب يذكر رابليه رأيه فى صراحة تامة حول بعض المشكلات العامة كمشكلة التعليم والحرب والفتوحات ، ويهاجم علماء اللاهوت فى السوربون ويهاجم كذلك الرهبان الذين يركنون إلى الكسل والترف ويسدد ضرباته إلى الخرافات الدينية والشعوذة . ومن أهم مميزات هذا الكتاب أن بعض فصوله تحمل دعوة صريحة من المؤلف نحو العودة إلى تعاليم الإنجيل الحالصة وحدها والبعد عن تفسيرات علماء اللاهوت وإضافاتهم الخاطئة .

٣ - الكتاب الثالث :

ظهر هذا الكتاب سنة ١٥٤٦ . ومما يثير الانتباه أنه خلو من أى هجوم على الكنيسة أو الجامعة أو الحكومة ؟ ترى ما السبب فى ذلك ؟ هل تخلى رابليه عن حماسه وعن سياسته ؟ لقد كان ثمة عاملان حملاً رابليه على العدول عن سياسته الهجومية السابقة ، أو على الأقل على التخفيف من حدتها . وأول هذين العاملين أن الملك كان قد أباح سنة ١٥٣٤ للسوربون حرية التصرف ضد كل من يهاجم المعتقدات والأفكار القائمة ، ولذا فقد غادر رابليه مدينة ليون فى فبراير سنة ١٥٣٥ من

باب الاحتياط . وثانى هذين العاملين أن رابليه كان راعياً في التقرب إلى الملك وكسب وده .

وكان رابليه قد سئم موضوعات العمالقة جارجاتوا وبانتاجرويل فجعل بطل هذا الكتاب : بانورج . وخطه الكتاب الثالث هي نفسها خطة الكتابين السابقين فهو يدرس الموضوعات الاجتماعية والعلمية والسياسية في قالب من قصص المغامرات . ومن أهم موضوعات هذا الكتاب موضوع الزواج . ويبحث بانورج موضوع الزواج فيقول لنفسه : « تزوج إذن » . ثم يعود فيبحث مضاره فيقول لنفسه : « لا تتزوج إذن أبداً . » ويأخذ في تأمل النجوم وتفسير الأحلام واستشارة العرافات والمنجمين والأطباء فلا يدهل أحد من هؤلاء إلى رأى حاسم في هذا الموضوع أو يهديه إلى طريق يضمن له الوصول إلى السعادة . وتدور كل هذه المداولات والاستشارات في جو كوميدى سوف يستلهم منه مولير فيما بعد بعض مواقف تمثلياته الكوميدية . ويقطع بانتاجرويل ، الذى يقوم في هذا الكتاب بدور بعيد عن دور العمالقة كما رأيناه في الكتابين السابقين ، يقطع الموضوع بأن يندد بالزواج الذى يتم دون رأى الوالدين ، ويخضع خضوعاً تاماً في هذا الموضوع لرأى والده .

ورغم الاحتياطات التى اتخذها رابليه في هذا الكتاب للتخفيف من حدة هجومه على الكنيسة والجامعة فقد صودر الكتاب كسابقيه واضطر المؤلف إلى الاختفاء في مدينة متر في مارس سنة ١٥٤٦ .

٤ - الكتاب الرابع :

في سنة ١٥٤٨ نشر رابليه أجزاء من الكتاب الرابع عبارة عن أحد عشر فصلاً تتسم بالتروى والبعد عن كل هجوم ضد علماء اللاهوت . وفي سنة ١٥٥٠

حصل من الملك على حق إعادة طبع مؤلفاته وأخذ للأمر أهبطه وبدأ العمل . إلا أنه فيما بين عامى ١٥٥١ و١٥٥٢ اشتد التنافس على السلطة بين البابا يوليوس الثالث و الملك هنرى الثانى . وأراد رابليه أن يتنهر هذه الفرصة ويهاجم البابوية مخفياً وراء وسائل التعمية المكشوفة التى كان يتفنن في خلقها ، إلا أن تلميحاته كانت تتجه رأساً ضد أطماع البابوات الدنيوية . وقد حدث هذا لسوء الحظ في وقت تم فيه الصلح بين البابا والملك . وهكذا أصدر البرلمان أمراً بمنع تداول هذا الكتاب كما منع من قبل الكتب الثلاثة السابقة .

٥ - الكتاب الخامس :

ظهر هذا الكتاب سنة ١٥٦٤ بعد موت رابليه بعدة سنوات وكما أسلفنا ما زال النقاد يشكون حتى الآن في نسبة هذا الكتاب للمؤلف لأن أسلوبه وطريقته في سرد الأحداث تختلف تماماً عن طريقة رابليه .

ومع ذلك فإن أسلوبه الساخر يبدو من حين لآخر في بعض فقرات من الكتاب بحيث يصعب على الناقد أن يقطع برأى فاصل فيما إذا كان الكتاب للمؤلف نفسه أم لكاتب آخر يتفنن في تقليده . وربما يكون من العسير بل من المستحيل إزالة الغموض المحيط بهذا الموضوع .

فرانسوا رابليه الفنان :

من أهم ما تتميز به مؤلفات فرانسوا رابليه نزعتان : هما النزعة الإنسانية ونزعة حب الطبيعة .

أما نزعة الإنسانية فتتجه إلى تقدير الإنسان ومنحه الثقة المطلقة . إن هذا الإنسان الذى جعلت منه الكنيسة في العصور الوسطى آلة صماء لترديد التعاليم الدينية عن ظهر قلب دون وعى أو إدراك صحيح لروحها الحق ومقصدها السليم ، والذى لم توله هذه الكنيسة أى قسط من الثقة يستطيع أن يصل إلى مستوى رفيع من

كل قيد التي يمنحها رابليه للإنسان موضع جدال بين النقاد ، إلا أن ذلك لا يمنع من إقرار فضل هذا الفيلسوف في أنه أول من أطلق تلك الصيحة التي ردت للإنسان اعتباره وكرامته وحرية بعد أن سلبتها منه العصور الوسطى لمدة طويلة . وهو في ذلك أشبه بنبي يطلق أول صيحة تدعو إلى طريق الحق في زمن كان الناس فيه يعمهون في ظلمات الضلالة والجهل .

الواقعية في أدب فرانسوا رابليه :

وإذا بحثنا مؤلفات رابليه من الناحية الأدبية وجدنا أنه من أوائل الكتاب الفرنسيين الواقعيين الذين يصفون الواقع بطريقة مجسمة دقيقة حية تجعل القارئ يعيش فيه بكل حواسه لا يخيله فقط ، كما أنه يملك فن إحياء الحوار حتى يكاد القارئ يراه ويسمعه ويشارك فيه . ولذا فإن كتبه النابضة بالحياة تشد القارئ إليها شداً .

ورابليه كاتب ساخر مازح يعرف كيف يمزج الحد بالهزل والدعابة . ولا بد للقارئ من جانب كبير من اللباقة وسعة الإدراك ليفهم أن الهزل يخفى تحته كثيراً من الحقائق العميقة أو أنه وسيلة للتعمية يقصد بها إخفاء هجوم موجة ضد الحكومة أو الكنيسة أو آراء العصور الوسطى عموماً التي كان يفرضها القصر والسوربون على الناس فرضاً . ولم يكن من العسير اكتشاف ما وراء هذه التعمية وهذا ما جر على المؤلف المتاعب طيلة حياته واضطره إلى أن يحيا حياة مضطربة لا استقرار فيها ، كما أن هذا المزاج والسخرية كثيراً ما كانا يرتفعان إلى درجة الفكاهة العالية . وكم من فصل من مؤلفاته يعتبر فناً من فنون الفكاهة لم يفت مولير أن ينهل منها كما قدمنا . وتعتبر مؤلفاته من هذه الناحية صورة من شخصيته فلقد كان رابليه في حياته يمزج بين الحد والهزل ولذا فقد تناولت الأساطير شخصيته فأحاطتها بكثير من القصص التي ربما ذهب بعضها إلى

الكفاية إذا أحسن تعليمه وثقافته ، ويتخذ رابليه من نفسه مثلاً في هذا المجال . فلقد كان كما رأينا محباً للعلم مشغولاً به لا يكل ولا يمل من التحصيل والقراءة . فالإنسان ينبغي أن يكون غوراً للعلم ، وهو يستطيع أن يصل إلى الحقيقة المعنوية بدراسة أفلاطون وإلى الحقيقة القانونية بدراسة القانون الروماني ، وإلى الحقيقة الدينية بدراسة نصوص الإنجيل عن قرب ، وإلى الحقيقة العلمية بدراسة الطب والفلك والرياضيات والطبيعات . فإذا ما بلغ الإنسان هذا المستوى العلمي الرفيع فقد أصبح إنساناً كاملاً جديراً بالتقدير والثقة التامة .

أما حبه للطبيعة فقد كان كذلك نوعاً من الثورة ضد تعصب الكنيسة وجمودها في العصور الوسطى . فلقد كانت تمارس سلطة قاهرة للإنسان جسماً وروحاً ولذا فقد نادى رابليه بتحرر الجسم والروح معاً ، وساعدته دراسته للطب وممارسته له على الإعجاب بجسم الإنسان ودقة نظامه واعتبر ذلك النظام الدقيق جزءاً من نظام الكون ودقته . ولذا فقد كرس رابليه جانباً كبيراً من مؤلفاته لدراسة الحياة البدنية للإنسان وغذائه ووظائفه الطبيعية ، ونادى بمنح الجسم الحرية التامة في الحركة وتقويته بالرياضة البدنية والعناية بالقواعد الصحية . وجميع الآراء التي يعبر عنها في هذا الصدد تعتبر من أحدث آراء علم الصحة الحديث .

أما من الناحية الروحية فقد نادى رابليه بمنح الإنسان الحرية التامة في التصرف . فقد دلته تجربته الخاصة في نفسه على أن الإنسان خير بطبيعته جدير بكل ثقة . والإنسان العادي إذا منح الحرية التامة أحسن استغلالها دون أي تفریط أو إفراط . إن الطبيعة التي أنجبت الجمال والتناسق لا يمكن أن تكون مصدر شر أو أذى ولذا فالإنسان خير وينبغي منحه الثقة التامة والحرية المطلقة . وربما كانت تلك الثقة المطلقة والحرية الخالصة من

حد المبالغة . وما يذكر عنه دون تأكيد أن آخر كلمة قالها : « اسدلوا الستار ، لقد انتهت المهزلة » . ثم أطلق ضحكة ساخرة كانت خاتمة حياته .

وما ساعد رابليه على بلوغ هذا المستوى الأدبي هو سعة اطلاعه وأسلوبه الفنى . فهو يملك من الكلمات ما لا حصر له ويستطيع أن يجد من الأساليب ما لم يصل إليه غيره ، كما أنه يملك القدرة على خلق كلمات وتعبيرات جديدة . وتعتبر جملة آية فى التناسق والكمال الفنى . إلا أن أسلوبه يختلط بكثير من الكلمات الشعبية التى ربما تهبط إلى مستوى السوق أو إلى حد البذاءة . ولا ينبغي أن نقسو على ذلك افنان بسبب ذلك فإن أحداً من قراء عصره لم يكن يدهش إذ يرى هذه الكنوز الأدبية والفلسفة تختلط بهذه التعبيرات والألفاظ النابية . ولم تكن تلك الحرية المفرطة فى التعبير تؤذى شعور أحد . ولذا فيجدد بنا أن نؤولها على أنها عادة من عادات العصر . وقد تولت المطابع فى عصرنا هذا نشر مؤلفات هذا الكاتب الكبير بعد أن نقحتها من هذه الألفاظ وتلك التعبيرات وإن كان معظم النقاد ما زالوا يفضلون نشر النصوص الأصلية على علاقتها . ويرى لابروير ، الكاتب الناقد الفرنسى الذى عاش فى أواخر القرن السابع عشر وصاحب كتاب « الطبايع » ، يرى إزاء هذه المتناقضات أن رابليه شخصية من أغرب الشخصيات فهو فى آن واحد عملاق قادر على أن يسحر السوق والغوغاء كما يعتبر صحناً ممتازاً لأرفع الناس ذوقاً .

رابليه وعلم التربية الحديث :

إذا كانت مؤلفات رابليه قد عاشت حتى الآن وما زالت تقرأ بشغف فذلك لا لأنها تحوى قصصاً مسلية عن حياة العمالقة جارجانتوا وابنه باننا جرويل ومن حولهما ، وكيف عاشوا وماذا كانوا يأكلون

وكيف وصلوا إلى تثقيف أنفسهم والحفاظ على صحة أبدانهم ، فحسب ، وإنما لأنها تعتبر أول مرجع لعلم التربية الحديث ، كما يعتبر رابليه من الرواد الأوائل لهذا العلم الذى يزداد كل يوم أهمية فى عصرنا هذا . وهو أول من نادى ، فى منهج تعليم العملاق جارجانتوا ثم ابنه باننا جرويل ، بأن يتم هذا التعليم فى جو من الحرية التامة دون أى إكراه أو ضغط ، كما كان أول من وضع برنامجاً منظماً دقيقاً يسير عليه التلميذ دقيقة بدقيقة فىتم تثقيفه بطريقة كاملة دون أن يشعر هو بأى ملل ولا إجهاد ودون أن تضيق لحظة من وقته هباء . ويتنزه رابليه هذه الفرصة فيسخر من منهج التعليم الذى تبعه هو وأبناء جيله والذى كان يطبق على التلاميذ بالقوة . فقد بدأ جارجانتوا تعليمه على أيدي علماء اللاهوت فتعلم الحروف الأبجدية عن ظهر قلب فى خمس سنوات وثلاثة أشهر ، ثم حفظ بعض كتب من اللغة والقواعد باللغة اللاتينية فى ثلاثة عشر عاماً وستة أشهر وأسبوعين . ثم كتاباً آخر فى قواعد اللغة اللاتينية مع بعض الشروح والمثون فى ثمانية عشر عاماً وأحد عشر شهراً ، واستوعبه تماماً لدرجة أنه كان يستطيع تلاوته عن ظهر قلب تلاوة معكوسة من الآخر إلى الأول . ثم حفظ التاريخ الشعبى فى ستة عشر عاماً وشهرين وأخيراً حفظ طائفة من كتب البلاغة وكتبا أخرى على شاكلتها .

وهكذا يعطينا رابليه فى ذلك القالب التهكمى الساخر فكرة واضحة عن منهج الدراسة الذى كان متبعاً فى عصره . وبعد ذلك يعد للتلميذ جارجانتوا منهجاً آخر صحيحاً سليماً يجعل منه إنساناً صالحاً . ولنقارن فى النصين التاليين بين الطريقة التى كان يسير عليها جارجانتوا فى دراسته على أيدي علماء

الذى يتناوله الرهبان فى السادسة صباحاً . ولما قال له
مدرسه بونوقراط إنه لم يكن ينبغى له أن يفعل كل
ذلك قبل أن يؤدى بعض التمرينات لدى مغادرته
الفراش أجاب جارجاتوا قائلاً :

« ماذا ! ألم أقم بما يكفى من التمرينات ؟ لقد
انثيت ست أو سبع مرات فى الفراش قبل أن أنهض .
ألا يكفى ذلك ؟ إن البابا الكسندر كان يفعل ذلك
بناء على نصيحة طبيبه اليهودى ، وإنه عاش حتى
الموت رغم أنف حساده . ولقد عودنى أساتذتى
الأوائل على ذلك وقالوا لى إن الإفطار يقوى الذاكرة .
لذا فقد كانوا يبدأون هم يومهم بالشراب . وإنى
أجد صحتى طيبة جداً وشهيتى فى وجبة الغداء أقوى .
ولقد قال لى الأستاذ توبال (وهو أول الليسانس من
جامعة باريس) إن الفائدة ليست فى الجرى بسرعة
ولكن فى البدء مبكراً ، ولذا فإن صحة الإنسانية
لا تكون بالشراب كثيراً كثيراً كالكلاب وإنما
بالشراب فى الصباح . ومن هنا كان هذا البيت
من الشعر :

إن الصحو فى الصباح ليس هو السعادة - للشراب
فى الصباح أفضل .

« وبعد أن يتناول إفطاره على آتم وجه يذهب إلى
الكنيسة حيث يحضرون له فى سلة كبيرة كتاب
تفسير الإنجيل وقد أحيط بلفائف كثيرة فنقل وزنه
بسبب هذه اللفائف حتى أصبح أحد عشر قنطاراً
وستة أرطال قل عن ذلك أو زاد . وهناك يستمع
إلى نحو ستة وعشرين أو ثلاثين قداساً . وفى هذا
الوقت يأتى إليه قارئ الصلوات وقد تعثر فى معطف
ثقيل ويخفف عنه التعب بالشراب المضاف إليه
النيذ . وفى الوقت نفسه الذى يشرب فيه يترنم
بكل هذه الصلوات وبدقة لاتسقط معها منه أية

اللاهوت ثم الطريقة الصحيحة التى أعدها له مدرسه
بونوقراط الذى يعبر عن آراء رابليه نفسه .

والنص الأول ، وتلك ترجمة له ، يعطينا فكرة
عن الطريقة السقيمة العقيمة التى كان يسير عليها
جارجاتوا واتى خلقت منه إنساناً مغروراً تافهاً :
« لقد أمر بونوقراط فى أول الأمر أن يسير جارجاتوا
على الطريقة التى اعتاد عليها يرى كيف استطاع
أساتذته القدامى أن يجعلوا منه إنساناً غيبياً وتافهاً
وجاهلاً فى كل هذا الوقت الطويل . وعلى ذلك فقد
نظم وقته بحيث يستيقظ ما بين الساعة الثامنة والتاسعة
سواء أكان النهار قد طلع أم لا . هكذا أمر أساتذته
القديمى مستندين فى ذلك إلى قول داود : « من
العبث أن تستيقظ قبل طلوع النهار » (١)

ثم يأخذ يتلوى ويتثنى ويشد أطرافه فى فراشه
حتى يساعد أعضاء جسمه على تأدية وظائفها .
ثم يرتدى ملابسه حسب الفصل إلا أنه لا يجد غضاضة
فى لبس رداء طويل عريض مبطن بفراء الثعالب .
ثم يمشط شعره بمشط «ألمان» (٢) بأن يمسك به
بأصابعه الأربعة وإبهامه لأن أساتذته قالوا له إن كل
طريقة أخرى لتمشيط الشعر والاعتسال والنظافة هى
مضيعة لوقته فى هذا العالم .

« ثم يأخذ فى البصق والتقيء والسعال والسيح
والعطس . وبعد ذلك يتناول إفطاره ليتغلب على
الهواء الفاسد بالأطعمة الآتية : المقلبات والمشويات
وفخذ الخنزير ولحم الجدى المحمر والحساء اللدسم

(١) آية للترييل ١٢٧ استشهد بها رابليه استشهاده حرقياً كما
يقول « لا تقرّبوا الصلاة » ولا يذكر بقية الآية . وتمتمها التلم
يذكرها رابليه هى : إذا كان الرب لا يبارك جهودك .

(١) ألمان أستاذ من أساتذة السوربون الذين يعتنقون طريقة
القسر والجمود .

قطرة على الأرض . وحين بهم بالخروج من الكنيسة يحضرون له على عربة يجرها ثور مسبحة القديس كلوديس التي كانت كل حبة فيها في حجم رأس الإنسان فيتلو عليها التسابيح أكثر من ست عشرة مرة وهو ينتزه في الأروقة والحدائق ، ثم يأخذ في الاستذكار نحو نصف ساعة على الأكثر وعينه مستقرتان فوق كتابه ولكن كما يقول الكاتب الساخر (١) روجه في المطبخ .

« ثم يجلس إلى المائدة . ولما كان بطبيعته بطيئا في إثارة شهيته فهو يبدأ وجبته بعدد مضروب في اثني عشر من أفخاذ الخنازير وألسنة الثيران المدخنة والبطارخ وغيرها قبل أن يبدأ في تعاطي النيذ . وفي هذا الوقت يأخذ أربعة من القائمين على خدمته بإلقاء الخردل (المستردة) في فمه بالخاروف الواحد تلو الآخر ، ثم يشرب جرعة هائلة من النيذ الأبيض . وبعد ذلك يأكل حسب الموسم اللحم كما تسمح له شهيته ، ثم يكف عن الأكل حينما تبدأ بطنه تؤلمه . أما الشراب فليس له نهاية ولا قاعدة لأنه يقول إن المرء يكف عن الشراب حينما يرتفع الفلين الذي يتكون منه نعل مداسه إلى نصف قدم » (قصة جارجاتوا الفصل الحادى والعشرين) .

بهذه المبالغات التي يخلقها رابليه في دنيا للعمالقة التي تسود كتابه « جارجاتوا » يقصد كما قلنا إلى مهاجمة منهج التربية الذي طبق عليه والذي كان مازال يطبق في المدارس وفي الجامعة . ثم بعد ذلك يغير بيروقراط مرني جارجاتوا منهج التربية المعيب هذا ويرسم منهجا آخر صحيحا سليما كما تبينه لنا الصفحة التالية المترجمة عن الفصل الثالث عشر « لجارجاتوا » .

(١) يقصد به تيرانس في ملهامة الحصى .

« وبعد ذلك وضع له خطة للدراسة تكفل له عدم ضياع دقيقة واحدة ، من اليوم . وهكذا كان يقضى كل وقته في الدرس وطلب العلم : كان جارجاتوا يستيقظ في الرابعة صباحا . وبينما كان القائمون على خدمته يدلكون له جسمه كان قارته يتلو عليه بعض صفحات من الكتاب المقدس بصوت جهورى واضح ونطق صحيح سليم جدير بما يقرأ . وقد عهد بذلك إلى تابع شاب من مدينة باشيه (بالقرب من شيفرن حيث ولد رابليه) . ويدعى هذا التابع : أناخيوست (وتعنى باليونانية القارىء) . ومن أغراض هذا الدرس أن يتعلم تبجيل الله وعبادته والصلاة لله مرات عديدة إذ أن هذه القراءة كانت تبين جلاله وأحكامه السديدة الرائعة .

وبعد ذلك يرتدى ملابسه ويمشط شعره ويلبس غطاء رأسه ويتعطر . وفي خلال هذا الوقت تعاد عليه دروس اليوم السابق ، وكان هو نفسه يلقيها عن ظهر قلب ويطبقها على حياته العملية والإنسانية . وكان هذا الدرس يمتد أحيانا ساعتين أو ثلاث ساعات ، ولكن كان عادة يتوقف حينما يتم ارتداء ملابسه ، ثم يأخذ مدرسه في القراءة له لطوال ساعات ثلاث .

« وبعد ذلك يخرج إلى الهواء الطلق وهو يبدى دائما ما يعن له من ملاحظات حول دروسه ، ثم يبدأ في لعب الكرة أو الكرة الثلاثية (التي يلعبها فريق مكون من ثلاثة لاعبين في شكل مثلث) وهكذا يروض جسمه كما سبق له أن راض نفسه . وكانت الحرية المطلقة هي التي تسود اللعب فكانوا يكفون عنه حينما يطيب لهم ذلك ، وكان هذا التوقف يحدث حينما يتصببون عرقا أو يدر كههم التعب . وحينما يفرغون من تخفيف أجسامهم وتدليكها بعناية يغيرون ملابسهم

و يبدأون نزهة لطيفة قبل أن يذهبوا لاستطلاع ما إذا كان الغداء قد أعد . وهناك في انتظار الغداء يأخذون في تزييد بعض مقتطفات من الدرس في وضوح وفصاحة .

« وفي هذا الوقت تكون الشهية قد فتحت فيجلسون إلى المائدة طبقا لقواعد آداب الأكل . وفي بداية الوجبة تقرأ بعض القصص المسلية عن المغامرات القديمة يشرب خلالها جارجاتوا النبيذ الفاتح للشهية . وبعد ذلك إما أن يواصل القراءة أو يسمرون معاً في مرح حسب ما يترأى لهم . ويكون الحديث في الأشهر الأولى عن طبيعة المواد الغذائية التي تقدم لهم وخصائصها من خبز وتبيذ وماء ملح ولحم وسمك وفاكهة وخضروات وجذور وعن طريقة إعدادها . وكان هذا يؤدي في وقت قصير إلى الإلمام بعلماء اليونان والرومان مثل بلين وأثينيه وديوسكوريد وجالينوس وأرسطو وغيرهم . وخلال هذا الحديث كثيراً ما يؤتى إليهم على المائدة بكتب العلماء السابقين هؤلاء للتأكد مما يتناقشون فيه . ولقد وعى جارجاتوا في ذاكرته كل ما قيل في هذا الشأن حتى إنه لم يكن ثمة طبيب يعرف نصف ما يعرف . وبعد ذلك يتحدثون فيما قرءوا من دروس الصباح ويختمون الوجبة ببعض مربي السفرجل وينظفون أسنانهم بالسواك ويغسلون أيديهم وأعينهم بالماء النقي ويحمدون الله بأن يوجهوا إليه بعض الترنيمات في مدح عظمته وجلاله وقدسيته .

ثم يأتون بأوراق اللعب لا مجرد اللهو بل لتعلم آلاف من اللعب ووسائل التسلية الحديدية المبنية كلها على الرياضيات . وهذه الطريقة أحب جارجاتوا علم الأعداد حتى إنه في كل يوم بعد الغداء والعشاء كان يقضى وقته في هذه المتع حتى اعتاد أوراق اللعب

والرياضيات . ولقد وصل علمه في هذه العلوم سواء من الناحية النظرية أو التطبيقية حدأ جعل معه أكبر العلماء يعترفون بأنهم بالقياس إليه يعتبرون لا يعرفون إلا الألمانية العويصة .

« ولقد أتقن جارجاتوا جميع فروع الرياضيات من هندسة وفلك وموسيقى . وذلك لأنه كان يقضى فترة الهضم في اللعب على جميع الآلات الموسيقية والتدريب على الأشكال الهندسية ، بل أنه وصل إلى ممارسة القوانين الفلكية . »

نرى من هذا النص أن رابليه قد خط لتلميذه منهجا دراسيا منظماً . فهو يبدأ يومه في ساعة مبكرة وبقراءة بعض صفحات من الكتاب المقدس بلهجة صحيحة رصينة تمكنه من التعمق فيه وملء نفسه بالإيمان بجلال الله وقدسيته . ثم يأخذ في تكرار دروس الأمس فيؤدي التكرار إلى أن يحفظها عن ظهر قلب . وبعد ذلك يقضى مع مدرسه بعض ساعات في القراءة والدرس . ولما يدركه التعب يخرج إلى الهواء الطلق لممارسة ماشاء من رياضة فينشط جسمه وذهنه إلا أنه يكف عن ذلك إذا شعر بالتعب أو بعدم الميل إلى الاستمرار في اللعب . ثم يتناول طعامه ويستفيد من الوقت الذي يقضيه أثناء الطعام بأن يتناقش وأستاذه حول تركيب مايقدم إليه من ألوان الطعام وما تحويه من مواد غذائية وأثرها في الصحة العامة ، ثم يقضى فترة الراحة بعد الغداء في لعب الورق بطريقة جديدة تؤدي إلى توسيع مداركه الرياضية ، وبعد ذلك يستأنف دراسته . وهكذا لا يضيع من وقته طوال اليوم دقيقة واحدة ، وفي الوقت نفسه لا يشعر هو بالتعب أو الملل أو الإجهاد .

وهذه الآراء التربوية كلها ، وإن كانت تبدو لنا اليوم عادية ومكررة ، إلا أنها كانت جديدة كل الجدة

وهذه أفكار صحيحة سليمة ينبغي أن تكون موضع اهتمام التربويين في العصر الحديث الذين ربما مالوا بعض الشيء إلى إهمال شأن هذا المسجل الحساس وهو الذاكرة . ومن جهة أخرى فإن العلم ، لاسيما في عصرنا هذا لا يني يتسع ويتشعب ، وينبغي للإنسان الرابع في الثقافة الصحيحة الكاملة أن ينهل قدراً معقولاً من هذا العلم الذي لا نهاية له ولذا فإن رابليه لم يكن على ضلال حين رأى أن الإنسان يجب أن يكون غوراً لا ينتهي من العلم . والرأس التي تعد طبقاً لنظرية رابليه التربوية لا يمكن وصفها بأنها محشورة حشراً بالمعلومات . ولذا فليس ثمة تناقض بينه وبين مونتيني في هذا الشأن .

الآراء الدينية لفرانسوا رابليه :

من أهم آراء فرانسوا رابليه التي أثرت تأثيراً مباشراً في أبناء جيله وفي الأجيال التي بعده هي آراؤه الدينية التي كانت تهدف إلى تحرير الدين من استعباد علماء اللاهوت وتحليصه من الخرافات والدجل والتفسيرات الحاطئة المتطرفة . ولذا فقد نادى أولاً بوجود اللجوء إلى النص الأصلي للكتاب المقدس قبل اللجوء إلى أية تفسيرات من قبل الكنيسة . ثم نادى بإعداد القساوسة والرهبان إعداداً سليماً على أسس جديدة مخالفة تماماً للأسس التي كانت تطبق في إعداد القساوسة والرهبان حتى ذلك العهد . وكما نادى رابليه بالحرية المطلقة في التعليم عموماً فقد نادى بالحرية المطلقة بالنسبة لتعايم القساوسة والرهبان . وهذه الحرية مبنية على نفس فكرته في إعداد المواطن الصالح ، وهي أن الإنسان الطبيعي سليم التفكير إذا منح الحرية كاملة غير منقوصة فإنه يستعملها في غير ما إفراط أو تفريط . ومن بين مظاهر هذه الحرية عدم فصل الرهبان عن الراهبات في الأديرة وخلق

في عصر رابليه بل واعتبرت هجوماً جريئاً على الطريقة المدرسية الكنيسية والجامعية المتبعة في عصره . وأهم هذه الأفكار فكرة الحرية المطلقة التي ينادى بأن تمنح للطالب . فهو يرى أن الطالب ينبغي أن يدرس في جو من الحرية لا قسر فيه ولا إكراه وأنه لن يستغل هذه الحرية استغلالاً سيئاً أو يسيء التصرف فيها لأنه ، أي رابليه ، يوجه كلامه إلى المتزين من الناس . أما الطالب الذي يسيء إدراك معنى هذه الحرية ويفرط في استخدامها فهو إنسان غير متزن وغير عادي التكوين فهو يسقطه من حسابه ولا يقصده بأى حديث . وغنى عن الذكر أن الحرية هي القاعدة التي يعتمد عليها علم التربية الحديث ولذا فيعتبر الفرنسيون رابليه المرجع الأول لعلم التربية .

أما عن فكرة أن المرء ينبغي أن يكون غوراً للعلم لا يروتوى منه أبداً وأنه يتخذ من نفسه في هذا السبيل مثالا يحتذى ، فيرى بعض النقاد أن رابليه يبالغ في فكرته هذه وأن معاصره المفكر مونتيني كان أبعد منه نظراً حينما نادى بأن يكون هدف التربويين هو خلق رعوس حسنة الإعداد لا محشورة حشراً بالمعلومات ، ونجد أنه ليس ثمة تناقض على الإطلاق بين رابليه ومونتيني في هذا الصدد إذ أن رابليه كما رأينا في النص السابق لا يرى الاعتماد المطلق على الذاكرة ولا ينادى بالحفظ عن ظهر قلب ولا يحشو الرأس بما هي راغبة عنه من معلوماته . فالدرس ينبغي أن يكون متعة للدارس وأن يفهمه ويهضمه هضمًا تاماً . أما إذا وصلت الذاكرة إلى حفظه عن ظهر قلب من كثرة تكراره ومناقشته فلا ضير في ذلك . والذاكرة مسجل حساس لاسيما في الصغر وينبغي الاستفادة من طاقتها في تلقين التلميذ ما لا ينبغي أن ينسى من معلومات دون إرهاق أو إجهاد .

وسيدات الطبقة الراقية زهور الجمال وذوات الوجوه
الملائكية ذوات المظهر التقي العاقل» وكذلك المسيحيين
الإنجيليين . ثم تسترسل اللافتة قائلة : « ادخلوا حتى
تؤسس هنا العقيدة العميقة التي نفحم بها أعداد الكلمة
المقدسة » . ويفهم من هذه اللافتة إن تصدر المؤلف
هو العودة بالمسيحية إلى نصوصها الأصلية وتخليص
الطبيعة الإنسانية لدى الرهبان من أى كبت ، وهذان
هما الهدفان الرئيسيان لعصر النهضة . ويرى رابليه
أن ذلك ممكن التحقيق إن لم يكن بالنسبة للناس جميعا
فعلى الأقل بالنسبة للصفوة المختارة من ذوى النفوس
الجميلة التى تزداد جمالا وتألقا فى جو الحرية المطلقة
هذا . ونسوق فيما يلى ترجمة لجزء مشهور من هذا
الفصل :

« افعل ماشئت »

لقد كانت حياتهم كلها تستخدم لاطبقا للقوانين
واللوائح والقواعد بل طبقا لإرادتهم وحريرتهم الخاصة .
فكانوا ينهضون من فراشهم كما يحلو لهم ، ويشربون
ويأكلون ويعملون وينامون حينما تكون لديهم الرغبة
فى ذلك . لم يكن أحد يوقظهم ولا أحد يضطرهم
إلى الشرب أو الأكل أو إلى إتيان أى عمل . هكذا
قرر جارجانتوا . وكانت القاعدة السائدة بينهم
هى هذه الكلمة :

افعل ماشئت

ذلك لأن الأحرار من الناس حسنى المولد والثقافة
حينما يعيشون فى صحبة الأخيار فإن لهم غريزة طبيعية
وحاسة تدفعهم دائما إلى الأعمال الفاضلة وتبعدهم عن
المنكر الذى كانوا يسمونه الشرف . وهؤلاء حينما
نرهمهم بالإكراه والعبودية فإننا نبعدهم عن العواطف
النبيلة التى تدفعهم نحوها الفضيلة الصريحة ذلك لأننا

حياة مشتركة طبيعية بين الحسنين فى داخلها . وكان
من رأيه أن هذا الاختلاط سوف يأتى بأطيب الثمرات
لأنه سوف يخلق بين الحسنين صداقات سليمة متينة
وربما أدى إلى بعض الزيجات السعيدة بين الرهبان
والراهبات . وكانت هذه من أفكاره الجريئة فهو
يرى أن منع الزواج عن القساوسة والرهبان يضطرهم
إلى الخنوح عن الطريق الطبيعى والصحيح فى الحياة .
ولكى يجسد رابليه لقرائه هذه الأفكار الجريئة ويبين
صحتها فى وضوح خلق فى الفصل السابع والخمسين
من كتابه « جارجانتوا » ديرا أطلق عليه اسم دير
« تيليم » . ومعنى كلمة تيليم باليونانية الإرادة الحرة .
وهذا الدير يختلف تماما عن غيره من الأديرة فهو
غير محاط بأى سور خارجى كما أنه خلوا تماما من أية
أجراس أو ساعات ولا تسير فيه الأمور إلا طبقا
للذوق العام والتفاهم التام بين الأعضاء . وهو يستقبل
النساء من سن العاشرة حتى الخامسة عشرة والرجال
من سن الثانية عشرة حتى الثامنة عشرة . وهو
لايستقبل إلا فتيانا أو فتيات حسنى الخلقة ومن عناصر
طيبة وتعليم متين . وفى هذا الدير يحيا الرهبان حياة
مترفة مرفهة خالية من كل قيود . وهذا الدير كما
يصفه رابليه فى روايته آية من آيات الفن والجمال
والترف . وغنى عن الذكر أن هذا الترف بعيد كل
البعد عن الدين وكذلك الشرط الخاص بجمال الخلقة
بالنسبة للرهبان ، ولكن رابليه كان فى ذلك مسحورا
بترف القصور الملكية وغيرها فى عصره .

وللقاعدة العامة التى تسير عليها الحياة فى هذا
الدير تختلف كما قلنا تماما عن التعنت الذى كان يسود
حياة الأديرة فى ذلك الحين . فعلى باب دير تيليم
نجد لافتة تحظر الدخول على المنافقين ورجال القضاء
والمرابين ، ولا يسمح بالدخول إلا « للفرسان النبلاء

نحب دائماً أن نأتي ما يمنع عنا ونتوق دائماً إلى ما يحرم علينا .

وبهذه الحرية يدخلون في تنافس حميد فيحققون ما يرغب أى فرد فيهم في عمله . فإذا قال أحدهم أو لإحدهن « لنشرب » شرب الجميع . وإذا قال أحدهم : « لنلعب » لعب الجميع . وإذا قال أحدهم : « لنخرج إلى الحقول » ذهبوا جميعاً . وإذا تعلق الأمر بالقنص أو الصيد ذهبت السيدات وهن ممتطيات ظهور فرسات جميلات مطهومات ، وقد ارتدين الملابس الفاخرة والقفازات الجميلة وأمسكت كل منهن بطير صغير من طيور الصيد . أما الرجال فيحملون بقية الطيور .

ولقد حصلوا جميعاً على ثقافة متينة نبيلة حتى إن لم يكن بينهم من لا يقرأ ويكتب ويغنى ويلعب على الآلات الموسيقية ويتحدث خمس أو ست لغات ويكتبها نثراً وشعراً . ولم ير الناس من قبل فرساناً أكثر تقوى من هؤلاء ولا أكثر فناً في معاملة النساء . أو مهارة في كل ما يؤتى على الأقدام أو على صهوة الخيل ولا أكثر قوة وحركة ومهارة في استخدام السلاح من هؤلاء ، كما لم ير الناس من قبل سيدات أكثر أناقة ومهارة في الفنون النسوية ولا أكثر أدباً

وحرية من هؤلاء السيدات . ولهذا السبب فعندما كان يحين الوقت لأحد منهم لمغادرة الدير سواء بناء على طلب أهله أو لسبب آخر فإنه كان يصطحب معه من تكون من السيدات قد اختارته إعجاباً بتقواه ويتزوجان . وكما عاشا حياة طيبة في تليم في جو من التقوى والصدقة فإنهما كانا يواصلان تلك الحياة في عش الزوج . وكانا يظلان متحابين حتى آخر أيامهما كما لو كانا في أول يوم من أيام الزواج .

وهكذا نرى أن فرانسوا رابليه قد نادى بالحرية التامة للرهبان والراهبات وإباحة الزواج بينهما وإعدادهما إعداداً سليماً وتعليمهما كل ما يتعلمه الناس خارج الأديرة من علوم دنيوية فضلاً عن العلوم الدينية .

لماذا تعتبر مؤلفات فرانسوا رابليه من التراث الانساني ؟

يتبين من هذا البحث أهمية مؤلفات فرانسوا رابليه ، وقصة جارجاتوا وبانتا جرويل بصفة خاصة بالنسبة للتراث الانساني . فهي تعتبر أصل علم التربية الحديث والداعية للكثير من الأفكار الإنسانية التحررية التي يدين بها المجتمع الإنساني الحديث مثل فرانسوا رابليه من كبار المفكرين ورواد التقدم البشري .



سيرة الأميرة ذات الهمته

بمسلم
الدكتورة نبيلة إبراهيم

أولا والترك بعد ذلك . تفرض نفسها شيئا فشيئا على
العنصر العربي الأصيل . كما كان الحكام العباسيون
يساعدونهم بدورهم في تثبيت أقدامهم في المجتمع
العربي . أما العرب فقد أهمل أمرهم ، وظلوا يقبعون
في ديارهم في البادية ويعيشون حياة تقرب كثيرا
من حياة الجاهلية . على أن العرب لم يكونوا غافلين
عن هذا التغيير الجوهرى في حياة الأمة العربية ومدى
خطورته عليها : ولم يكن في وسعهم سوى أن يؤكدوا
وجودهم في زحمة هذه الحوادث . وذلك عن طريق
مساهمتهم فيها طوعاً واختياراً . كما نزلت بعض
القبائل العربية من موطنها في الصحراء خوفاً من
انطماس تاريخها . واستوطنت مناطق أكثر تأثيراً
بحوادث العصر . وليس في وسعنا أن نعدد هذه
القبائل . وإنما يهمنا أن نشير إلى قبيلة بنى كلاب .
لأن السيرة تحكى عن تاريخها وكفاحها . فقد هاجرت
قبيلة بنى كلاب من موطنها في الصحراء . واستوطنت
منطقة من أهم المناطق التي ساهمت في كفاف الأمة
الإسلامية وهي منطقة الثغور الشامية التي كانت تقع
بين الدولة العربية والدولة البيزنطية . وقد اختارت

لا يكاد يخلو تاريخ أمة من الأمم من عصر أطلق
عليه الباحثون اسم «العصر البطولى» . ويتسم هذا
العصر بخصائص محددة لخصها شادفيك في كتابه
«العصر البطولى» بعد استقصاء ودراسة شاملة للأدب
البطولى في العالم بأسره فيما يلي : (أولاً: تقع الطائفة
نصف المتحضرة من الشعب تحت تأثير الطائفة الأخرى
المتحضرة . ثم ما تلبث الطائفة الأولى أن تشعر بكيانها
وتطمح في السيطرة على الطائفة الأخرى .

ثانياً : تبدأ الطائفة نصف المتحضرة في تحقيق
كيانها عن طريق الهجرة من موطنها الأصلي إلى مكان
آخر .

ثالثاً : تحرص هذه الطائفة من الشعب بعد ذلك على
تخليد ماضيها والفخر بحاضرها عن طريق أدبها البطولى .

وإذا نحن حاولنا أن نطبق هذه الخصائص على
تاريخ الأمة العربية . فإننا نلاحظ أنها عاشت العصر
البطولى في زمن من الأزمنة التي مرت بها . وربما بدأ
هذا العصر مع العصر العباسى الأول أو قبل ذلك
بقليل . ففي هذا العصر بدأت العناصر الغربية - الفرس

ومعنى هذا أن سيرة « الأميرة ذات الهمة وولدها عبد الوهاب » قد نشأت تخليداً لتاريخ أسرة بني كلاب . ولعل هذا يحدد لنا زمان نشأة السيرة ومكانها . فزمان نشأتها يتحدد بتاريخ كفاح هذه الأسرة . وتحده السيرة بعصر عبد الملك بن مروان ، كما يتحدد مكان نشأتها بالمكان الذى استوطنت فيه الأسرة ساعية وراء الكفاح : أى أنها نشأت ببلاد الشام . ويؤكد لنا هذا أن أسلوب السيرة الذى يقرب من الفصحى كثيراً ما يختلط بلهجة الشام وعاميتها ، كما تقابلنا فى السيرة بعض الألفاظ والعبارات اليونانية مثل عبارة « كريبا إليسون » وتعنى « اللهم رحمتك » ، ومثل عبارة « لورك لورك » أى الأمان ، الأمان . وقد عرف سكان الثغور هذه العبارات نتيجة اختلاطهم بالروم .

ويمكننا بعد ذلك أن نقدم موجزاً للسيرة حتى تتمكن من بحث حوادثها فى ضوء التاريخ ، ثم نفرغ من ذلك إلى البحث عن هدفها بوصفها عملاً أدبياً وعن خصائصها بوصفها عملاً شعبياً .

فى عهد الخليفة عبد الملك بن مروان ، ذاع صيت الحارث الكلابى بوصفه زعيماً لأسرة بني كلاب ، كما ذاع صيت مروان بن الحيثم بوصفه زعيماً لأسرة بني سليم . ولما مات الحارث فرح العرب بموته لأنه كثيراً ما كان يزعجها بغاراته . أما زوجته التى كانت على وشك ولادة طفلها ، فقد قررت أن تهرب خوفاً من انتقام أعداء زوجها منها أو من طفلها ، فخرجت تحت جنح الليل مصطحبة معها خادمها « سلام » الذى كانت تثق فى إخلاصه وأمانته ، ولكن ما إن خلاهما الطريق حتى أراد بها الخادم سوءاً . فدافعت المرأة عن نفسها دفاعاً أدى بها إلى ولادة طفلها وإلى وفاتها فى الوقت نفسه . ولكنها قبل أن تلفظ أنفاسها الأخيرة ، طلبت من خادمها أن يرعى طفلها ، وأن يعلق على صدره تيممة

القبيلة هذه المنطقة بعينها لأنها كانت منطقة الصراع بين الأمة الإسلامية من ناحية والدولة البيزنطية من ناحية أخرى . وبعبارة أخرى كانت منطقة الصراع بين الدين الإسلامى والدين المسيحى ، وكان لابد لهذا الصراع من أن يحسم الموقف ، فإما النصر للدولة العربية والدين الإسلامى أو للدولة البيزنطية والدين المسيحى . وعلى ذلك فقد خرجت أسرة بني كلاب من موطنها القديم مدفوعة بدافعين نفسيين : أولاً : رغبتها فى تأكيد وجودها فى المجتمع الإسلامى الجديد . وثانياً : المساهمة فى صنع تاريخ الدولة الإسلامية فى وقت أوشك كيانها فيه على الانهيار . واستقرت أسرة بني كلاب فى ملطية عاصمة الثغور . وهناك كونت جيشاً يعمل مستقلاً ومتطوعاً فى سبيل نصرة الإسلام . هذا ما يذكره القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » . وربما كانت إشارة صبح الأعشى على إنجازها هى الخيط الأول الذى يرشدنا إلى ربط سيرة الأميرة ذات الهمة بالتاريخ . فهو يقول : « ومن بنى عامر ابن صعصعة بنو كلاب . وهم بنو كلاب بن ربيعة ابن عامر بن صعصعة .. وكان لهم فى الإسلام دولة بإيمامة ، وكانت ديارهم حمى ضرية وهو حمى كليب ، وحمى الريدة فى جهات المدينة النبوية ، وفدك ، والعوالى . ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الشام فكان لهم فى الجزيرة الفراتية صيت وملكوا حلب ونواجعها وكثيراً من مدن الشام . وذكر فى مسالك الأبصار : أنهم ينتسبون إلى عبد الوهاب المذكور فى سيرة البطال » .

ثم يقول بعد ذلك : « ولهم غارات عظيمة على بلاد الروم وأبناء الروم وبناتهم لايزالون يباعون من سبائهم . » (١)

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١ ص ٣٤٠ (ط) وزارة الثقافة والإرشاد .

أعطتها له . ولما رأى الخادم الأم وهي مضرجة في دماها ، ترك الطفل بعد أن علق التيمة في صدره ، وولى هارباً . في هذا الوقت ، خرج الأمير دارم يطلب الفرجة لنفسه من هم يقلقه ، إذ كان له ولد توفي في ذلك اليوم ، وقاده الطريق إلى المرأة المضرجة في دماها ، وبجانها طفلها يصرخ ، فأشفق على الطفل ، وأخذته ليربيه عوضاً عن ابنه المتوفى ، كما أطلق عليه اسمه وهو جندبة . ولما شب جندبة عن الطوق ، ظهرت عليه أمارات البطولة التي ورثها عن أبيه . فخشى الأمير دارم منه وقرر أن يطلعه على حقيقة نسبه حتى يفارقه ، وكان دارم قد عرف ذلك من التيمة التي وجدها معلقة بصدر جندبة ، وسعد جندبة لسماع هذا الخبر ، وهب من فوره راحلاً إلى قومه بني كلاب ، ليقف بطلاً محارباً بين صفوفهم ، وكانت مهمة جندبة تنحصر في الدفاع عن قبيلته ضد القبائل المعادية لها وبخاصة قبيلة بني سليم التي كانت تسعى إلى تصدّر الزعامة بين القبائل العربية بدلا من قبيلة بني كلاب ، ولكن الأيام لم تمهل جندبة فتوفى تاركاً أخاه عطافا ليقوم بدوره في الزعامة . ولم يمض وقت طويل على وفاة جندبة ، حتى ولدت زوجته ولذا سمي الصحصاح . وفي الوقت نفسه ولدت لعطاف ابنة سماها ليلى . وترى الصحصاح وليلى في بيت واحد . فلما كبرا دب الحب في قلوبهما وعزم الصحصاح على الزواج من ليلى ، ولكن عطافاً الذي كان يكن الكره للصحصاح وضع العقبات في سبيل إتمام هذا الزواج ، فقد تحم على الصحصاح أن يقدم مهراً بالغاً لم يكن يملك منه شيئاً ، ولم يضعف هذا من عزم الصحصاح الذي قرر أن يقوم بمغامرات بطولية حتى يحصل على المهر المطلوب . وفي أثناء مغامراته ، بلغه أن مروة بنت الخليفة تتعرض لخطر بالغ من جراء هجوم بعض

الأعراب عليها ، فهم الصحصاح بإنقاذها واصطحبها إلى بيتها حتى لا تتعرض لخطر آخر . وهناك تقابل الصحصاح مع الخليفة الذي شكر له مروته وشهامته . ثم استعد الصحصاح للرحيل إلى ليلى محملاً بالهدايا من قبل الخليفة ، ولكنه لم يكذب يفعل هذا حتى استوقفه الخليفة وطلب منه أن يصطحب مسلمة بن عبد الملك في حربه ضد الروم ، ونفذ الصحصاح ما أمر به ، استطاع بمصاحبة مسلمة أن يقضى على جيش الروم عند ديار بكر . وسعد الخليفة بهذه الأنباء التي شجعتة على أن يأمر مسلمة والصحصاح باستئناف السير إلى القسطنطينية والعمل على إسقاطها ، ولكن المدينة الحصينة لم تسقط ، بل صمدت في إصرار . ولما طال زمن حصار المسلمين لها ، ابتنوا مدينة مواجهة لها ليستقروا فيها وسموها « المستجدة » . ولما بلغ الضيق بالروم أشده نتيجة هذا الحصار ، استقر رأيهم على استخدام الحيلة ؛ فقد اقترح أحد أبطالهم ، وكان داهية ، أن يوضع في صندوق مقفل تحمله قافلة تتزى بزى الأعراب ، وتسير به حتى تصل إلى جيش المسلمين المحاصر للمدينة . وهناك تتدعى القافلة أنها عثرت على هذا الرجل المسكين تعذبه جموع الرهبان لأنه يعترف بدين محمد . فأسرعت في اختطافه ووضعته في هذا الصندوق المغلق حتى لا يكشف أمره ، وتمت الحيلة على المسلمين . فلما ركنوا إلى هذا الرجل الداهية ، استطاع أن يقتل بمعونة رجاله حشداً من جيش المسلمين ومع هذا فقد ظل الجيش الإسلامي مستقراً في مدينة المستجدة حتى وقع الملك ليون مع الخليفة اتفاقية الهدنة بوقف القتال .

ثم توفي الصحصاح تاركاً ولدين له . وقبل ولادتهما رأى في منامه رؤية تنبئه أنه سيرزق بولدين ، وأن الابن الأكبر سوف يوقع الظلم بأخيه الأصغر . فلما

الإسلامية . ولم يأبه الحارث لإصرارها واستطاع بمعونة أفراد قبيلته أن يعقد قرانه على ذات الهمة ، ومع ذلك فقد عزمت ألا تدخل به . فاضطر الحارث إزاء هذا الإصرار أن يستخدم الحيلة ليدخل بها ؛ فقد استطاع عن طريق الحيلة أن يسقيها البنج ويفقدتها وعيها ، وتمكن بذلك من الزواج بها . على أن ذلك لم يدفع ذات الهمة إلى الاستسلام ، بل إنها على العكس ازدادت كرهاً لابن عمها وعزمت على هجره على الرغم من أنها كانت قد حملت منه . فانتظرت حتى ولدت ابنها عبد الوهاب وقررت أن تتزوج به إلى منطقة الثغور حتى يشب في ظل الجهاد . ولكن ابن عمها لم يتركها ترحل دون أن يسيء إليها ؛ فقد أشاع أن الولد الذي ولدته ذات الهمة لا ينتسب إليه ، واستند في ذلك إلى أن الطفل لونه أسود مخالفاً في ذلك لون أبيه ولون أمه . عندئذ أرجأت ذات الهمة سفرها حتى تدفع عن نفسها هذه التهمة ، وقد تكبدت في سبيل ذلك أقسى المشقات ، إذ لعبت النوازع البشرية دوراً كبيراً مما زاد من تعقيد الأمر ؛ فمن راغب في الزواج منها ويرحب بطلاقها من الحارث ، ولذلك فهو يتحمس لتبرئتها ، ومن دنىء النفس يسعد بالرشوة فيتحالف مع الحارث في سبيل إدانتها . على أن ذات الهمة تركت شهادات البشر العاديين ولحأت إلى أهل الكهانة والعرافة الذين أعلنوا براءتها . وعند ذلك تأهبت ذات الهمة للدخول في طور كفاح جديد يؤهلها للوصول إلى الشخصية الكاملة ، شخصية البطل المرموق الذي يود كل فرد من أفراد الشعب أن يصل إليه . وتبدأ ذات الهمة هذه المرحلة باستقرارها في منطقة الثغور ، المنطقة التي يتجسد فيها الصراع بين العرب والبيزنطيين أو بعبارة أخرى بين الإسلام والمسيحية .

في هذا الوقت انتقلت الخلافة من بني أمية إلى بني

ولد له الولدان سمي ابنه الأكبر وفقاً للنسب ظالماً ، والأصغر مظلوماً . ثم تحققت النبوءة كاملة بعد موت الأب ؛ إذ وقع الابن الأصغر تحت وطأة ظلم أخيه . واستعان مظلوم بقبيلته لتحكم بينه وبين أخيه . فقررت القبيلة أن تكون الزعامة قسماً بين الولدين وبين أبنائهما من بعدهما إن كانوا ذكوراً . ثم ولد لظالم ولد سماه الحارث ، أما مظلوم فقد رزق بابنة سماها فاطمة . أما ظالم فقد شعر بالزهو وأخذ يستقصي خبر ولادة طفل أخيه . ثم وصلته الأنباء بأن أخاه ولد له ولد مات في حينه ؛ فقد حرص مظلوم على إخفاء أمر ولادة ابنته فاطمة ، وبالغ في هذا الإخفاء بأن سلمها إلى مرضعة لكي تعني بها . وسرعان ما كبرت فاطمة وأخذت تظهر عليها أمارات البطولة النادرة إلى درجة أن أطلق عاينها لقب « ذات الهمة » . ثم تتوالي الأحداث وتتكشف الحقيقة لذات الهمة وتعرف قصة حياتها فتمتلئ غيظاً من عمها ظالم وتكمن له الانتقام .

هنا تدخل ذات الهمة في مرحلة جديدة من حياتها . فقد شاء ابن عمها الحارث بن ظالم أن يتزوج بها ، إذ كان يحبها حقيقة . أما أبوه ظالم فقد رحب بهذا الزواج أيما ترحيب لعدة أسباب نسوقها على لسانه قال : « وقد عزمت على أن أزوجه بها لوجهين : الأول : لحماها ، والثاني : أنها إذا صارت له انكسرت حرمتها وقل نشاطها وذهبت قوتها وبانكسارها نحن نبلى من أبيها سائر الأغراض » . (١)

ولكن ذات الهمة وجدت ذلك فرصة سانحة لكي تنتقم من عمها ومن ابنه معاً . فأعلنت رفضها الزواج من ابن عمها . كما أشاعت أنها لن تتزوج من أي رجل آخر لأنها وهبت نفسها للدفاع عن الإسلام والأمة

(١) سيرة الأميرة ذات الهمة وابنها عبد الوهاب ج ٦

ص ٣٣ (ط. عبد الحميد حني).

وجيشها لو أن جيوش الأمة الإسلامية بأسرها :
المتطوعة منها والتابعة للدولة ، كانت متحدة متكاتفه .
ولكن الأمر لم يكن يخلو من نفاق ومن حرص على
المصالح الشخصية . أما النفاق فقد تجسد في عقبة
السلمي أحد أفراد قبيلة بني سليم . وتحكى السيرة
أن أمه رأت رؤيا غريبة قبل ولادته ، فلجأت إلى
الحكماء لكي يفسروا لها الرؤيا ، فقالوا لها : « يأتيك
ولد شراني يلقي الفتن بين الناس من النساء والرجال ،
ويكون سفاك الدماء ، كثير الحيل والزنا مفسداً في
الدين عاصياً لرب العالمين . » (١)

وولد عقبة وأصبح ذات يوم قاضياً متفهماً في أمور
الدين الإسلامي . ولم تكن هذه الوظيفة المبهجة في
الحقيقة سوى الدرع التي يتخفى وراءها عقبة ويحتجى
بها ؛ فقد كان في الداخل يتواطىء مع المغرضين الذين
يرغبون في الوصول إلى الحكم . وأما في الخارج فكان
جاسوساً يعمل لحساب الدولة البيزنطية . ويمكننا أن
نصور مدى خطورة مثل هذا الرجل على الدولة
الإسلامية لولا عين بني كلاب الساهرة على مصلحة
الأمة العربية . فقد أخذت أسرة بني كلاب على عاتقها
أن تحارب عقبة : أي تحارب النفاق في الوقت الذي
كانت تحارب فيه العدو الخارجي المتربص بالدولة .
كما أنها كانت تكشف عن أعماله التخريبية واطلع عليها
الحلفاء أولاً بأول . ومع ذلك فإن الحلفاء كثيراً ما كانوا
يتشككون في ادعاءات قبيلة بني كلاب ويرون أنها
كانت من قبيل الافتراء ، حيث أن القاضي كان يبدو
تقياً ورعاً من ناحية ، ولأنهم كانوا يودون الاحتفاظ
بصداقة أسرة بني سليم التي ينتمى إليها عقبة من ناحية
أخرى .

على أن هذا لم يضعف من عزيمته بني كلاب في

العباس . ولما تولى المنصور الحكم ، سعى إليه بنو سليم
يكيدون لبني كلاب . ووجد كلامهم أذناً صاغية عند
المنصور ، فأرسل إلى بني كلاب كتاباً يأمرهم فيه
بالخضوع لسلطانه . وغضب بنو كلاب من الرسالة
وقال أحد شيوخهم للنجاب : « يا شيخ ما الذي كان
بيننا وبين المنصور حتى إنه عزلنا عن الملك ، وإنما
كان أبونا محبباً لبني أمية . وقد هلك الجميع وصاروا
في القبور ، فارجع إلى صاحبك وقل له عرب البر
لا يدخلون تحت طاعتك ، ومن جاء إلينا كانت سيوفنا
إليه أقرب من كلامه . » (١) ولكن ذات الهممة بما لها
من لباقة وكياسة استطاعت أن تسوى الخلاف حتى
لا تغضب الحاكم ، الأمر الذي قد يعوقها عن تحقيق
هدفها . فقالت لعمها : « يا عماء لقد بالغت في الخطأ ،
لما أن كان الأمر لبني أمية كنت في حقهم مليح ، ولما أن
رجع الأمر لأهله عدلت عن الصحيح . والصواب
أن تنهض بقومك وتسير إليه (أي إلى الخليفة)
وتعذر فيما جرى منك ، وتعرض نفسك عليه وعلى
خدمته لأن لك في ذلك الشرف . » (٢)

وبهذا مهدت ذات الهممة لعلاقة طيبة بين قبيلتها
وخلفاء بني العباس . كما أنها تمكنت من توحيد صفوف
جيشها بخاصة بعد أن قتل عمها ظالم وولده الحارث في
إحدى المعارك العربية الرومية . وعلى هذا الحال
استقرت ذات الهممة مترعمة قبيلتها في منطقة الثغور وفي
ملطية على وجه التحديد واستعدت لأداء رسالتها
الكبرى وهي القضاء على العدو الخارجي الذي طالما
تهدد حدود الدولة الإسلامية وكان يطمح في القضاء
على الإسلام قضاء مبرماً .

وربما كان تحقيق هذا الأمر يسيراً على ذات الهممة

(١) السيرة ج ٦٠ ص ٥٤ .

(٢) السيرة ص ٥٥٦٠ .

(١) السيرة ج ٧ ص ٨ .

زفرق الفأر في الدار يهرب في ثياب أمه ... ومن جملة كسله أنه إذا كان نصفه في الظل والنصف الآخر في الشمس وهو نائم يكسل أن يزحف من الشمس إلى الظل . « (١) وذات يوم بينما كان جالساً بمفرده تحت ظل شجرة ، هوى سيف من السماء مندفعاً بقوة . إلى باطن الأرض . وأصيب البطل بفزع شديد حتى كاد يغمى عليه . فلما حاول أن يجتذب السيف ، وجده قد نفذ إلى بطن ثعبان مهول وقضى عليه . فما كان من البطل إلا أن قال : « الله أكبر بان الحق وظهر ، وأزال الله الخوف والحذر ... فلا مفر من الموت ، ولا مهرب من القوت ... ثم إنه في ذلك الوقت هاجت به السريرة الخفية التي أودعها فيه رب البرية وعصفت في رأسه نحوه العرب ، ونزل من على تلك الراية وجذب الحسام وحمل في أوائل القوم . » (٢)

ولم يشأ محمد البطل أن يحارب في صفوف قبيلته بني سليم ، وإنما حارب في صفوف بني كلاب ، إذ رآهم أكثر استبسالا في سبيل الدفاع عن الدين الإسلامي .

على أن البطل لم يبرز في القتال كما برزت ذات الهمة وابنها عبد الوهاب ، وإنما كان متفتناً في أساليب الحيل . وقد عبر هو عن ذلك فقال : « أنا ما صناعتى الحرب والطعن والضرب ، وإنما صناعتى في الحيل والخداع في حصن أو قلعة . » (٣)

وقد ساعد البطل في حيلة عاملان : معرفته بلغة الروم أي اللغة اليونانية ، ثم مقدرته على التنكر في أشكال عدة . ولم يستطع الروم رغم حرصهم البالغ منه أن يكشفوا أمره ، فاضطروا إلى تعليق صورته في الكنائس والأديرة حتى لاتم خديعته على الناس . وقد

(١) السيرة ج ٧ ص ٧١ .

(٢) السيرة ج ٨ ص ٢ .

(٣) السيرة ج ٢٦ ص ٢١ .

محرابة عقبة . وقد كان في وسعهم أن يقتلوه ويريجوا الأمة من شره ، إذ أنه كثيراً ما كان يقع في أيديهم متلبساً بجرائمه ، ولكنهم لم يقدموا على فعل ذلك لأن عبد الوهاب رأى النبي في رؤيا له وأخبره بأن عقبة سيتم قتله على يد أسرة بني كلاب بعد أن يتم النصر للمسلمين ويفتحوا أبواب القسطنطينية . حينئذ يصلب عقبة على باب الذهب أكبر أبواب مدينة القسطنطينية ، ويقف المسلمون المنتصرون ايشهدوا مصرع النفاق . « فلما سمع الأمير عبد الوهاب ذلك ، أصبح وأعاد المنام على جميع الناس وأوصى كل من وقع به (أي بعقبة) لا يقتله حتى يصح المنام عن النبي (ص) لأنه قال عليه السلام : من رآني فقد رآني حقاً لأن الشيطان لا يتمثل بي » (١) .

هذه النبوءة وغيرها كانت أكبر دافع للمسلمين على الكفاح في صبر وعزيمة . فإذا كان الخلفاء قد اعتادوا على مناوئتهم طوراً ومصالحتهم طوراً آخر بسبب عقبة وأسرته ، فإن النبي الذي يطالع على الحقيقة كان مناصرهم على الدوام . وإذا كان جيش بني كلاب قد انشق على نفسه بعد رفض ذات الهمة الزواج من ابن عمها إلى درجة أن انضم ظالم وابنه الحارث إلى الطائفة المرتدة المناصرة لأعداء البلاد ، فإن الله قد كفاهم شر ظالم وابنه بعد أن قتلا في إحدى المعارك . فإذا أضفنا إلى ذلك انضمام البطل الحريء المخلص محمد البطل إلى جيش بني كلاب ، يمكننا أن نقول إن الظروف أصبحت مهيأة للجيش العربي لحوض معركة النصر .

وقصة انضمام البطل إلى صفوف المحاربين قصة غريبة بعض الشيء . فقد ولد كسولاً وجباناً للغاية . كان « يفزع من الماء إذا سرو من الثور إذا هر ، وكلما

(١) السيرة ج ٢٦ ص ٤٠ .

أثره حتى يقبض عليه متلبساً بجريمته ثم يأخذه إلى الخليفة ليشهد على خيانه .

وهذا نستطيع أن نقول إن القوة اكتملت لجيش المسلمين . فالقيادة السليمة وقوة الشخصية تتمثلان في شخصية ذات الهممة ، والبطولة النادرة تمثلت في عبد الوهاب كما أن المقدرة على ابتداع الحيلة بلغت قمتها عند البطال . فإذا أضفنا إلى ذلك استبسال جميع أفراد الجيش وتفانيهم في أداء واجبه ، أدركنا أن عوامل النجاح قد تهيأت لجيش الشعب العربي .

ولم يكن يعنى انشغال المحاربين بالحروب العربية الرومية ، ابتعادهم عما يجري داخل البلاد . ولم تكن أحوال الدولة الداخلية أقل اضطراباً من أحوالها الخارجية ، فكما كان العدو الخارجي يتهدد البلاد عند حدودها ، كان الانتهازيون يتهدون منها من الداخل . بل إنهم كثيراً ما كانوا يتعاونون مع العدو الخارجي في سبيل القضاء على السلطة العربية الحاكمة . وهنا يبدو لنا أن العيب كان ثقيلاً على الجيش الإسلامي المرابط عند حدود الدولة . فلكى تستقيم الأمور للدولة الإسلامية لا بد أن تتكاتف الأيدي للقضاء على عناصر الفساد في الداخل ، والقوة المهذبة للبلاد في الخارج في آن واحد . وهذا ما وضعه الجيش المحارب نصب عينيه ، فكانت خطته تسير وفقاً لهذا المرمى .

وربما كان تحقيق هذا الأمر يسيراً لو اتحدت الأمة الإسلامية حكومة وشعباً . ولكن هذا لم يكن يتحقق على الدوام في عهود الخلفاء . وهنا تقدم لنا السيرة عرضاً تاريخياً مفصلاً منذ بداية عهد عبد الملك ابن مروان ، حتى نهاية حكم المعتمد بالله ، فترسم لنا صورة واضحة لكل خليفة وموقفه من حوادث عصره معتمدة في ذلك على الحوادث التاريخية من ناحية ، وموقف الشعب إزاء ذلك من ناحية أخرى .

وصفه أحد الروم بقوله : « هذا البلاء النازل ، هذا الموت العاجل ، هذا البلاء الكامل ، هذا مفتتت الأكياد الذى تذلل من حيله ومكره الأسود ، هذا الثعبان الأغبر ، هذا الموت الأحمر الذى فى جميع الكنائس مصور . » (١)

وليس فى وسعنا أن نحدد حيل البطال ، وإنما يكفى أن نقول إنه يعد المحرك الأول لحوادث السيرة . فقد كانت مهمته التسلل داخل بلاد الروم والمكوث بها زمناً يتيح له فرصة التعرف على بعض من يعرف خطط القتال فيهدى بذلك إلى معرفة نواياهم وينقلها بالتالى إلى جيش المسلمين . وقد تكون مهمته تضليل الروم حتى تم خطة جيش بنى كلاب بنجاح . فإذا تعذر فتح بلد على المسلمين ، يسرع البطال ويتفنن فى صنع حيلة حتى تسقط البلد فى أيديهم . وقد حدث هذا عند حصار عمورية ؛ فقد وقف المسلمون أمام أسوارها المنيعة عاجزين عن دخولها . عندئذ وقف البطال يتلمس الحيلة السريعة . فرأى من بعيد أناساً يركبون الحمير ويحملون معهم أشياء ويتوجهون إلى أبواب المدينة . فلما وجدوها مغلقة تحدثوا فيما بينهم باللغة اليونانية عن كيفية حمل هذه الأشياء إلى الملك . وفهم البطال حديثهم واقرب منهم وتحدث معهم باللغة اليونانية ، الأمر الذى جعلهم يتأكدون من أنه رومى . فلما ركنوا إليه هم بقتلهم ولبس زيهم وامتطى حميرهم مع بعض رجاله . ثم أفصح للحارس عن رغبته وكان قد بلغ بهذا الأمر فسمح له بالدخول مع رجاله . وما كاد يدخل حتى أخذ يعمل على هدم جزء من السور تمكن المسلمون من التسلل منه . أما أعظم مهام البطال فهى تتبع تحركات عقبه . فإذا افتقده داخل البلاد الإسلامية ، أسرع فى الرحيل إلى بلاد الروم لبيحث عنه . وما يزال مقتضياً

(١) السيرة ج ٢٨ ص ٥٤ .

وأبناء الشعب أن يسهموا بعد ذلك في حكم البلاد .
ولما كانت ذات الهمة وابنها عبد الوهاب والبطل قد
أدركهم الموت بعد أن أدوا واجبهم ، فقد حكم أولادهم
من بعدهم البلاد التي تم فتحها على أيديهم .

السيرة والتاريخ :

تعد السيرة حكاية شعبية بطولية . وتختلف الحكاية
الشعبية عن الحكاية الخرافية في دوافعها وشكلها .
وليس هنا مجال للتفرقة بين النوعين وإنما نكتفي بذكر
أهم خصائص الحكاية الشعبية .

الحكاية الشعبية البطولية تتركز على الواقع تماماً ،
وهي في الغالب تعتمد على الحوادث التاريخية . فقد
يكون أبطالها تاريخيين ، وهي تلوثهم وتشكلهم وفقاً
لخيال الشعب . وبالمثل فإن الحوادث التي تحكيها
السيرة تتركز إلى حد كبير على الحوادث التاريخية ،
ولكنها تحكيها من وجهة نظر الشعب أولاً وتدخلها
في نسيج حكايتها ثانياً . أي أن السيرة لا تحكي التاريخ
العلمي الموضوعي وإنما تحكي التاريخ الشعبي . ويمكننا
أن ندرك الفرق بين التاريخ العلمي والتاريخ الشعبي
من خلال مقارنة الحادثة واحدة هي حادثة البرامكة ،
فالطبري يبحث نكبة البرامكة بحثاً موضوعياً ويقول
إن الأسباب التي أدت إلى نكبتهم مختلف فيها . ثم
يأتي بالآراء التي قيلت بصددها دون تعليق وتحمس
لرأي من الآراء لأن التاريخ العلمي لا يقبل القطع
برأي فيها .

وأما ما تذكره السيرة بصددها هذه الحادثة فيختلف
تماماً عما يرد في كتب التاريخ . لأن السيرة تحصر كما
ذكرنا على أن تربط الحادثة بنسيج حوادثها ، وأن
تعرضها من وجهة نظر الشعب . وأما عن ربط هذه
الحادثة بتسلسل الحوادث في السيرة فيتضح فيما يلي .

ومن خلال هذا العرض يتبين لنا كيف أن بعض
الخلفاء كان عاكفاً على ملذاته ، غافلاً عن أحوال
الدولة ، منصفاً للنفاق الذي يتجسد في شخصية عقبة .
ولكن هذا لم يكن ليترك اليأس يتسرب إلى جيش
بني كلاب ، وإنما كانوا يعتمدون في مثل هذه الظروف
على قوتهم واستقلال رأيهم . فإذا عارضهم الخليفة
أجابوه بقولهم « ودعنا في وجوه الكفرة لا لك
ولا علينا ، فيخرج الأمر من يدك ويدينا » فإذا
استشاط الخليفة غضباً وأمرهم بالرحيل من منطقة
الثغور أسرعوا وتحفوا في مكان قريب واستمروا في
نضالهم حتى تنكشف الحقيقة للخليفة فيعمل على
إنصافهم .

ثم ينتهي العرض التاريخي للسيرة بخلافة المعتصم بالله .
وهو أرشد الخلفاء العباسيين وأكثرهم نشاطاً ورجاحة
عقل كما تصوره السيرة . وفي عهده اتحدت الدولة
الإسلامية حكومة وشعباً في سبيل المصلحة العامة .
فتحت عمورية وهدد الجيش القسطنطينية وتم له
النصر بفتحها . وكان عقبة قد أسر منذ زمن وظل في
حراسة مشددة حتى يتم صلبه على باب الذهب .
واجتمعت حشود المسلمين لتشهد مصرع النفاق على
باب الظلم والضلالة . عندئذ توجه المعتصم إلى عقبة
وقال له : « يا قاضي كيف ترى قول النبي (ص)
للأمير عبد الوهاب حينما وعده بصلبك ؟ هل صح
قوله في الرؤيا أم لا ؟ وفي اللحظة التي تم فيها صلب
عقبة هتف المسلمون في صوت واحد : « وقل جاء
الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً . » (١)

وبهذا حققت السيرة كل ما يصبو إليه الشعب العربي ؛
فقد صلب النفاق وقضى على العدو الخارجي المهديد
لكيان الدولة في آن واحد . وحق للحكام الأبطال

(١) السيرة ج ٧٠ ص ٧٦ ، ٧٧ .

تقول السيرة : « وأما ما كان من الإمام الرشيد ، فإنه لما سار ووصل إلى ملطية ونزل عليها أمر بعمارتها . فجمعوا الصناع من سائر البقاع وشرعوا في البناء . وبعد ذلك سار الخليفة إلى بغداد ودخل فيها وجلس على كرسي خلافته . وكان عقبه حاضراً في ذلك المجلس . ونظر إلى جعفر بين يدي الرشيد ، وكل واحد يتكلم على قدر ما يشتهي ويريد ومن جملتهم الوزير جعفر ابن يحيى البرمكي ، وقد تكلم في حق الأمير (يعني الأمير عبد الوهاب ولد ذات الهمة) بما يليق بأخلاقه الكريمة . فصعب ذلك على الملعون عقبه ولم يستطع أن يسمع المدح في حق الأمراء . فنهض من وقته من مجلس الخليفة وقصد إلى داره ، وقد صح عنده تعصب جعفر للأمراء لأنه رآه يشكر لهم الإحسان ويرد غيبتهم عند السلطان . فقال : وحق المسيح والحواريين لا بد أن أعمل على هلاك البرامكة أجمعين . » (١) ثم اتفق مع الفضل بن الربيع على أن يكتب خطاباً بخط جعفر البرمكي ، ويدسه له في عمامته عن طريق أقرب خادم له . وفي هذا الخطاب يسب جعفر الرشيد ويتممه بأبشع التهم ، وقبل الخادم أن يفعل هذا في مقابل مساعدة عقبه له على زواجه بمن يحبها . ثم ذهب عقبه إلى الرشيد وأخبره بأن جعفر البرمكي يحقد عليه ويعمل على إبعاده عن كرسي الخلافة . وليس على الرشيد سوى أن يطلع على الرسالة التي يجئها جعفر في عمامته حتى يتأكد من صدق قوله . . وقتش جعفر وعثر على الرسالة وأعقب ذلك إنزال الرشيد النكبة بالبرامكة . ولم تكتف السيرة بربط حادثة البرامكة بجوهر السيرة ، وإنما أسهبت في وصف نكبتهم وصدى هذه النكبة عند الشعب . ومن خلال هذا السرد الطويل نتبين كيف كان الشعب يحب البرامكة لكرمهم وحسن معاملتهم

(١) السيرة ج ١٢ ص ٢٥ .

إلى درجة أن صورت السيرة جعفر بوصفه ولياً . فقد هتف هاتف بجعفر قبل أن تحل به الكارثة وأنبأ بها . بل إن كرامات جعفر استمرت بعد وفاته . فقد اعتاد رجل أن يعيش على ما يغدقه عليه ، فلما مات جعفر جلس الرجل عند قبره يبكيه حتى غلبه النوم ، فرأى جعفر في رؤياه وأمره أن يرحل إلى البصرة ، فيذهب إلى حانوت معين وصفه له ، ويقول لصاحب هذا الدكان « بأمانة الفول اعطني ثلاثة آلاف دينار » (١) . وفوجيء الرجل عندما وجد صاحب الحانوت يقدم له ثلاثة آلاف دينار على الفور . وطلب منه أن يفسر له هذا الأمر الغريب . فأخبره صاحب الحانوت بأنه كان رجلاً فقيراً يبيع الفول . وفي ذات يوم خرج لبيع الفول فسقط المطر عليه وأغرق قوله . وراه جعفر وعلم أنه فقير يسترزق من بيع هذا الفول . فغمره بعطفه وماله حتى اغتنى وفتح هذا الحانوت .

ولعلنا ندرك بعد ذلك الفرق الجوهرى بين التاريخ العلمى والتاريخ الشعبى . ومع هذا فالتاريخ الشعبى يعتمد أرباباً على حوادث التاريخ . وليس أدل على ذلك من أن السيرة اهتمت بذكر حادثة هجرة بنى كلاب إلى منطقة الثغور ليشتروا في الحروب العربية البيزنطية . ولولا إشارة القلقشندى لهذه الحادثة لحسبنا خيالاً صرفاً .

وليس في وسعنا أن نذكر الحوادث التاريخية العديدة التي ارتكزت عليها السيرة . فالمكان لا يتسع لذلك . ولكن حسبنا أن نشير إلى ما ذكره جريجوار في مقدمة كتاب « العرب والروم » لغازليف . قال إن الأستاذ كنار « اكتشف في رواية الفارسية العربية المسماة بذات الهمة مادة وفيرة لا تزال زاخرة بالتاريخ تحللت شيئاً فشيئاً في ثنايا الأساطير وانتهت إلى آثار

(١) السيرة ج ١٢ ص ٤٥ .

مثل السيد البطال بعد أن كان المستشرقون يعتقدون أنها آثار لا تجد بمكان أو تاريخ . « (١) .

وحسبنا أن يكون عبد الوهاب والسيد البطال شخصيتين تاريخيتين اشتركتا معاً في الحروب العربية البيزنطية . وقد قتل عبد الوهاب في تلك الحروب عام ١١٣ هـ ، كما قتل فيها البطال عام ١٢٢ هـ . وقد كانا صديقين في القتال تماماً كما هو الحال في السيرة . ففي عام ١١٣ هـ غزا عبد الوهاب مع البطال بلاد الروم . « فأنهزم الناس عن البطال وانكشفوا فجعل عبد الوهاب يكر فرسه وهو يقول : ما رأيت فرساً أجبن منك وسفك الله دمي إن لم أسفك دمك . ثم ألقى بيضته على رأسه وصاح أنا عبد الوهاب بن بخت . أمن الجنة تفرون ؟ » (٢) .

السيرة بوصفها تراثاً شعبياً وعملاً أدبياً فنياً :

رأينا كيف أن السيرة تعد تراثاً شعبياً . ومعنى هذا أن الشعب يعيش حوادث عصره ، ويعبر عن موقفه من هذه الحوادث . وإذا عبر الشعب عن حوادث عصره ، فمعناه أنه ينتقدها ويثور على الفاسد منها ، وهو لا يكتفى بذلك ، وإنما يصور من خلال نسج الحوادث بالحياة الكاملة التي يطمح إليها . وهذا أول تعبير في السيرة عن الروح الجمعي . إنه التعبير المتفائل الذي يهدم الحياة التي مسختها القيم الفاسدة ليقم مكانها حياة يسودها العدل والصدق . فقد رأينا أن السيرة فضلاً عن ارتكازها على الشخصيات التاريخية البطولية مثل شخصية عبد الوهاب والسيد البطال ، خلقت شخصية أخرى تقابلها هي شخصية عقبة . وعقبة رمز أكثر من كونه شخصاً ، هو رمز

للحياة التي ينبغي أن تنتهي لأنها لا تحقق الخير . ولهذا فقد صلب عقبة لأن وجوده لا يتفق مع الحياة الجديدة التي سعى إليها الشعب وحققها . وقد أصر أبطال السيرة على أن يقتل عقبة على باب الذهب بعد أن تفتح القسطنطينية ، أي بعد أن يقضى على العدو الخارجي ، وهذا معناه في مفهومنا الحديث أن كيان الدولة الداخلي والخارجي لا يتفصلان ، فموقف الدولة من أحدهما يعكس مباشرة موقفها من الآخر . ولعلنا نلمس هذا بوضوح في عصرنا ، فالقوى الخارجية المناوئة إذا استطاعت أن تتسلل في جسم دولة ، فإنما يعني ضعف الكيان الداخلي لهذه الدولة . وبالمثل فإن فساد الدولة الداخلي يمكن كل قوة متربصة بها في الخارج من التسلل داخلها . وهكذا يتبين لنا أن السيرة لم تكتف بسرد الحوادث ، وإنما تطورت بها لتحقيق هدف بعيد ، وهو هدف شعبي وفني حقاً .

فإذا انتقلنا إلى ذكر العناصر الفولكلورية التي تحتوى عليها السيرة فإننا نجد ما وافرة ، وهي تتمثل في المعتقدات والتطورات التي يؤمن بها الشعب ويعبر عنها في كل أشكال تعبيره . وأبرز هذه المعتقدات والتصورات تتمثل في الحلم والسحر . والحلم وفقاً للتصور الشعبي لا يعكس حقيقة الحياة اليومية ، وإنما هو حقيقة في حد ذاته . بمعنى أن ما يراه النائم في رؤياه لا بد أن يتحقق في الواقع . وقد سبق أن أشرنا إلى الرؤيا التي رآها الرجل الذي كان ينعى حظه بعد نكبة البرامكة والتي تحققت بخدايفرها . ولولا إيمان الرجل بحقيقة الحلم لما سعى إلى تنفيذ ما أمر به في حلمه . وبالمثل تحققت الرؤيا التي رأى عبد الوهاب النبي فيها ، وكذلك الرؤيا التي رآها أم عقبة قبل ولادته .

والحلم : فضلاً عن أنه يكشف عن الحقيقة

(١) فازلييف : العرب والروم (ترجمة د. عبد الهادي شعيرة ، د. فؤاد حسين (ص ٣) ط. دار الفكر العربي) .

(٢) تاريخ الطبري - ٣ ص ١٥٥٩

المجهولة ، يؤدي وظيفة أخرى في السرد . فهو يساعد على خلق الحركة الجديدة ؛ إذ سرعان ما يتحرك الأبطال بعد أن يرى أحدهم رؤيا تكشف لهم عن مكان اختفاء عقبة أو عن المكان الذي أسر فيه عزيز لديهم .

والسحر قوة تكمن في الأشياء . وفي وسع هذه القوة أن تساعد البطل في تحقيق رغباته . وقد تكشف له عن حقيقة يجهلها . فقد دبر الروم مؤامرة لقتل مسلمة بن عبد الملك والصحاح معاً ، وذلك بأن أرسلوا جاسوساً متنكراً في هيئة زاهد ، استطاع عن طريق زهده أن يكترب منهما . فلما تم له ذلك وضع السم لهما في الطعام ثم اختبئ . فلما مد مسلمة يده إلى الطعام ، « وأخذ لقمة وأراد أن يرسلها إلى فمه ، إذا بالخاتم الذي في يده يقطر ماء أصفر قطرات متداولة مثل المطر . فصاح على الملك (أى الصحاح) وقال له اصبر يا ملك العرب لا تأكل شيئاً من الطعام لأنه مسموم وكان في يد الأمير مسلمة خاتم له فص من قرن الحية وكانت أحكمة الحكماء الأوائل ومكتوب عليه أسماء وطلاسم . وكان هذا الخاتم لعبد الملك بن مروان أمير المؤمنين . ولما أرسل الأمير مسلمة إلى هذا المكان خاف عليه من هذه الأحكام ، فسلمه إليه وعرفه عن منفعتة . » (١)

والسحر يكمن في الكلمة كما يكمن في الأشياء . فإذا هتف المحاربون بقوله تعالى : « وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » ، انهزم المحاربون الأعداء على التو . وإذا هتفوا بقوله تعالى « لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » ، اكتسبوا قوة غير عادية وانتصروا ، بل إن حجاج وهو أحد المحاربين الأبطال أصيب في رجله

(١) السيرة ج ٥ ص ١

ولم يعد يستطيع الوقوف ، فأدار أبو محمد البطل وجهه إلى قبلة البيت الحرام وصلى ركعتين وبسط يديه بالدعاء ساعة زمنية .. ثم دنا من حجاج وقال له : قم بقدره الله تعالى الذي رد عليك رجلك وخلصك مما كان قد تم عليك . فقام حجاج مثل الأسد الجسور وهلل في قيامه وكبر وتشهد بعلو صوته . « (١) .

وربما كان الاعتقاد في قوة الكلمة الدافع الأكبر وراء قول الأشعار البطولية قبل أن يخوض البطل المعركة مباشرة . فقد « كشف عبد العزيز العلوي رأسه وأخرج يده من جلباب درعه وهو ينشد هذه الأبيات :

ألا خبروها أني اليوم باذل

لروحي في هيجائها بالقواضب

وإني أرد الخيل أيضاً بصارمي

وأضرب أعناق الليوث السلاهب

ولو كان فيما بيننا ألف بلدة

لها ألف سور هان عندي مطالي

وحق الذي حج الحجيج لبيته

ينادونه ليك من كل جانب

لاقتحمن الحرب حتى ترونها

بفيض نجيعاً مثل فيض السحاب

فإذا تجاوزنا المعتقدات والتصورات الشعبية إلى

ذكر نموذج من التعبير عن اللاشعور الجمعي ، فإننا نجده يتمثل في صورة البطل منذ أن يولد حتى يبلغ مرحلة النضج والكمال . وقد سبق أن قدمنا نموذجين لحياة البطل يتمثلان في حياة جندبة وحياة ذات الهمة فقد ولد جندبة يتيم الأب ، ثم ماتت أمه بعد ولادته مباشرة وتربى لدى قوم غرباء . فلما كبر عرف حقيقة نسبه ، فانضم إلى قومه وأصبح البطل المرموق .

(٢) السيرة ج ٥ ص ٤٨

والمثل فقد تربت ذات الهممة لدى قوم غرباء أى أنها
أبعدت عن أبيها وأمها . ثم عرفت فى النهاية حقيقة
نسبها فانضمت إلى أهلها وقد اكتملت شخصيتها
وأصبحت بظلة السيرة الأولى . ولا تنفرد السيرة
بهذين النموذجين ، ولكنها تحتوى على نماذج بطولية
أخرى تكاد تتفق حياتهما مع هذين النموذجين . فإذا
عرفنا أن صورة البطل هذه ترد بالمثل فى الحكايات
الخرافية والحكايات الشعبية فى جميع أنحاء العالم ،
استطعنا أن ننتهى إلى أنها تعبير تلقائى عن اللاشعور
الجمعى كما فسره علماء النفس . ومصدر هذا التعبير
هو إحساس الفرد بالعقبات التى تستكن فى لاشعوره
منذ طفولته حتى يصل إلى مرحلة التفرد والاكتمال .
فالطفل الذى يولد من أبوين ، وما يلبث أن يشعر
- حينما يكبر - بسيطرة الأب عليه الأمر الذى يدفعه
إلى التقرب لأمه . حتى إذا ماشب عن الطوق ، اضطر
- مدفوعا بطبيعة الحياة التى تتميز بالاكتمال والكمال ،
إلى الانفصال عن أمه . وفى هذه السن يشعر الابن
باحترار لأبيه وأمّه ويحل فى خياله محلها من هما
أرفع منزلة . حتى إذا اكتمل الابن نضجه ووصل
إلى مرحلة الرجولة الكاملة ، ارتد إلى عالم الواقع ،
فيتعرف على أهله محتفظا ببطولته ورجولته . هذا
الإحساس اللاشعورى يخلفه الشعب مرة أخرى على
صورة البطل . فالبطل إما أن يولد يتيم الأب ، أو
يستنكر الأب ولادته إثر نبوءة تطلعه على خطورة
طفله . وفى هذا إشارة لعلاقة الابن بالأب فى حياته
الأولى . أما الأم فتحفظ بالطفل بعض الوقت بعد
ذلك ، إلى أن يبعد عنها الطفل كذلك ، وفى هذا
إشارة إلى تحركه الطبيعى نحو الاستقلال . حتى إذا
كبر الطفل تعرف على أهله . أى أنه - بعد أن تم
عملية الاستقلال والنضج ، لا يشعر بخطورة فى

وبالإضافة إلى المعتقدات والتصورات الشعبية ،
وصور التعبير التى تنبع من اللاشعور ، هناك الحكايات
الشعبية التى يحفظها الشعب فى ذاكرته لاعتزازه بها .
ومن ثم فهو يخلق لها مجالا فى السيرة لكى يحكيها عن
عمد . ومن ذلك ما يحكيه الراوى عن الصحصاح
من أنه تقابل فى قلب الصحراء مع ظبية راعه منظرها
وهى تجرى مصطحبة أولادها . فجرى وراءها
الصحصاح يبنى صيدها ، ولكنها أسرع ودخلت
كهفا مع صغارها . وفى تلك اللحظة برز أسد جسور
وهم بأن يفتك بالصحصاح . وفى تلك اللحظة تجسدت
أمامه امرأة رائعة الجمال لم يدر من أين أتت .
فضربت الأسد ضربة قضت عليه . وتعجب الصحصاح
من ذلك وسألها ما إذا كانت إنسية أم جنية . فأخبرته
- بعد أن سخرت منه ومن قوته التى يعتز بها ، بأنها
ابنة ملك الحان عقهق الذى سجد للنبي عليه السلام .
وهى بعينها الظبية التى جرى وراءها ، ورغب فى
اصطيادها .

ومن ذلك حكايات الكهانة والعرافة . وقد رأينا
كيف أنها استغلت فى السيرة فى حادثة تبرئة ذات
الهممة من التهمة التى وجهها لها ابن عمها الحارث .

كل هذه العناصر الفولكلورية تحتوى عليها
السيرة . وهى تتعلق جلها بآثار الشعب القديم .
فهل معنى هذا ان أهمية السيرة ترجع إلى احتوائها
على هذا التراث ؟ وبعبارة أخرى : هل يعنى التراث
الشعبى ، القديم المتوارث ، أم القديم المتطور ؟
إن التراث الشعبى يعنى أولا وأخيرا شتى أشكال
التعبير عن حياة شعب من الشعوب . وتتحدد حياة
هذا الشعب بأصله والمكان الذى يعيش فيه ومصيره .

ومعنى هذا أن أى تغيير يطرأ على حياة هذا الشعب لا بد أن يترك أثره فى الشعب وبالتالي فى أشكال تعبيره .

أما بالنسبة للسيرة فقد تغيرت حياة الشعب العربى الممثل فى أسرة بنى كلاب تغيرا زمنيا ومكانيا واجتماعيا . وقد استطاعت السيرة أن تصور مرحلة الانتقال هذه أروع تصوير . فقد بدأت بعرض حوادثها فى قلب الصحراء ، حيث كانت تعيش أسرة بنى كلاب . وقد كانت تعيش هذه الأسرة فى أفق مكانى ضيق وحيز زمانى محدود . أما المكان فهو الصحراء بتقاليدها المتوارثة . وأما الزمان فهو عصر ما قبل الإسلام وإن أتى عليهم الإسلام . ولهذا فإن حياة هذه الأسرة لم تتجاوز الصراع بين القبائل وبين أفراد القبيلة الواحدة . ثم خرج الصحصاح يطلب مهراً للبنى من وراء المغامرات . وقادته هذه المغامرات إلى بلاط الخليفة الذى وثق فى شجاعته وطلب منه أن يرحل مع مسلمة بن عبد الملك لمحاربة الروم .

وتعد هذه الحادثة نقطة تحول فى حياة الأسرة ، إذ أعقبها خروج الأسرة كلها إلى منطقة الثغور . وهذا معناه اتساع أفقهم المكانى وكذلك أفقهم الزمانى نتيجة معيشتهم لحوادث عصرهم التى كانوا بعيدين عنها . وبالمثل فقد فتحت الحياة الجديدة أذهانهم لمفاهيم سياسية واجتماعية جديدة . فالحاكم ليس الشخص الذى يتربع على عرش الملك ويعيش حياة البذخ والترف بينما تدبر حكومته أمور البلاد كيفما شاءت ، وإنما هو ذلك الذى يعيش مع الشعب ويشعر الشعب بوجوده . فلما ظهر الخليفة هرون الرشيد أمام جيش الشعب مصطنعاً موقف الحاكم المترف الذى يأنف من شعب الصحراء وبخاصة عبد الوهاب الأسمر اللون ، اغتاز أحد أفراد أسرة بنى كلاب ،

وخاطبه بالصرامة التى تربي عليها ، وسأله عن السبب الذى دفعه لاحتقار أميرهم وبطلمهم عبد الوهاب ، لأنه أسود اللون ؟ وإذا كان الأمر كذلك فليبق هو خليفة لبييض ، وليصبح عبد الوهاب خليفتهم .

ثم إن الحاكم يتحتم عليه أن يترك فرصة للشعب ليسهم فى صنع حاضرهم ومستقبلهم . وقد أسهم شعب السيرة فى صنع حاضرهم ومستقبلهم ، فوضع يده على بؤرة النفاق وقضى عليه وعلى العدو الخارجى فى آن واحد .

إن سيرة الأميرة ذات الهمة تراث أدبى عربى يستحق كل تقدير . فقد جمعت فى ثناياها التراث القديم والتاريخ ومقومات الدولة السياسية والاجتماعية المثالية ، ثم مزجت كل هذا فى قالب قصصى متكامل ، يحقق هدفاً محدداً على الرغم من طولها البالغ .
د. نبيلة ابراهيم

صفات البطل :

« قال الراوى » فلما رأى الصحصاح مصارع الأشباح ، وهذه الحرير فى بكاء ونواح ، أخذته الحمية ، فصاح فى عبده نجاح وقال والله هؤلاء حجاج بيت الله الحرام ، وزوار قبر محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، هؤلاء اللثام قطعوا عليهم الطريق وعوقبهم تعويفاً وأظنهم قتلوا كراتهم وأبادوا حماهم . ولقد سلوت حب ليلى باصطناع المعروف وإغاثة الملهوف ، ولا بد أن أتى روحى على هذه الكتبية وأكشف إن شاء الله هذه المصيبة . فقال له عبده نجاح يامولاي لا تفعل ، واعلم أن ما قصد لأخذ هذه الأموال وحماها إلا رجال وأبطال وصناديد أقيال ، ولا بد أنهم تسعون فارساً ما بين مدرع ولا بس . ولا يخفى أن يكون واحد منهم مثلك ، والباقي لا يصبروا على فعلك . وقد كان فى هذه القافلة ما ينوف عن ستمائة فارس أو دون ذلك

فتركوهم هؤلاء ما بين مأسور وهالك ومطروح تحت السنايك . والصواب يامولاي لاتعرض نفسك على هذه المهالك ولا تعارك ، فلما سمع الصحصاح من عبده ذلك الكلام نظر إليه وقال يا ابن اللثام ما يقعد عن نصرة الحریم إلا كل لئيم . ثم صاح من أم رأسه : يا أندال البادية والطائفة الباغية العادية ، أقسم بمن جعل البيت الحرام حمى للناس وأمنا من لباس ، وأوضح منهجه وأفرض حجه لئن لم تخلوا عن الحریم وما معهم من المال لأجعلن رقابكم بلا علاصم وأجسامكم بلا جماجم وجراحكم ماينفعها مراهم وقد نصحتكم نصح الليث الحازم . ثم أنشد يقول :

ألا يارجال سوء كفوا عن الطعن
وكفوا عن الأموال والحمل والطعن
أحجاج بيت الله تبغون مغنا
وذلك فعل الشين يقضى إلى المحن
دعوهم وإلا والمظلل من منى
وحجاج بيت الله في سائر المدن
جعلتكم في القاع طعما لأسده
كذا الطير من نسر ويوم مع السن

التراث الاسطوري في السيرة :

« قال الراوى » : وكان الصحصاح قد كل من السير وقد فرح قلبه بنظره إلى ذلك الدير ، وقال في نفسه لعلى أجد عند بعض الرهبان فرجاً مما أنا فيه ويفرج عن قلبي ما أعانيه . (وقال الراوى) ياسادة يا كرام ، فبينما هو يتحدث نفسه بالمسير إلى الدير ، وإذا هو بغزالة حسنة المنظر ، مليحة انزى وهى سائرة تتمخطر وعيناها تتوقدان كأنهما ياقوتتان وحولها جماعة من الغزلان وهم خلفها كأنهم غلمان

وهى أمامهم كأنها ملك وسلطان . وعن يمينها وشمالها غزلتان كالأتراك كأنهما لها حجاب وهى تتحدث معهم . وكان الوقت عند غروب الشمس وقد اصفرت أرجا . فمد الصحصاح إليها أسنانه وأطلق نحوها عنانه فجرت الغزاة قدامه وقد لحقتها تلك الغزلان وهى تجرد والصحصاح لها فى الطلب ...

.. هذا وقد دخلت الغزاة إلى غار فى الجبل وتبعتها الغزلان وقد بقي الصحصاح حائراً ولهان وعليها ندمان . فأراد أن يدخل خلفها إلى ذلك المكان فخاف على الجواد يشرد منه فى ظلمة الليل ويبقى حاله بعده فى الويل . فرجع طالب الدير وإذا قد اعترضه أسد كأنه شيطان . وكان الأسد طويل القامة عريض الهامة أحمر أغبر ، قد جلله الوبر وهو يتمخطر على الحجر ... وهجم على الصحصاح فهجم عليه الصحصاح . وعندها صرخ الأسد على الصحصاح صرخة قوية أقلب منها البرية وقد هجم عليه ولطمه يديه فأرماه تحته . فبينما هو والأسد فى ضراب وقرع ودفاع ، وقد صارت روح الصحصاح فى النزاع ، وإذا بجارية حسنة القوام مليحة الابتسام كأنها البدر التمام قد أقبلت وصرخت على الأسد فارتجعت عن الصحصاح وخلاه . وراح فنظر الصحصاح إلى وجه تلك الجارية فوجدها مبدعة للناظرين ونزهة للمتأملين . فقدم إليها وقبل يديها وقال لها : أنت إنسية أم جنية فقالت له : ايش لك بنى وإيش لك بهذه القضية ؟ لا إنسية ولا جنية أنا فاعلة خير ساكنة بجوار أهل هذا الدير ... أنا بنت عهق الحنى ملك الجان . وإن بنت الحن ما يتغير حسننها ولا ينقص جمالها ، فالمليحة مليحة والقبيحة قبيحة ، وفينا من تتزيا بمهما أرادت من الصفة الوحشية وصفة الطير وغيره وفينا للشر وفينا للخير ولما آمن أبى نزلت على النبى صلى الله عليه

وسلم سورة قل أوحى .. إلى قوله إنه : استمع إلى
نفر من الجن »

النزاع بين أفراد القبيلة الواحدة :

« قال الراوى » فلما أن كان بعد ذلك بأيام
جلسوا بين المشايخ الكرام . فقال ظالم لمظلوم اعلم أن
زوجتك وزوجتى حامل ، وأنت أمير وأنا أمير ،
فاجعل الشرط بيننا ويشهدوا هؤلاء المشايخ علينا ،
من جابت زوجته ولدا ذكراً كان الملك له
والإمارة من دون الآخر ويكون الأمر والنهى فى
الحرب له .. فقالوا مشايخ بنى الوحيد : وترضى
أنت بهذا الأمر ، فقال أى والله العظيم وإن جاءنا
ذکران بقيت الإمارة على حالها مشتركة بين الاثنين .
فشهد العرب بعد أن رضوا بذلك الحد ، لأنهم
تربية البر وهزلم جد ... (قال الراوى) وبعد حين
أخذ المرأتين الطلق بإذن خالق الخلق ، فوضعت
زوجة ظالم ذكراً كأنه فلقة قمر ، ففرح به واستبشر
وقد سماه الحارث . وقال للداية اذهبي وكونى فى
بيت أخى فإنى أخاف أن يكتنوا مايرزقون عند
الولادة من خوف الشهادة . فقالت له : دع عنك
المنافقة والشين ، كيف يكون هذا وأنتما أخوان .
فقال لها دعى عنك هذا الكلام واذهبي إلى بيت أخى
بسلام ... فعندها ذهبت الداية إلى بيت مظلوم وكانت
تحبه أكثر من ظالم لما فيه من الدين والخير وجودة
التمكين . فلما أن دخلت قالت لمظلوم : اعلم أن أخاك
قد بعنى لأجل كذا وكذا . ثم إنها جلست ساعة
وزوجة مظلوم تطلق ، فولدت جارية كأنها البدر
قوية السواعد والأطراف هائلة الأكتاف . فوقع
على امها الحمدة والهموم والغموم ، وقد فرغت من
زوجها مظلوم ...

التاريخ الشعبى :

« ... ولم يكن هناك يومئذ بلد ولا عمارة سوى
دير فيه راهب فطلبه المنصور إلى بين يديه ، فلما أن
حضر سأله عن اسمه فقال له « باغ » وهذه الأرض
اسمها « راد » وقد قرأت فى كتب الحكماء واطلعت
على الملاحم فرأيت فيها أنه لابد أن تعمر هنا مدينة
مذكورة إلى آخر الزمان . « قال الراوى » فقال له
الخليفة : كيف تبنى المدينة ههنا وهذه الأرض
ملائة ماء . فقال له الراهب : لاتعرف قطع الماء إلا
منى . فقال له : افعل ما تريد . فمضى إلى مكان يعرفه
وسد الماء فانقطع . ونزل المنصور على الدجلة ثم
أمر بعمارة المدينة ... وسماها بغداد باسم الراهب
والأرض . »

الايمان بالمخبرات :

« قال الراوى » ونرجع لما كنا عليه من الكلام
بإذن محبي العظام . ولما تقدم أبو محمد البطل إلى
السهم الذى يتحرك فى التراب فجذبه بكلتا يديه فلم
يقدر . فجذب السيف الذى معه وحفر حواليه إلى
أن وصل إلى آخره ، وإذا بذلك السهم قد وقع فى
ثعبان عظيم ارتمى وهو ملبط بالدم . وذلك الثعبان
من حلاوة الروح قد انقلب ودمه قد انسكب . ولما
رأى البطل ذلك تحير فى أمره وقال : الله أكبر بان
الحق وظهر ، وزال والله الخوف والحذر ..

الايمان بحقيقة الحلم :

« ... وبالقضاء والقدر نزل الأمير تحت شجرة
كبيرة ظليلة لها أغصان متفرعات عن بعضها البعض
وكل غصن منها يظل الفارس والمائة . فنام الأمير
عبد الوهاب تحتها وقد غرق فى نومه فسمع للشجرة
أنيابا كأنين الثكلى وهى تقول : أيها الأمير صدق

الله ورسوله . فإذا قمت من نومك قل لأصحابك
يقطعوني وبهذا حكم الله تعالى فلا مرد لحكمه ولا دافع
لقضائه . ثم إنك تقطع أغصاني واحملني من مكاني .
فعلى يكون صلب عقبة الملعون على باب الذهب بعد
أن يقتل ثلاثمائة ألف على صلبه من سائر الأمم .
فانتبه الأمير عبد الوهاب من نومه وهو فرعان

مرعوب وسمع أنين الشجرة في يقظته كما سمعها في
نومه . فلما سمع ذلك قال : الله أكبر الله أكبر . فقال
الأمير أبو محمد البطال : ما الخبر فأعاد عليه القصة ففرح
الأمير أبو محمد البطال بذلك والأميرة ذات الهمة وقالوا :
والله هذا أحب إلينا من فتح القسطنطينية لأن ما يجري
على المسلمين شيء أشد مما يجري عليهم من عقبة .



الفردوس المفقود يكون ملتون

بقلم
الدكتور نظمي لوقا

١ - حياته

منذ ثلاثة قرون ونصف لم تكن البيوت في مدينة لندن العظيمة تحمل أرقاما ، بل كان الناس يميزون بعضها عن بعض بتمثال صغير أو شكل منحوت أو صورة زاهية الألوان ترمز الى مهنة قاطن البيت أو الحرفة التي يمارسها فيه . فقد كانت العادة المرعية حينئذ أن يتخذ الناس مساكنهم وحجرات معيشتهم البيئية الخاصة في الطبقات العليا من المنازل ، فوق حوائطهم ومتاجرهم ومكاتبهم التي تشل الطبقة الأرضية من المبنى . وكانت لندن محدودة الحجم حيث قلب المدينة الآن . اما ما يعرف اليوم بضواحي لندن السكنية فلم تكن في ذلك الحين الا ريفا متراميا بالحقول والمراعى .

وفي بيت من بيوت لندن ، وفي شارع بريد (أى شارع الخبز) كان المارة يرون على الواجهة نسرا مبسوط الجناحين ، وهو شعار أسرة قاطنه الذى يحترف كتابة العقود الرسمية والوثائق القضائية . فهو وكيل أعمال قانونية يحرر للناس

وصاياهم واتفاقاتهم .. وكان فى بعض الأحيان يخرج موكله من ضاقتهم المالية باقراضهم المال بفائدة معقولة .

وفى يوم قارس البرد صرصر الريح يتداول سماءه هزيم الرعد ووميض البرق . فى التاسع من شهر ديسمبر سنة ١٦٠٨ وجد جون ملتون - رب ذلك البيت ومحرم العقود ووكيل الأعمال القضائية ومفرج الكروب بالربا المعقول - ان من العسير عليه مواصلة عمله المعتاد ، وهو المكب الدءوب ، فقلبه كان يرقص طربا حتى ليكاد يكفه عن التحير والتحرير لينطلق بالشدو الذى يسقط الهيبة ويزيل الوقار ! .. فنسذ ساعات قلائل - فى الساعة السادسة والرابع من صباح ذلك اليوم على وجه الدقة - صار أبا لغالام صغير جميل . وقال جون ملتون لنفسه « ليكون هذا الغلام جونا آخر .. سميا لى » . وهكذا أطلق على الوليد اسم جون ملتون عندما تم تعييده فى الكنيسة القريبة من الدار ، وهى كنيسة «أول هالوز» . ومثلما منح كاتب الأشغال التضائية ابنه جون

أن فصل الى بعض ما كتب لهذا الوليد من مكانة رافعة في عالم الشعر على اطلاقه ، وفي آداب العالم أجمع على اختلاف اللغات وتباين العصور .
ومهما يكن من شيء فقد قرر ذلك الوالد أن يقدم في شأن ابنه على أمرين : أولهما أن يتيح لابنه جون تعليما متينا وأن ينشئه على تعاليم المتطهرين (البيوريتان) وهي العقيدة البروتستانتية الخاصة التي آثرها وكيل الاشغال القضائية بالانتماء اليها .

وفي السن المناسبة - وهي سن مبكرة - ارسل جون ملتون الى مدرسة القديس بولس التي التي أنشأها الدكتور جون كوليت في سنة ١٥٠٩ وصار يشرف عليها في ذلك العهد الكسندر جيل وله شهرة واسعة بين ابناء جيله ، ذلك انه من احسن نظار المدارس ومن أكثرهم استخداما للعصا وسيلة للتهذيب والتعليم . وكان الفتى الصغير جون لا يكاد ينتهي من تلقي علومه سحابة النهار في تلك المدرسة حتى يجد بانتظاره في البيت مؤدبا خاصا يلقيه مزيدا من الدروس والمعلومات .

ويخبرنا الشاعر العظيم فيما تركه من أقوال وكتابات « اننى كنت منذ سنواتى الأولى بفضل عناية ابي وهمته التي لا تعرف التوقف أو الابطاء (جزاه الله عليها خير الجزاء !) دائم الاطلاع على اللغات وبعض العلوم التي تسمح بها سنى ، وذلك كله على يد أساتذة ومؤدبين عديدين سواء في البيت أو في مقاعد الدرس في المدارس » ثم يقول في موضع آخر :

« لقد وجهنى أبى منذ حداثة صبأى الباكرا الى دراسة الآداب الانسانية التي كنت استوعبها بلهفة عظيمة ، حتى لقد كنت منذ بلغت الثانية عشرة لا أترك دروسى لآوى الى فراشى قبل انتصاف

اسمه منحه أيضا - أو منحته الطبيعة وأغانين الوراثة الغامضة - جانبا لا يستهان به من طبعه . فجون ملتون الكبير - والد الشاعر - سمح لنفسه أن يخالف أباه في بعض مسائل العقيدة ، حتى لقد تعرض في هذا السبيل لسخط ذلك الأب الى حد اعلان براءته منه حتى نهاية حياته ، من غير أن يلين أى منهما عن موقفه العنيد ، مما يدل على الصلابة واستقلال الرأى في هذه الأرومة . واستقلال الرأى ، والحفاظ الشديد على هذا الاستقلال والاعتداد به سمات بارزة غاية البروز في شاعرنا جون ملتون ، ولاشك في انها موروثه عن ذلك الوالد .

وكان جون الأكبر - والد الشاعر - قد أثرى وجمع مالا يعتد بقدره في زمنه . وكان يتحرى في سلوكه أوامر ضميره ونواهيه ، ويصدر عن وجدان مؤمن بما يصنع ، ويستمد من علمه ومعرفته وقودا صالحا لطاقته ، فجعل يكدح في عمله بأمانة واجتهاد منذ بكرة الصباح الى ساعة متأخرة ، لا يأخذ في عمل حتى يتمه على أكمل وجه . فلما أنعم الله عليه بولادة ابنه وجد من حقه وسطن نصب العمل الشاق أن يضع القلم من يده قليلا ويخلد الى التفكير محملا في النار يطالع فيها صوراً من صنع الأحلام ، عسى أن يرى فيها وليده وسميه وقد بلغ مبلغ الرجال ! ولعله حرى أن يقتفى خطوات أبيه وكيل اشغال قضائية ومقرض نقود بالربا المعقول ، وقورا مبجلا بين رجال الأعمال وأرباب الحرف والمهن . أو لعل موهبة أبيه المحدودة في نظم الاهازيج والمقطعات الشعرية تنمو لديه فتصبح ملكة مزدهرة تؤتى أكلها من أطيب القريرض . ولكننا لا نخال تصورات أبيه وأحلامه في ذلك اليوم بالغة ما بلغت من الجموح والاسراف يمكن

الليل . وكان ذلك في الواقع أول سبب من أسباب
إيذاء حاسة البصر ، فبدأت تتناوبى فوق متاعب
ضعف عيني الطبيعي آلام الصداع المتلاحقة .»

وفي سن الخامسة عشرة نظم ملتون ترنيمة
استقى مادتها من المزمور ١٣٦ أصبح ترتيلها شائعا
حتى اليوم في كنائس المتطهرين خاصة والبروتستانت
الانجليز بصفة عامة . وفي سن السادسة عشرة دخل
جون ملتون كلية المسيح في جامعة كمبريدج وهناك
أطلق عليه زملاؤه من طلاب الجامعة لقب « سيدة
كلية المسيح » لما اشتهر به من رقة البشرة وطول
الشعر الضارب بلونه الى حمرة النحاس ، وهو
ذلك اللون الذي يسميه العرب « اللون الأصحر »
. وفي كلية المسيح ظل جون ملتون يعمل بدأب
على مدى سبع سنين .

وبعد أن حصل الطالب النابغ على درجة
البكالوريوس ودرجة الاستاذية (الماجستير) في
الآداب غادر جامعة كمبريدج ورحل الى قرية هورتون
في اقليم بكنجها مشاير ، وهي القرية التي كان والده
قد اعتزل عمله وتقاعد فيها . وكان رأى جون ملتون
قد استقر بعد تخرجه على أن يفرغ للشعر .

والواقع انه كان قبل مغادرته ، كمبريدج قد
كتب قصيدته الجميلة التي عنوانها : « صبيحة يوم
ميلاد المسيح » وقد كتب في ذلك الحين الى صديق
له ردا على رسالة قائلا : أراك تكثر من السؤال
عما اشغل به نفسى ، وعما أفكر فيه ؟ واني بعون
الله تعالى مشغول الفكر بالخلود . واغفر لى هذه
الكلمة ، فان هى الا همسة ألقى بها فى مسامعك .
أجل أعلم انى أهيبء جناحى للتخليق !

واستهواه هدوء حياة الريف ، فجعل من نفسه
وفكره مستقرا لجميع الصور الجميلة والأصوات
العذبة والأنغام الشجية . وانصرف الى كتابة

القصائد والمسرحيات الشعرية ، وأشهرها « كوموس
وهى تمثيلية من نوع مسرح الأقنعة - وهو نوع
كان مرغوبا جدا فى تلك الأيام - كتبها لصديقه
هنرى لاوس الذى كان يعتبر أبرز المؤلفين الموسيقيين
والملحنين بانجلترا فى زمنه ، وقد تولى وضع
الموسيقى لكلمات تلك القطعة الأدبية .

وقد بلغ من حب وكيل الأشغال القضائية
المتقاعد بعد أن أثرى أنه منح ابنه البكر « مبلغا
كافيا من المال فى سنة ١٦٣٨ (أى عندما بلغ الثلاثين
من عمره) ليقوم بجولة سياحية فى أرجاء القارة
الأوربية ، بالإضافة الى اجر ونفقات خادم فى سن
الرجولة صحبه فى هذه الجولة الطويلة الباهظة
التكاليف ليقوم بشئونه . وليس عجيبا على الاطلاق
أن تصبو نفس شاعرنا الى الطواف بالأمم ولا سيما
ايطاليا ذات الشمس الدافئة ، فهو قد عل ونهل
من اللغات القديمة ولا سيما اللاتينية جرعات
كبيرة على حد تعبيره ، وكان أدب دانتى وبترارك
وغيرهما من فحول أدباء الطليان زاد مائدة حافلة
أصاب منها كل جنى وشهى ومستطاب . وفى ايطاليا
على الخصوص أطال المكث والتلبث مستأنيا متأملا .
وعد مدائننا القديمة المعمورة بأيات الفن واعلام
الفكر وكنوز الثقافة القديمة والحديثة حطت وراحله
ولا سيما فى رحاب جنوه ولجهورن وبيزا وفلورنسا
وروما والبندقية وميلانو . وفى « أرشترى » قرب
فلورنسا حظى بالتحدث الى فلكيها المشهور
« جاليليو » الذى كان يعيش هناك يومئذ رهين
محبسين من عزلة الشيخوخة وآفة العمى مستكينا
الى الهدوء بعد طول نضال مع اعداء حرية العقل
وحرية التجربة العلمية . وياله من موقف من مقارنات
القدر ، أن يقف جون ملتون الشاب الناضر الجمال
والوسامة الجميل العينين خاشعا أسيفا على

بنظم قصيدته المشهورة « ادونائيس » فى رثاء جون كيتس ، كما اقتفى أثره لورد تينسون فى قصيدته « الذكرى » تمجيذا لذكرى « آرثر هالام ».

وكان والد ملتون قد نقل مقره الى «ريدنج» وعاش الشاعر بعد عودته فترة من الزمن بالقرب من كنيسة « سانت برايد » وعن كُتب من شارع « فليت » - الذى أضحي اليوم شارع الصحافة فى لندن - وقضى بعض وقته فى تعليم ابني أخته التى تزلت . ومن هنا انتقل الى بيت فى «الدرزجيت ستريت» له حديقة وفيه عدد كبير من الحجرات ومتسع لكتبه الحبيبة اليه ويتوفر له جوار ساكن هادى . والى هذا البيت أتى بزوجه الأولى « ماري باول » وهى بنية فى السابعة عشرة . ووالدها رتشارد باول من المملكين المتعصبين !

وبدأ ملتون حربه بالكتيبات فى سنة ١٦٤١ ولم يختمها الا فى سنة ١٦٦٠ ، ولم يكن له من موضوع فيها جميعها الا الحرية على اختلاف أنواعها . فدافع عن الحرية الدينية ، وعن حرية التعليم ، وعن الحرية المدنية ، وعن الحرية المنزلية وعن حرية الصحافة والنشر عموما . وقد طبع جانب من هذه الكتيبات والنشرات غفلا من اسم مؤلفها . ولعل أشهر هذه الكتيبات الخمسة والعشرين «خطبة للمستتر جون ملتون فى الدفاع عن حرية الطبع بدون ترخيص ، مقدمة الى برلمان انجلترا» . وهذا هو العنوان الفرعى للكتيب ، أما العنوان الأسمى فهو «أريوباجيتيكا» نسبة الى «أريوباجوس» المحكمة العليا التى كانت تعقد بأثينا قديما فى الهواء الطلق وكانت أحكامها نهائية لا تقبل النقض وسبب هذه النشرة أو الخطبة المطبوعة أن قرارا

شيخوخة العالم المصاب فى بصره وهو الفلكى الذى صحح للناس معطيات أبصارهم وقوم لهم خداعها فى أمر دوران الشمس حول الأرض كما كانوا يزعمون ... وهو لا يدرى أن الغد يدخر له مثل هذه الضربة فى ظهر الغيب بأخرة من عمره بعد نضال شبيه بذلك النضال فى حومة السياسة والفكر .

وفى ما هو بمدينة نابولى وصلته الأنباء من وطنه انجلترا أن استبداد حكومة الملك شارل الأول يجبر البلاد الى الثورة العلنية ، وهو يقول لنا بلسانه : « ان الانباء الأسيفة عن وشك نشوب الحرب الأهلية فى انجلترا دعتنى للعودة الى بلادى ، لأنى وجدت من الحقارة أن أطوف بأفاق الدنيا خارج الحدود ووراء البحار طلبا للمتعة الذهنية والثقافة فى حين يقاتل ابناء وطنى ويسفكون دمهم فى المعارك على أرض بلادى دفاعا عن الحرية والتماسا لأسبابها ! »

واننا لنجد فى هذه العبارة الموجزة وجها جديدا لجون ملتون الذى كان حتى ذلك الحين عاشق فن وادب ورجل خيال ، فاذا به يتكشف عن رجل عمل ونضال ، ولم يلبث أن شد رحاله عائدا الى انجلترا .. ولكن ما من شئ ينم على أنه فكر لحظة واحدة فى امتشاق حسامه فى صفوف كرومويل وجيش البرلمان ضد الملك والملكية ، فالقلم دائما كان سلاحه . وعندما سنحت له الفرصة انبرى بذلك السلاح العضب فى يده فكان أفعل من السنان عند احتدام الطعان .

وفى طريق عودته الى انجلترا نظم ملتون قصيدته فى تمجيد ذكرى صديقه « تشالز ديوداتى » الذى وافته المنية أثناء رحلة ملتون فى بلاد القارة الأوروبية . وقد اقتفى شيلى أثر ملتون

وكانت الصفحة الأولى من المجلد عبارة عن صورة للمؤلف الشاعر وهو فى سن الحادية والعشرين . وبعد ذلك بأربع سنين انضم جون ملتون صراحة الى صفوف من اصدروا أمرهم بقطع رأس الملك باصدار كتابه « ايكونوكلاستس » فى الرد على أنصار شارل الأول ، وكتابه « حقيقة الأمر فى حقوق الملوك والحكام » . وقد بلغ من شدة الاقبال على طلب الكتاب الأول انه طبع خمس عشرة طبعة فى غضون اثني عشر شهرا ، وامسى من أشهر الكتب فى العالم يومئذ .

وفى سنة ١٦٤٩ عين مؤلف هذه الكتب والنشرات السياسية النزائية سكرتيرا لاتينيا لمجلس الشؤون الخارجية ، وكانت اللغة اللاتينية هى اللغة الدولية الدبلوماسية كالفرنسية والانجليزية فى أيامنا هذه . فكان هو الذى يتولى ترجمة الوثائق والمذكرات الدبلوماسية من الانجليزية الى اللاتينية ومن اللاتينية الى الانجليزية .

وكان ملتون فى هذه السنين قد تنقل فى مساكن شتى الى أن استقر فى شارع الدوق بوستمنستر، وهناك كتب رسالة سياسية عنوانها « دفاع عن الشعب الانجليزى » فى سنة ١٦٥٠ ، وهو رد عنيف ساحق على كتيب من تأليف عالم فرنسى مرموق اسمه « سلاما سيوس » دفاعا عن سياسة الملك شارل الأول بطلب من الأمير الذى أضحي فيما بعد ملكا على انجلترا باسم شارل الثانى . وقد كتب ملتون دفاعه بتكليف رسمى من «مجلس الدولة» وهو مايقابل مجلس الرياسة أو مجلس الوزراء . والحق أن لغة « الدفاع » كانت عنيفة حافلة بالمطاعن الشخصية والسباب ، بيد أن حقوق الشعوب عموما لم تظهر بأجلى من هذا البيان وأقوى من هذه الحجة .

صدر من البرلمان فى سنة ١٦٤٤ يحرم على أى شخص أن ينشر كتابا أو كتيبا أو نشرة أو صحيفة مالم يكن قد صدر له بنشرها ترخيص سابق . وفى دفاع ملتون الحار القوى عن حرية الطبع والنشر والفكر يقول بحق : « ما أكثر من يعيشون من البشر عالة وعبئا وكلا على الأرض . أما الكتاب الجيد فعصارة دماء الحياة التى تجرى فى فكرهذ وروح نابغ ، وقد حنطت هذه العصارة واختزنت ذخرا للناس ، ولكى تكون لهم بها حياة تتجاوز آفاق الحياة » . وقد صدر هذا الكتيب بدون ترخيص ، ولم يسجل رسميا فى ديوان المطبوعات ولم يحمل اسم طابعه أو ناشره ، بل اسم مؤلفه الذى تصدى لحمل المسؤولية مفردا .. وقد نشر كتيبه عن حرية التربية والتعليم فى سنة ١٦٤٤ أيضا .

ولم يكن جون ملتون راضيا عن أعماله النثرية هذه كل الرضا ، بل كان يقول فى التعليق على ذلك : « انى لا أستخدم بكتابتها سوى يدي اليسرى ! » أما يده اليمنى فللمشعر دون سواه، ميدانه الأثير الذى لا يعدل به شيئا . ولم تكن يمناه مشلولة ولا معطوبة مؤفة فى تلك الفترة النثرية من حياته -حاشا- بل هى كالفرند الصقيل المذخور فى قرابه الى حين . وكانت يمناه التى تملك ناصية القريض تستجىم الى يوم موعود تتألق فيه آياتها كالنجوم الدرارى .

وفى سنة ١٦٤٥ - وهى السنة التى منى فيها الملك شارل الأول بهزيسته الساحقة فى « نيزبى » صدر مجلد عنوانه : « اشعار من نظم مستر جون ملتون بالانجليزية واللاتينية تم نظمها فى أوقات شتى » . وطبعت فى هذه المجموعة أعمال شبابه الشعرية ومنها « اليجرو » و « بنسيزوزو »

ولا مرأء فى أن انكبابه الشديء على أداء واجبه الرسمى والوطنى فى معركة الحرية الدينية والسياسية والفكرية قد عجل باتهاء ضعف بصره الى فقدان هذه الحاسة كل فقدان . ونراه يسجل ذلك فى دفاعه الثانى عن الشعب الانجلىزى قائلا: « لقد خيرت بين نهوضى بواجب أسمى وبين فقدان حاسة البصر . ووجدتنى عاجزا عن الاصاخة لنصح الطبيب ، وحتى ولو كان النصح موجها من لدن ايسكولايبوس « ابى الطب » متحدثا الى من قدس أقداسه ! فليس يسعنى الا أن أصدع بأمر وجدانى الداخلى الذى تحدث الى بما تدعونى اليه السماء . ففقرت أن استخدم القليل الذى بقى لى من بصرى فى تأدية أعظم خدمة فى مقدورى تأديتها لأمتى . وفى منتصف سنة ١٦٥٢ - وقد بلغ شاعرنا الرابعة والأربعين من عمره - أصيب بالعمى التام ، ومنذ ذلك التاريخ لم يعد فى مقدوره أن يعمل الا بمعونة سواه . وقد ظل مع هذا يقوم بواجباته الرسمية . ومن حسن حظ دارسى ترجمة حياته أن هناك خطابا بديعا كان قد ارسله الى صديقه ليونارد فيلاراس الذى كان قد وعده بالتوجه الى « تيفينو » طبيب العيون الفرنسى الكبير بالاستفسار عن مدى امكان شفاء الشاعر من عاهته . وفى هذا الخطاب لانجد ملتون نائرا ساخطا يلعن الأقدار التى رمت به هذه الآفة القاسية ، بل نلفيه مذعنا فى هدوء وفكاهة حسنة لذلك الظلام الأبدى فى ايمان وجلد :

« أيا كان أمر شعاع الأمل الذى قد يكون مدخرا لى عند طبيبك الشهير ، فانى قد وطنت نفسى على أن حالتى لا شفاء منها وتأهبت للحياة على هذا الأساس . . وقد وجدت الظلام الذى يكتنبنى أيسر على نفسى محملا - بكرم من الله وفضل

عظيم - وأنا موزع الأوقات بين الاستجمام والدرس وأصوات التحيات المنبعثة من الأصدقاء من حولى . ولئن كان قد كتب أنه « ليس بالخيز وحده يحيا الانسان ، بل بكل كلمة تخرج من فم الرب » فما الذى يمنعى من الاطمئنان كذلك الى أن بصر الانسان ليس فى باصريه فقط ، بل فى هداية الله وعنايته ، وان فى هذين الكفاية والغناء له عن عينيه ؟ الحق أقول انه مادام الرب ينظر لى ويتمهدنى كما يتمهدنى الآن بالهداية والارشاد ، ويقودنى بيده العلية قدما على امتداد العمر ، فانى عن طيب خاطر - مادامت هذه مشيئته - انزل عن مقلتى وامنحهما عطلتهما الكبرى .. »

وبصبر عظيم ظل ملتون يكدح وينصب رغم الآفة القاسية واضطراب حياته البيئية : فقد كان زواجه الأول عاثر الجد ، ولم تقمه بنت السابعة عشرة التى بنى بها وهو فوق الثلاثين ، ولكنه فى سنة ١٦٥٦ - أى بعد عماء بأربع سنين - تزوج امرأة يصفها بأنها قديسة ، وبعد خمسة عشر شهرا قصيرة من السعادة والهناء نزعته الأقدار منه وتركته وحيدا محزوننا حقا . ومع أن له ثلاث بنات من زوجته الأولى كن يقدمن له العون ما استطعن الا انهن عجزن عن فهم مزاج والدهن الخاص ، ويبدو أنهن كن كوالدتهن عاميات الذوق والعقل ، فكن له نعمة تخالطها النعمة والتنغيص .

وفى سنة ١٦٥٨ مات بطل ملتون القومى .. مات اوليفر كرومويل . وكان قد شرع فى هذه السنة عينها ينظم ملحمة الكبرى : « الفردوس المفقود » بيد أن ملتون ظل محتفظا بمنصب « السكرتير اللاتينى للشئون الخارجية » الى أن صار فى حكم المقرر نهائيا عودة الملكية .

فلما كان الخريف التالي شرع فى صمت ينظم ملحمة الثانية « الفردوس المستعاد » وفيها يتحدث عن انتصار المسيح على الغواية .

ولم ينشر « الفردوس المفقود » الا فى سنة ١٦٦٧ ، ولم يدر عليه هذا المجلد من الشعر الثمين الفخم الا أقل القليل : لا أكثر من ستين جنيها ! وفى سنة ١٦٧١ نشر « الفردوس المستعاد » و«شمشون الجبار» فى مجلد واحد ، وكان ملتون قد عاد الى الاقامة بلندن المعتمنة الكثيرة الضباب بعد انتهاء الوباء وبعد حريقها الكبير فى سنة ١٦٦٦ ، وظل مقيما بها الى أن وافته منيته فى اليوم الثامن من شهر نوفمبر سنة ١٦٧٤ عن سبع وستين سنة تقريبا .

وقد ظل جون ملتون حتى نهاية حياته ينهض من فراشه فى الساعة الرابعة صباحا فى فصل الصيف ، وفى الساعة الخامسة صباحا فى وقت الشتاء .. ويأوى الى الفراش بانتظام فى الساعة التاسعة ، ويبدأ يومه بالاستماع الى فصل من الكتاب المقدس يتلى عليه ، ويختمه بتدخين غليونه منفردا بنفسه . وفيما بين هذين الوقتين يفكر ويصمم أعماله ويمليها ويراجعها وينقحها فى فترات متقطعة صدر النهار ، وفى المساء يسمر مع صديقه الود أو « أندرو مارفل » الذى كان يعاونه فى عمله عندما كان «السكرتير اللاتينى للشئون الخارجية» وكثيرا ما كان يلتمس الترفيه والتسرية بالاصغاء لأنغام الأرغن أو الباص ، لأن استجابته للموسيقى كانت عظيمة جدا .

وكانت نظرته الى الحياة دقيقة مرهفة صارمة كالنغم الموسيقى المضبوط . كان شعاره أن « من يسيطر على نفسه ويتحكم فى انفعالاته وشهواته ومخاوفه أحظى من أى ملك على الأرض وأقوى

وقد قبض على ذلك المناضل السياسى الخطير بقلمه ولسانه ، ولكن يبدو أن الحقد الملكى عليه لم يكن بعيد الجذور فسرعان ما صدر العفو عنه، وانتقل ملتون الى شارع « جوين » وهناك تزوج للمرة الثالثة . وتنقل بعدها فى بيتين ، ولما حل « الطاعون الكبير » فى سنة ١٦٦٥ واجتاح مدينة لندن هجرها بين من ولوا الادبار من المدينة المنكوبة ، وأقام فى كوخ بمقاطعة بكنجهام بقرية « تشالفونت سانت جايلز » (وقد اشترته الأمة تخليدا لآثاره فى سنة ١٨٨٧) وكانت تسمى فى ذلك الحين « جايلز تشالفونت » . وقد اختاره وأعد له لاقامته صديق شاب أديب من جماعة المهترزين (الكويكر) اسمه « توماس الود » . وفى ذلك الكوخ ، وفى حجرة صغيرة منخفضة السقف تغمرها أشعة الشمس التى لا يستطيع أن يراها أتم جون ملتون اللمسات الأخيرة فى « الفردوس المفقود » تلك التحفة الفذة التى تعتبر من أعظم آيات التصوير اللفظى ، نظمها بالشعر المرسل حول سقوط آدم وحواء وحرمانهما من نعمة الرب وما ترتب على ذلك من نتائج فقدانهما الجنة .

وكان الصديق توماس الود يتردد على الشاعر لقرب مسكنيهما فى الريف ويطالع له فى أعمال هومر باللغة الاغريقية ، ويسجل التعليقات التى يتفوه بها ملتون . وذات يوم طلب اليه الشاعر أن يتصفح مخطوط « الفردوس المفقود » ليدى الرأى فيه ، وعندما أعادها الشاب اليه وهومفتون بما قرأ قال له : « انك ياسيدى قلت الكثير عن الفردوس المفقود ، فماذا عساك قائلا عن الفردوس المستعاد ؟ » . ولم يرد الشاعر عليه بغير الصمت ، وتجاهل سؤاله .

سلطانا « وقل بين البشر من كانت حياته صورة مطابقة لفلسفته ومبدئة كجون ملتون فى تعلقه بالجمال وشدته على نفسه وسيطرته على زمامها وتجلده الأدبى لطوارق الحداثان التى كأنما احنقتها تحديه وجبرته فتعمدته بالامتحان العسير ، فكان لها الكفاء الكريم والقرن الفصل الذى لا يجدهع له أنف !

٢ - أدبه

ولئن كان جون ملتون الشاعر الوحيد الذى آمن بالتطهر (البيوريتانية) ايمانا حقيقيا وعمليا ، فقد كان فى الوقت عينه ذا شخصية قوية جدا بحيث لايجوز أن نعتبره فى المقام الأول ممثلائلك العقيدة ، وانما هو يمثل نفسه وطبيعته الخاصة الفذة قبل كل شىء . فجون ملتون أعظم من جيله كله بحيث لايمكن ادماجه فيه ولا فى أى وجهة محددة من أوجه نشاطه ، فهو شخصية فذة قائمة بذاتها لا تنضوى تحت أى شعار أو عنوان أو مقولة فى عصره كله ، وتأثره ودينه لأسلافه جد قليل فى نهاية كل حساب ، حتى ازاء من أعلن صراحة اعترافه بفضلهم عليه ، وهم على الأخص سبنسر وجونسون وشيكسبير .. ثم ان له ميدانه الأوحد على اختلاف افانين أدبه ، ألا وهو ميدان المشكلة الخلقية كما تتراءى لعقله ووجدانه . وليس كذلك شكسبير بتعدد آفاقه الذى يكاد لا يحيط به الحصر . وانه لمهف الأذن للايقاع الموسيقى المنساب فى وقار وجلال ، وليس كذلك شعر جونسون بخشوته النثرية وموسيقاه الوعة ..

لقد كان ملتون يكتب لروح واحدة يعنيه أمرها وخلصها ، تلك الروح روحه شخصيا . فكان أول شاعر ينشئ عملا فنيا روحيا يجمع بين كمال

الفن القديم وحرارة الانفعال أو الوجدان الخلقى الصميم الحميم على نحو ما يترأى فى الكتاب المقدس بمهديه الجديد والقديم . ففى قلبه الكبير نشب الصراع محتدما بين عبادة الطبيعة كما عاشها الوثنى وبين التدين الروحى كما عرفته المسيحية المنتنسة . ومن امتزاج هذين النغمين العميقين قدم لنا ملتون معزوفاته اللفظية الرائعة . وقد تتفاوت نسب هذا الامتزاج الثنائى على حسب سنوات عمر ملتون ومراحل حياته الفنية ، الا أن الامتزاج موجود دائما . وما من شاعر سواه فى الأدب الانجليزى كان عميق التدين الى هذا الحد الكبير وعظيم الحظ من روح الفنان فى آن واحد .

ولعل أهم أعمال شبابه قصيدته عن صبيحة ميلاد السيد المسيح ، وهى من أعذب الشعر وأغناه بالموسيقى ، ثم أوبراه على طريقة الأقتعة المسماة « كوموس » وموضوعها أخلاقى فى المقام الأول وكل مقومات العمل الدرامى فيها مجمدة أو مكبوتة بحيث تظل الشخصيات عبارة عن فضائل مجردة وأصوات ناطقة بوجهات النظر وليس لها كيان من لحم ودم... وكل ما فيها من الشعر لا يخاطب الا الأذن والذهن ، ولا يكاد يحرك المشاعر فيما عدا ذلك المشهد الذى تدخل فيه الفتاة الغابة وتنادى أخوتها فى أغنيتها الموجهة الى « الصدى العذب » .. ولكن القارئ لذلك الشعر المترف الذهنى لا يتمالك نفسه من الاعجاب الشديد بتلك الترنيمة المتعددة الأصوات والمتغنية بالفضيلة فى أرقى نظم موسيقى النبرات . فهو شعر للقراءة لا للاستماع فى ملاعب التمثيل لفقر المبنى الدرامى أولا وعدم اتصال الشعر بالقلب مباشرة ، وانما هو متنزه ومراض للعقل يرجع فيه النظر ويتملاه مستأنيا ومستمتعا بجمال الأسلوب الشفوف كالبلور ، تلك الشفافية

التي يدرك النظر المتأمل انها جاءت نتيجة مراجعات وتشذيب وتصفية متكررة لم تبسق بعدها الا الخلاصة النقية من كل شائبة وكأنها موسيقى خالصة في مقاطعها الرنانة ، سواء في ذلك المواضع المرسله والمقفاة .

ولم يكن قد انقضى على ظهور مسرحية « العاصفة » لوليم شكسبير أكثر من عشرين سنة عندما ظهرت في الوجود أوبرا الأتقنة « كوموس » لجون ملتون ، ولكن الفارق المعنوي يبدو هائلا بالنسبة لهذه الفترة الوجيزة اذا نحن قارنا شخصية « أريل » الشيكسبيرية بشخصية « الروح الحارس » الملتونية ، فذلك الجنى الذى كان يتدمر تحت نير الانسان قد أدخل مكانه لملك ذى رسالة خلقية يدرك غايته ولا يسكن أن يجيد به شىء دون تمامها . وكلا الروحين يغادر العالم بعد الفراغ من مهمته بيد أن الملك الملتونى يصعد الى السماء وسط رؤى ميثولوجية ذات مغزى خلقى وعلى لسانه كلماته الأخيرة عن جمال العفة، فى حين ينطلق الروح الشكسبيرى لائذا بالفراغ كأنه الفراشة الهائمة ...

وثمة عبرة أخرى نخرج بها من هذه المقارنة بين الشاعرين العملاقين فى هذين العيلين وغيرهما من الأعمال أيضا . ففى حين يندمج شيكسبير فى مخلوقاتة الفنية فلا نراه ، نجد ملتون فى حقيقة الأمر الكائن الوحيد الحى بمعنى الكلمة فى جميع أعماله الفنية . فبطلته فى كوموس هى ملتون بعينه ، وعلى لسانها ينطق ملتون بكل كلمة من كلمات القصيدة ويترجم عن تجاربه النفسية من خلال تجاربها ، ويعبر عن فتنة الحواس وغوايتها التي عرفها وامتنح بمقاومتها فى شبابه .. والمستوى الخلقى فى « كوموس » هو مستوى أخلاق ملتون

بغير زيادة ولا نقصان . مستوى رفيع متعال متوحد .. والفضيلة فى هذا المستوى متباعدة عن بنى البشر متساوية فوقهم - فضيلة واثقة بذاتها معتدة براسها تتجاهل سواد الناس وجماهيرهم المتردية فى الخطايا فلدى ملتون الشاعر مؤلف « كوموس » لا يكون الصفوة المختارة الا قلة قليلة ، كما كان الشأن عند أتباع « كلفين » فالملك الحارس لا يحرس ولا يرام بعنايته فى هذه المسرحية الشعرية الا أنقياء القلوب دون الاشرار وأنصاف الصالحين وما من شك أن معظم من شهدوا هذه المسرحية قد شعروا - ان هم أحسنوا الفهم - أنهم مستبعدون من زمرة الأخيار الأصفياء !.

وملتون فى هذه الفترة من شبابه ، حتى الثلاثين أو بعديها قليلا ، كان لم يزل سليل عصر النهضة وسماته ظاهرة فى أعماله ، واضحة فى شغفه بالجمال وتحريه إياه فى خشوع الوثنى القديم ..

وقد اندمج بعد ذلك فى معترك السياسة بكثير من النثر ، ولم يكتب فى تلك المدة الا القليل من المقطعات الشعرية ، الى أن انتهت المرحلة النزالية السياسية بعودة الملكية وصار رهين مجسبه : مجس العزلة عن السلطان فى عهد مناوىء لمبادئه ومجس العمى .

وفى هذه الهدأة المتفرغة للنفن والثقافة كتب ملتون أعماله الثلاثة الكبرى . ثمرات فترة نضجه الرائع ، وهى الفردوس المفقود (وقد نشر سنة ١٦٦٧) والفردوس المستعاد وشمشون الجبار « وقد نشر معا فى سنة ١٦٧١ » فاذا بملتون آخر ، له وجه جديد غير معهود من قبل يتبدى للناس ، ويتربع على القمة بين الخالدين !

كانت محنته الخاصة - فى زواجه ثم عماء -
ومحنته العامة فى قضية بلاده وأمته والدفاع عن
حريتهما ضد الطغيان والتعصب ، ومشاركته فى
عمليات التطهر والتنطس ونشر الدعوة اليهما ..
كل ذلك جعل مزاجه العقلى يتجه الى الجدل
وينطوى دائما على افتراض الصراع والتقابل
التنائى بين الشيء وضده ، وصار بطبعه النزالى
المتجهم يتنكر للعدوثة التى سادت أشعاره فى صباه ،
ويرى فى اطراد القافية زينة ينبوعنها طبعه ، وصار
ينحو الى موسيقى أشد خشونة وأخفى اتساقا
تعتمد كل الاعتماد على الايقاع ، ولذا لم يكتب
فى سنوات نضجه شيئا غير الشعر المرسل ، وطرح
وراء ظهره مع شبابه المطوى الناضر ألحان الغناء
والأهازيج والمقطعات والريفيات والموضوعات
الخفيفة . وبذلك تخلص الشاعر الأعشى من سمات
عصر النهضة التى رأيناها واضحة فى أسلوب
شبابه وترك موضوعات الفن الى موضوعات الدين
وحدها فتغنى بالخلق وسقوط الملائكة وسقوط
الانسان وغزو المسيح للجنة كى يرثها الصالحون
من البشر ، وحدثنا عن تضحيات شمشون الذى
مات طائعا مختارا عندما تحقق أن موته سيجرمعه
موت أعداء بلاده وأمته .

ونخص بالحديث الفردوس المفقود ، وهو أهم
أعمال ملتون وييت القصيد من هذه الدراسة ..
الفردوس المفقود ثمرة تأمل طويل لهذا المتطهر
(البيوريتانى) فى صفحات الكتاب المقدس
وأسفاره مصورا بالشعر المرسل الفخم تلك الرؤى
التي أثارها لديه هذه التأملات ، غير تارك أيما
شئ يتوسط بينه وبين الكتاب المقدس ، وبذلك
سمح لنفسه وأتاح لها الحرية الكاملة فى تأويله ،
ولكن فى اطار الايمان الكامل بما ورد فيه . فهو

يتقبل التاريخ المروى فى التوراة تقبل التسليم
بصحته وقداسته . بيد أنه يعيد روايته باعتبارها
مثلا لثقافة عصره ومعرفة أحوال زمنه وبأسلوب
درامى . وكان من نتيجة ذلك أنه قام بعملية
« اسقاط » لذاته ومشاعره ومعلوماته وتطلعاته
وثقافته على الشخصيات التى صورها وأبرزها فى
ملحمته ، سواء فى ذلك المخلوقات الآدمية البدائية
والكائنات فوق البشرية ، السماوى منها وغير
السماوى .

وكانت النتيجة العجيبة قيام صراع متصل بين
ايمانه وطبيعته مما أدى بالقصيدة الى الانحراف
عن هدفها والى توزع التعاطف بين أشخاصها رغم
ارادة الشاعر ونيته الأصلية .

والمغزى الاخلاقى الذى يستخلص من سفر
التكوين فى التوراة وجوب الاذعان لمشيئة الخالق
سبحانه ، وان عصيانه خطيئة . ولكن ملتون الذى
نظم « الفردوس المفقود » ليؤكد هذا المغزى كان
مستقل التفكير والسلوك . بل لقد مضى الى أكثر
من ذلك فى تأييد موقف الاستقلال الفردى فنادى
بالتسرد على سيطرة الكهنة ، بل وسيطرة الملك
نفسه ، وأطرى بحرارة الحكم باعدام الملك ومجد
قاتليه . ومعنى هذا انه دون ارادته كان يمكن
نفسه متعاطفا مع الشيطان فى ملحمته ، فالشيطان
هو المتمرد الأعظم على السلطة العليا وعدو الرحمن
المبين . وبتقوى تكاد تكون آلية تغنى ملتون
من شفتيه بمحامد الطاعة والاذعان ولكنه بسويداء
فؤاده تغنى بأمجاد الحرية وعظمة التمرد على القيد
والاصرار على الاستقلال فى الرأى والعمل !
وبذلك كان حتما لامناص منه أن يضع ملتون -
وهو لا يدري - أعظم وأعمق جوانب ذاته فى
شخصية الشيطان بأنفته وكبريائه ووعورة مزاجه .

لقد رأى ملتون من واجبه ، وهو المؤمن الصادق ، أن ينظم ملحمة « الفردوس المفقود » ليبرر طرق الرب أمام البشر ، ولكنه خرج فنياً بنتيجة أخرى لأن هذه الغاية المنشودة لم تتجاوز مع نوازع قلبه ذات المسارب العميقة التي حفرتها تجربة حياته النضالية والنزالية ووجدت صدى وهوى من طبيعة التفرد لديه . وانا لنراه في هذه الملحمة الهائلة يحاول ذلك بالخطب البليغة والحجج الدقيقة بعضها مستقيم وبعضها الآخر منطو على مغالطات . ولا ترتفع هذه الجوانب من القصيدة الى المستوى الأعلى ، فالعصر الشخصى الذاتى فيها قليل ، وقصارها أنها جهد تلميذ أحسن الأخذ عن اللاهوتيين القدامى والمحدثين . بل لقد أثقل هذا الجانب قصيدته بالمجادلات الفقهية عن سابق علم الله وعن كنه حرية الارادة البشرية فى اطار علم الله السابق وسالف تقديره لأفعال الخلق . وهى مباحث ينوء بها أى عمل فنى ولا مرأ .

وأدعى للتناقض والاحساس بعدم الارتياح أن تأتى هذه المجادلات الدقيقة على لسان كائنين بدائيين مثل آدم وحواء يتسوق المرء أن تكون فعالهما ثمرة رغبات وأحاسيس مباشرة مهتدين بالغريزة الغفل وبواعثها الساذجة ، فكيف ومن أين لهما استخدام أنواع القياس بهذه البراعة الارسطية والمدرسية (السكولاستية) وهكذا صارت الملحمة مسرحاً لآراء عصر ملتون ، ومعسكرات الفكر فيه على تعدد مستويات الثقة ووجهات النظر ، مما خرج بالجو الاسطورى عن مبناء الحقيقى - على حد تعبير الناقد الفرنسى العظيم «تين» فى حملته على الفردوس المفقود معتمداً على هذه المفارقة فى بيان أوجه السخف فيها بشىء كثير من المبالغة .

والحقيقة أن المخيلة الخلاقة - الشكسبيريه مثلاً - التى تخرج المرء من ذات نفسه واطار عصره ومكونات ثقافته ليتدفع أو يتصور كائنات أخرى غريبة عنه كل الغرابة ، لم تكن من بين مواهب ملتون الذى كان شديد التركيز فى ذاته ومشكلاته الا أنه كان قادراً على التصور المترامى الآفاق ولكن قياساً على ذاته لا مابينا لها فى الصميم .

وبهذه القدرة على التصور البعيد الآفاق الشمولى النظرة تتميز صورته من الفردوس المفقود، وتتمايز عن صور دانتى مثلاً .. وكثيراً ما وضع الدارسون جحيم كل منهما موضع المقارنة . فاذا جحيم دانتى مكون من جزئيات كثيرة التفصيلات، أما جحيم ملتون فهائل بصورته الكلية التى تطلق الخيال ولا تقيده ، وبذلك كان أثره فى النفس أهول من جحيم دانتى مراراً كثيرة .. أما صورة خلق العالم عند ملتون فلا تقل عن صورة جحيمه روعة وعظمة . فقد استطاع بمخيلته القوية أن يجعل نصوص سفر التكوين تنبض بالحياة التى تكاد ترى بالعيان وتلمسها اليدان .

أما وصف الجنة - جنة عدن - فقد قال بعض الناعين على ملتون انه أشبه بوصف حديقة انجليزية مترامية من حدائق قصور الريف . وهذه المفارقة بين براعة وصف جهنم وتخلقه عن ذلك المستوى فى وصف الجنة أن وصف الجحيم نتاج تخيل لا أصل له من معطيات الحس المألوفة فى الدنيا ومن هنا جاء الابتكار الذى لا حدود له ولا قيود . أما وصف الجنة فله بالضرورة أصل محسوس فى الدنيا ، والمثل الأعلى لكل بستان أو حديقة لا بد أن يكون نابعاً فى تخيله عن مألوف الشخص فى الواقع . ومع هذا كله فجنة ملتون من أبدع الأوصاف الشعرية الحية وقد عنى والحق يقال بترينها بكل مبتكر

من بهارج الزينة وأعاجيبها الآخذة بالألباب ، مما يجعل جنته من أبداع أحلام البشر المحيين للطبيعة .

وقد نقل ملتون الى هذه الجنة مأساة الضمير والوجدان ، وصور الانسان فيها حائرا مترددا بين الخير والشر معرضا للغواية مشفيا على السقوط . وقد أمدته التوراة بعناصر هذه المأساة التي خبرها في حياته . أليست الطبيعة قد نصبت له شراكها في فتنة المرأة وأوشكت بذلك أن تدمر حياته تدميرا ؟ لقد تزوج وهو في الخامسة والثلاثين فتاة ملكية العقيدة متعصبة أشد التعصب ، ثم هجرته هذه الزوجة بعد ذلك فانبرى في غضب شديد يطالب بسن تشريع يبيح الطلاق . ولم تستطع المرتان اللتان تزوج فيهما بعد ذلك أن تمحووا بحلاوة التوفيق والهناء مرارة نفسه وسخطه الجامح . فظل على اعتقاده أن الخطر الأكبر على روح الرجل كامن في المرأة ، وهو خطر هائل يستمد وباله وجسامته من شدة قابلية الرجل وحساسيته للحب . وبذلك أعاد النظر بما يقرب الرأي السائد في تقديس المرأة وتنزيهها والتغنى بطهرها ورقنتها وسمو مشاعرها . وكان هذا الرأي سائدا منذ العصور الوسطى ، وفي آداب الفرسان ، وبه تغنى الشعراء جميعا من قبله .. حتى لقد صوروا المرأة أنبل بطبيعتها من أن تطيق رغبات الرجل الجسدية ، فهي مخلوق ملائكي اثيري لا يناسبه الا الحب الافلاطوني تجفو عن الجسد وان لم يجف الجسد عنها !

وشتان هذا التصور السائد حينذاك وتصور ملتون ! فالمرأة عنده أقل من الرجل . مخلوق ناقص . مخلوق خطر مالم يحكم الرجل السيطرة عليها بحيث يسد منافذ شرها !

ومن وحى تجربته الأليمة وجد المداد الذي

صور به قصة حواء أم البشرية مع آدم ! فحواء ملتون فاتنة تزقة كثيرة النزوات والميوعة والانحراف عاجزة عن التفكير السديد ، وفريسة سهلة جدا للمغالطات وأحاييل الغفلة ! ومن واجب الرجل أمام كل حواء ألا يتظامن لها ، بل يشعرها بسلطانه عليها ويصر على هذه المكانة بلا هوادة ، ولم يكن بلاء آدم واثمه الويل الا ثرة تراخيه وتدليله حواء .

ويتمرد ملتون على الاعتقاد السائد بتفضيل البكارة العذرية على الزواج ، فألحظ الزوجي الذي يجعل من الرجل والمرأة جسدا واحدا وروحا واحدا هو المثل الأعلى للحب عنده وفي اطار هذا الحب الزوجي يرى الفضيلة الكبرى للرجل والمرأة معا وسعادتهما العظمى أيضا . وهو حب بعيد عن النقيضين على السواء : الفجور البهيمي والرهبانية أو الافلاطونية .

٣ - الفردوس المفقود

وقصة الفردوس المفقود هي قصة خلق آدم وحواء وسقوطهما كما ترويه التوراة في سفر التكوين ، وخلاصتها توشك أن تكون تكريرا معادا بلا زيادة ولا نقصان .. ولذلك فالأوفى بالغرض من هذه الدراسة أن تتبع مشاهد القصة في شذرات مختارة من ملحمة ملتون تفي بالغاية من التعريف بالمضمون ومن ايراد النماذج بنصوصها الكاشفة لخصائص الأسلوب الفني في آن واحد :

* تبدأ الملحمة بدعوة يوجهها الشاعر الى عرائس الفن السماوية أن ترشده وتلهمه في صدد :

« أول عصيان بدر من البشر وثمره تلك الشجرة المحرمة التي جلب مذاقها القاتل لعنة الموت

على العالم ، وكل ما كان من ابتلائنا بفقدان جنة عدن ..

« ألا خبرينا - فالسما في علاها لا تخفى عن ناظريك شيئاً ولا الجحيم في مهاويها - ما الذي حدا بجدينا الأولين وقد كانا في رحاب النعيم ترعاها السماء بأحسن الرعاية والتكريم أن يهبوا فيسقطوا من الحظوة الانهية بمخالفتها تحذيره الأوحد لهما ؟ من كان أول من أغواهما ليقدماعلى ذلك التمرد المشؤوم ؟

« انه الافغوان الجهنمي ، فهو الذي استشار لواعج عذره زناد الحسد والانتقام فخدع أم البشرية . وخبرينا كيف دفعت به كبرياؤد الى ما استوجب طرده من السماء ومعه كل أجناده من الملائكة المتمردين ، فصاح به صوت العلى القادر الجبار : الى مهاوى الهلاك التى ليس لها قرار الى شواظ جهنم وسعيرها مكبلا بأغلال لافكك منها ، جزاء وفاقا لما اجترأت عليه من تحدى ذى الجلال والانعام !

* ولكن الشيطان لا يأس ، ويجسع اجناده ويقوم فيهم ذات وقت خطيبا فى كبرياء لا تعترف بالهزيمة ، ويستنهض عزائمهم :

« ان الذى يتربع عاهلا فى السماء لم يزل حتى الآن مستقرا على عرشه مؤيدا بسمعته القديمة وبالاذعان وراسخ العادة .. ولكننا نعرف مدى بأسه ، وبأسنا أيضا معروف لنا .. ولم يزل أمامنا أن نحقق أفضل جانب من غاياتنا . وذلك الجانب الأفضل أن نعمل بخطة تامة الاحكام فنصل بالخديعة والختل الى ما لم نصل اليه قدما بالعنف والبطش ! وبذلك يعرف فى خاتمة المطاف على

كل حال أن من يقهر خصمه بالقوة الغاشمة فحسب لم يقهر منه فى الحقيقة الا نصفه !

« وفيما هو يتكلم أيد أقواله بملايين من السيوف خرجت من أفخاذ اجناده فأضاء لمعانها ما حولها من الجحيم ، وارتفع صياحهم وقمقعوا بأسلحتهم فى ضراوة على دروعهم الرنانة ، معلنين تحديهم لمملكة السماء»

* وعقد أولياء الشيطان مؤتمره الكبير ليتشاوروا فيما يصنعون للانتصار على الرحمن وتخريب مملكة السماء الى أن استقر رأيهم على مهاجمتها من أضعف نقطة فيها وهى الخليفة الجديدة الانسان .. والى الجنة يرقى ابليس متسللا ويستعرض فى فكره ووصفه جميع مخلوقاتها الحية العجيبة الى أن يأتى ذكر الانسان ، ذكر آدم وحواء فى نعيم الفردوس الأعلى :

« هاهما مخلوقان أنبل سائر المخلوقات هناك بكثير من حيث الهيئة:منتصبة قامتها فى استطالة.. فيهما مجد فطرى،وعريهما مهيب فى جلاله وجماله... يبدوان سيدين على كل ما حولهما. أما هو فمجعل للتلألؤ والبأس.وأما هى فمجعلة للنعومة والرقّة والرشاقة واللفظ الجذاب ! هو مجعول لله فحسب ، وهى مجعولة لله من خلاله .. وهكذا مرا بى يدا فى يد ، فاذا هما أحب وأحلى زوجين من المخلوقات جمعت بينهما رابطة الحب .. أما هو فأدم أقرب أبناء سلالته الى الله فهو صنيعه يده مباشرة . وأما هى فأجمل بنات أحشائها : حواء !

* ويتخذ الشيطان صورة أكثر من حيوان من حيوانات الجنة كى يتاح له الاقتراب منهما وسماع حديثهما ونجوى سرهما ، فيكتشف من أقوال آدم أن التحريم الأوحد الذى قطعه الله عليهما

✽ وخاطبها الأفعوان بلسان آدمى . فاستولى على مسامعها بالثناء والتسليق .. وتعجب حواء لأمره وتعجب به . وتسأله يتفوه حيوان بلغته البشر ، فأجابها ان ذلك تسنى له بعد أن أكل من ثمرات شجرة معينة ، وبعد أكلها أوحى اليه أن يتوجه الى حواء بالعبادة لأنها ملكة المخلوقات طرا ! ولما طلبت منه أن يرشدها الى تلك الشجرة قادها الى الشجرة المحرمة ، ففزعت . وضحك الشيطان ساخرا من مخاوفها قائلا :

« يامليكة الكون ! لاتصدقى تلك التهديدات الصارمة بالموت . لن تموتى ! فكيف تسوتين ؟ أبالثمرة ؟ حاشا ! بل ستسبحك حياة بالمعرفة . أريد من يتوعدك ؟ انظرى الى فقد لمست الثمرة المحرمة وتذوقتها وهأنذا حى وقد زادت حياتى عشقا واتساعا بتطعمى الى أسى ما قدر لى ! أفيل تغلق أمام الانسان أبواب فتحت للحى حوان ؟ ان الله لايمكن أن يعاقبك على ذلك العبل الذى ينافى العدل . ومدى يدك ايتها الالهة البشرية وتذوقى منها ماشئت ! »

✽ وأخذت حواء تحدث نفسها بما سمعته من الأفعوان :

« قيل لنا اننا يوم ناكل من هذه الثمرة اجيبه سيقضى علينا بالموت ! أفيل مات الأفعوان ؟ لقد أكل منها وعاش ، واكتسب معرفة وصار يحذق الكلام والتفكير والتصييز والنقاش ، وهو الذى كان قبل ذلك من العجاوات عتلا ولسانا . أفيل لنا وحدنا وجدت عقوبة الموت ؟ أم علينا وحدها حرمت هذه الثمرة المباحة للبهائم والأرباب ؟ ها هنا تنمو هذه الشجرة ، وفى ثمرتها شفاء كل داء وهى مليحة فى العين شبيهة تنادى الأكلين ، وتغنى على أكلها الحكمة وفصل الخطاب . فما يسعنى

الاقتراب من شجرة المعرفة والأكل من ثمراتها أما حواء فكان حديثها كله عن جمالها ، وكيف نظرت أول ما برزت للوجود الى صورتها فى صفحة غدير من غدران الجنة فرأت نفسها أجمل الخلق .. أجمل من آدم نفسه ، الى أن اقترب منها آدم :

« وأمسكت يدك الحانية بيدي ، واستسلمت .. ! ومن ذلك الحين أدركت كيف يتفوق اللطف والحكمة الصادرة عن الرجل على جمال الشكل ، وعرفت أن الحكمة وحدها هى المتفردة بالجمال الحق .. ! »

✽ ويظهر الملك رفائيل ويجرى بينه وبين آدم حديث عن عصيان ابليس يعجب له آدم جدا . والملك يحذره من عصيان الله فيكون مصيره كمصير ابليس ويطرده من الجنة وتحل لعنة الموت على الجنس البشرى كله . ويرى تعلقه الشديد بحواء فيحذره من الافراط فى الشغف بها فيؤثر ذلك على حصافته وحزمه ويجر الويلات عليه وعليها وعلى سلاتهما جمعاء .

ويتهنز ابليس فرصة انشغال رفائيل بذلك الحديث ويتوارى فى مكنن حتى اذا كان اليوم التالى سمع حواء تطلب من آدم أن تعمل بعيدا عنه ، لأن قربها منه يشغله عن عمله ويشغلها بسا يكون بينهما من نظرات وابتسامات ، وعلى مضض يتركها آدم بتبعده عنه الى خيمة كثيرة الشجر تجمع من ثمارها ، وهنا لحق بها الشيطان فى ذلك الاطار الرائع من جمال الطبيعة ، فاتخذ صورة الافعوان . وكان الافعوان فى الجنة لايزحف على بطنه بل يسير قائما وله جمال فتان :

« كان له عنق متألق من الذهب الضارب الى الاخضرار ، قائما منتصبا فى رشاقة حلقات جسده التى تسير فوق الأعشاب متهادية فى جمال يأخذ بالألباب .. »

« وعسى الله الا يؤاخذك بما صنعت ، فما أخاله يرضى أن يفنى أجبل مخلوقاته بهفوة واحدة في لحظة طيش .. ثم انى اخترت طريقى بلا رجعة حيث تصيرين أسير ، فان كنت ميتة فما أطيب نفسى بالموت معك ، والموت معك كالحياة ! فحن واحد ولسنا بعد اثنين ! »

وبكت حواء سرورا بحبه وعانقته وأتته بشرة الشجرة المشئومة وأطعته منها . فانكشفت لهما مناعم الجسد المتوقدة . واستسلما لنداء الشهوة الأولى ولما أفاقا أدركا عريهما وأصابهما الخزي فخطفا من أوراق شجر الجنة ليسترا عورتيهما وأصابهما ندم شديد وأخذ ينحى على حواء باللائمة ويرق لهما الله فلا يقضى عليهما بالموت فوراً . بل يكتفى بطردهما الى الأرض حيث يعمرانها . ويكون الموت أجلا مكتوبا وقدرنا محتوما في ميقات يعلم الله وحده متى يحين . ويكتب عليهما وعلى ذريتهما الدأب والعمل والألم ضريبة ذلك الأجل من الوجود الأرضى .

وبكت حواء لفراق الفردوس أحر البكاء ، ولكن لا يراد لقضاء الله :

« وهبط بهما الملك الموكل بهما الى رحاب الأرض من جهة المشرق ثم اختفى .. ووقف جدانا الأولان ينظران بحيرة الى موضع فردوسهما المفقود وذرفا الدمع السخين . ثم لم يلبثا أن جفنا عبراتهما ، وقد أبصرا الدنيا بأسرها بين يديهما ، يختاران منها ما يشاءن للإخلاق الى الراحة ، وقد وعدهما الله فى كامل رحسته ان يسدد خطاهما ويكلاهما بعنايته الصمدانية .. وهكذا شرعا يدا فى يد يضربان معا فى مناكبها ... »

أن أمديدى اذن وأطعم من مناعمها الروح والبدن معا ؟ .. ومدت يدها الرعاء فى ساعة الشؤم تلك الى الشرة فاقتطفتها وأكلت منها ، ولاذ الافعوان الغادر بالفرار الى جوف أجمة لفاء .. »

* وذهبت نشوة العمل المندفع ، وشرعت حواء تفكر فيما أقدمت عليه وتتساءل ماذا سيكون تأثير فعلتها على آدم :

« وكيف سأبدو لآدم ؟ أخبره بما طرأ على من تغير ؟ ولكن ماذا لو أن الله رآنى وتزلت بى عقوبة الموت ؟ سأفنى وأصير الى العدم ويتزوج آدم حواء أخرى ويعيش هائنا ! وهذا لن يكون ما استطعت أن أحول دونه ! الرأى الحازم اذن أن أحتال على آدم حتى يشاركنى فعلتى . ويأكل كما أكلت ، ليشاركنى مصيرى من يؤسبى أو نعمى ! » وهكذا كان أول ما تعلمته حواء من المعرفة الحياتة والمكر !

* وما ان عرف آدم منها ما صنعت حتى وقف شاجبا مذهولا ، وكان قد قطف لها عقدا من ورد الجنة فسقط من يده وذبل لساعته من شدة غضبه وحزنه ، وقال لها :

« يا أجبل مخلوق ! يا آخر صنائع الله وابدعها ! يامن كمل فيها كل ماتصوره الفكر والنظر ! آيتها المقدسة الطيبة الحبيبة الرقيقة ! كيف أضعت نفسك وأضعتنى معك بدسياسة من عدو خادع مجهول هكذا على حين غرة ؟ نعم أضعتنى معك ، لأنه لا سبيل لى الا الموت معك ، فكيف لى أن أعيش بدونك ؟ »

* وانصرف آدم بعد قليل الى الترفيه عنها بعد أن رآها دامعة العين :

بعثة جون مري لاستكشاف المحيط الهندي

لسيور سيويل وآخرين

بقلم

الدكتور أنور عبد العليم

عدا بعثته «مباحث» التي قصت في العمل فيه تسعة شهور متواصلة وفيما يلي بيان بهذه البعثات وفقا لترتيبها الزمني :

١ - بعثة السفينة النمساوية الحريةية نوفارا (١٨٥٧ - ١٨٥٩) وقد عملت خلال رحلتها حول العالم في الجزء الجنوبي للمحيط الهندي بين جنوب أفريقيا وجزيرتي امستردام وسان بول على خط عرض ٤٠° درجة جنوب خط الاستواء وبين خطي طول ٢٠° - ٧٠° شرقا ثم اتجهت شمالا الى جزيرة سيلان ف ساحل الهند الشرقي بجوار « مدراس » ومن هناك يمت شطر أرخبيل الملايو وجنوب شرقي آسيا . ولهذه البعثة بالذات فضل السبق في العمل في المحيط الهندي وقد نشرت نتائجها في ٧ مجلدات بمعرفة رئيسها القومندان « فون أربير » بين سنرات ١٨٦١ - ١٨٦٩ .

اذا كان العالم قد اهتم في السنوات القليلة الماضية بدراسة المحيط الهندي اهتماما بالغا فقد كانت مصر من أسبق الدول التي فطنت الى هذا الأمر وذلك منذ نيف وثلاثين سنة اذ قدمت الباخرة « مباحث » التي كانت تابعة لمصلحة السواحل والمصايد في ذلك الوقت ببجارتها وضباطها وعليها بعثة مشتركة من علماء مصريين وانجليز لدراسة هذا المحيط . وتركت هذه البعثة أثرا خالدا في تاريخ الكشف العلمي للمحيطات وقلما يخلو مرجع من المراجع العلمية عن المحيط الهندي من ذكر لبعثة السفينة المصرية « مباحث » .

١ - تاريخ الكشف العلمي للمحيط الهندي :

اننا اذا استعرضنا البعثات الشهيرة التي عملت في المحيط الهندي قبل تنفيذ البرنامج الدولي الذي تقدم ذكره لوجدنا أن أغلبها قد عمل لفترات قصيرة نسبية أو مر مرورا عابرا بهذا المحيط فيما

وقد درست المنطقة الوسطى من المحيط الهندي في شبه دائرة محصورة بين جزر شاجوس وموريس وسيشيل ، وبخاصة في أرخبيل شاجوس وقد نشر ستانلى جادنر نتائج هذه البعثة بين سنوات ١٩٠٧ - ١٩٣٦ :

٧ - بعثة السفينة الألمانية « بلانت »
٠ (١٩٠٦ - ١٩٠٧)

وقد درست هذه البعثة قطاعا مارا بشرقى مدغشقر حتى جزيرة سيلان ثم يسمت شطر سومطرة وأرخبيل الملايو . وقد نشرت نتائجها عام ١٩٠٩ في خمسة مجلدات ظهرت ببرلين .

٨ - بعثة السفينة الدانمركية « رانا »
٠ (١٩٣٠ - ١٩٣٨)

وقد دارت هذه السفينة حول العالم بتمويل من مؤسسة كارلسبرج الدانمركية خصص لبحوث علوم البحار .

Carlsberg Foundation Oceanographic Funds

وقد زارت البعثة المحيط الهندي خلال رحلتها المذكورة من الجنوب مارة بسواحل مدغشقر وأفريقيا الشرقية وجزر بروفيديانس - سيرف وسيشيل والملايف (١) حتى سيلان ومنها الى سومطرة وأرخبيل الملايو. وقد نشر الاستاذ يوهان شميدت رئيس البعثة نتائجها في تسعة مجلدات بين أعوام ١٩٣٢ - ١٩٦١ في كوبنهاجن .

٩ - بعثة السفينة الهولندية « ويلبيرود سنيلوس » (١٩٣٩) .

٢ - بعثة السفينة الانجليزية « تشالنجر » التي طافت حول العالم بين سنوات ١٨٧٢ - ١٨٧٦ م وقد مرت بالجزء الجنوبي للمحيط الهندي مرتين احدهما في عام ١٨٧٣ والثانية في عام ١٨٧٤ .

٣ - بعثة السفينة الألمانية « جازيل » (١٨٧٤ - ١٨٧٦) وقد عملت هي الأخرى في النصف الجنوبي للمحيط الهندي بين رأس الرجاء الصالح واستراليا مارة بجزر امستردام وسان بول وزينيون وموريس .

٤ - بعثة السفينة الألمانية « فالديفيا » المعروفة ببعثة اغوار المحيطات (١٨٩٨ - ١٨٩٩) وقد عملت هذه البعثة في المحيط الهندي مخترقة البحر الأحمر ومارة بسواحل الصومال وكينيا وتنجانيقا ، ومن دار السلام اتجهت شرقا حتى جزر سيشيل وشاجوس ثم اتجهت شمالا الى كولبو في جزيرة سرنديب (سيلان) ومنها الى جزيرة نيكوبار ثم سارت جنوبا فدرست المنطقة الواقعة غربى سومطرة ومنها سارت في خط رأسى تقريبا الى جزر امستردام وسان بول بالقرب من خط ٤٠° جنوب خط الاستواء .

٥ - بعثة السفينة الألمانية « جاوس » (١٩٠٢ - ١٩٠٣) المعروفة أيضا ببعثة القطب الجنوبي .

Gauss Deutsche Südpolar Expedition
وقد عملت هذه البعثة بين خطى عرض ٢٥° - ٥٠° جنوبا بين خطى طول ٢٠° - ٨٠° شرقا في جنوب المحيط الهندي في طريقها الى البحار الجنوبية .

٦ - بعثة السفينة الانجليزية « سيلارك » (١٩٠٥) وتعرف أيضا ببعثة « بيرسى سيلدن » Sea lark Percy sladen Trust Expedition

(1) Providence, Curf, Seychelles & Maladives Island.

وعملت بالقطاع الشرقي لهذا المحيط حتى جزيرة جاوة ثم واصلت رحلتها في المحيط الهادى بعد ذلك . وقد نشر الاستاذ هانز بترسون نتائج هذه البعثة بين ١٩٥١ - ١٩٦١ فى عشر مجلدات فى جوتنبرج :

١٢ - بعثة السفينة الدانمركية « جالاتيا »
(١٩٥٠ - ١٩٥٢) .

وتعرف أيضا ببعثة الأغوار العميقة وقد دارت حول العالم مهتمة على وجه الخصوص بالبحث عن الحياة فى الأغوار السحيقة وفى المحيط الهندى قامت ببحث القطاع الجنوبى الشرقى بين مدغشقر وساحل أفريقيا ومن زنجبار وأخذت قطاعا مارا بجزر سيشيل حتى سيلان ثم فحصت المنطقة المحاذية لساحل الهند ومنها الى أرخبيل الملايو .

ونشر الاستاذ « بروون » مع الاستاذين جريف « وسبارك » نتائجها عام ١٩٥٦ فى كوبنهاجن هذه هى أشهر البعثات العلمية التى قامت بالعمل فى المحيط الهندى قبل تنفيذ البرنامج الدولى الأخير لمسح هذا المحيط وجدير بالذكر أنه فى عام ١٩٥٧ - ١٩٥٨ قامت عدة سفن تابعة لدول مختلفة ببحث هذا المحيط أيضا ضمن برنامج ابحاث « السنة الجغرافية أو الجيوفيزيائية الدولية » ومن بينها بعثات سوفيتية ويابانية . كما قام الفرنسيون ببحوث عديدة حول جزيرة مدغشقر منذ أوائل هذا القرن . كل هذا بالإضافة الى المعلومات التى جمعها قباطنة السفن الحربية التى تنتمى لدول مختلفة أثناء مررها فى المحيط الهندى ولا يجب أن نغفل أيضا الآثار التى خلفتها بعثة المنطقة القطبية الجنوبية الفرنسية بقيادة الأميرال شاركو (١٩٠٣ - ١٩٠٥) فى الجزء

وقد درست هذه البعثة المنطقة الشرقية من جزر الهند الشرقية (اندونيسيا) كما أجرت عدة بحوث أثناء قدومها من البحر الأحمر مارة بخليج عدن وساحل الصومال الشمالى ومنه رأسا الى جزيرة سومطرة متخذة مسارها على خط الاستواء تقريبا . وقد نشر الاستاذ فان ريل رئيس البعثة نتائجها بين أعوام ١٩٣٦ - ١٩٥٩ بمطابع بريل بليدن فى ستة مجلدات .

١٠ - بعثة السفينة المصرية « مباحث »
Mabahith Expedition (١٩٣٣ - ١٩٣٤) .

وهى البعثة موضوع هذا المقال وقد ركزت اهتمامها لبحث المنطقة الشمالية الشرقية للمحيط الهندى وقد نشرت أبحاثها فى عشرة مجلدات بين سنوات ١٩٣٥ - ١٩٦٠ بمعرفة المتحف البيزطانى للتاريخ الطبيعى بلندن .

١١ - بعثة السفينة السويدية « الباتروس »
Albatross Expedition (١٩٤٧ - ١٩٤٨) .

وتسمى أيضا ببعثة « الأغوار العميقة » وقد نظم علماء السويد هذه البعثة عقب الحرب العالمية الثانية مباشرة لتكون أول بعثة للكشف الاقيانوسى فى الفترة التى أعقبت الحرب الأخيرة (ويلاحظ أن السويد لم تدخل هذه الحرب ولم يحتلها جنود الألمان كما فعلوا بالدانمرك والنرويج) وقد وجهت هذه البعثة اهتمامها للكشف عن تركيب قاع المحيطات واستخدام أجهزة جديدة لهذا الغرض لجمع عينات الرواسب من تحت قاع المحيط . وقد مرت هذه السفينة بخليج السويس فالبحر الأحمر وخليج عدن كما عملت بالمنطقة الوسطى للمحيط الهندى بين جزر سيشل وسيلان . ومن ثم اتجهت جنوبا الى خط عرض ١٠° جنوب خط الاستواء

الجنوبى من المحيط الهندى ونشرت نتائجها في
تسعة عشر مجلدا .

وإذا اعتبرنا البحر الأحمر وحده كجزء من
المحيط الهندى نجد أنه قد حظى هو الآخر باهتمام
علماء البحار وخصصت بعثات للعمل فيه نذكر من
بينها بعثات « بولا » النمساوية في عام ١٨٩٥
وبعثة « مباحث » (ديسمبر ١٩٣٤ - فبراير
١٩٣٥) المصرية وقد نشرت نتائجها جامعة القاهرة
في مجلد صدر في عام ١٩٣٩ ثم بعثة كالييسو
الفرنسية (١٩٥١ - ١٩٥٢) بقيادة القومندان
كوستو ونشرت نتائجها في عام ١٩٥٥ والأعوام
التي تلتها .

ويتضح من العرض السابق أن بعثة السفينة
مباحث تأتي في المرتبة العاشرة من ناحية التسلسل
الزمنى لبعثات الكشف العلمية في المحيط الهندى
ولكنها تتميز عما سبقتها من بعثات بأنها عملت
في منطقة تكاد لا تشاركها فيها غيرها من البعثات
الأخرى وهى المنطقة الشمالية الشرقية لهذا المحيط
بما فيها سواحل بحر العرب كما أنها كرست وقتا
أكبر لبحث هذه المنطقة وفحصتها من النواحي
الطبيعية والبيولوجية والجيولوجية والهيدروجرافية
على حد سواء ، فلا عجب أن خرجت
هذه البعثة بحصيلة من المعلومات العلمية الجديدة
استأهلت نشرها في عشرة مجلدات تضم بين
جنياتها عشرات المقالات وآلاف الصفحات بأقلام
المتخصصين في هذه العلوم ، وان كان أغلبهم من

(١) انظر

Charcot J. (1906-1924) Expedition Antarctique Française (1903-1905), Science Naturelles, documents scientifiques. Masson et Cie (Paris) (19 volumes).

العلماء الانجليز فان من بينهم أيضا علماء ينتسبون
لجنسيات مختلفة . وجدير بالذكر أن التقارير
العلمية للبعثة المذكورة قد شملت بحثين كتبهما
عالمان مصريان هما الدكتور عبد الفتاح محمد (١)
والدكتور محمود رمضان (٢) من أساتذة جامعة
الاسكندرية : والبحث الأول منهما يدور حول بعض
الخواص الطبيعية لمياه المحيط الهندى وأما الثانى
فعن بعض الحيوانات القشرية التى جمعتها البعثة
كما أرسلت البعثة عينات من مياه البحر الى كلية
العلوم بجامعة القاهرة قام بتحليلها فى ذلك الوقت
الدكتور أحمد رياض تركى من أعضاء هيئة تدريس
قسم الكيمياء (رئيس المجلس الأعلى للبحث
العلمى فى الوقت الحاضر) .

٢ - تجهيز البعثة :

فى غضون عام ١٩٣٣ تم اتفاق بين الحكومة
المصرية والحكومة الانجليزية على أن تجهز سفينة
خفر السواحل المصرية « مباحث » لتقوم ببعثة
للكشف العلمى فى المحيط الهندى سميت على اسم
عالم الأحياء الاسكتلندى الشهير السير جون مرى
Sir John Murray
الذى رافق بعثة تشالنجر حول العالم بين سنوات
١٨٧٢ - ١٨٧٦ واشترك فى إصدار تقاريره
العلمية - وذلك بناء على مباحثات مبدئية تمت
بين جامعتى القاهرة وكمبردج بهذا الشأن على أن
يقدم الجانب المصرى السفينة بجارتها وملاحىها

(١) رئيس قسم علوم البحار السابق بجامعة
الاسكندرية وعميد الكلية ثم وكيل هذه الجامعة .
(٢) أستاذ ورئيس قسم الحيوان بكلية العلوم
بجامعة الاسكندرية ووكيل الكلية .

طاقم السفينة

- قبطان : ك. من ماكنزى
ملازم أول : أحمد بدر (المرحوم) ضابط أول
أعلى البحار
ملازم أول : أحمد ثروت (حاليا لواء بحرى
بالمعاش) ضابط ثان أعلى البحار
كبير المهندسين : و. جريجز
مهندس ثان : ملازم أول محمود مختار
مهندس ثالث : ملازم أول ادوار مرقس
عامل لاسلكى : لويد جونز
وبحارة السفينة وعمالها جميعهم من المصريين
خلا ثلاثة استبدلوا فى الطريق

السفينة

أما السفينة « مباحث » فقد بنيت فى نيو كاسل
بانجلترا عام ١٩٢٩ كسفينة لأعمال السواحل
وابحاث المصايد وهى تنتمى للنوع المعروف بسفن
(الجرالتى) كانت تعرف وقتئذ فى انجلترا باسى
« ميرزى » وفيما يلى أبعادها وحمولتها :

الطول = ١٣٨ قدم العرض = ٢٣ر٦ قدم

حمولة الأزاحة = ٦١٨ طن الغاطس = ١٢ر٦
قدم من المقدمة ،

١٤ر٦ من المؤخرة
أثناء التحميل

الوقود = بالفحم السرعة = ١١ عقدة

سعة المخزن = ١٦٠ طن خزانات المياه

= ٩٠ طن

مدى اللاسلكى = ٣٠٠ ميل قوارب مساعدة

وعلى أن يشترك بعض الباحثين المصريين كأفراد
علميين ضمن البعثة ويتولى الجانب الانجليزى
تزويد السفينة بالأجهزة والمعدات اللازمة للعمل
ويكون ربانها وكذلك رئيس مجموعة العلماء عليها
من الانجليز . كما تم الاتفاق أيضا على أن تبقى
الأجهزة والمعدات على السفينة ملكا للحكومة
المصرية بعد أن تحقق البعثة غرضها وأن تودع
نماذج من العينات العلمية لدى الطرف المصرى
ومجموعة أخرى تحفظ فى المتحف البريطانى للتاريخ
الطبيعى بلندن كما يتولى الطرف الانجليزى نشر
التقارير العلمية للبعثة بمعرفة المتحف المذكور .
وفيما يلى التشكيل الرسمى لهذه البعثة :-

الأفراد العلميون

رئيس البعثة : اللفتنانت كولونيل ر. ب. سيمور
سيوسل

مساعد رئيس البعثة وكيمواى أول

: دكتور أ. ف. طومسون

كيموايان : المستر كارى جيلسون

السيد / عبد الفتاح محمد
(من جامعة القاهرة)

بيولوجيان : دكتور حسين فوزى مدير المصايد

، مصلحة السواحل بالأسكندرية (١)

المسترت. ت. م. ماكان

مساح وملاح : اللفتنانت كومان دورو . فاركسون

(١) عميد كلية العلوم الأسبق بجامعة الاسكندرية
ثم تولى مديرا لهذه الجامعة بالنيابة فوكيلا لوزارة
الثقافة والارشاد ، وقد وكل اليه على السفينة مهمة
طبيب البعثة أيضا .

الكحول أو الفورمالين أو فى سائل «بوان» المثبت حتى تبقى على حالتها الطبيعية قدر الامكان .

أما العينات التى كانت تحتوى على أشواك كلسية تذوب فى الحوامض فقد كانت تحفظ فى الكحول وأما عينات البلانكتون فى محلول مخفف من الفورمالين، وبالنسبة للأسماك فقد كانت تحفظ أحيانا بالفورمالين ليتخلل أجسامها حتى لا يتطرق اليها الفساد تحت حرارة الجو الاستوائى . ولما لم يكن ضمن أعضاء البعثة رسام أو مصور فقد كانت ألوان الأحياء البحرية الحية تقارن فى ضوء الشمس بمجموعة من الألوان القاسية المطبوعة وتدون أولا بأول . ولكى لا تتبخر سوائل حفظ العينات فقد كانت تطلع اغطيها بالشمع السائل .

وقيل ابحار السفينة أجريت بعض تعديلات فيها بورش مصلحة الموانى والمنائر بالاسكندرية لتلائم أغراض الرحلة ومن هذه التعديلات ضم أحد قمرات السفينة للمعمل البيولوجى الكيماوى عليها لزيادة حجمه وتحويل قمرتين مفردتين الى قمرة مزدوجة للباحثين المصريين ، وتعديل مخزن الأسماك ليضم مخزنا للفحم سعته ٣٠ طنًا مع اضافة ثلاجه وحجرتين للتبريد .

وبذلك أصبحت السفينة مهيأة للقيام بمهمة جديدة أثبتت فيها جدارة فائقة كما ضرب بحارتها وضباطها وعلمائها أحسن المثل فى تحمل مشاق العمل فى البحار الاستوائية وتحت ظروف قاسية فى البحر لمدة شهور تسعة لم تكن تتخللها فى كثير من الأحوال سوى أيام قليلة أو بعض يوم للراحة وذلك حين ترسو السفينة على الموانى المختلفة للتموين أو لعراض طارئ ، ولم تكن أجهزة تكييف الهواء معروفة فى ذلك الوقت على السفن .

وقد زودت السفينة بالأجهزة العلمية والأدوات الضرورية لبعثة من هذا النوع فى ذلك الوقت وأهمها :

ونش بخارى لسلك الواير (الجر) بطاريتين سعة ٤٠٠٠ قامة ، ١٠٠٠ قامة (١)

ونش هيدروجرافى بخارى سعة ٣٠٠٠ قامة (السلك) ، ١٠٠٠ قامة

— سلك هيدروجرافى مجدول قطر ٤ ميليمتر أطوال مختلفة

— سلك واير اضافى لأعمال جر الشباك وقطره يزيد عن بوصة بأطوال (٣٥٠٠ ، ٢٥٠٠ ، ١٥٠٠ قامة) .

— جهاز سير الأعماق وتسجيل تضاريس القاع (اكسوندر) من نوع «أكاديا» .

بالإضافة الى مجسات للأعماق ، كباشات ، قنينات قلابة لجمع عينات المياه من الأعماق المختلفة ترمومترات لقياس درجات الحرارة على الأعماق المختلفة ، مقياس للتيارات المائية من نوع «اكمان» أجهزة تميورولوجيه (للرصده الجوى) وقرص لقياس درجة شفافية الماء .. الخ

أما الأجهزة البيولوجية فتشمل أنواعا من شبك الجر وشباك البلانكتون والجرافات وأوانى وزجاجات حفظ العينات وأطنان من الفورمالين والكحول .

كل هذا بخلاف الأجهزة الملاحية وأجهزة المسح المغناطيسى وقد استعمل «المنتول» أو سلفات المغنيسيوم فى تخدير العينات قبل حفظها فى

(١) القامة = ١.٨٢ مترا .

٣ - خط سير السفينة ورحلاتها :

أصاب سوء الطالع السفينة مرة أخرى فتوقفت
الشلجة الكهربائية وفقدت البعثة بسبب ذلك
تموينها من اللحم الطازج ، وعندما حاول المهندس
« جريجز » اصلاحها كاد يخنق بسبب غاز كلوريد
الميثيل المستعمل في التبريد ، فاضطرت البعثة الى
العودة مرة أخرى الى ميناء عدن حيث مكث هذا
المهندس في المستشفى يومين ليستعيد نشاطه
وصحته .

وأبحرت السفينة مرة أخرى بعد ذلك في الثالث
من اكتوبر نحو الشرق فى خليج عدن واتمت بحث
عدة محطات فيه ثم خرجت منه الى بحر العرب وبعد
أن اتهمت من محطاتها الهيدروجرافية رقم (٢٢)
وكانت على عمق ٣٥٥٦ مترا أصيب « الوئش »
الهيدروجرافى بعطب فعاتت السفينة أدراجها الى
الساحل الافريقى وقضت ليلة ٧ اكتوبر راسية
فى الموقع المعروف باسم « غبة بنه » شمال رأس
« على باش كيل » على هذا الساحل ، كما قضت
ليلة ٩ اكتوبر بالقرب من صخرة الفيل على نفس
الساحل .

وقد اشتغلت البعثة بهمة وعزم لمعرفة الخواص
الطبيعية للمياه والقاع فى مدخل خليج عدن خلال
الاسبوع التالى وأتمت جمع العينات والدراسة
من محطات (١٩ - ٣٧) كما أخذت عدة جرفات
ناجحة فى الجانبين الشمالى والجنوبى لمدخل
الخليج المذكور ، ثم عادت مرة أخرى أدراجها
الى ميناء عدن فوصلتها يوم ١٧ اكتوبر سنة
١٩٣٣ . ولقد تعثرت الجرافة خلال هذه الرحلة
مرة أخرى على القاع عند المحطة رقم ٢٥ فقطع
الحبل وفقدت البعثة بذلك جرافة أخرى ، كما
لاحظت البعثة المحطة رقم (٢٩) على عمق ٢٠٧٢
مترا بالقرب من الساحل الافريقى أن جبل الجرافة

فى تقريره العلمى الأول للرحلة وصف سيمور
سيويل خط سيرها منوها بأهم الأعمال التى تمت
خلال البعثة ومفصلا لمواقع المحطات العلمية التى
جمعت منها العينات وأعماقتها وخواصها الهيد
روجرافية والطبيعية ونحن نجمل هذا الجزء فيما
يلى :

أبحرت السفينة « مباحث » من ميناء الاسكندرية
فى صباح اليوم الثالث من شهر سبتمبر سنة ١٩٣٣
الى بورسعيد ثم اجتازت القناة من ميناء بور توفيق
على مدخل خليج السويس وهناك انتظرت بضعة
أيام ريثما تصل بعض الأجهزة من الخارج . وفى
الثامن من هذا الشهر غادرت البعثة الميناء متجهة
الى الجنوب فى البحر الأحمر وبعد وقفة قصيرة
على ميناء الغردقة زار العلماء فيها محطة الأحياء
البحرية هناك واصلت السفينة رحلتها الأولى فى
هذا البحر فى جو حار شديد القىظ ، وقد ألفت
مراسيها فى ليالى متتابعة على جزيرة جبل زخير
(يوم ٩/١٥) وحنيش الكبير (١٦ ، ٩/١٧)
وبريم (٩/١٨) فى أقصى الجنوب . وقد جمعت
البعثة بعض الأرصاد العينات من هذا البحر الا
أن حظها لم يكن سعيدا فيه ، فقد فقدت أنبوبة
لسير الأعماق حين قيامها بعملية من عمليات الجرف
على ٢٠٩٤ مترا فى المحطة الثالثة لها فقدت الجرافة
وحبلا من السلك المتصل بها طوله ٢٨٠٠ متر
وكذلك عجلة عداد طول السلك .

ووصلت البعثة الى ميناء عدن يوم ٢٢ سبتمبر
سنة ١٩٣٣ وبذلك تنتهى الرحلة الأولى لها . وتبدأ
الرحلة الثانية للبعثة فى خليج عدن نفسه حتى جزيرة
سومطره المجاورة لساحل الصومال وفى تلك الرحلة

قد لف حول نفسه مرات عديدة ولم تستخرج شيئاً هذه المرة مما يدعو الى الاعتقاد بأن ثمة تيار عسيق جارف فى تلك المنطقة .

وقد كان لدراسة خليج عدن ومدخله بالتفصيل من الناحية الهيدروجرافية أن وضح للبعثة نظام تبادل كتل المياه والتيارات السطحية والعميقة بين الخليج والمحيط ، كما وضح من تسجيلات جهاز سبر الاعماق (الاكوسوندر) وعورة قاع الخليج نفسه . فعلية مجموعة من الجبال ممتدة فى اتجاه من الشمال الشرقى الى الجنوب الغربى ، بينما الجزء الجنوبى من الخليج نفسه تعتوره قناة عمقها نحو ٢٠٠٠ متر .

وقبل أن تبدأ البعثة رحلتها الثالثة قضت المدة من ١٧ - ٢١ اكتوبر مرة أخرى فى ميناء عدن للتسوين والراحة واصلاح الأجهزة والاستعداد للرحلة القادمة ثم غادرت هذه الميناء متجهة فى محاذة ساحل العرب الى ميناء كراتشى بالهند وقتئذ (وتتبع الباكستان الآن) وعرجت فى طريقها على جزر « خوريا موريا » حيث قضت يومين فى هذه المنطقة لتبحر شرقاً لدراسة بعض الشعاب المرجانية ولتقضى ليلة ٣٠ اكتوبر سنة ١٩٣٣ عند رأس مدركة و ليلة أول نوفمبر عند رأس مركز ثم تركت البعثة الساحل العربى فى ٦ نوفمبر الى كراتشى فتصلها فى العاشر منه .

وخلال هذه الرحلة الثالثة تم فحص المحطات من رقم ٣٨ الى ٦١ بالاضافة الى البحوث التى أجريت بواسطة القارب الصغير على الشعاب المرجانية فى جزيرة الحلاينة من مجموعة جزر خوريا موريا . ويلخص سييور سيويل أهم نتائج عمل البعثة فى منطقة بحر العرب بقوله « أن

المنطقة الجنوبية والجنوبية الشرقية من الساحل العربى تتميز بمنحدر قارى وعر شديد الانحدار تكتنفه صخور جرانيتية . . ولقد اكتشفت البعثة فى هذا البحر منطقة متوسطة من المياه تقع بين عمقى نحو ١٠٠ متر ، ١٣٠٠ متر تبدو خالية من الحياة تماما . (١) بينما توجد أنواع مختلفة من أحياء البحر بين السطح وعمق المائة متر وكذلك بين عمق نحو ١٣٠٠ متر والقاع .

« اما القاع نفسه فيكسوه طين ناعم اخضر اللون يشوبه غاز كبريتور الايدروجين (السام) وبخاصة بالقرب من رأس الحد . كما لم تعثر البعثة على طول الساحل العربى على شعاب مرجانية حقيقية ثم أن الشطوط التى فحصناها وكان البعض يعتقد أنها من الشعاب الحقيقية ليست فى الواقع كذلك ، وانما تتكون من الليثوثامنيوم . (وهو طحلب متكلس يسهم فى بناء الشطوط المرجانية) »

وبعد أن اتمت البعثة اكتشاف هذا الجزء من بحر العرب يمت شطر كراتشى حيث تم اصلاح (الوئش الهيدروجرافى) ثم غادرت البعثة فى هذا الميناء فى يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٩٣٣ وهدفها العمل فى خليج عمان مارة بساحل بلوختان . وأمام هذا الساحل فقدت البعثة شبكة للجر على قاع عمقه ١٧٠٤ متراً ثم واصلت السير غرباً بحذاء هذا الساحل الى الخليج واشتغلت عدة محطات على مدخله ثم القت مراسيها أمام مسقط « ودبة ديه » وقلت راجعة الى رأس الحد لاجراء مزيد من البحوث على طمى القاع المشبع بغاز كبريتور

(١) يعتبر هنا الكشف فى حد ذاته على جانب كبير من الأهمية

الايديروجين وذلك قبل ان تتخذ سبيلها الى الساحل الهندي مرة أخرى لتزور ميناء بومباي في هذه المرة . وقد قامت البعثة بمسح المنحدر الفارى الهندي قبل أن تصل بومباي في ٨ ديسمبر من نفس العام .

وفي تلك الرحلة الرابعة التي شملت المنطقة فيما بين كراتشى وبومباي مسحت البعثة المحطات ذات الأرقام من (٦٢ - ٩٠) وخرجت من فحص تلك المحطات بنتيجتين هامتين : تتلخص الأولى في أن المنطقة المتوسطة «الجرداء» من البحر تمتد شرقا من الساحل العربى حتى خليج عمان وتقع بين أعماق حدها الأعلى يتراوح بين عمق ٢٥٠ - ٦٠٠ متر تحت سطح البحر ، وحدها الأدنى خط عمق نحو ١٥٠٠ متر والحد الأعلى نفسه لتلك المنطقة يختلف عن جانبى خليج عمان فى السعة . أما النتيجة الثانية فتتلخص فى أن تسجيلات جهاز « الاكوسوندر » قد أوضحت أن قاع تلك المنطقة من بحر العرب تكتنفه سلاسل جبال متعددة ، تمتد الأولى منها لناحية الغرب موازية لساحل بلوختان ، وثمة سلسلة ثانية تمتد فى اتجاه الجنوب الغربى حتى رأس الحد ، ولكنها لا تصل بتلك الرأس بل تقف منها على مسافة نحو ١٣٧ ميلا فى البحر . وتتميز هذه السلسلة الثانية بوجود فجوة فيها تقع على الناحية الجنوبية الشرقية وعمقها نحو ٣٦٥٨ مترا وهى بذلك تزيد فى العمق بنحو ٢٧٤ مترا عن مستوى قاع الخليج .

وفى الجنوب الشرقى من تلك الفجوة نفسها تقع سلسلة ثالثة من الجبال المغمورة تحت سطح البحر تتحول الى هضبة متسعة كلما اقتربت من ساحل الهند .

وتبدأ الرحلة الخامسة للبعثة فى الثالث عشر من شهر ديسمبر عام ١٩٣٣ حيث مسحت السفينة المنطقة التى تقع فى مسارها بين بومباي بالهند ومباسبى فى كينيا على الساحل الافريقى . وبذلك تكون البعثة قد اخترقت الجزء الشمالى الغربى للمحيط الهندي للمرة الثانية ولكن من الشرق الى الغرب فى هذه المرة . وبعد مسيرة يومين فى البحر من بومباي فقدت البعثة شبكة أخرى عند المحطة رقم ٩٢ على عمق ٣٧٢٢ مترا. كما فقدت فرمساء يوم ٢١ ديسمبر فى احدى العمليات الهيدروجرافية فى المياه العميقة ست قنينات قلابة من قنينات جمع عينات الماء المعروضة باسم قنينات « اكسان » Bamba بالإضافة الى أربعة عشر ترمومترا من ترمومترات الأعماق . وفى يوم «عيد الميلاد» نفسه قامت البعثة بسبل أرساد هيدروجرافية على أكبر الأعماق التى وجدتها حتى ذلك الوقت وهو عمق ينوف على خمسة آلاف متر .

وتتلخص نتائج هذه الرحلة فى الأرساد الهيدروجرافية القيمة التى جمعتها البعثة فيما بين بومباي ومباسبى من ثلاث عشرة محطة على طول خط سيرها . وذلك قبل دخول السفينة الساحل الافريقى ليلة ٣١ ديسمبر سنة ١٩٣٣ ورسوها فى ميناء ممباسبى فجر أول العام الجديد . وكان لا بد أن تقضى السفينة بتلك الميناء بضعة أيام أخرى تجدد فيها ما نفذ من حمولتها من الفحم ومن الماء وترتق ما تفتق من شباكها وتشحم آلاتها ويلتمس بحارتها وعلماؤها خلالها بعض الراحة من ايام العمل المجهد بالبحر .

ثم استأنفت السفينة بعد ذلك سيرها يوم ٩ يناير سنة ١٩٣٤ فى رحلتها السادسة التى غطت

تبدأن بالقرب من نقطة « ماليندى » على الساحل
الافريقي وتمتدان الى الجنوب بحذاء الجهة
الشرقية لجزيرة بمبا .

وفى صباح يوم ٣٠ يناير استقبل سلطان
زنجانر العلماء والضباط المصريين بصحبة رئيس
البعثة والربان ماكنزى وحالما عادوا من هذه
الزيارة أبجرت المركب فى طريقها الى جزر
سيشيل .

وتبدأ السفرة السابقة للسفينة من زنجبار
وتنتهى فى ميناء كولمبو فى جزيرة سرنديب . وعلى
مسيرة يومين من زنجبار فحصت البعثة المحطرة رقم
١٢٧ حتى عمق ٤٠٩١ مترا وفى تلك الأثناء كسر
« الونش الهيدروجرافى » فتوقف العمل
واتجهت السفينة رأسا الى جزر سيشيل وقبل أن
تصلها فحصت البعثة محطتين أخريين فى الطريق
مستعينة فى ازال آلاتها الهيدروجرافية بونش
الجرافة ثم وصلت جزر سيشيل فى النهاية فى
السادس من شهر فبراير سنة ١٩٣٤ حيث ألفت
السفينة مراسيها فى ميناء فيكتوريا على جزيرة
« ماهى » وحملت نحو خمسين طنا اضافيا من
الفحم ثم غادرت هذه الجزيرة فى يوم ٨ فبراير الى
كولمبو عن طريق قناة « كارديفا » فى مجموعة
ارخبيل اللاديف حيث كان الجو مواليا للسفر على
الرغم من التيار العكسى الذى كان يعوق سير
السفينة وتمكنت البعثة من الوصول الى كولمبو
بعد ظهر يوم ٢٢ فبراير .

وفى تلك الرحلة مرت البعثة فوق سلسلة جبال
كارلسبرج المعمورة واكتشفت فيها فرجة عمقها
نحو ١٦٥٠ مترا تقع بين جبلين ، كما تمكنت من
أخذ عينة بالشباك من هذا العمق أخرجت أنواعا

فيها المنطقة فيما بين ممباسا وزنجبار . ولم تكن
هذه الرحلة سعيدة لكثيرين من سكان السفينة
وفى ذلك يقول سيورسيويل رئيس البعثة « لم
يكن الجو مواليا بالمرّة ، اذ هبت علينا ريح
عاصفة من الشمال الشرقى وواجهنا بحرا مضطربا
وعلى الرغم من سوء الأحوال الجوية فقد واصلنا
العمل مولين اهتمامنا فى أغلب الوقت لفحص مياه
القناة العميقة بين جزيرة زنجبار وجزر بمبا

ومن الجزيرة الأخيرة اتجهنا شمالا للعمل فى
المنطقة المتاخمة للساحل الافريقي نفسه . ثم اننا
اضطررنا للعودة الى زنجبار فى يوم ١٨ يناير سنة
١٩٣٤ لنزل الى البر كثيرين ممن اصابوا بحمى
الملاريا ومن بينهم المستر « ماكان » وقد اتابهم
هذا المرض اثناء اقامتنا فى ممباسا . وفى صبيحة
اليوم التالى اتجهنا نحو الشرق واخذنا عينات
بشباك الجر على عمق ١٢٠٤ مترا ثم واصلنا السير
شرقا وعلى الرغم من حدة الريح فقد نجحنا فى
جمع عينات أخرى من عمق ٢٩٣١ مترا الا ان
ازدياد الأحوال الجوية سوءا قد اضطررنا للعودة
مرة أخرى الى زنجبار وذلك يوم ٢٤ ديسمبر حيث
ارسلنا الى المستشفى كبير المهندسين جريجيز
والمستر كارى جيلسون للاستجمام .

وفى تلك الرحلة السادسة فحصت البعثة
المحطات من رقم ١٠٣ الى ١٢٦ ومنها وضح أن
الفونة^(١) غنية كمتابن من تسجيلات « الاكوسندر » أن
ثمة دلائل على وجود سلسلتين جبليتين متوازيتين

(١) « الفونة » هى مجموعة الحيوانات التى تعيش
منطقة ما وتقبلها كلمة « الفلورة » بالنسبة للنباتات

شتى من حيوان القاع العميق وقطعا من الصخور.. وكانت البعثة حتى وقت رسوها على ميناء كولمبو قد تمكنت من فحص المحطات ١٢٧ - ١٣٥ .

وقضت السفينة فى ميناء كولمبو عقب تلك الرحلة قرابة شهر واحد ، وهى مدة أطول مما تمضيه عادة فى الموانى ، وذلك بالنظر لحاجة السفينة الى صيانة واصلاح ودهان ، وفى تلك الأثناء تمكن « فاركسون » من اجراء بعض المسح المغناطيسى فى أرخبيل الملايو من على ظهر قارب تابع لحكومة سيلان .

وتبدأ الرحلة الثامنة من وقت مغادرة السفينة كولمبو يوم ١٧ مارس سنة ١٩٣٤ وذلك للعمل فى المنطقة الواقعة جنوب شبه القارة الهندية فيما بين جزر الملايدف وارخبيل شاجوس ثم تتجه شمالا لفحص الالاجونات البركانية المحيطة بجزر الملايدف ومن بينها لاجونات : أدو ، ومالى ، وكولومادولو ، ومولاكو ، وهور سبورغ ، وفاديولولو .. وبعد أن استقبل سلطان « الملايدف » أعضاء البعثة تعود السفينة مرة أخرى الى ميناء كولمبو فتصله فى اليوم الثالث عشر من شهر ابريل سنة ١٩٣٤ .

وفى تلك السفرة أتمت البعثة فحص ٢٢ محطة من بينها عشر محطات أجرى فيها « فاركسون » أرصادا مساحية ومغناطيسية ، كما اكتشفت البعثة لاجونا مغمورا على عمق ٢٣٨ مترا يمثل قمة بركان قديم وذلك فى الطرف الغربى لقناة كارديفا ، كما تكهنت البعثة أيضا بوجود تيارمائى تحتى قوى يمر فوق سلسلة جبال الملايدف المغمورة .

وتبدأ الرحلة التاسعة للبعثة من وقت مغادرة السفينة لميناء كولمبو فى اليوم التاسع عشر من

شهر ابريل عام ١٩٣٤ فى طريقها الى ميناء عدن مرة أخرى . وحالما وصلت السفينة الى خط عرض ٧° شمالا غيرت اتجاه سيرها الى الغرب عبر بحر العرب حيث أخذت البعثة ارصادا هيدروجرافية جديدة وجمعت عينات بالشباك والجرافات ومن بينها جرفة تمت على عمق ٤٧٩٣ مترا .. ومن عجب أن تلك الجرفة لم تخرج حيوانات هذه المرة بل معادن نفيسة تعرف باسم عقد المنجنيز وكانت مختلفة الاشكال والاحجام وقد بلغ وزن ما استخرج فى هذه الجرفة وحدها من تلك العقد نحو ١٢٥ كيلوجراما .

ثم عبرت البعثة سلسلة جبال « كارلسبرج » المغمورة مرة أخرى واثبتت أن ثمة جبلين متوازيين فيما بينهما منخفض عبيق ترسب فيه عقد المنجنيز فوق رواسب طمى « الفورمنيبرا »^(١) وحالما عبرت البعثة سلسلة كارلسبرج سارت بمحاذاة جانبها الجنوبي الغربى لمسافة ثم انحرفت لتعبر قناة سومطرة فتدخل خليج عدن مرة أخرى . وفى هذا الخليج أعادت البعثة تكرار أرصادها التى كانت قد جمعتها فى فصل الخريف السابق كما جمعت عينات من رواسب القاع وحيوانه ، وذلك قبل أن تدخل ميناء عدن نفسها يوم ٨ مايو سنة ١٩٣٤ .

وفى يوم ١٤ مايو تغادر البعثة هذا الميناء للمرة الأخيرة لتبدأ رحلتها العاشرة والأخيرة أيضا

(١) المنخربات (الفورامنيبرا) حيوانات اولية مجهرية وحثو الخلية ذات غلاف متكلس (من مادة جيرية) تعيش فى البلاكتون فى الطبقات السطحية لمياه المحيطات وعند موتها تتساقط أغلفتها المذكورة على قاع المحيط كرزاذ المطر ، وعلى مر العصور كونت نوعا مميزا من الرواسب الطينية على قيعان المحيطات يعرف باسم طمى الفورامنيبرا او المنخربات

.. وكان ذلك في أحد أيام عام ١٩٥٣ . وفى يقينى أن هذه الرحلة القصيرة الأخيرة ربما كانت آخر عهد للسفينة بجمع العينات من البحر . ولقد كان من رأينا وقتئذ أن تبقى هذه السفينة بالميناء الشرقى بالاسكندرية وتحول لبيت من بيوت الشباب يخصص جزء منه لمتحف بحرى صغير .

٤ - الآثار العلمية لبعثة مباحث :

ليس هناك من شك فى أن الانجازات العلمية التى حققتها بعثة « مباحث » فى الجزء الشمالى الغربى من المحيط قد خلدت اسم هذه البعثة ضمن قائمة البعثات العلمية العالمية التى أمامت اللثام عن كثير من أسرار البحار والمحيطات وساهمت فى تقدم معلوماتنا عنها .

فقد قامت « مباحث » بعشر رحلات رائدة فى هذا الجزء من المحيط كما وضحا آنفنا فحصت خلالها ٢٠٩ محطة عملية دونت أرسادها بدقة على الخرائط ويمكننا اجمال هذه الرحلات فيما يلى :

الرحلة	المنطقة	ارقام المحطات
الرحلة الأولى	من البحر الأحمر لعدن	١ - ١٨
الرحلة الثانية	من عدن لعدن	١٩ - ٣٧
الرحلة الثالثة	من عدن لكراتشى	٣٨ - ٦١
الرحلة الرابعة	من كراتشى الى بمباى	٦٢ - ٩٠
الرحلة الخامسة	من بمباى الى ممباسا	٩١ - ١٠٢
الرحلة السادسة	من ممباسا الى زنجبار	١٠٣ - ١٢٦
الرحلة السابعة	من زنجبار الى كولبو	١٢٧ - ١٣٥
الرحلة الثامنة	من كولبو الى كولبو	١٣٦ - ١٦٥
الرحلة التاسعة	من كولبو الى عدن	١٦٦ - ١٩٦
الرحلة العاشرة	من عدن الى البحر الأحمر	١٩٧ - ٢٠٩

فتبدأ بالاتجاه جنوبا لتكرر بعض الأرصاد الهيدروجرافية على خط طول ٤٥° شرقا . ثم تتجه غربا الى بوغاز باب المنذب فتفحص مياهه وخواصها وتياراته مرة أخرى ، وتأخذ عينات من القاع بالكماشات فى جنوب البحر الاحمر حيث تنتهى الاعمال العلمية للبعثة فيه بالنظر لمرض الريان ، ثم تغذ السفينة سيرها فى هذا البحر بأقصى ما تستطيع من سرعة نحو الشمال فتصل ميناء السويس فى يوم ٢١ مايو سنة ١٩٣٤ قبيل منتصف الليل بقليل .

وفى هذه السفرة الأخيرة أتمت البعثة فحص المحطات من ١٩٧ الى ٢٠٩ كما دعمت عملها السابق على جانبى بوغاز المنذب . ويتضح من البحوث والفحوص التى تمت خلال فصلين مختلفين من فصول السنة فى تلك المنطقة أن هناك تغيرات موسمية واضحة للتيارات البحرية واتجاهها .

وهكذا مرت السفينة فى قناة السويس للمرة الثانية قادمة من الجنوب خلال يومى ٢٢ ، ٢٣ مايو فى طريقها الى ميناء الاسكندرية فوصلتها فى الخامس والعشرين من هذا الشهر من عام ١٩٣٤ حيث كان فى استقبالها جمع وافر من أسر البحارة ورجال البحرية والسواحل والموظفين الرسميين ، كما اقامت جامعة القاهرة فيما بعد لأعضاء البعثة استقبالا خاصا .. أما السفينة فقد عادت لقاعدتها فى ميناء الاسكندرية حيث ظلت فى مرساهاسنين طويلة بعد ذلك ، وأذكر اننى اصطحبت طلاب قسم علوم البحار بجامعة الاسكندرية على ظهرها فى رحلة تدريبية لجمع العينات خارج ميناء الاسكندرية بعد عودتها من المحيط الهندى بنحو عشرين عاما

ولقد ظهرت نتائج كل تلك الدراسات في المجلدات العشرة التي ضمت التقارير العلمية للبعثة بأقلام عشرات العلماء وأشرف على إصدارها المتحف البريطاني للتاريخ الطبيعي بلندن بين سنوات ١٩٣٥ - ١٩٦٠ .

وليس هنا مجال استعراض تفاصيل تلك التقارير العلمية بطبيعة الحال ، ولكننا نود أن نشير بخاصة الى تيجتين من النتائج الهامة التي وصلت اليها البعثة لما لها من شأن كبير ، وقد كنا قد أشرنا اليهما اشارة عابرة فيما تقدم من صفحات.

أما عن النتيجة الأولى فتتناول نظام تبادل التيارات المائية بين البحر الأحمر والمحيط الهندي عبر بواغاز باب المندب وقبل أن نفعل ذلك يجدر بنا أن نشير الى أن ثمة جبلا قائما يرتفع من قاع البحر عند مضيق باب المندب وينتهي على عمق نحو مائة متر تحت سطح الماء مكونا ما يعرف باسم « سد باب المندب » وعلى ذلك فلا تبادل مياه المحيط ومياه البحر الأحمر الا عن طريق عمق ضيق يرتفع بنحو مائة متر فوق قمة هذا السد ، حتى مستوى سطح البحر ويعرف علميا باسم « عمق السد » أو العمق الحر للماء الذي يتم التبادل من خلاله . ونظام التبادل المذكور يختلف في الصيف عنه في الشتاء ويتبع الى حد كبير نظام الرياح السائدة في كل موسم . ففي فصل الصيف تدفع الرياح الشمالية مياه البحر الأحمر السطحية العالية الملوحة عبر مضيق باب المندب الى خليج عدن وفي نفس الوقت تدخل مياه المحيط الهندي من فوق سد باب المندب الى أعماق البحر الأحمر محتفظة بخواصها في هذا البحر .

ولقد غطت هذه الرحلات المناطق الآتية من المحيط الهندي وأثرت معلوماتنا العلمية عنها وهي : البحر الأحمر - خليج عدن - الساحل الجنوبي لشبه جزيرة العرب - خليج عمان - شمال بحر العرب ووسطه - منطقة جزر زنجبار - جنوب بحر العرب - منطقة جزر الملديف في جنوب غربي سرنديب . ولم تقتصر دراسات البعثة على فحص خواص المياه وتوزيع درجات الحرارة والملوحة بين السطح والقاع فحسب ، بل شملت أيضا دراسة التيارات المائية السطحية والعميقة ودراسة الحيوانات البحرية وتوزيعها بين السطح والقاع وعلى قاع المحيط نفسه ومن بينها أنواع جديدة للعلم تنتمي لشتى فصائل المملكة الحيوانية . كما كان للبعثة فضل الكشف عن منطقة من المياه المتوسطة في بحر العرب تنعدم فيها الحياة تقريبا ويشوب قاعها غاز كبريتور الايدروجين السام .

أما الدراسات الجيولوجية للبعثة فقد تمخضت هي الأخرى عن اكتشاف سلاسل جبلية على قاع المحيط وعن كثير من التضاريس الأخرى التي تعتور قاع ذلك الجزء الشمالي الغربي منه سواء أكانت هضابا أو منخفضات ، كما حظيت دراسة اللاجونات البركانية في منطقة جزر الملديف بأهمية خاصة من البعثة التي درست أيضا المجال المغناطيسي للأرض في تلك المنطقة .

وللبعثة الفضل في تسجيل أغوار تنوف على الخمسة الآلاف متر في هذا المحيط وفي تسجيل درجات عالية من الحرارة للمياه السطحية (مثل درجة ٣٣٫٣٢ مئوية عند محطة ١١ في البحر الأحمر) .

أما النتيجة الثانية الهامة لبعثة مباحث فهي اكتشافها لعقد المنجنيز على القاع . وقد كانت أول اشارة لوجود مثل هذه « المناجم » على قيعان المحيطات نتيجة لبعثة تشالنجر الشهيرة حول العالم بين سنوات ١٨٧٢ - ١٨٧٦ م . وها هي « مباحث » تكتشف كيمايات كبيرة منها لأول مرة فى تلك المنطقة من المحيط الهندى . وتحتوى عقد المنجنيز المذكورة على عناصر المنجنيز والنيكل والكوبالت والنحاس والحديد وهى تترسب باستمرار ويطء من ماء البحر فتكون كتلا فى مثل حجم البرتقالة أو أصغر أو أكبر . ونظرا لما لهذه المناجم على قاع المحيط من آثار اقتصادية بعيدة المدى فقد فكر العلماء جديا فى استغلالها اقتصاديا وبخاصة على قاع المحيط الهادى وقد زاد الاهتمام بها كثيرا عقب بحوث البعثات الدولية فى برنامج السنة الجيوفيزيائية الدولية فى المحيطات (١٩٥٧ - ١٩٥٨) . وتقدر كثافة توزيع ما يوجد من عقد المنجنيز على القاع فى بعض مناطق المحيط الهادى نتيجة لتلك البحوث بمازته نحو ١٥ - ١٠ كيلوجراما فى المتر المربع الواحد من القاع وهى ثروة تزيد بألاف المرات عما هو موجود فى مناجم الأرض كلها من هذه الخامات ثم انها مناجم لا ينضب معينها فهى فى نمو دائم .

وفضلا عن الآثار العلمية التى تركتها بعثة «مباحث» على النطاق الدولى فى سجل كشوف الاقيانوس فقد كان لهذه البعثة أيضا آثار محلية جلية نذكر من بينها زيادة الوعى والاهتمام فى مصر بهذا الفرع الجديد من فروع المعرفة ألا وهو دراسة البحار والمحيطات ، وقد كان لذلك أثره فيما بعد فى انشاء قسم علوم البحار بجامعة الاسكندرية وعلى يد رجلين من رجال البعثة من

وأما فى فصل الشتاء فان الآية تنعكس ، إذ يدخل تيار مائى سطحى قليل الملوحة من المحيط الهندى الى البحر الأحمر بينما يفيض ماء البحر الأحمر المرتفع الملوحة من الطبقات تحت السطحية للماء منحدرًا من فوق سد باب المندب ليدخل المحيط الهندى وينتشر فيه على الأعماق . وعلى ذلك فلو اخترنا خواص المياه العميقة على جانبى سد باب المندب فى أى وقت لوجدناها تختلف اختلافا كبيرا من حيث توزيع درجات الحرارة والملوحة والخواص الأخرى . فها هو البحر والمحيط يلتقيان على السطح بينما على جانبى السد فى الأعماق يحتفظ كل منهما بخواص مياهه (١) .

وشبيه بذلك ما نجده من نظام تبادل التيارات المائية بين البحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسى فوق سد جبل طارق المغمور ، وعمق الماء فوق السد المذكور يبلغ نحو ٣٢٠ مترا أى يزيد على عمقه فوق سد باب المندب المغمور ، وفى تلك الحالة الأخيرة يدخل تيار سطحى مستمر من المحيط الأطلسى الى البحر الأبيض المتوسط وهو تيار أقل ملوحة وحرارة من مياه البحر الأبيض المتوسط بينما تفيض مياه البحر المتوسط الى المحيط الأطلسى منحدرًا من فوق سد جبل طارق وهى مياه ثقيلة مرتفعة الملوحة وتظل تحتفظ بخواصها وهى تسير على شكل تيار عميق فى المحيط الأطلسى لمسافة تزيد على الألف كيلومتر .

(١) قد يدعونا ذلك الى التأمل مرة أخرى فى تفسير الآية الكريمة (مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان) على ضوء هذا الكشف العلمى .

منهما بكتابة كثير من الأعمال الأدبية القيمة نذكر
من بينها كتابه بعنوان « حديث السندباد
القديم » .

المصريين وهما الأستاذ الدكتور حسين فوزى
والأستاذ الدكتور عبد الفتاح محمد ، فضلا عن أن
تلك الرحلة على ظهر « مباحث » قد أوحى للأول

* * *

الراماياتا

بقلم : محمد اسماعيل الندوي

التاريخ والفكر في الهند ، اذ أنهم استولوا على المناطق الشمالية بعد فتحها وطرد أهلها الى الجنوب كما جلبوا معهم حضارة أوربا القديمة ومنطقة الشرق الأوسط وتقاليدهما بعد أن عاشوا فيهما ربحا طويلا من الزمن . ولكن سرعان ما امتزجت حياتهم وتقاليدهم بأهالي الهند القدماء وظهرت حياة وثقافة جديدتان تتميزان بالخصائص الآرية والمزايا الهندية القديمة على السواء . وقد وضع «رج قيدا» (Reg-veda) أقدم كتاب ديني للآريين ، سجل فيه حياتهم وتقاليدهم وأفكارهم السهلة والسادجة تجاه الكون وخالقه . وهذه الظاهرة تدل على أن الآريين القدامى وجهوا عنايتهم منذ أول قدومهم الى تسجيل أفكارهم ونزعاتهم . ومن ثم توالى بعد «رج قيدا» صدور كتب كثيرة دينية . ولما كانوا فى بادىء الأمر قد خاضوا معارك كثيرة وافتتحووا بلادا عديدة فى شمال الهند ووسعوا رقعة بلادهم من الشرق الى الغرب . فقد ساعدت هذه الأحداث والوقائع على ظهور قصص وأساطير تصور حياتهم

تمتاز الهند بحضارتها الأصيلة وآدابها وفنونها وفلسفتها كاليونان ومصر ، لأنها كانت منبع الحضارة ومهد الثقافة . وقد تفجرت من أرضها ينابيع العلوم والفنون والمعارف التى تتسم بالأصالة وطابعها الخاص . وقد ساهمت فى هذا المجال أمم كثيرة وطوائف عديدة نزحت الى الهند فى العصور الساحقة واستوطنتها ومن أهمها بل وأكثرها قوة وأثرا وخلودا الأمة الآرية ، التى نزحت من أوربا الى آسيا واحتلت أولا بلاد الفينيقين ثم ايران فى حدود عام ١٥٥٥ ق.م تقريبا . ومنها نزحت الى الهند بعد نصف قرن تقريبا . ولقد اختلف المؤرخون فى الموطن الأصلي لهؤلاء اذ يرى بعضهم أنهم كانوا من سكان « سييريا وتركستان » . وقال آخرون انهم كانوا يقطنون بلاد « بامر » (Pamer) وقال بعضهم : انهم كانوا يسكنون فى ألمانيا وبولندا ولكن أرجح الأقوال فى هذا الصدد أنهم يقطنون جنوب روسيا (١) .

ومنذ قدوم الآريين الى الهند تغير مجرى

(١) The Anvil of civilization by Leonard Cottrell
p. 112

(١) The History of the World by Rene Sedillot
p. ٢

وعقليتهم وتقاليدهم وبطولتهم وقيمهم المعنوية على أبدع صورة وأجمل مظهر .
ان « الراماياتا » (Ramayana) أول ملحمة أو اسطورة في هذا الصدد تصور المرحلة الأولى من حياة الآريين في القرن الثاني عشر قبل الميلاد .

وقد عاشت بين فترتي القرن الثاني عشر والعاشر قبل الميلاد في شمال الهند في ولايتي «أتاربراديش» (U.P.) و «وبهار» (Bihar) أسرتان كبيرتان لمملوك الآريين وهما «كوسالاس» (Kosalas) «وفيدحاس» (Videhas) وكانت مدينة «أوده» (Oudh) عاصمة «دساراتا» (Dasa-ratha) ملك «كوسالا» . أما مدينة بته Patliputra or Patna فقد كانت عاصمة ملك «فيدحاس» الذي زوج ابنته «سيتا» لبطل الأسطورة الابن الأكبر لدسارتا وهو راما (١) .

وإذا كانت « الراماياتا » عبارة عن الأحداث التاريخية التي وقعت في هذه الفترة من الزمان ، فإنها لم تسجل في نفس الوقت على الصورة الحالية . بل مرت بمراحل كثيرة ، لأننا إذا نظرنا الى القصص السنسكريتية القديمة وأساطيرها نجد أنها ظهرت منذ القرن العاشر قبل الميلاد . فقد تناولها الشعراء باعجاب وتقدير ونظموها بالشعر السنسكريتي . وهذه الأشعار لم تسجل في تلك الفترة بل ظلت تحفظها صدور الناس كما كان الحال في كل أمة عاشت في ظل البداوة . وبهذا مرت ملحمة « الراماياتا » التي ظهرت في القرن العاشر قبل الميلاد تقريبا بمراحل عديدة ، وتناقلت الألسن من جيل الى جيل ومن عصر الى عصر حتى اتخذت هذا اللون البديع الأنيق في القرن الخامس أو

الرابع قبل الميلاد (٢) .

لقد ألفت هذه الملحمة باللغة السنسكريتية الناضجة ولذلك يرى بعض الباحثين أنها ألفت في القرن الخامس قبل الميلاد ، أى بعد مرور ما يقرب من ألف سنة على حدوثها، لأنها تصور شطرا من الحياة الاجتماعية والسياسية لهذه الفترة . ويرى الأستاذ (F.W. Thomas) أنها ألفت في القرن الثاني قبل الميلاد تقريبا ، إذ كانت السنسكريتية في ذلك الحين هي اللغة الأدبية والرسمية . وقد ظهرت هذه اللغة بعد قدوم الآريين الى الهند . وهي في الحقيقة فرع من لغات أوروبا القديمة التي نشأت منها اليونانية ثم الانجليزية والألمانية وما الى ذلك . ولذلك تسمى السنسكريتية « اللغة الهندية الآرية » (Indo-European)

كانت السنسكريتية في بادى الأمر لهجة أوروبية تشبه اليونانية القديمة ، تكلم بها الآريون الذين نزحوا الى الهند ، وافتتحوا ولاية بنجاب وقطنوها في أول الفتح . وقد مرت هذه اللغة مع الاختلاط باللغة الأصلية في الهند بعدة تغيرات كما سجلتها عدة كتب دينية هندوكية مثل «رج قيدا و يوبانيشاد» . ثم زادت رقعة الفتوحات واتسع سلطان الآريين الذى امتد الى عدة مناطق هندية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، واحتلوا أربع ولايات كبرى وهي « بنجاب وأتاربراديش وبهار ومدھيا براديش » . وهذه الولايات الأربع لا تزال حتى اليوم معقل العنصر الآرى ومهد الحضارة الآرية . وقد أخذت هذه اللغة في التطور في نحو ألف سنة . وفي خلال هذه المدة وضعت لها قواعد النحو والصرف والعروض ، وألفت بها الكتب العلمية والأدبية .

Hinduism by M. Sen p. 73 and the Legacy of India p. 63.

The Legacy of India p. 67.

The Ramayana of the Mahabharata by

(١)

Romech C. Dutt p. 1

وعلى هذا الأساس يمكن لنا القول بأن الملحمة تصور أحداث القرن العاشر قبل الميلاد ، ولكنها سجلت في هذا القالب الشعري في القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد (٢) .

وهذه الملحمة ككثير من الكتب الهندوكية القديمة لا يعرف مؤلفها على وجه التحديد .

وقد جاء في « الرامايانا » نفسها أن الراهب « والميكي » الذي ساعد «راما» في محنته في الغابة والذي شاهد وعاصر جميع مشاهد البطولية هو الذي نظمها بعد عودة «راما» من منفاه إلى «أيودھيا» . ففي هذه الآونة لجأت إليه « سيتا » زوجة راما وماتت في ديره ، لأن راما نفاها إلى الغابة . ولذلك أتحت للراهب فرصة تربية ابني «راما» اللذين عاشا في كنفه تربية رهبانية . وقد جال بخاطره في هذه الفترة الميل إلى نظم مشاهد «راما» ومواقفه البطولية كلها بالشعر . فبدأ في نظمها وقد استغرق هذا العمل منه خمسة وعشرين يوما . كلما قرض «والميكي» مقطعا حفظه ابنا راما في نفس الوقت . وبهذا حفظا الملحمة كلها والتي تتكون من خمسمائة مقطع ، تتضمن ٢٤٠٠٠ بيت . وقد أقام راما احتفالا دعا فيه الراهب والميكي أيضا . فحضره «والميكي» مع ابني راما اللذين أنشدا في هذه الحفلة ملحمة « الرامايانا » كلها . وقد أثارت هذه الملحمة دهشة راما وأعجابه ، وكذلك أعرب الشعب عن إعجابه الشديد بها ، وتقديره العظيم لها . فأقبل الناس على حفظها بشوق ورغبة منقطعي النظر . وبهذا احتفظت بها الصدور وتناقلتها الألسن دهرا طويلا إلى أن سجلت كتابة في القرون الأخيرة قبل الميلاد (٣) .

وفي القرن الرابع قبل الميلاد اتسمت هذه اللغة بثلاث خصائص بارزة قسمتها إلى ثلاثة فروع أو شعب : أولاها اللغة الكلاسيكية التي تكلم بها رجال الدين والكهنة . وقد توارثها هؤلاء كإبراهيم كابر فاحتفظوا بقلوبها وصياغتها في حب وتقدير لأحد لهما ، فأصبحت هذه اللغة كبنيان مرصوص بعد تأليف «باني» (Paini) - النحو الشهير - قواعد نحوية مربوطة لها ، وذلك في القرن الرابع قبل الميلاد . وثانيها لغة الشعراء والأدباء . وبهذه اللغة ألفت الأساطير الهندية الشهيرة مثل « الرامايانا » و «المهابارتا» . وثالثها لغة عامة المتعلمين والمثقفين السهلة التي ألفت بها معظم أجزاء كتب «الثيدا» كما ألفت بها أيضا كتب العلوم والفنون مثل السياسة والقانون والأدب والفن (١) .

وفيما يتعلق بالأبواب والفصول في ملحمة « الرامايانا » يقول الأستاذ « رومش دوت » (Romesch) - باحث هندوكي شهير في الآداب السنسكريتية - انها في الأصل تحتوي على ستة أبواب فقط وتنتهي بعودة الأبطال إلى ديارهم بعد مغامراتهم الطويلة لسنين عديدة . ولكن الباب السابع الذي ألفت بعد قرون من حدوث وتسجيل هذه الملحمة هو في الحقيقة معيار جديد للشعر السنسكريتي إذ تلوح فيه ملامح لغة جديدة حديثة ظهرت في القرون الأخيرة قبل الميلاد .

وخلاصة القول أن الملحمة تحتوي على ستة أبواب أصلية وذيل في الآخر يكون الفصل السابع ثم تنقسم الملحمة كلها والتي ألفت بالشعر إلى ٥٠٠ مقطع أو قصيدة تتضمن ٢٤٠٠٠ بيت .. وبدراسة الباب السابع يظهر لنا بكل وضوح أنه ألفت قبل الميلاد إذ نجد فيه بلدانا وأحداثا ومشاهد لم تعرف في عصر «راما» البطل واخوته بالمرّة .

The Wisdom of India by Lin Yutang p. 123. (٢)

The Wisdom of India by Lin Yutang p. 271. (٣)

The Legacy of India p. 40-41.

(١)

هذه الظاهرة تلقى الضوء على التأليف والتدوين في الهند في القرون الخالية ، لأننا نفهم أنها كالبلدان المتحضرة الأخرى في العالم لم تسجل إنتاجها الأدبي والفكري من أول وهلة ، بل تداولت ألسن الناس «الرامايانا» دهرا طويلا ، وحفظتها الصدور زمنا غير يسير ، حتى وجهت العناية أخيرا الى تسجيلها في الكتب بعد أن قطعت الهند مرحلة طويلة في ميدان العلم والفكر .

ولكن الرامايانا على الصورة الحديثة ليست جهود شاعر أو شاعرين بل ساهم في أداء هذه المهمة عدد من الشعراء البارزين الذين عاشوا خلال القرنين الرابع والثالث قبل الميلاد كما هو الشأن للملحة أخرى شهيرة ألفت بعد الرامايانا وهي «المهابهارتا» (Mahalharata) (٢)

ويجدر بنا الآن أن ننظر الى النواحي الأدبية والفنية في هذه الملحة . وما من شك في أنها من أولى نماذج الأدب والقصص في الأدب السنسكريتي بل الأدب الهندي قاطبة . وهي غنية بالأحداث والمشاهد والحكايات والصور ، وتعتبر نواة أولى للاساطير والقصص والمسرحيات السنسكريتية الشهيرة التي ظهرت فيما بعد مثل «نالا» (Nala) و «ساوترى» (Savitri) وشكنتلا . وهي صادقة فيما تحكى عن نفسها في موضع من المواضع إذ أنه لم تظهر قصة على وجه هذه الأرض قبل هذه القصة ، وهي التي تغذى جميع القصص وتسبح القوة لجميع الشعراء وهي درة يتيمة للشعر والشعراء (١) .

ان «الرامايانا» تحمل المثل العليا والأهداف النبيلة والقيم الأخلاقية والأعمال البطولية التي تشل جوانب انسانية رائعة فيها الدرس والعبرة لكل

(١) أنظر ما جاء في تقديم :

The Legacy of India p. 67.

The Ramayana of the Mahabharata

(٢)

انسان يقرؤها كما يلوح فيها وفي كل موقف من مواقفها الصفاء والجمال والصدق والرقّة والعاطفة والهدف الأساسى فيها هو المرأة والبيت فى حين أننا نجد ملحمة «المهابهارتا» تدور حول الرجل والحرب (٣) . وبما أنها أقدم تراث وصل إلينا تتجلى لنا فيها معالم الهند القديمة كلها من حياة شعبها ومجتمعها وتقاليدها ومعتقداتها .

أما الناحية الفنية فيها فهى تعطى بوادر أولى وأساسا ثابتة للاساطير الهندية التى ظهرت فيما بعد، لأنها تصور الغابات الهندية الشهيرة الممتلئة بالوحوش والحافلة بالأخطار والتي غامر فيها أبطال هذه الملحة أنفسهم وقضوا فيها سنين عديدة يهيمنون على وجوههم ويخاطرون بأنفسهم ويتنقلون من غابة الى غابة ومن بلد الى بلد من أقصى الشمال الى أقصى الجنوب حتى جزيرة «سيلان» الشهيرة التى منحت هذه القصة الشهية جوانب انسانية رائعة وبطولة عظيمة ومواقف بين النهرين الشهيرين «الجنجا والجنما» مثل «أوده وقنوج واله آباد» ولكن لا يكاد يبين لنا فى خلال هذه الملحة أثر المدن الشهيرة الأخرى مثل «دهلى» و «أجينا» اللتين لعبتا دورا كبيرا فى الأدب السنسكريتي القديم ولاسيما فى ملحمة «المهابهارتا» ومسرحية «شكنتلا» (٤) وهذه الظاهرة تدل على أن نطاق هذه الدولة لم يتسع الى هذه المناطق . ومع ذلك يتضح لنا من خلالها معالم الهند كلها مثل طبيعتها الفاتنة وجمالها الباهر وأنهارها الجارية وغاباتها المظلمة ووديانها ورعودها وأمطارها وسحبها .

وهذه الملحة أو الأسطورة تصور الحياة الروحية والقيم المعنوية لدى الهنود فى هذه

The Wisdom of India p. 122.

(٣)

(٤) أنظر مقالنا عن «شكنتلا» فى مجلة «تراث الانسانية» الصادرة فى أغسطس سنة ١٩٦٥ .

الفترة من الزمان . فلقد قطع الآريون مراحل عديدة في تطورهم التاريخي والفكري اذ مرت حياتهم حيناً بالمادية البحتة وحيناً آخر بالروحانية المحضة . وبما أن «الراماياتا» تصور أولى مرحلة حياة الآريين في الهند فرى أن حياتهم تموج بالروحانية والقيم الأخلاقية والمبادئ السامية .

ومن الأهداف الرئيسية فيها أنها تحث الانسان على التضحية . وأداء الواجبات نحو الانسانية ويذم الأنانية والحرص على تحقيق الأغراض الشخصية (١) . والسبب في ذلك أن الانسان في كل مكان قطع المرحلة الأولى من الحياة في الايمان بالله وقدرته وجبروته في هذا الكون . ثم ظهر عليه الطغيان والتمرد أخيراً مما حدى به في بعض الأحيان الى الكفر بالله والجري وراء المادية والشهوانية . وقد وقعت الهند في هذا اللون من الحياة في العصور التي تلت «الراماياتا» كما تصورهما ملحمة «المهابهارتا» . وهذا هو السبب في أن «كرشن» الشخصية الأسطورية في هذه الملحمة حمل لواء المعارضة ضد هذه الحياة (٢) .

وحيثما ننظر الى القيم الروحية والمبادئ السامية في «الراماياتا» نجد أن أحسن ما يتصوره الانسان في هذا المجال الطاعة والخضوع والوفاء والاخلاص والمحبة والتضحيات والعتفو والتسامح والكرم وما الى ذلك . وأول ما نصادفه في هذا الصدد أن الملك «دساراتا» يجب ابنه الأكبر راماً جابجا ، ولكنه يقع في خديعة زوجته الصغيرة الجسيلة فيقطع لها العهد على نفى «راما» من البلاد وتولية ابنها «بهارت» العرش . ونجد أنه وفاء

(١) The critical survey of Indian philosophy by Dr. Chandradar p. 41

(٢) قد أوردنا التفصيل في هذا العدد في مقالتنا عن «جيتا» في مجلة «تراث الانسانية» الصادرة في أغسطس سنة ١٩٦٤ .

لعهد والده مع زوجته يترك البلاد ويهيم على وجهه في الغابات فيما يقرب من أربع عشرة سنة ، يعاني فيها الكثير من أنواع العذاب والتعب والارهاق . كل هذا جاب لوالده وطاعة وخضوعاً لمشيئته . وأما «سيتا» زوجته فتطيع زوجها الى حد العبادة وتضرب الأمثلة الرائعة للزوجة المثالية بوفائها واخلاصها وتضحياتها له حتى في أصعب اللحظات حينما يخطفها الملك «راون» ملك سيلان ويرغبها على الزواج منه .

وحيثما يرافق راماً أخوه «لشمن» الى الغاية تصور هذه المشاهد نماذج حية لحب الاخوة بعضهم لبعض ، واخلاصهم وتضحياتهم . وفي ثانياً هذه المصائب والآلام يضطر راماً الى اعلان الحرب على راون ملك سيلان لانقاذ زوجته سيتا الوفية من قبضته الظلمة ، ولكن هذه الحرب هي الأخرى تعطي درساً أخلاقياً رائعاً لأنه يتجنب فيها اراقة الدماء ونشر الدمار في أول الأمر ، ويحاول بأقصى ما في وسعه من جهد لايجاد حل سلمي . وحيثما تدور رحى الحرب بين الفئتين يحاول راماً بأقصى ما يستطيع أن لا تطفئ عليه ثورة الانتقام أو يسيطر عليه غضب أو قهر . فكان كل همه منحصر في انقاذ زوجته من الملك الطاغية الذي خطفها ووضعها تحت سيطرته ظلماً وطغياناً . تبدو لنا هذه الحرب ومن خلال هذه القيم المعنوية الرائعة حرباً مقدسة وليست حرباً دامية تصورهما ملحمة المهابهارتا .

قد ساد الجانب الروحي هذه الملحمة الى حد كبير لأنها تروى على لسان راهب يصف معاركها ويسرد أحداثها سرداً دينياً مقدساً . ومن أجل هذه الصبغة الزوحية والقيم المعنوية فيها يرى الباحث توماس (F.W. Thomas) أنها تمهد السبيل للبوذية التي نشأت بعد ظهور هذه الأسطورة فيما يقرب من ستة قرون لأنه طغى عليها كلها ذلك الجانب

الروحي الذي يلمح في الرامايانا بأبدع مظاهره وأدق معانيه (١) .

ومن مميزات الديانة الهندوكية الآرية بالنسبة الى الديانات السماوية السامية - مثل الاسلام واليهودية والمسيحية - أنها لا تعتقد في النبوة ولا يوجد فيها هذا التصور بتاتا ، بل تؤمن بنظرية الأوتار أو التجسد وهي ظهور الله سبحانه في مظهر انساني واتخاذ قلبه لهداية البشرية وارشادها الى فعل الخير في هذا الكون . وقد نشأت هذه العقيدة لأول مرة في التاريخ الهندوكي في الرامايانا لأن « الفيدا » - أول كتاب في الفكر الهندوكي - يؤمن بتعدد الآلهة التي تملك طاقات هائلة في البر والبحر والشمس والنار والعواصف . وأما كتب « اليوبانيشاد » التي ظهرت فيما بعد فهي تعضى فكرة ناضجة عن الايمان بـ « براهمان » (Brahman) الذي لا مثيل له ولا نظير ولا شبيه اذ هو قوة هائلة تملك السموات والأرض وهذه العقيدة بدون شك تصور أقصى مرحلة للفكر الآري حيث تزول جميع الآثار الوثنية ويتجلى التوحيد بأبدع مظاهره كالديانات السماوية السامية . ولكن «اليوبانيشاد» لا يمكن تحقق الاستفادة منه الا للستعنيين والعلماء فقط ، ولذلك كانت الحاجة ماسة الى عقيدة تتوسط بين الوثنية وبين التوحيد ، تؤمن بجاهاير الشعب الهندوكي التي لم تبلغ مبلغا كبيرا في مستواها الفكرى ، وهذه هي نظرية الأوتار التي ظهرت لأول مرة في « الرامايانا » في شخصية رامابطل الأسطورة . ثم تطورت تطورا كبيرا في ملحمة أخرى وهي المهابهارتا وذلك في شخصية كرشن بطل هذه الملحمة . وهذا هو السبب في اعتقاد جماهير الشعب الهندوكي من الطبقة المتوسطة حتى الآن بأن هؤلاء الأبطال هم الآلهة الذين تقمصوا

الانسان لهدايته في هذا الكون في حين يعتقد الفلاسفة والعلماء من الهندوس أن هؤلاء شخصيات خالدة أسطورية في التاريخ الهندوكي وليسوا من الآلهة أبدا (٢) .

بعد استعراضنا لجوانب عديدة من الرامايانا ينبغي لنا القاء نظرات خاطفة على الجوانب الأخرى مثل المجتمع الهندوكي والتقاليد والمراسيم فيه وعلاقة الشعب بالملك وعلاقة الملك بالشعب وما الى ذلك .

ان هذه الملحمة تصور عصرها تصويرا دقيقا بحيث تتجلى أمامنا جميع مظاهرها من العقائد والتقاليد والمراسيم والحياة السياسية والاجتماعية وتوحى الينا بأنها تعاصر أبطال هذه الملحمة ونشاهدهم أمامنا كشخصيات في نفس العصر والزمن والبيئة . وفي هذا العصر - كما تصور الرامايانا - كان الهنود متسكين بالتقيم الانسانية والمبادئ الروحية السامية والايضان بالأوتار . وكانوا يعيدون كل البعد عن المادية والأنانية والشهوة النفسية . ومن أهم ظواهر المجتمع في هذا العصر أن تعدد الزوجات كان شائعا ، ومن أجل ذلك نرى الملك دساراتا قد تزوج بسا يقرب من أربع زوجات . وهذه الظاهرة هي التي جلبت مشكلات وويلات عدة كفى رامان من بلده وموت دساراتا بسبب ذكريات ابنه الأكبر الذي اختار لنفسه الغربية والنفي من أجل أبيه .

يقول الدكتور «رادها كرشنان» - الفيلسوف الهندوكي الشهير ورئيس جمهورية الهند - : ان هذه الظاهرة في الرامايانا سببها للغاية لأنها تفتح المجال لتعدد الأزواج الذي لاخير فيه للانسان أبدا . وقد امتلأت قصور دساراتا بالنساء والحريم ودعا الى الاكتفاء بزوجة واحدة (٣) .

Hinduism p. 74

The Hindu view of life p. 86.

(٢)

(٣)

The Legacy of India p. 64

(١)

وحيثما ننظر الى راما الذى تولى عرش آبيه بعد العودة من المنفى لا نجد مجرد ملك يملك الأرض ويأمر وينهى ، بل نجد بجانب ذلك مجبا لشعبه عطوفا عليه ، كأنه أب مستلىء قلبه بالحنان والشفقة والرحمة على بنيه . وكذلك أعرب الشعب عن شكره وتقديره واعجابه به الى حد بعيد حتى اتخذهُ بطلا أسطوريا والهيا من الآلهة .

وخلاف وصف الراماينا لعصره يبدو لنا أنه عصر ذهبي عاش فيه شعبه متعا بما سادته من الطمأنينة والرفاهية والوثام . لأن هؤلاء الملوك سعوا وراء تحقيق رفاهية الشعب وتوفير أسباب الراحة له سواء أكان دساتارا أو راما - بطل الملحمة الذى اتخذهُ الشعب الهيا من الآلهة لشدة اعجابه به وتقديره له . كذلك يتجلى راما فى الملحمة كبطل وانسان يتصف بالأخلاق العالية ويحمل قوى معنوية عظيمة .

وبهذا تركت الراماينا أثرا قويا فى نفوس الهندوس واحتلت مكانة الصدارة بين غيرها من الملاحم والأساطير . كما ساهمت مساهمة كبيرة فى رفع معنوية الشعب ومنحه قوة روحية دافقة وإيقاظ شعور الحب والتضحية فى نفوس الهندوس لتقديس وطنهم ومعتقداتهم الدينية وشخصياتهم الأسطورية الخالدة الى حد العبودية .

ينبغى لنا الآن بعد تحليل الراماينا تحليلا دقيقا ووصفها وصفا صادقا أن نقارنها بما يشبهها من الملاحم والأساطير لدى الأمم المتقدمة فى العصور الساحقة . وقد حاول بعض الباحثين وعلى رأسهم (Ramesh.C. Dutt) و (Lin Yutang) مقارنتها بملحمة يونانية شهيرة هى الأوديسه (Odyssey) ان الأوديسه هى إحدى

ملحمتى « هوميروس (١) » الخالدين والأخرى هى « الإلياذة » . وتتكون الأوديسه من أربعة وعشرين نشيدا . يروى لنا الشاعر فى الأناشيد الأولى (١ - ٤) محاولة « تليماخوس » البحث عن آبيه « أودوسيوس » الذى طال غيابه بعد سقوط « طروادة » . فلما وصل الابن الى بلاط « فيلاوس » عرف أن أباه قد وقع أسيرا فى كاليبسو . ثم يصف لنا الشاعر وصول بطل « الأوديسه » الى أهل « فايكيا » حيث يرحب به الملك (٥ - ١٢) ثم يعود « أودسنوس » ويعود ابنه الى « ايتاكا » ويتفقدان على تدبير حيلة للانتقام من العشاق الذين ضايقوا « نيلوبا » (Penelope) فى غيبة زوجها (١٣ - ٢١) فيقتلهم « أودسيوس » (٢٢) ثم يكشف عن شخصيته لزوجته ويسترد حكمه ويعيش آمنا فى وطنه (٢).

يقول الاستاذ (Lin Yutang) ان كلا

من الراماينا والأوديسه يتناول الغربه والنفسى والتشريد ، لأن راما يهيم على وجهه فى الغابات تصاحبه زوجته المخلصة « سيتا » كما يخرج « تليماخوس » فى البحث عن آبيه الذى طال غيابه بعد سقوط طروادة . وثمة تشابه آخر بينهما وهو أن « سيتا » بطلة الأسطورة تقع فى اختبار شديد لوفائها وإخلاصها لزوجها وتخرج بنجاح فى امتحانها ولايمس شرفها وعفتها خلال هذه الملحمة بشىء . وكذلك فى « الأوديسه » تختبر « نيلوبا » زوجة الملك « أودوسيوس » بعد غيبة زوجها (٣) . وهى الأخرى تعود الى زوجها بعد أحداث طويلة . وهذه (١) وهو أعظم شعراء اليونان الذى عاش فى القرن الثامن قبل الميلاد فى آسيا الصغرى فى إحدى المدن الآتية : « أثينا » و « أدنير » و « خيوس » و « كولوفون » . (أنظر : الموسوعة العربية الميسرة ص ١٩٢١) .

(٢) أنظر : « الموسوعة العربية الميسرة » ص ٢٥٧ .

(٣) The Wisdom of India p. 122 - 123.

كهنه هذه الفلسفة (٢) . وهذه الظاهرة هي التي جعلت الضعف والانحلال يبدان في المبادئ التي نادت بها هذه الأساطير الخالدة .

ولكن الهندوس رغم كل التطورات التي طرأت على العقائد الهندوكية وفلسفتها على مرور الزمن يعربون عن تقديرهم وشكرهم للراماياتا واعجابهم بها الى حد كبير ، لأنها تتحلى بأعلى آيات القيم والمبادئ . وهذه الملاحم لاتزال تقرأ في المعابد والأماكن المقدسة وفي البيوت ليلا ونهارا للموعظة والعبرة والدرس .

ومن أهم الظواهر في الراماياتا والتي جذبت اليها نفوس الهندوس وتملكت وجدانهم وعواطفهم المثل العليا التي تضربها سينا في هذه الملحمة كأمراة هندوكية مثالية . ولذلك لاتزال تعلق النساء الهندوكيات آمالهن العريضة على سينا ويستعدن ذكرياتها وبطولتها وتضحياتها وجها المتفاني لزوجها واخلاصها له ووفاءها ليحاكيها في حياتهن الخاصة ويتمثلن في تقديس وعبادة .

قد استوحى عشرات من المفكرين الهندوس وزعمائهم الدينيين في شتى مراحل التاريخ الهندوكي من الراماياتا ، ولا يزالون يستمدون منها أصولا ونماذج لحياتهم المعاصرة ويستلهمون منها الدروس والعبر والموعظة في حياتهم الروحية وسلوكهم الشخصي . فقد دعت شخصية راما الأسطورية المثالية الانسان الكامل للهندوس وهو الزعيم الروحي «رامانوجا» (Ramanuja) أن يرفع راية التوحيد في المنطقة الجنوبية في القرن الثاني عشر الميلادي . وكذلك دعا «راماناندا» (Ramananda) - المفكر الهندوكي الشهير في القرن الثالث عشر الميلادي - شعب شمال الهند

(٢) The Legacy of India p. 369 and A Critical Survey of Indian Philosophy p. 335.

الملحمة اليونانية تحمل تلك القوى المعنوية . والأخلاق الانسانية التي تمتاز بها طبيعة الهند وتصورها ملحمة «الراماياتا» . ولذلك يقول الأستاذ (Romesht Dutt) : ان كلا من راما وسيتا يعطى أروع مثال للانسان الكامل الذي نبتغى وجوده في حياتنا ، ويمثل المثل العليا التي تتلمسها ونريدها . وهما يحملان قيما انسانية رائعة اذ تتمثل فيهما البطولة والشجاعة والمصابرة والصمود أمام الصعوبات والمشكلات . وبهذا يضرب كل منهما مثلا رائعة للحياة الفضلى . وهذه الحياة الطيبة هي التي يتطلع اليها الهندوس وتطالب بها ديانتهم لتكون في سلوكهم ومعاملاتهم ، وتصور نفس هذه الحياة المثالية «الكوميديا الالهية» التي ألفها «دانتى» (Dante) في القرون الوسطى في أوروبا لاعطاء صورة أوروبا الروحية . ان قيما الانسانية ربما لا تتلاءم مع القيم القديمة . قبل المسيح وبعده الى القرن الرابع عشر الميلادي الا أننا رغم ذلك نجد أنفسنا في ميسس الحاجة اليها اذ لا يمكن لنا التعاقل عنها مهما تغيرت الظروف ، لأنها تمثل مبادئ سامية للانسان في فترة من الفترات التاريخية القديمة (١) ان هذه القيم الروحية في «الراماياتا» لم تلعب دورها في حياة الهندوس الى أمد بعيد بل سرعان ما طرأ عليها - كسنة هذا الكون - أنواع من التغيرات والتقلبات اذ ظهرت فلسفة جديدة تسمى بالسنسكريتية (Vasihnavism) وهي عبارة عن التقاء قدرة الله سبحانه مع الايمان بالله الذي وصل اليه الانسان . وقد نشأت هذه الفلسفة في القرن الثاني قبل الميلاد وأذابت آثار الراماياتا والمهابهارتا الخالدة التي سيطرت على مجامع قلوب الناس ردحا طويلا من الزمن وذلك بفضل جهود

(١) The Ramayana of the Mahabharata p. 159.

الى التوحيد . أما الزعيم الروحي الكبير « كبير داس » (Kabirdas) الذى عاش فى نفس القرن تقريبا فقد دعا الى الوحدة بين الهندوس والمسلمين قائلا : ان اله محمد « صلى الله عليه وسلم » هو نفس الاله الذى يتمثل فى شخصية رامما وعلى ابن أبى طالب (١) . وهذه كلها اشارات صوفية توحى لنا بأن الله قد تمثل فى شخصية رامما كما تعتقد بعض الطوائف من الشيعة فى أن الله برز فى شخصية على بن أبى طالب ، ولاتزال تلتس من الرامايانا معظم الطوائف الهندوكية - ومن أبرزها « وشنو » (Vishnu) و « سيوا » (Siva) اللتان تشكلان أغلبية ساحقة فى الهند - المعونة الروحية (٢) .

وبعد هذه الجولات الطويلة العريضة والنزهة الممتعة فى رياض هذه الملحة الشهيرة يحسن بنا الآن أن نقف وقفة غير يسيرة أمام ترجمتها الى شتى اللغات ، وتعريفها للأمم الأخرى واعجاب الناس بها فى عدد من أقطار هذه الدنيا، وزيادة العناية بها فى الأوساط الأدبية العالمية .

ولعل أقدم ترجمة للرامايانا قد ظهرت مبكرة فى لغة «تامل» أشهر لغات جنوب الهند فى سنة ١١٠٠ م . ثم توالى لها ترجمات كثيرة الى اللغات الهندية الرسمية والشعبية . أما الرسمية فقد ترجمها الشيخ عبد القادر البديوانى الى اللغة الفارسية - وهى اللغة الرسمية الهندية فى العصور الاسلامية كلها - وذلك فى عصر الملك المغولى الشهير « جلال الدين أكبر » الذى ازدهرت فيه العلوم والفنون وشهد أعظم نشاط لحركة الترجمة فى التاريخ الهندى أجمع . لقد بدأ الشيخ عبد

(١)

The Ramayana of the Mahabharata p. 162 — 163.

(٢) نفس المصدر السابق .

(٣) نفس المصدر ص ١٦٢ .

القادر البديوانى ترجمته الى اللغة الفارسية فى سنة ٩٩٥ هـ - ١٥٨٦ م وأنهاها فى سنة ٩٩٩ هـ - ١٥٩٠ م . كانت هذه الترجمة تتكون من عشرين جزءا ، وأهداها المترجم الى الملك جلال الدين أكبر فسر به الملك سرورا بالغا ، لأنه كان يوجه عناية كبرى الى الحضارة الهندوكية وفلسفتها بدون سابق مثال له فى تاريخ الملوك المسلمين الهندود أجمع . وتوجد نسخ خطية كثيرة من هذا الكتاب فى معظم مكتبات الهند حتى وقتنا هذا . (٤)

أما فى العصور الأخيرة فقد ترجمها الى اللغة البنغالية - لغة الشاعر طاغور - الأستاذ (Kritibas) والى اللغة الهندية الأستاذ (Tulasi Das) والى لغة « مارهااتا - لغة ولاية بمباى - الأستاذ (Sridhar) أما ترجمة «تولاسيداس» الى اللغة الهندية فتعتبر ترجمة قيية ودراسة علمية دقيقة . ومن أجل ذلك ترجمت دراسته الى اللغة الانجليزية واللغات الأخرى .

كان هذا المترجم معجبا جدا بالرامايانا ومبادئها حتى انه كان يفخر حين يسمى ويلقب بالرجعى اذ لاحت عليه الآثار الرجعية بسبب اعجابه بالرامايانا بكل جوانحه ، ولايسانه القوى بما ورد فيها من التقاليد والمبادئ والتعاليم (٥) .

أما العناية بها فى العصر الحديث فى بلاد أوروبا فقد وجدت فى « ايطاليا » أول ما وجدت حيث ترجمها الى اللغة الايطالية الأستاذ (Gorresio) فى ١٨٤٣ - ١٨٦٧ م على نفقة ورعاية « شارل البرت » - ملك ساردينا . ثم ترجمها الى الفرنسية الأستاذ (M. Hippolyte) وكذلك ترجمت الى اللغة الانجليزية فى مدينة كلكتا بالهند أيام احتلال

(٤) أنظر : مبرم تيمورية (باللغة الأردنية) للأستاذ

السيد صباح الدين عبد الرحمن ص ٦٣ .

The Legacy of India p. 380.

(٥)

تبدأ الملحمة بوصف مدينة «أيودهايا» عاصمة دساراتا - ووصف جمالها وبهاثها ورفاهية أهلها وإيمان شعبها بالآلهة وأداء طقوسهم الدينية لها . كان الملك موضع الإعجاب والتقدير في البلاد إذ كان يجلس بين يديه ويركع أمامه القساوسة والكهان . كان الملك نموذجا حيا للأخلاق العالية والمبادئ السامية . وكان الشعب في هذا العصر يمارس لزراعة باقتناء البقر والغنى والغلة والذهب . كانت الأخوة والمحبة والمواساة والمساعدة من أهم مميزات هذا الشعب . أما الخداع والمكر والخيانة والسرعة والأخلاق الرذيلة فلم تعرف في هذه البلاد مطلقا . وكذلك لم يشهد هذا العصر التفرقة ولا الفوارق الطبقية بل كانت جميع الطوائف والجماعات تؤدي واجباتها أداء كاملا . وكانت هذه البلاد بعيدة كل البعد عن المعارك واستخدام السيوف والرمح ، بل كانت ترفع دائما شعارات السلم والأمن والطمأنينة . ومع ذلك فقد كانت تحرسها حراسة كاملة من كل جانب الأفيال القوية التي كانت تجلب من غابات الهملايا . كانت أيودهايا عاصمة جميلة عامرة مزدنة بالعمارات الفخمة والهيكل العظيمة ومحفوظة بالسواتين والروضات . وطبقا للتقاليد الهندوكية عند اختيار الزوج الأميرات أعلن «جاناك» - ملك فيديحاس - مسابقة في الرماية لاختيار أحسن رام كزوج لابنته «سيتا» . فيتدفق آلاف الأمراء من أطراف الهند وجوانبها على بلاط ملك فيديحاس التي تقع في ولاية بهار . وكان من بينهم «راما» ابن الملك «دساراتا» . وقد عرض الملك «جاناك» على هؤلاء الأمراء الوافدين أداء مهمة شاقة لاختبارهم ، وهي حمل وكسر أقدام وأثقل قوس يملكه من العصور الغابرة . وقد فشل في تنفيذ هذه المهمة كل من حضر هذه المسابقة . وتقدم راما بدوره ، وما أن فتح وشد وتر القوس حتى تحطم القوس في طرفه

الانجليز في بداية القرن العشرين . وقد أعيد طبع هذه الترجمة في مدينة «بمباي» بمقدمة قيمة للأستاذ (Ramanuju) ثم طبعت هذه النسخة بعناية من الأستاذ (Hemchandra Vidyaranta) في مدينة كلكتا في ١٨٨٥ م . ثم وجه الأستاذ (Ralph Griffith) عنايته الى ترجمة الأجزاء الستة الأولى من الرامايانا الى الشعر الانجليزى ، والجزء السابع وهو الملحق الى النثر الانجليزى (١) . وبهذا وصلت ملحمة الرامايانا الى أوروبا واحتلت مكانة مرموقة في آداب أوروبا حتى أعجب بها أدباء أوروبا ورحبوا بها إعجابا وتقديرا وألما بها شرحا وتفسيرا تلخيص «الرامايانا»

بعد أن قمنا بدراسة علمية للملحمة «الرامايانا» وأبدينا مزاياها وخصائصها البارزة ، واستعرضنا مكائنها العلمية والأدبية لدى الأدباء والكتاب في العالم ينبغي لنا الآن أن نلخصها لتكون لها في أذهاننا صورة واضحة . وسنحاول هنا أن نلخص ما أورده الأستاذ (Ramesh Dutt) في كتابه (The Ramayana of the Mahabharato) لأنه أشهر باحث في أساطير الهند وآدابها . فقد بذل مجهودا كبيرا في إعداد هذا الكتاب .

يقول في خطته في الكتاب : انه اختار من هذه الملحمة الكبيرة أهم الأحداث والوقائع والمشاهد التي لاغنى عنها ، والتي تعرض الكتاب عرضا صحيحا دقيقا . من بين ٢٤٠٠٠ بيت من أصل الملحمة اختار ٢٠٠٠ بيت فقط رعاية للسهولة والسرعة واقتصادا للوقت . ورتبها في ٨٤ فصلا صغيرا في أسلوب سهل أنيق وأردف كل فصل بلحوظات هامة دقيقة (٢) .

(١) The Ramayana of the Mahabharata p. 161.

(٢) The Ramayana of the Mahabharate p. 161.

العرش . فوافق الجميع على هذا القرار ورضوا به
 إذ أنهم كانوا يحبون راما حبا جما ويقدمونه
 تقديسا بالغا . ثم أعدت العدة لتتويج راما فزينت
 البلاد وزخرفت القصور واحتشدت الجاهير .
 فقام راما المتدين التقى يصلى الى الهه « نارايين »
 الذى خلق جميع المخلوقات ، وقدم له الهدايا
 ووضعها ، على النار التى أوقدت لهذا الغرض .
 ثم أخذ ما بقى من النار وأكله بركة وثوابا واعتكف
 الليلة كلها ساهرا على الحشائش الخضراء التى
 فرشت بها أرض المعبد يعبد « نارايين » ويطلب منه
 العون والتوفيق . وكذلك فعلت زوجته « سيتا »
 العنيفة الطاهرة إذ سهرت الليلة وظلت ضائمة حتى
 طلعت الشمس وخرج الآلاف لحضور احتفال
 التتويج .

وفى غمرة هذه الفرحة والسرور ليوم التتويج .
 حدثت حادثة غريبة غيرت مجرى الحياة لكل من فى
 القصر ، وحطمت الآمال والأمانى ، وحولت الحياة
 الجميلة الى ويلات ونكبات وماسى . وهذه المأسا هى
 التى خلقت أسطورة الراما يانا الخالدة التى تعتبر آية
 الأدب والفن بين الآداب العالمية . كانت لدمساراتا
 الملك زوجة رابعة تسمى « كايكيا » ملكة « كايكياس »
 التى أنجبت له ولدا شجاعا سمي « بهارت » فكنيت
 هذه الملكة تحب ابنها وتنفرد بحبه دون الآخرين
 من أولاد « دمساراتا » . وتحسد راما وتحقد عليه .
 فلما رأت الزينة والزخارف والبهجة والسرور فى
 العاصمة كلها بمناسبة الاحتفال بتتويج راما راودت
 نفسها على أن تحطمها وتحولها الى حطام وخرائب
 لبناء مجد ابنها « بهارت » وتتويجه بخلف أباه
 دمساراتا على العرش . لأنه لا أمل هناك فى اغتلاء
 ابنها بهارت العرش اذا تم تتويج راما ، لأنه كبير
 أبناء دمساراتا ، والذى يستحق العرش ومن بخلفه
 ابنه أو « لشمين » أخوه من أبيه فهو الآخر أقرب

عين وارتفع منه صوت هائل مدو بلغ عنان السماء ،
 وصم آذان الناس ، فأغمى على الحاضرين أجمعين ،
 وتردد صدهاء فى الجبال والوديان والغابات المحيطة
 بالمدينة حتى سمعه الناس فى البلدان المجاورة .
 ثم ساد الهدوء وأفاق الناس من غشيتهم . فقام
 الملك يعانق الأمير « راما » وأعرب عن رغبته المخلصة
 فى تزويجه من ابنته الجميلة الحبيبة لديه تقديرا
 لشجاعته وبطولته .

وقد وصل هذا النبأ الى الملك « دمساراتا » فى
 « أيودھيا » ، وكان جالسا ساعتئذ على أربكته وبين
 يديه وزراؤه وقساوسته وندماؤه . فهناه الجميع
 على بطولة راما وشهرته الفائقة فى البلاد النائية
 حتى طار الملك فرحة و سرورا ، وغادر بلاده لحضور
 حفل زواج راما الى « فيديجا » . فاستقبله الملك
 جاناك استقبالا منقطع النظير ، وأنزله منزلة السع
 والبصر ، وأدى بمناسبة مقدمة جميع المراسيم
 الدينية . ثم أعد عدة ضخمة لحفلة الزفاف . فقد
 غطى السرادق بالأكاليل والباقات من الزهور
 والروائح والطور وقرئت الأناشيد المقدسة من
 « الفيدا » . ثم جلس العريس والعروس بين يدي
 الكهنة يلتف حولهما آلاف مؤلفة من الناس ومن
 بينهم الملوك والأمراء والوزراء والندماء ، حتى تم
 الزواج بهرجان عظيم . ثم عاد راما مع عروسه
 سيتا وأهله وذويه الى أيودھيا .

كان راما يعيش حياة طيبة مع زوجته ويؤدى
 جميع واجباته الدينية ، لأنه كان راسخ الايمان
 بالآلهة . إذ كان يعبدهم ويقدمهم حتى رضى عنه
 الرهبان والكهنة واحترموه احتراما بالغا .

ولما بلغ دمساراتا من عمره مبلغا كبيرا وضعفت
 قواه عزم على تتويج ابنه الأكبر راما ليتولى
 عرشه . وعقد لهذا الأمر اجتماعا كبيرا حضره جميع
 أبناء الشعب وأطلعهم على قراره بتولية ابنه راما

الناس الى راما وسوف ينال منه مالا يناله بهارت .

وقبل افتتاح الحفلة يبحث الملك عن زوجته الرابعة «كايكيا» فلم يجدها في حرم القصر . فاندش الملك وزادت حيرته واشتد خوفه لأنه كان يحبها حبا كبيرا ووهب لها قلبه ووجدانه وشعوره وعواطفه وذلك لجمالها الساحر وسنها الصغيرة . وبعد أن طال البحث عنها إذا هو يراها ملقاة على أرض غليظة تنفجر بكاء وتنهمر الدموع من عينيها . فدهش الملك لهذا المنظر الأليم وانحنى فوقها وحملها على ذراعيه ومسح الدموع من عينيها وسألها عن سر بكائها وألمها وأحضر لها جميع الأطباء والكهنة لمعالجتها . ولكنها مع ذلك تزداد بكاء وألما حتى صار الملك في غاية الحيرة والخوف ومن شدة العطف عليها حلف على أن يحقق لها جميع طلباتها مهما كانت شاقة وصعبة على أن تفتح فمها وتحكى حكايتها . وحينئذ ابتمت الملكة وقالت : انك عاهدتني أمام الآلهة على انجاز كل طلباتي . وطلبي منك الآن هو أن توقف تنويج راما وتنفيه الى الغابات لمدة أربع عشرة سنة وتولى ابني «بهارت» على العرش . وقع هذا الكلام على قلب دساراتا كصاعقة وأظلمت الدنيا في عينيه ، فلم يكذبين له شيء ، وفقد وعيه وشعوره . ثم استعادهما بعد مدة ، وطلب منها أن تسحب هذا الطلب ولكنها أبت وأصرت على تحقيق ماوعدها به .

وقد انتهى موعد الاحتفال وارتفعت الشمس ثم ساد الظلام . وفي الصباح الباكر لليوم الثاني حضر «راما» الى أبيه وزوجته «كايكيا» ، ومس رجليلهما أدبا واحتراما ثم سأل أباه عن الوجوم السائد على وجهه ، وسأل «كايكيا» عن سكوتها ، فأجابت أن والدك قطع على نفسه وعدا يجب عليك الوفاء به ، وسأخبرك بهذا الأمر اذا وعدتني على

انجازه خضوعا لوالدك وطاعة له كابن مخلص .. فتعهد لها راما بتحقيق ما وعدها أبوه به . فتقول حينئذ : يجب عليك الآن أن تترك البلاد وتعيش في الغابات لمدة أربع عشرة سنة وسيتولى أخوك بهارت الحكم بدلا منك .

يستعد راما للسفر وفاء لوعده أبيه . وهناتجلى المواقف الانسانية الرائعة وهي أن راما بعد قراره واستعداده للخروج من البلاد وللعيش في الغابات يذهب الى زوجته سيتا ويستأذنها وينصحها بالبقاء في القصر مطيعة وخاضعة لكل من فيه من أبيه وأمه وأخيه بهارت الذي سيتولى العرش بعده وينصحها بخدمة هؤلاء وتوفير وسائل الراحة لهم . ولكنها تأبى الا أن تخرج معه وترافقه أينما ذهب وتشاركه السراء والضراء لأن أبواها علموها هذا الأمر منذ صغر سنها ، وليست حياتها الا جزءا من حياة زوجها ، وان سعادتها تكمن في سعادة زوجها وشقاءها في شقائه .

ثم يذهب الى أخيه «لشن» ابن ملكة «سوميترا» من والده ليستودعه فاذا هو الآخر مثل «سيتا» يلح الحاحا شديدا على مرافقته ومشاركته في محنته والمحافظة على سيتا من الكرب والغم والمغامرة بنفسه من أجلها بسيفه ورمحه . ومع ذلك يحاول «راما» اقناعه بالبقاء لخدمة أبيه وأمه وأهله كلهم ، ولكن «لشن» لا يرضى بذلك ولا يرى له عيشا في «أيودهايا» بعد مفارقة أخيه الأكبر فيصحبه هو الآخر في مغامراته .

ثم يقف الجميع بين يدي ملكة «كوساليا» والدة راما التي تنفجر بكاء من حديثهم ، ثم تتقدم باكية الى «سيتا» وتقبل جبينها وتقول لها : انك تتركيني لترافقين زوجك في محنته . انك سعيدة بهذا القرار ، لأن الزوجة لها أن تضحي من أجل زوجها بكل غال وثمين وتصاحبه في كل حين وآن،

مهما واجهت من الصعوبات ، ومهما كانت التضحيات لكي توفر له وسائل الراحة وتزيل عنه الغم والكرب ثم تقترب من ابنها راما وتسس جبينه بيديها وتودعه وتدعو له لتوقه الآلهة في سفره ويسددوا له خطاه ويباركوه ، وينقذوه من الآلام والأخطار .

فلما حل موعد الرحيل جاءت العربية لتركب فيها «سيتا» و «راما» و «لشمن» بعد أن جهزوا جهازا كبيرا لهذا السفر بما يحتاجون من الأسلحة والأغذية والملابس وما الى ذلك . وحضر آلاف من أبناء الشعب الذين كانوا يكونون لراما احتراماً بالغاً وحباً فائقاً ليودعوه . كان المنظر قبل مغادرة القصر مثيراً للغاية . فقد تعالت الصرخات من كل جانب وانحدرت الدموع من عيون الناس . وكان كل واحد يقف مكانه في خشوع وبكاء . ثم حضرت الملكات باقيات صارخات وجاء الملك دساراتا وهو ينفجر بكاء . وما ان وقعت عيناه على راما حتى وقع مغشياً عليه . فأمر راما سائق العربية في أن يسرع بالرحيل لأنه لا يملك القدرة على رؤية هذا المشهد المثير المروع ، ولا يقدر على مشاهدة والده ولا أمه ولا شعبه . وهم على ذلك الوضع فسارت العربية بسرعة تاركة وراءها حياة القصور والجنات والأنهار الى غابات لراحة فيها ولا طمأنينة ولا سكون .. وبعد سفر مرهق طويل ولمدة ستة أيام وسط الغابات ألفت هذه القافلة عصا الترحال في موضع من الغابة وتحت ظلال شجرة باحثة عن مسكن مريح لمدة يسيرة من الزمن تسترجع فيه أنفاسها وتستجمع قواها ثم تواصل رحلتها .

صور الشاعر هذه الرحلة الشاقة تصويراً صادقاً بحيث تمثل أمامنا جميع الصور للغابات والأشجار والطيور والوحوش وكأننا نشاهدها الآن ولا نجد ثمة فرقا بينها رغم مرور آلاف السنين على هذه الصور الممتعة ، لأن طبيعة البلاد الفتانة

وجمالها الساحر لم تطرأ عليهما تغيير شامل . فقد وصلوا في اليوم السادس الى جبل صغير يسمى « شتراكوتا » بين نهري « الجنجا » و « الجننا » بقرب مدينة «اله آباد» والتي اتخذها الهندوس فيما بعد مكاناً مقدساً لهم . ويقال : ان هؤلاء قد التقوا هناك بشاعر شهير هو « المقدس والميكي » الذي ألف ملحمة « الرامايانا » كما أسبقنا القول (١) .

وهناك في أيودها لم ينس « وديساراتا » «راما» لحظة واحدة بل ظل يبكي عليه ويتحرق شوقاً لرؤياه ويذكره . وكلما مضت الأيام كانت ذكرى راما تزداد شدة وعنفا حتى مات دساراتا بهذه الذكريات الحزينة ومن جراء ذلك .

خلال هذه الأحداث كلها لم يعرف « بهارت » الذي أرادت له أمه تولية العرش بدلا من أخيه «راما» شيئا مما حدث ، لأنه كان في مهمة عسكرية في بلاد نائية . فلما عاد الى أيودها وجد فيها أحداثاً وتطورات لم يتصورها . فقد توفي والده «دساراتا» ونفى أخوه الى الغابات . فدهش بما حدث ، ورفض الجلوس على العرش كما أرادت له أمه وخرج للبحث عن أخيه في الغابات . وبعد أيام حافلة بالتعب والارهاق وسط الغابات لاح له عن كعب دير لراهب من الرهبان شيد بالأوراق والأغصان على صورة كوخ صغير . فظن أن الراهب الذي فيه سوف يدلّه على أخويه وسيتا . وكان هذا الدير في الحقيقة بيت سيتا الذي كان يحرسه «لشمن» بسيفه وقوسه حتى لا يصيبها مكروه ، وكان أخوه راما يخرج ويحجى . فدخل بهارت الدير فوجده بيت راما فانكب على قدمي أخيه يقبلهما في حب وحنان لآحد لهما ، وطلب منه العفو وألح عليه في العودة الى البلاد وتولية العرش . فقام

أحذية راما ليضعها على العرش ويحكم أيودها
بالياباة عنه . .

لقد بدأت الآن مرحلة جديدة في حياة راما .
لأنه قرر مغادرة المناطق الشمالية من الغابات
حيث يتردد عليه أهله ، وشد الرحال الى الجنوب .
فألقي عصا الترحال في غابة مظلمة بقرب نهر
« جود أوارى » الذى يقع الآن على نحو مائة ميل
تقريبا من مدينة بساي . وقد رحب بهم هناك
راهب كبير وهو « اجاستيا » وأعد لهم مسكنا
بقرب مسكنه . ويذكر أن هذا أول وفد للآريين في
جنوب الهند ، إذ أن هذه المنطقة كانت غاصة
بالدراوديين - السكان الأصليين - ولم يتعرف
هؤلاء حتى الآن على الديانة الآرية وتعاليمها .
ولعل القدر قد شاء أن تكون محنة راما ورفقائه
أول نافذة لتسرب الفكر الآرى الى جنوب
الهند .

وفي يوم ما من الأيام صادف راما فى هذه
الغابة المخيفة امرأة جميلة رآها واقفة تنظر اليه فى
دهشة وتعجب من جماله وشبابه . ثم تنع فى حبه
من النظرة الأولى ، فتتقدم اليه ثم تسأله عن اسمه
وبلده . فيحكى لها قصته . وهى بدورها تحكى
له قصتها وتقول : انها تسمى « سرايا - ناكها »
وهى ملكة البلاد ، وأخوها « راوون » ملك سيلان
وهى انسانة غريبة تستطيع أن تتخذ عدة أشكال .
ثم تعرب عن اعجابها الشديد به وحبها المتفانى له
وتعرض عليه الزواج ليعيش معها حياة سعيدة
فى وسط الغابات ثم تدم أمامه « سينا » زوجته
المخلصة وتطعنها فى جمالها وكذلك تطعن لشسن
وتقول : انه ولد صغير لا يفهم ولا يعقل . ولا يتحمل
راما هذه التهم ولا تلك الطعنات الموجهة فى زوجته
وأخيه فيقول لها بكل هدوء وبكل صراحة : انه
متزوج من سينا ، وهى زوجة مخلصة الى أقصى حد

راما يعانقه ويقبله ويسأله فى لهفة عن أحوال أبيه
وأمه وأم لشنم وأم بهارت وشعب أيودها وكبار
رجال السياسة والوزراء . فأخبره بهارت بأن
دساراتا قد مات متأثرا بذكره والبكاء عليه . وأما
أمه « كايكيا » فهى أيضا تلوم نفسها على ما فعلت
وتقضى أيامها فى بكاء وقلق وندم لأن أنانيتها هى
التي قضت على حياة دساراتا وجلبت المأساة الكبرى
للبلاد كلها . ثم أخبره أن الشعب هو الآخر يذكره
ولا ينساه ، كما أن رجال السياسة يذكرونه
باستمرار وينتظرون قدومه فنظر اليه . فاذا أمه
الملكة « كوساليا » التي رافقته للبحث عن راما
قامت بين يديه . وتحركت عواطفها حينما رآته فى
ملابس خشنة مصنوعة من الأوراق والأغصان
كما رأت كذلك فى نفس هذا المنظر « لشنم » أخاه
الوفى وسينا زوجته المخلصة . ولكن راما أبى العودة
الى أيودها قبل مضى أربع عشرة كما قطع والده
على نفسه الوعد لزوجه « كايكيا » وذلك ايفاء
له ، لأنه تعهد بذلك أمام الآلهة ، وهو الآن فى
السماء بين يديها . وحينئذ يقول « جابالى »
الفيلسوف الهندى آنذاك الذى كان يشك فى
الآلهة وفى الآخرة : « كان عليه أن لا يترك عرشه
بسبب الايمان بالأوهام ، لأنه لا يعرف على وجه
اليقين أن والده يعيش الآن بين الآلهة فى السماء
أم لا ؟ ولكن راما يعلن ايمانه بالآلهة وبالآخرة
بحماس واندفاع منقطعى النظير ويصر على توفية
ماقطع والده على نفسه من التعاهد . ثم ينصح
راما أخاه « بهارت » بنصائح غالية لرعاية أهله
وشعبه وتوفير وسائل الراحة والرفاهية للناس
وبذل كل الجهود فى سبيل سعادتهم وطمانينتهم ، ثم
يودع بهارت ومن معه كلا من « راما ولشنم
وسينا » ليستكملوا مدتهم فى الغابات بين البكاء
والدموع ، ويحمل بهارت معه - عند عودته -

يمكن ، ولذلك لا يمكن له الزواج منها . أما لشمن فهو أعزب وفي ريعان شبابه وأنه في ميسس الحاجة الى الزواج والى اتخاذ رقيقة لحياته . وهو مستعد لأن يزوجها منه . فتعرب عن موافقتها على ذلك ولكن «لشمن» يحتقرها ويقول لها : انى خادم راما فهل ترضى بالزواج من خادم؟ فتشور غضبا من هذا الكلام متألة وتهدد بالانتقام من الجميع بسبب هذه الالهانة التى وجهت اليها .

وذات يوم رأت «سيتا» غزالا جميل المنظر يتحلى بأنواع الحلى، ويتزين بأفخر أنواع الزينة مارا أمام بيتها . فنادت لشمن وأمرته باصطياد هذا الغزال والاتيان به اليها . ولكن لشمن منها من اصطياد مثل هذا الحيوان، لأنه فيه خطرا عليها اذ لعله انسان اتخذ هذا الشكل لخداعها . فلم ترض سيتا بهذا العذر وطلبت من راما مطاردة الغزال واصطيادها . فأسرع راما وراء الغزال فاذا بسيتا تسمع صرخات راما . فتذهب الى لشمن وتلح عليه فى الذهاب لاتخاذ راما ولكنه يرفض مغادرتها ، لأنه على يقين من أن راما لن يسه أذى اذ هو بطل شجاع لا يقدر أحد على ايدائه ، وأن راما قد أمره بحراستها والبقاء بجانبها ، وهذا الغزال وتلك الصرخات ماهى الا أشباح للأرواح الخبيثة التى تهوم على وجهها لتنشر الشقاء على الأبرياء فى الغابة وهنا تملىء «سيتا» غضبا على لشمن فتقول له : انك تعاملنى بالمكر والخداع وتراودك نفسك فى أن يموت راما وتتخذنى زوجة لك . وهذا مستحيل . انى زوجة مخلصه له ، وحينئذ ينفجر لشمن بكاء ويقول لها : انه لا يزال يعتبرها الهة كما يعتبر أخاه الها كذلك ، ومن أعز أمانيه خدمتهما وتوفير وسائل الراحة لهما ، ولكنها تشك فى كلامه فيستعد للذهاب لنجدة راما اذا كان هو فعلا يستنجد به ، فيودعها ويتركها فى حفظ الآلهة ويخرج للبحث عن راما .

مداليل ظلاله على الغابة . فانتبهز «راون» ملك سيلان هذه الفرصة للانتقام من أجل أخته التى أهانها «لشمن» ، ورفض الزواج منها . فجاء اليها على صورة راهب . ولما رآها دهش لجمالها ووقع فى حبها من النظرة الأولى فمدحها وسألها عن اسمها ونسبها . فظنته سيتا راهبا مقدسا لا يكتفم النوايا الخبيثة . فحكى له قصتها وغربتها فى هذه الغابة ثم سألته عن بلده ومدة اقامته فى هذه الغابة وعبادته كراهب مقدس . فقال لها : انه ليس براهب بل هو ملك سيلان وملك الغابات . ثم أعرب عن حبه الشديد لها وعرض عليها الزواج منه على أن تملك سيلان وتحكمها كما تشاء . فلما سمعت سيتا هذا الكلام أمطرتة بوابل من الغضب واجابته معترزة بنفسها وناظرة اليه باحتقار ، انى زوجة مخلصه لراما البطل الشجاع ، والانسان المثالى ، والرجل المقدس كالألهة : ثم حذرته من الاقتراب منها والمساس بها ولكنه أمسكها وحملها على عاتقه ثم أركبها عربته وفر بها الى بلاده، وكانت «سيتا» تصرخ وتولول طوال الطريق وتنادى على راما بين اللحظة والأخرى لاتقاذها ولكن عبثا كانت تناديه وتصرخ عليه ، لأنها اخترقت مجال هذه الغابة واقتربت من جزيرة سيلان عابرة البحار المحيطة بها .

بذل كل من راما ولشمن المستحيل فى الحث عن «سيتا» فى الغابات والأشجار والأنهار حتى وصلا أخيرا الى جبال «ماليا» حيث لقيها «سوجريفا» ملك بلاد «فاناس» . وكان يصحبه قائده وساعده الأيمن «حانومان» (Hanuman) الذى استولى أخوه على عرشه وعلى زوجته ، وطرده من بلاده ليقيم على وجهه فى الغابات والجبال .

استقبل «سوجريفا» كلا من راما ولشمن استقبالا حارا وتحركت عواطفه . حينما سمع قصة راما كلها من أول نفيه من أيودها الى خطف راون

لزوجته المخلصة . ثم اتفق كلاهما على مساعدة الآخر . لقد أصر «سوجريفا» على مساعدة رامبا واعدة سينا اليه كما أقسم رامبا على مساعدة سوجريفا واعدة عرشه وزوجته اليه .

وهنا صور الشاعر الحوادث التي وقعت بصور غربية لانكاد نصدقها في ضوء الحقائق التاريخية فقد عرض «حانومان» في صورة قرد وكل من في بلاده في سيلان يزاوون السحرو والشعوذة . وكذلك لانكاد نصدق عرضه للتقاليد والماراسم والآلهة في منطقة الجنوب على نفس الصورة الآرية ، لأن هذه المنطقة ظلت بعيدة كل البعد عن أفكار الآريين ونزعاتهم وتقاليدهم ومن المؤسف أن الشاعر قد فشل في عرضه شئون هذه المنطقة عرضا صحيحا دقيقا أمينا من ناحية الأفكار والتقاليد ولعله لحماسته في نزعة الآرية حاول اسباغها بالصبغة الآرية المحضة والبعد عن الحقائق التاريخية .

وطبقا لهذا التعاهد بينهما ذهب «سوجريفا» الى أخيه وحاربه وساعده رامبا في هذه المهمة حتى ككل سعى سوجريفا بالنجاح وهزم أخاه واستعاد عرشه .

ثم يعد سوجريفا العدة مع رامبا ولشمن لشن الحرب على «راون» لانقاذ سينا من قبضته الظالمه . فيرسل عشرة آلاف من رجاله الأبطال الى هذه المهمة ليبحثوا أولا عن مكان راون في الغابات والجبال والأوغال شرقا وغربا وشمالا وجنوبا حتى يطلعوا على مكانه وأساراه للزحف اليه بعدئذ .

فيتوغل هؤلاء الأبطال في الغابات والجبال والأدغال الى جزيرة سيلان حيث يرى «حانومان» - قائد الجيش - «سينا» حزينه كئيبة باكية تحت حراسة شديدة . وهنا وقف «حانومان» وقص للناس قصة رامبا كلها بصوت عال مدو حتى استولت

على الناس الدهشة والحيرة لهذه الجرأة ساعة الاستماع الى هذه القصة وحتى أن سينا التي سمعتها دهشت هي الأخرى بها ولم تصدق أذناها كل ما سمعت من «حانومان» وظنت أنها تحلم أو تتخيل ولكن حانومان دنا منها وأعطاهها علامة يؤكد لها أنها من زوجها رامبا ، وأن رامبا في طريقه الى الزحف نحو سيلان لانقاذها . وحينئذ تطير سينا فرحا وسرورا ويشرق وجهها نورا وضياء ، وتبتسم شفتاها كما تنفتح البراعم ويعود لهما لونهما الباهر فيعود اليها جمالها واشراقها ، ثم تقبل على حانومان وتساله عن رامبا وصحته وعيشه بعد خطفها ، ثم عن لشمن وعن أيودھيا ، فيخبرها بما عنده من أخبار ويطننها على أن جيشا جرارا في طريقه الى محاربه «راون» في عقر داره ، ثم يستأذنها في العودة الى رامبا بعد أن يأخذ منها تذكارا يؤكد سلامتها وشوقها ولهفتها الى رامبا .

وقد علم «راون» كيف تمكن حانومان من التوغل في البحار والأنهار والوصول الى سيلان ومقابلة سينا في السجن واحراق جزء كبير من سيلان في هذه المغامرة . فاستدعى وزراءه ومستشاريه ليعقد مجلسا للتشاور معهم حول موضوع حانومان وأخباره ، وعن استعداد رامبا للزحف نحو سيلان، ومحاربة راون لانقاذ سينا . فأشار عليه معظمهم بالصمود أمام رامبا ومحاربه وتوجيه الهزيمة الى جيشه ، الا أن بعض المخلصين له أشاروا عليه بتسليم سينا الى رامبا ومسالته ، ولكنه رفض رأيهم متمسكا برأى الأغلبية . وكان من بين هؤلاء المخلصين «بيشان» «وأخوراون» نفسه وهو «كومباكارانا» فاضطر «بيشان» بعد رفض رأيه الى مغادرة سيلان والانضمام الى صفوف رامبا وبهذا أطلع رامبا على أسرار بالغة الخطورة فيما يتعلق بالحرب مع رواون .

ثم استقبل راما « سينا » ولكنه لم يقربها خوفا من الاشاعات التي أثيرت حول علاقتها براون وذلك بسبب اقامتها في قصره وسيطرته عليها مدة غير يسيرة . وقد أدركت سينا هذه الحقيقة ولذلك طلبت الى لشمن اعداد نار حامية لتلقى فيها نفسها حتى تثبت طهارتها وغفتها . فأعدت النار وألقت سينا نفسها فيها ولكن « اله النار » حفظها من كل سوء وخرجت بريئة ظاهرة من النار . فتوجه اليها راما وعانقها . ثم أمر باعداد جهاز السفر الى أيودهايا اذ انقضت الأربع عشرة سنة في الغابات وحان بذلك الرحيل الى بلاده . وقبل مغادرته سيلان سلم سيلان التي فتحها الى « سوجريشا » الذي ساعده في هذه المهمة لأنه وعده بذلك أثناء اقامتهما في الغابة أيام المحنة .

وقد أعدت العدة للرحيل وخرجت القافلة الى أيودهايا مرة بالغايات والأنهار التي عاش فيها راما أيام محنته . ولما وصلت أبناء قدومه الى أيودهايا زينت البلاد بأجمل الزينات ، وأقيمت الحفلات لاستقبال العائدين من الأبطال . ولما دخل راما عاصمته تدفقت عليه الجماهير من كل جانب ترحب به ويمن معه ، وتهنئ باسمه ، وتقدم له تحياتها وتهانيتها . فقدمه بهازت الى العرش وأخذ أحديته . ثم قدم عليه الناس يهنئونه ويباركون كفاحه ومن بينهم أمهاته وأخوته جميعا .

انتشرت الاشاعات مرة أخرى حول سينا واقامتها في سيلان تحت سيطرة راون . فأمرها راما بمغادرة القصر الى الغابة والاقامة فيها الى أن تعرض مرة أخرى ما يثبت طهارتها وغفتها . فخرجت من قصرها الى الغابة ولجأت الى الراهب « والميكي » ومعها ولداهما اللذان رباها الراهب تربية رهبانية وفي هذه الغابة ماتت سينا قبل أن يتم بينها وبين راما لقاء آخر .

وبعد أن تم الاستعداد زحف راما الى سيلان يصحبه جيش جرار لم يسبق له مثيل ، واشترك في هذه المعارك أعظم القواد والأبطال ومن بينهم أخوه « لشمن » البطل . ولما وصلوا الى سيلان أعلنوا الحرب على راون لاستعادة سينا . وقدواجه راون القوة بالقوة ودارت بين الفريقين معارك دامية تسقط فيها أعظم القواد والأبطال لراون حين هجم كل منهما بجيشه بهجمات عنيفة موقعة على جيش الآخرين ، فقد هجم أخو راون ثلاث مرات على جيش راما وكذلك فعل « اندراجت » ابن راون .

سجلت هذه المعارك مشاهد رائعة لايزال يردها أبناء الهند كملحمة مقدسة . وهذه المعارك وحدها قد ترجمت الى عدة لغات ومن بينها اللغة الانجليزية بسبب وصفها الرائع للمعارك والمشاهد العظيمة للحرب المقدسة . لقد هجم راون مرتين على لشمن وهزمه في كل مرة ولكن لشمن لم يقع في يده . أما راما فقد حارب كبطل من الأبطال وهزم في كل مرة كل من قابله ولم يذق طعم الهزيمة مرة من المرات طوال المعارك .

كان ابن راون ساحرا كبيرا . وقد استعرض الألعاب السحرية في هذه المعارك واختفى عن عيون راما وأخيه لشمن وهزمها مرات عديدة ؛ ولكنه لم يستمر في سحره مدة طويلة بل سرعان ما قتله لشمن . وكذلك قتل راون بسيف راما أخيرا ، وبقتله انتهت المعارك وانتصر راما .

وتصف هذه الملحمة أن الآلهة كلهم كانوا مع راما في هذه الحرب يساعدهونه ويشدون أزره ويشجعونه . ولذلك انتصر على راون انشيري . ثم أمر راما باحراق جثة راون . فوضعت أكوام من الخشب والصندل والزيت والروائح عليها ، وأشعلت النيران فيها حتى تحولت جثته الى رماد .

حكم راما أيودها لمدة طويلة من الزمان. وعاش الشعب في حكمه عيشة راضية طيبة تسودها الطمأنينة والرفاهية والأمن والسلام . ولم يسهم سوء طوال أيامه في الحكم . وارتفعت قيمهم المعنوية بامثالهم أمره لأنهم اعتقدوه انسانا مثاليا فحذوا حذوه ذراعا بذراع وشبرا بشبر في الخير والشر ، ثم صيروه شخصية أسطورية والهـا من الآلهة .

واليكم مشهد من أصل « الراما يانا » كنموذج لأسلوب الراما يانا ومنهجه وعرضه . وهذا المشهد في الحقيقة مشوق ومثير يصور حياة راما في الغابة وحضور أخيه « بهارت » اليه ليحمله على العودة الى البلاد . ومن الجدير بالذكر أن ملحمة « الراما يانا » تتكون من نوعين من المقاطع : المقطع الأول يسمى « شاباي » (Chaupai) بالسنسكريتية وهو يتكون من ثمانية أبيات حيث ينتهي الى ختام حديث أو فكرة ثم يليه « دوها » (Doha) وهو النوع الثاني - الذي يتكون من بيتين كتكلمة لشاباي .

شاباي (١) ٢٤٠

قام بهارت بين يدي أخيه «راما» وأخيه الآخر ومع صديق له ، ثم وقف صامتا احتراما ، وقلبه خال من كل تفكير يشوبه من فرح أو حزن ، كأنه في عبادة . ثم قال لأخيه : اغفر لي ياسيدي واعف عني ثم وقع على قدميه كقطعة هامدة من الخشب .

وقد شعر «لشن» - المسكين - بالذي يقصده بهارت وخيل اليه أنه في عبادة الآن . ولا يمكنه أن يقترب منه أو يعانقه . فقد أصبح في حيرة شديدة بين شيئين يشده كل منهما الى جانبه : الأول أنه

(١) قد اخترنا هذا الفصل من أصل الراما يانا من ترجمة الباحث الهندي الشهير « تولسيداس » (Tulsidas) من الجزء الثاني ص ٧٣٢-٧٣٥ .

ينبغي له أن يقدم خدماته ويؤدي واجباته نحو أخيه راما . والثاني أنه يجب أخاه بهارت أيضا . وهذا الحب يشده هو الآخر اليه شدا عنيقا . فأيهما يختار؟ لقد أصبح الآن كطفل يلعب بطيارة ويشدها الى جانبه لتقويم ميزانها . وأخيرا ركع بين يدي راما وقال له : هاهو ذا بهارت جاء اليك ليحيئك . فاستفاق راما من غيبوته ، وحطم سكوته وقفز الى جانب بهارت راميا كل ما كان في يده من قوس ورمح وجعبة وعباءة .

دوها

هذا الرجل العطوف الرحيم قد وضع يده على قلب أخيه « بهارت » بعد أن فاض قلبه ولم يتمالك عواطفه فعانقه معانقة حارة . وهذا المشهد المثير قد حرك قلوب الناس جميعا .

شاباي ٢٤١

لا يمكن لأحد من الشعراء مهما بلغ أمره أن يصف أو يعبر عن هذا الحب المتفاني ، ولا ذلك اللقاء الحار لأنهما فوق التصور وفوق الأسباب وفوق التفكير وفوق ما يدور بخلد انسان .

وأنا الشاعر لا أستطيع أن أعبر عن مدى جهما بسبب عجزى كائنسان ضعيف . ان الشاعر يبذل جهده ولكنه لا يجد لمثل هذا الموقف تشبيها كاملا وكل ما يستطيعه أن يأتي بهذه الكلمات أو تلك التعبيرات لوصف ما يدور في قلبه وصفا صادقا كما أن الراقصة تعرض رقصتها في نطاق محدود لها لاتخرج عنه . والحقيقة أن حب هؤلاء الاخوة كفيض لانهاية له وكبحر لاحدود له . ولا يمكن كشف غوامضه حتى لأي كاهن أو ساحر .

ولأجل ذلك لا يمتلك عقلي ما يصور به واللساني ما يعبر به تعبيرا صادقا ومثلي كمثل موسيقار يعجز عن ايجاد نغمات جميلة بوتر من الحشيش . حينما التقى كل من راما وبهارت تساقطت

بجوارها . فأعرب كل منهما عن تقديره وشوقه
مرة أخرى . فدعت لهما سينا من أعماق قلبها أذ
غمرتها المحبة والعطف نحوها بغير حدود حتى
أصبحت لا تملك الكلمات التي تعبر بها عما يختلج
فى نفسها نحوها . فلما رأى بهارت محبة سينا
وشوقها له ذهب عنه الروع وعاد له شعوره ووعيه
فاطمأن قلبه وهدأ باله واستراح ضميره .

ثم ساد المكان الهدوء والصمت الرهيب ، ولم
ينطق أحد بكلمة بل ظل الجمع ساكنا صامتا
لأن قلوبهم قد غمرتها الفرحة والبهجة والسرور
وأصبحوا كأنهم نسوا أنفسهم . وفى هذه اللحظة
حطم الملاح سكوتهم اذ قدم بين أيديهم طلبه
بخضوع وأدب موجهها كلامه الى راما .

دوها

يا سيدى ! قد حضرت اليك الملكة - أمك
وقائد الجيش والوزير والخدم وجماهير شعب
المدينة . وأيضا جاءك الراهب الكبير « واتست »
بعد أن عاشوا جميعا فى قلق واضطراب وحزن
على غيابك زمنا طويلا وهم يطلبون الآن عفوك
وكرمك .

الآلهة اضطرابا وارتعشت خشية ورهبة ، ولكن
سيدهم أيقظهم من سكرتهم الحائرة فقاموا
يسطرون الأزهار والورود على أولئك الاخوة
ويمجدونهم ويقرظونهم .

دوها

رحب راما بـ « شاتروجانا » - شقيق
بهارات - ثم بالملاح كما رحب « لشمن » بدوره
بأخيه بهارت مبديا له حبه وسروره .

شبابى ٢٤٢

ورحب « لشمن » بشاتروجانا بكلمات رقيقة
صادقة مخلصة ، ثم رحب بالملاح بنفس الطريقة .
ثم سلم الاخوة القادمون على كل راهب من
الرهبان الموجودين . فدعا لهم الرهبان بالتوفيق
والسداد . ثم غمرهم السرور وعنتهم الفرحة
بدون حدود . وأخيرا اتجه « بهارت » مع أخيه
الى سينا وهما فى غاية من الشوق والحنان وركعا
أمامها حتى مس جبينها تراب قدميها وأعربا لها
عن تقديرهما وشوقهما وطلب بهارت منها العفو .
فرفعت ستيا جبينها من التراب وأجلستهما

فهرس المجلد الرابع

من:

تراث الإنسانية

ويشمل:

- ١ - فهرست الكتب
- ٢ - فهرست المؤلفين
- ٣ - فهرست بأسماء الباحثين

الكتب

رقم الصفحة		رقم الصفحة	
٦٠١ - ٥٩٣	التفيرات او فلسفة الين واليانج	٣٧٣ - ٣٥٤	احاديث الاثنين سانت بيث
١٤٩ - ١٣٣	التمهيد لعلم النفس الاجتماعى وليم مكدوجال	٣٥ - ٤١	احاديث خيالية سافيدج لاندور
٨٠٨ - ٧٨٥	ثلاث مسرحيات لوى دى فيجا	٢٣٦ - ٢٢٥	الادارة العلمية فردريك تايلور
٩٢٧ - ٩١٦	جارجتوا وباتناجرويل فرانسوا رابليه	٢١ - ٣	أدب الكاتب ابن قتيبة
٦٣٣ - ٦١٧	الجماعة والمجتمع فرديناند تونيز	٨٤٨ - ٨٢٥	أدولف بنيامين كونستان
٧٠ - ٥٤	حول تعليم الخطيب كوينتليان	٢٠٣ - ١٩٠	آراء جيروم كواينار اناتول فرانس
٦١٦ - ٦٠٢	الخراج أبو يوسف	٦٨٠ - ٦٦٨	الأشعار الفناية ساقو
٨٩٣ - ٨٤٩	الخطط التوفيقية على مبارك	٣٨٦ - ٣٧٤	أعز ما يطلب محمد بن تومرت
٢٥٢ - ٢٣٧	الديكاميرون جيو فاني بوكاشيو	١٧٨ - ١٦٥	أقوال لاوتزو لاوتزو
٣٣٢ - ٣٢٢	رحلات جليفر سويفت	٤٢٠ - ٤٠٥	البرنسيبيا اسحق نيوتن
٧٦٠ - ٧٤٣	رحلات حول العالم جيمس كوك	٥٨٠ - ٤٩٥	بعثة المتحدية للكشف العلمى للمحيطات ويكيل طومسون
١١٧ - ١٠٥	الرد على المنطقين ابن تيمية	٩١٥ - ٨٩٤	تأثير القوى البحرية على التاريخ ألفريد ميهان
٧٢٤ - ٧٠٩	رسالة منطقية فلسفية لودلودفيج فتجنشتين	٨٢٤ - ٨٠٩	تاريخ آداب اللغة العربية جورجى زيدان
٧٨٤ - ٧٦١	الرعاية لحقوق الله الحارث المحاسبى	١٣٢ - ١١٨	تاريخ جهانكشاي عطا ملك جوينى
٨٤ - ٧١	رينيه شاتوبريان	٤٠٤ - ٣٨٧	تأملات مرقس أورليوس
- ٩٢٨	سيرة الأميرة ذات الهمة	٢٢٤ - ٢٠٤	تحليل الجمال هوجارث
٤٣٤ - ٤٢١	سيرة عنتره	٥٨١ - ٥٦٤	تريستان وايزولد جوتفريد فون شتراسبورج

رقم الصفحة		رقم الصفحة	الشاهنامه
٤٥٠ - ٤٣٥	مبحث فى الفهم الانسانى چون لوك	٥٣٠ - ٥٠٩	الفردوسى صورة سيدة
٧٠٨ - ٦٩٢	مدام بوقارى چوستاف فلوير	٦٦٧ - ٦٣٤	هنرى جيمس
٢٦٩ - ٢٥٣	مروج الذهب المسعودى	٥٦٣ - ٥٥٣	عجائب الآثار فى التراجم والأخبار عبد الرحمن الجبرتى
٣٠٨ - ٢٨٨	معيار الاختيار فى ذكر المعاهد والديار لسان الدين بن الخطيب	٤٩٤ - ٤٦٧	عن الحرية چون ستوارت مل
٥٩٢ - ٥٨٢	مفاتيح العلوم الخوارزمى	٣٢١ - ٣٠٩	العواهل توماس هاردى
١٦٤ - ١٥٠	الملل والنحل الشهرستانى	٧٤٢ - ٧٢٥	فن الحب أوقيدىوس
٦٩١ - ٦٨١	النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة	١٠٤ - ٩٥	قصة الأسيرين بلاوتوس
٣٥١ - ٣٣٣	ابن تفرى بردى نهاية الأرب النويرى	٩٤ - ٨٥	الكشاف الزمخشرى
٤٠ - ٢٢	النيبلونجلىد	١٨٩ - ١٧٩	كلىة ودمنة ابن المقفع
٤٦٦ - ٤٥١	الوسيلة الأدبية الحسين بن أحمد المرصى	٥٥٢ - ٥٣١	اللاؤوكون جوتهولت لسنج

المؤلفون

رقم الصفحة	أوجين فرومتان	رقم الصفحة	ابن تغرى بردى
٢٨٧ - ٢٧٠	دومنيك (١٨٢٠ - ١٨٧٦ م)	٦٩١ - ٦٨١	النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة (٨١٣ - ٨٧٤ هـ) ...
٧٤٢ - ٧٢٥	أوفيدوس فن الحب (٤٣ ق م - ١٨ م)	١١٧ - ١٠٥	ابن تيمية الرد على المنطقيين (٦٦١ - ٧٢٨ هـ)
١٠٤ - ٩٥	بلاوتوس قصة الأسيرين (٢٥٤ - ٣٨٨٤ م)		ابن الخطيب = لسان الدين بن الخطيب
٨٤٨ - ٨٢٥	بثيامين كونستان أدولف (١٧٦٧ - ١٨٣٠ م) ...	٢١ - ٣	ابن قتيبة (٢١٣ - ٢٧٦ هـ) أدب الكاتب (٢١٣ - ٢٧٦ هـ)
	بوليوس افيدوس ناسو = افيدوس		ابن المقفع كليلة ودمنة (١٠٦ - ١٤٢ هـ)
	تقى الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحلیم بن تيمية الحراني = ابن تيمية		أبو الحسن السعوى = السعوى أبو عبد الله = الحارث المحاسبى أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف البلخى الخوارزمى = الخوارزمى أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد = الشهرستانى
٣٢١ - ٣٠٩	توماس هاردى العراهل (١٨٤٠ - ١٩٢٨ م)	١٨٩ - ١٧٩	أبو القاسم = الف دوسى أبو محمد = عبد الله بن مسلم الدينورى = ابن قتيبة
	تيتوس ماكيسوس بلاوتوس = بلاوتوس		أبو يوسف الخراج (١١٣ - ١٨٢ هـ) ...
	جوتفريدفون شتراسبورج تريستان وايزولد (عاش فى أواخر القرن ١٢ وأوائل القرن ١٣)	٦١٦ - ٦٠٢	أحمد عبد الوهاب بن محمد بن عبد الدائم الفرسى البكرى = النوبرى
٥٨١ - ٥٦٤	جوتتهولت أفرام لسنج = جوتتهولت لسنج		أسحق نيوتن البرنسييا (١٦٤٢ - ١٧٢٧)
٥٥٢ - ٥٣١	جوتتهولت لسنج اللاؤوكون (١٧٢٩ - ١٧٨١ م)		الفريد ميهان تأثير القوى البحرية على التاريخ (١٨٠٤ - ١٩١٤ م) ...
	چورجى زيدان تاريخ آداب اللغة العربية (١٨٦١ - ١٩١٤ م) ...	٤٢٠ - ٤٠٥	أناتول فرانس آراء جيروم كواينار (١٨٤٤ - ١٩٢٤) ...
٨٢٤ - ٨٠٩	چوستاف فلووير مدام بوفارى (١٨٢١ - ١٨٨٠ م)	٩١٥ - ٨٩٤	
٧٠٨ - ٦٩٢	چون ستيوارت مل عن الحرية (١٨٠٦ - ١٨٧٣)	٢٠٣ - ١٩٠	

رقم الصفحة	رقم الصفحة
عطا ملك جوينى = عطا ملك جوينى	جون لوك
تاريخ جهانكشاي (٦٢٣-٦٨١هـ) ١١٨ - ١٣٢	مبحث فى الفهم الانسانى
علاء الدين عطا ملك جوينى = عطا ملك جوينى	(١٦٣٢ - ١٧٠٤ م) ٤٣٥ - ٤٥٠
على بن الحسين بن على = المسعودى	جيمس كوك
على مبارك	رحلات حول العالم
الخطط التوفيقية (١٨٢٣)	(١٧٢٨ - ١٧٧٩ م) ٧٤٣ - ٧٦٠
او (١٨٢٤ - ١٨٩٣ م) ٨٤٩ - ٨٩٣	چيوفانى بوكاشيو
فرانسوا رابليه	الديكاميرون (١٢١٣ - ١٢٧٥ م) ٢٣٧ - ٢٥٢
جاجنتوا وباتاجرويل (١٤٩٤ -	الحارث بن أسد المحاسبى =
١٥٥٣ او ١٥٥٤ م) ٩١٦ - ٩٢٧	الحارث المحاسبى
فردريك تايلور	الحارث المحاسبى
الادارة العلمية (١٨٥٦-١٩١٥ م) ٢٢٥ - ٢٣٦	الرعاية لحقوق الله (العقد السابع
الفردوسى	من القرن الثانى الهجرى - ٢٤٣هـ) ٧٦١ - ٧٨٤
الشاهنامه (٣٢٠ او ٣٢٣ هـ) ٥٠٩ - ٥٢٠	الحسين بن أحمد المرصفى
فرديناند تونيز	الوسيلة الأدبية (١٨٩٠) ٤٥١ - ٤٤٦
الجماعة والمجتمع (م) ٦١٨ - ٦٣٣	الخوارزمى
لاوتزو	مفاتيح العلوم (٣٨٧ هـ) ٥٨٢ - ٥٩٢
أقوال لاوتزو	الزمخشرى
(ورد فى سجلات المؤلف	الكشاف (٤٦٧ - ٥٣٨ هـ) ٨٥ - ٩٤
انه عاش اكثر من ١٦٠ عاما ١٦٥ - ١٧٨	سافو
لسان الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن احمد	الأشعار الفنائية (٦١٠-٥٨٠ ق.م) ٦٦٨ - ٦٨٠
السلامانى = لسان الدين بن الخطيب	سافيدج لاندور
لسان الدين بن الخطيب	احاديث خيالية (١٧٧٥-١٨٦٥ م) ٤١ - ٥٣
معيار الاختيار فى ذكر المعاهد	سانت بيف
والديار (٧١٢ - ٧٧٦) ٢٨٨ - ٣٠٨	احاديث الاثنيين (١٨٠٤ - ١٨٦٩ م) ٣٥٤ - ٣٧٣
لوبى دى فيجا	سويقت
ثلاث مسرحيات (١٥٦٢-١٦٣٥ م) ٧٨٥ - ٨٠٨	رحلات چليفر (١٦٦٧ - ١٧٤٥ م) ٣٢٢ - ٣٣٢
لوبى فيلكس دى فيجا اى كاريو = لوبى دى فيجا	شانوبريان
لودفيج جوزيف يوهان = لودفيج فتجنشتين	رينيه (١٧٦٨ - ١٨٤٨ م) ... ٧١ - ٨٤
لودفيج فتجنشتين	شهاب الدين النورى = النورى
رسالة منطقية فلسفية	الشهرستانى
(١٨٨٩ - ١٩٥١ م) ٧٠٩ - ٧٢٤	الملل والنحل (٤٧٩ - ٥٤٨ هـ) ١٥٠ - ١٦٤
ماركوس فايوس كوينتليانوس	عبد الله بن المقفع = ابن المقفع
حول تعليم الخطيب (٣٥١ - ٣٦٨ م) ٥٤ - ٧٠	عبد الرحمن الجبرتى
محمد بن تومرت	عجائب الآثار فى التراجم والاخيار
أعز ما يطلب (٤٦٩ او ٤٣٧ او	(١٧٥٤ - ١٨٢٥ م) ٥٥٣ - ٥٦٣
٤٩٣ ٥٢٤ هـ) ٢٧ - ٣٨٦	
محمد بن عبد الله بن تومرت = محمد بن تومرت	

رقم الصفحة

وليم ماكدوجال

التمهيد لعلم النفس الاجتماعى

(١٨٧١ - ١٩٣٨ م) ١٣٣ - ١٤٩

وليم هوجارت

تحليل الجمال (١٦٩٧-١٧٦٤ م ٢٠٤ - ٢٢٤

ويكيل طومسون

بعثة التحدية للكشف العلمى

للمحيطات (١٨٣٠ - ١٨٨٢ م) ٤٩٥ - ٥٨٠

يعقوب بن ابراهيم = ابو يوسف

يوسف بن تغرى بردى = ابن تغرى بردى

يونانان سوبقت = سويقت

رقم الصفحة

مرقس أورليوس

تأملات (١٢١ - ١٨٠ م) ... ٣٨٧ - ٤٠٤

السعودى

مروج الذهب (٢٤٦ هـ ؛ ٢٥٣ - ٢٦٩

مهدي الموحدين = محمد بن تومرت

النورى

نهاية الارب (٦٧٧ - ٧٣٣ هـ) ٣٣٣ - ٣٥١

هنرى جيمس

صورة سيدة (١٨٤٣-١٩١٧ م) ٦٢٤ - ٦٦٧

الباحثون

رقم الصفحة		رقم الصفحة	
٥٩٢ - ٥٨٢	سعيد زايد مفاتيح العلوم	٣٥١ - ٣٣٣	ابراهيم الايبارى نهاية الارب ... النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة
٧٦٠ - ٧٤٣	سليم أنطون رحلات حول العالم	٦٩١ - ٦٨١	ابراهيم سكر حول تعليم الخطيب أشعار غنائية
٦٣٣ - ٦١٧	السيد محمد بدوى الجماعة والمجتمع	٧٠ - ٥٤	احمد حمدى محمود تحليل الجمال اللاووكون
٣٣٢ - ٣٢٢	صوفى عبد الله رحلات جليفو	٢٢٤ - ٢٠٤	احمد رشاد دومنيك ... ادولف ...
٧٨٤ - ٧٦١	عبد الحليم محمود الرعاية لحقوق الله	٢٧٨ - ٢٧٠	احمد رشيد الادارة العلمية
٤٣٤ - ٤٢١	عبد الحميد يونس سيرة عنتره	٨٤٨ - ٨٢٥	احمد سعيد الدمرداش البرنسييا
٨٩٣ - ٤٨٩	عبد العزيز الشناوى الخطط التوفيقية	٢٣٦ - ٢٢٥	احمد عبد الرحيم أبو زيد فن الحب
٧٢٤ - ٧٠٩	عزى اسلام رسالة منطقية فلسفية	٤٢٠ - ٤٠٥	احمد عبد الرحيم مصطفى عجائب الآثار فى التراجم والأخبار
٢٠٣ - ١٩٠	على أدهم آراء جيروم كواينار	٧٤٢ - ٧٢٥	احمد فؤاد الاهوانى الملل والنحل
٤٠٤ - ٣٨٧	على حسن الخربوطلى تأملات مرقس أورليوس	١٦٤ - ١٥٠	احمد محمود الساداتى تاريخ جهاتكشاي
٧٠٨ - ٦٩٢	على حسن الخربوطلى مدام بوفارى	١٣٢ - ١١٨	أمين الخولى الكشاف
٢٦٩ - ٢٥٣	على درويش مروج الذهب	٩٤ - ٨٥	انجيل بطرس سمعان صورة سيدة
٦١٦ - ٦٠٢	على سامى النشار الخراب	٦٦٧ - ٦٣٤	أنور عبد العليم بمئة المتحدية للكشف العلمى للمحيطات
٣٧٣ - ٣٥٤	عيسى محمود ناصر احاديث الاثنين	٥٨٠ - ٤٩٥	حسين فوزى النجار عن الحرية ٤٦٧ - ٤٩٤ تأثير القوى البحرية على التاريخ
١١٧ - ١٠٥	فؤاد شبل الرد على المنطقيين	٩١٥ - ٨٩٤	
١٨٩ - ١٧٩	فوزى شاهين كليله ودمنه		
١٧٨ - ١٦٥	الديكاميرون		
٦٠١ - ٥٩٣			
٢٥٢ - ٣٣٧			

رقم الصفحة

٨٠٨ - ٧٨٥	محمود على مكي
		ثلاث مسرحيات
		مصطفى ماهر
٤٠ - ٢٢	١ - النيبلونجنيد
٥٨١ - ٥٦٤	٢ - تريستان وايزولد
		منيرة حلمي
١٤٩ - ١٣٣	التمهيد لعلم النفس الاجتماعى
		نبيلة ابراهيم
	سيرة الأميرة ذات الهمة
٩٢٨ -		
		نظمى لوقا
٥٣ - ٤١	١ - أحاديث خيالية
٣٢١ - ٣٠٩	٢ - العواهل
		يحيى الحشباب
٥٣٠ - ٥٠٩	الشاهنامه
		يحيى هويدى
٣٨٦ - ٣٧٤	أعز ما يطلب

رقم الصفحة

٩٢٧ - ٩١٦	كوثر عبد السلام
		جارجنتوا وباناجرويل
		محمد خلف الله أحمد
٢١ - ٣	أدب الكاتب
		محمد سليم سالم
١٠٤ - ٩٥	قصة الأسيرين
		محمد عبد الفنى حسن
٤٦٦ - ٤٥١	الوسيلة الأدبية
٨٢٤ - ٨٠٩	تاريخ آداب اللغة العربية
		محمد غلاب
٨٤ - ٧١	رينيه
		محمد فتحى الشنيطى
٤٥٠ - ٤٣٥	مبحث فى الفهم الانسانى
		محمد كمال شبانه
		معيار الاختيار فى ذكر المعاهد
٣٠٨ - ٢٨٨	والديار